

منظر عام لآثار الفورم في مدينة جرش

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الاول من المجلد الثاني والثمانين

١ يناير سنة ١٩٣٣ — ٤ رمضان سنة ١٣٥١

رواية الاشعة الكونية

كيف كشف عنها — كيف تقاس قوتها — الاختلاف في اصلها علاقتها ببداية الكون ونهايته

ما هي الاشعة الكونية ؟ من اين تأتي ؟ هل في طيات امواجها اسرار الخلق ؟ هذه هي المسائل التي يحاول علماء الطبيعة الاجابة عنها بالتجربة والامتحان آناً وبالجمع بين التجربة والنظر الفلسفي آناً آخر . ومن رأي الدكتور جنصن الاستاذ بمعهد بارتُل" الاميركي للبحث العلمي، انهُ لا يعرف في تاريخ العلم مسألة ، اختلف العلماء في الاجابة عنها اختلافهم في الاشعة الكونية

***

من عهد قريب صعد العلماء الالمان هورلن Hoerlen وكنزل Kinzl وبورشرز Borchers الى قة جبل «هو الا كان» في سلسلة جبال الاندس وعلوها ٢٠ الف قدم فوق سطح البحر، وقضوا هناك ثمانية ايام كأنهم عقبان على صخرة شاهقة ، يقيسون قوة هذه الاشعة . وفي هذا السبيل نفسهِ قتل العالمان الاميركيان كارپ Carpe وكوڤن Koven في محاولتهما الصعود الى قنة جبل ماكنلي في الاسكا . أما الاستاذ كمطن الاميركي، رئيس بعثهما فقد رحل مسافة ٥٠ الف ميل بين خط العرض الجنوبي ٥٦ وخط العرض الشمالي ٦٨ مخترقاً في رحلتهِ خمس قارات ومجتازاً خط الاستواء اربع مرات ، حاملاً معهُ الآلة الخاصة التي بناها لدرس هذه الاشعة . وها هو الاستاذ هس الالماني يصعد الى قمم جبال الألب وزميله الاستاذ كولهرستر يبتني معملهُ في الجمد على جبل اليونغفرو بسويسرا، بغية النفوذ الى اسرار هذه الاشعة . ومكن

الاميركي يبعث آناً بلونات مجهزة بآلات مدوّنة الى مرتفعات عظيمة في الهواء ، ويصعـّـد آونةً اخرى في جبال بوليفيا اوكاليفورنيا او يرتاد الاصقاع القطبية لهذا الغرض. ويجاريه الاستاذ رجنر الالماني فيرسل في الجوّ بلونات آلية التدوين او يغرق آلة قياس الاشعة في مياه بحيرة كونستانس لمعرفة اثر الماء في حجبها . بل هذا هو الاستاذ پيكار يرتفع ببلونهِ مرتين الى علوّ ٥١٫٧٥٨ قدماً فالى ٥٣٫٦٧٢ قدماً فيضرب الرقم القياسي العالمي في التحليق الى اعلى ما بلغهُ الانسان، ولـكن هذا الفوز ليس الغرض الذي يرمي اليهِ في هذه المغامرة الجريئة بل غرضهُ قياس قوة الأشعة في الطبقة الطخرورية من الهواء Stratosphere

مضى هؤلاءِ العلماءِ وعشرات غيرهم في طريقهم نحو هدفهم ، غير عابئين بالقيظ ولا بالزمهرير ، بالسغب ولا باللغب ، بالحشرات ولا بالوحوش ، لان في نفوسهم روح الروّاد العظام . والعلم اذا دفع ابناءهُ في سبيل البحث عن اسرار الطبيعة نفث فيهم لهفة الباحث في قصر خرب عن كنز مدفونٍ

***

وتاريخ الأشعة الـكونية يرتدُّ الى اوائل هذا القرن. كانت عناصر الاورانيوم والثوريوم والراديوم والپولونيوم وغيرها من العناصر المشعة في ذلك العهد عجائب استرعت عناية الباحثين بما ينطلق منها من اشعة الفا وبيتا وغمَّا ، وبمقدرتها العجيبة على جعل الغازات قادرة على ايصال الـكهربائية . وبعد بحث قليل ثبت ان في صخور الارض مقادير كبيرة من العناصر المشعة ، وأن مياه بعض الينابيع مشعٌّ كذلك . ومن الصخور كانت تنطلق اشعة تمزق بعض ذرات الغازات التي يتركب منها الهواءُ فتجعلهُ موصلاً للـكهربائية لان غازات الهواءِ في حالتها الطبيعية موصل كهربائيّ رديء . واذاً كان من الطبيعي ان يعمد الباحثون الى قياس اثر هذه الاشعة في «تمزيق» ذرَّات الهواءِ . فأخذ ثيودور ولف (Wulff) الاب اليسوعي ادواته ، وصعد الى قمة برج ايفل بباريس ، فظهر لهُ ان هذا الفعل اضعف عند القمة منهُ على سطح الارض . وكان ذلك منتظراً لانهُ كلما بعدنا عن الصخور التي تطلق الاشعة ، يضعف فعلها

على ان الاستاذ ولف كان عالماً دقيق الحس قوي الملاحظة ، فاسترعى نظرهُ ، ان ضعف هذا الفعل في الهواءِ كان اقلّ مما يجب ان يكون. وقرأ العالم الطبيعي السويسري الاستاذ غوكل Gockel ما اسفر عنهُ بحث الأب اليسوعي فخطر لهُ ان يحلّق ببلونٍ لقياس فعل الاشعة المنطلقة من الصخور في الهواءِ على مرتفعات تفوق قمة برج ايفل . فصعد في سنتي ١٩١٠ و١٩١١ الى علو ١٣ الف قدم ، ونزل اشدّ حيرة مما صعد . ذلك ان فعل الاشعاع من الصخور ضعف اولاً ، ولـكنهُ اخذ يزداد بازدياد ارتفاعهِ

وعمد هس Hess العالم الالماني الى الحساب الدقيق فتبين له ان اشعة غمَّا وهي اقوى الاشعة المنطلقة من العناصر المشعة لا يمكن ان يظهر اثرها فوق بضع مائة متر فوق سطح

البحر لأن الهواء يمتصها . فاما ان تكون النتائج التي اسفرت عنها مباحث غوكل خاطئة ، او ان في الأمر سرًّا ، فاعادة تجربته للتثبت من صحة نتائجها امر ذو بال لا ندحة عنهُ . لذلك عمد هس الى البلونات التي تحمل ادوات آلية التدوين وأطلقها في الجوّ فارتفعت الى ١٦ الف قدم فوق سطح البحر ، فلما هبطت قرأ ما دوَّنتهُ الآلات فاذا هي تؤيّد نتائج غوكل كل التأييد. ولم يكتفِ بذلك بل حلّق بنفسه ، ثم اشترك مع زميلهِ الاستاذ كولهرستر ، فحلّقا الى علو ستة اميال فوق سطح البحر ، فكانت نتائج التجارب المختلفة مؤيدة بعضها بعضاً . واذاً فلا مندوحة عن القول بان هناك اشعة قادمة من خارج الارض تمزّق ذرات الهواء . وهذه الأشعة عظيمة الطاقة قوية النفوذ ، تفوق اشعة اكس نفسها واشعة غمَّا المنطلقة من الراديوم

***

وفي سنة ١٩٢٥ طلع الاستاذ ملكن الاميركي على الناس بنظرية جديدة وجَّهت انظار الخاصة والعامة الى الاشعة الكونية ، فصار الكلام على كل جديد فيها يجد لهُ متسعاً في الصحف جنباً الى جنب مع انباء السياسة والرياضة والاجرام

ذلك ان الاستاذ ملكن ، كان قبل ذلك استاذاً في جامعة شيكاغو وهناك كان يجتمع بالاستاذ مكملن (W. D.) فكانا يتحدثان في النظرية السائدة حينئذٍ في نهاية الكون ، وملخصها ان الطاقة التي في الكون آخذة في التحول من طاقة قصيرة الامواج قوية الفعل ، الى طاقة طويلة الامواج ضعيفة الفعل . وانهُ متى تم هذا التحول ، اصبحت الامواج الطويلة عاجزة عن ان تكون الباعث على ظاهرات الكون والحياة (راجع مقتطف مايو ١٩٣٢ ص ٥١٩ — ٥٢٣) وكان مكملن مقتنعاً بان الذرات تبنى من الالكترونات والبروتونات في الفضاء الذي بين النجوم (interstellar space) فاذا صح ذلك فالكون ليس مصيرهُ الى الفناء بتحول اشعاعهِ ، لان بناء الذرات يجهزنا ، بحسب الآراء الحديثة ، بقدر عظيم من الطاقة قصيرة الامواج قوية الفعل . ولعل الاشعة التي تحيّر هس وكولهرستر ، تؤيد ما يذهب اليهِ مكملن

وقضى ملكن بعد ذلك سنتين يبحث خلالهما في هذه الاشعة ويقيس قوتها ونفوذها للمواد ، فهو آناً يجرّب ذلك بالواح الرصاص ، وآناً بمياه البحيرات ، تارة في الجبال الصخرية في غرب اميركا الشمالية وتارةً اخرى على جبال الاندس ، واخرى على مقربة من القطب المغناطيسي الشمالي . فخرج من ذلك كلهِ بما يؤيد — في نظره — مذهب مكملن ، ولما اجمل مباحثهُ امام اكاديمية العلوم الاميركية قال : ان هذه الاشعة انباء تدل على تكون المادة في رحاب الفضاء . وفيها رأى ملكن دليلاً على ان « الخالق ما زال ماضياً في عمل الخلق »

***

المشهور ان الغازات في حالتها الطبيعية لا توصل الكهربائية كما توصلها الاسلاك المعدنية اي انهُ لا يسهل على الكهربائية اجتياز مقدار من الغاز كما يسهل عليها اجتياز قطعة من النحاس أو الرصاص

ولكن اذا صوّبت بعض الاشعة الى الغاز الذي لا يوصل الكهربائية اصبح موصلاً كهربائيًّا ضعيفاً . ومن هذه الاشعة الاشعة التي وراء البنفسجي ، والأشعة السينية (اشعة اكس او اشعة رنتجن) والاشعة السالبة (الالكترونات) والاشعة المنطلقة من العناصر المشعة . ويعلّل ذلك بان هذه الاشعة تفصل من ذرات الغاز بعض كهاربها (الكتروناتها) فيصبح الجزء الباقي من الذرّة وشحنتهُ الكهربائية شحنةً موجبة (كانت الشحنة الكهربائية الموجبة معادلةً للشحنة الكهربائية السالبة في الذرة فلما نقص كهرب من الذرة اصبحت شحنة الجزء الباقي من الذرّة موجبة) وهو يعرف بالأَيُن او الأَيُون Ion (قد يحسن صياغة فعل عربيّ أَيَّن للمتعدي و تأيَّن للازم في الدلالة على هذا المعنى الخاص) اما الكهارب المنفصلة فتصطدم بذرات كاملة متعادلة الشحنة الكهربائية وتلتصق ببعضها فتصبح الذرة التي التصق بها كهرب شارد ذات شحنة سالبة (لزيادة الكهرب ذي الشحنة السالبة) فهي «أيونٌ» كذلك وهذا يجعل الغاز موصلاً للكهربائية لشدة حركة الدقائق المكهربة التي فيهِ فهي لا تكاد تستقرُّ على حالٍ

ولدى البحث ثبت انهُ اذا ازيل من المنطقة التي تحيط بغاز من الغازات كلُّ مصدرٍ من مصادر الاشعة التي « تؤيّنهُ » ظل الغاز موصلاً ضعيفاً للكهربائية ، فيتولّد فيهِ في السنتمتر المكعّب «ايون » واحد او « ايونان « في الثانية . ولكن اذا نزل الوعاءُ المحتوي على هذا الغاز الى عمق مائة متر في بحيرة من الماءِ النقي من الشوائب (وهي التجارب التي قام بها هس في المانيا ومِلِكن واعوانهُ في اميركا) اصبح الغاز لا يوصل الكهربائية على الاطلاق ، اي انقطع تولُّد الايونات فيهِ . وعلى الضدّ من ذلك اذا رفع الوعاءُ المحتوي على الغاز الى علو تسعة آلاف قدم او عشرة آلاف قدم فوق سطح البحر زادت قوتهُ على ايصال الكهربائية اي زاد تولُّد « الايونات » فيهِ

على اساس هذه الحقائق العلمية بُنيت الآلات الدقيقة التي تقاس بها قوة الاشعة الكونية اي انها تحصي عدد الايونات التي تتولد في سنتمتر مكعب من غاز معيّن كلَّ ثانية . ثم يقابل ذلك بعدد الأيونات التي تولّدها أشعة معروفةٌ قوتها مثل اشعة اكس واشعة غمّا

***

قلنا ان العلماء حلقوا في الجوّ وتوقلوا قمم الجبال ودلُّوا آلاتهم في قيعان البحيرات العالية لادراك غرضهم . والسبب في ذلك كما قدمنا ان الراديوم وغيره من العناصر المشعة يطلق اشعة تؤيّن الغاز الذي في آلاتهم وهم يريدون ان يعرفوا أثر الاشعة الكونية من دون ان يختلط بهِ أثر اية اشعة اخرى

فاشعة الراديوم يحجبها لوح من الرصاص ثخانتهُ سنتمتران أو نحو ذلك . لذلك نقل مِلِكن معهُ ماوزنهُ ثلاثمائة رطل من الواح الرصاص وتوقّل جبل پيْك بكاليفورنيا لكي يحجب أثر الراديوم أولاً فاحاط آلتهُ بالواح ثخانتها ثلاثة سنتمترات حاسباً ان الاشعة الكونية وهي

اقوى من اشعة الراديوم لا بدَّ ان تخترق هذه الالواح فدلَّت التجارب انها تفعل ذلك . ثم أخذ يزيد ثخانة الرصاص الذي حول آلته ليعرف أي طبقة من الرصاص تحجب الاشعة الكونية

وقلنا ان كولهرستر ابتنى معملهُ في الجمد على جبل اليونغفرَو بسويسرا وسبب ذلك ان الجمد لم يختلط بمادة على سطح الارض فهو خلوٌ من الراديوم . ثم ان مِلِيكن دلَّى آلاتهِ في بحيرة ميورَ ليعرف اية طبقة من الماءِ تحجب هذه الاشعة الغريبة . فلماذا اختار بحيرة ميورَ في اميركا الشمالية وبحيرة مغويلا في اميركا الجنوبية والطريق الى كلٍّ منها وعر صعب المرتقى ؟ ذلك ان هذه البحيرات عالية جدًّا ، لا تصبُّ فيها مياهُ أنهارٍ جرت مسافات طويلة فوق سطح البحر فذابت فيها موادّ قد تحتوي على مركبات من العناصر المشعة ، وانما مصدر مائها هو الثلج النقي بعد ذوبانه . وأما هس الذي أغرق آلتهُ في بحيرة كونستانس فحسب حساباً في نتائجه لاثر العناصر المشعة . ونتائج هذه المباحث عجيبة . فالآلات التي دُلّيت في بحيرة كونستانس بسويسرا ظلت غازاتها تتأين تأيناً يسيراً لما كانت على ٧٧٥ قدماً تحت سطح الماءِ . أي أن فعل الاشعة الكونية يستطيع ان يخترق ما كثافتهُ ٧٧٥ قدماً من الماءِ . وهذا يعدلُ ٦ر٦٥ القدم من الرصاص مع ان نور الشمس تحجبهُ ورقة رقيقة واشعة اكس يحجبها لوح رصاص ثخنهُ سنتمتران او ثلاثة سنتمترات . ففي الطبيعة مصدر يطلق اشعة أقوى وافعل من أشعة الراديوم اضعافاً كثيرة . فما هو ؟ هنا مصدر العناية التي توجّهُ الى هذه الاشعة ومعرفة أسرارها وهذا مصدر الخلاف بين اكبر العلماء على طبيعتها واصلها

***

لخّص الاستاذ بيكار نتائج الارصاد التي قام بها في أثناءِ رحلتهِ الاخيرة إلى الطبقة الطخرورية فقال أنهُ حاول درس الاشعة الكونية من ناحيتين : — الاولى تحقيق الاختلاف في قوة الاشعة باختلاف الارتفاع . والثانية تحقيق الاختلاف في قوتها باختلاف الاتجاه . فثبت لهُ في الناحية الاولى أن قوتها تزداد بالارتفاع ثم تقلُّ رويداً رويداً إلى أن تصبح ثابتة فوق ارتفاع معيَّن . أما البحث في الناحية الثانية فاسفر عن أن الاشعة الكونية لا تكثر في جهة معيَّنة دون أخرى لذلك ذهب إلى أن هذه الاشعة مصدرها الطبقة الطخرورية ذاتها

اما مليكن فيذهب الى ان الاشعة الكونية هي من قبيل اشعة اكس واشعة غما انما هي اقصر امواجاً وأقوى فعلاً . وقد ثبت لهُ ان قوتها في المنطقة المتجمدة الشمالية لا تقل عن قوتها في المناطق الاستوائية ، وهو ما ينتظر اذا كانت هذه الاشعة من قبيل الضوء الذي لا يرى . ولكن كولهرستر الالماني وغيره يرون ان الاشعة الكونية ليست ضوءًا على الاطلاق بل هي كهارب سريعة الانطلاق . واذا كانت كهارب فيجب ان تنحرف هذه الكهارب بفعل المغنطيس . اما مليكن فيقول انهُ حاول قياسها قرب القطب المغنطيسي الشمالي فلم يجد ما يدل على انها اكثر انحرافاً نحو القطب المغنطيسي — ولو كانت الكترونات لوجب ذلك — وقام كولهرستر نفسهُ

بمباحث من هذا القبيل فلم يسفر بحثهُ عما يثبت جذب المغنطيس لها . ولعلها — اذا كانت الكترونات — اسرع من ان يحرفها مغنطيس ارضي حتى الارض نفسها

***

نظر الاستاذ كمطن — استاذ الطبيعة في جامعة شيكاغو واحد نائلي جائزة نوبل الطبيعية — الى الاقوال المختلفة في طبيعة الاشعة الكونية فعزم ان يقوم ببحث واسع النطاق في انحاء الارض المختلفة بغية الوصول الى القول الفصل فيها . فاتفق مع معهد كارنجي الاميركي وجامعة شيكاغو على الاشتراك في الانفاق على هذه المباحث ونظم بعثة علمية اشترك فيها اثنا عشر عالماً من علماء الطبيعة في كل البلدان وصنعت سبع آلات دقيقة لقياس قوة الاشعة — كل منها كرة من الصلب تحتوي على غاز الارجون مضغوطاً ضغطاً عالياً لكي يزيد متوسط عدد الايونات في السنتمتر المكعب ، اذ لا يخفى انهُ إذا ضغط الغاز اقتربت ذراتهُ بعضها من بعض فيكثر ما تصيبهُ الاشعة منها في أثناء اختراقها للغاز — وعُيّرت الآلات السبع تعييراً واحداً حتى لا تختلف قراءة ما تدوّنهُ من المقاييس ، لان كمطن يرى ان جانباً كبيراً من الاختلاف في النتائج سببهُ القياس بآلات مختلفة

اما النتائج التي أسفرت عنها مباحث كمطن فتلقي ظلاً من الريب على آراء الاستاذ ملكن . فقد وجد الاستاذ كمطن ان الاشعة أقوى في المناطق الشمالية منها في المناطق الاستوائية . وهذه هي النتيجة المنتظرة إذا كانت الاشعة الكونية الكترونات يحرفها أو يجذبها قطبا الارض المغناطيسيان . وأثبت رجنر Regener وبيكار ان الاشعة لا تزداد بالارتفاع قوة كما ينتظر إذا كانت آتية من خارج جو الارض . وكان ملكن قد عرف إن الاشعة لا تزداد قوة بالارتفاع ، ولكنه علل ذلك تعليلاً معقولاً . قال اننا لا نستطيع ان نتبين هذه الاشعة الاَّ إذا مزقت ذرات العناصر التي في الهواء . ولما كان الهواء في طبقاته العليا لطيفاً كل اللطف ، فذرات عناصره أقل ولا بد ان يكون فعل الاشعة البادي لنا أقلَّ كذلك

والامر المتفق عليهِ في هذه الفوضى العلمية هو أن الاشعة تأتي من كل الجهات . هنا يدخل دعاة النظرية النسبية معمعة الجدال فيقولون إذا كانت هذه الاشعة لا تنشأ في الطبقة الطخرورية فلا بد أن تكون مالئةً الكون . ففي هذه الايام اصبح الكون في نظر العلماء النسبيين كالكرة . وشعاعة من الضوء تنطلق في احدى نواحيهِ لا تستطيع أن تخرج منه ، وإذا كانت هذه الاشعة آتية من ناحية في رحابهِ فهي ماضية في طريقها إلى مصدرها . ولما كانت الاشعة الكونية تأتي من كل الجهات فلا بد أن يكون الكون حافلاً بها . ولكن الكون آخذ في التمدد . كذلك يقول لمتر واينشتين وثلة علماء الطبيعة . وقد تضاعف نصف قطره منذ بدأ يتمدّد . لذلك يرى ادنغتن « ان اشعة الضوء في هذا الكون الآخذ في التمدّد كالعدّاء الذي يرى الطريق امامهُ تمتدُّ اسرع من عدوهِ فالقصَب يبعد عنهُ بدلاً من ان يقترب منهُ » وهكذا يظلُّ النور ماضياً في سبيله لا يستطيع العودة الى مصدرهِ — لسرعة تمدُّد الكون — وفي انطلاقهِ يضعف وتطول امواجهُ

حتى يصبح امواجاً تحت امواج الاحمر فنعود لا نراها

ولكن الاشعة الكونية اشدُّ نفوذاً من اشعة الضوء . وكلّ ما تلقاه في رحاب الفضاء مما يعيق مصيّها في سبيلها لا تبلغ ثخانتهُ اكثر من طبقة من الماء سمكها قدم . وهذا جزءٌ يسير جدًّا مما تستطيع هذه الاشعة ان تخترقها . لذلك يرى ادنغتن « ان الاشعه الكونية الاولى لا تزال ماضية في سيرها في رحاب الكون » والاشعة التي تدخل آلاتنا الآن هي مزيج من اشعاع كل العصور . فهذه طاقة اقدم من الارض . ولسنا نعلم كيف كان الكون قبلما بدأ يتمدّد . ولكن ادنغتن يقول ان هذه الاشعة قد تحمل في طيّات امواجها ذكريات تلك الحقب القديمة وقد تبيح لنا هذه الذكريات يوماً ما !!

ولكن كيف تنشأ هذه الاشعة ؟ يشير جينز بيدهِ الى النجوم ويقول هناك تتمزق المادة وتنفصل الالكترونات عن البروتونات وتتلاشى متحولة الى طاقة . وهذه الاشعة اثر من آثار الطاقة المنطلقة على اثر الملاشاة . ويعترَض على قولهِ بان للنجوم اجواءً . فالاشعة المنطلقة من قلب الشمس على أثر تلاشي كمية من الالكترونات والبروتونات ، تطول امواجها في سيرها من قلب الشمس الى سطحها فاذا اخترقت جوها ضعفت كذلك وزاد طول امواجها ، فيتعذر عليها — في نظر طائفة كبيرة من علماء الطبيعة — ان تبقى شديدة النفوذ كالاشعة الكونية بعد مرورها في خلال ذلك كله . ويرى الاب لمتر انهُ لا يحتمل وجود مصدر آخر لهذه الاشعة غير النجوم ولكن النجوم كما كانت والكون في طفولتهِ لا كما هي الآن . وقد خطب في مجمع تقدم العلوم البريطاني سنة ١٩٣١ فقال ان النجوم ولدت من دون جوٍ يحيط بها . اما جوّها فقد نشأ بعد انطلاق الاشعة الكونية منها . وقد وقع هذا من نحو ١٠ آلاف مليون سنة . فانطلاق الاشعة الكونية من ابرز ما يحدثُ لدى تكوّن نجمٍ

***

على ان الاستاذ مِلِكن يرى ان الاشعة ليست دليلاً على تلاشي المادة في داخل النجوم بل هي دليلٌ على ان العناصر الثقيلة تتكوّن في رحاب الفضاء من الايدروجين والهليوم . فقد قال في خطبة لهُ ما ملخصهُ : ان عمل التكوين جارٍ الآن في رحاب الفضاء ولا أُريد بالتكوين تكوين العوالم ولا تولد الاحياء التي تقطنها بل أُريد تكوين الذرات atoms التي تبنى منها المواد سواء كانت جامدة أو تحركها نسمة الحياة . فان درسي للاشعة الكونية اثبت لي ان وراء النجوم اماكن تتكوّن فيها اربعة عناصر من جواهر الايدروجين والهليوم وان هذه العناصر هي الاكسجين والمغنيزيوم والسلكون والحديد . واذا كان هذا الفعل جارياً في مكان ما من رحاب الكون فالاشعاع الناتج عن تحول الايدروجين الى هليوم يجب ان يفوق اقوى اشعة غمَّا عشرة اضعاف . اما الاشعاع الناتج من تكوّن الاكسجين والسلكون والحديد فيجب ان يكون اقوى من اشعة الهليوم اربعة اضعاف وسبعة اضعاف واربعة عشر ضعفاً على الترتيب . اما

الاشعاع الناتج من اتحاد الالكترون بالبروتون وفنائهما فيفوق اقوى اشعة غمَّا خمسين ضعفاً. فلما كشفت الاشعة الكونية قيست قوتها فاذا هي تفوق اقوى اشعة غمَّا عشرة اضعاف اي ان الاشعة الكونية تشبه الاشعاع الناتج من تحوُّل الايدروجين الى هليوم . ولم يعثر في الاشعة الكونية على طائفة من الاشعة تماثل قوتُها القوةَ الناجمة من فناء الالكترون والبروتون باندماجهما. وهذا يدلُّ على ان نحو ٩٥ في المائه من الاشعة الكونية ناشيء من فعل اقل عنفاً من فناء الالكترون والبروتون . وقد اثبت الحلّ الطيفيّ ان الايدروجين واسع الانتشار في الفضاء بين النجوم . هذا رأي مِلِكن [راجع تفصيله في مقتطف مايو ١٩٣٣ ص ٥٢٣—٥٢٦ ومقالة النيوترون في العدد نفسه صفحة ٥٠٣و٥٠٤]

***

على ان الاستاذ اسكندر دو فيليه Dauvillier الفرنسي لا يذهب الى ابعد من الشمس في تعليل الاشعة الكونية . ورأيهُ هذا من احدث ما قيل فيها . قال : —

ان كهارب سريعة تنطلق من الشمس بسرعة تقارب سرعة الضوء تقريباً فتحدث لدى اصطدامها بذرات الهواء الاشعة التي نحسبها قادمة الينا من رحاب الكون . ومصدر هذه الكهارب البقع اللامعة على سطح الشمس lacunae حيث الحرارة تبلغ نحو سبعة آلاف درجة بميزان سنتغراد . فتنطلق الكهارب بسرعة غير عظيمة أولاً ثم تزداد سرعتها زيادة عظيمة إذ تمرُّ في جوّ الشمس الموجب . وجو الشمس المؤلف من عنصري الايدروجين والكلسيوم في الغالب موجبٌ لأن الاشعة التي فوق البنفسجية المنطلقة من قلب الشمس تصدم ذرات هذين العنصرين فتطرد بعض كهاربها. والذرة اذا فقدت أحد كهاربها أصبحت شحنتها موجبة . ثم اذا اقتربت الكهارب من الارض انجذبت بفعلها المغناطيسي وتجمعت اقواساً . ثم إذا دخلت طبقات الجو العليا أطارت من ذرات غازاته بعض كهاربها وهذه مصدر الضوء القطبي . فاذا قيست أقواس الاضواء القطبية امكن الوصول بعملية رياضية الى سرعة الكهارب الاولى المنطلقة من الشمس والتي جذبتها مغناطيسية الارض . والظاهر ان سرعتها لا تقلُّ الاّ ٣٠ سنتمتراً عن سرعة الضوء في الثانية . وإذاً فهي تصل الارض في بضع دقائق (يصل النور من الشمس إلى الارض في ثماني دقائق وثلاث ثوانٍ) وآثار هذه الكهارب تحيط بالارض من كل النواحي فيبدو للباحث انها تأتينا من نواحي الفضاء على السواء . وقد حسب دوفيليه طاقة هذه الكهارب فوجدها قريبة جدا من طاقة الاشعة الكونية ويرى انهُ من العبث البحث عن تعليل آخر لهذه الاشعة. فهو اذاً يتفق الى حدّ ما مع رأي بيكار القائل بتولُّد هذه الاشعة في طبقات الهواء العليا وانما يفوقهُ في تعليل تولُّدها تعليلاً طبيعيًّا رياضيًّا



الامير مصطفى الشهابي

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق الشام ومدير اعمال الدولة فيها

الطبائع والامزجة[1]

للامير مصطفى الشهابي
مدير املاك الدولة بدمشق وعضو المجمع العلمي العربي

ما الأنسان في هذه الحياة ؟ جيش من الخلايا لا تعد جنوده ولا تحصى ؟ وفي كل خلية جبلة اولى (بروتوبلاسم) دائمة الحركة لا تقف ولا تستريح ولا تكل ولا تمل . وما الحياة نفسها ؟ هدم وبناء وأخذ وعطاء وصعود وهبوط في صلب هذه الخلايا ، والانسان بهذا الجيش اللجب كعمود ماء فوق حوض تخاله ثابتاً ونقاطه في تجدد مستمرّ . ذلك ان الجسم الانساني لا يكفُّ طيلة الحياة عن امتصاص العناصر الغذائية وتمثيلها وصنع مواد تندمج في خلاياه ثم هو يفرز ما لا فائدة منه ويطرحه خارجاً . ولا تقف هذه الحركة المستديمة الا بوقوف الحياة وانطفاء شعلتها

واذا فحصنا الخلايا بمجهر العالم الذي يتحرى الحقيقة ويستقصيها الفيناها لا تتجدد في كل فرد على طريقة واحدة ولا بمقادير واحدة . وهذا الاختلاف هو ما يدعو الى حصول الطبائع المختلفة في بني الانسان على رأي كثير من العلماء . وليس بامكان المرء تغيير طبيعته لانه ليس له يد على خلايا جسمه، انّى شاء ، تمثيلاً وافرازاً

وللناس طبيعتان اساسيتان وهما طبيعة الانسان الحسّاس وطبيعة الانسان الفعّال . ففي حس الامور وادراكها يكون التمثيل في الخلايا زائداً على الافراز ، اما في الحركة كاستعمال الارادة او الحركة العضلية فالافراز يسود . ومتى رجحت كفة الطبيعة الاولى شالت كفة الثانية في الاعم ، فالحساس قلما يكون مقداماً والعكس بالعكس . والآلة التي تضبط التمثيل والافراز في الجسم كما تضبط الحس والعمل هو الدماغ فهو كناظم الساعة الضابط لحركتها لكنه هو نفسه غير متزن في كل الاشخاص فيكون قويّاً لدى بعضهم وضعيفاً لدى بعض وسريع الحركة في ناس وبطيئها في آخرين . وهنا يتجه الى جهة وهناك الى جهة معاكسة للاولى تبعاً لشكل حركة خلاياه في التمثيل والافراز . وهذا ما يجعل للاعصاب سيرة خاصة فتكون حساسة او فعالة

(١) بحث فلسفي لخصته على اثر تلاوة بعض كتب اهمها كتاب بهذا العنوان للفيلسوف الفرنسي الفريد فوييه. والغاية منه بيان خصائص الرجل وخصائص المرأة بياناً علمياً وفلسفياً والدعوة الى تعليم المرأة الشرقية ما يناسبها . والطبائع ترجمة Temperaments اما الامزجة فترجمة Caractères

وكان الاقدمون يقولون بأربع طبائع يسمونها اخلاطاً وهي الدم والبلغم والصفراء والسوداء وينعتونها بقولهم طبيعة حارة وباردة ويابسة ورطبة. وهي كلها تقسيمات ونعوت لا يعوَّل عليها اليوم

ويكون الحس سريعاً أو بطيئاً ، حادًّا أو ضعيفاً ولذلك يكون الحساس على طبيعتين : حسَّاس سريع الحس ولكن ضعيفهُ وحساس بطيء الحس ولكن عظيمهُ

﴿ طبيعة الحساس السريع الحس ﴾ . يسمونه ايضاً الحساس الدموي . وتكون كريات الدم لديه عديدة ارجوانية اللون على عكسها في الصفراوي الفعال حيث هي قليلة قاتمة . ويكون لون بشرة الدموي ورديًّا زاهياً وشعره اشقر وعيناه الى زرقة (كل ذلك في المتوسط من الحالات) وعنقه قصيرة عريضة ورأسه مستديراً أو مربعاً وانفه عريضاً . وتلوح على جسمهِ علامات الجسم الملآن غذاء ، اي الذي يزيد فيهِ المدخر على المستهلك . ويكون صاحب هذه الطبيعة سريع الانفعال لكن انفعاله سطحي يزول بسرعة . وهو كثير الكلام كثير الاشارات قليل العمل سريع النسيان لا جلد له على العمل المملّ المستمر ولا على اجهاد العقل . ولا يلبث الحادث الجديد الذي يحسه ان يطرد الذي سبقه . والخلاصة يوجد في كل دموي خالص شيء من خصال الطفولة والفتوة . ألا ترى ان الطفل الذي يزيد في جسمهِ الادخار على الاستهلاك ورديّ الخد ابيض الجلد سريع الحس لكن الحس فيهِ سطحي لا يدوم كثيراً فالطفل هو المثال العادي لهذه الطبيعة . ويكون صاحبه ابن يومه ينسى الماضي ولا يفكر الاَّ في حاضره كالصبي والشاب . وليس للآلام العميقة سلطان عليهِ . وهو متفائل واقرب إلى الخير منه الى الشر . لكنه لا يتعدى بذلك حد الكلام والعاطفة ولا يتجاوزها الى العمل . ويمكن لهذه الطبيعة ان تعتدل بتقدم العقل وتأثير الارادة

﴿ طبيعة الحساس العميق الحس ﴾ هي طبيعة العصبي الذي اذا صدمته المؤثرات عملت عملها فيهِ فلا يعود الى سابق حاله الاَّ بعد لأي ٍ دمهُ اقل من دم صاحب الطبيعة السالفة الذكر وجهازه العصبي اقوى وعضله اضعف . ويكون شاحب اللون لفقر دمه حاد النظر كثير الحركة قلقاً في نومهِ طويل العنق دقيق الانف في الغالب خفيف الجسم رشيق القوام غير بدين . وكثيراً ما تعرض جبهته وتستدق ذقنه فيكون وجهه على شكل الرقم ٧ . وهو شديد التأثر بكل ما يفرح ويغم وربما أدى بهِ ذلك الى السويداء لان شعوره يكون عميقاً داخليًّا متأصلاً

ويكون العصبي مرحاً في طبيعتهِ أو حزيناً لكن عوامل الحزن تتغلب عليهِ في الغالب فتراه حذراً قلقاً ليس فيهِ آمال الدموي المتجددة في كل حين فهو اذن متشائم . غير ان صاحب هذه الطبيعة اذا اعتدل وناله حظ من الذكاء كان آية في العبقرية ولا سيما اذا كان وسطاً بين العصبي والدموي . ولقد زعم ارسطو ان كل العباقرة في الفلسفة والسياسة والشعر والفنون

هم من اصحاب السويداء . ولا يشير بذلك الى الذين يرافقهم الهم والحزن بل الى ذوي الحس العميق والانفعال المتأصل الذين لهم ذكاء وقّاد يدركون به نواحي الحياة الجديدة حتى القاتمة منها

﴿ طبيعة الفعّال ﴾ الفعّال ايضاً على قسمين فعال سريع العمل عظيمه وفعّال بطيء العمل قليله . ذلك ان الفعال يحتاج في حياته الى صرف قوة كبيرة عصبية وعضلية . ولما كان تفسير ذلك الصرف انحلال الجبلة الاولى في خلايا جسمه الى عناصر ابسط كان مزاج الفعال هو الذي يزيد فيه الاستهلاك على الادخار اي الافراز على التمثيل . ويكون الاستهلاك في الفعّال إما قويّا وسريعاً أو على العكس معتدلاً وبطيئاً ولهذا يكون للفعّال طبيعتان كما ذكرنا ويمكن في العمل قرن السرعة الى القوة اما في الحساسية فكثيراً ما تفترقان

﴿ الفعّال السريع العمل العظيمهُ ﴾ الفعّال الذي يعمل بسرعة وقوة كان يسمى صفراويّا لدى الاقدمين . والحقيقة انه ليس للصفراء تأثير في طبيعته . ويكون الدم فيه افقر منه في الدموي بالكريات الحمر . يقولون ان الصفراوي ذو دم حار وهذا صحيح ولا سيما في الدماغ . وكان كارليل يقول حرارتي بدلاً من طبيعتي . ويكون وجهه شاحباً لخلو دمه من الاوكسجين بسبب كثرة الاستهلاك . وهذا السبب هو الذي يجعل لون شعره وعينيه اسود لامعاً في الجملة ويكون قوي الجسم نحيفه سريع الهضم والتنفس شديد الحاجة الى النوم العميق حاد العينين قوي العضل لا يسمن الاّ نادراً . واذا تأثر بحادث اصفرّ وجهه في الغالب بدلاً من ان يحمرّ وربما أثر ذلك في كبده وهذا ما استرعى نظر الاقدمين فسموه صفراويّا . وتزيد الشمس في خصائص هذه الطبيعة فيكثر اصحابها في البلاد المعتدلة والحارة . وهي فاشية في القبائل البدوية

وشدة نشاط صاحب هذه الطبيعة تجعله جباراً اذا عاكسهُ احد وتجعله سريع الغضب ايضاً . وقد شبهه احدهم بجسم مكهرب من يمسه يقتدح شرارة كهربائية . واذا لم يجد في عضلاته منفذاً للعمل ولصرف القوة اثّر ذلك في جسمه تأثيراً داخليّا ولاسيما في دماغه فتراه اذا احبّ عشق واذا بغض كتم بغضاءه سنين حتى ينتقم . وهو شجاع مقدام في الغالب . واذا حكم استبدّ في اكثر الاحيان دون ان يعبأ باستمالة قلوب الناس او عقولهم اليه ككثير من رؤساء القبائل المعروفين او كنابليون مثلاً فهو في مقابلة الناس حيوان يخاطب حيواناً دونه . واعتقاده ببلوغ مراده يجعله قوي الامل كبير الثقة بنفسه ولهذا يغلب فيه التفاؤل

﴿ الفعّال البطيء العمل القليلهُ ﴾ هو صاحب الدم البارد او صاحب البلغم الذي له ارادة تحفزهُ على العمل ولكن بعد إعمال الفكر وموازنة الامور . ويعرف بعنق قصيرة وانف عريض ولون شاحب غالباً وشعر اشقر او اسمر باهت غير كثيف وعينين شهباوين او خضراوين غير متقدتين وجسم ممتلىء ودماغ مفكر . هو يملك نفسه فلا تثيره الحادثات كالذي سبق ذكره . وبحث عنهُ « كانت » فقال انهُ يحمى ببطءٍ لكن حرارتهُ تدوم طويلاً وربما سموهُ عاقلاً لان

برودة الدم اذا ما قرنت بالنشاط على العمل تغلبت على كثير من الصعاب . اما اذا فقد صاحب هذه الطبيعة نشاطه اثَّـر ذلك في حساسيتهِ وفي حيويته فيضعف دوران الدم فيهِ ويزداد دوران الصفراء فترخو نسجه وتبطؤ الحركة في اعضائهِ ويضعف الدم في دماغه فيتبلد ويبتعد عن الحيوان ويقرب من النبات

﴿ الخلاصة في الطبائع ﴾ نلخص طبائع الناس بقولنا انهُ يوجد فيهم : اولاً الدموي (الحسَّاس السريع الحس الطائش) وهو سريع الانفعال لكن انفعاله لا يدوم كثيراً . ثانياً العصبي (الحساس العميق الحس) وهو بطيء الانفعال لكن انفعاله يكون شديداً ومتأصلاً . ثالثاً الصفراوي (الفعَّال الحاد العمل) وهو الذي يكون عمله سريعاً قويًّا . رابعاً البلغمي (الفعَّال البارد) وهو الذي يكون عمله راسخاً متزناً . ويزيد الادخار على الاستهلاك في جسم اصحاب الطبيعتين الاوليين . والامر معكوس في اصحاب الطبيعتين الثالثة والرابعة

واذا صدمت النوائب الدمويَّ صدمة عنيفة اثَّرت في دماغه وفي جهازي الدم والتنفس . اما العصبي ففي جهاز العصب والدماغ واما الصفراوي ففي الكبد . والبلغمي لا يتأثر بها عضو من اعضائهِ بل تبدو عليهِ علائم الحزن والكآبة فحسب

***

وذكر (كانت) ان كل انسان له طبيعة واحدة من الطبائع الاربع المذكورة ليس غير . وانهُ لا يوجد طبائع مركبة . اما الفريد فويه فيرى عكس ذلك ويقول انهُ لا يوجد صاحب مزاج بسيط البتة لانهُ لا يمكن تصور وجود حس بلا ارادة او وجود ارادة بلا حس ولا عقل كما ان الجسم لا يمكن ان يدخر بدون ان يستهلك . ولا يوجد في الكون شدة مطلقة ولا سرعة مطلقة في الادخار والاستهلاك بل كل شيء نسبي . ولهذا نرى بين الناس الدموي العصبي والعصبي الصفراوي ، والعصبي اللنفاوي (البلغمي) الخ اي اناساً يجمعون طبيعتين . وربَّ رجل يجمع ثلاث طبائع كأن يكون دمويًّا وعصبيًّا ولنفاويًّا وهو ما يكثر في المانيا وانكلترا وربما حصل الاختلاط في خلق الوجه وسائر الجسم كالجمع بين شعر اسود وعينين زرقاوين وكأن يكون لك جسم وردي وقامة هيفاء . وكل ذلك نتيجة وراثات مختلفة اوجبت اختلاط الطبائع

ولا يستطيع الانسان تبديل طبيعتهِ لكن هذه تتبدل بتقدم السن . فالولد يحتاج خصوصاً الى الاحتفاظ بنفسهِ والى النمو ولذا تراه شديد الحس والانفعال يتطلب النفع العاجل ويدرأ الضرر القريب ويسير عن بصر للاشياء لا عن بصيرة . اما البالغ فعلى العكس لان قواه العقلية تزداد مع الزمن وكذا محاكمته للامور فيضبط بها عوامل الغريزة الحيوانية . واما الشيخ فكل شيء فيهِ يبطؤ اي ان طبيعتهُ تعتدل مهما كان متطرفاً ويكثر البلغم فيهِ حتى يبلغ بهِ حد

الكسل . وتتردد ارادتهُ كناظم الساعة (الرقاص) وتبدو عليهِ علائم الاضمحلال والفناء

﴿ فائدة علم الطبائع في الحياة ﴾ لا شك ان لعلم الطبائع فائدة كبيرة من حيث الاخلاق وتربية الاولاد. فكما ان الطبيب يحتاج في وصف الدواء الى معرفة خلق المريض كذلك المؤدب يحتاج في تأديب الصبيان الى معرفة طبائعهم الخُلقية المختلفة . ومن البساطة بمكان الظنُّ أن الجميع يمكن سوقهم بعصا واحدة. وربما نفعت الشدة في احدهم ولم ينفع في آخر غير التسامح . وربَّ تلميذ يفعل فيهِ اللين والتحبب وآخر لا يؤثر فيهِ غير الخوف . ومن الثابت ان المربين يجهلون كثيراً فسيولوجية الطباع جهلهم للقواعد الصحية التي يجب رعايتها تجاه الاعمال العقلية

***

وللطبيعة تأثير في سعادة الانسان وفي اخلاقه طيلة الحياة . ويجب ان نفتش في كثير من الاحايين في نفسنا عن سرّ حزننا او طربنا فهنالك نجد ساعات من البؤس وساعات من السرور وهنالك نرى الاشياء بألوان مختلفة بمقتضى طبائعنا . ولقد بالغ احد العلماء فقال ان ينبوع الخير والشر هو فينا في الغالب . ذلك ان كل عضو من اعضائنا له عمله في سير شعلة الحياة فينا فالجوع والعطش وسوء الهضم وخفقان القلب والتعب والاجهاد والقلق والحزن الخ كل ذلك له تأثير اي تأثير في تكوين سعادة الانسان وكله له اشد ارتباط بالطباع . ومتى كان الانسان مرحاً في طبيعته فسيان لديه واتاه الحظ ام لازمهُ النحس . اما المتبرم بالحياة فهو يظل مكمداً مهما خدمتهُ الايام. وبوجهٍ خاص ان بعض اسباب السعادة هي في طبيعتنا . ولا يجب ان يستنتج من ذلك ان البيئة والحوادث وبخاصة العقل والارادة ليس لها تأثير في سعادة الانسان وهي التي يتألف منها مزاجه او طابعهُ الذي يتطبع بهِ كما ذكرناه بعدُ

اما تأثير الطبائع في الاخلاق فهو ايضاً امر لا ينكر ولا يهبأ بقول احدى الاديبات « لا اصدق ان الفضيلة مرتبطة بهضم الاغذية » . فلكم قادت الطبيعة المرءَ الى اعمال شتى من الخير والشر والامثلة على ذلك كثيرة

***

﴿ الامزجة ﴾ يقول الفرد فويه ان طبيعة الانسان تخلق معهُ لكن المزاج يكتسب بالتطبع والمران . واهم مؤثر في المزاج العقل الانساني . وربَّ رجل تسود السويداء في طبيعته فيطردها بالعقل والارادة فيكون مرحاً في مزاجهِ . واذا كانت الطبيعة مرتبطة بتركيب الجهاز العصبي وسيره خاصة فالمزاج مرتبط بتركيب الدماغ وسيره في الاخص وهو عضو العقل

والناس على ثلاثة امزجة : الحساس والمفكر والمقدام (او النفّاذ وهو القويّ الارادة). وتتبدل امزجتنا بتبدل شدة هذه القوى الثلاث . والمزاج الامثل هو الذي يتوازن فيهِ الحس والفكر والارادة

﴿ الحسّاس ﴾ اذا كان الحساس قليل الذكاء قليل الارادة كان كالطفل سريع الانفعال ضعيف الذاكرة . اما اذا كان قليل الذكاء قوي الارادة كان خطراً لانهُ يجمع قوتي الحس والارادة بلا تفكير . وكثير من المجرمين لهم هذا المزاج . واما اذا كان الحساس ذكيّاً كان من الرجال المتزني الامزجة حتى في حالة خلوهم من ارادة قوية

﴿ المفكر ﴾ هو الذي ينمو عقلهُ على كرّ الأيام فيصير التفكير طابعاً له . وهو مزاج كثير من العلماء والفلاسفة ، واذا كان المفكر حساساً اشبه بمزاجه بعض الشعراء كفكتور هوجو وأمثاله. ولا شك ان نمو العقل يسكن فرط الحس على طول الزمن . وربما اضرَّ التفكير بالارادة ايضاً فينشأ عن ذلك اشخاص يتمثلون العالم في دماغهم فيصورنهُ صوراً لا تحصى ويعيشون غارقين في تأملاتهم غير المتناهية . وهم ينفقون كثيراً من القوى داخليّاً فيقلُّ ما يجب ان ينفقوه في الخارج . وقد يعدم التفكيرُ الارادة احياناً . لأن المفكر بعيد النظر للامور اما المقدام فلا يرى غير ناحية واحدة منها ولذا ترى المفكر كثير الاحجام عن العمل بعد ان يتمثل في ذهنه كل دواعي الاقدام وكل دواعي الاحجام . والشك طارد للفعالية كما لا يخفى .اما اليقين فباعث على الاقدام . واذا كان اليقين منبعثاً عن عقيدة شعورية كعقيدة الدين مثلاً حمل صاحبه على الموت احياناً . ولا يظننَّ ان شدة التفكير تدعو الى التردد في كل الامور فالمفكر لا يعبأ بالصغائر التي تسر لها العامة والدهماء لكنهُ كثير الاهتمام بجلائل الاعمال . واذا كان القليل من العلم داعياً الى التردد فالكثير منهُ يدعو الى العمل . ولكل معضلة مفتاح فاذا لم تعثر عليه انت فاحجمت لقيهُ من هو اشد ذكاء وتفكيراً منك فأقدم

﴿ المقدام ﴾ الارادة اذا لم يصحبها العقل اضرَّت بصاحبها. والدماغ البسيط الذي لم تصقله التجارب او العلوم هو نموذج للارادة الحمقاء التي تجعل صاحبها يقدم على اعمال غير معقولة ويصر على اخطائه . وهو دماغ الجهلاء الذين يصعب تبديل معتقداتهم لانهم جهلاء لا يمكنهم استخراج القواعد المطلقة من الامور التي يحسونها . لكنه اذا كان صاحب الارادة مفكراً فالمثابرة على الاقدام لا يسمى لديه عناداً بل ثباتاً . ويتضح من ذلك ان العقل والتفكير هما عاملان مهمان في سير الارادة

والمقدام على ثلاثة اشكال اولاً المقدام القليل الحس والتفكير وهو العنيد في حمقه وضلاله. ثانياً المقدام الكبير الحس القليل التفكير وهو الطموح المتهوّر . ثالثاً المقدام القليل الحس الواسع الفكر وهو الذي يحكم الامور ببرودة ثم يمضي فلا يثنيه شيء

[تتمة البحث تتناول الطبائع والامزجة لدى الرجل والمرأة]

غزل فلسفي

فيكَ من كل شيء

للاستاذ عباس محمود العقاد

فيك من شمس الضحى العين التي   ترسل اللمح مضيئاً في الظلام
فيك من بدر الدجى احلامه   حين يسري ناعماً بين نيام

***

فيك من كل ربيع طلعةٌ   تنبت النضرة عاماً بعد عام
والشتاء الجهمُ لا يعدوك من   عهده العاصف برقٌ وغمام

***

ما تغنَّى الطير إلا بعض ما   انت راويه ، ولا ناح الحمام
وإذا الجدول ناغى نفسه   فهي اصداؤك من غير كلام !

***

وصنوف الوحش هل ناظرتها   من نفار بينكم او من وئام!
لا انفتال الحوت تنساهُ ولا   سطوة النسر ولا خوف النعام

***

فيك من نار الحياتين الهوى !   هل حياة الحيّ إلاَّ من ضرام ؟
والذي ارهبه وا آسفا   هجرك المدعوُّ بالموت الزؤام

***

فيك من دنياك نقص رائقٌ   ومن الاخرى تباشير التمام
ومن الاملاك طيب ورضى   ومن الشيطان غيٌّ وإثام

***

ومن الخمرة سُكراها اذا   اسلست في النفس او طاش الزمام

ومن القوت غذاءٌ ومن السماء ريٌّ ومن الجوع هيام

* * *

فيك من ارضك حظٌ وافر وحظوظٌ من سماءٍ لا ترام
اجديدٌ؟ اي نعم! قال الصبي، اقديم؟ اي نعم! قال الوسام

* * *

هذه الروعة هل تجمعها في مدى يوم لحومٌ وعظام
لا وربي! بل دهور غبرت قبلما تتقنها الأيدي الكرام

* * *

قبلما تتقنها الايدي التي نسقت انوالها، وهي حطام
من وراء اللب صفاً ينتهي بعد صف، بين سَدىٍ ولحام

* * *

فيك من هندسة علويةٍ ما استدار الخط فيه واستقام
ومن الفن مثال رائع هو للمثّال والشادي امام

* * *

فيك مني ومن الناس ومن كل موجودٍ وموعودٍ تؤام
كيف بي أُعذل ان اغنيتني انت حتى عن شرابي والطعام

* * *

ان نفوني اليوم من دنياهمُ وأباحوا لي من الزاد المرام
ثم قالوا: ما تشأ منها فخذ! قلت: هذا! وعلى الدنيا السلام

* * *

قلت: هذا، وتقدمت إلى هوّة الغيب، وفي الثغر ابتسام
كيف لا يبسم من قُبلته تنظم الأوطار طرّاً في نظام

* * *

وإذا قبّلته مستضحكاً في تخوم الكون، والكون سدام
فهي سُخري بالذي ودّعته واغتباطي بمقامي حيث قام

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرض المذاهب السياسية

من جمهورية افلاطون إلى شيوعية روسيا

«علم السياسة» هو البحث في اشكال الحكومات التي نشأت على سطح الارض سواء منها الماضية والحاضرة ، و «حكمة السياسة» هي البحث في اصل المجتمع البشري والعوامل التي افضت الى تأليفه وجعلت الانسان مدنيًّا بالطبع . وهذا التفريق بين هاتين الناحيتين من موضوع السياسة العام هو تفريق حديث لم يصل اليه الكتّاب الاّ في الاعصر المتأخرة. على ان معظم الذين عالجوا الموضوعات السياسية لايزالون يمزجون الواحد منهما بالآخر مزجاً ملتحماً في حين يتطلب التنقيح العلمي مراعاة هذا التفريق . وعندنا ان خير ما ينير الموقف السياسي الحاضر ويزوّد القارىء بالمعلومات التي تساعده على فهم التدرج الحاصل في الآراء السياسية وتطبيقها ان نستعرض امامه طائفة من الأئمة الذين غادروا وراءهم رنةفي العالم السياسي ونتناول بالتحليل ماذهبوا اليه سواء من وجهة «علم السياسة» ام من وجهة «الحكمة السياسية»

﴿ افلاطون ﴾ ان افلاطون هو أسبق من وصلتنا مدوّناتهم عن الشؤون السياسية والاجتماعية فقد عاش من سنة ٤٢٧ الى سنة ٣٤٧ ق.م . وجاء في كتابه (الجمهورية) الذي سد ثغرة كبيرة بنقله الى العربيـــة حديثاً الاستاذ حنا خباز الشيء الكثير عن المعيشة الاولى البسيطة الحرّة وكان يرى ان تفتح ابواب الارتقاء على مصاريعها للناس جميعاً بالتثقيف والتهذيب الاّ العبيد فعليهم ان يحملوا على اكتافهم اهل التفرغ ويقوموا بخدمتهم . وعنده ان يمنح رجال التعليم اسمى المقامات في الحكومة وان الطبقات المهذبة الخاصة — وهي الطبقة الارستقراطية في عرفنا الحاضر — يجب ان تقوم بسندها الطبقات العامة الاعتيادية ، ومن الغريب مع كل هذه الارستقراطية ان يكون افلاطون شيوعيًّا حتى في المرأة

ولما كانت معظم النظريات التي وضعت لتعليل السياسة او اسبابها هي نظريات عن طبيعة الانسان الاصلية فلا عجب ان نرى افلاطون من الذين نهجوا هذا المنهج ، فقد ذهب في جملة ما ذهب اليهِ الى ان في النفس الانسانية اجزاء ثلاثة الاول الجزء العالم وهو الحكيم . الثانى الجزء الشجاع المتحمس وهو الروحي. والثالث الجزء الشهواني وهو النهم او الحيواني . يقابل ذلك اجزاء ثلاثة في بناء الجمعية البشرية متى كانت صحيحة التركيب وهذه الاجزاء هي (اولاً) الملك الفيلسوف كما تصوره افلاطون وقد دلَّ به على ضرورة تغلب العلم في المجتمع السياسي على الروح والشهوة — يعني يجب ان يحكم حجّاب هذا الملك في «الجمهورية الكاملة» باعتبارهم المظهر الذي يتجلى فيه مبدأ تفوق العلم . (ثانياً) الجيش الشجاع المتحمس ويكون اداة اولئك الحجاب ينفذ مقتضيات علمهم ويسير تحت لوائهم (ثالثاً) الدهماء أو عامة الناس وهم اهل الشهوة الخاضعون الخانعون والمسوقون إلى الاعمال المنتجة في المجتمع . وبديهي كما قال الاستاذ (كول) ان مثل هذه النظرية السياسية هي نظرة ارستوقراطية عظامية ينبذ صاحبها الفكرة الديموقراطية العصامية وراء ظهره ويمر على كلمة التساوي في الحقوق مر الكرام إذ يقول الواجب ان يقبض على زمام الحكم في الجمهور الجزء الاصلح لخدمته كما يجب ان يتسلط في الفرد عقله على سائر ملكاته . ويقوم المرء بعمله الاجتماعي وهو وظيفته التي خلق لها بحسب الاجزاء الثلاثة التي تتألف نفسه منها ونسبة تفوق هذه الاجزاء بعضها على بعض . فالحكيم وهو ذو الملكة العقلية المدركة المتفوّقة خلق لان يكون حاكماً، ذلك لانه اعرف الناس بالمصلحة واما الآخرون فلا حق لهم في هذا الامر ولا شأن لانهم جاهلون

ولعمري ان هذا الموقف الذي وقفه افلاطون في القرن الرابع قبل المسيح لا تزال تقفه عصبة المحافظين الارستوقراطيين في القرن العشرين من ادعائها بأن مواهبها العقلية وعنعناتها المتوارثة تجعلها وحدها اهلاً للاضطلاع بالحكم ، وهذا باب في النظرية السياسية لما يقفل ، وقد ملأ الكتّاب اكوام المؤلفات والرسائل في علاجهِ ولما ينتهوا . وكأني بافلاطون يقول للاجيال اللاحقة هذا رأيي فانا ارستوقراطي صرف احرّم ممارسة الحكم على الذين لم يخلقوا له فما هو رأيكم ؟ بل ما هي السلطة السياسية ؟ اهي شيء من حق الانسان كما تساءل الاستاذ (كول) لا يتنازل عنه وقد اكتسبه بمجرد كونه انساناً يمشي على اثنتين ام هي شيء يتعلق بالعلم والمعرفة؟ وهل على الخبير الفني المتخصص ان يعمل باوامر يتلقاها أم هو نفسه مصدر هذه الاوامر ؟ وهل الاطباء يديرون شؤون المرضى في المستشفى أم المرضى يديرون شؤون الاطباء ؟ وهل السياسة ميدان للاخصائيين المتسلحين بسلاح الفن أم هي للنساء والرجال العاديين ؟ وهل الديموقراطية تعني هذيان اصوات متنافرة بعيدة عن الانسجام أم هنالك شيء من الحق في القول المأثور « اصوات الخلق اقلام الحق » ؟ ووراء ذلك كله سؤال اجدر بالاهتمام خلاصته

ما هو الانسان ؟ وما هي طبيعته ؟ . فعلينا ان نعرف هذه الامور أو نصرف جهد الطاقة للاحاطة بكنهها قبل ان نصدر حكمنا كيف يجب ان يحكم الانسان أو ان يحكم عليه [1]

﴿ ارسطو المعلم الاول ﴾ هو تلميذ افلاطون واول من لاحظ تدرج الحكومة ونشوء النظام الاجتماعي وقد عالج الشؤون السياسية معالجة دقيقة حتى ان بعض آرائهِ لا يزال يعمل بهِ الى اليوم . ومن ادقّ ملاحظاته قوله عن الحكم انهُ يأخذ شكلاً دوريًّا متعاقباً فالحكم الملكي في نظره هو الشكل الاساسي للحكومة ثم يعقبهُ الشكل العظامي الارستوقراطي وهو حكم النخبة المنتخبة وهذا يؤول الى الاوليغاركية وهي حكومة فاسدة قائمة على اقلية متآمرة متضامنة ثم تأتي حكومة الاكثرية وهي الديموقراطية وتختلف عن الديموقراطيات الحاضرة بانها مؤلفة من طبقات ، ويخلف هذه الحكومة الصالحة حكومة مؤلفة من الغوغاء اطلق عليها اسم (اوكلوكراسي) فيختلط الحابل بالنابل ويصير الامر والنهي بيد الحمق والطائشين . وعندما تبلغ الفوضى هذا الحد تهب « الدكتاتورية » من مرقدها وهي حكومة القاهر الحازم فيعاد النظام الاجتماعي الى سالف عهده . وعندنا ان هذه الملاحظة من خير ما خلفهُ المتقدمون في علم السياسة لانطباقها على الواقع كثيراً فمحمود شوكت باشا القائد العثماني الكبير مثلاً كان هذه اليد الحازمة التي انقذت الدولة العثمانية في سنة ١٩٠٩ من غوغاء جمعية رجعية استّسها سخيف اسمهُ (درويش وحدتي) واطلق عليها اسم (الجمعية المحمدية)

ومن الامثال الصالحة على ملاحظة ارسطو هذه السنيور موسوليني وظهوره بعد الفوضى التي كانت ضاربة اطنابها في ايطاليا ، والغازي مصطفى كمال باشا ونهوضه بالترك من بعد تمزقهم والتصدع الذي كان يهدد بنيانهم بالانهيار من الاساس عقيب انكسارهم في الحرب العالمية

وكانت الطريقة الخاصة التي سار عليها الاغريق المتقدمون في نظامهم السياسي ان المدينة الواحدة من مدنهم كانت تؤلف دولة قائمة بذاتها وكان جميع الافراد يشتركون في اتخاذ القرارات مباشرة من غير ان ينيبوا عنهم احداً لان الطريقة النيابية الحاضرة كانت مجهولة لديهم . وكانت الاكثرية في الاجتماع تعين في بعض الاحيان بشدة التصفيق من المجتمعين وفي غير ذلك بالاقتراع والانتخاب . وكانت زعامتهم ومقاليد امورهم بيد من يمتلك شخصية متفوقة عليهم ومعرفة بشؤون القيادة . ولم يرَ ارسطو في جميع ذلك شيئاً غير طبيعي يحتاج الى التعليل بل قال عن الانسان انهُ حيوان مدني بالطبع فيكون المجتمع والحالة هذه ظاهرة طبيعية نشأت من فطرة الانسان وان الدولة البلدية (City-State) هي في نظره وليدة الاسرة ودرجة لاحقة في النشوء من بعدها

(1) Outline of Modern Knowledge, p. 705.

الخلافة الاسلامية

وتتجلى المذاهب السياسية المتنوعة والآراء التي اشار اليها افلاطون خير التجلي في تاريخ الاسلام عامة والعرب منهم خاصة. وليس من المتعذر على الباحث مثلاً ان يرى المبادىء السياسية مخاوطة في الجيل الواحد والعمل الواحد خلطاً متماسكاً متشابكاً . فانتخاب اول خليفة ليتولّى زمام المسلمين في دينهم ودنياهم هو عمل ديمقراطي في مبدئه ولكنه يختلف عن الاساليب الديمقراطية الحاضرة بحصره الانتخاب في اهل الحل والعقد بصورة مبهمة ليس فيها قاعدة يركن اليها ومعنى اهل الحل والعقد هو النخبة المنتخبة وهي الطبقة الارستقراطية طبعاً فهذا الحصر هو اقرب اذن الى الارستقراطية منهُ الى الديموقراطية والعامة كانوا بعيدين عن التدخل في شأنهِ وليس لهم صوت نافذ في اقراره او في رفضه لأن القواعد التي طبقت منذ اليوم الأول لم تعين لهؤلاء العامة مقاماً في الاقتراع أو في الانتخاب بل اعتبرتهم كما اعتبرهم افلاطون اداة تساق من غير ارادة ولا اختيار . وكان الخليفة والحق يقال رئيس جمهورية إلاّ انهُ تمتع بحقوق لا يحلم بها (هوفر) في الولايات المتحدة . وقد تجلت هذه الحقوق واشتدت عندما صارت الخلافة ملكاً متوارثاً وصار اصحابها يدعون الوكالة عن الله في كل شيء ، يدلك على ذلك خطبة المنصور بمكة جاء فيها «ايها الناس انا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده ، وحارسه على ماله ، اعمل فيه بمشيئته وارادته واعطيه باذنه ، فقد جعلني عليه قفلاً ان شاء فتحني لاعطائكم وقسم أرزاقكم وان شاء ان يقفل عليّ أقفلني» ، ولم يعدم الخلفاء من الفقهاء من جوّز لهم مثل هذه الحقوق كما فعل صاحب « مطالع الانوار » بقوله عن الخليفة ان له حقّ التصرف «في رقاب الناس وأموالهم وابضاعهم» . على انهُ مع كل النفوذ الذي كان للخليفة لا يجوز ان يدعي «مطلقاً» ابداً ، لأن السلطة ليست له وانما هي للدستور — للشريعة التي كان حامياً لها ومسؤولاً عن تطبيقها ، وكانت الحيدة عنها اعوجاجاً لا يأبى المسلمون — ولو نظريًّا — ان يقوّموه بسيوفهم . فاذا كان الاستبداد هو ان يعمل صاحب الامر بمشيئته وبمقتضى هواه ويدعي انه هو الدولة كما كان حال الملوك المستبدين في بلاد الغرب فالخليفة بهذا المعنى لم يكن مستبدًّا وانما اعطى لنفسه من الحق في فهم الدستور وتأويله وتطبيقه ما يخولهُ قوة صارمة . ولو اردنا أن نجمل الحالة التي كان عليها المسلمون في الصدر الاول بكلام مألوف في عصرنا لقلنا انهم انتخبوا رئيس جمهورية الى أجل غير مسمى بطريقة انتخاب محدودة تولتها الطبقة الارستقراطية وهم أهل الحل والعقد وخوّلوه في القضاء والتنفيذ سلطة لا حد لها وجعلوه مسؤولاً عن الدستور بطريقة عنيفة تكون حياته فيها عرضة للخطر ، ولما

كانت الطريقة البارلمانية مجهولةً في تلك الاعصر فمحاولة تعيين هذه التبعة اوالمسؤولية كثيراً ما أدت الى الفتن والاضطرابات وسفك الدماء بين المسلمين لانهم لم يكونوا عارفين بحلٍّ سلمي يرضاه الجميع أو الاكثرية المطلقة في معالجتها . وعلى القارىء أن يتذكر ان الخليفة مهما كان قادراً وعظيماً لايستطيع من الوجهة النظرية أن يغير شيئاً في الشريعة لانسلطتها مطلقةلاحد لها تصغر أمامها كل سلطة بل دائرته ودائرةقضاته وعماله محصورة في تأويلها وتطبيقها . ويجد علماء السياسة لذة كبيرة أن يروا بعض الكتاب المسلمين المتقدمين يذهبون الى أن الامة هي مصدر السلطة التي يتمتع بها الخليفة كما فعل أبو بكر الكاساني المتوفي سنة ٥٨٧ والمدفون بظاهر حلب.فقد ذهب في كتابه «البدائع» إلى أن الخليفةبمنزلةمندوب أو رسولعن المسلمين لذلك اذا عُزل او خُلع لسبب من الاسباب لم ينعزل قضاته بل هم على أعمالهم قائمون وذلك لان «القاضي لا يعمل بولاية الخليفة وفي حقهِ بل بولاية المسلمين وحقوقهم ، وانما الخليفة بمنزلة الرسول عنهم ،لهذا لم تلحقهُ العهدة كالرسول في سائر العقود ، والوكيل في النكاح ، واذا كان رسولاً كان فعله بمنزلة فصل عامة المسلمين »[١]

ولئن كانت الخلافة في بدء الاسلام نظاماً جمهوريًّا ارستوقراطيًّا فقد تحولت في زمن بني امية الى ملك واصبحت دمشق الشام على ايدي الخلفاء او الملوك الامويين حصن العروبة الحصين وكانت الرابطة في الشرق كما كانت في الغرب رابطة دينية والاسلام كما هومعروف دين امميّ ارسل الى جميع البشر على السواء الاّ أن كثرة الداخلين فيهِ منالاقوام الاخرى جعلت مركز العرب وحماته حرجاً خصوصاً لانهمكانوا بعد في دور التأسيس والفتح،ولولا هذهالنعرة العربية التي تجلت في بني امية لكان الخطر على الدولة الحديثة خطراً حقيقيًّا ولكان من المتعذر التنبؤ بما عسى ان يحدث يومئذٍ من التحولات في النشوء الديني في الشرق الادنى

ومما يسترعي الانتباه في امر الخلافة ويشير الى معنى من المعاني السياسية الحديثة المهمة عهد الطاعة للخليفة فقد اطلق المسلمون على هذا العهد اسم البيعة وكانوا « اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد فاشبهذلك فعل البائع والمشتري »او اشبه « المقاولة الاجتماعية » المبنية على فكرة التراضي والتي شرحها (جان جاك روسو) وجعلها الاساس المشروع للحكومات فكانت سبباً للثورة الفرنسوية . ولا يضير هذه المبايعة الحرة ما أصابها من الاكراه في بعض الاحوال والانتقال من المصافحة بالايدي الى تقبيل الارض او اليد او الرجل او الذيل او غير ذلك من علامات الخنوع على الطريقة الغريبة عن العرب والتي دعاها ابن خلدون « كسروية »[٢] لان الاصل هو التعاقد الحر كما هو ظاهر اولاً من اللفظ الدال على البيع والشراء وثانياً من العمل الذي يدلّ على التراضي بالمصافحة يداً بيد

(١) الاسلام واصول الحكم ص١٠ (٢) « المقدمة » ص ١٧١

﴿ ابن خلدون ﴾ ويكون بحث السياسة في الاسلام ناقصاً اذا لم يذكر ابن خلدون بشيءٍ من الايضاح لان اسمهُ سيبقى مقروناً دائماً بالطريقة العقلية المنطقية في معالجة التاريخ الاسلامي، ولا تقل قيمة كتابته بهذا المعنى عن أثمن مخلفات المتقدمين السياسية من اغريق ورومان وهو الاقنوم الاخير في الثالوث الاجتماعي الذي يدخل فيهِ افلاطون وارسطاطاليس، وقد ذكر في « المقدمة » ان الخلافة الخالصة كانت في الصدر الاول الى آخر عهد علي ومن ثمَّ تحوَّلت الى ملك ولكن بقي هذا الملك محافظاً على معنى الخلافة بحيث لم يتغير فيها الاَّ الوازع فقد كان دينيًّا ثم انقلب عصبية وسيفاً ولكن معنى الخلافة ايضاً زال من بعد هرون الرشيد وولده لزوال عصبية العرب فلم يبق منها الاَّ الاسم وبلغ التحول في زمن ابن خلدون ان اصبح الامر ملكاً بحتاً « فكان الناس يدينون بطاعة الخليفة تبركاً والملك بجميع القابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منهُ شيء »

ومن الطف ما عمله ابن خلدون انهُ فرق بين الخلافة والملك والسياسة فجعل الملك حمل الناس على ما يقتضيه الغرض والشهوة ، والسياسة حملهم على ما يقتضيه النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية وهو ما يعادل كلمة Politics عند الاغريق، والخلافة حملهم على ما يقتضيه الشرع، وعنده ان السلطتين القضائية والتنفيذية هما في يد رأس الحكومة الاسلامية، وقد أيَّد ذلك بقوله لما كان الجهاد مشروعاً في الملة الاسلامية لعموم الدعوة وحمل الناس على دين الاسلام اتحدت فيها الخلافة والملك « لتوجه الشوكة من القائمين بها اليها معاً ، واما ما سوى الملة الاسلامية فلم تكن دعوتهم عامة (هذا خطأ) ولا الجهاد عندهم مشروعاً الاَّ في المدافعة فقط (وهذا من الوجهة العملية خطأ) فصار القائم بامر الدين فيها لا يعنيه شيء من سياسة الملك (وهذا من الوجهة التاريخية خطأ) لانهم غير مكلفين بالتغلب على الامم الاخرى وانما هم مطالبون باقامة دينهم في خاصة انفسهم » (١)

واستجدت في عصرنا هذا مساعٍ اصلاحية غايتها فصل الشؤون الدينية عن الشؤون السياسية تحريراً للاسلام من سلطة اوربا الاستعمارية فكأن المجددين على هذا النمط يرون إن التفريق بين حالة المسلمين المدنية المقيدة بالسلاسل والاغلال وحالتهم الدينية المبنية على عقائدهم الوجدانية يجب ان يفسح للدين مجالاً حرًّا تظهر مزاياه العملية ومقاييسه الاخلاقية بثوبها القشيب مما يؤول بالمسلمين في آخر الامر إلى ترقيتهم المادية والمعنوية ويسمح لهم بتنظيم شؤونهم بما لا يعرضهم للاحتكاك بالسلطة السياسية المتغلبة

بل ان بعض الكتَّاب المفكرين ذهب إلى أبعد من ذلك فجعل الاوضاع السياسية حتى في الصدر الاول ومنها الخلافة طبعاً ليست من الدين في شيء فالمسلمون اليوم أحرار في نظرهِ غير

(١) المقدمة ص ١٦١

مقيدين في انتخاب المنهاج السياسي الذي يلائم احوالهم ، ومن هؤلاء الكتّاب السيد علي عبد الرازق فقد ذهب في رسالتهِ « الاسلام وأصول الحكم » إلى ان الخلافة وضع سياسي حدث في زمن ابي بكر وان لقب خليفة رسول الله « كان سبباً من أسباب الخطإ الذي تسرَّب إلى عامة المسلمين فخيل اليهم ان الخلافة مركز ديني وان من ولي امر المسلمين فقد حل منهم في المقام الذي كان يحله رسول الله صلى الله عليه وسلم » [1]

« وكان من مصلحة السلاطين ان يروجوا ذلك الخطأ بين الناس حتى يتخذوا من الدين دروعاً تحمي عروشهم ، وتذود الخارجين عليهم .... حتى افهموا الناس إن طاعة الأئمة من طاعة الله ، وعصيانهم من عصيان الله .... وحرموا عليهم النظر في العلوم السياسية وباسم الدين خدعوهم وضيقوا عليهم ... ثم حرموا عليهم كل ابواب العلم التي تمس حظائر الخلافة وكل ذلك انتهى بموت قوى البحث ونشاط الفكر بين المسلمين .... والخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية .... ولا شيء في الدين يمنع المسلمين ان يسابقوا الامم الاخرى في علوم الاجتماع والسياسة كلها وان يهدموا ذلك النظام العتيق الذي ذلوا له واستكانوا اليهِ »

وغني عن البيان ان الغاية التي وضعها السيد علي عبد الرازق نصب عينيه هي تحرير العالم الاسلامي من الجمود المستحوذ عليهِ وفك مخالب القرون الوسطى الناشبة في عقليتهِ ». فعمله هو عمل اصلاحي اجتماعي جريء ، لكن لئن ساغ هذا الكلام من الوجهة الغائية فهو لا يسوغ من الوجهة التاريخية العلمية لان الاسلام لم يبق على معظم ما كان عليهِ قبل الهجرة من الاقتصار على التوحيد والتنزيه وهو فضيلته الكبرى وغايته العظمى والدرس البليغ الذي تلقاه كما يقول (اتش . جي . ولز) مما حدث في النصرانية من النظريات اللاهوتية[2] بل ان خوضه المعارك للدفاع عن حوزته بقوة السلاح حتى افتتح مكة عنوة واخضع العرب المشركين بالقوة أدى بالضرورة إلى تلك القواعد السياسية الدنيوية التي سارت وقواعده الدينية الاخروية كتفاً لكتف ، خصوصاً لان الاسلام دين عملي عالج اموراً واقعة اكثر مما عالج شؤوناً نظرية فليس من المعقول اذ يفتتح المدن وتتكلل هامته باكاليل الظفر الباهر من غير ان تكون له قواعد سياسية تتمشى البلاد بموجبها، ويتعامل الغالب مع المغلوب بمقتضاها ، ولكن هذا الكلام لا يمنع رجال الاصلاح ابداً ان يدرسوا الدين درساً تاريخيًّا نفسيًّا اجتماعيًّا يؤدي إلى احاطتهم بروح التشريع الاسلامي ومعرفتهم ما هو الجوهر وما هو العرض في جميع ما عمل باسم الدين وتحت تأثيره، فيروا موقفهم السياسي الخاص والقضايا الاجتماعية المتعلقة بهم على ضوء هذا الدرس التحليلي المستند إلى المكتشفات الحديثة ، وحينئذ لاتخالهم يصطدمون بشيء من العقبات فيما ينشدون من الاصلاح لان الدين متى كان عمليًّا في روحهِ جعل للمصلحة العامة اعتباراً فوق سائر الاعتبارات

(١) الاسلام واصول الحكم ص ١٠١ وما بعد

(2) Outline of History, p 329

سبيلا العظمة

الاول — اتبع القوم سر معهم وسايرهم ولكن اسرع الخطى فتقترب من مقدمتهم . ادفع الناس بالمناكب دس على الاقدام وان اعترضوك فكشر لهم وخاصمهم وسبهم فيوسعوا لك حتى تصير امام الجميع

التفت حينئذ الى الذين سبقتهم مزدرياً عاداتهم ممتهناً تقاليدهم وافعل ما تختار ولكن لا تتجاوز حد العقل . هذا سبيل العظمة سبيل الاستخفاف بالرفاق بعد سبقهم لانك اذا بقيت في صفوفهم وجاريتهم في رغائبهم احاطوا بك ودلوا عليك واستخفوا بك ونسوك فاربأ بنفسك وترفع عنهم فاما ان يعلو شأنك بينهم فيختاروك زعيماً لهم او ينقموا عليك وينتقموا منك فيقتلوك فتحسب شهيداً وتعبد

الثاني — تعلَّم تهذَّب قوِّ جسمك وعقلك انكر نفسك انهض الساقط ساعد المسكين ارشد الضال اقتفِ خطوات سقراط . سر في سبيل المسيح قد تقتل او تصلب ولكنك تلاقي حتفك مسروراً وتخلد اسمك . فأيهما تختار

[عن مقتطف نوفمبر ١٩٢٥]

سر النبوغ في الادب

لمصطفى صادق الرافعي

لو ترجمنا الخاطرة التي تمرُّ في ذهنَ الحيوان الذكي حين ينقاد في يد رجل ضعيف أبله يُصرِّفُهُ ويُديرُهُ على أغراضه فنقلناها من فكر الحيوان إلى لغتنا وأديناها بمعنى مما بين الانسان والحيوان لكانت في العبارة هكذا : ما أنت أيها الابله فيما بيني وبين الحقيقة المدبرة للكون الا نبيٌّ مرسل صلى الله عليك وسلم ... ذلك ان التركيب الذي يَبِينُ به الانسان من الحيوان قد جعل دماغ هذا الحيوان خاتماً من الله دمغ به على خصائصه فأفرغه الله في جلده ووضع في رأسه ذلك القفل الالهي الذي حبسهُ في باب الاضطرار من غرائزه البهيمية واقفل به على الدنيا العقلية المتَّسعة بينه وبين الانسان فالكون عنده لغوٌ كلُّهُ ليس فيه الا حقائق يسيرة ثم لا تفسير لهذه الحقائق الا من طبيعته هو، فجلده أدق تفسير فلكي... للشمس والنور والهواء وما يجيء منها وجوفهُ اصح تعبير جغرافي ... للكرة الارضية وما تحمل وجوعهُ وشبعهُ هما كل فلسفة الشر والخير في العالم

فأساس الذكاء عالياً ونازلاً هو التركيب الطبيعي لاغيره، لو زادت في الدماغ ذرة أو نقصت لزادت للدنيا صورة أو نقصت فبالضرورة تكون هذه هي القاعدة فيما نرى من تباين حدَّة الذكاء في أفراد كل نوع من الحيوان وما نشهد من ذلك في أحوال الناس من الفطنة الى الذكاء[1] إلى الالمعية إلى الجهبذة إلى النبوغ الى العبقرية وهي طبقات من ألفاظ اللغة لاحوال قائمةٍ من هذه المعاني ترجع إلى درجات ثابتةٍ في تركيب الدماغ

ومما يسجد له العقل الانساني سجدة طويلة . اذا هو تأمل في حكمة الله ومرَّ يتصفح من أسرار ما نحن بسبيله من الكلام على النبوغ — ان هذا الوجود الذي يحمل اسرار الالوهية هو كرة متقاذفة في الفضاء الابدي وان الارض التي تحمل أسرار الانسانية هي كرة طائرة فيما مُدَّ لها من الوجود وان كل حي فيها يحمل أسرار حياته في كرة خاصة به هي رأسه. وان الوجود من كل حي هو بعد ذلك ليس شيئاً في النظر ولا في الحس ولا في الفهم الا كما يُرى ويحسُّ ويفهم في هذا الرأس بعينهِ على طريقته وتركيبه ، فيصعد التدريج الى الكبير الى الاكبر وينزل إلى الصغير الى الاصغر ثم لا معنى لما صعد الا مما نزل ، وبهذا ستكون آخرة جميع العلوم متى نفذ العلماء الى السر الحقيقي ان العقل الانساني فهم كل شيء ولم يفهم شيئاً . . . .

(١) عندنا ان الفطنة في اللغة دون الذكاء تقابل ما عند الحيوان من التنبه . والذكاء التوقد واللهبان

والناس يختلفون بتركيب أدمغتهم على شبيه من هذا التدريج . فأما واحد فيكون دماغه باعتباره من سائر الناس في الذكاء والعقل كالوجود المحيط وأما آخر فكالشمس ثم غيرها كالارض ثم الرابع كالانسان ثم يكون منهم كالحيوان ومنهم كالحشرة ، ولا علة لكل هذا الاّ ما هيأت الاقدار « بأسبابها الكثيرة » لكل انسان في تركيب دماغه في نوع المادة السنجابية من المخ ، وأحوال التركيب في الملايين من الخلايا العصبية ،وما لا يعد من فروع هذه الخلايا وشُعبها ، ثم ما يكون من قبل العلاقات بين هذه الفروع التي هي لكل رأس كرمل الكرة الارضية ، ثم اختلاف مقادير المواد الكيماوية التي تتخلق في غدد الجسم وتنفثها الغدد في الدم

فقد يكون العمل النابغ المتمرد على العقول آتياً من قطرة في هذه الغدد كما ينبعث العملاق المارد بعظامهِ الممتدة والواحه المشبوحة من غدتهِ النخامية لا غيرها

فالذكي من ذكيٍّ مثله انما هو كالجيش من جيش بازائه يقع الاختلاف بينهما فيما اشتملا عليه من كثرة الجند وصفاتهم من القوة والضعف واحوالهم من النظام والاختلال وقوة آلاتهم ومقدارها ونوع الاختراع فيها ثم طبيعة موضعهم وحسن توجيههم وقيادتهم وما اكتنفهم من صعب أو سهل وما تظاهر عليهم من الحوادث والاقدار ثم التوفيق الذي لا حيلة فيهِ ان وقع في حصة احدها واستقر أو وقع هوناً وطار للآخر . وبنحوٍ من هذا كله تكون المفاضلة اذا وازنت بين اثنين من النوابغ في حقيقة نبوغهما

فالنابغة خَلقٌ من خالقهِ يصنع كما ترى بأقدار الله اذ هو قدر على قومهِ وعلى عصره وهو من الناس كالورقة الرابحة من ورق السحب (اليانصيب) ، سلَّةُ يدٍ جعلتها مالاً وتركت الباقيات ورقاً وأحدثت بينهما الفرق الذهبي ، وبهذا لا يستطيع العالم ان يزيد الدنيا نابغة الاّ اذا استطاع ان يزيد في الكواكب نجماً فيصنعهُ . وهبهُ صنعهُ من الكهرباء فيبقى ان يحمله واذا حملهُ بقي ان يرفعهُ الى السموات وهبهُ قد رفعهُ فيبقى كل شيء ... يبقى عليهِ ان يقحمهُ في النجوم ويرسله فيها يدور ويتفلَّك

وكما يخلق النابغة بتركيبه تخلق لهُ الاحوال الملائمة لعمله الذي خص به في أسرار التقدير عاملاً نافعاً وان كانت لا تلائمه هو منتفعاً فانه هو غير مقصود الا من حيث انه وسيلة أو آلة تكابد ماتحتمل في أعمالها ويؤتَّى لها لتأخذ على طريقة وتعطي على طريقة ، وبذلك يرجع التقدير الى ان يكون العقل النابغة دليلاً للناس من الناس انفسهم على الخالق الذي هو وحده أمره الامر

واذا كان الجمال يستعلن في كلام هؤلاء النوابغ والخيال يظهر في تعبيرهم والحكمة تهبط الى الدنيا في تفكيرهم والمثل الاعلى هم الداعون اليهِ والاشواق النفسية هم موقظوها والعواطف هم المصورون لها وسرور الحياة هم الذين حولوه إلى الفن . إذا كان هذا كله فهذا كله انما هو توكيد لاتصالهم بالقوة الازلية المدبرة وأنهم أدواتها في هذه المعاني فما هي أعمالهم اكثر مما هي أعمالها وقد يظن الناس ان النابغة يلتمس القوى المحيطة بهِ ليبدع منها والحقيقة انها هي تلتمسه لتبدع بهِ

وبعدُ فالنابغة كأنه انسان من الفلك فهو يخزن الاشعة العقلية ويُريقها وفي يده الانوار والظلال والالوان يعمل بها عمل الفجر كلما أظلمت على الناس معاني الحياة ، ولا تزال الحكمة تلقي اليهِ الفكرة الجميلة ليعطيها هو صورة فكرتها وتوحي اليهِ معنى الحق ليؤتيها هو معنى جمال الحق . والطبيعة خلقها الله وحده ولكنها ليست معقولةً الاّ بالعلم وليست جميلة الا بالشعر وليست محبوبةً الاّ بالفن ، فالنوابغ في هذا كله هم شروح وتفاسير حول كلمات الله ، وكلهم يشعر بالوجود فنّاً كاملاً ويشعر بنفسه شرحاً لاشياء من هذا الفن ويرى معاني الطبيعة كأنما تأتيهِ تلتمس في كتابتهِ وشعره حياةً اكبر وأوسع مما هي فيه من حقائقها المحدودة ، وتتعرض له أحزان الانسانية تسأله ان يصحح الرأي فيها باستخراج معناها الخيالي الجميل فانها وان كانت آلاماً وأحزاناً الاّ ان معناها الخيالي هو سرور تحمله للناس اذ كان من طبيعة النفس البشرية ان تسكن إلى وصف آلامها وفلسفة حكمتها حين تبدو بصائرها حاملة أثرها الالهي كأن المؤلم ليس هو الألم وانما هو جهل سره

وبالجملة فالكون يختار في كل شيء مفسره العبقري ليكشف من غموضهِ ويزيد فيهِ أيضاً .... ثم ليؤتي الناسَ المثل الأعلى من المعنى على يد المثل الاعلى من الفكر . ولهذا تصيب الكلام الذي يكتبه النابغة الملهَم في أوقات التجلي عليه كأنه كلام صوَّر نفسهُ وصاغها او كأنه قطعة من الحس قد تجسَّدَتْ في أسطر ، ولابد ان تشعرك الجملة أنها قذفت وحياً إذ لا تجدها الاّ وكأن في كلماتها روحاً يرتعش . ولقد يخطر لي وانا أقرأ بعض المعاني الجميلة لذهن من الاذهان الملهَمة كشكسبير والمتنبي وغيرهما حين أتأمل اختراع المعنى وأبداع سياقه وضُحى البيان عليه واشراقهُ فيه وما أتيح له من جلال ظاهر في شكل حي يلمح بسرهِ في النفس — يخيل اليَّ من ذلك ان سر الطبيعة القادر يعمل عمله أحياناً بذهن انساني ليخلق تعبيراً عن جلالهِ في مثل جلاله

وأنت فلو أخذت معنى من هذه المعاني الآتية من الالهام وأجريتهُ في كتابة كاتب أو شعر شاعرٍ من الذين ليس لهم الاّ أذهانهم يكدونها وكتبهم يجعلونها أذهانهم أحياناً . . . . لرأيت الفرق بين شيء وشيء في أحسن ما انت واجده لهم على نحو ما ترى بين زهرة حريرية جاءت من عمل الانسان بالابرة والخيط وزهرة أخرى قد انبثقت عطرة ناضرة في غصنها الاخضر من عمل الحياة بالسماء والارض

والعبقري هو أبداً وراء ما لاينتهي من جمالٍ أولهُ في نفسهِ وآخره في الجمال الأقدس الذي مسح على هذه النفس الجميلة السامية . فما دام فيهِ سر العبقرية فهو دائب يعمل ممزقاً حياته في سبحات النور تمزيقاً يجتمع منهُ أدبهُ وما أدبه الاّ صورة حياته ، وهو كلما أبدع شيئاً طلب الذي هو أبدعُ منه فلا يزال متألماً إن عمل لان طبيعته لا تقف عند غاية من عملهِ ومتألماً إن لم يعمل لان تلك الطبيعة بعينها لا تهدأ الاّ في عمل . وهي طبيعة متمردة بذلك الجمال

الاقدس تمرد العشق في حامله إذ هما صورتان لامر واحد كما سنشير اليه . فكل ما تجده في نفس العاشق المتدله مما يترامى به الى جنونهِ وهلاكه تجد شبهاً منه في نفس العبقري فكلاهما قانونهُ من طبيعته وحدها إذ قد اتخذت حياتهُ شكلها الفني من ذوقه هو وحده فليس يتبع طريقة أحد بل هو طريقة نفسه[1] ، وكلاهما مسترسل أبداً إلى جمال مستفيض على روحه يتقلب فيها باللذة والألم يرجع اليهِ ويستمدُّ منهُ. وكلاهما لا يجد المعنى الجميل في الطبيعة معنىً بل رسولاً من الجمال أرسل اليهِ وحده ولا يزال يشعر في كل وقت أن لهُ رسائل ورُسُلاً هو يمدُّ في انتظارها . وكلاهما متى ظفر بشيءٍ من مصدر الجمال انتهى من شدة فرحه الى الظن انهُ ربح من الكون ربحاً لم يكن لهُ من قبل . وكلاهما متهالك بين قيود الحياة التي في الحياة والواقع وبين حريتها التي في خياله وأمله كأنْ عليهِ في سبيل هذه الحرية أن يقطّع الليل والنهار لا قيداً من قيود الاجتماع او العيش. وكلاهما متصلٌ بقوة غيبية وراء ما يُرى وما يحسُّ تجعل نظرته في الاشياء خاضعةً لقانون النظرة العاشقة في العينين الساحرتين المعشوقتين ، فاذا مدَّ عينيهِ في شيءٍ جميل فهناك سؤال وجوابهُ ووحيٌ وترجمةُ ومرور من يقظة الى حلم وانتقال من حقيقة الى خيال

غير أن طبيعة العبقري تزيد على كل ذلك ألماً تنفرد بهِ لا تستقرُّ معهُ على رضا ولا يَبْرحُ يُسلّط الإعنات عليها ويستغرقها بالهموم السامية وذلك ألم الكمال الفني الذي لا يدرك العبقري غايته عند نفسه وان كان عند الناس قد أدرك غايات وغايات . فطبيعة كل عبقري تجهد جهدها في العمل لتُخرج بهِ مما يستطيعهُ الناس فاذا تأتّى صاحبها لذلك وكابد فيهِ وأدرك منهُ وبلغ وأعجز اندفعت طبيعتهُ الى الخروج مما يستطيع هو .... كأنهُ خارجٌ عن الطبيعة وداخل في الطبيعة في وقت معاً وكانهُ نفسهُ وفوق نفسه في حال، وهذا سرُّ حريتهِ وسموه كما انهُ سرُّ ألمهِ وحَيْرته

ومن أثر ذلك ما تحسُّهُ أنت اذا قرأت للاديب البليغ التامّ صاحب الفكر والاسلوب والذهن الملهَم فانك تقف على المعنى من معانيهِ يملأ نفسك ويتمدَّد فيها ويهتزُّ بها طرباً

---

(١) لا وجه عندنا لما استعمله بعض الكتاب في الادب من قولهم مدرسة امرىء القيس ومدرسة النابغة ونحو ذلك ترجمة حرفية لقول الاوربيين مدرسة فلان ومدرسة فلان فان الادب ان كان تقليداً فهو ادب منحط لا يجعل مدرسة يحتذى عليها ويتخرج بها وان كان ابداعاً فليس الابداع مدرسة تكون بالتعليم والتلقين ويتخرج بها الواحد والمائة والالف على طراز لا يختلف . انما تنطبق هذه الكلمة على المذاهب المستقرة في الفنون التعليمية وفي هذا لا تطلق في الادب العربي الا على فئتين فقط هما البصريون والكوفيون على ان كلمة مذهب هي المستعملة في هذا وهي اسد منها اذ يدل المذهب على منحى اختاره الرأي وذهب اليه فكأنه عن تحقيق في صاحبه وتابعيه . اما تسمية مجموعة الالهامات التي مرت في ذهن نابغة من النوابغ بالمدرسة فتسمية مضحكة باردة اذ الالهام بصيرة محضة وما هو مما يقلد وقلما تشابه ذهنان على الارض في عناصر التكوين التي يأتي منها النبوغ . وقد قال علماؤنا طريقة فلان وطريقة فلان فالطريقة هي الكلمة الصحيحة لان عليها ظاهر العمل واسلوبه يتوجه بها من يتوجه ويقلد فيها من يقلد اما سر العمل فهو سر العامل ايضاً وهو شيء في الروح والبصيرة . وهو في العبقري امر لا يستطيعه انسان وشذ في انسان بخصوصه

واعجاباً فتقول لا أحسنَ من هذا ثم تؤمل مع ذلك ان تجد منهُ هو أحسن من هذا . . . . كانهُ وإن تناهى الى الغاية لا يزال عندك فوق الغاية. وهذا غريبٌ ولكن لا دليل على العبقرية الاَّ الغرابة دائماً فهي نظامٌ لا نظامَ فيهِ لانها طريقةٌ لا طريقة لها . وبهذه الغرابة جاءَت العبقرية كلها أمثلةً وليس فيها قواعد يحتذى عليها ولا هدايةَ فيها الاَّ من الروح واذا كان الفن قدرةً متصرفةً في الجمال فالعبقرية قدرة متصرفةٌ في الفن ، والنابغة كالمتكيّس [١] الذي معهُ قوى العقل ويريد أن يزداد على قدرهِ منها ولكنَّ العبقريّ كالالهيّ الذي معهُ قوى الروح ويريد ان يزيد الناس على قدرهم بها ، وذاك مرجعهُ الفكر الدقيق الباحث وهذا مناطه البصيرة الشفَّافة النافذة وهي اغرب الغرائب في الانسان إذ هي الجهةُ المطلقة في هذا المخلوق المقيَّد وبها تتسع النفس لادراك المطلق الظاهر من خلال الموجودات وفيها تتحول الاشياء من نظام الحاسَّة الى نظام الروح فيُسمعُ المرئيُّ ويبْصر المسموعُ وتخلع الاجسام انغاماً وتلبس الاصواتُ اشكالاً ويبدو عندها كل مخلوق وكأن فيهِ بقية زائدة على خلقه تُركت ليعمل فيها الكاتب او الشاعر المحدَّث [٢] عمل فنه الزائد على الطبيعة بالحاسة الزائدة على ذهنه وهي التي نسميها الإلهام

وهذه الحاسة هي كذلك من بعض الغرابة تكون في صاحبها الموهوب كما تكون حاسة الاتجاه في الطيور التي تقطعُ في جو السماء الى غاياتها البعيدة من قطب الارض الى قطبها الآخر بغير دليل تحمله ولا رسم تنظر فيهِ ولا علم ترجع اليهِ ، وكما تكون حاسة التمييز في النحل الذي يبني عسَلَتَهُ على هندسة ليست من كتاب ولا مدرسة ، وحاسةُ التدبير في النمل الذي يدبّر مملكتهُ بغير علوم الممالك وسياستها . وكثيراً ما يجيء الاديب الملهم من حقائق الفكر وبيانه وأسرار الطبائع واوصافها بما يغطي على فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء ؛ ومثل هذا العبقري هو عندي فوق العلم لا أقول بدرجة ولكن بحاسة

وبالالهام يكون لكل عبقري ذهنهُ الذي معهُ وذهنهُ الذي ليس معهُ اذ كانت له من وراء خياله قوة غير منظورة ليست فيهِ ومع ذلك تعمل كما تعمل الاعضاء في جسمه هيّنة منقادة كأنها تتصرف على اطّراد العادة بلا فكر ولا روية ولا عسر ما دامت تتجلّى عليهِ

وليست تتصل هذه القوة الاَّ بتركيب عصبي تكون فيهِ الخصائص التي تصلح أن تتلقى عنها وهي في العبقريين خصائص مَرَضية في الاعم الاغلب بل لعلها كذلك دائماً ليتيسر بها

---

(١) من الكيس وهو العقل فيكون عاقلا ويريد ان يزداد على مقداره (٢) هذه هي الكلمة القديمة التي تقابل ما نسميه العبقري بلغة عصرنا كأن الاشياء تحدثه باسرارها او تحدثه بها قوة أعلى من القوى الانسانية واذا كان محدثاً فمعنى ذلك انه ينطق عن سمع من الغيب. ومن ذلك ما زعم العرب من ان لكل شاعر شيطاناً ينفث على لسانه وهو وصف دقيق للعبقرية الا انه باللغة الجاهلية وقد صححه النبي صلى الله عليه وسلم فقال لشاعره حسان : قل وروح القدس معك . وفي كلمة « روح القدس » . تنطوي فلسفة العبقرية كلها

العبقريّ لحالة خفيفة من الموت .... يحمل بها كدَّه وتعبه وما يعانيهِ من مضض الفكر وثقلته ، ثم لتكون هذه الحالة كالتقريب بين عالم الشهادة فيهِ وبين عالم الغيب منهُ . فالتركيب العصبي في دماغ العبقري انسان على حياله مع انسان آخر ، أحدهما لما في الطبيعة والثاني لما وراء الطبيعة ، ومن ثمَّ كان الرجل من هذه الفئة كالمصباح يتقد وينطفيء لانهُ آلة نور تعرض لها العلل فتذهب بقدرتها عليهِ ، وتنضب مادة النور منها فكذلك لا تقدر عليهِ ، وتكون مضيئة فتنطفيء بسبب ليس منها ولا من نورها وهي على كل هذه الاحوال لا تملك منها حالة .

فبينما العبقري الذي يملأ الدنيا من آثاره النابغة تراه في حالة من أحواله يدأب لا يأتلي فيجدّ في العمل ويبذل الوسع فيهِ ويصبر على مطاولة التعب في إحكامه ويفيض بهِ فيضاً وكأن في طبيعتهِ الربيع المتفتح طول ايامه بالجمال اذا هو في حالة اخرى يتلكأ ويتربص لا يعمل شيئاً كأنما دخل في قريحته الشتاء ، وفي ثالثة يتباطأ ويتلبث فلا يعنّ له جديد كأنما حبس عنهُ فكره أو نبا طبعهُ أو هو في قيظ طبيعتهِ وخمولها وضجرها ثم لا تمضي على ذلك الاّ تورَّة وساعة فاذا على صيفهِ هو انوفمبر وديسمبر... واذا هو منبعث ملء القوة والنشاط . وربما يأخذ في غرض من الكتابة قد رسم له المعنى وهيأ له المادة فلا يكاد يمضي لنحوٍ منهُ حتى تتناسخ في ذهنه المعاني فاذا هو يكتب ما لا يشبه ما كان ابتدأ بهِ ويأتيه غير ما كان قد أراده كأنما يُلقَى عليهِ فهو يستملي . وقد يبتدئ معنى ثم يُقطَع عنهُ بطارئ من عمل او حديث ثم يُعاوده فاذا معنى آخر واذا جهةٌ من الفكر هي جهة الابداع والاختراع في موضوعهِ واذا هو انما كان يُجَرُّ بذلك الصارف عن معناهُ الاول جرًّا ليدعهُ الى الأكمل والاصح ، وأيقن انهُ لو كان استوفى على ما بدأ لأسفَّ وضعف وجاء بما غيره أقدرُ عليهِ كأن هذه القوة الخفية التي تلهمهُ تنقّح لهُ ايضاً بأساليبها الغريبة . وقد يكون آخذاً في عمله ماضياً على طبعه مسترسلاً الى ما ينكشف له من أسرار المعاني ثـقفاً من هنا لقفاً من هناك[1] ثم ينظر فاذا هو قد مُسِح لوح خياله ويطلب المعنى فلا يتاح له ويتمادى فلا يزيد الا كدًّا وعسراً كأنما ذهب إلهامه في غمضٍ من غموض الابدية[2] وكل من ارتاض بصناعة الفكر واستحكمت له عادتها ومرَّ في درجاتها حتى بلغ المكانة التي يستشرف منها للإلهام ويتعرض فيها بروحه وبصيرته لنبَضات الوحي وانكشافات الغيب يعلم أن كل معنى بديع يأتي بهِ في صناعته انما يقع له إلهاماً من ذلك المعنى الحي المتمدد في

(١) يقال هو ثقف لقف اي سريع الفهم لما يلقى اليه ولكننا استعملناه كما ترى فجاء أشد تمكناً من اصله

(٢) قالوا كان الفرزدق وهو فحل مضر في زمانه يقول : تمر علي الساعة وقلع ضرس من اضراسي اهون علي من عمل بيت من الشعر . وذكروا انه كان من عمله اذا استصعب الشعر عليه أن يركب ناقته ويطوف وحده خالياً منفرداً في شعاب الجبال وبطون الاودية فينقاد له الكلام . وأخبارهم كثيرة في الطرق التي يستعان بها على الشعر ويجتاب بها نافره ، والحقيقة انها علل من النفس تعارض حالة الالهام الى أن تزول وتصفو النفس منها أو أسباب تتفق ولا تلهم شيئاً الى أن تتغير باسباب ملهمة

الكائنات كلها ظاهراً في شيء منها بالضوء وفي أشياء بالالوان وفي بعضها بالحركة وفي بعضها بالانسجام وفي بعضها بالروعة والفخامة وفي غيرها بنصبَة الهيئة وظاهراً في حالات كثيرة بانهُ غير ظاهر ، ويعرف كذلك أن هذا المعنى الشامل الذي لايحد هو الذي ينقل الوجودَ كله الى نفوس النوابغ [1] متى نبض في هذه النفوس الرقيقة وأشعرها سرَّه. واذا همَّ النابغة أن يتوضحه لا يرى شيئاً واذا ارادحجة عليه لم يستطع الجلاء عن بيانه بكلمة واذا التمس التعريف به لم يجد الا ما يشهد له إحساسه وقلبه . وهذا الذي ينقدح في أذهان النوابغ أفكاراً حين يفيضُ لكل منهم بسبب من قراءة او مشاهدةٍ او حالةٍ او مراسٍ ، هو هو بعينه الذي ينقدح عشقاً في قلوب المحبين حين يتراءى لكل منهم في معنى على وجه جميل ، ومن ثم كان النابغة في الادب لا يتم تمامهُ الاَّ اذا أحب وعشق وكان الادب نفسه في تحصيل حقيقته الفلسفية ليس شيئاً سوى صناعة جمال الفكر

وهذا العمل في ذلك الجهاز العصبي الخاص به في بعض الادمغة هو الذي كان يسميه علماء الادب العربي بالتوليد وقد عرفوا أثره ولكنهم لم يتنبهوا الى حقيقته ولا ادركوا من سره شيئاً واحسن ما قرأناه فيه قول ابن رشيق في كتاب العمدة : انما سمي الشاعر شاعراً لانهُ يشعر بما لا يشعر به غيره فاذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ، او استطراف لفظ وابتداعه ، او زيادة فيما اجحف فيه غيره من المعاني او نقص مما اطاله سواه من الالفاظ او اصرفُ معنى الى وجه عن وجه آخر كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة ولم يكن له الاَّ فضل الوزن. هذا كلام ابن رشيق وليس لهم احسن منهُ وهو مع ذلك تخليط لا قيمة لهُ وليس فيه من موضوعنا الاَّ لفظ التوليد

ومما لا نقضي منهُ عجباً في تتبع فلسفة هذه اللغة العربية العجيبة اننا نرى اكثر الفاظها كالتامة لا ينقصها شيءٌ من دقائق المعنى في اصل وضعها على حين لا يفهم علماؤها من هذه الالفاظ الاَّ بعض ما تدل عليه كانها منزَّلة تنزيلاً ممن يعلم السر وقد نبهنا الى هذا في كتابنا (تاريخ آداب العرب) وافضنا فيه واستوفينا هناك من فلسفته. وجاء القرآن الكريم من هذا بالعجائب التي تفوت العقل حتى ان اكثر الفاظه لتكاد تكون مختومة نزلت كذلك لتفُضَّ العلوم والفلسفة خواتمها في عصور آتية لا ريب فيها [2]. وكلمة التوليد التي لم يفهم منها العلماء الاَّ اخذ معنى من معنى غيره بطريقة من طرق الاخذ التي اشاروا اليها في كتب الادب — هي الكلمة التي لا يخرج عنها شيء من إسرار النبوغ ولا تجد ما يسدُّ في ذلك مسدَّها او يحيط احاطتها ولا نظن في لغة من اللغات ما يشبهها في هذه الدلالة واستيعابها كل اسرار المعنى اذ هي بلفظها نصٌّ على حياة الكون في الذهن الانساني وانهُ يتخذه وسيلة لابداع معانيه كما يتخذ سرُّ الحياة بطن

(١) هناك فرق علمي بين ما يسمى نبوغاً وما يسمى عبقرية ولكنا في هذا الفصل اطلقنا الكلام وقيدنا في مواضع بخصوصها ، ويكاد الفرق بين النابغة والعبقري في جماع امره أن يكون كالفرق بين التلغراف الذي طريقه مادة السلك وبين الآخر الذي طريقه روح الجو . فكلاهما هو الآخر ولكن احدهما لا بد له من طريق مسلوك والآخر طريقه كل الطرق أي فوق أن يقيد بطريقة

(٢) على هذا المعنى وكشف اسراره في آيات القرآن سيبنى كتابنا الجديد «اسرار الاعجاز»

الأم وسيلة لابداع موجوداته ، وان المعاني تتلاقح فيلد بعضها بعضاً في اسلوب من الحياة وان هذه هي وحدها الطريقة لتطور الفكر واخراج سُلالاتٍ من المعاني بعضها اجمل من بعض كما يكون مثل ذلك في النسل بوسائل التلقيح من الدماء المختلفة ، وان النبوغ ليس شيئاً الاَّ التركيب العصبي الخاص في الذهن. ثم نمو هذا التركيب مع الحياة في طريقةٍ سواءٍ هي وطريقة الولادة الحيية التي مرجعها كذلك الى تركيب خاص في احشاء الانثى ينمو ثم يدرك ثم يعمل عمله المعجز . واذا كان من كل شيء في الطبيعة زوجان فالكلمة نصٌّ على ان اذهان النوابغ اذهان مؤنثة في طباعها التي بنيت عليها ، وهذا صحيح اذ هي اقوى الاذهان على الارض في الحسّ بالآلام والمسرات ، ومعاني الدموع والابتسام اسرع اليها من غيرها بل هي طبيعة فيها . وهي وحدها المبدعة للجمال والمنشئة للذوق وعملها في ذلك هو قانون وجودها ، ثم هي قائمة على الاحتمال والاعطاء والرضا بالحرمان في سبيل ذلك وادمان الصبر على التعب والدقة والاهتمام بالتفاصيل وأساسها الحب ،وكل ذلك من طباع الانثى وهي النابغة فيهِ بل هي النابغة بهِ

فسر النبوغ في الادب وفي غيره هو التوليد وسر التوليد في نضج الذهن المهيأ بأدواته العصبية المتجه الى المجهول ومعانيه كما تتجه كل آلات المرصد الفلكي الى السماء واجرامها . وبذلك العنصر الذهني يزيد النابغة على غيره كما يزيد الماس على الزجاج والجوهر على الحجر والفولاذ على الحديد والذهب على النحاس ،فهذه كلها نبغت نبوغها بالتوليد في سر تركيبها ويتفاوت النوابغ انفسهم في قوة هذه الملكة فبعضهم فيها اكمل من بعض وتمدُّ لهم في الخلاف احوال ازمانهم ومعايشهم وحوادثهم ونحوها، وبهذه المباينة تجتمع لكل منهم شخصية وتتسق له طريقة وبذلك تتنوع الاساليب ويعاد الكلام غيرما كان في نفسه وتتجدد الدنيا بمعانيها في ذهن كل اديب يفهم الدنيا وتتخذ الاشياء الجارية في العادة غرابة ليست في العادة ويرجع الحقيقيُّ اكثر من حقيقته

وقد سئل مصور مبدع بماذا يمزج الوانهُ فتأتي ولها اشراقها وجمالها ونبوغ معانيها وزهو الحياة بها في الصورة فقال : انما امزجها بمخي . وهذا هذا فان الالوان عند الناس جميعاً ولكن مخه عنده وحده وله تركيبه الخاص بهِ وحده وسر الصناعة في توليد هذا الدماغ فكأن الوانه في صناعته جاءت منه بخصوصه ، وكذلك كل ما يتناولهُ العبقري فانك لتجد الشعر في وزن خاص بهِ يدل عليه ويتمم الغرض منهُ ويضيف الى معانيه أنقاً من الجمال وحسنه والى صوته نغماً من الموسيقى وطربها . فما اشبه الجهاز العصبي في دماغ كل نابغة ان يكون وزناً شعريًّا لهذا النابغة بخاصته . الا ترى انك لا تقرأ الاديب الحق الاّ وجدتَ كل ما يكتبهُ يجيء في وزن خاص بهِ حتى لا تخرج عنهُ مرة او تزيد انت فيهِ وتنقص الاّ ظهر لك انهُ مكسور ...؟

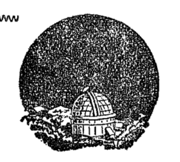
والذهنُ العبقريُّ لا يتخذ المعاني موضوع بحث ونظر وتعقُّب يستخرج منها او يتعلق عليها فهذا عمل الذهن الذكي وحده وهو غاية الغايات فيه يبحث وينظر ويتصفح ويجمع من هنا

ويأخذ من ثمَّ ويعترض ويصحح ويأتيك بالمقالة يحسب فيها كل شيء وما فيها الاّ اشياؤه هو وأمثاله . اما الذهن العبقري فليس له من المعاني الاّ مادة عمل فلا تكاد تلابسه حتى تتحول فيه وتنمو وتتنوَّع وتتساقط له اشكالاً وصوراً في مثل خطرات البرق، وربما غمر بالمعنى الواحد في جماله وسموه وقوة تأثيره مقالاتٍ عدة لاولئك الاذكياء فنسخها نسخاً وجعلها منهُ كالشموع الموقدة بازاء الشمس . فاذا ذهبت توازن بين مثل هذا المعنى ومثل هذه المقالات في الروعةِ والجلال ورأيت عربدة المقالة وغرورها لم تستطع الاّ ان تقول لها : يا حصاة الميزان في احدى كفتيه ألا يكفيك الجبل في الكفة الاخرى .... ؟

وقد عرف الادباء جميعاً ان كاتب فرنسا العظيم اناتول فرانس كان يكتب الجملة ثم ينقحها ثم يهذبها ثم يعيدها ثم يرجع فيها وهكذا خمس مرات الى ثمان ويقدّم ويؤخر من موضع الى موضع ويحتسبون هذا تحكيكاً وتهذيباً وما هو منها في شيء ولا احسب الاوربيين انفسهم تنبهوا الى سر هذه الطريقة وانما سرها من جهاز التوليد في رأس ذلك الكاتب العظيم فاذا قرأ كتابة حوَّلها فكره وابدع له منها من غير ان يعمل في ذلك او يتكلف له الاّ ما يتكلف من يهز اليهِ بجذع الشجرة لتساقط عليه ثمراً ناضجاً حلواً جنيَّا. فكلما قرأ ولّد ذهنه فيثبت ما يأتيه فلا تزال صورة تخرج من صورة حتى يجيء المعنى في النهاية وانهُ لأغرب الغرائب لا يكاد العقل يهتدي الى طريقته وسياق الفكر فيهِ اذ كان لم يأت الاّ محولاً عن وجههِ مرات لامرة واحدة

فجهاز التوليد متى استمر واستحكم في انسان اصبح له بمقام ملَك الوحي من النبي وهو عندنا دليل من اقوى الادلة على صحة النبوة وحدوث الوحي وامكانهُ اذ لا تتصرف بهِ الاّ قوة غيبية لا عمل للانسان فيها بل هي تبدع ابداعها وتلقي عليهِ القاءً . وليس كل من تعرض لها ادرك منها ولا كل من ادرك منها بلغ بها بل لا بدّ لها من الجهاز العصبي المحكم كجهاز اللاسلكي الدقيق المصنوع لتلقي ابعد الامواج الكهربائية واقواها . وهذه القوة ان ارادت معاني الجمال اخرجت الشاعر وان ارادت كشف السر عن الاشياء اخرجت الاديب وان ارادت حقائق الوجود اخرجت الحكيم . فان كان الامر اكبر من هذا كله وكان امر تغيير الحياة وصبّ ازمانٍ جديدة للانسانية والوثوب بهذه الدنيا درجة او درجات في الرقي فهنا تكون الوسيلة اكبر من البصيرة فليس لها من قوة الغيب الاّ الوحي ويكون الغرض اكبر من الشاعر والاديب والحكيم فلا يختار الاّ النبي ثم لا يوحى اليهِ الاّ وهو في حسٍّ لساعة الوحي وحدها وهي ساعة ليست من الزمن بل من الروح المنصرف عن الزمن وما فيه ليتلقى عن روح الخلد ، وقريب من ذلك خلوة النابغة بنفسه في ساعة التوليد . فسر النبوغ من سرّ الوحي لا ريب في ذلك ، وما اسهل سرّ الوحي وأيسر أمرَهُ ولكن في الانبياء وحدهم وهنا كل الصعوبة...

« ان نكون او لا نكون هذه هي المسألة »



كان الكون ذرة وانفجرت

نظرية الاب لمتر في اصل الكون

— ١ —

كل الشموس والسيارات والاقمار نشأت من ذرة ضخمة على اثر انفجارها وتمزقها

بهذا تلخص نظرية الاب لمتر Lemaitre في أصل الكون . وهي من اغرب النظريات العلمية الحديثة وابعثها على الدهشة . وقد عني بها علماء الفلك والرياضة في انحاء العالم ، لانها على غرابتها ، تفسر كثيراً من الحقائق المشاهدة التي حار العلماء في تعليلها

ويرى الاب لمتر ان مادة الكون كلها كانت محشوكة في ذرة ضخمة ظلت ساكنة مستقرة الى قبل عشرة آلاف مليون سنة . ثم انفجرت فجأة كما ينطلق صاروخ من الصواريخ النارية في حفلة وفاء النيل . فانتثرت منهُ الشموس التي يتألف منها الكون

اما كيف تنفجر بعض الذرات فيستجلي في التجربة الآتية : — خذ ساعة ارقام مينائها مصنوعة من مادة فصفورية ، واذهب الى غرفة مظلمة ، وانظر الى الارقام الفصفورية بعدسة مكبرة ترَ الشرر الناري منطلقاً منها. واذ انت تشاهد هذا الشرر المتطاير تذكر ان كل شرارة تنطلق من ذرة منفجرة . وفي كل ذرة منفجرة ترى صورة مصغرة لنظرية الاب لمتر

والمسلَّم بهِ ان ذرة الراديوم تبقى نحو ١٧٣٠ سنة ساكنة هاجعة ثم تنفجر فتنطلق منها الدقائق كما انفجرت ذرة الكون الاصلية وانطلقت منها الشموس .

وهذه النظرية تعلل لنا ظاهرة من اغرب الظاهرات العلمية وهي ظاهرة الكون الآخذ في الاتساع أو التمدد Expanding Universe . فالتلسكوبات الكبيرة تبين ان في رحاب الكون ملايين من السدم العدسية الشكل خارج المجرة . والذي عليهِ العلماء الآن ان المجرة نفسها سديم من هذا القبيل وان شمسنا واحدة من الوف الوف الشمس التي تتألف المجرة من مجموعها. واحد هذه السدم — سديم Canes Ventici — يبعد عن المجرة بعداً عظيماً فلا يصل ضوءه الينا الاّ بعد مسير مليون سنة بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية ! واغرب من ذلك ان الارصاد تدل على ان هذا السديم يزداد بعداً عنا ثانية فثانية وان سرعة ابتعاده عنا تبلغ ١٧٠ ميلاً في الثانية

وثمة عدا السُدُم الكبيرة اللامعة سُدُم تبدو لنا صغيرة ضئيلة النور لبُعدها تحصى بالوف الالوف . وعلماء الفلك يجوبون رحاب الفضاء بنظاراتهم والواحهم الفوتغرافية الى بعد

مائة مليون سنة ضوئية لكي يحصوها على قدر الطاقة. والشيء العجيب الذي استرعى انتباههم ليسَ عدد السُدُم الذي يبلغ الملايين بل ان السُدُم البعيدة اسرع ابتعاداً عنا من السدم القريبة. وقد قيست سرعة احدها فاذا هي نحو ١٢ الف ميل في الثانية

فسأل الفلكيون « ما السرّ في ان سرعة السدم البعيدة اعظم من سرعة السُدُم القريبة ولماذا يبدو لنا ان هذه السُدُم تبتعد عنا نحن ، واذا كان هذا الابتعاد ناتجاً عن اتساع الكون وتمدّدهِ فلماذا يبدو لنا اننا في المركز وان كلّ ما حولنا يبتعد عنا ؟ »

—٢—

ان دعاة نظرية النسبية يميلون الآن الى الأخذ بان الكون آخذٌ في التمدّد. ولكنهم يعتقدون ان ما يبدو لنا من ان الارض في مركز الكون المتمدّد ليس الاّ وهماً بصريًّا

ويضربون لذلك المثلَ الآتي :— لنفترض ان كرة الارض تمدّدت في ذات ليلة حتى اصبحت ضعف ما هي قطراً ومحيطاً وابعاداً بين الاجسام التي على سطحها. في حين ان احجام الاجسام التي على سطحها ظلت هي هي. فاذا استيقظتَ في الصباح وجدت جارك الذي كان يقطن على خمسين متراً منك اصبح يقطن على مائة متر. وصديقك الذي كان يقطن في قرية تبعد ميلاً عنك اصبح يبعد ميلين. وهكذا تجد ان نسبة الاتساع تزداد بازدياد البعد عنك. وكل احد غيرك يرى ما ترى انت ويحسب نفسهُ المركز الذي بعدت عنهُ الاجسام التي على سطح الارض

يقولون : وتمدُّد الكون من هذا القبيل الاّ انهُ يقع في عالم ذي ثلاثة ابعادٍ فلا يمكن تصوّرهُ. ولكن ظاهرات التمدّد في الحالين متقابلة. فالسُدُم لا تفرُّ منّا. وانما ابتعادها سببهُ تمدُّد الكون. وقد يبدو للقارىء ان هذا التمييز لا يعدو ان يكون جدلاً يدور حول الالفاظ فقط. ولكن الفرق لازم لفهم المسألة. فاصحاب النظرية النسبية يرون فرقاً بين ابتعاد السدُم نفسها وبين اتساع الفضاء الذي هي منثورة في رحابهِ

ولكن هذا الفرض يقوم عليهِ اعتراض. فان سرعة التمدُّد عظيمة جدًّا. فاذا رجعنا بالكون من حالتهِ الراهنة الى ما كان عليهِ من عشرة آلاف مليون سنة، وجدناهُ والنجوم مزدحمة فيهِ ازدحام ساحة من الساحات العامة بالسيَّارات في ايام الاعياد. وقد يبدو ان مدى عشرة آلاف مليون سنة مدى طويل جدًّا. ولكن الجولوجيين يقولون ان عمر الارض لا يقلُّ عن الف مليون سنة. واذاً فالزمن المنقضي بين الكون في حالة ازدحامهِ بالنجوم وزمن نشوء الارض والكون الى ما هما عليهِ الآن لا يكفي لحدوث كلّ التطورات الكونية التي افضت الى نشوء الارض. وهذا منشأ الاعتراض الذي يوجّه الى هذا الفرض

وقراء المقتطف يعلمون ان العالم الفرنسي لابلاس علل نشوء النظام الشمسي بما دعي

« النظرية السدمية » فتصور قطعة سديمية آخذة في الدوران وانها في اثناء دورانها تتسطح عند قطبيها ثم تأخذ في التقلص وتقلصها يزيد سرعة دورانها ، واذ تبلغ سرعة دورانها حدًّا معيناً ، يتعذر التماسك بين اجزائها ، فتنطلق منها حلقات من مادتها وهذه الحلقات تتقلص فتنشأ منها السيارات

ومضى زمن كان هذا الرأي سائداً في دوائر الفلكيين ثم بدت اعتراضات عليهِ فتخلى عنهُ العلماء وهم يعتمدون الآن على نظرية اشتغل في استخراجها تشمبرلين ومولتن وجينز وجفريز وغيرهم

على ان النظرية السديمية ظلّت معتمَد الفلكيين في تعليل نشوء النجوم من السدم. وهذا النشوء يقتضي زمناً طويلاً تؤيده الارصاد والحسابات الرياضية . فاذا كان القول بتمدد الكون صحيحاً فالزمن المنقضي منذ ما كان الكون خواءً الى ان نشأت الارض لا يكفي قط لنشوء النجوم وهو فعل بطيء كل البطء . واذاً فلا بد من تنقيح آرائنا في طريقة تكوُّن النجوم من غبار الكون ، واقتراح طريقة اخرى يكون التكوُّن فيها اسرع مما هو في سابقتها حتى يلتئم ذلك مع سرعة نشوء الكون

— ٣ —

والظاهر ان في نظرية الاب لمتر مخرجاً من هذا المأزق

فهو يقول ان كل مادة الكون كانت محشوكة في ذرة ضخمة مستقرة . فاذا سئل ماذا كان يحدث في تلك الذرة قال « لا شيء » اذ لا سبيل لحدوث شيء في جسم لا مكان فيهِ . وليس للوقت أو للزمن معنى في عالم مستقر كل الاستقرار . ثم انفجرت هذه الذرة ، وعمر الكون يجب ان يحسب من تاريخ انفجارها الذي تمَّ من نحو عشرة آلاف مليون سنة . ومنذ ما انفجرت الذرة اخذ الكون وما زال آخذاً في الاتساع

على ان نظرية لمتر لا تبين لنا كيف تكوَّنت الارض ، وهل السيارات نشأت وقت الانفجار او تكونت بعده بطريقة اخرى

وماذا يقال في المستقبل . ان اينشتين وده ستر يريان انهُ قد يقع في المستقبل تقلص كوني يعيد النجوم ومادة الكون المتفرقة الى حالتها الاولى قبل الانفجار فتحشك في مدى قليل بالنسبة الى سعة الكون — اما لمتر فيرى ان هذا التقلص لا يمكن ان يقع بل يؤثر الاعتقاد بان الكون نشأ من ذلك الانفجار وسوف يبقى ماضياً في تمدّده حتى تتحوَّل النجوم الى رماد !

الفكرة

لاسماعيل مظهر

«خرج الناس يجوبون بحر الوجود بآلاف من الشباك»

بهذا وصف الناس طاغور . فكل يوم يخرجون منتشرين في فجاج الارض ، يجوبون بحر الوجود بآلاف من الشّباك . ولكن كيف يكون منقلبهم ؟ ذلك ما لم يرد طاغور ان يتكلم فيهِ . بل انهُ ترك جميع الناس يخرجون صبيحة كل يوم من مآويهم يجوبون ذلك البحر اللجيّ ، بحر الوجود ، بآلاف من الشباك ، يتسقط كل منهم حظه ونصيبه من الدنيا

اما انهم يعودون الى مآويهم بهذه الشباك مرة اخرى ، فذلك امر محتوم . اما الشباك فحمل على اكتافهم ، سواء اخرجت بالصيد الطيب ، ام بالرمل والحصى . فلا بد اذن للناس من شباك ولا بد لهم من نصيب تخرجه هذه الشباك . ولا بد لهم ايضاً من ان يحملوا هذه الشباك ويجوبون بها بحر الوجود . والوجود

« دنيا تعجّ بسكانها فهذا يغني وذاك ينوح وذلك مستسلم للقَـدرْ »

وكان « يوحنا » من المستسلمين للاقدار . يحمل شبكته كل يوم ويخرج يجوب بحر الوجود مع الذين يجوبونهُ ، ويعود راضياً بما وقع في شبكته . يمضي الى مأواه ساكناً ، ويلقي بصيده جانباً ، ثم يمضي يتأمل في بحر هذا الوجود . يعيش مع احدى بنات حواء ، وحوله عشرة من الاولاد . اما هو فكان قد حطم الاربعين . وأما الشبكة التي كان يخرج بها الى بحر الوجود ، فلم تكن من الشباك التي يزوّدها ذلك البحر إلا بالمجاجة من زاده . ولكن القدر اخرج « يوحنا » الى الوجود سليل رجل كان بحر الوجود يزوده بالكثير من صيده ، وترك له من الدنيا نصيباً يكفيه النصب والكدح في سبيل العيش ، بل كان في يسار . وبحر الوجود بعد ان زوّد التاجر بالصيد الكثير ، ضنّ على الابن المفكّر بصيد ولو كان قليلاً ، مما يرد السغب ويشبع بطناً عضّه الجوع

وهكذا خرج « يوحنا » الى الدنيا بمال ابيه ، ولكن برأس جديد . رأس يضن عليهِ بحر الوجود بخيره ، بل هو يبتلع اذا استطاع ما بين يدي صاحبه من صيد جاد بهِ على غيره من اسلافهِ الاولين

وكان « يوحنا » يحمل رأس فيلسوف مستهتر ، ابيقوريّ من الطراز الاول الذي عاش قبل ان يكون ابيقور ، ذلك الطراز الذي عاش في الاسكندرية ابان ازدهارها بالعلم والفلسفة ، من طراز الفلاسفة الذين عشقوا « لايس » خليعة اثينا ، او الذين لعبت بهم « تاييس » في

الاسكندرية قبل ان تصبح قديسة . كذلك كان يحمل قلب حكيم من الذين عملوا على خير الانسانية . اولئك الذين استكشفوا « الانسان » عقب النهضة الادبية في اوربا

عاشت المرأة في شغاف قلبه وبين جوانحه ، ولكنهُ كان يرى انها ليست اكثر من أُلهية او العوبة . كان يحب « المرأة » لا امرأة بذاتها . يحب بنات حواء . اما هذه بالذات او تلك فأمر لا وزن له عند « يوحنا » . كان يحب ويتدله في الحب ويبذل لبنت حواء ما يلذ لبنت حواء من تضحيات ، ويشفق ويغار ، ويئن ويتوجع ، ويصل الليل بالنهار صبًّا مستهاماً . فاذا بعدت «هذه» عن عينهِ بعدت عن قلبه . ولكن الحب ما زاد وما نقص . قلب يحترق ويلتهب التياعاً . ولكن لمن ؟ لمن شئت من بنات حواء ، متى ارادت ان ترضي قلب يوحنا المحترّ الثائر بنظرة او ابتسامة ، أو ميل اليه أو حب أو هيام يرضي فيه اضطراب القلب وثورة العواطف ، كأنَّ الحب في قلب يوحنا كان سليقة خلقت معهُ ، فهو يحب ويحب بغير قيد ، ويحب بغير احتراز من اي شيءٍ . وفي اي شيء من الوجود يهز قلباً خلق ليحب من غير أن يحفل بمن من بنات حواء اصابها ذلك الحب ؟ غير انهُ مع هذا كله ، كان يشفق على غيره من أبناء آدم ان يحرموا لذة الاستمتاع بمن أحب كما يستمتع هو ، وكان يقول مع من قال في مستهتري روما واثينا ، اي ضرر في ان احمل في سفينتي غيري من عابري بحر هذا الوجود

صفت نفس « يوحنا » وصقلها الطبع المستهتر البعيد عن التفاؤل بالحياة او التشاؤم منها فكأنَّ تكوينه قد توازنت فيه ناحيتا الامل واليأس ، واتَّضَعَت فيه الرذائل ، فزحمتها في الحياة فضيلة لا تعترف بما للخياليات التي قدسها فلاسفة المثل الاعلى من قيمة . كان يقول بان اللذة الحسية رأس الفضائل ، ويعتقد أن القوانين لا قيمة لها الاّ عند الحمقى ، الذين يحتاجون الى القيد والى السوط والى اربعة جدران من اللبنات المرصوصة تصد عن بحر الوجود رذائلهم . اما هو فيعتقد أنَّ الحكمة تمكن هاويها من ان يعيش ، حتى لو فرض والغيت كل القوانين ، كما كان وهي قائمة . اما اللذة ، معبود «يوحنا» ، فكان يذهب فيها مذهباً لا يوجب عليه التمادي فيها الى الحد الذي يحتاج فيه الى طلب الغفران ، سواء من نفسه او من غيره . فالامر عنده سيان

لهذا احب « يوحنا » الانسانية ، وحاول ان يصلح بعض نواحيها . فالتهمت قلبه النار . نار الوله ببنت حواء ونار الوله باصلاح الانسانية . فكأنهُ عبَدَ في الدنيا صنمين ، صنماً يحاول دائماً ان يحطم اهواء الرجال . وآخر موهوماً لا وجود له . ولكن المرأة عجزت عن ان تهدم « يوحنا » ، لانهُ كان يحب كل بنات حواء ، فاذا شاءت احداهنَّ ان تحطمهُ وجد اخرى تأخذ بيده قبل ان يهوى في القرار . اما المعبود الثاني . اما الانسانية . ذلك الخيال الموهوم ، فذلك الذي هدم « يوحنا » . ويكفي لديك ان تعرف انهُ ما من عاطفة في قلب « يوحنا » استطاعت ان تتغلب على حب المرأة ، الاَّ عاطفة « الانسانية » . أتظل الانسانية في ضلالها

وتخبط في ذلك الليل البهيم من الجهل والحمق والتقيد باغلال التقاليد والاساطير «ويوحنا» ينبض له عرق ، او يدق له قلب ؟ يا للكارثة . ويا للشقاء

اتضلُّ الانسانية ويخرج اهلها كل يوم يجوبون بحر الوجود بشباك لا تخرج الاّ بالمادة مما يشبع البطون والشهوات ،دون ان يكون فيها شيء مما يشبع العقول والقلوب؟ ايترك«يوحنا» الناس فريسة للمهاويس من زعماء الانسانية في غرارتها الاولى ، يمنونهم ويرهبونهم بالاوهام ويملؤون قلوبهم بالمخاوف والآلام ، ويخدعونهم بالاساطير والاكاذيب ، والناس مسوقون كانهم انعام سائمة،لايهمها الاّ الشباك وما في بحر الوجود من صيد حلال اوحرام؟ اذن يا للهول

اتترك الانسانية ارسطو وأفلاطون في وحدتهما الاليمة ، وتعكف على سفاسف الحياة ، على حقارتها ، وتمضي راضية بان تلغي العقل ، وتهوي مع التسليم والايمان الاعمى الى احط دركات العبودية ، ويوحنا ينظر الى هذا ولا ينقذ ذلك المعبود العظيم، من تلك الهوة السحيقة ؟

اذن فليعاهد شيطان فوست . ويمضي يجمع الكتب ويملأ جوانب البيت بها ويكبّ على الدرس وعلى البحث وعلى الكتابة والنشر ، ويستعمق وينقب عن نفائس الفكر الذي خلفتهُ القرون الاولى ، ثم يرمي بشبكته في بحر الوجود فلا تخرج الاّ اصدافاً لها بريق خداع ، ولكن بلا قيمة في الحياة . فانها لا تشبع بطناً تجوع ولا تكسو جسداً لفحته الاعاصير

ويطمو بحر الحياة على يوحنا فيسلبه في ساعة واحدة ما أخرجت شباك آبائه طوال السنين . ويلقي يوحنا بشبكته فلا تخرج الاّ عواطف وافكاراً ، والاّ حقائق ونظريات . يا للهول

ويأخذه اليأس ليعاوده الامل . ويرى المرأة فتبعث بحرارة الحياة في روحه وقلبه . ويرى الانسانية تحمل الشباك ، فما يشك في استعدادها للارتقاء ، وحاجتها إلى المصلحين وإلى التربية والى حرية الفكر قبل كل شيء . ولكن الم ير يوحنا ان افراد هذه « الانسانية » يَنْفُضون شباكهم كل يوم ، ليلقوا بما اخرجت الشباك من عواطف وأفكار على الشاطىء المهجور ، ليعودوا بما فيها من حطام وزاد فحسب ؟ ولكنه طمع في ان يرى الانسانية تلتقط يوماً مع الزاد والحطام أفكاراً وعواطف ، وان تزود العقل بقليل مما يلقى على الشاطىء المهجور ، وان تلتهم النفوس قليلاً من ثمار العقول الكبيرة التي تركت تئن في وحدتها الاليمة

وتدور الايام بيوحنا دورتها ، فيصحو ليجد أنه فقد الشبكة التي يجوب بها بحر الوجود مع غيره من الناس ، وفقد المأوى الذي يرجع اليه بذلك الصيد المرير—العواطف والافكار—

ثم تدور العجلة دورة أخرى ، فيجد نفسه في عالم جديد . عالم النزاع على الحطام الذي ما فكر فيهِ يوحنا .. عالم الدفاع عن النفس والولد . في عالم يرغمهُ ارغاماً على ان يزود أولاده بشباك تخرج حطاماً لا افكاراً ولا عواطف . وتتركهُ الغفوة في مكتب محام يهزأ بفلسفته التي افقدته شبكته التي يجوب بها بحر الوجود

— ولكنك امضيت العقد ياحضرة الفيلسوف
— نعم أمضيته بيدي هذه . ولكن من غير ان اعرف نتائجه
— ان المحاكم لا تفهم هذا . ان منطق المحاكم غير منطق الفلسفة
— ولكن للمحاكم قضاة ولهم عقول تدرك الفلسفة ، وتدرك ان من كان مثلي لايحاسب على شيء الاّ اذا ادرك تماماً ما يترتب عليه من النتائج . وانا خُدعتُ
— انك أمام قضية «افلاس». واعترفت في العقد بانك تاجر وان من حق مدينك ان يفلسك
— وماذا يهم . انا مفلس فعلاً ، فماذا يضرني ان اصبح مفلساً قانوناً
— أهذه فلسفتك ؟ ان معنى الافلاس ان تسقط عنك اكثر حقوقك السياسية وان توضع تحت المراقبة كالمفسدين وقطاع الطرق والمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة ، ولا تتعامل ولا تعامل ، ويعين عليك قيّم كالمعتوهين والسفهاء ، يتولى عنك بيع حطامك
— أكل هذا لاني اردت ان أحرر الانسانية من أوهامها ؟
— كلاّ . بل لانك لم تدفع ما عليك من دين
— وماذا يحل بالعالم اذا لم ادفع ؟ — لا يحل بالعالم شيء ، بل يحل بك انت
— ولكن خبرني ماذا يحل بكتبي وقواميسي . انها أدوات مهنتي ولا يصح التصرف فيها قانوناً
— قانوناً ! ان القانون لا يعترف بمهنة يقال لها الفلسفة . ولا بصناعة يقال لها التفكير
— او يعترف القانون بصناعة يقال لها الدعارة وبيع العرض تلقاء المال ، ويعترف بمهنة يقال لها الاتجار بالخمور بل يعترف بما هو احط من هذا وذاك ، ولا يعترف للمفكرين بأنهم ذوو مهنة لها قيمة ولو مثل قيمة هذه الاشياء ؟
— نعم فتّح عينك كتبك وقواميسك وافكارك وفلسفتك لا قيمة لها ابداً لا في نظر القانون ولا في نظر الناس . فاما ان تعرف كيف تدافع عن نفسك دفاعاً يقبله القانون ، واما ان تحل بك كل هذه الكوارث
— وتباع كتب ارسطو ، ومؤلفات اناتول فرانس ، والانسيكلوبيديا ، ومؤلفات داروين ، وشارلس دكنز ، وهوميروس ودانتي .. وتعليقاتي وشروحي وافكاري وانتقاداتي ونظرياتي ...
— وبالمزاد العلني افهم ما اقول !
— فهمت يا سيدي الاستاذ المحامي . فهمت ان الحكومات تعترف بالبغاء كمهنة ، ولكنها لا تعترف بأن للمفكر حق الوجود والتفكير . ولا تعترف بأن رأسه في الكتاب ، وان قلبه في القاموس . هي تحمي المومس اذا اعتدى احد الفاسقين على اجرها الدنيء ، ولكنها لا تحمي المفكر اذا سلب فكره ، وسرق نياط قلبه . لا تحمي الفيلسوف لانهُ ابله احمق . وهل احمق ممن يظن انهُ يشبع بطنهُ بالافكار ، وان يسد رمق اولاده بالفلسفة ، وان يكسو الابدان العارية بالنظريات ، او ان يزود فلذات كبده بشباك يجوبون بها بحر الوجود بحيث تكون

خيوطها محوكة من مبادىء في حرية الفكر او الضمير ؟ نعم فهمت ان المفلس ولو كان فيلسوفاً، سلب حقهُ السياسي في ان يشترك في الرأي مع المكارية وماسحي الاحذية والبغايا . فهمت انهُ يصبح في نظر القانون معتوهاً يحتاج الى الولاية والى من يبيع كل شيء يملكه حتى رأسه اذا فرض وكان للافكار قيمة مادية . فهمت ان المفكر لا يغني عنهُ الفكر ولا العلم ولا الفلسفة، اذا نشبت فيهِ اظفار القانون ، وتمكنت من اذلاله المطامع الدنيوية . فهمت انهُ يصبح خارجاً عن الهيأة الاجتماعية فيراقب كقطاع الطرق والقتلة والسفاحين . فهمت انهُ يسلب الحرية ، لانهُ دعا الى الحرية . فهمت كل هذا . بل فهمت ان الانسانية تنبذ من يخرج على تقاليدها . هي تريد الخيال والوهم لا الفكر . تريد الاسطورة لا الحقيقة . تأخذ بيد من يمكر بها ويخدعها فتخدع عنهُ . اما الفكرة واما النظرية واما الحقيقة واما حرية الفكر ، فجزاؤها من الانسانية الحرمان . وقبلاً عُذب غليليو وحُرق برونو وحُرم سبينوزا . اذن فحمدك اللهم على منزلة احط من الباغيات ، وأرفع قليلاً من اللصوص والقتلة

وكان « يوحنا » قد اخذ يهذي بهذه الكلمات وهو خارج من مكتب محاميه، ويضرب في طرقات المدينة وقد علا ضجيجها واشتدَّ صخبها ، وحمل كل من الناس شبكته بعد ان جاب بحر الوجود طوال يومه ، وارتدَّ بغنمه . اما هو فما زال يضرب في الارض على قدميه حتى مال ميزان النهار واكتهل اليوم ، واخذ الليل يرخي سدوله السوداء على بحر الوجود

ولكن فكرة « جديدة» ! ها قد ارتدَّ الامل الى قلب «يوحنا» . القوة القاهرة !!!

— نعم كنت واقعاً تحت سلطان قوة قاهرة ! يا للفرج ! يا للسعادة

وارتدَّ « يوحنا » يهرول الى مكتب المحامي . وأخذ يدق الباب دقًّا عنيفاً . ولكن لم يكن هنالك انسان . اذن فالى الصباح . اما في الصباح فَقَدْ فَقَدَ « يوحنا » الذاكرة . فَقَدَ « القوة القاهرة » وعجز عن ان يتذكر شيئاً . فقد الذاكرة عشرين عاماً . فكان هذا اقصى ما تستطيع الدنيا ان تنزل بالفيلسوف من مراحمها

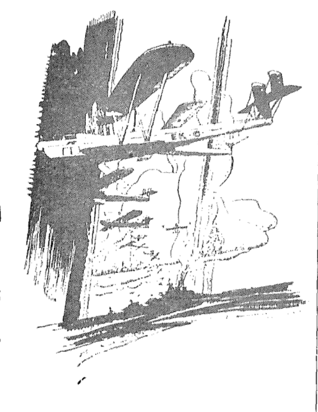
واليوم تجد « يوحنا » على فراش الموت يحتضر ويهذي تأخذه السكرة بعد السكرة والخيالات تمر امامهُ متعاجلة تترى ، فيخيَّل اليهِ فيما يتخيل انهُ على باب المحامي يدق الباب دقًّا عنيفاً . ثم تشعُّ في عقله الفكرة والظرفُ الذي اوقعهُ تحت سلطان «القوة القاهرة» . فينادي بولده — أي الي ! اسرع يا بنيَّ العزيز الى مكتب المحامي . قل له ان ابي قد امضى العقد وهو واقع تحت سلطان قوة قاهرة . اسمعت — Force Majeu — قل له هذا اسرع . اسرع . «قوة قاهرة »

وعاودته السكرة ، وما هي الاَّ اغفاءة ، ثم ابتسامة ، ثم يعلو الصدر ويهبط ، ليظل هابطاً الى الابد . نعم قوة قاهرة . ابرزته الى هذا الوجود وزودته باحلامه وآماله وأفقدته شبكته التي يجوب بها بحر الوجود وقوة قاهرة هي التي اخرجتهُ من هذه الدنيا صفر اليدين

قيثارتي

لعلي محمود طه المهندس

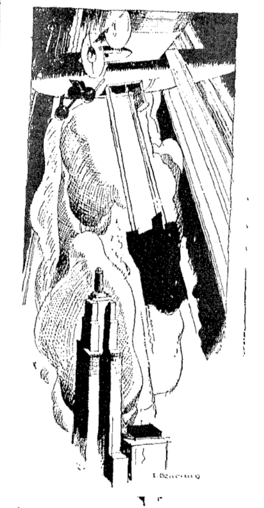
بدَّدْتِ يا قيثارتي أنغامي ... ونَسِيتِ لحنَ صَبابتي وغرامي
مرَّتْ ليالٍ كنتِ مُؤنستي بها ... وعَزاءَ نفسٍ جمَّةِ الآلام
تَروينَ من طَرَبِ الصِّبا وحنينهِ ... وتُذهِّبينَ حواشيَ الأحلام
كالبلبلِ الشاكي رَوَيْتِ صَبابتي ... لحناً تمشّى في دَمي وعظامي
أنشودةُ الوادي ولحنُ شَبابِهِ ... ذابتْ على صدْرِ الغديرِ الطامي
شاقَ الطبيعةَ من قديمِ مَلاحني ... أصداؤكِ الحيرَى على الآكام
وشجا البحيرةَ واستخفَّ ضِفافَها ... لحنُ كفائرِ مَوْجِها المترامي
يا ربَّةَ الألحانِ غنّي وابعثي ... من كلِّ ماضٍ عاثرِ الأيام
خلَتِ الشجونِ فلا رسيسَ صَبابةٍ ... تذكينها أو لوعةَ استغرام
وجفا الذي ملأَ العوالمَ بهجةً ... وجلا الحياةَ بثغرهِ البسّام
هل من نشيدكِ ما يجُدِّدُ بي الصِّبا ... ويعيدُ كرّةَ هذه الأعوام
ويصوِّرُ الأحلامَ فتنةَ شاعرٍ ... توحي الخيالَ لريشةِ الرسّام؟
وادي الهوى!! ولّت بشاشةُ دهرهِ ... وخلَتْ مغانيهِ من الآرام
طارتْ صوادحُهُ وجفَّ غديرُهُ ... وذوى بشطّيهِ النضيرُ النامي
واعتاضَ من همسِ النسيمِ بعاصفٍ ... داوٍ يشقُّ جَوانبَ الإظلام
وهو الصدى الحاكي لضائعِ صرختي ... وَصداكِ بين الغَورِ والآجام
قد كُنَّ ألأفي ونُزْهةَ خاطري ... وسماءَ وحيِ الشِّعرِ والالهام
مالي بهِنَّ سَكتْنَ عن آلامي ... أنسينَ عهدَ مودّتي وذمامي؟
يا ربَّةَ الألحانِ هلْ من رَجْعةٍ ... لقديمِ لحنكِ أو قديمِ هيامي
فاروي أغانيَّ القُدامى وانفثي ... في الليلِ من نفثاتِ قلبي الدامي
عَلَّ الذي غنّيتُ عرشَ جمالهِ ... وطفقتُ أرقبُ أفقهُ المتسامي
تشجيهِ ألحاني فيسعِدُني بهِ ... طيفٌ يضنُّ عليَّ بالإلمام
مالي اراكِ جمدتِ بينَ أناملي ... وعصيتِ أنّاتي ودمعي الهامي
خرساءَ لا تتلو النشيدَ ولا تعي ... سرَّ الغناءِ ولا تعيدُ كلامي
يغري الكآبةَ بي ويكسفُ خاطري ... أني أراكِ حبيسةَ الأنغام



العلم

والحرب المقبلة

العلم لا ينظر الى الحرب ولا الى السلم . فهو يعطينا بيد الاسمدة وبيد اخرى المفرقعات . والمفرقعات تستعمل للهدم والقتل في الحرب ولكنها تستعمل في حفر الانفاق وفتح المحاجر وشق الترع في زمان السلم . والفولاذ لايحصر استعماله في صنع الاسلحة والرماح بل هو يستعمل في صنع المحاريث والسكك الحديدية والسيارات والحصادات . فالعلم يجد نفسه لايخدم اله الحرب دون اله السلم ، وانما يعود الفرق الى نفوسنا وشهواتها وتثقيفها ومثلها الادبية



لذلك عنينا في هذا الجزء من المقتطف— على ذكر مؤتمر نزع السلاح او نقضهِ — ببيان ناحية من الصلة بين العلم وأدوات الحرب في ثلاث مقالات نفيسة ثالثتها تبين مبلغ أثر الطيارات في الحرب وهي مبنية على خيال تؤيدهُ الحقائق

✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣

اثر الآلات في الحضارة

آراء الكاتب الاميركي ستيوارت تشايس

✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣✣

كان موضوع الآلات وتأثيرها في الافراد والمجتمع، في بضع السنوات الاخيرة، موضوعاً شائقاً يتخذ البعض منهُ مادة للمناقشة والجدل ، فأصبح الآن بعد الازمة العالمية الجائحة، موضوعاً حيوياً

ولقد وضع الاقتصادي الاميركي ستيوارت تشايس كتاباً في هذا الموضوع سمّاه «الانسان والآلات» قرر فيهِ ان الآلات قد اصبحت لا تنشر السعادة على الجنس البشري بل ان الناس — وبوجه خاص العمال المشتغلين والعاطلين — هم الذين يضحى بهم في سبيلها . ومن الواضح ان الكاتب الاميركي ليس يقصد مجرد تقرير حالة واقعة بل هو يرمي الى تنبيهِ العالم ليعمل على اجتناب كارثة اقتصادية في المستقبل . وهو اذا كان ينقد ما انحدرت اليهِ الحضارة في بلاده بفضل الآلات فعلينا ان لا ننسى ان اوربا صائرة غداً الى ما صارت اليهِ اميركا اليوم ، واننا سائرون في اثرها ، فعلينا ان نتبين الطريق الذي حتم علينا ان نسلكه وان نعرف ما فيهِ من عوج ووعورة فنتجنبهما ونظل في السبيل السوي على قدر الطاقة

ولقد وجدت ان مجرد تلخيص فكرة المؤلف لا تغني عن قراءة الكتاب ولا تجلو للقارىء مقدار ما فيهِ من عمق واستقصاء ، فعمدت الى نقل ثلاثة فصول مختلفة يتناول كل منها الموضوع من ناحية خاصة ولكنها تجتمع في الفكرة النهائية ، وهي ان (١) هنالك فوضى قد نشأت عن استعمال الآلات (٢) ولكن الآلات لا تحمل تبعة ذلك بل انها مفيدة بطبيعتها (٣) فينبغي ان نغير طريقة استغلالنا لهذه الآلات واسلوبنا في توزيع منتجاتها

هل نحن عبيد الآلات

ان اول ما يطنُّ صوته في اذني في كل صباح هو (آلة) المنبه ، فهو يناديني فألبي النداء خاضعاً مطيعاً ، ثم اقضي كل ما احتاج اليهِ فاذا الآلات دائماً في طريقي ، واخرج الى الطريق فلا يفارقني ضجيجها . نعم ، ان الكثرة الساحقة من ابناء هذا الشعب لا يتصلون بالآلات مثل هذا الاتصال الوثيق ، ولكن هنالك قلة تتصل بها اتصالاً يفوق اتصالي بها

ولقد ازدادت قوانا بفضل الآلات الى حد عجيب ، ولو اننا اخذنا صبيًّا ريفيًّا من

ابناء البراري الروسية الذين لم تقع اعينهم على سيارة بعد ، وارسلناه الى نيويورك ، فقد يصبح عالماً في العلوم الطبيعية ، ويستطيع بالميكروفون ، اذا شاء ، ان يسمع صوته لنصف الكرة الارضية ويستطيع بالآلة التي اخترعها اساتذة معهد ماساتشوستس ان يحل اية معادلة جبرية في لحظات قليلة ، ويستطيع بالـ « ونش » ان ينقل مئات الاطنان من موضع الى آخر

ولقد وضع صموئيل بطلر في عام ١٨٦٢ كتاباً يتخيَّل فيه ان اهل مكان ما ، كانوا منعزلين عن باقي العالم وانهم ساروا في اختراع الآلات وصنعها شوطاً كبيراً حتى اصبحت الآلات هي السيدة الناهية واصبحت لا تقتصر على انتاج الآلات بل تنتج العائلات وتطعمهما ، فتخوَّف القوم وقامت بينهم منازعات حزبية انتهت بانتصار الحزب المعادي للآلات ثم تحطيم جميع الآلات ما عدا الآلات اليدوية اللازمة للزراعة

وليس يهمنا باقي القصة ، ولكن دعنا نفترض كما افترض ا. م. فوستر في كتابهِ « الآلة تقف » ان حزب انصار الآلات هو الذي انتصر . وتصور انك في غرفة سداسية الاركان كخلية النحل الملآنة بالازرار تضغط على زر الحمَّام فتنشق الارض عن حوض من المرمر ، او تضغط على زر المطالعة فاذا بمنضدة رُصّت عليها الكتب الخ ، ولكن وقتاً يجيء بعد ازمان فتأخذ فيهِ هذه الآلات في التدهور ثم العطل ، فتنقطع الحياة من اجسام اولئك الناس . ولكن هذا التنبأ مبالغ فيه ، فيحسن ان نلجأ الى عالم من علماء الاجتماع مثل اوستين فريمان الذي يقول في كتابه « الاضمحلال الاجتماعي واعادة اصلاحه » ان الناس قبل اختراع الآلات الميكانيكية كانوا يشبعون حاجتهم المتزايدة الى الملبس والمأكل والاثاث وغيرها فلما اتى جيمس وط بالآلات ، اخذت هذه الآلات في النمو وفق قوانين خاصة بها وأخذت في الانتاج الزائد عن حاجة الناس فقلبت قانون العرض والطلب ، وبعد ان كان الناس ايام الصناعات اليدوية يعملون لامداد المستهلك باسباب الراحة اذا بهم الآن يعملون لابداع وسائل تمكنهم من بيع ما يصنعون . والمرء متى أهمل العمل (اليدوي) ، فقد ثقته بنفسه وانحط خلقه ، ولقد دمرت الآلات كثيراً من القوى الطبيعية وشوَّهت جمال الطبيعة دون ان تعنى البتة بالانسان . وازداد تجمُّع المعلومات الصناعية من دون أن يصحبه ازدياد في الفطنة والذكاء . اما في الحرب ، فالآلات وسيلة لازهاق ارواح الجماعات الكبيرة من الناس

ولقد أسهب فريمان في بيان التفصيلات الدقيقة ، ولكنهُ كان قليل الشأن إزاء العلامة الدكتور شبنجلر وتنبئه بحلول وقت يعمد فيهِ الانسان الى « ملاشاة الآلة من ذاكرته وابعادها من أجواره ، ليخلق لنفسهِ عالماً آخر لا وجود فيهِ لهذه الصناعات الشيطانية »

وهناك طائفة لا تؤمن بالتحسن في المستقبل يعلن احد زعمائها المبرزين فيها هنري ب . فروست انهُ « في عصر الآلات هذا ، الذي نعيش فيهِ ، يطل شبح الوحش

الآلي" بتهديد هائل — على طريق الرقي الانساني . ولقد صرنا جميعاً مقسمين الى طوائف ومرتبين ومنظمين بشكل خاص ، وأضحت شخصيتنا كأناس ، تختنق وتتضاءل الى حد عظيم».

ويهيب البروفسور صُدي محذراً « اذا كانت مثل البشر العليا لا تسرع الى ملاءمة العلم إبان نموه وازدياده ، فلست آمن على المصير» ،ويتساءل البروفسور هالداين في شيء من الحذر « فهل أطلق البشر من حجر المادة طامة للشعوب متهيئة للسير نحوها والقذف بها في اية لحظة الى حضيض العدم ؟ » اما الفيلسوف رسل فهو في جملته يحكم لصالح العلم ولكنهُ لا يثق بسدنة بنائه الآلي" إذ يرى « أن أهم المقاصد التي يكنونها مقاصد منحرفة » .أما فيليب جيبس فهو يطالعنا بالاختيار الصعب بين قتل جميع رجال العلم او قلب آداب الناس، وطريقة تفكيرهم من اساسها .

ولو اننا بالغنا في الانصات الى هذا النذير لكان من العبث ان نستمر في تجاربنا العامية . على أن فورد يهيب بنا أن « افسحوا الطريق حر"ا لكل مجتهد » فالاجتهاد في العمل هو السبيل الى الحرية والمساواة أما الآلة فمسألة عرضية وليس الغرض منها الا" تحرير الانسان من العمل اليدوي الخشن كي يتفرغ لتنمية قواه العقلية والروحية ، وعدا ذلك فان الآلة تسير بنا الى الغرض الذي اخفقنا في الوصول اليهِ بالخطب والدعاية ، أعني بهِ ايجاد ولايات العالم المتحدة

ويرى بيرد المؤرخ الاميركي ان حالة العلوم الصناعية والادبية والمعمارية وغيرها ، ليست مما يسوغ لنا ان نتوقع اضمحلال الحضارة الغربية ، ثم إن المعارف الصناعية قد عمت وانتشرت بحيث لو بادت اوربا واميركا لكان لدى اليابان وحدها من الاسس العلمية ما يكفي لاعادة بناء الحركة الآلية

أما البرت بارسون ساكس فيرى انهُ «يجب أن نبحث في الآلة عن الشعر والجمال والابدية والخلود ... فمن لم يشأ أن يدرك ذلك فهو اعمى بل إنهُ ميت ، ولا يمت الى عصرنا بصلة »

ولكن هناك عدا هذين الفريقين فريقاً ثالثاً يقف موقف المتشكك المتسائل ويكتفي بالملاحظة يقول ديوى الفيلسوف الاميركي « إن مدنيتنا لقوية الشبه بعربة فورد ... تنطلق مسرعة في كل الطرقات بلا غرض تقصده ، غير أنها مملوءة نشاطاً وحيوية » ويسأل و . ف أوجبورن هل كان البشر في العصر الجليدي الاخير اوفر سعادة لأنهم كانوا اقرب الى الطبيعة ؟ هل صنع كل ما نعيش فيهِ يقتضي أن نكون اقل سعادة ؟ ولكن الضيق والارغام كانا يسودان ذلك العصر وكان هناك كثير مما يخافهُ الانسان . نحن نعرف ان الانسان حيوان عظيم المقدرة على ملاءمة الوسط ، فلماذا لا يستبدل الحراث اليدوي واضرابه بالحراث الآلي" وامثاله ؟

ولكل من هذه الفرق الثلاثة أنصار كثيرون . وعلينا قبل الانضمام الى احدها أن نزيد معلوماتنا عن النقط الاساسية في الموضوع

***

فما هي الآلة (الماكينة) بالتحديد وفيم تختلف عن العدة اليدوية ، وما هو القانون الذي تسير عليهِ ؟ وما هي انواع الآلات وما مقدار احتياجنا اليها واصطدامنا بها بشكل مباشر او غير مباشر ؟ وكيف ابتدأ عصر الآلات ؟ وما هو الانتاج بالجملة وهل هو خاضع للمراقبة أم يسبح في فلكه الخاص ؟ وهل تأثيرها التدميري في حالة الحرب مخرّب الى حد فظيع ؟ وهل تجعل من العامل المصنعي عبداً حديثاً ؟ فاذا كان الجواب بالايجاب فهل حالته شر من حالة العبيد عند اليونان ؟ وما عدد العبيد الذين تفرض عليهم السخرة في عصر الآلات

واذا كانت الآلات تزيد متوسط العمر فهل هي تفعل ذلك لترفع النسبة المئوية من العجزة ومرضى الاعصاب ؟ وهل ادت الى انحطاط القيمة الروحية للمجتمع ؟ وهل المساواة الاجتماعية أمر واقع فاذا كان الامر كذلك فهل ذلك شر من الحالة الاخرى الموجودة عند الشعوب الطبيعية وهل شر ان يكون المرء كشخصية « بابيت [1] » من ان يكون عضواً في احدى الطوائف الهندوسية ؟

ليس العثور على اجابة جامعة على مثل هذه الاسئلة بالامر السهل ، فلا تزال بعض العوامل التي لها شأن في الموضوع معقدة او غامضة . وانما نستطيع توسيع دائرة معارفنا عن الآلة اذا ابتدأنا بالكلام عما تبذل من جهد وما تؤديه من عمل

الاقتصاد في العمل

عند ما بحث زومبارت (الاقتصادي الالماني) حالة الزراعة في غرب اوروبا ابان القرن الرابع عشر ، وجد المئات من جماعات اشتراكية تُحيي في السنة ١٦٠ إلى ١٨٠ عيداً تتعطل فيها الاعمال . وعند ما بحثوا حالة المدن الاميركية سنة ١٩٢٥ وجدوا شعباً من العمال تتناوب حالتهم بين العمل المضني والعطلة المهلكة . ولقد كان القرن الرابع عشر يستعمل نفس الآلات التي كان الرومان والمصريون القدماء يستعملونها . اما المدن المتوسطة الاتساع « ميدلتون » فتستعمل شتى الآلات المقتصدة للعمل ، ومع ذلك فقد انقلبت الآية فأصبحت زيادة الآلات تؤدي إلى تقليل أيام الراحة . ولنا ان نعيد السؤال الذي كان يلقيه على نفسه جون ستيوارت مل منذ ٥٠ عاماً : « ما مقدار العمل الذي تقتصده حقاً تلك الآلات المقتصدة للعمل ؟ » أنها تسبب طرد عدد كبير من العمال ، فما هو الحد الذي يمكننا عنده ان نعتبر العطل مقياساً للرقي الاجتماعي ؟ ان الاقتصاد الحقيقي في العمل لا يصح ان يعبر عنه (أي ان تظهر آثاره) في شكل مأساة وضيق ، بل يجب ان يكون سبباً لزيادة الراحة والسلام والطمأنينة وفرصة للتنفس الحر ومنشأ لفترة راحة ابان تدوير طاحون الحياة . ولكن المدينة « ميدلتون » لا تعرف فترة للراحة بل ينشد أهلها الراحة عبثاً منذ القرن الرابع عشر

(١) بطل رواية للروائي الاميركي سنكلار لوس يمثل الاكباب على العمل لجمع المال من دون ان يقيم للمثل الروحية وزناً ما

هنالك بضعة أسباب يمكن ايرادها في الرد على ستيوارت ميل ، منها ان مطالب الاهلين قد بزّت اختراعاتهم — وذلك بغض النظر عن النفر المترف المولع بجمع منتجات العمل — ولذلك عجزت الآلات عن ان تكفيهم مؤونتهم . ولنضرب السيارة مثلاً ، فهي في حد نفسها آلة مقتصدة للعمل ، أعني إذا استعملت في ذلك الغرض ، ولكن ثلثا مستهلكي السيارات يستعملونها في أمور لم يكونوا ليعملوها لو لم تكن عندهم السيارة ، فهم يسافرون ويتنزهون ويتبادلون الزيارات ويقطنون في الجهات الخلوية . نعم ان في استعمال السيارات لهذه الاغراض راحة للمتعلمين ولكن ليس فيه اقتصاد للعمل ، بل ان هذا الحيوان المنزلي الجديد يحتاج من العلف (البنزين) والتخزين (في الجراج) والعناية والترميم والتسيير وغيرها ، الشيء الكثير

فقد وصل عدد المستخدمين المباشرين وغير المباشرين في صناعة السيارات وما يتبعها (بيع واصلاح وتأمين وانشاء طرقات الخ) في سنة ١٩٢٨ في الولايات المتحدة الى ٣٫٧٣٢٫٠٠٠ نفس ، ومعنى ذلك ان الشعب يشتغل في السنة مليار يوم من أيام العمل بسبب السيارات ، وفي ذلك غالباً زيادة للعمل بدلاً من الاقتصاد فيه

وما قلناه عن السيارات نقولهُ عن الراديو والسينما والفونوغراف وصمغ المضغ (اللبان وهو كثير الشيوع في امريكا) والسجاير وادوات التجمل ، بل اني ليخيل اليَّ أحياناً اني قد استطيع ان اقول ذلك عن التليفون ايضاً

على ان الاقتصاد قد حدث بشكل محسوس فيما يتعلق بالضروريات كالمأكل والمسكن والملبس ، وذلك ما سمح لنا بالوقت اللازم لزيادة الكماليات ، أو — اذا شئت — الضروريات الجديدة . خير لنا ان نقول أننا نمتلك الآلات لأغراض جمة من ان نزعم اننا نمتلكها لمجرد الاقتصاد في العمل . ولكن ، هل هذه الاغراض تساوي ما يضحى به من أجلها ؟ الا تكون المدينة «ميدلتون» أسعد وأهنأ لو اقتصر يوم العمل على خمس ساعات وقلت في مقابل ذلك أدوات التجمل وأفلام السينما والمقاعد الوثيرة وخزانات التبريد الكهربائية ؟

***

وهناك ضريبة ثانية وهي ان التخصيص في ادارة الآلات في الوقت الحاضر يقتضي تشييد أبنية ضخمة للمصانع ومكاتب ادارتها في حين أن الصناع كانوا فيما مضى يعملون في منازلهم او حقولهم ولا يحتاجون الى اكثر من سقف يظللهم . ولا يفوتنا أن التحسين المستمر في الآلات يجعل هذه الابنية قديمة فنضطر الى تجديد بنائها كل عشر سنوات مثلاً

والامر الثالث يتعلق بتنظيم المدن الكبيرة ، فان تقدم الآلات وارتقاء الطب قد جعلا تخطيط المدن الكبيرة ممكناً ولكنهُ من وجهة العمل الانساني عمل من اعمال الترف ويكفي لمعرفة ذلك أن نلقي نظرة على ما بباطن الارض من انابيب المياه والغاز والمجاري واسلاك التليفون

والتلغراف ، وما تقتضيه من وضع وصيانة وتقوية ، ثم اذكر ما يضيع من الجهد في هدم المباني واعادة بنائها كلما ارتفعت قيمة الارض . ثمَّ هناك المبالغة في المضاربة بالاراضي ، وقد شاهدت ذلك على اقصاه في فلوريدا ، حيث استقدم اليها سنة ١٩٢٥ جيش من المهندسين والعمال ، أخذوا يحفرون ويشيدون ، ثم تذهب الآن الى تلك الانحاء فلا تجد الا قفراً وخراباً وترى هنالك آلة بخارية لدك الارض ، قد علاها الصدأ فظلت هناك رافعة ذراعها كأنها شاهد القبر .

والمحرك الخامس هو المصنع نفسه فهناك كثير من البضائع لا ندري مقدار ما اقتصد في صنعها من العمل وقد كتب رالف بورسودي الخبير في الاقتصاد السياسي انهُ يصنع في منزله حاجيات كثيرة (كالخضارات والفواكه المحفوظة) بنفقات ضئيلة جدًّا لا تتناسب (حتى بعد اضافة اجر العمل) مع الأثمان التي يشتري بها مثيلتها من الحوانيت . ويمكننا ان نلاحظ صحة ذلك فيما يختص بكثير من الاطعمة والمواد الكيميائية البسيطة كالشمع والزيوت والاسمدة والمواد الخاصة بالعناية بالجسم ، فان الآلة بتركيز منتجاتها في المصنع وما يتطلبه ذلك من نفقات البيع والارسال قد بذرت اكثر مما اقتصدت

* * *

ولنفكر بعد ذلك في الابعاد الهائلة التي تجلب منها المواد الخام والتي ترسل اليها المصنوعات التامة . فاذا افترضنا ان طائفة من شركات الصابون تريد تموين البلاد من مركز معين (كالعاصمة مثلاً) مع قيام كل منها بالاعلان عن نفسها بوسائل جمة ، ومع احتفاظ كل منها بتنظيم وسائل خاصة بالبيع نجد ان ذلك كله يلتهم كل المتوفرات التي اقتصدها المصنع حتى ليصبح المصنع الصغير الذي يمون صاحبه وحده او مع جيرانه ومجاوريه ، يصبح وحدة اكثر اقتصاداً من المعمل الكبير . ومن المفهوم ان الآلة لا تحمل تبعة ذلك وانما سوء ادارتنا لها ، وليس من الصعب ان نبني المصانع الاقتصادية على مقربة من منابع المواد الخام حيث نحصل على التيار الكهربائي بابخس الاثمان ، فنمون الجهات المجاورة ببضائع لها من رخص الاثمان ما لا يستطيع الذين ينتجون لانفسهم ان يجاروه . وليس شك في ان العمل الآلي يفوق العمل اليدوي ولكن هذا التفوق لا يكون دائماً عظيماً

على اننا يجب ان « نراعي جميع الحقائق » عند النظر في الاحصائيات ، فقد زعم فورد ان ١٠ جرارات من سيارات الحرث قد استغرقت ١١ يوماً لحرث الف فدان في ارمينيا وهو عمل كان يقوم بهِ ٥٠٠ رجل والف ثور في نفس المدة ، فاذا تركنا الثيران جانباً واعتبرنا ان السيارة تحتاج الى سائق واحد ، تصور البعض ان الاقتصاد يبلغ ١ : ٥٠ . ولكننا ننسى العمل اللازم لاحضار المواد الخام ، فصنع السيارات فبيعها فاصلاحها وما يتخلل ذلك من العمليات المختلفة وهي حلقات مختلفة من نفس السلسلة ينساها المتفائلون او يتغاضون عنها فيحصلون على نتائج زائفة

وقد اورد جسه سبراج مثلاً بديعاً، فقد كان احد اصحاب المصانع الصغيرة ينتج مقابض الابواب من النحاس الاصفر وكان ينتج كل يوم ٢٠ مقبضاً بنفقة ريال للمقبض الواحد ويبيعها بريالين فاشترت احدى شركات المضاربة المصنع وجعلت المقابض من الهبّ فنقصت نفقات انتاجها الى نصف ريال ، ونمت الادارة ومحال البيع وغير ذلك مما ادى الى ارتفاع ثمن المقبض الى ٤ ريالات فاعرض الجمهور عنها وساء مصيرها ، واذن فقد كان الانتاج الآليّ هنا « اذا راعينا جميع الحقائق » مضاعفاً للثمن

***

وقد كتب احد اصحاب المصانع في مجلة « اتلانتيك الشهرية » انهُ وجد انهُ كان في سنة ١٩٢٦ ينتج وحدة بضائعه (وقد حاذر ان يقول لنا ما هي) في ٤٠ دقيقة ، فأصبح بعد تحسين العمل في سنة ١٩٢٨ ينتجها في ٢٠ دقيقة فقط ولكن التحسين الذي اجراه منافسوه في بضائعهم اضطره الى الاسراف في نفقات البيع والاعلان حتى تضاعف الثمن . وقد علق الرجل على ذلك بقوله إن الوقت أزف ليعمل المرء في منزله معظم ما يحتاج اليه . ولست أوافقه على ذلك بالطبع ، ولكني أذرف دمعة على كل رجل من رجال الاعمال ترهقه نفقات الادارة التي تقتضيها المنافسة ، فتقضي عليهِ

فالسيارة التي تباع بـ ٥٠٠ جنيه لا تكلف من النفقات المباشرة سوى ٥٠ جنيهاً بينما ينفق على الشئون الخاصة ببيعها ٢٠٠ جنيه ، وهنالك جزء معين من اجزاء السيارات يحوي من العمل المباشر ما قيمته ٧½ قروش يشتريها صاحب الحانوت بجنيه واحد ويدفع فيهِ المستهلك خمسة جنيهات ، وهكذا يطرد ازدياد اثمان الآلات كلما تحركت في سبيل البيع كما يطرد ازدياد سرعتها بجهد بسيط اثناء العمل

ومجمل القول ان الصناعة الحديثة لا تقتصد في العمل الاّ من ناحية واحدة ، وهي اقل النواحي شأناً ، ثم تأخذ ما تقتصد في هذا القسم من اقسامها لتلقيه من النافذة

حرب الساعتين القادمة

هاجم « جيش الشمال » لندن في ١٣ اغسطس ١٩٢٨ ، فانقضّت ٧٥ طائرة على المدينة ، تحمل كل منها ٥٠٠ رطل من القنابل . وقد تصدت لها طائرات الدفاع ، وهب عدد عديد من المناطيد تكوّن منطقة حماية حول المدينة ، وأصلت بطيارات مدافع الطيران ، طائرات العدو ناراً حامية ، وذبت القوات المختلفة عن المدينة بكل الطرق الممكنة ، فلم يغنِ كل ذلك عنها شيئاً وأصابت القنابل أهدافها من المباني الحربية والمصانع المهمة التي تزوّد المدينة بالماء والنور وغيرها ، ثم عادت الطائرات المهاجمة إلى أوكارها في الشمال بدون خسائر

القيت هذه القنابل من ارتفاع ٥٠٠٠ متر ، فأصابت الاهداف المقصودة ، بكل إحكام. فلو انها كانت محشوة بثاني فينيل كلور الزرنيخ لأبادت نصف سكان المدينة ولو ضوعف عدد الطائرات لتضاعف الاثر. نعم ، ان الامر كله لم يكن الاّ مناورة ، ولكنها اقنعت الخبراء الحربيين ان وسائل الدفاع كلها عديمة الجدوى في مثل هذه الحالة ، فما بالك لو بلغ عدد الطائرات المهاجمة ٥٠٠ وكان قائدوها طيارين حربيين محنكين

***

ان فرنسا تستطيع الآن بأمر تذيعه بالراديو ، ان تحرك للقتال ٤٠٠٠ طائرة ، وفي استطاعة سرب واحد منها ان يلقي على أهداف العدو ١٣٠ طنًّا من القنابل في هجمة واحدة ، بينما كان الحد الاقصى لألقاء القنابل إبان الحرب العظمى لا يزيد عن ١٢ طنًّا في الشهر . مع العلم ان خمساً من طائرات ما قبل الحرب كانت كافية لبعثرة الجيش التركي الزاحف على فلسطين . وقد أجرت المانيا تجاربها بطائرات لا تسمعها اذن ولا تراها عين . وتستطيع طائرات ريبون البريطانية ان تزيد سرعتها الى ٢٥٠ كيلومتراً في الساعة ، وان ترتفع عموديًّا . وان قذيفة واحدة مما تلقيه الطائرات لتذهب بأكبر المراكب الحربية إلى قاع البحار . وقد تحدث المستر كنورثي عضو مجلس العموم الانجليزي عن قنبلة وزنها ٤٣٠٠ رطل ، تذرو عند القائها على الارض ١٠٠٠ متر مكعب من الرمال ، فلو القيت على بيكاديللي بلندن لنسفت الشارع بأكمله ، وقد تنبأ النائب المذكور باختراع طائرات تطير بسرعة ٥٠٠ كيلومتر في الساعة ، وأخرى تطير وحدها بأوامر تتلقاها بالراديو من الارض وتلقي قنابلها حين تسلط عليها اشارة لاسلكية خاصة

وهنالك على الاقل نوعان من الغازات السامة لا يفيد أي نوع من الكمامات في الوقاية منهما ، وهناك غاز مهيج يرغم جنود العدو على القاء أقنعتهم فتمتلىء خياشيمهم بالغازات السامة التي تطلق عليهم في نفس الوقت . ومن السهل تعبئة قذائف المدافع بجراثيم الأمراض وارسالها على بلاد العدو تحصد اهلها حصداً

ولئن قامت الحرب فالكلمة الاخيرة لمن يتكلم اولاً . ففي مكنته ان يرسل الف طائرة على ٣٠٠ كيلومتر مربع فتشعلها سعيراً في ساعة واحدة أو اثنتين ، تمحو ابانها مدناً شتى من خريطة البلاد المعمورة . وليس هناك من العادات المرعية أو الضمانات واشباهها ما يمنع شعباً قويًّا من استخدام أمضى سلاح معروض عليه للتغلب في الكفاح . على ان أمضى الاسلحة التي تمتلك الدول العظمى منها مقادير كبيرة ، هي آلة تسير بسرعة هائلة حاملة خليطاً من الازوت والاوكسجين فتعصف بما أمامها من السفن الحربية والحصون والمدافع والدبابات وغيرها ، الاّ الغواصات اذا غاصت إلى اكثر من ٣٠ متراً تحت سطح الماء . ولكن الغواصات وسيلة كثيرة النفقات

فالغواصة الصالحة للاستعمال ثمنها عشرات الالوف من الجنيهات ، وتحتاج في ادارتها الى ٣٠ رجلاً ولا تزيد سرعتها تحت سطح الماء عن ٢٠ ميلاً بحريًا في الساعة . أما الطائرة الجيدة فثمنها الف جنيه وفي استطاعة رجل واحد ان يديرها وان يقطع بها ٣٠٠ كيلومتر في الساعة وان يصيب الهدف بقنابله تماماً . ولو انني وزير حربية وليس عندي أسهم من شركات صناعة الفولاذ لوفرت على شعبي الضرائب الكثيرة وعمدت إلى تدمير سفن العدو الحربية من الجو بدلاً من تدميرها من اعماق المياه . ومع ذلك ففي استطاعة الغواصات ان تحرّم على سفن العدو مبارحة الساحل ، وفي استطاعة الغواصات الكبيرة الحجم ان تطلق على المدن الساحلية انواعاً مختارة من قنابل الغازات السامة ، على الاقل لمدة بضع دقائق حتى تشرع طائرات العدو في مهاجمتها وبجمل القول ان السلاح الاساسي في الحرب القادمة هي الطائرات ، وانما يرجع تفوقها الى انها ذات ثلاثة ابعاد في حين ان وسائل الحرب الاخرى ليس لها الاّ بعدان . ولما كان الهجوم على سطح الارض يحصل في مكان محدود فمن الممكن ايجاد الوسائل لدرئه ، وكلما كبرت قذائف المدافع سمكت الالواح المدرعة (للحصون أو السفن) . أما السلاح ذو الابعاد الثلاثة فهو الذي لا عاصم منه (وقد اقترح أحد العباقرة ان تشدّ حول المدن اوتاراً تشبه اوتار البيانو تتدلى من المناطيد فتقع فيها طائرات العدو . وهي فكرة يستحق قائلها جائزة في مسابقات النكات) ومن الممكن من الناحية النظرية ان تحمى المدن بملء مساحات هائلة محيطة بها ، بعدد خيالي من المدافع المقاومة للطائرات ، تطلق قذائفها فيرتد منها على شوارع المدينة سيل من المظلات المدرعة

***

وخير وسيلة للدفاع ، هي الهجوم . فحينما تفارق ١٠٠٠ طائرة مدنها لمهاجمة المدن الانجليزية يجب ان تقوم من لندن ١٥٠٠ طائرة لمهاجمة مدن الدولة المعادية ، وبذلك تتدمر مدينتان لا مدينة واحدة

وللولايات المتحدة وروسيا من اتساع مساحتهما ما يجعل القضاء عليهما لا يتم بالسرعة التي ينتهي بها القضاء على غيرهما من الدول العظمى (انجلترا واليابان بجزائرهما المكتظة بالاهلين هما اصلح الاهداف للأبادة) ولكن سرباً من الطائرات يبارح تورنتو يستطيع ان يدمر بوسطون وفيلادلفيا وبلتيمور ووشنجطن وشيكاغو وغيرها ، ولا سيما نيويورك فمن السهل تحطيم جسرها ونفقها ونسف ابنيتها ذات الابراج (ناطحات السحاب) فتنهار كأنها بيوت من ورق ولست اعرف للمسألة حلاً ، فقد أصبحت وسائل الحرب عظيمة الخطر في شكلها الحالي ، فضلاً عن تطورها في الغد

القاهرة — عصام الدين حفني ناصف

الحرب الكيماوية

لحبيب اسكندر
ناظر القسم الثانوي بجامعة القاهرة الاميركية

— ١ —

الكيمياء من اهم العلوم التي يستخدمها الانسان في حياته العملية المتعددة النواحي . فهي تؤدي خدمات حيوية للتجارة والصناعة والزراعة والطب وكافة اعمال الانسان . وفي اوقات الحرب هي السيد المتسلط على جميع وسائل الحروب من سيوف ورماح وبنادق ومدافع وبارود ومفرقعات وغازات سامة وكل ما يتبعها من ذخائر ووسائل نقل — كل هذه جميعاً كيمياوية من اول صنعها حتى وقت نفادها . وسنجعل كلامنا في هذا المقال مقتصراً على استخدام الكيمياء في ناحية واحدة من نواحي الحرب هي الحرب الكيمياوية ويطلقون عليها خطأ اسم حرب الغازات .

ان الاسم « حرب الغازات » لا يؤدي المعنى المقصود لأن معظم الغازات او ما يسمونهُ الغازات السامة التي استخدمت في الحرب العظمى ليست بغازات بل جلها سوائل واجسام صلبة في الاحوال المعتادة . فغاز الخردل الذي يسمونهُ ملك الغازات السامة سائل يغلي عند الدرجة ٢١٦°م . وحتى الغازات الصميمة التي استخدمت في الحرب لم ترسل الى ميادين القتال في حالتها الغازية بل كانت ترسل في صورة سوائل مضغوطة

والمقصود بكلمة «غاز» في الحرب الكيمياوية كل ما يرسل من المواد (الصلبة او السائلة او الغازية) الى العدوّ في الهواء بعد خروجه من الاسطوانات او القنابل المشتملة عليه

﴿ لمحة تاريخية ﴾ : مما لا شك فيه ان استخدام الالمان للغازات السامة لاول مرة في ابريل سنة ١٩١٥ يُعدُّ فاتحة عصر جديد في الحروب الحديثة . ويعتقد الرأي العام في العالم ان هذا العهد او النوع من الحرب من مخترعات الالمان العصرية . والحقيقة غير ذلك . لان استخدام الغازات في القتال قديم العهد . يرجع تاريخه الى ما قبل الميلاد . فالتاريخ يحدثنا ان الغازات الخانقة قد استخدمت في الحروب القديمة بين اهل اثينا واسبارطه . فقد كان الاسبارطيون في حصارهم بعض البلاد يحُرقون عند اسوارها خشباً مشبعاً بالنفط والكبريت بغية خنق المدافعين عنها وبذلك يسهل عليهم فتحها والاستيلاء عليها . كذلك استخدمت الغازات السامة في بعض الحروب في القرون الوسطى ويروى عن رجل يدعى Prester John وهو ملك اسيوي خرافيّ في القرن الحادي عشر انهُ صنع تماثيل مجوّفة من النحاس وحشاها بالمفرقعات والمواد القابلة للالتهاب وأضرم فيها النيران فكانت تنبعث من افواه التماثيل وانوفها

ابخرة وغازات خانقة احدثت في الاعداء رعباً وألحقت بهم ضرراً لا يستهان به

وعلى كل فإن معظم دول اوربا كانت تتوقع استخدام الغازات السامة في الحرب قبل نشوب الحرب العظمى بزمن طويل والدليل على ذلك ان مؤتمر لاهاي الذي عقد سنة ١٨٩٩ لحضره مندوبون من قبل دول اوربا وآسيا قرر الامتناع عن استخدام مقذوفات الغاية منها انبعاث غازات سامة . وقد وقّعت المانيا على هذا العهد في ٤ سبتمبر سنة ١٩٠٠

﴿ الحملة الغازية الاولى ﴾ واول حملة غازية في الحرب العالمية وقعت في ٢٢ ابريل سنة ١٩١٥ . قام بها الالمان ضد الحلفاء مستخدمين فيها غاز الكلور . وقد وصلت اخبار تدبير هذه الحملة الكيمياوية الى الجيش الانجليزي من بعض الالمان الهاربين الذين رووا لهم أن الجيش الالماني قد دبّر خطة لتسميم العدو بسُحُب من الغاز السام وان الاسطوانات التي تحتوي على المواد السامة قد نصبت في الخنادق . ولكن الانجليز تلقوا هذا الخبر بالسخرية ولم يعيروه اهتماماً لظنهم ان هذه الفكرة صعبةُ التنفيذ في ميادين القتال . ثم لاعتقادهم ان الالمان كائناً ما كان بطشهم وحبهم للنصر لا ينقضون عهد لاهاي ولا يخالفون سنن الحرب الانسانية التي وقعوا عليها. ولكن خاب ظنهم فالحرب لا تعرف عهداً وانما هي خدعة . وفي عصر ٢٢ ابريل سنة ١٩١٥ فاجأ الالمان الحلفاء باول حملة غازية . اختاروا لها المنطقة الشمالية من الايبرس عند ملتقى الصفوف الانجليزية بالصفوف الفرنسية . ولا يستطيع احد من الناس ان يصور لنا ما احدثتهُ هذه المفاجأة من الرعب والاثر . لان الرجال الذين يعلمون ذلك جيداً وفي استطاعتهم وصف الحقيقة كما حدثت قد ماتوا جميعاً

في ذلك اليوم صعدت من الارض فجأة سحب من غاز اصفرضارب الى الخضرة ساقتها الريح نحو الحلفاء . فانتشرت في طريقها متخللة كل حفرة وخندق . فلما رآها جنود الحلفاء استولى عليهم العجب ولما دنتْ منهم استحال العجب خوفاً . ولما غمرتهم تحوّل الخوف المـاً فالقوا سلاحهم وولوا الادبار طلباً للتنفس . ولكن عبثاً حاولوا الافلات من تلك السحب التي تعقبتهم ولم يمض نصف ساعة حتى سقط ٨٠ ٪ منهم . فتقدم الالمان واحتلوا الصفوف الامامية ووجدوها ملأى بالموتى .وقد صبغت وجوههم والتوت اجسامهم وامتلأت افواههم بالدم والرغو اللذين سالا من رئاتهم المتفجرة مما ينبئُ بهول الميتة التي لقيها هؤلاء القوم

﴿ الشروط التي يجب توافرها في الغاز الحربي ﴾ وقد وقع اختيار الالمان على الكلور في الحملة الاولى لان فيه تتوافر جميع الشروط اللازمة للغاز الحربي السام. واهم هذه الشروط هي: —

اولاً — يجب ان يكون الغاز او المادة سامة جداً اذا وجدت في الهواء بمقادير قليلة

ثانياً — ان تكون رخيصة يمكن صنع مقادير كبيرة منها بعمليات سهلة

ثالثاً — ان تكون سهلة الانضغاط والتحول الى سائل واذا خفف الضغط عنها تحولت الى بخار او غاز

رابعاً — ان تكون ثابتة لا تتأثر برطوبة الهواء او بالمواد الكيمياوية الاخرى حتى يصعب تغييرها وافساد فعلها

خامساً — ان تكون اثقل من الهواء حتى لا تتبدد بسهولة في طبقات الهواء العليا

ومعظم هذه الخواص تتوافر في غاز الكلور الذي وقع عليه الخيار اولاً . فهو غاز سام جداً. فاذا عرض حيوان (كلب) للهواء الذي يحتوي اللتر منهُ على ٢ر٥ ملليجرام من الكلور مات بعد ٣٠ دقيقة . ثم ان مقادير وافرة منهُ تحضَّر بعمليات سهلة وذلك بحلّ محلول ملح الطعام بالكهربائية وقدكان يباع قبل الحرب لاغراض صناعية في اسطوانات حديدية بسعر قرش واحد للرطل. ثم انهُ سهل الاسالة يكفي لاسالتهِ ضغط يساوي ٦ر١٦ جو عند الدرجة ٩٨م واذا برّد اسيل بضغط اقل . واذا خفف عنهُ الضغط تبخر واستحال غازاً اكثف من الهواء مرتين ونصف مرة. ولذا في استطاعته ان يسير مسافات بعيدة قبل ان يتبدَّد بانتشاره في الجو . وقد استعمله الالمان بأن ملأوا اسطوانات بالسائل المضغوط وجعلوا بين الاسطوانة والاخرى ذراعاً ووصلوها بأنابيب مرتفعة ومتجهة نحو العدو . فلما هبت الريح فتحوها فخرج منها الغاز بشدة. ولا عيب فيه غير انهُ عنصر نشط يتحد مع كثير من المواد ويمكن اتقاء فعله بطرق اولية بسيطة كما فعل الانجليز والفرنسيون في الايام التي تلت الحملة الاولى. فهو يتفاعل مع الهيبو مكوّناً كلورور الصوديوم . وفي استطاعة الهيبو تحويل مقادير كبيرة من الكلور . لذلك كان استعمالهُ ناجحاً في عمل الكمامات البسيطة الاولى وهي عبارة عن قطعة من القماش مشربة بمحلول الهيبو تربط على الانف والفم

ولا يخفى ان اتجاه الغاز يتغير باتجاه الريح لذلك عدل الالمان عن استعمال الكلور الصرف وادخلوهُ في مركبات كيمياوية سائلة او فعلوا ما هو اسهل من ذلك فأسالوهُ وافرغوا هذه السوائل في قنابل يطلقونها على صفوف الاعداء حيث تنفجر فتخرج منها المواد السامة غازاً او دقائق صغيرة تملأ الفضاء . وقد وُجد ان ٩٥ ./. من الغازات التي استعملت في الحرب يدخل في صناعتها مباشرة او غير مباشرة غاز الكلور الذي استخدم صرفاً في الحملة الاولى

﴿ غاز الفوسجين ﴾ الغاز الثاني الجديد استعمل في ديسمبر ١٩١٥ ويسمى الفوسجين وهو مركب كيمياوي كان معروفاً قبل الحرب لانهُ كان يستخدم في الصناعة لتجهيز بعض الاصباغ. والفوسجين سائل يغلي عند الدرجة ٨ م. وهو اشد سمًّا من الكلور. فبينما يموت الكلب في الهواء الذي يحتوي اللتر منهُ على ٢ر٥ ملليجرام من الكلور بعد تعرضه له ٣٠ دقيقة اذا به يموت في الهواء الذي يحتوي اللتر منهُ على ٣ر٠ ملليجرام بعد تعرضه له نفس الزمن اي انهُ اثقل من الكلور ثماني مرات

ويجهز الفوسجين من غازين سامّين يعرفهما الطلبة جيداً وهما الكلور واول اكسيد الكربون اذا عرض مخلوطهما لضوء الشمس. وكلمة فوسجين مركبة من كلمتين معناهما ناتج عن الضوء.

وفي الصناعة لا يستخدمون الضوء في تركيب هذا الغاز بل يمرّون مخلوط الغازين في صناديق مشحونة بالفحم البلدي الذي يساعد على اتحادهما . وليس للفوسجين رائحة كريهة بل تشبه رائحته رائحة الحنطة الخضراء . ولا يشعر الانسان به حتى يستنشق منهُ قدراً مميتاً . واستنشاق القليل منهُ يضعف القلب ويؤثر فيهِ تأثيراً يدوم اياماً طويلة واذا اجهد المرء نفسه عقب ذلك فانهُ يموت

والفوسجين قليل النشاط الكيمياوي . لذلك تصعب الوقاية منهُ . غير انهُ يتحلل بمادة تدعى Urotrodine كانت تستخدم في عمل الكمامات الاولى التي تتركب من قطعة من القماش مشربة بمخلوط منهُ ومن الهيبو وكربونات الصوديوم والجلسرين

﴿ الكلوروبكرين ﴾ في ربيع سنة ١٩١٧ استعمل الالمان غازاً جديداً غير سام كثيراً لكنهُ يسبب دواراً وقيئاً ويثير في العيون دموعاً فيضطر الجندي الى رفع كمامة الغاز وعندئذٍ يعرض نفسه لفعل غاز آخر كالفوسجين يطلقهُ العدو في نفس الوقت . وهذا الغاز الجديد يصعب حجزه كلية بكمامات الغاز السام . واسمهُ كلوروبكرين Chloropicrin وهو مركب كان معروفاً قبل الحرب مثل الكلور والفوسجين واول من حضَّرهُ كيمياوي انجليزي يدعى Stenhouse سنة ١٨٤٨ من تفاعل الحامض البكريك ومسحوق ازالة الالوان

ويحضر الكلوروبكرين في الصناعة بامرار البخار في مخلوط من الحامض البكريك ومسحوق ازالة الالوان فيتكوَّن الكلوروبكرين ويخرج مع البخار . وهو سائل عديم اللون كالزيت لا يذوب في الماء . يغلي عند الدرجة ١١٢°م . وهو مركب ثابت لا يتحلل بالماء أو الحوامض أو القلويات المخففة . ومن حسن الحظ قد وجد ان الفحم المستعمل في كمامات الغاز السام يمتص هذا الغاز

والعين حساسة جدًّا تدرك وجود هذا الغاز في الهواء بسرعة فائقة مهما كان مقداره قليلاً . فالهواء الذي يحتوي على ٢٫٥ جزء من الغاز في كل مليون جزء من الهواء يجعل العين تغمض مضطرة بعد ١٨ ثانية والذي يحتوي على ٢٠ جزءًا من المليون يجعلها تغمض بعد ٤ ثوانٍ فقط

﴿ غاز الخردل ﴾ ننتقل الآن إلى سيّد الغازات السامة وهو مادة جديدة لها اسماء كثيرة . يسميها الانجليز غاز الخردل أو الغاز المحرق لشدة تأثيره في الجلد . ويسميها الفرنسيون الايبريت لانها استعملت أولاً في منطقة الايبر . ويسميها الالمان الصليب الاصفر لانهم كانوا يفرغونها في قنابل عليها علامة الصليب الاصفر تمييزاً لها عن القنابل الاخرى ويسميها الكيميائيون dichlorethyl sulphide اكتشف هذا المركب كيمياوي انجليزي سنة ١٨٦٠ . ثم كيمياوي الماني يدعى فكتور ماير سنة ١٨٨٦ ولكنه وجد ان دراسته لا تخلو من خطر فاهمله ومن ذلك الوقت اهمل هذا المركب في قواميس الكيمياء وظل في زوايا الاهمال حتى استخدمه الالمان في الحرب العظمى . وفي يوليه سنة ١٩١٧ امطروه على الانجليز ففتك بهم فتكاً ذريعاً . ومن ثمَّ جعل الالمان يعتمدون عليه في الحرب وحذا الحلفاء حذوهم ويقال

ان في هجمة واحدة دامت عشرة ايام اطلق الالمان مليون قنبلة تحتوي على ٢٥٠٠ طن من هذه المادة

وغاز الخردل ليس بغاز ثم انهُ لا يصنع من الخردل بل هو مركب كيمياوي يجهز من الكحول والكلور والكبريت. وهو سائل يغلي عند الدرجة ٢١٦° م ويتبخر ببطء ويبقى في الخنادق ويختفي في التراب والملابس اياماً طويلة . وكمامات الغاز الخانق لا تقي المرء منهُ وقاية كافية. لأن الجندي لا بد له ان يخلع الكمامة وقتاً من الاوقات فيهاجمه الغاز الذي لا يزال منتظراً . وفي بعض الحالات تضطر الجنود الى لبس الكمامات ١٢ يوماً متتالية ليل نهار . وقد يظهر المكان خالياً من هذا الغاز ولكن عند ما تطلع الشمس وتسخن الارض يتبخر منها هذا السائل ويعلق بملابس الجنود وكماماتهم . وهو سام جدًّا كغيره من الغازات السابقة . ويمتاز عنها بأنهُ يلسع الجلد كالبخار . ويحرق الجسم من الداخل والخارج فيحدث حروقاً مؤلمة اذا اهملت تحولت الى جروح خبيثة تسمم الجسم وتحدث الوفاة فضلاً عن انهُ يؤثر في الاجزاء الطرية كالعين والانف والحنجرة والرئتين

وأهم مميزاته انهُ يبقى طويلاً وانهُ لا يحدث ضرراً في الحال بل يحدث ضرره فيما بعد . فقد يتأخر فعله يومان او ثلاثة ايام في الطقس الدافيء. وفي الطقس البارد لا يبدو خطرهُ الاَّ بعد مرور اسبوع او عشرة ايام وقد يتأخر شهراً او اكثر حتى يدفأ الجوّ ويتبخر السائل . ويصعب جدًّا ازالته من الارض والامكنة التي يسقط فيها . فيبقى خطره مدة اسابيع او اشهر وفي بعض الحالات سنة او اكثر

وقد استعمل الالمان مقادير هائلة منهُ كما اسلفنا لايقاع الرعب في نفوس الحلفاء واضعاف الروح المعنوية . ثم لاخلاء المواقع الحربية وتأجيل الهجوم . ويقال ان الالمان في ابريل سنة ١٩١٨ قذفوا بهذا الغاز بلدة فرنسية تدعى Armentieres حتى سال السائل في الشوارع ولم يرغم الانكليز على اخلاء المدينة والهروب فحسب ، بل ان الالمان انفسهم لم يستطيعوا دخول هذه المدينة والاستيلاء عليها قبل اسبوعين من اخلائها

ولما كان هذا الغاز يلبث مدة طويلة في الارض يعدونهُ غاز دفاع . فاذا استعملت منهُ مقادير كافية في منطقة من المناطق عجز العدو عن احتلالها او عبورها . ثم انهُ يرغم العدو على اخلاء المواقع الحصينة التي لا يمكن اخذها بالمدافع والقنابل المتفجرة وكذلك يبطل عمل المدفعية القوية التي تمطر العدو بشدة وابلاً من الرصاص والقنابل

﴿ غازات اخرى ﴾ علاوة على الغازات الاربعة السابقة اي الكلور والكلوروبكرين والفوسجين وغاز الخردل ، استعملت مواد اخرى كثيرة في الحرب يبلغ عددها ثلاثين غازاً مختلفاً. منها مركبات البروم والزرنيخ والسيانوجين وفيها ما هو اشد فتكاً من الغازات التي وصفناها. منها مسيلات الدموع ومهيجات العطاس فهنالك غاز تسمى Phenylcarbylamin Chlorid

يجعل اشجع شجاع في ميدان القتال يبكي ويذرف الدموع مدراراً . وغاز آخر يسمى diphenylchloroarsine يجعله يعطس عطساً مستمراً . فالغرض من قذف هذه الغازات حمل الجنود على رفع الكمامات وعندئذٍ تقع فريسة الغازات السامة الاخرى التي تقذف معها

﴿ تقسيم الغازات الحربية ﴾ لقد قسم الالمان جميع الغازات السامة التي استعملت في القتال الى ثلاثة اقسام سموها

(١) الصليب الاخضر : — ويشتمل على اشد الغازات سمًّا واقلها بقاءً في الجو او في الارض مثل الكلور والفوسجين

(٢) الصليب الاصفر : — الغازات التي تثبت طويلاً في الامكنة او الاشياء التي تسقط عليها مثل الكلوروبكرين

(٣) الصليب الازرق : — ويشتمل على غازات الدموع والعطاس مثل diphenylchloroarsine ولكل منها غاية حربية قد شرحناها عند الكلام على هذه الغازات . والاخير يرسل عادة مع الاثنين الاولين لحمل الجنود على رفع كمامات الغاز السام حتى تقع فريسة لهما

﴿ كمامات الغاز السام ﴾ نجد في تاريخ الحروب ان آلات الدفاع تسير جنباً لجنب مع آلات الهجوم فكلما جدّت آلة للهلاك ظهرت آلة للوقاية . ولم يجبن الانسان يوماً امام خطر جديد يهدده . فلما بدأت حرب الغازات استعمل للوقاية منها كمامات اولية عبارة عن قطع من القماش مبللة بمحلولات بعض المواد الكيمياوية مثل الهيبو وكربونات الصوديوم والبروتربين والجلسرين وكانت تربط هذه القطع على الفم والانف . ثم اخذت هذه الكمامات تتطور وتتحسن . واصبح لكل امة نوع خاص من الكمامات فللالمان كمامات خاصة وللفرنسيين كمامات خاصة وللانجليز والاميركان كذلك وجميعها لا تختلف في الجوهر كثيراً وان اختلفت في الشكل . وكمامة الغاز اجمالاً تتركب من قطعة تربط على الوجه وتتصل بانبوبة في صندوق صغير مملوء بفحم الخشب المصنوع من جوز الهند مختلطاً بمواد كيمياوية كالصودا والجير وبرمنجنات البوتاسيوم واملاح النيكل لامتصاص الغاز السام وافساد فعله . وعند استعمالها تربط هذه الكمامة على الوجه ربطاً جيداً بالصمغ المارن ثم يعقل الانف بمشبك ويؤخذ التنفس من الفم فيمرّ الهواء أولاً في الصندوق حيث يفقد ما به من الغاز السام ثم يمر الى الفم . وعلى بعد خمسة اميال من ميادين القتال يعلق الجنود الكمامات على صدورهم ليكونوا على استعداد تام لاستعمالها عند سماع ناقوس الغاز السام المؤذن بالخطر

وتستعمل الكمامات لوقاية العين والانف والجهاز التنفسي . اما وقاية الجلد من بعض الغازات كغاز الخردل فتستعمل لها ملابس وقفازات واحذية خاصة تصنع من بعض المشمعات ثم تعالج ببعض المواد الكيمياوية وقد يوزّع احياناً على الجنود بعض المراهم لدهن الجلد . هذا وهنالك كمامات وملابس خاصة لوقاية الخيل والكلاب التي تستخدم في الحرب [للبحث تتمة]

غداة الحرب القادمة

نص البرقية التي ارسلها مكاتب المقطم
من فلادلفيا في ١٣ اغسطس سنة ١٩٤٠

زهقت أمس نفوس ستة ملايين من سكان مدينة نيورك وضواحيها ، اذ اقبلت على المدينة العظيمة ستمائة طيارة من طيارات « دول الاتفاق » فألقت فوقها ستاراً كثيفاً من غازي « الدايفنل كلوروارسين » و « الكاكوديل ايسوسيانيد » فقتلت كل رجل وسيدة وطفل وحيوان ونبات . ومات مليونان آخران من الناس في الضواحي البعيدة لماهبت الرياح فحملت الغازات الخانقة اليها . وفي الانباء العالمية ان ٣٦ مليوناً قتلوا في بلدان العالم المختلفة بهذه الطريقة في العشر الساعات الاخيرة

ان نيويورك ولندن وباريس وكاليه وبروكسل وبرلين وفينا اصبحت اليوم مدناً خاوية لا اثر فيها للحياة لأن هجوم الطيارات واطلاق قنابل الغاز عليها امس امات كل سكانها . ذلك ان الحرب اعلنت بين «دول الاتفاق» و «دول الحلفاء» في الساعة السادسة والنصف من صباح امس بعد خمسة ايام من المفاوضة المستمرة حاولت في خلالها حكومات الدول ان تفصل في الخلاف الناشيء عن مسألة «هاربر سايج» وظلت الولايات المتحدة الاميركية محتفظة بحيادها حتى فجر الامس مع ان دول الارض كانت قد انقسمت الى فريقين فأحدها يعرف بدول الاتفاق والآخر بدول الحلفاء . وكان مجلس التحكيم الدولي في لاهاي قد عهد اليه بالفصل في الامر فأعلنته دول الاتفاق في الساعة الرابعة من صباح الامس انها لا تسلّم بحكمه ، فقرّر مجلس الامة الاميركي ان يؤيد حكم المجلس الدولي فشهر الحرب على دول الاتفاق فكانت النتيجة ما رويت . وقد مات كل اولئك على اثر تنفسهم الغازات الخانقة فتمزقت رئاتهم وسقطوا في الشوارع او انكفأوا على مكاتبهم امواتاً

***

وقد صحبتُ الطيّار كارسُن في طيارته فلبس كلٌّ منا قناعاً واقياً من الغاز وحملنا من الاكسجين في زجاجات من الصلب ما يكفينا تسع ساعات وهبطنا مدينة نيورك في الساعة السابعة والدقيقة الثامنة والعشرين من هذا الصباح وجسنا خلال شوارع المدينة ومبانيها مدة سبع ساعات فلم نرَ اثراً للحياة فيها . ولا يزال الهواء مثقلاً بالغاز ولسنا نشكُّ في ان ستة الملايين من السكان الذين كانوا يمشون ويضحكون ويعملون ويتنزهون اول امس قد اصبحوا اجساماً هامدة . والجثث على اكثفها في شارع التجارة والمال (وول ستريت) حيث تجدها اكواماً

متراكمة عند مداخل البنايات الشاهقة ولعل الجثث في مكاتب المدينة المالية وامامها في الشوارع لا تقل عن مليون ونصف مليون

والظاهر ان كل هذا وقع فجأة فلم يرد نبأ يشير الى احتمال وقوعه حتى في بورصة نيويورك المتصلة بانحاء العالم بكل وسائل المخاطبات . فالجثث تسدُّ المدخل الى البورصة وهي متراكمة في باحتها الداخلية ، ولكننا ازحنا بعضها من طريقنا ومشينا فوق جثث اناس لم يعلموا ما هو واقع حتى تسرَّب الغاز الى الباحة من النوافذ والابواب . والظاهر ان احدهم جنَّ جنونهُ اذ شعر بالغاز يشدّ الخناق عليه فرفع ذراعيه مستجيراً فتحطم زجاج ساعته فاذا هي واقفة على الساعة ٢٫٥٩ ولما كان سرب الطيارات المهاجمة قد اطلق قنابله الغازية في الساعة ٢٫٥٠ فالمرجح ان كل سكان الطبقات الارضية من حي منهتن قضوا في خلال ١٢ دقيقة بعد اطلاق الغاز

ونستطيع ان نقول على وجهٍ من التدقيق ، من دون مبالغة في التقدير ، ان النظام المالي في الولايات المتحدة ، قد اصبح الآن في خبر كان . فكل عمال البورصات المختلفة والبنوك ومكاتب السماسرة من المديرين الى السعاة قد قضوا نحبهم

ان كل الزعماء بين رجال المال والاعمال قد ماتوا

اننا وجدنا جثة رئيس بورصة نيويورك ملقاة امام مكتبه وقد وضع على انفه منديلاً كأنهُ يحاول ان يمنع الغاز من التطرق الى خياشيمه ورئتيه . ومات قابضاً على المنديل في محاولته اليائسة . اما رِدهَة بنك «الفدرال رزرف» فخاوية كالقبور . والغرف المتسعة المفروشة بالطنافس ، التي كان يجلس فيها بالامس رجال يسيطرون على حركة الذهب العالمية ، مظلمة قاتمة كأنها اطلال حضارة بائدة . وامام كل مكتبٍ رجل وقد انكفأ عليه ميتاً . وفي اقبية البنك ملايين من الريالات الذهب والورق وليس ثمة من يحرسها فقد ذهب حرّاسها في سبيل كلّ حي في نيويورك

***

اما في الحيّ الشرقي فالنار تلتهم الاخضر واليابس . ذلك انهُ لما سقط الغاز كالغمام الخانق في المصانع ومات العمال تفجرت المراجل وانابيب الغاز المضيء فسرَتْ النار في المباني الخشبية القديمة سريانها في الهشيم فالتهمتها غير مبقية الاّ على السمنت المسلّح والصلب . ولا تزال اللهب الحمراء تغزو ما امامها وبين الفينة والفينة نسمع صوت انفجار جديد . ولا بدَّ من ازالة نحو اربعة ملايين جثة من الشوارع والمباني قبلما تصلح نيويورك للسكن ثانية . ولولا ان النار التهمت جثث مليونين من الموتى في الحيّ الشرقي للزم نقل ستة ملايين جثة على الاقل

هذه صورة نيويورك الآن — خواءٌ وموات !

***

اما قسم التحرير في بناية جريدة « نيويورك تيمس » ، فيبدو لنا مما شاهدناهُ ان رجالهُ

ظلّوا في عملهم الى النهاية . ذلك انهم عرفوا قبيل غيرهم بالهجوم فاقفلوا النوافذ ، ولكن الغاز مالبث ان تسرَّب الى غرف التحرير فقضوا في كراسيهم . وقد عثرنا على برقيتين امام احد المحررين تحتويان على الانباء الاولى عن سرب الطيارات الهاجمة وهذا نصُّ اولاهما

« عثر القسم الشمالي من الاسطول الاميركي في المحيط الاتلنتيكي على بحارة ثلاث سفن من حاملات الطيارات التابعة لاسطول دول الاتفاق . وكانت طيارات الاسطول الاميركي قد شهدتها من علو ١١ الف قدم فلما اقتربت منها رأت البحارة ينزلون من السفن ولم تلبث هذه السفن ان غرقت في اليمّ . فلما سئل البحّارة في ذلك، فهم ان الاوامر صدرت لهذه السفن بالاقتراب من نيويورك قدر المستطاع ثم اطلاق طياراتها الستمائة المجهزة بقنابل الغاز الخانق

« ويعتقد ضباط البحرية الاميركية ان اغراق السفن الحاملة للطيارات غرضهُ الحيلولة دون اسرها . والنسافات الاميركية تبحث الآن عن الاسطول الذي رافق هذه السفن الى حيث وصلت

« والظاهر ان امر قائد جيوش الاتفاق صدر الى الطيارات بمهاجمة نيويورك ثم بالطيران الى الفلوات الواسعة غربها حيث يحرق الطيّارون طياراتهم ويسلمون انفسهم للاسر »

اما البرقية الثانية فبلاغ رسميٌّ من قيادة الجيوش الاميركية يبين ان وزارة الحربية مستعدة لهجوم طيارات الاتفاق وان نيويورك محصنة اشدَّ التحصين ضدَّها ، وتشيد خاصة بذكر مدفع خاص لمقاومة الطيارات المهاجمة . ويؤخذ من انباء الحالة الجوية التي عثرنا عليها في مكتب هذه الجريدة ان ضباباً كثيفاً كان يغطي وجه المدينة في الساعة التي حدث فيها الهجوم وهذا الضباب حال دون فعل المدافع الخاصة التي صنعت لمقاومة الطيارات

والظاهر ان طيارات الاعداء لم تحفل بالضباب بل اعتمدت على آلاتها فلما دلّتها الآلات على انها اصبحت فوق نيويورك رمت قنابلها ومضت في سبيلها

***

ولما بدأ الهجوم تقاطر الناس الى الكنائس للضراعة فوجدنا نحو الف وخمسمائة من الاموات في كنيسة ترنتي و ٣٠٠٠ في كاتدرائية القديس باترك و ١٤٠٠ في كنيس عمانوئيل و ٨٠٠ في كنيسة رڤرسيْد . والموتى الذين وجدناهم في الكنائس كانوا من سلالات وشعوب مختلفة ومعظمهم كان راكعاً يصلي . ودخلنا مستشفى القديس لوقا فوجدنا الجرّاح ميتاً امام مائدة العمليات والعليل عليها ميتاً بفعل الغاز الخانق وكان لا يزال تحت فعل المخدّر — الايثر — وفي جناح آخر من المستشفى عثرنا على احد « التمرجية » ينظف اذني مريضٍ وطبيباً جالساً وامامهُ كتاب يقرأ فيه فصلاً في الادرينالين واستعماله في الاطفال بعيد الوضع

وانتقلنا الى جامعة كولومبيا فرأينا رئيسها ملقى صريعاً عند مدخل دار الكتب فيها حيث مكتبهُ . والظاهر انهُ أحسَّ بجماهير الطلاّب خارجة من مباني الجامعة فخرج ليرى سبب ذلك .

فسقطت في تلك اللحظة احدى قنابل الغاز على بناية مدرسة الحقوق فتشظت واصابتهُ شظية تائهة قتلتهُ في الحال

أما فتيان نيويورك فمات معظمهم في المدارس قبيل انصرافهم إلى دورهم . وقد رأيت في احدى المدارس المعلمةَ ميتةً وكأنها كانت قبل هجوم الطيارات تقرأ على تلاميذها — وكلهم دون العاشرة — قصة وطلبت اليهم ان يكتبوها فوجدنا أمام كل منهم ورقة عليها نفس الكلام وكان التلاميذ واحداً وثلاثين تلميذاً . وكان كل تلميذ جالساً مسنداً رأسهُ بيده ، الاَّ واحداً وكأنهُ جزع اذ أحس بالغاز في حلقهِ فنادى المعلمة فخفَّت اليهِ لتشجعهُ فماتا معاً وذراعاها تطوقانهِ

أما القطارات التي تسير في الانفاق تحت الارض ومحطاتها فكانت غاصة بالجثث فلم نستطع ان ننزل الى بعضها . وكذلك قطارات السكك الحديدية ومحطاتها وبوجهٍ خاص محط « غراند سنترال » ومحط « بنسلفانيا » وهما بمثابة العقدتين العصبيتين الرئيسيتين في خطوط السكك الحديدية الأميركية في الشرق

واذا بقي احدٌ حيًّا في نيويورك فلعله معتصم بالطبقات العليا في ناطحات السحاب مثل بناية الامبراطورية وبناية كريسلر وبناية ولورث وغيرها . إذ يمكن ان الغاز لم يتسرب الى هذه الادوار العالية لانه ثقيل الوزن يهبط الى الارض . وقد حاولت انا وزميلي الطيّار ان نصعد إلى بعض هذه الادوار فالفينا المصاعد لا تعمل لان التيار الكهربائي مقطوع وليس من يدير المصاعد وكانت عدتنا من الاكسجين قد اخذت تنفد فلم نشأ ان نصعد سيراً على الاقدام . وانما نقول اننا صعدنا إلى الدور السابع فألفينا كل ساكن من سكانها ميتاً

ثم ان الحديقة الكبيرة المعروفة بسنترال پارك تعلوها مسحة الموت فقد فتك غاز الاعداء بكل حي فيها حتى الاشجار والانجم والاعشاب

***

ولما صعدنا إلى طيارتنا لبثنا متقنعين حتى بلغنا إلى علو ٤٠٠٠ قدم خوفاً من الغاز الخانق الذي في الهواء . فلما بدأنا نتنفس الهواء النقي الطلق اخذتُ من جيبي مسودة مقالة التقطتها في بناية احدى الصحف الكبيرة فاذا موضوعها «العزلة» يقرر فيها كاتبها ان الولايات المتحدة الاميركية حسنة الحظ لبعدها عن مواقع الحروب وانها لذلك في امن من هجوم الاعداء وان قائد الجيش الاميركي المقيم في منطقة نيويورك أنبأ الرئيس بأن الدفاع عن المدينة ضد هجوم الطيارات لا يعوزه شيء» .فضحكت في ذات نفسي وقلت «ليس ثمةَ ما يمكن ان يصد هجوماً من الهواء اذا كان المهاجمون مستعدون لبذل الثمن من مال وارواح . ان الفاً من المدافع وعشرات من الطيارات لا تستطيع ان تصدَّ هجوماً جويًّا نظم على احدث الطرق»

ونحن الآن متجهون الى فيلادلفيا وامامي الآلة الكاتبة اطبع بها وصف ما شاهدت

المنذر بن ماء السماء

ملك الحيرة

٥١٤ — ٥٦٣ م

بقلم يوسف رزق الله غنيمه وزير مالية العراق سابقاً

لم يروِ لنا المؤرخون العرب شيئاً عن اشتراك المنذر بن ماء السماء في الحرب الشعواء التي اثارها على الروم سنة ٥٤٠م اذ عبر الفرات قرب قرقيسيا وهبط على انطاكية وغزاها ودمّرها ونقل سكانها الى العراق الاّ ان كلاً من الطبري وابن الاثير[١] ينقل الينا خبراً نظن له علاقة بهذه الحرب وبملوك الحيرة اللخميين وان احتاج الى تمحيص ونقد من وجوه عديدة واليك خلاصته : كان بين كسرى انو شروان وغطيانوس Justinian ملك الروم هدنة فوقعت فتنة بين رجل من العرب كان غطيانوس ملّكه على عرب الشام يقال له خالد بن جبلة وبين رجلٍ من لخم كان ملّكه كسرى على عمان والبحرين واليمامة والطائف وسائر الحجاز يقال له المنذر ابن النعمان. فأغار خالد على المنذر ابن النعمان فقتل من اصحابهِ مقتلة عظيمة وغنم امواله فكتب كسرى الى غطيانوس يذكره ما بينهما من العهد والصلح ويعلمه ما لقي المنذر من خالد وطلب ان ينصف المنذر ويأمر خالداً ان يعيد اليهِ ما نهبه منهُ فلم يحفل بهِ[٢]. فغزا كسرى بلاد الروم في سبعين الفاً وكان طريقه على الجزيرة فأخذ مدينة دارا والرها وعبر الى الشام فملكَ منبج وحلب وانطاكية وفامية وحمص ومدناً كثيرة متاخمة لهذه المدن وسبى اهل انطاكية ونقلهم الى ارض السواد وأمر فبنيت لهم مدينة الى جانب مدينة طيسفون وافتدى غطيانوس المدن الرومية من كسرى . ويقول الطبري ان رومية المدائن كانت تشبه كل الشبه انطاكية حتى ان الاسرى الانطاكيين دخلوا رومية المدائن ووجد كل واحد بيته بدون صعوبة كأنهم في انطاكية ولم يخرجوا منها

ان هذه الرواية توافق الاحوال التاريخية كلها الاّ ان امراً واحداً يتطلب الحل. لاغريب في امر تولية المناذرة الحكم في عمان والبحرين واليمامة والطائف بعد زوال ملك كندة من آل آكل المرار. قال المستشرق السر تشارلس ليل[٢] : ولما انقضى امر كندة وسع ملوك الحيرة نطاق مملكتهم فشملت النصف الشمالي من جزيرة العرب والجانب الشرقي منها مما يلي خليج

(١) الطبري ٢ : ١٢١ والكامل ٢ : ١٢١ (٢) وجاء ذكر هذه الوقعة في الشاهنامه للفردوسي في الترجمة العربية ٢ : ١٢٦—١٢٩ (٣) في خطبة القاها في مؤتمر الدروس التاريخية بعنوان تاريخ العرب من شعرهم القديم ونشرها المقتطف في عدد فبراير ١٩١٤ ص ١٦٣—١٦٩

فارس ويكثر ذكر المنذر الثالث وابنه عمرو بن هند في اشعار ذلك العصر » . ونعلم ايضاً ان المنافسة بين الغساسنة والمناذرة على عرب الشمال كانت متأصلة في النفوس منذ حكم الكنديين وكان كل من الغسانيين والمناذرة ينازعون الكنديين هذا الحكم [١] . ولكن المشكل الوحيد الذي يقوم امامنا في رواية الطبري وابن الاثير قولهما المنذر بن النعمان ونحن نعلم ان ملك الحيرة كان المنذر بن امرىء القيس الثالث وهو المعروف بالمنذر بن ماء السماء وليس المنذر ابن النعمان . فيحل هذا المشكل رأيان. اولهما ان المؤرخين الطبري وابن الاثير ذكرا سهواً المنذر بن النعمان بدل المنذر بن امرىء القيس وقد اشار الى هذا السهو كليمان هوارت اذ قال يسميه بعضهم غلطاً ابن امرىء القيس البدء وبعضهم ابن النعمان [٢] والرأي الثاني ان عميل كسرى في عمان والبحرين واليمامة والطائف كان احد اللخميين المسمى المنذر بن النعمان على ما رواه المؤرخون العرب

ومن حوادث المنذر بن ماء السماء المشهورة عند العرب انهُ كان له نديمان من بني اسد وهما خالد بن فضلة وقيل ابن المضلل وعمر بن مسعود فثملا فراجعا الملك ليلة في بعض كلامه فأمر وهو سكران فحفر لهما حفيرتان في ظهر الكوفة ودفنهما حيين فلما اصبح استدعاهما فاخبر بالذي امضاه فيهما فغمهُ ذلك وقصد حفرتهما وامر ببناء طربالين عليهما وهما صومعتان وقال ما انا بملك ان خالف الناس امري [٣] وسنَّ الا يمرّ بهما احدٌ الاّ سجد لهما وكان اذا سنّ الملك منهم سنة توارثوها وأحيوا ذكرها وجعلوها عليهم حكماً [٤] وجعل لهما في السنة يوم بؤسٍ ويوم نعيم يذبح في يوم بؤسه كل من يلقاه ويغري بدمه الطربالين ولبث بذلك برهةً من دهره وسمى احد اليومين يوم البؤس وهو اليوم الذي يقتل فيهِ ما ظهر له من انسان وغيره وسمّى الآخر يوم النعيم يحسن فيهِ الى كل من يلقى من الناس ويحملهم ويخلع عليهم فخرج يوماً من ايام بؤسهِ فطلع عليهِ عبيد بن الابرص الشاعر الاسدي وقد جاء ممتدحاً فلما نظر اليهِ قال هلاّ كان الذبح لغيرك يا عبيد فقال عبيد اتتك بحائن رجلاه [٥] وبعد كلام طويل بين المنذر وعبيد نسب العرب اليهِ منشأ امثال كثيرة في لغة الضاد . وبعد ان انشد عبيد بعض الاشعار قال له المنذر يا عبيد لا بدَّ من الموت وقد علمت ان النعمان [٦] ابني لو عرض لي يوم بؤسي لم اجد بُدّاً من ان اذبحه فاما ان كانت لك وكنت لها فاختر احدى ثلاث خلال ان شئت فصدتك من الاكحل وان شئت من الابجل وان شئت من الوريد فقال عبيد ابيت اللعن [٧] ثلاث خلال كساحيات واردها شر وارد وحاديها شر حاد ومعاديها شر معاد فلا خير فيها لمرتاد

---

(١) زيدان: العرب قبل الاسلام ١ : ٢٠٧ (٢) Huart : His. des Arabes I : 67 . ويدعوه الطبري ٢:٨٦ المنذر بن النعمان الاكبر وأمه ماء السماء وفي ٢:٩٤ قال نقلا عن ابن هشام وملك بعد ابي يعفر بن علقمة المنذر بن امرىء القيس البدء وهو ذو القرنين وامه ماء السماء (٣) معجم البلدان مادة « غري »
(٤) المسعودي مروج الذهب ٦:٢٥٢ تدل هذه الرواية على ان اوامر الملوك عندهم شرائع واجبة الطاعة
(٥) راجع مجمع الامثال للميداني ١:١٠٧ (٦) ان صح هذا القول كان للمنذر بن ماء السماء ابن اسمه النعمان
(٧) تحية الملوك ومعناها لا تأت بعمل يستوجب اللوم واللعن

ان كنت لامحالة قاتلي فاسقني الخمر حتى اذا ماتت لها مفاصلي وذهلت منها دواهلي فشأنك وما تريد من مقاتلي فاستدعى له المنذر الخمر فشرب فلما اخذت منهُ وطابت نفسه وقدمه المنذر انشأ يقول:

وخيرني ذو البؤس في يوم بؤسه خلالاً ارى في كلها الموت قد برق
كما خيرت عاد من الدهر مرة سحائب ما فيها لذي خيرةٍ انق
وسحائب ريح لم توكل ببلدة فتتركها الا كما ليلة الطلق

ثم امر بهِ المنذر ففصد حتى نزف دمه فلما مات غرّى بدمهِ الغريين

وبقي المنذر[1] على تلك السنة حتى مرّ به في بعض ايام البؤس حنظلة بن ابي عفر فاستمهله في قتله سنة بكفالة شريك بن عمرو فامهله المنذر . ورجع حنظلة بعد سنة في آخر نهار الاجل المضروب لينقذ كفيله شريكاً من القتل فراع المنذر هذا الوفاء وسأل حنظلة عن سببه فاجابهُ حنظلة ابرّ بوعده لانهُ كان على دين النصرانية الذي يأمر بالوفاء فأثر هذا الكلام في المنذر واكبر هذه الخلة الشريفة فتنصَّر هو واهل الحيرة وابطل هذه السنّة العاتية

وعلى ذكر تنصّر المنذر نقول ان امه كانت على النصرانية وهي مارية الملقّبة ماء السماء على اشهر الاقوال[2] الا انهُ تقلّب في اعتقاده بين وثنية عرب الجاهلية والمجوسية وقد ذهب بعضهم الى انهُ دان بالمزدكية[3] وكانت زوجته هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الكندي مسيحية وتسمى هند الكبرى وهي صاحبة الدير الذي باسمها وكانت قد كتبت عليهِ[4]

« بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بنت الاملاك وام الملك عمرو بن المنذر أمة المسيح وأم عبده وبنت عبيده في ملك ملك الاملاك خسرو انوشروان في زمن مار افريم الاسقف . فالاله الذي بنت لهُ هذا الدير يغفر خطيئتها ويترحم عليها وعلى ولدها ويقبل بها ويقوّمها الى امانة الحق ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الداهر »

وتزوّج المنذر بن ماء السماء بأخت زوجتهِ هند ايضاً واسمها امامة. وولدت لهُ كل منهما اولاداً. وكان له من هند ولد اسمه عمرو بن هند خلفه في الملك ومن امامة ولد عرف بعمرو ابن امامة[5]

ومن حروب المنذر بن ماء السماء حرب «يوم عين اباغ»[6] وكان سببها ان المنذر سار من الحيرة في معد كلها وحدث ان نزل بعين اباغ بذات الحيار وأرسل الى الحرث الاعرج بن جبلة ابن ثعلبة بن جفنة بن عمرو مزيقيا بن عامر الغسَّاني ملك العرب بالشام[7] اما ان تعطيني العذبة فانصرف

(١) يسند بعض المؤرخين هذه الرواية الى النعمان الاول ويرويه غيرهم عن النعمان ابي قابوس ولكن الرأي المرجح انه المنذر بن ماء السماء (٢) النصرانية وآدابها ٨٨ (٣) كذلك . ولكن هذا القول يخالف ما ذكره بعض المؤرخين من ان سبب نكبته كان امتناعه عن قبول المزدكية (٤) معجم البلدان مادة دير هند الكبرى (٥) معجم البلدان في المادتين (قضيب) و « مرجح » (٦) الكامل لابن الاثير ١ : ٢٢٢ وعين اباغ ليست بعين ماء وانما هو واد وراء الانبار على الفرات الى الشام. قال ياقوت في معجمه وكان عندها في الجاهلية يوم مهم بين غسان ملوك الشام وملوك لخم ملوك الحيرة قتل فيها المنذر بن المنذر ابن امرىء القيس اللخمي . قلنا والمشهور ان القتيل فيها المنذر ابن امرىء القيس (٧) وقيل ابو شمر عمرو ابن جبلة بن النعمان ابن الحرث الايهم ابن مارية الغساني وقيل هو ازدي تغلب على غسان

عنك بجنودي واما ان تأذن بحرب فارسل اليهِ الحرث انتظرنا ننظر في امرنا فجمع عساكره وسار نحو المنذر وأرسل اليهِ يقول له انا شيخان فلا تهلك جنودي وجنودك ولكن يخرج رجل من ولدي ويخرج رجل من ولدك فمن قتل خرج عوضه آخر واذا فني اولادنا خرجت انا اليك فمن قتل صاحبه ذهب بالملك فتعاهدا على ذلك فعمد المنذر الى رجل من شجعان اصحابه فأمره ان يخرج فيقف بين الصفين ويظهر انهُ ابن المنذر فلما خرج اخرج اليهِ الحرث ابنه ابا كرب فلما رآه رجع الى ابيه وقال ان هذا ليس بابن المنذر انما هو عبده او بعض شجعان اصحابه فقال يا بني اجزعت من الموت ما كان الشيخ ليغدر فعاد اليهِ وقاتله فقتله الفارس والقى رأسه بين يدي المنذر وعاد فأمر الحرث ابناً له آخر بقتاله والطلب بثأر اخيه فخرج اليه فلما واقفهُ رجع الى ابيه وقال يا ابتِ هذا عبد المنذر فقال يا بنيَّ ما كان الشيخ ليغدر فعاد اليهِ فشدَّ عليهِ فقتله فلما رأى ذلك شمر بن عمرو الحنفي وكانت امه غسانية وهو مع المنذر قال ايها الملك ان الغدر ليس من شيم الملوك ولا الكرام وقد غدرت بابن عمك دفعتين فغضب المنذر وامر باخراجه فلحق بعسكر الحرث فأخبره فقال سل حاجتك فقال له حلتك وخلتك فلما كان الغد عبر الحرث اصحابه وحرضهم وكان في اربعين الفاً واصطفوا للقتال فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل المنذر وهزمت جيوشه

وفي رواية ان شمر بن عمرو الحنفي احد بني سحيم قتل المنذر غيلة وذلك ان الحرث ابن جبلة الغساني بعث الى المنذر بمئة غلام تحت لواء شمر هذا يسأله الامان على ان يخرج له من ملكه ويكون من قبله فركن المنذر الى ذلك وأقام الغلمان معهُ فاغتاله شمر بن عمرو فقتله [١] وجاء ان غساناً اسرت امرىء القيس بن المنذر يوم قتلت اباه فأغارت بكر بن وائل على بعض بوادي الشام فقتلوا ملكاً من ملوك غسان واستنقذوا امرىء القيس بن المنذر واخذ عمرو ابن هند بنتاً لذلك الملك يقال لها ميسون [٢]

وقال ابن الاثير [٣] بعد قتل المنذر آمر الحرث بابنيه القتيلين فحملا على بعير بمنزلة العدلين وجعل المنذر فوقها فرداً وقال «يالعلاوة دون العدلين» فذهبت مثلاً وسار الى الحيرة فانهبها واحرقها ودفن ابنيهِ بها وبنى الغريين عليهما في قول بعضهم الاَّ ان بعض المؤرخين يستبعدون ذهاب الحارث الغساني الى الحيرة ويستبعدون اكثر منه دفن ابنيهِ وبناءه الغريين عليهما

وفي يوم اباغ يقول ابن الرعلاء :

كم تركنا بالعين عين اباغ ... من ملوك وسوقة اكفاء
امطرتهم سحائب الموت تترى ... ان في الموت راحة الاشقياء
ليس من مات فاستراح بميت ... انما الميت ميت الاحياء

ويظهر من مقارنة الحوادث ان موقعة يوم اباغ كانت سنة ٥٦٣ ميلادية

ومما يذكر عن المنذر بن ماء السماء انه اوفد وفداً على ابرهة بعد ان فتح الاحباش بلاد

(١) الاغاني ٩ : ١٧٢ (٢) كذلك ص ٧٣ (٣) الكامل ١ : ٢٢٣

اليمن [1] وينسب الى المنذر هذا بناء قصر الزوراء في رواية [2]. ويقال انه كان يجير جاره شديد الشهامة عليه ومن ذلك ان ابا دواد الشاعر كان جاره . فنازع ابو دواد رجلاً بالحيرة من بهراء [3] يقال له رقبة بن عامر فاخرج ابو دواد بنين له ثلاثة في تجارة إلى الشام فبعث رقبة الى قومه فقتلوهم فحبس المنذر ابا دواد وبعث كتيبتيه الدوسر والشهباء لمعاقبة المجرمين [4]

ومن حديث الادباء ان الوفود اجتمعت عند المنذر بن ماء السماء بن امرىء القيس فاخرج المنذر بردين يوماً يبلو الوفود وقال ليقم اعز العرب قبيلة فليأخذهما فقام عامر بن احيمر بن بهدلة فاخذهما واتّزر باحدهما وارتدى بالآخر فقال له المنذر أأنت اعز العرب قبيلة قال العزّ والعدد في معد [5] ثم في نزار [6] ثم في مضر [7] ثم في خندف [8] ثم في تميم [9] ثم في سعد [10] ثم في كعب [11] ثم في عوف [12] ثم في بهدلة [13] فمن انكر هذا فلينافرني فسكت الناس [14] ومما يذكر عن المنذر انهُ كانت له ابنة اسمها فاطمة كان يهواها المرقش الاصغر الشاعر وقال فيها الغزل [15]

وقد نسب العرب بعض الاقوال المأثورة الى المنذر بن ماء السماء ومنها : العز تحت ظلال السيوف . وحصون العرب الخيل والسلاح . والحرب سجال عثراتها لا تقال [16] ونسب اليهِ الميداني [17] المثل القائل « تسمع بالمعيدي خير من ان تراه » وذلك في حكاية طويلة يلخصها ان بني ضمرة بن جابر وقعوا في يد لقيط بن زرارة فاساء ولايتهم واهانهم فوسط بنو نهشل المنذر بن ماء السماء لاسترجاعهم من لقيط فاسترجعهم ودعاهم امامه وكان يعجبه ما يسمعه عن خلال شقة بن ضمرة ولم يكن منظره يرضيه فقال له « تسمع بالمعيدي خير من ان تراه » . فاجابه شقة أبيت اللعن واسعدك الهك ان القوم ليسوا بجزر يعني الشاء « يعيش الرجل بأصغريهِ لسانه وقلبه» [18]. وجاء ذكر المنذر في كثير من اشعار عرب الجاهلية الذين عاصروه [19] وقصارى القول ان المنذر بن ماء السماء من اشهر ملوك الحيرة [20]

---

(١) زيدان العرب قبل الاسلام ١ : ١٥٩ و ٢٠٧ (٢) كذلك ص ١٥٩ . (٣) بهراء بطن من قضاعة من القحطانية وهم بنو بهراء بن عمرو بن الحافي بن قضاعة (٤) الميداني مجمع الامثال ١ : ٣١ في تفسير المثل (انا النذير العريان) (٥) معد بطن من عدنان وقيل هو بطن متسع ومنهم تناسل جميع بني عدنان (٦) بنو نزار بطن من عدنان وهم بنو نزار بن معد بن عدنان

(٧) مضر قبيلة من العدنانية وهم بنو مضر بن معد بن عدنان (٨) بنو خندف بطن من مضر من العدنانية وهم بنو الياس من مضر . وخندف اسم امرأة الياس عرف بنوها بها (٩) بنو تميم من طابخة وهو من عدنان وهم بنو تميم بن مر بن اد بن طابخة وكانت منازلهم بارض نجد . ونزلوا من هنالك على البصرة واليمامة وامتدت الى القرى من ارض الكوفة ثم تفرقوا بعد ذلك في الحواضر (١٠) بنو سعد بطن من تميم (١١) كعب بطن من تميم من العدنانية وهم بنو سعد بن زيد مناة (١٢) عوف بطن من تميم من العدنانية وهم بنو عوف ابن كعب بن سعد بن زيد مناة كان له من الولد عطارد وبهدلة وغيرها (١٣) بطن من تميم وهم بنو بهدلة بن عوف ابن كعب بن سعد بن زيد مناة من تميم (١٤) شعراء النصرانية ١٣٣ (١٥) الاغاني ٥ : ١٧٩ (١٦) الامام ابو منصور الثعالبي النيسابوري : الايجاز والاعجاز ص ١٥ (١٧) مجمع الامثال ١ : ٨٧ (١٨) كذلك ٢ : ٢٥٣ (١٩) تشارلس ليل : المقتطف فبروري ١٩١٤ (٢٠) استللنا هذا المقال من كتابنا المخطوط « الحيرة : المدينة والمملكة العربية » . راجع مقتطف اكتوبر ونوفمبر ودسمبر ١٩٣٢

انا الميت الحي

لتوفيق مفرّج

صاحب كتاب « آلام وأحلام »

الوداع ايها الشعر والحب
الوداع ايها الشباب والقلب
انتم الحياة ، فالوداع ايتها الحياة
الوداع ايتها العاطفة التى لا تزال مضطرمة متأججة في صدري
الوداع ايها الفن — ايتها الموسيقى — ايها الغناء
الوداع ايها الخيال — الوداع ايها الالهام
انا سائر في سبيلي
انا اعدو وراء اشغالي واعمالي
انا منصرف عن ادبي الى تجارتي ، وعن جمع الحكمة والافكار، الى جمع المال والدينار
فالوداع ياقلمي !

* * *

منذ عشر سنوات القيت بنفسي في بحر هذا العالم الواسع
قلت للناس — انا اديب احب الادب وعالم احب العلم و مفكر احب التأمل والتفكير
وقفت في زوايا الشوارع اعرض بضاعتي واقدم اثمار افكاري
وكانت الجماهير العمياء تمر وتنظر نحوي بازدراء واحتقار، وفي نظراتها شفقة اشد من ذلك الازدراء ، ورحمة أذلّ من ذلك الاحتقار
وكانت تموجات الاثير تحمل اليّ كلمات عابري السبيل يقولون :
شاعرٌ تاعس وكاتب فقير !

***

وكنت انادي بصوت عال
عندي اشعار وعندي علوم !
عندي فلسفة وعندي آداب !
فلم يكن ثمة من يسمع

ولم يكن ثمة من يجيب
ولم يكن ثمة من يشتري
كسدت افكاري ، وبارت بضاعتي ، وضاعت آمالي
فاضطررت ان انصرف عن الشعر والعلم ، الى التجارة والمال

* * *

وبعد سنين جئت الى اولئك الذين احتقروني شاعراً وازدروني كاتباً وقلت
عندي اشياء جديدة
عندي اموال
عندي سيارات
عندي منازل وعزب واطيان
واذا باعداء الامس يتحوَّلون الى أصدقاء
والذين يقولون شاعر تاعس فقير ، هم هم يقولون
تاجر عظيم ومتموّل كبير
راجت بضاعتي المادية لان الناس ماديون يفهمونها ويطلبونها . وكسدت بضاعتي الادبية لان الناس لاهون عن الادب ، عن الشعر ، عن الفلسفة ، عن الخيال والفن

* * *

اما انا —
فأنا التاجر الخاسر رغم ارباحي
انا الكاتب الغني الذي يشعر بفقره
بعت روحي لاشتري جسدي
اضعت حياتي لاجد لذتي
هبطتُ من الحياة الى الموت ، ومن النور الى الظلمة ، ومن سماء الخيال الى حضيض الارض
بعتُ القصورة الجميلة في الهواء ، لاشتري داراً حقيرة على الارض
أنا الشاعر الذي قدَّم دفاتره إلى محكمة الادب العليا فاعلنت افلاسه
أنا الشاعر التاجر الذي مات شاعراً ليحيي تاجراً

* * *

وها أنا الآن استعرض امام نفسي ما جمعت من مال فاجده لا يوازي كلمة واحدة من شعري

لان شعري وليد روحي وغذاؤها وحياتها
هو رفيقها بعد الموت الى ما وراء الابدية
هو سلواها في أفراحها وأحزانها لانهُ خالد مثلها
هو جزءٌ مني لا يتجزأ عني إن عشت ، ويبقى معي بعد أن أموت
أما مالي فلُعبة ألهو بها أياماً ثم أتركها لسواي

***

فيا أيها العالم الجميل البديع الذي عرفتهُ في تعاشر اهل الدنيا — قل لي كيف وأنا صحيح عقلاً وجسداً ، اهجر قلمي وانبذ شعري لاعود إلى تجارتي ومالي
كيف أرضى أن أحيي يوماً لاموت أبداً
أيها الذين يعرفونني — انظروا إليَّ وأشفقوا عليَّ
أنا الميت الحي !
انظروا كفني
هو أوراق مالية مكتوب عليها تدفع ذهباً ولا تدفع إلاَّ ورقاً
انظروا إلى نعشي
سندات وقراطيس
انظروا إلى قبري
هو قطعة من الفضة موشاة بالذهب
ايها الناس !
لقد ربحت العالم وخسرت نفسي
ايتها السماء
خذي مالي وجميع ما ملكت يداي وارجعي اليّ شعري

***

لبست ثوب الشاعر فمات جسدي جوعاً وبرداً
ولبست ثوب التاجر فتنعم ذلك الجسد بالدمقس والحرير
اما الروح التي تنعمت في جسد الشاعر لفقره وبؤسه
فهي الروح التي تتألم في جسد التاجر لثروته وماله

عصر الانسانية المقبل

الانتقال من الفردية المطلقة الى التنظيم الاجتماعي
والبناء على مثال النمل والنحل

من بحث لاندره موروى الكاتب الفرنسي المشهور

هل ثمة اساس لما يقال من ان تاريخ الانسانية تتداوله عصور يتلو جديدُها قديمَها؟ أليس تتابع الحوادث في التاريخ مستمرًّا فاذا عمد المؤرخ لدرس الماضي اخذ الشريط الذي دوّنت عليه الحوادث، وقطعهُ قطعاً تسهيلاً لتناوله فيدعو قطعة منهُ «العصور الوسطى» واخرى «العصر الحديث» وهكذا . ثم أليس من المتعذّر اقامة الدليل على ان ابناء عهد ما كانوا يشعرون بأنهم منتقلون من عصر الى عصر . فالحوادث التي تحسب الآن اعلاماً في طريق التاريخ لم يحسبها كذلك الذين عاصروها . فبنطيس بيلاطس لم يتخيل قط ما سوف يكون مقامهُ في التاريخ . فلما انقضت نحو ستمائة سنة على ميلاد المسيح قرر احد الرهبان ان يجعل سنة ميلاده مبدءًا للتقويم المسيحي . ولما هجم الفرنسيون على حصون البستيل يوم ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩ ترَيَّث لويس السادس عشر ليدون في يوميته وصف حفلة صيدٍ وقنصٍ حضرها! ان الثورات الحقيقية هي بمثابة قنابل تنفجر بعد ما ترتدّ اسبابها الى آفاق الماضي الذاهبة

وتيار التاريخ يكون آناً رهواً وآناً صاخباً متدفقاً . وهو تارةً بطيء فاذا استطلع المؤرخ ضفافهُ الفاها على وتيرة واحدة ثم يسقط فجأة من مرتفعٍ فيحدث دويًّا وصخباً

ولو ان رجلاً من معاصري الامبراطور ديوقلطيانوس رأى رومانيًّا من عصر الامبراطور اغسطس لعرفهُ رغم القرون الفاصلة بين عهدي الامبراطورين . او لو ان فرنسيًّا نام في باريس سنة ١٦٦٦ واستيقظ سنة ١٧٨٨ لعرف الملك وبلاطه . واذا ألمّ بآراء الفلاسفة استغربها ولكنها لم تذهلهُ . ولكنه لو نام ثانية سنة ١٧٨٨ واستيقظ سنة ١٧٩٨ لوجد نفسه في عالم لا يفهمهُ على الاطلاق . ولو ان اميركيًّا من العقد السابع في القرن الماضي ظهر في نيويورك سنة ١٩٣٠ لحسب متوحشاً جاهلاً لا يعرف ابسط حقائق الحياة

فاذن نستطيع ان نحسب كل فترة قصيرة من الزمان حدث في خلالها انقلاب اساسيّ في حياة الناس وافكارهم، بواسطة عقيدة جديدة او سلسلة من المستنبطات او ارادة عبقري متفوق، مفتَتَح عصر جديد . فهل نحن في مفتتح عصر جديد؟ واذا كنا في مفتتحهِ فما أسباب الانقلاب وما ينتظر ان يتصف بهِ العصر المقبل . وقد قلنا ان اسباب الانقلاب تفعل فعل القنابل، فهل تحت اركان المجالس النيابية الآن، مراجل تغلي وشيكة الانفجار؟

في القرن السادس عشر غرس المصلحون البروتستانت ، وبوجهٍ خاص المصلح كلفن ، فكراً جديداً في اذهان الناس . قالوا اننا لا نحتاج الى وسيط بيننا وبين الله ، بين الكتب المقدسة وعامة القراء . فدعوا بذلك الى الحرية في ميدان العقيدة الدينية ، ومهدوا الطريق للدعوة الى الحرية في ميدان التفكير السياسي . فالرجل الذي يستطيع ان يفسر التوراة يستطيع كذلك ان يحكم في شؤون الدولة . والرجال الذي يتساوون امام الله، يجب ان يكونوا متساوين امام القانون . فالفلسفة الفردية كانت مطوية في تضاعيف الاصلاح الديني

ومن الغريب ان الفلسفة المقابلة للفلسفة الفردية اي فلسفة الاشتراك في العمل ـ Collectivism ـ كانت مطوية فيها كذلك . « فمبادىء البروتستانت عزلتهم عن غيرهم ولكن حماستهم في سبيلها وحّدتهم فجعلتهم قوماً واحداً » هكذا قال لوثيروس . فان افكارهم دفعتهم الى طلب الحرية ، ولكن النزاع الشديد اقتضى التنظيم الدقيق والخضوع للنظام . فوحدتهم الاجتماعية لم تكن وحدة جماعة دينية وانما كانت وحدة جيشٍ محارب . وعلى ذلك ايد لوثيروس بعض الامراء ، وكانت حكومة كلفن نفسهِ بمثابة دكتاتورية . وقد سلّم الناس بهذه المفارقات حينئذٍ لان الحمية الدينية جعلت الاستبداد مقبولاً

ولكن لم يطل المطال حتى ظهرت بلاد لا تسلّم بالاستبداد ، فآتت العقيدة البروتستانتية فيها اشهى ثمارها . تلك البلاد كانت « نيوانجلند » (الولايات الشمالية الشرقية في الولايات المتحدة الاميركية التي نزل فيها المهاجرون اولاً) فقد كان معظم المهاجرين الغلاة « البيورتان » من طبقة اجتماعية واحدة . ولما كانت افكارهم قد وحدت بينهم في منفاهم لم يتعيّن عليهم ان يقاوموا اي اضطهاد في بيئتهم الجديدة . ففي نيوانجلند سارت الفردية البروتستانتية سيرها الطبيعي متجهة الى الديمقراطية الصحيحة

ومن البلدان البروتستانتية العظيمة — من انكلترا عن طريق ڤولتير ومنتسكيو ، ومن اميركا عن طريق لافاييت وفرنكلن ، ومن جنيف عن طريق روسو — استمدت الثورة الفرنسية فلسفتها في « حقوق الانسان » . وكان روسو تلميذاً لكلفن فبذر بزور مذهبي الفرد والجماعة ودعا الى دولة يكون السيّد فيها كليّ السلطان لان السيّد هو الشعب . وفي كلامهِ كثير مما يذكرك بروسيي العقد الثالث من القرن العشرين

اما القرن الذي تلا الثورة الفرنسية فكانت السيطرة فيهِ للناحية الفردية من هذه الفلسفة . فطالبت الشعوب بحقوقها — وفوقها كلها حق التصويت لانهُ كان رمزاً للمساواة وضماناً للحرية . وكان التصويت اولاً ميزة تمتاز بها بعض الطبقات (فكان مبنيًّا على مقدار الضرائب في انجلترا وفرنسا وحبس عن بعض السلالات الملونة — الزنوج — في اميركا) ولكن لم يشرف القرن التاسع عشر على ختامه حتى كان حق التصويت قد اصبح عامًّا في طائفة من اكبر

البلدان ، على أثر ثورات واصلاحات اخذ بعضها برقاب بعض . ولو انهُ طُلب من عاقل ان يبدي رأيهُ في اتجاه الاجتماع سنة ١٩٠٠ لقال ان العالم في مفتتح عصر الحرية . وفازت دول الاحرار في الحرب العالمية (١٩١٤ — ١٩١٨) وعلى اساس الدعوة الى الحرية فاقبلت سائر الامم على تقليدها في نظامها الحكومي والاجتماعي

ولكن قوى خفية جديدة كانت تقوض دعائم الديمقراطية والفردية . فالتصويت العام جعل السلطة في ايدي الجماهير . فلم تحجم الاحزاب عن اي عمل للفوز بالاصوات . فاصبح المحافظون من اتباع الدجل السياسي وحاول الاغنياء التأثير في الرأي العام باساليب مبتدعة من الدعاية . وهكذا بدأت الديمقراطية تنحو نحو الدماجوجية (الدجل السياسي) والبلوتوقراطية (حكومة الاغنياء)

ولولا الحرب العالمية والازمة الاقتصادية الخانقة التي تلتها ، لامكن ترقيع النظام القديم بالاصلاح والتعديل والاحتفاظ بهِ الى مدًى . على ان الديمقراطية تحتاج ، لتبقى راسخة البنيان الى تعليم الشعوب في فترات السلام والرخاء . فاذا هبَّت الزعازع فضَّل الناس السلامة على الحرية . ولا تطاق الحكومة المستبدَّة في هذه الحال ، الاَّ اذا بدا في نظامها شيءٌ جديد . كذلك استبدل كلفن حكومة الاقلية الارستقراطية في جنيف باستبداد ديني . وكذلك قضى الروس على استبداد القيصر واحلّوا محلّهُ دكتاتورية العمال

اما الدماجوجية وسيطرة الاغنياء في بعض البلدان التي اخذت بمذاهب الاحرار ، فاورثت شروراً ومساوي طغت على مآثر الافراد . أما في ايطاليا وروسيا فالرأي الآن انهُ يجب ان يخلى السبيل للدولة . واما المانيا فيظهر انها تبحث عن قوة جبارة يستطيع ان يجد فيها شبابها المتصوف قبلة للاجلال . ان نصف الامم المتمدنة اخذت تشيح بوجهها عن الديمقراطية . والصحف في اميركا لا تفتأ تعرب عن مخاوفها من النزعات الحرة ورغبتها في الحكومة القوية

ان في روسيا جيلاً جديداً غير ملمّ بمذاهب الاحرار في غرب اوربا واميركا ، بل هو يحتقرها ويزدريها ، اذ بسطها احد لهُ . ففي روسيا لا يبحثون قط في حقوق الانسان ، بل في واجبات الانسان . والفرد يرى شيئاً من النشوة الدينية اذ نسي ذاته ليشترك في ذات الدولة . ان وكر النمل وقفير النحل اصبحا النموذج الذي تبنى عليهِ الجماعات الانسانية . وهذا مناقض كل المناقضة للمثُل التي كانت سائدة في القرن الماضي . فهل نستنتج ان التطرف الذي بدا في البلدان «الفردية» النزعة قضى على هذه المثُل ؟ وهل يكون العصر الجديد عصر النمل والنحل ؟

اما القنبلة الثانية التي أُشعِلت مراراً في العالم الحديث ، فطفئت ثم اشعلت ثانية وثالثة فهي قنبلة العلم التجريبي . اشعلها اولاً بعض الشعوب القديمة كاليونان . وتلاهم العرب فزادوها لهيباً . ثم تعهدتها اوربا بعيد عصر النهضة أو الاحياء . ولكن الانفجار العظيم الذي نشهد آثاره جاء في مطلع القرن التاسع عشر . فقد خلق العلم التجريبي الآلة ، وهي أداة وضعت قوى الكون في متناول يد الانسان

وزيادة طاقة الانسان زيادة لا تُحَدُّ عمل مفيد اذ يستطيع بها ان يزيد ما يصنعهُ من العروض ثم هي تمهد السبيل امامهُ لابتداع عروض جديدة ، وتمكنهُ من ملاءٍ كانت لغلائها وندرتها فوق طاقتهِ . واذ حلت الآلة محل العامل ، عمد العلم الى الحقل فزاد غلالهُ وجوَّد صنفها . وكل هذا لا تنكر فائدتهُ . ولو ان مراقباً حاول ان يحكم على حالة العمران في مطلع القرن العشرين لقال هذا مفتتح عصر الرخاء . اما الآن وقد انقضى نحو قرن ونصف قرن على استنباط الآلة البخارية فاننا نرى نتائج لم تخطر ببال احد من ثلاثين سنة على الاكثر

فتوسيع نطاق الانتاج يفضي الى صنع عروض لا يحتاج الناس اليها كلها . والبضائع المصنوعة في طبقة عالية من الجودة والمتانة ولكن الناس لا يبتاعونها . وها هي المصيبة نزلت ببني الانسان . واية مصيبة هي — مصيبة كثرة البضائع والعروض التي كانت تحسب سبيلهم الى الرخاء . والآلة التي كان ينتظر ان تغني الانسان وتخفف اعباءهُ جلبت في اثرها العطل عن العمل والبؤس — وليس هذا لأنَّ الآلة شرٌّ بحد ذاتها ، بل لضعف الذكاء الانساني

وكان من أثر الاساليب العلمية التخصص في الصناعة والزراعة . فكانت كل جماعة قبلاً تصنع ما تحتاج اليهِ فكان لهذا أثره السيء لانهُ اذا امحلت الحقول سنةً حلّت المجاعة بالجماعة التي تعتمد عليها للحصول على الغذاءِ . اما وقد خلق العلم وسائل المواصلات السريعة فقد اصبح من الميسور نقل الغلال من مكان الى آخر نقلاً سريعاً فبدا للمفكرين ان كثرة الغلال وسرعة المواصلات ازالتا شبح المجاعة من العالم

ولكن الاعتماد على المواصلات السريعة حمل الناس على تركيز الصناعة والزراعة في مواقع خاصة ممتازة . وهذا عمل مفيد لولا انهم اهملوا العناية بتوفير اسباب التبادل . وقد ابانت الازمة العالمية التي ما زلنا نعانيها ، ان شبح المجاعة ما زال يهدّد العالم . فغارس اشجار المطاط قد يموت جوعاً والى جانبهِ اكوامٌ من غلتهِ التي لا تباع . وزارع الحنطة قد يهرأ برداً وحواليهِ اكداس الحنطة . ففكرة الوحدة الاقتصادية العالمية قد منيت بالخيبة — الآن على الاقل

ثم ان الشك العلمي ، قد قتل في نظر البعض صدق الايمان . وبعض الناس يحيون من دون الايمان الصادق واما البعض الآخر فلا يستطيع ذلك . فالدين مكن البائسين من الصبر على آلامهم املاً في الجنة حيثما لا اوصاب ولا آلام . ولكن المادية العلمية دفعت الذين لا يرغبون في الملذات العقلية الى البحث عن اكفاء الشهوات العارضة . على ان الانغماس في الشهوة التي لا ضابط لها مناقض للطبيعة البشرية . فهو يهدم الجماعات التي تنصرف اليهِ ولا يلبث ان يصبح نقيض اللذة وهو الالم

ثم ان الانسان لا يستطيع ان يعيش من دون مثل اعلى يرنو اليه . وفي عصرنا هذا أُسبغَ على القومية ثوب ايمان جديد . ولكن القومية العنيفة المحاربة لا تستطيع ان تعيش في جماعة اساس نظامها الاقتصادي التبادل الدولي ، او في عالم اشترك فيه العلم والتجنيد الاجباري لجعل

الحرب بمثابة انتحار للبشرية. فليس امامنا في ميدان السياسة الاَّ عقيدتا الفاشيّة والبلشفية. ففي رومية وموسكو اصبحت الدولة مصدر الآداب ومعلمة الفضائل. اما ونحن في عالم تعوزهُ العقيدة والحكمة، فقد لا نرى سبيلاً آخر للخلاص

والظاهر ان العصر الذي اشتركت فيهِ مذاهب الاحرار والعلم، لتحقيق السعادة الانسانية قد بلغ غايتهُ. قد نستطيع ان نخلص الحرية السياسية من البوار ولكن يجب ان نضحي في سبيلها بالحرية الاقتصادية. ونحن الآن في مفتتح عصر كلمة السرّ فيهِ «التنظيم» وهذا التنظيم يحاول ان يتخذ في اميركا مثلاً شكل حكومة مؤلفة من خبراء، وفي بلدان اخرى شكل جماعات من الماليين Cartels تسيطر على الحكومة من وراء ستار. فهل يكون البناء في العصر الجديد على مثال ما تفعله النمل؟

قد تفوز النزعة الاشتراكية. واذا نجحت التجربة الروسية تكون قد ابدعت مثالاً جديداً من النظام الاجتماعي. ولا يلزم ان تذيع طريقتها في تنظيم الحياة الاقتصادية بالفتح والثورة بل يمكن ان تذيع بالعدوى والتقليد. فالثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ لم تحدث انقلاباً عنيفاً في انكلترا ولكن مبادىء سنة ١٧٨٩ هي اهم البواعث على الاصلاح الانتخابي الذي تمَّ في انكلترا سنة ١٨٣٢ بل نستطيع ان نقول ان سقوط الباستيل كان اهم حادث في تاريخ انكلترا. ولعلَّ سقوط القيصرية الروسية يحسب في المستقبل اهم حادث في تاريخ الولايات المتحدة

ولكن عصر التنظيم الاجتماعي والاقتصادي قد ينتهي بالخيبة. ولم يثبت حتى الآن ان الذكاء الانساني يستطيع ان يسيطر على مستقبلنا الاقتصادي وتنظيم حاجات الناس واعمالهم. فهل من السهل ان نلائم بين عالمي الزراعة والصناعة؟ هنا لبّ المسألة وليس غير التجربة كفيلاً بالجواب. فاذا انتهى هذا العصر بالخيبة فقد نشهد انحطاطاً عالميًّا. فتحمل الروح القومية كلَّ امة على الاكتفاء بذاتها. ويقلُّ التداول الدولي حتى يكاد يُمحى. وتصبح آية العصر الجديد شبيهة بآيات الحضارة الزراعية الغابرة

ومع ان هذه الخيبة ليست مستحيلة الاَّ انها في نظرنا غير محتملة. واعتقد ان العصر المقبل سوف يتصف باتساع الثروة. على انني لست ادري أي الطرق يُعمَد اليها في توزيع الثروة توزيعاً منصفاً، وانما احسُّ ان لا بدَّ من وجود حلّ ما بعد كثير من العناء والألم. ثم ان مقدار البضائع التي تستهلك آخذ في الازدياد مع ان عدد السكان يميل الى النقص. واذن فالانسان المتوسط سوف يكون اعظم ثروة مما هو الآن. ويكاد يكون في حكم اليقين ان ساعات العمل تكون اقل مما هي الآن. وسواء كان النظام الاقتصادي في العصر الجديد رأسماليًّا أو اشتراكيًّا فالمرجّح عندي ان الثروة فيهِ سوف تكون أعظم وساعات الفراغ أطول والمساواة اتمّ مما هي الآن. وقد يبقى هذا النظام مستقرًّا تعلوه مسحة السعادة الى مدى ثم يحدث انفجار يضيع التوازن فيبدأ الانسان بحثهُ من جديد

الوراثة والمحيط

للدكتور شريف عسيران

ضلّ الناس قديماً ضلالاً بيناً فجعلوا للمحيط الشأن الاكبر في حياة الفرد لا بل خبطوا خبط عشواء في تحديد تأثير الوراثة وتأثير المحيط وفرّقوا بينهما تفريقاً ظاهراً وجعلوا لكل منهما تأثيراً مستقلاً عن الآخر. كان الرأي القديم ان المحيط هو كل شيء وذهب هذا المذهب ثلة من اساطين العلماء بل نجد في نص اعلان استقلال الولايات المتحدة صورة واضحة لعقيدة ذلك العصر فقد نص اعلان الاستقلال ان كل الناس خلقوا متساوين وعلى هذه الفكرة الاساسية فكرة ان المحيط هو العامل الاكبر في حياة الفرد نشأت اكثر الاوضاع الاجتماعية وما فيها من انظمة وقوانين الى غير ذلك من محسنات المحيط فالشطر الاكبر من المدنية في عرفهم هو المحيط الحسن وتقدم المدنية معناه تحسين المحيط

وعكس ذلك النظرية الحديثة التي تجعل للوراثة الشأن الاكبر في نشوء الفرد وما ينتج عنهُ من المظاهر الاجتماعية التي هي وليدة عمل الناس ونتيجة كفاءتهم الوراثية . ولا نتوغل الآن في تحليل نظريات الوراثة والمحيط والتفضيل بين الرأيين لاننا سنفصل ذلك في سياق البحث ونذلي باحدث الآراء المعززة بالادلة والبراهين العلمية . وقد قسمت البحث الى قسمين فأتناول في الاول الوراثة والمحيط واعقبه ببحث في توريث الصفات المكتسبة

﴿ تأثير المحيط في تعيين الصفات ﴾ بيّنا ان صفات الفرد تتوقف على عوامل خلاياه وعلى السيتبلازم والمفرزات الداخلية ورأينا كيف نتمكن من تحويل الانثى الى ذكر والابله الى نبيه بواسطة المفرزات الداخلية فهل من الممكن تجهيز عوامل خارجية لها نفس التأثير فيهِ. والجواب نعم لانهم كما بيّنا تمكنوا من استخلاص خلاصة الغدة الدرقية وهو الثيرودين الذي يعطونه للبله فيصيرون اصحاء . وقد استخلصوا خلاصة اكثر الغدد الصماء فتقدم هذا العلم تقدماً بيّناً في العشرين سنة المتأخرة وزاد في الخمس سنوات الاخيرة فما يدرينا ما يحدث بعد مائة سنة او الف . لابدّ ان يكون التقدم في هذا الناحية وغيرها من نواحي الحياة عظيماً

فهل للمحيط الخارجي التأثير الذي للمحيط الداخلي فتختلف الصفات باختلافه . اننا نعرف ان افراز الغدد الصماء تحت تأثير الجهاز العصبي . فالخوف والغضب يزيدان افراز الادرنالين وزيادة افراز هذه المادة أو نقصها يؤثران في سلوك المرء . وقد رأينا فيما مضى كيف ان الحرذون المائي المعروف بال Axoltol يتحوّل من حيوان مائي الى حيوان برّي باطعامهِ خلاصة الغدة الدرقية فتتلاشى خواشيمه وذنبه وتتغير كل صفاته . ووجدوا ان نفس التأثير يحصل في هذا

الحيوان باجباره على ترك الماء وتعويده الحياة البرية وتعريضه لدرجة خاصة من الحرارة فيتبدَّل من حيوان مائي الى بري كما لو اطعمناه خلاصة الغدة الدرقية . وعلى الارجح ان هذا التبدل ناشىء عن تأثير العوامل الخارجية في الغدة الدرقية فيجعلها تزيد افرازها في الدم فيحصل التبدُّل. ان العوامل الخارجية تفعل فعلها بالتأثير في المفرزات الداخلية التي هي مصدر التغيير والتبديل

ليس الجسم وحده يولد المواد الكيماوية كالمفرزات الداخلية التي تؤثر تأثيراً كبيراً في الصفات الوراثية بل هناك مواد أخرى طبيعية خارج الجسم لها فعل يشبه فعل المفرزات الداخلية . فقد دلت الابحاث الحديثة في الغذاء ان الجسم لا يكتفي في نموّهِ بالمواد الاساسية النيتروجينية والدهنية والنشوية والمعادن بل هناك مواد تحققوا فعلها ولم يهتدوا الى تحديدها وتسمى الفيتامين فاذا كان الطعام خلواً منها فان الجسم يضعف ويتأخر ويصاب بامراض مختلفة وقد اكتشفوا حتى الآن خمسة انواع من الفيتامين نذكرها باختصار وهي :

(١) فيتامين A . وهو يكثر في الحليب والزبدة والدهن وصفار البيض وزيت كبد الحوت وفي الخضر كالسبانخ والخس والقرنبيط والطماطم وما أشبه وفقدان الغذاء لهُ يعيق النمو ويولد استعداداً لعدوى الامراض ويسبب في الاولاد خاصة مرض يسمى الرمد الجاف (Xerophthalmia) فتجف سوائل العين وتتقرَّح اغشيتها وتهرأ فيفضي ذلك الى فقد النظر احياناً او ضعفه ويعزى العشوُ (عدم النظر ليلا) الى فقدان هذه المادة من الغذاء

الفيتامين B وهو غزير في صفار البيض والحليب واوراق الخضر كالخس والجزر والقرنبيط وما أشبه وفي الاعضاء كالقلب والكبد والكلية الخ

ان فقدان الغذاء له يؤخر نمو الجسم ويعرضه لاخطر الامراض وهو المرض المعروف بالبري بري ومعناه «لا أقدر» اي ان المصاب لا يستطيع عمل شيء لشدة مرضه ومن اهم علاماته ضمور العضلات وشلل الاعضاء وخفقان القلب واسهال وانحطاط عام في الجسم يرافقه استسقاء وهو كثير خاصة في اليابان والصين وما جاورهما وينشأ من أكل الارز المقشور لان الفيتامين موجود في القشر

الفيتامين C يكثر في عصير الليمون الحامض والبرتقال وفي الطماطم والفول والخس والتفاح واللبن (الحليب) والبيض وفقدانه يسبب مرض الاسقربوط واهم اعراضه انحطاط في الجسم واضطراب القوى العقلية والجسدية وألم وورم في المفاصل ونزف دموي تحت الجلد وفي غشاء الفم المخاطي واللثة بوجهٍ خاص وتساقط الاسنان ويشتد الصداع وغيره من الآلام العصبية ، ونقصه من اسباب نخر الاسنان في الاطفال

الفيتامين D غزير في زيت كبد الحوت وغيره من انواع زيوت الاسماك ومنه مقدار يسير في الزبدة وزيت جوز الهند . اما نقصه فيسبب مرضاً من اشد الامراض وهو منتشر انتشاراً هائلاً بين الاطفال من سن الستة اشهر الى السنتين ولا نبالغ ان ٩٠ بالمائة من الاطفال حتى بين الشعوب المتمدنة يصابون به ويظهر ان له علاقة وثيقة بنموّ العظام ونور

الشمس أو بالحري الاشعة فوق البنفسجية لها نفس التأثير الذي لهذا الفيتامين . وهذا المرض هو المرض المعروف بالكساح الذي يسبب تشوهات في العظام كاعوجاج القدم وانحنائها وبروز عظام الصدر وارتخاء عضلات الجسم وتأخر نموه واضطراب الامعاء وفقدان شهية الطعام وبروز البطن والصدر بصورة غير طبيعية وضحاياه في الاطفال اكثر من ان تحصى فاعطاء الطفل قليلاً من زيت كبد الحوت أو عصير البرتقال أو تعريضه لاشعة الشمس أو الاشعة فوق البنفسجية تزيل هذا المرض وتعيد المصاب الى حالته الطبيعية

الفيتامين E يؤثر في التناسل وهو موجود في ورق الخس وفي القطاني واللحم الجديد وصفار البيض فاذا خلا منه طعام الام مات الجنين في اليوم ١٢ — ٢٠ من تكونه فنقصه سبب من أسباب العقم

وقد اكتشف رولف حديثاً نوعاً سادساً سماه فيتامين G وهو موجود في البيض والحليب والخميرة ونقصه يسبب مرض البلاغرا Pellagra وهو من الامراض المنتشرة في ايطاليا واسبانيا وغيرها من الامصار الاوربية والولايات المتحدة وبقي سببه غامضاً حتى أعلن حديثاً هوكلاند مدير دائرة الكيمياء الحيوية في واشنطن اكتشاف الفيتامين واهم علامات هذا المرض عوارض جلدية وعقلية ومعوية فيظهر طفح جلدي وتقرح في الفم يرافقها اسهال واضطرابات عصبية . فهذه المواد عوامل خارجية تؤثر في صفات الفرد فتجعل الأبله سليماً والعقيم نتوجاً وتبرىء المصابين بالعاهات الناشئة عن فقدان تلك المواد وهي دليل على تأثير المحيط الخارجي. وهنا يظهر تناقض في اقوالنا فقد بينا فيما سلف ان الكروموسوم والسيتبلازم هما العامل في نشوء الصفات ونعترف الآن ان الصفات تتغيّر بفعل العوامل الخارجية ايضاً اي المحيط وسنورد بعض الامثلة التي توضح الحقيقة وتكشف الستار عنها وتبين العلاقة بين الوراثة والمحيط

وجد R. A. Emerson ان مختلف الالوان في الاذرى وراثي وحينما تنمو هذه النباتات في الحقول المعرضة للشمس يصير بعضها احمر (بكل ما فيه من ورق وزهر الخ) ويبقى البعض اخضر . واذا زرع كل من هذين النباتين الملونين على حدة خرج كلٌّ بلونهِ . واذا ناسلنا الاحمر بالاخضر تبعا في نظام وراثتهما قانون مندل اي ٣ غالب الى ١ كامن . ولكن اللون يتوقف على المحيط فالانواع التي تنبت الاحمر لا تنبته الاّ اذا زرعت في الشمس اما اذا زرعت في الفيء فينشأ النبت اخضر فاذا كان عندنا نوعان احمر واخضر فالاحمر لا ينمو احمر الاّ اذا زرع معرضاً لنور الشمس وأما الاخضر فينمو اخضر سواء ازرع في الشمس او الفيء . واذا كان عندنا نوعان احمران وزرعنا احدهما في الشمس والآخر في الضوء فالاول ينشأ احمر والثاني اخضر . فهذه الامثلة توضح لنا علاقة العوامل الوراثية بالمحيط فالعوامل لا تخرج اللون المطلوب الاّ اذا كانت في محيط خاص والمحيط لا يولّد اللون المطلوب الاّ اذا كانت هنالك عوامل خاصة فالعوامل تتوقف على المحيط والمحيط يتوقف عليها . فلا نستطيع ان نقول هذه الصفة وراثية وتلك محيطية فلاخراج صفة من الصفات ينبغي ان تتوافر لدينا عوامل خاصة ومحيط خاص . فالعوامل لا تخرج

الصفة المطلوبة اذا كانت في المحيط الخاص والمحيط لا يخرجها الاَّ اذا توافرت العوامل الخاصة

وقد وجدوا ان عوامل اخرى تؤثر في اللون منها فقر الغذاء فالارض الفقيرة بالمواد الغذائية تنبت اللون الاحمر في بعض النباتات. وخزن المواد النشوية في الانسجة يولد اللون الاحمر ايضاً

ذكرنا بعض الامثلة من مملكة النبات ونذكر الآن غيرها من مملكة الحيوان. يربي العلماء ذباب الفواكه في زجاجات خاصة فيها موز نهري فيصير هواءها رطباً فالذباب الذي ينمو بهذه الصورة يظهر عيب في بطن بعض افراده. فالاجزاء التي تتركب منها البطن لا تكون واضحة ومن المحقق ان هذا العيب وراثي يتوقف على نوع العامل ولكنهُ لا يظهر الاَّ اذا نشأ الذباب في محيط خاص والمحيط الخاص لا يؤثر فيهِ ما لم يكن ذلك العامل موجوداً. ويوجد عيب آخر في هذا الذباب اذ تكون له أرجل أو عقد مكررة وهذا العيب يورث بالطريقة الجنسية وهو ناشئ عن خلل بالعامل اكس (X) ولكنه لا يظهر اذا نشأ الحيوان في محيط دافئ فالمحيط البارد يسبب تكرر الساق والرجل في الذباب الموجود فيهِ عوامل هذا العيب. اما الذي يكون خلواً من العيب فينشأ صحيحاً ولو كان في محيط بارد. ويوجد نوع ضخم من هذا الذباب حجمه ضعف الحجم العادي وهذه الضخامة وراثية تظهر اذا تغذى الحيوان تغذية جيدة وهو في الدور الدودي ولا تظهر ان لم يتغذى الحيوان الغذاء الخاص في ذلك الدور وتتلخص العوامل المحيطية المارة الذكر بما يلي: (١) نور الشمس (٢) الغذاء (٣) الرطوبة والجفاف (٤) البرد والحر

﴿ علاقة الوراثة بالمحيط ﴾ ان المرء يرث عوامل مختلفة تكوّن فرداً ذا صفات معينة فنفس العوامل تنشئ صفات مختلفة تحت تأثير المحيط ولا تناقض بين العوامل والمحيط فاختلاف بعض العوامل لا ينشئ الصفات المختلفة الاَّ في محيط خاص فبعض الصفات تتوقف على العوامل وحدها فتدعى وراثية ونفس تلك الصفات تتغير بتغير المحيط فتدعى محيطية فالعوامل تظهر نوعاً من الصفات والمحيط نوعاً آخر

فاذا اخذنا نوعين من الاذرى احمر واخضر عاملهما واحد فالفرق بين لونيهما يعود الى المحيط واذا قابلنا نوعاً احمر مع غيره اخضر نمى في نفس المحيط فالفرق بينهما وراثي

﴿ شأن الوراثة والمحيط ﴾ ايهما اهم في صفات الفرد الوراثة او المحيط او بكلمة اخرى ايهما أهم في بناء البيت المواد التي يبنى منها أو طريقة بنيانه. ان لكل منهما ميزة خاصة فبعضها ناشئ عن اختلاف العوامل وغيرها عن اختلاف المحيط فيؤثر المحيط في بعض الانواع في الصفات الاساسية كالجنس ولا تأثير له في غيرها. ففي ذباب الفواكه الذي درسوه حق الدراسة من هذه الوجهة لا تأثير للمحيط في الصفات البارزة فالحجم والشكل واللون والبنية والجنس تتوقف على العوامل الوراثية كما ورد في الامثلة التي ذكرناها من تسطيح العيون وعيب البطون ومضاعفة السيقان وغيرها. وفي كثير من النباتات وبعض الحيوانات السفلى تتوقف اكثر الصفات على المحيط. والخلاصة ان الصفات البارزة في اغلب الحيوانات كالمواشي والارانب وكل ذوات الثدي لا تتوقف على المحيط فاختلاف

اللون والشكل والبنية والجنس ناشئ عن اختلاف العوامل الوراثية وأثر المحيط فيها ضعيف جداً

﴿ موقف الانسان ﴾ ان بعض الصفات الجسدية كلون العين مثلاً تتوقف على العوامل وكذلك لون الشعر ولكن ليس هذا القول قاطعاً لان لون الشعر يتغير في الشيخوخة. ومن الممكن ان يكون اختلاف لون الجلد ناشئاً عن العوامل او المحيط ويتوقف معظم طول القامة وقصرها على اختلاف العوامل . والبدانة والنحافة تتوقفان غالباً على العوامل وبعض الاحيان على كيفية المعيشة . ويتوقف شذوذ تركيب الجسم كزيادة الابهام والاصابع وايدي وارجل ذات نسيج او اصابع ذات عقدتين وما اشبه على العوامل. وهنالك عيوب في التركيب كاعوجاج الساقين وانفراج القدمين وغيرها من العيوب العظامية التي تظهر في داء الكساح تنشىء عادة من المحيط اما اختلاف الجنس فهو محض اختلاف في العوامل

﴿الخصائص الفسيولوجية﴾ ان اختلاف بعض الخصائص الفسيولوجية ناشئ في البشر عن اختلاف العوامل الوراثية ولا اثر فيهِ للمحيط. فالاستعداد الى نزف الدم (الهيموفيليا) ناشئ عن عيب في الكروموسوم X ويورث بالطريقة الجنسية كما بينا. وكذلك اصناف الدم التي قسموها الى اربعة فئات Blood groups ولدينا ادلة كثيرة تبين ان افراز الغدد الصماء ناشئ عن اختلاف العوامل ولم يتوصلوا بعد الى درس الخصائص الفسيولوجية في البشر الدرس الكافي من هذه الوجهة ولا نزال حديثي العهد بها ومن الممكن ان نكشف كثيراً من مخبَّآتها

﴿ الامراض﴾ ان كثيراً من صفات البشر تعزى الى عوامل خاصة تحت تأثير محيط خاص ومنها الامراض المختلفة وقد نشأ من هذه العلاقة (علاقة العوامل بالمحيط) عقيدة فاسدة وهي ان الصفات اما وراثية بحتة لا تأثير للمحيط فيها واما محيطية لاتتأثر بالوراثة ولكن الحقيقة غير ذلك فان للوراثة والمحيط تأثيرهما . ولنأخذ التدرن الرئوي (السل) مثلاً فان عدوى هذا المرض تتوقف على باشلس السل ففي بعض الاشخاص استعداد خاص للعدوى او بالتعبير الوراثي عوامل خاصة فيها استعداد لقبول المرض فالشخص الموجودة فيهِ هذه العوامل يكون معرضاً للمرض اكثر من غيره ممن لا توجد فيهم ومما لا شك فيهِ انهُ يوجد عنصر وراثي لقبول العدوى ولكن الشخص الذي فيهِ هذا الاستعداد لا يصاب اذا لم يتعرض لجراثيم المرض ويصاب اذا لم يستعمل طرق الوقاية ويُبعدُ نفسه عن المحيط الذي فيهِ الجراثيم . والناس درجات من هذه الوجهة فبعضهم سريع التأثر بالجراثيم وغيرهم اقل منهم تأثراً وهكذا تتفاوت الدرجات حتى نجد فئة ذات حصانة طبيعية . فيتضح مما ذكرنا ان للعوامل شأناً كبيراً في حصول العدوى ولكن نجد في الوقت نفسه ان المحيط ربما كان اكبر شأناً وما قلناه عن السل ينطبق على كثير من الامراض كالجدري والطاعون والتيفوئيد وذات الرئة وغيرها . فان الناس يرثون استعداداً خاصًّا اي تنشأ فيهم عوامل خاصة تعرضهم لفتكاتها ولا تنشأ هذه العوامل في غيرهم فمتى عرض القسم الاول نفسه لجراثيم المرض فانه يصاب به واذا استعمل الوقاية بعدم

تعرضه لها أو باستعمال التلقيح ضدها فانه لا يصاب ايضاً . ويعتقد الناس ان العلة أو العيب الوراثيين لا بد من حصولها مهما احتاط المرء ولكن الحقيقة غير ذلك فان المرء يرث مزاجاً خاصاً لقبول العلة وتصيبه في احوال خاصة ولا تصيبه في احوال اخرى كما بينا . ولا تقتصر الوقاية على تأثر المرء الحاضر بالمحيط بل ان للمحيط الماضي اثراً لا ينكر فمن أصيب بالجدري أو تلقح ضدها في الماضي لا يصاب بها في الحاضر في الغالب ومن تعرض لاقصى درجات الحر والبرد لا يعود شديد التأثر بهما فلو اخذنا ثلاثة اشخاص لم يصابوا بمرض ما حين انتشار وباء ذلك المرض كالطاعون مثلاً فاحدهم لم يصب بسبب مناعته الوراثية وآخر لانه اصيب بالمرض قبلاً أو تلقح ضده والثالث توقاه فابتعد عن المحيط الموبوء وهذه الامثلة تبسط لنا تأثير الوراثة والمحيط في آن واحد

﴿ علاقة الصفات العقلية بالوراثة والمحيط ﴾ ان للصفات العقلية والاخلاقية شأناً كبيراً في المجتمع فما علاقة العوامل والمحيط بها وما تأثيرها في الاخلاق والسلوك او حياة الانسان الفنية والعلمية والادبية ؟ بعضهم ينسب كل شيء للمحيط . يقول وطسن اننا لا نرث صفاتنا واخلاقنا ومواهبنا الخاصة بل يجبرنا آباؤنا على اكتسابها . ويدعي البيولوجيون عكس ذلك فينسبون كل شيء الى الوراثة فايهما اصدق . ويجدر بنا توصلاً للحقيقة ان نبحث في هل علم الوراثة الحديث الذي رأيناه ينطبق على النبات والحيوان ينطبق على الانسان ايضاً

ثبت من الابحاث التي ذكرناها سابقاً ان صفات الفرد تتوقف على العوامل الوراثية فبتغيرها تتغير الصفات ولكننا لم ننفِ انها تتغير بطرق أخرى وقد بينا العلاقة بين الوراثة والمحيط وتعلق الواحد بالآخر فلا حاجة للاعادة . وبيت القصيد من بحثنا الآن ان نعرف هل الصفات العقلية تختلف باختلاف العوامل الوراثية . ان التجارب التناسلية والوراثية تؤيد هذه الحقيقة فالنظام الوراثي بيّن لنا كيف تنتقل الصفات من الآباء الى الابناء بقانون مندل والاتصال الجنسي الخ وهذا دليل كاف على ان الصفات العقلية تنتقل بالوراثة . فان النظام التناسلي ينطبق على الانسان كما ينطبق على الحيوان ففي الانسان ٤٨ كروموسوماً تنشطر ٢٤ زوجاً في الابوين وتنتقل الى الابناء وتورث . ومن قوانين الوراثة ان البنية وطول القامة وقصرها والصفات الفسيولوجية والاخلاقية والسلوكية والعقلية تتوقف على العوامل الوراثية ولا يوجد صفة من الصفات لا تتأثر بها . فهل هناك صفة لا تتأثر بها وهل بعضها يتأثر بالمحيط

نلجأ الآن الى التجارب العلمية ونستنبيها فنطبقها على الحيوان اولاً ثم نرى اذا كانت تنطبق على الانسان . ان الصفات السلوكية في ذباب الفواكه تتغير بتغير العوامل . والعامل الدافع لهذا الذباب لكي يتجه نحو النور موجود في الاكس كروموسوم ومركزه في النقطة ٢٧٦٥ من مصوّر الكروموسومات الخاص بالذباب المذكور . فوجود هذا العامل بحالة خاصة يجعل الذباب يطير للجهة التي يأتي منها النور Positive Phototaxisis ومعناه الانجذاب الايجابي نحو النور . ووجود ذاك العامل بحالة أخرى لا يجعل الذباب يطير نحو النور . فهاتان الصفتان

المختلفتان تنتقلان بالارث الجنسي فلو زاوجنا الآباء التي تطير نحو النور بالامهات التي لا تطير نحوه فان صفة الطيران نحو النور لا تظهر في الابناء بل في البنات

وثمة عدة صفات اخرى حسّية في الحيوانات تنتقل بهذه الطريقة . ان الالفة والوحشية تتوقفان في الحيوانات على العوامل الوراثية فبعضها تكون اليفة وغيرها وحشية . وتتوقف في الانسان بعض صفات الحس عليها فعمى اللون وهو من الصفات الوراثية ينتقل بواسطة الكروموسوم X بالاتصال الجنسي وكذلك قوة النظر والسمع وضعفهما يورثان بطريقة مندل وقوة العقل وضعفه يتوقفان على العوامل الوراثية ويورثان بحسب قانون مندل . ومما يدل على ان هذه الصفات وراثية تكرر ظهور صفات متشابهة في العائلة الواحدة او فيمن يمتّون بعضهم الى بعض بقرابة شديدة حينما لا يكون اختلاف في محيطهم . وعليهِ نرى استعداداً لبعض انواع الجنون يسري في أعضاء العائلة الواحدة . ولا يعني هذا ان الافراد الذين فيهم هذه العوامل يصيرون مجانين حقًا بل معناه أنهم يجنّون في احوال لا تؤثر في غيرهم اذا لم تكن فيهم تلك العوامل (اي عوامل الاستعداد للجنون) . إننا نعلم ان البلادة والبطء وغيرها من الخصال تتوقف على مقدار أفراز الغدد الصماء ونوعهِ ويتوقف هذان بدورها على العوامل الوراثية فالاشخاص الذين لا تفرز غددهم الدرقيـة الافراز الكافي لا تنمو مواهبهم العقليـة النمو المطلوب فيصيرون قوماً « بُلهاً » ومتى أعطيناهم خلاصة هذه الغدة تزول منهم هذه العاهة . ولدينا عدة شواهد من هذا القبيل اتينا على ذكرها لما بحثنا في الغدد الصماء . ويظهر لنا ان توقف الصفات العقلية على العوامل الوراثية لايكون رأساً بل بواسطة الغدد الصماء التي بدورها تتوقف على العوامل والصفات العقلية تتوقف على هذه الغدد فأي خطر يطرأ على العوامل يؤثر بالغدد وهذه تؤثر بالصفات العقلية

ان سلوك الفرد يتوقف على تأثره بالمؤثرات او هو ملاءمته للاحوال (الماضية والحاضرة والمستقبلة) التي تصادفه . والمؤثر الداخلي هو العقل ولا يتجاسر احد ان يقول ان لاعلاقة لسلوك الانسان باحوال الحياة فسلوكه حين وجود الطعام يختلف عن عدمه فما أثر العوامل في هذا السلوك . من البديهي ان العوامل لاتؤثر في الغدد تأثيراً مجرداً عن الظروف التي تحيط بهِ بل تجعل التأثير تحت الظروف الواحدة مختلفاً باختلاف الافراد . فان بعض الافراد يتأثر بجزء من المحيط وبعضهم يتأثرون بهِ كله وآخرين لا يتأثرون بتاتاً ويكون بعضهم سريع التأثر وغيرهم بطيئه فهل العوامل هي المسيطرة على هذا الاختلاف . وهنا تزداد المسألة تعقداً . فان اختبارات الافراد الماضية والاحوال التي تمر بهم اثناء نشأتهم تغيرهم وتغير مبلغ تأثرهم بالظروف فسلوك الشبعان يختلف عن الجائع والتعبان عن المرتاح والشخص الذي يعلم شيئاً عمن يجهله وهكذا نرى الشواهد عديدة على اختلاف السلوك باختلاف الظروف ومن البديهي ان للعوامل الوراثية والمحيط تأثير في سلوك المرء وقد ضربنا امثلة كثيرة تبين علاقة الوراثة بالمحيط فما

هي الصفات العقلية التي تنشأ من اختلاف العوامل . بينا ان اختلاف العوامل يولّد فروقاً في العقل فهي التي تجعل الفرد عاقلاً او مجنوناً فدماً او فهيماً وهي سبب اختلاف قوة الحواس وضعفها واختلاف الذكر والانثى والصفات الجسدية والفسيولوجية فهل للعوامل الوراثية تأثير في غير الاختلافات التي ذكرناها عقلية وسلوكية من الصفات المعنوية في الشخص الصحيح ؟ هل لها تأثير في الذكاء وعكسه في حب النفس والتضحية والميل الى الفنون الجميلة كالموسيقى والشعر وقابلية المرء للطب والهندسة والرياضيات وغيرها . من الصعب الجزم في امور كهذه لان ذلك يحتاج الى تجارب دقيقة في توارث هذه الصفات والبشر يعيشون في احوال متباينة ويتعذر ضبط نسلهم بالتدقيق واجراء التجارب عليهم كما نجربها على الحيوانات ولهذا نطبق عليهم النتائج التي نستخلصها من التجارب على الحيوانات . فان درسنا العوامل يرينا انها تحدث فروقاً كبيرة في الصفات الوراثية ولكل فرق كبير فروق عديدة صغيرة ولا نرى ما يمنع تطبيق هذه الحقيقة على صفات الانسان العقلية ان هذه العوامل تحدث خمسين لوناً من الوان العين في ذباب الفواكه فاذا كان هذا اثرها في تركيب الذباب البسيط فماذا نقول في دماغ المرء وتعقداته التي تحيّر الفكر هل ننتظر فيهِ تنوعاً اكثر . فما لا شك فيهِ ان تنوع الصفات العقلية والسلوكية ينشأ عن اختلاف العوامل الوراثية وبعض هذه العوامل مقيدة بالمحيط والمحيط مقيد بها كما بينا ولا يوجد عامل خاص لكل موهبة من المواهب البارزة بل في المرء عوامل مختلفة فاتحادها بمختلف الاشكال يولد اختلاف الصفات فلو فرضنا ان البشر يعيشون جميعاً في محيط واحد فلا بد من اختلاف صفاتهم نظراً لاختلاف عواملهم الوراثية . ولننظر في مدى تأثير المحيط ونعني بالمحيط كل ما مرَّ بالفرد منذ كان خلية واحدة حتى صار شخصاً كاملاً فمحيطه الداخلي والخارجي داخلان ضمن هذا التحديد

ان كل العلماء متفقون على ان جانباً كبيراً من تصرف المرء يتوقف على محيطه الماضي ومعنى ذلك ان سلوك شخصين فيهما نفس العوامل الوراثية (كالتوأمين) يختلف باختلاف ما مرّ عليهما فالفرق بين الجوع والشبع والتعب والراحة والعلم والجهل يولد فروقاً في تصرف الفرد فما تأثير المحيط في العقل والاخلاق والمواهب وغيرها من الصفات وما مقدار بقاء ذلك التأثير . من الصعب ان نذكر تجارب تكون القول الفصل في هذا الموضوع . فالفردان الموجودان في محيط واحد تختلف عواملهما الشخصية فلا يمكن ان نتخذهما حكماً في الامر واحسن حل لهذه المعضلة التوأمان المنشقان من خلية واحدة فان في كل منهما نفس العوامل التي في الآخر فلا يمكن ان نعزو اختلاف صفاتهما الى العوامل الوراثية لانها واحدة في الاثنين . ووضعهما في محيط مختلف يحل المشكلة ويهدينا سواء السبيل . ومن الاسف ان حوادث كهذه نادرة وتأثير المحيط فيها قليل جدًّا لدرجة لانستطيع ان نحكم حكماً جازماً في القضية وقبل ان نتبسط في تأثير المحيط نذكر شيئاً عن نشوء التوائم وانواعها لنزيد البحث ايضاحاً وفهماً

البسمات الساخرة

بِرَغمكَ مثلي أيها الزهر تغتدي الى الكونِ من أكمامِكَ النَّضِراتِ ؟
وتوفي على الدنيا وفيكَ ابتسامةٌ تعبِّر عما عبَّرَتْ بَسَماتي ؟
وما بَسمتي إلاّ مقالةُ ساخرٍ خَلَتْ من صرير النطقِ والهمساتِ
وليس يجازَى الدهرُ في حال غدرهِ سوى بابتسام ساخرٍ وثباتِ
أتبسمُ مثلي هازئاً مترفعاً تُرَى ؟ أم حياة الزهر غير حياتي ؟
خَلَصْتَ من الآلام ؟ ! لا بل تعدَّدَتْ عليكَ ، ولا تدري الذي هو آتِ
نَجَوْتَ من القيد المذلّ ولم تعُدْ تحجّبُكَ الأكمامُ منطبقاتِ
فطِرْ عن حماكَ الآن ... لستَ بنائلٍ خلاصاً ، وما الأغصانُ غير حُماةِ
الى أنْ يمرَّ القاطفون فتنتهي الى عالمٍ مُشْتَبِهِم الظُّلماتِ
نعم ! أنتَ مثلي أيها الزهر مُرْغَم وما هذه الألوان غير شِياتِ
وما العطر إلاّ أنَّةٌ وتَوَجُّعٌ كأصْداءِ انغامي ورجع شكاتي
يغني شَجِيُّ القلبِ والناسُ حولهُ طروبين بالإنشادِ والنغماتِ

***

تردَّدَ في أُفْقِ الرياض صدى الذي أقولُ ، وشاعَ الحزنُ في كلماتي
ومالَ جميعُ الزهر في خَطَراتهِ وذرَّفَ من دمع الندى قطراتِ

حسن كامل الصيرفي

آثار جرش الفخمة

﴿ جغرافيتها ﴾ جرش بلدة قديمة تقع على هضاب جلعاد Gilead بعيدة عن طريق السياح على ٤٥ كيلو متراً من مدينة عمان (عاصمة إمارة شرقي الاردن) من الجهة الشمالية ويسكنها الآن نفر من الجرش استوطنوها في سنة ١٨٧٨ م في عهد السلطان عبد الحميد وتحيط بها الجنائن من جميع جهاتها ولذلك فهي تعد من أجمل مدن شرق الاردن

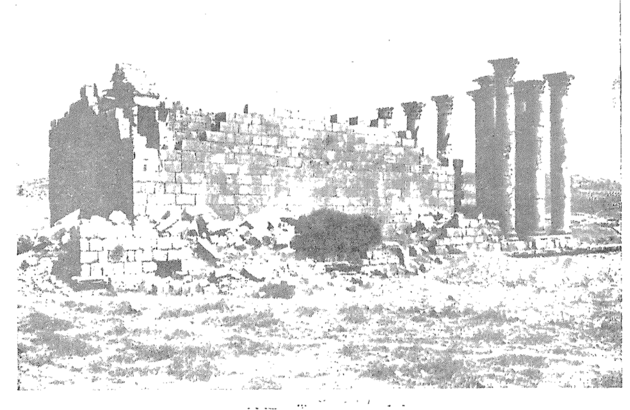
﴿ نبذة من تاريخها ﴾ ما يعرف عن تاريخ هذه المدينة نزرٌ يسير . فلا يعرف تماماً متى بنيتْ ومن بناها ولم يصلنا شيءٌ من تاريخها إلاَّ ما نجده من القطع الصغيرة في كتب بعض المؤرخين الاقدمين . فيوسيفوس[1] Josephus يقول أن الاسكندر الكبير كان قد فتح المدينة سنة ٨٣ ق.م ويؤيد هذا[٢] Jamblichus بقوله أن فريقاً من اتباع الاسكندر كانوا قد سكنوها وخرّبوها وبقيت من ذلك الوقت خراباً إلى أن فتح الرومان هذه البلاد واستعمروها وكان من نتيجة هذا أن بناها المستعمرون في سنة ٦٥ ب . م . وأخذت من هذا التاريخ تنمو وتتقدم حتى أصبحت في أيام الامبراطور انطونينوس (١٣٠ — ١٨٠) ب.م ثاني مدينة بين المدن العشر[٣] Decapolis ومن اهم المدن العظيمة التي كان لها شأن خطير في تاريخ الامبراطورية الرومانية

ولقد ذكرها كثيرون من مؤرخي الرومان والاغريق امثال بطلميوس Ptolemy واسترابون Strabo وبلينيوس Pliny وذكرها ايضاً ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان فقال عنها أنها كانت مدينة عظيمة وأنهُ شاهد فيها آباراً خربة وكان في وسطها نهر جار (وهو لا يزال إلى يومنا الحاضر) يدير عدة رحى عامرة

وذكر المدينة ايضاً فريق من السياح الاجانب الذين زاروا هذه البلاد منهم السائح J. S. Buckingham في كتابه «رحلة بين قبائل العرب » Travels Among the Arab Tribes في سنة ١٨٢٥ م وهو يصف قبور المدينة وآثارها وصفاً اجماليًّا . وقد ذكرها ايضاً السائحان الانكليزيان فرنجل واربي James Frengles & Charles Leonard Irby في كتابهما « رحلة الى مصر ونوبيا » Travels in Egypt and Nubia فوصفا اعمدة المدينة والشوارع وصفاً وافياً

(١) مؤرخ يهودي عاش سنة ٣٧ — ٩٥ ميلادية (٢) عاش حوالي سنة ٣٣٠ م . وهو اكبر ممثل للفلسفة الافلاطونية الجديدة السورية Syrian Neoplatonism سوري المولد

(٣) وهو اسم يطلق على اهم المدن العشر في الامبراطورية الرومانية في الشرق الادنى راجع The Historical Geography of the & Holy Land By George Adam Smith pp. 596

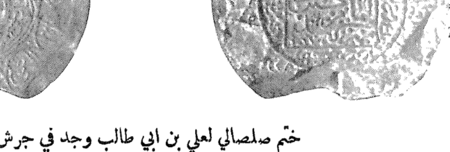


هيكل أرتميس العظيم



انقاض هيكل زفس المطل على الفورم

المدخل العمومي لهيكل ارتميس من الشارع المعمّد

ختم صلصالي لعلي بن ابي طالب وجد في جرش

آثار جرش

مقدمة : — إن آثار هذه المدينة هي من أروع ما هو باقٍ في هذه البلاد من آثار العمران القديم . فالاعمدة الكبيرة القائمة في وسطها والمعابد الكثيرة المنتشرة في أرجائها تترك في النفس أثراً لا يزول مع مضي الايام ولا غرو في ذلك إذ أن ثمرة استعمار الرومان لهذه البلاد كان من دون شك هذه المدينة. وهي تقع في مربع غير هندسي طول ضلعهِ الواحد ما يقارب الميل ويحيط بها سورٌ سمكه ٨ أقدام ولهذا السور ستة ابواب[١] . واليكم الآن أهم ما فيها من الآثار

(١) قوس النصر : (The Arch of Triumph)

عندما نصل إلى المدينة من الجهة الجنوبية يقع نظرنا اولاً على قوس النصر القائم على ثلاثة أقواس ، منتصفها مزّينٌ بأربعة أعمدة عليها طائفة من النقوش الجميلة . واذا ما دخلنا هذا القوس وجدنا على يسارنا ، وذلك بعد السير مسافة قصيرة ، ملعباً كبيراً Stadium كان الرومان يقيمون فيهِ العابهم ويظهر من البناءِ انهُ كان يستعمل أيضاً للالعاب المائية ويقال أنهُ كان يستعمل للعبة الكرة والصولجان Polo[٢]

ومساحة هذا الملعب تقرب من ٦٠٠ ياردة مربعة وعلى بعد ٣٠٠ ياردة شمالاً من قوس النصر بوّابة المدينة كانت تدعى بوّابة فيلادلفيا وهذا الاسم هو الاسم القديم لمدينة عمان الحالية

(ب) معبد زفس Zeus أو المعبد الجنوبي The South Temple

وبعد المرور من هذه البوّابة إلى داخل المدينة نجد على يسارنا معبداً قائماً على مرتفع يحفُّ بهِ صفان من الاعمدة في كل صف منها ثمانية أعمدة . ولم يبق من هذه الاعمدة في محلها سوى عامود واحد وكانت مساحة المعبد الداخلية تساوي ٥٠ ./ ٧٠ قدماً مربعاً

(ج) الملهى العمومي Theater : الى الجهة الغربية من هذا المعبد ملعب كبير يرتفع من باحتهِ مدرَّج مؤلف من ٢٨ حلقة من المقاعد وهو على حال حسنة من العمران ومقاعده مقسمة وهي لا تختلف كثيراً عن تقسيم مقاعد بعض انديتنا في هذا الوقت وكان الرومان يمثلون فيهِ رواياتهم المسرحية

(د) : الميدان (The Forum)

وهو بيضوي الشكل تحيط به الاعمدة الايونية Ionic . ويبلغ محيطه ٣٠٨[٣] أقدام . اما الغاية منهُ فيقول الدكتور[٤] C. S. Fisher أنه كان محلاً للاجتماعات السياسية والاجتماعية وارضهُ مرصوفة بحجارة جميلة في دوائر متوازية ذات مركز واحد ويقال أنه كان يستعمل ايضاً باحةً للاسواق ويوجد حوله الآن ٥٧ عاموداً قائماً ولا يمكن أن يكون هنالك اكثر من ١٠٠

(١) راجع ما هو مكتوب عن جرش في دائرة المعارف الانكليزية Encyclop. Brittannica

(٢) وهي لعبة اصلها فارسية انتقلت الى الهند ولقد نقلها الانكليز عن الهنود الى بلادهم في سنة ١٨٦٩م

(٣) راجع Murray's Hand Book of Palestine & Syria

(٤) استاذ كبير في علم الآثار قضى سنين عديدة في مصر وسوريا وفلسطين منقباً عن بعض الآثار ولقد كان رئيساً لبعثة جامعة Yale في جرش سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١

عامود وهذا يظهر من الآثار الباقية الى الآن ويتباين طول العامود الواحد من ١٦ — ٢٠ قدماً

(هـ) الشارع العمومي (The Main Street)

وهو يمتد من الميدان إلى نهاية المدينة من الجهة الشمالية ، وعلى جانبيه أعمدة كورنثية . ويقطع هذا الشارع شارع آخر في زاوية قائمة وفي نقطة التقاطع تقوم أربعة أحجار كبيرة طول الواحد منها ٧ أقدام وعرضه ١٢ قدماً وسمكه ١٢ قدماً ايضاً . ويوجد على جانبي هذا الشارع أعمدة كورنثية كالشارع الاول وهو يمتد إلى القرية الحالية وذلك بعد ان يقطع النهر الجاري في وسطها بجسر كبير مبني من الحجارة الكبيرة

وهذه الحجارة الاربعة « Pedestals »هي مركز المدينة لانها تقع على مفرق بعض الطرق ويقع في شمالي الشارع العمومي بوابة الشام ولقد نقب عنها حديثا الماجور هورسفيلد Horsfield [١] وهي تشابه في هندسة بنائها بناء بوابة فيلادلفيا Philadelphia الواقعة جنوب الشارع المذكور

(و) : معبد أرتميس Artemis [٢]

يحسب هذا المعبد من أعظم آثار جرش واروعها يقع على رابية تشرف على البلد من جميع نواحيه وهو على حالة لا بأس بها من العمران ويرجع هذا إلى عدم تأثر بنائه بحوادث الزمان كالزلازل والحروب . ويحيط بهِ حائط أساسهُ لا يزال موجوداً . وجدران هذا المعبد استعملت في العصر المسيحي كمحجر لكثير من الناس . وتدل الحفريات الاخيرة ان العرب استعملت هذا المعبد حصناً ولقد تخرب هذا الحصن على أيام بلدوين الثاني Baldwin II في سنة ١١٢١ م وأعمدته الباقية في الجهة الشرقية منهُ لا تزال قائمة على ما كانت عليه والدهليز الذي تقع عليهِ هذه الاعمدة الفاخرة ظهر بعد ان نقبوا عنهُ سنة ١٩٣٠ . وكان يتعبد في هذا المعبد كثيرون من عبدة الاصنام ولكن لما جاءت النصرانية قلّ عددهم وضعف شأنهم ولم يكن منهم الا ان يتركوا معبدهم للمسيحيين الذين استعملوا كثيراً من فسيفساء المعبد وحجارته فيما بعد في بناء كنائسهم

جرش والبعثات الاثرية

كانت جرش ولا تزال قبلة لكثير من السياح وكان بعضهم يأتيها على سبيل درس آثارها ومعابدها ومن أهم من قام بهذا العمل العالم الالماني Gothlbieb Schumacher [٣] شوميكر الذي تعد اعماله أساساً لمن جاء من بعده . وكذلك العالم Puchstein [٤] فانه قام ببعض الحفريات للبحث عن بعض النقوش الخطية

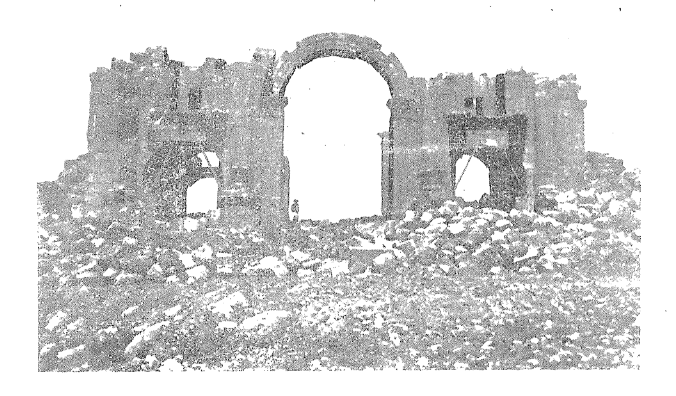
---

(١) وهو من كبار الموظفين الانكليز في حكومة شرقي الاردن

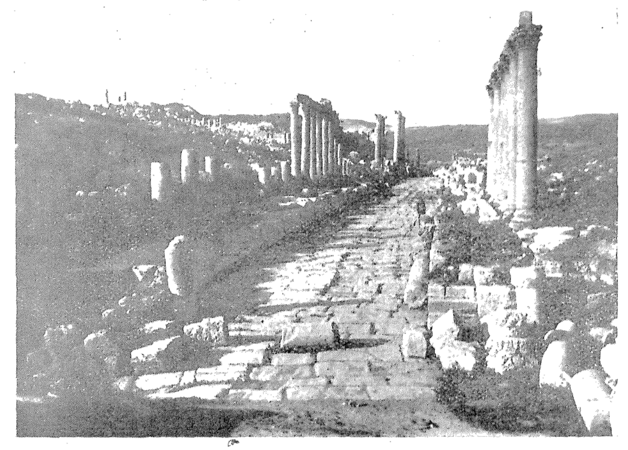
(٢) راجع A Preliminary Report of Jerash Campaign 1931 By Dr Fisher & Dr McCown

(٣) مهندس الماني كان يعيش في حيفا وكان يشتغل لحساب Palestine Exploration Fund

(٤) عالم الماني جمع وقرأ النقوش الخطية التي وجدت على سطح الارض في جرش . ولكن بعد التنقيب الحديث تمكنت البعثات الحديثة من العثور على ما يزيد عن ٢٠٠ نقش خطي وهي مكتوبة على حجارة صغيرة وكبيرة في الحجم واكثرها مكتوب باللغة اليونانية وقليل باللغة اللاتينية وأيضاً باللغة العربية

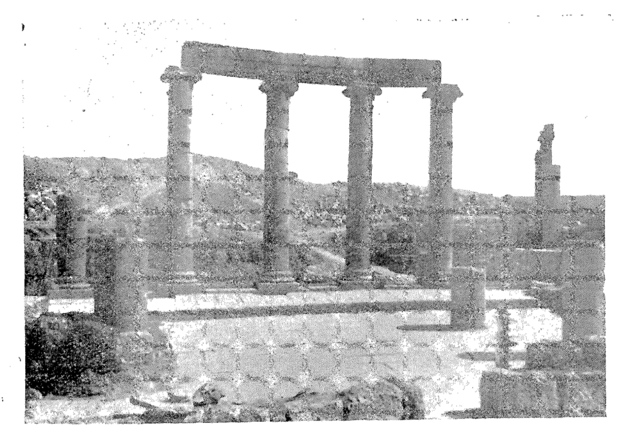


قوس النصر في الجانب الجنوبي من المدينة



الشارع العام وهو معمّد على الجانبين وطوله نحو ١١٠٠ متر

المسرح الذي كان يتسع لاربعين الفاً من المشاهدين



بعض الاعمدة حول الفورُمْ

وعند ما احتلَّ الانكليز هذه البلاد اشتركت حكومة شرقي الاردن وحكومة فلسطين وارسلتا بعثةً تحت رئاسة الاستاذ جارستانغ Prof. Garstang (أحد رؤساء دائرة الآثار في فلسطين سابقاً وأستاذ علم الآثار في جامعة ليفربول في الوقت الحاضر) لترميم عمارات المدينة ثم قام بالحفر بعد هذه البعثة الاستاذ كروفوت Crowfoot (وهو أحد رؤساء دائرة المعارف في السودان سابقاً) فرسم كثيراً من خرائط الكنائس والمعابد. أما البعثة التي قامت بعملية الحفر في سنتي ١٩٣٠ و ١٩٣١ فكان يرأسها الدكتور فيشر ممثلاً لمدرسة الآثار الاميركية في القدس بالاشتراك مع جامعة يايل Yale

وأهم ما قامت بهِ بعثة سنة ١٩٣٠ كان ما يلي [١]

(١) التنقيب حول معبد أرتميس Artemis والعثور على دهليزه

(٢) الحفر حول بعض الاماكن التابعة لهذا المعبد

(٣) الحفر حول بعض الاماكن التي تلقي نوراً على تاريخ المدينة بوجهٍ إجماليّ

أما نتائج الحفر فكانت

(١) العثور على كثير من آثار العرب والبيزنطيين والرومان في هذه المدينة

(٢) العثور على فسيفساء جميلة ذات ألوان زاهية

(٣) العثور على بعض من القبور البيزنطية

(٤) العثور على معبد صغير على مقربة من معبد Artemis

اما نتائج ما قامت بهِ بعثة سنة ١٩٣١ فكانت [٢]

(١) الحفر في «الميدان» forum والعثور على بيوت حجرية عربية يرجع تاريخها إلى سنة ١١٠٠م

(٢) العثور على كثير من النقوش الخطية

(٣) إثبات أن الجهة الجنوبية من المدينة كانت اقدم محل فيها

(٤) التنقيب حول بوّابة فيلادلفيا وكذلك حول قوس النصر

(٥) العثور على ختم مكتوب عليهِ بالعربية « علي ابن ابي طالب » أما الخط فليس بكوفي وهو الخط الذي كان يستعمل في عهد الخليفة المذكور وعليهِ فلا يعرف تماماً ان كان هذا الختم هو الختم الحقيقي للخليفة الرابع أو انهُ كان لاحد عماله أو هو ختم مقلَّد فقط. وهذه مسألة أتركها للمختصين بتاريخ العرب

داود . ت فيشر

---

(١) راجع المقال المكتوب عن جرش في Bulletin of the American School of Oriental Research No 43 Oct. 1931 by Dr. C. C. McCown.

(٢) راجع المقال المكتوب عن جرش في المجلة نفسها عدد ٤٥ في شهر فبراير سنة ١٩٣٢ . وايضاً راجع The Campaign at Jerash in Sep. & Oct. by Dr. C. S. Fisher

الحضارة الفينيقية

وتأثيرها في التمدن القديم

للشيخ بولس مسعد

علاقة فينيقية بمصر

اثباتها بالآثار الناطقة

آثار جبيل

اجمع المؤرخون وعلماء الآثار على ان علاقة فينيقية بمصر انما هي علاقة تاريخية قديمة العهد قائمة على اساس راسخ من المصالح المتبادلة بدليل ما وجد في غير مكان اثري من ساحل لبنان ولا سيما في جبيل المدينة الفينيقية الشهيرة من التحف الاثرية المهداة الى ملوك المدينة من فراعنة مصر وفي جملتها الآنية الخزفية التي استخرجت من مدفن اكتشف فيها سنة ١٩٢٢ وقد نقش عليها اسم امنمحقت الثالث وخليفته (١٧٩٢ — ١٨٠٠) امنمحت الرابع . ومنها تحف اخرى وجدت في برين من القبور الخمسة التي اكتشفت هناك لامراء جبيل الذين عاصروا الفراعنة في تلك الحقبة وعلى هذه التحف كتابات هيروغليفية متقنة. ومما قاله المسيو مونته استاذ علم الآثار المصرية في جامعة ستراسبورج واحد اعضاء المجمع العلمي الفرنسوي في مصر وهو الذي عهد اليه معهد الآداب العلمي في باريس في التنقيب عن الآثار في جبيل : ان الآثار التي عثر عليها هناك تدل على ان لتاريخ جبيل علاقة وثيقة بتاريخ مصر ولا سيما من الوجهة الاقتصادية فان الفراعنة كانوا يعولون على جبيل في استيراد ما لا تنتجه ارض مصر من الاخشاب الصلبة والمواد الاولية الضرورية. والكتابات التي وجدت تدل على انهم جردوا الحملات منذ اربعة آلاف سنة في طلب هذه المواد ولا سيما خشب الصنوبر والارز والجوز والسنديان والخرنوب لانهم كانوا يصنعون منه الزوارق المقدسة وتوابيت الكهنة والاسوار الخشبية التي كانوا يقيمونها امام الهياكل . ويستوردون من جبيل السفن القوية التي امتاز الجبيليون بصنعها كما جاء في التوراة. ويستجلبون منها القطران لحفظ الموميات والقار لتحنيط الاجسام لاعتقادهم ان القار يجعل الاجسام الالهية غير قابلة للفساد. ومن اجل ذلك كانوا يطلون به تماثيل الملوك انفسهم كما يرى في تمثالي توت عنخ آمون وتمثال اوزيريس . والآثار المستكشفة تشير الى ما كانت مصر تعلقه من الاهمية على علاقاتها

الحسنة مع فينيقية ولا سيما مع جبيل . ويستدل من كتابة نقشت على مسلة موجودة في متحف تورينو بايطاليا ان سنفرو من السلالة الرابعة قصد الى جبيل وأخذ منها سفينتين مصنوعتين من خشب الصنوبر طول الواحدة مائة ذراع. وقد وجد في المكان الذي اقيم عليه هيكل ربّة جبيل عدة اوانٍ بينها تحف مهداة الى ملوك جبيل من بابي الاول وبابي الثاني وميكارينوس وهو الذي شاد احد الاهرام الكبيرة اي ان تاريخ هذه التحف يرتقي الى عهد السلالات المصرية الثلاث الاولى

ولم تقتصر علاقات مصر وجبيل على الوجهة الاقتصادية بل تناولت المسائل الدينية ايضاً بدليل ان المصريين اقاموا هيكلاً لآلهة جبيل في المدينة نفسها كما يتضح من الآثار التي استكشفت . ويستدل من التماثيل والنقوش في هذا الهيكل على ان بناءهُ يرتقي الى عهد السلالة المصرية الرابعة والى ما قبلها . وفي ذلك دليل ايضاً على ان الفراعنة لم يكرهوا الفينيقيين على انتحال ديانتهم . وقد وجدت كتابة منقوشة على آنية مقدمة الى الهيكل المشار اليهِ هذا تعريبها : « من اوناس المحبوب من الاله الشمسي الموجود على بحيرة فرعون » ومعنى ذلك انهُ محبوب من الاله المحلي اله جبيل. واوناس يزعم انهُ محبوب من هذا الاله كما هو محبوب من الشمس الاهة مصر الكبرى التي يمثلها هو . وفي ذلك دليل على ان مقدم هذه الآنية كان سائداً في جبيل كما كان سلطاناً على مصر . واما بابي الاول فانهُ رفع نفسه الى مقام اله جبيل عملاً بما كان متبعاً في العصور الخالية من اتخاذ الملوك بمنزلة آلهة متجسدة تحمي المدينة وبمنزلة الامثلة الحية للاله امون. ولذلك كانت تماثيلهم تزان برسوم ترمز الى سلطتهم السامية. والآثار التي وجدت في هيكل عشتروت المجاور لهذا الهيكل وذكره لوقيان تدل على مقدار السيادة التي كانت لفراعنة مصر على تلك المدينة ، وهذه الآثار وجدت تحت بلاط الهيكل . وهي تدل على انهُ شيد ما بين القرن الخامس والعشرين والقرن التاسع عشر قبل المسيح اي بين عهدي السلالة السادسة والسلالة الثانية عشرة . وقد تهدم مراراً وكان الرومان آخر من جدّد بناءهُ . على ان عهد بابي الاول في جبيل لم يكن زاهراً ولذلك اعرض الجبيليون عنهُ دلالة على زوال هيبة الفراعنة في تلك الحقبة من ارض الفينيقيين

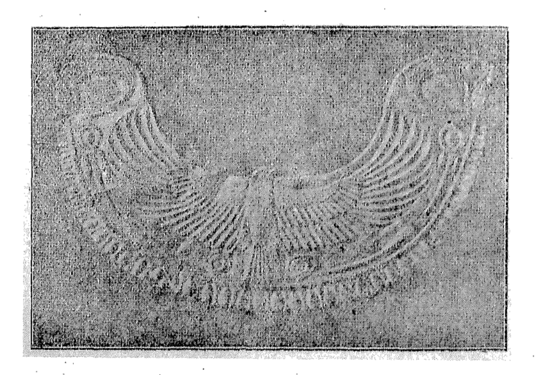
واظهر ما يستوقف الانظار من الكتابات التي عثر عليها المسيو مونته ذكر ادونيس المتواتر في تاريخ جبيل مقروناً بذكر عشتروت. وقد وجد بين الآثار التي عثر عليها ملفاً عليهِ حروف هيروغليفية يستدل منها على انهُ لاحد ملوك جبيل وقد ورد فيهِ اسماء الهة نيغا وهي الالهة التي تشير اليها الكتابات المنقوشة على الاهرام . وعثر في جبيل على رسم محفور يمثل اله البلاد والاهتها يعبدها فرعون. وفي ذلك دليل على ان الفينيقيين كانوا يعبدون الهاً والاهة اي ذكراً

وانثى يظهر ان لهما علاقة بادونيس وعشتروت وقصتهما مماثلة لقصة اوزيريس وايزيس الواردة في الكتابات الهيروغليفية بمصر كما قال فلوطرخس فان بطل الرواية في « قصة الاخوين » يشبه ادونيس ويسكن وادي نهر ابرهيم يموت فيبعثهُ اخوهُ ثم يحول الى شجرة مثل اوزيريس وينقل الى مصر

وقد القى المسيو مونته في المعهد العلمي الفرنسوي في القاهرة في ٩ يناير سنة ١٩٢٣ خطبة قال فيها انه كان في جبيل اله الشمس والالهان آخران يحرسان المدينة وان فرعون مصر اعترف جهراً بانهُ صديق وابن هذه الآلهة كما انهُ ابن الاله « رع » . ومغزى ذلك ان هذا الملك ما كان يستطيع ان يطأ ارض فينيقية من غير ان يعترف بالاله . والخلاصة ان مصر اضطرت بحكم الحاجة الى انشاء علاقات ودية مع فينيقية لتتمكن من الحصول على ما كانت تفتقر اليهِ من محصولاتها ولا سيما الارز والصنوبر والسنديان والقار والقطران . وبسبب هذه العلاقات عرف المصريون ديانات الفينيقيين فنقلوا بعضها الى بلادهم وانتحلوها

وقد نشرت التيمس الانجليزية رسالة للمسيو مونته اتى فيها على خلاصة اعماله الاثرية في جبيل ومما جاء في هذه الرسالة ان ذكر جبيل ورد في ما كتب عن آلهتها التي كان المصريون يعبدونها او في ما كتب عن المحصولات والبضائع التي كانت مصر تستوردها من فينيقية نظير خشب الصنوبر والعرعر والارز والخرنوب والقلفونة والقار . واخذ المصريون عن الجبيليين صناعة بناء السفن لانهم كانوا في حاجة اليها لجلب البخور من بلاد العرب . ووجدت صورة بارزة تمثل احد الفراعنة ساجداً لاله جبيل وإلاهتها. وعثر على معبدين احدهما مصري والآخر فينيقي وكان امام الاول اربعة تماثيل كبيرة وفي داخله تمثال للآلهة يكاد يكون سليماً . أما المعبد الفينيقي فلم يكن باقياً منه سوى البلاط المرصوفة به أرضه وقد وجدوا فيهِ كثيراً من التماثيل والحلي والكؤوس والاسطوانات واكثر الكؤوس كان مصريًّا وعلى بعضها اسماء بعض الفراعنة نظير ميقارينوس واوناس وبابي الاول وبابي الثاني . وعثر على غرفة تحت الارض فيها ناووس حجري ضخم يحوي تحفاً بينها كأس من السبج مطوَّقة بالذهب وقد نقش عليها اسم امنمحت الثالث الذي ملك على مصر من ١٨٥٠ الى ١٨٠٠ ق.م. وفي شهر سبتمبر سنة ١٩٢٣ عثروا على دهليز صاعد من هذه الغرفة وجدت فيهِ كتابة هيروغليفية جاء فيها: «ان زو أحد امراء جبيل لم يرد ان ينشيء لنفسه مدفناً يدفن فيهِ وحده بل اراد ان يدفن مع والده ليرى احدهما الآخر كل يوم في العالم الثاني » . وعثروا في غرفة أخرى تحت الارض على كثير من الآنية الخزفية المطلية بينها كأس مصرية مصنوعة من حجر رمادي اللون وهي بديعة الصنعة وعلى غطائها كتابة هيروغليفية هذه ترجمتها : «من الاله الكامل الحي ابن امنمحت الشمس الى خدمهِ دائماً» والمقصود بالخدم أهل جبيل . وحقة جواهر من السبج على قواعد من المذهب وغطاؤها من الذهب

والسبج وحوله أطار ذهبي منقوش على الاسلوب المصري وفي وسط الغطاء كتابة هيروغليفية هذه ترجمتها : «الاله الحي الكامل سيد البلادين ملك مصر العليا والسفلى ممخر ورع المحبوب من تم اله هليوبوليس المعطاة له حياة ابدية كالشمس » . وممخر ورع أحد الاسماء التي كان يعرف بها امنمحت الرابع الذي ملك على مصر من ١٨٠٠ الى ١٧٩٢ ق.م. وهو الذي ارسل هذه الهدية الى ابن ملك جبيل الذي انشأ الدهليز بين مدفن أبيه ومدفنه وقد ورد اسمه في كتابة هيروغليفية على صل منتفخ الاوداج يلتف حول مخصرة من البرونز وهذه ترجمتها: « صنع للامير ابي سخيمو المتوفي — امير جبيل ايب سخيمو ابي المعاد الى الحياة » .وفي ذلك ما يدل على ان الفينيقيين كانوا يستعملون الكتابة الهيروغليفية قبل ان استعملوا الكتابة المسمارية في مراسلاتهم السياسية بثلاثة قرون ولكن القلم الذي كانوا يكتبون فيه وقتئذ اقرب الى الهيروغليف الحثي منه الى الهيروغليف المصري



طوق من الذهب وجد في جبيل سنة ١٩٢٤

وعثروا في مدفن ثالث على تابوت خشبي مزخرف بالقيشاني والذهب وعلى آنية من الخزف بينها مخصرة من البرونز وطوق من الذهب بديع الشكل يماثل الطوق المصري المؤلف من عقود لؤلؤ معلقة بين رأسي باشقين من الذهب مع هذا الفرق بين الطوقين وهو ان العقود ابدلت بصقر باسط جناحيه ويحمل في كل من رجليه خاتماً ذهبيًّا يرمز الى تجدد الحياة وخلودها . وهناك مدفن رابع عثر فيه على آنية خزفية مزخرفة مع قطعة من اناء البستر نقش عليه بالهيروغليفية ما ترجمته . « الى نفس الامير الشريف شيخ الشيوخ أمير جبيل المعاد الى الحياة»

وهناك كثير من التحف الاثرية الثمينة في جملتها آنية من الفخار وشارات ملكية واسلحة عليها كتابات هيروغليفية مهداة من الفراعنة الى ملوك جبيل وجرار ودلاء وصحون واطباق من الخزف والبرونز وآنية من الرخام عليها كتابات هيروغليفية وقطعة ذهبية تمثل مرتين الملك جالساً امام الصقر وهو شعار فراعنة مصر ومدالية ذهبية وحجارة كريمة وخاتم من الذهب وخنفسة من الحبشة وعقود من اللؤلؤ والبلور وسواران ذهبيان وصولجان من خشب وذهب عليه شعار من الفضة يمثل الشمس وسلاح من البرونز بقبضة ذهبية وخنجر ذهبي وعصا من ذهب وخشب وصولجان من البرونز وكأسان احداهما من ذهب والاخرى من حجر وطاسة من الفضة واناء من العظم فيهِ مسامير من الذهب ورصائع ذهبية وقبضات اسلحة

وعثر بالقرب من جبيل على مدفن يرتقي تاريخه الى عهد رعمسيس الثاني في القرن الثامن ق.م. وجد في أحد غرفه ناووس عليه كتابة فينيقية هي اقدم ما وجد من نوعها حتى سنة ١٩٢٥. وقد اكبر علماء الآثار قيمتها لما يتوقعون ان يكون لها من الشأن في تاريخ الاقلام الفينيقية التي لم يستطيعوا الى اليوم ابداء رأي فاصل فيها وهذا علاوة على ما ينتظر ان يستخرجوا من الكتابات التي وجدت في هذا المدفن من الحقائق التاريخية الهامة التي تصلح اساساً لتعيين العلاقات القديمة بين مصر وفينيقية تعييناً جليًّا واضحاً

وقد عثر احدهم في جوار جبيل على تمثال ذهبي صغير طوله ٨ سنتيمترات يمثل امرأتين مصريتين واقفتين وعاريتين من الملابس ويدا كل منهما منبسطتان على ركبتيها وقد برزت اثداؤها وفي موضع الحلمة من كل ثدي حجر كريم وهو مرتكز على قاعدة تدلت من اسفلها حلقة مربوط بها حجر من السيلان. وهذا الحجر معروض الآن في المتحف اللبناني

وفي شهر مايو سنة ١٩٣٢ نشر مدير المعارف في لبنان بياناً بآخر ما عثر عليه في جبيل من آثار الاقدمين والتحف الاثرية النادرة فقال ما يؤخذ منهُ ان اعمال الحفر وصلت الى الهيكل الفينيقي الذي يرجع عهد انشائه الى القرن الثامن عشر قبل المسيح وقد عثروا فيه على آثار ثمينة هي انفس ما اكتشف من نوعها حتى الآن. «من هذه التحف فأس من الفضة وثلاثة فؤوس من الذهب الخالص مثلت على احداها صورة كلب وكبش في غاية الدقة لم يعرف لها مثيل في تاريخ فينيقية ونصال وقبضات من الذهب يتركب منها ثلاثة خناجر واحدى هذه النصال مزدانة برسم رجل فينيقي يركب حماراً بينما اناس امامه يسوقون سعادين وأسداً وماعز. وقبضة ذهبية كسر جفت دقيقة الصنع. وعدة اسطوانات ذهبية وفضية صغيرة دقيقة الصنع. واربعة تماثيل من البرونز المطلي بالذهب محفوظة حفظاً جيداً واكبرها يبلغ طوله ٣٥ سنتيمتراً ويمثل شخصاً واقفاً وعلى رأسه قبعة كالبادة. وشخص يمثل ابي الهول — السفنكس — طوله ١٣ سنتيمتراً من الشبه (البرونز) المطلي بالذهب»

آثار صور وصيداء

وهناك تحف اثرية اخرى بالغة منتهى الجمال والدقة في الصنعة وجدت في السنوات الاخيرة سواء كان في جبيل او في سواها من المدن الفينيقية اللبنانية ولا سيما في صور وصيداء حيث وجدوا عدة نواويس حجرية ورصاصية عليها نقوش جميلة وصور حيوانات وحشرات ممثلة بأشكال متنوعة . وهناك تحف اثرية اخرى بينها آنية من ذهب عليها كتابة هيروغليفية وثلاثة تماثيل وجدت بين صور وصيداء احدها محطم والثاني بشكل جذع او مذبح للتضحية والثالث بشكل سمكة وبالقرب منها تابوت من الرصاص موضوع في ناووس من الرخام منقوش عليه رسم ابي الهول . ووجدوا في قرية صانوي بجوار صيداء اربعة نواويس من المعدن وناووساً من الرخام وجرتين من الخزف عليها كتابات هيروغليفية وزهرية خزف وقطعتين من الذهب تمثلان صولجاناً وعدة قطع ذهبية اخرى . وعثروا في قرية كفر جرة التابعة لصيداء على مدفن قديم فيه كثير من التحف الاثرية الثمينة بينها آثار مصرية ترجع في تاريخها الى القرن السادس ق. م. وهناك تحف اخرى وجدت في مدافن فينيقية في تلك البقعة يرتقي عهدها مع آثار كفر جره الى عصر القضاة او الكهنة اي الى الحقبة الفاصلة بين عهدي الاسرتين المصريتين الثانية عشرة والثامنة عشرة وتتناول خمسة قرون تبتدىء في القرن الثامن عشر وتنتهي في القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وبين الآثار التي وجدوها هناك تحف نفيسة مماثلة للتحف التي عثروا عليها في مدافن الاسرائيليين في فلسطين وبينها كثير من الجعران من حجر الجمشت والحجر الكلسي . ووجدوا هناك مدفنين آخرين يرتقي تاريخهما الى عهد الكهنة وعثروا فيهما على رياش فاخر في جملته آنية خزفية وآنية من البرونز وخناجر وفؤوس ونصال وجعران وطابع بشكل عمود وغير ذلك

ومما لا ريب فيه أن الآثار القديمة التي لا تزال مدفونة في هذه المنطقة الساحلية تضارع في عظم شأنها آثار جبيل ولو ان هذه المدينة ذات مكانة خاصة للصبغة الدينية التي كانت لها في ما سلف من الدهر . ونحن في غنى عن القول ان ما استكشف الى اليوم من آثار الاقدمين ولا سيما آثار الفينيقيين في تلك البقعة الساحلية الممتدة من صور الى اللاذقية انما هو عشر معشار ما هو مدفون في ارضها من الكنوز الاثرية التي لو عني باستخراجها وادخارها كلها في المتحف الوطني اللبناني الذي انشىء خصيصاً لها لكانت ثروة عظيمة للبنان وأثراً تاريخياً جليلاً يحدث العالم بحضارته القديمة الممتازة التي كان المسيو مونته آخر من قال فيها : «انها تضارع حضارة مصر وكلدية »

تعلم اللغات الاجنبية

طريقة جديدة بديعة

« كل لسان انسان » . كذلك جرى المثل العربي القديم . اما وأنحاء العالم المتمدن اصبحت مرتبطة اوثق ارتباط بوسائل المواصلات والمخاطبات السريعة وبصلات التجارة المتبادلة، فهذا المثل العربي القديم اصبح ضرورة يقتضيها العصر الحديث

فالمسافر الذي يرحل الى بلادٍ لا يعرف لغة اهلها تمرُّ امامهُ مشاهد الحياة والعمران كما تمرُّ امام عينيهِ على ستار الصور المتحركة من دون ان ينفذ الى كنهها ، ولكنهُ اذا كان يعرف لغة القوم تمكن من التغلغل في نفسيتهم فيتحدث معهم بها فيتكشف لهُ الحديث عما يساورهم من آمالٍ وآلام ، ويستطيع أن يقرأ ادبهم فيتسع افق نظرهِ الى الحياة بل يصبح قادراً ان ينظر الى الحياة والعمران بعيونهم فكأنهُ يضيف بذلك حياة جديدة الى حياتهِ فيصدق عليه المثل العربي « كل لسان انسان » . ثم اذا كان من رجال المال والاعمال سهل عليهِ ان يتصل بعملائهِ في البلدان المختلفة ، من غير ترجمان او وسيط ، فيتحدث معهم بلغتهم ، ويبلغ في حديث ساعة من هذا القبيل ، ما لا يبلغهُ في مراسلات يتبادلها معهم بالبريد في خلال اسابيع او شهور ؟

يضاف الى ذلك ان معرفة الانسان بلغة قوم غير قومهِ ، واطلاعهُ على أدبهم وفلسفتهم يمهدان لهُ سبيل فهمهم على ما هم حقيقــة ، فلا تذهب بهِ الاوهام والتصوُّرات في تعليل ما يقولون ويفعلون ، كلَّ مذهب . وهذا الفهم دعامة الوئام الدولي ، الذي ينشدهُ العالم في المؤتمرات العالمية من اقتصادية وسياســية وحربية . ونذكر ان بريان داعية السلام في القرن العشرين قال على أثر اتفاق لوكارنو : « لقد تكلمنا لغة اوربية وهي لغة جديدة يجب ان نتعلمها » اشارة منهُ الى انهُ تفاهم مع شترزمان الالماني

فتعلُّم اللغات الحيَّة واجبٌ على ابناءِ هذا العصر سواءٌ نظرنا اليهِ من ناحية الثقافة الشخصية او من ناحية المنفعة العملية او من ناحية التفاهم الدولي

***

والطريقة المثلى لتعلُّم اية لغة اجنبية يجب ان تتصف بالصفات الآتية : —

يجب ان تكون مما يمكن استعمالهُ على حدة من دون ارشاد معلم خاص ، كما يجب ان تكون مما يصلح للاستعمال في فرق التدريس ، جارية على احدث ما عرف في علم التربية من وسائل درس اللغات

ويجب ان تمكن المتعلم من التحدث بها في موضوعات الحياة اليومية مع معرفة ما تجب معرفتهُ من قواعدها بوجهٍ عام ليكون الكلام بها سليماً من الخطاءِ المزري

ثم يجب ان تمكن المتعلم من التفكير باللغة نفسها مباشرة لانهُ اذا فكر بلغتهِ الاصلية وجب عليهِ ، لدى المحادثة ان يترجم الكلام لفظاً لفظاً وعبارة عبارة ، فلا يسلم حينئذٍ من العجمة علاوة على التردد والتعثر في اثناءِ الكلام

يضاف الى كل ذلك ان طريقة التعليم يجب ان تمكن المتعلم من النطق باللغة كابنائها وبلهجتهم فاذا خاطبهم بها لم يحسب بينهم غريباً .

***

قرأنا منذ بضع سنوات كتاباً للكاتب الانكليزي المشهور المستر ولز (H. G. Wells) عنوانهُ « خلاص الحضارة » عرض فيهِ ، في فصل مسهب لمشكلة التعليم والطرق التي يجب ان تتبع لكي يخرج المتعلم كامل التعليم مثقفاً مهذباً يصلح ان يعيش في عالم يقتضي الترابطُ بين اجزائهِ التفاهمَ التام بين طوائفهِ وشعوبهِ . وفي الصفحة (١٦٠ — ١٦١) قال ما يأتي في تعليم اللغات : —

« ان المدرسة الحديثة يجب ان تحتوي على عدد كبيرٍ من الجراموفونات . ولكنها لا تستعمل في تعليم الموسيقى والتمرينات الرياضية فقط بل في تعليم اللغات كذلك . فبدلاً من ان يضطرّ معلم اللغة الى التظاهر بانهُ يجيد اللغة الاجنبية التي يدرّسها لتلاميذهِ ، وهو لا يعرف الاّ مبادئها ، يصبح عوناً لاداة التعليم الكاملة — وهي الجراموفون ..... وفي السنة الاولى من تعلّم اية لغة اجنبية يساير المعلم اقراص الجراموفون فيتعلم التلميذ منها اللهجة السليمة والنطق الصحيح . وتدرّس كلّ لغة في مختلف اقطار العالم بلهجة واحدة ومقدار واحد من المصطلحات — وهو عمل مرغوب فيه »

كانت امنيّة المستر ولز مقدمة لاستنباط الطريقة الجديدة في تعلمّ اللغات التي جعلناها موضوع هذا المقال . فان المستر رُسْتُنْ تدبّر امنية المستر ولز بعد ما عالج تعليم اللغات خمساً وعشرين سنة وخبر نقائصهُ ومقتضياتهِ نخطر لهُ ان يحقق هذه الامنيّة فانشأ طريقة اللنجوافون

وأساس هذه الطريقة ان من يرغب في تعلم لغةٍ اجنبية يجب عليهِ ان يتعلمها كما يتعلّم الطفل الكلام . فان الطفل يصغي اولاً الى من يتكلم حولهُ فتختزن ذاكرتهُ الاصوات ومعانيها ، فاذا نضجت اعضاءُ النطق فيهِ نطق بالالفاظ كما سمعها من والديهِ واخوتهِ وغيرهم ممن يحيط بهِ . فجاءَ المستر رستن بأستاذ انكليزي فوضعا ثلاثين درساً انكليزيًّا تتناول موضوعات الحياة اليومية ووضعا لكل درس صورة تحتوي على الاشياء المذكورة في الدرس . ثم جعل الاستاذ ينطق

بالجمل التي في الدرس ، بما هو مشهور عنهُ من سلامة اللهجة وفصاحتها ودوّن ذلك على قرصٍ من اقراص الجراموفون . وطبعت الجمل في صفحة من كتابٍ امام الصورة . وفعلا ذلك في بقية الدروس . وهذه الدروس مفسرة بلغة كل طالبٍ الخاصة . فهي مفسرة بالالمانية للالماني وبالفرنسية للفرنسي

فاذا شاء رجل ان يتعلم الانكليزية أخذ هذه الاقراص التي دوّنت عليها الدروس المختلفة ، ووضع القرص الاول على الجراموفون وأداره وجلس يصغي اليهِ . وهو ينظر الى الصورة . فيتعذّر عليهِ اولاً ان يتبين الالفاظ ومقاطعها . ولكنهُ يعيد الكرة على القرص نفسهِ ثانية وثالثة ورابعة حتى ترسخ الالفاظ في ذهنه . وهو في اثناء ذلك ينظر الى الصورة فيربط بين الاسماء ومسمياتها . فيتعلم اللغة الاجنبية كما يتعلم الطفل لغة والديهِ

ثم ينتقل الى الدرس الثاني فالى ما يليهِ وهو في خلال ذلك يزداد تبيناً للالفاظ ومقاطعها ، وفهماً لمعانيها ، فاذا حاول بعد بضعة دروس ان يقول جملة باللغة الجديدة التي يتعلمها قالها بداهةً بلهجة ابنائها من دون ان يعمد الى ما يريد ان يقولهُ ثم الى اختيار اللفظ الموافق لهُ ثم الى التفكير في بناء الجملة بحسب القواعد المرعية

هذه هي الفكرة التعليمية التي تقوم عليها الطريقة الجديدة . وقد جرّبت فوفت بالغرض المقصود ايمّا وفاء . وهي تستعمل الآن فيما يربي على ٨٠٠٠ مدرسة في انكلترا والمانيا والسويد والنروج وفرنسا وغيرها . وشهد لها كبار الادباء والمعلمين بالفائدة التي تجنى من استعمالها . وقد قرأنا عن فتى كان يتعلم في المدرسة بلندن اللغة الاسبانية وكان يستعين على تعلمها بطريقة اللنجوافون في دارهِ ، فلما جاء الممتحن الاسبانيُّ الى لندن ليمتحن الطلاّب ، عجب للهجة هذا الفتى الاسبانية وسألهُ في اية مدرسة من مدارس اسبانيا درس اللغة الاسبانية

***

ولما وثق المستر رستن من وفاء هذه الطريقة بالغرض التي انشئت لهُ استعان باكبر اساتذة اللغات في البلدان المختلفة لوضع دروس في اللغات المختلفة فثمة دروس انكليزية لابناء الالمان والفرنسيين وغيرهم وثمة دروس فرنسية لابناء الانكليز والالمان والايطاليين وغيرهم ودروس المانية لابناء الفرنسيين والانكليز ودروس ايطالية واسبانية الخ والمعهد معنيٌّ الآن بوضع الكتب والدروس اللازمة للناطقين بالعربية

واذا كان ثمة من يعرف لغة من اللغات واراد ان يتوسع في ادبها وجد اقراصاً في بعض اللغات وقد دوّنت عليها قطع ادبية مختارة كما يتلوها افصح الفصحاء ، والى جانبها كتب تفسّر ما غمض منها . فالطريقة مستكملة للشروط التي يجب ان تتوافر في تعليم لغة اجنبية وعندنا انها من افضل ما ينفق فيهِ المثقفون جانباً من اوقات فراغهم

الفيلسوف سبينوزا

على ذكر الاحتفال بانقضاء ٣٠٠ عام على ولادته

من كتاب « الفلسفة في كل العصور »

انتهيت من تأليف هذا الكتاب معتمداً بضعة عشر مؤرخاً للفلسفة من اشهر رجالها ، في اوربا واميركا ، كاردمن ، وبلي ، ولوس ، وترنر ، ومارفن ، وجانيه وسيال وغيرها

وبعد انجاز التأليف اسعدني الحظ برعاية طائفة من اساتذة الفلسفة ومساعدتهم فجاء سفراً نفيساً مضبوطاً ، سهل المأخذ ، وافياً بالمرام ، في تاريخ الفلسفة وزعمائها ، ومذاهبها ، وتطورها ، وعصورها

وتلبية لرغبة المقتطف قدمت له المقالة التالية في « سبينوزا » ، سادس خمسة هم اساطين الفلسفة في كل ادوارها وهم : افلاطون . ارسطوطاليس . ديكارت . ليبنتز . كنت : والسادس « سبينوزا » والكلام فيه مقسم الى ثلاثة اقسام ، هي ترجمته ، وفلسفته ، ورأيه في الخلاص

(١) ترجمتهُ

ولد « باروخ سبينوزا » بامستردام هولاندا ١٦٣٢ . وهو من اصل يهودي برتوغالي . هذّبهُ الربّاني « موسى اوتيريا » ، وهو مفكّر يذكرنا بأتباع « ابن ميمون » المدرسيين ويرمي الى التوفيق بين الفلسفة والديانة اليهودية

رفض « سبينوزا » شرح التوراة بحسب فلسفة « ارسطوطاليس » . واثقاً « بابن عزرا » وقد قرأ الادب الجرماني على الطبيب « فرنزفان دن اند » وهو زنديق شهير ، والطبيعيات على الطبيب « لودويغ ماير » . وحرَمهُ المجمع الاسرائيلي سنة ١٦٥٦ ، فلم يكلمهُ احد حتى ولا شقيقته ، لانهم حسبوه كافراً . فلاذ برجل يدعى « برينسبرجر » . وبرح امستردام الى الهاي . وعاش مع « فندبريسبيك » [اردمن]

ولم يؤلف شيعة ، على ان كل فلسفة بعده ممتزجة كثيراً او قليلاً بافكاره . وكان الجيل الذي تلاه ينبذه نبذ الحذاء المرقّع . لكن « لسنغ » ردَّه الى شهرته . فدهش « جاكوبي » من كون « لسنغ » سبينوزيًّا ، ولا فلسفة عنده الاّ فلسفة « سبينوزا »

ثم وجّه « هردر » الانظار الى كتاب : الاخلاق : اشهر مؤلفات سبينوزا ، ولقّبهُ « شليرميخر » : بالقديس المحروم ، ودعاه احد الشعراء : الانسان النشوان بالله ، ثم لفت « جاكوبي » اليهِ نظر شاعر المانيا العظيم « جيته » . فقرأ هذا كتاب « الاخلاق » فوجد فيهِ الفلسفة التي تصبو اليها نفسه . فارتقى باعتناقها من الغرام الهمجي ، الذي ساد اشعاره ، الى ذرى الشعر الفلسفي . و بلغ « فخت » « وشلنغ » و « هيغل » مذاهبهم المنوّعة في « الوهية الكون » بمقارنتهم فلسفته بابستمولوجيا (فلسفة المعرفة) كنت

وقد تولّدت : ذاتية : فلسفة « لسنغ » من عبارة « سبينوزا » الشهيرة : حفظ الكيان : وكذلك شعار فلسفة كلّ من المفكرين « شوبنهور » و « نيتشه » وبرغسن . فشعار الاول : الارادة .

والثاني : القوة . والثالث النشاط . وعلا قدر «سبينوزا» في انكلترا مع انتشار الثورة . وترجم « شلي » رسائله في : الدين والسياسة . و « جورج اليوت » كتابهُ في الاخلاق . ومات سنة ١٦٧٧ . وفي القرن الثاني بعد وفاتهِ اقاموا له في هولاندا نصباً عديم المثال «دورانت»

(٢) فلسفته

« سبينوزا » تلميذ « ديكارت » من حيث المنطق والمنهج . الاّ انهُ سار بمذهب «ديكارت» الثنائي الى تأليهِ الكون : معتمداً على اسناد « ديكارت » التصوُّرات الى الله . ويتناول تفكير « سبينوزا » ثلاثة موضوعات : الله والطبيعة والانسان ، او الجوهر وصفاته وصيغتهُ [جانيه وسيال]

﴿ الله ﴾ : الله اول الفلسفة وآخرها

قسم « سبينوزا » الكون الى قسمين متمايزين مجموعهما الله . وكانت فلسفته جانحة الى مذهب « ديكارت » بحذف الله من الكون ، كانهُ لا صلة له تعالى بهِ . واساس ذلك عنده ماهية الكون ، التي بها تتلاشى الاشياء . ونقطة تفكيره هي : ان الاشياء المحدودة وهمية

غرض الفلسفة عند «سبينوزا» الهرب من عالم الظاهرات ، التي لا تهب سعادة حقيقية ، واحراز النعمة التي يهواها العقل والقلب ، ولا يدانيها تغيُّر وهي وحدها الجديرة بمحبتنا ، لانها وحدة الكون السرمدية ، التي تضمُّ في ذاتها الاشياء الفانية ، وتهب لها اليقينية . وبلغة دينية هي — الله — فعوض استبداله تعالى من الاشياء ، اذا هو هي . فقادنا نقصها الى كماله . فان الفلسفة تتناول الواحد اليقين ، لا الاشياء الفانية

(المؤلف : لكي نفهم فلسفة «سبينوزا» نرجع الى الميتافيزيقا التي يعتمدها واليك بيانها)

الجوهر والصفات والصيغ : تندرج كل حقيقة تحت ثلاثة رؤوس : الجوهر ، والصفة ، والصيغة

الجوهر : وهو ما وجد بذاته (دون استناد الى آخر) ، وفهم بذاته (دون افتقار الى ما سواه)

الصفة : هي ما صاغها الفهم كلباب الجوهر ، او خلاصته

الصيغة : او تطور الجوهر : هي ما قام بغيره ، وفهم به

فالجوهر واحد ابداً . لان المادة والعقل (وهما صيغتان) يقومان بالله ، لا بذاتهما . والماهية واحدة ، ازلية ، غير محدودة ، هي مناط الاشياء كافة . اما الصفات فلباب تلك الماهية ، والاشياء تغيرات الصفات او تطوراتها ، وهي فانية . وان علاقة الله بالكون طبيعية ، لا منطقية

﴿ الصفات ﴾ : صفات الله لا تحصى عدداً ، لكننا نعرف منها اثنتين فقط ، هما : الفكر والامتداد . فالفكر يحرك المادة ، والمادة تثير الفكر ، فهما متفاعلان . وبينهما تمام المطابقة . فكل صيغة فكر ، هي صيغة امتداد . ولما كان لا تداخُل بين الفكر والامتداد فالفكر يتوضح بمنهج فكري ، والامتداد بصيغة مادية ، فلا لبس بينهما . وسواء نظرنا الى الطبيعة بالفكر او بالامتداد فالنظام ، او ترابط العلل ، واحد

الله علة تصورنا الدائرة في العقل (هذا هو الفكر) وهو ايضاً علة وجود الدائرة في الطبيعة (هذا هو الامتداد) . فقد انشأ تعالى الصورة في فكرنا بصفته الفكرية، وأوجدها في الطبيعة بصفته الامتدادية (المؤلف: يعني «سبينوزا» ان الفكر والامتداد صفتا الجوهر)

الله العلة الاولى لكل الاشياء وهو تعالى كنهها ، ولباب وجودها . فالذين نسبوا القصد الى الحوادث الجزئية برهنوا على جهل مطبق . فاذا سقط حجر من علٍ ، فاصاب احداً فقتله قالوا ان الحادث فعل غائيّ ، اراد به الله ان يقتل ذلك الانسان . على انه ليس من غاية في الطبيعة. واعتقادنا القصد فيها مبني على تأنيسنا الله . فنعزو كل حادث اليه تعالى عزواً مباشراً . ونبحث في قلوبنا عن قالب نسبك الله فيه ، ناسبين اليه تعالى امثال نقصنا . لذا نرى آلهة الناس تدير الطبيعة خدمة للانسان . فيختار كل واحد طريقاً خاصًّا لعبادة الله ، الذي ميزه عمن سواه، ووفّق مصالحه . فيصير التميز خرافة سائدة متأصلة في النفوس . على هذا الاساس يجدّ الناس في استجلاء الغاية النهائية . فلا يرون في الحرب والزلازل والاوبئة ضرراً . وبالرغم من تكذيب حوادث كل يوم اوهامهم ، مبينة ان الخيرات والشرور تصيب الاخيار والاشرار سواسية ، نرى الناس لا يقلعون عن وهمهم

على ان شهادة الطبيعة صريحة ضدّ وهمهم . فان حرارة الشمس تكون خيراً في حال وشرًّا في حال آخر . وكذلك بلة المطر . وقد تكون هذه وتلك لا خيراً ولا شرًّا ، كالموسيقى فهي خير للمسرور ، وشر للحزين، وليست هذا ولا ذاك للاصم . فالذين لا يفهمون الطبيعة فهماً صحيحاً يحكمون ، وهماً ، بانتظام الاشياء ، فالمستحبّ عندهم منتظم ، وغيره فوضى . ويؤثر المرء نسبة النظام الى الطبيعة ، قائلاً : عمل الله كل شيءٍ حسناً

(على ان النظام في عقولنا لا في الطبيعة) وكذلك الجمال محصور فينا ، في اختبارنا وفي حكمنا . فلا يجوز ان ننسب لله قوًى كالتي في الانسان . فاذا كان لله عقل وارادة فهما خلاف ما للانسان . فبماذا نصفه تعالى ؟ وهو اكثر من جوهر مجرد ! ... (روجرس)

(٣) الخلاص

﴿ الاستعباد الانساني ﴾ : نحن في ثورة عواطف ، لنقص محبتنا وتقلّبها ، لاعتمادنا الاشياء الغامضة المستقبلة ، دون الثابتة . فنحب ونبغض ، ونفرح ونحزن ، ولا ندرك السلام . فنحن عبيد العاطفة والجهل اللذين يقيّدان الناس . فاذا لم يكن للانسان يقينية في نفسه فكل جهوده عبث

حين يتوقّف حفظ الذات علينا فلنا «فعل» . وحين يتوقّف على خارج عنا فلنا «شوق» . فما هو اساس الفرق بين الافعال والاشواق ؟ يرجع الجواب عن ذلك الى الصفات والصيغ . فانّا اذا اعتبرنا ظاهرات معرفتنا العالم ، في احوال وعينا ، فلنا « صِيَغ » ... ففيما نظن انّا قد تحسسنا العالم الخارجي لم نتحسّس الاّ شعوراً ، نتج عن التفاعل بين الموضوع وبين حواسنا

باعتبار كونهِ ناتجاً عن فاعلين فهو(اي الشعور) يمثل احدها (التحسس لا الاشياء). وهذا هو تعليم نسبية الحس ومرجع هذا التعليم « بروتاغوراس ». فمعرفتنا الحسية ناقصة وغير مطابقة

وهنالك طريقة اخرى لاعتبار العقل الانساني . فانهُ عدا كونهِ فانياً ، هو قسم من طبيعة الله . بناءً على كون كل موجود كائناً في الله . فتصوراتنا ، في جوهرها وابعد حدودها ، ازلية ، فهي مطابقة . فيرجع الفرق بين الافعال والاشواق الى الفرق بين الافكار المطابقة والافكار غير المطابقة . فالاولى كائنة في الله ، والثانية فينا. الاولى أفعال ، والثانية اشواق

والعواطف تصوُّرات ملتبسة او شهوة . والشوق الذي في النفس الى درجة عالية من الكمال هو « لذّة » وبالاشارة الى اللذة والالم يجب تحديد العواطف على الصورة الآتية

المحبة لذة يصحبها تصوُّر خارجي : البغض ألم يصحبهُ تصوُّر نجس

الرجاء لذة غير حاصلة ، ونشأت عن تصوُّر شيء مستقبل وهكذا

فلامتلاك الحرية جانبان (١) الهرب من العواطف (٢) الهرب من التصورات غير المطابقة. والفعلان واحد. فالنعمة الحقيقية هي المعرفة الصحيحة (سقراط) واعظم خدمة للحياة هي تكميل الفهم والذهن بشبع النفس الناشيء عن معرفة الله وصفاتهِ واعمالهِ . فالخير ما قاد الى المعرفة . والشرُّ ماطمس معالمها. فقوتنا فهمنا . وضعفنا جهلنا . وليس البغض وحده رذيلة ، بل ايضاً الجبن ، والخجل والذل ، وجهلنا قدر انفسنا . فمن عاش بحسب الذهن يترفّع عن الرأفة والخنوع ، ويقابل الحياة بصدر رحيب ، ولا يطيع سوى وجدانه . فالحرية ثمرة الفلسفة

يزعم الناس انهم يفعلون احراراً ، لانهم عن وعي يفعلون ، كالطفل اذا جاع فانهُ يأكل ، وكالجندي في الجبهة ، فانهُ يجاهد . وقد فاتهم ان الحافز هو وراء الافعال . وان كل الافعال ثمرة الضرورة الالهية (المتحكمة في الوجود ، فالانسان مسيَّر يتوهَّم انهُ مخيَّر) فعلى المرء ان يفهم تلك الضرورة ، لا أن يحاربها

متى رأينا الاشياء في الله ، مرة واحدة ، زالت المعاكسات فينا . فمصدر الالم حبّنا ما لا سبيل لنا الى الحصول عليهِ . فلا يشتاقنَّ المرء الاّ لما هو في متناول يده. فالقوّة تطهر المعرفة وتميّزها. ومعرفة الله تتغلَّب على العواطف . وبذلك تستولي على العقل محبة ازلية . ذهننا حر من الحواجز ، لانهُ قسم من الاله غير المحدود . «حقائق الاختبار كحقائق البديهة — كلها — مستمدة من الحقيقة الواحدة — الله . عن هذه المعرفة ينشأ شبع النفس . وكلما زدنا معرفة زدنا خيراً وبركةً وحبًّا لله . وهذا الحب هو حب الله ذاته فينا

يتلخص تعليم الحرية في القواعد الآتية : — ١ً : العمل بحسب ناموس الله ، والاشتراك في طبيعته . ٢ً : صرف النظر عما ليس في الحول ٣ً : عدم البغض او احتقار الآخرين او حسدهم الخ . ٤ً : معرفة الامة كيف تحكم وتحكَم ، كاحرار لا كعبيد (روجرس)

يمثل سبينوزا ارقى صورة للاخلاق واقسام مذهبه هي : —

١ً الله ٢ً اصل العقل ٣ً اصل العواطف وطبيعتها ٤ً قوة العقل او الحرية الانسانية

﴿ الله ﴾ : اذا كان الجوهر مستقلاً فهو غير محدود . فلا يكون في الوجود الاّ جوهر واحد. ولا يوصف الجوهر باوصاف الشخصية أو الفردية ، لان تلك الاوصاف مختصة بالمحدود

الله والطبيعة واحد . هو المبدأ الفياض في الكون — الطبيعة الطابعة والطبيعة المطبوعة وعبارته اللاتينية هي هذه Notura nàturan et natra naturata

﴿ الصيغ ﴾ : هي اشواق الجوهر وتطوراته . فلا تدرك الاَّ فيه

الانواع سرمدية ، والافراد بائدة (افلاطون) يتجلّى الجوهر الازلي بطرق لا تحصى في نظام التطورات ، وفي نظام الاجسام . فمجموع التطوّرات هو العقل المطلق ، غير المحدود. ونظام الصيغ هو حركة وسكون . والاتفاق معاً مجلى الكون . وهذا المجلى سرمدي ، الاّ ان نتفاً منه تتغير . فالطبيعة جسم عضوي (كبير جدّاً) تتغير صوره وتظل ذاتيته . فاذا رمنا ان نصور الله بصورته الازلية فهو : صفاته غير المحدودة . واذا رمنا ان نتصوره في الزمان فهو الكون . فالله هو الكون [تلي]

منهج «سبينوزا» الرياضي دليل تأثير «ديكارت» فيه . فاليقين الرياضي والفلسفي واحد. لأن الادلة الرياضية جلية بطبيعتها ، فلا يسلم سبينوزا بالغاية في الكون ، اذ لا غاية في الرياضة . وعنده عوض الغايات تعليلات . فان الفضاء علة الاشكال الهندسية ، بل هو شرط وجودها الضروري . فهي غير ممكنة من دونه . وواضح ان ليس هنالك غاية

فنقطة شروع «سبينوزا» مضمون الكون المنطقي ، لا علة الاشياء او خالقها . والله عند «سبينوزا» الطبيعة . فمن اراد ان يفهم فلسفته فليبدل كلمة (الله) حيث وجدها (بالطبيعة) فهو مراده. وتصوّر انعدام الصيغة ممكن، لانها بالجوهر تقوم. أما تصوّر انعدام الجوهر فمستحيل، لانهُ بذاته يقوم (فهو واجب الوجود) وبه تقوم الصيغ . فالازلية مختصة بالجوهر . وهو الوحدة الشاملة . والصيغ جزئية هو مجموعها ، يؤلفها ولا تؤلفه . كالامواج بازاء البحر، وكالمربعات الصغيرة في المربع الكبير. فقد كان قبلها ويبقى بعدها . الاّ ان الامواج لا توجد دون البحر ، ولا المربعات الصغيرة دون السطح الذي هي عليه

الانسان مؤلف من صفتين ـ الفكر والامتداد ـ فلا يفهم في الله غيرها ـ لان المثل يفهم المثل ليس الانسان جسداً ، فقط ، ولا ارادة كذلك . لان الاول امتداد ، والثاني فكر . فهو مجموع الاثنين . وقد تكون كلمة «طبيعة» اكثر انطباقاً على الامتداد غير المحدود . فالله والطبيعة ، لفظان يعربان عن الفكر والامتداد ، وهما نعت الكائن . الجوهر شرط ، وكل موجود شرطي. فامتداد الجوهر شرط الهيولى، وفكره شرط الفكر. الاول اساس الدائرة في الطبيعة والثاني اساس تصورها في العقل. الجسم مؤلف من ذرات ، والعقل من تصورات [اردمن]

حنا خباز

باب الزراعة والاقتصاد

نظرات في الحالة الزراعية

للمستر جاردين وزير اميركا المفوض في مصر

المستر وليم جاردين وزير الولايات المتحدة المفوض في المملكة المصرية من اعلام الاميركيين الذين جمعوا الى الاشتغال بالسياسة العلم الغزير والخبرة الطويلة في ميدان الزراعة. وُلد سنة ١٨٧٩ في ولاية ايداهو في مشجر ranch فنشأ وترعرع بين الخيل والماشية حتى ليستطيع ان يفاخر بأن قول المتنبي

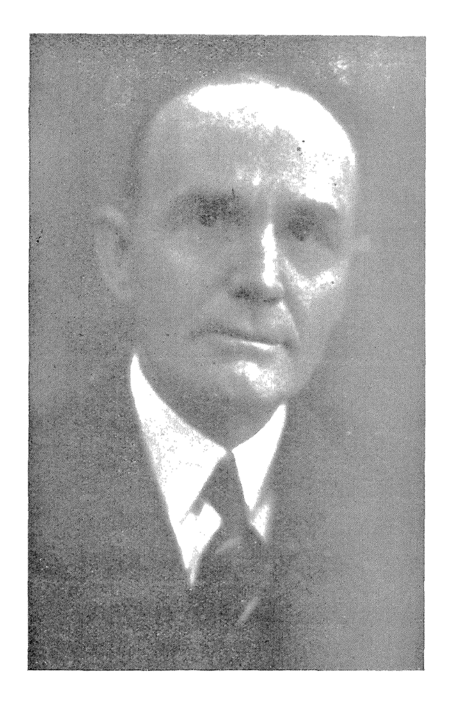
فكأنها نشأت قياماً تحتهم وكأنهم ولدوا على صهواتها

ينطبق عليهِ . ولما كان في الحادية والعشرين من العمر انتظم في كلية ولاية يوتا الزراعية وتخرج فيها سنة ١٩٠٤ ثم درّس فيها سنة ثم تولّى ادارة شركة زراعية كبيرة فكان في طليعة الذين استعملوا المحاريث البخارية في الزراعة. ثم عاد الى الكلية التي تخرج منها استاذاً للزراعة. ورأت وزارة الزراعة الاميركية ان تستفيد من خبرتهِ فعينتهُ خبيراً في الحبوب في فرعها الخاص بالولايات الغربية فقضى في هذا المنصب اربع سنوات انشأ في خلالها ستة محطات للتجارب الزراعية في الولايات المتحدة الغربية للبحث في الوسائل التي تمكن الفلاحين من زيادة محصولاتهم رغم قلة المطر . فطار صيته واستدعته كلية كنساس الزراعية للانضمام اليها ففعل وبعد سنتين عين مديراً للاعمال الزراعية وعميداً فيها ثم انتخب رئيساً لها . ولما كان في هذا المنصب دعاه المستر كولدج لتقلد منصب وزير الزراعة . والى القراء اثراً من آثار تفكيره

***

تجتاز الزراعة في جميع انحاء المعمورة أزمة من أشد الازمات التي عرفها تاريخ العصر الحديث. غير أن هذه الازمة الخطيرة لا تقتصر على المشتغلين بالزراعة وحدهم بل تتناول جميع رجال الاعمال كبارهم وصغارهم ، ولكنَّ مصر تختلف عن معظم البلدان بان تربتها أهم موارد الثروة فيها ، وانها تستمد معظم هذه الثروة من محصول واحد وهو القطن . ولهذا السبب تستطيع مصر اكثر من اي بلد آخر أن ترجع اسباب ازمتها المالية الى مصادرها بشيء من الدقة. فثمن القطن هو «البارومتر» الذي بهِ نقرأ ثروة الشعب المصري صعوداً وهبوطاً . وقد اصاب القطن كما اصاب غيره من الحاصلات الزراعية في كل مكان هبوط في الاثمان غاية في الخطورة

اما في اميركا فيصعب تقدير الاسباب الحقيقية لهذه الضائقة المالية التي حلت بها ، لان



المستر جاردينر
وزير اميركا المفوض في مصر

الزراعة هناك ليست العامل الوحيد الذي يتخذ مقياساً للثروة فيها . فهناك صناعات عدة لا تقل قيمة عن الزراعة ، كصناعة الفولاذ والفحم والنحاس والمنسوجات والسيارات وآلات الزراعة التي بلغ الكساد فيها النهاية القصوى . يضاف الى ذلك أن الانتاج الزراعي في امريكا يشمل عدة حاصلات تتساوى جميعها في القيمة تقريباً كالقمح والذرة والماشية وصناعة الالبان والقطن والفاكهة والخضر . وقد لحق بهذه كلها تقريباً خسائر مالية فادحة . فاذا افترضنا رجوع حالة القطن إلى نصابها السابق فان ذلك لا يؤدي الى انتعاش السوق هناك الا بدرجة لا يعتد بها ، بخلاف الحالة في مصر فان ارتفاع اثمان القطن ينعش الحالة المالية في جميع أرجاء البلاد المصرية فالضائقة في مصر أقل تعقداً بكثير منها في ولايات اميركا المتحدة

وفي خلال السنوات الاخيرة ظهرت عوامل كثيرة كان من شأنها ايجاد ازمة زراعية نخص بالذكر من هذه العوامل ما يأتي :

(١) مضاعفة الانتاج الزراعي في خلال الحرب العظمى سدّا لحاجات الجيوش من طعام وحاجيات على اختلاف انواعها . فنشأ عن ذلك تراكم الحاصلات بعد أن وضعت الحرب اوزارها وتضخمت المنتجات الزراعية التي تركتها الجيوش وراءها بعد تسريحها . وقد زاد الطين بلة تسابق الزراع في الانتاج رغم التخمة التي اصابت العالم ورغم زوال الاسباب التي أدت الى هذا التضخم

(٢) أن معظم أمم العالم وطدت العزم على تموين نفسها بقدر المستطاع من حاصلاتها الزراعية ومواردها الخام

(٣) تغير العادات فيما يختص بالطعام واللباس واستبدال بعض الاطعمة والانسجة التي كانت هي وحدها شائعة الاستعمال ، بغيرها من المواد . مثال ذلك أن مقادير وافرة من الفاكهة والخضر ومستخرجات الالبان والدجاج وغيرها من المواد الغذائية قد حلت محل اللحم والخبز . كذلك في الملابس أخذت البضائع الحريرية تنافس السلع القطنية . وفضلاً عن ذلك فان النساء في كثير من الممالك أخذن يقتصدن في ملابسهن عاماً بعد عام لا فيما يختص ببعض الثياب فحسب بل بالكميات اللازمة لهذا العدد ايضاً ونتج من ذلك نقص المقطوعية ونقص الكميات المستهلكة وهبوط الاثمان

(٤) استخدام الآلات الزراعية التي ساعدت على تخفيض ثمن الانتاج وزراعة ملايين من الفدادين في اراض جديدة كانت قبل ذلك مهملة — بدلاً من الخيول والبغال في بعض البلدان خصوصاً في ولايات امريكا المتحدة ، وقد أدت هذه الحالة ايضاً الى زرع ملايين من الافدنة التي كانت تخصص لتموين تلك الخيول والبغال ودواب العمل الزراعي بحاصلات اخرى كالقطن والقمح وغيرها من الحاصلات التي يستهلكها السكان . ففي ولايات اميركا المتحدة وحدها كان هناك نحو ٨٠ مليون فدان من الاطيان التي كانت تزرع خصيصاً لتموين الدواب الزراعية بالحنطة والعلف

وقد استحالت كلها الآن الى اطيان من نوع آخر تنافس بقية الاراضي في انتاج القطن والقمح وغيرها . يضاف الى هذه العوامل كلها زيادة الانتاج بسبب تحسين الاساليب الزراعية وما أدت اليه من التخمة في الاسواق

(٥) وفرة الضرائب التي اضطرّت الحكومات أن تفرضها على الأهالي تسديداً للديون التي تراكمت على عواتقها من جراء الحرب العظمى وقد سبّب هذا بالطبع نقصاً فاحشاً في قوة الشراء

(٦) نقل وسائل التجارة الدولية من أماكنها المعتادة ، وتقلقل الحالة المالية عقب الحرب العظمى وتعرّض قيمة النقود الورقيــة للصعود والهبوط ، وتغير الحوائل التجارية وما تلا ذلك من عدم الثبات التجاري بعد ظهور روســيا السوفيتية كعامل في تدهور الحالة المالية وميل الميزان التجاري

لقد أبنتُ الآن بصفة عامة بعض الأسباب التي أدّت الى مرض هذا الجسم الزراعي . والمسألة العظمى الآن هي القضاء على اسـباب الداء ، ووصف الدواء ، ولابد من اختلاف وجهات النظر في العوامل التي أدّت الى الكســاد الزراعي ، غير ان الكل يتفقون على أن جهود العاملين ينبغي أن توجه الى رفع مستوى الحيــاة بين الزارعين او بعبارة اخرى زيادة الدخل بينهم في كل أسرة . وكيف يمكن الوصول الى هذه النتيجة ؟ لديَّ وسيلتان : احداها زيادة ثمن الحاصلات الزراعية وتخفيض ثمن الانتاج ونفقات البيع والشراء

وفي الواقع أن أكثر الصناعات نجاحاً هي التي خفضت فيها أثمان الانتاج ونفقات البيع والشراء ، ولمَ لا تكون الزراعة على قدم المساواة مع الصـناعات ؟ يمكن بلوغ هذه الامنيّة اذا طبقنا على الزراعة المبادىء التي نطبقها على الصناعات الناجحة مع مراعاة الفروق بين الزراعة والصناعة . وقد كان لهبوط الأثمان في الماضي وفي هذه السنوات النصيب الأول من العناية واهتمام الجمهور بالمناقشات العامة ، ولم يفكر الناس في العناصر الأخرى التي تجعــل ثمن كل وحدة من وحدات الانتاج اقل مما هي عليه الآن

وقد فكرت الحكومات والمصالح المستقلة عنها في العهد الأخير أن تحدّد سعر عدد من الحاجيات كالمطاط والبن والقمح والقطن والنحاس ، وقد نجحت هذه الطريقة في بعض الاحيان في فترات قصيرة ولكن كانت نتيجتها الفشل في النهاية ، لأنها أوقعت ارباب الانتاج في مشاكل مالية عسيرة إذ أخلّت بالتوازن بين العرض والطلب

وتقليل الانتاج في الزراعة بأنقاص مقدار الأطيان المزروعة لغرض تحسين الثمن يختلف في هذه الحالة عنه في حالة الصناعة ، وذلك لأن صاحب المصنع يستطيع أن يضع هذا العبء — عبء نقص الانتاج — على العامل الذي يترك عاطلاً يتسكع في الطرقات في الوقت الذي يقفل فيه المصنع أو يفتح لانتاج مقادير محدودة . أما في الزراعة فان العمال الذين يفصلون من

أعمالهم لغرض نقص الانتاج لا يؤثرون الاّ قليلاً فيه . وهذا هو السبب الذي يجعل الزارع الحكيم يعلم حق العلم أن نقص الانتاج لا يؤدي الى النتيجة المطلوبة لأنه يزيد النفقات بعد توزيعها على كل وحدة من وحدات هذا الانتاج . وفضلاً عن ذلك فان الزارع يخاف أنهُ اذا نقص الانتاج يستمرّ غيره من المزارعين على حالهم ولا ينقصون الانتاج — ما لم يجبرهم القانون على ذلك — وبذلك يبقى هو وحده متحملاً نفقات الانتاج بغير ان ينتفع بزيادة الثمن المنشودة ولذلك لا يجد في مسألة تقليل الانتاج فائدة تذكر

غير أن هناك فرقاً بين نقص مقدار الاطيان المزروعة نقصاً مطلقاً بغير تحديد وبين نقص المنزرع من محصول خاص في أطيان خاصة في جهة خاصة والاقتصار على زرع بعض الأطيان بحاصلات ومقادير تختلف باختلاف الحاجة اليها وأثمانها حسبما تقضي به الظروف المحلية أو الاهلية أو العالمية . ومن المهم جدّاً أن يكون هناك توازن بين الانتاج، والحاجة ، وانخفاض الأثمان لأن ذلك يعود على المنتج والمستهلك كليهما بالنفع ، كما أن كثرة الانتاج تؤدي الى تخمة الأسواق وهبوط الثمن وهذا لا يفيد الاّ المضاربين . وقد فطن الزرّاع الناجحون في أعمالهم إلى الخطأ الناتج عن وضع الأثمان فوق كل الاعتبارات الأخرى واهمال غيرها من العوامل ، وأيقنوا ان نقص الانتاج لازم لتحسين الحالة المالية ، وأخذوا يتلقنون دروساً من رجال الصناعة وذلك باستعمال طرق فنية حديثة وآلات زراعية جديدة حتى ينتفعوا في اراضيهم ومعداتهم وأعمالهم أحسن انتفاع . وفي خلال الاثنتي عشرة سنة الماضية زاد انتاج فلاحي أمريكا ٢٥ في المائة عما كان عليهِ سابقاً في معظم انواع المحاصيل ، غير أنه مما يؤسف لهُ أن هذه الزيادة لم تعد عليهم إلاّ بفائدة قليلة ، لأن هذا الانتاج مضافاً اليهِ محصول الأراضي الجديدة المنزرعة زاد في مقدار العرض وفرّق مسافة الخلف بين العرض والطلب ونقص الثمن حتى بلغ أقل من ثمن الانتاج

ولنأخذ القطن مثالاً لذلك، وهو المحصول الذي توجه مصر وغيرها من الممالك الاجنبية بما فيها من ولايات امريكا المتحدة عنايتها اليه . فمن سنة ١٩١٣ الى سنة ١٩٢٩ بلغت الزيادة في سكان العالم ١٠٠ الف نسمة في حين أن زيادة ما يستهلكه الفرد الواحد من سكان العالم من القطن لم تبلغ الاّ ٩ في المائة أو نصف رطل ، أي أن زيادة الاستهلاك بلغت ٣ ملايين «بالة» بحساب ٥٠٠ رطل للبالة الواحدة أو ١٥ مليون قنطار . وفي هذه الفترة عينها ١٩١٣ – ١٩٢٩ زاد الانتاج العالمي في القطن من ٢٠ مليون و ٢٢٠ الف بالة بحساب البالة ٥٠٠ رطل الى ٢٥ مليون و ٦١١ الف أو ٧ ملايين بالة في حين ان الزيادة في الاستهلاك هي ٣ ملايين بالة او بعبارة اخرى ان مقدار القطن الزائد عن المقدار المستهلك بلغ ٤ ملايين بالة وليست هناك لغة افصح من لغة الارقام تعبيراً عن الاسباب التي اليها يعزى هبوط اثمان القطن

ورغم وجود عوامل اخرى واعتبارات ذات قيمة فانهُ لا يمكن أن ننسى أن العالم ينتج مقادير من القطن تزيد عن المستهلك زيادة توجب هبوط الأثمان وتفاقم الحالة الاقتصادية . وتعزى زيادة المقدار المستهلك من القطن التي اشرت اليها الى الاشياء الكثيرة التي أستخدم القطن في صناعتها في السنوات الاخيرة ، ولولا هذا الاستعمال لما بلغت أثمان القطن ما بلغتهُ في السنوات الاخيرة ولا يمكن التكهن بالمدى الذي يمكن بلوغه باستعمال القطن في اشياء لم يدخل في صناعتها حتى الآن ، غير ان المجال فسيح للبحث عن هذه الاشياء وبذل جهد المستطاع في ايجادها . واذا استمر الزارعون في زيادة انتاج القطن فلا بد لهم ان يبحثوا عن الوسائل التي يستخدم في استعمالها

ومما هو جدير بالذكر انهُ بينما نجد زيادة الاستهلاك في مقدار القطن لكل فرد من سكان العالم لم تبلغ ٩ في المائة في اثناء الخمس عشرة السنة الماضية ، قد بلغت هذه الزيادة في الصوف ٤١٫٦ في المائة وفي الحرير ١٢٠ في المائة ، وفي الحرير الصناعي ١٥٠٠ في المائة وهذه جميعها تنافس القطن اشد منافسة ومن السهل اذاً أن نرى قيمة توجيه الانظار الى سياسة مستقبلة عالمية فيما يختص بزراع القطن ويجب ان نعلم ان الزارعين الذين ينتجون اكبر مقدار من اجود الاقطان باقل نفقات هم الزارعون الذين سيكون لهم النصيب الاوفر في الاسواق العالمية ، أيًّا كانت البلاد التي هم فيها

ومن اهم الوسائل التي يستطيع بها الزارعون أن يزيدوا أرباحهم ويفيدوا المستهلك في الوقت عينه ، هي تجنب طرق التوزيع التي تكلف نفقات باهظة والتي يلجأ اليها في عصرنا الحاضر . وقد تسبَّب عن نمو الصناعة السريع في خلال ربع القرن الماضي تركيز السكان في مراكز صناعية بعيد معظمها عن مراكز الانتاج التي تمون السكان بالطعام ومواد خام اخرى ، وهذا مما يجعل نفقات التوزيع بالغة حدًّا غير معقول . وقد كانت طريقة التوزيع هذه وافية بالغرض المقصود عند ما كانت الصناعة منتشرة في البلاد ومقسمة الى وحدات صغيرة وعند ما كان الفلاحون يكفون أنفسهم بما ينتجون في مزارعهم . واما اليوم فقد اتسعت المدن الكبرى وتضاعف سكانها وأصبحت مسألة التوزيع معقدة كثيرة النفقات ولا بد من درسها درساً جيداً حتى نستطيع أن نقوم بسد حاجاتنا على الوجه المرغوب فيهِ من الوجهة الاقتصادية ، وكلما قلبنا انظارنا في انحاء المعمورة في كل بلد من بلدانها نرى من السكان من يعوزهم الطعام واللباس وقد يستطيعون ان يستهلكوا ضعف ما يستهلكونهُ الآن فيما لو بلغت اثمان حاجياته الضرورية ثمناً يكون في المتناول . وفي اعتقادي ان من اهم الفرص السانحة للفلاحين اليوم هي تحسين حالة التوزيع لانهُ بذلك يزداد الطلب وتكثر الارباح . وقد اصبح المزارعون في خلال الخمس عشرة سنة الماضية ذوي كفاية عظيمة ومقدرة واسعة في جميع انواع الانتاج

وقد كانت الجهود موجهة في خلال السنوات الماضية الى تحسين حالة الفلاح من وجهة الانتاج . فجاءت نتيجة هذه الجهود بالثمر الجيد ، وقد حانت الفرصة الآن لتوجيه العناية بكل ما اوتينا من قوة وذكاء الى مسألة توزيع المحصول في الاسواق تلك المسألة التي طال اهمالها . وفي الصناعات الاخرى يهتمون بمسألة البيع كما يهتمون بمسألة الانتاج ونشأ عن ذلك انهم بلغوا نتيجة يحسدون عليها في تخفيض النفقات التي يطلبها ايصال السلع الى مستهلكيها اينما وجدوا ، وقد بلغوا هذه النتيجة بواسطة الانتاج بكثرة ، والتوزيع بكثرة مع قلة النفقات ، ويعزى بلوغ هذه النتيجة الى الآلات التي وفرت عليهم العمال ، والى الاعلان المنظم ، وتركيز رؤوس الاموال الضخمة والمسؤولية في يد رجال ذوي نفوذ قادرين على تصريف مصنوعاتهم في اسواق العالم

وعلى هذا المنوال ينبغي للفلاحين ان ينسجوا . ويختلف تنظيم هذا العمل باختلاف المكان وحاجة السكان . غير ان تنظيم الانتاج والبيع من اهم وسائل النجاح لان اسواق العالم تشتري عادة الحاصلات التي يبلغ ثمنها حداً معقولاً

***

وتتعاون حكومة ولايات اميركا المتحدة بواسطة مجلس الزراعة الاتحادي الجديد تعاوناً تاماً مع الهيئات الزراعية وذلك بامدادها بالمال والنصيحة حتى تؤسس شركات تقوم بالتوزيع لاننا اصبحنا نعتقد ان هذه الشركات انسب لنا من اي طريقة اخرى. وقد اصبح لدينا الآن عدد من شركات التعاون الناجحة كشركة زراع الفاكهة في كاليفونيا التي يوزع المنتجون بواسطتها ٨٠ في المائة من حاصلاتهم وبهذه الطريقة توزع في الاسواق بكيفية معتادة تمنع التخمة في الاسواق وهبوط الثمن وتنفع المنتج والمستهلك كليهما فاذا احصينا ملايين الوحدات الزراعية الصغيرة التي تنتج وتوزع محصولاتها ، مستقلة عن الاخرى ؛ وجدنا ان الواحدة تستفيد مالياً لو اتحدت لبيع حاصلاتها بعد حزمها جيداً وتسجيل علاماتها والاعلان عنها ، وقد يكون نوع التنظيم في هذه الحالة مختلفاً باختلاف الجهات كما اسلفت . غير ان الفكرة الاساسية تنحصر في وضع هذا النظام في ايدي رجال مدربين محنكين حتى تأتي مجهوداتهم بالغرض المقصود

ان الحالة الاقتصادية كما هي الآن تتطلب استثمار اكبر العقول وأظهر الزعماء لانعاشها . ويعتقد الكثيرون اليوم ان الانعاش لا يتم الاّ بملاحظة العوامل الدولية لانهُ مهما عظم مقدار المحصول الذي تنتجه امة من الامم فان اثمان محصولها تتأثر كما تتأثر اثمان السوق العالمية ، والحالة الاقتصادية العالمية تتأثر بما تنتجه الامم الاخرى ، والتعاون من جانب ارباب الانتاج في كل مملكة قد يعمل على تحسين الحالة في تلك المملكة غير ان المسألة تدعو الى همة اكبر ونشاط اعظم من جانب قادة الاعمال وزعمائها في جميع انحاء العالم

باب شؤون المرأة
وتدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي ندرج فيه كل ما يهم المرأة وأهل البيت معرفته من تربية الاولاد وتدبير الصحة والطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة وسير شهيرات النساء ونهضتهن ونحو ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

الوقاية

آراء وأحاديث صحية للدكتور شخاشيري

حديث المائدة

قبل أن أحدثك عن انواع المآكل التي نعيش عليها وقيمة ما فيها من غذاء ومتوسط ما يتطلبه الجسم منها اريد أن أوجّه نظرك الى شأن النظام في الأكل فان أثره في الصحة أقوى من تأثير الطعام ذاته فيها وهو للجسم كالأساس للبناء سواء بسواء فكما نرى اهتمام المهندس بالأساس ان يكون قويًّا في مواده محكماً في وضعه قبل شروعه في البناء لكي يطمأن الى مصيره من العلو والاتساع كذلك يجب ان يكون اهتمامك بضبط مواعيد الاكل والحرص عليها وعدم التفريط بها لا يقل عن اهتمام المهندس بالأساس لانهُ يضارعهُ في الشأن والخطورة. وما طهي الطعام والتفنن في اعداده وبذل العناية في اختيار الوانه الا بمثابة اجراآت لتحضير بقية المواد التي نستعين بها لاقامة البناء فاذا كان الاهتمام بها عظيماً دون الاهتمام بالأساس جاء البناء فاسداً من أساسه متداعياً للسقوط عندما تعصف بجوانبه العواصف والأعاصير او بعبارة أوضح اذا كان اهتمامك بالنظام ومواعيد الأكل دون اهتمامك بطهي الطعام والتفنن في تحضيره جاء بناء الصحة ضعيفاً في أساسه لا يصمد لغارات الجراثيم المرضية بل يكون مرتعاً خصيباً لها تنمو فيه وتتكاثر من غير كبير عناء. وأنت من هذا ترى ان الاهتمام بالنظام او الأساس اولى بمن يبغي صحة نضيرة وحياة نشيطة وبدونه لا يستمتع بطيبات المآكل لحظة الا يشعر بنقيضها لحظات وكم من اكلة طاب مذاقها كانت منشأ العلل ومبعث الاسقام لا لسبب سوى ان آكلها لم يراع نظاماً في التهامها فاما ان يكون قد ازدردها من غير أن يجيد مضغها أو أن يكون قد أدخلها على طعام لا تزال المعدة قائمة بهضمه او أنهُ تناول منها مقداراً كبيراً لا يجيزه

نطاق المعدة بحال . وهذه عوامل كلها او بعضها فيها اساءة كبيرة وسوء تصرف غير محمود العاقبة وأهم هذه العوامل ادخال طعام على طعام أو الأكل بلا نظام . ولكي تقدر خطورة هذا الاسراف في الأكل بمواعيد مضطربة وما ينشأ عنهُ من اضرار ظاهرة تحس بها في الحال «كالألم والمغص والقيء والاسهال وأحياناً ارتفاع بالحرارة» واضرار خفية لا تحس بها الاّ بعد زمن طويل أو قصير «كالالتهابات المعوية والكلوية واحتقان الكبد وتصلب الشرايين وغير ذلك»

اعرض امامك حالة عامل يشتغل بالأمانة ويحرص على انجاز عمله في حدود طاقتهِ من غير تقديم ولا تأخير وانهُ كلّف عملاً فوق طاقتهِ او قبل ان ينجز العمل القائم بهِ احتج وحاول الهروب منهُ ولكن بصمت ومع هذا الاحتجاج والمحاولة لا يكف عن العمل ولا يتوقف ثانية عن الدأب في انجاز ما بين يديهِ . والعمل الدائم هو في ذاتهِ من اظهر الدلائل على حيويتهِ . والشاهد على اضطراب هذا العامل الامين الذي هو المعدة ما يبدو عليك من الانزعاج عند ما تأكل بنهم طعاماً غنيًّا بمواده الغذائية بما يزيد على مطالب الجسم عشرة اضعاف او اكثر. وكثرة الأغذية كما تعلم تولد في الجسم فضلات تنقلب الى سموم اذا لم يتخلص منها في مدى قصير وتحدث في الغالب اضطرابات معوية لا تزول الاّ بالصوم والامتناع عن الاكل بضعة ايام فضلاً عن الأدوية والمسهلات. واكبر عامل على اثارة هذه العلل والاضطرابات هو الفوضى في مواعيد الأكل فلو كنت على معيشة منظمة وبصيرة مثقفة في اختيار ما يصلح من المآكل وما لا يصلح ومقدار ما يتطلبهُ الجسم من الغذاء لكنت في منجاة من هذه الطوارىء المفتعلة والعثرات المغتصبة التي تفاجئك في طريق الحياة أو لو كنت متبدياً في معيشتك تأكل لوناً واحداً من الطعام ولا تأكل في اليوم اكثر من وجبة واحدة كما يفعل سكان البادية لقطعت على كثير من النزلات المعوية سبيل الوصول اليك ولا يكون الفضل في ذلك الى التقشف في الغذاء وحده وانما يعود الفضل فيهِ الى النظام الذي تتبعهُ في معيشتك . واثر هذا النظام لا يقف عند تحسين الصحة وتنمية الجسم وصيانتهِ من عوادي الامراض فحسب بل يتجاوز هذه الحدود الطبيعية وتظهر بوادره في تفكيرك واحاديثك واعمالك . وان ما تصيبهُ من نجاح في ايام المدرسة وتحصيل في العلوم او كل ما يبدو منك بعد تلك الايام كبيراً كان او صغيراً سواء في البيت مع اهلك او خارج البيت مع معارفك وذويك يرجع الى هذا النظام الذي ادعوك الى المعيشة في ظله والاستمتاع بفوائده

التغذية الحديثة

يختلف الطعام الذي يصفه الطبيب المعالج اليوم للمرضى بالتهابات كلوية عن الطعام الذي كان يصفه في الماضي لتلك الحالات والذي لا يزال معظم الاطباء يعتقدون ملاءمتهُ لها الى الآن . والسبب في هذا التناقض هو ان الطبيب في الماضي كان يقصد بالمعالجة ان يداوي العضو المتأثر

بالمرض مباشرة اما اليوم فانهُ اصبح يداوي المريض نفسه لا عضواً من اعضاء جسمه والاّ ما كان يقف في الامس من تلك الالتهابات الكلوية فيمنع المصابين بها ان يتغذوا بالمواد البروتينية التي من اهم خصائصها ان تجدد ما يموت من الخلايا والاغشية في الجسم واصلاح ما يقع في اعضائه من اضطراب وتلف . وهذه النظرية لا تخول له ان يمنع اولئك المصابين بأمراض الكلى من اكل اللحوم بل توجب عليه ان يشجعهم على الاكثار منها لعظيم فوائدها ولان العلم اثبت ضرورتها للجسم وهو في حالة المرض اكثر من لزومها وهو سليم . وهذا التباين في ميزات المواد البروتينية وتأثيرها في الجسم يرجع الى ما اثبتته الابحاث العلمية الحديثة من ان عملها الخاص هو لبناء ما يندثر في الجسم من خلايا واغشية وانه كما يعول عليها في حالة الصحة واطراد النمو يجب ان يعول عليها ايضاً في حالة المرض سواء بسواء . واقرب شاهد على صحة هذا القول تجده في احوال الالتهابات الكلوية الحادة منها او المزمنة ولا سيما التي تكون نشأت عن الحمى القرمزية او التهاب اللوزتين فان من شأنها اتلاف المواد البروتينية في الجسم وهدم ما هو قائم منها لحفظ كيانه وترى آثار التلف والتدمير ظاهرة في بول المريض وتزداد شدة في الظهور الى ان تدبّ عوامل الهدم في بروتين الدم وعندئذ تختل ميزانية الماء في الجسم وتبدو عليه اعراض الربالة وظهور الورم في اطراف الجسم والوجه من اكبر علامات مرض الكلى وله علاقة وثيقة بمقدار البروتين في الدم . وموازنة الماء بين انسجة الجسم وبين الاوعية الشعرية تتوقف على عاملين فالاول الضغط على مصل البروتين او الزلال والثاني الضغط على السوائل في الاوعية الشعرية وفي حال انخفاض الاول بسبب ارتشاح البروتين من الخلية يضطرب السائل ويندفع من الشعريات الى الاغشية ويتجمع في غضونها ويظهر الورم او الربالة كما تقدم ذكره في الجسم وليس هذا الاضطراب في الضغط الباعث الوحيد على اظهار الورم في الاغشية وانما ارتشاح او نقص البروتين من الخلية هو السبب الاكبر في احداث ذلك البلاء . وقد ثبت للاستاذ سليك ان المريض بالالتهاب السكري الحاد يقاوم المرض ويبرأ منه بسهولة اذا احتفظ جسمه بالمواد البروتينية والزلالية وحتى المصاب بالنوع النزفي فان شفاءهُ منه يتوقف على صيانة بروتين الجسم من الانتقاص والمريض الذي يفقد جسمه هذه المواد ويتعذر عليه استرجاعها يصبح المرض فيه مزمناً واذ ذاك يعلق امل شفائه بحبال الهواء ومما تقدم من الدلائل ان الشفاء من انواع الالتهابات الكلوية الحادة النزفية وغيرها يتوقف على الاحتفاظ ببروتينات الجسم وزلالياته وعدم التفريط بها وهذا لا يكون الا باضافة هذه المواد الى طعام المرضى بالمقادير المقررة للجسم السليم وبرهنت التجاريب على ان تمثيل هذه المواد وانحلالها في الجسم لا يؤثر في الكلى لا في قليل ولا كثير وانها في حالة المرض كما في حالة الصحة لا تحيد عن مزيتها في بناء ما اندثر من الخلايا وتعويض الجسم ما احدثه المرض فيه من تدمير واذا جاز للرجل السليم

ان يمتنع عن ادخالها الى طعامه بضعة ايام فلا يجوز منع المريض من تناولها يوماً واحداً. وذكر الاستاذ سليك وغيره حالات عديدة تأصل الداء فيها وقطع الامل من شفائها ولكن لما اضيف البروتين ابتدأت علامات التحسن تظهر عليها وظل تقدمها الى الشفاء في اطراد الى ان تعادل البروتين في الدم وازدادت مقدرتهُ على انسياب الحمض الكربونيك وتوازن المنصرف من اليوريا وتحرر البول من الدم والخلايا والاسطوانات وحاجة اولئك المصابين بالالتهابات الكلوية من البروتين تتراوح بين ٤٠ و٥٠ غراماً في اليوم. وثبت انهُ لاخوف قط من استعمال ثلاثة اضعاف هذا المقدار والى جانب هذه المقادير من البروتين يجب ان تتوافر مواد الغذاء الاخرى كالدهن والنشويات الضرورية لتوليد حرارة الجسم وبعث النشاط فيهِ والاَّ اضطر الى الاستعانة بالمواد البروتينية وهي كما علمت ميزتها للبناء وتجديد ما مات من الخلايا وليست لتوليد الحرارة فضلاً عن ذلك ان الجسم بحاجة الى الانتفاع من ميزتها تلك الى اقصى حدٍّ لا الى الحرارة التي تتولد من احتراقها فيهِ والتي لا يستطيع من دونها ان ينهض باعباء المرض ويجب ان يعادل ما يحصل عليهِ من النشويات ٥٠ في المئة من مجموع الحرارة التي تتولد من غيرها من مواد الغذاء. والمواد البروتينية التي تدخل في طعام المريض هي اللحم والبيض واللبن بمقادير نصف رطل من اللحم وبيضتان ورطلان لبن في اليوم. والى ساعة كتابة هذه الكلمات لم اتمكن من اقناع مريض بالالتهاب الكلوي ان يتغذى بمثل هذا الطعام وسوف يمضي زمن ليس بقصير قبل ان تشاع هذه الطريقة الجديدة في التغذية ويعم استعمالها كاداة لتقوية الاجسام المنهوكة. وانواع الطعام على اختلافها مفيدة في نوعي الالتهابات الكلوية الحادة والمزمنة. وهناك نوع ثالث لا يصرح للمريض بهِ وهو ان لا يتغذى بالمواد البروتينية الاَّ بمقدار مايتلف منها فيهِ وهو يختلف عن النوعين السابقين في ان تأثيره واقع على الاوعية لا على انسجة الكلى. واعراضه — الاَّ في الحالات الخبيثة — تتوقف شدتها على ضعف الدورة الدموية لا على اضطراب في بناء الكلى. ومقدار بروتين الدم فيهِ لا يقل عن المعتاد لذلك لا حاجة ماسة الى احتواء طعام المصابين بهِ على مقادير من البروتين كما هي الحال في الالتهاب النزفي الحاد والالتهاب المزمن المتلاف. ولكن هذا لا يعني ان نمنع إدخال البروتين الى طعامهم الاَّ عند ما يضطرب نظام اليوريا في الجسم وما عدا ذلك فلا يجب المنع. والخلاصة ان هذا الانقلاب العظيم في تغذية حالات الالتهاب الكلوي الحاد النزفي والمزمن احدث رجة عنيفة ليس في المرضى فقط بل في الاطباء الذين لا يتتبعون سير العلوم ولا العلماء في ابحاثهم المتواصلة اما لكثرة اشغالهم واما لثقتهم بان علمهم بلغ الحد الاعلى من الكمال. ولكن لا كمال في العلم وان العالم الكبير يشعر دائماً بتوقهِ الى الاستزادة من المعارف والاطلاع على الآراء الحديثة في مختلف العلوم والفنون

٢ — مقام الطبيب من صحة الجمهور

نظام التأمين واثر الطبيب فيه

لم يكن التأمين في اول نشأته منظم الادارة كما تراه الآن ولا كان للطبيب الاثر البارز في اعماله كما لهُ اليوم وعلاقتهُ بهِ لم تكن تخلو من عراقيل وصعوبات ذهبت بكثير منها الاصطلاحات التي ادخلت على نظامهِ في خلال السنين التي مرت على تأسيسهِ . وليس من الانصاف ان نوازن بين ما كانت عليهِ تلك الرابطة من عشر سنوات وما وصلت اليهِ في الوقت الحاضر او تكون عليهِ في المستقبل . كما لا يمكن ان نقارن نظام التأمين ذاتهُ اليوم بالنظام السابق لكثرة ما كان فيهِ من عيوب . ولا ريب ان النظام الحاضر سيتطور الى احسن ولا سيما عند ما يشمل آل المؤمَّن عليهم وذويهم وقد ظهرت بوادر هذا التحسين في قرار الجمعية الطبية البريطانية سنة ١٩٣٠ التي وافقت على التوسع في نطاق العناية الطبية وشمول ذوي المؤمَّن عليهم بشرط ان يضمن حقوق الاطباء مع عدم ارهاقهم . واذا علمت ان هذا القرار يشمل ٨٠ ./. من الشعب البريطاني أكبرت هذه الجهود العظيمة وعجبت من هذا التفاني في الدفاع عن صحة الجمهور . ومع ان الاطباء في بعض المدن الاوربية غير مرتاحين الى نتيجة ما وصل اليهِ هذا النظام فان ابطالهُ يؤدي الى اسوأ عاقبة عليهم من بقائهِ والعمل بمقتضيات مبادئهِ . وطريقة تنفيذه تختلف باختلاف الشعوب والممالك ففي بريطانيا يشترط للالتحاق بهِ موافقة وزارة الصحة على قبول طالب الانضمام اليهِ واما في سواها فالمفاوضة تكون مع جمعيات التأمين نفسها او لجانها المؤلفة من الاطباء وغير الاطباء من اعضاء مجالس ادارتها مباشرة . وفي المانيا يدفع للطبيب اجر كل عيادة او اصابة او عن كل مؤمَّن او لمدة معينة وما عدا ذلك يكون الطبيب حرًّا في عمله الخاص . اما في بريطانيا فينال الطبيب مكافأة عن كل مؤمَّن ولكل طبيب مصرح لهُ بممارسة صناعتهِ ان يلتحق بهذا النظام اذا شاء . وفي بلجيكا يدفع للطبيب اجر عن كل استشارة فنية او عن كل وقت يصرفهُ في العيادات العمومية كما هو متبع في بولندا وتشكوسلوفاكيا والمجر ولا يزال الخلاف قائماً بين الاطباء وجمعيات التأمين على الطريقة المتبعة في اختيار الطبيب وقبول معاونتهِ فهم يريدون ان لا يكون للحكومة اي تدخل في ذلك على نحو ما هو جار في بريطانيا وسويسرا وبلجيكا ودانمرك والمانيا والنمسا . ولعل ارتياح اطباء الدانمرك الى هذا النظام يفوق ارتياح زملائهم في سائر البلاد فاولئك لا يشكون الا من عدم قبول انضمام بعض الطبقات الى صفوف المؤمنين لكي يزداد ايرادهم ويضاعف اجرهم على العناية بهم ولذلك تراهم يحثون على ضرورة قبول جميع الطبقات والانضمام الى احدى جمعيات التأمين ونشاهد بعض الاطباء في هولندا يقومون بادارة الجمعيات . وقد لاقى نظام التأمين في فرنسا معارضة عنيفة من

الاطباء في اول عهده . ولكن بعد ادخال تعديل في كثير من مواده ضعف صوت المعارضة. ولا يتسع المقام لاظهار ما بين الطبيب وجمعيات التأمين من روابط وما طرأ عليها من مشاكل وما يعزى الى نظام التأمين من مساوىء . ومن اراد الالمام بهذا الموضوع فعليهِ ان يطالع كتاب « الطب » تأليف السر ارثر نيوزهلم وهو كتاب جليل الفائدة غزير المادة دقيق في ابحاثهِ وتعليل وجوه الموضوع تعليلاً نزيهاً او يطلع على تقارير مجلس العمل الدولي فيجدها تحتوي على حقائق جديرة بالمطالعة والاهتمام . ومع هذا فلا مناص من ذكر بعض فوائد هذا النظام الذي هيأ لطبقات من الناس التداوي من الامراض ودفع اجور الاطباء والتي لولاه لما كانت تقدر على ذلك ولا على جزء منه . فضلاً عن هذا انهُ اوجد لعدد كبير من الاطباء الاعمال التي كافأهم عليها وساعدهم كثيراً على الظهور بمواهبهم وما تكنهُ صدورهم من الرحمة والبر بالفقراء وجعل لهم ايراداً ثابتاً ومستقبلاً باسماً في اشد الايام عبوساً . وحسبهُ انهُ قضى على الدجالين وأبطل فساد دعاويهم . وتتجلى هذه الفوائد عند ما تعلم انهُ لولاه ما كان لجماعات عديدة ان تقوم بنفقات العناية الطبية كما يجب ولا ان تتداوى كما تفعل الآن . واكبر دليل على فائدة وجوده انتشار مبادئهِ ورسوخ اصولهِ وكثرة الاقبال على تأييده والانضمام اليهِ . وفي الامكان تلخيص سير تقدمهِ وكيف كان في اول نشأتهِ جمعية صغيرة الحول مكونة من اعضاء قليل عددهم وانهُ ما كان ينتشر خبر تأليفها والغرض الذي ترمي اليهِ الا واقبل على مناصرتها الافراد والجماعات والحكومات واخذت عوامل النمو تظهر في الفروع والاصول حتى بلغت بعد تطور طويل ما بلغتهُ الآن . والغريب ان بعض الاطباء يعترض على الاجر او المكافئة الضئيلة التي يكافأون بها مقابل اتعابهم ومجهوداتهم والبعض يعترض على بعض القيود في توزيع الادوية على ذوي المؤمنين . ولكن الحال في ارلندا على النقيض مما تقدم لان اكثر من نصف الشعب يحق لهُ ان يحصل على الادوية التي يدفع ثمنها صندوق الاموال العامة والمؤمنون نفسهم لا يحصلون على هذه الادوية بصفتهم مؤمنين وانما بصفتهم العامة اي افراد الامة والامة تدفع عنهم النفقات من تطبيب وادوية من المال المجتمع للصرف في سبيل الدفاع عن الصحة العامة

التأمين على صحة العامل

ودليل آخر على ان الشعب الاوربي يقدر خطورة العناية الطبية قدرها في تحسين الصحة العامة هو عنايتهُ بالحامل وفي دور الولادة وبعد ذلك الدور كايجاد مولدات واطباء مولدين يعتنون بكل حامل عناية تامة على احدث الطرق وافضلها . والنفقات تجمع من الشعب عامة وممن يستطيع الدفع من السيدات الحوامل بحسب نظام التأمين . وهكذا ترى ان هذه الطريقة آخذة

في التعميم وقوامها القابلات التي تعتني الحكومة بتعليمهنّ ومساعدتهنّ على المعيشة خلال اثناء الدراسة وبعدها . وقد اصبحن او كدن يحتكرن عملية التوليد في انكلترا وهولندا . فقد بلغ معدل ما يولد على ايديهن ٦٠ في المئة . وفي الدانمرك تعين الحكومة لكل مقاطعة عدداً منهن يكفي لاجابة كل نداء . وفي اسوج يزيد عدد القابلات على الاطباء ويعملن باجر غير كبير ويجرين معظم عمليات التوليد وفي نروج اجرين سنة ١٩٢٧ نحو ٩٠ في المئة من ٥٠٠٠٠ الف ولادة وغير مصرح لهن استعمال الجفوتة والملاقط في التوليد . والاطباء على اتم استعداد لمعاونتهن عند ما تدعو الحاجة اليهم . ومعدل الوفيات من حمى النفاس هبط الى ٣ في الالف . وفي بروسيا يقمن بتسعين ولادة من كل مئة ولا ريب ان نتيجة المعالجة الطبية في اوربا تتأثر كثيراً بهذه المعاونة التي نوه بقيمتها السر ارثر نيومن حيث قال ان عناية المولدات بالمواليد وتعويلهن على معونة الطبيب عند الحاجة يضمن للاطفال العناية التامة بهم في وقت الولادة

الدعاية ضد السرطان

ورد في تقرير مصلحة الصحة العمومية في فينا عن الزيادة المروعة في عدد وفيات داء السرطان في السنين الاخيرة ومما جاء فيه ان وفيات ذلك المرض في سنة ١٩٢٠ بلغت ٢٤٠٠ وفي سنة ١٩٢٩ وصل العدد الى ٣٧٠٠ واما في سنة ١٩٣١ فصعد الى ٤٩٠٠ وانت ترى ان عدد اصاباته تضاعف في مدى عشر سنوات . وقد لا يعدو السبب في ذلك زيادة انتشار الداء كما يتخيل البعض وانما يعود في الارجح الى اتقان التشخيص . وأهم الاجراءات التي اتخذتها بلدية فينا لمكافحة السرطان هي شراؤها خمسة غرامات راديوم وانشاء مصحة لمداواة المرضى فيها

وفضلاً عن هذه المعالجة الحديثة انشأت في المصحة قسماً للجراحة على احدث الطرق وانشأت في المدينة عيادات للكشف على المرضى مجاناً . وحثت المرضى على الشخوص الى تلك العيادات عند ما يشعرون بألم خفيف أو تغير بسيط وطلبت من الاطباء أن لا يتوانوا عن اظهار ما يخامرهم من شك في أسباب المرض وان لا يكتموا حقيقة ما يشكون منهُ وقد دلت التجارب على أن داء السرطان اذا صار تشخيصه في بدائته سهل على الطبيب مداواته والتغلب عليه كما يسهل عليهِ مداواة داء الدرن . وغير الدرن من الامراض العضالة التي تستعصى على الطبيب وعلى الدواء ولا سيما اذا توغلت اصولها في الجسم وانتشرت سمومها في مختلف اعضائه اما في بداءة نشأتها فيهون خطرها ويسهل امرها والتنكيل بها من غير كبير عناء

مكتبة المقتطف

نظر في معجم الحيوان

بحث علمي طريف للعلامة الاب انستاس الكرملي

حضرة رئيس تحرير المقتطف حفظهُ الله

لما نشرتم معجم الحيوان في المقتطف في سنة ١٩٠٨ وما يليها جاءني من الاب انستاس رسالة عنوانها «نظر في معجم الحيوان» نشرت تباعاً في المجلد ٣٩ من المقتطف اي في سنة ١٩١١ والآن قد بعث اليَّ برسالة جديدة وأظهر رغبته في نشرها في المقتطف فأرجو اذا وافقتم ان تسمحوا بنشرها ولكم الفضل . هذا وقد علقت عليها بما تراءى لي وجعلت ما علقت به بين حاصرتين امين معلوف

سيدي الصديق العزيز

تصفحت معجمك في هذه الساعة فرأيتك تذكرني مراراً عديدة وفي الفاظ كنت تستطيع ان تجعلها باسمك اذ لا مسيطر عليك ولا محاسب . لكن ذاتك الطيبة ابت ان تنسب اليها ما ليس لها . فهذه خلة تجعلك في اعز موطن من مكارم الاخلاق واباء النفس ، فاهنئك بذلك وهو اعلى مقاماً من العلم الذي بلغته باحياء الليالي فجاء كتابك من انفس ما كتب في هذا الموضوع

وأراك نسيت ان تنسب خنزير الارض الى اول من عرَّبها وهو صاحب دائرة المعارف (٧ : ٤٨٢) وسماه ايضاً « أردڤرك » (٣:٣٣) والاحسن ان تجري في هذا على خلقك الكريم المعهود فيك

وذكرت في ص ٣ العقصي ولم تتمكن من معرفة صحتها والصواب العَفَصي بالفاء لأن لونه لون العفص وكل لغة سواه خطأ صريح . وقد ذكره دوزي في ١ : ٣ قال : الباشق واليؤيؤ والعفصي » . قلت وهو غير « ابن آصى » الذي صار الى « اليَوَصَّى » (راجع اصي في التاج وغيره) . فالعفصي ورد العقصي في حياة الحيوان المطبوع في مصر . وذكره جاياكار صديقك العزيز بصورة العَقَصى وزان اقصى

المراسلة والمناظرة

جاءنا من الاستاذ مصطفى صادق الرافعي رد على نقد الاستاذ العقاد الذي نشر في مقتطف دسمبر ١٩٣٢ ، ومن الدكتور ابرهيم صليبي رد وتعليق على نقد الاستاذ نقولا الحداد لكتابه في مقتطف دسمبر ١٩٣٢ . ومن الاديب كمال ابرهيم المدرس ببغداد نقداً على مقال الرافعي في شوقي (مقتطف نوفمبر ١٩٣٢) فأخرنا نشرها لضيق النطاق في هذا الجزء . فنرجو المعذرة

والذي عندي في حياة الحيوان المخطوط خطأ بديعاً وقديماً في الحاشية : والعقصيُّ بعين مهملة مفتوحة وقاف ساكنة يليها صاد مهملة مكسورة وفي الآخر ياء مشددة نسبة الى العفص للونه . والعفصي ذكره فريتغ ومحيط المحيط والبستان والفضل لفريتغ . وورد خطأ في صبح الاعشى بصورة العقيمي (٢ : ٥٧) وهو باز قضيف قليل الصيد ذاهل النفس . ثم قال في الحاشية (في حياة الحيوان العفصي ولم نجدها في القاموس) . قلت وهو المسمى Merlin بالانكليزية وبلسان العلم Falco aesalon انتهى كلام الاب انستاس

(اقول لاشبهة فهي صحة هذه اللفظة اي العفصي بالفاء لابالقاف كما حققها الأب انستاس وانما ليس هو المسمى Merlin بالانكليزية فهذا على ما حققه سافيني (وصف مصر مجلد ٢٣ ص ٢٧٩و٢٨٠) هو اليؤيؤ بالعربية على ما ورد في الدميري والجرادية عند عامة اهل القاهرة وصقر الجراد في المنزلة والمطرية وفارسكور . وهو من الصقور كما جاء في الدميري وصبح الاعشى لا من البزاة . اما العفصي فمن البزاة وهو باز قضيف ذاهل النفس (صبح الاعشى) اشد الجوارح ذعراً وربما هرب من العصفور (الدميري) بخلاف الطائر الذي ذكره الاب المحترم فهذا مشهور بشجاعته كما جاء في كتب العرب والافرنج . والمسألة تحتاج الى شرح طويل للتفريق بين البزاة والصقور عند العرب والافرنج ولون عيونها ولا يخفى ان سافيني من العلماء الثقات جاء الى مصر ووصف هذه الطيور وذكر اسماءها كما جاءت في ارسطو وابن سينا والدميري وغيرهم ولا شبهة ان الذي سماه سافيني يؤيؤاً كما تقدم هو الطائر الذي سماه Falco aesalon وهذا لا يمكن ان يكون العفصي)

الى ان قال الاب انستاس وابن آصى[1] هو في الارمية « وصا وواصا » وكثيراً ماتجيء الواو الإرمية همزة عربية . ومن الغريب ان هذه الكلمة واردة في الاشورية للدلالة على حيوان وعلى المعنى العربي اي المتظاهر او المتراكب الشحم وقد ذكر الكلمة صَوْبَين في معجمه ص ٢٨ وقال « آصو » اسم حيوان لعله الفأرة والمتظاهر الشحم » . قلت وهذا المعنى يتعلق بابن آصى فانهُ متراكب الشحم

ولابن آصى اسم آخر اشهر من هذا هو اليَوَصَّى او اليَوَصَّي . ولعل الاصل هو الارميّ « واصا » فتلاعبت بهِ السن الناطقين بالضاد كما يقع مثل ذلك كثيراً في الالفاظ العامية والاصطلاحية . على اني اظن ان الكلمة منسوبة الى وَصَّ يَوَصّ بمعنى وَصْوَص يُوصْوِص وكلا الفعلين عراقي كما تعرف بمعنى صَوَّت صوتاً خفيفاً يقال ذلك للطيور ولاسيما للصوائد منها

(١) وجاءت روايات لفظه مختلفة وأصوبها ابن آصى لانه لوكان ابن آصي لقيل ابن آص ليساوي وزن رام وداع . وبقية اللغات لا وجه لمعانيها في العربية الا ابن آصى فانه مشتق من اصي يأصى اصى اي ركب شحمه بعضه بعضا وتظاهر. ويجوز ان يقال ابن آصي وزان هاجر وخاتم وهو بمعني المكسور الصاد . فيكون كمعنى أصى

فانها اذا قبضت على فريستها اسمعت صوتاً خفيفاً . والنسبة الى الفعل معروفة في لغتنا كما قالوا الكنتيّ نسبة الى كُنْتُ واليلمعي نسبة الى يلمع واليرفئي نسبة الى يرفأ الى غيرها . اما انهُ قيل فيه ايضاً اليوصّى بالقصر فهذا حادث من عدم تنقيط الياء في الآخر فقد افسد هذا العمل الفاظاً لا تُعدّ ولو كان الجميع اعجموها دائماً لما وقع مثل هذا الوهم الذي زاد اللغة الفاظاً على غير طائل

واما ان ابن آصَى هو اليَوَصّي فظاهر من قول صاحب التاج في مادة أص ي: « وابن آصَى طائر شبه الباشق الاّ انه اطول جناحاً وهو الحداء [1] يسميه اهل العراق ابن آصَى كما في التهذيب » اه كذا والصواب «اليَوَصِي» كما في التهذيب والدليل انهُ قال في مادة وص ي: ويَوَصّى [2] بفتحات مع تشديد الصاد وقيل بكسر الصاد المشدّدة [3] وقيل هو بالتاء الفوقية [4] طائر قيل هو الباشق وقيل هو الحرّ عراقية ليست من ابنية العرب ... » . وقال في يَوَص: اليَوَصيّ [5] اهمله الجوهري وصاحب اللسان وهو بفتح الياء والواو وكسر الصاد وبالياء المشددتين ووزنهُ الليث بفَعَلّي وقال هو طائر بالعراق شبه الباشق الاّ انهُ اطول جناحاً من الباشق واخبث صيداً او هو الحرّ ونصّ الليث وهو الحرّ . وقال ابو حاتم في كتاب الطير : قال الطائفي او غيره : الحرّ من الصقور شبه البازي يضرب الى الخضرة اصفر الرجلين والمنقار صائد . وقال آخرون: بل الحرّ الصقر كذا في العباب...» اه واليَوَصّي هو المسمى عند العلماء Falco babylonicus على ما حققتهُ . فليحفظ ومن الغريب انك لم تتعرض لذكر هذا الطائر في ما ذكرتهُ من الالفاظ العربية ولا من الالفاظ العلمية ولا جرم ان ذلك نسيان منك او سهو . انتهى كلام الاب انستاس

(اقول ان اغفال اليَوَصّى في ما نشرتهُ هذه المرة كان سهواً مني وقد حققتُ هذا الطائر في سنة ١٩٠٩ وقلت في المقتطف ٣٥ : ١٠٧٥ ما نصه اليوَصّى Falco babylonicus طائر من الجوارح في حجم الحرّ وشبيه به . قال ابن سيده « اليوصّى طائر كالباشق الاّ انه اطول جناحاً واخبث صيداً » وقال الدميري « اليوصى طائر بالعراق اطول جناحاً من الباشق واخبث صيداً وهو الحرّ» . فعدم ذكري له في ما نشرته هذه المرة كان سهواً مني وحقه ان يضاف في الصفحة ١٠٤ من معجم الحيوان والسطر الثاني قبل شاهين العراق)

وفي ص ٤ ذكرت الصُّعْتُر بمعنى الخبياري وانا لم اجد هذه الكلمة الاولى في ما لدي

(١) كذا . وهذا غلط ظاهر لان الحدأة لا تتعرض لصيد كبار الطير بل لصغارها وربما لم تتعرض لها بل للجرذان والفئران والى اشباهها والصواب هنا ان يقال وهو الحر (٢) كذا بلا اداة التعريف وكذا في المخصص (٣) اي يوصي وهذا غير صحيح لانه لو كان كذلك لقيل يوص اللهم الا ان يكون ممنوعاً من الصرف بالعلمية والاعجمية وهو غير صحيح (٤) اي توصي او توصى وهو غير وارد في دواوين الاثبات (٥) كذا بالتعريف بخلاف ما قال في وصي

من الكتب . وذكرت لك سابقاً في مايتعلق بالحفش والزجر . وقد وجدت عندي في مقيّداتي استور بهذا المعنى ايضاً اي Sturgeon . ولا جرم انهُ معرب الافرنجية المذكورة ، وقرأت اللفظة في احد الكتب العربية ونسيت ذكر محل ورودها . انتهى كلام الاب انستاس

(اقول ان الصُّعْتُر خطأمطبعي وصوابهُ الصُّعْقُر بالقاف لا بالتاء. اما الحفش فكتب اليَّ انهُ سمك غير هذا اسمهُ بالانكليزية Wrasse واما الزجر فذكر لي الاب العلامة ان اللفظة سريانية الاصل)

الى ان قال الاب العلامة : والآن آتي لاهنئك اعظم تهنئة لوقوفك اتم الوقوف على معنى القُنْفع بمعنى الفأر الشائك فاني كنت عالجت معرفة هذه الكلمة وصرفت ساعات بل اياماً لتحقيق معناها وفي الآخر توفَّقت لهُ وذلك ان القُنْفُع تنظر الى اليونانية Knaphos او Gnaphos ومعناها العكّوب او شوك الجمال ومُشْط الندَّاف او النجَّاد . فاذا حذفنا os (وهي علامة الاعراب عندهم) من آخر الكلمة بقي لنا «قنف» بل «قنفع» لأن العين لا وجود لها في كلامهم وتحذف عندهم اذا نُقِلت لفظة من الساميات الى لغتهم . ولي رأي آخر هو ان القنفع ربما تكون منحوتة من قَفَّ (شعرهُ اذا قام فزعاً ويقوم الشوك في هذه الفأرة وفي القنفذ او نحوهما مقام الشعر)ومن فَصْعاء (اي فأرة) فقالوا في اول امر نحته قُفَّع ثم ابدلوا الفاء الاولى المدغمة نوناً فصارت القنفع اي الفأرة الشائكة . وابدال احد المدغمين نوناً شائع عندهم وكثير الشواهد من ذلك : الرُّنز والإنجاص والإنجار والإنجانة والخرْنابة والقنبْرة والخرنوب والحنظ في الرُّز والإجاص والإجّانة والاجّار والخرَّابة والقُبَّرة والخرّوب والحظّ الى ما يحصى ذكرهُ . اذن القُنْفُع هي الفأرة الشائكة وانهُ يجوز ان تجيء بمعنى القنفذ . لكن المعنى الاول احسن لما ذكرناه من الاسباب اللغوية . انتهى كلام الاب انستاس . (اقول الحمد لله فقد نجوت منهُ هذه المرة)

الى ان قال : وذكرت هازجة وهوازج في ص ٥ نقلا عن الدكتور بوست وهذا لا يجوز لغويًّا . لان الهازجة اسم فاعلة واسم الفاعل والفاعلة يدل على ذي فعل يكون بعد قليل على ذي فعل مضى . فقولك « هذا رجل قاتل » يدل على احد امرين . اما انهُ قد قتل في الماضي واما انهُ يقتل عن قريب . وكذلك قولك : الشارف . فالشارف من الناس الذي سيصير شريفاً عن قريب . اما اذا كان ذا شرف اليوم وبعدهُ فيقال «شريف» اي يفرغ صَوْغهُ في قالب المبالغة . وفعيل من صيغ المبالغة ولهذا لم يُجُز ان يقال : هازجة بل هزَّاجة والجمع هزَّاجات . الم ترَ انهم لم يسمّوا طائراً باسم فاعل الاَّ طائرين واسماها مشكوك في اصلهما والاَ فاغلبها موزون اوزان مبالغة كفُعَل وفَعّال وفُعَّل وفُعَّلة وفعيل الى اشباهها

وذكرت مراراً «القانوني» ترسترام واظن ان صحيح التعبير « القانونيّ» نعم ان الانكليز

يقولونCanon اما العرب فيقولون قانوني نسبة الى «القانون». وكذلك ذكرت مراراً بلينوس او بلينس بصورة بلنيوس وهو لفظ انكليزي للعالم Plinius ولا يجوز ان يلفظ الحرف اللاتيني U «يو» بل «او» كما يلفظهُ غير الانكليز . والعرب ذكروا هذا العَـلَم كما ذكرناه والبعض قال بليناس (عيون الانباء ١ : ٧٣) انتهى كلام الاب انستاس

(اقول : لا شبهة ان التعبير العربي في القانون ينبغي ان يكون القانوني كما يقول الاب المحترم على تقدير الكاهن القانوني. لكن القانون هنا بمنزلة رتبة كهنوتية فرأيت ان ابقيها كما يقول الانكليز اي القانون ترسترام . فلو لم يكن حائزاً على هذه الرتبة وكان اسمهُ المستر ترسترام لقلت المستر ترسترام او الدكتور ترسترام ولم اترجمهما. كذلك القانون فرأيت ان اذكر اللفظ كما ينطق به الانكليز . اما بلنيوس فاسمهُ باللاتينية على ما اظن Plinius وصحة كتابتها بالعربية كما كتبتُها ولو كان اسمه باللاتينية كما اورده الاب المحترم كانت صحة كتابتهِ بلينوس او بلينس كما قال)

الى ان قال الاب العلامة : وذكرت في ص ٥ الادكس . وقد صرَّح ثقات العلماء انهُ سامي الاصل غير لاتيني كما قلتَ والذي عندي انهُ من العربية «عَدَّاء» لاشتهارهِ بعدوهِ اي حُضْرهِ . وعدم وروده في الكتب بهذا الاسم لا ينفي عدم نطق العرب بهِ لأن اللغويين لم يدونوا جميع الكلم لا سيما ما يتعلق بعلم المواليد

وفي الصفحة المذكورة ذكرت المؤزَّر بمعنى «الابيض العجز» والذي اعرفهُ بهذا المعنى «الآزر» كما في الاساس

(قلت ذكرت الآزر والمؤزر في ص ٨١ في مادة ثيتل فقلت ثيتل آزر ومؤزر اي ابيض العجز وذلك عن كتاب مبادىء اللغة للاسكافي ص ١٢٩ قال الآزر الابيض العجز وكذلك المؤزّر ولم اجد المؤزّر في غيره من كتب اللغة بهذا المعنى)

الى ان قال الاب انستاس : وجاءت الاربد مضبوطة بالتحريك واسكان الباء والصواب بوزن افضل . وذكرت مع العربد الشجاع وليس الواحد الآخر ولا جرم ان الاربد او العربد تنظر الى اليونانية herpeton اما الشجاع فهي تلك الحيــة التي من شأنها الاطراق اي ارخاء العينين كأنها ناظرة الى الارض ساكنة . ومنهُ مثلهم « اطرق اطراق الشِجاع » . والشِجاع بكسر الشين. وذكرت في تلك الصفحة الحرذون بجانب العضرفوط والواحد غير الآخر وقد ذكرت ايضاً الاول في ص ٢٣٥

(واما الاربد فخطأ مطبعي والصواب كافضل اي كما قال الاب المحترم . واما الشجاع فمن الافاعي Viperidae كالطفية وهذا يوافق ما قاله الاب المحترم ولا يخفى ان الطفية هي الافعى عند مؤلفي العرب واسمها عن العلماء Echis وكما جاء في المعجم ص ٩٥ والشجاع افعى او افعوان

ومن اسمائها عند علماء الحيوان Echidna كما جاء في ص ٩٤ فلا خلاف هنا بيننا

«اما الحرذون فلا شبهة انه ما ذكرتُ أي انه نوع من العضرفوط ولو تعددت اسماؤه العامية وقد سماه جفروى Stellio vulgaris واندرسن Agama stellio وأحدث اسمائه Stellio stellio فهذا الحيوان واحد ولو تعددت اسماؤه وما ذكرته هو الصواب في الصفحة ٧ والصفحة ٢٣٥ وصورته في آخر الكتاب هي الصواب وهو شبيه جداً بقاضي الجبل وصورته الحقيقية في مطول وبستر»

ولم تذكر الدويبة المعروفة باسم «ابو بُريص» وهو Agama colonorum (راجع دوزي) والذي اعرفهُ ان ابا بريص مشهور بهذا الاسم في بغداد وهو المسمى Gecok كما جاء في معجمك ص ١١٣ فدوزي ناقل غير محقق بنفسهِ والناس لا تعتمد الآن الاَّ على التثبُّت في الامور والامعان في التدقيق

(واما ابو بريص فلا شبهة انه كما ذكر الاب انستاس وما ذكرتُ في الصفحة ١١٣ من المعجم اما ما جاءَ في دوزي فخطأٌ)

لم يذكر أحد حقيقة الجحلان قبلي وكان بعضهم صحَّف الكلمة مفردَها وجمعَها وانا أثبتُّ امرها والدليل اني لم ارَ من تكلم عليها كلاماً علميًّا قبلي

(أما الجحلان فقد نسبتها الى الأب المحترم في الصفحتين ٨٧ و ١٥١ في الكلام على Libellulidae و Dragon-fly

وفي الصفحة ٣ : ذكرت الكواسر ومنها كواسر الليل وكواسر النهار اوبالعكس وفي ص٤ قلت : لا يقال كاسر الاَّ للطير سمي بذلك لانه يكسر جناحيه » اه . قلت اذن كل طائر من جارح وبغاث يسمى كاسراً لان جميع الطير حتى العصافير تكسر اجنحتها عند النزول واذن لا يستعمل الكاسر بمعنى الجارح فقط . والذي رأيتهُ بمعنى الجارح الصائد وتجمع على صوائد والكلمة وردت في المخصص وصبح الاعشى وفي غيرها . اما الكاسر فلم ترد الاّ في قولهم كاسر العظام للطائر الذي ذكرتهُ في ص ١٧٧ من معجمك وكنتُ قد تكلمت عليهِ طويلاً وقبلك في المشرق . واظن انك طالعت في الضياء (١١ : ٣٢) قول الشيخ ابراهيم اليازجي : ووحش كاسر اي ضار او مفترس عامية وانما الكاسر في مثل هذا من صفات جوارح الطير »

قلنا وقد يكون الكاسر اناساً وطيراً وحيواناً . ومنهُ في التاج «وهو كاسر من قوم كسَّر كركَّع وهي كاسرة من نسوة كواسر والكواسر الابل التي تكسر العود » اه . افلا تنعت بعد هذا سباع الحيوان بالكواسر اذا كانت تكسر عظام صيدها؟ فتقييد اللغة بمثل تلك القيود يمنعها دون التحليق مع سائر اللغى . واما الكاسر للطيور فقد قالوا عقاب كاسر وباز كاسر الى غير هذين الجارحين ككاسر العظام . انتهى كلام الاب انستاس

(قلت اريد لفظة تقوم مقام هذه اللفظة أي لفظة تشمل سباع الطير من الجوارح كالعقبان ومن غير الجوارح كالنسور . والرخم وقد اقترح احد الادباء القواطم واظنها موافقة أما الجوارح فليست موافقة فالنسر والرخمة ليسا من الطيور الصائدة أي ليست من جوارح الطير لكنهما من هذه الرتبة)

كتاب جامع المفردات

تأليف الغافقي (توفي نحو ٥٦٠ ه) — انتخاب ابن العبري (توفي سنة ٦٨٤ ه)
نشرهُ وعلق عليه الدكتور ماكس ماير هوف والدكتور جورجي صبحي

لم نرَ كتاباً هذه السنة اجتمعت فيهِ شروط البحث الدقيق والموازنة والاسناد كما اجتمعت في هذا الكتاب

فعلماء العرب اشتهروا بتعمقهم في علم المادة الطبية ، على اثر ترجمة كتاب ديوسقوريدس من اليونانية ، اكثر من اشتهارهم باي علم آخر . والمظنون ان ترجمة كتاب ديوسقوريدس كانت بالسريانية وتمت في عصر العباسيين ثم نقل الكتاب من السريانية الى العربية واصبحت ترجمة هي الترجمة التي وضعها حنين ابن اسحق في القرن الثالث الهجري . فجاء كتاب ديوسقوريدس مثالاً احتذاهُ العرب في علم الادوية واشهر اصحابها الرازي وابن سينا وابن جزلة وابن الوافد وابن سمجون والشريف الادريسي والغافقي وابو العباس وابن البيطار. الاّ ان معظم مؤلفاتهم قد استبدت بهِ ايدي الضياع ولم يبق الاّ كتاب ابن البيطار وقد احتوى على كل ماجاء في كتب الاوائل ، وهو في طبعة لكلير اصح وصفاً واصلح نصًّا منهُ في طبعة بولاق

اما كتاب الغافقي فليس منهُ الاّ نسختان احداها مغلوطة ومحفوظة ببلدة غوتا بالمانيا والثانية في مكتبة المغفور لهُ احمد تيمور باشا وهي صحيحة مضبوطة وقد تكرَّم قبل وفاتهِ — رحمة الله عليهِ — فسمح للناشرين العالمين تصوير صفحاتها بالفوتوغراف

ولدى الموازنة بين كتاب ابن البيطار وكتاب الغافقي وجدا ان مؤلف ابن البيطار ليس الاّ نسخة كاملة لكتاب الغافقي زيد عليها بعض ملاحظات من المؤلفين الذين خلفوا الغافقي . ويندر ان تجد في كتاب ابن البيطار ملاحظة خاصة بهِ . ثم ان كتاب ابن الغافقي — في رأيهما — ليس الاّ شرحاً للترجمة العربية لمؤلف ديوسقوريدس وقد اضيفت اليهِ اسماء النباتات والادوية التي عرفت بعد ما اتسع نطاق معرفة الاطباء العرب في فن العلاج . وقد شرح الغافقي هذه الادوية الجديدة شرحاً مطولاً ينمُّ على مقدرة تبعث على الدهشة وذكاءٍ متوقدٍ واضاف اليها كثيراً من الادوية التي في شمال افريقيا وبلاد الاندلس

ولم يكتف الناشران باخراج طبعة عربية سليمة لكتاب الغافقي مع شدة ما عانياهُ في قراءة النسخة التيمورية والمقابلة بينها وبين نسخة غوثا والعودة احياناً الى كتاب ديوسقوريدس نفسهِ لفك المُغْلق ، بل انهما اخرجا ترجمة انكليزية حرفيةً جهدَ الطاقة

وقد سارا في الطبعة العربية على الخطة التي يجري عليها المستشرقون في طبع الكتب القديمة. فانهما استخرجا نصًّا هو في رأيهما اقرب ما يكون الى الصواب ووضعا امام كل لفظة لها اكثر من قراءة واحدة لا تقبل الريب ، رقماً وفي الحاشية اوردا ما جاء في النسخة الخطية الاخرى اذا اعتمدا نسخة دون الثانيــة او ما ورد في النسختين الخطيتين اذا كانا قد اعتمدا قراءة خاصة وصلا اليها بعد البحث والاستقصاء

وقد فعلا ذلك كذلك في الترجمــة الانكليزية وكتبا اسم كلّ دواء بلفظهِ العربي او المعرّب بحروف افرنجية وعربية واضافا الى ذلك اسمهُ الاجنبي الشائع واسمهُ العلميّ

خذ أشنة صفحة ١٤ من الاصل العربي فقد ورد في الترجمة الانكليزية ما يأتي :

Ushna اشنه Fragrant (tree) moss. Odorant lichen. Alectoria usnesides (Lecl. no 85)

ثم انهما علقا على بعض الادوية شروحاً غاية في خطورة الشأن

فعمل العالمين الفاضلين ليس نشراً وترجمة فقط ، بل هو عمل ينطوي على تحقيق وتعمّق في الطب واللغة واسماء النباتات العلمية فهما جديران من جمهور المتعلمين في الشرق بالشكر والثناء

***

وقد رفعا الكتابين الى من «احيا حضارة الفراعنة والعرب بعد موتيهما ، الى الآخذ بيد العلوم والفنون ورافع لوائها ، الى باعث النهضة الحديثة في مصر ، الى مليكنا المفدّى مولانا صاحب الجلالة احمد فؤاد الاول »

امير الشعراء

اثنا عشر عاماً في صحبتهِ

وضع الاديب احمد عبد الوهاب ابو العز سكرتير احمد شوقي بك رحمهُ الله ، كتاباً يشتمل على ما عرفهُ عن شوقي في خلال اثني عشر عاماً لازمهُ فيها . ومن ابدع فصول هذا الكتاب الفصل الذي يصف فيهِ المؤلف كيف كان شوقي ينظم الشعر . قال في مقدمة الكتاب : « في هذا الكتاب يعرف القراء كيف كان شوقي بك ينظم لآلئ شعره وعلى اي صورة كان ذلك وفي اي الاوقات كان يحبَّب اليهِ النظم . وفي هذا الكتاب ايضاً يعرف القراء كيف كان يتريّض وكيف كان يعمل وكيف كان يجدّ وكيف كان يلهو وكيف كان يحب وكيف كان يكره وفي الجملة يعرف القراء كيف كان يخالط الحياة ويمتزج بها » . وهو في ١٩٢ صفحة من القطع الصغيرة ومزدان بصور كثيرة وثمنهُ ٥ قروش صاغ

مطبوعات جديدة

﴿ قصيدة ﴾ ترجم حبيب بك غزالة قصيدة شوقي في النيل التي مطلعها

من اي عهدٍ في القرى تتدفق
وبأيّ كفٍّ في المدائن تغدق

باللغة الفرنسة ترجمة حوت لبّ معاني القصيدة . وهو عمل يشكر عليه لأنهُ لا بدَّ لنا من ترجمة روائع شعرائنا الى اللغات الاوربية اذا شئنا ان ننصف اذا عنَّ لنقَّادها الحكم على أدبنا وشعرنا

﴿ موازين النقد الادبي ﴾ القى الاديب كامل كيلاني سكرتير رابطة الادب الجديد محاضرة في نادي هذه الرابطة موضوعها «موازين النقد الادبي» عرض فيها بالاسهاب الى عيوب النقد عندنا فذكر الهجو والعربدة والببغاوية والاسراف ، وهي من المساويء التي يجب ان يترفع عنها الناقد لكي يستطيع ان يؤدي مهمة التثقيف والتقويم على اوفى وجهٍ . ولما سئل المحاضر لماذا حصر قوله في عيوب النقد مع ان موضوع المحاضرة « موازين النقد » قال ان الكلام في العيوب ليس الاّ بمثابة مقدمة للكلام في الموازين في محاضرات تالية . ونحن نسجل هذا القول على انهُ وعد

﴿ غرازيلا ﴾ احدى بدائع لامارتين الشاعر الفرنسي الكبير . فيها يمتزج الشعر بالنقد بالفلسفة بالاجتماع في قصة ساذجة ينظم دررها حب صافٍ كالماءِ المترقرق . فانت تبدأ القصة فتحسبها مذكرات رحلة رحلها لامارتين الى ايطاليا فاذا وصف الرحلة جانب واحد من قصة تستهويك فلا تتركها حتى تتمها . وقد عني بترجمتها اسكندر كرباج احد ادباء لبنان في البرازيل واهدتها مجلة الشرق العربية البرازيلية الى مشتركيها . والترجمة لابأس بها من حيث الدقة ولكنها تحتاج الى قليل من التنقيح لتسلم من هفوات قليلة تشوّه بعض محاسنها

﴿ الطاغية ﴾ وهي درامة تاريخية تأليف شلر الشاعر الالماني الكبير معاصر جوته وندّهُ نقلها الى العربية الاديب فائق رياض وطبعت في دار المجلة الجديدة وتطلب من مكتبة النهضة المصرية بشارع المدابغ بمصر

﴿ سوريا في فجر التاريخ ﴾ فصول وضعها محمد النعمان السخيطه مدرس التاريخ والجغرافية في مدرسة التجهيز بحلب وفقاً لبرنامج الصف الخامس التجهيزي . واخرجها عبد الودود الكيالي صاحب المكتبة العصرية بحلب على نفقتهِ

والكتاب مدرسي يجمع في فصولهِ اهم ما عرف عن الحثيين والاموريين والكنعانيين والفينيقيين وغيرهم من الشعوب القديمة التي قطنت سورية وما خلفته من آثار عمرانها وما كان يربطها بالمصريين وغيرهم من الروابط

الجزء الاول من المجلد الثاني والثمانين

صفحة

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها ادارة المطبعة العصرية بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

صندوق بوستة ٩٥٤ مصر تليفون رقم ٥٩٧٣٦

مـ

٣٥ القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠ القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثالثة)
٣٥ القاموس العصري عربي انكليزي (طبعة اولى)
٧٠ القاموس العصري عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥ القاموس المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠ قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠ قاموس الجيب عربي انكليزي فقط
١٥ قاموس الجيب انكليزي عربي فقط
٧٠ « سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠ « سقراط سبيرو انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠ « سقراط انكليزي عربي وبالعكس
١٠ التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢ الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٥ في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠ عشرة ايام في السودان « « « « «
١٢ مراجعات في الادب والفنون (للاستاذ عباس العقاد
١٥ روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد زعيتر)
١٥ روح السياسة « « «
١٠ الآراء والمعتقدات « « « «
١٠ اصول الحقوق الدستورية « « «
٢٠ الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
٨ مقدمة الحضارات الاولى « «
١٠ الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥ ماقي السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
١٠ اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠ مختارات سلامه موسى
٨ نظرية التطور واصل الانسان « «
٢ اناتول فرانس في مباذله (الامير شكيب ارسلان)
١٥ الدنيا في امريكا (للاستاذ امين بقطر)
١٠ المرأة الحديثة وكيف نسوسها (حسين عبد الله)
١٠ حصاد الهشيم (للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني)
١٠ قبض الريح (« « « « «)
٨ نبهات وزوابع شعر منثور مصور
١٠ رسائل غرام جديدة (للاستاذ سليم عبد الواحد)
١٠ الغربال في الادب العصري (للاستاذ ميخائيل نعيمة)
٥ حكايات للاطفال ، اول (مصور بالالوان)
٥ « « ثان « « «

مـ

١٠ التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فري)
٥ خواطر حمار (للاستاذ الجمل)
٥ التعليم والصحة
١٥ الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد
١٥ ذكراً وانثى خلقهم « « «
٥٠ علم الاجتماع (جزآن كبيران) « «
١٥ اسرار الحياة الزوجية « «
٢٥ المرأة وفلسفة التناسليات (للدكتور فخري)
٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها « «
١٥ الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي)
١٠ تاييس « « « «
٥ مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠ القصص العصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠ مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢ رواية اهوال الاستبداد ، مصورة
١٠ رواية فاتنة المهدي ، او استعادة السودان
٨ رواية الانتقام العذب (اسعد خليل داغر)
٥ فقر وعفاف (الاستاذ احمد رأفت)
١٢ رواية باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢ غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥ رواية روكامبول ، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥ رواية ام روكامبول ، ٥ اجزاء «
٢٠ رواية باردليان ، ٣ اجزاء «
٢٠ رواية الملكة ايزابو ٤ اجزاء «
٢٠ رواية الاميرة فوستا ، جزآن «
٢٠ رواية عشاق فنيسيا ، جزآن «
١٦ رواية كابيتان ، جزآن «
١٦ رواية الوصية الحمراء ، جزآن «
١٢ رواية فالمبرج ، جزآن «
١٠ رواية فارس الملك «
١٠ رواية ضحايا الانتقام «
٥ رواية المتنكرة الحسناء «
٥ رواية مروضة الاسود «
٥ رواية شهداء الاخلاص «
٨ رواية المرأة المفترسة «
١٦ رواية دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠ « فرنسوا الاول « «



المستر ارفنغ لنغميوَر
الفائز بجائزة نوبل الكيمائية سنة ١٩٣٢

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الثاني من المجلد الثاني والثمانين

١ فبراير سنة ١٩٣٣ — ٦ شوال سنة ١٣٥١



ارفنغ لنغميور
IRVING LANGMUIR
الفائز بجائزة نوبل الكيمائية سنة ١٩٣٢

حداثته واستعداده

لما ولد موزلي (١) كان في احدى ضواحي نيويورك فتى في السادسة من العمر . ولكنهُ على الضدّ من موزلي لم ينجب من اسرة اشتهرت بالعلم بل كان والدهُ قسًّا هجر اسكتلندا الى كندا ثم هبط منها الى الولايات المتحدة الاميركية . اما اسرة والدتهِ فلن تجد فيها لدى البحث ما يحملك على توقع النبوغ العلمي في اخلافها

وكان لنغميور في حداثتهِ يكثر من توجيهِ الاسئلة الى والديهِ واخوتهِ عما يحيط بهِ من الحوادث والاشياء ، ولا يقنع الاَّ بالجواب الشافي الذي يصيب لبَّ المسألة . « لماذا يغلي الماء في الابريق » ؟ و« لماذا يسقط المطر » . وكان اخوهُ آرثر يدرس الكيمياء فكان الفتى ارفنغ ينهال عليهِ بالاسئلة فيجيب عن بعضها ويعجز عن الباقي . فلما كان ارفنغ في التاسعة من عمره صنع معملاً صغيراً في دور بيتهم الارضي . وكذلك انشأ الفتى يخزن في عقلهِ ، من ايام طفولتهِ وحداثتهِ ، ما يصيبهُ من الحقائق عن القوى الطبيعية التي يتبينها في بيئتهِ . وكان شديد الولع ببناء

(١) Moseley راجع مقتطف يونيو ويوليو ١٩٣١ وهو عالم بريطاني شاب قتل في غليبولي في اثناء الحرب

لاشياء وتفكيكها ثم باعادة بنائها. فلما ارسل الى مدرسة عامة في بروكلن نفر من غرفة الدرس لانهُ كان يفضل ان يعبث في معمله، او يقلق اخاهُ باسئلته الحسابية على الانتظام في فرقة مدرسية

وكان اخوهُ الاكبر — آرثر — قد تخرّج في جامعة كولومبيا. وقرّر ان يسافر الى اوربا وينتظم في جامعة هيدلبرج الالمانية للتوسع في دروسه العلمية. فعزم الوالدان ان يصحبا ابنهما الاكبر الى اوربا. كذلك اتيح لارفنغ، وهو في الحادية عشر السفر الى باريس حيث لبث اخوه في مدرسة داخلية يدرس الكيمياء قبل الانتظام في جامعة هيدلبرج. وكان الفتى يترقب زيارات اخيهِ بفارغ صبر ليستمع الى قصص البحث العلمي التي تقع لهُ، فكانت هذه القصص تفتن لبَّهُ، فيجلس في خلال سردها مشدوهاً كأنما بسحر ساحر. فلما كان في الثانية عشرة طلب ان يُعَدّ له معمل للبحث العلمي، فساعدهُ اخوهُ في تلبية طلبهِ، فكان يقضي فيهِ ساعات متوالية يجرب التجارب المذكورة في كتاب علمي ابتاعهُ

وكان الشقيقان صديقين. وفي ذات شتاء اصطحبهُ شقيقهُ الى سويسرا فتوقلا احدى قمم جبالها، فاعجب ارفنغ بهذا الضرب من الرياضة، وودّ لو يسمح لهُ ان يتوقل كلّ القمم التي على مقربة من الفندق. فعارض في ذلك والداهُ اولاً، ثم اذنا لهُ، لما وعد ان يسير في سبيل مطروق لا يحيد عنهُ وان يرسم خرائط ورسوماً لكل ما يشاهد. كذلك صعّد هذا الفتى، وهو في الثالثة عشرة من عمرهِ، في جبال سويسرا. وكان التصعيد في قمة واحدة، يقتضي احياناً جهداً كبيراً في خلال يومين او ثلاثة ايام فأصاب في ذلك مرانة جسدية وخلقية

وعادت اسرتهُ الى اميركا، بعد ما قضت ثلاثة اعوام في اوربا — اتمَّ شقيقهُ في خلالها دروسهُ في جامعة هيدلبرج — وشهد ارفنغ في ختامها مأتم باستور في باريس — فكأن ذلك المشهد طبع في ذهنهِ بخطوط من نور ونار. وانتظم بعد عودتهِ في كليةٍ بفيلادلفيا، فاثبت لرؤسائهِ انهُ يعرف كلّ ما يعرف من الكيمياء. ولما عثر على كتاب في «حساب التمام والتفاضل» في اثناء ذلك، فتحهُ وطالع فيهِ فقال لشقيقهِ «انهُ كتاب سهلٌ». وفي السنة التالية حضر المدرسة التي كان شقيقهُ يدرّس فيها الكيمياء ثم تخرج في مدرسة المناجم بجامعة كولومبيا وسافر الى المانيا ليدرس على الاستاذ نرنست Nernst في جامعة غوتنجن التي اشتهرت بأفعال وهلر Woehler في الكيمياء الحيوية. وبعدما قضى ثلاث سنوات في المانيا، عاد حاملاً لقب دكتور في الفلسفة، وجعل يدرّس الكيمياء في معهد هوبوكن على مقربة من نيويورك. وفي صيف سنة ١٩٠٩ ذهب الى مدينة شكنكتدي حيث انشأت الشركة الكهربائية العامة «داراً للبحث العلمي» فعزم ان يقضي عطلة الصيف في هذه الدار

الفرصة الاولى

وكان يدير هذه الدار رجل يدعى الدكتور ولِس وِتني Whitney وهو رئيس سابق

للجمعية الاميركية الكيمائية ، ومن روّاد البحث العلمي في الشركات الصناعية . كان الدكتور وِتني زعيماً غريب المذاهب. ذلك انهُ لما اقبل لنغميور عليهِ ، لم يعيّن لهُ بحثاً معيناً يكبُّ عليه في الحال ، بل اقترح عليهِ ان يقضي بضعة اسابيع ، يطوف ارجاء الدار ، ويراقب الباحثين فيها. ففتن لنغميور اذ فعل ذلك . فُتِنَ لأَنَّ عيناً بشرية لم تقع على مشاهد اغرب من المشاهد التي وقعت عليها عيناه . فهنا رجال يحاولون النفوذ الى اسرار العلم والصناعة ويرشدهم رجل خبير باخلاق الرجال عالم باحوال المادة

وفي اثناءِ تجواله استرعى انتباههُ امرٌ معيّن ، كان يحيّر الباحثين ، فمال الى البحث فيهِ . ذلك ان الباحثين حينئذٍ ، كانوا يحاولون ان يصنعوا من عنصر التنغستن ، السريع التكسُّر ، سلكاً ليّناً لا ينكسر ، يسهل مدُّهُ ، لكي يستعمل في المصابيح الكهربائية . وكانوا قد اعدّوا مئات النماذج من سلك التنغستن وكانت كلها الاّ ثلاثة منها سريعة التكسّر لا تصلح لهذا الغرض المعيّن

فذهب الى الدكتور وِتني وطلب اليهِ ان يعيّن لهُ البحث في موضوع هذا السلك. فقد كان غرضهُ البحث في تصرّف الاسلاك متى أُحميت الى درجة البياض في مصابيح مفرغة من الهواءِ . ما السبب في تكسر كل هذه الاسلاك بعد تجربتها وبقاء ثلاثة منها من دون تكسُّر ؟ وكأَنَّ لنغميور رأى بعين الساحر السرَّ في كل ذلك قبل الشروع في البحث ، فلما شرع في البحث لم يضع الوقت في التنقيب على غير هدى ، بل سار توّاً الى محجة الصواب . ذلك انهُ حسب ان بعض الغازات التي تمتصها الفلزات هو منشأ ضعفها . فقبل وتني اقتراح لنغميور وجعل في متناول يدهِ كلَّ وسائل الدار العلمية والصناعية . لانهُ ادرك بنظرتهِ الثاقبة ان هذا المعلّم رجلٌ من جبلة غير عادية

واقبل لنغميور على البحث ، وقد استخفّهُ الفرح بتحقيق الاحلام . ما اعظم الفرق بين معملهِ هنا ومعملهِ الصغير الذي انشأه في حداثتهِ بمساعدة شقيقهِ ! بل ما اعظم الفرق بين هذه المعامل الحديثة والمعامل التي في جامعة غوتنجن ! ان هذه الدار معقل — بل هي حرم للعلم !

كان لنغميور ينتظر ان يرى — بحسب نظريتهِ في ان الغازات هي مصدر ضعف التنغستن — مقداراً يسيراً من الغاز يخرج من الاسلاك المحمية في المصابيح الزجاجية . ولكن الذي بعثهُ على الدهشة العظيمة ان مقادير كبيرة جدّاً من الغاز خرجت من الاسلاك التنغستن لدى احمائها في مصابيح مفرغة . وكان كثير المطالعة يماشي العلم في سيره الحثيث ، فتذكر ما قرأه لطمسن — مكتشف الالكترون — عن مقدرة بعض الفلزات على امتصاص الغازات واطلاقها متى أُحميت . وهذا سلك التنغستن يخرج لدى احمائه غازاً يزيد مقداره سبعة آلاف ضعف على حجم السلك الذي خرج منهُ

وانقضت عطلة الصيف . ان عملهُ في المدرسة يوجب عليهِ الخروج من هذا الفردوس العلمي والعودة الى فرقة التدريس مع ان بحثهُ لم يطل زمناً كافياً لاثبات صحة ماذهب اليهِ . ولكنهُ كان على الطريق

وكان الدكتور وِتْني يزور لنغميور لماماً ، ويراقبهُ في خلال البحث ، فعجب لما يبدو في بحثهِ من توقّد ذهن وسرعة خاطر ومرونة اصابع . ورأى فيهِ مقدرة ، كأنها الوحي، تسير بهِ توًّا الى صميم الموضوع . كانت براعتهُ في التصوُّر والتخيُّل المبنيين على الحقائق المشاهدة من وراء العقل البشري العادي . بل انهُ كان يستطيع ان يتصور نتائج البحث ، قبل ان يتناول الادوات المعدة للتجربة !

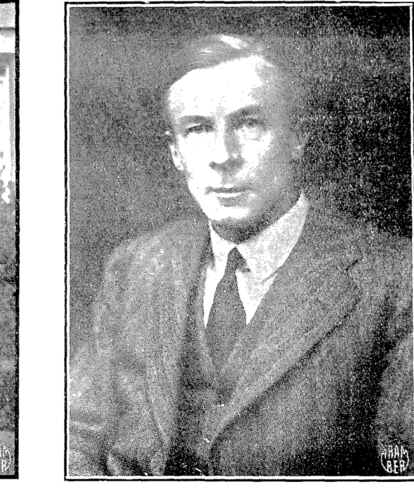
فقال وِتني في نفسهِ : « من الخسارة ان نتخلى عن رجل يستطيع ان يبدع النظريات من دون ان يفقد تقديره للحقائق المثبتة » . فلما آن وقت الرحيل ، عرض عليهِ ان ينتظم في سلك الباحثين في تلك الدار . لأنَّ مكانهُ في المدرسة يملؤه معلم آخر . فتردد لنغميور اولاً رغبة في ان يكون منصفاً لرئيس المدرسة قبل ان يقبل عملاً يحقق مُنَى شبابهِ ! وتردد كذلك لانهُ لم يدرِ هل من الانصاف ان ينفق مال شركة كبيرة في بحث علمي قد لا يفضي الى شيء عمليّ ؟ وكاشف وِتني بذلك فردَّ عليهِ : « ان بقاءك لا يقتضي ان يفضي بحثك الى نتيجة عملية » . فعزم لنغميور في الحال ان يقبل ما عرض اليهِ ولبث في شكنكتدي

النجاح الاول

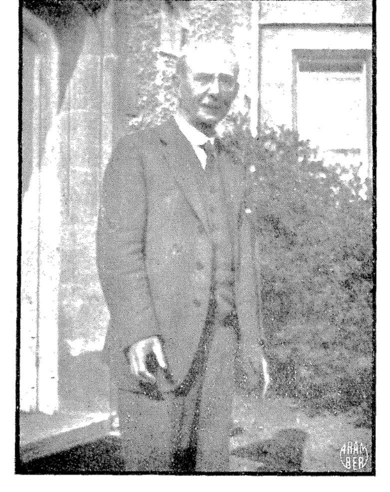
كان الدكتور وِتني يعتقد ما يعتقده المهندسون الاميركيون المشتغلون بصناعة المصابيح الكهربائية ان صنع المصباح الامثل يتم بالحصول على اكمل فراغ ممكن داخل المصباح . ولكن لنغميور لم يسلم بذلك . بل على الضد منهُ ، جعل يملأ مصابيح التجارب بغازات مختلفة ليدرس فعلها في السلك ، لعلهُ يهتدي الى الباعث على قصر حياة المصابيح الكهربائية بوجهٍ عام . واستخلص من ذلك مبدأً عامًّا في البحث جرى عليهِ : قال : — « اذا ظننتَ انهُ يمكن الحصول على نتيجة طيبة باجتناب بعض عوامل مفسدة ، وكان اجتناب هذه العوامل متعذراً أو صعباً كلَّ الصعوبة ، فيحسن ان تقوّي فعل هذه العوامل حتى تزيد علماً بها وبفعلها »

فاخرج لنغميور كل الغازات التي كان سلك التنغستن قد امتصَّها . ولكنهُ بدلاً من ان يفرغ المصباح من أي غاز فيهِ حتى لا يكون فيهِ اكسجين يحرق السلك ، ملأهُ بغازات غير فعالة . واختار النتروجين والارغون لذلك ، لانهما لا يتحدان بعنصر التنغستن ولو بلغت الحرارة درجة البياض . كذلك قضى لنغميور سنوات يجرب التجارب في مصابيحهِ ، وفي تناول يده ما يشاء من مال واعوان . لان مدير الدار كان يعتقد ان كل تطبيقات العلم نشأت من الرغبة في الاطلاع على ما هو خفي . وتاريخ العلم في نظرهِ دليل مسلسل الحوادث يثبت ذلك . ومن اشهر حوادثهِ ، اشتغال مكسول بالضوء من الناحية الرياضية الفلسفية وكيف افضى الى التطبيقات اللاسلكية في هذا العصر

وانقضت ثلاث سنوات ، ولم يخرج لنغميور باي تطبيق عملي ، يذهب بهِ الى رئيسهِ



الاستاذ ادغر° دوغلس ادريان



السر شارلز شرنغتن

الفائزان بجائزة نوبل الطبية عن سنة ١٩٣٢

ويقول « ان هذا الاستنباط يوفي الشركة الاموال التي انفقتها في تجاربي » ولكن وِتني لم يسأله في ذلك ولا الشركة طالبت وِتني بهِ . فمضى لنغميور في بحثهِ حتى اتقن المصباح الكهربائي اللامع الحديث ، الذي سلكهُ من فلز التنغستن وبُلبوسهُ مملوءٌ بغازي النتروجين والارجون. فوفّر بذلك نحو مليون ريال كل ليلةٍ على الامة الاميركية مما تنفقهُ على الاضاءة فقط ! فلما وصف مباحثهُ لارباب العلم التطبيقي قال : ان استنباط المصباح المملوء بالغاز كان نتيجة مباشرة للتجارب التي جربتها في درسي للايدروجين في حالتهِ الذرية . فانني اذ احميت اسلاك التنغستن في غازات على ضغط عادي لم يكن لي اي غرض غير هذا البحث النظري »

ومع ذلك فان درسهُ للايدروجين في حالتهِ الذرية في خلال ١٥ سنة مكّنهُ في سنة ١٩٢٧ من استنباط « شعلة الايدروجين الذري » للحم الفلزّات التي لا تصهر الاّ على درجات عالية جدّاً من الحرارة

مباحثه النظرية

بدأ لنغميور مباحثه العلمية في دار تابعة لشركة صناعية — ولا يزال فيها حتى الآن — وكان الغرض الاول ايجاد طريقة تمنع تكسُّر سلك التنغستن . على ان النتيجة العملية التي وصل اليها لم تكن الاّ فرعاً للمباحث النظرية التي كانت تسترعي كلّ عنايتهِ . ففي خلال المباحث النظرية في الغازات كان لنغميور مهتمّاً كل الاهتمام بما يقال عن بناء الذرة . وكان يماشي التقدم في هذه الناحية من علم الطبيعة بدقة وعناية . بل انهُ يحسب ان تاج مباحثهِ هو نظريتهُ في شكل بناء الذرة ، التي نسجها من خيوط معارفهِ الكيمائية والطبيعية الواسعة

كانت طبيعة تركيب الذرّة مجهولةً في ذلك العهد ، وكانت قد حاولت طائفة من العلماء انتزاع هذا السر من صدر الطبيعة فباءت فالفشل . كان لورد كلفن — بعد اكتشاف الالكترون — قد تصوَّر الذرة عدداً من الالكترونات المتحركة في كرة من الفضاء المكهرب كهربة موجبة . وجرى طمسن على الفكرة نفسها فحسبها تدور في دوائر متمركزة حول النواة. ولكن الصورة التي وضعها لم تفِ بالغرض لأن العلماء لم يتمكنوا من ان يعللوا بها بعض الظاهرات المتناقضة . ثم تلا ذلك رأي رذرفورد في ان الذرة كالنظام الشمسي فالنواة في المركز كالشمس والالكترونات تدور حولها كالسيارات في افلاك اهليلجية . فلم يلبث العلماء حتى صدفوا عنها لنقصها وجمودها

ان في تاريخ الارتقاء الانساني ازمنة تقود فيها الطبيعة العقل البشري الى الاعتقاد بأنها قد اسفرت لهُ عن محياها وباحت له بأسرارها ، ثم تراها وقد هزأت منه واختفت وراء نقاب ، كثيراً ما يكون شفّافاً ، فكأنّها تتحدّاهُ حتى ينضي اليها الركائب ويرهف قواه للتنسيق بين اسرارها المتنافرة بين الذين سمعوا الصوت الذي بعثته الطبيعة ، لما اخفق كلفن وطمسن ورذرفورد في

استنباط صورة للذرة تفي بما تتطلبهُ الحقائق النظرية والمشاهدة ، فتى دنماركيٌّ اسمهُ نيلز بور Bohr كان ابوهُ عالماً وشقيقهُ رياضيًّا . فجاء من الدنمارك الى كمبردج ودرس على طمسن ثم انتقل الى منشستر ودرس على رذرفورد وفي سنة ١٩١٣ نشر مقالة في المجلة الفلسفية عنوانها «بناء الذرات والجزيئات» خرج فيها على النظام العلمي القديم وسلم بمذهب پلانك بأن الطاقة ذرّية البناء كالمادة Quantum theory ، ورسم للذرة صورة تجمع بين صورة رذرفورد ومبدإ پلانك . قال ان ذرة الايدروجين مثلاً هي الكترون واحد يدور حول نواة في فلك اهليلجيّ . فاذا أُقلقَ هذا الالكترون في اثناء دورانهِ ، بفعل قوة خارجية — كأشعة المهبط او الاشعة السينية او حرارة عالية — قفز من فلكه الى فلكٍ اقرب الى النواة . وفي اثناءِ قفزه تشعُّ الذرة قدراً يسيراً من الطاقة . فكل ذرة في حالة استقرار لا يبدو منها ما يبين وجودها فاذا زالت حالة الاستقرار قفزت الالكترونات من افلاكها فتشعُّ»

وقد شبه الدكتور فري هذه الصورة بما يأتي : قال لنفترض اننا خارج ملعب رياضي. وان منطقة العدو حول الملعب مقسمة الى اربعة مسالك وان بين المسلك والآخر حول الملعب حاجزاً خشبيًّا عالياً. ثم لنفرض اننا وضعنا جواداً في المسلك الخارجي وأطلقنا لهُ العنان فجعل يعدو ولكننا لا نراه لانهُ يعدو بين حاجزين عاليين . ثم نراه فجأة وقد قفز فوق الحاجز الى المسلك الثالث وعدا فيه . ثم قفز الى المسلك الثاني وعدا فيهِ. ثم قفز الى المسلك الاول وعدا فيهِ. فنحن لا نراه الاَّ قافزاً فوق الحاجز الخشبي . وكل قفزة تمثل في الذرة قفزَ الكترونٍ من فلك الى فلك وكل قفزة تمثل اشعاع قدرٍ يسير من الطاقة

بهذه الصورة لذرّة الايدروجين علل بور الظاهرات الغريبة التي كانت مستسرَّة عن افهام العلماء وأيَّدهُ في ذلك الباحثون فنال جزاءً على بحثهِ جائزة نوبل الطبيعية سنة ١٩٢٢

وكان في اميركا عالم متوقد الذهن واسع الاطلاع يدعى لوس — جلبرت نيوتن لوِس — ولد في ماستشوستس ودرس في جامعات نبراسكا وهارفرد وليبزغ وغوتنجن. ففي سنة ١٩٠٢ — اي قبل ان يخرج طمسن صورة الذرة التي رسم فيها الالكترونات في حلقات متمركزة حول النواة — تصور لوِس للذرة شكلاً مكعباً . وكان لوِس من العلماء الذين يميلون الى التلاعب بالآراء والصور الخيالية ، فوضع ، في سنة ١٩١٦ قبل سفرهِ الى فرنسا رئيساً لقسم الحرب الكيمائية في الجيش الاميركي ، رسالة تحسب الآن اساساً لبناء الذرة المستقرّ الذي توسع فيهِ لنغميور وعدّلهُ من بعد . قال لوس : في كل ذرة نواة لا تتغير. وحول هذه النواة مكعَّبات تحتوي على عددٍ متباين من الالكترونات ، في اماكن معيّنة . وكل ذرّة تميل الى ان يكون لها الكترون واحد على كل زاوية من مكعَّبها . والذي حمل لوِس على اقتراح هذه الصورة لبناء الذرّة معارفهُ الواسعة في الالفة الكيمائية والبناء البلوري

كانت معرفتنا ببناء الذرّة ، على ما تقدّم ، لما اقبل لنغميور غازياً لهذا العالمَ الصغير. فقد

كان ثمة تناقض عظيم بين الصورة التي رسمها بور للذرّة والصورة التي رسمها لوِس . فعلماء الكيمياء لم يروْا في صورة بور ما يكفي لتعليل الظاهرات التي يعالجونها هم . لانهم يطلبون ذرة تمكنهم من تفسير الظاهرات الكيمائية كالالفة والكفاءة Valence وغيرها . فلما انقضت الحرب وضع لنغميور نظرية جديدة ، وفق فيها بين الرأيين

تعليل الالفة الكيمائية

حاول لاڤوازيه ، الكيماوي الفرنسي الشهير ، من مائة وخمسين سنة ان ينفذ الى السبب في اختلاف تصرُّف العناصر . لماذا نرى عنصر الكلور شديد الفعل في حين ان النتروجين والذهب لا فعل لهما او ان فعلهما ضئيل جدًّا حتى على درجات عالية من الحرارة . ولكن لاڤوازيه خاب في تحقيق ما يصبو اليهِ . ثم عمد الى ذلك برزيليوس وغيره وظلت المسألة سرًّا مغلقاً الى العصر الحديث

على ان لنغميور ، المهندس وصاحب الرؤى العلمية ، رأى في الصورة التي رسمها لوِس مخرجاً من هذا المأزق وتعليلاً لمسألة الالفة الكيمائية . فوجد في الغازات التي تناولها في بحثهِ لدى معالجة مسألة التنغستن والمصباح الكهربائي خير معوان لهُ على حلّ العقدة . كان عنصر الهليوم — عدده الذرّي ٢ — والنيون — عدده الذرّي ١٠ — عنصرين مستقرّين استقراراً كيمائيًّا اي لا فعل كيمائيَّ يذكر لهما . واذن فالالكترونات خارج النوى في ذرات هذين العنصرين يجب ان تكون مركبة تركيباً مستقرًّا يجعل فعل العنصرين الكيمائي ضعيفاً او معدوماً . فتصوَّر لنغميور ذرة الهليوم مركبة من نواة (بروتونات والكترونات في كتلة واحدة) وحولها الكترونان يدوران في كرة مفرغة حول النواة . والمسافة بين الكرات المفرغة المختلفة في الذرات المعقدة جعلها مساوية للمساوات بين الافلاك في ذرة بور

فذهب لنغميور الى ان ذرة لها الكترونان يدوران حول نواتها في كرة مفرغة هي ذرة مستقرة . اما الايدروجين فليس لهُ الاَّ الكترون واحد في ذرتهِ ، فهي اذا تميل الى ان تكمل بناءها حتى يصبح مستقرًّا فتجتذب الكتروناً من ذرة أخرى . وهذا سرُّ فعل الايدروجين الكيمائي . كذلك النيون . ان ذرته مركبة من كرتين مفرغتين (الكرة المفرغة في صورة الذرة تخيلية انما تستعمل لتبين ان الالكترونات التي تدور في داخل الكرة المفرغة تدور في مستوى واحد حول الذرّة) ففي الكرة الداخلية الكترونان — وهو بناء مستقرّ — واما الكرة الخارجية ففيها ثمانية الكترونات وهو بناء مستقرٌّ كذلك . فذرة النيون مستقرّة ليس لها ألفة كيمائية أو فعل كيمائي . اما العناصر التي ارقامها الذرية بين اثنين وعشرة فهي عناصر غير مستقرّة ، وهي لذلك عناصر فعالة وشدة فعلها تختلف باختلاف عدد الالكترونات في كرتها الثانية . فعنصر الليثيوم مثلاً رقمهُ الذرّي ٣ اي لهُ ثلاثة الكترونات خارج نواتهِ ،

اثنان منهما في الكرة الاولى وواحد فقط في الكرة الثانية . فذرة الليثيوم تميل إلى ان يكون بناؤها الخارجي مستقراً ، فتتخلى عن الكترون واحد لذرة أخرى تتحد بها وتبقى هي وحول نواتها الكترونان — وهو بناء مستقر . وميل الليثيوم الى فقد الكترونه الخارجي يجعلهُ من العناصر الكيمائية الفعّالة : كذلك الفلور — ورقمهُ الذري ٩ اي ان لهُ تسعة الكترونات خارج نواته — لهُ الكترونان في كرتهِ الداخلية وسبعة في كرتهِ الخارجية ، فهو اذاً يميل الى استكمال كرتهِ الخارجية باخذ الكترون من أي عنصر آخر وهذا يجعلهُ شديد الفعل الكيمائي

قلنا ان الهليوم هو العنصر المستقرّ الاول وبيّنا طريقة بنائه بحسب مذهب لنغميور . وان النيون هو العنصر المستقرّ الثاني وبيّنا طريقة بنائه كذلك . والعنصر المستقرّ الثالث في قائمة العناصر بحسب موزلي ، هو عنصر الارجون ورقمهُ الذرّي ١٨ . قال لنغميور : لذرة هذا العنصر ثلاث كرات ، في الداخلية منها — اي اقربها الى النواة — الكترونان ، وفي الثانية ثمانية الكترونات وفي الثالثة ثمانية الكترونات كذلك — وكل من هذه الكرات بناء مستقرّ لا يميل الى الاخذ ولا الى العطاء . واذاً فالعنصر نفسه غير فعّال من الناحية الكيمائية

فالالفة الكيمائية في نظر لنغميور ، ترتبط بحالة الكرة الخارجية التي تحيط بنواة ذرة ما وعدد الالكترونات التي فيها . والعدد الكامل في اية كرة خارجية — عدا الكرة الاولى — يجب ان يكون ثمانية . فاذا كان عدد الالكترونات في الكرة الخارجية قليلاً فالذرة تتخلى عنها في طلب الاستقرار . واذا كانت اكثر فانها تتطلب ما يكملها حتى تصبح ثمانية . فهي في الاولى تعير غيرها الكتروناتها وفي الثانية تستعير الالكترونات من غيرها . وفي الحالتين تكون من العناصر الفعّالة

اما الفلزات فمن الطائفة الاولى واما غير الفلزات فمن الطائفة الثانية . لذلك يتحد عنصر فلزي بعنصر غير فلزّي ، فيتولد من اتحادهما مركّب كيمائي مستقرّ

تفسير الكفاءة والنظائر

وكأن لنغميور اصاب عدة عصافير بحجر واحد . فالصورة التي رسمها للذرّة لم تفسّر الالفة الكيمائية فقط تفسيراً مقبولاً بل فسّرت كذلك الكفاءة الكيمائية وهي لفظة استعملها اولاً الكيماوي الانكليزي فرنكلند في منتصف القرن الماضي للدلالة على مقدرة العناصر المختلفة على الاتحاد بغيرها . فكأنهُ تصوّر ذرة العنصر الفعال لها اذرعٌ كأذرع الاخطبوط تمسك بها بذرات العناصر التي تتحد بها ، وان لذرة العنصر الواحد ذراعاً واحدة ولذرة العنصر الآخر ذراعان ولذرة عنصر ثالث ثلاث اذرع . وقد ظلّ علماء الكيمياء محيّرين في تعليل هذه الظاهرة الى ان علّلها لنغميور اذ قال ان مقدرة كل ذرة على الاتحاد بغيرها (اي كفاءتها الكيمائية)

متوقفة على عدد الالكترونات في كرتها الخارجية . فالكلور — وفي كرته الخارجية سبعة الالكترونات يحتاج الى الكترون واحد لاكمال كرته — فكفاءتهُ الكيمائية واحد وهو الواقع. والايدروجين كفاءتهُ الكيمائية واحد كذلك. وعليهِ فمن اسهل ما يكون ان تتحد ذرة ايدروجين بذرة كلور ومن اتحادهما يتولد الحامض الايدروكلوريك

ثم ان صورة لنغميور لتركيب الذرّة القت ضوءًا كشّافاً على معنى النظائر Isotopes وهي العناصر التي تتشابهُ في صفاتها ومكانها من الجدول الدوري ولكنها تختلف في وزنها الذري. فثمة عنصر الرصاص رقمهُ الذري ٨٢ ووزنهُ الذري ٢ر٢٠٧ وثمة رصاص ينشأُ من الراديوم بعد ما يتمُّ اشعاعه ورقمهُ الذري ٨٢ ولكن وزنهُ الذري ٢٠٨ فهذان النوعان من الرصاص متشابهان في خواصّهما ومكانهما من الجدول الدوري وانما هما مختلفان في وزنهما الذرّي . وقد ثبت في السنوات الأخيرة ان لكثير من العناصر نظائر. فلعنصر الكلور نظيران وللاكسجين ثلاثة وهلم جرًّا . فلما نظر لنغميور في الموضوع عرف ان النظائر يجب ان تتشابه في عدد الالكترونات التي خارج النواة. واذاً فيجب ان تختلف في عدد البروتونات والالكترونات التي تتركب منها النواة . فلعنصر الكلور نظيران لكلٍ منهما ١٧ الكتروناً خارج النواة . اما النواة في احدهما فتتركب من ٣٥ بروتوناً و١٨ الكتروناً وفي الآخر من ٣٧ بروتوناً و٢٠ الكتروناً. وهذا يعلّل الفرق في وزنهما الذريّ

* * *

ولنغميور الآن مساعد لمدير معامل البحث التي تجلّى نبوغهُ فيها. وقد تخلّى رئيسه عن منصبهِ فرفض تولي منصب اداريٍ لئلاَّ يلهو بتبعاته عن بحثهِ العلميّ. انهُ يؤمن بقول هكسلي اذ قال: «لو استطعت لمهدت امام العالِم سبيل الاستعداد التام لعمله وانني لازن كلماتي اذ اقول انهُ اذا اتيح للامة ان تشتري فتىً قد يصبح مثل وط او دايفي او فراداي ، بمائة الف جنيه لكان رخيصاً كل الرخص». وهذا لنغميور نفسه يوفر ببحث واحد من مباحثه ٢٠٠ الف جنيه على الامة الاميركية كل ليلة . ولقد اعرب الرئيس هوفر عن مثل هذه الفكرة اذ قال : « ان علماءنا اغلى مقتنياتنا القومية التي نملكها . كل مبلغ من المال ضئيل ازاء عمل هؤلاء الرجال . اننا لا نستطيع ان نقيس ما عملوه لترقية العمران بكل ارباح البنوك في كل انحاء المعمورة ...»

ان لنغميور وغيره في معاهد البحث في الجامعات والشركات الصناعية، ينشّئون الآن طائفة من العلماء، سوف يكونون اوسع نظراً وأقوى ايماناً بأثر العلم الصحيح، فيسيرون بما يجهّزون بهِ من اسباب البحث ، بالعلم الى ما وراء الآفاق القصية . لن يعدم العمران امثال هؤلاء الرجال . وقد يطلع النور على عقول امضى من عقول الجبابرة التي درست . فلك العلم دائم لا يزول . . . !

غرفة الشاعر

لعلي محمود طه المهندس

ايها الشاعر الكئيب مضى الليـ ـل وما زلتَ غارقاً في شجونكْ
مسلماً رأسك الحزين الى الفكـ ـر . وللسهد ذابلات جفونكْ
ويد تمسك اليراع وأخرى في ارتعاش تمرُّ فوق جبينكْ
وفمٌ ناضب به حَرُّ أنفا سك يطغى على ضعيف أنينكْ

لست تصغى لقاصف الرعد في الليـ ـل ولا يزدهيك في الابراقِ
قد تمشّى خلال غرفتك الصمـ ـت ودبَّ السكون في الأعماقِ
غير هذا السراج في ضوئه الشـ ـاحب يهفو عليك من اشفاقِ
وبقايا النيران في الموقد الذ ابل تبكي الحياة في الأرماقِ

انت أذبلت بالاسى قلبك الغض وحطمت من رقيق كيانكْ
آه يا شاعري لقد نصل الليـ ـل وما زلت سادراً في مكانكْ
ليس يحنو الدجى عليك ولا يأ سى لتلك الدموع في اجفانكْ
ما وراء السهاد في ليلك الداجي وهلاَّ فرغت من احزانكْ

فقم الآن من مكانك واغنم في الكرى غطة الخليّ الطروبِ
والتمس في الفراش دفئاً ينسّيك نهار الأسى وليل الخطوبِ
لستَ تجزى من الحياة بما حملـ ـت فيها من الضنى والشحوبِ
انها للمجون والختل والزّيـ ـف وليست للشاعر الموهوبِ !

كلمات فى اللغة

صدر المرسوم الملكي بإنشاء (مجمع اللغة العربية الملكي) في ١٤ شعبان سنة ١٣٥١ وجُمِّعت اغراضه في اربع — ١ — المحافظة على سلامة العربية وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون ملاءمة لحاجات الحياة في الفاظها وتراكيبها — ٢ — وضع معجم تاريخي للعربية وتدرُّج الفاظها مع معانيها — ٣ — دراسة اللهجات العربية في اقطارها — ٤ — النظر فيما شأنه ان ينهض بالعربية من كبوتها في ألسنة ابنائها

والمقتطف من اوَّل عهده قد عرض لمثل هذه الاغراض وعني بها ونشر من مباحث كبار علماء العربية كلمات قد كانت هدْياً لكثير من الكتَّاب والشعراء والمترجمين ، ووضع الفاظاً عربية قد قامت — شيئاً — بمطالب بعض الفنون والعلوم ، فدرج عليها اهل الفنون والعلوم فيما كتبوه من مباحثهم وما نشروه من كتبهم

والآن بعد ان صدرَ المرسوم الملكي الكريم نراه واجباً حتماً على المقتطف ان يفسح للمباحث اللغوية وغيرها مما يتصل الى العربية وآدابها بسبب ، ميداناً يعرض فيه علماء العربية وأدباؤها ومؤرخوها ما تجود به اقلامهم من المباحث الجليلة لتكون عوناً للباحثين وسبباً في اتصال الرأي واشتراك الفكر والتنبيه الى ما يفوتُ بعض الباحثين من النظر في شتات ما تحتاجُ اليهِ العربية من الوضع والتجديد والحذفِ والتجريد إحياءً لها ومحافظة على عربية الكتابة وتباعداً عن العجمة الملتوية وإصلاحاً للسان والقلم . ولنا في أدباء العربية وعلمائها ومؤرخيها املاً ممتدًّا إلى غاية الكمال والوفاء في لغتنا الكريمة ونرجو ان يكون المقتطف الذي غذّى الحياة العلمية في بلاد العربية بأطيب الغذاء موفقاً في العمل لتزويد اللغة بأسباب الحياة

معجم عربي جديد

للشيخ عبد القادر المغربي

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

لقد كثر في هذه الازمنة المتأخرة اقتراح فضلاء العرب وتمنيهم قولاً وكتابةً ان يؤلف في اللغة العربية معجم يفي بحاجة ابناء هذا العصر لاسيا طلاب المدارس وكتاب الجرائد وموظفي الدواوين ويشبه ان يكون لَهَج أهل زماننا بهذا الاقتراح كلَهَج اهل القرن الثامن في مثله حتى ألف لهم العلامة زين الدين محمد بن ابي بكر الرازي معجمهُ الصغير الذي سماه (مختار الصحاح) وقد قال في مقدمته انهُ اقتصر فيهِ على ما لا بدَّ من معرفته لكل عالم او فقيه او حافظ او محدث او اديب لكثرة استعماله وجريانه على الالسن بما هو الاهم فالاهم الخ

وقد ألف الرازي كتابه هذا سنة (٧٦٠) للهجرة اي منذ ستة قرون لكن بعد مرور هذه المدة الطويلة لم يبق معجمه وافياً بغرض المتأدبين . وذلك لتغيّر الاحوال المعاشية . وتبدل الاوضاع الاجتماعية والفكرية والثقافية . فكم كلمة من كلمات لغتنا العربية كانت في زمن مؤلف (مختار الصحاح) مما يصح استعماله ويكثر تداوله . وقد امست اليوم ميتة لا يصح الركون اليها . ولا التعويل عليها . وكم من كلمة كانت مهجورة في ذلك العهد تجددت الدواعي اليوم الى استعمالها . والانتفاع بها في المطالب والمعاني التي حدثت بحدوث هذا العمران العجيب . ومن ثمَّ وجب علينا معشر العرب اليوم ان يكون لنا معجم لغوي يفي بحاجتنا كما وفى مختار الصحاح بحاجة اهل عصرهِ . والفضلاء الذين يقترحون وضع هذا المعجم اللغوي يوجهون الخطاب في اقتراحهم الى مجمعنا العلمي غالباً . ولا يخفى ان وضع معجم في اللغة العربية امر سهل جدًّا على المجمع العلمي بل هو في طاقة كل من مارس هذه اللغة ووقف على اسرارها . واخذ بحظ من فهم اشعارها . واقوال بلغائها

ولكن وضع معجم لغوي شيء — وكونهُ وافياً بالحاجة المنشودة شيءٌ آخر . وها كم أيها السادة نموذجاً مما يقوله فضلاء العرب في صفة هذا المعجم المقترح

قال السيد امين الريحاني في مقال نشره في الهلال بعنوان (روح اللغة) : نحن معشر العرب في حاجة الى معجم لغوي يُدخل الى لغتنا بعض الالفاظ الفنية والعلمية الحديثة ويجيز

بعض الاصطلاحات العامة . وهذا من ضروريات الحياة (لكل لغة) ثم عدد أمانيه في خدمة اللغة فعد منها ان يطبع المجمع العلمي او احدى شركات طبع الكتب قاموساً عصريًّا مجرداً من الالفاظ الوحشية . والمترادفات البدوية ، والامثال التي لا تنطبق على حياتنا اليوم — قاموساً مجرداً بالاخص من المواد البدائية كلها. وعار علينا ان تظل قواميسنا حافلة بالوحشيات والبداءات الى ان قال : ان أمنيتي الكبرى ان أرى قبل ان أموت قاموساً عربيًّا عصريًّا نظيفاً اه

وقالت الآنسة (مي) في كتابها (بين الجزر والمد)

اما ما يستطيع ان يفعلهُ المجمع اللغوي فأمورمنها (اولاً) ان يؤلف لجنة تستخرج من كتب العرب الالفاظ والمسميات والمفردات الرشيقة البليغة التي نجهلها ويمكن الانتفاع بها. (ثانياً) ان تؤلف لجنة أُخرى توجد لجميع المسميات والمعاني والادوات الجديدة اسماء وتعبيرات سهلة ان لم تكن في لغة العرب فعن طريق النحت والاشتقاق والتعريب لتقرير مايتفاهم بهِ جميع أهل الاقطار فلا يكون كلٌّ من كتَّابهم قاموساً لذاتهِ ومجمعاً منفرداً بنفسهِ . (ثالثاً) ان تؤلف لجنة ثالثة ترجع الى عمال السكة الحديدية وباعة الاقمشة والاثاث والماعون وأدوات الزينة والاستصباح والطب والهندسة والصناعة والزراعة وسائر شؤون الحياة ومرافق المعيشة التي اتسعت دائرتها بيننا فتعرف مصطلحات كل جماعة ومهنة وتأخذ عنها الاسماء التي عربوها وتواطأوا على استعمالها فتتناولها وتهذب منها ما هو خليق بالتهذيب وتدوّنهُ في القاموس الذي يتحتم تأليفهُ . هذا أهم ما يقوم بهِ مجمع لغوي عربي على ان لا ينفرد مجمع قطر واحد بتقرير الالفاظ وتدوينها لان اللغة ليست له وحده بل عليه ان يعرض خلاصة أبحاثه على علماء الاقطار الاخرى ومجامعها فيبحثونها ويكون التقرير في آخر الامر بالاجماع قدر المستطاع اه . هذا مثال مما يذكره الفضلاء في صفة المعجم وشرائط تأليفه وهي ترجع الى ثلاثة أمور : (١) حسن اختيار الكلمات فنختار لهُ من الكلمات ما نحن في حاجة اليهِ ونهمل ما لا حاجة لنا اليهِ

(٢) ان يضاف اليهِ كلمات جديدة دخيلة ومولدة ومنحوتة ومشتقة مما تستدعيهِ حاجة الفنون العصرية والاختراعات الحديثة

(٣) ان لا يشتغل واضعو المعجم بالعمل منفردين بل عليهم ان يستعينوا برأي علماء اللغة أو مجامعها في الاقطار العربية الاخرى توحيداً لكلمات اللغة وطرق استعمالها

وبديهي ان ما اقترحهُ الفضلاء لا يكون وافياً بالحاجة ما لم يكن القائمون بوضع المعجم متعددين من اقطار متعددة ايضاً لاختلاف الكلمات المولدة باختلاف الاقطار . وان يكون بينهم اساتذة فن وصناعة وادارة . وان يرصد لهذا العمل نفقات تساعد على طبعه طبعاً متقناً وتحضير ادوات واصطناع (كليشهات) الرسوم والصور التي ينبغي ان يتزين بها المعجم على طراز معجم (لاروس) الشهير . وان يضرب لتأليفه مهلة لا تقل عن عشرين سنة او اكثر

فاذا توفر كل هذا صح لنا الشروع في وضع المعجم والا فاسناد امر تأليفه الى شخص او شخصين وتكليفهما ان يضعا معجماً وافياً بالحاجة مطابقاً لبرنامج المقترحين المختلفي الاقطار والامصار امر فوق الطاقة فيما اظن . واكرر القول بان وضع المعجم كيفما اتفق امر سهل . اما وضعهُ كما يجب فامر صعب اذ هو يحتاج كما قلنا الى كثرة في الرجال والنفقة والوقت

وقد ادرك صعوبة هذا الامر المستشرقون الذين توفرت لديهم كل الاسباب فكيف بنا نحن وقد حرمناها كلها . قال دوزي الهولاندي في مقدمة معجمهِ (الملحق بالمعاجم العربية) Supplément aux dictionnaires arabes : (لا بد من وضع معجم للالفاظ العربية المولدة لكن لغة الضاد غنية أيَّ غنى . حتى انه لا بد من مضي اربع سنوات بل ربما عدة قرون قبل ان يشرع بهذا التأليف) وقال العلامة (لين) صاحب المعجم العربي الانكليزي المشهور:

«ان وضع معجم يضم بين دفتيه المولدات العربية ويصدق عليه اسم معجم لا يمكن ان يؤلفه الاَّ جمهور عديد من العلماء ساكنين في مدن من ديار اوربا وبين ايديهم خزائن كتب عربية خطية ويعاونهم علماء عديدون مقيمون في ربوع شتى من ديار آسيا وافريقية فيكون منهم من يغترف من مناهل الاسفار ومنهم من ينتفع من الافادات التي لا يعرفها الاَّ بنو العلوم الاسلامية »اه

وظاهر من قول هذين المستشرقين الفاضلين انهما انما يصفان صعوبة وضع المعجم اذا اقتصر فيه على الكلمات العربية المولدة التي تختلف باختلاف الاقطار العربية فما بالكم بصعوبة الامر اذا كان المعجم مما يراد إيداعه جميع الالفاظ العربية على اختلاف انواعها واجناسها فصيحةً ومعربة ومولدة وفنية وصناعية وادارية وهو امر لا بدَّ منه في وضع معجمنا الجديد كي يكون مفيداً ومطابقاً للخطة المرسومة . ونضرب لحضراتكم مثلاً معجم اللغة الافرنسية الذي يؤلفه اليوم المجمع اللغوي الافرنسي (الاكاديمي) ومنه تعلمون مبلغ صعوبة وضع المعاجم اللغوية العصرية التي يراد ان تكون دستوراً للعمل بين ابناء الامة كلهم

***

جاء في جريدة (السياسة) المصرية في عددها الصادر في ٢٦ آب(اغسطس)١٩٢٤ ما يلي :

« أكملت الاكاديمي الافرنسية المجلد الاول من قاموس اللغة الافرنسية من حرف (A) الى حرف (H) لكنها لم تطبعه بعد وقد بدأت العمل بهذه النسخة الجديدة من القاموس منذ سنة (١٨٧٨) اي انها قضت فيهِ (٤٦) سنة وعلى هذا المعدل يكمل القاموس كله بعد ٩٨ سنة أي سنة ٢٠٢٢ وهي تشتغل الآن في تنقيح المجلد قبل طبعه . وهذا التنقيح اقتضته التغيرات الكثيرة التي طرأت على اللغة منذ (١٨٧٨) وينتظر ظهوره في اوائل السنة القادمة اما فكرة اصدار قاموس للغة الافرنسية فقد ظهرت سنة (١٦٣٤)وهي سنة تأسيس الاكاديمي

في عهد الوزير (ريشيليو) ولكن القاموس نفسه (اي نسخته القديمة) لم تظهر للوجود الا في سنة ١٦٩٤ اي بعد تأسيس الاكاديمي بنحو ستين سنة ثم ظهرت نسخ تالية معدلة في سنين مختلفة) اهـ

***

فمن كل ما تقدم يتضح ان مجمعنا العلمي اذا باشر وضع معجم لغوي من دون مراعاة الشروط المذكورة ومن دون ان تتوافر لديه الادوات والوسائل الآنفة الذكر كان معجمه كسائر المعاجم العربية التي أُلفت قديماً وحديثاً بل ربما اشتدت عليه الهجمات وتوجهت اليهِ الاعتراضات باشد مما لو أَلفه عالم لغوي ليست له صفة رسمية كصفة مجمعنا العلمي . فاذا هوجم المعجم هذه المهاجمة وكانت لم تراعَ فيه الشروط السابقة سقط اعتباره ثم لا يرجى الانتفاع به

وعندي ان اكبر صعوبة في وضع معجم يرضي جمهور المتأدبين هو في اختيار كلمات واهمال كلمات ، إذ لا ريب ان واضع المعجم أو واضعيه انما يتكلون في (الاختيار) و(الاهمال) المذكورين على ذوقهم الخاص فهم يختارون من الكلمات ما يقتنعون بفصاحته ورشاقته وفائدته . ويهملون كثيراً مما يحسبونه وحشياً أو لا يحتاج اليهِ الناس في الاستعمال . ويكون الامر على العكس بالنسبة الى ذوق الآخرين من أهل الفضل والادب فتقوم قيامة هؤلاء على واضعي القاموس فيجهّلونهم ويسفهون رأيهم ويسقطون قاموسهم حتى يتمنى واضعوه لو عافاهم الله من هذه المحنة

واذكر لكم على سبيل المثال كلمة (استنتل) ومعناها ان يكون امرؤٌ في جماعة فيخرج من بينهم ويتقدمهم فهي كلمة واحدة تدل على معنى كثير وقد قبلتها انا وتمنيت لو تحيى بيننا وتتداولها الالسنة . لكن بعض رصفائي من اعضاء المجمع عابها وعدّها من الحوشي الغريب فاذا تصدى مجمعنا لوضع المعجم المقترح والمجمع بحالتهِ الحاضرة من حيث القلة في الرجال والنقص في الوسائل يوشك ان يقع في تلك المحنة او التجربة القاسية

***

اما اذا اجتهدتم ياسادتي الاعضاء في تكثير سواد الرجال القائمين بوضع المعجم وتوفير الوسائل والادوات اللازمة له فأرجو ان تنجو من المحنة : محنة الاعتراض : اذ يقال للمعترض اذ ذاك إنهُ لا يمكن ان يكون رأيه في (الاهمال) و (الاختيار) امثل من رأي واضعي المعجم وهم كثار . ويد الله معهم كما ورد في بعض الآثار . وقد رأيتم ايها السادة انني لم ارد في تقريري هذا ان اقول انهُ لا حاجة بنا الى معجم لغوي عصري . ولا ان مجمعنا العلمي ليس من وظيفتهِ القيام بهِ . بل اردت ان استعين بكم على السعي في توفير الوسائل التي يتوقف عليها وضع المعجم حتى اذا توافرت باشرنا العمل وسألنا الله العصمة من الزلل

تنقيط الياء في آخر الكلم

للأب انستاس ماري الكرملي

من العادة الشائعة بين بعض الكتّاب ، اهال تنقيط الياء في آخر الكلم ، فهم يرسمون يرضى ويرضي ، ويمنى ويمني ، وحبلى وحبلي ، الى امثالها ، من غير تنقيط الياء في المواطن التي يحسن ان تنقط دفعاً للّبس ولاعمال الفكرة في كيفية قراءتها . فالذي يرى « يرضى » يقرأها بفتح الاول والثالث . والذي يرى « يرضي » يقرأها بضم الاول وكسر الضاد. ويقول « يمنى » (خلاف اليسرى) اذا اهملت نقطتا الياء الاخيرة ، ويقول يمني (بمعنى يماني)، اي بتحريك الاولين اذا نقطت الياء ويؤكد ان « حبلى » هي المرأة الحامل ، ويؤكد ان« حبلي » منسوبة الى الحبلى ، اذا كانت منقطة الآخر ، فأنت ترى أنّ إعجام الحرف الاخير من حروف المباني حسَن ،بل ضروري لازالة الاشتباه او للحرص على الوقت والتردد في القراءة

نعم ان الاقدمين لم يعبأوا بهذا الامر، فنهم من كانوا يعجمون ومنهم من كانوا يهملون — منهم كانوا يعجمون مرة ويهملون اخرى في نفس الكلمة الواحدة اذا تكررت في السطر الواحد وفي الصفحة الواحدة ، لانهم يتركون مسألة التنقيط الى فهم القارىء والى ذكائهِ . لكن اذا كان الامر بهذه الصورة ، فلِمَ لا يهملون تنقيط جميع الحروف في جميع الكلم ؟ او لماذا يهملون تنقيط الياء نفسها اذا كانت في قلب الكلمة ؟ لا جرم انهم يزيدون القراءة مشاكل وصعوبات نحن في غنى عنها ، لان الوقت ثمين ،ويجب ان لا نضيعهُ لانفسنا ولا لغيرنا ،ولا نتردد في القراءة

٢ — نحن واحمد باشا تيمور

كان المرحوم احمد باشا تيمور رحمهُ الله — يهمل تنقيط الياء التي يجري الكلام عليها . وجرى بيني وبينهُ مباحثة طالت ساعات ، لانهُ كان اذا كتب اليّ ، اهمل تنقيط الياء بتاتاً . ولما أقنعتهُ عَدَل عن عادتهِ المألوفة ، ولما عدتُ الى بغداد ، نسي ما وعدني بهِ ، ورجع الى ما ألفه من امر الاهمال ،فذكرته بالوعد ،فكتب اليَّ يشكرني على تذكيري اياه.ومنذ ذاك الحين، اخذ يعجم جميع الياءات المتطرفة.ورسائله محفوظة عندي الى يومنا هذا.فالرسائل التي سبقت

تلك المباحثة ، مهملة الياءات والتي حررت[1] بعدها ، منقطة كلها . وكنتُ اودّ ان ابعث الى ادارة المقتطف بالرسالة التي يذكرني فيها انهُ يستحسن تنقيط الياءات المتطرفة ، لكني لم اقع عليها الى الآن ، فان وفقت للظفر بها لا أتلكأ في الارسال بها الى ادارة سيدة المجلات العربية لتصوَّر وتطبع فيها

٣ً المساوىء التي تنشأ من اهمال التنقيط

مساوىء اهمال تنقيط الياء المتطرفة كثيرة . اولها ما ذكرناه من التوقف والتردد في قراءة الكلمة غير المنقوطة ، واعادة قراءتها مع غيرها ليظفر القارىءُ بمعناها وتقويم لفظها وتحقيقهِ على الوجه الاتمّ

ثانياً . اضاعة الوقت للتثبُّت في الكلمة الطافية في عالم الوهم

ثالثاً . زيادة لفظة لا حاجة لنا اليها اذ نندفع إلى اقرار لفظتين في اللغة في حين أن ليس ثَمَّ إلاّ حرف واحد في الاصل ، وما سببهُ الاّ تردّدنا في معرفة الحرف الصحيح الاصلي . جاء مثلاً في القاموس في مادة رب ب : « ومَمدود بن عبد الله الواسطي الربابيّ ، يضرب بهِ المثل في معرفة الموسيقي بالرباب » فعلّق نصر الهوريني اللغوي المصري المشهور، والاديب المعروف عند جميع المشتغلين بالآداب الضادية ، ما هذا اعادة نصهِ : « هكذا في النسخ بكسر القاف [في الموسيقي] وهو اشتباه ، سببهُ رسم الكلمة بالياء . وصوابهُ فتح القاف كما هو في اللغة الرومية ... » اه المراد من ايرادهِ

قلنا : هذا تصريح بيّن بما انتج إهمال تنقيط الياء المتطرفة. ومع ذلك فالهوريني غير مصيب في ما قال . نعم ان الموسيقى في الرومية (اي اللاتينية) Musica اي بالف مقصورة في الآخر لكن الكلمة أخذها السلف من اليونانيين لا من الروم (أي الرومان او اللاتين) فقد قال الخوارزمي ، في كتابهِ مفاتيح العلوم ، (ص ٢٣٦ من طبعة ج ڤان ڤلوتن) : « الموسيقى ، معناه تأليف الالحان واللفظة يونانية » اه قلنا « ويونانيتها Mousice والحرف الاخير الف ممال فيها ويلفظها اليونانيون اليوم ياءً صريحة . فانظر الى ما فعلهُ اهمال تنقيط الياء

وقال في تاج العروس في مادة س ق ع ط ر : السقعطرى كقبعثرى ، أهمله الجوهري وقال الصاغاني : هو اطول ما يكون من الرجال والإبل وهو النهاية في الطول وقال ابن سيده: لا يكون اطول منهُ كالسقعطريّ بتشديد الياء التحتية عن ابن الاعرابي اه فانظر كيف نشأ

---

(١) انكر بعضهم صحة استعمال « حرر » بمعنى « كتب » لكن جاء في كتاب مبادىء اللغة للاسكافي في الفصل الاول (وهو لم يطبع في طبعة مصر) حرر الكتاب : كتبه اه . وفي معجم الادباء (٥ : ٣٢٩) « ثم حرر مدّيدة » في بعض الدواوين اه وهناك غير هذه النصوص

عندنا لفظان في حين ان ليس لنا في الاصل إلاّ لفظ واحد . وانظر الى هذين الاحتياطين اللذين احتاطهما اللغويون لانفسهم دفعاً لكل وهم . فمرة قال السيد مرتضى : كقبعثرى في الاول ومرة قال : بتشديد الياء في الثاني فلو كان الكتّاب اعتادوا اهمال الياء في الاول وتنقيط الياء في الثاني لعلم الكل ان ما يهمل يقرأ الفاً وما يعجم يقرأ ياءً صريحة . لكن ترك اللفظ على عواهنهِ أنشأ لنا هذه الاوهام التي نحن في مندوحة عنها . وهكذا صار لنا حرفان (اي لفظان) بدل حرف واحد

***

ولو كانت «الموسيقي» أو الموسيقى (الاولى تبعاً لليونانية والثانية تبعاً للاّتينية) والسقعطري أو السقعطرى هي كل ما عندنا من الكلم الواردة في معاجمنا لهان الامر ، لكن هناك الفاظ لا تحصى ، ومطالعات لا تعد أراق العلماء واللغويون مداداً كثيراً تثبيتاً لمدعياتهم . ولا بأس من متابعة هذا البحث ، قتلاً إياهُ خُبراً :

قال في لسان العرب في مادة ه ر ن : «ابن سيدة : الهرنوى: نبت . قال : لا اعرف هذه الكلمة ، ولم أزها في النبات . وانكرها جماعة من اهل اللغة . قال : ولست أدري أآلهرنوى مقصور ، ام الهرنوى على لفظ النسب » اه

فأنت ترى من هذا الاعتراف ان ابن سيدة يجهل صحة هذا اللفظ . وما ذلك إلاّ لاهمال تنقيط الياء ، فلو كانوا اعتادوا تنقيطها لعرفوا انها بياء النسبة وان لم تكن الياء ياء النسبة ، لكن اهملوا التنقيط في كلتا الحالتين ، فلم يهتدوا سواء السبيل . وكم من الالفاظ التي تعود الى هذا النهج ، وكم من الذين يخطئون في القراءة ويلحنون في الكلم — لا سيما الكلم غير المألوفة في الاستعمال ولا في النطق بها — لهذه العلة نفسها

لقد حان الوقت إذن ان نتمسك بكل ما يأتينا حسناً من السلف ، وننبذ كل سيء أتانا أو يأتينا منهم ، لان البقاء للاصلح لا لغيره

فصاحب اللسان بعد ان اورد كلام ابن سيده ، لم ينطق بنص يؤيد القصر أو التشديد في الهرنوى. — فانظر بعد هذا الى قول من يدَّعي أننا في غنىً عن تنقيط الياء اعتماداً على ذكاء القارىء أو علمهِ أو اطلاعهِ على غريب الكلام ! فليفتنا هذا القارىء عن ياء هرنوى ، اهي منقوطة أم مهملة . وليذكر لنا شاهداً واحداً ، أو سبباً واحداً لترجيح احد الامرين على صاحبهِ لنتابعهُ في رأيهِ

اما نحن ، فاننا نرى رأي صاحب التاج أي الهرنَوَى (بفتح النون) المقصورة كالهرنُوة المختومة التاء والمضمومة النون . وكثيراً ما تتعاقب الالف والهاء في الآخر أمثلة ذلك : العَرْضَنى والعَرْضنة — والرُخامى والرُخامة — والرُعامى والرُعامة — والقُبَيْرى

والقُصَيْرة الى غيرها وهي كثيرة — فاذا ثبت هذا علمنا ان الهرنوة نقلت الى القرنوة[١] وهذا الابدال كثير أيضاً في لغتنا ، نحو وهف النصراني ووقف — والهرطمان والقرطمان — ورأس هنادل وقنادل — وانهار انهياراً وانقار انقياراً — وهرهر الرجل وقرقر الى غيرها على انهُ يجوز ان يقال هرنوي بالياء المشددة تبعاً للاصل . والاصل عندنا يوناني وهو Harneiou الذي هو مجرور Harneion وهو النبات المعروف ايضاً بلسان الحمل . وقد عربهُ السلف عن ديسقوريدس في كتابه ٢ : ١٥٢

٤ً — ملاحظة في كتب اللغة الحديثة

ولنا مطالعة هنا نبديها بخصوص الهرنوة . فنقول : انمعاجمنا الحديثة كثيراً ما تضبط الالفاظ بغير رويّةٍ . فانمحيط المحيط ضبط الهرْنَوِى والهرْنَوة والهرْنَوِيّ بفتح النون في الالفاظ الثلاثة كما ترى ، وتابعهُ صاحب أقرب الموارد بلا زيادة ولا نقصان . اما صاحب البستان فتابع اللغويين المذكورين وزاد الهرنوة (المضمومة النون عن جميع اللغويين المدققين) غلطاً ثانياً اي كسر هاءها. فقال الهِرنوة [٢] وكل من هؤلاء الثلاثة مخطىء والصواب الهرْنَوَى والهرْنَوِي بفتح النون ان ختمت الكلمة بالقصر أو بالياء المشددة . والهَرْنُوَة بفتح الهاء وضم النون ان ختمتها بالواو والهاء . فانظر بعد هذا كيف اننا في حاجة الى انعام النظر في ما نطالعهُ من دواوين اللغة الحديثة التأليف، وكيف يجب علينا ان نحترز من كل ما يكتب وكل ما نقرأ

ثم ان كان المطالع يتوقى هذا التوقي في ما يبحث عن ضالتهِ في المعاجم اللغوية فخير لهُ ان لا يقتنيها لكي لا يسقط السقطات الهائلة ، ومن الجهة الاخرى ان كتب اللغة القديمة صعبة المورد وصعبة المقتنى في الوقت نفسهِ . ولهذا فقد حان الوقت ان توضع في الايدي دواوين لغة محررة الالفاظ ، والمباني ، والمعاني ، وسهلة المنال . أما أن تكون رخيصة المقتنى ، فتلك المزية لا تكون الاّ للمعاجم المختصرة التي تكون لباب المعاجم الكبرى الحسنة التبويب وبذلك نكون قد خدمنا الوطن واللغة ، وحببنا لاولادنا المطالعة والتحقيق . وبهذا القدر اليوم كفاية لان الموضوع ذو فنون وشجون الاب انستاس ماري الكرملي

(١) الذي حققناه با نفسنا ان الهرنوة غير القرنوة وان تشابهت اللفظتان والادلة كثيرة وليس هنا محل ايرادها . وانما تا بعنا هنا من يذهب الى ان الهرنوة هي القرنوة

(٢) لا ندري كيف جاز على صاحب البستان ان يقول الهِرنَوة ، بكسر الهاء وفتح النون لان لا وجود لهذا الوزن في لغتنا . نعم عندنا فعلوة (والبعض تقول تفعله) مثل ترقوه وقرنوة وهرنوة (وكلها بفتح الاول وضم الثالث) وفعلوة بضم الاول والثالث مثل عنصوة . اما الفعلوة بكسر الاول وفتح الثالث فلم نعثر على مثال لموزونه . ولعل هنالك الفاظا نجهلها . ولذا لم نجد مسوغاً لما ذكره صاحب البستان.



تعريب الاسماء الاعجمية

للفريق امين باشا المعلوف [1]

ليس غرضي من كتابة هذه السطور البحث في جواز التعريب او عدم جوازه فقد بحث في ذلك كثيرون قبلي ووفّوا الموضوع حقهُ انما غايتي ذكر بعض الاصول التي يجب مراعاتها في نقل الاسماء اليونانية واللاتينية ولا سيما الاعلام والاسماء العلمية فان اكثر المعرّبين في ايامنا ينقلون عن الانكليزية او الفرنسية فيكتبون هذه الاسماء كما تلفظ في احدى هاتين اللغتين غير ملتفتين الى اصلها فيقولون مثلاً بلين Pline او بلني Pliny عوضاً عن بلنيوس Plinius كما هو في الاصل. ويقول بعضهم جوليان وطراجان وجوستنيان وجوليوس او جول بالجيم وصوابها بالياء كما هي في الاصل وكما كتبها العرب فيقال يوليانس وطرايانس ويوسطنيانس ويوليوس فهؤلاء القياصرة لم يكونوا من الانكليز ولا من الفرنسيين بل من الرومان. ويقول البعض اشيل Achille وارشيلوك Archiloque وشلسس Chalcis وبارنشيما Parenchyma وتريشين Trichine وتاشيكاردي Tachycardie وصوابها اخيل او اخلّس او كلّس وارخيلوخس او اركيلوكس وخلكيس او خلقيس وبارنخيما او بارنكيما وتريخينا وتاخيكارديا اما بالخاء او بالكاف والخاء اقرب الى الاصل. ويقولون جرام وجراموفون وسيماتوجراف بالجيم وصوابها بالغين. ويقولون برنيس Bérénice والسيبياد Alcibiade وسيرل Cyrille وسيرين Cyrène بالسين نقلاً عن الفرنسية وصوابها بالقاف او بالكاف فيقال برنيقة والقيبياذس وكيرلّس وقورينا او القيروان كما ورد في المؤلفات العربية القديمة [2] ويقولون انازاركا Anasarca بالزاي وصوابها اناساركا بالسين لان اللفظة ليست فرنسية حتى يتحول الحرف s فيها z في اللفظ ومثلها فيزيولوجيا وصوابها فيسيولوجيا واوروزيوس Orose وصوابها اوروسيوس كما في المؤلفات القديمة. ويقولون انوري Anurie وبوليوري

---

(١) نشرت هذه المقالة في مقتطف يونيو ويوليو ١٩١١ وقد اعدنا نشرها هنا لتجدد العناية بالموضوع

(٢) مدينة القيروان في تونس مصرها العرب واسمها مأخوذ في الاصل من قورينا أو القيروان التي في برقة والتي لا تزال اطلالها ماثلة

Polyurie وانيمي Anémic نقلاً عن الفرنسية وصوابها انوريا وبوليوريا وانيميا والاصلح ابدال الالف في اواخر الامثلة المتقدمة بالتاء اي الاصلح ان يقال بارنخيمة وتريحينة وتاخيكاردية وفسيولوجية وانورية وبوليورية وانيمية الخ

والكلمات التي ذكرتُ انها تكتب خطأً والتي سأذكرها منقولة عن مؤلفات حديثة . وسأذكر في ما يلي بعض القواعد التي جرى عليها العرب في نقل هذه الكلمات وامثالها واذكر الكلمات اليونانية بحروف لاتينية او بصيغتها اللاتينية او الفرنسية او الانكليزية واذكر الكلمات اللاتينية اما بصيغتها اللاتينية اوكما يكتبها الانكليز والفرنسيون لكي يسهل على جمهور القراء قراءتها

﴿ القاعدة الاولى ﴾ حرف غمَّا اليوناني يقابله حرف g في اللاتينية واكثر اللغات الاوربية ومخرجهُ في اليونانية بين الغين العربية والجيمين اي الجيم المصرية والجيم السورية كما ذكر البستاني في مقدمة الالياذة فمتى ورد في لفظة يونانية او يونانية الاصل يعبَّر عنهُ بالغين ما لم يكن بعده حرف i او حرف e . مثال الاول لغة Logos غراماطيق Grammatica غلوكوس Glucose فلغموني Phlegmone بلغم Phlegma فيثاغورس اغامنون غريغوريوس غراموفون الخ . ومثال الثاني اسفنج Spongia ديوجنيس او ذيوجانس Diogenes فرجية Phrygia جرجس Georgios سرجيس او سرجيوس Sergius هدروجين اكسجين فيلولوجية جولوجية Geologia هستولوجية . وقد اجتمع المثالان في جيوغرافيا او جاوغرافيا Geographia كما في المؤلفات القديمة او جغرافية كما نكتبها الآن

وقد جرى العرب على هذه الطريقة في نقل الاسماء اليونانية وجرى عليها اكثر الكتاب في عصرنا على ان بعضهم يعبر عن هذا الحرف اليوناني بالجيم ولا بأس بذلك لو كان اكثر المتكلمين بالعربية يلفظون الجيم حلقية كما يلفظها سكان القاهرة وبعض مدن الوجه البحري وبعض قبائل العرب وهم لا يزيدون على اربعة ملايين او خمسة والناطقون بالعربية يبلغون الخمسين مليوناً او اكثر وهم يلفظونها اما شجرية كأهل الصعيد وأكثر عرب البادية او مخففة كبعض العامة من اهل الشام . ولنس بحثي الآن في صحة لفظ الجيم ولا كيف كان يلفظها عرب الجاهلية او بعض قبائل العرب بل بحثي في صحة نقل هذا الحرف اليوناني وكيف كان العرب ينقلونهُ الى لغتهم . والمصري الذي يلفظ الجيم حلقية لا ينفر من هذه الالفاظ اذا كتبت بالغين اما الذي يلفظ الجيم شجرية او مخففة فيجد هذه الالفاظ غريبة جداً في سمعهِ متى كتبت بالجيم

واذا كان الحرف اليوناني غمَّا مزدوجاً او مشدداً ابدل الاول منهما بالنون مثل الاسفنج

والانجيل وهما في الاصل اليوناني بهذا الحرف اي غمًّا مشدداً وقس على ذلك انكليلوسس وانكيلوستومة اي المحجنة الفم وغيرها وهي قاعدة عند الذين نقلوا الالفاظ اليونانية الى اللاتينية

ولم يكن ما تقدم مطرداً عند النقلة من العرب فقد كتبوا جالينوس Galenus وبرج Pyrgos وجبسين وجص Gypsum وسلجم Salgama[1] بالجيم لا بالغين وكتبوا الغرنوق Geranos بالغين لا بالجيم . ولعل الذين عربوا جالينوس وجبسين وسلجم وامثالها اولاً من نقلة السريان فكتبوها بالجيم لان الجيم تلفظ بالسريانية كالجيم المصرية

بقيت الاسماء الاعجمية التي ليست من اصل يوناني والتي يلفظ فيها هذا الحرف كما تلفظ الجيم المصرية فبعض النقلة يعبرون عنهُ بالجيم وعليهِ اكثر المصريين فيقولون جلادستون وجرانت وجردنر وجوردون وبعضهم يعبر عنها بالغين فيقولون غلادستون وغرانت وغردنر وغردون وافضل التعبير الثاني للسبب الذي ذكر آنفاً . ولا بد من مراعاة الذوق والمألوف في هذا التعبير فقد الف النظر كتابة اسم ونجت بالجيم وغردون بالغين

ولا يخفى ان هذا الحرف يلفظ احياناً عند الافرنج كالجيم الشجرية او كالجيم المخففة عند بعض السوريين فسردار الجيش المصري مثلاً اسمهُ السر رجنالد ونجت[2] بلفظ الجيم الاولى شجرية والثانية حلقية فيفضل كتابة اسمهِ هكذا « السر رجنالد ونغت » للتمييز بين اللفظين . ثم عند الافرنج ايضاً حرف j فلو عبرنا عن حرف g بالجيم فبماذا نعبر عن حرف j كقولنا جونسن وجان وجاك وما اشبه

وأما معظم الالفاظ الواردة في التوراة والتي يكتبها الافرنج بهذا الحرف اي « G » فانها تكتب بالجيم لان هذا الحرف يلفظ بالعبرانية والسريانية كالجيم المصرية مثال ذلك جبرائيل وجبريل وجلجثة وجهنم والجليل وجيحون وغيرها وهي كثيرة جدًّا

اما الكاف الفارسية وتلفظ كالجيم المصرية فكان العرب يعبرون عنها بالجيم فقالوا جلّنار في « كلنار » وجاموس في « كاوميش» وجوز في « كوز» وجندبيدستر في « كندبيدستر » الخ . وعبروا عنها احياناً بالكاف فقالوا كزمازك او جزمازك وهو عفص الطرفاء معرب كزمازو ولا يخفى ان في العربية الفاظاً كثيرة تكتب احياناً بالقاف وأحياناً بالجيم منها القت والجت والجرجس والقرقس

---

(١) ويقال شلجم بالشين المعجمة ويقال عند عامة البغاددة شلغم وقد تكون اللفظة معربة كما قال الاب انستاس او انها فارسية (انظر الالفاظ الفارسية المعربة مادة شلجم)

(٢) يوم كتابة هذه المقالة اي سنة ١٩١١

﴿ القاعدة الثانية ﴾ حرف ذلتا اليوناني يقابله d في اللاتينية وغيرها ويلفظه اليونان كما تلفظ الذال المعجمة فتى ورد في اسم يوناني او يوناني الاصل يعبر عنهُ بالذال المعجمة او بالدال المهملة والاول اشهر واصح . مثال الاول اوذيمة œdema اي الورم الرخو او الانتفاخ وابيذيمية Epidemia اي الوباء وارستيذس والقيبياذس وذيوجنيس . ومثال الثاني الدوسنطارية والاسكندر والدلفين

***

اما كتابة اوزيما بالزاي كما في كثير من المؤلفات الطبية الحديثة فلا مسوغ له مطلقاً ومثله كتابة غلغموني بدل فلغموني بالفاء ولا ادري مصدر هذا الخطأ ولعله طبعة ابن سينا في رومية . واقبح منهُ قولهم الفتق الاوربي والحمض الكبريتيك وصوابها الفتق الأُربي نسبة الى الأُربية اي اصل الفخذ والحامض الكبريتيك . فالحمض بهذا المعنى لا هو عربي ولا اعجمي وكأنهم قاسوه على الملح

﴿ القاعدة الثالثة ﴾ حرف ثيتا اليوناني يقابله الحرفان th في اللاتينية واخواتها ويلفظه اليونان كالثاء العربية ويجب ان يعبر عنه بها مثال ذلك : ثيوفيلوس او ثاوفيلس وفيثاغورس وثوموس او ثيمس Thymus وهو الصعتر . على ان العرب كانوا يعبرون عن هذا الحرف بالتاء احياناً فقالوا تاوفيلوس عوضاً عن ثاوفيلوس وذكر ابن البيطار الثيموس بالثاء وبالتاء ولعل امثال هذه الالفاظ كانت بالثاء في الاصل فجعلت الثاء تاءً بتلاعب النساخ

﴿ القاعدة الرابعة ﴾ حرف «كپّا» اليوناني يقابلهُ حرف C في اللاتينية واخواتها فكان الرومان يعبرون عنهُ بهذا الحرف ويلفظونهُ كالكاف العربية اينما ورد وسواءٌ جاءَ بعدهُ حرف ساكن مثل هرقل Heracles أو حرف علة مثل كبدوكية Cappadocia ومقدونية Macedonia فيجب ان يعبر عنهُ بالكاف او بالقاف في الالفاظ اليونانية أو الالفاظ التي من أصل يوناني سواءٌ لفظهُ اللاتين المحدثون كالكاف أو كالشين المعجمة أو لفظهُ الانكليز والفرنسيون كالكاف او كالسين المهملة . مثال ذلك القيفال وهو عرق في الذراع من Kephale باليونانية أي الرأس لان القدماء كانوا يفصدونهُ لعلل الرأس ومنهُ Cephalus باللاتينية والالفاظ الفرنسية والانكليزية المشتقة منها . ومثلهُ القنطاريون Centaurium وهو نبت مشهور والقراصية والكرز Cerasia وهما صنفان من الثمر أو الشجر والقيروطي Cerote وهو صنف من المرهم والقيلة Cele كقولنا قيلة مائية Hydrocele لداءٍ معروف وقيطس Cetus وهو الحوت اسم لصورة من صور السماء ومقدونية أو مكدونية Mecedonia وخلكيس Chalcis أو خلقيس وهي المدينة التي توفي فيها ارسطو وكيرلس Cyrillus وهو اسم مشهور وبرنيقة أو برنيق

Berenice وهو اسم لعدة مدن في مصر وافريقية . وقبرس Cyprus وكيليكية Cilicia وهي بلاد في الاناضول الخ . فلا يقال شلسبس مثلاً بل خلكيس أو خلقيس كما جاء في المؤلفات العربية وكذلك لا يقال القديس سيريل كما ورد في اكثر الجرائد يوم اهدى ملك البلغار نشان القديس كيرلس الى جلالة السلطان بل يقال القديس كيرلس ولا عذر في جهل هذا الاسم على شهرتهِ في الشرق . ولا يقال البرنيس كما في احدى الخرائط الحديثة بل برنيقة أو برنيق كما في معجم ياقوت ولا يقال للدروب التي في بلاد الروم ابواب سيليسيا بل أبواب كيليكية

***

اما الاسماء العلمية الحديثة التي عُبّر فيها عن هذا الحرف بالسين فلا سبيل الى اصلاحها لان السمع قد الفها ولان الافرنج يلفظونها كذلك مثل سيروز الكبد اي تشمعهُ وصوابها كيروسس وسيماتوغراف وصوابها كيماتوغراف كما يكتبها الافرنج احياناً

﴿ القاعدة الخامسة ﴾ كان الرومان كما تقدم يلفظون حرف c كالكاف أو القاف اينما ورد سواء جاء بعده حرف ساكن او معتل كحرف i أو e أو æ أو y بدليل قول العرب قيصر Cæsar لاسيزر أو تشيزر ولو قالوا احياناً شيزر كما قال امرؤ القيس في ذكره مدينة شيزر أو حصن شيزر وفسقية Piscina وقول اليونان كيكرون Kikeron لا سيسرون وقول الالمان Kaiser . ثم تغير لفظ هذا الحرف في القرن السابع المسيحي فصار مثل لفظ ch بالانكليزية في قولنا China وذلك في الاحوال التي يلفظ فيها كالسين في الانكليزية أو الفرنسية اي قبل i و e و æ و y فكانوا يقولون تشيتشرون مثلاً عوضاً عن كيكرون فيجب ان يعبر عن هذا الحرف في الاعلام اللاتينية بالكاف أو بالقاف دائماً فيقال قيصر Cæsar وكيكرون Cicero واسيقيبيون Scipio ولا بأس بقولنا شيشرون وشيبيون لكن كتابة هذين الاسمين بالسين لا مسوّغ لها مطلقاً . اما سبب اضافة حرف النون بالعربية فسيأتي ذكره

ويظهر ان اللاتين كانوا يلفظون هذا الحرف في زمن ابن البيطار كالشين أو كالجيم الشجرية متى جاء بعده احد الاحرف التي مرّ ذكرها فانهُ سمى زيز الحصاد جيقال Cigale وقال ان اهل صقلية يسمون القراصية جراصيا

﴿ القاعدة السادسة ﴾ حرف j ليس من الحروف اللاتينية وهو حديث في اللغات الاوربية ادخل اليها في القرن الرابع عشر ولم يعم استعمالهُ فيها قبل اواسط القرن السابع عشر ولم يكن فرق بينهُ وبين حرف i في بادىء الامر ثم تحوّل لفظهُ في الفرنسية والانكليزية الى ما نعهدهُ فيهما الآن وبقي بعض الكتّاب يرسمونهُ في الالفاظ اللاتينية عوضاً عن حرف i في بعض مواضعهِ اي متى كان لفظهُ كالياء العربية مثل يوليوس Julius ويسوع Jesus ويوبتر

على ان اكثر المؤلفين في ايامنا يكتبون امثال هذه الكلمات بحرف i كما كان يكتبها Jupiter الرومان فيقولون Iulius و Iupiter و Iesus فيجب ان يعبَّر عن حرف i متى ورد في الالفاظ اللاتينية بالياء مطلقاً لانهُ في الحقيقة i لا j فرنسية او انكليزية فيقال يوليوس لا جوليوس وبهِ سمي شهر يوليه ونكتبهُ بالياء ويونون Juno لا جونو وبها سمي شهر يونيو وطرايانس Trajanus لا طراجان ويوسطنيانس او يوستنيانس لا جوستيان ويوليانس لا جوليان ويوبتر لا جوبتر وامثال ذلك كثيرة

ولا يزال بعض الاوربيين يعبرون عن الياء في كثير من الاسماء الشرقية بهذا الحرف مثال ذلك يوسف Joseph يهوه Jehovah ياسمين Jasmine بيازيد Bajazet يافا Jaffa اليابان Japan الخ . ويلفظهُ الالمان والطليان ومعظم الاوربيين كالياء العربية فيكتب الالمان اسم ياقوت Jakut ويكتبهُ الانكليز Yacut ولا يزال الانكليز يلفظون كلمة Hallelujah كما نلفظها بالعربية اي بصوت الياء لا بصوت الجيم. كذلك سرايفو فيجب كتابتها بالياء لا سراجيفو واسمها عند الترك بوسنه سراي ومثلها يوغوسلافية لا جوجوسلافية او جوغوسلافية

﴿ القاعدة السابعة ﴾ ليس في الحروف الهجائية اليونانية ما يقابل الهاء العربية الاّ علامة كانوا يضعونها قبل حرف العلّة الثقيل ويعبّر عنها الافرنج بحرف h وكان كتّاب العرب يعبرون عنها بالهاء غالباً مثل هوميروس Homerus وهرقل Heracles وهيرودوتس Herodotus فيجب ان تضاف الهاء في تعريب هذه الاسماء كما يفعل الافرنج وكما كان شائعاً عند اكثر كتّاب العرب فيقال هوميروس لا اوميروس او اومير وهدروجين لا ايدروجين وهدروكلوريك لا ايدروكلوريك سواءٌ لفظ الفرنسيون هذا الحرف او لم يلفظوهُ . على انّ كتّاب العرب لم يجروا على ذلك دائماً فقالوا اوميروس وهوميروس وابقراط Hippocrates وابرخس Hipparchus وادرة Hydra وهو داءٌ معروف وايرونيموس Hieronymus وهو اسم قديس مشهور يكتبهُ الانكليز Jerome والفرنسيون Jérôme ويعربهُ اكثر الكتّاب خطأً جروم وصوابهُ ايرونيموس اوهيرونيموس

﴿ القاعدة الثامنة ﴾ حرف أُبسلون اليوناني يعبّر عنهُ في اللاتينية وغيرها من اللغات الاوربية بحرف y وكان اكثر كتّاب العرب يعبّرون عنهُ امّا بالواو او بالضمة فقالوا قُبْرس Cyprus وادرة Hydra ودوسنطاريا Dysenteria وغلوقوريزا Glycyrrhiza اي عرق السوس وبولوغالن Polygala وبولوبوديون Polypodium وثومس Thymus وفارونوخيا Paronychia وكلها انواع من النبات وبوريطس Pyrites وهو ضرب من المعادن واللورة Lyra وهي من صور السماء. وعبروا عنهُ احياناً بالياء فقالوا كيموس Chymus وفريجية وكيرلّس وفيثاغورس وقال بعضهم فوثاغورس . والغالب في تعريب هذا الحرف اليوناني ان يكتب

بالواو او بالضمة وقد عبّر عنهُ في الالياذة العربية بالياء او بالكسرة في اكثر المواضع واظنهُ اخف على السمع

﴿ القاعدة التاسعة ﴾ تعرَّب الاسماء اليونانية واللاتينية كما هي في حالة الرفع لا كما يكتبها الفرنسيون او الانكليز في بعض الاحيان فيقال مثلاً فيثاغورس لافيثاغور وهيرودوتس لا هيرودوت واقليدس لا اقليد وهوميروس لا اومير وبلنيوس لا بلين عن الفرنسية او بلني عن الانكليزية. ولا بأس ببتر بعضها كما كان يفعل العرب احياناً فيقال هرقل وثيوفيل وارسطو وسقراط وابقراط عوضاً عن هرقلس وثيوفيلوس وارسطوطاليس وسقراطس وابوقراطس . ولا ارى ذلك مستحسناً الاَّ في الالفاظ التي كتبها العرب كذلك

ولا بد من ملاحظة الاسماء التي تنتهي بالحرفين on في اليونانية وبحرف o في اللاتينية فالاسماء اليونانية التي تنتهي كذلك كان الرومان يحذفون حرف n في حالة الرفع فيكتبون Platon مثلاً Plato وكان اليونان يضيفون حرف n على الاسماء اللاتينية التي تنتهي بحرف o في حالة الرفع فيكتبون لفظة Cicero اللاتينية Kikeron لان هذا الحرف اصلي في اللاتينية يظهر في حالة الجرّ مثل قولنا Ciceronis . فيجب ان نلحق هذه الاسماء كلها بحرف النون كما كان يفعل العرب واليونان وكما يفعل الفرنسيون فيقال نيرون Neron في Nero وافلاطون Platon في Plato وابلّون او افلّون Apollon في Apollo ولاون Leon في Leo وشيشرون Ciceron في Cicero ويونون واسترابون لانيرو وبلاتو وابلّو وليو وسيسرو وجونو واسترابو كما يكتبها الانكليز

﴿ القاعدة العاشرة ﴾ حرف خي اليوناني يقابلهُ ch في اللاتينية وهو قريب في اللفظ من الخاء العربية فيجب ان يعبر عنهُ بها كما كان يفعل كتّاب العرب . مثال ذلك ملنخوليا Melancholia وارخيلوخس Archilochus لا ارشيلوك وفلوطرخس لابلوتارك وارخميدس لا ارشميد واخلّس او اخيل لا اشيل وخلكيس او خلقيس (Chalcis) لاشلسس وتريخينا (Trichina) لا تريشين وتاخيكارديا (Tachycardia) لا تاشيكاردي

***

على ان هذه القاعدة لم تكن مطردة عند كتّاب العرب فقد عبروا عن هذا الحرف اليوناني بالكاف في بعض الاحيان فقالوا انطاكية بالكاف وانطيوخس بالخاء والبطريرك بالكاف وقالوا ترّكلّس والكيموس بالكاف وربما عبروا عنه بالقاف فقالوا القرن (Chronos)والقرطاس (Chartes) ثم عادوا وقالوا الخريطة وقال المحدثون الخارطة وهما والقرطاس من اصل واحد . ورأيت اسم ارخميدس في تاريخ الحكماء لابن القفطي مكتوباً ارشميدس . وكل ذلك نادرٌ

ولا اريد انهُ يجب التعبير عن هذا الحرف اليوناني بالخاء دائماً فلا بأس بكتابتهِ بالكاف لا سيما في الالفاظ التي الفها السمع والتي تلفظ كذلك عند الافرنج مثل كرونومتر ولكن كتابة اخيل وارخيلوخس وخلكيس بالشين قبيحة جدًّا بعد ما كتبت هذه الاسماء وامثالها بالخاء مئات السنين

﴿ القاعدة الحادية عشرة ﴾ الاسماء اليونانية واللاتينية تلفظ كما تكتب تماماً ولا يتغير لفظ حروفها فيجب نقلها الى العربية كما هي بصرف النظر عن اللفظ الانكليزي او الفرنسي كما في كثير من الامثلة التي مرَّ ذكرها . وقد بقيت امثلة اخرى قلّما ينتبه لها فالانكليز مثلاً يقولون هياشيا (Hypatia) ويقول الفرنسيون إباتي (Hypatie) لكن يجب ان يكتب هذا الاسم كما هو تماماً اي هباتيا بالتاء كذلك دلماتية او دلماطية ومثل ذلك فسيولوجية وبلاسمة واناساركة واوروسيوس وامبروسيوس يجب ان تكتب كلها بالسين لا بالزاي اي كما هي في الاصل وكما كتب العرب امثالها فقالوا فيلسوف لا فيلوزوف

***

هذا ما رأيت ذكره في هذا الباب وقد بقيت اصول غير هذه يجب ملاحظتها في التعريب اضربت عن ذكرها لشهرتها منها التعبير عن حرف p بالفاء في اكثر الاحيان كقولنا افلاطون وفيثاغورس وبعض الكتّاب في ايامنا يستعيضون عن الفاء بالباء الفارسية . ومنها التعبير عن حرف v بالواو كقولنا والنتينوس وبعضهم يعبر عنه بالفاء المثلثة . ومنها عدم الابتداء بالساكن بالعربية فامّا ان يحرَّك الساكن او تضاف همزة قبلهُ ولذلك قالوا الاسقنقور والسقنقور

ولا اريد في ما تقدم انهُ يجب رد الاعلام الحديثة الى اصلها اللاتيني او اليوناني متى نقلت الى العربية فاسم السر جون سَيْمون مثلاً يجب ان يكتب كما يلفظهُ الانكليز لا ان نردهُ الى اصلهِ ونقول السر يوحنا سمعان ومثله مارك وانطوان والطوني وماركو بولو واشيل متى كانت اسماء اشخاص من المحدثين فيجب ان تكتب كما تلفظ في لغات اصحابها لا كما كان يلفظها اليونان او الرومان . اما اذا كانت اسماء اشخاص من اليونان او الرومان فيجب ان تكتب كما كان اليونان او الرومان يلفظونها ولا سيما متى كانت مكتوبة كذلك في المؤلفات العربية القديمة

الجسد والروح

والانانية وتحقيق الذات

لعلي أدهم

يعزو بعض الاخلاقيين قصور الانسان عن بلوغ الكمال واستجابتهُ لداعي الهوى وقابليتهُ للسقوط الى تغلب الجانب الحسي من الانسان على الجانب الروحي . وذلك لان الشهوات تعتاق تقدم الروح وترصد لهُ الموانع والعقبات . ولو تخلص الانسان من اسار الجسد لاتسعت حدود حياتهِ الروحية ورحبت آفاقها ولولا الجسد لما تكدرت الطبيعة الروحية وظلت صافية لا يميل بها مُميل ولا تستذلها شهوة

وتاريخ كل انسان حرب لا سلام فيها ولا مهادنة لمقاومة طائش الرغبات وهوج العواطف بل هي حرب بين قوتين غير متعادلتين . احداهما كاملة الاهبة بصيرة بمواضع الهجوم ونواحي الضعف والاخرى ضعيفة الحول قليلة الحيلة . لان اجابة مطالب الجسد سريعة مباشرة وتلبية مطالب الروح عسيرة بعيدة المنال . وتقدير الخير والاحساس بجمال الحياة الروحية يحتاج الى رياضة شاقة وشحذ للذكاء وعزيمة مصممة وجأش ربيط . والحياة تسير في بادىء الامر سيرها الطبيعي فاذا سمت وتهذبت بدأت سيرتها الروحية . فحياة الطفل او حياة القبيلة شبيهة بحياة الحيوان حيث تستبد الميول الجسدية قبل ان يعلن العقل سيطرتهُ ويتم تهذيب الروح . وما دام الامر كذلك فمن السهل ان يذهب بنا التفكير الى ان الانسان اذا اراد ان يسمو بالروح وينشد الكمال فلا مفرّ لهُ من قمع الشهوة وتعذيب الجسد استنقاذاً للروح واحتفاظاً بحرية العقل . ومن هنا نشأت فكرة الزهد ونمت وترعرعت وازدهرت وبسطت ظلالها الكثيفة وسلطانها الضخم . واشتد الميل الى الانصراف عن مناعم الحياة ومفاتن الوجود واعتبارها رجساً من عمل الشيطان ينبغي لكل من اراد ان يفتدي روحه وينجو بنفسه الفرار من غوايتهِ واتقاء شباكه . واكبر انتصار يحرزه الانسان في هذه الحياة الفانية هو التغلب على الجسد ونبذ مسراتهِ واخماد حيويته

وانك لتلتقي بصور شتى وضروب مختلفة من هذا المظهر في متفرق الازمنة ومنثور الامكنة . وتصادفه قاعدة للحياة وقانوناً مطرداً في الهند بين البوذيين وعند بعض الطوائف المسيحية . وتاريخ الثقافة الغربية من القرن الرابع الى اواخر العصور الوسطى يريك العجب العجاب من تأثير فكرة الثورة على الجسد ويكشف لك عن مظهر مروع من مظاهر تلك الحرب

الشعواء التي اعلنت على الاهواء والشهوات . ويريك كيف استشرى هذا الداء الوبيل وذاعت عدواه من مكان الى مكان دون ان يصده حاجز وكيف اذبل كل نضارة وعصف بكل جمال وشوّه كل متعة وكاد يقضي على الحضارة ويغير النفوس لولا نهوض احرار المفكرين وثورتهم على سننه وشرائعه

وعند ما نكرّ الطرف في نواحي الماضي ونتأمل هذه الحالة المفجعة يخالجنا الاسف ويحتوينا العجب . الاسف لهذه الضحايا البشرية التي ذهبت فريسة فكرة خاطئة . والعجب لان ذلك مخالف لكل المبادئ الاساسية التي تقوم عليها الحضارة لان الحضارة قائمة على الرغبة في اطالة الحياة والعناية بها وتعميقها وتخفيف ويلاتها وجعلها جميلة محبوبة . والكفاح المستمرّ بين الفرد والفرد والامة والامة سببه الحقيقي هو رغبة كل فرد في ان يزيد ثروته وينمي ممتلكاته المادية والروحية حتى يحصل على اوفى نصيب من الحياة بتقليل الآلام وتوفير اللذة . وكل مخلوق يحاول ان يعبّ من المسرات وينعم باللذات ويتملى من جمال الحياة ويحظى بالسعادة على حين ترى هؤلاء الصادفين عن الحياة يزيدون حياتهم ظلاماً وضيقاً ويفرّون من اللهو البريء والسرور الطبيعي فرارهم من الوباء ويأبون الاّ ان يزيدوا هذه الحياة الحافلة بالمتاعب والهموم بلاءً على بلاء وكمداً على كمد

تلقاء هذه الحالة النفسية المخالفة لمقتضيات الحضارة ومطالب العقل يجب ان نتريث قليلاً لنرى علة نشوئها وهل هي جنون فجائي وهوسة عارضة ? وكيف وقع تحت تأثيرها رجال لا نشكّ في نبل نفوسهم وعظمة اخلاقهم وجلال تضحيتهم

منذ بدأ الانسان يأخذ باسباب الحضارة ويتدرج في الرقي وتشتدّ به الرغبة في المعرفة ، معرفة نفسه ومعرفة ما حوله نشأ فيه عاملان . عامل الرغبة في طلب « السبب » او « العلة » وعامل الرغبة في فهم « الغاية » . فالانسان كلما صادفته صعوبة او عرض له مشكل محير جعل يسأل نفسه ما السبب الذي جعل الاشياء هكذا وما الغاية من وجودها ويتردد بين « من أين » و « الى أين » . وهناك فارق كبير بين هاتين المسألتين . لان المسألة الاولى مسألة منطقية وطلب حلها مسألة تلتقي فيها الآراء ويتفق عليها . أما مسألة الغاية فهي مسألة ادبية اخلاقية متوقفة على درجة الانسان من الرقي ونصيبه من الادراك . وقوانين المعرفة المسيطرة على العقل تتطلب أن يكون لكل شيء سببه ولا يمكن ان نتصور شيئاً ليس لهُ سابق سبب . ويمكن ان نتصور الدنيا حلقة متصلة من الاسباب دون ان يكون لها غاية ولكن هذا لا يرضي في نفوسنا الحاسة الاخلاقية لان الحياة بلا غاية في نظرنا باطل الاباطيل وقبض الريح وافتراض غاية للحياة لازم من النظر الفردي لان حياة الفرد مرة قاسية ومعرفة الاسباب لا تقنع القلب ولا تشفي الغلة ولا مفر لنا من ان نتساءل دائماً ما هي الغاية ?

والبعض عند ما يعجزون عن ادراك هذه الغاية يستولي عليهم اليأس ويعتقدون ان الانسان

كالحيوان يأكل ويشرب ويلهو وغداً يطويه الموت ويفرقه العدم . فمن كان نصيبه من الحياة حسناً فليهنأ به ومن ساء منها نصيبه فليألم في صمت لانه لا حق ولا عدالة ولا غاية في حكومة الدنيا وما هي الا سلسلة أبدية من الاسباب

ولكن هذه الفلسفة اليائسة الحزينة التي تجرد الحياة من البهاء وتنفي عنها أسباب العزاء لا ترضي الكثيرين اذ لا يجدون فيها بلسماً لآلامهم ولا مرهماً لجراحاتهم لانها تترك الانسان على عجزه ووهنه وقصر حياته منفرداً مع الفناء يواجهه من ناحية الابد القصي ومن ناحية الازل السرمدي . وهنا يفرّ الانسان من هذا الموقف الذي يصعب احتماله ويصور لنفسه وجود عالم غير هذه الدنيا وينقل محور اهتمامه من الجسد الى الروح . وهذا الجسد المقضي عليه بالعدم هو لباس الروح الخارجي الوقتي والروح لا تموت مع الجسد لانها ليست فانية مثله . وهذه النفس الخالدة هي الجديرة بالرعاية والخليقة بالتمجيد ولها مستقبل زاهر في عالم اصفى من هذا العالم وفي حياة اسعد من هذه الحياة وادي الدموع ومراح الاباطيل والخيالات . والآن وقد قسم الانسان نفسه الى جسم وروح يسترسل مع منطق هذه الفكرة حتى يرسخ في نفسه الاعتقاد بان الجسد هو عدو الروح الابدي وخصمها اللدود وانه هو الذي يقطع عليها سبيل الكمال المنشود بمطالبه الحقيرة وغاياته المسفة فعلى الروح اذن قهره واذلاله

وغير خاف ان المقصود بهذه الفلسفة هو العزاء والسلوى ولذلك لما تفاقمت بلايا الحياة وعظمت ويلاتها وضاقت سبل الفرج اشتدت الحاجة الى هذا العزاء وقويت الرغبة في اماتة الشهوة واجتثاث اصولها ويبدو ذلك واضحاً في العصور السوداء المظلمة عندما يغمر الانسانية الشقاء وتطغى عليها البأساء والنوائب دون ان تجد مخلصاً

ونرى من خلال ذلك موقفين اقتضتهما متاعب الحياة وضروراتها . وهما موقفان متناقضان . الموقف المادي الذي يجعل الجسم كل شيء ولا يرى غاية للحياة سوى ارواء شهواته والاستمتاع باللذة حتى يحين الموت ويضع حدًّا لهذه اللعبة السخيفة . والموقف الروحي الذي يعمد الى قهر البدن لتتخلص الروح وتقرب من الغاية الابدية

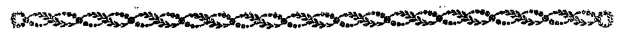
والمشكل الآن هو هل قضي على هذين العنصرين المكونين للانسان — العنصر المادي والعنصر الروحي – ان يظلا متضادّين متعاكسين لا يطلب لاحدهما الحياة الاّ بسحق الآخر؟ اني أعتقد بامكان التوفيق بينهما وارجح ان الملاءمة بينهما ليست من قبيل المساومة الحقيرة او المحالفة الموقوتة بين الخصمين وانما هي وحدة داخلية لازمة لان العامل الروحي يستطيع ان يرسل اشعته في نواحي الحياة المادية ليطهرها ويسمو بها . وهذا التحالف لا يدنس الروح وانما يسمو بالجسد وعندما يكمل كل منهما الآخر يدنوان من الكمال . واذا لم اكن قد اسأت الفهم فان مثل هذا التوفيق بين مطالب الروح ومطالب البدن هو ما يرمي اليه شاعر الهند تاجور في كتابه القيم « سعد هانة »

ومما يدعو الى التشكيك في الرأي القائل ان مصدر سقوط الانسان هو الجسد كون كثير من العيوب والنقائص الاخلاقية لا صلة لها بطبيعة الانسان الحسية مثل الكبرياء والطمع والبخل والانانية والحسد والانتقام . بل بعض اللذات الحسية تستهوي الانسان لبواعث غير حيوانية . فالانسان قد يتعاطى المسكرات لينسى همومه أو ليستحث خواطره . وبعض العيوب الاخلاقية تقاوم الميول الجسدية وتفوقها فان البخيل قد يسبق الزاهد المستعبد في الحرمان وانكار النفس . ومن ثم تبدو لنا جلية ناصعة هذه الحقيقة التي كلف جهلها الانسانية الكثير من الآلام والعذاب والمسخ والتشويه وهي ان اخماد الرغبات الطبيعية لا يجيء بالغاية المنشودة . بل ربما جاء بنقيضها . وللرغبات الانسانية شأن كبير في الحياة الادبية والروحية . والجسد الذي نحاول قهره يمكن ان يصير اكبر نصير للروح في بلوغ مطالبها . واستغلال الميول والشهوات وتسخيرها في خدمة الغايات السامية قد يأتي باعظم النتائج في الحياة الادبية والحياة الروحية . وطبيعة الانسان الحسية وتركيبهُ العصبي وحواسه ومشاعره وشهواته ومراغبه وعلاقته بالوسط المادي ليست في نفسها شرًّا ولا خيراً وانما ملاك الامر على الانتفاع منها وكيفية التصرف بها . فاذا اعتبرت وسيلة من وسائل الروح فانها تجتلب المواد التي يمكن ان يحولها العقل افكاراً نبيلة ومشاعر سامية ورغبات انسانية . ونحن نعلم كل ما نعلم عن الطبيعة من طريق حواسنا فكل ما يسحرنا جماله ويبهرنا جلاله انما هو مواد زودت الحواس بها العقل ليصوغها . ولا يغرب عن البال ان الحياة الادبية الروحية اساسها الحياة الطبيعية المادية . فالحياة العائلية مثلاً التي يحيا فيها الفرد في حياة غيره اساسها الخارجي قائم على لبانات عضوية محضة . ولكنه كما يحيل الفنان الاحجار طرفاً فنية رائعة وكما تخرج قوة النباتات الحيوية من الثرى الوضيع الزهرة والفاكهة فكذلك حياة الزواج تحيل اللبانات والشهوات اهواء نقية وعواطف رقيقة يقوم عليها الشعور القومي والعواطف الانسانية التي تتكون منها لحمة حياتنا الاجتماعية وسداتها

وليست الحياة الروحية الحقة هي الحياة العاطلة من الميول والاهواء فان انبل الطبائع الانسانية وابطال التاريخ ورجال الوطنية واحباب الانسانية كانوا جميعاً من ذوي الاحساسات الحادة المرهقة . بل ان جانباً كبيراً من عظمتهم كان مصدره شدة نبض العاطفة الانسانية في نفوسهم ووفرة احساسهم . وليست الاهواء العارمة والميول العنيفة هي سر عظمتهم وانما سرها هو ان المبدأ الادبي وقوة الارادة والنزعة الروحية مكنتهم من السيطرة على هذه الاهواء المحتدمة وتحويلها الى قوة في خدمة الغايات العليا . وسر القوة على تحقيق المثل الأعلى للطبيعة الانسانية كامن في الارادة لا في سحق البدن والاسراف في تعذيبه . والارادة الخيرة ترى سعادتها في العمل على ادراك هذه الغاية السامية كما ان الارادة الشريرة هي التي تجد لذتها في الغايات الشخصية المحصورة والمآرب الوضيعة . والصلاح

الحق هو التحقيق الصادق للنفس . والفساد العضال والسقوط المزري هو التأكيد الزائف لها واعتبار تحقيق الذات اسمى غاية في الحياة ليس معناه ارجاع الخير الى البواعث الانانية ومخالفة فكرة نزاهة الخير ونقاوة الفضيلة ونقض الرأي القائل بأن انكار الذات هو اسمى ضروب الفضيلة وان تضحية الشهيد ونكران القديس لذاته وتناسي البطل لمصلحته هي اسمى افعال الانسان . ولا مفرَّ لازالة اللبس من التفريق بين الانانية وتأكيد الذات لانهما مختلفان كل الاختلاف ومتناقضان اشد التناقض . وقد اهمل بعض الاخلاقيين هذا التفريق وقالوا بنظرية الانانية العامة وهي التي تركز كل اعمال الانسان دقيقها وجليلها وشريفها ووضيعها على اساس الانانية وتردها الى بواعث المصلحة ودوافع اللذة . فكل عمل يعمله الانسان انما يبتغي به المصلحة ويلتمس من ورائه اللذة . وفعلنا السيء معناه انّنا نستريح لآرائه ونستعذب القيام باعبائه . ونفس الاعمال الشاقة المؤلمة انما نباشرها لأننا نستهين فيها بالآلام ولذة الامتناع ترجح حرقة الألم . وقد نتناول الجرعة المرة من الدواء لأن لذة الاستمتاع بالصحة اعظم من تجرع المرارة . وقد تطيب نفوسنا لتحمل المتاعب في سبيل من نحب . فالوطني الذي يشقى لاجل مبدأ او الشجاع الذي يقدم على التضحية والشهيد الذي يجود بحياته بسبب عقيدته يستشعر كل منهم لذة تفوق الألم الدامي الذي يقاسيه وما دام السرور يدخل في كل باعث انساني وما دامت التضحية نفسها دثاراً لامتاع النفس فالانانية اذن ثابتة وطيدة . ولكن كل هذا ناشىء من الخلط بين الانانية وتحقيق الذات . وقد يستخفنا السرور لتحقيق رغبة ولكن يلزم ان تكون هنالك غاية مطلوبة قبل ان نستشعر اللذة في ادراكها وليس مما يقلل من قيمة الخير ارتياحنا لعمله كما ان الولوع بالاساءة والغرام بالشر من اتم الدلائل على ضعة النفس

ولكن اذا كانت كل اعمال الانسان هي تحقيق للذات من بعض الوجوه فكيف يكون تحقيق الذات مقصوراً على الاعمال الخيرة ؟ والجواب على ذلك ان ما ينبغي تحقيقه هو النفس الفردية . وليس معنى ذلك ان كل عمل يتجه الى مصلحة الفرد يسمى انانية لانه اذا كان المقصود بهذا العمل ان ينمي الفرد استعداده ويكمل من ثقافته ليكون اقدر على النهوض بالغايات الكبيرة والاعمال الباهرة فان هذا يعد من اشرف الاعمال . وأقل الناس نصيباً من الفهم وأضألهم عملاً يمكن ان يسمو في ضوء الواجب وعلى هدى الحب ولكن لا خلاف في ان السياسي المدرب والشاعر العبقري والفنان الموهوب والخطيب المصقع يمكن ان يقوم كل منهم بقسط اوفر وان يقدم تضحيات اغلى قيمة وأبعد اثراً . وكلما عمل الانسان على النهوض بعقله وجسده وتوفير معلوماته وتوسيع ثقافته وبذل الجهد في خلق فردية جميلة منسجمة فانه سيقوم بأجل خدمة لحياة الفكر والروح ويتصل بحياة المجتمع وحياة الشعب عامة وحياة الانسانية جمعاء والتوفيق بين نوازع الروح ومطالب البدن هو الاساس الذي تقوم عليه هذه الحياة الانسانية العالية



القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرض المذاهب السياسية

— ٣ —

﴿السياسة والدين في القرون الوسطى﴾ من اثمن ما خلفته القرون الوسطى من النظريات السياسية اصرارها على ان تكون الاخلاق عنصراً قويًّا في سياسة الدولة فلا تتجرد اعمال السياسيين من تلك السلطة الوجدانية التي يؤدي فقدها الى ما نعانيه اليوم من السياسة المادية التي لا روح فيها او كما يقال ان السياسة عموماً ولا سيما سياسة البسطة والتوسع لا دين لها.

ولكن الناس في تلك الايام افرطوا جد الافراط في ادخال الدين في كل ناحية من نواحي حياتهم فكانوا يأكلون في الدين ويشربون وينامون في الدين فلا جرم ان تكون السياسة ايضاً باباً من ابواب الدين وان تعالج شؤون البشر الدنيوية في فصل من فصوله كما تعالج شؤونهم الاخروية. قال الاستاذ (كول) «وكان الرجل المفكر من اهل القرون الوسطى — وقد بنى مذهبه السياسي على ما تدعيه الكنيسة العالمية من حقها في تسيير الناس على السنّة القويمة — يعالج كل قضية من القضايا السياسية والاقتصادية كأنها قضية اخلاق لاهوتية. ويتجلى هذا الامر في الشؤون الاقتصادية في تلك القوانين المنمقة التي تحرم الربا الفاحش وتعين الاحوال التي يحصل فيها الرجل المسيحي على الربح العادل، وفي الشؤون السياسية في السعي لاستمداد جميع السلطة التي تتمتع بها الدولة وجميع القواعد التي تقوم عليها الطاعة في الرعية من مشيئة الله كما هي متجلية في التوراة والانجيل وفي الملهمات التي هبطت على قلب الكنيسة فنطقت بها، وقد تسربل الادراك السياسي الناهض عند اهل القرون الوسطى بسربال الدين الموحى به والتى هذا الادراك على الآراء المقتبسة من ارسطو ومن الشريعة الرومانية اجازة الكنيسة وتصديقها»

﴿نيكولو مكياڤللي﴾ : ومن الرجال الذين نشأوا في اواخر القرون الوسطى وكتبوا في السياسة على طريقة مبتكرة رجل يدعى (نيكولو مكياڤللي)—(١٥٢٧—١٤٦٩) وهو صاحب كتاب الامير الذي نقله الى العربية الاستاذ محمد لطفي جمعة — وقد عالج فيه القضايا السياسية بنظريات جديدة لا دخل للدين فيها خلاصتها شرح الطرائق الشيطانية التي تمكن الرجل الطموح من التربع على العروش والقبض على الصوالج فنصح بعض الامراء في ايطاليا بان يسيروا

في سياستهم على منهج دنيوي صرف من حيل ودسائس وفتن لم يسبق لها مثيل حتى ان سلطاناً قاهراً عاش في القرن العشرين مثل السلطان عبد الحميد لمَّا ترجم له هذا الكتاب استغواه كثيراً فكان يسترشد به في المدلهمات . وفي عقيدتي ان كتاب «الامير» هذا هو الانجيل السياسي الذي تسير عليه الدول المستعمرة في الشرق ، فما من تفريق بين الاهلين وتسليط طبقة منهم على طبقة اخرى واستنزاف دمائهم جميعاً واخضاعهم للسلطة المحتلة وصرف اذهانهم عن غرضهم الاسمى الا صفحات من هذا الكتاب الغريب كتبت في اوائل القرن السادس عشر (١٦١٣) ونشرت في القرن العشرين . فكياڤللي هو بهذا المعنى رسول المستعمرين الامين وقد علمهم كيف يحفرون هوةً سحيقة بين السياسة والاخلاق وكيف يسوغون غاياتهم بجميع الوسائط مهما كان نوعها وان يشيدوا سلطانهم القاهر — كما يفعل الامير الطموح المجرد من العواطف الانسانية — بالقوة والخداع والقسوة والمراآة والتظاهر بالغيرة الكاذبة

والظاهر ان استفحال المطامع البابوية وحرصها على الاستئثار بالسلطة الدنيوية استئثارها بالسلطة الاخروية وعرضة ايطاليا في تلك الايام للتنازع الداخلي بين صغار الامراء وضعاف الجمهوريات والغزو من الخارج كل ذلك خلق في نفس (مكياڤللي) شعوراً بالحاجة الى اسس سياسية جديدة تسير عليها ايطاليا فيتجدد شبابها ويستقيم امرها وتتحقق وحدتها وتتم سيادتها

ولكن سياسة (مكياڤللي) البعيدة عن الدين لم تؤثر في الخطط التي اختطها زعماء الحركة الاصلاحية الدينية في القرن السادس عشر اقل تأثير ، ولئن كان هذا الاصلاح ثورة على البابوية وسلطانها المزدوج فهو مع ذلك لم يخرج قيد انملة عن سلطة الدين لان اتباع (لوثر) و (كالفن) الزعيمين المصلحين الكبيرين اختاروا الميدان الديني لمبارزة البابوية وصراعها ، لا جرم ان احتاج (لوثر) في مقاومته طموح البابا الزمني الى مناصرة الامراء والملوك وسائر اصحاب المصالح الدنيوية والاستمساك بالدول السياسية الناشئة والاعتماد على امرائها وقد عطف هؤلاء عليه وحدبوا على طريقته المستحدثة لتكون سلطتهم مطلقة في وجه كل من ينازعهم فكأن الحرية الدينية التي الحَّ (لوثر) في ان يتمتع بها كل فرد بحسب وجدانه آلت الى تأييد السلطة الاستبدادية في الملوك . اما (كالفن) في سويسرا فقد نحا نحواً آخر اذ جمع في طريقته بين السلطتين الدينية والدنيوية ورأى من الواجب المحتم ان يقيم دولة سياسية تؤيد الدولة الروحانية فكان في البروتستانية اشبه شيء بالبابا في الكثلكة وكانت دولته ارستقراطية خاضعة لطبقة القديسين خضوع الدول الحاضرة للرأسماليين ، على انها في التحليل النهائي كانت قائمة على تأييد الشعب فهي بهذا المعنى ديمقراطية . وقد تركت اثراً ظاهراً في تلك الايام بما شجعت من حكم ذاتي واستقلال محلي في الانحاء التي لم تتمكن فيها من انشاء حكومة على الاسس التي ترتضيها وبهذه الواسطة روّجت فكرة الاستقلال الذاتي وساعدت على الخلاص من حكم البابا في احداث دولة عالمية شاملة تخضع للكثلكة وخليفة بطرس في رومية . ولكن (كالفن) كان يحلم

بثورة اخلاقية تقوم بها الدولة والكنيسة متحدتين ويكون قسط الكنيسة فيها متفوقاً له القدح المعلى . وقد ردّ على هذه الآراء « القروسطية » (نسبةً الى القرون الوسطى) الكاتب الانكليزي (ريتشارد هوكر) المتوفى سنة ١٦٠٠ بما يستحق ان يكون درساً عميقاً وعظةً بالغة لبعض الدول العربية في ايامنا. وانهُ لمن المؤسف ان نشعر ونحن في القرن العشرين بحاجة الى دروس في السياسة نتلقاها من كتاب القرن السادس عشر . فما ذهب اليهِ (هوكر) ان هنالك فرقاً جليّاً بين السنة الطبيعية — وهي الناموس الطبيعي — وبين السنة الايجابية. فتلك ازلية ثابتة لا تتغير وهذه تتبدل بحسب الحاجة الخارجة والمصلحة الطارئة وكل الحكومات في نظره قائمة على السنة الايجابية وتابعة لاحكامها فهي اذن قابلة للتبدل بحسب الاحوال المستجدة . اما كيف تطبق السنة الايجابية وكيف تتعين فهذا يحتاج الى العقل مستنيراً ومستقوياً بكل نوع من انواع العلم والاختبار والتمرين . وقال ان الاحوال تتطلب نظاماً دينيّاً سمحاً يتسع الناس ويضم تحت جناحيهِ جميع الانكليز الصالحين . وعنده ان اتباع (كالفن) اخطأوا في محاولتهم ان يستخرجوا من الكتاب المقدس الاوامر والنواهي التي تسيطر على سيرة الافراد في جميع الاحوال دينية كانت ام دنيوية . فالدنيا اشكال والوان واوضاعها فنون . وفيها مجال متسع يجول فيهِ الانسان بحريته من غير قيد سماوي ليعين الخطة التي يسير عليها بموجب المقتضيات الزمانية والمكانية تحت سلطان الناموس الطبيعي والعقلي الدائم

﴿توماس هوبس﴾ ومن اشهر الكتاب الاوربيين الذين كتبوا في السياسة (توماس هوبس) الحكيم الانكليزي المتوفى سنة ١٦٧٩ فقد ذهب الى أن الدولة مؤسسة قد عملها الناس بمحض قواهم العقلية . فهي من صنع ايديهم ونتيجة اختباراتهم لأن اول حاجة ماسة احتاج اليها المجتمع هي النظام او القوة ذات السلطة المطلقة لتطبيق هذا النظام ، والسبب الداعي الى هذه الحاجة الاضطرارية هو الحالة التي وجد عليها الناس في الطبيعة منذ تألف مجتمعهم . وخلاصتها انهم في حرب معلنة من الجميع على الجميع ولا سبيل الى النجاة من هذا الشر المستطير الاّ بالالتجاء الى حفظ النظام وتطبيق مفاصل العدل ، اذن فالدولة هي سلطان قائم على اساس « المقاولة الاجتماعية » التي نجد لها مثيلاً يقربها من الاذهان بالمقاولات التي تعقد في الاسواق التجارية والصناعية بين المتعاملين لمصلحتهم جميعاً

ان السلطة القوية المطلقة هي الاداة التي تنفذ هذه « المقاولة الاجتماعية » او هذا « العقد » وعليها تتوقف وحدة المجتمع صحيحة غير متفرقة . ومع ان هذه النظرية لا تستند الى الاستقراء ولا يوجد في تاريخ الانسان الحالي ما يؤيدها او يدل على ان الروابط السياسية في الدولة حبكتها ايدي المفكرين بمحض قواهم العقلية فقد أثرت في الشؤون السياسية اثراً بليغاً خصوصاً في صوغ الدساتير ولا تزال تفعل ذلك الى يومنا هذا . ومن اظهر آثارها ما ذهب اليهِ بعض ائمة المشترعين امثال (اوستن) واتباعه من الوجهة الشرعية من جعل سلطان الدولة سلطاناً

مطلقاً لاحد له غير قابل للتجزئة. قال الاستاذ (كول): ثم ان سقوط النظرية المشهورة القائلة بحق الملوك الالهي غادرت « السلطة المطلقة » التي دعا اليها (هوبس) من غير اساس نظري ترتكز عليه . ولكن هذه السلطة والحق يقال ليست وقفاً بالضرورة على حاكم واحد مفرد بل هي ملك الحكومة مهما كان شكلها . وقد فضل (هوبس) الحكومة الملكية باعتبارها اقدر على حفظ النظام غالباً الاَّ انهُ لاحظ ان مذهبه ينطبق ايضاً على السلطة المطلقة للحكومة الاريستوقراطية او للحكومة الديموقراطية كما يجوز ان ينطبق على الحكومة الملكية. وجوهر هذا المذهب ان للحكومة كائناً شكلها ما كان السلطة المطلقة على جميع الرعايا

﴿جون لوك﴾ ثم حدثت الثورة الانكليزية المشهورة في سنة ١٦٨٨ وكان حكيمها البارز وكاتبها البليغ (جون لوك) المتوفى سنة ١٧٠٤ وصاحب كتاب «الفهم البشري» فقد بدأ رأيه بتحديد سلطة الحكومة وحصرها في حماية الارواح والاموال والدفاع عن الحرية ، وعنده ان المجتمع وضع طبيعي بالنسبة الى الانسان ، وان قواعد السياسة تستخرج من الشريعتين الالهية والطبيعية لا كما فعل استاذه (هوبس) الذي جعلها وليدة الادراك الانساني فقط وهذا يباعد بين الانسان والطبيعة المحيطة بهِ . وقد تناول (لوك) من استاذه فكرة (المقاولة الاجتماعية) وعلى نظرياته بنى شكلها . وكلاهما يقول ان المجتمع البشري قائم على مقاولة معقودة بين افراده وهذه المقاولة نافذة ما قبلوها . غير ان (هوبس) يرى ان الشعب بتنصيبه سلطاناً على نفسهِ قد تنازل له ولخلفائه من بعده عن حقوقهِ تنازلاً ابديًّا فكأن المقاولة هي تنصيب الحكومة ليس الاَّ . اما (لوك) فقد نحا نحواً آخر اذ قال ان الشعب لن يتنازل عن حقوقهِ الى الابد بمجرد استصناعه حكومة بل يبقى في المرجع النهائي صاحب الكلمة العليا والسلطان النافذ مع صلاحية ثابتة تخوله في كل حين ان يسترجع الحكومة التي اسسها وان يلغيها اذا هي خانت الامانة التي وضعها في عنقها . وهكذا يتجلى الفرق بين السلطة المطلقة التي قال بها (هوبس) وبين السلطة الدستورية المحدودة التي قال بها تلميذه (لوك) فكانت تفسيراً نظريًّا للاعمال التي انجزتها الثورة الانكليزية في سنة ١٦٨٨ ولا حاجة بنا الى تذكير القارىء ان مثل هذه الافكار السياسية هي التي حفزت العثمانيين الى انقلابهم في سنة ١٩٠٨ كما حفزت الايرانيين جيرانهم ولا تزال تحفز أُمماً شرقية شتى في خصوماتهم الداخلية والخارجية

﴿جان جاك روسو﴾ انتقلت نظرية «المقاولة الاجتماعية» من انكلترا الى القارة وممن قال بها واتخذها تعليلاً صالحاً للمجتمع (جان جاك روسو) الحكيم الفرنسي المتوفى سنة ١٧٧٨ فقد نقلها عن (هوبس) و (لوك) واخذ معها من الاول قوله ان السلطان غير محدود ولا يقبل التجزئة وانه ينشأ في المجتمع حالما تعقد «المقاولة الاجتماعية» ومن الثاني تفريقه بين السلطان والحكومة وهذا التفريق يترك القوة العليا بيد الشعب باعتباره سلطاناً ويجعل الحكومة مشتقة منه وهي ابداً خاضعة لارادته . بيد ان (روسو) يختلف عن (لوك) بجعله هذا السلطان الشعبي — وهو سلطة

الجمهور — عاملاً ايجابيًا نشيطاً له قسطه العظيم في القيام باعمال المجتمع لا واقفاً موقفاً متفرجاً سلبيًا كله اذعان لمشيئة الحكومة . وهكذا نرى نظرية « العقد الاجتماعي » قد اصبحت على يد (جان جاك روسو) نظرية ديموقراطية من الاساس واصبح الحق للشعب ان يحكم حقيقة كما يحكم اسماً . وذهب في تصوير هذه النظرية الى ما يشبه الحالة ايام «الدولة البلدية» التي عرضنا لها على عهد الاغريق يعني ان تكون المدينة الواحدة دولة مستقلة بذاتها وتكون شؤونها بيد جميع أهلها مباشرة لا ذكر للنواب في ذلك بل الافراد جميعهم يقضون ويمضون باشخاصهم ، فليس في مذهب هذا الحكيم ما يسوّغ بناء الامبراطوريات المتسعة الضخمة على اساس مشروع كما هو الحال في عصرنا لان ذلك يقتضي تأليف المجالس النيابية في حين ان السلطان الشعبي في نظره لا ينتقل لا بالانتداب ولا بالتنازل بل يبقى وقفاً على الشعب أو ملكاً ملازماً لهُ . ولئن لم يؤثر هذا المذهب تأثيراً كليًا في اضعاف الامبراطوريات التي اخذت تنمو في القرن الثامن عشر فقد احدث انقلاباً خطيراً في تفهيم الناس ان ارادة الشعب هي التي تحلّ وتعقد وانها الاساس الذي تبنى عليه الدولة ، اذن «فالارادة العامة» التي يجمعها القول المأثور « اصوات الخلق اقلام الحق » هي الثمرة الناضجة لمذهب « العقد الاجتماعي » كما تحوّل على ايدي (جان جاك روسو) . ويتجلى هذا التأثير خير التجلي في الثورة الاميركية لان القواعد الاولى التي بنيت عليها هي قواعد مستخرجة من هذا المذهب

ثم حدثت الثورة الفرنسية الكبرى فكان بيانها عن حقوق الانسان مستقىً من (مونتسكيو) وكتابه (روح الشرائع) ومن (لوك) وفكرته في وجائب الدولة ومن (روسو) واصراره على ان يكون السلطان الشعبي سلطاناً نشيطاً عاملاً لا شأن للسلبية فيهِ ، والظاهر ان روحه المتحمسة الوثابة كانت تنفعل من خمول الناس حواليها ومن وقوفهم وقفة المتفرج على الطوارىء المستحدثة تدفعهُ الى هذه الحملة المنكرة على الجمود كما تدفع كل مصلح اليوم في كثير من انحاء العالم العربي حيث معظم الناس يقنعون من محاربة الكوارث النازلة على رؤوس امتهم مثلاً باساءتهم فهم ما ورد « اللهم حوالينا ولا علينا » كأن المرء بحسب هذا التفسير المغلوط اذا رأى الشر في جيرانهِ وليس في بيتهِ يسلم في النهاية من الشر او ان السنة النيران اذا اندلعت لا تتجاوز بيوت الطالحين الى الصالحين . فاين «الامر بالمعروف والنهي عن المنكر» من مثل هذا الموقف البارد ؟ واني لاعجب كثيراً من الذين اتخذوا الدفاع عن الاخلاق صناعة لهم كيف يعدون مذنباً من يقف متفرجاً على مسلوب ولا ينتصر لهُ ولا يعدون مذنباً من يرى أمة باسرها تذبح كالشاة على قارعة الطريق في رابعة النهار ولا يحرك لسانه ببنت شفة في الدفاع عنها

وما اجمل تلك العظة البالغة التي كان يكررها رئيسنا المرحوم (هورد بلس) : «اللهم أغفر لنا ذنوبنا السلبية وذنوبنا الايجابية » وادفع عنا شر خطيئة ارتكبناها باقدامنا على فعلها أو لم نرتكبها بوقوفنا متفرجين على فاعليها من المجرمين الظالمين

الثروة في البحر

الراديوم والذهب والبروم والبترول واليود

«في الامواج ذهب» كذلك يقول احد المولعين بالبحث عن الكنوز . فلا يستغرب العلماء قوله بل يؤيدونهُ فيهِ . فيقولون ان في البحار كل ما يحتاج اليهِ الانسان . بل ان ثروة اليابسة لا تعدل جزءًا يسيراً من ثروة البحار . وقد خطب الاستاذ تيلور في معهد فرنكلن بفلاديفيا فقال : « سوف تتحقق الاجيال القادمة من ثروة البحر التي لا تنفد . ففيهِ اصناف منوعة من المواد الكيمائية وثلاثة ارباع الاحياء التي على سطح الكرة الارضية ، وقد يوجد فيهِ قوة للتحريك والتبريد . كل هذا يتحدّى الكيماويين لابداع طرق تمكنهم من استغلال كنوز الماءِ »

﴿ الراديوم ﴾ ومن عهد قريب قدّم الدكتور بِجُت Piggot تقريراً الى الجمعية الجيوفزيكية الاميركية عن رواسب الراديوم في المحيط الهادىء فذكر ان هذه الرواسب تحتوي من الراديوم على مقدار يزيد نحو اثني عشر ضعفاً عن القدر الذي تحتويه الصخور عادةً من الراديوم على اليابسة . بل يبدو ان هذه الرواسب تحتوي على اكبر نسبة عرفت من هذا العنصر الثمين . فاذا قدرنا وجود مثل هذه الرواسب في قيعان كل البحار بلغ مقدار الراديوم في الاغوار التي يغمرها الماء الف مليون طن ! ولا يخفى ان العلماء في خلال الثلاثين سنة او تزيد التي انقضت على اكتشاف الراديوم لم يتمكنوا من جمع اكثر من ٦٠٠ جرام منهُ استخرجوها من الوف الوف الاطنان من الصخور . وثمن كل غرام منها قد يبلغ ١٥ الف جنيه او اكثر . فثمنها جميعها نحو تسعة ملايين جنيه . ولكن في قعر البحر ما قيمتهُ مئات الملايين من الجنيهات من الراديوم

على ان كل راديوم البحر ليس رواسب في قعرهِ . بل ثمة مقادير منهُ محلولة في مياههِ . فقد اسفر تحليل ماء خليج المكسيك عن وجود آثار للراديوم فيهِ ولكنها يسيرة جداً لم يتبينها الباحثون الاّ بأدق الكواشف الكهربائية . بيد ان ذلك الاثر اليسير في مقدار معيَّن من الماء يبلغ نحو ١٦٠٠ طن من الراديوم في جميع مياه البحار والمحيطات . فاذا احجم الباحث عن الحفر في قاع المحيط الهادىء لاستخراج الراديوم فعليهِ بالراديوم ، المحلول في الماء يستخرجهُ من اقرب الشواطىء اليهِ . ولكن استخراج اوقية من الراديوم يقتضي انتزاعها من تسعة اميال مكعبة من الماء . ولم نسمع حتى الآن ان مهندساً او كيماوياً عني بوضع خطة للقيام بهذا العمل الضخم والدقيق في آن واحد

﴿ الذهب ﴾ والذهب ارخص من الراديوم ، ولكنه اوفر منهُ مقداراً في مياه البحر . فالاوقية ثمنها نحو ١٩ ريالاً فقط . وفي الاوقية[١] ٧٣٧٢ قمحة . ويرى الدكتور آرثر لتل[٢] —

وهو كيماوي مشهور — ان «كل ذراع مكعبة من ماء البحر تحتوي على ١/١٠٠ من القمحة من الذهب» وهو مقدار يسير. ولكنهُ يعني ان كل ميل مكعب من ماء البحر يحتوي على قدر من الذهب قيمتهُ نحو ٤٠٠ر٠٠٠ جنيه . فانت اذا وقفتَ في نافذة من فندق وندزُرْ بالاسكندرية واشرفتَ على البحر الابيض وقعت عيناك على قدر من الذهب يفوق كل الذهب الذي استخرج من بطن الارض حتى الساعة ولكنهُ محلول في الماء

ونذكر في هذا الصدد ان شركة تألفت في أواخر القرن الماضي لاستخراج الذهب من ماء البحر بطريقة استنبطها مؤلف الشركة القس يارنجان (Yarnegan) فبنيت المصانع على شواطئ ولاية ماين باميركا ، وبدأت أوساق الذهب تنقل منها الى نيويورك في مقادير متوسط قيمتها ٤ آلاف جنيه كلَّ اسبوع . فارتفعت أسعار الاسهم في السوق المالية . ثم توقف ارسال الذهب فجأة لما بني مصنع جديد . ولدى البحث تبين ان للقس الورع مساعداً كان يزجُّ برادة الذهب في المصنع الاول فيعاد استخراجه لدى تقطير الماء وتصفيتهِ ...!

وقد عني الاستاذ فرنتز هابر ، الكيماوي الالماني المشهور ومستنبط طريقة صنع الامونيا من نتروجين الهواء، والفائز بجائزة نوبل الكيمائية سنة ١٩٣١ ، بموضوع استخراج الذهب من مياه البحار فبنى معملاً للبحث في سفينةٍ وارتاد بها مياه المحيط الاطلنطي من شواطئ لابرادور الى ما تحت خط الاستواء . واتفق مع ضباط السفن التجارية التي تمخر البحار على ان يرسلوا اليهِ نماذج من الماء في نواحٍ مختلفة من البحار التي يمخرونها . وقد حلَّل حتى كتابة هذه السطور ما يزيد على ٥٠٠٠ نموذج من ماء البحر ، فوجد اختلافاً بيّناً في محتوياتها الذهبية . والظاهر ان التقدير القائل بوجود عشر قمحة من الذهب في كل طن من الماء يصدق على المياه التي تجاور جزيرة نيوفنلند . اما المياه حيث يلتقي تيار لابرادور البارد بتيار الخليج الدافئ فقد وجد فيها نحو قمحة ونصف قمحة من الذهب في كل طن من الماء . اما المتوسط في سائر الانحاء فأقل مما تقدم . فمياهُ المحيط الهادئ امام مدينة سان فرنسسكو لم يخرج منها الاّ ٠٠٠٢٤ر من القمحة من كل طن ماء . اما بعض مياه المحيط الاطلنطي جنوب خط الاستواء فكان الذهب فيها اقل من ذلك . وقد خرج الاستاذ هابر من مباحثهِ بالنتيجة الآتية : لا « يرجَّح ان يصبح ترسيب الذهب من مياه البحار عملاً تجاريًّا رابحاً»

لكنَّ البحار واسعة وعميقة وتحتوي على نحو ٤١٨ مليون ميل مكعَّب من الماء ، مباحة لقاصدها . وبراعة الكيماويين لا تقف عند حد . فاذا اعتمدنا اقل متوسط من الذهب وجده الاستاذ هابر في مياه البحار ، ثبت لنا ان ثمة ثروة تقدر بملايين الجنيهات للرجل الذي يعرف ان يستخرجها ، كما عرف هابر ان يستعمل النتروجين الذي في الهواء ، وقد كان على كثرتهِ — لان اربعة اخماس الهواء نتروجين — مباحاً للناس فلم يعرف ان يستغله احد من قبلهِ

❁ البروم والبترول والبوتاس ❁ البروم عنصر سائل مخضرٌّ لامندوحة عنهُ في صناعة بعض

اصناف البنزين وينابيعهُ نادرة . ففي الولايات المتحدة منطقتان ضيقتان في ولايتي اوهايو ومشيغن يستخرج منهما هذا العنصر الثمين . لذلك عنيت بعض الشركات الصناعية التي لا تستغني عنهُ باستنباط طريقة تمكنها من الحصول عليهِ اذ نفدت ينابيعهُ . والمعروف ان ماء البحر يحتوي على ٠٠٦ر من واحد في المائة من البروم . فعمد أصحاب هذه الشركات الصناعية الى البحث عن طريقة تمكنهم من استخراج البروم من ماءِ البحر استخراجاً اقتصاديًّا . فبني مصنع صغير للتجربة في بلدة «اوشن ستي» على شاطىء ولاية ماين . ثم نقل هذا المصنع الى سفينة تتجول بهِ امام شواطىء ولاية كارولينا الشمالية . فاسفرت التجربة عن نجاح باهر . وتمكن المعمل من ان يستخلص بطريقة كيمائية بارعة البروم من سبعة آلاف جالون من الماء كل دقيقة فاستخرج من هذا العنصر الثمين ما قيمتهُ ١٠٠ الف جنيه في شهر واحد . وغني عن البيان ان ما في مياه البحر منهُ لن ينفد

ثم ان في الرواسب التي في قيعان البحار بترولاً وما يماثلهُ من الادهان . وقد وجَّه معهد البترول الاميركي عنايتهُ الى هذا البحث . فاوفد باحثين الى نواحٍ مختلفة من المحيطين الاطلنطي والهادي فاستخرجوا من رواسب قعرها نماذج كثيرة حللت بعد استخراجها ليعرف ما فيها من المواد العضوية والبترول . فثبت ان بعض الرواسب التي على مقربة من الجزائر الواقعة الى غرب لوس انجلوس — بغرب اميركا — استخرج منها ٣٫٧ الجالون من البترول من كل طن من الرواسب . واسفر البحث عن مثل هذه النتيجة في الرواسب التي استخرجت من قعر البحر امام شواطىء كارولينا الشمالية . اما الرواسب التي استخرجت من القاع امام ولاية نيويورك فلم يخرج منها الا جالون ونصف جالون من البترول من كل طن . ولا يخفى ان طائفة كبيرة من العلماء تذهب الى ان البترول يتكون في قيعان البحار بتفاعل كيمائي بين المواد العضوية ، وان كل مناطق البترول كانت قبلاً قيعان بحار . ومن اغراض هذا البحث معرفة طريقة الطبيعة في توليد البترول

ثم ان في الولايات المتحدة الاميركية صناعات انشئت على شاطئها الغربي لتستخرج من حشائش البحر البوتاسا والبوتاسيوم واليود ، وهذه يمكن استخراجها مباشرة من ماء البحر وانما استخراجها من الحشائش البحرية اسهل لان هذه الحشائش افعل من انابيق الكيماويين في استخراج اليود والبوتاسيوم من ماء البحر وخزنها في سوقها واوراقها . فمَنْ لنا بساحر نباتي كالمستر «بربنك» يستطيع ان ينشىء لنا اصنافاً من الحشائش البحرية تستخرج الذهب من ماء البحر كما تستخرج هذه الحشائش اليود والبوتاسيوم . ثم ان الملح وبعض مركبات المغنيزيوم تؤخذ من البحر بتبخير مياههِ

ومن الآمال التي يرنو علماء التطبيق العلمي الى تحقيقها أمل استخدام قوة البحر — كما تبدو في الامواج وقوة المد والجزر والتيارات القوية والاختلاف في حرارة طبقات الماء — لادارة الآلات . وقد استنبطت لذلك وسائل مختلفة لم تصب من النجاح العملي ما كان مقدَّراً لها على صفحات الاوراق . ولا بدَّ ان يسفر البحث يوماً عن استنباط وسيلة كفيلة بسيطرة الانسان على ما في البحر من قوى محرّكة عظيمة

الطبائع والامزجة

بين الرجل والمرأة

للامير مصطفى الشهابي

مدير املاك الدولة بدمشق وعضو المجمع العلمي العربي

﴿ الطبائع والامزجة لدى الرجل والمرأة ﴾ يقولون ان النفس ليس فيها ذكر وانثى . وهذا صحيح لو كانت هذه النفس طليقة في غير جسد . فاما وحياتنا الجسدية هي من اكبر الدعائم التي تبنى عليها محا كمات الطبائع والامزجة فلا بد من وجود فوارق بين الجنسين في طبيعة كل منهما ومزاجه . واذا درسنا هذا الموضوع وجب التجرد عن العواطف التي تجعل بعضنا يميل الى المرأة وبعضنا يصدف عنها . فالمرأة ليست كما ينظر اليها بعض اصحاب الدين المتعصبين المتورعين اي مخلوقاً دنيئاً هو سبب الخطيئة الابدية وهو باب جهنم وزبانيا العُقربان وطريق الرذيلة ودودة القلب البشري الخ . كما انها ليست كما ينعتها بعضهم بمثل مرآة العدل وباب السماء ومعقل الحكمة والاناء المصطفى وغير ذلك من النعوت . ولا يجوز ان نجزم مع بعض علماء الانسان ان القوة العضلية ووزن الدماغ لهما التأثير الاكبر في تفريق امزجة الجنسين بل هنالك عوامل اخرى كثيرة يجب عدم اهمالها . فوزن الجثة وقياس الجمجمة وتقدير القوة العضلية لا تكفي وحدها للتفريق بين مزاجي الرجل والمرأة وقواهما الخلقية والعقلية لأن الروح لا توزن بالرطل والكيلو غرام . والدليل على ذلك ان من اصغر الجماجم المعروفة جمجمة فولتير الشهير

ما برح الرجل يحكم لنفسه بالرجحان على المرأة . وهذا لا يستغرب عند ما كانت القوة المادية هي القوة العليا . ولطالما قال العلماء والفلاسفة الاقدمون ان المرأة ليست سوى رجل لم يتم نموه ولم يكمل . وظل هذا الرأي سائداً الى يومنا هذا فقد قال دارون في نظرية الانتخاب الجنسي ان في الذكر رجحاناً . وزعم سبنسر ان نمو المرأة وقف باكراً بسبب الحاجة الى الحمل والولادة والرضاع . فالرجل لدى دارون امرأة تمّ نموها . والمرأة لدى سبنسر رجل كف عن النمو . وقال عالم ثالث اسمهُ ولبو Velpeau ان الانثى انحطت عن ذكر قديم

وكل هذه الآراء تُعدُّ اليوم خطأً لا صحة له . وقد ثبت ان في النطفة الذكرية والانثوية مقادير قيمتها واحدة وان الجنين فيهِ كميات متساوية من مادتي الاب والأم

واول فرق حقيقي بين الذكر والانثى يكون في فجر الحياة الحيوانية والنباتية . فهنالك نرى خلية صغيرة فعالة هزيلة غير كاملة لا يمكنها النمو وحدها وهي الخلية الذكرية . ونرى خلية

اخرى غضاء ممتلئة غذاء قليلة الحركة ناقصة كالاولى وهي الخلية الانثوية . ومن المعلوم ان الجنين يحصل من اتحادها . فالفرق بين الجنسين كما نرى هو في الاساس اي في خلايا يزيد فيها التمثيل على الافراز او الادخار على الاستهلاك وهي الخلايا الانثوية واخرى على العكس من ذلك وهي الخلايا الذكرية والغذاء هو من اكبر الاسباب التي تدعو الى تكوّن الذكر او الانثى. والانثى ليست اذن جنيناً وقف نموه بل هي بالعكس جنين تغذى غذاءً كبيراً وذلك في كثير من الاحيان . والادلة على ذلك كثيرة منها تجارب (يونغ) في الضفدعيات اذ توصل بالغذاء الجيد ان يزيد عدد إناثها حتى بلغت ٩٢في المائة بدلاً من ٥٦ في المائة .وقد جُربت تجارب عديدة كهذه في الضأن والنحل وحشرات شتى فاسفرت كلها عن نتيجة واحدة وهي ازدياد الاناث بتجويد اغذية الصغار قبل انفرادها في الجنس والعكس بالعكس. وخلية الانثى تكون بطبيعتها ميالة الى السكون والالفة وعدم التجزئة على عكس الخلية الذكرية ففي طبيعتها ميل الى الحركة والتفتيش والبحث . فطبع الخلية الانثوية كطبع الانثى نفسها اذ تتطلب الحياة الساكنة في مكان هادىء جعلتهُ الطبيعة بيئة لنمو الاولاد وعشّا لحياة الصغار

واذا ما انتقلنا من الخلايا او النُطف الى الحيوانات النامية نجد الشيء نفسه اي نجد ان الذكور اكثر فعالية من الاناث وان حرارتهم اشد وانهم اسرع الى الاضمحلال.وفي مختلف اجناس الحيوان امثلة كثيرة على ذلك . ونجد في الحيوانات العليا وخصوصاً في الانسان فروقاً عظيمة بين الجنسين . فالمرأة في استدارة نسجها وقلة الفعالية في خلاياها ونمو صدرها وحقويها مثال للكائن الذي زاد فيه التمثيل على الافراز والذي أُعد لتغذية الجنسين وللتناسل. ونجد نموّا في اجزاء الجهاز العصبي المتسلطة على حاسة المرأة اما في الرجل فنجد ان اجزاء الجهاز المتسلطة على الاعمال العضلية والعقلية هي الاكبر نموّا

﴿ الحس لدى الرجل ولدى المرأة ﴾ تختلف الامزجة في الذكر والانثى على رأي «الفرد فويه» بحسب اختلاف تركيبهما الفسيولوجي لا بحسب الصدفة المنبعثة عن الانتخاب الطبيعي أو الجنسي. اما عمل هذا الانتخاب فهو انه يزيد الفوارق بينهما مع الزمن فيكون سبباً منضمّا الى الاسباب الفسيولوجية المذكورة

فالفعالية الخارجية المنبعثة عن قوة جسدية تستلزم في الرجال وجود الشجاعة الروحية ويفسر داروين وسبنسر شجاعة الذكور بأنهم ما برحوا يقاتلون للقوت والحب لذا تغلب الشجعان وخلدوا الشجاعة في جنسهم . لكن الفرد نويه يتساءل لماذا يقاتل الذكور دون الاناث ولماذا أختص كل بوظيفته ولا سيما في شئون الحب . وهذا يضيف ان السبب هو في تكوين الذكر وتكوين الانثى . فالذكر له شجاعة تتمثل في الخارج اي في الاعتداء اما الانثى فلها شجاعة على تحمّل آلام الحمل وعلى الاحتفاظ بصغارها تفوق شجاعة الرجل . وشجاعتها ثابتة

فهي صبور ساكنة تسير نحو هدفها بتؤدة وبلا انقطاع . اما الرجل فصخّاب قليل الصبر . وكل ذلك في دمهِ وفي دمها على رأي «الفرد فويه» لا بتأثير الانتخاب الطبيعي

والمرأة اثبت في عواطفها وحبها من الرجل والسبب واحد اي ما ذكر . وهي ابعد عن عاطفة الانانية منه لان الذكر في تركيبهِ ميَّال الى الانفراد على عكس الانثى فهي ميالة في تركيبها الى التضامن . ولما كان الذكر اكثر حركة واشد مضاء واعم تجارب واقرب من الآراء المتضاربة والافكار المختلفة من الانثى وكان كل ذلك يتطلب انفاق قوة دماغية وقوة عضلية كبيرتين لذلك صار دماغ الذكور اكبر من دماغ الاناث . لكن هذه تفوق الذكور بدقة المحاكمة وبالنظرات الصائبة وباساليب الحيل . ولما كانت وظيفتها الانتظار والملاحظة والتنبؤ دقَّ دماغها داخليًّا . وترى هذه الطباع متجلية في الحيوانات العليا اي في الرجل والمرأة . فالمرأة طابعها الحس ولها مزاج الحسَّاس . اما الرجل فطابعه الحركة وله مزاج المقدام . ويكثر في الرجال الحساسون السريعو الحس وهم الدمويون . اما في النساء فتكثر الحساسات العميقات الحس وهنَّ العصبيات . ويكثر لديهم الفعالون السريعو العمل وهم الصفراويون كما يكثر لديهنَّ الفعالات البطيئات العمل وهنَّ صاحبات الدم البارد أو صاحبات البلغم . والمرأة أقوى عاطفة واشد تأثراً وحسًّا من الرجل . وهي اعرف منه بشدة الالم وانواعه . لكنَّ ألمها لا ينفجر كألمه ولا يحملها على اتيان اعمال اليأس المريعة بل يظل هذا الألم كامناً في اعماق نفسها . ويتجلى فرط حسها في الحب . فالحب لدى الرجل سرور الحياة اما لديها فالحب هو الحياة . وعلاقات الحب بينها وبين الرجل تكون لديها اهدأ واسمى واثبت وأقل شهوة منها لدى الرجل . وهذا ناتج عن تركيبها ومزاجها . وهو يكون في الأعم من الحالات . لكنه من البديهي ان يكون لكل قاعدة شواذ تستلزم اتهام المرأة بالتقلب والخفة على حد قول المتنبيء

اذا غدرت حسناء وفت بعهدها فمن عهدها ان لا يدوم لها عهد

ومع هذا لا شك ان خفتها تتسبب عن اعمال الرجل في كثير من الاحيان فيكون اللوم عليهِ . ويتناول حب المرأة للرجل اثبت ما فيهِ من صفات اساسية جسمانية كانت أم روحانية . وهي اجمالاً اقل تطلباً لجماله منها لقوته الجسدية والعقلية وبخاصةٍ لمزاياه الخلقية . ويظن الفريد فويه ان الشعور بلزوم اداة نافعة وثابتة للأسرة وللنوع هو ما يفسر احترام المرأة الجاهلة لقوة الرجل الجسدية واحترام المرأة المتعلمة لقوته العقلية والخلقية . وميلها الى الحياة الداخلية الهادئة يجعلها تخضع لقوة الرجل المعد للتنازع خارجيًّا ، كما ان غريزة الامومة فيها تجعلها تدرك الفائدة التي يستفيد منها الاولاد اذا كان لهم ابوان قويَّان جسماً وعقلاً

وهي ميالة الى ارضاء الرجل ولها ذوق دقيق في التجمل لهذا الغرض بل هي آية عند ما تُصنِّع نفسها وتُبرّقها . ولا شك ان قانون الانتخاب يجعل اعلمهنَّ بهذه الامور اقدرهنَّ على

العيش لكن هذه الغريزة في المرأة منبعثة عن انها ضعيفة الجسم لا تتطلب الرجل بل هو يطلبها ولذلك لا بدَّ لها من ارضائهِ . ثم من البديهي ان يكون في كل حي غريزة الاحتفاظ بمزاياه الطبيعية وتنميتها . فالمرأة تعرف ان من اكبر مزاياها الجمال والتجمل فكيف لا تتشبث بهما مع علمها بأنهما مدعاة الى حب الرجل لها . فيستنتج من ذلك ان من مزايا المرأة الاساسية حب الجمال الشخصي اي عبادة الجمال في شخصها وهي مزية وراثية ثمينة يجب الاحتفاظ بها للنوع الانساني . وفي حياء المرأة وخفرها جمال وجلال ، لان شعورها باحترام نفسها ماديًّا وتعلقها بالخيال السامي وبالمثل الاعلى تجاه الحقائق المادية الدنيئة كل ذلك يجعل حبها شريفاً سامياً ويحدو بالرجل الى مشاركتها بالترفع عن الحب المادي أو بعدم الاقتصار على هذا النوع من الحب على الاقل

أما تعلق الامهات باولادهنَّ فأسبابه على رأي سبنسر حبهنّ للضعيف . وهذا ما لا يقرُّه الفرد فويه فهو يرى ان حب الآباء والامهات للاولاد هو اولاً حب ذاك الذي سيكون امتداداً لشخصيتهم وخلفاً لها ثانياً حب ذاك الذي يمثل النوع ثالثاً حب الذي سيكون عن قريب رجلاً . ويكون حب الام للولد اعمق من حب الاب لانها حملته وغذته من دمها ثم من لبنها فهي اشد رؤية لنفسها فيه . أما شوبنهور فيرى ان عناية النساء بالاطفال سببها كونهنَّ وضيعات العنصر محدودات العقل يلبثنَ كل حياتهنَّ اولاداً كباراً . وهذا ما يهزأ به الفرد فويه اذ يقول ان الأم اذا تعهدت طفلها وكانت احسن من يتعهده فلأنها امٌّ تحب وتضحي لا لأنها ولد . وتدل الاحصاءات على كثرة الاولاد الذين يموتون بسبب تعهدهم من قبل غير امهاتهم . ذلك ان الامهات وحدهنَّ هنَّ اللواتي يعرفنَ نسيان شخصيتهنَّ فالاخلاص لديهنَّ ليس طبيعة ثانية بل الطبيعة الاولى . والأم لا تتعهد الطفل تعهُّداً ماديًّا فحسب بل هي الوحيدة الصالحة لتربيته عقليًّا وأخلاقيًّا . فكلامها وعملها هما اصلح درس له في سنه التي تسود فيها غريزة التقليد . وكان (كانت) يردد في شيخوخته ان امه هي التي اوجدت في نفسه ما ربما كان فيها من ميل الى الخير . اما تشبيه المرأة بالولد (وهو شيء يردده الكتّاب كثيراً) فهو غلط لا يقره علم الحياة ولا علم النفس . ولا شك ان هنالك صفات مشتركة بين المرأة والولد وهي زيادة التمثيل وفرط الحس في كليهما لكن هذه الصفات تبدو فيهما على اشكال مختلفة. ففرط التمثيل لدى الولد يُستخدم في نموه المادي والعقلي ولذا تراه يحب الأثرة والأنانية . اما المرأة فعلى العكس من ذلك فان عواطفها تميل إلى الغير وهي تستخدم قوى التمثيل لفائدة الأسرة والنوع . ثم اذا كان الحس في المرأة يفوق العمل كما في الولد . فالفرق بينهما بيّن ايضاً . فشاعر الولد الضعيفة البسيطة تجعل حسه سطحيًّا وتجعله هو سريع الانفعال. اما المرأة فشاعرها مستقيمة مختلفة. وقلب المرأة قد نما وتكامل اما قلب الولد ففي حالة جنين

وقد طعن بعض العلماء المرأة في اهم صفاتها كحب الولد وحب الزوج فقال الدكتور غوستاف لوبون ان حب الولد لدى بعض الحيوانات اعظم من حبها لولدها . فهنالك حيوانات اذا فقدت اولادها ماتت على اثرها وهنالك طيور اذا فقدت أنثاها اليفها قتلها الحزن عليه. ويستنتج بعض العلماء من ذلك ان المرأة تمثل في ذلك احطّ شكلٍ من تطور البشر. قال الفرد فوييه ان الامر على العكس مما ذكر اي ان حب النسل لدى الحيوانات يمثل شكلاً سامياً من التطور . فاذا وجد هذا الحب منذ ما وجدت الامهات فهل يجب أن يدعو ذلك الى تجاهل قيمته وجماله . ولنقارن ذلك بما لدى الرجل من صفات يفوق المرأة بها كالقوة المادية مثلاً فهلاّ نرى انها ترجع هي ايضاً الى طبقات التطور الدنيا . أفلا ترجع شجاعة الرجل الى حقبة ما قبل الطوفان ثم اليس الوحشي اشجع منا وكذا الاسد فهل يجب لذلك السبب ان نطعن بالشجاعة وبالقوة الجسدية. وقال هل النهار يمثل الشفق (النور الضئيل) أم الشفق يدل على النهار

﴿التفكير لدى الرجل والمرأة﴾ — اذا فاقت المرأة الرجل بالشعور والحس فهو يفوقها بالتفكير أو ببعض نواحيه لأن قوى المرأة منصرفة الى حياة النوع ولهذا قلّ فيها نمو ما يلزم للحياة الفردية من قوى عضلية أو دماغية . فترى اعضائها الصالحة للاعمال الخارجية وأوعيتها الصدرية كلها اصغر من مثلها لدى الرجل . وكما صغرت هذه الاعضاء الصالحة للحركة فقد صغر ايضاً الدماغ الذي يحركها . فجمجمة الرجل اكثر شبهاً بجمجمة القرد والوحشي والهرم اما جمجمة المرأة فكجمجمة الولد . لكن حجم الجمجمة ووزنها ليسا كل شيء فهما اولاً متناسبان مع حجم الجسم ووزنه . وهما ثانياً يدلان على صفات هذا الجهد . وهذه الصفات تابعة لتلافيف الدماغ ولامور كيماوية وكهربائية لم ندركها بعد ، ولا شك ان دماغ المرأة في يومنا هذا (على رأي كثير من العلماء) اقل مقدرة على الجهود العقلية العظيمة المتمادية من دماغ الرجل لكن ذلك لا يضير المرأة ما دامت وظيفتها في الاسرة تتطلب نمو الحياة القلبية والقوى الخلقية بدلاً من نمو الحياة العقلية والقوى الدماغية. واذا اسهبنا في ذلك قليلاً نقول ان مقدار المجهود العقلي ومدة دوامه هما لدى الرجل اكبر منهما لدى المرأة اجمالاً اي انه يفوقها بمقدار التفكير. اما من حيث صفات الجهود العقلية فان كل شيء يتطلب الحذاقة والدقة والذوق اي كل شيء يلزمه حسٌّ مفاجيء فالمرأة فيهِ ارجح من الرجل . اما ما يتطلب التجديد في التفكير والاختراع والجرأة والاقدام والمثابرة فالرجل فيهِ صاحب الرجحان على المرأة . وهنالك جهود عقلية تحتاج الى إجهاد الدماغ والى حصول حركة قوية في ذراته كالمقابلة في العلم والتعميم واستخراج القواعد المطلقة والاستنتاج الفكري فهي كلها مما يوافق الرجل خاصةً بحسب طبيعته . والمرأة اقدر على تصور الافكار الخاصة منها على التعميم والاطلاق . وهي انفذ بصراً منه لكنه اكثر استنتاجاً منها . والمرأة الحاذقة الصناع

تعرف ان تريك كيف تصنع لكنها قليلاً ما تتمكن من وصف عملها أو إثباته . وهي اجمالاً قادرة على التحليل العلمي كالرجل لكن هذه الصنعة ليست مما ترتاح له طبيعيًا . والافكار والصور في حافظتها اثبت منها في حافظة الرجل لان قابلية الانفعال والتمثيل فيها تجعل ذاكرتها اشد حفظاً للوقائع ولا سيما التي تسر بترديدها على الناس . وهي (لاسباب أخرى مماثلة) أطوع من الرجل في تلقي المعارف وابسط منه في تصديق الذين تثق بهم . ولها تصورات محتدمة وثابة لانه بقدر ما تقل الجهود الخارجية في الانسان تكثر الصور الداخلية في مخيلته. ولما كانت المرأة صاحبة حس وتصورات رأيتها كثيراً ما تنقاد للعواطف بدلاً من الافكار العامة المطلقة . لان دلائل القلب لديها اقوى من دلائل العقل

والعبقرية تستلزم بذل قوى كبيرة ويجب ان يكون في العبقري ارادة متينة وجسارة خارقة ربما ادَّت به الى اسوأ الحالات احياناً . ولهذا كان معظم العباقرة من الرجال. ومهما اجهدت المرأة دماغها ومهما كانت قوتها على التفكير عظيمة فان في طبيعتها ترددا وحشمة وجبناً تثنيها عن الاقدام على عظائم الامور

وفي باب العلوم ايضاً لا تكون الاختراعات العظيمة (وهي ثمرة الجهود الجبارة) من الامور التي تميل اليها النساء طبيعيًا . والمرأة قليلة الجلد على تحمل بطء التحليلات العلمية وما تستلزمه من التجويد في استخراج النتائج ووضع القواعد العلمية المطلقة . وكثيراً ما تغلط في استنتاجاتها العلمية بسبب الافراط في تصوراتها وبسبب بساطة افكارها . وقد يحتاج تقدم العلوم إلى تركيب انظار (نظريات) واسعة تعقب التحليلات العلمية وتكون تتمة لها . فهذا التركيب الذي يتناول آفاقاً عديدة هو مما يختص به الرجل اكثر من المرأة . ويجب ان لا يستنتج من ذلك كله انه ليس لدى النساء عبقريات أو انه ليس بوسعهنَّ تعلم العلوم المختلفة . فالذي نشير اليهِ هو ان النابغات في هذا الصدد أقل من النبغاء دائماً . وكما انه يمكن ايجاد نساء ملاكمات كذلك يمكن ايجاد رجال يعطفون على اولادهم في القحط حتى تدر ثندواتهم اللبن. لكن هذه أمور استثنائية غير طبيعية . فالمجهود العقلي الطبيعي لدى النساء هو الذي يجوز ان يوجد في اوساطهنَّ ولا يضر بولادة العدد المرغوب فيهِ من الأولاد الاصحاء وإرضاعهم وتربيتهم. أما إذا صرف نساء طبقة ما من طبقات الشعب جهوداً عقلية عظيمة حتى أدى ذلك إلى ضياع هذه الطبقة فتكون هذه الجهود ضربة تصيب وظائف المرأة الطبيعية في صميمها . ومما لا ريب فيهِ إن العباقرة من الرجال هم أيضاً قليلو العدد وهم يعدون شواذ إذا قيسوا بالمجموع لكن وظيفة الرجل وأعماله في الحياة الاجتماعية ان لم تتطلب منه ان يكون عبقريًا فهي تستلزم ان يكون لديه قوة على التفكير وجلدٌ على العلوم مما ليس ضروريًا للمرأة بل ربما كان مضرًا بوظائفها الاساسية احياناً . فالمرأة لم تخلق لان تكون عنترة العبسي في قوته العضلية ولا ابن خلدون

في تفكيره العقلي ولهذا ترى النابغات منهنَّ ينبغنَ في الفنون الدقيقة وفي علم النفس مثلاً ولكن قلما نرى بينهنَّ صاحبة اختراع او تجديد او مذهب في العلوم والفنون . ومهما يكن فرجحان المرأة على الرجل يكون بالاخلاق الفاضلة فهي نابغة بالحب والعطف والاخلاص وهذه خير ما تباهي به اذا ما اعتز الرجل بتفوقه العلمي

﴿ الارادة والصفات الخلقية في الرجل والمرأة ﴾ ارادة الرجل اقوى من ارادة المرأة في الجملة . والمرأة في غريزتها ميالة الى هبة نفسها للغير والاخلاص لهم . وذكر سبنسر ان هذا الميل فيها يتناول الافراد فقطمع انهُ كثيراً ما يتعداه للقضايا العامة . ولذا نرى بينهنَّ اللواتي جدنَ بانفسهنَّ في سبيل القضايا الوطنية او الانقلابات الاجتماعية والدينية الكبرى كاللواتي استقبلنَ الموت برزانة في الثورة الفرنسية وفي محاكم التفتيش الرهيبة . ولا شك ان المرأة ترجح الرحمة على العدل في كثير من الاحيان وذلك لفرط احساسها ولانها لا تميل الى صرف ذكائها في التحليلات الفردية الجافة بل تتناول الناس كافة بعطفها وهو توسع غريزة الامومة فيها . ثم بعد هذا نحن لاندري هل العدل المطلق هو أعلى شيء ام الخير اعدل من العدل

والمرأة أشد تديناً من الرجل إجمالاً . وليس السبب في ذلك خضوعها للقوة دائماً كما يفكر سبنسر بل هو عدم ميلها للشك بمقتضى قلة الارادة فيها . فهي لا تريد الشك بكل ما هو مسلم بهِ دينيًّا وعلميًّا وسياسيًّا . وهي تحب الدين لا خوفاً من قوة الله في الغالب بل حبًّا بخيره وإحسانهِ . ولما كان الحسّ سائداً في المرأة وكان الميل فيها للعلوم اقل منهُ لدى الرجل بسائق الطبيعة والتربية وكانت الاخلاق الفاضلة ولاسيما الاحسان والرأفة من اهم ما تتحلى بهِ أصبح من الطبيعي ان تفتش فوق هذا العالم عن عدالة حية وحب شامل . ولا بد لنفس كهذه ان تكون متدينة

لكنها ربما افرطت في الاعتقادات الدينية حتى راحت تتبع الخرافات التي ينبو العقل والدين عنها . وهي في هذا تتساوى مع الرجل او تفوقهُ . فكما اننا نجد حِساناً يصمنَ في النهار وينصرفن الى غرامهنَّ في الليل وذوات أزواج يستسهلنَ الفسق ولكنهم لا يسمحنَ للعشاق برؤية شعورهنَّ اعتقاداً بأن ذلك وحده يفسخ عقد الزواج ، كذلك قرأتُ عن لصوص من الرجال يذهبون الى الكنيسة متضرعين إلى الله أن يوفقهم في سرقة البيت الفلاني ولو ادى ذلك إلى قتل صاحبه . وأعرف سيداً يلعب « البوكر » في النادي الكبير بدمشق حتى إذا أذن المؤذن قام فصلى بجانب اللاعبين ثم عاد الى اللعب . فقلت له مرة ماذا تبتغي من الجمع بين الميسر والصلاة في مكان واحد فاجاب أتضرع إلى الله في صلاتي ان يوفقني في لعبي او ليس الله اقدر على ذلك من الحظ الأعمى الذي تتضرعون اليهِ وتستجيرون بهِ . فقلت لكن الله ينهى عن الميسر فكيف تعصاه ثم تطلب منهُ التوفيق في المعصية . فقال هذه امور لا يفهمها امثالكم

ومن البديهي أن خرافات كهذه لا ظل لها في الاسلام ولا في النصرانية وكلاهما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر والامة مدرسة طبيعية للحنان والتجرد عن الشخصية فالتي ترضى بأن تكون أمًّا تكون قد رضيت بأنواع العذاب. ولا يمكن تصور اجتماع الجريمة والامومة في شخص واحد ولذلك تقل الجرائم لدى النساء . وأكثر ما يقدمنَ عليهِ منها الاجهاض وقتل الطفل والتسميم وفي هذه الحالات ربما كان الرجل هو الدافع الى هذه الجرائم. أو ربما ساقها اليها شعور الشرف او الحياء . ولكن عجز المرأة اخلاقيًّا وعقليًّا هو الذي يقعدها عن الاجرام كما يدعيه بعض المؤلفين بل السبب صفاتها الطبيعية كالحس والرأفة وحب السلام أضف اليها قلة تعرضها للرذائل في حياتها الخاصة وميلها إلى الجمال وما يستلزمهُ من صفات خلقية تستميل الرجل بها

***

﴿ الخلاصة ﴾ الرجل مساوٍ للمرأة وكلاهما يتمم الثاني . فهو اقوى منها ماديًّا وعقليًّا وهي ارجح منهُ بالأخلاق الفاضلة . ويقولون هو اثمن منها بالكم وهي اثمن منهُ بالكيف . فاحتقار المرأة شيء حقير بذاتهِ . وهل يزدري اللونُ الأحمرُ اللونَ الأخضرَ عند ما يتحدان في الشعاع الأبيض . أو هل يأنف الأوكسيجين من الامتزاج بالهيدروجين في توليد الماء القراح. فاذا كفَّت النساء عن الاخلاص والتفاني في سبيل البيت والأسرة والأولاد سرعان ما نرى مخلوقات بلا اخلاق ونرى الحب قد أصبح شهوانيًّا محضاً والفسق قد عمَّ وانتشرت توابعهُ من إجهاض وقتل أطفال والقائهم في الطرقات والملاجيء . والمرأة ما برحت ربة الأسرة . وهي ستظل درتها اللامعة ما دامت راضية بان تكون أمًّا . وعليها بان تتعلم العلوم التي لا تنافي امزجتها وحرمة نوعها كما يجب ان تؤهلها تلك العلوم لاتقان الحياة المنزلية خاصةً لانها هنالك زوجة وام ومربية . فعلم الاخلاق والتربية وحفظ الصحة وآداب اللغة والتاريخ والجغرافيا والحقوق المتعارفة والرسم والموسيقى وخلاصة العلوم العملية هي مما يُعد اكثر ملاءمة من غيرها لطبيعة المرأة ولوظائفها السامية في الحياة البشرية . وعلى رجالنا في الشرق العربي ان لا يقيدوا المرأة بقيود ثقيلة الوطأة وان لا يحرموها من نور العلوم اللازمة لقيامها بواجبها الجنسي ، كما ان على المرأة ان لا تتجاهل واجبها وان لا تظن ان العمل بغريزة التجمل والتبرج فيها هو كل ما نطلبهُ منها . فربَّ حسناء كالبدر ما حادثتها فترة حتى اطلقتَ ساقك للريح من فرط جهلها . وربَّ اخت لها تكاد تعد دميمة لكنها تسحرك بعلمها وبحسن قيامها على وظائفها . وريحانة النساء هي التي تحلت باهم سجاياهنَّ أي بالحس والشعور والأخلاق الفاضلة يدعمها جمال وتجمل وعلم باهم شئون هذه الحياة



الهيام بالذات

بحث نفسي

في الاساطير اليونانية ان نرجساً Narcissus كان فتىً غُرانقاً هيّأت له الطبيعة من وسامة الوجه وقسامة الملامح ما لم تهيئهُ لغيره، فكان فتنة العين وبهجة الخاطر. ولكن صروف الدهر أَبَتْ ان تهيىء له ليجتلي هذا الجمال الآذات يوم اذ رأى عن كثب غديراً صافياً فيممه ليبترد وشاهد هناك على صفحته الصقيلة صورتَهُ معكوسة. فرأى — اذ شاهدها — ما بهره وأفعم نفسه حسرة على هذا الجمال الضائع. وانثنى شارد اللب مبلبل المشاعر، ووقع من نفسه في نفسه ما ضيَّق افق نظره والهاه عن الحياة وصرفه عن التفكير الا بهذا الجمال الذاهب سدًى. وتولاّه ما يتولّى العاشق الولهان عادة من سهوم ووجوم، وتضاعفت حسرته على هذا الجمال القريب البعيد، وانتهى اخيراً الى ما ينتهي اليه اكثر العشاق المدلهين من ضعف وهزال أودى بحياته فراح ضحية محاسنه

وهكذا انتهت حياة هذا العاشق الغريب، ولكن اسمه اضحى علماً لكل اعجاب بالنفس مسرف. وقام علم النفس الحديث يستبطن بجرأة غوامض الميول النفسية ويسبر اغوارها ويتحسس نوازعها فلحظ هذا الميل ووهبه من عنايته ما صيّره موضوعاً تتجه اليه نظرات الاستغراب والتفحُّص. وقد وجَّه فرويد وتلامذته عنايتهم الى دراسة هذا الميل، فانتهوا — كعادتهم — الى نظرية تردُّه الى الشذوذ الجنسي، وهي الناحية التي يبالغون عادة في صبغ الوانها وحشد كل ما يتسنى لهم حشده من مظاهر النفس فيها. واضحى اسم هذا العاشق وما يُشتقُّ منه في لغة فرويد مرادفاً لناحية غريبة من نواحي الشذوذ الجنسي

***

ولو كان هذا الميل بمعناه العام، وهو الهيام بمحاسن النفس مقصوراً فقط على ما يمتُّ الى الجنس لحقَّ لنا ان نحسبهُ ميلاً شاذًّا لا يصيب جميع الناس على السواء، ولكن الواقع الذي لا ينكره الاختبار ان الهيام بالمحاسن الذاتية ايًّا كان نوعها والانقطاع الى التفكير فيها والاهمال النسبي او المطلق لكل ما عداها، هو ميل عام في صميم الحياة البشرية — تختلف

انصبة الناس فيه باختلاف امزجتهم واستعدادهم والبيئات التي تلابسهم ، ولكن شخصاً واحداً لا يعدمُ نصيباً من هذا الميل قلَّ ام وفُر هذا النصيب. واذا ظهر هذا الميل في بعض الناس بمظهر المبالغة في النمو فذلك انه قد يكون من احوال المحيط او من احوالهم الشخصية ما هو السبب في هذه المبالغة في النموّ . فالثابت ان المرض يقوّي هذا الميل في الناحية التي يكون فيها الهيام بالنفس في جزءٍ من اجزاء الجسم . فالمريض في زمن المرض او بعد الابلال لا يكاد يعنيه من امور الحياة الاّ ان يرى وجهه تعود اليه نضارته وبهجته اللتان كانتا له قبل المرض ، وتصبح المرآة اداةً ملازمة لهُ في من حياته الى ان تعود اليه صحته وتلهيهُ مهام الحياة عن التوجه بانتباهه الى هذه الناحية في جسمه . وعلى كل ليس المرض هو الحافز الوحيد لاثارة الاشفاق على الجسم . ويكفي ان يتناول مؤثرٌ من المؤثرات شخصية امرىء بالتبديل حتى تثور ثائرته، فلا يستقرّ له قرار الى ان تعود اليه معالم شخصيته . وقد جاء في كتاب الف ليلة وليلة ان حسن الاسكاف بُدِّل بطريقة سحرية شخصاً آخر هو الخليفة عينه . فأضحى نافذ الكلمة يأمر وينهي ويتمتع بكل ما يتمتع به الخليفة . ولكن خطر له ، وهو في ابّان نشوته ، انه اصبح شخصاً آخر ولم يعد حسن الاسكاف ، فثارت ثائرته عند هذا الخاطر وأخذ يتلمس نفسه مهتاجاً الى ان ايقن انهُ لم يزل هو هو لم يتغير . عندها طاب له ان يمضي في متعه ولذاته . وهذا الذي احسَّه حسن الاسكاف يحسُّه كل شخص حينما تهدّد شخصيته على ما نعتقد . فهذا الجسم الذي يصحبنا ما يصحبنا ويعاشرنا ما يعاشرنا ويبلو معنا من حلو الحياة ومرّها ما يبلو،يعزُّ علينا ان نبدّله حتى ولو حقق هذا التبديل اقصى خيالاتنا وأبعد احلامنا . فنحن — كما يقول نتشه — لا يطيب لنا العيش ولا نستشعر السعادة الاّ في حدود شخصيتنا . ليس هذا فقط ، بل نحن كثيراً ما نسعى ونتشوّف لان نصبغ الاشياء التي تحيط بنا بصبغة منتزعة من شخصيتنا . والفنّان هو اقدر الناس على ذلك ، لان في يده الوسيلة التي تعينه على ذلك . ويذهب بعض النقّاد الى اننا إنْ درسنا مخلّفات الفنانين العظام نجد ان اصحابها يميلون ميلاً ملحوظاً ليظهروا انفسهم في صورهم وتماثيلهم . ويقول مرجفسكي ان لينواردو دافنشي قد اثبت لنا على قماش صورة الجوكندا الشهيرة طرفاً غير يسير من نفسيته ذاتها

***

وقد يصاب المرء بعاهة جسمية ملازمة فيكتنفه من الالم والحسرة ما يجعله يزداد توجهاً الى السالم من جسمه يوليه عبادته وهيامه ، كالمرأة التي تفقد احد ولديها فتزداد عكوفاً على الآخر وتعلقاً به . ولا تستطيع ان تفسر اعجاب لورد بيرون بوجهه ذلك الاعجاب الشديد الاّ اذا ادركنا أنه كان اعرج يحاول جهده ان يُضفي بجمال وجهه على هذا العرج

وقد لا يوفّق المصاب بعاهة جسمية — كما وفق بيرون — الى بديل من العضو المصاب ليُضفي باكتماله على ذلك العضو ، فيتجه الى الناحية النفسية او العقلية يوليها هيامه وافتتانه . والتعاظم وهو ما يسمى بالانكليزية Megalomania هو شكل واضح من اشكال الهيام بالمحاسن العقلية او النفسية . وهو — لذلك — اظهر ما يكون في اصحاب العاهات الجسمية . فتراهم بعد ان تخذلهم اجسامهم يتوجهون الى الناحية النفسية او العقلية يتحسسون كل صفة من صفاتها ويقيسون كل ملكة من ملكاتها . فاذا ظهر لهم انهم على شيء من البروز في بعض هذه الصفات او الملكات عمدوا إلى الغلو في تقديرها وبالغوا في التفطن اليها واكثروا من التحدث عنها . ولا يُخامرك انهم في هذا يقولون خلاف ما يعتقدون او يقدرون لأنفسهم فهم مخلصون في ذلك كل الاخلاص ولا يهمهم اكتسبوا عطف الجمهور وتقديره ام خسروه كما في كثير من حالات الدفاع عن النفس الذي يتجه غالباً الى ارضاء النفس عن طريق ارضاء الغير عنها . ولهذا السبب عينهِ لا نشعر بهذا الميل في سلوك الناس واضحاً . فهو غالباً لا يتخذ صفة الاندفاع والبروز كالدفاع عن النفس الذي يتحدَّى غالباً مشاعر الناس ويثير انتباههم

***

على اننا نود ان نشير الى ان غير المصابين بعاهات جسمية لهم نصيبهم من التعاظم ايضاً . فالممثل الذي يبدع في تمثيل احدى الشخصيات التاريخية البارزة يجد من نفسهِ ميلاً الى صاحب تلك الشخصية ويستشعر كثيراً من الارتياح في اعادة مظاهرها في سلوكه . وهو اذا اعادها لا يعيدها شاعراً بانهُ ممثل مقلّد ليس غير ، بل هو يعيدها وكأنها جزء متمكّن من سلوكه ، فهذا نابليون في مظهره وذاك هنري الثامن في مسلكه وثالث لويس الرابع عشر في احاديثه وهكذا

وقد تقترن نزعة الدفاع عن النفس بالهيام بالذات . ولكن من السهل التفريق بينهما فالدفاع عن النفس يتجه الى ارضاء الناس واكتساب تقديرهم والهيام بالذات يتجه الى النفس في جميع اشكاله . وهذا يفسّر لنا اجمالاً لماذا لا نرتاح الى النظر الى انفسنا في صورة زرية او وضع شاذ رغماً عن ان عيناً واحدة لا ترانا . وقليلون حقاً هم الذين يستمرئون الوقوف امام مرآة محدَّبة او مقعّرة تعكس صورهم شوهاء مقلوبة رغم اقتناعهم بان هذه الحالات من التشويه هي حالات زائلة غير ملازمة . وقد ينفرد احدنا بنفسه في محل قفر فيجد من نفسه ميلاً الى اطلاق هذه النفس على سجيتها ويحب ان يتخلّص ولو قليلاً من اسر العادات والتقاليد ، فيشرع يأتي من الاصوات بكل نابر كريه ومن الحركات بكل شاذ غريب . ولكن لا يلبث ان يثوب الى رشده بعد ان كان اقرب الى الخيال والجنون منهُ الى العقل ، ويستولي عليهِ شعور عميق بالخجل يعيده حالاً الى الاتزان والسكينة او الحركة في حدود الاعتدال . ونعتقد تمام الاعتقاد ان

الذين صوروا لنا اناساً انقطعوا عن العالم وبانقطاعهم عنهُ اهملوا نفوسهم لم يصوروا لنا الطبيعة البشرية تصويراً صادقاً . ويقيننا انهُ لو اتيح لروبنصن كروزو موسى للحلاقة ومرآة يرى على صفحتها سحنته وتوفّر له قدر معقول من الاطمئنان الجسدي والعقلي لما سمح للحيته ان تنمو ذلك النمو الحر الذي يصفه لنا دي فو Defoe. فسلطة هذا الميل علنيًّا ليست بالضئيلة او المحدودة غير انهُ مما يلطف من هذا الميل ويفثأ من حدته ان لاكثرنا من شواغل الحياة ومهامّها ما يصرفنا عن التفكير في نفوسنا والانعكاف عليها . فنحن انسى ما نكون لمحاسننا او مساوئنا حينما نندفع في تيار الحياة الشديد غير ملوين على شيءٍ . ونحن افطن ما نكون لهذه المساوئ او المحاسن حينما نكون في عزلة او شبه عزلة عن تيار الحياة الجارف. ومن هنا ان المرأة ارسخ قدماً من الرجل في هذا الميل . فافق نظرها الضيق وقلّة مشاغلها العامة قد نصّبا من نفسها لنفسها معبوداً . ومن هنا مقام المرآة في حياة المرأة . ولم تبتعد المرأة عن انوثتها المستعذبة الاّ حينما انساقت مع تيار الحياة الجارف . ولذلك عادت لا يهمها كثيراً الثناء على جمالها وعاد الانتقاد لعضو من اعضائها لا يستدر دموعها، وبالاجمال اضحى لا يرضيها ان تقف من الرجل موقفها القديم — موقف الصبي المدلّل

ومتى تزوجت المرأة وانجبت البنين ازدادت بعداً عن العكوف على نفسها وتحوّل اعجابها بنفسها الى الاعجاب بزوجها وبنيها . واذا انتقدتَ طفلاً بحضرة امهِ فلا تنسَ انك بهذا تنال من امه قبل ان تنال منهُ . لهذا كان خير ما تكتسب بهِ عطف الام ان تثني على بنيها . ولا نغالي اذا قلنا ان جزءًا غير يسير من عاطفة الامومة مردّه هذا الميل

***

ومما يدلُّ على التحول الذي طرأ على خلق المرأة ايضاً انها أصبحت ارحب صدراً للنقد واقبل للفكاهة من ذي قبل . والفكاهة هي من اوكد الوسائل لتقليل حدة هذا الميل . فالماجن الفكه يتجه بمجونهِ وفكاهتهِ الى التقليل من قيمة الحياة والزراية عليها بحيث يهوّن على الناس مقدار ما يملكون منها ومقدار ما يخسرون . والفاتح والساخر — كما يقول احد الكتاب — سواءٌ : ذاك يأخذهُ بحد الحسام وهذا يأخذه بحد اللسان، الاّ ان الواحد يأخذهُ ليستولي عليهِ والآخر ليحتقره ويزري عليهِ . ومما يحبب صاحب الفكاهة الى الناس انهُ لا يسخر من الحياة والناس الذين يستميتون في سبيلها فقط ، بل هو يسخر من الحياة ومن الناس ومن نفسهِ على السواء . وهذا ما يجعل الفكاهة مستحبة مقبولة عند اكثر الناس وان كانوا هم مقصودين بها

اديب عباسي — شرق الاردن

الربع الخالي

فصل من كتاب تحت الطبع عن احوال نجد والحجاز

بقلم السيد فؤاد حمزه وكيل خارجية الحكومة العربية السعودية

« الربع الخالي » اسم حديث لمنطقة شاسعة من الرمال كانت تعرف فيما مضى باسم رملة يبرين . قال ياقوت [١] : «يبرين رمل لا تدرك اطرافه عن يمين مطلع الشمس من حجر اليمامة. وفي كتاب نصر : يبرين من اصقاع البحرين به منبران ، وهناك الرمل الموصوف بالكثرة بينه وبين الفلج [٢] ثلاث مراحل وبينه وبين الاحساء وهجر مرحلتان وهو فيما بينهما وبين مطلع سهيل

وقال الهمداني [٣] : وعن يمين البحرين ودونها يبرين والخن موضع فيه نخل كثير لبني ودعة ويبرين نخل وحصون وعيون جارية وغير جارية وسباخ . وقال ايضاً [٤] : يبرين في شرقي اليمامة وهي على محجة عُمان إلى مكة وكأنها ادخل في محاذاة اليمامة الى الجنوب شيئاً وبينهما وبين حضرموت العجم بلد واسع لا يقطع ومنظرها من اليمامة بين المشرق والجنوب ، وما بين يبرين وبين البحر الرمال ولها طريق الى اليمامة وإلى البحرين ، وهي ارض منقطعة بين الرمال وهي ذات نخل كثير من الصغرى والبرني وذات زرع قليل وبها بثق كبار على هيئة بعض البهرة وساكنها من لحوم العرب أي بطون العرب ويقال طخوم مثل لحوم، ثم استخرجتها من أيديهم قشير ، ثم اخرجت القرامطة بني قشير عنها

وأما ابعاد هذه المنطقة فهي غير محددة على وجه الصحة والمعروف بين العرب انها تبدأ من جنوبي واحة يبرين العائدة لآل مرة على مسيرة ثلاثة ايام منها نحو الجنوب وتمتد الى الهضاب الموازية لساحة البحر الهندي في الجنوب ، والى الجهة الغربية والغربية الجنوبية من هذه المقاطعة توجد مساحات شاسعة من الرمال الرقيقة المعروفة بالاحقاف ، وهذه يروى عنها انها مغراق تبتلع الاجسام الثقيلة التي تطؤها

وظل جهل الناس بهذه المنطقة المترامية الاطراف كبيراً بالرغم عن وجود كثيرين من البدو ممن اخترقوها في سيرهم من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب وعاشوا فيها وذلك لعدم تدوين شيء عن احوالها أو نشره . وقد سمعتُ جلالة الملك عبد العزيز يذكرانهُ في بعض

(١) م ٨ ص ٤٩٤ (٢) المظنون انها الافلاج اليوم (٣) ص ١٣٧ طبعة اوربا (٤) ص ١٦٥

سني ضيقه في ايامه الاولى كان يعتصم بأطراف الربع الخالي وانه اقام فيه مدة متوالية تقرب من اربعين يوماً ، وقد بُذلت جهود عديدة للوقوف على احوال هذه المنطقة وما حوتهُ من اناس وحيوان ونبات وما فيها من جبال ووديان ومياه وغدران الى ان وفق في السنتين الاخيرتين رجلان من مجازفي الانكليز الى اختراقها أحدهما وهو المستر برترام توماس من الجنوب الى الشمال الشرقي مجتازاً اطراف الرمال الكثيفة الشرقية وثانيهما المستر سنت جون فلبي من الشمال الى الجنوب الى نقطة متوسطة ، كان وصلها المستر توماس واتجه منها غرباً الى منتهى وادي الدواسر

ولسنا هنا في معرض الدخول في تفاصيل الرحلتين الآنفتي الذكر ، ولا كيفية القيام بهما ، وانما نكتفي بذكر أن المستر برترام توماس حاول اختراق منطقة الرمال الكثيفة عدة مرات ولم يتح له الوصول الى غرضه إلاّ في شتاء عام ١٩٣٠ — ١٩٣١ ففي ذلك الوقت أكمل معداته للسفر من ظفار على شاطئ المحيط الهندي مارًّا بسلسلة جبال القارة المشرفة على المحيط الهندي ومؤخرها يتصل بأقليم المهرة المعروف في تلك الجهات بنجد . وفي ١٩ ديسمبر سنة ١٩٣٠ كان بقرب شيصور [١] التي تبدأ منها المنحدرات الشمالية للبلاد النجدية هذه حيث المنتهى الجنوبي لمنطقة الرمال . وقد استغرق اختراقه الرمال من شيصور الى قرب شبه جزيرة قطر ما يقرب من شهر . وكانت طريقه على محاذاة الحافة الشرقية للربع الخالي الصحيح حيث تكثر المياه والآبار والخيران

وأما المستر فلبي فانهُ اتبع طريقاً آخر للسير . فسار من الهفوف (الحسا) في اواخر شهر يناير سنة ١٩٣٢ الى واحة جبرين ومنها اتجه جنوباً الى حيث يكون الربع الخالي في متوسط نقاطه من كل الجهات عند بئر نيفا [٢] وانطلق من هناك في اتجاه غربي مطرد الى مسافة ٢٥٠ ميلاً فوصل الى بلدة سليل في منتهى وادي الدواسر . ومن اجل التدقيق في العمل وربط النتائج التي حصل عليها هو بالنتائج التي حصل عليها المستر توماس في الشتاء السابق فقد وصل فلبي الى آبار شنة الواقعة على خط العرض ١٨ درجة و٥٩ دقيقة

وكان من نتائج الرحلتين الآنفتي الذكر أنهُ أمكن معرفة كثير من الحقائق الجغرافية والجيولوجية والاجتماعية لمنطقة الربع الخالي الشاسعة التي يجوزلنا أن نحددها بأنها واقعة بين خطي العرض ١٨ و٢٤ من العرض الشمالي والخطين ٤٦ و٥٤ من الطول الشرقي

نعم ان الرحالتين توماس وفيلبي لم يتمكنا من زيارة كافة أصقاع الربع الخالي ، وبقيت أمام طلاب الارتياد مساحات اخرى يجب تعرف احوالها ، إلاّ أنهما وفقا بصورة جازمة الى إيضاح

(١) تقع على نقطة تقاطع خطى الطول الشرقي ٥٣°٣٠َ والعرض الشمالي ١٨°١٥َ

(٢) تقع هذه الآبار عند نقطة تقاطع خطي الطول الشرقي ٤٩°٣٥َ والعرض الشمالي ١٩°٥٠َ

المهم من طبيعة هذه البلاد وتكوينها وما فيها من تضاريس طبيعية واحوال عمرانية واجتماعية[1] مما نصفهُ بايجاز فيما يلي :

قال توماس [2] يتألف الربع الخالي من أراض صحراوية يكاد يكون قسماها الشرقي والجنوبي الى حد يقرب من ثلث مساحتها كلها عبارة عن اراضي الهضبات والقسم الباقي عبارة عن أوقيانوس من الرمال المنتشرة نحو الشمال والغرب وتسمى الهضاب الجنوبية نجداً والشرقية سيحا في قسمها الشمالي وجادة الحراسيس في قسمها الجنوبي حالة كون المناطق الرملية معروفة باسم الرمل أو الرمال

وقد وجد المستر توماس أن حافة الرمال الجنوبية تمتد على محاذاة الساحل الجنوبي للبلاد العربية من رملة مغشن [3] إلى شمال حضرموت في مسافة تتراوح بين ٢٠٠ — ٢٥٠ ميلاً ، وان انحدار هذه الحافة هو من الجنوب الى الشمال ومن الغرب إلى الشرق مما يدل دلالة صريحة واضحة على كيفية نشوء هذه الرمال في الازمنة الجيولوجية واتصالها بالقارة العربية الافريقية التي كان البحر الكريتاسي يحدها من الشرق . وذكر أيضاً أن حافة الرمال من جهة المشرق تتجه إلى الشمال والشمال الشرقي اعتباراً من رملة مغشن السالفة الذكر على مسيرة أربعة أيام للجمال حتى قرن السحامة ومنها ترتفع شمالاً إلى قرب خليج فارس

وفي أواسط منطقة الرمال ترتفع سلسلة عروق الضحية الكلسية على شكل نعل فرس ترتكز قاعدته على هضبات المنطقة النجدية المتاخمة للمحيط الهندي ويمتد ساعده الغربي على محاذاة

---

(١) كان المستر برترام توماس وزيراً للمالية في حكومة سلطان مسقط ، فاتيحت له الفرصة للوقوف على أحوال القسم الجنوبي من بلاد العرب وزيارة بعض الاماكن البعيدة عن العمران ودراسة احوال تلك البلاد وما فيها . وقد اخترق الربع الخالي في أطرافه الشرقية عام ١٩٣٠ — ١٩٣١ وكان قبل ذلك ببضع سنوات يواصل البحث والارتياد عن أحواله وأحوال سكانه ومعايشهم ، وقد وضع عن رحلاته العديدة هذه محاضرات ورسائل وكتباً عديدة أهمها كتابه عن اختراق الربع الخالي وقد سماه (العربية السعيدة) ونشر بمعرفة يوناثان كايب بلندن

وأما المستر سنت جون فلبي فان معرفته بالبلاد العربية مشهورة منذ ان كان موظفاً في الحملة العراقية أيام الحرب العمومية وقد وضع عن رحلاته في البلاد العربية ثلاثة مجلدات سمى الاثنين الاولين منها باسم « قلب البلاد العربية » والثالث باسم « بلاد الوهابيين » ومنذ بضع سنوات ترك خدمة حكومته وأقام في جدة متعاطياً التجارة وجل قصده من ذلك حسب كلامه أن يفوز ببغيته العظمى يوماً ما وهو اجتياز الربع الخالي وارتياد مجاهله . وقد وفق في النهاية الى الوصول الى غرضه وتم له الفوز الاكبر بالقيام برحلته الجريئة في مطلع العام الحالي ١٩٣٢ . وقد وضع عن رحلته الاخيرة هذه كتاباً يصف فيه مشاهداته كما انه قدم تقريراً مفصلا حوى ملخص ما يهم الوقوف عليه فيما يتعلق بالربع الخالي . وقد كتبت هذه الاسطر قبل أن ينشر كتابه

(٢) العربية السعيدة ص ١٨٠

(٣) تقع رملة مغشن بين درجتي الطول الشرقي ٥٤ و ٥٥ ودرجتي العرض الشمالي ١٩ و ٢٠

خط الطول الشرقي ٤٩° إلى قرب خط العرض الشمالي ٢٠° وأما ساعده الشرقي فيسير على محاذاة خط الطول الشرقي ٥٣° إلى قرب خط العرض الشمالي ٢٢°٣٠َ . وهذه المنطقة هي بحق منطقة الرمال الكثيفة في الربع الخالي ولا يسكن فيها من القبائل إلاّ الموغل في الهمجية والوحشية والمتحمل لشظف العيش ومتاعب الحياة . وأهم هذه القبائل أربعة . قبيلة آل مرة بافخاذها ، وقبيلة آل كثير بفخذيها المعلومين : آل راشد وبيت أماني ، وقبيلتا العوامر والمناصير والاولى تسكن في الشمال والغرب والثانية في الجنوب والاثنتان الاخيرتان في الشرق والشمال الشرقي من الربع الخالي

ويمكن القول أن الربع الخالي يقسم البلاد العربية من الوجهة الجيولوجية ، ويؤلف بين أقسامها حدًّا فاصلاً بارز الصفات والتكوين . فقد أوضحنا في البحث العائد لطبقات الارض كيف أن الابحر التي كانت في الاعصر الجيولوجية ممتدة من سواحل البحر الابيض المتوسط إلى الحماد فالنفود الكبير فالمنحدرات الشرقية لسلسلة جبال السراة كانت تلاطم في أطراف الربع الخالي مناطق أرضية تختلف من حيث التركيب الجيولوجي عن جاراتها . فما كان واقعاً من البلاد العربية إلى الغرب والشمال الغربي والجنوب من الربع الخالي هو في الحقيقة قسم من المنطقة الافريقية جيولوجيًّا حالة كون ما كان منها واقعاً الى الشرق والشمال الشرقي منه هو من حيث التكوين الجيولوجي جزء من بلاد إيران ، وقد وضح ذلك من تركيب الصخور والطبقات الارضية في هذه المناطق من البلاد العربية . وأما تكوين الربع الخالي نفسه فمن غير الممكن تعيين صلته بأي القسمين إلاّ أنه مما أمكن جمعه من نماذج الرمال والصخور المأخوذة من جهات مختلفة فيه يمكن القول بأنه مكوّن من سطح كاسي الاصل تكسو الطبقات العليا منه رمال يشوبها كثير من حبيبات الكلس والجير ، وقد وجد توماس وفلبي بقايا متحجرات بحرية ومائية في جهات عديدة لا يدع وجودها مجالاً للشك في أن البحر كان في الأعصر الجيولوجية غامراً هذه المنطقة بمياهه المالحة في العصرين الجيولوجيين المعروفين باسم العصر الايوسيني والكريتاسي

وأما ارتفاع الربع الخالي عن سطح البحر فيختلف كثيراً بالنسبة إلى المواقع فهو في الجنوب أعظم ارتفاعاً منه في الشرق والشمال إذ بينما يكون ارتفاع الهضبات الجنوبية عند جبال القارة ٢٠٠٠ قدم فان ارتفاع المنطقة الواقعة على حافة الرمال لا يزيد على ١١٠٠ قدم وقوة الانحدار لا تزيد على ٩٠٠ قدم في مسافة لا تبلغ مائة ميل ، ومن حافة الرمال الجنوبية إلى حافتها الشمالية عند بنيان [1] يبلغ مجموع الانحدار ٩٠٠ قدم في مسافة تقرب من ٣٠٠ ميل . ومن المفيد

(١) بنيان واقعة على نقطة تقاطع خط الطول الشرقي ١١°٥٠َ بخط العرض الشمالي ٢٣°١١َ٤٠ً

هنا أن نذكر وصف المنطقة التي اخترقها المستر توماس من حيث الارتفاع وعرض كل قسم على حدة ننقله عن كتابه الآنف الذكر مبتدئين فيه من الجنوب الى الشمال :

المسافة بالاميال	نوع الارض
٢٠	١ أرض مرتفعة ذات لون احمر تكثر فيها الاكثبة
٤٠	٢ أرض مرتفعة أقل تضريساً ذات رمل احمر وفيها تلال تشبه نعل الفرس
١٠٠	٣ سلاسل بيضاء متوازية تعترضها أودية ذات رمل احمر
٧٠	٤ رمال متماوجة ذات لون ابيض
٥٠	٥ رمال متماوجة ذات لون ابيض فيها تلال ذات لون احمر
١٠٠	٦ هضاب وسبخات وتلال حمراء على التوالي

ولم يمكن التحقيق عن الرمال التي دعيت بالبحر السافي ، وهي الرمال الرقيقة التي تبتلع الاثقال التي تطأها ، وانما قد تكرر ذكرها في جهات الاحقاف الى الغرب الجنوبي من الربع الخالي حيث ذكر الالماني فون فردي كثيراً عنها ، وأما توماس فانه ذكر ارضاً اخرى تدعى أم الصميم تبلغ مساحتها يومين على سير الجمل في كافة الاطراف فانها مغراق لا يمكن اجتيازها ، والغالب انها من نوع السبخات التي تصادف في سائر انحاء البلاد العربية ، فاذا كان الجوّ رطباً كان العبور منها مستحيلاً لرخاوة طينتها وقلة مقاومتها للاثقال

وأما المياه في الربع الخالي فانها قليلة بل معدومة في جهاته الغربية وكلما اتجه الى الشرق ازدادت مقدار المياه وقل عمقها داخل الارض . وقد كانت طريق المستر توماس في منطقة يمكن ان ندعوها بحق كأنها حافة الربع الخالي الحقيقي الشرقية. فهذه المنطقة مملوءة بالآبار والخبران إلاّ أن أكثر مائها مرٌّ لا يستساغ مطلقاً ويبلغ عمق البئر في بعض الاماكن ٣٠ باعاً أو اكثر. ويقل هذا العمق في الجهات الشرقية إلى أن يصبح ضحضاحاً قليل العمق بالمرة . ويمكن قسمة المياه إلى ثلاثة أقسام : ١ الغدران والخباري التي يجتمع في باطنها ماء المطر ٢ الآبار العظيمة العمق ذات الماء الذي يمكن شربه ٣ الآبار المتوسطة أو القليلة العمق وهي ذات ماء ملح أجاج لا يشرب . فالمنطقة التي اجتازها المستر توماس غنية بالآبار من النوعين بينما ان المنطقة التي اخترقها فلبي من نيفا إلى سليل وتبلغ أكثر من ٢٥٠ ميلاً معدومة من الماء من جميع أنواعه

ونظراً لانعدام الماء (ما عدا أيام الامطار) في المنطقة الواقعة الى الغرب من الطريق التي سلكها توماس وهي المنطقة التي يصح أن يطلق عليها اسم الربع الخالي فان الحياة الحيوانية

والنباتية تكاد تكون معدومة فيها . وقد ذكر المستر فلبي انه بعد خروجه من واحة جبرين لم يشاهد على طول الطريق الممتد الى اواسط الربع الخالي ثم من نيفا الى سليل أي انسان كان، مع ان المدة كانت ٥٣ يوماً على سير الابل . والذي يتراءى لنا انقلة ارتياد البدو لهذه المنطقة انما هو ناشيء في الغالب عن قلة المياه والمراعي اكثر مما هو ناشيء عن المفاوز والمخاطر . فالمرور من جهات مسقط وعُمان وظفار وحضرموت إلى شمال الجزيرة وغربها أمر لاصعوبة فيه إلاَّ من جهة قلة المياه والمراعي ، وكانت محجة عمان الى مكة تمر وسط الربع الخالي إلى يبرين ومنها إلى الافلاج ، وهنالك طريق اخرى ما بين نجد والمحيط الهندي عن طريق أواسط الربع الخالي ايضاً . وهذه الطريق هي التي ورد ذكرها في الاساطير القديمة أن المر واللبان من ظفار ، كانت القوافل تجلبه منها . وقد انعدمت الطرق التي كانت تخترقها القوافل ، وضاعت آثارها ، أولاً لهجرها بعد اكتشاف الطرق البحرية ، وثانياً لأن الرياح الشديدة الهبوب تسفي الرمال بشدة فتغير معالم الأرض وطبيعتها وتنقل الاكثبة الرملية من مكان الى آخر

وقد ذكر لنا بعض من قابلنا من البدو الذين زاروا تلك الانحاء أن عشب الربع الخالي وماءه يجعلان دم الحيوان أسود فاحماً ، ولم يتسنَّ لنا تعليل هذه الظاهرة الفسيولوجية إلاَّ بملوحة العشب والماء

وأما من حيث العمران فقد كان الشائع عند البدو ان في الربع الخالي آثار عمران عديدة خلفها الاقدمون من حضارات بائدة ، وكانوا يتناقلون أقوالاً متناقضة عن وجود خرابات في وبار القريبة من بئر مغينمة التي زارها المستر فلبي ووجدها بئراً غزيرة الماء ، وكان المقول ان وبار [1] هذه تقع على بعد مرحلتين

ثلاث من واحة جبرين وعلى طريق القوافل التجارية من ظفار وأنها كانت تظهر وتختفي بفعل الرياح الموسمية التي تقشع الرمل عنها فتظهر آثار خرائب وقلاع وقصور عديدة حتى دعيت باسم قصور أم الحديد والحديدة . وقد حقق المستر فلبي بنفسه عن هذه الاشاعات وزار المكانين المشار اليهما وهما يقعان ما بين درجتي الطول الشرقي ٥٠° و ٥١° والعرض الشمالي ٣٠َ و ٢١° و ٢٢° فوجد أن ما كان يسميه البدو آثار عمدان وخرائب قصور دامرة إن هو إلاَّ بقايا مخروط بركاني عظيم خمد منذ أزمنة متطاولة وبقيت من آثار اندفاعه متحجرات بركانية محروقة ثقيلة الوزن وبلون الحديد فكان البدو يظنونها آثار قلاع وخرائب . وقد جلب المستر فلبي معه بعض حجارة هذه المنطقة وجلب أيضاً حبوب الدخان البركاني المتبلور الذي يسميه البدو باللؤلؤ الاسود ، وشاهد كاتب الاسطر هذه الحبوب فاذا بها أصغر من حجم الحمص بقليل خفيفة الوزن سوداء اللون براقة المظهر

(١) قال ياقوت م ٨ ص ٣٩٢ ان وبار كانت من محال عاد بين رمال يبرين وحضرموت ونجران واقليم مهرة

وسيكون من آثار رحلتي توماس وفلبي اللتين لخصنا ما كان من نتائجها العلمية أن البياض الذي اعتاد الناس تركه على خرائط البلاد العربية باسم « الربع الخالي » سيملأ بأسماء الاماكن والآبار والهضاب والرمال المختلفة وستنقص الحماسة التي كان يشعر بها جميع من يعنى بالبلاد العربية لمعرفة حقيقة هذا القسم ، وتصبح اسماء مغينمة وشنة ونيفا وأبو بحر وهدبة ودكاكة وبني زيناان والعويرق وغيرها من الاسماء المعتادة كالدهناء والصمان وخف وغيرها

خامساً — منطقة الدهناء . قال ياقوت في معجمه [١] وهي سبعة أجبل من الرمل في عرضها بين كل جبلين شقيقة وطولها من حزن ينسوعة الى رمل يبرين . وهي من أكثر بلاد الله كلأ مع قلة مطر ومياه ، واذا أخصبت الدهناء ربعت العرب جميعاً لسعتها وكثرة شجرها، وقد جعلوا رمال الدهناء بمنزلة بعير وجعلوا أقاعها التي شخصت من مجمتها نحو الينسوعة ثفناً كثفن البعير وهي خمسة أجبل على عدد الثفنات فالجبل الاعلى منها الأدنى الى حفر بني سعد واسمه خشاخش ، والجبل الثاني يسمى حُماطان ، والثالث جبل الرمث ، والرابع معبر ، والخامس جبل حُزوى

***

وقال الويس موزيل [١] : الدهناء فرع من النفود لا يتجاوز عرضها الثلاثين كيلومتراً لكنها تمتد الى مسافة مئات الكيلومترات ، وتبدأ في الشمال من نقطة واقعة على بعد خمسين كيلومتراً عن درب الحج من جهة العراق عند طريق المريط الفاصل بينها وبين النفود وليست رمال الدهناء شاهقة ولا يتكوّن فيها قعور وطعوز وافلاق كالنفود ولكن فيها النوازي وهي سهول رملية رملها ضحضاح يستر طبقة صخرية منها أرض لبيد وفيها ايضاً الدحول [٣]

ومياه الدهناء حالياً قليلة ولكن فيها آثار آبار حفرها الاقدمون في اراضيها وطمرتها الرمال الآن

وقال فلبي [٤] : ان الدهناء عبارة عن سلاسل رملية وآكام وكثبان متقطعة متوسط ارتفاعها عن سطح البحر ١٢٠٠ — ١٥٠٠ قدم ، وتخترق الطريق الموصلة بين الحسا والرياض عند جسرا من جهة المشرق وبعد مسيرة نحو ثمانية أميال يصل المار الى سلسلتي بني بدالى وبعد هذه تشتد كثافة رمل الدهناء ويصبح السير فيها اكثر صعوبة من الاول حتى يصل الى مزعلات التي يبلغ عرضها نحو ستة أميال وبعدها من المنطقة الاولى نحو عشرة أميال وأما القادم من الكويت

(١) مجلد ٤ ص ١١٥
(٢) شمال نجد ص ١٦٠
(٣) الدحل شق في باطن الطبقة الصخرية بين الصمان والدهناء يجتمع فيه ماء المطر ويظل فيها مدة
(٤) قلب جزيرة العرب مجلد أول ص ٤٩ و ٢٧٣

والعراق بطريق الدبدبة فانهُ يصل الى عريق الدحول الذي هو مبتدأ الدهناء من هذه الجهة ولكنهُ ليس منها بل لا بد للمسافر من السير مقدار ستة أميال أو سبعة لكي يصل الى الدهناء الحقيقية ويحتاج قطع الدهناء من عريق الدحول الى قطر ما يقرب من مسيرة يوم وبُعد أحد الموقعين عن الآخر يبلغ خمسة وعشرين ميلاً منها ١٥ ميلاً ذات رمل كثيف صعب المرور. وقد ذكر فلبي طريقين من هذه الجهة وعدَّ من أقسام الدهناء مريط ومخيط وأرض عقل يفصل بينها خبوب أهمها خب النوم وخب الرضم

***

ونقول ان لفظ الدهناء يطلق على أسياف رملية منفصلة عن النفود الشمالي وواصلة بينهُ الاَّ في مسافة قصيرة بين النفود الجنوبي الكبير المسمى بالربع الخالي وتنتشر الدهناء بشكل حبال وخيوط وألسنة رملية بينها فجوات صلبة والدهناء بمجموعها تفصل بين مرتفعات العارض والقصيم والسدير وبين سواحل الحسا والكويت ويرى بعضهم وجوب اطلاق اسم الدهناء على القسم المتوسط من جبل السلسلة الشرقية من هذه المنطقة. وجبال الرمال الدهناوية عائق من أهم العوائق التي تمنع المسير إذ أنها مؤلفة من سلسلة من الاكثبة قد تكون متصلة وقد تكون موزعة بشكل غير منتظم ولا متسلسل غير ان الذي يجعل اختراق هذه الاصقاع ممكناً هو كون هذه الاسياف قليلة العرض وبين الواحد والآخر خبٌّ صلب القاع وكون عرض الدهناء كلها ليس عظيماً جداً تبدأ الدهناء من جوار آبار لينة في الباطن وتمتد الى الشرق الجنوبي والجنوب مسافة لا تقل عن ٦٠٠ ميل قبل أن تبتلعها لجة رمال الربع الخالي، ولا يبلغ عرضها في مبدإها الشمالي أكثر من ١١ ميلاً ولكنها على بعد ٤٠ ميلاً من الجنوب عن لينة تستعرض وتصبح ١٥ ميلاً ويبلغ ارتفاع بعض كثبانها ٥٠ قدماً وتسير من هذه الجهة في وجهة جنوبية شرقية الى مسافة ١٠٠ ميل حيث يكون عرضها ١٥ ميلا ايضاً وهنا تتقاطع مع وادي الرمَّا (وادي الرمَّا بخلاف من يقرأه بالرمة) وتظل على ذلك الشكل الى مسافة خمسين ميلاً اخرى ثم تبتدىء بالانقسام الى الحبال التي هي الظاهرة المميزة لها وتصبح هذه الحبال بعد مسافة قصيرة اربعة ويختلف عرض كل حبل من نصف ميل الى اربعة اميال بينما يكون عرض السهل الخب الفاصل بين الحبال ما يقرب من نصف ميل الى خمسة اميال ايضاً

ثم يزيد عرض الدهناء كلما اتجهت للجنوب الى ان تبلغ معظمها حينما تنقسم الى سبعة حبال. وتسير الدهناء مسافة اخرى في اتجاه جنوبي الى مسافة ١٢٠ ميلاً أخرى حيث تقطعها طريق الحسا — الرياض وهنا يكون عرضها ١٨ ميلاً فقط

ويحد الدهناء من شرقيها مقاطعة سهلة مرتفعة تعرف بالصمان سنأتي على وصفها فيما يلي والطرق المطروقة التي تخترق الدهناء من الشرق الى الغرب اهمها ثلاث: احداها وأقصاها

نحو الشمال الطريق التي تصل بين العراق والكويت من جهة الدبدبة وهي ممتدة من عريق الدحول الى بطرا ، والثانية من الكويت بطريق الصافة ووادي الرمة الى الزلفي والقصيم ، والثالثة من الحسا الى الرياض عن جسرا و بني بدالي ومزعلات الى ابي جفان فالرياض . وقد عد الشيخ يوسف ياسين هذه العروض فوجدها من حفر بني سعد الى الصمان

(١) — عريق عنق الجمل
(٢) — عريق ابي شمام
(٣) — عريق الحمراني
(٤) — السراوى الأول
(٥) — السراوى الثاني
(٦) — جهام
(٧) — الدحول او حجلان[1]

سادساً — منطقة الصمان : هذه هي المنطقة الجغرافية السادسة في المملكة اعتباراً من ساحل البحر الاحمر ، وهي واقعة بين الدهناء غرباً و المنطقة السهلية الساحلية شرقاً، وتختلف عرضها من ٥٠ إلى ٩٠ ميلاً ، وهي في الشمال أعرض منها في الوسط والجنوب ، ويبلغ متوسط ارتفاعها عن سطح البحر ١٣٥٠ قدماً

أما ارض هذه المنطقة فمن الممكن حسبانها كامتداد لمنطقة سهول الحجرا وتتكوّن من الحجر الرملي على شكل تلال متقاربة في بعض أنحائها أحجار كلسية . ومع أن الصمان هضاب كما ذكرنا فان فيها مساحات شاسعة مؤلفة من سهول تنحدر تدريجاً في هبوطها الى جهة الساحل. ويوجد بقرب هذه المنطقة مجمع ثلاث آبار مهمة : الحفر والصافة والوبرا ، ولكن الصمان يغلب عليه الجفاف ولا يوجد فيه ماء يذكر إلاّ ما تجمع بعد الامطار

سابعاً : المنطقة الساحلية الشرقية يبلغ عرضها خمسين ميلاً وهي أرض رملية تشبه في تكوينها أرض التهائم في جهة الساحل الغربي وهي قليلة الانبات إلاّ في الواحات الواقعة في أطرافها وهي القطيف والحسا . والمياه في هذه الواحات كثيرة جدّاً وقد أطلق اسم الحسا على هذه المنطقة من كثرة الاحساء (واحدها حسو) وهو الينبوع الذي يمكن حفره على مسافة قريبة من سطح الارض

---

(١) اجتاز كاتب هذه الاسطر الدهناء في طريقه من الكويت الى الرياض بالسيارة يوم ١٨ يوليو ١٩٣٢ وكانت طريقة السير كما يأتي : الكويت — قرية العليا — منيصفة — احمير — أم العصافير المهيريات — ضلع كارة الفرج — دحل أبا الجرفان — خبارى الثماليل — دحل الهشامي — عريق الدحول المرباخ وهو اول الدهناء — عرق جهام — خبة الجندلية — عرق السرو وخبته — عرق الرويكب وخبته عرق عمر وخبته — عرق الحمراوي وخبته — الشمام ومنها الى رماح ومنها الى الرياض

معنى الجاذبية

نظرية معروضة للتمحيص

حتمية فراغ كل مركز . فراغ مركز الشمس . وفراغ مركز المجرة . وفراغ مركز الكون الاعظم

لنقولا الحداد

في هذا الجدول ترى في الحقل الاول ابعاد السيارات عن الشمس بمقياس بُعْد الارض عنها ، باعتبار ان بعد الارض واحد . فبُعْد المريخ كبعد الارض مرة ونصف مرة تقريباً . وبُعْد المشتري خمس مرات وخُمْس وهلمّ جرّا . وفي الحقل الثاني سرعة كل سيّار في الثانية . وفي الحقل الثالث مدّة دورة كاملة لكل سيار بحساب الوقت على الارض

اذا التى القارىء نظرة سطحية على هذا الجدول فقد يظن ان لا تناسب بين السيارات من حيث ابعادها وسرعاتها ومدات دورانها .

ولكن اذا درسها درساً رياضيًّا اتضح له : اولاً ان بين البعد والسرعة والمدة لكل سيار تناسباً رياضيًّا تامًّا . وثانياً ان بين السيارات انفسها تناسباً رياضيًّا ايضاً له قاعدة عامة تتمشى

كلها عليها ، واساس هذه القاعدة ناموس الجاذبية . وبمراعاة هذه القاعدة يمكن التوصل الى حقائق علمية ذات شأن

ان ذلك التناسب المشار اليه يرينا ان سرعة السيار وبعده مرتبطان احدهما بالآخر كل الارتباط بحيث يتضح لنا ان سرعة اي سيّار تقرّر بعدهُ عن الشمس ، او بالعكس ان بعده يقرّر سرعته . وكلا البعد والسرعة يقرران مدة دورته . فهو معلوم ان البعد يمثل نصف قطر (شعاع) الدائرة التي يدورها السيار حول الشمس ، وان بين الشعاع والدائرة نسبة ثابتة وهي ان مقسوم الدائرة على الشعاع يساوي ٣٫١٤١٦ فاذا ضربت كل بُعد من ابعاد السيارات بهذا العدد حصل طول المسافة المستديرة التي يسيرها السيار

جدول ابعاد السيارات

وسرعاتها ومدات دورانها

اسم السيار	بعده عن الشمس بالنسبة لبعد الارض	سرعته بالاميال بالثانية	مدة دورانه بالنسبة لمدة الارض اي سنة ارضية
عطارد	٠٫٣٩	٢٩٫٧	٠٫٢٤
الزهرة	٠٫٧٢	٢١٫٧	٠٫٦٢
الارض	١٫	١٨٫٥	١٫
المريخ	١٫٥٢	١٥٫٠	١٫٨٨
المشترى	٥٫٢٠	٨٫١	١١٫٨٦
زحل	٩٫٤٥	٦٫٠	٢٩٫٤٦
اورانوس	١٩٫١٩	٤٫٢	٨٤٫٠١
نبتون	٣٠٫٠٧	٣٫٤	١٦٤٫٧٨
بلوتو	٣٩٫٨	٢٫٩	٢٤٨٫

حاشية : الارض تبعد عن الشمس ٩٣٫٠٠٠٫٠٠٠ ميل فاذا ضربت الابعاد في الحقل الاول بهذا العدد حصلت على الابعاد بالاميال

ناموس النسبة بين البعد والسرعة

ان ناموس الجاذبية الذي اكتشفهُ نيوتن ينص على ان قوتي التجاذب بين جرمين تناسبان مربعي بعديهما بالقلب، اي ان نسبة قوة الجذب في الواحد الى قوة الجذب في الثاني كنسبة مربع بعد الثاني الى مربع بعد الاول عن المركز الذي ينجذب اليهِ الجرمان هكذا : —

$$\frac{\text{و}}{\text{وو}} = \frac{\text{شش}^2}{\text{ش}^2}$$

بحيث ان و ترمز عن قوة جذب الجرم الاول نحو المركز

وو ترمز عن قوة جذب الجرم الثاني نحو المركز

ش ترمز عن بعد الجرم الاول عن مركز التجاذب

شش ترمز عن بعد الجرم الثاني عن مركز التجاذب

وقد اخترنا الحرف ش لانهُ اول حرف من «شعاع» أي نصف قطر الدائرة ، وهو يمثل البعد عن المركز

ثم ان ناموس فعل القوة المركزية على الجسم المتسارع يعبّر عنهُ بهذه المعادلة المقررة في كتب الطبيعيات

$\text{و} = \frac{\text{س}^2}{\text{ش}}$ باعتبار ان س ترمز عن السرعة أي ان القوة تساوي مربع السرعة مقسوماً على البُعد . فمن هاتين المعادلتين استخرجتُ المعادلة التالية : —

$\frac{\text{ش}}{\text{شش}} = \frac{\text{سس}^2}{\text{س}^2}$ أي ان نسبة بعد الجرم الاول عن الشمس الى بعدالجرم الثاني عنها كنسبة مربع سرعة الثاني الى مربع سرعة الاول بالثانية . وبالنسبة هكذا :—

$\text{ش} : \text{شش} : \text{سس}^2 : \text{س}^2$

باعتبار ان س = سرعة السيار الاول

سس = سرعة السيار الثاني

وقد ارجأت البرهان على هذه المعادلة الى آخر هذا المقال لمن يود ان يتحققهُ

بحسب هذه المعادلة نستطيع ان نستخرج بعد السيار عن الشمس اذا عرفنا معدّل سرعته في الثانية . او بالعكس نستطيع ان نستخرج السرعة اذا عرفنا البعد . مثال ذلك ان بعدالمريخ عن الشمس يساوي تقريباً بعد الارض عنها مرة ونصف (١،٥٢) فما هو معدل سرعته ؟

بابدال الارقام بالاحرف لنا : —

$$\frac{\text{١ (بعد الارض)}}{\text{١،٥٢ (بعد المريخ)}} = \frac{\text{ك}^2 \text{ (معدل سرعة المريخ)}}{(\text{١٨،٥})^2 \text{معدل سرعة الارض}} \text{ (بالثانية)}$$

بعملية جبرية بسيطة لنا : $١ \times (١٨٦٥)^{٢} = ١٦٥٢ ك^{٢}$

او $ك^{٢} = \frac{(١٨٦٥)^{٢}}{١٦٥٢}$ $ك = ١٥$ وهي سرعة المريخ

ولنفرض اننا نعرف سرعة المريخ ونود ان نعرف بعده فتكون المعادلة هكذا :

$$\frac{١}{ك} = \frac{(١٥^{٢})}{(١٨٦٥^{٢})} \quad ك = \frac{(١٨٦٥)^{٢}}{(١٥)^{٢}} = ١٦٥٢$$ وهو بعد المريخ

* * *

يمكن القارئ ان يمتحن هذه المعادلة في جميع السيارات المذكورة في الجدول على هذا النحو فيجدها صحيحة [١]

والآن لنفرض ان سياراً او جسماً يسير على بُعْد نصف من مئة (من بعد الارض) عن مركز الشمس (وحينئذٍ يكون على بعد بعض الوف الاميال عن سطح الشمس [٢]). فكم يجب ان تكون سرعته لكيلا يسقط على سطح الشمس او يشرد عنها ؟

بحسب معادلتنا التي نحن بصددها لنا : —

$$\frac{١}{٠٫٠٠٥} = \frac{ك^{٢}}{(١٨٦٥^{٢})} \quad \text{بالجبر} \quad ك^{٢} = \frac{٣٤٢٦٢٥}{٠٫٠٠٥}$$

ك = ٢٦٣ ميلاً تقريباً سرعة الجرم المفروض بالثانية

اذا ضربنا مضاعف بعده عن مركز الشمس [٢] بالعدد ٣٫١٤ (الذي هو نسبة المحيط الى القطر) حصلنا على طول المدار الذي يدور فيهِ الجرم . ثم اذا قسمنا الحاصل على ٢٦٣ (معدّل سرعته الذي استخرجناه) عرفنا في كم ثانية يتم دورته ؟ هكذا : —

$$\frac{٣٫١٤ \times ٤٦٥٠٠٠ \times ٢}{٢٦٣} = ١١١٠٤$$ ثانية تساوي ٣ ساعات ٦ دقائق تقريباً مدة دورته حول الشمس على ذلك البعد عنها

والآن

لنفرض ان جسماً في قلب الشمس يدور حول مركزها بسرعة النور او سرعة الامواج الكهربائية المغنطيسية التي هي كسرعة النور (لان النور نفسه من صنف هذه الامواج)— فكم يجب ان يكون بعده عن مركز الشمس ؟

---

(١) وقد امتحنتها في اقمار المشتري بالنسبة الى بعدها عن مركزها فوجدتها صحيحة

(٢) نصف قطر الشمس يساوي ٤٣٣٢٥٠ ميلا . ونصف من مائة من بعد الارض عن مركز الشمس يساوي $\frac{٥}{٩٣٠٠٠٠٠٠}$ = ٤٦٥٠٠٠ فالفرق بينهما ٣١٧٥٠ ميلا وهو بعد الجرم المفروض عن سطح الشمس

(سرعة النور ١٨٦٠٠٠ ميل بالثانية)

$$\frac{١}{ك} = \frac{(١٨٦٠٠٠)^٢}{(١٨٫٥)^٢}$$ بالجبر $$ك = \frac{١}{١٠١٫٠٨٢٫٩١٦}$$ من بعد الارض عن الشمس

ولكن بعد الارض عن الشمس الذي عبرنا عنهُ بوحدة ١ هو ٩٣ مليون ميل ، اذاً

$$ك = \frac{٩٣٠٠٠٠٠٠}{١٠١٠٨٢٩١٦}$$ ميل اي $$\frac{٩٣}{١٠١}$$ تقريباً . او قل « ميل » بالتقريب

فراغ المركز

بناءً على عبارة لورنتز التي شرحناها في مقال سابق وهي : —

$$\sqrt{١ - \frac{س^٢}{ن^٢}}$$

لا يمكن ان توجد في الوجود سرعة تضاهي سرعة النور او سرعة الامواج الكهربائية المغنطيسية ، لان الجسم الذي يسير بسرعة النور يتقلص الى ان يفنى بتاتاً — بالبرهان ، افرض ان سرعة الجسم تساوي سرعة النور فتكون ن = س وتكون :

$$\frac{س^٢}{ن^٢} = ١$$ اذن $$\sqrt{١ - ١} = ٠$$ صفراً اي عدماً

واذا فرضنا ان سرعة الجسم اكثر من سرعة النور فتصبح عبارة لورنتز بلا معنى . ففيما تقدم كفاية للبرهان على انه يستحيل ان توجد سرعة اكثر من سرعة النور ومن سرعة الامواج الكهربائية المغنطيسية — وبالتالي يستحيل ان توجد حول مركز الشمس مادة على بعد عنه اقل من الميل . لانها اذا كانت اقرب من هذه المسافة يجب ان تكون اسرع من النور ، وهو امر مستحيل . اذن حول مركز الشمس على بعد نحو ميل فراغ مطلق بل ظلام دامس ، لان اشعة النور لا تتجاوز ذلك الميل نحو المركز بتاتاً ، ولا يمكن ان يوجد في تلك النقطة المركزية اية مادة ، لانه لا بد ان تصدر منها امواج كهربائية مغنطيسية . وهذه لا تستطيع ان تعجل بسرعة اكثر من سرعة النور . ووجودها اقرب من ميل الى المركز يحتم عليها ان تكون اسرع من النور ، فاذن يحتم عليها الفناء هناك

نتائج هذه القضية

هذا البرهان الرياضي الذي توصلنا اليهِ بالحساب المتقدم بسطهُ يطابق بعض نظريات علماء العصر ومنها اولاً ، ان اعماق بطن الشمس لا تشتمل على ذريرات Atoms لان الذريرات لا تحتمل تلك

السرعة الفائقة بل تنحل قبل ان تصل اليها، وانما هناك كهارب (الكترونات) دائرة بسرعة فائقة تصدر امواجاً كهربائية مغنطيسية على بعد نحو ميل عن مركز الشمس . ولا يحتمل ان تكون هناك بروتونات لان تكوّن البروتون يستلزم ان تكون الذرية تامة ، وهو امر مستحيل لما تقدم شرحه . والراجح ان الكهارب انفسها هناك قليلة لانها وهي كلها سلبية تتدافع فتتباعد عن مركز الشمس مضطرة ، وانما هناك على الاكثر امواج كهربائية مغنطيسية

ينتج ايضاً ان الامواج النورية والامواج الكهربائية المغنطيسية تتم $\frac{١٨٦٠٠٠}{٢ \times ٣٫١٤}$ = نحو ٣٠ الف دورة حول الشمس في ثانية واحدة

ثانياً ، ان اي مركز تدور حوله مادة لا بد ان يكون فارغاً فراغاً مطلقاً . فمركز الارض ومركز كل جرم لا بد ان يكون هكذا فارغاً . كذلك مركز المجرة لا يمكن ان يكون فيه اجرام بتاتاً . واذا عرفت سرعة الاجرام التي حول ذلك المركز فربما عرف بُعدُها عنه

ثالثاً ، ان هذه النتيجة التي توصلنا اليها تطابق نظرية اينشتين بان الحيز الذي تشغله الاكوان المادية يجب ان يكون جوفه فارغاً ، ومركزه فراغ مطلق أو عدم

رابعاً ، ان هذه النتيجة تطابق نظرية الجاذبية الجديدة وهي ان القوة التي تجذب الاجرام الى المركز ليست قوة جاذبة واردة من المركز الى المحيط بل هي قوة واردة من محيط غير متناه الى المركز — هي قوة في الجو الجاذبي الذي تنشره في المواد والاجرام انفسها فتدفعها نحو مركز مشترك بينها . وليست القوة للمركز نفسه . فحيثما وجدت مجموعة من المواد أو الاجرام توازنت حول مركز مشترك بينها وهو الذي يسمونهُ مركز الثقل . لهذا السبب لا يكون مركز الشمس مركزاً للنظام الشمسي الاَّ نادراً بل يغلب ان يكون بعيداً عنه قليلاً أو كثيراً حسب وضع السيارات حول الشمس كما هو مقرر عند الفلكيين

ملاحظة جوهرية

بقيت ملاحظة جوهرية لا بد من ذكرها تفادياً لتوهم القارىء شيئاً مناقضاً للحقيقة ، وهي : — نعم ان هذه القاعدة التي هي محور بحثنا تتمشى عليها جميع مجموعات الاجرام ومجموعة المجرة ، ومجموعة الكون الاعظم . ولكن النسبة العددية التي رأيناها في النظام الشمسي ليست بالضرورة مطردة في جميع مجموعات الاجرام . فاذا كانت السرعة في النظام الشمسي على بعد ٩٣ مليون ميل هي ١٨٫٥ ميل في الثانية (سرعة الارض) فقد لا تكون كذلك في أي مجموعة أخرى غير مجموعة النظام الشمسي ، بل قد تكون اكثر أو اقل . وانما مهما كانت اكثر أو اقل فنسبة السرعة بين اجزاء المجموعة الى ابعادها تبقى ثابتة ومطابقة للمعادلة التي شرحناها آنفاً . فالاختلاف بين مجموعات الاجرام هو في النسبة العددية فقط بين البعد والسرعة . واما النسبة العددية بين جرم وجرم فعامة لجميع الاجرام . والامر الذي يقرر هذه النسبة العددية لكل مجموعة هو

مقدار مواد تلك المجموعة . لان الجاذبية لا تتوقف على البعد فقط بل على كمية المادة في الاجرام المتجاذبة ايضاً ، لذلك لا يكون الفراغ متساوياً في مراكز جميع المجموعات بل يختلف باختلاف قدر موادها. فالفراغ في قلب المجرة اوسع جداً منه في مركز النظام الشمسي، وتكون سرعات الاجرام في المجرة بنسبة بعضها الى بعض اقل . وعلى هذا الاعتبار نفسه يكون الفراغ في قلب الكون الاعظم اعظم جداً . اعرض هذه النظريات للقراء بكل تحفظ . فاذا لاح لاحد منهم اعتراض، او اذا كان قد عثر على بحث كهذا من قبل فامتنّ جداً له اذا كان يتكرم بنشره

البرهان على صحة المعادلة

في الطبيعيات : القوة المركزية التي تفعل في جسم متسارع تساوي مربع السرعة مقسوماً على البُعد . هكذا :

$$و = \frac{س^2}{ش} \quad \text{(معادلة اولى)} \qquad وو = \frac{سس^2}{شش} \quad \text{(معادلة ثانية)}$$

باعتبار ان س ، سس رمز سرعة الجرم الاول ، والجرم الثاني

ش ، شش رمز بعد الجرم الاول ، وبعد الجرم الثاني عن المركز

وبحسب ناموس جاذبية نيوتن و : وو : شش^2 : ش^2 (اي نسبة قوة جذب الاول الى قوة جذب الثاني كنسبة مربع بعد الثاني الى مربع بعد الاول)

ابدل في قاعدة نيوتن هذه قيمتي كل من و ، وو اللتين في المعادلتين السابقتين . هكذا :

$$\frac{س^2}{ش} : \frac{سس^2}{شش} : : شش^2 : ش^2$$ وبالجبر لنا

$$\frac{س^2 ش^2}{ش} = \frac{شش^2 سس^2}{شش} \quad \text{او} \quad س^2 ش = شش\, سس^2$$

اقسم جانبي المعادلة على سس^2 ش فلك $\frac{س^2}{سس^2} = \frac{شش}{ش}$ وهي معادلتنا التي نحن بصددها.

لكبلر الذي سبق عصر نيوتن هذا الناموس

ق^2 : قق^2 : : ش^3 : شش^3 باعتبار ان ق = مدة دوران السيار الواحد

قق = مدة دوران السيار الآخر

وتمكن برهنة معادلتنا بمعادلة كبلر هذه ايضاً لو يسمح المقام. كذلك معادلة كبلر تمكن برهنتها من معادلة نيوتن ايضاً

شبرا — مصر

الدمعة الخرساء

لايليا ابو ماضي

سمعَتْ عويل النائحاتِ عشيةً   في الحيّ ، يبتعث الأسى ويثيرُ
يبكين في جنح الظلام صبيةً ،   ان البكاء على الشباب مريرُ
فتجهمت وتلفتت مرتاعةً   كالظبي ايقن انه مأسورُ
وتحيرت في مقلتيها دمعةٌ   خرساء ، لا تهمي وليس تغورُ
فكأنها بطلٌ تكنّفه العدى   بسيوفهم ، وحسامه مكسورُ
وجمت فأمسى كلُّ شيء واجماً   النور والاظلال والديجورُ
السكون اجمع ذاهلٌ لذهولها   حتى كأنَّ الارض ليس تدورُ
لا شيء مما حولنا وأمامنا   حسنٌ لديها ، والجمال كثيرُ
سكت الغديرُ كأنما التحف الثرى   وسها النسيم كأنه مذعورُ
وكأنما الفلك المنوّر بلقعٌ   والانجم الزهراء فيه قبورُ
كانت تمازحني وتضحك فانتهى   دور المزاح ، فضحكها تفكيرُ
قالت وقد سلخ ابتسامتها الاسى ،   صدق الذي قال — الحياة غرورُ
اكذا نموت وتنقضي احلامنا   في لحظة والى التراب نصيرُ ؟
وتموج ديدان الثرى في اكبدٍ   كانت تموج بها المنى وتمورُ
خيرٌ اذن منا الألى لم يولدوا   ومن الانام جلامدٌ وصخورُ
ومن العيون مكاحل ومراودٌ   ومن الشفاه مساحق وذرورُ
ومن القلوب الخافقات صبابة   قصبٌ ، لوقع الريح فيه صفيرُ

***

وتوقفَتْ ، فشعرتُ بعد حديثها   ان الوجود مشوّشٌ مبتورُ
الصيف ينفث حرّهُ من حولنا   وانا احسُّ كأنني مقرورُ

ساقت الى قلبي الشكوك فنغّصت ليلي ، وليس مع الشكوك سرورُ
وخشيت ان يغدو مع الريب الهوى كالرسم لا عطرَ وفيه زهورُ
وكدمية المثّال حسنٌ رائعٌ ملء العيون وليس ثمّ شعورُ
فاجبتها : لتكن لديدان الثرى اجسامنا ، ان الجسوم قشورُ
لا تجزعي فالموت ليس يضيرنا فلنا اياب بعده ونشورُ
انّا سنبقى بعد ان يمضي الورى ويزول هذا العالم المنظورُ
فالحب نور خالدٌ متجدد لا ينطوي الاّ ليسطع نورُ
وبنو الهوى احلامهم ورؤاهم لا اعين ومراشف ونحورُ
فاذا طوتنا الارضُ عن ازهارها وخلا الدجى منا وفيه بدورُ
فسترجعين خميلة معطارة انا في ذراها بلبلٌ مسحورُ
يشدو لها ويطير في جنباتها فتهش اذ يشدو ، وحين يطيرُ

* * *

او جدولاً مترقرقاً مترنماً انا فيه موج ضاحك وخريرُ

* * *

او ترجعين فراشةً خطّارة انا في جناحيها الضحى الموشورُ

* * *

او نسمة ، انا همسها وحفيفها ، ابداً تطوّف في الربى وتدورُ
تغشى الخمائل في الصباح بليلةً وتؤوب حين تؤوب وهي عبيرُ

* * *

او تلتقي عند الكثيب ، على رضىً وقناعةٍ ، صفصافة وغديرُ
تمتد فيه وفي ثراه عروقها ويسيل تحت فروعها ويسيرُ
ويغوص فيه خيالها فيلفه ويشف فهو المنطوي المنشورُ
يأوي اذا اشتدّ الهجير اليهما الناسكان : الظبي والعصفورُ

لها سكينتها ووارف ظلها والماء ان عطشا لديه وفيرُ
اعجوبتان — زبرجد متهدّلٌ نامٍ ، تدفق تحته البلورُ
لا الصبح بينهما يحول ولا الدجى فكلاهما بكليهما مغمورُ
تتعاقب الايام وهي نضيرة مخضرة الاوراق ، وهو نميرُ
فالدهر اجمعه لديها غبطة والدهر اجمعه لديه حبورُ

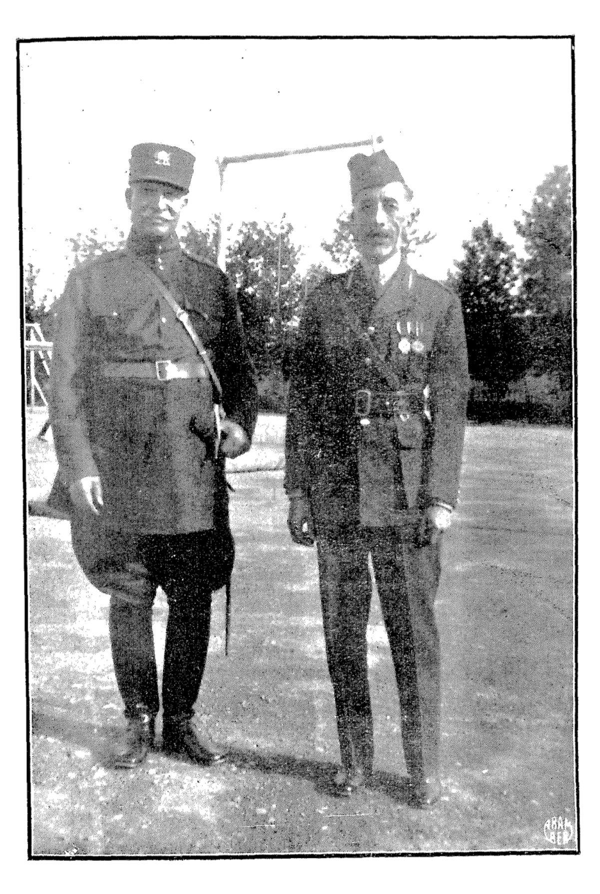
***

فتبسمت،وبدا الرضى في وجهها اذ راقها التمثيل والتصويرُ
عالجتها بالوهم فهي قريرةٌ ولكم افاد الموجع التخديرُ
ثم افترقنا ضاحكين الى غدٍ والشهب تهمس فوقنا وتشيرُ
هي كالمسافر آب بعد مشقةٍ وأنا كأني قائد منصورُ

***

لكنني لما اويتُ لمضجعي خشُن الفراش عليّ وهو وثيرُ
واذا سراجي قدوهت وتلجلجت انفاسه فكأنهُ المصدورُ
وأجلتُ طرفي في الكتاب فلاح لي كالرسم مطموساً وفيه سطورُ
وشربت بنت الكرم احسب راحتي فيها فطاش الظنُّ والتقديرُ
فكأنني فلك وهت امراسها والبحر يطغى حولها ويثورُ
سلب الفؤاد رؤاه والجفن الكرى ، همّ عرا ، فكلاهما موتورُ
حامت على روحي الشكوك كأنها وكأنهن فريسة وصقورُ
ولقد لجأت الى الرجاء فعقني اما الخيال فخائب مدحورُ
يا ليل اين النور ؟ اني تائهٌ مرْ ينبثق . ام ليس عندك نورُ ؟
« اكذا نموت وتنقضي احلامنا في لحظةٍ والى التراب نصيرُ »
« خير اذن منا الأُلى لم يولدوا ومن الانام جنادل وصخورُ »

[عن مجلة السمير]



صاحبا الجلالة ملك العراق فيصل الاول ورضا شاه بهلوي ملك ايران

السياسة البريطانية الفارسية

نظرة تاريخية (*)

ليوسف رزق الله غنيمة وزير مالية العراق سابقاً

انبأتنا البرقيات بقرار الحكومة الفارسية التي اتخذته في الغاء امتياز دارسي لاستخراج النفط . وكان لهذا القرار دويّ في أربعة اقطار المسكونة رددته الاندية السياسية بشيء كثير من الاهتمام . لما له من الخطورة السياسية نظراً إلى موقف بريطانية العظمى في الشرق في المستقبل ولما لهذا الحادث الكبير من النتائج البعيدة المرامي في نهضة الدول الشرقية . فالسياسيون والاقتصاديون والماليون وعلماء الحق والاجتماع يرقبون هذا الامر بعيون ساهرة ويدرسون تطوّر هذه القضية مليّا . وتعلق صحف العالم عليه الملاحظات والحواشي كلٌّ بحسب نزعتها واميالها السياسية لاستغلال الموقف. واملنا ان تحل هذه الازمة على اسس التفاهم بين الدولتين ذات الشأن بروح الوداد والتفاهم قبل صدور هذا المقال الذي كتبناه لمعالجة السياسة البريطانية الفارسية من الوجهة التاريخية ليس الاَّ وهو بعيد عن المؤثرات السياسية الحاضرة . ونعطف بنظرة على مشروع دارسي واعمال شركة النفط الفارسية التي شاهدناها في زيارة تلك الانحاء قبل بضع سنوات وعليه نقول :

إذا بحثنا في الصلات السياسية بين الدولتين رأيناها ترتقي الى بضعة قرون غبرت . ففي سنة ١٥٥٨ — ١٥٦٣ كان قد بعث القيصر الروسي ايفان الهائل انطوني جنكنز الانكليزي سفيراً عن دولته الى بخارى وبلاد فارس . فرجع هذا الرجل الى بلاده بريطانيا في سنة ١٥٦٥ ونشر فكرةً جديدة بين مواطنيه ترمي الى الشروع بالتجارة مع بلاد فارس عن طريق روسية ولم تكن يومئذ فكرة التجارة عن طريق خليج فارس ومضيق هرمز قد خالجت احداً من الانكليز ولهذا نرى تلك الفكرة قد تأخر نضوجها بعد هذا بنصف قرن

تعاطت احدى الشركات الانكليزية التجارة مع ايران ونالت بعض بوادر النجاح الاَّ ان

(*) اعتمدت في هذا المقال على المصادر الآتية : (١) The Persian Gulf : Published by Foriegn Office. No. 78 (٢) Sykes : A. History of Persia (٣) Lord Curzon : Persia and the Persian Question (٤) A. V. W. Jackson : Persia Past & Present (٥) Sir J. Malcolm : History of Persia (٦) L. Herteslet : Complete Collection of Treaties etc. (٧) Sir H. C. Rawlinson : England and Russia in the East (٨) E. G. Browne : Persian Revolution (٩) مقال لي في جريدتي « السياسة » البغدادية ١٦ ايار ١٩٢٠ (١٠) جرائد ومجلات في لغات مختلفة

الفوضى التي ضربت اطنابها في الاقطار الفارسية يومذاك والعواصف التي ثارت فضلاً عن هجمات القرصان، اضطرتها الى الكف عن الاعمال بعد ان مُنِيت بخسائر فادحة وذلك سنة ١٥٨١. وكان طريق هذه الشركة بحر قزوين

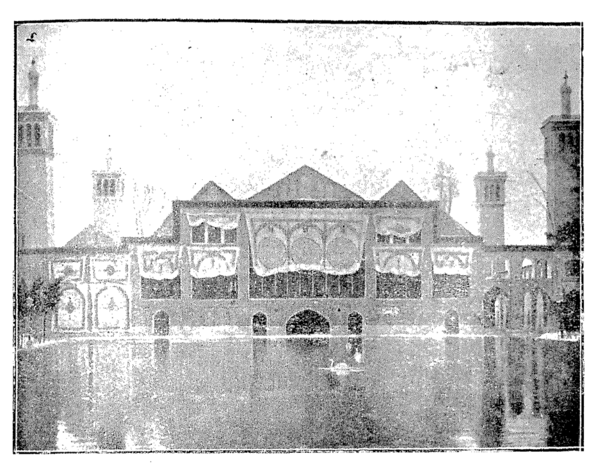
لم يكن هذا الاخفاق في التجارة البريطانية في بلاد فارس الاَّ وقتيًّا . لان الانكليز وجَّهوا انظارهم الى تجارة فارس عن طريق الخليج بعد تأسيس شركة الهند الشرقية الانكليزية في عهد الملكة اليصابات سنة ١٥٩٩ . تلك الشركة التي كان لها شأن خطيرٌ في التجارة والسياسة البريطانيتين

بعثت هذه الشركة سنة ١٦١٤ رجلاً تاجراً من سورات اسمه ستيل ذا خبرة باسواق العجم اكتسبها من سفر قام به من حلب الى الهند عن طريق البر مارًّا ببلاد فارس . وارسلت الشركة معه المستر كروثر . فوصلا اصفهان وهي عاصمة البلاد يومئذ وقدما رسائل التوصية التي كانا يحملانها الى السر روبرت شيرلي فنالا بوساطته ثلاثة مراسيم (فرامانات) من الشاه عباس يأمر بها حكام المرافىء بمدّ ايدي المساعدة للسفن الانكليزية

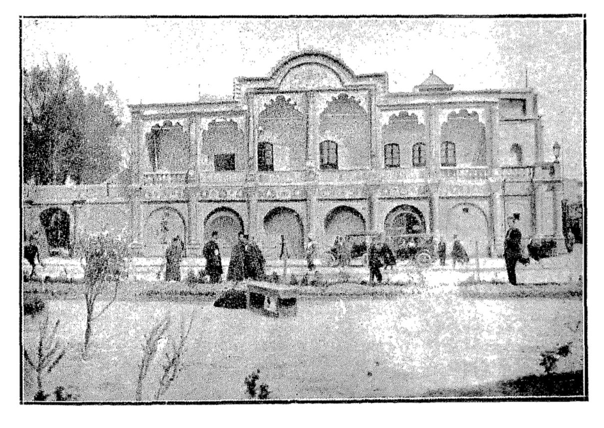
لم يكن الطريق ممهداً لنجاح الانكليز في خليج فارس لان البرتغاليين كانوا قد استولوا منذ اوائل القرن السادس عشر على مضيق هرمز ونالوا الكلمة الراجحة في النفوذ السياسي في الخليج وعلم الانكليز منزلة البرتغاليين هناك وقدروا الموقف حق قدره وظهرت لهم المزاحمة البرتغالية باتم مظاهرها فرأوا ان لا مندوحة لهم عن محاربة البرتغاليين ان ارادوا نجاحاً في تلك الديار فخاضوا معامع القتال من سنة ١٦١٦ الى سنة ١٦٢٥ وحدثت وقائع في اثناء ذلك انتهت بانخذال البرتغاليين ومغادرتهم مضيق هرمز مغادرة لا عودة بعدها . واحتلَّ الانكليز المضيق برضاء الفرس يسندهم في ذلك والي فارس الامام قولي خان بن الله وردي من اعز انصارهم ومواليهم فعقد حلفاً معهم جاء في شروطهِ : قسمة الغنائم مناصفةً بين الانكليز والعجم . قسمة مكوس هرمز مناصفة بين الطرفين المتعاقدين . استثناء الانكليز من الضرائب . اطلاق الاسرى المسلمين وتسليمهم الايرانيين واطلاق الاسرى المسيحيين وتسليمهم الانكليز . اشتراك العجم في نفقات الاسطول ودفع نصفها

وفي سنة ١٦٢٥ اعاد البُرتغاليين الكرة على الانكليز في الخليج فهجم القائد البرتغالي الجديد على الجيش الانكليزي وحرق السفينة الانكليزية التي عملت لبندر عباس ووقعت طائفتها بايدي البرتغاليين فاجهزوا عليهم وقتلوهم شرَّ قتلةٍ ولم يخلص منهم الاَّ رجل واحد . وفي سنة ١٦٣٠ حاول البرتغاليون ان يسترجعوا مضيق هرمز ولكنهم اخفقوا

وكان استيلاء الانكليز على هرمز ذا شأن كبير في تثبيت نفوذهم في الهند وبلاد فارس . وكان الفرس يميلون آنئذ الى الانكليز لانقاذ بلادهم من سيطرة البرتغاليين . ويروى عن الشاه عباس انه قال لولا مساعدة الانكليز لما تمكنا من استرجاع هرمز



قصر الشاه الصيفي في بادغوير



بنك ايران الامبراطوري بطهران

وفي سنة ١٦٢٧ كانت بعثة السر دومر كوتن والسر روبرت وهربرت شرلي . ذهبوا الى اصفهان واذ لم يكن الشاه هناك سافروا الى اشرف في مقاطعة مزندران فاحتفى بهم الشاه عباس كل الحفاوة واكرم مثواهم وشرب نخب ملك الانكليز ووعدهم بابتياع بضاعات انكليزية يسدّ ثمنها بتصدير عشرة آلاف بالة حرير فارسي في شهر كانون الثاني (يناير) من كل سنة . وقامت الشركة الهندية الشرقية الانكليزية باعمال تجارية عظيمة في خليج فارس ونالت امتيازات واسعة النطاق من ملوك فارس فكان لها بيت في بندر عباس اغلق سنة ١٧٦١ واسست غيره في بوشهر سنة ١٧٦٣ ونالت مرسوماً في ٢ تموز (يوليو) من تلك السنة من الشاه كريم خان يخولها امتيازات كثيرة ومنها :

(١) اجاز لها ابتياع اراض في بوشهر وفي مواضع اخرى من الخليج قدر ما تتطلبهُ اعمالها وسمح لها ان تعزز ابنيتها بالمدافع (٢) استثنى البضاعات الواردة الى بوشهر والصادرة منهُ من المكس (٣) منع الشعوب الاوربية الاخرى من استيراد بضاعات الصوف (٤) حتّم دفع الديون الى التجار البريطانيين وغيرهم (٥) اعترف بحق الانكليز في شراء البضاعات وبيعها (٦) منع التجارات السرية (٧) منح حرية الدين (٨) وحق اعادة الفارّين (٩) استثنى سماسرة الشركة وخدّامها وغيرهم من المنتسبين اليها من دفع الضرائب والرسوم (١٠) واعترف بحق الانكليز ان يمتلكوا الاراضي المملوكة باسعار معقولة والاراضي الاميرية مجاناً للدور والجنان

ولما احتلّ شاه كريم خان البصرة سنة ١٧٧٥ — ١٧٧٦ جامل كل المجاملة القنصلية البريطانية هناك

نرى في هذه المطاوي النفوذ البريطاني يعظم في الخليج الفارسي فالبرتغاليون تركوه في سنة ١٧٢٠ وعقبهم الهولنديون سنة ١٧٦٦ فبقيت بريطانية الدولة الاوربية الوحيدة المستأثرة بالنفوذ هناك . ولذلك نرى فرنسة تحاول ان تعرقل هذا الموقف الممتاز فارسلت بضع بعثات سياسية بين سنة ١٧٩٦ و ١٨٠٩ الى الدولة الفارسية لعقد معاهدة تحالفٍ هجومية ودفاعية ضد بريطانية العظمى وروسية . وتوصلت في سنة ١٨٠٧ الى عقد محالفة تنازلت فيها الدولة الفارسية عن جزيرة خارك لفرنسا ولكن يُظَنّ ان هذه المعاهدة لم يقرّها الشاه

قد حان لنا ان نتكلم عن السفير الانكليزي ملكم وبعثته الاولى الى بلاد العجم سنة ١٨٠٠ . كان هذا الرجل شجاعاً فأحبّه الايرانيون ورحبوا به وكانت شهرته قد سبقته الى طهران قبل ان يصلها وكانت يومئذ جموع امير الافغان تهجم على الهند فتمكن « ملكم » من عقد معاهدة مع فتح علي شاه تنصّ على تعهّده بأن لا يعقد معاهدة مع امير الافغان ما لم يكفّ هذا عن الطمع في ممتلكات بريطانيا الهندية وتتعهد بريطانيا مقابل ذلك ان تقدم للدولة الفارسية العتاد ان هجم الافغان والفرنسيون على بلادها ، على ان يعفي الشاه البريطانيين

والهنود من دفع الضرائب في المرافىء . وتمرُّ البضائع الانكليزية كالحديد والفولاذ بالبلاد الفارسية معفاة من المكس

وفي سنة ١٨٠٢ بعث فتح علي شاه وفداً الى الهند برآسة الحاج خليل خان الاّ ان خادمه قتله . وبعد خمس سنوات بعث وفداً ثانياً برآسة اغا نبي خان

كانت تجارة الرقيق واسعة النطاق في خليج فارس في بدء القرن التاسع عشر ولم يكن هنالك قانون يوقف تمادي النخّاس عند حد معلوم فيما يسببه من الاذى والالم للابوين والاقارب الذين يسرق اولادهم وفلذات اكبادهم . فأتت الحكومة البريطانية تريد القضاء على هذه التجارة بالبشر معتمدة على ما لها من الولاء والوداد في قلوب جميع سكان الخليج. فعقدت معاهدة عامة سنة ١٨٢٠ وعقبتها معاهدات واتفاقات خاصة مع امارات الخليج ومع تركيا وفارس، غايتها تضييق نطاق هذه التجارة . وأُخذت حكومة الهند على عهدتها كل الوسائل الواجبة لتنفيذ احكام المعاهدات والاتفاق. فكلفها هذا الواجب الشاق الشيء الكثير من النفوذ والمال

واخذت على عهدتها ايضاً مطاردة القرصان واقرار الامن في خليج فارس ومشارفته وتنويره ووضع العوّامات فيهِ تسهيلاً للملاحة فيهِ . فكانت هذه كلها عوامل رسوخ السياسة البريطانية في الخليج وامتداد نفوذها في الامارات القائمة على ساحليهِ . وتوصلت هذه الدولة بدهاء ساستها الى عقد معاهدات مع الدولة الفارسية في السنوات ١٨٠١ و ١٨٠٩ و ١٨١٢ و ١٨١٤ . وفي هذه المعاهدة الاخيرة تعهدت بريطانية بان لا تتدخل في اي اختلاف يحدث في داخل بلاد العجم وان تحترم ملكية الدولة الفارسية وسلامتها وتعهدت ايضاً بمساعدة الشاه في خليج فارس بالسفن الحربية والجيوش ان كان ذلك مناسباً وقابلاً للتنفيذ

ولما انفذت بريطانية بعثتها سنة ١٨٠٩ على الكواظم رأت من مصلحتها ان توسّع نطاق اعمالها على الساحل الفارسي حيث التجأ بعض القرصان الذين لهم شركاء في اعمالهم. فساعدت الحكومة الفارسية البريطانيين في مهمتهم هذه فدمّر الانكليز ميناء لنجه وزار اسطولهم بعض المواضع في الساحل

وفي سنة ١٨٢٠ أُنزلت حامية بريطانية في جزيرة كشم باجازة من سلطان مسقط فاحتجّ الشاه على هذا الاحتلال . وفي سنة ١٨٢٨ طلب شيخ بوشهر سرّاً الحماية البريطانية واعرب عن استعداده للقيام باي تعهد يراهُ الممثل البريطاني موافقاً . الاّ ان حكومة بمبي رفضت هذا الطلب الذي عدّته لا يتفق والمعاهدات البريطانية الفارسية

وقام خلاف بين الدولة العثمانية وفارس في قضية الحدود بين المملكتين فتألّفت لجنة مختلطة من الانكليز والروس في سنة ١٨٢٣ لحلّ هذه المعضلة المعقدة نظراً الى تكوين الاراضي ووجود الهضاب والآكام فيها والى انّ سكانها من القبائل الرحّل . فافضت اعمال هذه اللجنة

الى معاهدة أرض روم التي وقعت سنة ١٨٤٧ . جاء في نصها : على الطرفين المتعاقدين ان يتركا شقة من الارض المنازع فيها تبتُّ في حدودها لجنة تؤلف لهذه الغاية . فاجتمعت اللجنة الجديدة في ١٨٥٠ و١٨٥١ في بغداد والمحمَّرة ولكنها لم تتوصل الى نتيجة باتة فاقترح اللورد بامرستون سنة ١٨٥١ ان يعهد الى ممثلي تركية وفارس تخطيط الحدود العامة في الاستانة يساعدهم في مهمتهم اعضاء اللجنة فقبل اقتراحه ودامت اعمال البحث والمساحة حتى سنة ١٨٦٥ فاقرّوا الحدود وشرط الاتفاق ان كل خلاف يحدث في الحدود يرجع في حله الى تحكيم انكلترا وروسيا. وبناء على احكام هذا الاتفاق نظر في الخلاف الذي حدث سنة ١٩٠٧ بين تركية وفارس فتألفت لجنة مختلطة سنة ١٩١٤ قبيل الحرب العامة قوامها اعضاء من الانكليز والروس والعثمانيين والفرس فبتت في هذه القضية وفي تعديل الحدود فأعيدت الى العثمانيين شقة من الارض في جوار خانقين تعرف « بالاراضي المحوّلة » . وعلى اثر الحرب العامة وانفصال العراق صارت هذه الاراضي من املاك الحكومة العراقية وفيها ينابيع النفط الذي منح امتيازها الى شركة خانقين وهي فرع من شركة النفط البريطانية الفارسية

قامت الحكومة الفارسية بحركات عسكرية وجهتها هراة وذلك سنة ١٨٣٧ — ١٨٣٨ فارسلت الحكومة البريطانية بعثةً الى خليج فارس واقامت قوةً في جزيرة خارك حتى نزلت الحكومة الفارسية على رغبة الحكومة البريطانية . فلنقف قليلاً هنا لخطورة هذا الحادث فماذا نرى ؟ نرى ان حرباً سجالاً قامت بين مملكة فارس والافغان . وكانت روسيا تعضد ايران ليتسنى لها بسط نفوذها على الافغان وتقاوم من هناك بريطانيا في الهند . ومما لا ريب فيه ان هذا الموقف كان يؤثر في السياسة البريطانيـة فتضاربت المنافع الروسية البريطانيـة في آسية الوسطى وانتبهت كل من الدولتين الى تنشيط سياستها في تلك البلاد ونشأت المزاحمة واشتدّ النضال السياسي بينهما وكانت كلٌّ منهما تحاول ان تنتصر على الاخرى . فكانت روسيا تحمل المملكة الفارسية على الاستيلاء على هراة من بلاد الافغان اما بريطانيا فكانت تقنع الفرس ان يسترجعوا بلادهم من الروس تلك البلاد التي خسروها في حربٍ سبقت ويغضّوا النظر عن حرب الافغان . وفي سنة ١٨٣٢ كانت قد عظمت المنافع البريطانية في فارس فارسلت الهند عتاداً وسلاحاً الى الشاه ثم بعثت بعثة عسكرية في سنة ١٨٣٤ ورافق تلك البعثة بعض الضباط الشهيرين ومنهم رولنصن وستورت وشيل ودارسي تود. الاّ ان هذه البعثة لم تفلح كثيراً في مهمتها ولم تأتلف والضباط الفرس . فتركت بلاد فارس سنة ١٨٣٦ وحدث بعد ذلك بسنتين بعض اختلاف بين الدولتين حتى اضطرّ السفير السر جون ماك نيل ان يغادر بلاد فارس وقطعت الصلات بين المملكتين

وكان محمد شاه علة توتر الصلات لانهُ كان ميـّالاً الى الروس واقعاً تحت نفوذهم خلافاً لسلفهِ

فتح علي شاه الميّال الى الانكليز وصديقهم الحميم

بقيت الرقابة شديدة بين البريطانيين والروس في قضية الحرب بين الفرس والافغان وكان السياسيون البريطانيون يحاولون اقناع الشاه في رفع الحصار عن هراة اما الروسيون فكانوا يبذلون مساعيهم لتثبيت الحصار وتشديده وتنشيط العداء بين الدولتين الشرقيتين الافغان وفارس . واضطرّ اخيراً الشاه ان يرفع الحصار عن هراة ويوافق سياسة السفير الانكليزي السرجون ماك نيل

علينا ان نذكر هنا ان محمد شاه كان قد بعث الى لندن مندوباً عنهُ اسمهُ حسين خان ليرفع الشكوى من السفير البريطاني الى الحكومة المركزية . وكان يومئذٍ اللورد پامرستون وزيراً للخارجية الاّ ان اللورد پامرستون عضد السفير البريطاني فاضطر مندوب الشاه ان يوقع كل الشروط التي طلبها وزير الخارجية البريطاني لرجوع صلات الدولتين

وقد جاءَ في المادة السادسة من معاهدة باريس عبارة تدل دلالة صريحة على نفوذ بريطانيا ونجاحها في قضية هراة واليكها : « في حال حدوث اختلاف بين حكومة فارس وبلاد هراة والافغان تتعهد حكومة فارس بان تحيل القضية الى الحكومة البريطانية لتحلّها بالتوسط الودي . ولا تأخذ بيدها سلاحاً الاّ اذا اخفقت نتائج هذا التوسط الودّي »

وحدث في سنة ١٨٥٤ خلاف بين بريطانيا العظمى والمملكة الفارسية لم يُعتدّ ببوادره الاّ ان الامر استفحل بعد ذلك . وكان منشأ هذا الخلاف ان السفارة البريطانية عيَّنت مرزا هاشم خان سكرتيراً للغة الفارسية فيها وكان هذا من موظفي الحكومة الفارسية وقد ترك وظيفته قبل بضع سنوات فلم يرق ذلك حكومته . فاشتد الخلاف حتى افضى الامر في سنة ١٨٥٥ الى ان يترك السفير البريطاني المستر مري طهران ويقطع الصلات السياسية بعد مفاوضات عقيمة بينهُ وبين الصدر الاعظم . فظن الصدر الاعظم ان الوقت حان للاستيلاء على هراة

على اثر ذلك عقد الانكليز اتفاقاً مع الافغان وعقبه اتفاق ثان في سنة ١٨٥٦ لان الفرس استولوا على هراة واراد الافغانيون اخراجهم وفي سنة ١٨٥٦ — ١٨٥٧ حاربت بريطانيا الفرس وقصدها من ذلك اخلاء هراة ليس الاّ .فبعثت حملة يرأسها السر ج . اوترم الى الخليج الفارسي واستولت على بوشهر في سنة ١٨٥٦ وعلى المحمرة سنة ١٨٥٧ واحتلت القوات البريطانية جزيرة خارك من سنة ١٨٥٦ الى ١٨٥٨

وقبل حملة كارون والاستيلاء على المحمرة كان قد تمَّ الاتفاق بين الدولتين وعقدت معاهدة الصلح في باريس وهي المعاهدة التي ذكرنا احد بنودها قبيل هذا. وبموجب هذه المعاهدة نال البريطانيون امانيهم وأُخلي الفرس هراة كما انهم نالوا سائر الشروط التي طلبوها ولم يصل خبر هذه المعاهدة الى السر اوترم رئيس حملة الخليج إلاّ متأخراً لقلة وسائل المخابرة ولفقدان التلغراف

يومئذٍ واشترط في هذه المعاهدة ان يعامل البريطانيون في فارس معاملة اكثر الشعوب حظوى . وبعد تصديقها سحب البريطانيون قواتهم من بلاد فارس . وكانت هذه المعاهدة الثانية بين بريطانيا وحكومة الشاه وأول معاهدة عقدت بين الطرفين كانت سنة ١٧٥١ لتضييق نطاق النخاسة كما جاء قبيل هذا

ان النفوذ الذي ناله الانكليز في بلاد الشاه من هذه الحملة زاد بعد ذلك لما مدَّ الانكليز خطوط البرق في تلك الديار بين السنوات ١٨٦٨ و ١٨٧٠ .واول مدير تولى شؤون الخطوط البرقية السر فردريك غولدسمث فابلى البلاء الحسن في مهمته. وتغلب بهمته على عقبات خطيرة لانهُ لم يكن في غربي كوادر سلطة حكومية يرجع اليها وبمساعيه ومعاونة الميجر لوفت تحددت التخوم بين بلوجستان وفارس فأقرَّها الشاه بعد ذلك

ان قضية سجستان كانت المعضلة الأولى التي قامت بعد عقد معاهدة باريس . فكانت هذه الكورة من املاك الحكومة الفارسية ثم انتقلت الى الافغان فقندهار فهراة ثم عادت فاعترفت بسيادة الحكومة الفارسية عليها وفي سنة ١٨٦١—١٨٦٣ طلبت هذه الدولة من بريطانيا العظمى ان تتوسط في المحافظة على سجستان من اعتداء الافغان عليها. فأجابت الحكومة البريطانية انها لا تعترف بسيادة الشاه في سجستان ولهذا لا تتمكن من التوسط . فافضى الامر الى نشوب الحرب بين مملكة فارس والافغان فاقترحت آنئذ بريطانية العظمى الرجوع الى التحكيم عملاً بالمادة السادسة من معاهدة باريس . فتألفت لجنة في سنة ١٨٧٢ يرأسها السر فردريك غولد سميث وسافرت من بندر عباس والتحق بها في سجستان القائد بولك ممثل اللورد مايو حاكم الهند العام والدكتور بللو المستشرق الشهير

وكان حكم هذه اللجنة انها قسمت سجستان قسمين سجستان الحقيقية وسجستان الخارجية فأقرّت الاولى لفارس والثانية للافغان وهي شقة من الارض واقعة في ضفة نهر هلمند اليمنى فاخذ هذا النهر منذ سنة ١٨٩١ بتغيير مجراه ولهذا تألفت لجنة ثانية في ١٩٠٣— ١٩٠٥ للبت في هذه القضية برآسة الكولونيل (السر) هنري مكمهون

وفي سنة ١٨٧١ عين الشاه المرزا حسين خان رئيساً للوزارة وكان هذا سفيراً في الاستانة قبل ان يتولى الوزارة. وكان من خططهِ السياسية التي رسمها لوزارته ان يحترم معاهدات فارس وروسيا ويعهد بشؤون نهضة البلاد الى بريطانيا العظمى .وتنفيذاً لهذا المنهج اراد ان يوجد احتكاراً عظيماً وان يبني بوارده الخطوط الحديدية ويستثمر المعادن ويؤسس مصرفاً وطنياً فعهد بهذا الامتياز الى البارون جوليس دي رُويتر الذي كان من رعايا الدولة البريطانية .الاّ ان هذا الامتياز العظيم أُلغي بعد ان زار نصر الدين شاه اوربا وكلّم الاختصاصيين بهِ فسمع من الاستياء ما لم يدر في خلده قبلاً . ولاسيما استياء الاندية العليا في عاصمة الروس وحتى

في لندن نفسها . وفي سنة ١٨٨٩ عقدت روسية معاهدة مع الشاه تعهد فيها الشاه ان لا يمدّ خطوطاً حديدية في فارس في اثناءِ عشر سنوات ثم مدت هذه المدة الى سنة ١٩١٠

لم يأخذ رويتر تعويضاً عن الغاء هذا الامتياز من الحكومة الفارسية الاّ ان الشاه منحه سنة ١٨٨٩ امتياز البنك الشاهاني الايراني. واشتدّت في هذه الحقبة المزاحمة بين البريطانيين والروس في بلاد فارس واخذت تعظم خطورتها سنة بعد سنة اذ كل منهما نشطت لترويج منافعها هناك . وبذلت بريطانيا العظمى جهودها لتفتتح نهر كارون للملاحة والتجارة الاجنبيتين وتوصلت في هذه السنة الى غايتها بالرغم من مقاومة الحكومة الفارسية فمخرت بواخر لنج نهر كارون

ويروى ان في عهد الشيخ مزعل (١٨٨١ — ١٨٩٧) كانت مرافق المحمرة باشراف بريطانية بغاية توسيع نطاق التجارة ولمقاصد أخرى وبعد اغتياله سنة ١٨٩٧ تولّى المشيخة على المحمرة أخوه الشيخ خزعل ولم يكن هذا على وئام مع الحكومة الفارسية المركزية ولهذا نراه في سنة ١٨٩٨ يطلب حماية الدولة البريطانية فرفض طلبه ولكن الحكومة البريطانية وعدته بأن سفيرها في طهران يعضده عضداً مستمرّاً . وفي سنة ١٩٠٢ استأنف طلب الحماية البريطانية ونظراً الى مطامع روسية وامانيها السياسية في المحمرة فوّضت بريطانيا العظمى سفيرها في طهران ان يتعهد للشيخ بالتأييد البريطاني لهُ وفي سنة ١٩٠٣ جدد هذا العهد . وجاءَ في رسالة السر هردنك السفير البريطاني الى الشيخ خزعل المؤرخة ٧ ديسمبر ١٩٠٢ ما يأتي: نحمي المحمرة من كل هجوم بحري تقوم بهِ دولة اجنبية مهما كانت حجة التدخل التي تدّعى. وما زلتم مخلصين للشاه وتعملون بمشورتنا فنحن ايضاً نستمر على معاونتكم ومعاضدتكم

وبقي الصراع السياسي مستمرّاً بين بريطانيا العظمى وروسيا فقامت روسيا بمظاهرات بحرية في خليج فارس وارسلت بعثة الطاعون الى جنوبي فارس وأسست في سنة ١٩٠٠ شركة الملاحة البخارية والتجارة الروسية وسيرت البواخر بين اوديسة والبصرة وانشأت البيوت التجارية في الخليج وكانت حكومة روسيا تعاون هذه الشركة معاونة مالية

وكانت روسيا تحاول الفوز بقاعدة بحرية في خليج فارس مما دعى اللورد لنسدوْن الى بيان السياسة البريطانية ذلك البيان الذي اكده السر ا : كري في مطاوي مفاوضات الاتفاق الانكليزي الروسي سنة ١٩٠٧ . وكانت هناك اسباب اخرى مهّدت الطريق لتثبيت النفوذ الروسي مما لا يسعنا الخوض فيها لضيق المقام ومنها القرضان اللذان اقرضتهما روسيا الفرس

ونظن ان سفر اللورد كرزن في خليج فارس يومئذ كان لمقاومة الصدمات التي انتابت النفوذ البريطاني الادبي والمادي في خليج فارس . وكان كذلك نتائج مرضية لسفر نائب ملك الهند في خليج فارس سنة ١٩٠٣ اذ كان يخفره اسطول الهند الشرقية . وجاء هذا السفر

مؤيداً لبيان اللورد لنسدَوْن وزير الخارجية البريطاني في مجلس اللوردات. جاء في ذلك البيان:

«اقول ولا اتردد انهُ يجب علينا ان نعدّ بناء قاعدة بحرية او مرفأ محصن في خليج فارس تهديداً خطيراً للمنافع البريطانية مهما كانت الدولة التي تقوم به ويجب علينا حقاً ان نقاومه بكل ما لدينا من الوسائل» . فنشّط هذا البيان الموظفين البريطانيين في بلاد العجم وقوّى عزائمهم . ولا نغفل هنا عن ذكر التأثير العظيم الذي احدثه تولّي اللورد كرزن منصب نائب الملك في الهند، ففي عهده فتحت قنصليات جديدة وبعثت بعثات تجارية الى جنوب شرقي فارس ونشطت التجارة البريطانية هناك

ولما اتخذت هذه الوسائل الفعّالة علا تدريجاً نفوذ بريطانيا في فارس وجاءت الحرب الروسية اليابانية ونتائجها المؤلمة لروسية مروّجة للسياسة البريطانية في مملكة الشاه فأضطرت روسيا آنئذ الى تغيير سياستها مع بريطانيا في خليج فارس

اشرنا آنفاً الى ان القرضين اللذين اعطتهما روسيا العجم سهلا طريق سياستها وزادا في نفوذها . وكان الفرس بادىء بدءٍ يفاوضون الانكليز في عقد القرض الاول الاّ انهم لم يوفقوا بسبب الاختلاف الناشيء آنئذ بين القومين في قضيتي شركة حصر التبغ والبنك الايراني لاستغلال المعادن

اخذت روسيا كمارك ايران (ما خلا كمارك الخليج الفارسي) ضمانة عن القرض الاول وطلبت في القرض الثاني تعديل المعاهدة الروسية الفارسية ووضع تعريف (تعريفة) جديد للكمارك . وبعد مفاوضة في هذا الموضوع توصل الطرفان الى اتفاق تجاري في نوفمبر ١٩٠١ وأقرّا هذا الاتفاق في ديسمبر ١٩٠٢ وتبادلا الوثائق الرسمية وبقي سره مكتوماً حتى فبراير ١٩٠٣ فباغتا باعلانه الجمهور

قابل الروسيون التعريف الكمركي الجديد بكل ارتياح وقابله التجار الانكليز ممتعضين لانه كان يمس منافعهم بالاذى وعلى كل كان هذا التعريف انتصاراً باهراً لسياسة الدولة الشمالية

وكان موقف بريطانيا العظمى ازاء هذه القضية صعباً كل الصعوبة ولم يكن لها الاّ احدى طريقين اما ان تحتجّ على هذا الامر وتتحين الفرص لحمل الدولة الفارسية على ملافاته او تفاوض حكومة الشاه في عقد معاهدة جديدة حالاً لغلّ ايدي الروسيين في مناهضة السياسة البريطانية في فارس فرجحت الامر الثاني

بلغ بنا البحث الى امتياز دارسي . ففي سنة ١٩٠١ نال المستر دارسي امتيازاً من الحكومة الفارسية لاستغلال النفط في عربستان وتحول هذا الامتياز في سنة ١٩٠٩ الى شركة النفط الانكليزية الفارسية A. P. O. C وعقدت هذه الشركة اتفاقاً مع شيخ المحمرة ومدت الانابيب واقامت المصافي في جزيرة عبادان . وفي مايو من سنة ١٩١٤ ابتاعت الحكومة البريطانية

حصة كبيرة في شركة النفط الانكليزية الفارسية . والاختلاف القائم اليوم بين الحكومة الفارسيةوبين الحكومة البريطانيةعلى هذا الامتياز وسنفرد مقالاً في تاريخ هذه الشركة واعمالها ومشاهداتنا في ميدانها في عدد قادم

وفي سنة١٩٠٢ زار الشاه مظفر الدين انكلترا وكان يتوقع ان ينال من الحكومة البريطانية وسام ربطة الساق الذي كان يحمله والده الاَّ ان الحكومة البريطانية قدمت اليه صورة الملك ادورد مرصعة بالماس فرفضها وغادر انكلترا مستاء . ويقول احد كتبة الانكليز ان رجال القصر الفارسي عدوا هذا الامر استخفافاً بجلالة الشاه وانتقاصاً من منزلته فلافاة لما كان بعثت حكومة لندن في السنة التالية وفداً حمل الى الشاه الوسام المرغوب فيهِ

رأينا النضال السياسي في بلاد فارس بين بريطانيا والدول الاخرى كالبرتغال وهولنده وروسياوفرنسا وتزاحمها على بسط نفوذها على خليج فارس. ولاسيما روسيا فانها رقيبة بريطانية اللدودة في هذه الحلبة . وقد كانت هذه الرقابة بين دولتين اوربيتين عظيمتين مصدر متاعب لحكومة فارس ومنشأ ازمات سياسية ولكنها كانت ايضاً في نفع مملكة العجم في ابان ضعفها وتشتت اوصال الحكم والادارة فيها لانها كانت تحافظ على كيانها باحكام التوازن السياسي بين البريطانيين والروس فتميل بسياستها الى جانب احدها اذ ترى استفحال نفوذ الجانب الآخر ولا تزال دائبة في سياستها هذه حتى اليوم لا بل عمدت الى اسلوب جديد وهو اشراك بعض الدول في توظيف الاخصائيين الذين تحتاج اليهم في نهضتها فبينهم الالماني والبلجيكي والاميركي

ظهر في ميدان السياسة الفارسية الاوربية في اوائل القرن العشرين شعب جديد حسبت له بريطانيا العظمى الف حساب . ألا وهو الشعب الالماني فان نفوذ الالمان اخذ يتسع في الشرق الاوسط بامتياز خط حديد بغداد . فنص اتفاق سنة ١٩٠٣ مع تركيا على ان يمتدَّ هذا الخط الى نقطة في خليج فارس . وكانت الامبراطورية الالمانية تعدُّ الاسباب قبل ذلك لبسط نفوذها السياسي في الخليج بمختلف الوسائل السياسية والتجارية .فبدأ اسطولها بزيارة الخليج سنة ١٨٩٩ وأسس البيت التجاري ونكهوس ادارات له في مدن مختلفة في الخليج الفارسي. وفي سنة ١٩٠٦ بعثت شركة همبورك اميركا لاين بواخرها التجارية للنقل والملاحة بين اوربا والبصرة وعهدت بوكالتها الى ونكهوس . واخذ هذا البيت احتكار شراء اوكسيد الحديد من ابي موسى . ولم تخف صحافتها خطورة السياسة الالمانية . ونشطت المانيا في سنتي ١٩١٣ و ١٩١٤ لادخال الاسلحة والعتاد في الخليج

وفي سنة ١٩٠٦ ثار الشعب الفارسي على نظام الحكم الاستبدادي واراد الحكم الديمقراطي الدستوري فاضطهدت الحكومة القائمين بهذه الحركة حركة الاصلاح .فلجأ هؤلاء الى السفارة البريطانية وكان عددهم ١٢٠٠٠ نسمة ونيف فلم تنلهم ايدى الحكومة لتقبض عليهم ولم



الدكتور ملسبو (منظم المالية الايرانية) ومعاونوه الاميركيون في طهران وهم مرتدون ملابس البلاط الايراني

يغادروا حماهم الاّ بعد ان نالوا رغبتهم في عزل عين الدولة ورجوع المجتهدين الذين نفاهم هذا الرجل الى قم ونشر القانون الاساسي

لننتقل حالاً في بحثنا الى الحرب العامة . فان المملكة الفارسية بقيت محايدة ولم تشترك في الحرب العالمية الكبرى وفسحت مجالاً للدول المتحالفة والمؤتلفة تُنزل الجيوش في اراضيها فاحتلّت الجيوش البريطانية ثغر بوشهر في ٨ اغسطس سنة ١٩١٥ وعينت له بريطانيا مندوباً سامياً موقتاً ووضعت السلطة يدها على البريد واستعملت الطوابع الفارسية باضافة العبارة الانجليزية Bushire under British Occupation «بوشهر تحت الاحتلال البريطاني» . ولمجموعة هذه الطوابع مقام في اعين هواة الطوابع يغالون باثمانها لقلتها وندرتها . وبعثت قوةً لمحافظة ينابيع النفط في ميدان نفطون وتقدمت القوات الروسية التي كانت محالفة لبريطانيا العظمى من الشمال حتى بلغت حدود العراق لابل دخلت خانقين . وكان الشيخ خزعل شيخ المحمرة موالياً للانكليز يسهل لهم السبل . ثم تسنى للالمان والترك المؤتلفين التوغل في البلاد الفارسية بطريق كرمانشاه فهمذان بعد زوال الحكم القيصري من روسيا . وبعد الاحتلال البريطاني لبغداد تقدمت الجيوش الانكليزية في بلادفارس من طريق كرمانشاه وتوغلت فيها .واقامت لها مصيفاً في كرند لا بل اتخذت هذه المدينة مقرًّا للاسر البريطانية سيدات واطفالاً

وبعد ان حطت الحرب العامة اوزارها توصل البريطانيون الى عقد معاهدة مع الفرس بمساعي السر برسي كوكس سنة ١٩٢٠ يوم كان البرنس فيروز بن فرمان فرما وزير الخارجية الفارسية : الاّ ان البرلمان الفارسي لم يقرَّ تلك المعاهدة . وتوصّل البلاشفة الى عقد معاهدة مع الفرس سنة ١٩٢١ فيها الشيء الكثير من التساهل وبهذه المعاهدة قضي على المعاهدة البريطانية الفارسية

بعد ان تولّى جلالة الشاه پهلوي عرش الاكاسرة وجّه انظاره الى الاصلاح السياسي والاداري والمالي فقضى على الامارات الاقطاعية في فارس لتثبيت الوحدة السياسية والادارية في مملكتهِ ومن بين الامراء الذين أخرجهم من امارتهم الشيخ خزعل خان شيخ المحمرة صديق البريطانيين الحميم وأسس البنك الملي وحصر حق اصدار البنكنوت بهِ .بعد ان ارضى البنك الشاهاني الايراني (المؤسس من رؤوس اموال انكليزية) بتعويض مالي ليتنازل عن حق اصدار البنكنوت . وكان آخر ما قامت بهِ حكومة جلالة البهلوي الغاء امتياز دارسي وقد اودع حلَّ القضية عصبة الامم ولا يزال امرها على بساط البحث . وسنكتب في تاريخ هذا الامتياز فصلاً كما وعدنا قبيل هذا وكل آتٍ قريب بغداد



العلم والاحوال الجوية

نظرية جديدة

تقلب الاحوال الجوية

يقيم علماءُ الجيولوجية ادلّـة مقنعة على ان الاحوال الجوية التي تحيط بالكرة الارضية لم تكن في الماضي ما هي عليهِ الآن ويثبتون انهُ أتى عليها ازمان قرس فيها البرد آناً وامتدَّ بساطا الجليد حول القطبين الى المناطق المعتدلة ، ودفىءَ الجوّ آناً آخر كما في بدءِ حقبة الحياة الحديثة (الكاينوزوية) لما كانت درجة الدفء والرطوبة على سطح الارض اعلى مما هي عليهِ الآن وكان متوسط درجة الحرارة في اوربا يتباين من ٧٥° مئوية الى ٨٠° مئوية فكانت الاشجار الخاصة ببلدان البحر المتوسط الآن تغطي لبلندا في شمال اوربا وجزيرة سبتسبرجن التي يتخذها قصّاد القطب الشمالي مقرّا لبعوثهم ، وكلا البلدين — اي لبلندا وسبتسبرجن — من البلدان المشهورة بشدة بردها في هذا العصر

ولكن اذا طلبنا اليهم ان يبيّنوا لنا الاسباب الباعثة على عصور طويلة امتدَّ فيها رواق الدفء على سطح الارض، او على عصور اقصر منها قرس البرد وغشي الجليد الكرة من القطبين الى منتصف المسافة بينهما وبين خطّ الاستواء، حاروا في ذلك وتناقضت اقوالهم

فمنهم من يذهب الى ان سبب ذلك مرور الارض، في اثناءِ سيرها في الفضاءِ خلال سَديم كثيف، حجب غبارُهُ جانباً من نور الشمس وحرارتها ، فبرد سطح الارض فحدث ما يعرف بالعصر الجليدي . وان مرورها في اكثر من سديم واحد على هذا المنوال سبب حدوث العصور الجليدية المختلفة في ما هو معروف من تاريخ الارض الجيولوجي . ويعترض على هذا المذهب بان الغبار الكونيّ الذي بيننا وبين الشمس الآن يسير جداً لا يمكن ان يكون لهُ بعض الاثر المذكور ، وان مرورنا في خلال سديم قد يفسر الانتقال من عصر بارد بعض البرد الى عصر بارد شديد البرد ، ولكنهُ لا يعلّل لنا حدوث عصور الدفء ، الاّ اذا امكننا ان نبيّن ان الارض آخذة في الدفء التدريجيّ ، وان المرور في خلال سديم يوقف هذا الفعل الى مدًى وهذا ما لم يثبتهُ العلماءُ حتى الآن . وثمة طائفة اخرى من العلماء تسند التقلب في متوسط الحرارة على سطح الارض وفي جوّها ، الى التقلّب في ما تطلقهُ الشمس من طاقة اشعاعها . وهو تعليل سهل ولكن هل هو تعليل صحيح ؟ اذ ليس لدينا ما يحملنا على الاعتقاد بان الشمس تغيّر مقدار ما تطلقهُ من اشعتها زيادة ونقصاً في ادوار تبلغ مئات الالوف او الوف من السنين

ظاهرة تسترعى النظر

والعلماء لا يعرفون ، ولا سبيل لهم لمعرفة المدى الذي استغرقهُ كلّ انقلاب من هذه الانقلابات في حالة جوّ الارض ، ولكنهم يستخرجون من الادلة الجولوجية ما يقنعهم بانهُ لما كانت البقاع اليابسة واسعة النطاق وسلاسل الجبال شامخة الذرى والفعل البركانيّ شديداً بوجهٍ عام ، كان الاقليم بارداً الى درجة الجليد . وانهُ على الضدّ من ذلك كان دافئاً جافاً في العصور التي كانت فيها القارات صغيرة ، والجبال منخفضة وقليلة . فالعلاقة بين اتساع القارات وارتفاع الجبال وشدّة الفعل البركاني من جهةٍ ، ونوع الاقليم من جهةٍ اخرى ، دليل على ان امتداد الغطاء الجليدي او ارتدادهُ في العصور الماضية ، لم ينجما عن مرور الارض في خلال سديم ، ولا عن تقلّب في مقدار ما تطلقهُ الشمس من طاقة ضوئها وحرارتها او اي سبب فلكيّ آخر

والراجح ان سبب التقلّب في حالة جوّ الارض بين الدفء والبرد ، سببهُ في الارض نفسها . فتغيُّر الاقليم لم يكن سبباً في امتداد القارات او انكماشها ، وانما كان تحوّل القارات بين امتداد وانكماش ، والجبال بين ارتفاع وانخفاض وما يصحب ذلك من تغيُّر في الرياح السائدة او تيارات البحار ، سبباً في تقلب احوال الجوّ المذكورة

حالة الارض الآن

فلننظر الآن في حالة الارض من حيث توزيع الارض اليابسة والمياه على سطحها لعلّنا نستطيع ان نتبيّن شيئاً من مستقبل الاحوال الجوية اذا حدث على سطحها حوادث جولوجية معيّنة

يظهر ان مساحة اليابسة على سطح الارض تبلغ الآن ما كانت عليهِ في بدءِ العصور الجولوجية السابقة التي تحسب عصوراً جولوجية . والراجح ان علوّ بعض الجبال يبلغ اعلى ما كانت عليهِ الجبال حينئذٍ . فاذا صحّ هذان الاستنتاجان فنحن في مفتتح عصر جليدي ، قد يكفي حدوث حادث جولوجي يسير ، لبدئهِ . فما عساهُ ان يكون ؟

الواقع ان ثمة اكثر من حادث جولوجي واحد من شأنهِ ان يفعل هذا الفعل ، ولذلك يصبح ابتداء عصر جليدي جديد اكثر احتمالاً

فاذا افترضنا ان ترعة بناما شقّت شقاً يجعل الاتصال بين المحيطين الهادىء والاطلنطي اتصالاً مباشراً بدلاً من اتصالها بواسطة احواضٍ تتدرج ارتفاعاً وهبوطاً ، وجعل عرضها بضع مائة من الاميال ، لتحوّلت المياه الدافئة التي تسير في تيّار الخليج من خليج المكسيك فتدفئ شمال اوربا — الجزائر البريطانية واسلندة وسبتسبرجن — الى المحيط الهادىء لان مستوى المحيط الاطلنطي اعلى من مستوى المحيط الهادىء ولقرس البرد في البلدان المذكورة

التي تدفئها هذه المياه ، ولتغطى بعضها بالجليد على مدار السنة

او خذ النجد البحري الذي يصل جزيرة جرينلندة باسكتلندة عن طريق جزيرة اسلندة وجزائر فاروز — وهو نجد تغمره مياه ضحضاحة — فانهُ اذا ارتفع هذا النجد فوق مستوى سطح البحر — كما كان على ما يظن في الماضي القريب — انقطعت كل صلة لمياه المحيط الاطلنطي الدافئة بالمحيط المتجمد الشمالي فيغطي الجليد صيفاً وشتاءً كل المناطق التي الى شمال ذلك النجد ومنها البحر الذي يغسل شواطىء بلاد النرويج ، فيصاب اقليم البلدان المجاورة لهذا المناطق بانقلاب خطير ، فيقرس فيها البرد ويتكاثف الجليد سنة بعد سنة

وليس القول بحصول هذه النتائج اذا حدثت المقدمات الباعثة عليها من قبيل التكهُّن بل في امكان الباحثين أن يعرفوا مقدار الانقلاب وأن يعيّنوا مدى التغيُّر في الحرارة تعييناً لا يحتمل الخطأ اكثر من بضع درجات زيادة او نقصاً. وعمل حسابٍ من هذا القبيل معقد كل التعقيد لانهُ يقتضي النظر في عدة عوامل مختلفة في آنٍ واحد . ومن هذا العوامل اثر بقعة من الارض يغطيها الجمد في اقليم المنطقة التي تحيط بها

***

اذا أخذنا قطعة من الارض مساحتها متراً مربعاً وفرضنا انها مغطاة بالجمد ، في وسط منطقة دافئة ، وجدنا ان جمدها لا يؤثر اثراً ذا بال في هواء المنطقة الدافئة على بعد مائة متر . فهي تعكس اشعة الشمس المنصبة عليها ، بدلاً من ان تمتصها فيكون الهواء الملاصق لها ابرد من الهواء الملاصق للارض التي تحيط بها . ولكن مقدار الهواء الذي يبرد بفعل الجمد يسيرٌ جداً اذا قيس بمقدار الهواء المجاور ، فكأنك تضيف قطرة من الماء البارد الى ابريق من الماء الغالي . اي اننا لا نكاد نتبين اثر هذا المقدار اليسير من الهواء البارد في المقدار الكبير من الهواء الدافىء

ولكن اذا كانت قطعة الارض التي يغطيها الجمد دائرةً قطرها ميل ، فاننا نستطيع ان نتبين اثرها في تبريد الهواء الذي فوق الارض المحيطة بها على مائة قدم او اكثر من محيطها ، في الناحية التي يتجهُ اليها هواؤها البارد . فاذا كان قطرها الف ميل أو الف وخمسمائة ميل بلغ اثرها في تبريد الهواء اقصى مداه

يضاف الى ذلك ان الهواء الذي يهبُّ فوق بقعة صغيرة يغطيها الجمد لا تهبط درجة حرارته الاَّ هبوطاً يسيراً ، ولكن اذا كانت مساحة البقعة كبيرة ، هبطت حرارة الهواء الذي يهبُّ فوقها هبوطاً كبيراً . فاذا كان قطر البقعة الف وخمسمائة ميل بلغ اثر الجمد في تبريد الهواء اقصى مداهُ ، فلا يزيد هذا الاثر بعد ذلك بزيادة مساحة المنطقة التي يغطيها الجمد

فاذا جمعنا بين هذه الحقائق وغيرها مما حققهُ العلماء بالبحث الدقيق — بالاستنتاج النظري المؤيد بالمشاهدة والتجربة — وجدنا ان اثر منطقة يغطيها الجمد في تبريد الهواء فوق البلاد المجاورة

لها يختلف باختلاف مساحتها حتى تصبح مساحة هذه المنطقة مليون ميل مربع فيبلغ أثرها حينئذٍ اقصى مداهُ أو تقل زيادة أثرها بزيادة مساحتها حتى لاتكاد تذكر . وعلى هذا الاساس ذهب الباحثان كرنر Kerner وبروكس C. E. P. Brookes الى انهُ لو كانت كل البحار والمحيطات خالية من الجليد ، ثم هبطت الحرارة حول القطب الشمالي درجة واحدة بميزان فارنهيت تحت درجة تجمد مياه البحر لافضى ذلك الى تكوُّن غطاء جليدي قطره نحو اربعة آلاف ميل . وعندئذ يصبح للرياح التي تهب فوق هذه المنطقة المتجمدة اثر كبير في تبريد هواء المناطق المجاورة لها

الفعل البركاني وبرد الارض

يتضح مما تقدم انهُ لو كان للارض ما يمكنها من تخفيض حرارتها تخفيضاً ذاتيًّا درجة أو درجتين أو ثلاث درجات على الاكثر ، لامكنها ان تنشىء الغطاء الجليدي من تلقاء نفسها ومن دون اي فعل خارجي كفعل الغبار السديمي أو التقلب في ما تطلقهُ الشمس من الحرارة والضوء . والظاهر ان لها هذا ، حتى من دون ان يزيد اتساع القارات أو ارتفاع الجبال — وهي العوامل التي اجتمعت في العصور الجولوجية السابقة لما امتدَّ الجليد وقرس البرد —

ذلك انهُ متى ثارت البراكين قذفت في الجو مقادير كبيرة جدًّا من الغبار الدقيق لا يلبث ان ينتشر ويمتدُّ فيضرب فوق سطح الارض سرادقاً لطيفاً ولكنهُ في الوقت نفسه فعَّالاً في حجب جانب غير يسير من حرارة الشمس وضوئها ، فينشأ عن ذلك خفض حرارة الارض وجوها

ولهذا الرأي ما يؤيده من المشاهدة والتاريخ . ففي سنة ١٧٨٣ ثار بركان «سكابتاريوكل» في جزيرة اسلندة وبركان «اساما» في بلاد اليابان ثوراناً عنيفاً فحفل الجو بالغبار الدقيق الناشىء عن ثورانهما ولاحظ بنيامين فرنكلن — وكان في باريس حينئذٍ — ان اشعة الشمس اذا جُمعت بعدسة محدّبة لا تكاد تحرق ورقة سمراء . وكانت السنوات التي تلت هذا الثوران المزدوج قارسة البرد . وتعرف سنة ١٨١٦ بالسنة التي لا صيف لها لشدة بردها وقد تلت ثوران بركان تمبورا في جزيرة سومباوى على مقربة من جزيرة جاوى . وفي ٢٧ اغسطس سنة ١٨٨٣ قذف بركان كراكاتوى في مضيق سُندَة مقادير كبيرة من الغبارة الدقيق الى ما فوق الغيوم فظلَّ هذا الغبار سنتين أو ثلاث سنوات ذا اثر في تغيير ألوان الشفق في كل البلدان وخفض متوسط الحرارة. وفي ٦ يونية سنة ١٩١٢ ثار بركان «كاتماي» بالاسكة فملأ غبارهُ الجو فوق النصف الشمالي من الكرة الارضية فضعف ضوء الشمس وخفضت حرارتها

فلنفترض الآن — وليس في هذا الافتراض ما هو غير معقول — ان ثوران بركاني اساما وكراكاتوى اصبح اكثر حدوثاً اي نحو مرتين أو ثلاث مرات في السنة مدى مائة سنة — والمائة سنة كطرفة عين في امتداد الزمن الجولوجي — أو مدى خمسين سنة أو عشرين . فما

ينشأ عن ذلك من تحول في الاحوال الجوية الاقليمية زائلاً كان هذا التحوُّل أو باقياً

ان النتيجة السريعة التي لا مندوحة عن حصولها هي انخفاض بيّن في متوسط الحرارة في كل فصل من فصول السنة . وهذا الانخفاض يفضي الى امتداد الغطاء الجليدي في كل الفصول كذلك . وامتداد الغطاء الجليدي ينشأ عنه ضياع جانب من حرارة الشمس لان الجليد يعكس اشعتها ولا يمتصها . ثم انهُ بفعل الرياح التي تهب من فوقهِ الى البلدان المجاورة لهُ يخفض متوسط حرارتها كذلك كما بيّنا في ما تقدَّم . ثم ان مقدار البخار المائي في الهواء — وهو بمثابة دثار للارض يقيها من اشعاع الحرارة التي تمتصّها — يقل لان مقدار البخار الذي يمكن ان يحتويهُ مقدار من الهواء يقل بانخفاض حرارة الهواء . فينشأ عن كل ذلك تحولات ثانوية في الغيوم والرياح والعواصف وكل الظواهر الجوية بوجهٍ عام

عودة الدفء . . . ؟

على ان سائلاً قد يسأل : اذا افترضنا ان هذه البراكين اطلقت كل ما في جوفها وخمدت بعد ثوران متواصل مدة عشر سنوات أو عشرين سنة أو خمسين سنة . افلا تعود الارض حينئذٍ الى سابق عهدها من الدفء والجو المعتدل ؟ والجواب: قد تعود وقد لا تعود. كل ذلك رهن بمدى انحرافها عن متوسط حرارتها المعتاد . فنحن نعلم اننا اذا أملنا جسماً عن قاعدته ميلاً خفيفاً وتركناه عاد الى وضعهِ السابق . ولكن اذا كان الميل كبيراً فقدَ توازنه وهوى

وهذا المبدأ ينطبق على امتداد الجليد والثلج على سطح الارض في عصر هبطت فيه حرارة جوها وسطحها . فاذا كان هبوط الحرارة يسيراً قصير المدى وامتداد الجليد والثلج قليلاً ، تكفي ازالة السبب الباعث عليهما لعودة الحالة الجوية الى اعتدالها السابق . اما اذا كان هبوط الحرارة طويل المدى وامتداد الجليد والثلج عظيماً ، فازالة سبب البرد لا يكفي لزوال نتائجه . بل قد يزداد اثر البرد بعد زوال سببهِ لأنَّ المناطق المغطاة بالجليد تمضي في زيادة برودة الهواء في المناطق المجاورة لها بما تعكسهُ من حرارة الشمس بدلاً من ان تمتصه

***

وليس الغرض مما تقدم القول باننا في مفتتح عصر جليدي ، وانما الغرض ان نقول ان الارض ليست بمأمن منهُ من الناحية العلمية ، وان نبين كيف يتم اذا تهيأت لهُ الظروف

وقد لخصنا هذا الفصل عن بحث المستر همفريز استاذ الظواهر الجوية في كلية جورج وشنطن ومدير مكتبة الظواهر الجوية بوشنطن سابقاً

بيت الراعي

عن الفرنسية للشاعر ألفريد دي فيني
نقلها ميشيل جورجي المهندس

اذا كان قلبكِ وهو يتلوى تحت اعباء الحياة كالنسر المجروح — يجالد بجناحه المسترق اجواء عالم جائر بارد — وهو يتنزى دماً من جرحه القاتل وقد غابت عنه نجمة الحب الهادية التي كانت تنير له السبيل

واذا عافت روحك الحبيسة مذاق تلك الحياة المريرة . كزاد ذلك الشقي السجين — الذي يقدم له وهو يغالب بمجذافهِ امواج البحر بنفس مكتئبة ووجه شاحب — بينما يبحث من خلال دموعه عن مهرب مجهول بين الامواج . فترده رؤية ميسم العار مطبوعاً على كتفه بحروف من نار

واذا سئم جسمك المهتز بالعواطف الدفينة جوارح النظرات . فراح يبحث له عن مخابىء قصية يحمي فيها جماله من المهانة . واذا انفت شفتاك من سم الكلام الكاذب ، واذا تورد خداك حياءً مما ترينه وتسمعينه في عالم ملوث فاجر

اهربي بشجاعة عبر الفلاة واتركي العمران : لا تدنسي قدميك بغبار الطريق ، وانظري من شواهق افكارك الى المدن المستعبدة ، والى الغابات والغياض — منطلقة في حرية البحر حول الجزر — ولتكن هناك زهرة في يدك

هناك تجدين الطبيعة تنتظرك في عبوس واكتئاب ، حيث يرفع العشب الى قدميك برد المساء ، وتنهدة الشمس المودعة ترنح الزنابق المتأرجحة كالمجامر ، وقد بدأت صورة الجبل يلاشيها الخفاء ، وفروع الصفصاف تتدلى في تراخ ...

والغسق الحاني جاثم بالوادي على العشب المتماوج في الوان الزبرجد والذهب ، والسعدان النامي على ضفاف الغدير ، وفي الغابة الحالمة التي ترتعش ذوائبها في الهواء ، هناك ينسل من مخبأه بين الاشواك ، مسبلاً طيلسانه القاتم على الضفاف ... فاتحاً سجن الليل ...

وعلى الجبل تجدين كلأً لم تطأه قدم الصياد بعد ، يشرف من علٍ على الراعي والغريب العابر . فتعالي بنا نخفي حبنا ونخبىء خطايانا الملهمة . واذا لم تطمئني الى علو الكلا واستقراره ، فاني ادحرج لك بيت الراعي ...

هذه العربة — أو البيت — تمشي على عجلتها في هدوء ، وسقفها مائل قليل الارتفاع ، احمر في لون المرجان الذي هو لون خديك ، وعتبتها معطرة ، داخلها نسيم وأريج : هناك بين الازهار نجد في الظلمة راحة وفراشاً وثيراً

الادب التركي [1]

آثار توفيق فكرت وحسين جاهد

ان اخلاق الناس ، وقوة نفوسهم وأعصابهم وأذهانهم ، وأساليب العيش الذي يعيشونهُ وروح الفن الذي يحملونهُ في كل وجوه العمل ومطالب الحضارة ، لا يمكن ان تتجلى بجملتها في صورة واحدة ، الاّ في الآداب التي تخرج من الناحية السامية فيهم ، وهي كتّابهم وشعراؤهم واهل التفكير منهم . فانت تستطيع ان تدرك طرفاً من شعور الفرنسي ونظام بيتهِ واخلاقهِ ، وقوة الروح الفنية عنده من قراءتك كتب فيكتور هوغو وحدها ، وان لم تنعم برؤية فرنسا آخر حياتك ، ولم تتقلب في بلادها ، وتدخل مغانيها وبيوتها ،وتظفر بصداقة مع طائفة من افرادها . وكذلك تستطيع ان تفهم من الادب التركي اي نفوس كانت تحمل الترك ، واي اعصاب كانت لهم ، واي اخلاق كانت تتخلق ، بل انك قادر ان تتبين من طرازهم في العمارة وهذه التعاريج والتثنيات التي كانوا يزينون بها شرفات قصورهم ومظلاتها وقبابها ، روح نامق كمال بك في معرجاته واستفاضاته . ومن ادبهم الذي لم يكن يحتوي غير حكايات قصار ، ونوادر موجزة ،وابيات افذاذ وكلمات مقتضبة ، تستطيع كذلك ان تعلم انهُ قد كانت لهم نفوس قلقة ، وقلوب وثابة ، واعصاب حارة ملتهبة ، فلم يكونوا يطيقون الصبر على البحث الادبي المستفيض ، والكتابة التفكيرية الممتدة ، اللهم الاّ في حدود الفقه والحديث وعلوم الفارسية واشباه ذلك ،وهذه كانت لا يطيقها الاّ شيوخ منهم يحسّون فتور العلم ،ويحملون في اعصابهم العلمية برودة القطب

واذا تقرر ذلك فان الادب التركي كان الى عهد قريب يحمل مفاسد الجيل وطبائعه واخلاقه ، وعوارض الانحطاط الذي كان يسود كلّ ناحية من نواحي الحياة المريضة التي عاشتها تركيا . ونحن واجدون في كل ما يخرج من افواه شعرائهم ، وتقذفهُ المطابع من اقلام كتّابهم وشعرائهم صوراً شتى من غرائب الطبائع التي نشهد آثارها في حياتهم ، اذ كان كل ما كتبهُ هؤلاء والنشأوه يجري مع مطالب الجمهور ، وينزل على حكم السواد الاعظم ويدخل على قلوب العامة

(١) من محاضرة الاديب نقولا شكري القاها بدار نقابة موظفي الحكومة المصرية بالاسكندرية بدعوة من جماعة الادب المصري

واشباههم من ناحية ما يحبون ، ويطالعهم من ناحية ما يفكرون ويعتقدون . ومن ثمَّ كان الجمهور العادي في تركيا هو الذي يقود الفكر ، ويسيطر على الذهن ، ويستبد بكل منتجات القرائح وثمرات العقول ، وما كان الكتاب الذين تأبى عليهم مطالب الربح والذكر والشهرة الاّ ان يتابعوا هذا الجمهور الذي لا يزال في طفولة الحياة ، ولا يزال يعيش بروح الماضي

***

على ان الادب التركي ما لبث ان انتعش في القرن الاخير ، وخرج من حدود الطفولة الى ادوار الحياة القوية المكتملة اذ جاءَ عديدون من كبار الادباء يدخلون على هذا الادب الضعيف روحاً جديدة من التهذيب ، وسبلاً عدة من التفكير العميق ، وهم لا يخلون من دلائل النضوج ، وسمو الذهن ، وبواكر العبقرية ، وهؤلاءِ الذين رفعوا لواء الادب التركي الجديد هم الذين سيتناولهم البحث دون غيرهم من الادباء الاقدمين

ونحن غير آخذيهم بالدور ، ولا متناوليهم بالترتيب والتعقيب ، وانما تاركون انفسنا على سجيتها وعنان خواطرها ، فقد نجيء بآخر كاتب قبل اول اديب ، ونبدأ من الذيل ونترك الرأس ، فنتناول الاديب من عرض جماعته ، وصفوف طبقته وندع صدورهم ، ونترك وجوههم

***

وبعد ، فقد اخترنا ان نتحدث عن توفيق فكرت بك شاعر تركيا وأديبها الكبير المتوفي منذ بضع سنوات

في الصف الاول من صفوف الكتَّاب العصريين ينهض هذا الرجل الخصيب الذهن ، القوي الاثر ، وقد أحدث في الآداب التركية تغييراً خطير الشأن ، وارسل في أرواح الشباب والمنحدرين الى المستقبل تطوراً شديد السلطان ، اذ كان في الحياة العامة قائداً يمشي في اثره كثيرون من المتطلعين الى التهذيب ، النازعين الى مناهضة المباديء القديمة التي لا يزال يعض عليها بنواجذه سواد طبقات الشعب التركي. ولعله كان محدثاً اكثر مما احدث لو انه غالب الحب الذي يتغلغل في نفوس اكثر الناس لروعة المنصب الحكومي وفخامة مقاعد الادارة ، أو لو انه اذ جلس مجلسه ، وتولى منصبه ، لم ينس الناس ، ولم ينصرف عن الجمهور ، ويرضى بعمل هين ليس فيه من متعبة الاّ كثرة الامضاءات والتوقيعات ، ومراجعة القوائم والكشوفات

على ان الحكومة لم تأخذه اليها الاّ يوم نشبت الحرب ، وطارت شرارة المجزرة ، وخمد صوت الفكر متبدداً في تضاعيف صوت القنبلة ، وانكمش المفكرون متضائلين امام اهل السيف فلم يكن ثمة سبيل الى هذا الرجل المفكر ان يرسل قلمه في تفاسير السياسة ، وينطلق في شرح اعاصير الدول ، ويخوض في نبوآت الحرب . وكان الرجل لا يزال مهيب الفكر عند الحكومة ، محترم الذهن عند كبارها ، فلم يسع انور باشا الاّ ان يذهب اليه فيهمس في اذنه : «ايها الرجل

المفكر ، ليس لك الآن محل في الحرب . ان زملاءك اليوم في الامم المحاربة قد سكتوا ، اذن فتعال عش في دار الآثار ، تعال أخرج لنا من هذه المطمورات تمثالاً للفكر منسيًّا »

حتى اذا استرسلت الحرب في عزيفها ونكرها وصريخها ، لم يلبث ان ملَّها الناس ، واعتادوها، ورضوا بالآلام التي تجيئهم من ناحيتها ، وراحوا يتلمسون عنها العزاء . ويتفقدون السلوى وليسوا بحاجة الى شيء مثل القراءة ، ولا أذهب لاحزانهم من الكتب ، لانها تضمد جراحات النفوس ، وتسكن آلام الاذهان ، اذ كانت مواد التسعيرات جعلت مطالب المعد تسود على مطالب العقول ، وقد تعب الناس من كثرة التفكير في الاكل ، اذ علموا ان الحرب ستأكل الجزء الانساني فيهم ، وتدعهم نوعاً جديداً من الحيوانات المتكاملة ، اذا لم يحتفظوا بقلوبهم واذهانهم . وكان هذا الرجل المفكر يستطيع في ذلك الزمن الاحمر القاني من دماء الابرياء ان يكون بلسماً ، وكان فكره الخصيب خليقاً بان يكون معزياً ومواسياً ، ولكنه ترك الناس لآلامهم ، وجعل نفوس القراء المتلهفين على قراءة البديع من الفكر في سكون اشبه بسكون الموت ، ولم يخرج للجمهور الا نادراً ، وقد كان ذلك يوم هجوم الحلفاء على الدردنيل فقد نظم قصيدة طويلة هي صرخة قوية يستنهض بها الهمم ويستثير الحماسة قال في مطلعها : —

« لقد دق ناقوس الحرب في الدردنيل وصيحات المتطوعين الباسلين تدوي في فضاء السموات الحلوة الجميلة ، هذا انور باشا ينادي الى الجهاد ، وهو الذي ظهر في الارض التي حول طرابلس بطلا صنديداً ووقف لا خوفاً ولا رهبا ، وثبت وهو قليل حيال الاعداء وهم كثيرون

« وهؤلاء المقاتلون الشجعان سيطهرون البلاد من القسوة والشناعة بشجاعتهم وبسالتهم

« ان لي ايماناً شديداً بأننا الظافرون بالنصر ، ولكن ابتهاجي بيوم الخلاص ، سيسدل عليه الحداد حزناً على الضحايا الغالية »

ومما يروى عنهُ بعد ذلك انهُ ادخل نجله « خلوق » في « كلية روبرت » الاميركية بالاستانة فوقع تحت يده دفتر من دفاتر الفروض المدرسية وقد رسم في اعلاه العلم الاميركي وكتبت تحته بالانجليزية هذه العبارة : « نعيش لتعيش » فرسم الفتى صورة العلم التركي الى جانب العلم الاميركي وكتب تحته بالانجليزية العبارة الآتية : « نموت لتعيش » فاثار بذلك شاعرية ابيه فنظم قصيدة عنوانها « الى ولدي » وهذه القصيدة تعد من عيون قصائده وسأتلو على حضراتكم بعض ابياتها بالتركية ثم اتبع ذلك بترجمتها العربية . قال الشاعر : —

« بني ... لو اني حملتك فجأة ، واسلمتك لهذا الخضم المصطخب ، وخلفتك طعمة لهذه الاعماق

« انت ولو انك لم تعهد الخوف ، هل تدري ماذا يكون المآل ؟

« ان هذه الصفحة الرجراجة طالما تبتلعك يحل بك الفزع ، فتصيح وتجاهد تلمساً للخلاص ، ولكنك لن تستطيعه لان هذا اليم يحيف عليك بكلكله ويجتذبك بقوة حديدية الى الاعماق

« هذي يا بني هي الحياة . آليت الا تجرع مثلي هذه الكأس المريرة . رويدك . ان البشر سوف يرجون ان يخطو العالم خطوة جديدة في سبيل الخلاص

« اما انا فلا ادري كيف تكون الوسيلة الى هذه الغاية . ترى هل يتاح للانسانية المعذبة المفلوجة بلوغ الذروة خطوة خطوة ؟

« صدقني يا بني ، انه شقاء ابدي ، وانه غش وخداع . . ! »

وبعد ، فلعل من اشهر مميزات توفيق فكرت بك انهُ يخص قومه بالوجهة اللامعة من آثاره ، حيث يجري في احساسهِ عامل نفسي طبيعي يصرخ ابداً فيهِ ، وهو عامل الحيوية القومية الخفية في الفرد ، هو شعور محتجب غريب يربط الانسان بالحياة الاجتماعية التي يعيش فيها ، وكذلك كل كاتب يعيش في امة حية،فاذا كتب فانما يعطي الانسانية آداب امته ،وينحني امام هذا العامل النفسي القوي فيعد هذه الآداب اكبر مقياس لآداب الانسانية كلها ، ومن هنا نشأ الزهو الاجتماعي السائد في الامم الحية الشاعرة بذاتيتها المحسة حيويتها

ولعل ابدع ما كتبهُ هذا الشاعر قطعة خالدة دعا فيها الى الوحدة الروحية بمحو التعصب للجنس والتعصب للون ننقل شيئاً منها فيما يلي . قال : —

« لقد اسرفت الامم في الاثرة والانانية . وفي العصبية الجنسية التي تمسك بها فريق من اهل الامم المتحضرة

« ولا شك عندي في انه يجب ان تزول الاثرة وان يزول التعصب للجنس والتعصب للون ، ويجب ان يشعر العالم ان هناك وحدة روحية تربط امه المختلفة ، والوسيلة الوحدة لقهر الانانية ولزوال التعصب الجنسي ليست هي الحديد والنار وانما هي انتشار الافكار السلمية بين الشعوب وسعيها لادراك الحقيقة وفي هذا يتم السلام على الارض . لان السلام لن يترتب على عمل صناعي مطلقاً كالاتفاقات الدولية وما اليها انما الوسيلة الوحيدة لتحقيقه هي الوحدة الروحية»

***

ننتقل بعد ذلك الى الكلام عن اديب كبير من الاحياء حكم له ادباء الترك بالتفوق وشرفتهُ الحكومة بالالقاب وهو حسين جاهد بك الذي مارس صناعة القلم زمناً غير يسير اذ كان يرأس تحرير جريدة « طنين » الشبيهة بالرسمية

وقد آثر جاهد بك ان يضع افكاره وفلسفته وآراءهُ في اساليب حلوة من الرواية ، وموضوعات سهلة من القصص حرصاً عليها ان تروح مستثقلة على اذهان الجمهور . مستغلقة الفهم ، باردة الروح ، مستكرهة الطعم . وهو لذلك يعد في طلائع الروائيين ومن اكابر المفكرين ، مذ كان في الرواية اسمى فروع الادب الصحيح المتحضر المنتعش ، وهو في الغرب قد اصبح جماع علومه وآدابه وفلسفاته ومبادئه

ولقد يكون جاهد بك اصدق كاتب تركي في نقل صور الحياة التركية ، هو مصور متفنن يتعمد ألاَّ يغير من الواقع ، ولا يزخرف ولا يلطف من خشونة الصور اوقبحها ، وكلُّ ما في الحياة التركية مما رآهُ او استكشفهُ ضمن قصصهِ

وقد تعمد جاهد بك ان يبني وقائعه على الحقيقة ، ومن الممكن ان يكون أشد الروائيين غلوًّا في مذهب الحقيقة « رياليست» هذا الى آرائهِ النظرية التي يخلط بها حوادث الرواية . وهو ذوق ظاهر في فنه يتوخاه دائماً ولكن دون ان يكون له اي تأثير في القصة . وأميز ما

يمتاز بهِ جاهد بك ان يشعرنا بالحياة في القصة ، الحياة المنقولة بامانة وصدق كما هي في الواقع، وانا لنحسب ونحن نقرأ رواياتهِ اننا نرى الاشخاص ونسمعهم بل ونلمسهم . ومهما يكن من جهل قارئهِ بتركيا واجماعها فانهُ لا يعتوره اي شك في صحة الصورة التي يقدمها اليهِ في احدى رواياته ، وصفوة القول أن غاية جاهد بك تنحصر في ان يقرب للفرد التركي ما استطاع، صورته الحقيقية في المجتمع . وقد نجح

ومن اشهر قصصهِ قصة اشتراكية عنوانها « وكانت الذئاب تعوي » ونحن ناقلون فيما يلي فصلاً من هذه القصة الطريفة. قال : —

«جرى ذلك في الغابة عند الهزيع الاخير من احدى ليالي الخريف اذ كانت الذئاب تعوي»

«وكانت الاوراق الذابلة تنفصل عن الاشجار بتؤدة كما تتبدد احلام المرء اذا صحا من نشوته

«وتسقط على رؤوسنا بخفيف يشبه الزفرات القصيرة . فما اتعس نهاية احلامنا ! وكان ذلك الخريف حزيناً يبكي وينتحب في الظلام خلال الاغصان مع الحشرات الاخيرة التي كانت تأوي الى بعض الشقوق والجحور فتموت هناك او تقضي تحت قشرة جافة نتأت من جذع الشجرة قليلا

«وكانت الذئاب تعوي

«اما عواؤها فكان طوراً تهديداً كانه دوي عاصفة قوية ، وتارة شكوى الغضوب العاجز فينتشر فوق الاشجار الساجية هنيهة ، ثم تعود تلك الظلمات الى سكونها ، وينقطع دبيب الحشرات ويملك الليل نسماته فيتنفس بهدوء تنفس الخائف الحذر

الى ان قال : —

عوت الذئاب من جديد عواء شديداً محزناً حتى لقد اعتقدنا ان ضوء نارنا يزعجها فتهيم حولنا مضطربة مضيقة حلقاتها

قال رفيقي : ما أقبح هذه الوحوش

فأجبته : لقد خافت النار

قال : كلا . ولكن العالم ضيق حتى على الحيوانات فليكن ملعوناً . فشعرت كان ألماً عميقاً يجيش في صدره ، وكان وجهه مصفراً تقع عليه اضواء النار فيصبح كانه شبح من الاشباح

وعاد صديقي الى الكلام قال : اني تعب ، اود ان انام نوماً طويلا عميقاً

قلت له : نم وانا اقوم على الحراسة . فتمتم قائلا بلهجة التوبيخ : ايها الخبيث انك لم تفهم مرامي اريد ان اقول لك نوماً طويلا بدون يقظة . نوماً ابدياً

ماذا اصابك ؟ اني تعب . تعب جداً من الحياة . بعد السجن وفي الحرية . اف لهذه الحرية انها اضيق من السجن . اصغ الي . [وبعد ان أتي على تفصيلات فراره من السجن وقتله الجندي الذي كان يقوم على حراسته] قال :

هذه الارض ضيقة . لقد انقذتني الظلمات في الليل حيث حجبت عن عيني جثة حارسي . واستمر النهر جائشاً مزبداً منحدراً في المهواة ملاطما الصخور ليكتسب شيئاً من "الفسحة وشيئاً" من الحرية التي لا يستطيع نيلها الا بتدمير ضفتيه وطغيانه على الارض يحمل الدمار والموت . وكنت حيثما التفت اجد مشهداً واحداً من الطبيعة . لا بد من التدمير والقتل لاحراز الحرية . وقد سدرت في الظلمات وضللت في الغابة . الغابة والليل كلاهما أسود كالحياة ، مملوء بالجنايات كالحياة

«خشخش العشب الجاف . ومر امامنا ارنب فهزم أمام وحش ضار فقلت : المشهد ذاته . كل خليقة في العالم تنازع وتفترس خليقة اخرى . وعوت الذئاب من جديد

فالتفت الرجل وقال : هل سمعتها ؟ هذه الوحوش الضارية تقوم بجنازة حريتي وشكواها لا تتغير أبداً . والعالم ضيق . ضيق . ضيق »

[في فصل تال يتناول الكاتب أدب خالدة اديب خانم]



كمامات واقية من الغاز السامّ في الحرب

الحرب الكيمائية

لحبيب اسكندر
ناظر القسم الثانوي بجامعة القاهرة الاميركية

— ٣ —

﴿ الدخان ﴾ عدا الغازات السامة يوجد نوع آخر من المواد يستخدم في الحرب لتوليد دخان فقط . اعني دخان غير سام والغرض منه احداث حواجز لاخفاء مواقع الجند ومواضع المدافن والسفن والطيارات عن نظر العدو . ثم لتمكين الجيوش من الانتقال ونقل الذخائر وعمل الاستعدادات الحربية في وضح النهار من دون ان يتمكن العدو من كشفها والوقوف عليها . وقد كانت هذه الاعمال تعمل تحت ستار الليل الحالك . فكان في ذلك مشقة وتعب وعدم اتقان . ويشترط في الدخان الصالح لعمل الحواجز ان يكون صالحاً لحجب ما خلفه عن الانظار وان يكون ثابتاً لا يستقرُّ سريعاً بل يبقى معلقاً في الهواء زمناً كافياً

وقد اهتدى الكيماويون الى كثير من المواد التي تصلح لتوليد مقادير وافرة من الدخان تملأ الفضاء سحباً تحجب ما خلفها او ما تحتها عن الانظار . واشهر المواد التي استعملت لهذه الغاية الفصفور وثالث اكسيد الكبريت وحامض كلورور الكبريت ورابع كلورور القصدير ورابع كلورور السلكون ورابع كلورور التيتانيوم ومعظمها يتحد بالهواء او ببخار الماء الموجود في الهواء فيكون دخاناً كثيفاً . واشهر المواد المولدة للدخان مخلوط يسمى مخلوط Berger يتركب من خارصين ورابع كلورور الكربون وكلورات الصوديوم وكربونات المغنسيوم .فعند ما تضرم فيهِ النار تتولد ادخنة كثيفة من كلورور الخارصين والكربون. وتوضع المواد المولدة للدخان في صناديق او اسطوانات خاصة وتضرم فيها النيران او تعرض للهواء واحياناً تفرغ في قنابل تقذف . والغرض من حواجز الدخان : —

(١) اخفاء المدافع والجيوش المهاجمة ثم اخفاء الطرق والمراكز الحربية الهامة وحجب الضوء الذي تحدثهُ المدافع عند اطلاقها فلا يراها العدو . والحيلولة دون الاستكشاف الهوائي

(٢) ايهام العدو أن في الهواء غازاً ساماً . لان الغاز السام يخلط عادة بالدخان فيعتقد العدو انهُ من الخطر البقاء في سحابة دخان دون ان يلبس كمامة الغاز السام

(٣) تضليل العدو وتوجيهِ نظره الى جهات لا هجوم فيها فيضطر الى ابقاء جيوش وذخائر في هذا المكان دون ان تدعوَ اليها الحاجة

هذا وهناك نوع من الدخان الملون منهُ الاحمر والازرق والاصفر والاخضر والارجواني يستعملونهُ في الحرب لاعطاء الاشارات ونقل المخاطبات . ودخان المخاطبات هذا يتكوَّن باضافة مواد ملونة الى المواد او المخلوطات المحدثة للدخان العادي او بتفاعلات كيماوية خاصة

كانت المخاطبات تتمُّ فيما مضى بالرايات ثم استبدلت بها التلغرافات والتلفونات الكهربائية . ولكن استخدام الغازات السامة والمفرقعات الشديدة والادخنة الكثيفة اضطر الجند الى الاعتصام بالخنادق والحفر وجعل رؤية الاشارات في ميدان القتال متعذرة بل مستحيلة . فليس اسهل على الجندي والحالة هذه من ان يقرأ دخاناً ملوناً بالنهار او لهباً ملوناً بالليل ليرشده الى ما يجب عمله

المواد المحدثة للحرائق : —

تكلمنا على الغازات السامة وانواعها المختلفة ثم على حواجز الدخان والاغراض التي تستعمل لها . وامامنا طائفة اخرى من المواد الكيمائية الحربية الغرض منها احداث حرائق في المباني والاستحكامات الحربية التي تقذف عليها

من المعلوم أن الفصفور يشتعل من تلقاءِ ذاته اذا عرض للهواء لذلك فكر البعض في استخدامهِ كمادة محدثة للحرائق . ولكن التجربة دلت على ان استخدامه لا يحقق الغاية كلها وانهُ لا يصلح الاَّ ضد المواد السهلة الالتهاب مثل اشعال غاز الايدروجين في البلونات واشعال مستودعات البنزين في الطيارات . او حرق الاعشاب الجافة . وأما أثره في الخشب والمواد الاخرى فضعيف وذلك لان درجة احتراقهِ منخفضة ثم لان ناتج حرقهِ وهو خامس أكسيد الفصفور مادة واقية من الحريق

ولكنَّ الباحثين وجدوا في «الترمِت» ضالتهم المنشودة . والترمت مخلوط من مسحوق الالومنيوم واكسيد الحديد . فاذا اشعل هذا المخلوط تولَّدت حرارة عالية بسرعة فائقة . ثم ان المواد المنصهرة الناتجة من التفاعل اذا سقطت على مواد قابلة للالتهاب احدثت فيها حريقاً هائلاً . ولا يستخدم الترمت منفصلاً بل يضيفون اليهِ مادة سريعة الالتهاب مثل الزيت الصلب، تشتعل أولاً بالترمت ثم يمتد الاشتعال منها الى المواد التي يراد حرقها . وبهذا المخلوط يمكن احداث لهب ارتفاعه ١٥ قدماً فيمكن استخدامه في حرق الجدران والسقوف وغيرها

وقد اخترعوا مواد تحترق من تلقاءِ ذاتها اذا قذفت على الاعداء واساس هذه المواد الفصفور وزيت الوقود وبتغيير المقادير يمكن الحصول على مخلوطات او زيوت منوعة تحترق بمجرد تعرضها للجو في مدد تختلف من ٣٠ ثانية الى دقيقتين . واذا اضيف اليها فلز الصوديوم نتج مخلوط يحترق اذا نشر على سطح الماء . وهذه المخلوطات توضع في قنابل او قذائف خاصة وقد توضع احياناً في اجهزة تسمى قاذفات اللهب . وعند فتح الصنبور تندفع هذه السوائل بقوة حتى لقد يبلغ مداها من ١٤ الى ١٧ متراً . والى القارىء بياناً بما انتجتهُ اميركا من الغازات الحربية







كمامات واقية من الغاز السام في الحرب

الغاز	رطل انكليزي
الكلور	٧،٦٥٤،٠٠٠
الكلوروبكرين	٥،٥٥٢،٠٠٠
الفوسجين	٣،٢٣٣،٠٧٠
غاز الخردل	١،٤٢٢،٠٠٠
الفصفور الابيض	٢،٠١٢،٠٠٠
رابع كلورور القصدير	٢،٠١٢،٠٠٠
برومونزلسيانيد	١٠،٠٠٠
كمامة غازسام	٦،٦٩٢،٠٠٠
كمامة للخيل	٥٧٧،٨٨١
.. .. ..	.. ..

﴿ الغازات في زمن السلم ﴾ كثير من الناس يتهمون العلوم الطبيعية بأنها السبب في زيادة وسائل التخريب وانها قد جعلت الحروب افظع مما كانت عليه ولكن الذين يصمون العلوم بهذه الوصمة قد نسوا ان لكل اختراع علمي فوائد ومنافع سلمية اضعاف مضاره الحربية . فالمفرقعات والاسمدة مواد ذات اساس واحد . حتى المفرقعات نفسها تستخدم في عشرات من الاغراض السلمية مقابل كل غرض حربي واحد. كذلك الحديد مادة تصنع منها الحراب والمحاريث والسكك الحديدية والسيارات وآلات الخياطة وآلاف العدد والادوات اللازمة لسعادة الانسان ورفاهيته. وعلى هذا القياس يصح ان ننظر الى غازات الحرب على انها نتيجة طبيعية لمباحث الكيمياء الصناعية في اوقات السلم التي غرضها استنباط اسمدة واصباغ وعطور وأدوية رخيصة

بعد استخدام الكلور في الحملة الغازية الاولى شمر الباحثون في الدول المتحاربة عن ساعد البحث والاستنباط . وفي مدى ثلاث سنوات ونصف كشفوا عدداً كبيراً من المواد السامة التي استخدموها في الحرب . وبعد ان القت الحرب أوزارها وجَّهوا بحوثهم الى استخدام هذه المواد المتراكمة في اغراض سلمية . فوجدوا ان كثيراً منها يصلح لغايات كثيرة فالكلور يستعمل مطهراً ومنقياً لمياه الشرب لانه يقتل جراثيم الحمّيات . ثم انه يستخدم في صناعة قصر المنسوجات ويستعمل في المعامل لاغراض عدة . كذلك وجدوا ان الكلوروبكرين وكلورور السيانوجين وبروموره يمكن الاستفادة منها في قتل الحشرات التي تفتك بالحبوب . والحامض الايدروسيانيك من اشهر المبيدات للحشرات التي تفتك بالبرتقال والليمون . وغاز الفوسجين يدخل في صناعة كثير من الاصباغ الخضراء والزرقاء والبنفسجية والحمراء. ولما كان رخيصاً وصنعهُ سهلاً يمكن الاستفادة منه في ابادة الفيران والجرذان واشباهها. وغاز الخردل يستخدم علاجاً لكثير من الامراض كالسرطان

من الغازات المبكية او المسيلة للدموع مركب صلب يدعى Chloracetophenone اذا سخن تصعّد سحاباً مائلاً الى الزرقة وهذا السحاب او الدخان يلفح العين . واذا اعترضه شخص اصابه عمى وقتي . والقليل منه يحدث في العين المآ عظيماً ويستنزل تياراً من الدموع يتدفق مدة دقيقتين او خمس دقائق واذا زاد مقدارهُ دام فعله مدة اطول . ومع كل هذا لا يترك ضرراً مستديماً . مثل هذه المادة التي

تؤثر في الحال والتي لاتحدث ضرراً مستديماً يحتاج اليها الشرطيُّ والعمدة والسجان في تفريق شمل المظاهرات والمشاجرات والتجمهر. فاذا اطلقت من قنابل يدوية على جمهور المشاغبين والمتظاهرين جعلتهم جميعاً يبكون ولا يبصرون شيئاً . واظنهم بعد ذلك لا يقدمون على عملهم مرة ثانية

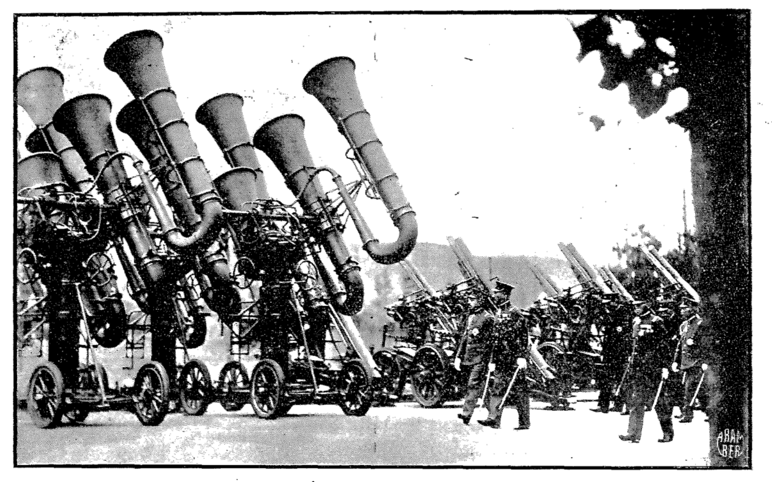
وهناك مركب يدعى Diphenylamine Chlororsine وهو ليس غازاً ساماً ولكنهُ يحدث التهاباً في الجهاز التنفسي واحياناً يحدث قيئاً . وهذا يمكن استخدامه في حماية خزانات المال في البنوك . وامثال هذه المواد التي تحدث الماً شديداً ولاتترك ضرراً مستديماً كثيرة وهي التي يمكن استخدامها في اوقات السلم لتحقيق غايات واغراض شريفة كالتي ذكرناها

ويستخدمون الغازات السامة أيضاً في بعض الاحيان في صيد الحيوانات البرية ومطاردة الجراد وابادة ديدان القطن وغير ذلك . كذلك كمامات الغاز السام تستعمل الآن بكثرة في المانيا في المصانع وفرق المطافىء فكل رجل من رجال المطافىء عنده كمامة غاز سام

﴿ مستقبل الغازات السامة ﴾ : — إن حرب الغازات لا تزال في المهد. وكل ما استخدم منها والوسائل التي استخدمت بها وطرق الوقاية كلها جميعاً قابلة من نواح عدة للاصلاح والتنقيح والتغيير والتبديل . فالكلور استخدم اولاً في اسطوانات من الحديد ثقيلة جعلت استخدامهُ شاقاً ومضيعةً للوقت . ولم تمض شهور قليلة حتى ظهرت مكانهُ غازات مختلفة في حالة سوائل تصب في قنابل سهلة النقل والاستعمال. وبالقرب من نهاية الحرب ظهرت غازات سامة في صورة اجسام صلبة يمكن نقلها بغاية السهولة واستعمالها في جميع الاحوال من غير خطر ما . ولايزال البحث سائراً سيره نحو التقدم والتطور وسوف تظهر من غير شك غازات جديدة وتبتكر طرق جديدة لاطلاقها ومباغتة العدو بها

في الحرب الماضية لم تستخدم الطيارات في قذف مقذوفات غازية ولا نعلم سبباً لذلك . ولكن حدوث ذلك في المستقبل بعد تقدم الطيران امر مؤكد . وسيكون ذلك بغازات اشد فتكاً في المدن وميادين القتال. ولقد قرأت انهم بعد الحرب اكتشفوا غازات جديدة اشد فعلاً من اقوى الغازات التي استعملت ١٠٠٠ مرة منها غاز اذا استنشقهُ كائن حي مات في الحال . ويقال انهم قد جربوه في هرّ فسقط ميتاً ولم يبد حراكاً . فتصور طيارة طارت في جنح الليل او في النهار فوق مدينة مطمئنة آهلة بالسكان وقذفتها بمقادير عظيمة من هذا الغاز . اني اترك لك تصور تلك النكبة ومبلغ تأثيرها . هذا بعض ما يحدث في الحروب القادمة

ان انتصار الجيش او الاسطول المائي او الهوائي بل ان انتصار الامة في الحروب القادمة متوقف على استعدادها الغازي وعلى ما تبتكره من هذه المواد . فالواجب على كل امة تريد ان تحتلّ لها مكاناً تحت الشمس ان تعنى بصناعة المواد الكيماوية وان تدرب رجالها على استعمالها وطرق الوقاية منها . فالحرب الكيمائية لها جنود خاصة بها وضباط وقوّاد فنيّون . والنصر في المستقبل للامة المتنبهة اليقظة المتفوقة في الفنون الكيمائية



آلة جديدة استنبطت في اليابان ليستعملها الجيش الياباني في تبيّن اصوات الطيارات ووجهتها وهي لا تزال على بعد عشرين ميلاً



الرأي العام

إن الرأي العام مظهر من مظاهر شعور الجماعة واللفظة اسم لمدلول غامض غير واضح يصعب جلاؤه على الرغم من وقوعه في الاذن ومتناول اليد وهو شبيه ببعض اصنام يعبدها العبّاد ويشيدون لها الهيا كل ولا يدرون من امرها شيئاً ...

ان تفسير كلمة « الرأي العام » سهل جدًّا فالرأي العام هو رأيك ورأيي ورأي الآخر أو هو لا رأيك ولا رأيي ولا رأيهُ وانما هو رأي الجماعة كلها غير مجزأة ...

يتأثر الفردُ برأي الجماعة فيكوّن في نفسهِ عقيدةً ما يظنها وليدة تفكيره وينسى انها نفذت اليه من الخارج . وقد قال (لوبون) ان الذين نجوا من اثر الرأي العام في رأيهم الخاص لأقلاَّء جدًّا والانسانية مدينة لهم على قلتهم بالعمران والتقدم. وقد يستحيل حتى على العباقرة والنوابغ ان يتحرّروا من تأثير الوسط وفعل البيئة الروحية حيث ولدوا وترعرعوا وشبُّوا

وقد حاول الفيلسوف (ديكارت) ان يخرج على الافكار المقررة من قبل وان لا يقبل منها الاّ ما انتفى منه الشك ولكن ازهقت روحه ولم يظفر مبدَؤه اذ أنهُ لم يقوَ او لم يجرؤ على اعلان تعاليمهِ الفلسفية المناقضة لآراء العصر الذي عاش فيه

***

ان معظم آرائنا تلقين وايحاء لا استنباط وتأليف . وهب رأيك رأياً مبتدعاً فانك لتبقى ضعيف الايمان بصوابهِ حتى ترى انقياد الجماعة له أو نفورها منهُ وتجد في هذا النفور تثبيطاً اي عدولاً عن الرأي وفي ذاك الانقياد تشجيعاً اي رسوخاً به

والرأي العام قسمان : قسم انتهى الينا بالوراثة عن الماضي ذلك انهُ نشأ مع نشوئنا طائفة من الافكار والآراء والعقائد لم يكن لنا في بحثها ووضعها يد وانما قبلناها على علاّتها فاستولت على عقولنا وتفكيرنا . وقد نصح (جان جاك روسو) النشء ان يعالج الامور وهو معتزل للناس سابح في فضاء من الحرية فسيح

والقسم الثاني هو تيار آراء البيئة التي تحوطنا فمما يتركب هذا التيار ؟ ؟

انهُ يتألف من عوامل ثلاثة : المعرفة والمبادلة والعدوى الذهنيــة . فالمعرفة تجعل للرأي العام وزناً والمبادلة تذيعهُ والعدوى كذلك

ولقد كان في صوت الرأي العام قديماً بحَّة اما اليوم فقد انطلق هذا الصوت والصحافة لسانهُ وهو لسان ذو حدين ينشر الحقائق ويذيع الاخطاء . وكما ان الورق مادة قابلة لالتقاط جراثيم العلل كذلك سطورها تنقل العــدوى الذهنية والمبادلة الفكرية بين الناس ان هدًى وان ضلالاً !!

وفي الناس من يزدري الرأي العام ولا يعبأ بهِ ولا يهاب سلطانهُ وهؤلاء هم الاقوياء المستقلون فكراً ورأياً . ومنهم من يرزح تحت هوله ويخشى بأسهُ ورعوده وهؤلاء هم ضعاف النفوس . على أن (ماكس نورداو) يقول « انهُ لشجاع عظيم ذاك الذي يجاهر برأي شخصي مخالف للرأي العام وانهُ لمن الحماقة دوام المجاهرة برأي ثبت لصاحبهِ ان سعير الحرب بين هذا الرأي ورأي الجماعة لا ينفك مرتفعاً وان الخلاف قد يصير ابديًّا ... »

ولا يخفى ان للمرأة شأناً عظيماً في ميدان الآراء فاذا كان بعض الافذاذ من الرجال يستطيع معاندة الرأي العام فان النساء لضعيفات كل الضعف في الوقوف في وجه تياره ومقاومة عواصفهِ وارياحهِ وهذا الضعف البشري يتجلّى في تأثير انتشار الازياء والخضوع خضوعاً تامًّا لسلطانها الموهوم

***

ان الشرائع من وحي الضمير وهي خير رادع للشر ولكن شوهد ان الرأي العام ينوب مناب الشرائع في البلدان الهمجية حيث لا شرائع موضوعة تردع الجاني وكثيراً ما يكون الخجل والحياء سبباً من اسباب نصر الفضيلة على الرذيلة

ويختلف الرأي العام باختلاف الاماكن والازمنة وباختلاف الهيئات الاجتماعية والدينية والاقليمية . اذ ان لكل طائفة من الناس عادات وعقائد متنوّعة

ثم انهُ كثيراً ما عاب الغربيون على الشرقيين انقيادهم لآراء الجماعة واستضعافهم امام قوة الرأي العام . فهل جهل الغربي ان ما من شعب تملّص من كابوس الرأي العام مهما عرق في العلم والحضارة وان قادة الرأي العام في كل مكان وكل زمان هم الذين فكروا وحدهم تفكيراً حرًّا وارتأوا رأياً مستقلاًّ وان سائر الناس يسيرون خلفهم ويتبعون خطواتهم ليس الاَّ ؟؟!!!

باريس توفيق وهبه

باب الزراعة والاقتصاد

الحشرات ومكانتها الاقتصادية في العالم

الحشرات والانسان — بدء دراسة الحشرات من الوجهة الاقتصادية — الخسائر التي تنجم عنها — للحاصلات الزراعية — للحيوانات الاليفة — للاشياء المنزلية — نقلها للامراض — الحشرات المفيدة — دودة الحرير — نحل العسل — الحشرات المفترسة — الحشرات وتلقيح الازهار —

لا شك في ان الحشرات هي اكثر الكائنات الحية اتصالاً بالانسان والحرب بينهما قديمة ترجع الى ملايين السنين لما ادرك الانسان أن هذه الكائنات الصغيرة تضرُّ بهِ اضراراً جسيمة وتصيبهُ في نفسهِ وفي زراعاتهِ واشجاره وحيواناتهِ وطيوره وبالجملة ان كل ما يمتلكه من الاشياء لا ينجو من الاضرار التي تسببهـا الحشرات . ولا توجد على ظهر البسيطة جماعة من الناس في قديم العصور او حديثها لم تقاسي قليلاً او كثيراً من الحشرات . وقد تأتي تلك الاضرار بطريقة مباشرة او بالواسطة ولكنها على كل حال موجودة يشعر بها كل فرد . وان كان بعض الناس لا ينتبهون لها فاننا نبغي في هذا الفصل الموجز ان نبين تلك الاضرار العظيمة ونوضحها حتى يقف على حقيقتها كل انسان

ولا تخلو من الحشرات منطقة واحدة على وجه الارض فمن المناطق الشمالية المتجمدة حيث يقاسي الاسكيمو من لدغات البعوض الى المناطق الاستوائية الحارة حيث يتعرض سكانها لمرض النوم الذي تنقـله اليهم ذبابة تسي تسي Tsetse وما بين هاتين المنطقتين من بقاع ووهاد وجبال وسهول وحراج وغابات نجد ان الحشرات لها المكان الاول في اجتلاب الاضرار والمفاسد. وفي قديم الازمان عند ما كان النـاس يصـابون ببعض الاوبئة الحشرية كانوا يظنون ان هذا جزاء لهم على ما اقترفوه من آثام ولذلك كانوا يبتهلون الى الله ان يمنع عنهم هذا البلاء . ولكن الانسان الذي ميزه الله عن سـائر المخلوقات بالعقل والبيان قد بدأ بعد ذلك يفكر في مثل هذه الاشياء وبدأ يجرد سلاحهُ لمكافحة تلك الكائنات الصغيرة لينجو من شرها فكان يتعثر في خطواتهِ الأولى مرة يفلح ومرة يخيب الى ان بدأت دراسـة الحشرات من الوجهة العلمية فكان من نتائجها اننا أصبحنا الآن أقدر كثيراً من الانسان الاول على مجابهة تلك

الاوبئة . وما عهدنا بغارة الجراد الاخيرة وما بذلهُ رجال وزارة الزراعة في مقاومته وابادتهِ ببعيد . وقد أصبح الفلاح الآن يستدعي عالِم الحشرات ليستفتيَهُ في انقاذ حاصلاتهِ من الاوبئة الحشرية كما يستدعي الطبيب لمعالجة ابنهِ او الطبيب البيطري لينقذ حصانهُ من مخالب المرض

ولم تبدأ الدراسة العلمية للحشرات الا في القرن السابع عشر حينما اخذ بعض العلماء امثال سوامردام Swammerdam في هولندا وملبيجي Malpighi في ايطاليا في تشريح نحلة العسل ودودة القز لمعرفة هل هذه الحشرات لها معدة وامعاء وجهاز عصبي ومخ الى آخر ذلك من اعضاء الحيوانات الكبيرة الحجم . وفي القرن التالي بدأت دراسة الحشرات من الوجهة التصنيفية واخذ بعض العلماء امثال لينيوس Linnaeus في السويد وفابريسيوس Fabricius في الدنمارك بتقسيمها الى مجاميع خاصة لتسهل دراستها على الباحث الذي يميل الى مثل هذه الدراسة . واستمرت دراسة الحشرات من الوجهة التصنيفية والتشريحية الى ان كان النصف الاخير من القرن التاسع عشر لما بدأ العلماء يشعرون بالهجمات العنيفة والاضرار الجسيمة التي تسببها الحشرات وبوجهٍ خاص أوبئة الجراد في حوض نهر المسيسبي حيث نبهت اذهان حكومة الولايات المتحدة ورجال محطات الابحاث فيها الى وجوب العناية بتوجيه الحملات العلمية على الحشرات ومُقاومتها بقدر المستطاع حتى تنجو الحاصلات الزراعية من التلف . ومنذ ذلك الوقت بدأ نوع جديد من الدراسة وهو دراسة مقاومة الحشرات Insect control وبدأ العلماء المحترفون يظهرون في الميدان . واخذ هذا العلم يتقدم بسرعة عظيمة جداً نظراً الى حاجة الانسان اليه . ففي انجلترا في اوائل القرن العشرين كان علماء الحشرات لا يصلون الى المائة فاصبحوا في نهاية سنة ١٩٢٥ يُربون على الالف . ولكن دراسة علم الحشرات الاقتصادي خطت خطوات أسرع من ذلك في الولايات المتحدة وهي آخذة الآن في النمو في كل الممالك الاخرى التي تقوم زراعتها على اساس علمي ثابت يساعدها على زيادة المحاصيل وتوفير اسباب الرخاء بمقاومة تلك الحشرات الضارة

هذا ما استطيع ان اقوله عن علاقة الحشرات بالانسان وكيف بدأ يشعر بضرورة مقاومتها والخطوات العلمية التي اتخذها في سبيل تلك المقاومة . أما عن الخسائر التي تسببها الحشرات في العالم فسأتكلم عنها الآن بالتفصيل حتى يشعر القارىء بخطر هذه الكائنات من الوجهة الاقتصادية . وقد دلت الاحصاءات الدقيقة التي تقوم بها محطات الابحاث أنهُ في وقتنا هذا تقضي الحشرات على ١٠ ./٠ من جميع الحاصلات الزراعية في كل عام . هذا في الاحوال العادية أي أن الناتج يكون تسعة أعشار المحصول الاصلي . ولكن احصاءات تلك المحطات في الاحوال غير العادية تدل على انهُ لم يسلم من المحصول الاصلي من هجوم الحشرات واتلافها الا ٢٠ ./٠ أو ٣٠ ./٠ فقط . ويشتمل هذا التقدير على حاصلات الحقول أو المنتجات الزراعية وحاصلات الغابات والاخشاب والحيوانات الاليفة ومنتجاتها والاشياء المخزونة وأشجار الظلال والشجيرات

ونباتات الزينة والاطعمة وغيرها . أما في حالة الفواكه فان الخسائر في الحالة العادية تزيد عن عشر المحصول . وفي بعض الاحوال الخاصة حيث يكون هجوم الحشرات عنيفاً فانها قد تقضي على المحصول كله . اما في الولايات المتحدة فقد تقدر الخسائر التي تنجم عن الحشرات في كل عام بمئات الملايين من الجنيهات

وعند ما تصاب الحاصلات الزراعية بأوبئة حشرية يقل المحصول وترتفع الاسعار لقلة العرض وكثرة الطلب . فاذا كان بعض الزرّاع في ذلك الوقت يقون حاصلاتهم بالطرق العلمية فانهم يجنون من وراء ذلك فوائد كثيرة لانهم اولاً يحفظون منتجاتهم من التلف وثانياً يتاح لهم بيعها بأثمان باهظة لقلة المعروض في الاسواق .وقد يقول البعض انما ينفقه الزارع على حفظ منتجاته وابعاد الحشرات عنها قد يوازي الفرق الذي يحصل عليه من ارتفاع الاسعار ولكن هذه النفقات في الواقع تعد جزءًا يسيراً جدًّا من الارباح التي يحصل عليها بارتفاع الاسعار اذا احكم طرق الوقاية وانتقى منها أحسنها وأوفاها بالغرض المقصود . لذلك كان من الواجب على الزرّاع انفسهم ان ينتبهوا لهذه المسألة حتى في الاحوال العادية وحين لا تتفشى الاوبئة لان الحشرات كما ذكرنا سابقاً تتلف عادةً عشر الحاصلات الزراعية فاذا كان الزرّاع ينفقون بعض تلك الاموال لوقاية حاصلاتهم فلا شك أنهم يأخذونها أضعافاً مضاعفة عند ما يبدأون في الحصاد ويجدون ان متوسط انتاج الفدان الواحد قد زاد كثيراً عن متوسطه إذا لم يتبعوا اي طرق لوقاية حاصلاتهم

واذا كانت الاضرار التي تنجم عن الحشرات في المحاصيل الزراعية تقدر بما تقدم فان أضرارها في المنازل لا تقلُّ عن اضرارها في الحدائق والحقول والغابات.في المنزل نرى العثة التي تأكل الملابس والسجاجيد وغيرها والسوس الذي يأكل الدقيق والحبوب والنمل الذي لا يضل في بحثه عن السكر والمواد الحلوة هذا عدا الذبابة والبعوضة اللتين تحملان كثيراً من الامراض المعدية وبعض الحشرات التي تتلف الكتب والصور

اما الحشرات الزراعية فمنها ما يأكل اوراق النباتات وبذلك يفقد النبات العامل الرئيسي في حياته لان الاوراق هي التي تقوم بصنع الغذاء للنبات فينمو ويكبر.ويعطى للازهار التي تتلوها الثمار فاذا اكلت تلك الاوراق فان النبات يكون مصيره الى الموت . ومن امثلة تلك الحشرات دودة القطن فهي تأكل الاوراق وبذلك تتلف عدداً كبيراً من شجيرات القطن وبعضها يأكل اللوز بعد تكونه على النبات وقبل نضوجه وهنا خسارة لاتقدر تصيب القطن أيضاً من الحشرة المسماة بدودة اللوز . وبعض الحشرات تثقب ساق النبات وتأكل ما بداخله وبذلك يسقط النبات اذا هبت الرياح اذ لا يستطيع ان يصمد في وجهها . ومن الحشرات ما يتطفل على الحيوانات التي تساعد الفلاح في زراعته فتنقل اليها الامراض وبذلك تقل قدرتها

على العمل وتقل منتجاتها كاللبن والزبدة وغيرها وبعضها يثقب جلد هذه الحيوانات فاذا ذبحت وبيعت جلودها كانت غير صالحة للدباغة لما تحتويه من الثقوب

وتقع الاضرار التي تسببها الحشرات تحت قسمين القسم الاول الذي تسببه الحشرات الدودية أي التي تظهر فقط كل مدة معينة كالجراد مثلاً فان هجماته لا تكون طول العام ولكنه يظهر كل مدة خاصة كخمسة اعوام مثلاً ثم يختفي وبعد خمسة اعوام اخرى يشن غارة جديدة وهكذا . والقسم الثاني الذي تكون هجماته مستمرة وثابتة وتكون الخسائر التي تنجم عنها غير كبيرة في الظاهر ولكنها بطيئة ومستمرة فتفوق في مجموعها غارات الحشرات الاخرى التي تنتمي الى القسم الاول

وللحشرات اضرار اخرى جسيمة لانها تنقل بعض الامراض من المريض الى السليم فتنشر كثيراً من الامراض كالملاريا والحمى التيفودية والتيفوس والحمى الصفراء والطاعون والرمد وغيرها من الامراض الخطيرة التي تجعل المصابين بها غير قادرين على العمل فقط ولكنها تحتاج الى نفقات كبيرة للعلاج والادوية وقد تنتهي بالموت فتصبح الخسارة التي تتكبدها المملكة لا تقدر . وكثيراً ما تكون هذه الامراض وامثالها مما تنقله الحشرات سبباً في ضعف بعض الدول وفقرها اذا لم تقاوم مقاومة شديدة وتفرض عليها الرقابة الخاصة وتحارب الحشرات التي تنقلها . وتتكبد الولايات المتحدة سنويًّا من الخسائر ما قيمته ١٠٠ مليون جنيه بسبب الملاريا وحدها و ٣٥٠ مليون جنيه بسبب الامراض الاخرى التي تحملها الحشرات

ومن المشاهد ان الخسائر التي تنتجها الحشرات تزداد عاماً بعد عام واذا بحثنا عن السبب في ذلك مع وجود طرق الوقاية الكثيرة اجابنا احد الثقات في هذا الموضوع وهو الدكتور هوارد Howard أحد علماء الحشرات الاميركيين ورئيس معهد لعلم الحشرات بالولايات المتحدة بأن هذه الزيادة في الخسائر تنتج دائماً من تقدم المدنية لانه يقول ان الاراضي القاحلة والغابات التي يحولها الانسان الى أراضٍ زراعية يقضى فيها على عشرات الانواع من النباتات الوحشية التي تغطي تلك الاراضي ثم يأخذ بزراعة مساحات كبيرة منها بنوع واحد من الحاصلات كالقمح او البطاطس او الذرة او غيرها . فالحشرات التي كانت تعيش على النباتات القديمة الصلبة تجد امامها أنواعاً جديدة ولينة تستطيع اقتحامها بسهولة فتعيش عليها وتنتشر معها وعند ما تنقل البزور من هذه الاراضي الجديدة تنقل معها جراثيم الى اراضٍ زراعية اخرى وبذلك توجد انواع جديدة من الحشرات لم تكن تعرف من قبل

وبانتشار المدنية ايضاً تصدر انواع كثيرة من الحاصلات الزراعية والحيوانات ومنتجاتها من بعض ممالك العالم المختلفة الى البعض الآخر وكلما ارتقت المدنية وسهلت طرق المواصلات زادت المقادير المصدرة من تلك الحاصلات الزراعية وتنوعت . وعند ما تنقل تلك الاشياء

من مملكة الى الاخرى فانها تنقل معها الحشرات التي تعيش عليها وقد تجد بعض الحشرات في الممالك الجديدة المصدرة اليها بيئة أصلح لنموها من حيث الجو ودرجة الحرارة والرطوبة والجفاف وغيرها من العوامل التي تؤثر في انتشارها فينجم عنها اضرار جسيمة في الممالك الجديدة التي تنتقل اليهـا . لذلك بدأت الممالك المختلفة تشعر بهذا الخطر وفرضت الرقابة الجمركية الشديدة على الواردات التي قد تحمل معها شيئاً من الحشرات . وبعضها أنشأ مكاتب خاصة للتفتيش عليها ولا يسمح لها بالدخول الى المملكة الا بتصريح خاص من تلك المكاتب. وكثير من الحاصلات تردُّ الى البلاد التي صدَّرتها حتى لاتكون مصدر بلاء او عاملاً من عوامل انتشار الحشرات في تلك المملكة وهذه طريقة مجدية يجب على الحكومات ان تعمل بها حتى توقف انتشار الحشرات نوعاً ما

***

هذا قليل من كثير مما يجب ان نذكره عن الاضرار التي تسببها الحشرات للمجتمع حتى تتنبه اذهان القراء الى خطر تلك الكائنات الصغيرة. ولكن الى جانب الحشرات الضارَّة انواع كثيرة تؤدي خدمات جليلة للانسان وتوفر له سبل الرخاء . ومن هذه الحشرات المفيدة دودة الحرير وهي على جانب عظيم من المكانة الاقتصادية لانها الاساس لصناعة الحرير وهي التي تكوّن الخامات الاولى التي تتوقف عليها هذه الصناعة الهامة . واذا تصورنا طائفة من معامل الحرير في مختلف الممالك والاقاليم وملايين العمال الذين يشتغلون في تلك المعامل ادركنا ما تؤديه هذه الحشرة الصغيرة من خدمة للمجتمع وما تدرُّه على القائمين بامر تربيتها من الاموال الطائلة ذلك لان صناعة الحرير في وقتنا هذا تعتبر من اهم الصناعات الحية واكثرها انتشاراً

والحرير هو عبارة عن مادة سائلة تتكون في جسم الدودة داخل غدد خاصة تعرف بالغدد الحريرية وعند ما يكمل نمو الحشرة تبدأ في افراز تلك المادة السائلة التي تجمد مباشرة عند ملامستها للهواء وتكوّن خيطاً رفيعاً من الحرير تأخذ الدودة في لفه حول نفسها حتى تختفي تماماً داخل تلك الخيوط الحريرية التي تكوّن في ذلك الوقت ما يعرف بالشرنقة. وكل ما تستلزمهُ صناعة الحرير هو اخذ هذه الشرانق وحلّ الخيوط الحريرية التي تتكوّن منها ثم نسج هذه الخيوط اثواباً جميلة نراها تعرض في الاسواق بأغلى الاثمان

وتعتبر بعض الامم كالصين واليابان وفرنسا صناعة الحرير المورد الاساسي لثروتها ويقوم في هذه الممالك وفي كثير غيرها من التي تهتم بصناعة الحرير كثير من المعامل بعضها لتربية الدود وزرع اشجار التوت في مساحات واسعة من الارض وبعضها لنسج الحرير وبعضها لطباعته. كل هذه المعامل وكل هذا الاهتمام الذي تبديهِ الحكومات والامم يقوم على مجهود نوع واحد من الحشرات ولذلك كانت لدودة الحرير مقام ممتاز في عالم الحشرات ولها معاهد خاصة

لدراستها واجراء الابحاث عليها لانها مصدر مهم من مصادر الثروة ولها شأن اقتصادي كبير وفي تلك الممالك يعتنون عناية كبيرة بتربية هذه الحشرة والاهتمام بأمرها

الى جانب دودة الحرير نجد حشرة اخرى مهمة من الوجهة الصناعية وهي نحلة العسل ويوجد ايضاً عدد عظيم جداً من العمال في جميع انحاء العالم يقومون بتربيتها واستخراج العسل والشمع وتصديرها الى مختلف الاسواق للبيع . الى جانب هؤلاء نرى المعامل المختلفة التي تقوم بصنع الاشياء والادوات التي تلزم لتربية النحل كالخلايا الخشبية والاقراص المعدنية وغيرها مما تحتاج اليهِ تلك الصناعة . ونرى ايضاً الحدائق الفسيحة التي تزرع بمختلف الازهار والاشجار ليتكون منها المناحل التي تمرح تلك الحشرة في ربوعها وتجتني من ازهارها ذلك الرحيق الذي يأكلهُ الناس بعد ذلك ويستطيبونهُ .هذا الى جانب المعاهد التي تقوم بدراستها والكتابة عنها والكتب والمجلات التي تطبع ويكون أساسها تاريخ حياة تلك الحشرة وتطورها وطرق تربيتها وغير ذلك من الاشياء التي تتعلق بحياتها

وتوجد ايضاً أنواع من الحشرات المفترسة التي تتغذى بالحشرات الاخرى وهذه الانواع المفترسة على جانب كبير من خطورة الشأن لانها تأكل الحشرات الضارة بالزراعة أو بالاشجار أو بالحيوانات الاليفة وبذلك تبيد منها عدداً كبيراً وتقي الانسان من شرها . وقد أخذ العلماء من مدة قريبة يفكرون في هذه النقطة الهامة ويتخذون من الحشرات المفترسة اسلحة يجردونها على الانواع الضارة فكان منهم أن بدأوا يدرسون حياة تلك الانواع وأخذوا في تربيتها ونشرها في البقاع الموبوءة بالحشرات الضارة حتى تبيدها. ولقد لقيت معظم تلك التجارب نجاحاً عظيماً وأصبحت بعض البقاع في مأمن من اعتداء الحشرات عليها بهذه الوسيلة ولذلك اتجهت الافكار أخيراً الى الاكثار من الحشرات المفترسة ونشرها بقدر الامكان في اماكن مختلفة لتقضي على الانواع الضارة وبذلك تتوفر الاموال الطائلة التي تنفق سنوياً على مقاومة الحشرات . وتؤدي بعض الحشرات خدمة عظيمة للمجتمع الانساني وذلك بانها تكون العامل الاساسي في تلقيح الازهار لانها عند زيارتها لتلك الازهار لأكل المواد الحلوة التي تفرزها فانها تأخذ حبوب اللقاح التي تلتصق على أجسامها وتنقلها من زهرة الى الاخرى فتذهب تلك الحبوب من أعضاء التذكير الى أعضاء التأنيث وبذلك تتلقح الازهار وتبدأ في تكوين الثمار وهذه الاخيرة لا يمكن ان تتكوَّن ما لم تلقح الازهار التي تكوّنها . الى هنا بعد أن شرحت الفوائد والمضار التي تنجم عن الحشرات أتمنى أن أكون قد وفقت الى اظهار ما لهذه الكائنات الصغيرة من الاهمية الاقتصادية في هذا الوجود

محمد رشاد الطوبي
بكالوريوس علوم درجة الشرف الاولى
من الجامعة المصرية

باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناه ترغيباً في المعارف وانهاضاً للهمم وتشحيذاً للاذهان. ولكن المهدة فيما يدرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف . ويراعى في الادراج وعدمه ما يأتي : (١) المناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيره عظيماً كان المعترف بأغلاطه أعظم (٣) خير الكلام ما قل ودل . فالمقالات الوافية مع الايجاز تفضل على المطولة

نقد ورده

حضرة محرر المقتطف

سرني ما قرأتُ في مقتطف شهر نوفمبر (١٩٣٢) للفاضل عباس محمود العقاد من دفاعه عن شوقي رحمه الله وتخطئتي في مسئلتين استخرجهما من مقالي . وزادني سروراً ان اكون الذي جعل العقاد ينحاز الى شوقي .....

المسئلة الاولى

اشرت في مقالي الى غلطة شوقي في قوله

ان رأتني تميلُ عني كأن لم تكُ بيني وبينها أشياءُ

وقلت ان صوابها تملْ لانها جواب إن الشرطية. فقال العقاد : «والذين يعرفون النحو!!! يعلمون ان الخطأ انما هو في تصحيح (كذا) الرافعي لان رفع جواب الشرط المسبوق (كذا) بفعل ماض صحيح مستحسن كجزم الجواب على السواء (كذا) لم يخطئه احد قط من علماء اللغة والنحاة . نقول ولكن اذا كان الرفع والجزم سواءً وكان تصحيحنا بالجزم فكيف يكون الخطأ «انما هو في التصحيح» ...؟ كما انهم لم يقولوا ان الجواب الذي يرفع هو «المسبوق بفعل ماض» بل هو الذي يكون فيه الشرط فعلاً ماضياً وشتان بين كلام وكلام

يشير الكاتب الى القاعدة المذكورة في كل كتب النحو من ان الجواب يرفع او يجزم اذا كان الشرط ماضياً لفظاً او معنى والجزم هو المختار عند قوم والرفع جائز، وعند قوم العكس، وعند آخرين يجب الرفع. ولم يقل احد من النحويين انهما «على السواء»

ولكن مع ورود هذه القاعدة في كل كتب النحو لا يزال بيت شوقي عندنا غلطاً لاننا لسنا من « الذين يعرفون النحو » معرفة النقل من الكتب والتقيد بالرأي خطأً وصواباً

ولا هذا مذهبنا في الادب ولا في اللغة ولا نقلد احداً ولا نتابع احداً بل لا بد ان يمرَّ ما في الكتب من هذا الرأس بَدِيًّا فيجيء مجيئه الاول من ناحية اهله ثم مجيئه الثاني من ناحيتنا اذ لم تكن صناعتنا الترجمة ولا التلخيص فتجعل طبيعتنا النقل والاغارة على اقوال الناس وخلط شيء بشيء وادعاء الخليط كما يفعل اكثر المترجمين الذين يأبون الاّ ان يكونوا كتّاباً وادباء لامن ناحية انهم ادباء وكتّابٌ بل من ناحية انهم تراجمة .... وسنعرض هنا كل اقوال النحاة في رفع جواب الشرط على نسق من القضايا ونعترضها بالنقد ثم نترك الجواب عنها لنحوينا الجديد لعلنا نفيد منه علماً لم نجده عند سيبويه ولا الخليل ولا المبرد ولا غيرهم

(١) لا يمكن ان يجعل رفع الشرط في تلك الصورة قاعدة يُقتاس بها الاّ اذا سمع في الكلام المنثور دون المنظوم اذ النظم محل الضرورة في اشياء كثيرة معروفة اما النثر فهو على السعة ولا يجوز فيه الاّ الجائز . فما هي الامثلة التي نقلها النحاة عن العرب لتلك القاعدة وعن اي القبائل سمعت وهل هو السماع الذي يعضده القياس ام السماع الضعيف ؟

(٢) لم يزيدوا في كتبهم على ان قالوا ان ذلك مسموع ولم يزد سيبويه في كتابه على هذه العبارة : «وقد تقول (تأمل) إن أتيتني آتيك اي آتيك ان أتيتني قال زهير

وان اتاه خليلٌ يوم مسألة يقولُ لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ

فأنت ترى ان سيبويه يضع مثالاً ويأتي بالشاهد عليه من الشعر والشعر محل الضرائر يجوز فيه ما لا يجوز في الكلام ولا اضطرار في بيت شوقي اذ يستطيع ان يقول : إن رأتني تصدَّ عني . فلا شاهد في كلام سيبويه على رفع الجواب

(٣) ان اداة الشرط تجزم فعلين فاذا كان الجواب مرفوعاً قيل في اعرابه انه فعل مضارع مرفوع في محل جزم ، فاذا لم تكن ثمَّ ضرورة من الوزن فما الذي يمنع الجزم ان يظهر على الجواب في كلام هو من لغة النهار والليل وما علة تقدير الجزم ولماذا يقدَّر في مثل ان زرتني اكرمُك وانت تستطيع ان تقول اكرمْك ؟

(٤) من اجل هذه العلة يقول سيبويه ومن تبعه ان « اكرمُك » في مثل هذه الصورة ليست هي الجواب بل الكلام على نية التقديم اي الاصل «اكرمُك ان زرتني» فالجواب محذوف. وفي هذا الرأي (وهو أقوى الآراء وأسدُّها) لا يقال ان جواب الشرط مرفوع . ثم ان فرقاً في البلاغة بين قولك اكرمُك ان زرتني وقولك ان زرتني اكرمك فلماذا يقلب سيبويه احدى العبارتين الى الاخرى على حين قائلُها لم يرد الاّ وجهاً بعينه . وما هي ضرورة التقديم مادام الكلام على السَّعة ؟

(٥) ومن اجل هذه العلة ايضاً يقول الكوفيون والمبرّد من البصريين ان (اكرمُك) ليست هي الجواب والكلمة على تقدير الفاء فالاصل ان زرتني فأكرمُك وبهذا يكون الجواب

جملة اسمية . ولكن ما هي ضرورة حذف الفاء وتقديرها في وقت معاً والكلام ليس موزوناً يختلُّ معهُ الوزن ان ذكرت الفاء وقائلها لو ارادها لذكرها لان الجملة من الكلام المبتذل الذي لا يراد منه شاهد في البلاغة ؟ وهم قاسوا ذلك على مثل قوله تعالى: ومن كفر فأُمتّعُهُ قليلاً . ومن عاد فينتقمُ الله منه . ومن يؤمن بربه فلا يخاف بَخْساً ولا رَهَقا . ولكنهم غفلوا عن سر هذه الفاء فقاسوا عليها ذلك امثال المبتذل ولعل نحويّنا يبين للناس هذا السر

(٦) ويقول بعض من ذهبوا الى ان سبب رفع الجواب تقدير الفاء ان هذه الفاء تقوم في افادة الربط مقام الجواب .... فيصح رفعه وتركُ جزمه استغناء عنه بالفاء .... وهذا كما ترى من الخلط

(٧) قال قوم من النحاة ان الكلام ليس على نية التقديم ولا على تقدير الفاء ولكن لما لم يظهر لاداة الشرط تأثير في فعل الشرط لكونه ماضياً ضعف عن العمل في الجواب . وهذا على مذهب ان فعل الشرط هو الذي يجزم الجواب وهو غير الرأي الذي عليه التحقيق اذ يلزم ان لا يكون الجواب معمولاً لاداة الشرط لفظاً ولا تقديراً . والجزم ليس قوة ميكانيكية . . . . يبطل تأثيرها اذا انتهى الى فاصل لا يتأثر بها فلا تتعدّى الى ما وراء هذا الفاصل . ثم ان فعل الشرط اذا كان مضارعاً مبنيًّا كان كالماضي في عدم ظهور الجزم فيه ومع ذلك لا يرفع الجواب بعده . فبطل هذا الرأي كله

(٨) ان القرآن الكريم وهو افصح الكلام لم يأتِ فيه رفع الجواب مطلقاً بل جاء بالعكس في قوله تعالى: من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتَها نُوَفِّ اليهم اعمالَهم فيها . وقولهُ تعالى : من كان يريد حرْثَ الآخرة نَزِدْ له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤتِهِ منها

فيخلص من كل ذلك ان اقوال النحاة ساقطة كلها وان الاساس الذي بنيت عليهِ من السماع مجهول لم يأت بهِ أحد وانهُ لم يُفْرَقْ لاحد منهم عن علة مقنعة في زعمهم رفع الجواب بل عارض بعضهم بعضاً ومتى تعارضت الاقوال تساقطت ، وان الاصل الصحيح الذي بين ايدينا وهو القرآن الكريم ينكر هذه القاعدة فلم يأت بها ولا مرة واحدة واتى بخلافها مراراً فكيف يكون التأويل بعد هذا وما هو الوجه الصحيح وكيف يُدفع السماعُ الذي نصّوا عليهِ وكيف يكون الدفاع عن هؤلاء النحاة وهم قد عجزوا عن البرهان القاطع ؟

المسئلة الثانية

قلنا ان من التركية في شوقي اضافات وهمية . . لا محل لها في ذوق البلاغة كقوله

عيسى الشعور اذا مشى   رد الشعوب الى الحياة

فقال العقاد : « وظن ان الشعور هنا زائدة . . . . والصواب ان « عيسى الشعور » في البيت السابق من تشبيه الاضافة المعروف في البلاغة وليس ثمة حشو ولا إقحام في تركيب

الكلمات فالبيت معناهُ ان الشعور اذا مضى (كذا) في الشعوب ردها الى الحياة كما كان عيسى يحيي الموتى . ومثل هذا أن يقال « خمر الريق » في تشبيه الريق بالخمر على الاضافة او يقال « موت الغباء » — حفظك الله — في تشبيه الغباء بالموت على هذا المعنى »

قلنا وبهذه الاسطر القليلة كدنا ننسى ان العقاد « من الذين يعرفون النحو » اذ هو لا يميز في معاني الاضافة النحوية بين خمر الريق وموت الغباء وبين عيسى الشعور ، ولا يعرف ان الاول اضافة نكرة الى معرفة تتعرف بها وان « عيسى الشعور » اضافة معرفة الى معرفة وذلك ممتنع الاَّ اذا جاز تنكير العَلَم واعتباره كواحد من جملة من سمي باسم عيسى وهذا محال لانهُ ليس في الدهر كله الا عيسى واحد خُصَّ بتلك المعجزة

وقال بعضهم بل تجوز اضافة العَلَم مع بقاء تعريفه اذ لا منع من اجتماع تعريفين اذا اختلفا وذلك متى اضيف العَلَم الى ما هو متصف بهِ معنىً نحو زيدُ الصدق . قال يجوز ذلك وان لم يكن في الدنيا الاَّ زيد واحد . نقول : ولكن عيسى عليهِ السلام لم يتصف في المعنى « بالشعور » حتى تجوز اضافتهِ اليهِ بل اتصف باحياء الموتى « والشعور » من صفة كل حي لا من خصائص عيسى وحده . وعلى فرض أن يقال أن « الشعور » في لغة العقاد هو احياء الموتى فيبقى أن عيسى لم يحيِ آلافاً ولا مئات ولا عشرات من الاموات فالاحياء ليس وصفاً ملازماً لهُ ملازمة الصدق لمن عرف بهِ على انهُ طبيعة فيهِ فتجوز الاضافة في « زيد الصدق » ولا تجوز في « عيسى الشعور » . وانما المثل الصحيح في هذا الباب قولهم « زيد الخيل » لملازمته اياها وانهُ فارسها في الغارات « وعمرو الصَّمصامة » لانهُ لا يضرب الاَّ بها فكأَنها إحدى يديهِ

ونحن لم نقل ان « الشعور » زائدة كما توهم العقاد ولا تعرضنا لكونها اضافة على تشبيه او على النحوية ولم نزد على ان قلنا انها وهمية لا محل لها في ذوق البلاغة فلننظر فيها الآن من هذه الناحية . إن ساغ في ذوق البيان ان تقول ريقٌ مثل الخمر وغباء مثل الموت فهل يُسيغ ذوقك أن تقول شعور مثل عيسى ؟ واذا كان هذا التشبيه بارداً ركيكاً في اصله فكيف يجوز ان تحيله الى التشبيه البليغ فتحذف منهُ أداة التشبيه وتضيف المشبَّه بهِ الى المشبَّه فتقول « عيسى الشعور » اذا فعل وفعل .... ؟ والفرق بين قولك « ريق كالخمر » وقولك « خمر الريق » ان هذه الصورة الثانية تجعل الفرع في المبالغة كأَنهُ الاصل لا الفرع فيصبح الريق ألذ واقوى وأعظم نشوة من الخمر وكأنها عُرفت بهِ ولم يعرف هو بها . فهل يجوز على هذا ان يجعل الشعور أقوى واعظم في المعجزة من عيسى. . . . . ؟

وهنا يجب أن اصرحَ اني لم أقرأ قصيدة شوقي التي منها « عيسى الشعور » الاَّ في كتاب الديوان الذي اصدرهُ العقاد في سنة ١٩٢١ حين توهَّم انهُ يستطيع أن يهدم شوقي بمقالة في

مثل السهولة الذي تستطيع ان تحمل بها الجبل ملفوفاً في نسخة من جريدة . . . .

وكنت أهملت كتاب الديوان هذا فلم اقرأهُ مع اني منتقَد في الجزء الثاني منهُ باللغة التي ينقد بها العقاد من أقاموهُ وأقعدوهُ من غير ان يقعدوهُ أو يقيموهُ . . . . وانما قرأت ما كتب عني في نسخة كانت في يد أحد محرري الاخبار ثم تركتها ، فلما أردت أن اكتب عن شوقي رأيت واجباً أن اطلع على ما كانوا يرمونهُ بهِ فطلبت الكتاب من الصديق محرر المقتطف لاشير اليهِ ان كان فيهِ رأي او سداد او طريقة ، وجاءني الجزء الاول فمرَّ في احدى يدي محمولاً وفي الاخرى ملقىً بهِ الارض إذ ليس فيهِ الا التعسف الذي لا يميز والخبط الذي لا يُهتدى معهُ الى حقيقة . وكتب العقاد اربعين صفحة لم يعرف فيها من مآخذ شوقي الا بيتاً واحداً هو قوله في الهلال

تطلع الشمسُ حين تطلع صبحاً وتنحَّى لمنجلٍ حصَّاد

وظن انهُ اخذه من قول ابن المعتز :

انظر الى حسن هـلال بدا يهتك من أنواره الحندسا
كمنجلٍ قد صيغ من فضةٍ يحصد من زهر الدجا نرجسا

قال العقاد : وجاء شوقي فقال انهُ (اي الهلال) منجل يحصد الاعمار . وكلام العقاد هذا هو الذي نبهنا الى نقد الاضافة في « عيسى الشعور » لان شوقي لم يأخذ من ابن المعتز بل أخذ من شاعر العراق المشهور عبد الباقي العمري الذي كان في القرن الماضي من أبيات يقال انها من مبتكراته وهي :

علينا أهلَّةُ هذي الشهور غدت تحصد العمر في مِنجَلِ
وداست بَيَادِرُ أيامهِ نبات لياليهِ بالارجل الخ الخ

وفي هذه الابيات يقول العمري ان هذا الحصاد طُحن وعُجن

وقد خبزته « سُلَيْمى الهموم » بمسجور تنُّورها المصطلي

فن ههنا تنبهنا الى « عيسى الشعور » وما كان العمري الاَّ مقلداً الفرس والترك . وديوانه قد طبع في مصر من ثلاثين سنة وأهداه طابعه إلى شوقي وكان صديقه وصديقنا وهو الشيخ عثمان الموصلي . والغريب ان العقاد الذي فسر لنا « عيسى الشعور » . . . . هو نفسه الذي قال في (الديوان) : « ولكن شاعر العامة يعكس الآية فيقول ان الشعور رد الحياة وكلنا يعلم ان الحياة هي التي تنشيء الشعور »

لقد قلت في مقالي عن شوقي وأشرت الى من حاولوا اسقاطه مراراً إنه « اراهم غباره ومضى متقدماً ورجع من رجع منهم ليغسل عينيه ويرى ... » ، وتفسير العقاد الآن دليل بيِّن على انهُ غسل عينيهِ ...

مصطفى صادق الرافعي

مكتبة المقتطف

عصر اسماعيل

بقلم عبد الرحمن الرافعي بك — مجلدان صفحاتهما ٧١٤ — ثمن كل مجلد ١٥ غرشاً

عهدنا في دراسة هذا الكتاب النفيس الى كاتب كبير فلم يفرغ من ذلك حتى مثول هذا الباب للطبع فاكتفينا بإيراد موجز عن مباحثه، تاركين الحكم على قيمة الكتاب من الوجهة التاريخية للكاتب المذكور

اخرج الاستاذ الرافعي قبل الآن ثلاثة اجزاء من تاريخ الحركة القومية في مصر بسط في اولها منشأ الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث وكشف عن الدور الاول من ادوارها وهو عصر المقاومة الاهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر . واشتمل الثاني على تتمة البحث في المقاومة الشعبية ووقائعها الى انتهاء الحملة الفرنسية . وتطور الحياة القومية من بعد ذلك الى ارتقاء محمد علي اريكة مصر بارادة الشعب . ثم افرد الجزء الثالث لعصر محمد علي، وفصَّل الكلام فيه على ظهور الدولة المصرية الحديثة وتحقيق استقلالها وتأليف وحدتها القومية بفتح السودان وضمه الى حظيرة الوطن، وما تمَّ في ذلك العصر من جلائل الاعمال

وبهذا الكتاب — عصر اسماعيل — يدخل المؤلف غمار العصر الحديث من تاريخ الحركة القومية . فهو يتضمن الحديث عن خلفاء محمد علي و « عصر اسماعيل » بوجهٍ خاص اذ كان عهد الخديوي اسماعيل اكثر العهود صلة بعصرنا الحاضر واقربها منا اثراً

***

انقضى عصر محمد علي وابراهيم بعد ان توطدت دعائم الدولة المصرية المستقلة، وتأسس الجيش المصري والاسطول المصري والثقافة المصرية، ووضعت قواعد النهضة العلمية والاقتصادية في البلاد . ثم جاء عهد عباس الاول ويصحُّ اعتباره عهد الرجعية والنكسة لان فيه وقفت حركة التقدم وفترت النهضة التي ظهرت في عهد محمد علي

ثم كان عصر سعيد، ويمتاز بظهور نهضة وطنية جديرة بان تعدَّ من ادوار الحركة القومية، ترجع الى نزعة سعيد الوطنية وميله الى خير المصريين ورفاهيتهم والعمل على تحريرهم من نير المظالم، وبث الروح القومية في نفوسهم، والنهوض بهم للمناصب العالية في الجيش والادارة . ولكن الى جانب هذه المحامد بدأت على عهده ثغرات التدخل الاجنبي في شؤون مصر، باقراره انشاء قناة السويس على يد شركة اوربية مخالفاً في ذلك تعاليم ابيه العظيم،

وبافتتاحه عهد القروض الاجنبية التي جرّت الكوارث على البلاد ، وكانت سلاسلها واغلالها

ثم جاء عهد اسماعيل ، وهو عصر طويل يتمثل فيه تاريخ مصر القومي والسياسي في ابان النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ويعدُّ عصراً هامًّا ، لهُ أثره النافع ، كما لهُ أثره الضار ، في تطور الحركة القومية ، ذلك لما تفتحت فيه من آمال ، وما قام فيه من نهضة ورقي وعمران — ما نالهُ من تركيا من الحقوق والمزايا واكمال فتح السودان ومد حدود الدولة المصرية وتنظيم الجيش وترقية التعليم الحربي وانهاض البحرية المصرية واقامة العمران وبعث النهضة العلمية والفكرية — ثم ما تخلّلهُ واقترن به من اخطاء وارزاء أفضت الى التدخل الاجنبي. واذا كانت مصر تشعر الى اليوم بنتائج النهضة التي قامت في ذلك العهد ، وتجني ثمارها ، وتلمس آثارها بيديها ، فانها ايضاً تعاني عواقب الاغلاط التي وقعت فيها ، وتدفع ثمنها غالياً من مالها وحقوقها ومرافقها . هذا الى ان معظم القيود والنظم التي تقرّرت في ذلك العصر ، لا تزل قائمة الى اليوم. فالتشريع المختلط ، وتغلغل الاجانب في مرافق مصر ، والديون التي كبّلت البلاد حكومة وشعباً ، والتدخل الاجنبيّ في شؤون مصر المالية والسياسية ، كل هذه القيود ترجع الى عهد اسماعيل

حقًّا ان كل مشتغل بشؤون مصر العامة ، لا يستطيع ان يستغني عن مطالعة هذا الكتاب وحفظهِ مرجعاً في خزانتهِ

اسباب الحرب العالمية

تأليف سدني برنارد فاي — أستاذ التاريخ الاوربي الحديث — في جامعة هارفرد الاميركية في مجلدين صفحاتهما ٦٨٧ — نقلهما محمود ابراهيم دسوقي — ونشرتهما لجنة التأليف والترجمة والنشر

طغى بعد الحرب الكبرى سيل متدفق من كتب المذكرات . فكل سياسي وكل قائد وكل صحافي وكل متصل بأحد هؤلاء وضع كتاباً قال انهُ يشتمل على مذكراتهِ عن الحرب الكبرى وأسبابها وسيرها والتبعة في اصلاء نارها . وبعض هذه المذكرات لا قيمة له من الوجهة التاريخية. أما المذكرات التي كتبها رجال كانوا يدبرون شؤون الامم ويوجهون الحوادث باحكامهم اليومية — امثال بوانكاره وكليمانصو وفوش وجوفر وبرشتنغ وغراي وسكوت وتشرتشل وهوس وهندنبرج وفون بولوف — فلا مندوحة عنها لكتاب التاريخ في المستقبل. لانها مع الوثائق الرسمية التي نشرتها حكومات روسيا والنمسا والمانيا وانكلترا والوثائق التي ما تزال مطوية في دور السجلات الرسمية هي اعظم المصادر التي يرجع اليها المؤرخون لاستقاء الحقائق

والقارىء اذا حاول ان يصلَ الى رأي متزن سليم من الاضطراب والتناقض في هذا الموضوع الوعر تعذّر عليهِ الامر او شقّ لاختلاف الآراء وتعارض وجوه النظر . فالتبعة

في تمحيص الحقائق ومعارضة الآراء بعضها ببعض والموازنة بينها ، لترجيح رأي على رأي وايثار حكم على حكم ، واقعة على اساتذة التاريخ الحديث ، لاننا ننتظر منهم سعة في الاطلاع ، وبعداً عن الهوى لدى تقليب النظر ، وتجرداً في الموازنة ، ونزاهة وانصافاً في الحكم . ولعلَّ احداً من المؤرخين لم ينجح في هذا العمل الشاقّ نجاح الاستاذ برنارد فاي في كتابهِ الذي نقل حديثاً الى اللغة العربية

في مقدمة معاهدة فرساي وصف للحرب قيل فيها انها « نشأت من اعلان النمسا والمجر الحرب على الصرب في ٢٨ يوليو سنة ١٩١٤ ومن اعلان المانيا الحرب على روسيا في اول اغسطس سنة ١٩١٤ وعلى فرنسا في ٣ اغسطس سنة ١٩١٤ ومن هجومها على البلجيك »

فالمانيا من الناحية القانونية الحرفية هي الدولة البادئة بالحرب لانهُ لم تكن دول اوربا في حالة حرب صحيحة حتى شهرتها المانيا على روسيا وفرنسا . ومهما يبالغ الالمان في القول بان الضرورة الحربية حملتهم على ذلك ازاء تعبئة الجيش الروسي ، لا يمكن الاغضاء عن هذه الحقيقة المثبتة . فحبل المفاوضات السياسية في اول اغسطس سنة ١٩١٤ لم ينقطع رغماً عن تلبُّد الجوّ السياسي واكفهرارهِ . وعمل المانيا في اعلان الحرب قطع ذلك الحبل وقضى على كل املٍ في الوصول الى حلّ سلميّ واجتناب الكارثة

على ان مسألة التبعة الادبية والسياسية في إثارة هذه الحرب امرٌ آخر ، وتوزيعها على الدول التي خاضت غمار الحرب يقتضي بحثاً مسهباً في الاسباب التي جعلت وقوع الحرب امراً لامفرَّ منهُ . وهذا البحث يتناول نظام المحالفات الذي كان سائداً اوربا — محالفة المانيا مع النمسا سنة ١٨٧٩ وانضمام ايطاليا اليهما سنة ١٨٨٢ والمحالفة الروسية الفرنسية سنة ١٨٩١ — ١٨٩٤ والتفاهم مع بريطانيا المعروف « بالاتفاق الودّي » — وحالة التسليح والتجنيد الاجباري في الدول المذكورة وتعزيز الاساطيل البحرية في انكلترا والمانيا . فاوربا كانت من الناحية الحربية والسياسية في مطلع سنة ١٩١٤ في حالة توازن ولكنهُ كان غير مستقرٍّ وغير كاف للاحتفاظ بسلم اوربا

ثم وقعت مأساة سراييفو التي راح الغراندوق فردينان جوزف وزوجتهُ ضحيتها فكانت الشرارة التي شبت النيران بين الحلفين . وتحقيق المقدّمات التي افضت الى هذه المأساة ، والحوادث التي تلتها من ادقّ الامور وآخذها للبّ

وقد كان الاستاذ فاي في كل ذلك المؤرخ الجامع بين سعة الاطلاع وبراعة التحليل والتجرد عن الهوى . لذلك رحّب المؤرخون في اوربا واميركا بكتابهِ أعظم ترحيب . فترجمتهُ للغة العربية عمل جليل الفائدة . واسلوب الترجمة من السهل الممتنع . فنشكر للاستاذ دسوقي عنايتهُ باخراج هذا السفر النفيس

وحي الاربعين

قصائد ومقطوعات — نظم عباس محمود العقاد — مطبعة مصر صفحاته ١٧٤

من النادر في تاريخ تطوُّر الادب وتحول اساليبهِ ومراميه، ان تجد رجلاً دعا الى انقلاب معين ومارس اصوله في كتابتهِ ونظمه، وخاض معركة النضال بين دعاة الانقلاب ومقاوميهِ ؛ ثم مدَّ الله في اجلهِ حتى شهد الفوز لرأيهِ وفريقهِ . لان التحوُّل الادبيّ ، بطيءٌ في الغالب ، لشدة ارتباطهِ بالآراءِ والتقاليد الاجتماعية الموروثة ، في التفكير والشعور والتعبير . وهذه تغلب عليها صفة الاستقرار حتى يصدمها ما يزعزع استقرارها . هكذا انتقل الادب الاوربي من الاسلوب الرومانطيقي في القرن الماضي الى الاسلوب الواقعي في العصر الحديث

وقد كان الاستاذ العقاد في طليعة الداعين الى احداث تحوُّلٍ في الادب العربي. ولكن دعوتهُ لم تكن قائمة على ان كلّ قديم مرذول يجب اطراحهُ . وان كلّ جديد مرغوب فيه يجب تأييدهُ والاقبال عليهِ . ولكنهُ كان في مقدمة الداعين الى تحرير الفكر والشعور والاسلوب، من اغلال الانقياد الى احكامٍ وأساليب ترهق الاديب لانها تستبدُّ باخلاصهِ وصدقهِ ، مع انها كانت في حياة من تقدمنا من ادباء العربية وأعلامها وسيلتهم البليغة الى الصدق والاخلاص في وصف خلجات النفس أو الاعراب عن احكام العقل . وقد أيَّد هذه الدعوة وفصَّلها في كثير من كتبهِ ، نخص بالذكر منها « ساعات بين الكتب » و «الفصول» و « مراجعات في الادب والحياة » و «ديوانهُ» المطبوع

ونحن لا نقول ان معركة النضال قد انجلت وان الحكماء من دعاة التجديد قد ظفروا بالغار، وانما الدلائل تدلُّ على اننا صائرون الى هذا . وانك لتستطيع ان تتبين سرعة الانتقال من ان العقاد وهو من دعاتهِ الاصليين ، اصدر الآن مجموعة من شعره عنوانها «وحي الاربعين» في هذه المجموعة طائفة من الشعر النفسي والفلسفي النفيس . وعندنا ان قصيدة « كعبة الاصنام بعد الزلزال » هي فريدتها . ففيها من التهكم على الانصاب التي يرفعها الناس لمعاني الحق والنخوة والاخاءِ والمحبة والمجد ويعبدونها من « شفاههم » — كما يقول الانكليز — ما ينطبق على بعض نواحي الطبيعة البشرية في كل زمانٍ ومكانٍ مما يجعل القصيدة ذات شأن اذا نقلت الى اللغات الاخرى. ثم ان التمثيل على هذه الاصنام ووصفها قبل سقوطها وبعدهُ ضرب جديدٌ في الشعر العربي

كانت النخوة فيها صنماً   صاغيَ السمع كما شئت نزيها
يخلب الطرف بحسنٍ واضحٍ   وسمات تزدهي من يجتليها
فارتمت اذناهُ في الارض لقىً   ومضت كفٌّ بلا كفٍ تليها

يطلب الغوث ولا غوث لهُ هل ترى داعيةُ الاَّ سفيها

***

هكذا اقوَتْ زوايا كعبتي وثوَت خاويةً من ساكنيها
غير اني طائف من حولها لم اشأ اهجرها او ابتنيها الخ

وقصيدة « عيد ميلاد في الجحيم » تحتوي على وصف حالة نفسية تملك على الانسان في بعض ساعات الضعف او اليأس مساري الامل ونوافذ النور ، فيحسُّ ان كلَّ ما قدَّسهُ من معاني النبل والرفعة والاخاء والنجدة وغيرها من السجايا قد اصبح موطىء القدم في عالم لا يعرف — في بعض نواحيه وهي النواحي الطاغية — الاَّ الخسَّة والصغار والتنابذ والتخاذل فيؤْثر الجحيم . وقولهُ في هذه القصيدة عن سكان الارض

لا يعرفون الحق ان سمعوا بهِ الاَّ ليلقوا في الحقوق عذابا
اهون بصاب في الجحيم اذوقهُ قد كان ثمة كلُّ شيءٍ صابا

ليس الاَّ صرخة صادرة من الاعماق ونفسُ الشاعر في مثل الحالة التي ذكرنا

اما قصيدة « اكاروس » فقد بناها على اسطورة « ديدالوس واكاروس » وهما على ما يقال اول من طار من البشر . ولهما قصة ممتعة روى الشاعر ملخَّصها نثراً . وفي هذا الموضوع مجال « لاستعراض عبر الشهوة والغيرة والطماح » . قال في وصف فرار ديدالوس واكاروس لما سدَّت عليهما منافذ جزيرة كريت

فلما تنادى الجند وارتجَّت القرى وخيف الاذى من حاضرين وغيَّب
وقالوا : امِنْ ربُّ الجزيرة حربهُ يوقّيهِ عرض البحر اوطول سبسب
اهاب الصَّناع العبقريُّ بفنهِ فلبَّاهُ فاستعلى بهِ متن اشهب
تسربل من ريشٍ وسربل نجلهُ خوافق لوَّى بينها الف لولب
فحلَّق مزهوًّا وفرَّ مظفراً واغرى لسان السخر بالمتعقّب

وحبذا الحال لو لقي هذا الضرب من الشعر الذي يجمع بين « العبرة والمتعة الخيالية » من عناية شعرائنا نصيباً اوفر مما لقي حتى الآن ، على ان يجتنبوا فيهِ كما فعل العقَّاد ، مجرَّد السرد القصصيّ فهو من مزالقهِ

وفي ابواب المجموعة مقطَّعات فلسفية كثيرة ، لانجد لها تعليلاً وافياً ، الاَّ اضطراب حياة الشاعر في اثناء نظمها ، لخوضهِ بحر السياسة اللجيّ ، فلم يسعهُ افراغ الجهد في موضوع واحد مدةً طويلة . ونحن اذا نظرنا الى هذه الناحية من « وحي الاربعين » وجدنا معظمهُ من نوع المقطَّعات التي تصف حالة نفسية طارئة او خاطراً استوحاه مما يطرق حسهُ المرهف كلّ يوم فيما يراهُ او يقرأُهُ او ينتهي اليهِ . وحبذا الحال لو اتيح للشاعر ان ينظم عقد هذه الخواطر في قصيدة تقتضى

استفاضة في اعمال القريحة واستيحاء الخيال وتنبيه الشعور خلال المدة التي تكتب فيها القصيدة للاحتفاظ بوحدة معانيها وشعورها واسلوبها . ولسنا نقول هذا لاننا نرى في القصيدة الطويلة شعراً يفضل شعر القصيدة الغنائية lyric وانما نتمناه لانهُ نادر في الشعر العربي او قليل والشعر الغنائي كثير بل هو مجلى نبوغ العرب الشعري . واننا نتوقع من ائمة التجديد ان يجربوا التجارب في الشعر الذي يقتضي الاستفاضة وطول الجهد . وقد حاول الاستاذ العقاد من قبل محاولة موفقة فيهِ وهي قصيدة ترجمة شيطان . ومن قبيلها الجنين الشهيد ونيرون لخليل مطران وعلى بساط الريح للشاعر المأسوف عليهِ فوزي المعلوف. فالاولى فلسفية اجتماعية والثانية اجتماعية خلقية والثالثة تاريخية والرابعة وجدانية فلسفية

وبعد فاننا نتمنى ، وقد وقفت « الجهاد » صحيفة منها على البحث الادبي ان يعنى الاستاذ العقاد بشعر الشعراء المعاصرين فيحللهُ وينقدهُ اذاعةً لاجادةٍ او بياناً لفضل او تقويماً لطريقة

شوقي

بقلم انطون الجميل بك — رسالة صفحاتها ٩٥ قطع وسط — طبعت بمطبعة المعارف

لانطون الجميّل بك فضل على كاتب هذه السطور لن ينساهُ ، اذ بواسطتهِ تعرَّف الى شعر خليل مطران . ذلك ان الحرب العالمية كانت مشبوبة النيران ، وكان كاتب هذه السطور يتلقى العلم في بيروت ويغادرها خلال العطلة الصيفية ليقضي ايامها في لبنان . وكان زمن بؤس وشقاء فلم يجد مفرًّا من آلامهِ الاَّ في المطالعة. فوقع في يدهِ ذات يوم كتاب من كتب المختارات القديمة والحديثة فاذا في آخره بحث «لانطون الجميل» في شعر خليل مطران، فأقبل عليهِ ، يرتشف نميره على ظمإٍ ، فاعجب بطريقة تقسيم البحث وتحليل الشعر ، وايراد الابيات او الاشطر التي تضرب مثلاً على المعنى الذي يريد الكاتب ان يجلوه . وأعاد الكرة على هذا المقال حتى كاد يستظهره ، وهو يتوق الى مطالعة ديوان الخليل ولا سبيل اليهِ حينئذٍ . فلما انقشعت غمامة الحرب ، كان اوَّل كتاب طلبهُ من مصر «ديوان الخليل» فأكبَّ عليهِ يقرأه في خلوتهِ ومع اصحابهِ ، ويكتب التعليقات على هوامشهِ حتى اصبح في نظرهِ كالحلية طال عليها الزمن فأضاف الى روعة جمالها جلال القدم . والنسخة لا تزال عنده لا يتخلى عنها

فلما اتحفنا الجميّل بك بكتابهِ « شوقي » الذي ضمَّ مقالته في شعر شوقي من ناحية السياسة (نشرت في عدد السياسة الخاص الذي طبع في مهرجانهِ) ومقالتهُ التي صدَّر بها الاهرام (يوم نعيهِ ١٤ اكتوبر ١٩٣٢) ورسالتهُ في شاعرية شوقي (التي تلا ملخصها في حفلة تأبينهِ في دار الاوبرا ٤ دسمبر ١٩٣٢) اعدنا قراءتها كلها بمثل اللهفة التي قرأناها بها اولاً ، فدرجت

بنا الذاكرة الى مخابئها ناشرة ذكرى مقالة الجميّل في مطران ، فقلنا — وخبرتنا تؤيد ما نقول — هذا كتاب (ونخص بالذكر الرسالة الاخيرة) يصح ان يكون مدخلاً لدرس شعر شوقي

فقد اجتمع فيهِ للكاتب المجيد صفاء ذهن مكنهُ من مراجعة كل ما نظمهُ شوقي — او معظمهُ على الاقل — وتبويب اهم نواحي الشعر التي عالجها — كالدين والوطن والشباب والفلسفة الاجتماعية والوصف الحسي والمعنوي وغيرها — واختيار المقاطع او الابيات او الاشطر التي تبرز فيها المعاني التي يريد الكاتب ان يمثّل عليها . ثم انهُ ساق ذلك في كلامٍ صافٍ كالبلور ترى محاولة الانصاف تتجلى في كل فقرة من فقراتهِ . فاذا رأى الكاتب في شاعره ما يخرج بهِ عن الطريق القويم قال ذلك ولكن بعد ان يطرق كل الابواب التي قد يرى فيها تعليلاً لما يراه. ويلخص حكمهُ العام في شعر شوقي بقوله صفحة ٣١ « لم يشُدّ (شوقي) الى قيثارة الشعر وتراً جديداً . ولكنهُ عرف ان ينطق الاوتار القديمة بنغمات جديدة مستعذبة » و«كثيراً ما اصبح القديم جديداً بفضل ما اكسبهُ من جمال اللفظ والتركيب» ص ٥٨ وقد اجاد الشاعر محمد الاسمر في وصف كتاب الجميّل بك اذ قال في كلمات الكتاب

هي في الصمت هاتفات شوادٍ في حروفٍ من الطباعة خرس

ابو نواس

تأليف الاستاذ « عمر فروخ » استاذ الادب العربي في كلية المقاصد الاسلامية ببيروت

رأت « مكتبة الكشاف » وصاحبها الاخ «مصطفى فتح الله» ببيروت ان تصدر سلسلة متتابعة من كتب في الادب العربي ، وبدأ لها الاستاذ الاديب «عمر فروخ» بالقول في « ابي نواس : الحسن بن هانىء » شاعر الخمر والمجون . ويقول المؤلف : « هذه دراسة شبه مفصلة في شعر ابي نواس ، تتناول ترجمته ، ثم البيئة التي نشأ فيها ، والعناصر التي ساعدت على توجيه شعره الى مستقره ، ثم نقد لابواب شعره . . . . . »

ونقول : قد تعجل المؤلف الاديب في دراستهِ شعر ابي نواس ، وكان يجدر بهِ ان يقف طويلاً قبل ان يتقدم ، ليأخذ عدته وأداته وما يصلح من أمره . أو ما تراه كتب عن موت ابي نواس والمرض الذي مات به اكثر من صفحة وكتب عن (فلسفة ابي نواس ومذهبه في الحياة) أربعة اسطر لم يزد فيها على ان جعل فلسفة الرجل فلسفة حيوان مستكلب قطيم تتسعّر شهوته . ولقد طوى المؤلف القول في ترجمة هذا الشاعر العظيم ليظهر لنا نواحي شاعريته وما آتي هذه الشاعرية، وآفاق نبوغهِ ومطلع هذا النبوغ ، فكان حقيقاً — ولم يفعل — بأن يكشف لنا عن العصر الذي كان فيهِ أبو نواس ، ذلك العصر الذهبي في تاريخ العرب حين كان

الرشيد « هرون » يقول للسحابة المخلفة « أمطرى حيث شئت » ، وحين كان الرجل من الناس يتنقل من مجلس الوقار يدرس فيهِ الكتاب الكريم ، الى مجلس الادب والظرف ينشد فيهِ الشعر ، ومن مجلس الحكمة والطب تدرس فيهِ الفلسفة بأنواعها ، الى مجلس ابي العبر وامثاله يؤتى فيهِ بالكلام الملفق من رطانة العجم وحماقات المغفلين ، ومن دار الجد والجدل في علوم الاوائل والاخذ والرد في مذاهب القوم من المعتزلة وأهل الرأي وأهل السنة وغيرهم ، الى دار الخلاعة والمجون وشرب الخمر وانواع الشرور الانسانية . وحين كانت بغداد تموج بالقادمين اليها من كل فج ، فيهم الفارسي والهندي والشامي والمصري والاندلسي والترك والديلم والقيان الجميلات ، والإماء المستطرفات اللبقات ، والمغنيات والاديبات ، وحين كانت الفتنة والوقار والهدى والضلال ، وبغداد تغلى كغلي المرجل ، وابو نواس الشاعر الماجن اللسن الخبيث في مثل هذا الموج يروح ويغدو

هذا هو محك كل مؤلف يكتب عن أهل ذلك العصر على الطريقة المستحدثة في الادب العربي . وفي هذا يتبين القارىء كيف درس الاديب وكيف فهم وكيف تأثر بشعر الشاعر واهتز له واقبل عليهِ وأعجب به واستوضح نبوغه فشهد له وفضله واستخرج محاسن شعره ثم كتب عنه . وبغير هذا يكون كل كتاب قد استوعب ترجمة الرجل منهم على طريقة التأليف الاولى أجدى وأقوم

على ان الاستاذ الاديب «عمر» قد ألم بحياة ابي نواس الماماً لا بأس به فيهِ الفائدة للناشئة ينبه كل غافل منهم الى الادب العربي وما فيهِ من درر القول وكرائم الشعر ويدعوهم الى وصل ماضيهم بالحاضر الذي يعملون على تشييده وبنائهِ . وقد رد الاستاذ القول الذي لج فيهِ بعض المحدثين بأن امثال ابي نواس من الشعراء أهل المجون والخلاعة والتهتك يمثلون العصر العباسي عصر الرشيد الذي كان يموج بأئمة الدين كأبي يوسف صاحب ابي حنيفة وكبار الفقراء من أعلام الصوفية اصحاب النسك والورع

اما لغة الكتاب وأسلوب المؤلف ففيهما ضعف نرجو ان تبرأ منهُ بقية مؤلفاته ان شاء الله ، وفي الكتاب سهو كثير ونخص بالذكر والتنبيه قوله «ان ابا الفرج صاحب الاغاني افتتح الجزء السادس عشر من كتابه « بأخبار ابي نواس وجنان خاصته » والصواب انهُ الجزء الثامن عشر . وايضاً ، فقد ذهب المؤلف الى القول بضياع ترجمة ابي نواس من كتاب الاغاني كما ذهب الى ذلك ابن منظور الانصاري صاحب «لسان العرب» في كتابه «أخبار ابي نواس» . وارجح الرأي عندنا أن قول أبي الفرج في مفتتح الجزء الثامن عشر من الاغاني « اخبار ابي نواس وجنان خاصته ، اذ كانت أخباره قد أفردت خاصته» إنما عنى به «جمع ديوان ابي نواس» الذي ذكروه في مؤلفات إبي الفرج

محمود محمد شاكر

ديوان فرحات

نظم الياس حبيب فرحات ، في ٢٨٧ صحيفة من القطع الكبير ، طبع بمطبعة مجلة الشرق في سان باولو

قبل تسعة قرون كانت تهبُّ نسمات رقيقة على العالم العربي في الشرق من فردوسهِ المفقود في الغرب ، وكانت تحمل تلك النسمات أصداء الخلود في طياتها فخلقت تلك الاصداء روحاً جديدة وعالماً يفيض بما يملأُ النفس ويهزُّ الروح . وبعد هذه القرون التسعة تعود تلك النسمات فتهبّ معطرة بشذى العصر الحديث حاملة في اطوائها أصداءً جديدة تعيد الى العالم العربي ذكرى أندلسهِ فيروح يتطلع الى العالم الصاخب برنين المال وجلجلة المصانع يتسمع الالحان المنبعثة من قلوب ابناء العربية الذين طوحت بهم الحياة في أحضان الغربة في الامريكتين، هؤلاء الذين نزحوا من ديارهم يحملون بين جنوبهم قلوباً حساسة ، لم تلهم أعباء الحياة وضجيجها ، ومادية البيئة وغرابتها ، وعجمة اللسان وبعد المزار عن أن يرسلوا ما يفخر بهِ الادب العربي الآن من إبداع

والياس حبيب فرحات أحد هؤلاء الاوتار الحساسة التي تردد اليوم ما سيظل صداه في الغد يتردد بين الاسماع والقلوب . عرفتهُ أول مرة من قصيدتهِ «الراهبة» التي نشرها المقتطف من أشهر فلمست فيهِ روح الشاعر التي اتوق الى معرفتها ، وتنشقت من عبيره ذلك الشذى الذي انشده دائماً . وهو واحد من القليلين الذين رحلوا من موطنهم وهم يحملون ثروة من لغتهم ساعدتهم على صد هجمات العجمة فخرجت ديباجتهم مصقولة قويه بالرغم من هذا البون الشاسع بينهم وبين مواطن اللغة التي يكتبون بها

وأنت اذ تقرأ ديوان فرحات تحسُّ أن روح هذا الشاعر تعيش دائمة في ربيع دائم فهو يتعشق الرياض والمراعي ، وتسمعهُ يصف لك جمالها إذ يقول في قصيدتهِ « ثغاء الشاة » :

جمال الليل في هذه المراعي حقائقهُ ، وفي المدن الرسومُ

وهو يعجب ممن تلهيهِ الحياة عن التمتع بما يحيط بهِ في الكون من جمال فيهتف بهِ قائلاً :

واعجب كيف يعيش امرؤٌ خليًّا وزُهْر الدجى عاشقاتْ !
ألستَ تراها تلظّى جوى وترنو الى صحبها غامزات ؟
أيروي الجمالُ الثرى والسما وما بين جنبيك أرضٌ مواتْ ..!؟

ويرى في هذا الجمال ما يدعو الى التسامح ونبذ الفروق وهو يردّد ذلك في كثير من قصائدهِ فيقول:

وأوى الطير عشهُ بعد أن صلّى صلاة المساء للرحمنِ
وانا مُذْ عقلتُ يفضل عندي معبدُ الطيرِ معبدَ الإنسانِ
فلهذا ركعتُ فوق نديّ العشب في هيكلٍ رحيب الجنانِ
قائمٍ بين اربع من جهات الأفق لا مثلها من الجدرانِ

يسعُ المسلمَ الحنيفَ ويبقى غير ضنكٍ بالمشرك النصراني

ويرى في الأَهلَّة الغرّ حسناً مثل حسنٍ يراهُ في الصلبان

ولهذا يرى أن الأخلاق تفضل العقائد فرُبَّ ملحدٍ أفضل اخلاقاً من مدّعٍ الدين لا تعرف الاخلاق طريقها الى قلبه ... فيقول في جرأة :

زوّجوا الحرَّةَ الكريمةَ للحرّ ولو كان عابدَ الأوثانِ

كافرٌ يعشق المكارم خيرٌ من لئيمٍ يغوص في الإيمان

ولفرحات ريشة تنقل ما يراه وما يحسهُ في دقة وامانة فاستمع اليهِ يصف عربة تحملهُ وبضائعهُ في قصيدتهِ « حياة مشقات »

ومركبة للنقل راحت يجرُّها حصانان محمرٌّ هزيل وأشهبُ

بها خيمة تدعو الى الهزء شدها غرابيل ادعى للوقار وأنسب

جلست الى حوذيها ووراءنا صناديق فيها ما يسرُّ ويعجب

حوَتْ سلعاً من كل نوع يبيعها فتى ما استحلَّ البيع لولا التغرُّب

وراحت كأن البرَّ بحرٌ نجاده وأغواره امواجه وهي مركب

تبين وتخفى في الربا وحيالها فيحسبها الراؤون تطفو وترسب

وتدخل قلب الغاب والصبح مسفر فتحسب ان الليل ليل معقب

تمرُّ على صُمّ الصفا عجلاتها فتسمع قلب الصخر يشكو ويصخب

وترقص فوق الناتئات من الحصى فنوشك من تلك الخلاعة نقلب

وانظر الى تلك الصورة التي رسمها لك خياله في اناة وتدبر فتظل أمامها امداً متأملاً ترى من خلال الوانها ضعف الامم مجسماً في قوله :

وربَّت أمةٍ بالحق حُبلى لفرط الضعف أسقطت الجنينا

ومن قصائده البديعة تلك القصيدة التي طالما انتحلها لانفسهم كثير من لصوص الادب وقرأتها كثيراً باسماء شتى وهي قصيدة « خصلة الشعر » وقصائد « مناغاة ليلى » و « يا نجمة الليل » و « وداع العزوبة » و « المدينة في الليل » و « السكرة الخالدة » الى غير ذلك مما تتكون منه تلك الباقة الجميلة التي لا ينقصها الاّ بعض التدقيق في قليل من الالفاظ والتي سها على شاعرنا ان يضع لها فهرساً يهتدي بهِ القارىء الى موضع كل قصيدة اذا اراد الرجوع الى قراءتها

وإنا لنرجو ان تكون تلك النسمات التي تهبّ الآن على العالم العربي خالدة النفس وان يشرب ابناء هؤلاء الادباء واحفادهم حب لغة الاجداد حتى نظلّ نسمع تلك الالحان العذبة خالية من العجمة والاخطاء فلا تحرم الاجيال القادمة من ان تنهل من كؤوسها خمراً صافية معصورة من قلوب ابنائها لا من قلوب الماضين ...

حسن كامل الصيرفي

علم الاقتصاد

صدر في دمشق الجزء الاول من كتاب علم الاقتصاد للاستاذ عبد القادر العظم رئيس معهد الحقوق العربي بدمشق ومدرّس علم الاقتصاد فيه . فهو كتاب جامع قسَّمهُ واضعهُ الى ثلاثة ابواب

والباب الاول منهُ يبحث في موضوع علم الاقتصاد واقسامه والحاجات والارزاق ثم الانتاج وصلتهُ بالتداول والتوزيع والاستهلاك وهذا الباب في الواقع شرح لاوليات الاقتصاد لاغنى عنه للراغب في دراسة هذا العلم. والباب الثاني يبحث في تعريف علم الاقتصاد والغرض منه وعلاقته بالعلوم الاخرى كعلم النفس والاخلاق والتاريخ والجغرافيا والاحصاء والحقوق . ثم تاريخ العلم نفسه في القرون الاولى والوسطى والقرون الاخيرة ثم يشرح آراء رجالهِ في القرن الثاني عشر مثل آدم سميث وجون ستيوارت مِل وغيرهم . اما الباب الثالث فيتعلق بالقوانين والمذاهب الاقتصادية فيشرح فيه منشأ المذهبين الحر والاجتماعي ومبادىء كل منهما وانتقادات خصومهما ثم الطوائف الاجتماعية فيبدأ بالشيوعية فالفوضوية ثم الاشتراكية والماركسية والماركسية الجديدة والمذهب الاجتماعي في العهد الحاضر ثم المذاهب المختلطة بين الفردية والاجتماعية باقسامها . وآخر فصول هذا الباب عن البولشفية والفاشستية

وقد بذل الاستاذ واضع الكتاب جهده في اخراجه مختصراً مفيداً وفي رأينا انهُ كتاب مدرسي مفيد لمن يطالبون بدرس هذا العلم . وكل ما نأخذه على الكاتب الفاضل انهُ في تعريبه كان اميلَ للغة الفرنسية حتى انهُ استعمل الفاظاً بعضها فرنسي مع ان اللغة العربية ولله الحمد تتسع لهذه المباحث العلمية سعة كبيرة والمرحوم حافظ ابراهيم وخليل مطران تعريب مطول لكتاب بول لروى في علم الاقتصاد استعملت فيه الالفاظ العربية المنتقاة للتعبير عن الكلمات الاجنبية الخاصة بهذا العلم

على انهُ يعجبني ان اشير هنا الى روح التواضع التي املت على المؤلف ان يقول عن نفسهِ انهُ « جامع الكتاب » وهذه حسنة نسجلها لهُ في هذا الوقت الذي انتشر بين الناس غرور شديد في نسبة التأليف الى انفسهم في كتب لا يحق لهم ان يدعوا فيها حق الجمع مع ان المؤلف لم يكن في كتابهِ هذا «جامعاً» كما يقول بل كان صاحب الفضل في وضع مؤلف مختصر مفيد يستحق عليهِ الثناء

جلال حسين

يشتمل هذا الباب في مقتطف مارس المقبل على دراسات ومراجعات في الكتب الآتية : —

المراحل : لميخائيل نعيمه — في الصيف: للدكتور طه حسين— تاريخ مصر السياسي الحديث: لمحمد رفعت— شرح بشارة يوحنا : للقس ابرهيم سعيد — علم استخلاص المعادن — محركات الاحتراق الداخلي — في علم النفس — نباتات فلسطين — كتاب علم الطبيعة : الضوء — وغيرها من الكتب الحديثة

باب الاخبار العلمية

وفيات الاعلام في سنة ١٩٣٢

لِنْ بويد بنتُن Benton مستنبط الآلة الكاتبة في ١٦ يوليو وعمره ٨٧

ارستيد بريان Briand السياسي الفرنسي في ٧ مارس وعمره ٦٩ سنة

فرديناند بويسون Bouisson آخر الاحياء من مؤسسي الجمهورية الفرنسية الثالثة في ١٦ فبراير وعمره ٩١ سنة

الكونت تشرنين Czernin وزير خارجية النمسا في ٤ ابريل وعمره ٦٠ سنة

پول دومر Doumer رئيس الجمهورية الفرنسية . قتل غيلةً في ٧ مايو وعمره ٧٥ سنة

جورج ايستمن Eastman مستنبط آلة التصوير (كوداك) . مات منتحراً في ١٤ مارس وسنّهُ ٧١ سنة

الاستاذ فسندن Fessenden عالم طبيعي ومهندس لاسلكي في ٢٢ يوليو وعمره ٦٥ سنة

السر باترك جدس Geddes بيولوجي انكليزي ١٧ ابريل وعمره ٧٨ سنة

كنغ جيلت Gillette مستنبط الموسى المعروف باسمهِ . في ١٠ يوليو وعمره ٧٨ سنة

وليم غراهم Graham وزير التجارة في وزارة العمال الثانية بانكلترا في ٨ يناير وعمره ٤٤ سنة

لورد انشكايب Inchape من كبار رجال المال والاعمال الانكليز في ٢٣ مايو وعمرهُ ٧٩

تسيوشي انيوكاي Inukai رئيس وزارة اليابان. قتل غيلة في ١٥ مايو وعمره ٧٧ سنة

ايڤار كروجر Kreuger ملك الكبريت الاسوجي. مات منتحراً في ١٢ مارس وعمره ٥٢ سنة

السر دونلد مكلين Maclean وزير المعارف البريطانية سابقاً في ١٥ يونيو وعمره ٦٨ سنة

الملك مانويل Manoel ملك البرتوغال سابقاً في ٢ يوليو وعمرهُ ٤٢ سنة

وليم اوستولد Ostwald عالم طبيعي الماني حائز جائزة نوبل الكيمائية سنة ١٩٠٩ في ٤ ابريل وعمره ٧٨ سنة

الفيلد مرشال پلومر Plumer قائد بريطاني ومندوب سامٍ في فلسطين بعد السر هربرت صموئيل في ١٦ يوليو وعمرهُ ٧٥ سنة

السر رونلد رُسْ Ross بكتريولوجي بريطاني مكتشف دورة طفيلي الملاريا في ١٦ سبتمبر وعمرهُ ٧٥ سنة

لتن ستراتشي Strachey كاتب انكليزي مبتدع الطريقة الجديدة في كتابة السِيَر في ٢١ يناير وعمرهُ ٥١ سنة

أهم الحوادث العلمية في سنة ١٩٣٢

١٥ مايو (تقريباً) : كشف يوري Urey وبركْوِدْ Brickwedde عن نظير الايدروجين بالتعاون مع علماء جامعة كولومبيا ومكتب الموازين والمقاييس بوشنطن

١٢ يونيو: (تقريباً) كشف الاستاذ شدِك Chadwick بجامعة كمبردج عن النيوترون Neutron وهو الكترون واحد وبروتون واحد محشوكين حتى يكاد لا يكون ثمة حيّز بينهما

١٣ اغسطس: استعمل ماركوني امواجاً لاسلكية قصيرة طولها (٥٧ سنتيمتراً) للمخاطبة اللاسلكية بين يختهِ التّرا Elettra ورأس فيغاري بجزيرة سردينية والمسافة بينهما ١٦٧ ميلاً

١٨ اغسطس: حلق الاستاذ اوغسط بيكار ببلونهِ الى علوّ ٥٣٦٧٢ قدماً لدرس الاشعة الكونية وهو اعلى ما بلغهُ انسان

٣١ اغسطس: كسفت الشمس كسوفاً كليًّا وكشف عن نجيمة جديدة

٢٢ سبتمبر : غاص العالم بيب Beebe الاميركي الى ٢٢٠٠ قدم تحت سطح البحر

١٠ ديسمبر : وزعت جوائز نوبل كما يلي جائزة الطب مناصفة بين السر تشارلز سكُتْ شرنغتنْ الاستاذ بجامعة اكسفرد (انكليزي) والاستاذ ادريان Adrian الاستاذ بجامعة كمبردج (انكليزي) وجائزة الآداب للروائي جون جالزورذي (انكليزي) وجائزة الكيمياء للمستر ارفنغ لنغميور (اميركي)

ولم نقرأ ان جائزة الطبيعة وجائزة السلام منحتا لاحدٍ هذه السنة

أهم أنباء الطيران سنة ١٩٣٢

٢١ مايو : طارت المسز اماليا ارهارت پَتنَمْ (اميركية) وحدها من هاربر غرايس بجزيرة نيوفنلند الى ارلندة في ١٤ ساعة و٥٦ دقيقة . وهي اول امرأة تجتاز المحيط الاطلنطي وحدها طيراناً

وطار الكابتن موليسُنْ الانكليزي في اواخر الصيف وحده من انكلترا الى اميركا وهو اول رجل يجتاز المحيط الاطلنطي وحده طيراناً من الشرق الى الغرب

٣ سبتمبر : بلغت سرعة المايجر دولتل الاميركي ٢٩٤٫٩٨ الميل في الساعة بطيارة برية

١٥ : ديسمبر طارت المسز موليسون (ايمي جنصن) وحدها من لندن الى مدينة الكاب في جنوب افريقية وعادت الى لندن في ٧ ايام و٧ ساعات و٥ دقائق

أعياد سنة ١٩٣٣ واحتفالاتها التذكارية

﴿المواليد والوفيات﴾ يحتفل في خلال سنة ١٩٣٣ بانقضاء ٤٠٠ سنة على ولادة (الملكة اليصابات) Elizabeth الانكليزية التي ازدهر في عصرها الادب الانكليزي. وبانقضاء ٤٥٠ سنة على ولادة المصلح (مارتن لوثر) وبانقضاء ٣٠٠ سنة على محاكمة (غليليو) في ديوان التفتيش على اثر قوله بدوران الارض في سنة ١٦١٦ ومنعهِ من المجاهرة بهِ . وبانقضاء ٢٥٠ سنة على ولادة (رويمر) Reaumur صاحب مقياس الحرارة المعروف باسمه واول من حاول قياس سرعة النور برصد

خسوف اقمار المشتري . وبانقضاء مائتي سنة على ولادة (جوزف بريستلي) مكتشف الاكسجين. وبانقضاء مائة سنة على ولادة (الفردنوبل) المهندس السويدي مستنبط الديناميت وصاحب الجوائز العالمية في الطبيعة والكيمياء والطب والادب والسلام. وبانقضاء مائة سنة على وفاة (لجاندر) العالم الرياضي الفرنسي . وبانقضاء خمسين سنة على وفاة (كارل ماركس) صاحب كتاب «رأس المال» انجيل الشيوعيين. وعلى وفاة الموسيقي (وجنر) ووفاة (فتزجرالد) الذي نقل عمر الخيام الى الانكليزية. وبانقضاء ستين سنة على وفاة الفيلسوف (جون ستيورَت مِل) الذي درس اللغة اليونانية وهو في الثالثة من عمره ومُدَّ في اجله حتى اصبح احد مؤسسي مذهب الاحرار الحديث . وبانقضاء سبعين سنة على وفاة الروائي الانكليزي (ثَكري) والمصور الفرنسي (ده لاكروى)

نفاد الفلزات يهدد العصر الصناعي

القى الاستاذ رُس ايكن غورتنر Gortner استاذ الكيمياء الحيوية بجامعة منسّوتا الاميركية خطبة في مجمع تقدم العلوم الاميركي بيّن فيها ان الحضارة الصناعية مهدّدة بنفاد المصادر الطبيعية التي تؤخذ منها الفلزات ومواد الوقود . قال ان العلم التطبيقي في المائة السنة الماضية زاد المستهلك من هذه المواد الف ضعف او تزيد وان في مصادر بعضها تبدو علامات النفاد. وعندهُ ان مناجم النحاس والانتيمون والقصدير والرصاص والزنك والكروم والمنغنيس والنيكل والحديد قد تنفد قبل الف سنة ومثلها مناجم الفحم وينابيع البترول. والف سنة تعدل طرفة عين في تاريخ البشر . ونبّه الى تبديد القصدير في صنع «الاوراق الفضية» التي تلَفُّ بها الشوكولاته والحلويات ولفائف التبغ. ويؤخذ من الاحصاء الدقيق الذي اجراهُ ان الحديد سوف ينفد من مناجم المانيا وانكلترا قبل اربعين سنة او خمسين ومن البلدان السكنديناوية والولايات المتحدة الاميركية قبل مائة سنة ومن روسيا قبل ١٥٠ سنة ومن كل مناجم الارض قبل ٢٥٠ سنة اذ ظلَّ ما يستخرج منهُ قريباً من متوسط المستهلك منهُ الآن . ويظن ان مناجم النحاس والزنك والرصاص والقصدير سوف تنفد قبل نفاد مناجم الحديد وان مناجم الكبريت في الولايات المتحدة الاميركية قد لا تكفي اكثر من ١٥ سنة . وان الطاقة المستخرجة من الماء والخضراوات والكحول وضوء الشمس لا تكفي للقيام مقام طاقة الفحم والنفط. فهل تنظر الحضارات المقبلة الى حضارتنا الصناعية فتحكم عليها بانها لم تكن حضارة ارتقاء وتقدم بل حضارة تبديد للثروة الطبيعية. وهل يدور دولاب الزمان فترتدُّ الحضارة ، بعد نفاد المناجم وينابيع البترول ، الى استخدام الفرس والزورق الخشبي اسباباً للمواصلات؟

فيتامين A واصابات الاذن

قرّر الدكتور كلود كودي الاستاذ بجامعة تكساس امام الجمعية الطبية الاميركية ان الدلائل تدلُّ على ان فيتامين (A) ذو فائدة في منع التهابات الاذن المتوسطة ومعالجتها

فقد ثبت للدكتور كودي ان اضافة زيت كبد القد (زيت السمك) الى غذاء الاطفال في السنوات الماضية صحبهُ نقص ظاهر في اصابات الاذن المتوسطة بخرّاجات . وهو لا يستطيع ان يحصر سبب هذه القلة في استعمال زيت السمك وانما الادلة تكفي للاشارة بدوام استعمالهِ . اما في معالجة التهاب الاذن الوسطى فيجب اولاً نزح الخرّاج ثم تدبير غذاء يحتوي على مقادير كبيرة من فيتامين A . وان هذا الغذاء قصّر مدة خروج الصديد من الاذن وقلّل المضاعفات في عظم الاذن الوسطى واسرع عودة السمع

اشعاع الشمس ونمو النباتات

ثبت للمستر توثنغام Tothingham احد اساتذة جامعة وسكنصن ان اشعة الشمس التي لا ترى كالاشعة التي فوق البنفسجي والاشعة التي تحت الاحمر تزيد نمو النباتات فانهُ زرع نبات الطماطم ضمن زجاج لا تخترقهُ الا الاشعة التي فوق البنفسجي والاشعة التي تحت الاحمر فاثبت التحليل الكيميائي ان زيادة الليبيدات Lipdies في اوراقهِ اكثر من زيادتها في اوراق الطماطم الذي يحيط بهِ زجاج عادي . ثم ان النبات الاول لما زرع في الحديقة فاق الثاني في تبكير ثمارهِ وكبر حجمها . ولا يعلم هل ذلك اثر من آثار الاشعة التي فوق البنفسجي او الاشعة التي تحت الاحمر او كلتيهما ولذلك ينتظر الاستاذ توثنغهام ان يدرس اثر كلّ من الاشعة على حدة

غنائم الاسكندر

كتب المستر لوتز Lutz احد اساتذة جامعة كلفورنيا رسالة قدر فيها الاسلاب والغنائم التي فاز بها الاسكندر ذو القرنين في معاركه ففي معركة إسوس ٣٣١ ق . م فاز بما قيمتهُ مليون جنيه وفي معركة برسپو ليس بثمانية وعشرين مليون جنيه وفي معركة اكبتانا باثنين واربعين مليوناً من الجنيهات

اصناف الفحم

حلّل علماءُ مصلحة المعادن الاميركية ١١٥ الفاً من اصناف الفحم من مناجم مختلفة لكي يعينوا مقدار ما يولده كلٌّ منها من الحرارة والرماد

تأييد وجود « النيوترون »

اعاد الدكتور راسثّي Rasetti الاستاذ بمعهد القيصر غليوم الكيميائي ببرلين التجارب التي اجريت في انكلترا والمانيا وفرنسا حديثاً واستنتج منها وجود «النيوترون» وهو ذرة من المادة وزنها واحد وكهربائيتها معادلة (راجع المقالة الاولى في مقتطف مايو ١٩٣٢) فاسفرت تجاربهُ عن تأييد وجود النيوترون

فيتامين (A) وحصوات الكلى

لاحظت طائفة من المشتغلين بالبحث في اثر الفيتامين في الجسم الحي ان هناك علاقة بين نقص A فيتامين من الجسم وتكون حصوات الكلى فقد ذكر الدكتوران الفهيم Elvehjem ونو Neu من اساتذة جامعة وسكنصن الاميركية انهُ اذا منع فيتامين A عن الطيور وحدث في كلاها تطوُّر جليٌّ ضارٌّ . وكان الدكتور روبرت مكريسن McCarrison الانكليزي قد لاحظ ان الاصابة بحصوات الكلى داء واسع الانتشار في الشرق الاقصى فغذى طائفة من الحيوانات بالاغذية الشائعة في الهند فتكونت حصوات في كلى خمس الطيور التي جربت بها التجربة المذكورة فلما اضيف فيتامين A الى الغذاء لم تتكون في كلاها حصوات ما

ذكاء الجرذان والانتخاب الصناعي

تمكن الدكتور تريون احد اساتذة جامعة كلفورنيا من توليد سلالة ذكية من الجرذان واخرى بليدة مستعملاً طريقة الانتخاب الصناعي . وقد ثبت لهُ في اثناء تجاربهِ ان توريث العوامل الطبيعية كاللون والجنس والوزن وخصب التناسل لاعلاقة لهُ البتة بتوريث الذكاء

سبب نوع من السرطان

يصاب العمال الذين ينظفون مداخن البيوت والمعامل والمشتغلون بصناعات قطران الفحم الحجري بنوع من السرطان سببهُ ما يحدثهُ قطران الفحم الحجري من الحكة والالتهاب . وقد ثبت ان الفئران التي تمسح جلودها بقطران الفحم الحجري تصاب بهِ كذلك . فعمد العلماء الى البحث عن المادة التي في قطران الفحم المسببة لهذا الداء ففاز الدكتور كوك واثنان من مساعديهِ في مستشفى السرطان التابع لمعهد البحث في لندن بعزل هذه المادة فاذا هي مركَّبة من الايدروجين والكربون تدعى بنزبيرين benzpyrene . وقد ركّبوا هذه المادة تركيباً كيمائياً في المعمل . فاذا لها نفس الاثر الذي للمادة المستخلصة من قطران الفحم في احداث السرطان في الفئران

ادنى درجات الحرارة

عند الدرجة ٢٧٣ تحت الصفر بميزان سنتغراد تبطل الحرارة وتعرف هذه الدرجة بدرجة الصفر المطلق . وقد كان همُّ العلماء ولا يزال الوصول إلى هذه الدرجة بتسييل الغازات وتجميدها تحت ضغط شديد . وعلماء هولندا اشهر علماء الارض في هذا الميدان . فالاستاذ اونس Onnes تمكن من بلوغ درجة ٢٧٢ر١٨ تحت الصفر بميزان سنتغراد وذلك في جامعة ليدن . وقد قرأنا الآن أن الاستاذ كيسُم احد علماء الجامعة نفسها تمكن من بلوغ درجة ٢٧٢ر٣ تحت الصفر بميزان سنتغراد

تجزئة قطرة زيت

تمكن احد العلماء في معمل البحث العلمي في الشركة الكهربائية العامة بالولايات المتحدة الاميركية من تجزئة قطرة من زيت النفط لا تزيد على رأس عود ثقاب الى مائة مليون قطيرة ثم إشعلت هذه القطيرات فتولَّد لهيب شديد الحرارة وينتظر ان تستعمل هذه الطريقة في توليد درجات عالية من الحرارة في أتاتين المصانع

الجزء الثاني من المجلد الثاني والثمانين

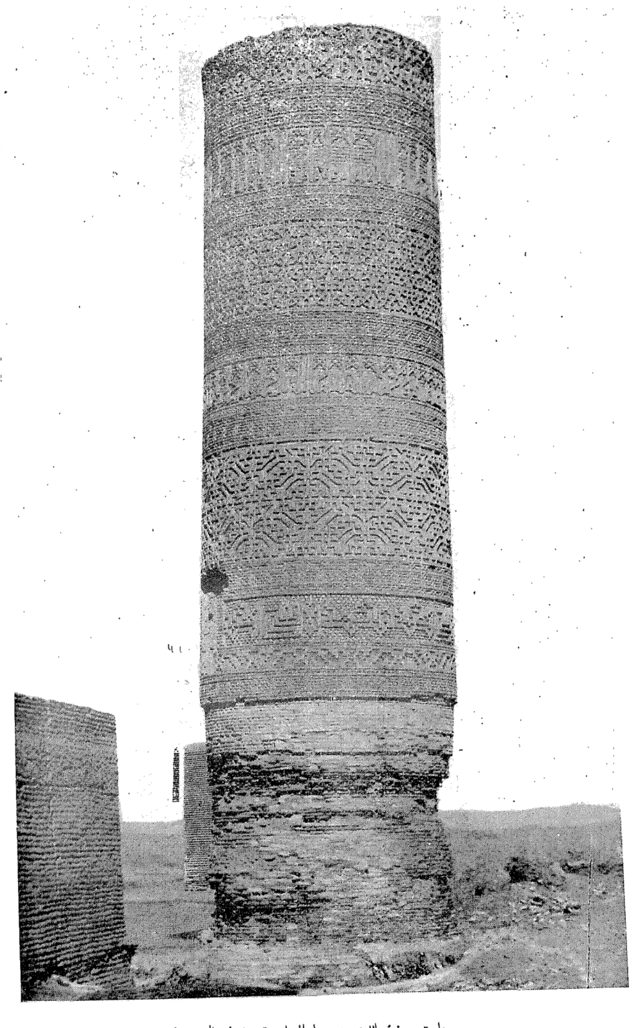
قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها ادارة المطبعة العصرية بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

صندوق بوستة ٩٥٤ مصر تليفون رقم ٥٩٧٣٦

م	
٣٥	القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠	القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثالثة)
٣٥	القاموس العصري عربي انكليزي (طبعة اولى)
٧٠	القاموس العصري عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥	القاموس المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠	قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠	قاموس الجيب عربي انكليزي فقط
١٥	قاموس الجيب انكليزي عربي فقط
٧٠	« سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠	« سقراط سبيرو انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠	« سقراط انكليزي عربي وبالعكس
١٠	التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢	الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٥	في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠	عشرة ايام في السودان « « « «
٢٠	مراجعات في الادب والفنون (للاستاذ عباس العقاد
١٥	روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد زعيتر)
١٥	روح السياسة « « « «
١٠	الآراء والمعتقدات « « « «
١٠	اصول الحقوق الدستورية « « « «
٢٠	الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
٨	مقدمة الحضارات الاولى « «
١٠	الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥	ماقي السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
١٠	اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠	مختارات سلامه موسى
٨	نظرية التطور واصل الانسان « «
٢٠	انا تول فرانس في مباذله (الامير شكيب ارسلان)
١٥	الدنيا في أميركا (للاستاذ امير بقطر)
١٠	المرأة الحديثة وكيف نسوسها (حسين عبد الله)
١٠	حصاد الهشيم (للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني)
١٠	قبض الريح « « « « « «
٨	نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠	رسائل غرام جديدة (للاستاذ سلم عبد الواحد)
١٠	الغربال في الادب العصري (للاستاذ ميخائيل نعيمة)
٥	حكايات للاطفال ، اول (مصور بالالوان)
٥	« « « ثان « «

م	
١٠	التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فري)
٥	خواطر حمار (للاستاذ الجمل)
٥	التعليم والصحة
١٥	الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد
١٥	ذكرا وانثى خلقهم « « «
٥٠	علم الاجتماع (جزآن كبيران « «
١٥	اسرار الحياة الزوجية « «
٢٥	المرأة وفلسفة التناسليات (للدكتور فخري)
٣٠	الامراض التناسلية وعلاجها « «
١٥	الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي)
١٠	تاييس « « « «
٥	مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠	القصص العصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠	مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢	رواية اهوال الاستبداد ، مصورة
١٠	رواية فاتنة المهدي ، او استعادة السودان
٨	رواية الانتقام العذب (اسعد خليل داغر)
٥	فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
١٢	رواية باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢	غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥	رواية روكامبول ، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥	رواية ام روكامبول ، ٥ اجزاء «
٢٠	رواية باردليان ، ٣ اجزاء «
٢٠	رواية الملكة ايزابو ٤ اجزاء «
٢٠	رواية الاميرة فوستا ، جزآن «
٣٠	رواية عشاق فنيسيا ، جزآن «
١٦	رواية كابيتان ، جزآن «
١٦	رواية الوصية الحمراء ، جزآن «
١٢	رواية فلمبرج ، جزآن «
١٠	رواية فارس الملك «
١٠	رواية ضحايا الانتقام «
٥	رواية المتنكرة الحسناء «
٥	رواية مهوظة الاسود «
٥	رواية شهداء الاخلاص «
٨	رواية المرأة المفترسة «
١٦	رواية دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠	« فرنسوا الاول « - «



منارة مبنية باللبن شيدها السلجوقيون في فارس في
مطلع القرن السادس الهجري الثاني عشر المسيحي،

المقتطف
مجلة علمية صناعية زراعية
الجزء الثالث من المجلد الثاني والثمانين

١ مارس سنة ١٩٣٣ — ٥ ذي القعدة سنة ١٣٥١

الازمة الاقتصادية العالمية[1]

واشتباك المصالح الدولية

مقدمة

بلغت بلاد ان العالم في سنتي ١٩٢٨ و١٩٢٩ اعلى مستوًى بلغتهُ من النشاط الاقتصادي. فزاد الانتاج الصناعي والزراعي وارتفع مستوى المعيشة . ولكن مع ذلك ظلَّ جانبٌ لا بأس بهِ من قوى الانتاج معتقلاً . ففي مختلف البلدان ملايين من العمال العاطلين وكثير من المعامل التي وقف فيها دولاب العمل ومخترعات كثيرة لم تطبق في المصانع. فلم يكن ثمة ما يمنع ان يدوم الرواج ويتسع نطاقهُ ويقلُّ العمال العاطلون ويرتفع مستوى المعيشة . وكان الشعور السائد في كل الدوائر الصناعية والاقتصادية شعورَ تفاؤلٍ وثقةٍ بالمستقبل ، اذ ظنَّ الناس انهم واقفون عند حدٍّ فاصلٍ بين عهدين — عهدٍ سادت فيهِ المشكلات الاقتصادية الناشئة عن الحرب الكبرى وعهد جديد وقفوا على عتبتهِ وهو عصر رخاء شامل ويسر عام

ولكن الحالة انقلبت ايَّ منقلبٍ في خلال سنة ١٩٢٩ و١٩٣٠ . فالانهيار المالي الذي وقع في وول ستريت بمدينة نيويورك في خريف سنة ١٩٢٩ كان الانذار الاول بانقضاء عهد اليسر القصير . ومن الولايات المتحدة الاميركية امتدَّت الازمة من بلاد الى بلاد ، وهي تزداد استحكاماً كلما اتسع نطاقها . واذا شبهنا هذه الازمة بموجةٍ طاغية ، فالارجح اننا ما زلنا في حضيضها او ما بعيد الحضيض . بل اننا قد تعودناها الآن ، فزال اثر الصدمة التي

(١) من محاضرة القاها رئيس تحرير هذه المجلة في جمعية الشبان المسلمين في القاهرة

شعرنا بها في بدء الازمة لما رأينا كل آمالنا القائمة على الثقة باليسر العام والرواج الشامل ، قد اصبحت موطىء القدم . ولكننا وقد انقضت ثلاث سنوات على تلك الصدمة الاولى نستطيع الآن ، ان نقف من المسألة كلها موقفاً يمكننا من تبين اسبابها والبواعث عليها

* * *

كلنا نعلم أن الازمة عالمية . ولكن الصعوبة كلّ الصعوبة ان يجري اولو الحلّ والربط على ان علاجها يجب ان يكون عالميًّا . لان الامور التي اضطرب حبلها ، امور لا تستطيع بلاد ان تصلح شأنها من دون ان تتعاون مع الامم الاخرى . انظروا في مظاهرها الاساسية . من المتعذر ان تجدوا مظهراً واحداً من المظاهر التي يمكن حصرها في بلاد دون اخرى. فهبوط اسعار العروض عالمي . ومشكلتا العيار الذهبي وسقوط اسعار الفضة . لا تختصّان بانكلترا والهند دون غيرها . ثم هنالك مسائل التعويضات وديون الحرب ، ان اكبر الامم مقاماً في العالم اليوم مشتبكة في شؤونها المعقّدة. ثم هنالك من وراء كل هذا النظامُ المالي الدقيق الاحساس الذي يربط بلدان العالم ربطاً محكماً ، وينزل منها منزل الجهاز العصبي في الجسم الانساني . ثم ان رفع الجمارك على الواردات لحصرها، وترقية الصناعات في الشرق الاقصى لمزاحمة الصناعات الاوربية في تلك البلاد ، والديون التي للبلدان الصناعية الغنية في البلدان الاخرى — كل هذه المسائل وجوهٌ من المشكلة الاساسية، وكلها دوليٌّ في معناهُ وأثرهِ وهي مرتبطة بالمعاهدات الدولية التي بموجبها ختمت حروب وعيّنت حدود وقسمت بلدان . بل هي مرتبطة ارتباطاً واسعاً بآثار الحرب الكبرى ومخلّفاتها ، بالشيوعية في روسيا ، وزيادة الريب في صلاح النظام الدمقراطي ونشوء الدكتاتوريّات في ايطاليا واسبانيا وغيرها ، ونموّ الشعور القومي في شعوب الشرق ، وزوال الثقة من النفوس، لان الناس يحسّون انهم دائماً مهدّدون بالحرب

ثم ان اقتصارنا على مجرّد ذكر الحوادث الكبرى في الازمة العالمية ، كافٍ لبيان صفتها الدولية . انها تفتتح باقبال عام في السوق المالية بالولايات المتحدة الاميركية يتبعهُ هبوط ذريع فيمتدُّ هذا الهبوط الى البلدان الزراعية الكبيرة في شمال اميركا وجنوبها . ثم يتصل هـذا الذعر بالمانيا واوربا المتوسطة اذ يستردُّ المثمر الاميركي مالهُ منها فينتهي الى افلاس بنك الانستالت في النمسا وبنك الدانات في المانيا . ثم تحدث ازمة ثقة في النفوس ، فتضطرُّ انكلترا وطائفة من البلدان التي تجري مجراها ان تخرج عن قاعدة الذهب في معاملاتها، بعد ما تضطرُّ اميركا الى اعلان موراتوريوم في الديون الدولية ، وتعمد انكلترا من جهة اخرى الى التخلّي عن سياستها التقليدية سياسة حرية التجارة ، وحينئذٍ لا تتورَّع امة من الامم عن تقييد حركة البضائع وحركة المال باي قيدٍ تراهُ ، فكانت النتيجة هذا الشلل البادي في كل نواحي العمل، وهذا البؤس الباسط رواقهُ فوق كل البلدان

الازمة في اميركا

كان الرخاء في اميركا في خلال سنتي ١٩٢٨ و١٩٢٩ رخاءً مزيَّفاً . فارتفاع الاسعار كان محصوراً في اثمان الاسهم والسندات والاراضي والمباني . ولكن اجور العمال لم تصب نصيباً من هذا الارتفاع ولا زاد عدد العمال ولا اتسع نطاق مطالب المستهلكين . لم يُعِرْ الاميركيون ادنى التفات هذه الهوة بين ارتفاع اسعار الاسهم والاطيان والمباني في جهة وبقاء حالة العمال ومطالب المستهلكين على حالها من جهة اخرى . وظلّوا حتى اليوم الذي وقع فيهِ الانهيار العظيم في شارع المال متفائلين واثقين من دوام الاقبال واتساع نطاقهِ . كان كل اصحاب الصناعات تقريباً يجنون ارباحاً كبيرة ، لذلك كثر المال المطروح في السوق المالية للتثمير في هذه الصناعات . ولذلك عمد اصحاب هذه الصناعات الى هدم المباني القديمة وتشييد المباني الجديدة وتوسيع نطاقها . وعمدت الشركات الى بناء المباني الفخمة للايجار بيوتاً ومكاتبَ ، ولما كان الناس كلهم يتوقعون دوام الاقبال واتساعهُ ، اصبحت الاراضي التي تصلح للاستغلال تنتقل من يدٍ الى يدٍ انتقالاً سريعاً يبعث على الدهشة وباسعارٍ متدرجة صعوداً ، اذا ذكرت الآن نكاد لا نصدّقها . وعلى ذلك حلّقت اسعار الاسهم الصناعية تحليقاً لا يتسق والارباحَ التي تجنى منها . فاصحاب الاموال كانوا يثمرون اموالهم مقامرين على المستقبل لثقتهم بما سوف يسفر عنهُ الغد . اما المضاربون المحترفون المضاربة ، فاغتنموا الفرصة السانحة . فرصة اقبال الجمهور على الشراء من غير تدبُّر ، فصاروا يرفعون الاسعار ويجنون الارباح . وهكذا انهال المال من جميع طبقات الاميركيين ، بل ومن غير الاميركيين كذلك ، للتثمير في الاسهم والسندات الاميركية ، رغبة في جني الارباح العظيمة . واتسع نطاق الكرديه (فتح الاعتمادات) لثقة اصحاب البنوك بالربح ولكنهم عجزوا عن صدّ اصحابها (اموال الكرديه) عن المضاربة بها

وفي ذلك الاثناء بدأ تيّار الذهب يتجه الى اميركا من جميع البلدان

ففي خلال خمس سنوات من سنة ١٩٢٤ الى ١٩٢٩ ، ارتفع متوسط سعر الاسهم الصناعية في اميركا نحو ٢٠٠ في المائة مع ان الارتفاع في سعر الاسهم الصناعية في انكلترا لم يزد اكثر من ٢٥ في المائة في خلال المدة نفسها

هذا التضخم في اسعار الاسهم لم يكن لهُ ما يؤيده من اعمال الشركات — صاحبات الاسهم — وارباحها . ولكنها كانت مضاربة ، لا بدَّ ان تسفر عاجلاً او آجلاً ، عن خسارة طائفة من طوائف الناس الذين انساقوا في دُرْدُورها . والمضارب الذي دخل المعركة لجني الربح ، كان يستطيع ، ما زال التضخم في الاسعار قائماً ان يغامر ويربح ويصفي اعمالهُ ويخرج بالربح الذي حققهُ . ولكن كان محتوماً ان يجيءَ يوم يصحو فيهِ الناس من غفلتهم فيتحققون ان اسعار الاسهم تفوق قيمتها الحقيقية . واذا جاء ذلك اليوم ، لا بدَّ ان يكون ثمة اناس يملكون الاسهم وقد

ابتاعوها باسعار عالية املاً في ارتفاع الاسعار، فاذاهي في ايديهم تتدحرج ومعها كل مايملكون. ومع ذلك ظلّت سنة ١٩٢٩ سنة ارتفاع متواصل في اسعار الاسهم ، وطغى الجنون على صوت العقل فلم يصغ اليهِ احد. فمضت البنوك تفتح لزبائنها الاعتمادات الواسعة بضمانة أسهم قدّرت اسعارها باسعار السوق الجارية — وهي اسعار مزيَّفة كما بينّا . ومضى المضاربون يضاربون بدلاً من ان يصفّوا اعمالهم ويخرجوا بالارباح التي جنوها . وعلى ذلك مضت الاسعار في تحليقها رغماً عن دلائل الانهيار التي كانت ظاهرة لو كان ثمة من لهُ عينان للبصر فيبصر

ذلك ان اميركا بلاد زراعية كبيرة كما هي بلاد صناعية كبيرة . والاقبال الذي كان بادياً في الصناعات المختلفة وحركة السوق المالية ، لم يرَ لهُ اي أثر في حياة الفلاح . فنفقات المعيشة في اميركا لم تكن في سنة ١٩٢٩ اقلّ مما كانت في سنة ١٩٢٧ مع ان نفقات المعيشة في غير اميركا من البلدان الصناعية كانت آخذة في النزول تدريجاً . ومع ذلك فان اسعار الحاصلات الزراعية الاميركية كانت آخذة في النزول وفقاً لاسعار السوق العالمية . فنشأت من ذلك هوّة بين ما يربحهُ الفلاح وبين ما يتحتم عليهِ انفاقهُ ليعيش، وافضى ذلك الى حركة ، هي من قبيل الهجرة ، الهجرة من الريف الى المدن والمراكز الصناعية . هجرة الشاب الفلاّح من المزرعة التي لا تقوم باودهِ الى المراكز الصناعية حيث يظهر النشاط وتبدو دلائل الاقبال . فكثر بذلك عدد العاطلين من العمال ، لان ارباب الصناعة ، رغماً عن الاقبال في الاعمال الصناعية كانوا قد عمدوا الى كل الاسباب الحديثة — كالاستغناء بالآلات عن العمال ، والاندماج — لتوفير النفقات ، فبدت في الحياة الاقتصادية الاميركية ظاهرة من اغرب الظاهرات وهي ان زيادة العاطلين من العمال صحبت اعظم نشاطٍ صناعي شُهد في اميركا

يضاف الى ذلك ان العمال الذين ظلّوا يعملون في المصانع لم يجنوا ايّ ربح من هذا الرخاء المزيَّف ، لان الارباح كانت من نصيب المقامرين والمضاربين الذين عندهم مالٌ للتثمير . ويؤخذ من الاحصاءات الدقيقة ان اجور الفلاح لم تكن في سنة ١٩٢٩ اكثر مما كانت في سنة ١٩٢٦ وهذا الاختلاف افضى الى اضطراب في حياة اميركا الاقتصادية . ذلك ان استغلال مصادر الثروة الطبيعية والصناعية لا يمكن ان يزداد ، الاّ اذا اتسع نطاق الطلب اتساعاً يتفق مع زيادة العروض . وكان الاميركيون قد اخترعوا طريقة البيع بالتقسيط ، فكثر الطلب في البدء ، كثرة ظاهرة اكثر منها حقيقية ، فظنّ اصحاب المصانع ان الطلب على عروضهم قد زاد حقيقة وانهُ سيمضي في هذه الزيادة

ولكن ... ولكن الشعب الاميركيّ بوجهٍ عام ، فضّل كما ذكرنا ، ان ينفق معظم مالهِ في المضاربة بدلاً من ان ينفق جانباً وافياً منهُ على جماعات المستهلكين ليمكنهم من شراء العروض التي يقدمونها لهُ . فلما مضى زمن كافٍ على هذا التضارب ، افضى التضارب الى الانهيار

الازمة في اوربا

اما وقد بيّنَّا نشأة الازمة في اميركا فلنحاول ان نتتبع آثارها في اوربا

لما اخذت اسعار الاسهم الصناعيــة في اميركا في الارتفاع ، امسك الاميركيون اموالهم الفائضة عن تثميرها في اوربا. بل اخذ تيَّار المال الاوربي يتجهُ الى اميركا لتثميرهِ فيهــا ، لجني الارباح العظيمة التي تجنى من ابتياع الاسهم المذكورة . ولكن الاوربيين كانوا مدينين لاميركا بمبالغ كبيرة من المال استدانوا بعضها في اثناء الحرب ، وبعضها بعد الحرب فافضى ذلك الى رفع سعر القطع في البنوك الاوربية ، وتضييق نطاق الكرديه على التجار . اي ان النقود زادت قيمتها ، فهبطت اسعار العروض وكان من نتيجة ذلك زيادة العمَّال العاطلين . ثم ان الذهب الذي كان قد ارســل من اميركا قبل ذلك لتثميره في اوربا وغيرها من البلدان بدأ يتسرب من جديد عائداً الى اميركا فاصبحت بذلك اوربا المتوسطة ومقدار الذهب في خزائنها قليل لا يكفي لتغطية اوراق النقد والاعتمادات الكثيرة . وادهى من ذلك انهُ رغم سقوط ثمن العروض في اوربا ارتفعت نفقات الانتاج لقلة المقادير التي تصنع، ولارتفاع الفائدة على المال هذا بوجهٍ عام . فلنلق الآن نظرة على المانيا

كانت المانيا بعد اعادة تنظيم ماليتها — على اثر سقوطها ذلك السقوط الذريع — ووضع برنامج يونغ لتسوية مال التعويض ، قد عنيت باقامة صناعتها على اساس آلي حديث ، وهذا اقتضى انفاق رؤوس اموال طائلة . ولما كانت المانيا قد خسرت معظم رأس المال الذي تملكهُ في دور التضخم النقديّ ، لم يكن في استطاعتها أن تنفق على بناء صناعتها بناءً جديداً وعلى تسديد اموال التعويض لمدينيها ، الاّ بقروض تعقدها في الخارج . وفي خــلال اربع سنوات بين ١٩٢٤ و١٩٢٨ اقترضت المانيا في الخارج — ومعظم ما اقترضتهُ كان من اميركا — مبالغ كبيرة تفوق المال الذي دفعتهُ تسديداً للمطلوب منها من مال التعويض . فقد بلغ ما اقترضتهُ المانيا في خلال هــذه المدة نحو ٧٥٠ مليون جنيه ذهب . وهو ضعف ما دفعتهُ من مال التعويض في خلال المدة نفسـها . ويقدَّر ما اقترضتهُ من اميركا بنحو ٤٠٠ مليون جنيه ذهب . ولولا هذه القروض لما استطاعت المانيا أن تسدّد ما عليها من مال التعويض ولا أن ترمم صناعاتها وتبنيها بناءً جديداً

كان هذا قبل سنة ١٩٢٩ . فلما بلغت حركة الاقبال في الاسواق المالية الاميركية اعلى ذراها في سنة ١٩٢٩ امسك الاميركيون ايديهم عن اقراض المانيا ، فواجهت المانيا الخراب الاقتصادي، الاّ اذا امكنها ان تجد مصدراً آخر تستدين منهُ المال . وكان معظم المال الذي اقترضهُ الالمان من الاميركيين ديوناً طويلة الآجال انفق اكثرهُ في بناء الصناعات وغيرها من المرافق العامة . فلما امسك الاميركيون ايديهم تعذّر على الالمان ان يعقدوا قروضاً طويلة الآجال ،

فاضطروا ان يعقدوا قروضاً قصيرة الآجال بواسطة البنوك الالمانية . فأقبل اصحاب البنوك في انكلترا وهولندا وسويسرا وغيرها على تقديم هذه القروض القصيرة الآجال للألمان بفائدة عالية، ليمكنوهم من اجتناب الانهيار الذي كان يهددهم

على ان الالمان اضطرّوا كذلك الى اتخاذ ما يلزم اتخاذهُ من الوسائل لكي يقللوا وارداتهم تخفيفاً لديونهم التجارية — وزيادة صادراتهم ليسددوا بالفرق بين الصادرات والواردات جانباً من هذه الديون — فأفضى كل ذلك الى زيادة العاطلين في المانيا وخفض مستوى المعيشة. ولكن الضربة القاتلة كانت ان حياة المانيا الاقتصادية في تلك الفترة كانت متوقفة على اموال اقترضت لآجال قصيرة ، وهي عرضة لعدم التجديد ، مع انهم كانوا يستعملونها في اغراض لا تؤتي ربحاً الاَّ بعد زمن طويل

فلما انقضت فترة الرخاء في اميركا وانهارت الاسعار ، اصبحت الحال في المانيا على شفا الجرف . فأحجم الاميركيون عن ادانة المال في الخارج لشدة الصدمة التي اصيبوا بها، ولعدم ثقتهم في تطور الحالة في الغد . زد على ذلك ، ان طائفة من البنوك الاميركية نفسها كانت في موقف حرج جدًّا ، لانها كانت قد ادانت عملاءها اموالاً بضمانة اسهم ذات اسعار متضخمة. وهذه البنوك كانت ميّالة الى استرجاع ما لها من الاموال في الخارج في اول فرصة ممكنة

هذا الموقف الذي وقفتهُ اميركا بعد الانهيار المالي ، أثَّر في المانيا مباشرة لانها اصبحت لا تستطيع ان تعقد قروضاً في اميركا بل لا تستطيع ان تحتفظ بكل ما كانت استدانتهُ منها من قبل . وأثر كذلك في المانيا اثراً غير مباشر . ذلك ان الاميركيين لما شرعوا يستردّون اموالهم شرعوا يستردونها من كل البلدان على السواء ، فأصبحت هذه البلدان لا تستطيع ان تعقد لالمانيا قروضاً ما ، لتتخطى بها الازمة

كذلك نرى ان الحالة الاقتصادية في المانيا ، كانت تزداد حرجاً في سنتي ١٩٣٠ و ١٩٣١ رغم ما اتخذته الحكومة من الوسائل الشديدة لانقاص الواردات وزيادة الصادرات على حساب خفض مستوى المعيشة . ولكي يزيد الصانع الالماني صادراتهِ خفض اسعاره تخفيضاً كبيراً — فأغضب هذا الدول المزاحمة لالمانيا — ثم حاول ان يستردَّ ما يخسره في هذا التخفيض، بزيادة اسعاره في كل ما يبيعهُ في المانيا نفسها ، فارتفعت بذلك نفقات المعيشة في المانيا وهبط مستواها . وكان الالمان قد اعادوا بناء صناعاتهم لاعتقادهم بأن السوق العالمية آخذة في الاتساع ، والربح لا يجنى في الصناعات الجديدة التي تقتضي نفقات طائلة ، الاّ اذا كان مقدار ما تصنعه من البضائع كبيراً ، فلما وقعت الواقعة في السوق المالية الاميركية ، انكمشت السوق العالمية ، وأصبحت الصناعات الالمانية المنظمة ابدع تنظيم ، لا تدرُّ من الربح الاَّ اليسير ، اذا درَّت ربحاً على الاطلاق

فلما زادت البطالة في المانيا زيادة كبيرة في بدء سنة ١٩٣١ للاسباب التي تقدم ذكرها ، زادت نفقات الحكومة الالمانية على العمال العاطلين قياماً بأودهم الضروري ، ففقدت الميزانية توازنها ، وبدأت الاموال تتسرب من المانيا ، فهددت بالافلاس . ولولا موراتوريوم هوفر ، الذي اتفق بموجبه على وقف دفع التعويضات وديون الحرب سنة كاملة ، ولولا الاتفاق الذي تلاه ، وبموجبهِ اتفق اصحاب البنوك على امهال المانيا ستة اشهر تتجدد ، في دفع ديونها التجارية القصيرة الآجال لافلست المانيا وانهار نظامها الاقتصادي

ولكن موراتوريوم هوفر ، والاتفاق الخاص بالديون التجارية كانا وسيلتين مؤقتتين لعلاج الحالة ، مع ان الاسباب التي افضت الى هذه الحالة الحرجة كانت تمتدّ الى اصول عميقة في النظام الاقتصادي الذي تلا الحرب العامة ، ولا يمكن ان تزال بعلاج مؤقت على الاطلاق. اضف الى ذلك ان القلق ظلَّ يخامر النفوس ، لأن احداً لم يكن يدري ما تستقرُّ عليهِ الحال بعد انقضاء أمدِ هذين الاتفاقين . ثم ان موراتوريوم هوفر ضاع جانب من أثرهِ بالعراقيل التي وضعت في طريقهِ . وعلى ذلك ظلت الحالة في المانيا حرجة كل الحرج، فاتخذت الحكومة اشدّ ما يمكن اتخاذهُ من الوسائل للاحتفاظ بموازنة الميزانية ، فأقلق كل هذا نفوس الشعوب الالمانية ، ونشأ عن هذا القلق امتداد نفوذ الحركتين الشيوعية والهتلرية في المانيا

الازمة في بريطانيا

في خلال المدة التي وقفت فيها المانيا على شفا الافلاس ولم تنج منهُ الاَّ باعلان موراتوريوم هوفر والاتفاق الخاص بالديون القصيرة الآجال ، امتدت الازمة الى انكلترا واخذتها بالخناق

وكان النظام الاقتصادي الانكليزي معرضاً للخطر ، لان لندن كانت ذات مقام ممتاز في عالم المعاملات المالية . كانت بنوك انكلترا قد ادانت الاموال في كل انحاء الارض، وكانت المانيا في مقدّمة البلدان التي استدانت من انكلترا ، رغم ما بدا في افق الحياة الاقتصادية الالمانية من نذر الانهيار. ولكن الماليين البريطانيين لم يسلفوا هذه المبالغ الطائلة من مالهم الخاص ، لان تقلُّص التجارة البريطانية ونقص الارباح التي يجنيها المتمولون البريطانيون من اموالهم المثمرة في اربعة اقطار المعمورة ، تركاهم من دون اموال كافية يدينّونها لالمانيا وغيرهم . لذلك عمد بنك انكلترا الى جذب الاموال الى انكلترا ، برفع سعر القطع ، فكان معظم المال الذي ورد على لندن بهذه الطريق ودائع قصيرة الآجال ، ومن هذه الودائع اخذت بنوك انكلترا تسلّف المانيا . ولكن هذه الودائع القصيرة الآجال ، كانت عرضة للاسترداد ، بعد انذار قصير الاجل وهنا موطن الخطر

ذلك انهُ لما اخذت الازمة العالمية تستفحل ، تردّدت اصداء استفحالها في سوق لندن المالية . ففي الناحية الواحدة كان متعذراً على البريطانيين ان يستردُّوا ديونهم القصيرة الآجال

من المانيا ، كما أنهُ كان يصعب عليهم أن يستردُّوا ديونهم القصيرة الآجال من استراليا وجمهوريات اميركا الجنوبية ، لضيق نطاق التجارة وهبوط أسعار العروض . وفي الناحية الأخرى هرع الذين كانوا قد أودعوا أموالهم في لندن ودائع قصيرة الآجال الى استردادها وفقاً لحاجتهم اليها . كذلك سحب الاميركيون جانباً كبيراً من ودائعهم في لندن ، على أثر الانهيار المالي في بلادهم ، واقتفى أثرهم الفرنسيون ، فانهم شرعوا يستردُّون أموالاً كانوا قد أودعوها في لندن قبل تثبيت سعر الفرنك

صُدم الانكليز بهذا السحب المتوالى ، لانهم لم يستطيعوا أن يقابلوهُ بسحب أموالهم في البلدان الأخرى ، لسد الثغرة في مقام لندن المالي . وما لبثت الحال أن خلقت في أذهان المفكرين في كل انحاء العالم شكوكاً في سلامة النظام المالي البريطاني ، وريباً في امكان بريطانيا البقاء على قاعدة الذهب التي عادت اليها سنة ١٩٢٥

ازاء هذه الحالة الباعثة على القلق عيّن البرلمان لجنة ماي فاخرجت تقريرها وعزت فيهِ العجز في الميزانية البريطانية ، الى هبوط دخل الحكومة لهبوط دخل الشعب البريطاني ، والى زيادة الانفاق على العمال العاطلين، وكلاهما من آثار الازمة العالمية . والظاهر أن الغرض من هذا التقرير كان حمل حكومة العمال الثانية — وكانت في دست الحكم حينئذٍ — على اتخاذ التدبيرات اللازمة للاقتصاد . فرأى فيهِ المراقبون لبريطانيا من الخارج ما يبعث على القلق ، فنجم عن ذلك التمادي في سحب المال من لندن

فلما واجه بنك انكلترا ، هذه الحالة المفاجئة . أدرك مديروهُ أنهُ اذا مضى أصحاب الودائع في سحب ودائعهم من انكلترا ، لم يكفِ كل ما في خزائنهِ من الذهب لذلك، فعمد الى عقد قروض في بنك فرنسا وبنك الفدرال رزرف في نيويورك . فاستدان في يوليو سنة ١٩٣١ خمسين مليوناً من الجنيهات — تدفع ذهباً — ولكن لم يلبث أن أنفق هذا المبلغ العظيم في بضعة أسابيع . هنا أنبأ القائمون على ادارة بنك انكلترا حكومة العمال بموقف البنك الحرج وقالوا لها أمامنا طريقان ، اما الخروج عن قاعدة الذهب أو المضيّ في الاستدانة ، لتسديد ما يطلب سحبهُ من المال من لندن . وان الاستدانة لا تتمُّ الاّ اذا ضمنت الحكومة البريطانية المبالغ التي يستدينها البنك

ونحن نرى الآن أن الحال كانت تقتضي — من وجهة النظر البريطانية — أن تخرج انكلترا عن قاعدة الذهب لما بدأ أصحاب الودائع يسحبون ودائعهم لتصدَّ سحب الأموال من لندن، بما يتعرّض لهُ الساحبون من الخسارة ، وهي الفرق بين الذهب وبين ما ينخفض اليهِ سعر الجنيه الاسترليني . ولكن وزير المالية في حكومة العمَّال ، المستر سنودن — وهو الآن الفيكونت سنودن — كان من المتمسكين بقاعدة الذهب ، تمسكاً يكاد يكون أعمى . وبما

لهُ من النفوذ ، قرّرت حكومة العمال ، بعد ما اطلعت على حالة بنك انكلترا ، أن تمضي في استدانة الاموال في باريس ولندن ، وكانت محاولة يائس

ولكن أصحاب البنوك في فرنسا ونيويورك صرّحوا للحكومة البريطانية ، أنهُ رغماً عن ضمانها للاموال التي تستدان ، لا يسلّمون بتقديم المبالغ المطلوبة الاّ اذا اتخذت الحكومة ما يلزم لموازنة الميزانية ، وعينوا في شرطهم نقص المال الذي تنفقهُ الحكومة على العاطلين من العمال. وقد أنكر بعضهم بعد ذلك أن هذا الشرط كان من الشروط التي ذكرت . ولكن الواضح على ما يقولهُ المستر كول في كتابهِ[1] ....ان الشرط صحيح ، لأن المستر مكدونلد أقرّ بذلك في الاجابة عن سؤال طرح عليهِ في مجلس النواب البريطاني

ومحاولة وضع هذا الشرط على الحكومة ، كان سبباً لانقسام حكومة العمال ، لأن معظم أعضائها رفضوا أن يعمد الى توفير المال من هذه الناحية ، لموازنة الميزانية ، مع أنهم كانوا مستعدين لمحاولة موازنتها بطرق أخرى. والغريب ، أن حكومة العمال لم تنظر قط ، في المسلك الآخر الذي كان يمكنها أن تسلكهُ وهو الخروج عن قاعدة الذهب ولعلَّ ذلك عائد الى مكانة المستر سنودن وآرائهِ من نفوس زملائهِ

فلما وجد المستر مكدونلد أنهُ على خلاف مع معظم زملائهِ في الوزارة ، قرّر أن يتخلص منهم فقدّم استقالة الحكومة الى الملك جورج ، فطلب اليهِ الملك أن يؤلف وزارة ائتلاف أو وزارة قومية فاشترك فيها المحافظون وبعض الاحرار ومشايعو المستر مكدونلد من العمال

أما الوزارة القومية فلم تعمد في الحال الى الخروج عن قاعدة الذهب ، بل بدأت تفاوض البنوك في باريس ونيويورك لاقتراض مبلغ ٨٠ مليوناً من الجنيهات ، تدفع ذهباً عند الاستحقاق

ولكن تتابع الحوادث كان قد القى الذعر في النفوس ، فزاد المسحوب من الودائع المالية في لندن ، وصحب ذلك أن بعض الانكليز نفسهم بدأوا يخرجون من بلادهم جانباً من أموالهم الخاصة . ولذلك ما كادت الحكومة القومية ، تتسلم زمام الأمور ، حتى وجدت نفسها مرغمة على الخروج عن قاعدة الذهب وهي خطوة كان يجب أن تتخذ — من وجهة النظر الانكليزية — قبل ذلك ببضعة شهور

وكان لخروج بريطانيا عن قاعدة الذهب ، أثر كبير في جميع بلدان العالم . ذلك أن بلداناً كثيرة تبعتها وخرجت عن قاعدة الذهب فلم يبق في العالم في آخر سنة ١٩٣١ الاّ الولايات المتحدة الاميركية وفرنسا وبلجيكا والمانيا وايطاليا وهولانده وسويسرا جارية عليها . وكان من أثر خروج هذه البلدان عن قاعدة الذهب ، أن رخصت أسعار صادراتها في البلدان التي ما زالت محتفظة بها . فكتابٌ يطبع في انكلترا وثمنهُ أربع شلنات كان يباع في أميركا

(١) An Intelligent Man's Guide to World Chaos وقد كان جل معتمدنا عليه في اعداد هذا الفصل

قبل خروج انكلترا عن قاعدة الذهب بما يقابل الاربع شلنات وهو ريال . أما بعد خروجها فصار ثمن الكتاب في اميركا بالريالات أقلّ مما كان . أضف الى ذلك أن البلدان التي خرجت عن قاعدة الذهب أصبحت تفضل أن تشتري من البلدان المماثلة لها ، لان الشراء من البلدان المحتفظة بقاعدة الذهب ، أغلى بنسبة سقوط الجنيه الاسترليني عن الجنيه الذهب . فكتاب ثمنهُ في انكلترا ٤ شلنات ندفع ثمنهُ هنا ٢٠ قرشاً صاغاً مثلاً . ولكن كتاباً ثمنهُ في اميركا ريال ، وهو معادل اسماً لاربعة شلنات ، لا نستطيع أن نبتاعهُ الآن باقل من ثلاثين غرشاً

وكانت نتيجة ذلك أن زادت الازمة استحكاماً في اميركا ، لتعذر مزاحمتها للبلدان الخارجة عن قاعدة الذهب في ميدان تجارة الصادرات

وكانت انكلترا تؤمل أن تفوز بمركز ممتاز في تجارة الصادرات بعد خروجها عن قاعدة الذهب وفعلاً انتعشت هذه التجارة بعض الانتعاش ولكن لما كثر خروج البلدان التجارية مثلها عنه لم يبلغ الانتعاش المبلغ الذي كان منتظراً لهُ

وكان من أثر خروج انكلترا عن قاعدة الذهب ، ان الحالة في المانيا ازدادت حرجاً . ذلك ان المانيا كانت مقيدة بدفع مال التعويض ومال الديون التجارية ، ذهباً ، فلذلك كان لا بدّ لها من بقائها على قاعدة الذهب . ولكن هذا البقاء قيّد تجارة صادراتها بقيود ثقيلة . ومع ذلك فليس لالمانيا طريقة لتسديد ديونها الاّ بالفرق بين صادراتها ووارداتها. ولكنها لم تستطع ان تفعل ذلك ، الاّ برمي بضائعها في اسواق العالم الضعيفة بأسعار رخيصة ، ولتعويض هذا الرخص رُفعت الاسعار في السوق الالمانية ، فزادت نفقات المعيشة زيادة فاحشة ، واقتصد الناس جهدهم ، فقلّ ما تنتجهُ المصانع ، ونتج عن ذلك زيادة العمال العاطلين

وما حدث في المانيا ، حدث في اوستراليا والارجنتين والبرازيل وبلاد شيلي ، مع ان هذه البلدان لم يكن عليها اموال تعويض تدفعها . ولكنها كانت مدينة بمبالغ كبيرة من المال فوائد على ديون وأرباحاً على اسهم . ولما كانت هذه البلدان تعتمد على اصدار المواد الخام والمواد الغذائية ، ولما كانت اسعار هذه المواد قد هبطت هبوطاً اكثر من هبوط اسعار البضائع المصنوعة ، وجدت هذه البلدان ان ديونها قد زادت زيادة فاحشة لما حاولت ان تسددها بالحاصلات التي تصدرها . ولكي تسدّد ديونها ، عمدت الى تحديد وارداتها باقامة الحواجز الجمركية ، وبعضها عمد الى منع استيراد اصناف معيّنة من البضائع ، او منع خروج المال من بلادها كما فعلت البرازيل . وهكذا اقيمت في وجه التجارة بين البلدان المختلفة حواجز منيعة ، زادت الازمة تفاقماً واستحكاماً

يضاف الى كل هذه الويلات ويل سقوط ثمن الفضة ، فنزلت مقدرة الصين الشرائية الى النصف . ثم ان الحرب الاهلية في الصين والمقاطعة في الصين والهند لبضائع البلدان الصناعية

كانت عاملاً آخر في انقاص مقدرة العالم على الشراء ؛ ومن اكبر البلدان التي اصيبت بهذا العامل الاخير بريطانيا واليابان

ديون الحرب ومال التعويض

كان المتوقع ان نجد في خلال هذه المدة التي امتدت فيها الازمة فوق كل بلدان العالم وبسطت فوقهُ رواق العطل عن العمل والفقر والجوع، ان نجد سعياً جديًّا حكيماً لحل مشكلتي الديون والتعويضات حلاً معقولاً. فمن البلدان الخمسة التي لها في هاتين المشكلتين اكبر نصيب — اي انكلترا وفرنسا وايطاليا والمانيا والولايات المتحدة — رأينا ان المانيا اشرفت على الافلاس ولم تنج منهُ الا بعلاج مؤقت، وباتخاذ اشد الوسائل للاحتفاظ بموازنة ميزانيتها، وانها دائماً تحت رحمة دائنيها، فلم يكن في وسعها ان تخطو خطوة ما نحو الحل المنشود. والواقع انهُ لم يكن في وسع المانيا الا انكار كل ديونها والتزاماتها الخارجية، ولكن هذا العمل من شأنهِ ان يفضي الى ازمة عالمية فينهار النظام الاقتصادي الالماني وقد يصحبهُ في الراجح ثورة في المانيا

اما بريطانيا، التي صرحت انها موافقة على الغاء الديون والتعويضات بجرة قلم واحدة، فلم تستطع ان تجازف بذلك من جديد، فراراً من غضب فرنسا واجتناباً لازمة مالية جديدة

اما فرنسا فظلت في مطلع الازمة غير متأثرة بها، والواقع انها لم تشعر بفعلها الا في بدء سنة ١٩٣٢، ولذلك رأيناها معرضة عن اجابة مطالب الالمان، بل انها لم تقبل تخفيض التعويضات، الا اذا رضيت الولايات المتحدة الاميركية ان تتنازل عمَّا لها من ديون الحرب

على ان الازمة في اميركا كانت لا تزال آخذة بخناق الامة، فكان الرأي العام الاميركي غير راضٍ عن اية محاولة الغرض منها الغاء ديون الحكومات الاوربية او نقصها. ومع ان الحكومة الفدرالية في وشنطن كانت واقفة على حرج الموقف العالمي لم تجرؤ على القيام باي عمل من هذه الناحية خوفاً من الفشل الذريع في انتخابات الرآسة التي تمت في ٨ نوفمبر الماضي

فلما اعلن موراتوريوم هوفر وعقد الاتفاق الخاص بديون المانيا التجارية القصيرة الآجال تنفس الناس الصعداء قليلاً لاجتناب الانهيار الاقتصادي الذي بدت نذرهُ في الافق. ولكن الحكومات القائمة لم تغتنم هذه الفرصة للسعي الى حل مشكلة التعويضات الالمانية حلاً موفقاً مع انهُ كان يتعذر ان تجد حينئذٍ من يعتقد ان في امكان المانيا ان تستأنف دفع مال التعويض بعد انقضاء موراتوريوم هوفر في سنة ١٩٣٢، وانهُ اذا لم تستأنف المانيا دفع مال التعويض فالراجح ان تعجز دول الحلفاء عن تسديد اقساط دينها المستحقة للولايات المتحدة الاميركية

ومع رسوخ هذا الاقتناع العام، ظلت المسألة معلقة، يؤجل النظر فيها شهراً بعد شهر، حتى طلبت المانيا في آخر سنة ١٩٣١، بموجب مشروع يونغ، الى الحلفاء ان يعيدوا النظر في

قدرتها على الدفع فعينت لجنة من خبراء الحلفاء للبحث في الموضوع ، فأيدت اللجنة دعوى المانيا بانها عاجزة عن الدفع الآ بعد اعادة النظر في المشكلة بحذافيرها . وعلى أثر هذا التقرير جدّد الاتفاق الخاص بالديون التجارية القصيرة الآجال ، وهو اتفاق بين البنوك . ولكن حكومات الحلفاء عجزت عن الوصول الى اتفاق في الموضوع . وعلى ذلك تأجل مؤتمر لوزان الذي ، دعي لمعالجة المسألة

* * *

وكان موقف الانكليز اولاً الدعوة الى الغاءٍ عام يتناول التعويضات والديون. ولكن الفرنسيين — ونصيبهم من التعويضات اكبر من الاقساط التي عليهم ان يسدّدوها لانكلترا واميركا — لم يسلّموا بطلب الانكليز . واشتدّ الضغط الداخلي على الحكومة الالمانية فاعلن فون بابن باسمها انها لن تستطيع ان تستأنف دفع التعويضات في سنة ١٩٣٢ ولا في اي وقتٍ بعدها

وكان الاميركيون من عهد الرئيس ولسن ، يثبتون ويؤكدون ان لا علاقة بين مال التعويض وديون الحرب . ولكن موراتوريوم هوفر جعل هذه العلاقة موجودة وجوداً عمليًّا وان انكرها الاميركيون من الناحية النظرية. ثم ان الرئيس هوفر اشار في حديثهِ مع رئيس وزراء فرنسا — المسيو لاڤال — الى انهُ اذا اتفقت دول اوربا على حلّ مشكلة التعويضات، فعندئذٍ يتخذ الكنغرس الاميركي ما يجب للاشتراك في حل مشكلة التعويضات والديون في سبيل عودة الرخاء الاقتصادي . ففهم ذلك في اوربا على انهُ اذا حلّت مشكلة التعويضات كانت اميركا مستعدّة لنقص المطلوب لها من ديون الحرب ، وعلى ذلك اجتمع مؤتمر لوزان في اوائل الصيف الماضي (يونيو) ووصل بعد اخذ وردّ طويلين الى الغاء التعويضات وجعل المطلوب من المانيا مبلغاً معيّناً قدره ٢٠٠ مليون جنيه ولكنهُ جعل ابرام هذا الاتفاق متعلقاً بنتيجة المفاوضات مع اميركا في مسألة ديون الحرب. فالمسألة في آخر ١٩٣٢ كانت كما يلي:

ليس ثمة اي امل في ان تستأنف المانيا دفع مال التعويض اذا لم يبرم اتفاق لوزان

وليس ثمة امل ، في ان تلغي اميركا المطلوب لها من الديون بجرة قلمٍ واحدة[1]

وليس ثمة امل في ان تلغي الدول الاوربية التعويضات في حين ان ديونها لاميركا لا تزال هي هي . وقد رأينا كيف امتنعت فرنسا في دسمبر الماضي وسقطت وزارة هريو

ولعلّ المؤتمر الاقتصادي العالمي المنتظر عقده قريباً يعالج هذه المسائل الخطيرة

(١) بعد كتابة هذه المقالة وردت الانباء من اميركا تفيد ان المستر روزفلت الرئيس المنتخب طلب الى المستر ستمسون وزير خارجية الرئيس هوفر ان يدعو حكومة بريطانيا الى ايفاد مندوبين للمباحثة معه في مسألة الدين البريطاني الاميركي بعيد تقلده زمام الرآسة في ٤ مارس سنة ١٩٣٣

بعد مائة سنة

الحب والزواج والتعليم

والعلم والاقتصاد والمواصلات

لطائفة من اكبر الكتاب والمفكرين والعالميين

الحب

للدكتور الفرد ادلر السيكولوجي النمسوي المشهور

يدلُّ ما نشهدهُ من كثرة حوادث الطلاق في بلدان العالم وشيوع قضاياهُ ، وما نعانيهِ في الحب من الالم، ان الزواج عمل لا بدَّ ان يقوم بهِ اثنان. ولا مندوحة للانسانية عن ان تتعلم هذا الدرس رغبة في تقويم شؤون الحبّ والزواج في المستقبل

ولا ريب في ان الذين تمرنوا من صغرهم على التعاون مع الناس ، اسهل عليهم ان يحلّوا مشكلات الحب . فالموقف الصحيح نحو الحبّ يبدو لنا في مقدرة كل انسان على عقد اواصر الصداقة مع الاخوان والاحتفاظ بها ، والتزام عمله (لان كل عمل يقتضي تعاوناً) والمواظبة عليهِ ، وان يكون اكثر اهتماماً بمصلحة المحبوب منهُ بمصلحة نفسهِ

لقد اصبح الناس في هذا العصر اعمق ادراكاً لحقيقة اجتماعية اساسية هي ان نجاح كل انسانٍ وسعادتهُ ، متوقفان على ارتقاءِ الانسانية قاطبة . فبلوغ مستوًى عالٍ من الحياة يقتضي ان ننظر الى كل مشكلةٍ من مشكلاتنا الشخصية على انها مشكلة النوع البشري بأسرهِ. واذن فيصحّ ان نقول ان مصير الانسانية في يدي كل رجل وامرأة. فالحبّ ليس علاقة خاصة وشعوراً بالسعادة لا يتعدى الحبيبين ، بل هو عمل غرضهُ رفع مستوى الحياة ، ولذلك فهو عمل يقوم بهِ اثنان معاً . وهذا العمل ، لا يمكن ان يقضى على وجهه الصحيح الاَّ اذا انتفى منهُ من البدءِ كلُّ ريبة لاحد الزوجين في الآخر ، وكل احتجاج لاحدهما على الآخر وعلى مقتضيات الحب . ولا مندوحة فيهِ عن الولاءِ المتبادل والثقة والمصلحة

والحب في ايامنا سوف يصبح مشكلة كثيرة التعقيد لانهُ يواجهنا بمطالب آخذة في الازدياد من ناحية واحدة ، ولاننا من الناحية الاخرى ، اذا وضعنا الحبَّ على مستوى اعلى

من مستواهُ السابق ونفحناهُ بشعورٍ اسمى ، اصبح عملاً يقتضي استعداداً للقيام بهِ قياماً صحيحاً اعظم من الاستعداد الذي كان يقتضيهِ في الزمن القديم . ولعلَّ سبباً من الاسباب الكثيرة الباعثة على ذلك ، ان ولادة الاولاد فقدت في بعض البلدان ، جانباً كبيراً من اثرها كعامل يبعث على الزواج ، ولان تدبير شؤون البيت اصبح لا يحسب عمل المرأة المحتوم

جاء زمن كانت فيهِ كثرة الولد لا ندحةعنها لفوز الانسان في معترك الحياة. ثم ان متوسط طول الحياة الانسانية كان نحو ثلاثين سنة او اقل من ذلك. وكان معدل الوفيات بين الاطفال عالياً جدًّا . فاتجاهُ الحبّ والزواج كان الى اخلاف النسل الكثير للقيام باعباء الاعمال الشاقة التي تقتضيها الحياة الاجتماعية في فجرها. وما اتسع للمرأة من الوقت بعد الحمل والولادة والرضاعة والتربية كانت تنفقهُ في تدبير شؤون المنزل. فالتعاون في الزواج كان لا يفسح الاَّ مجالاً ضيقاً كلَّ الضيق للاعراب عن الحب وخبايا النفس ، وأما الباقي من الوقت فكان ينفق في العمل . ولا ريب في ان المجال لم ينفسح في تلك الازمنة لانماءِ عواطف الحب

على ان المرأة في عصرنا قد اخذت تتحرَّر من العمل الشاق في المنزل. ثم ان ارتقاء الطب والصحة العامة قد جعل متوسط طول الحياة الفردية في البلدان المتمدنة نحو خمسين سنة . ومعدّل المواليد فيها يفوق معدّل الوفيات . فالانسانية لا تشعر الآن بما كانت تشعر بهِ حينئذٍ من ضرورة التناسل غير المحدود . ثم ان ارتقاء الصناعة جعل تدبير شؤون المنزل امر سهلاً لا يحتاج الى انفاق وقت طويل . فتحرُّر المرأة من تدبير شؤون المنزل بارتقاء الصناعة ، جعل للمرأة مقاماً جديداً ازاء مشكلة الحب . انها والرجل يواجهان السؤال الآتي: هل نطلب في حياتنا الزوجية مزيداً من الترف او مزيداً من الصداقة. فاذا كان استعداد الزوجين للاجابة عن هذا السؤال استعداداً صالحاً كان الجواب الهادي لهما سبيل الحياة : الصداقة والمساواة العادلة

ان فهم الحياة الانسانية ومعناها ، وادراك مغزى السعادة في الحياة الاجتماعية ، يمكناننا من فهم السعادة المطلقة . فاتساع نطاق المعرفة وزيادة الشعور بالتبعة الاجتماعية ، سوف يُفرَضان علينا فرضاً لشدة الحاجة اليهما. اما اولئك الذين يهبطون بمستوى الحب ، ويجربون التجارب بهِ ، ويحسبونهُ أُلهية ، فقضيٌّ عليهم بالخيبة . ان رغباتهم هذه ناشئة عن شعورهم بضعفهم ونقصهم . فالحب في المستقبل سوف يكون مبنيًّا على الشعور بالتبعة الاجتماعية ، والمساواة، والولاء المتبادل، واتخاذ قرار لا انفصام له

الاقتصاد

لستيوارت تشايس . الكاتب الاقتصادي الاميركي . مؤلف « الانسان والالات

إما ان يكون الاوربيُّ والاميركيُّ عائشاً في سنة ٢٠٣٣ كما كان اسلافهما يعيشون في القرن السابع عشر ، او يكونان قد اصبحا لا يعرفان الهمَّ في ما يرتبط بمشكلاتهما الاقتصادية . ولو

وجدتُ من يراهنني لراهنت على تحقيق الشق الثاني

انني لا ارى انهُ في وسع العالم ان يمضي متخبطاً ، تخبطهُ الحاليّ ، في الهوّة التي تفصل بين المقدرة على الانتاج والمقدرة على الشراء . فاما ان تردم الهوة سريعاً وتجتنب الشرور الناشئة عنها واما ان نعود الى الحياة التي كانت فيها القرية تكتفي بذاتها

وعندي ان الهوّة سوف تردم قبل فوات الوقت. فيحلُّ الشبّان يفيضون نشاطاً وحماسة محلَّ الشيوخ انهكتهم الاعمال. فتلغى الديون او تسوّى وينطلق تيّار الشراء لايعرف الحدود، ويربط بين التوسع في الانتاج والتوسع في الاستهلاك، وتمهّد الطريق لاقتصاد الوفر والسعة. انني لااستطيع ان اعيّن الزمن الذي يستغرقهُ هذا الانتقال ، ولا الآلام التي يقتضيها، وانما احس اننا على عتبة عصر ينتهي فيهِ التقلّب العاصف الى استقرار واتزان

وأهم ما تتصف بهِ سنة ٢٠٣٣ انها لن تعاني مشكلة اقتصادية من الطبقة الاولى . لأن البشر يكونون قد نبذوا في سلة المهملات الفقر ،وسوء التغذية ،والاحياء القذرة، والنزاع بين العامل والمستأجر ، والعطل من العمل ، وزيادة المنتج عن المستهلك،والتناحر على الاسواق، والمضاربة في الاقوات والمواد الضرورية ، والخوف من التقلقل الاقتصادي

اما النظام الاقتصادي الذي انتفت منهُ المساوىء المتقدمة فيكفل مستوًى عالياً للعيش سوف يقوم على القوة الكهربائية ، تولّد في بضع محطات مركزية قريبة من مناجم الفحم ومساقط المياه والشواطىء حيث يكثر المدُّ والجزر، وتوزَّع منها في شباك من الاسلاك تغطي وجه الارض

ثم لا بدَّ من انشاء مجلس تنظيمي عالمي ، له فروع محلية ، فيتعاون مع قوة لها سلطة اقتصادية عالمية ، تعاوناً من شأنهِ الاحتفاظ بمصادر الثروة الطبيعية من التبديد ، من دون ان تمنع عن المصانع الموادالالازمة لانتاجها . اما التزاحم الاقتصادي فقد يسمح بهِ في مناطق محدودة. اما مصادر المواد الرئيسية فلايسمح بطرحها في حلبة المزاحمة بل يسلّم زمامها للمهندسين منعاً لتثميرها في مصلحة فرد معين او جماعة معينة . لذلك نرى ان همّ الانسان العادي في سنة ٢٠٣٣ لن يكون منصرفاً الى العناية بالمشكلات الاقتصادية لانها تكون قد حلّت حلاً شاملاً

اما الطاقة الكهربائية فسوف تكون رخيصة كل الرخص. فيتعين على السلطة الاقتصادية العالمية ان تنقص ساعات العمل كلما استنبطت آلة تغني المعمل عن العمال . فيجتنب بذلك العطل من العمل . ثم ان المعمل الكبير سوف يزول فتحل محله معامل ريفية صغيرة يختصُّ كل منها بصنع جزء من آلة معينة وترسل هذه الاجزاء كلها الى مصنع خاص لجمعها وبناء الآلة الخاصة منها . وبذلك يقضى على جانب كبير من مساوىء الصناعة الحديثة كالضجة المزعجة ، والهواء المثقل بالهباب ، والنور الضئيل

اما ماذا نصنع بأنفسنا ، متى تولت الكهربائية عمل كل ما نحتاج اليه ، فسوف يكون

السؤال الخطير الذي يواجههُ الناس سنة ٢٠٣٣ ، بل انهذه المشكلة لن تكون المشكلة الفردة التي يعانونها. فثمة مشكلات معقدة تتناول التعليم والاجتماع والنفس والجنس. وهذه مسائل اجدر بالناس ان ينفقوا وقتهم في درسها وعلاجها من النزاع على الخبز . فمشكلة الاقتصاد اليوم هي القضاء على مشكلة الاقتصاد في الغد. فاذا تحرّر الناس من مقتضيات النزاع على العيش استطاعوا ان يتفرغوا للنظر في المسائل الاخرى . وتقدم العلم والصناعة يجعل هذا الهدف في متناوَلنا

المواصلات

لاميليا ارهرت . الطائرة الاميركية والمرأة الاولى التي طارت وحدها من اميركا الى اوربا

ما هي الوسائل التي يستعملها الانسان في سنة ٢٠٣٣ للنقل والانتقال ؟

لو سئل هذا السؤال من مائة سنة لكان الجواب ينطوي على التنبوء بأن اسباب المواصلات سوف تكون سريعة . ففي تلك الايام كانت سرعة اسباب المواصلات تقاس بسرعة الجياد التي تجرُّ العربات . ولو قال احد حينئذ ان العربات في المستقبل سوف تسير بسرعة ٢٥ ميلاً في الساعة سيراً متواصلاً لوُجدَ كثيرون يرتابون في سلامة عقله

اما وقد استنبط المحرك الداخلي ورأينا الطيارات البحرية تفوق في سرعتها ٤٠٠ ميل في الساعة والسيارات تبلغ نحو ٣٥٠ ميلاً في الساعة. فالتنبوء بما قد يتحقق على ايدي المستنبطين من السرعة الفائقة يلقى آذاناً صاغية . ولعل القول الآن بأن سرعتنا في المستقبل قد تبلغ الف ميل في الساعة اقرب الى العقل من قولهم في القرن الماضي ان السرعة قد تبلغ مائة ميل في الساعة. فمن المتعذّر ان نرسم الآن صورة اخَّاذة لاسباب المواصلات كما قد تكون بعد مائة سنة . ولا اعني بذلك ان القطارات والسيارات والسفن سوف تبقى على ما هي عليهِ الآن من دون تعديل او تبديل ، اذ لا بدَّ للمستنبطين والمكتشفين من اتقان المحركات واستنباط اصناف جديدة من الوقود وابداع اشكال جديدة من السيارات، مما يجعل جميع اسباب النقل والانتقال اصلح للقيام بما صنعت له من نواحي السرعة والسلامة والراحة

ولكنني اتوقع تعديلاً اساسيًّا يتناول استعمال اسباب المواصلات المختلفة ، على اساسٍ من التعاون المنتظم بينها . تصور محطة من محطات المواصلات الكبرى في سنة ٢٠٣٣ تتفرع منها كلُّ اسباب المواصلات . فثمة القطارات والسيارات ومركبات النقل — نقل الركاب ونقل البضائع — والطيارات وقطارات الانفاق يستعمل كل انسان منها ما يفي بحاجتهِ

ومع ان عنايتي بشؤون الطيران تفوق عنايتي بأية وسيلة اخرى من وسائل المواصلات ، لا ارى ان مشكلة المواصلات في المستقبل سوف تحَلُّ بجعل الجوّ طريقنا السلطاني. اذ لابدَّ من القطارات لنقل البضائع الثقيلة الوزن وجماعات كبيرة من الركاب ، وسفن لنقل المشحونات الضخمة ، وسيارات نقل لتكون سواعد لخطوط الطيارات والقطارات تنقل الى المستهلكين

في عقر دارهم ما ينقل على الخطوط العامة بين المراكز الصناعية والزراعية الكبيرة. ثم ان الطيارات المتفوّقة في سرعتها سوف تكون الوسيلة الغالبة للانتقال في السفر البعيد المدى ولنقل الاشياء التي يسرع تسرُّب الفساد اليها اذا طال عليها الوقت بين المنتج والمستهلك

ولا بدَّ ان يكون الطيران في متناول كلّ احدٍ ولكن سرعة الطيارات على ارتفاع بضعة آلاف قدم لن تزيد على ٦٠٠ ميل في الساعة واما الطيران في الطبقة الطخرورية (ستراتوسفير) اي على علو ٥٠ الف قدم — وهو العلو الذي بلغهُ الاستاذ بيكار ببلونه — فتبلغ سرعته نحو الف ميل في الساعة. لكن الطيران في الطبقة الطخرورية بالسرعة المشار اليهِ يقتصر على الرحلات الطويلة المدى، لما يضيّع من الوقت في التحليق الى الارتفاع المقصود والهبوط الى الارض. ولما كان الهواء على هذا الارتفاع لطيفاً جدًّا لا يصلح للتنفس، تجعل الطيارات صناديق محكمة القفل ويتنفس الركاب هواءً معدًّا لذلك خاصة ومحفوظاً في اسطوانات داخل الطيارة

ولاشك في انتظام السفر الجوي بين اميركا واوربا في مطلع القرن المقبل، فتصبح باريس على بضع ساعات من نيويورك ولابدَّ لذلك من صنع الجزائر على طريقة ارمسترنغ — أو مايشابهها — تنثر في المحيط بين القارتين، في سبيل الطيارات. ثم ان التوسّع في جمع الحقائق عن الأحوال الجوية واستنباط الادوات اللازمة للطيّار، يجعلان التعرض للخطر في السفر الجوّي اقل منهُ في السفر البريّ الآن

ولايبعد ان تستنبط آلة للسفر تجمع بين طيارة الاوتوجيرو والسيّارة. فاذا حطّت الطيارة على الأرض طويت اضلاع دولابها وسارت على عجلاتها كسائر السيّارات

اما السيّارة فلا بدَّ ان يطرأ على شكلها تغيير كبير حتى تصبح أقلَّ مقاومة للهواء منها الآن، ولا يبعد أن يصبح شكلُها مثل ثمرة الكمثرى، وسرعتها لا تحدَّد الاّ بالطرق التي تعدّ لسيرها ولضرورات حركة المرور. والمرجح ان تكون المحركات في مؤخر السيارة فتخفُّ ضجتها المزعجة في آذان الركاب، ويقلُّ اهتزاز المقاعد التي يجلسون عليها. ولابدَّ ان تخصص الطرق لسيارات نقل البضائع واخرى لسيّارات الافراد والركّاب. ولا يبعد ان تكون السرعة العادية على طرق السيارات الخاصة مائة ميل في الساعة على الاقلّ

ولكن ماذا نقول عن السكك الحديدية؟ إنني ارى أن عملها أساسيّ ولايمكن الاستغناء عنها للقيام بأعمال خاصة كنقل البضائع الثقيلة الوزن. ولكنها قد تكهرب وتردم الأرض حول الخطوط الحديدية فتصبح طرقاً عامة وتسير القطارات على عجلات لها اطارات من مطاط

والراجح ان السفن التي تمخر البحار قد بلغت أقصى مايمكن بلوغه من التقدم من حيث الجمع بين السعة والسرعة والاقتصاد. وهذا يجعل السفن غير صالحة في المستقبل الاّ لنقل المشحونات الضخمة التي لايمكن نقلها بالطيارات. أما المسافرون فيفضلون السفر الجويّ

الاسرة

لبرتراند رسل. الفيلسوف الانكليزي
ومؤلف : « الزواج والآداب »

أصاب الأسرة في المائة والخمسين سنة الأخيرة، سلسلة من العوامل بعثت فيها الضعف والوهن ولا تزال هذه العوامل ماضية في فعلها الى الآن. فلست تجد بين أشد غلاة المحافظين من يرغب في الرجوع الى عصر اجدادهم إذ كان الرجل يزوّج ابناءهُ، فيعيشون تحت سقفهِ وتتعرض نساؤهم لاستبداد حماتهن. فالقضاء على هذا الطراز من الاسرة، كان مرهوناً بالتقدم في بناء البيوت. ذلك انهُ اذا وجب على كل ابن يتزوج ان يأوي هو وزوجته واولاده الى بيت الاسرة وجب ان يكون البيت كبيراً يتسع لهم. وفي هذا خسارة اقتصادية كبيرة لان البيت الذي يتسع لرجل وأبنائهِ وزوجاتهم وأولادهم لابدَّ ان يكون بيتاً يفيض في سعتهِ على الحاجة متى كان الابناء اطفالاً. ثم ان الاطفال في شقة صغيرة مجلبة ضيق للكبار لذلك رأينا الوالدين يدعون الى انشاء مدارس خاصة تحتضن الاطفال وتعلمهم

والراجح ان الميل الى أن يقضي الاطفال نهارهم خارج البيت آخذ في الازدياد، وبازدياده تضعف الاسرة. وليس الباعث عليهِ الاسباب الاقتصادية التي ذكرناها فقط، بل الدعوة الحديثة الى اصلاح تعليم الاطفال وهذا الاصلاح يقتضي جوًّا خاصًّا يتفق ونوازعهم العقلية والنفسية ومن المتعذر خلق هذا الجوّ في البيت لان مايوافق الكبار لايوافق الصغار

على ان أقوى البواعث على اضعاف الاسرة هو ادعاء النساء مساواتهنَّ للرجال. فالمرأة التي تكسب رزقها بعملها تخلص الى حدّ بعيد من السيطرة التي كانت للزوج على المرأة في العهود السابقة. فاذا غادرت بيتها لكي تزاول عملها تركت، بحكم الطبع، العناية باولادها لغيرها، وعلى ذلك تصبح الأشياء التي تسترعي عنايتها غير محصورة في البيت دون غيره

ومما اوهن الاسرة تقدم اسباب المواصلات الحديثة. ففي الزمن السابق للقطار والسيّارة، كان يتحتم على افراد الاسرة المقيمة في الريف، ان يدبروا حياتهم بالتي هي احسن اذا قطعت عليهم الثلوج صلتهم بالعالم الخارجي، اذ لا مفرَّ لهم من المعيشة معاً. اما القطارات والسيّارات تمكنهم من الخروج من دائرة الاسرة الضيقة لقضاء عطلة يومي السبت والاحد في مكان آخر وفي رفقة اناس آخرين، فانهم يجدون في ذلك مايروّح عن صدورهم. وعلى ذلك فصلتهم باسرتهم ليست الصلة الوثيقة التي كان يقتضيها العصر الماضي

كل هذا يجعل الزواج صلة اقل توثقاً مما كانت قبلاً. ولست ارى أيَّ سبب يمنع هذا الوهن المتطرق الى الاسرة او يخففه. بل على الضد من ذلك ارى ان آثار هذه العوامل سوف تكون اقوى واجلى في المستقبل منها الآن. والراجح ان العناية بالاطفال سوف تصبح في المستقبل، تدريجاً محل عناية من أصحاب السلطة العامة

وعندي انهُ يصحّ التنبؤ بان هذا التحوّل لن يبلغ في الولايات المتحدة الاميركية مداه في اوربا ، وان الاسرة في اميركا بعد خمسين سنة سوف تكون اقوى عضداً منها في اوربا

لقد تكلمتُ في ما تقدّم عمّا اتوقع لا عمّا اريد ، لانني قد بلغت من السنّ مبلغاً علمني انني لا استطيع ان ابني العالم على المثال الذي اهواهُ . والمرجَّح عندي ان انقلابات خطيرة سوف تقع في اوربا ، بعضها طيب ، وبعضها سيء ، ولكنني اتوقع ان ارى اميركا ملجأ للتقاليد والاوضاع الاجتماعية القديمة ، وبينها نظام الاسرة ، ولو اصابه فيها بعض الوهن

العلم

للاستاذ جوليان هكسلي العالم البيولوجي
واحد مؤلفي : « علم الحياة »

قد نجد العلم بعد خمسين سنة ، سالكاً أحد سبيلين . فاما ان يغزو حياة الانسان السياسية والاجتماعية او يبقى خادماً لقوى السياسة والتجارة ، فلا تسمَح لهُ بالتدخل حيث لاتريدهُ ان يمدَّ اصبعه . والاحتمال الثاني ممكن كلَّ الامكان . فقد يتقدم العلم تقدماً سريعاً في ناحية معيَّنة من الصناعة . فيرى اصحاب تلك الصناعة ان تقدُّم العلم يقتضي منهم نبذ الآلات التي يستعملونها وصنع غيرها مما هو اشدُّ منها انطباقاً على تقدُّم العلم. فيشترون امتياز المستنبطات الحديثة ويطوونها لكي لا يضطروا الى نبذ الآلات التي تمثل في دفاترهم قدراً كبيراً من المال . او قد يكشف اصحاب علم الحياة عن طريقة لا تحتمل الخطأ تستعمل لضبط النسل فتمنع الحكومات التي يهمها هذا الامر انتشار هذه الطريقة او اذاعة الكلام عنها

فاذا سيطرت هذه النظرة على تقدم العلم ، اصبح العلم عبداً لاصحاب المصالح المتربعين في دست الحكم . ففي هذه الحال، قد يتاح لابنائنا ان يطيروا اسرع مما نطير، وان يقتنوا سيارات تفوق سياراتنا وبأثمان ارخص من اثمانها، وملاهي اشد فتنة للعين والنفس ،واطعمة وبضائع اكثر تنوُّعاً. على ان حياتهم لن تختلف في شيءٍ اساسيٍ عن حياتنا نحن . ولكن اذا تغلغل روح العلم الى المراكز المسيطرة على الهيئة الاجتماعية ، تغيَّر بناءُ الاجتماع من اساسهِ

خذ في الجهة الواحدة الذين يعتقدون ان الناس يستطيعون ان يمضوا في حياتهم الاقتصادية والاجتماعية بالاساليب الفردية التي كانت تصلح في عصر سابق لما كانت الحياة اقلَّ تعقيداً والبلدان اقلَّ سكاناً . وفي الجهة الاخرى اولئك الذين يقولون بوجوب انشاء مركز علمي لتنظيم الاعمال الاقتصادية والاجتماعية ، اذا اردنا للحضارة البقاءَ دع عنك مضيَّها في سبيل التقدم. فاذا كان الفريق الثاني في جانب الصواب ، اصبحت السياسة لا تصلح ميداناً لكل مغامرٍ من رجال الاحزاب ، بل وجب ان تصبح مهنة علميةً ، ولا بدَّ ان يقتضي الاجتماع حينئذٍ من الرجال الذين يرومون الاشتغال بالسياسة ، ان يستعدوا لعملهم ادقَّ استعداد واتمّهُ فوق ما

يطلبونهُ الآن من الطبيب والمهندس

ثم ان معظم الناس لا يعيشون بمقتضى الاحكام الصحية التي اقرَّها البحث والامتحان. فبعضهم يأكل اكثر مما يجب ان يأكل، وبعضهم يدخن اكثر مما يجب ان يدخن، وبعضهم يجهل طرق العناية بنفسهِ او يهمل طلب المعونة من الطبيب في الوقت اللازم، وبعضهم يعتمد جهلاً على الادوية الصناعية المركبة، او يعيش عيشة تناسلية غير صحية، او ينهكهُ الهمُّ والغمُّ — وبكلمة واحدة نجد ان كل انسان يمارس ما ينزل بهِ عن مستوى النشاط الكامل والسعادة التامة. وهذا رغماً عن ان في علم النفس وعلوم الطب على تنوّعها، ما يكفي لعلاج اغلب هذه الحالات. وسبب ذلك ان العادات والتقاليد والمصالح تقضي بما يجب وبما لا يجب، او بما يصحُّ او بما لا يصحُّ. ولكن دولة تشرّبت روح العلم واقامتهُ حاكماً ودليلاً، تدرك ان صحة السكان العقلية والجسدية يجب ان تكون في المقام الاول من عناية الامة، فوق قيمة الصادرات والواردات او اي اعتبار مادي آخر

وتغلغل الروح العلمية في تنظيم الحكومة والاجتماع، هو اكبر خطوة يمكن ان يخطوها العلم في خمسين سنة او خمس وسبعين سنة من اليوم. عندئذٍ نكون قد تغلبنا على القول بان العلم مسيطر فقط على الجامد في الطبيعة، وان من شأنهِ ان يوفر لنا اسباب الرفاهة المادية فقط. عندئذٍ يبدأ العلم دوراً جديداً من ادوار حياتهِ وهو الدور الذي يمكننا من السيطرة على البناء الاقتصادي في المجتمع الانساني وما يحيط بهِ من الآراء والنزعات، سيطرة تمكن الناس الذين يقيمون في ذلك البناء ويتنشقون ذلك الجوّ، من ان تكون «لهم حياة وافرة»

التعليم

للكاتب والروائي الانكليزي
ولز: مؤلف «موجز التاريخ»

على أي وجهٍ نتوقع ان يكون التعليم بعد خمسين سنة؟ من المحتمل أن يكون التعليم قد قضي عليهِ بعد جيل او جيلين. فالسعي وراء كسب الثروة باية طريقة ممكنة، والوطنية الجامحة، طغيا على النفوس ونامَا بكلكلهما حتى نرى النظام الاجتماعي ينهار بين سمعنا وبصرنا. فالعطل من العمل، والاجرام آخذان في الازدياد، والحرب تهدد الحضارة بدكها من الاساس. وثمة طائفة يسيرة من الناس تكافح كفاح الابطال لتنجية الحضارة، ولكن احتمال نجاحهم ضئيلٌ جدًّا. على ان التاريخ يشهد لنا بان الرجال كثيراً ما فازوا حيث كان الانخذال مقدَّراً لهم، فلنفترض ان النظام الاجتماعي قد نجا من الانهيار واعيد تنظيمهُ على الاساس الوحيد الممكن وهو اساس السيطرة العالمية والنقود العالمية واستبدال المشروعات التي يقصد منها الربح الخاص بالمشروعات المشتركة التي يقصد منها النفع العام

فالتعليم في هذه الحال يكون مختلفاً كلَّ الاختلاف عن التعليم الآن الذي يسودهُ الارتباك والتشويش في تلقين النشء . ومهنة التعليم حينئذٍ تكون اشرف وانبل وادق مهنة في الحياة ، تتصل من الناحية الواحدة بالحكومة ومن ناحية اخرى بالطب والعلم

وسوف يكون كل انسان متعلماً حينئذٍ . والجماعة تكون جماعة متعلمة . ويكون غرض التعليم انماء كل ماينطوي عليهِ الجسم والعقل من القوى والمواهب الخاصة . واذن فلا بدَّ ان يشتمل التعليم على الرقص وكل وسيلة من الوسائل التي تزيد جمال الجسم ، والتمرينات التي تعلم البراعة وتصون الصحة ، والتدريب على التفكير المستقلّ والمهارة اليدوية

على ان حياة الانسان الخاصة ليست الاّ نصف الحياة . فالانسان وجد ليشترك مع اخوانهِ وهو لا يستطيع ان يفعل ذلك الاّ اذا كان قادراً على التفاهم العقلي . وعليهِ فالتعليم يجب ان يشتمل على التمكن من فن التعبير او الاعراب عن الذات والاتصال بالغير — وهو يشتمل على القراءة وفهم العبارات الرياضية وتعلم اساليب التصوير والموسيقى والتمتع بآثارها الرائعة. فاللغة والتفكير لا يمكن ان ينفصل احدهما عن الآخر من الناحية العملية . ثم انك لا تستطيع ان تتفهم شكل الاشياء الاّ بمعرفة التصوير والرياضيات . ثم انهُ لاريب في ان للموسيقى اثراً فعّالاً في الحياة النفسية . فالتربية الفردية والتربية الاجتماعية يجب ان تسيرا جنباً الى جنب

وعلاوة على ذلك يجب على التعليم ان يشتمل على تدريب السلوك . فاحترام الغير والصدق واللياقة والادب صفات لاتخلق في الانسان ، ولعلّ تكوين العادات الخاصة بالسلوك هو أهم نواحي التعليم . ذلك انك لا تستطيع ان تبني حضارة من افراد لايعرفون الاّ الفوضى في آداب السلوك . واذن فيجب ان تدرب كل فرد على ان الاجتماع اساسهُ الخدمة ، وان على الفرد ان يجد لذة في القيام بما يجب عليهِ نحو المجموع

وعلى كل انسان ان يعرف مقامهُ من الكون في الزمان والمكان . وكيف نشأت الحياة الاجتماعية وتطورت وبلغت ما هي عليهِ الآن . فلا مندوحة عن تعليم التاريخ وعلوم الاجتماع والاقتصاد والمال . ثم يجب ان نوفّر للناس سبيل المضي في التعليم بعد بلوغهم الرجولة او الكهولة . فتبنى لهذا الغرض معاهد خاصة منوّعة . فيستطيع أكبر عدد من الناس مماشاة التقدم في العلوم والفنون ، والعمل في سبيل الخير العام ، بدلاً من الانقطاع لجمع الثروة

يستطيع الباحث ان يرى هذا المستقبل الزاهر من خلال الغيوم المتلبدة . وكأن الانسان اليوم يتردّى في حمأة مع ان المدينة الكاملة في متناولهِ ذلك لان في تعليمهِ نقصاً وفي حياتهِ العقلية ضعفاً ، ولو وجهت العناية اليها ، لكان في علاجها الصائب ، سبيل الخلاص

[نقلت بتصرف يسير عن الانكليزية]

جون غالزورذي

John Galsworthy

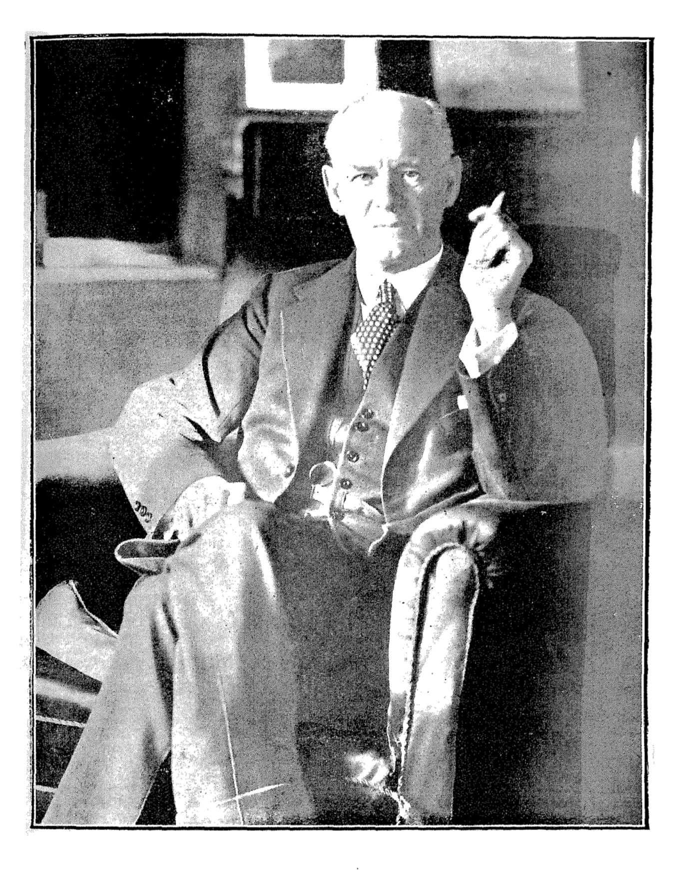
الفائز بجائزة نوبل الادبية في دسمبر سنة ١٩٣٢

والمتوفي في اول فبراير سنة ١٩٣٣

للمستر غالزورذي مقام خاص في ادب العصر الحديث . انهُ يختلف عن المستر ولز والمستر برنارد شو في انهُ لا يحسب ان فكرة معينة يمكن ان تكون لباب الحياة فيحشد قوى خيالهِ وبلاغتهِ للدعوة لها . ويختلف عن المستر ارنولد بنت في انهُ لا يستطيع ان يحلّل نفسية كل شخص يتصل بهِ او يخلقهُ في قصصهِ . وانما تقوم مكانتهُ الادبية على نفوذ بصرهِ الى شعور طبقة خاصة من طبقات الشعب الانكليزي هي الطبقة الوسطى المثقفة . لذلك تحسب رواياتهُ التي يجمعها اسم « فورسيْت ساغا » وثيقة خطيرة في التاريخ البريطاني الاجتماعي . نخيرُ ما انشأهُ غالزورذي مطويٌّ ومنشور في صفحاتها . دع رجلاً يملك عقاراً وغالزورذي ابرع من يرسم صورة لحياتهِ النفسية . في تلك الصورة تجد مُنى الرجل وآماله ومخاوفهُ فتراهُ يبحث عمّا يضمن سلامتهُ وتطلع على آرائهِ في شؤون الحياة واحتقاره للمتفنن وريبتهِ في صلاح المعنيّ بالشؤون العقلية فقط لزعامة الامم — كلّ هذه الصفات يصورها لك غالزورذي فلا يباريهِ في روعة تصويرها وصدقهِ احدٌ

في هذه الحدود لم يتفوّق احدٌ من معاصري غالزورذي عليهِ فاذا خرج عن هذه الطبقة المعيّنة فقد رسوخهُ وثباتهُ . فالعمال الذين يصفهم قلما تجدهم رجالاً ونساءً من لحم ودم . بل هم في الغالب هياكل دبٌّ فيها شيءٌ من العاطفة . ذلك انهُ يراهم من الخارج ولا يستطيع النفوذ الى مكامن نفوسهم . بل تحسُّ انهُ لم يكلف نفسهُ يوماً ما عناء اللبث معهم والتحدث اليهم ، فكأن ما يعرفهُ عنهم انتهى اليهِ من مطالعة الصحف . فهم في كتبهِ ليسوا اشخاصاً يروحون ويجيئون ، بل اجساماً تحركها الانفعالات التي يراها من صفات الارستقراطيين

ولكي يفهم غالزورذي على صحتهِ يجب ان نذكر انهُ ليس من الكتّاب الذين يهيمون بالافكار ولكنهُ من اولئك الذين يستسلمون للشعور . فهو يمقت القسوة والظلم والغضب والالم . ويحسّ بالعطف والرفق والمحبة . وشعوره هذا لا يتحول مبادىء يندفع في الدعوة اليها . فعلاجهُ لما يراهُ في المجتمع من تجمع الثروة في ايدي افراد واسر قلائل هو الكرم في منحها لا الاشتراكية . وعلاجهُ للفقر هو احترام الذات ورفع الاجور لا دكتاتورية العمال ، فهو يرى



جون غالزورذي

John Galsworthy

الروائي الانكليزي المتوفي حديثاً ونائل جائزة نوبل الادبية سنة ١٩٣٢

من خلال نظارتهِ تضارب العواطف الشخصية في المجتمع . ولكنهُ لا يرى تصادم الانظمة المجرّدة . فانت اذ تقرأ كتبهُ تحسُّ انهُ قد يميل الى تحليل نفسية كارل ماركس ، ولكنك لا تستطيع ان تقنعهُ بدرس المذهب الماركسي

كان زهرة من ازهار المذهب الحرّ الذي تدين بهِ الطبقة المتوسطة الانكليزية . كان مستعدًّا لبذل مايستطيع بذلهُ لاصلاح نظام السجون . متحفزاً للاحتجاج على الالعاب الرياضية الدموية وما يتخللها من قسوة ووحشية . ولم يرضَ في حياتهِ ان يرمي الخاطىء بحجر لانهُ كان يفهم مأساة الخطيئة ووقعها الاليم في النفس . وقدكان في مؤلفاتهِ قادراً على حمل قرائهِ على الشعور بما يشعر بهِ في هذه الاحوال ، ولكنهُ كان عاجزاً عن حملهم على التفكير في علل تصرفهم وآثارهِ ، لانهُ كان لا ينظر الى الناس هذه النظرة ، فقد كانت حياته سلسلة من اللمحات ، دوّن اكثرها بما عرف عنهُ من حسّ فنيّ مرهف

وفي كتابتهِ شعرٌ اكثرهُ الى الغنائي دون الفلسفي . وكان يفضل ان يرسم حالة نفسية طارئة على ان يعلن مبدءًا فلسفيًّا او عقيدة راسخة . وهذا اجلى ما يكون في رواياتهِ التمثيلية . فمعظم هذه الروايات يدور على موقف خاص ينطوي على اصطدام بين شخصٍ وتقليد اجتماعي معيّـن . فانت ترى في رواية غالزورذي قسوة هذا الاصطدام وآثارهُ الأليمة وتحسّ ان هذا الاصطدام يجب الاّ يكون . ولكنك قلمّـا تجد لذلك علاجاً ، في كتابة المؤلف او في خلال سطورهِ

والفضيلة في رأيهِ هي احترام شعور الغير . وكأنهُ يقول هاتوا لنا من هذه الفضائل فبها يخلص العالم . لاريب اننا في حاجة الى هذه الفضائل . ولاشك في اننا لا نبالغ مهما تمادى في ترديد هذه الدعوة . ولكننا نشك في اننا نستطيع ان نعيد بناء الاجتماع البناءَ الامثل بتربية آداب السلوك التي يمتاز بها الاوستقراطيّـون الانكليز . ولعلّ المستر غالزورذي كان اشدّ الكتاب المعاصرين نفوراً من آلام الحرب ومقتاً لويلاتها . ولكنهُ في الراجح لم يرَ ببصيرتهِ ما تنطوي عليهِ من جنونٍ مطبق . وكان شديد الثورة على مساوىء الحياة في النظام الاقتصادي القائم على الرأسمالية . ولكن ذلك لم يحملهُ قط على البحث في وجوب الابقاءِ على هذا النظام او محقهِ . فقدكان دقيق الحس بنتائج الانظمة والافعال ولكن كانت تعوزهُ مقدرة البحث في اسبابها

فنبل الخلق ودقة الشعور ورقة الطبع كانت صفاتهُ البارزة في حياتهِ وكتاباتهِ . فقد كان كريماً في حق كل انسان . وثمة كثير من الجمعيات التي ترمي الى تحقيق اغراض اجتماعية وانسانية شريفة — كحفظ الريف من تدنيس الصناعة وانماءِ الشعور الدولي بين رجال القلم من بلدان مختلفة واصلاح نظام السجون وحظر التأديب بالفلَق — كل هذه الجمعيات الانسانية

اشترك فيها غالزورذي وايّدها بمقامهِ ومالهِ ونفوذهِ وهو قد فعل ذلك لان كل هذه المعاني لها مكانة خاصة في نفسهِ . على انهُ قلّما وفّق اذ حاول ان يعالج الحركات الاجتماعية القائمة على اساس عقلي . ففي روايتهِ التمثيلية التي عنوانها « كوميديا حديثة » يرسم صورة للاضراب العام الذي وقع في انكلترا سنة ١٩٢٦ انما لا يرى في هذا الاضراب الا انفعال اشخاص الروايةِ بهِ وكيف هبّوا الى العمل مكان المضربين . فالاضراب العام في نظرهم حدث اجتماعي يهدّد سلامتهم الاقتصادية وكأن المستر غالزورذي نفسهُ لا ينظر الى الاضراب العام نظرة اوسع من نظرة اشخاصه . بيد انهُ اذا كانت العلاقة التي يراد رسمها علاقة شخصية فدقة شعورهِ بها لن تخيب

وقد كان غالزورذي في حياتهِ اليومية ما تتبينهُ منهُ في كتبهِ . كان يلاقي الحياة بسكينة ومشكلاتها بفهم وعطف . كان رجلاً كريماً يهمهُ ان يفعل ما يراه حقاً وصلاحاً وان يجتنب ما يؤلم الغير ، شديد الاحترام لشعور الناس ، يبدو عليه شيءٌ من الترفُّع . وكانت الحياة لا تستثيرهُ كما تستثير المستر ولز . ولا كان مندفعاً بشهوةٍ عنيفة الى تعرف اصولها واركانها كالمستر برنارد شو . لم ينزل الى ميدان الطبقات الفقيرة فلم ينفذ الى دخيلة نفوسها بل كان ينظر الى العالم من مرتفع منزوٍ عن الناس ، فلا يندفع للاختلاط بتيارها كالمستر ولز « ولا يقيم حمّامهُ على قارعة الطريق كالمستر شو »

ولد في كومب سنة ١٨٦٧ وتلقى علومه في جامعة اكسفورد ثم درس الحقوق وانتظم في سلك المحاماة ولكنهُ مال الى الكتابة والتأليف فظهرت روايتهُ الاولى «جوسلين» سنة ١٨٩٨ فلما اصدر روايتهُ الثالثة «مالك العقار» سنة ١٩٠٦ استرعى انتباه النقاد . وكانت هذه الرواية الاولى من سلسلة تعرف بـ «فورسيْت ساغا» وصف فيها حالة الطبقة الوسطى ولاسيما العالية منها في عهد الملكة فكتوريا والملك ادورد ومطلع عهد الملك جورج الخامس . فلما دكّت الحرب العظمى معالم المجتمع القديم وقف غالزورذي حائراً ، ثم انشأ ثلاث روايات حاول ان يصف فيها المجتمع الانكليزي الذي تلا الحرب الكبرى على ما فعل في « فورسيت ساغا » في المجتمع السابق لها . فاصدر « القرد الابيض » و« الملعقة الفضية » و« نشيد الاوزة » ولكنك تتبين في خلالها ان غالزورذي كان مأخوذاً بتغير المشاهد ، فلم يعدُ فيها وصف التحوُّل وصفاً خالياً من تأمله الصادق في اصول الحياة البشرية . وله قصص قصيرة[1] ورسائل في موضوعات انسانية عامة وروايات تمثيلية نحا فيها نحواً جديداً في جعل الحوار بين اشخاص الرواية طبيعيًّا خالياً من كل المحسنات البلاغية . فتحتاج هذه الروايات الى ان يمثلها ممثلون مجيدون لكي تبدو حسناتها فاذا اكتفى القارىء بقراءتها وجدها خالية من الرواء والبلاغة التي يعثر عليها في كل صفحة من برنارد شو

(١) سوف ننشر ترجمة احداها في العدد التالي وتطلب كل مؤلفاته من المكتبة المصرية الانكليزية بشارع قصر النيل بمصر

أيتها الأشباح!!

للشاعر علي محمود طه

« هي ذكريات قديمة يصور الشاعر فزعه من طروقها ذات ليلة . فيحاول انكارها ويجاهل امرها وهي لا تصدق دعواه فتصر على موقفها منه ويمضي الشاعر في محاولته ليردها عنه في مناجاة محزنة وضراعة مؤثرة »

لِمَ أقبلْتِ في الظلام اليَّ ولماذا طرقتِ بابيَ ليلا

لاتَ حين المزار أيتها الأشـ ـباحُ : فامضي: فما عرفتكِ قبلا!

اتركيني في وحشتي ودعيني في مكاني بوحدتي مستقلاً

لستُ من تقصدينَ في ذلك الوا دي . فعذراً إن لم أقللكِ أهلا!

لا تُطيلي الوقوفَ تحت سياجي لنْ تريْ فيهِ للثَّواء محلاّ

ضلَّ مسراكِ في الظلام فعودي واحذري فيهِ ثانياً أن يضلاَّ !

ذاك مأوايَ في تخوم الفيافي طللٌ واجمٌ عليكِ أطلاّ

قد تخلَّيتُ عن زمانيَ فيهِ وهوَ بي عن زمانهِ قد تخلّى!

لن تريْ من خلالهِ غير خفّا قِ شعاعٍ يكاد في الليل يبلى

وخيالٍ مستغرقٍ في ذهولٍ بات يرعى ذُباله المضمحلا !

إبرحي بهوَه الكئيبَ فما فيـ ـهِ لعينيكِ بهجـةٌ تتجلّى
قد نزَلتِ العشيُّ فيهِ على قفـ ـرٍ جفَـتهُ الحياةُ ماءً وظلاّ !

كان هذا المـكانُ روضاً نضيراً جرَّ فيهِ الربيعُ بالامس ذيلا
كانَ فيهِ زهرٌ فعاد هشيماً كان فيهِ طيرٌ ولـكنْ تولّى !

فاسلمي من شقائهِ ودعيهِ وحدَه يصحبُ السكونَ المملاّ
واطرقي غير بابهِ إنّ روحي أحكمتْ دونهُ رتاجاً وقُـفلا !

أوقوفاً الى الصباح ببابي ! ؟ شدَّ ما جِئْتـِهِ غباءً وجهلا !
ابعدي من وراء نافذتي الآ ن ! ورفقاً إذا انثنيتِ ومهلا !

إن من تحتها هزاراً صريعاً سامهُ البردُ في العشيةِ قتلا
وأزاهيرَ حـولها ذابلاتٍ مزَّقتها الرّياحُ في الليلِ شملا

كان لي في حياتها خيرُ سلوى فدعيـني بمـوتها اتسلّى
فهي بُقيا صبابةٍ ودموعٍ جثيا عندها شعاعاً وطَلاّ !

ان عيني بها أحقُّ من المو تِ وقلبي بها من القبرِ أولى
جُـنَّ قلبي فاستضحكتْـهُ المنايا حيثُ أبكتنيَ الحقيقةُ عقلا

لا تطيلي الوقوفَ ايتها الاشـــباحُ فامضيْ فما رأيتكِ قبلا
أوَلم تسمعي ؟ جهلتكِ من انـــتِ ! ! فعودي ! ! فما كذبتكِ قولا ! !

كيف نفهم التطور

للاستاذ السر ارثر طمسن[1]

يصعب ان نحدد كلمة « تطور » الواسعة المعنى تحديداً ينطبق على مفهومها العلمي تمام الانطباق فانها قد تعني عملية «تحول» او «صيرورة» (Becoming) ولكننا اذا اطلقناها اجمالاً على ما نسميه بالتطور العضوي عنينا بها ان جميع مايحيط بنا من نباتات وحيوانات قد نشأت بفعل تحوّل طبيعي مستمر من اسلاف ابسط في التركيب واعم في الصفات . وعلى هذا الاساس فهي تعني ان الحاضر هو طفل الماضي وابو المستقبل ، وقد كان لهذه الكلمة شأن كبير في وصفها الطريق الذي سارت عليه جميع الكائنات الحية في نشوئها حتى اصبحت كما هي في حالتها الحاضرة . وقد اتفق علماء البيولوجيا ان يطلقوا كلمة «نشوء» (Development) على ماسماه العلامة هارفي (Harvey) «تكون الفرخ من البيضة» ، وكلمة «تطور» (Evolution) على عملية تسلسل نسل الطيور من سلف يمتّ الى الزحافات المنقرضة لايعرف عنه الا القليل او على تسلسل الخيول الحديثة ذوات الحافر الواحد في كل من قوائمها من جد اصلي ذي ثلاثة و اربعة حوافر نائتة في كل قائمة ، كان يطأ بها الارض

على ان فكرة التطور وحدها لا تصل الى اي نظرية خاصة تفسر لنا العوامل التي تعاونت على تحقيق ذلك التحول التدريجي من شكل الى آخر . حتى ان المؤمنين بنظرية التطور انفسهم لايميلون الى قبول النظريات على علاتها كنظريتي «لا مارك» (Lamarck) و «داروِن» في تفسير حدوث التحولات الطبيعة . قد يسأل شخص في اثناء المحادثات الاعتيادية هذا السؤال ، « هل تسلّم بالنظرية الداروِنية ؟ » ويكون القصد من ذلك السؤال « هل انت من المؤمنين بالتطور ؟ » لاشك انه سيجيب «نعم !» لان جميع بيولوجي العصر الحاضر يؤمنون بالتطور كحقيقة ثابتة . ولكن اذا وجه السؤال نفسه الى طائفة من علماء البيولوجيا فيقصد منه عندئذ «هل انت مقتنع بكفاية نظرية دارون لتفسير جميع التنوعات التي كونتها الطبيعة ؟» وهنا تختلف الاجوبة فيجيب البعض «نعم» والبعض الآخر «لا» وغيرهم « الى حد ما »

﴿الصورة التي رسمها لوقريطس﴾ لايوجد في الوقت الحاضر سوى صورة علمية واحدة تبين طريقة نشوء الكائنات الحية وبلوغها الحالة التي هي عليها الآن — وهي الصورة التطورية

---

(١) وردت الانباء البرقية بوفاة الاستاذ السر جون ارثر طمسن العالم البيولوجي الانكليزي فرأينا نشر هذه المقالة من آثار قلمه البارع وقد نقلها الى العربية بشير الياس اللومي احد ادباء الموصل بالعراق

فلا يقرُّ العلم صورة اخرى ولا يعترف بغير التطور لتفسير جميع المظاهر العضوية . على ان هذه الفكرة لم تكن معروفة قديماً ، فان الشاعر الروماني «لوقريطس Lucretius » (٩٩ — ٥٥ ق . م .) الذي كان مولعاً بالمسائل العلمية هو اول من وضع اساس مانسميه بنظرية التولد الذاتي« Theory of Spontaneous Generation » في كتابه الموسوم بـ « مملكة الطبيعة » يقول « ان النباتات والاشجار تنشأ من الارض مباشرة كما ينبت الريش والشعر من اجسام الحيوانات،وان الكائنات الحية لم تهبط من السماء ، ولم تخرج الحيوانات البرية من البحر كما ظنَّ اناكساغوراس « Anaxagoras » فكما ان بعض الحيوانات الصغيرة تنشأ الآن من الارض بعاملي المطر وحرارة الشمس ، كذلك نشأت قديماً جميع الحيوانات نشوءًا ذاتيًّا بعامل القوى المولدة التي كانت في الارض في عهد شبابها . على هذه الصورة تولدت الطيور اولاً من دفء الربيع ، ثم نشأت الحيوانات الاخرى من رحم الارض »

قد تظهر لنا هذه الصورة على شيء كثير من الوهم والخيال ، غير انها في الحقيقة ليست عارية عن الجمال . فهي ابدع صورة « لا تطورية » رسمت : كيف نشأت من الارض الفصيلة بعد الفصيلة من الاعشاب المخضرّة ، والقبيلة تلو القبيلة من الكائنات الشاعرة ، وهل يعقل ان يحصل كل ذلك الامر العجيب«بتأثير الامطار وحرارة الشمس؟» .على ان الارض ما زالت تعرف عند الكثيرين « بالام الرؤوم » ولكن حتى الذين يتمسكون بالاوهام لا يسعهم الاعتقاد بان الحيوانات نشأت أول امرها من صلب الارض . فالحيوانات الصغيرة التي تقع تحت انظارنا على الدوام ان هي الا متطورة ، ولم يقذف بها جاهزة من باطن الارض

﴿ الصورة التي رسمها ملتون ﴾ لقد عاشت الصورة التي رسمها لوقريطس في انبثاق الحيوانات من الارض عدة قرون ويجب ان لايغيب عن بالنا ان مذهب التولد الذاتي في الحيوانات الدنيا ظلّ حيًّا حتى زمن « باستور » فاذا صح ان ينشأ مخلوق صغير من التراب من دون ان تسبقه حياةما ، أفلا يعقل ان تنشأ الحيوانات الاخرى من رحم الارض ؟ على ان كلتي الفكرتين بعيدةٌ عن الحقيقة.اما فكرة « ملتون»فتختلف عن فكرة لوقريطس بادخاله عقيدة الخلقةاو الخلق المستقل . لقد فكر لوقريطس في التولد الذاتي بصورة طبيعية ، لانه كان يرى بام عينه ان الحشرات والديدان تتولد من باطن الارض ، وعلى ذلك الاساس حاول ان يرجع نشوء الحيوانات الاخرى قديماً الى الارض ايضاً ، ولكن فكرة ملتون كانت تتطلب الاعتقاد بشيء لايفهمه العلم ، اذ قال ان الحيوانات والنباتات قدخلقها الالهمن تراب الارض. على ان العلم يفتش دائما عن وصف طبيعي مادي،وهو يعتني ابداً بالنتائج المستقراة من عوامل ومؤثرات قابلة للقياس . ففكرة ملتون ليست علمية بهذا الاعتبار

﴿ الخلقة والتطور ﴾ يقتضي العلم ان نجتنب النظر الى المشكلات الخطيرة بطريقة وعرة



الفرد رسل ولس

ملتوية . فقد تنطوي عقيدة الخلقة على شيء كثير من الحقيقة ولو ان الصورة التي رسمها ملتون قد لا يأخذها العالم الطبيعي بنظر الاعتبار ولكن ما زالت فكرة الخلقة تعبر عن عقيدة دينية كهذه فليس للعلم ان يقول كلمته فيها لان العلم لا شأن لهُ بالتفسيرات الدينية وانما هو يبحث فقط في الاوصاف التي تقع تحت الحسّ والمشاهدة

ولكن اذا استمرّ الذين يعتقدون ان في كلام انجيل يوحنا (في البدء كانت الكلمة والكلمة كانت عند الله . . . الخ) حقيقة باتة لا تقبل النقض والتبديل ، اجل اذا قالوا « ان الكائنات الحية انبثقت من الارض على الشكل الذي نراه الآن» اجاب العالم الطبيعي مؤكدا « ان هذا لا ينطبق في شيء على الحقائق التي اوضحتها لنا سجلات الصخور (المتحجرات) » او اذا قال المتدين «انا مقتنع بان الكائنات الحية نشأت بطريقة خاصة لا تقبل التحليل العلمي » اجبناه : «لقد اسرعت في الحكم ياهذا ، فان السبيل الذي سلكته الكائنات العضوية آخذ في الوضوح شيئاً فشيئاً ويوماً بعد يوم . وليس للانسان ان يتحلل من واجبه في البحث العلمي»

﴿ تتابع الخلقة ﴾ في مبدأ نشوب الجدال بين فكرتي التطور والخلقة قامت فئة لم تستطع تفهم دقائق النظرية الدارونية ، واعلنت فكرة جديدة دعيت نظرية « تتابع الخلقات» (Successive Creations) القائلة بان كل عصر جيولوجي كان مسرحاً لخلقة خاصة فيظن ان البرمائيات الاولى خلقت في العصر الرملي الاحمر القديم (Old Red Sandstone Period) والزحافات الاولى في العصر البرمي (Permian) والطيور الاولى في العصر اليوراسي (Jurassic) وهكذا . على انه اذا لم يكن في الجائز ان نسلم بنشوء الاصل بطريقة الخلقة التي لا تأتلف والمقتضيات العلمية فكيف يجوز لنا قبول فكرة توزع خلقة الكائنات الحية خلال العصور المتتابعة ؟ وفضلاً عن ذلك ان تدرُّج الانواع في الرقي هو اكثر انطباقاً على الحقائق العلمية ، بينما« الخلقة »هي فكرة دينية لا تلتئم والاساليب العلمية . اما مزج الفكرتين فمشوّش للعقل . وعند ما يدعي المؤمن بالخلقة ان قوة الآله الحي تتجلى وراء جميع الاشياء يكون بعيداً عن نطاق العلم وخارجاً عن اسلوبه النقدي، ولكنهُ عند ما يتقدم الى البحث المادي وينكر اويجيز فكرة معينة يكون كالمتطفل المتعدي حدود اختصاصه

﴿ عالما « الفرد رسل ولس ﴾ كان العالم الطبيعي « الفرد رسل ولس Alfred Russell Wallace (١٨٢٢ — ١٩١٣) » اكبر شخصية ظهرت بين اصحاب التطوّر، فقد شارك دارون في فضل ابداء فكرة الانتخاب الطبيعي واشتهر بالسياحات الواسعة النطاق التي قام بها تحقيقاً لبعض الآراء العلمية عن الحياة الحيوانية ، وكان من المتوفرين على درس التوزع الجغرافي ، ومن المشتغلين بالمشكلات البيولوجية العامة ، اضف الى ذلك فكره الوقاد ونبوغه الذي جعله في مصاف المصلحين الاجتماعيين والعلماء الطبيعيين . وكان ولس ، على شيء كثير من

دماثة الاخلاق وسمو المكارم ،فانهُ لم يكتف بالاعتراف بسبق دارون لهُ في نشر فكرة الانتخاب الطبيعي التي اشتركا في درسها فحسب ، بل ألّف كتاباً في هذا الموضوع سماهُ « الدارونية » او المذهب الداروني Darwinism

﴿ الفكرة الروحية في التطور ﴾ لقد كان « الفرد ولس » تطورياً بالمعنى الصحيح ، وكانت جميع مباحثهِ في ارتقاء الانسان والكائنات الحية الاخرى مطبوعة بطابع التطور . وهو الذي وقف بجانب دارون في معركة التطور ومهّد لنا معرفة العوامل في نشوء المخلوقات الحية . ولكنهُ عند ما فكّر في نشوء الكائنات العضوية من الكائنات اللاعضوية ، وفي نشوء الكائنات ذات الشعور والوجدان وابرز الصفات الانسانية الاخرى ، استنتج ان خطوات الارتقاء هذه مدينة الى تأثير عالم غير منظور هو « عالم الروح الذي لا يدانيه عالم المادة في شيء »

سلّم « ولس » بجميع العوامل التطبيقية في نشوء الانواع بعضها من بعض ولكنهُ قال بوجود قوة خفية تعمل وراءها ولا سيما في نشوء الانسان والكائنات الشاعرة الاخرى اذقال في كتابه « عالم الحياة » الذي نشره عام ١٩١٠ « ان التعقيد الكائن في الاجسام الحية يستلزم وجود قوة خالقة وعقل مدبر وغاية خلقت لاجلها الاحياء »

﴿ هل كان « ولس » مصيباً ﴾ ان فكرة ولس تظهر معقولة جدًّا عند كثيرين فكل ما ذهب اليه هو : ان نظرية التطور لا تكون تامة ما لم تدلنا على العوامل التي تعاونت على احداث عملية النشوء العظيمة . على ان العالم التطوري لا يستطيع ان يوضح العوامل التي ادت الى نشوء العضويات الحية والكائنات الشاعرة ،فان تلك كانت خطوات واسعة فهل نستطيع تعليلها ؟ يجيب العالم التطوري بصراحة ان العلم لا يستطيع في الوقت الحاضر ان يلقي ضوءًا كافياً على هذه الخطوات الكبيرة ، لذلك كان امام « ولس » ان يفترض وجود قوة روحية كان لها اثر في إحداث عملية التطور الطبيعية . وهكذا أُدخل « ولس » عاملاً جديداً يساعد المادة والحياة على مقاومة ما يعترضهما من الصعاب »

﴿ لماذا لا نستطيع قبول الفكرة الروحية ﴾ ان قبول نظرية «ولس » على علاّتها يفضي بنا الى مشاكل ومصاعب خطيرة وذلك (١) لانها تسرعت في الحكم بقصور العلم عن تفسير خطوات التطور الكبيرة كظهور العضويات والاحياء الشاعرة والكائنات البشرية و (٢) لان نظرية ولس تقتضي حتماً القول بان الخليقة الاصلية لم تكن تامة : وكان من الضروري لها ان تستعين بقوة خفية خاصة لتكوين العالم المتطور و(٣) لانها تستدعي الايمان بوجود الكائنات منذ الازل (٤) واخيراً ان ولس انحرف قليلاً عن الفكرة العلمية الصحيحة بوضعه امام العوامل التي يمكن التحقق منها علميًّا — وهي المادة والطاقة والبروتوبلازم والعقل — عوامل روحية لا تأتلف والعلم الوضعي . ولكن رغماً عن كل ذلك ،فقد كان ولس يصرُّ على ضرورة التسلسل

والاستمرار في التطورات الطبيعية التي تسيطر على جميع الكائنات

﴿ الصورة التي رسمها « تشارلز كنغزلي » ﴾ من السخف ان نظن ان مجرد لفظ كلمة «تطور» يوصلنا الى فهم نشوء اصل الكائنات الحية اذ لا يستطيع احدنا ان يعكس تتابع المشاهد الكونية ليرى كيف ظهرت الطيور الاولى من صلب زحافات « الدينوسور» Dinosaurs المنقرضة ، فاننا رغم عجزنا عن اثبات هذه التحولات اثباتاً جازماً ، لا نستطيع الا ان نسلم بصحتها كما نسلم بصحة الحوادث التي جرت قبل التاريخ . فاننا عند ما نقول: «ان الطيور نشأت من الزحافات » لا نعني بذلك اننا علمنا كيف حصل ذلك النشوء ، وليس ذلك بغريب ، فاننا لا نستطيع مثلاً ان نوضح كيف نشأت الدجاجة الفضية من الدجاجة الوحشية قاطنة الهند في مدة قصيرة . فكيف نستطيع تعليل الخطوات الكبيرة كنشوء الطيور الاولى. على اننا في جميع هذه الحالات يجب ان نتذرع بالصبر ونمضي في سبر غور العوامل التي عملت ولا تزال تعمل في احداث التغيرات التطورية . فعوضاً عن ان نقول « ان نشوء الطيور او الانسان امر عجيب ينطوي على قوة روحية لا يستطيع العلم معرفة كنه حقيقتها » يجب ان نقول « ان هذه المشكلة تستدعي التفكير والاحاطة بها احاطة تامة تبعدنا عن التسرع في الحكم فيها » اذن ففكرة « ولس » تظهر كمن يحاول ان يمنح العمليات الطبيعية هبات روحية

وفي كتاب « تشارلز كنغزلي » الخالد المسمى «اطفال الماء » وردت عبارة جميلة لا بأس من درجها هنا . يقول المؤلف : عند ما اتى الطفل اخيراً الى احضان امهِ الطبيعة ، مؤملاً ان يجدها منصرفة الى اعمالها الكثيرة ، رآها ساكنة مكتوفة الايدي، فاستغرب حالتها هذه . عندئذٍ اجابتهُ بحكمة قائلاً «انظر يا بني ! انني اجعل الموجودات ان تكوّن نفسها بنفسها ». ومن هنا نستطيع ان نقف على ما ذهب اليهِ « كنغزلي » في هذه الصورة الخيالية لتفسير اعمال التطور

﴿ بين لابلاس ونابليون ﴾ كانت النظرية السديمية للرياضي الفرنسي لابلاس Laplace مقدمة للنظرية الحديثة في تولد نظامنا الشمسي . فقد اظهر لابلاس عام ١٧٩٦ ان الادلة متوافرة على ان الشمس والسيارات ترجع الى اصل واحد مؤلف من كرة غازية مشتعلة تدور حول مركزها وتدعى بالسديم، وهذا هو الراي الشائع الذي اذاعهُ الفيلسوف « كانت » Kant عام ١٧٥٥ . والرأي العام متفق في الوقت الحاضر على الاصل السديمي لنظامنا الشمسي وغيره من الانظمة الكونية المشابهة . على ان الذي يهمنا الآن هو ليس النظرية السديمية ، بل مقابلة لابلاس لنابوليون . وملخص الحكاية ان الامبراطور سأل العالم الفلكي عن الغرفة او المكان الذي يسكنهُ الله في «ميكانيكيته السماوية» فاجابهُ لابلاس ان لا قيمة لمثل هذا الفرض ، الا ان هذا الجواب اسيء فهمهُ كثيراً ، وذلك لاننا اولاً لا نستطيع ان نتصور ان لابلاس لم يكن رزيناً في موقف لا تجوز فيهِ الثرثرة وبوجهٍ خاص امام شخص كنابوليون ، وثانياً يمكننا ان نتأكد ان لابلاس لم يحاول ان يظهر بمظهر الملحد، وكلُّ ما قصدهُ العالم هو انهُ لا يمكن ان نتكلم عن الله

وعن الجاذبية في وقت واحد . فاذا سلمنا بنشوء النظام الشمسي من الاصل السديمي بصورة طبيعية ، عندئذٍ لا يبقى شأن لفرض شيء آخر غير ذلك . وكان يرمي لاپلاس من هذا القول الى ان فكرة الآلة الجليلة القدر هي غريبة في نطاق الكون بالنسبة للعالم الفلكي، وان المشكلات الصعبة في العلم لا يمكن انارتها باي ضوء ديني

ومع ذلك اذا اعتبر الفلكي بصفتهِ فلكيًّا ان نظام النجوم مستقل وقائم بذاتهِ، لا يكون قد طعن بالله بل بالعكس دلّل على حكمتهِ وقدرتهِ في تحويل الاجرام السماوية ذلك النظام البديع المحكم . اذن فليس ثمة من تناقض في قبول الفلكي النظرية السديمية من جهة وفي مشاركتهِ المتدين في تمجيد الله من جهة اخرى . والمهم في الامر ان لاپلاس اراد ان يقول ، انهُ ليس من حرج على العالم التطوري الحديث الذي يرفض مزج الافكار اللاهوتية بالافكار المقتبسة من الاختبار والتجربة في ان يكون متديناً ومتحمساً لدينه كالاستاذ «لويد مورغن» Prof. Lloyd Morgan

﴿العلم والفلسفة﴾ يدور البحث العلمي على المشاهدات الدقيقة التي تتكرر مراراً ، وعلى التبصر والتفكير للوصول الى النتائج المنطقية المترتبة على المشاهدات فهو لا يعنى بالفلسفات الاخرى التي لا تقوم على اساس محسوس قابل للقياس ، والفرق بينه وبين الفلسفة هو ان نظرة العلم الى الاشياء تبدأ من التجارب المادية بينما نظرة الفلسفة عامة شاملة . ويمكننا ان نقول ان الفلسفة هي التفكير الاستنتاجي لمجموع المبادىء التي تقررها تجاريبنا واختباراتنا ومن واجب الفلسفة الحديثة ان تعنى بكل النتائج التى تصل اليها التحقيقات العلمية واذن فيجب ان نتقبل كل طريقة تفسيرية وافية كالنتائج العلمية لنظرية التطور او الوراثة ، وعلى هذا يبدأ عمل الفلسفة في الواقع حين تقف التجارب والملاحظات العلمية

﴿ ما هي الحقيقة ﴾ اذا قلنا ان العلم ينقل الينا ما هو مضبوط ومدقق ويؤدي بنا الى اكتشاف الحقيقة نكون قد اقتربنا من الهدف الاصلي. ويمكننا ان نشبه البحث العلمي بالصيد بشبكة نظمت عيونها بحيث لا تستبقي الاَّ صفوفاً معينة من الحقائق ، وللعلم اساليب في البحث خاصة فهو لا يكون تامًّا ما لم يحافظ على السير ضمن نطاقها ، ومع ذلك اذا ما ذهب الفسيولوجي يبحث في حياة الحيوانات في غابة ما ثم عاد ينبئنا بعدم عثوره على أثر من العقل في بحثهِ ، عندئذ يجدر بنا ان نتذكر ان العقل لا يمكن اكتشافه بالوسائل الفسيولوجية . فالعقل هو نوع من السمك الذي لا تستطيع شبكة الفسيولوجي القبض عليهِ

﴿هل هناك تأثير متبادل بين العلم والدين ؟﴾ ان الموقف الذي وقفناه والذي لا نزال ندافع عنهُ هو انهُ اذا كان كل من العلم والدين مخلصاً لغايته الخاصة فلا يترتب على ذلك وجود اي تناقض بينهما في نظرهما الى الاسس الجوهرية ، لان العلم يحاول ان يصف ما حدث وما قد يحدث بتعبير « الدال المشترك الادنى » Lowest Common Denominator كالالكترونات

والبروتونات والاشعة والبروتوبلازم والعقل في حين ان الدين يحاول ان يكتشف ويفسر الطبيعة ومركز الانسان فيها بتعبير « المقياس المشترك الاعظم » Greatest Common Measure وهو الله

ولكن اذا اردنا ان نعطي للعلم ما هو علمي ، وللدين ما هو ديني — المشاهدات للاول والتفسيرات اللاهوتية للثاني — فهل ثمة اي تأثير لاحدها في الآخر ? لهذا السؤال اربعة اجوبة :

(١) ان النتائج العلمية يجب ان تدخل في تضاعيف الدين لتزيده رونقاً وفعلاً في النفس

(٢) يجب ان لا يتجاهل العلم الحقائق التي يتوصل اليها الدين بالاختبار

(٣) يجب ان يتجنب الدين التعرض للحقائق العلمية المستقراة من المشاهدة والاختبار

(٤) يجب تمحيص الاستنتاجات العلمية وتطهيرها من العناصر التي لا تمت الى العلم بصلة

﴿الفكرة العامة للتطور العضوي﴾ ان الفكرة العامة للتطور العضوي معناها ان الحاضر وليد الماضي وابو المستقبل . فنظام الطبيعة الحية يظهر لنا كسلسلة متتابعة من التحولات تقدمت فيها الحياة وارتقت وظهر على اثرها ضروب جديدة في عالمي الحيوان والنبات

فسَّر هذه الفكرة العلامة « اراسموس داروِن » عام ١٧٩٦ ، ففي كلامه عن « هيوم » Hume يقول : « استنتج (اي هيوم) ان العالم تولد اكثر من ان يكون قد خلق ، وانهُ قد نشأ بالتدريج من عناصر اولية صغيرة جدًّا فيها نشاط ذاتي كامن ، اما انهُ (اي العالم) قد « تطور » فجأة بقوة الارادة الالهية فأمر لا نستطيع الوثوق منه او الركون اليه » . ان كلمة «تطور» الواردة في القسم الاخير من هذه العبارة قصد بها « الخلقة » وليس « التطور » اذ انها استعملت عوضاً عن كلمة «تطور» بمعناها العلمي المعروف . ويفهم من الجملة عامة ان جد دارون كان يرمي الى تشبيه النشوء العضوي للفرد من جرثومة (كالفرخ من البيضة) بنشوء العالم وما عليه من كائنات ابتدائية صغيرة جدًّا . فالفراشة تنشأ من دودة وهذه من بيضة . والضفدعة تنشأ من الدعموص وهذا من بيضة ايضاً . ان كل هذه العمليات تشبه التطورات السلالية Racial evolution في استمرارها وتحولها التدريجي . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى لا تشبه التطورات السلالية من حيث ان الجرثومة ليست بداية بسيطة جدًّا ولكنها نتيجة الاحقاب وغنية بميزات ورثتها عن العصور السحيقة في القدم

﴿ تعريف التطور العضوي﴾ التطور هو عملية تكوُّن تدريجي وهي فكرة واسعة يصعب تحديدها . وقد نرى في المستقبل ان في استطاعتنا تمييز ثلاثة انواع من التطور : لا عضوي وعضوي واجتماعي . ونحن يهمنا في الوقت الحاضر البحث في نشوء وارتقاء وظهور واختفاء النباتات والحيوانات والانسان بصفته جسم حي . ويمكننا ان نعرف التطور العضوي بانه انتقال سلالي في جهة معينة تنشأ في خلاله انواع جديدة تشق لنفسها طريق الحياة ، وقد تحل محل الانواع التي نشأت منها او تسير جنباً لجنب معها . وكل ذلك يحصل بتحولات مستمرة اثبتها البحث العلمي

معرض المذاهب السياسية

—٣—

«العظامية الانكليزية في القرن الثامن عشر» : كتبنا هذا الفصل عن العظامية الانكليزية لانهُ يفسر الى مدى بعيد العظامية في الامم الاخرى — ومنها الامة العربية — في اكثر الاعصر التاريخية . والنظام العظامي الاريستوقراطي هو نظام متأصل في الانكليز وقد مثل دوراً من اهم ادوار حياتهم السياسية والاجتماعية . ولا يتلكأ العظاميون منهم ان ينسبوا كل المحامد التي تتغنى بها امتهم الى هذه الشكيمة العريقة في دمائهم والى ما بني عليها من نظام محافظ . وتتجلى القواعد التي قامت عليها هذه العظامية في ردّ الفعل الذي حدث في انكلتره من جراء الثورة الفرنسية الكبرى التي حدثت في سنة ١٧٨٩ فالاريستوقراطيون الانكليز استخدموا انواع الشدة في ابان تلك الثورة وعقيبها لاجتثاث كل حركة حرة من اصولها واستعصروا ادمغتهم لكي يؤلفوا فلسفة ترتكز عليها دعاويهم الطويلة العريضة في حق الحكم، ومعلوم ان قواعد الثورة الفرنسية قامت على استصراخ الادراك الانساني من اعماقه والاستناد الى مقتضيات الفهم السليم . بيد ان الاريستوقراطية الانكليزية لم تتنزل الى مقارعة الثورة على هذا الاساس ولا الى مجادلتها في هذه القواعد بل قالت بلسان (ادمند برك) خطيبها وكاتبها السياسي انها تأبى على الادراك الانساني ان يكون الاساس الصحيح للسياسة وعلى المنطق ان يكون المركز الذي ترتكز عليهِ فلسفتها ،واظهرت بكل ما اوتيت من عارضة وبلاغة شأن الوضع السياسي التقليدي المعنعن الذي تمثل في الاختبارات والتجارب المجموعة في قبضة طبقة من الحكام الوراثيين هم الطبقة الاريستوقراطية او هم «اهل الحل والعقد» كما في تاريخ الاسلام. فهذه الفلسفة التي قال بها (ادمند برك) يومئذٍ هي سرّ الحكمة الاساسية التي يبني عليها العظاميون المحافظون حججهم في انكلتره الى يوم الناس هذا بل هي التي اشار اليها افلاطون في « الجمهورية » في القرن الرابع قبل المسيح

ولا مراء ان هنالك فرقاً واضحاً بين عظامية الانكليز اللينة هذه وبين عظامية الفرنسيين

القاسية التي كانت سبباً مباشراً للثورة . فالقارىء يذكر ان شكل الحكم في فرنسا يومئذٍ كان ملكيًّا من دونه طبقة اريستوقراطية تمتعت بالشيء الكثير من الامتيازات والمنافع من غير ان يكون لها سلطة سياسية ، وكانت ابواب هذه العظامية موصدة في وجه جميع الطامحين المستجدين ولو جمعوا ثروة طائلة في التجارة او الصرافة ، وكانت الاساليب التي خوّلتهم امتيازاتهم ان يسلبوها من الناس ويتمتعوا بها عبئاً ثقيلاً اناخ على صدور الفلاحين بكلكله واثقل كاهلهم ، وكانت الضرائب فادحة تبذل بسخاء على الجيش لتأييد السلطة الوطنية والدفاع عن نفوذها ، وادى اعفاء الطبقة العظامية من الضرائب الى اثقال عاتق الصناعة والتجارة وزاد في اعباء الدهماء من الشعب . لذلك لم يندمج الرجال النابهون في الطبقة الحاكمة بل بقوا خارجها ليشتركوا في الثورة مع الفلاحين الجائعين المنهكين ومع العمال البائسين المستائين

اما في انكلتره فكان للعظامية سلطة سياسية نافذة عدا الامتيازات التي تمتعت بها ، ولكنها اظهرت من الحكمة والكياسة انها لم تعفِ نفسها من الضرائب بتاتاً ولا اوصدت ابوابها دون الطامحين المستجدين من الرجال الصالحين سواء من صاهر منهم العظاميين فاتصل بهم او من نال حق الانتقال الى العظامية برخصة رسمية حصل عليها لمال جمٍّ جمعهُ في التجارة او الصناعة او الصرافة ، فهذا الموقف اعترف بشيء من الحق يكتسبه العامة بالثروة او المصاهرة او الجاه فيصبحون من اهل الحسب . وفوق ذلك فالعظامية الانكليزية لم تقف في البلاد وقفة سلبية انانية بل اشتركت في ترقيتها الاقتصادية بهمة ونشاط . وهذا جميعه مما حال دون اجتماع العناصر العدائية عليها كما حدث لفرنسا يومئذٍ فأدى الى ثورتها في حين احتفظت العظامية في انكلترا ببنيانها وخرجت من جميع تلك العواصف الاوربية المزعزعة سليمةً بمجرد اصلاح برلماني يسمى اصلاح سنة ١٨٣٢ ثم انتقلت الحكومة بالتدريج من سلطة نيابية عظامية كانت انكلترا اسبق الدول الى استنانها الى سلطة عصامية ديموقراطية اصبحت شكل الحكم المطلوب في الدول الناشئة في القرن الثامن عشر . اما هذا الاصلاح البرلماني الذي حدث في سنة ١٨٣٢ فقد وسع حق الانتخاب حتى شمل الطبقات المتوسطة فقط فكان على طبقة العمال ان تنتظر حقها في الانتخاب الى ان قرّره البرلمان في سنتي ١٨٦٧ و ١٨٨٤ ولكن انكلترا ام الوضع النيابي لم تصر ديموقراطية حقًّا تتمتع جميع طبقاتها بالانتخاب الاّ يوم نال النساء هذا الحق بقرار برلماني في سنة ١٩١٨ بيد ان الاسعاف جاء متأخراً جدًّا فما وصل « الترياق من العراق » الاّ والطريقة الديمقراطية النيابية معبودة الرئيس ودرو ولسن وحجة الدول الغالبة على المغلوبة في الحرب العالمية — قد اقتحمتها طرائق اخرى ادعت الافضلية عليها وبارزتها في الميدان براز الند للند ، وزاد في الطين بلة ان اشراك النساء في الشؤون السياسية لم يحقق حلم الذين عقدوا عليه الآمال الكبار

وغني عن البيان ان اللين الذي اظهرته الادارة الانكليزية على ذلك العهد حال دون وقوع الكارثة ، ويذهب بعض الاجتماعيين الى ان هذا التكيف في الانكليز او القابلية التي تنحني من غير ان تنكسر هي الخلة القومية التي حالت دون الثورات العظيمة في بلادهم في حين ان من طبيعة الفرنسيين التصلب التام وان يحاولوا التمسك بكل شيء الى ان يرغموا على ترك كل شيءٍ ، هذا شأنهم في حربهم وسلمهم واحتلالهم وجلائهم وكل شأن من شؤون ادارتهم ، وقد تجلى في ايامنا هذه في مواقفهم العنيدة في المطالبة بالديون التي لهم كاملة وابتلاعهم الديون التي عليهم كاملة ، والاصرار على ان يبقوا مكتسين بالسلاح الى قمة الرأس وان يعروا خصومهم منهُ الى اخمص القدم ، بل ان هذه الخلّة فيهم ظهرت بثوبها القشيب في عصبة الامم في جلساتها الاخيرة عند ما قدّم مندوب فرنسا تقريره عن سورية فاتيح لاعضاء العصبة ان يقابلوه بالتقارير التي قدّمت عن العراق وانتهت في اكتوبر الماضي بانتظامه عضواً فيها ، وان يتبينوا الاسباب التي ادّت الى تراجع سورية تحت ارشاد الفرنسيين . وان كانت هي السابقة على العهد العثماني . فما اعجب هذا الارشاد الذي يحاول عبثاً ان يسوق شعباً راقياً الى الضلال والاضمحلال

وعلى كل حالٍ فالعبرة البليغة المستخلصة من الثورة الفرنسية ومن تلك الطبقة الفرنسية العظامية التي حاولت ان تمتص دماء الناس من غير عوض وعلى رأسها البلاط ومشروعاته الباهظة واستبداده اللامتناهي وعدم مبالاته بمطالب الامة هي مثل العبرة التي خلفتها لنا القيصرية الروسية الظالمة وعهد آل رومانوف في القرن الحاضر : دماء مهراقة وخراب شامل وثورة عاصفة لم تبق ولم تذر ، ومن العجب العجاب ان يرى المتتبع تباشير الشيوعية لجّة في الثورة الفرنسية كما يراها ناضجة في الثورة الروسية ، فقد قام في فرنسا في تلك الايام رجل ثوري اسمه (فرانسوى اميل بابوف) فنشر مذهبه السياسي فاذا هو لا يختلف في شيء عما حمله في صدره (لينين) و (تروتسكي) و (ستالين) وهذا التشابه والحق يقال درس تاريخي يجب ان يتلى كل يوم على رأس الحكومات العنيدة المتصلبة التي ليس في مناهجها شيء يسمى مصلحة الشعب المحكوم ، والثورة اذا حدثت تكون مثل القنبلة اذا خرجت من فوهة المدفع — لا سلطة لاحد عليها . قال (بابوف) في صحيفتهِ يومئذٍ [1] . «لماذا يتكلم الناس عن الشرائع وعن الاملاك ؟ فالاملاك هي حصّة المغتصبين والشرائع هي من عمل الاقوياء اما الشمس فتشرق على الجميع واما الارض فليست ملكاً لاحد . اذهبوا اذن يااخواني وانشروا الفوضى في هذا المجتمع الذي لا يلائمكم واقلبوه رأساً على عقب ودكوه دكّاً وخذوا منه كل شيء يعجبكم ، لان الفضلة هي من حق المعدم . وهذا ليس كل شيء ايها الاخوان والاصدقاء . بل

* The Revolt Against Civilization, Stoddard, P. 137

اذا وجدتم الموانع الدستورية عقبة في سبيل مساعيكم الكريمة فاسحقوا هذه الموانع وهذه الدساتير من غير تردد واذبحوا العتاة والنبلاء والمموهين بالذهب من اصحاب الملايين وسائر هؤلاء الاشرار الذين يقاومون سعادتكم المشتركة . انتم الشعب الحقيقي الوحيد القمين بان يتمتع بخيرات هذا العالم ، وعدل الشعب عظيم وجليل مثل الشعب نفسه فكل مايعمله مشروع وكل ما يأمر به مقدس »

وتعرف خطط (بابوف) من الجمل الآتية المستخلصة من بيانه الذي وضعهُ ليلة الثورة التي اعدها وسماه (بيان المتساوين) فقد جاء فيه من العبارات الجنونية الملتهبة قوله « ايها الشعب الفرنسي لقد عشت خمسة عشر قرناً ترسف في العبودية ومانشأ عنها من شقاء ، ومضى عليك ست سنوات (وهي سنوات الثورة) لم تكد في غضونها تتنفس وانت تنتظر الاستقلال والسعادة والمساواة — المساواة التي هي اول غاية في الطبيعة واول حاجة في الانسان وهي العروة الوثقى لكل اجتماع بشري مشروع

« نعم اننا نريد من الآن فصاعداً ان نعيش ونموت على قدم المساواة كما ولدنا ونحن ننشد التساوي الحقيقي او الموت — هذا مايجب ان نحصل عليه وسننال هذه المساواة حتماً بالغة مابلغت قيمتها . والويل ثم الويل لكل من يقيم نفسه حائلاً بيننا وبينها

« اما الثورة الفرنسية فليست الا مقدمة فقط لثورة اخرى اعظم منها واكثر هيبة وستكون الاخيرة . واننا سنرضى بكل شيء في سبيل المساواة ونمسح كل شيء للتمسك بها وحدها . واذا اقتضى الحال فلتضمحل جميع الفنون على شرط ان تبقى لنا المساواة الصحيحة

« واخيراً لتختف الفوارق المثيرة للاحقاد بين الاغنياء والفقراء ، والكبراء والصغراء ، والاسياد والمسودين والحكام والمحكومين ولايبق فرق في البشر عدا الفرق المبني على العمر وعلى الجنس . ولما كانت حاجات الناس وملكاتهم واحدة فلتكن لهم تربية واحدة وطعام واحد وهم جميعهم يقنعون بشمس واحدة وهواء واحد فلِمَ ياترى لا يكتفي كل واحد منهم من الطعام بنفس الحصة وبنفس النوع ؟

« ايها الفرنسيون افتحوا عيونكم وقلوبكم لفيض السعادة المدرار واعترفوا معنا بجمهورية المتساوين واعلنوها في الخافقين »

لقد اطلنا فيما نقلنا من بيان (بابوف) عن ثورة التساوي هذه وعذرنا في ذلك اننا اردنا ان نبين ما تجنيه الحكومات الظالمة على المجتمع من الجنايات التي لايعرف احد عواقبها ، وغير نكير ان ثورة (بابوف) هذه خنقت في المهد ولكن الآراء التي انطوت عليها بقيت مشتعلة تحت الرماد الى ان سنحت لها الفرصة فاندلعت السنتها تحرق الاخضر واليابس وتهدد النظام الاجتماعي من اساسه

شذوذ الاعضاء في الانسان

يصادف الاطباء احياناً في ممارسة صناعتهم اشخاصاً اعضاؤهم الداخلية تشغل مكاناً مخالفاً كل المخالفة للمكان الذي يجب ان تشغلهُ في الحالة السوية وحيث يجدونها عادةً : كوجود القلب والطحال مثلاً في الجهة اليمنى ، والكبد والزائدة المعوية في الجهة اليسرى الخ . فما اسباب هذا الشذوذ يا ترى ، وهل وضع الاعضاء المذكورة هذا الوضع ملائم للحياة من دون تعرُّض اصحابهِ للخطر ؟ واذا ما تصفحنا التآليف العلمية وجدنا ان اول اكتشاف من هذا القبيل يرجع الى القرن السادس عشر أي لما شرعوا في ممارسة تشريح الجثث . وفي ايامنا هذه اكتشف كثير من حوادث الشذوذ بفضل اشعة اكس واستعمالها في فحص الاحياء . فتبين أن الشذوذ المذكور ليس لهُ ايُّ أثر في اختلال وظائف الاعضاء بل ان علاقات هذه الاعضاء بعضها ببعض تبقى كما هي ، وفي غالب الاحيان ، ان لم نقل تقريباً دائماً ، يجهل اولئك الاشخاص المصابون بالشذوذ انهم مصابون بهِ . اما من جهة أصل هذا التركيب المقلوب في الاعضاء الداخلية فيكفي على ما يظهر ان يكون واحد منها شاذاً (كوجود القلب مثلاً في الجهة اليمنى) حتى تتبعهُ الاعضاء الاخرى وتحذو حذوهُ

ولنلق الآن نظرة عاجلة على الشذوذ الذي يمكن ان يطرأ على مختلف الاعضاء . فمن جهة العيون يجب ان نذكر الشذوذ الناتج في غالب الاحيان عن توقف النمو . فقد ذكر الباحثون حالات كانت فيها العيون ناقصة وقت الولادة . وهذا النقص يصحب عادةً وجود ما يسمونهُ « منقار الارنبة » وهو اسم يطلق على الشفة المشقوقة (Bec-de-Lièvre) مع فَقد جانب من الاصابع . كذلك الجفون تكون ناقصة التركيب في بعض الاحيان : كوجود شقوق تبتدىء مثلاً في الطرف الذي تنبت فيه الاهداب وتتجه الى فوق . او أن تكون الجفون ضيقة جداً حتى لا تكفي عند اغماضها لتغطية العين . وما تقدم ذكرهُ عن العيون والجفون يقال ايضاً عن الآذان التي كثيراً ما تصاب ببعض النقص : كفقدان الصيوان والصماخ مثلاً ، وفي بعض الحالات قد تصاب بفقدان غشاء الطبل او الأذن الوسطى

﴿ شذوذ الدماغ ﴾ يندر جداً ان يكون المصاب بها ذا صحة جيدة وذكاء تام لما لهذا العضو من المكانة في الجسم . ومع ذلك فقد ذكرت حوادث غريبة تناقض تلك العقيدة الراسخة في الاذهان حتى اليوم . فقد تبين عند بعضهم فقدان جانب من المادة الدماغية ، ورغماً عن ذلك عاش المصابون بهِ اعواماً طويلة من دون ان يطرأ عليهم ضعف عقلي او جسماني . ففسروا ذلك بان الاقسام السليمة في الدماغ نابت في فعلها عن الاقسام الناقصة

ومن الشواذ الاخرى في الدماغ التحام الـكرات بعضها مع بعض التحاماً جزئيًّا او كليًّا ، وظهور فتق عند الاطفال وقت الولادة يعرف بالقيلة الدماغية (Encéphalocèle) وهو فتق ناتج عن وقوف النمو ليس في الدماغ نفسهِ بل في عظام الجمجمة ويصحبهُ عادةً تمدد الأنسجة. فالمصاب بالفتق المذكور يندر أن يعيش والحالة هذهِ زمناً طويلاً

﴿ شذوذ جهاز الدوران ﴾ — القلب : ان مكانة هذا العضو خطيرة في الجسم حتى ليكفي ان يكون الشذوذ الذي قد يحصل فيه سبباً في اصابة اصحابهِ بأعراض خطرة ان لم نقل بتعذر الحياة عليهم . نعم انهُ يمكن للمرء ان يعيش اذا كان قلبهُ في الناحية اليمنى من صدرهِ انما لا يمكن ان تكون الحالة كذلك عند ما توجد فتحة توصل بين اجواف القلب اليمنى واليسرى. وفي الحالة السويّة لا بدّ من وجود فاصل بين دم العروق والدم الشرياني . فامتزاج الدمين على هذه الشاكلة بسبب وجود الفتحة المذكورة يؤول اذ ذاك الى زرقة لون الجلد مع ضيق تنفس شديد ودائم . والاولاد المصابون بهذهِ الاعراض يموتون عادةً بعد ولادتهم ببضع ساعات ، وآخرون منهم يعيشون سنة او سنتين ونادراً يبلغون سنّ الرشد

﴿ شذوذ الجهاز التنفسي ﴾ يندر الشذوذ بوجه عام في المسالك التنفسية . ومع ذلك فقد لوحظ عند بعضهم نقص احدى الرئتين. وذو الرئة الواحدة لا يكون معرّضاً والحالة هذه الاّ لضيق تنفس معتدل وغير دائم

﴿ شذوذ الجهاز الهضمي ﴾ الشفتان وسقف الحلق : الجهاز الهضمي اكثر الاجهزة تعرضاً للشذوذ في جسم الانسان كالعلـم او الشقّ في الشفة العليا عند الاولاد وقت الولادة — وهو شق يتجه نحو المنخرين فيبلغها في بعض الأحيان . وهذه الحالة يطلق عليها في بعض الاصطلاح الجراحي « منقار الارنبة » على ما ذكرنا اعلاه . وهي تشويه وراثي في كثيرٍ من الاحيان وحدوثهُ عند الصبيان ضعف حدوثه عند البنات ، وفي الشفة العليا اكثر منهُ الشفة السفلى. ويشغل الجهة اليسرى من الشفة العليا في الغالب (وهي الجهة الاكثر تعرضاً لذلك) او جهتي الشفة نفسها فيقسمها اذ ذاك الى ثلاثة اقسام (القسم الاوسط منها ارقّ من القسمين الجانبيين) او يكون الشق المذكور متوسطاً ومركزهُ تحت الأنف

ولحسن الحظ يمكن اصلاح هذا التشويه بعملية جراحية تعمل للطفل من الشهر السادس الى سنة بعد الولادة ما زال التشويه محصوراً في الشفة. امّا اذا تعدّاها الى عظم الفك الاعلى فيجب اذ ذاك الانتظار لاجراء العملية لدى بلوغ الولد السنة الثالثة من العمر على الاقل ولـكن يشترط ان يكون سليماً قويًّا . كذلك سقف الحلق الذي يمكن ان يُقسم الى قسمين بشق وسطي فيحدث حينئذٍ ما يسمونهُ في الاصطلاح الجراحي « حلق الذئب» (gueule-de-loup)

الأسنان : وهذه ايضاً لا تخلو من الشذوذ سواء في زيادتها عن العدد الطبيعي المعروف وفي هذه الحالة يصعب وجود مكان لها في الفم ، او انها تنبت خارجة عن اماكنها المعروفة ،

او يكون جذرها واصلاً الى محجر العين ، او قد يلتحم سنّان او اكثر . وعلى ذكر الاسنان يُروى أن بِرّوس (Pyrrhus) ملك مقدونية الشهير الذي مات في سنة ٢٧٢ ق . م . كانت اسنان فكهِ ملتحمة بعضها مع بعض وتؤلف بتركيبها قطعة واحدة

ولا يسلم اللسان من الشذوذ . فاما ان يكون مربوطاً الى اسفل الفم بعَصَبَة قصيرة جدًّا وهذه حالة نادرة ، او ان يكون مشقوقاً كلسان الافعي

المعدة والمعى والحجاب الحاجز : أهم الشذوذ التي يمكن ان تحصل في العضوين الأولين هي زحولها عن مكانهما . اما الحجاب الحاجز وهو الفاصل بين الجوف الصدري والجوف البطني فقد لوحظ فيهِ عند بعضهم وجود فتحات غير طبيعية مما يؤول الى دخول بعض الاعضاء البطنية في الجوف الصدري . ويجب ان نذكر ايضاً هنا فتق السرَّة عند الولد وقت الولادة . وهو فتق صغير الحجم يسهل اصلاحهُ بواسطة العصاب ، لكنهُ قد يكون كبيراً في بعض الاحيان حتى ليحتوي على الجانب الاكبر من اعضاء الجوف البطني — والكبد احياناً . فتسوء اذ ذاك حالة الولد وتتعذر ملافاتها بالطرق الجراحية وغالباً تكون العاقبة وخيمة

وثمة شذوذ آخر في الجهاز الهضمي على جانب عظيم من خطورة الشأن هو انسداد فتحة الشرج وقت الولادة . فلكي تتاح الحياة للطفل لا مندوحة طبعاً عن اجراء فتحة صناعية بواسطة الجرَّاح . انما توجد حالات لا يمكن اجراء هذه العمليات فيها وبذلك يقضي الطفل نحبهُ

الكبد : لا غنى لحياة الانسان عنها والتصانيف الطبية لم تذكر في وقت من الاوقات عدم وجودها عند احد من الناس . بل بالعكس اكتشفوا انها كانت احياناً مزدوجة بكبدٍ أخرى تابعة لها

﴿ شذوذ جهاز البول ﴾ — الكلى : هي من أهمّ الاعضاء في جسم الانسان ولا يمكن ايضاً الاستغناء عنها كالكبد لكن احدى كليتي الانسان يمكن ان تكون ناقصة وقت الولادة وكثيراً ما نرى اناساً يعيشون بكلية واحدة بعد استئصال الاخرى منهم بعملية جراحية والمولود بكلية واحدة تكون كليته عادة اضخم منها في الحالة السوية لقيامها بوظيفة الاثنتين . واغرب ما شوهد من هذه الوجهة اتحاد الكليتين معاً فتتكوّن منهما كلية واحدة كائنة امام العامود الشوكي بشكل هلال او حدوة

الحالبان : يصلان الكلية بالمثانة كل واحد من جهة كما هو معلوم . لكن يحدث ان يكون كلاهما في جهة واحدة . وتوجد حالات تتصل فيها واحدة من هاتين القناتين او كلتاهما بالمعى المستقيم او الاعضاء الاخرى المجاورة بدلاً من أن تتصلا بالمثانة ، ممَّا يؤول الى درَّة البول بصورة مزعجة وغير محتملة . اما المثانة فلا تخلو من شذوذ يطرأ عليها ويكون ذلك بسبب توقف نموها ، فتفتح اذ ذاك الى الخارج لعدم وجود قسم الجلد الذي يغطي البطن فتكون النتيجة درَّة البول والالتهابات الحادة بتعرض غشاء المثانة المخاطي الى الخارج وهي حالة من شأنها تكدير عيش المريض واقلاق راحته . فلتلافي هذه العلة المزعجة لا مندوحة عن طلب مساعدة الجراح ليقوم بعمل العملية اللازمة

العراق — الدكتور عبده رزق

على ذكر المجمع اللغوى الملكى

حاجتنا اللغوية الى مجمع يوثق به

للسيد محب الدين الخطيب صاحب مجلة « الفتح »

الحاجة الى مجمع لغوي

قاعدةٌ مطّردة يجب علينا ان نراعيها في جميع ما نحن عازمون على القيام بهِ من ضروب الاصلاح والتجديد ، وقد جرّب العملَ بها ثلاث امم عظمى في ادوار التاريخ الثلاثة فكانت سبب عظمتهنّ وسر تفوقهنّ على امم الارض : الرومانيون في الازمنة القديمة ، والعرب في الازمنة المتوسطة ، والانكليز في الازمنة الحاضرة . هذه القاعدة هي ان لا تهمل الامة من تقاليدها الاّ ما تبين ضرره ، وان لا تأخذ من تقاليد غيرها وأوضاعهم الاّ ما اوجبت الضرورة اخذه . فالمهارة في اخذ ما يجب اخذه وترك ما يجب تركه هي سرّ عظمة هذه الامم الثلاث واستفحال سلطانها

واللغة احد الاوضاع الجليلة الخطر في كل امة ، وهي كائنٌ حيٌّ : يجب أن تبقى له خصائصهُ وسجاياه المميزة له عن غيره ، ويجب ان يتغذى دائماً بما يكفل له البقاء والنماء ، ويجعله صالحاً لأداء وظيفتهِ في الحياة . وأيّما امة تخطىء مناهج الصواب في تغذية لغتهـا ترتكب بذلك جريمة لا نجاء لها منهـا . واللعب في مصير اللغات أعظم خطراً من اللعب بمصير الاوطان ، والخيانة في ذلك شرّ من الخيانة في هذا . ومن الخيانة ما يتمّ على ايدي اناس وهم في غفلة عن نتائج ما يعملون ، وفي مثل هؤلاء هبط الوحيُ على قلب سيد المرسلين ، من كلام رب العالمين بأنهم « اذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض قالوا : انما نحن مصلحون : ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون »

ان سلطان العربية في سجاياها الخالدة التي ما برحت مرآة كل عصر وكل جماعة وكل بيئة ، رغم خلودها وثباتها ورسوخ أصولها

أرأيت لو اني عثرت على قصيدة من قصائد بشّار المفقودة ، وعرضتُها على النظار قرائي الى جانب قصيدة للرُّبَيع بن ضُبَع — دون ان اسميَ ناظميها — هل يشكُّ القراء في ان القصيدتين من عصرين مختلفين ؟ انهم لا يشكّون في ذلك قطُّ لأن شعر الرُّبيع مرآة صادقة

لعصره وبيئتهِ ، كما ان شعر بشار مرآة صادقة لعصره وبيئتهِ ، حتى فيما حاول بشار ان ينحو فيه نحو الأعراب من شعره. مع ان سجايا اللغة في شعر الربيع وبشار ما برحت محتفظة بسلطانها مستقرة في مكانها . وكذلك الحال في شعر المتنبي ومحمود سامي البارودي وكل عبقري كانت هذه اللغة ترجمان الدقيق من خواطره والسامي من الهاماته ، فهي قد اتسعت لاغراضهم دقة وسمواً — بعد ان وسعت كتاب الله لفظاً وغاية — فلم يخرجوا على قوانينها ولم يتمردوا على سجاياها

قلت ان اللغة يجب ان تتغذى دائماً بما يكفل لها البقاء والنماء ، ويجعلها صالحة لأداء وظيفتها في الحياة . وهذا حقٌّ لا يرتاب فيه عاقل ، وعليه مضى الذين سبقونا في هذه الصناعة في الدول العربية المتقدمة فضربوا في ذلك بسهم على قدر حاجتهم ، مراعين قوانين التغذية التي لا طغيان فيها على سجايا اللغة وخصائصها ، ولا خروج فيها على انظمتها وقوانينها . وان الامة التي تريد ان تجاري الامم الراقية في اقصى ما وصلت اليهِ من معارف البشر لا بدَّ لها من ان تغذي لغتها بالالفاظ والاصطلاحات الدالة على تلك المعارف فتأخذ من ذلك على قدر الحاجة وتستعملهُ في مكان الحاجة ، فيكون من ذلك لغة للعلم غير لغة الادب ، واساليب للبيان يليق كل منها بما استُعمل له

ان الدولة العربية في العهد العباسي لما رأت طغيان التغذية في اللغة أصبح مجلبة شرور لا يجوز الاغضاء عليها بما يرتكبهُ المترجمون من شحن العربية بالفاظ اعجمية قد يكون في العربية ما يغني عنها ، فضلاً عن سوء ترجمتهم للاصطلاحات العلمية ، وتبذلهم في الاساليب الكتابية بادر رجالها في الحال الى الاخذ على ايدي ضعاف المترجمين فعهدوا بمهمة تغذية اللغة من الجانب العلمي الى علماء بلغاء ينظرون فيما يترجمهُ المترجمون فيصلحون لغتهُ ، ويهذبون مصطلحاته ويقوّمون اساليبه ، احتفاظاً بخصائص العربية وسجاياها ، ولولا ذلك وغيره من مظاهر عناية الدولة والعلماء ، بل لولا كتاب الله تتلى آياته في كلِّ بقعة من بقاع العالم الاسلامي ، لكانت العربية اليوم كاللغة المالطية انحطاطاً وفقراً وابتذالاً

وبعد فان اللفظة الاجنبية في الكلام العربي ، كالجندي الاجنبي في الوطن العربي . واذا كان في الاوطان العربية نفر يعرفهم الناس لا يسوءهم وجود الجندي الاجنبي يمشي بسلاحهِ فوق تربة الوطن المقدس فان جمهور الامة يحتقر من يرضى بذلك ويسمي عمله بالاسم اللائق به . واذا كان في حملة الاقلام من المنتسبين الى الآداب العربية نفر يعرفهم الناس لا يسوءهم العدوان على سجايا العربية ولا احتلال الالفاظ الاعجمية سطور كتاباتنا فان حكم الجمهور على هؤلاء لا يقل عن حكمه على اولئك ، لأن الامرين يرجعان الى معنى واحد

نحن نحتاج الى الفاظ جديدة تدلُّ على المعاني الجديدة ، ولكننا نريدها عربية يأنس بها كلامنا ، ونريدها ملائمة لخصائص لغتنا وسجاياها ، وغير متمردة على قوانينها وأنظمتها ،

سواء كان هذا التمرد منبعثاً عن نكاية او عن غفلة. لهذا الغرض ، وبدافع من هذه الحاجة ، فكّر المفكرون في تأليف مجامعنا اللغوية وحاولوا غير مرة تحقيقها

تاريخ فكرة المجمع العلمي [1]

كان السيد عبد الله نديم اول من دعا — بطريق النشر — الى فكرة انشاء المجمع اللغوي (فاقترح ذلك في صحيفته (التنكيت والتبكيت) التي كان يصدرها في الاسكندرية سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م) ، فاخذت الفكرة في الاختمار من ذلك العهد . وحوالي سنة ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨م) تناقلت الافواه خبر سعي جماعة من الفضلاء في تأليف مجمع لغوي برئاسة عبد الله فكري باشا

ثم سعى السيد توفيق البكري رحمهُ الله — نقيب الاشراف يومئذ — في تأليف مجمع سنة ١٣٠٩ هـ (١٨٩٢ م) فتمَّ له تأليفهُ برئاستهِ (ويرى توفيق افندي حبيب في المقتطف ٧٢ : ٥٨) ان ذلك كان على اثر دعاية ويلككس الى الكتابة باللغة العامية) . وكان من اعضاء هذا المجمع الشنقيطيُّ الكبير والشيخ حسن الطويل والشيخ حمزه فتح الله واسماعيل صبري باشا ومحمد المويلحي بك وغيرهم من اساطين اللغة والادب . وكان عمر هذا المجمع قصيراً ، فانهُ عقد سبع جلسات اولها يوم ٢١ شوال سنة ١٣٠٩ هـ (١٨ مايو ١٨٩٢م) وآخرها يوم آخر رجب سنة ١٣١٠ هـ (١٧ فبراير سنة ١٨٩٣م). وفي المذكرة التي اعتمدت عليها في كتابة هذه النبذة أن من اعضاء هذا المجمع من انتظم فيه مكرهاً فلم يشهد الاَّ الاجتماع الاول منه ثم انقطع عن حضور الجلسات . والالفاظ التي وضعها هذا المجمع واقرها عشرون لفظة :

عشر منها من وضع رئيسهِ السيد توفيق البكري وهي (مَرْحَى) لكلمة (برافو) Bravo ، (برْحَى) لكلمة في Fi، و(مِدْرَه) لكلمة افوكاتو Avocat، و (المِسَرَّة) لكلمة تلفون Téléphone ، (وعِمْ صباحاً) لكلمة بُونجور Bonjour ، و (عم مساء) لكلمة بون سْوار Bonsoir ، (والبهْو) لكلمة صالون Salon، والقفّاز لكلمة جوانتي ،و(النُّمْرة) لكلمة نومرو Numéro، و (الوشاح) لكلمة كرْدون Cordon .

وعشر من وضع السيد محمد بك المويلحي وهي (الطنف) لكلمة بلْكون Balcon ، و (الحرّاقة) لسفينة التوربيد port Torpille ، و(الجديلة) لكلمة مُودة Mode ، و (بطاقة الزيارة) لكلمة كارت ڤيزيت Carte de Visite ، و (المرَبّ) لكلمة كُلُوب Club، و(الحذاقة) لشهادة الدراسة كالبكلوريا ، و(العاطف) و (المِعْطف) للبالطو او الپاردسُّو Pardessue ، و (حصب الطريق بالحصباء) لجملة وضع المكدام في الطريق ، و (الشرطي) و (الجلواز) و (التؤتور) لرجل البوليس ، و (المِشْجَب) للشماعة Portemanteau

وقد انتقد السيد عبد الله نديم هذه الكلمات في مجلتهِ (الاستاذ) فاختار (بَخٍ) لبرافو ،

---

(١) تلقيت اكثر ما ورد في هذه النبذة عن مذكرة كتبها أعلم رجالنا في هذا الموضوع

و (النادي) للكاوب النهاري ، و (السامر) للكاوب الليلي ، و (النمط) و (الطراز) للمودة .
واستحسن أن يخصّ كردون القضاة بالقليد لأنهُ لا جوهر فيه ، ولم يذكر للتورپيد مرادفاً ،
ووافق على سائرها . وانتقدها ايضاً صاحب الهلال فاستحسن من العشر الاولى ثماني ، وخالف
في اثنتين : فاختار المحامي للاڤوكاتو ، والرقم للنومرو ، واستحسن من الثانية ستًّا وخالف في
اربع : فاختار النادي الكاوب، والزيّ للمودة ، والشرفة للبلكون [1] ، ولم يذكر للتورپيد مرادفاً

ولما اصدر الشيخ ابراهيم اليازجي مجلة (البيان) في القاهرة استطرد في مقالة (اللغة والعصر)
الى انتقاد هذه الالفاظ ، فلم يستحسن لكلمة براڤو «مرْحَى» ولا لكلمة fi «برحى» لوجود
مثل «بخٍ بخٍ» و «بهٍ بهٍ» و «لله انت» و «لله ابوك» الخ للاستحسان ، و «سوءة لفلان»
و «قبحاً له» و «تبًّا له» الخ للاستهجان . كما انهُ استنكر «عِمْ صباحاً وعم مساءً» لانهما
مما اميتَ استعماله قديماً مع وجود ما هو اخفُّ منهما على الالسنة من الفاظ التحية . وانتقد
«النمرة» للنومرو ولكن لم يذكر لها مرادفاً [2] . واختار للتورپيد الرعاد ، وفضل الجناح على
الطنف للبلكون ، وخصّ المعطف بالبالطو ، والدثار بالپاردسُّو

ثم انشيء في القاهرة عام ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧م) نادي دار العلوم برئاسة محمد حفني ناصف
بك العلامة الشهير ، وخص بعض جلساته للبحث في ما يتبع في وضع الالفاظ، فكانت نتيجة
مباحثه ان قرر ما يأتي : « يُبحث في اللغة العربية عن اسماء للمسميات الحديثة بأي طريق
من الطرق الجائزة لغةً ، فاذا لم يتيسر ذلك بعد البحث الشديد يستعار اللفظ الاعجمي بعد
صقله ووضعه على مناهج اللغة العربية ، ويستعمل في اللغة الفصحى بعد ان يعتمده
المجمع اللغوي الذي سيؤلف لهذا الغرض»

ثم طرأ فتورٌ على اعمال النادي اعقبهُ انتخابُ محمد عاطف بركات بك (باشا) ناظر مدرسة
القضاء الشرعي رئيساً له ، فحاول انهاضه بعدّة وسائل ، منها انهُ قرر في الجلسة المعقودة في
١٧ صفر سنة ١٣٢٧ انشاء مجلة شهرية فانشئت باسم (صحيفة نادي دار العلوم) ، وصدر اول
عدد منها في ١٥ ربيع الاول من تلك السنة (٦ ابريل سنة ١٩٠٩ م) .ثم عنَّ لهم ان يستأنفوا
البحث في اللغة ووضع اسماءٍ للمسميات الحديثة فاستحسنوا « ان ينتخب عشرة من الاسماء
الاعجمية او العامية ، فيرسل الى كل عضو من اعضائه نسخة منها ليكتب كل عضو ما يراه
مناسباً لذلك الاسم من الكلمات العربية البسيطة او المركبة ، ثم تعاد هذه الاجابات الى النادي
في موعد معين ، وحينذاك تجتمع اللجنة العلمية للنادي فتبحث هذه الاجابات وتختار من
الكلمات اقربها مناسبة لمعنى الكلمة الاعجمية او العامية» . ثم اخذوا في نشر مايجتمع لديهم

(١) الشرفة : حلية من الحجارة تجعل منفصلة بعضها عن بعض على أعلى المساجد والقصور، فلا ترادف البلكون
(٢) كان من رأيه ان يوضع لها « الرقم » وقد صرح به في مقالات له اخرى

من هذه الالفاظ واعلنوا انهُ اذا مضى على نشرها شهر كامل ولم ترد اليهم ملاحظات اعتبرت رأياً عامّاً لجميع الاعضاء ، وكان عليهم ان يصقلوها بالسنتهم واقلامهم حتى تكون لعامة من يشتغلون باللغة العربية . ثم بدا لهم جمع ما تشتت من تلك الالفاظ في اعداد السنة الثانية فجمعوها ونشروها بعد تعديل فيها في العدد الثاني من السنة الثالثة مرتبة على حروف المعجم ، ثم تعطلت المجلة والنادي

وفي سنة ١٩١٧ اقام اسماعيل بك عاصم مأدبة في داره لصاحبي المقتطف حضرها بعض الفضلاء ، فاقترح بعضهم السعي في تأليف مجمع لغوي ، فتم تأليفه برئاسة شيخ الجامع الازهر ، وكان من كبار اعضائه احمد تيمور باشا وحفني بك ناصف والشيخ احمد الاسكندري والشيخ احمد ابراهيم واحمد كمال باشا واحمد زكي باشا والشيخ مصطفى العناني والدكتور يعقوب صروف . وكان يوالي اجتماعاته في دار الكتب المصرية ، والف منهُ لجاناً تشتغل كل لجنة منها بفرع من فروع العلوم والفنون فتضع لمصطلحاته الكلمات اللائقة بها . وحال بينه وبين الاستمرار اشتغال مصر بحركتها الوطنية بعد انتهاء الحرب العظمى . فلما جُعل عبد الحميد بك ابو هيف مديراً لدار الكتب رأى ان يسعى في استئناف المجمع اعماله فدعا اعضاءه الباقين الى الاجتماع بدار الكتب مساء يوم الثلاثاء ١٣ جمادي الثاني سنة ١٣٤٤ (٢٩ ديسمبر ١٩٢٥م) فاجتمعوا برئاسة وكيل المجمع الشيخ محمد بخيت وألفوا منهم لجنة للسعي لدى الحكومة في الاعتراف بهِ . ثم انتقل عبد الحميد بك ابو هيف الى رحمة الله تعالى ورضوانه فلم يجتمع المجمع بعد ذلك

وفي ١٦ ربيع الاول سنة ١٣٤٠ اجتمع بعض اعضاء المجمع الذي تقدم الكلام عليهِ ، وضموا اليهم خليطاً غير متجانس من الادباء ، واعلنوا تأسيس مجمع لغوي لتأليف معجم عصري يجمع بين مادة المعجم العربي القديم وبين ما استعمله الادباء المحدَثون وما يضعه المجمع نفسه من الاوضاع والمصطلحات . قلت : ان هذه الجمعية تألفت من خليط غير متجانس لان فيمن انتسب اليهم — ولو بالاسم — رجالاً يعدون من كبار اهل الادب ، كما ان فيهم من لا علم له بالقواعد الاولى من علم الصرف ، بل فيهم من لا يحسن مراجعة لفظة في القاموس المحيط ، وكانوا يحاولون ان يحصلوا من الحكومة على اعتراف رسمي يخوّلهم الحرية في العمل ، ويفتح لهم باب المساعدة على ما هم فيه ، فلم يظفروا ببغيتهم ، فكان ذلك قاضياً على مجمعهم

صفات عضو المجمع اللغوي

ان الصفة الاولى التي يجب ان تلاحظ في عضو المجمع اللغوي العلمُ بقوانين لغة العرب وتاريخ تطورها ، والشعور بروح العصر وما يتطلبه في اللغة من احوال . وهذه الصفة في عضو المجمع اللغوي ترجع الى القاعدة التي قلت في صدر هذا المقال ان من الواجب علينا ان نراعيها في جميع ما نحن عازمون على القيام به من ضروب الاصلاح . وفي الحقيقة ان تلك القاعدة معيار التوازن في التجديد فاذا طغى احد جانبيها على الثاني كان في ذلك فقدُ التوازن ،

وكان في ذلك السقوط . فمعرفة قوانين اللغة اذا لم تكن مقرونة بمعرفة روح العصر وما يتطلبه في اللغة من احوال ، كانت حينئذ معرفة جافة وهي ما نسميه الجمود ، وقد رأينا ولا نزال نرى جناية الجمود على نهضتنا . والشعور بروح العصر وما يتطلبه في اللغة من احوال اذا لم يكن مقروناً بمعرفة قوانين اللغة ، نتج عن ذلك تمردٌ على تلك القوانين ، وعبثٌ باللغة ، وكانت عاقبته الفوضى والهدم والشتات

ان الفشل الذي كان من نصيب جمعية السيد توفيق البكري ونادي دار العلوم ومجمع دار الكتب وغيرها ناشيء عن شيء واحد وهو ضياع صوت الاقلية القائلة بالتوازن بين قوانين العربية والحاجة العصرية ، لطغيان جلبة الجمود وتهويش الفوضى وظهورهما على صوت الاصلاح

وماذا تنتظر من مجامع اكثر من فيها اما من هؤلاء المجددين الذين لا يأنسون بما في معجم لسان العرب من مادة اللغة لانهم لم يتعلموا كيفية المراجعة فيه فيكتفون بالمنجد ، وهم يسمون الفوضى حرية والاباحة تجديداً والتهديم اصلاحاً . وإما من الجامدين على ما في الكتب المؤلفة في العصور المتأخرة ، فلا هم رجعوا الى ينابيع علومنا اللغوية الاولى التي دوّنها ابن جني ومعاصروه ومشيختهم والتابعون لهم باحسان وكان علمهم عيناً ثرّةً ستكون لنا مدداً سخياً يوم نباشر الاصلاح الحقيقي ، ولا هم عرفوا ما يقتضيه روح العصر فسدوا حاجة الناس فيه وساعدوهم على نيل مبتغاهم بما يحفظ للغة سجاياها الازلية الخالدة . فالصفة التي ينبغي ان تنشد في عضو المجمع اللغوي قبل غيرها هي المقدرة على حفظ هذا التوازن بين قوانين اللغة ومقتضى الزمان

المجمع اللغوي بين القديم والجديد

انا من القائلين بالتجديد الى اقصى حد تقتضيه حاجتنا ونهضتنا ، وما طرأ على عقيدتي هذه وهنٌ قط في يوم من الايام . اذ لا يعقل ان تكون صفحات الحياة البشرية في تغير ، وحاجاتها في تفاوت واختلاف ، ثم يأبى عاقل ان يأخذ بمقتضيات هذا التغير في صفحات الحياة ويصرّ على تجاهل ذلك التفاوت والاختلاف في حاجاتها . ولكن لفظ «التجديد» كلفظ «الاستقلال» ولفظ «حق الامم في تقرير المصير» صار يطلق على معانٍ تكاد تكون متناقضة ، فمن الواجب على المهتمين بأمر التجديد ان يحددوا معناه ليتفاهموا في مدلوله ويكونوا من امرهم فيه على بينة فلا يُدني الواحدُ منهم الحنظلة من فمه وهو يحسبها فاكهة حلوة ، ولا يتناول السمَّ مخدوعاً باسم آخر اطلق عليه

للتجديد في حركتنا الادبية والاصلاحية معنيان :

المعنى الذي يفهمه الانكليزي والالماني وافهمه انا معهما ، وهو ان اوضاع الامة ممثلة لكيانها الادبي ، وبقاء هذا الكيان متوقف على ان تحتفظ منه بكل ما ليس مضرّاً ، وان لا تضيف اليه من اوضاع الاغيار الا ما كان ضرورياً . فان لاوضاع الانكليز طابعاً خاصاً بهم كما ان لاوضاع الالمان طابعاً خاصاً بهم ، وترى كلاً منهما متجلياً في جميع ما يصدر عن

هؤلاء واولئك من صناعات واعمال وحركات . وانك اذا كنت من قرّاء كتبهم تكاد تلمس الاوصاف الخاصة بطابع كل منهم بادية في ذوق الطباعة وفي نوع الورق وفي شكل التجليد ، مع ان الحضارتين ترجعان الى اصل واحد . واذكر انني قرأت مرة فصلاً كتبه الاديب التركي الكبير سزأي بك ابن سامي باشا بعد اقامته الطويلة في بلاد الانكليز يذكر فيه تمسك الانكليز بما ليس مضرّاً من اوضاعهم واذواقهم ، واقتناعهم بأن ما عندهم من ذلك لا يعلو عليه شيء من امثاله في الامم الاخرى ، حتى انهم اقنعوا فتياتهم بأن للجمال الانكليزي معاني من الرقة واللطف لا توجد في امة من امم الارض . وهم مع شدة تمسكهم بما يمتاز به كيانهم الادبي لا يفتأون يراقبون بكل وسائل المراقبة ما يحدث عند غيرهم من تقدم في الصناعة ووسائل القوة ، فلا يكاد غيرهم يخطو في ذلك خطوة حتى يأخذوا هم ايضاً بها ويحاولوا ان يزيدوا عليها . فالتجديد عندي ان نأخذ بالضروري من اسباب القوة والتقدم على هذا النحو ، مع الاحتفاظ بما ليس مضرّاً من اوضاعنا وتقاليدنا ، لتبقى لنا الشخصية القومية التي نمتاز بها وتعصمنا عن أن نذوب فيمن هو أقوى منا . أما فكرة الجامعة الانسانية فليس لها محل في كتاب الايمان العصري الذي تدين بهِ الامم القوية وستبقى كذلك من الآن الى الف سنة اخرى فيجب على الامم الضعيفة ان تبتعد عن هذا المرض القاتل جهد طاقتها

والمعنى الثاني من معاني التجديد هو الذي يريد أصحابه أن يقنعونا بأن المدنية الاوربية كلٌّ لا يجوز أن نأخذ ببعض عناصره دون بعض . وهؤلاء اذا قالوا « رجعية » فانما يريدون الاسلام ، واذا قالوا « القديم البالي » فيعنون الاوضاع العربية التي يتكوّن منها كياننا الأدبي . وبعض هؤلاء صريح الى حد أن يقول « كما يجب على المصري أن يضحي بنفسه في سبيل مصر يجب على مصر أن تضحي بنفسها في سبيل العالم » والبعض الآخر منهم أكثر خبثاً وأشدُّ تحفظاً فلا يسمح لنفسه أن ينطلق الى هذا الحد ولكنه يحاول أن يهدم من صدورنا وقلوبنا حرمة كياننا الأدبي ، وأن يصوّر ماضينا لاحداثنا بصورة كاذبة يسهل معها على الجيل الآتي أن يكفر بالشرق ويؤمن بالغرب وأن يجعل مصر وغير مصر من أوطاننا قرباناً يذبحه بين أيدي جبابرة القوّة والتسلّط في القارة الاوربية

وهناك فريق ثالث يعيش في زماننا ولكنه لا يجهد فكره في معرفة هذه الامور ، ولا يميز بين تجديد وتجديد ، فينصب نفسه لعداوة المعنيين جميعاً . ومادام هذا الفريق صادّاً عن التجديد النافع المعقول فان نتيجة ذلك أن نبقى ضعافاً فتتمّ التضحية من سبيل آخر . ثم ان هذا الفريق بانكاره للتجديد المعقول النافع ينفّر الشباب عن كيانهم القومي ويقذف بهم الى الناحية الاخرى التي نسمع منها دعوة السوء ونداء التطرف والتفريط وسوف يكون حكمنا على هذا المجمع الذي انشىء حديثاً وموقفه منّا ومن حركتنا الاصلاحية ، بحسب العناصر التي يتكوّن منها والرجال الذين يكون المجمع تحت تأثيرهم ومسيّراً بأيديهم

الاستاذ سايس

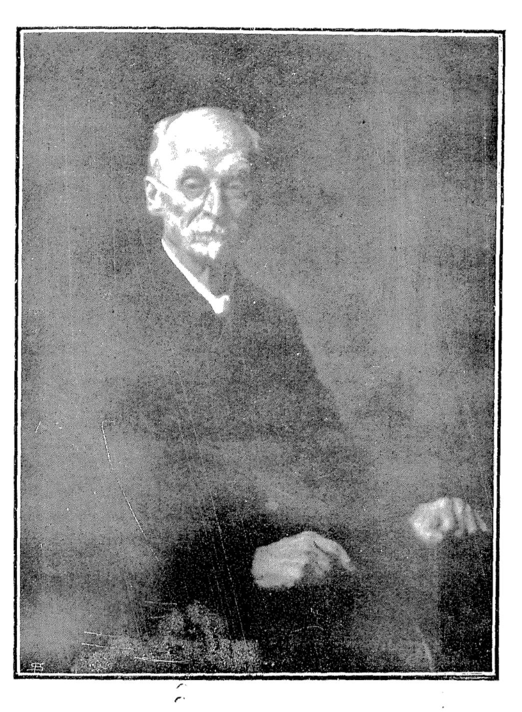
ترجمتهُ ورأيهُ في قِدَم الانسان المتمدن

Prof. A. H. Sayce

ذاع اسمهُ في اوربا سنة ١٨٧١ اذ كان عمره ٢٥ سنة وذلك بمقالة عن اللغة الشمرية (او الشنعارية) وظل من ذلك الوقت الى الآن وهو ينشر المقالات والكتب عن اللغات القديمة وتواريخ الساميين والمصريين واديانهم فلم تمضِ سنة من هذه السنين الستين لم ينشر فيها كتاب او مقالة ممتعة من قلمهِ

ولد سنة ١٨٤٦ ودرس في كلية الثالوث بجامعة كمبردج وكان رئيسها حينئذٍ بردفورد جبسن الرياضي فمال سايس الى العلوم الرياضية ومنها علم الفلك ولعلَّ ذلك ساعده على حلّ الكتابات البابلية . ثم انتقل الى جامعة اكسفرد وعكف على الدروس القديمة (كلاسيك) وانضمَّ الى الاستاذ بتيسن لتعضيد البحث العلمي في تلك الجامعة فنبغ منها على اثر ذلك كثيرون من العلماء العاملين . وكان علماء الآثار قد اخذوا يحلون الكتابات القديمة التي وجدت في غرب آسيا بواسطة كتابة قديمة وجدت في ثلاث لغات الاولى فارسية قديمة ثبت لهم انها شبيهة بالسنسكريت والثالثة سامية اي بابلية اما الثانية فكان امرها لا يزال غامضاً فاثبت سايس سنة ١٨٨٥ انها مكتوبة بلغة عيلام بلاد الملك قورش

واهم هذه اللغات الثلاث السامية البابلية لأن منها عُرف تاريخ البابليين والاشوريين وغيرهم من شعوب غرب آسيا الذين كانوا يكتبون بهذه اللغة . ولكن ثبت ان البابليين الذين كانوا يستعملون هذه اللغة اقتبسوا اسلوب كتابتهم وعمرانهم واكثر ديانتهم من شعب بائد اقدم منهم كانت لغتهُ لا تزال مجهولة . ووجدت الواح كثيرة في نينوى مكتوبة بلغتين وأُتي بها الى المتحف البريطاني فاتضح انها قواميس وكتب قراءة كان البابليون الساميون يتعلمون بها تلك اللغة القديمة التي كانت محسوبة لديهم لغة مقدسة. وكان اوبرت وهنكس قد وجدا انها ليست سامية فكان حلها اول ما وجه سايس همهُ اليه فنشر في مجلة علم اللغات (فيلولوجي) مقالة سنة ١٨٧١ في حل كتابة يذكر فيها الملك دنجي ملك اور الذي نشأ بين سنة ٢٤٥٦ و٢٣٩٩ قبل المسيح . وأخطأ سايس حينئذٍ بمتابعة هنكس في حسبانهِ الكتابة اكادية ثم ثبت لهُ انها شمرية كما قال اوبرت . ودرس تلك اللغة درساً مدققاً وعرف لفظها وقواعدها. وقد ساعدتهُ معرفتهُ اللغة الشمرية على تأليف كتابهِ في قواعد اللغة الاشورية سنة ١٨٧٥ . ثم جعل يترجم ما يقع له من الكتابات الاشورية التاريخية والدينية والفلكية . وقد نشرت ترجماتهُ هذه في سبعة مجلدات من كتاب اخبار الماضي Records of the Past ومما حققهُ فيها ان السنة البابلية (او الشمرية) كانت تبتدىء في الاعتدال الربيعي . وترجم فصلاً يقال فيهِ



الاستاذ سايس

المستشرق البريطاني المشهور واستاذ الآثار الاشورية سابقاً في جامعة اكسفرد

مقتطف مارس ١٩٣٣ امام صفحة ٢٩٩

ان الشمس كانت تنزل حينئذ برج الثور فحسب ان ذلك كان في القرن السادس والعشرين قبل المسيح ثم ثبت انهُ كان في القرن التاسع عشر قبل المسيح . لان برج الثور كبير جداً نزلت الشمس اوله في القرن الخامس والاربعين قبل المسيح ودامت تنزله الفي سنة اي من سنة ٤٥٠٠ قبل المسيح الى ٢٥٠٠ قبل المسيح . وكان ليرد Layard قد وجد كتابات سفينية كثيرة فاكتشف سايس انها مكتوبة باللغة الثانية من لغات كتابات داريوس وانها عيلامية ثم وجدت كتابات اخرى من هذا النوع ثبت منها ان اللغة العيلامية كانت لغة واسعة لامة ذات عمران كبير

وقرأ اللغة السنسكريتية على مكس ملر واحسن اليونانية واللاتينية وتعلم كل اللغات الاوربية فاتسعت معارفهُ اللغوية جداً . وله القول المأثور وهو ان قوام اللغة المميز لها انما هو قواعدها وتصاريفها وتراكيبها اي صرفها ونحوها لا الفاظها . وله كتب ممتعة في هذه المواضيع مثل مقدمتهِ في علم اللغات ومبادىء علم المقابلة بين اللغات

ومن سنة ١٨٨٥ اتجه اكثر اهتمامهِ الى تاريخ الاديان ولا سيما اديان مصر وبابل والديانة الموسوية . وله في هذا الموضوع كتب كثيرة مثل «ديانة البابليين القدماء» و «نور جديد من الآثار» و «حياة اشعيا وعصره» و «الانتقاد الاعلى وحكم الآثار» و« تاريخ العبرانيين القديم» و« الحقائق الاثرية وتخيلات الانتقاد الاعلى» و «علم الآثار والكتابات السفينية» . وله خطب كثيرة دينية وعلمية في مثل هذه المواضيع . ومقالات شتى في المجلات العلمية ولاسيما اعمال الجمعية الملكية الاسيوية . وكان من اكثر العلماء بحثاً في اللغة الحثية وتاريخ الشعب وله في ذلك كتاب مشهور موضوعهُ « الحثيون وتاريخ مملكة منسية » طبع اولاً سنة ١٨٨٨

قدم الانسان المتمدن

من أكبر بواعث الحيرة التي كان المؤرخ يعانيها — وقد ظلَّ يعانيها الى عهد قريب — سيادة الاعتقاد بحداثة نشوءِ الحضارة وقصر عهدهِ والقول بانحطاط العمران وتقهقر الثقافة بدلاً من ارتقائهما . وكلا الاعتقادين مستمَدٌّ من حالة اوربا في القرون الوسطى . فالاعتقاد بانقضاء « عصر الحضارة الذهبي » نشأ بعد سقوط الامبراطورية الرومانية وسيادة العصور المظلمة . فكان المفكرون يقولون ان عهد الانسان المتمدن كان قصيراً والوثائق التاريخية التي ترتدُّ بالحضارة الى ازمان متوغلة في القدم غير جديرة بالعناية والتصديق واصبح ابطال الممالك القديمة وكأنهم حديث خرافة وجرَّدت الامبراطورية الشرقية العريقة من روعة القِدَم

ولكنَّ فجر عصرٍ جديدٍ في تاريخ العمران انبلج حديثاً . فالاسلوب العلمي بمعاونة المعول والرفش فتح امامنا عالماً جديداً فيهِ تتخذ الحقائق المشاهَدة فيهِ مقام النظريات . فنجم عن ذلك ان علماء الآثار اخذوا يكتبون من جديد قصة قِدم الانسان التي شرع الجولوجيون يجمعون نثارها من مدَّونات الصخور . فعهد الانسان المتمدن يجب أن يرتدَّ الى الوراء

طاوياً القرون نتيجة للبحث الاركيولوجي ، كما ارتدَّ عهد الانسان المتوحش متغلغلاً في جوف الماضي نتيجة لمباحث الجولوجيين والانثربولوجيين . فالبحث الأثري في القرن الأخير كشف لنا عن عالم جديد هو عالم الماضي المتمدن المتوغل في القِدم

وفي مصر التاريخية نجد ابلغ الأمثلة على ذلك . فاذ نحن نرى المؤرخين الأدباء يتسابقون للتقليل من قِدَم الحضارة المصرية نرى المنقبين بمعاولهم ورفوشهم يكشفون لنا عن حقائق تقلب نظرنا الى قِدَم هذه الحضارة رأساً على عقب . ففي سقّارة كشف المستر فرث عن مبانٍ لانعرف لها مثيلاً في تلك البلاد . فاذا قصرنا نظرنا على حقبة الملك زوسر — الدولة الثالثة — المحسوب الى عهد قريب ملكاً خرافيًّا ، وتأملنا ما في هذه المباني من الفن المعماري الدقيق قلنا ان مصر بلغت في ذلك العهد اوج الرقي . فالبناء والفن واللبن المطليّ تشير كلها الى قرون طويلة من النمو والارتقاء سبقت درجة الكمال البادية في آثار سقّارة . ثم اذا نحن تأملنا الكتابة الهيروغليفية على جدران هذه المباني وجدنا انها كانت قد بلغت من الكمال والاحكام في عهد زوسر ما كانت عليهِ في عصر رعمسيس وداريوس بعد ذلك بعشرة قرون او اكثر فلا ريب في ان قروناً طوالاً مرّت عليها قبل ذلك . وهناك دلائل على ان الخط الهيراطقي كان مستعملاً حينئذٍ . اما ادوات المعيشة اليومية كأثاث البيت والحلي والملابس وغيرها من ادوات الزينة فتدل مكتشفات الدكتور ريسنر الاميركي في مدفن الملكة هتب هرس — ام الملك خوفو باني هرم الجيزة الاكبر — ان مصر وحضارتها كانتا في مطلع عهد الدولة الرابعة في اسمى مراتب الرقي

ثم اذا التفتنا الى بابل وجدنا كذلك ان المكتشفات الحديثة ترتدُّ بنا الى فن من اسمى الفنون التاريخية التي عرفناها في عصر قديم . فقد كانت بابل القديمة ، في نظر المؤرخين الى عهد قريب مقصّرة في ميدان الفنون ، سواءٌ في ذلك بابل الشمرية وبابل الساميَّة . فسكانها كانوا في الغالب رجال تجارة وعمل . هم الذين شرعوا اساليب البنوك وطرائق التجارة الدولية ولكن حسّهم الفني كان دون براعتهم التجارية . على ان ما كشف في المدافن الملكية باور الكلدانيين على يد المستر وولي واعوانهِ يفسد حكمنا هذا افساداً تامًّا . فالتحف المصوغة من ذهب وفضة ، والاصداف المنزلة باشكال تخلب اللب ، تشهد بانهم بلغوا في فنهم اعلى المراتب. ومع ذلك فان هذه المدافن وما تحتوي عليها ترجع الى العهد السابق للتاريخ المدوّن في بابل. يؤيد ذلك ان الكتابات القليلة التي وجدت مع هذه التحف النفيسة كانت بلغة مسمارية لم تبلغ كمال النمو . فلما انشأ سرغون الامبراطورية البابلية الاولى سنة ٢٧٠٠ ق . م كان قد مضى على الكتابة المسمارية عهد طويل من النمو التاريخي . وجنباً الى جنب مع التحف الفنية عثر المنقبون على الاساليب التي جرى عليها هذا الشعب القديم في تقديم الضحايا — بالعشرات — وهو عمل يذكرنا بداهومي لا بالشرق الادنى . فالضحايا البشرية لم تكن معروفة في بابل التاريخية، ومجرّد وجودها في تاريخ البلاد السابق كان مجهولاً كل الجهل . مع ذلك نرى ان مدافن اور

لا تمتدُّ الى اقدم عهد في التاريخ البابلي . فالمستر وولي زعيم المنقبين هنا يقول ان تحت الطبقة التي وجدت فيها هذه المدافن خمس طبقات هي ولا بدَّ اقدَم منها . والنقب فيها يرجع بنا الى العهد الجولوجي القديم لما كانت مستنقعات بابل في طور التكوّن على رأس الخليج الفارسي

وقد تكون هذه المدافن ، الحديثة العهد اذا قيست بما قبلها خاصة بشعب سابق للشعب الشمريّ . فالشمريون يدعون نفوسهم «الشعب ذو الرؤوس السوداء» وهذا القول ينطوي على ان شعباً اشقر كان يقطن تلك البلاد . يؤيد ذلك ان الفن الشمري يمثل الشمريين اناساً ذوي رؤوس مسفطة مع أن أكثر الجماجم القديمة التى كشفت « في اور مصفحة (أي مستطيلة) » بشهادة السر ارثر كيث الذي فحصها . ولا يخفى ان الاموريين مرسومون في النقوش المصرية على أنهم شعب اشقر . اشقر الشعر ازرق العيون . والراجح ان الميتانيين العراقيين تحدّروا منهم وهم اسلاف الشمريين في تلك البلاد . وقد كشف الدكتور سپيزر في تيب جوْرا عن طبقتين تحتويان على آثار عمرانية تحت الطبقة الخاصة بعصر البرونز الذي ظهر فيهِ الشمريون . والآثار الذي وجدت في هذه الطبقة الأخيرة تشبه الآثار التي وجدت في اور والأبيّض ويرجع تاريخها الى دولة اور الاولى (حوالي ٣١٠٠ ق. م.) اما الطبقات السابقة لها فترتدُّ بنا الى العصر الحجري الجديد وعصر الخزف المدهون

وعثر المنقبون في مدافن اور على آثار تجارة دولية واسعة النطاق وصناعة تعدين راقية . فقد وجدت حلي وأدوات مصنوعة من الذهب والفضة والنحاس وبعضها منزَّل باللازورد . والراجح ان الذهب جاء من خليج فارس واما الفضة فمن مناجم جبال طوروس . وهذه الحقيقة متسقة مع ما كشف حديثاً في الصين وشمال الهند الغربي . فقد عثر السر جون مارشال في موهنجو دارو وهارپا (الهند) على آثار مدينة تدلُّ كل الدلائل على شدة اتصالها بعيلام وبابل الشمرية . وفي الصين وجد الاستاذ اندرسن خزفاً مصقولاً ومدهوناً من العصر الحجري الجديد وهو يمت بصلة الى الخزف الذي وجد في سوسا من ذلك العصر وقد وجد خزف شبيه بالاثنين في بابل وفي بلدة سكشي غزو الى الشمال من خليج انطاكية . ثم ان مباحث الأستاذ لي آت مِنْ الصيني في هونان اثبت ان دولة شانغ (١٧٦٦—١١٥٤)ق.م. ليست خرافية قط وعليهِ فلا بدَّ ان تكون كتابتها وعمارتها قد مرَّت في دور طويل من النمو قبلما بلغت ما بلغهُ من الاتقان والرقي . كذلك يستدلُّ من الالواح المسمارية الكبدوكية التي كشفت في كرا ايوك على اتساع تجارة البابليين ورقيها . اما ونحن نعرف تاريخ هذه الألواح فالاشارة فيها انما هي الى تجارة البابليين في عهد الدولة الاورية الثالثة (٢٤٠٠—٢٣٠٠) ق.م. وغني عن البيان ان الزمن السابق لنشوء تجارة بلغت مرتبة سامية من الرقي، بما فيها من وسائل النقل واساليب الكتابة والحساب والمعاملة طويل جداً . فالانسان المتمدن اقدم جداً مما كنا نظن

مهاتما غاندي

— ٥ —

العودة الى الهند

حان الوقت الذي اغادر فيهِ انجلترا ، وحصلت على اجازة بالسفر على الباخرة « آسام » في شهر يونيه . وكانت الرياح « الموسمية » Monsoon قد اخذت تهبُّ عند ما بلغنا بحر العرب وظلَّ الجو عاصفاً طوال سياحتنا الى بومباي ، بعد ان غادرنا ميناء عدن . واصيب كل من كان على الباخرة بدوار البحر ، غير أني ظللت مُعَافىً ، وشعرت بكثير من السرور والمرح اذ كنت اقف على ظهر السفينة ارقب هياج العاصفة وتلاطم الامواج الثائرة . وكان اكثر المسافرين مصابين بالدوار ، فلم يكن يحضر الى غرفة الطعام للافطار سوى اثنين او ثلاثة أنا واحد منهم ، فتقدم لنا عصيدة القرطم في اطباق نتشبث بها في احضاننا لئلاَّ تفلت منها العصيدة وتلوثنا

كانت العاصفة التي ترسل باهازيجها في الخارج ، رمزاً الى العاصفة الثائرة في نفسي . على أن عاصفة الطبيعة لم تستطع ان تهزَّني او تزعجني . وعن هذا عجزت ايضاً العاصفة التي كانت تثور في نفسي . وكنت اتوقع ان اواجه عاصفة اخرى يثيرها اهل طائفتي . اضف الى ذلك ما كنت اشعر بهِ من عجزعن ان ابدأ حياتي كمحام . ولما كنت بطبعي مصلحاً ، اخذت أكدُّ نفسي في التفكير بأية ناحية من نواحي الاصلاح أبدأ . ولكن القدر كان يخبأ لي اكثر مما جال في خاطري

حضر أخي الاكبر من « كاثياوار » ليتلقاني على المرفأ . وكان قد تعرف بالدكتور «مهتا» واخيهِ . ونزلنا ضيفين في بيت اخي الدكتور « مهتا » بعد ان الح على اخي الحاحاً . وبذلك تحوَّلت المعرفة التي بدأت في انجلترا الى صداقة دائمة بين الاسرتين وظللت طوال رحلتي الى وطني اتطلع الى لقاء أمي . وكنت اجهل انها لم تعد بعد بين الاحياء لتتلقاني بذراعيها وتضمني الى صدرها . ولقد القى اليَّ اخي بهذا الخبر المحزن ، بعد ان اخفاهُ عني في خلال اقامتي في انجلترا ، واراد بذلك ان يكفيني مؤونة الصدمة وأنا في بلاد اجنبية . والحق أن هذا الخبر كان صدمة عنيفة لي ، ولكن لم انطوح مع الحزن والاسى . وكان حزني على فقد امي اعظم من حزني على فقد أبي . غير اني اذكر تماماً اني لم اتمادَ في التعبير عن حزني الى الحد الذي يخرجني عن الوقار ، حتى لقد استطعت ان احبس دموعي ، وان امضي في اعمالي كما لو كنت في حالتي العادية ، وكأن لم يكن في قلبي حزن عميق

قدمني الدكتور « مهتا » الى كثير من الاصدقاء ، كان أحدهم أخاه واسمهُ « ريفاشنكر جاجفان » وكان تعارفنا مقدمة لصداقة طويلة ظلت طول عمرنا على احسن حال . ولكني أريد ان اشير على وجه خاص الى « تقدمة » قدمني بها الدكتور « مهتا » للشاعر رَيْشَانْد Raychand وهو يمت بقرابة الى أخ كبير من اخوة الدكتور « مهتا » ، واحد المساهمين في اتحاد الصاغة . ولم يكن هذا الشاعر قد تجاوز الخامسة بعد العشرين من عمره . غير ان اول لقاء بهِ اقنعني انهُ رجل قويم الاخلاق واسع المعرفة. وكان يُلَقَّبُ « بالمَعْلَمة »[1] Shatavadhani وحرضني الدكتور « مهتا » أن امتحن قوة ذاكرته ، فاخذت أعيد كلمات مما اعرف من مختلف اللغات الاوربية ، وسألتهُ ان يعيدها ، فاعادها على نفس الترتيب الذي نطقتها بهِ. ولقد شعرت باني احسده على كفايته هذه ، غير اني لم أوخذ بها . اما ما أثار اعجابي بهِ بحق فسعة معرفته بالكتب المقدسة واخلاقهُ العالية ، وتحرقهُ واشتهاؤهُ ان يحقق ذاته ويصبح بها مستقلاً في افق جديد . وكان هذا غرضهُ الذي من اجله يعيش . وكثيراً ما كان يردد « ابياتاً » من شعر « مكتاناد » Muktanad كنت اشعر بانها محفورة على صفحات قلبه :—

« أشعر باني في نعيم عندما « اراه » (الله) في كل عمل من أعمال يومي . والحق انهُ الخيط الذي يصل حياة مُكْتَاناد »

كانت تجارة « ريشاند—باي »[2] تقوَّم بمئات الالوف من الروبيات. وكان خبيراً باللآلئ والماس . ولم تكن تعترضهُ مشكلة من مشاكل العمل الاَّ وتصبح بين يديه سهلة هينة . ولكن كل هذه الاشياء لم تكن المحور الذي تدور من حوله عَجَلَةَ حياتهِ . اما حياته فكانت تدور عجلتها حول الشهوة في ان يرى الله وجهاً لوجه . فكنت ترى بين الاشياء الكثيرة المتناثرة على مكتب عمله كتاباً دينيًّا ويومياته . فكان لدى انتهائهِ من عمله يتناول الكتاب الديني او اليوميات . واكثر ما نشر من مؤلفات ، لم تخرج عن انها منتخبات من يومياته . والرجل الذي يستطيع أن يعكف توًّا ، وبمجرد ان يخلص من اعماله التجارية ، على الكتابة في الاشياء الخفية العميقة في اغوار النفس ، ليس برجل تاجر على اطلاق القول ، بل رجل يبحث عن الحق بكل معناه . ولقد شهدته مأخوذاً بابحاثه الروحية وهو مغمور في لجة عمله التجاري مرات لا مرة واحدة . ولم الاحظ انهُ فقد توازنه العقلي في اي ظرف من الظروف . ولم يكن بيننا اية علاقة دنيوية تربطنا ، ومع هذا فكنت اتبعهُ متابعة الظل. كنت في الاكثر محامياً مغموراً. ومع هذا فكنت لا أراهُ الا ويجرني الى الكلام في مسائل ذات صبغة دينية وعلى الرغم من

(١) الكلمة الهندية Shata-vadhani معناها الشخص الذي يستطيع ان يتذكر او يعى مائة شيء في آن واحد ، ويخيل الي ان كلمة معلمة اقرب كلمة عربية يمكن بها التعبير عن هذا المعنى (المترجم)

(٢) العادة المتبعة في مقاطعة جوجرات وبعض مقاطعات غيرها في الهند تقضي بان يضاف مقطع «باي» أو بهاي bhai (ومعناها اخ) الى اسم الصديق تكريماً واظهاراً للود

اني كنت حتى ذلك الحين ما ازال اتلمس طريقي تلمساً ولم يكن لي أية لذة في المناقشات الدينية، كنت أجد في حديثه هزة لا اعرف مبعثها . ولقد كان هذا سبباً في ان ازور الكثيرين من حكماء الدين ، وحاولت ان اقابل الكثيرين من رؤساء الطوائف الدينية . ولكن من غير ان يترك واحد منهم في نفسي من الاثر ما ترك « ريشاند — باي » فان كلماته كانت تنفذ رأساً الى اعماق نفسي ، وحازت قوة عقله عندي من الاحترام ما لا يقل عن احترامي لجدته الادبي، وثقتي التي لا يمكن ان يكتنفها شك في أنهُ سوف لا يغشني او يغويني ، وانهُ سوف يطلعني دائماً ويفضي بذات نفسهِ . ولذا لم اكن اجد غيره من ملجإٍ ، كلما ساورتني الازمات الروحية العنيفة

ومع هذا ، وعلى الرغم من عظيم احترامي له ، فاني لم استطع أن انزله من قلبي منزلة « الغورو »[1] — Guru — من نفسي . فان هذه المكانة ظلت خالية ، وما ازال ابحث عمن يشغلها حتى الآن . على اني اعتقد بصحة النظرية الهندية في « الغورو » وقيمته في تحقيق السمو الروحاني . ويخيل الي ان هناك قسطاً عظيماً من الحق في الحكمة القائلة بان المعرفة الحقيقية غير مستطاعة من غير « غورو » . فان معلماً غير كامل العدة في المسائل الدنيوية امر قد يحتمل وقد يتسامح فيه الانسان ، اما في المسائل الروحانية فالامر على خلاف ذلك . وان معلماً كاملاً في المسائل الروحانية ، بكل ما تحتمل صفة الكمال من المعاني ، هو دون غيره الذي يصح للانسان أن يتوجه ملكاً على عرش القلب والوجدان . وعلى هذا يجب ان يستمر الانسان يكافح طوال حياته في سبيل بلوغ ذروة الكمال. لان كل انسان انما يصل الى « الغورو » الذي يستحقه . وكفاحنا في سبيل الكمال هو حق الانسان الطبيعي . والكمال يحمل في ثناياه ما ينتظر الانسان في الدنيا من ثواب . اما الباقي بعد ذلك فبين يدي الله . وعلى الرغم من انني ما استطعت أن اضع « ريشاند — باي » في موضع « الغورو » من قلبي ، فانه كان في كثير من الحالات مساعدي ومرشدي . ان ثلاثة من المحدثين استطاعوا أن يتركوا فيَّ اثرهم الثابت ويختلبوني اختلاباً . ريشاند — باي بعلاقته الشخصية، وتولوستوي بكتابه «ملكوت الله في نفسك»[2] ورسكن بكتابه «حتى هذه النهاية»[3]

عقد اخي عليَّ آمالاً كباراً . وكانت تحتكم فيه رغبة المال وبعد الصيت وذيوع الاسم وكان كبير القلب متجاوزاً عن الاخطاء ، وفوق ذلك سليم الفطرة ساذجها ، فالتفَّ حوله كثير من الاصدقاء الاوفياء ومن طريقهم حاول ان يزوّدني بالقضايا والمنازعات القضائية . وتخيل اني عما قريب سوف احصل على قدر كافٍ من المرانة والتقدم في العمل ، وعلى هذا التقدير اسرف في نفقات البيت والمعيشة . ومضى يعمل بكل جدليمهد لي سبيل العمل كمحام أمام المحاكم

كانت العاصفة التي اثارها زعماء طائفتي قبل سفري الى انجلترا لا تزال ثائرة ، حتى لقد

(١) حكيم روحاني . وهو ليس اسم شخص ، بل اسم يطلق على من يتصف بالحكمة الروحانية ويوجه غيره الى الرشد (٢) The Kingdom of God is Whitin You (٣) Unto This Last

انقسمت الطائفة قسمين ، حكمت احداها توًّا لدى رجوعي الى الهند بدخولي مرة اخرى الى حظيرتها ، ومضت الاخرى مستمسكة بقرار فصلي الذي صدر قبل سفري . فمن اجل ان يرضي اخي الطائفة الاولى، اخذني قبل سفري لراجكوت الى «ناسك» وغسلني في النهر المقدس ، ولما وصل الى راجكوت اعدّ وليمة طائفية لتكون بمثابة كفَّارة عن ذنبي . ولقد كرهت كل هذا وزهدت فيه . ولكن حب اخي لي كان عظيماً ؛ ولم يكن تعلقي به يقلُّ عن حبه لي . لهذا رضيت بأن اعمل كآلة تتحرك كما يريد ، معتبراً ان ارادته قانون عليّ الطاعة له . على أن هذا قد فضّ اشكال رجوعي الى الطائفة من طريق عملي عرف اخي كيف يسلك السبيل اليه

لم احاول مطلقاً أن أرجع الى الفريق الذي رفض ان اعود الى الطائفة . وكذلك لم اشعر بأي شعور من الحقد ازاء رؤسائها الذين كانوا سبباً في اخراجي من حظيرة الطائفة وحالوا دون رجوعي اليها . وفوق هذا ظللت احترم قرار الطائفة الذي صدر بفصلي وحرماني . فقد كان محرماً عليَّ أن اتناول الطعام في بيت اقرب اقاربي حتى اختي وزوجها ، او ان اتناول شربة ماء في بيت واحد منهم . وكثيراً ما حاولوا ان يعدوا العدة ليخالفوا ذلك الامر سرًّا وعلى غفلة من رجال الطائفة . غير اني كنت ارفض دائماً ان اعمل في السر عملاً ، اخجل من ان آتيه جهراً

وكان سلوكي واستقامتي سببين في أن لا يحاول رجال الطائفة ازعاجي بصورة من الصور . بل على الضد من ذلك لم اشهد من كل أفراد الطائفة الاّ كل كرم وسخاء . وعلى الاخص من الفريق الذي ظل على رأيه في حرماني وطردي . وزادوا على ذلك انهم ساعدوني في عملي من غير أن يتوقعوا مني أية مساعدة أقوم بها من جانبي لصالح الطائفة : ولو انني حاولت ان اعود الى حظيرة الطائفة واخذت أدعو الى قبولي مرة اخرى ، او لو انني سعيت الى شق الطائفة الى شيع وفرق وان ازيد صدعها اتساعاً ، أو هاجمت رؤوس الطائفة وتحديتهم ، فما لاشك فيه انهم كانوا يثأرون مني ويقابلون عملي بمثله . ولو أنني لم اعمل على تهدئة العاصفة ، لوجدت نفسي ، لدى وصولي الى الهند ، في لجة من التهييج الطائفي ، كانت بلا ريب تضطرني ان اتصنع ما ليس في نفسي ، وأن انافق وان اتخذ الرياء قناعاً

امَّا علاقتي بزوجي فكانت ماتزال الى ذلك الحين على غير ماأرغب ان تكون . فان اقامتي في انجلترا لم تشفني من مرض الغيرة الآكلة . وظللت أبدي شكي في كل شيء مهما كان تافهاً . وبذلك ظلت كل شهواتي العزيزة عليّ غير مكفية . وصممت على ان تتعلم زوجي القراءة والكتابة وان اساعدها في التعليم ، ولكن شهوتي وقفت في الطريق وكان عليها أن تحتمل على غير ارادة منها مسؤولية تقصيري وكسلي . وحدث مرة أني تطوحت في النزق الى حد اني ارسلتها الى بيت أبيها ، ولم اقبل ان تعود الى بيتي الاّ بعد ان اذقتها التعاسة كيف يكون مذاقها ومرارتها . ولقد اقتنعت بعد ذلك بقليل ان هذا كله لم يكن مني الاّ حمقاً واسرافاً

اخذت افكر في اصلاح تعليم الاولاد . فقد كان لاخوتي أولاد ، وكان ابني الذي تركتهُ قبل سفري الى انجلترا طفلاً قد شب وشارف على الرابعة من عمره . واتجهت رغبتي الى ان أعوّد هؤلاء الاولاد العكوف على الرياضة الجسمية ليصبحوا اقوياء الابدان مشدودي الاصلاب قادرين على الاحتمال والصبر ، وان اتخذ من تجاربي الشخصية إماماً في تنشئتهم. واقد شجعني على ذلك أخي ، ورجح نجاحي في هذا الشأن فشلي . على ان عشرة الاولاد كانت من مباهجي التي اسرُّ بها ، وما ازال حتى اليوم اعكف على عادة اللعب مع الأولاد والتفكهة بهم ، ومنذ ذلك الحين بدأت أفكر في اني ربما اصلح لان اكون معلماً صالحاً للاولاد

وظهر لي ان الضرورة تدعو الى اصلاح طرق «التغذية» . وكان الشاي والقهوة كلاهما قد وجدا مكاناً في نظام المنزل .وعمل اخي على أن يكون ّجوّاً انجليزيّاً صرفاً في البيت استعداداً لقدومي . ولذا اخذت الآنية الخزفية تدخل في حيز الاستعمال بعد ان كانت تظل محفوظة للمناسبات . واكملت « اصلاحاتي » ما كان ينقص طريقة استعمال هذه الاشياء من نظام . واستبدلت الشاي والقهوة ، بعصيدة القرطم والكاكاو . ولكنهما في الحقيقة اصبحا اضافيين على الشاي والقهوة . وكنا نعرف من قبل الاحذية والنعال ، واكملت إنا « التفرنج » باستعمال الأردية الاوروبية

بدأت النفقات تزيد . وكنا نضيف كل يوم شيئاً جديداً . ولاجرم اننا نجحنا في زيادة النفقات اوكما يقول اهل الهند نجحنا في ان نربط فيلاً أبيضاً على بابنا ، ولكن كيف يمكن ان نسد نفقاته ؟ وكان البدء بالعمل في المحاماة براجكوت معناه سخرية محققة النتيجة . ذلك لاني كنت فاقد الخبرة بكل مايحتاج اليه «الوكيل»[1] من المعلومات والاجراءات، وكنت اطلب عشرة اضعاف الأجر الذي يطلبه «الوكلاء» في الهند . فلم اسقط على صاحب قضية بلغ بهِ النزق ذلك المبلغ الذي يغويه على ان يوكلني في دعوى . وحتى لو فرض ووجد ذلك «الانسان» فهل يصح أن اضيف الى جهلي ما يحتمل ان ينتج طغيان النصب والاحتيال من نتائج تضاعف مقدار ديني ومسؤولياتي لهذه الدنيا ؟

ونصحني بعض الاصدقاء ان اهبط «بومباي» عسى ان احصل على بعض المرانة العملية امام المحكمة العليا ، ولأدرس القانون الهندي ولأحصل على ما يمكن ان احصل عليهِ من الدعاوى القضائية . فقبلت النصح وذهبت الى «بومباي» . وفيها استأجرت منزلاً ، وطباخاً لا يقلُّ جهله بالطهي عن جهلي به . وكان « برهماني » اسمهُ « رافيشنكر » . ولم اكن اعامله معاملة الخادم ، بل كأنهُ احد افراد المنزل . وكان يصب الماء على جسمهِ صبّاً ، ولكنهُ لا يستحم ابداً . وكانت ملابسهُ قذرة على الدوام، كما كان على جهل مطبق بكل كتب الهند المقدسة . ولكن كيف يتسنى لي ان احصل على طامٍ اليق منهُ ؟. كنت اسأله — يمكن ان تكون جاهلاً

(١) Vakil — اي المحامي الذي يخرج من مدارس الحقوق في الهند

بالطهي ، ولـكن الا يمكن ان تعرف شيئاً من عبادتك اليومية ؟— « اعبادتي اليومية تذكر ياسيدي ! ان المحراث هو عبادتنا والفأس هي مراسمنا الدينية. انني انما اعيش اعتماداً على مراحمك. فاذا فقدت الامل فيها فان الزراعة تكون ملجئي وظهيري»

هنا بدأت اكون معلماً أُلقّن « رافيشنكر » ما يحتاج اليهِ من المعلومات الاولية . وبدأ الوقت يمر بي في بطء مسئم ، فأخذت اطهي نصف طعامي . وأجري الطهي على الطريقة النباتية الانكليزية . فبنيت موقداً وبدأت اقوم بخدمة المطبخ مع «رافيشنكر » . وكنت لا اشعر بحاجة الى غذاء بين الوجبات ، وعلى هذا جرى خادمي . ولم يبق لي من شكوى اوجهها اليهِ الاّ ادمانه القذارة ، حتى انهُ لم يكن يحفظ الطعام نظيفاً نظافة كافية

غير انني لم استطع المقام في «بومباي » اكثر من اربعة اشهر او خمسة لانهُ لم يكن لديَّ من الدخل ما يسد النفقات . وبعد ان يئست من ان احصل على عمل في « بومباي » غادرتها الى راجكوت ، وعدت الى مكتبي الاول . وهناك بدأت اعمل عملاً معتدل القيمة ، وبلغ متوسط دخلي ثلاثمائة روبية كل شهر .ولـكن هذا لم يكن راجعاً الى مهارتي بل الى تأثير اخي. فان شريكه كان ذا خبرة بالاعمال، فكان يعهد اليَّ بالبسائط ،ويعهد بالمشكلات الى كبار المحامين

وأرى انهُ من الواجب عليَّ ان اعترف انني بدأت في ذلك الوقت افكر في ضرورة اعادة النظر في مبدئي الذي جريت عليهِ من الامتناع عن دفع عمولة (سمسرة) . فقد أُنبئتُ ان الحالة هنا على الضد مما اعهد . والعمولة تدفع في « بومباي » للسماسرة ، ولكنها في راجكوت تدفع الى الوكلاء الذين يعنون المحامي بالقضايا . أما القاعدة هنا فكما هي في بومباي ان يدفع كل المحامين ومن غير استثناء ، نصيباً مئويّاً من اتعابهم سمسرة . اما كلام اخي في هذا الموضوع فكان مقنعاً . قال لي : « ترى انني شريك مع وكيل آخر . واني اميل دائماً ان نعهد اليك بكل القضايا التي نعرف انهُ في مقدورك مباشرتها ، فاذا رفضت ان تدفع عمولة لشريكي ، فمن المحقق انك تضعني في مركز حرج . ولما كنا نشترك معاً في معيشة واحدة فان اتعابك تعد دخلاً مشتركاً لـكلينا، وينالني من ذلك نصيب . ولـكن ما يكون امر شريكنا ؟ افرض مثلاً انهُ عهد بقضية بين يديهِ الى محامٍ آخر ، فانهُ ينال منهُ عمولة » ولقد اقتنعت بهذا الكلام، وشعرت بأنني اذا اردت ان اعمل كمحام ، وجب عليَّ ان اضحي بمبدئي في دفع العمولة ، وفي مثل الحالات التي ذكرها اخي على الاقل . هذا ما ساورني وتردد في نفسي ، او بكلام اوضح ، بهذا خدعت نفسي وغششتها . ولا مندوحة لي عن ان اضيف الى هذا انني لا اذكر انني دفعت عمولة ما في حالة غير هذه الحالات التي جرى عليها كلام اخي . وعلى الرغم من انني جاهدت في سبيل ان اوفق بين المتقاضين ارضاءً لسر مهنتي، فقد صدمت في ذلك الحين اول صدمة عنيفة في حياتي . ولقد سمعت كثيراً من قبل ما يعنى الهنود بضابط انكليزي ،

ولكنى لم اكن قد وقفت امام ضابط انكليزي وجهاً لوجه حتى ذلك الحين

كان اخي سكرتيراً ومستشاراً للمرحوم «رانا پورباندر» وقد عُلّقت في عنقه من بعد ذلك تهمة انهُ اشار بنصيحة فاسدة لما كان يشغل ذلك المنصب. ووضعت المسألة بين يدي القومسير السياسي ، وكان في صدره من اخي حفيظة . وكنت اعرف ذلك الضابط لما كنت في انكلترا ، ومما يمكن ان اصرح بهِ انهُ كان على صداقة معي : وظن اخي انهُ من المستحسن ان الجأ الى هذه الصداقة ، فألقي بكلمة طيبة عند الضابط تشفع لاخي بعض الشيء . وظن اخي انهُ في استطاعتي ان اوضح حقيقة الامر للضابط لعلَّ ذلك يخفف من حفيظته نحوه . غير اني لم اوافق مطلقاً على هذه الفكرة ، لأني لم ارد ان اجعل لصداقة شبت مصادفة في انكلترا مدخلاً في مثل هذه الامور . فاذا كان اخي حقيقة قد اخطأ ، فأي شيء يفيد تدخلي او توصيتي ؟ واذا كان بريئاً ، فما عليهِ الاَّ ان يكتب عريضة يشرح فيها حقيقة الامر وينتظر النتيجة . غير ان اخي لم ترقه هذه النصيحة . وقال لي « انك لا تعرف « كاثيا وار » وعليك فوق ذلك ان تعرف الدنيا . فليس لشيءٍ قيمة هنا الاَّ الوسائط . ولا يخلق بك وانت اخي ان تمتنع عن القيام بالواجب ، وانت قادر على ان تموه بكلمة طيبة عني لضابط انت على صلة به »

ولقد اصبح من المستحيل عليَّ بعد ذلك ان ارفض رأيه ، فذهبت الى الضابط على غير ارادتي وعلى كره مني . وكنت عارفاً انهُ لا يحق لي ان الاقيه ، ومتحققاً فوق ذلك اني كنت على وشك تعريض احترامي الشخصي للامتهان. ولكني على الرغم من هذا ضربت موعداً وذهبت. وما كدت اذكره بصلتنا في انكلترا ، حتى ابان لي سريعاً ان « كاثياوار » غير انكلترا ، وان ضابطاً بريطانيًّا في اجازته، غيره وهو قائم بمهام منصبه. ولقد ذكرت الضابط بتلك الصلة التي كانت بيننا ، غير ان تذكيره بها قد جاوز بهِ الى الخشونة . اما خشونته هذه فكان معناها «انك لم تأت الى هنا اليوم الاَّ لتنتهك هذه الصلة باستغلالها » غير اني رغم ما ادركت من الموقف ، شرحت شكاتي . وهنا عيل صبره ، وقال محتدًّا — « ان اخاك دساس ، واني لا اريد ان اسمع منك شيئاً فوق ما سمعت . ليس عندي وقت . واذا كان عند اخيك مايقوله فما عليه الاَّ ان يلجأ الى المراجع المختصة» . وربما كنت استحق هذا الجواب الحاد . غير ان حب الذات اعمى ، فعدت بعد كل هذا الى روايتي اتمها . وهنا وقف الصاحب وقال لي «يجب ان تذهب الآن» . « ولكن ارجوك ان تسمع مني» . فلم يزده كلامي هذا الاَّ غضباً . فنادى خادمه وامره ان يدلني على طريق الباب . وكنت لا ازال متردداً عند ما اقبل الخادم ، ووضع يديه فوق كتفيَّ ودفعني خارج الباب

وما كدت استقرُّ في مكاني حتى كتبت مذكرة معناها « انك اهنتني ، وتهجمت عليَّ من طريق خادمك . فاذا لم تقم بما يصلح هذا الامر ، اضطررت أن ارفع امري الى القضاء »

ولكن سرعان ما تلقيت منه الجواب على يد حاجبه وقد جاء فيه

« لقد كنت بذيئاً معي . فقد امرتك بالذهاب وانت امتنعت . فلم يكن لي من بد ازاء امتناعك من ان آمر خادمي بان يريك طريق الباب . ولما سألك ان تترك مكتبي لم ترد ان تفعل ذلك . فما كان لديه من وسيلة اخرى الاّ ان يستعمل معك من القوة قدراً يكفي لاخراجك . وانك حر في أن ترفع الأمر الى اية جهة أردت»

عدت الى المنزل ، وفي جيبي هذا الرد ، ذليلاً خافض الرأس ، وقصصت على أخي كل ما حصل ، فحزن . ولكنهُ لم يكن يدري طريقاً يسليني به عما حدث . وكثيراً ماتحدث عن هذا الأمر الى اصدقائهِ من الوكلاء ، لاني لم اكن اعرف الطريق الرسمي لمقاضاة الصاحب ، وحدث ان السر«فيروزشاه مهتا» كان في «راجكوت» في ذلك الوقت، وقد قدم من بومباي لمباشرة قضية ما . ولكن كيف السبيل لمحام صغير حديث العهد بالمهنة ان يقابله ويحظى بلقياه؟ ولكني ارسلت اليه اوراق قضيتي من طريق الوكيل الذي دعاه الى راجكوت وسألته الرأي في الموضوع . فقال للوكيل« أفهم غاندي ان مثل هذه الأشياء امر عادي هنا . أنهُ هبط من انجلترا قريباً ولا يزال دمه حامياً . وانه لايعرف الضباط الانجليز . فاذا كان يربح من مهنته شيئاً هنا ، واذا كان الزمان يؤاتيه بالحاجات ، فقل له ان الاولى به ان يمزق مذكرته وأن يبلع الاهانة . فانهُ لن يربح شيئاً من مقاضاة الصاحب ، بل على الضد من ذلك تماماً يرجح كثيراً ان يكون في ذلك هدم مستقبله . وعليك ان تعرفه عني ان عليه ان يعرف من الدنيا اكثر مما عرف حتى الآن »

كان لهذه النصيحة مرارة السم في فمي ، ولكن لم يكن لي مندوحة عن أن أبتلعها ، كما ابتلعت الاهانة، ولكني على كل حال انتفعت بها إذ عاهدت نفسي على « ان لا أضعها في مثل هذا الموضع الدقيق مرة اخرى ، وان لا احاول ان استغل الصداقة هذا الاستغلال ثانية ». ومنذ ذلك الوقت لم ارتكب جريمة الحنث بعهدي والرجوع عن تصميمي هذا . غير انّ هذه الصدمة الاليمة غيرت مجرى حياتي تغييراً كلياً . ولا شبهة مطلقاً في اني كنت مخطئاً اذ اقدمت على الذهاب الى القومسير السياسي . غير أنّ حنقه وقلة صبره وغضبه ، جمّاعها كانت لا تتناسب مع خطئي. ولم يكن في الأمر مايوجب طردي . لاني كنت سوف لا استغرق من وقته اكثر من خمس دقائق . ولكن الواقع انهُ لم يستطع ان يحتمل ان يسمع مني كلاماً في الموضوع . وكان في مستطاعه ان يطلب مني في أدب ان اذهب . ولكن القوة الغاشمة اسكرته الى درجة غير كفيلة بالاتزان . ولقد علمت فيما بعد ان الصبر أبعد الاشياء عن فضائله

اما اذا عزمت على ان ازاول مهنتي في ذلك المكان فما لاشك فيه ان اكثر قضاياي سوف تنظر امام محاكمه . وكان مما يخرج عن طوقي أن اتوصل الى ترضيته والتفاهم معهُ ، كما اني

لم اكن على استعداد لأن اتزلف اليهِ . ولما كنت قد هددت بان اقاضيَهُ ، صعب عليَّ ان اظل ساكتاً . غير اني سرعان ما بدأت افهم شيئاً من سياسة هذه المقاطعة . فان « كاثياوار » ليست الاّ كتلة مكوّنة من ولايات صغيرة . وكانت الدسائس بين الولايات ، والمؤامرات بين الضباط ليرقي كل منهم درجات القوة والسلطان الواسع ، القاعدة العامة في النظام الحكومي . وكان الأمراء تحت رحمة غيرهم . ولم يكن في وسعهم الاّ أن يلقوا بسمعهم الى المتزلفين . ولقد شعرت بان هذا الجوّ مشبع بالسموم ، وكيف أبقى بعيداً عن التأثر بهِ ؟ كانت هذه مشكلة بذاتها. وما لبثت غير قليل حتى شعرت بانني مكتئبٌ خائر النفس ولحظ اخي فيَّ هذا الامر . وشعر كلانا بانني اذا استطعت ان اجد عملاً بعيداً عن هذا المكان ، استطعت ان افلت من جو الدسائس والوشايات. ومن غير ان الجأ الى وسائل غير شريفة ، لم يكن في وسعي ان اشغل منصباً اداريًّا او قضائيًّا . ناهيك بمشكلتي مع القومسير السياسي

كانت « پورباندر » اذ ذاك تحت الادارة الحكومية ، وكنت هبطتها لاسعى في ان انال للامير حقوقاً اوسع من الحقوق التي يتمتع بها . وكذلك كنت ارغب في أن أرى المدير لاناقشهُ في مسألة اجور الاراضي وارتفاع القيمة التي تجبى من المستأجرين غير اني وجدت ان هذا الضابط المدير ، ولو انهُ هندي ، اشنع من الصاحب اخلاقاً وأشد نزقاً . ولقد فشلت في هذا الامر فشلاً عظيماً ، حتى لقد خيّل اليَّ ان العدل يمنع عن زبائني عمداً وبذلك اعجز عن ان اصل اليهِ . وكل ما كان في مستطاعي ان اعملهُ لا يتعدى ان اعرض امري امام القومسير السياسي او الحاكم الذي لم يكن من شأنهِ الاَّ أن يرفض النظر في شكواي قائلاً — « ليس من شأننا ان نتدخل في الامر » . اما اذا كان هنالك قانون أو نظام يحدد مثل هذه القرارات ، فلا شك في ان يكون لنا شأن. ولكن ماذا يكون العمل ما دامت ارادة الصاحب هي القانون ؟ غير اني شعرت في النهاية انني ساخط مغيظ ورغبت كل الرغبة في ان ابعد عن جو الدسائس جهد ما استطيع

في هذا الموقف كتبت احدى المؤسسات التجارية في « پورباندر » الى أخي تعرض عليهِ الآتي:

« لنا اعمال في جنوب افريقية . ومؤسسة من اكبر المؤسسات . وقد اشتبكنا في قضية امام المحكمة تبلغ قيمتها اربعين الفاً من الجنيهات الانجليزية . ومضى على الدعوى زمن طويل وما تزال منظورة ، واستخدمنا فيها امهر الوكلاء واشهر المحامين . فاذا سمحت بان ترسل اخاك الى جنوب افريقية فانه سوف يفيدنا ويفيد نفسه . ولسوف يستطيع ، على ما ترى ، ان يزودنا بنصائح ثمينة ، فضلاً عن انه سيرى بلاداً جديدة وينشئ علاقات مع اشخاص لم يكن يعرفهم » .

وبعد مناقشة قبلت العرض من غير اية مساومة واخذت استعد للذهاب الى جنوب افريقية

اسماعيل مظهر

غرائب المقاييس الطبيعية

التفاوت بين المتناهي في الكبر والمتناهي في الصغر

في الطول والوزن والزمن والسرعة والحرارة

اخذ رجال العلم ينفذون من ناحية الى اقصى رحاب الكون ومن ناحية اخرى الى اسرار الكون الصغير الكائن في قلب الذرّة . وهم في خلال ذلك يقيسون الكميّات والمقادير ، لان القياس الدقيق اساس العلم . وفي هذه الكميّات تفاوت كبير . فالمسافات تقاس من جهة بسني الضوء ومن جهة اخرى بالانغستروم Angstrom وهو جزءٌ من عشرة ملايين جزءٍ من المامتر . والسرعة تقاس من صوبٍ بثلاثمائة الف كيلو متر في الثانية وهي سرعة الضوء ومن الصوب الآخر بجزءٍ من المامتر في اليوم وهو سرعة انتشار ذرات الذهب في لوح من الرصاص. كذلك يقاس الوزن بالطن والجمّا (الجمّا جزءٌ من مائة مليون جزءٍ من الغرام) والزمن بالسنة والسغما (السغما جزءٌ من مائة جزءٍ من الثانية) وهكذا

مقاييس الطول

من الغرائب التي تسترعي النظر ان الانسان متوسط بين اضخم الاجسام واصغرها. فهو جزءٌ من ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ من المجرّة وهو ١٠٠٠٠٠٠،٠٠٠٠٠٠،٠٠٠٠٠٠ ضعف البروتون الذي في نواة الذرّة . ولكن ليس من الثابت ان المجرّة اضخم الاجسام في الطبيعة ولا ان البروتون اصغرها . والباحثون في الناحيتين ماضون في بحثهم رغماً عن الحوائل والصعاب التي تقوم في سبيلهم

واذا فرضنا ان المسافة بين القاهرة ولندن تبلغ ٤٢٠٠ كيلو متر في خطٍ مستقيم فقطر الارض يبلغ ثلاثة اضعافها ، ومحيطها يبلغ تسعة اضعافها . ثم اننا اذا طرنا ٨٧ مرة بين القاهرة ولندن قطعنا مسافة تقرب من المسافة التي تفصل القمر عن الارض . اما قطر القمر فيبلغ ٣٥٧٠ كيلو متراً وهي المسافة بين القاهرة ومرسيليا في خطٍّ مستقيم . على ان قطر الشمس اعظم من ذلك كثيراً . فهو ٠٠٠ ١٣٨٤ كيلومتر. ومتى حاولنا ان نقيس بعد الشمس عن الارض او بعد ابعد السيّارات عنها ، احتجنا الى ملايين الكيلومترات ، واصبح التمثيل بالمسافات على سطح الارض لا يجدي . فنبتون يبعد عن الشمس اربعة آلاف واربعمائة مليون (٤٤٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠) كيلو متر والارض تبعد عنها ١٤٩،٠٠٠،٠٠٠ كيلو متر . ويقدّر طول قطر المجموعة الشمسية بعشرة آلاف مليون كيلومتر (١٠،٠٠٠،٠٠٠ ٠٠٠) . فاذا خرجنا

من المجموعة الشمسية الى رحاب المجرّة اصبحت ملايين الكيلو مترات لا تفي بحاجة القياس . لذلك استنبط الفلكيون ما يدعى بالسنة الضوئية وهي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة سائراً بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل (او ٣٠٠ الف كيلو متر) في الثانية الواحدة . على هذا القياس تبعد الشعرى Sirius — وهي اقرب النجوم اللامعة الى شمسنا — عن الشمس نحو تسع سنوات ضوئية ويبعد سديم المرأة المسلسلة Andromeda وهو من السدم اللولبية الخارجية — وتعرف بالعوالم الجزرية — عن مجرتنا ٩٠٠٠٠٠ سنة ضوئية ويقدّر بعد ابعد السدم اللولبية بمائة واربعين مليون سنة ضوئية . ويقدّر محيط كون اينشتين بالفي مليون سنة ضوئية

فاذا التفتنا الى الناحية المقابلة وجدنا الدقائق المكرسكوبية والخلايا ونوى الخلايا وكروموسوماتها وهي في الغالب مما يرى بالمكرسكوبات القوية . وعند المنطقة الفاصلة بين ما يرى وبين ما لا يرى نجد الدقائق الغروية وهي مجاميع من الجزيئات ومن ورائها الذرّات والكهارب والبروتونات

جدول مقاييس الطول

محيط كون اينشتين	٢٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠	سنة ضوئية
ابعد سديم لولبي	١٤٠،٠٠٠،٠٠٠	» »
متوسط بعد مجرة عن اخرى	١،٨٠٠،٠٠٠	» »
بعد سديم المرأة المسلسلة عن المجرة	٩٠٠،٠٠٠	» »
قطر المجرة	٥٠،٠٠٠	» »
بعد الشعرى عن الارض	٨،٩	» »
السنة الضوئية تبلغ	٩،٤٦٢،٧٠٠،٠٠٠،٠٠٠	كيلومتر
قطر المجموعة الشمسية	١٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠	»
بعد نبتون عن الشمس	٤٤٠٠،٠٠٠،٠٠٠	»
بعد الارض عن الشمس	١٤٩،٠٠٠،٠٠٠	»
قطر الشمس	١،٣٨٤،٠٠٠	»
بعد القمر عن الارض	٣٨٤،٠٠٠	»
قطر المشترى	١٤٤٠٠٠	»
محيط الارض	٤٠٠٧٠	كيلومتراً
قطر الارض	١٢٧٥٤	»
قطر القمر	٣٤٨٠	»
طول الباخرة اوربا	٢٨٥	متراً
اطول امواج الصوت	١٦	متراً
متوسط طول الانسان	١٧٢	سنتمتراً

اقصر امواج الصوت	١٧	ملمتراً
المتر يعدل	الف	ميكرون
اصغر الدقائق التي ترى	٥٠	ميكروناً
خلايا ذباب الدروسوفيلا	٧—٢٥	»
نواة خلية الدروسوفيلا	٥—١٥	»
كرموسومات الدروسوفيلا	٢،—٣	ميكرونات
بكتيريا عنقودية	ميكرونان	
الميكرون يعدل الف ملميكرون Millimicron		
خلية الدم الحمراء	٨٠٠	ملميكرون
موجة النور الاحمر	٧٧٠	ملميكروناً
اصغر الدقائق المكرسكوبية	٣٠٠	ملميكرون
دقيقة غروية كبيرة	١٠٠	»
اقصر امواج اشعة وراء البنفسجي	١٣	ملميكروناً
الجزيئات Molecules	٢،—٥	ملميكرونات
الملميكرون يعدل الف ميكروميكرون		
المسافة بين ذرات الكبريت	٩٠٠	ميكروميكرون
الذرات	١٠٠—٦٠٠	»
المسافة بين ذرات الفضة	٤٠٠	»
موجة اشعة اكس اللطيفة	١٣٦	ميكروميكروناً
مدار الالكترون في ذرة الايدروجين ٥٣		»
موجة اشعة اكس القاسية (النافذة لشدة قصرها) ١٩		»
اقصر اشعة غما	ميكروميكرونان	
اطول الاشعة الكونية	،٦	الميكروميكرون
اقصر الاشعة الكونية	،٠٤	»
قطر الالكترون	،٠٣٨	»
نواة ذرة الذهب	،٠٠٠٤	»
نواة ذرة الايدروجين (وهي بروتون واحد) ،٠٠٠٠٢		»

وقد اطلق الانغستروم على مسافة طولها ١٠٠ ميكروميكرون وعليهِ يقال ان حجم الذرات يتراوح بين انغستروم واحد وستة انغسترومات

مقاييس الوزن

لعلّ اكبر رقم في عالم المقاييس هو الرقم الدالّ على كتلة الكون بحسب مذهب اينشتين فهو رقم ٨ يتبعهُ ثمانية وسبعون صفراً . فكتلة النجوم والاجرام والسدم والغبار الكوني المنثور في المجرّة — التي منها مجموعتنا الشمسية — تكاد تكون شيئاً يسيراً ازاء كتلة كون اينشتين لانها لا تزيد على رقم ٢٦٣ يتبعهُ خمسة وخمسون صفراً فقط ! فاذا مثّلنا على المجرّة بتفاحة وجب ان نجعل الكون على النسبة نفسها كرة بقدر الارض . ومن الغريب ان نجوم المجرة تتماثل كتلةً (وزناً) مع انها تختلف حجماً . وكتلتها تتباين بين رقم ١ ووراءه ٣٢ صفراً ورقم ١ ووراءهُ ٣٦ صفراً . اما الشمس — وكتلتها تفوق كتلة الارض نحو ٣٣٢ الف مرّة — فمن النجوم الصغيرة . واكبر السيارات في المجموعة الشمسية هو المشتري وكتلتهُ تفوق كتلة الارض ٣١٧ مرّة . اما القمر — قمر الارض لان لاكثر السيارات الاخرى اقماراً — فلا تزيد كتلتهُ على جزءٍ من ٨١ جزءًا من كتلة الارض فاذا هبطنا من الفلك الى الارض وجدنا ان وزن غلاف الارض المائي — اي الهيدرسفير وهو يشمل مياه المحيطات والبحار والبحيرات والانهر والثلج والجمد — يبلغ ٠٠٠٠ ٠٠٠ ١٫٣٣٥٫٠٠٠ مليون طن فهو $\frac{1}{٦٠٠٠}$ من كتلة الارض و٥٠٠ ضعف وزن الغلاف الهوائي . ولا تحتقرنَّ وزن الغلاف الهوائي فهو ٠٠٠ ٥٫١٣٣٫٠٠٠ مليون طن ووزنهُ يفوق وزن اكبر النجيمات خمسة اضعاف . ومقدار ما يسقط على الارض من الرجم كلّ سنة يبلغ وزنه وزن الباخرة برمن تقريباً . اي نحو ٥١ الف طن . اما بين وزن السفينة برمن ووزن الانسان فنستطيع ان نعدّ القائمة ما شئنا ان نعدّها

واذا تحوّلنا الى المقادير الدقيقة وجدنا ان الجرعة الفعالة من فيتامين (A) تبلغ ثلاثة اجزاءٍ من الف مليون جزءٍ من الغرام . وهذا المقدار من المغنيزيوم هو اقل مقدار منهُ يمكن كشفهُ بالوسائل الكيمائية . ولكن مقداراً من الصوديوم اقل من ذلك يمكن تبينهُ بكاشف اللهيب flame test ثم هنالك السبكترسكوب وهو ادق الآلات في الكشف عن مقادير ضئيلة جدًّا من المواد والعناصر . ويقال ان الطريقة الجديدة المعروفة بالمغناطيسية البصرية Magneto-optic التي استنبطها أليسُن Allison الاميركي وكشف بها عن آخر العناصر تفوق حتى السبكترسكوب من هذا القبيل . ويلي ذلك الجزيئات والدقائق الغروية . فجزيئات البروتينات هي اكبر الجزيئات . اما جزيئات السكر فصغيرة اذا قيست بجزيئات البروتينات والادهان . ومع ذلك فهي اثقل كثيراً من ذرات الاورانيوم وهو اثقل العناصر . اما ذرة الايدروجين فهي اخف الذرّات ووزنها مجموع وزن بروتون والكترون . والبروتون يفوق الالكترون وزناً نحو ١٨٠٠ مرة . فالالكترون هو اخف ما عرفهُ العلم حتى الآن

جدول مقاييس الوزن

كون اينشتين	٨	ويليه	٧٨ صفراً	غرام
المجرّة	٢،٣	ويليهِ	٥٥ صفراً	»
النجوم الكبيرة	١	ويليهِ	٣٦ صفراً	»
الشمس	١،٩٩	ويليهِ	٣٣ صفراً (وكتلتها تعدل ٣٣١٩٥٠ مرة كتلة الارض)	
نجم صغير	١	ويليهِ	٣٢ صفراً	غرام

المشتري (تعدل كتلتهُ ٣١٧ مرة كتلة الارض)

الارض	٥،٩٩	ويليهِ	٢٦ صفراً	غرام
عطارد	١/٢٥	من كتلة الارض		
القمر	١/٨١،٥٦	من كتلة الارض		

الغلاف المائي ١،٣٣٥،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ مليون طن = ١،٣ يليهِ ٢٤ صفراً بالغرامات

الغلاف الهوائي ٥،٦٣٣،٠٠٠،٠٠٠ مليون طن = ٥،٦ يليهِ ٢١ صفراً بالغرامات

متوسط كتلة النجيمة ١٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ مليون طن = ١ يليهِ ٢١ صفراً بالغرامات

وزن السفينة برمن ٥١،٦٥٦ طناً = ٥،٢ يليهِ عشرة اصفار بالغرامات

الرجم التي تسقط سنويًّا ٤٠،٠٠٠ طن = ٤ يليهِ عشرة اصفار بالغرامات

متوسط وزن الانسان ٧٦ كيلو غراماً

الكيلو غرام = ١٠٠٠ غرام

الغرام = ١٠٠٠ ملغرام

الملغرام = ١٠٠٠ ميكروغرام

الميكروغرام = ١٠٠٠ جمًّا

الجما = $\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠٠٠٠}$ من الغرام

الجرعة الفعالة من فيتامين (A) ٣ جمَّات اي $\frac{٣}{١٠٠٠٠٠٠٠٠٠}$ من الغرام

اقل ما يمكن كشفه من المغنيزيوم بكاشف كياوي جمتان

اقل ما يمكن كشفه من الصوديوم بكاشف اللهب ٠،٠٧ من الجمَّا

جزيء بروتين يعدل ١٠٠،٠٠٠ ذرة الايدروجين

جزيء سكر القصب ٣٤٢ »

ذرّة الاورانيوم ٢٣٨ »

جزيء الماء ١٨ »

ذرة الايدروجين ١ الالكترون ١/١٨٤٥ من ذرة الايدروجين

[في العدد المقبل يتناول البحث مقاييس الزمن والسرعة والحرارة وجداولها]

الشاعر والسلطان الجائر

لايليا أبو ماضي — عن مجلته « السمير »

امر السلطان بالشاعر يوماً فأتاهُ   في كساءٍ حائلِ الصبغة واهٍ جانباهُ
وحذاءٍ اوشكت تفلت منه اخمصاهُ

قال: صف جاهي، ففي وصفك لي للشعر جاه   ان لي القصر الذي لا تبلغ الطير ذراه
ولي الروض الذي يعبق بالمسك ثراه   ولي الجيش الذي ترشح بالموت ظباه
ولي الغابات، والشم الرواسي، والمياه   ولي الناس، وبؤس الناس مني والرفاه
ان هذا الكون ملكي، انا في الكون اله !!

***

ضحك الشاعر مما سمعتهُ اذناه   وتمنى ان يداجي فعصته شفتاه
قال — اني لا ارى الامر كما انت تراه   ان ملكي قد طوى ملكك عني ومحاه

***

القصر.. ينبيء عن مهارة شاعر   لبقٍ، ويخبر بعده عنكا
هو للألى يدرون كنه جماله   فاذا مضوا فكأنهُ دكّا
ستزول انت ولا يزول جلاله   كالفلك تبقى — ان خلت — فلكا
انا من حواهُ بعينهِ وبلبّهِ   ولئن حواك وحزته صكّا !

***

والروض؟ ان الروض صنعة شاعرٍ   سمح طروب رائق جزْلِ
وشّى حواشيهُ وزين ارضهُ   بروائع الالوان والظل
لفراشةٍ تحيا له، ولنحلة   تحيا بهِ، ولشاعر مثلي
ولبلبل غرد يساجل بلبلاً   غرداً، وللنسمات والطلل
ولديمة تذري عليه دموعها   كيما تقيه غوائل المحل
فاذا مضى زمن الربيع اضعتهُ   وأقام في قلبي وفي عقلي

***

والجيش معقود لواؤك فوقهُ   ما دمت تكسوه وتطعمهُ
للخبز طاعتهُ وحسن ولائهِ   هو «لاته الكبرى» و«برهمهُ»
فاذا يجوع بظل عرشك ليلةً   فهو الذي بيديه يحطمهُ
لك منه أسيفهُ ولكن في غدٍ   لسواك اسيفه واسهمهُ

اتراه سار الى الوغى متهللاً لولا الذي الشعراء تنظمه
واذا ترنم هل بغير قصيدة من شاعر مثلي ترنمه

***

والبحر.. قد ظفرت يداك بدره وحصاه. لكن هل ملكت هديره؟
امرجت انت مياهه ؟ اصبغت انت رماله ؟ اجبلت انت صخوره ؟
هو للدجى يلقي عليه خشوعه والصبح يسكب وهو يضحك نوره
هو للرياح تهزه وتثيره والشهب تسمع في الظلام زئيره
للطير هائمة به مفتونة لا للذين يروعون طيوره
للشاعر المفتون يخلق لاهياً من موجه حوراً، ويعشق حوره
ولمن يشاهد فيه رمز كيانه ولمن يجيد لغيره تصويره
يا من يصيد الدر من اعماقه اخذت يداك من الجليل حقيره
لا تدعيه فليس يملك ، انه كالروض جهدك ان تشم عبيره

***

ومررتُ بالجبل الاشم — فما زوى عني محاسنه ، ولست اميرا
ومررتَ انت فما رأيت صخوره ضحكت ولا رقصت لديك حبورا
ولقد نقلت لنملة ما تدعي فتعجبت مما حكيت كثيرا
قالت: صديقك مايكون ؟ اقشعماً ؟ ام ارقماً ؟ ام ضيغماً هيصورا ؟
ايحوك مثل العنكبوت بيوته — حوكاً ؟ — ويبني كالنسور وكورا ؟
هل يملأ الاغوار تبراً كالضحى ؟ ويردّ كالغيث الموات نضيرا ؟
ايلفّ كالليل الاباطح ، والربى والمنزل المعمور ، والمهجورا ؟
فأجبتها كلاّ ، فقالت سمّه في غير خوف « كائناً مغرورا »

***

فاحتدم السلطان اي احتدام ولاح حب البطش في مقلتيه
وصاح بالجلاد : هات الحسام فاسرع الجلاد يسعى اليه
فقال: دحرج رأس هذا الغلام فرأسه عبء على منكبيه
قد طبع السيف لحز الرقاب وهذه رقبة ثرثار
اقتله .. واطرح جسمه للكلاب ولتذهب الروح الى النار !

***

ـ سمعاً وطوعاً سيدي ـ وانتضى عضباً يموج الموج في شفرتيه
ولم يكن الا كبرق اضا حتى اطار الرأس عن منكبيه

فسقط الشاعر معرورضا يخدش الارض بكلتا يديه
كأنما يبحث عن رأسهِ فاستضحك السلطان من سجدته
ثم استوى يهمس في نفسه « ذو جنة » امسى بلا جنته

***

اجل . هكذا هلك الشاعر كما يهلك الآثم المذنبُ
فما غص في روضة طائر ولم ينطفيء في السماء كوكب
ولا جزع الشجر الناضر ولا اكتأب الجدول المطرب
وكوفيء عن قتله القاتل بمال جزيل وخدٍّ اسيل
فقال له خلفه السافل — ألا ليت لي كل يوم قتيل

***

في ليلةٍ طامسةِ الأنجم تسلل الموت الى القصرِ
بين حراب الجند والاسهم والاسيف الهندية الحمر
الى سرير الملك الاعظم الى امير البر والبحر !!
ففارق الدنيا ولما تزل فيها خمور واغاريد
فلم يمد حزناً عليهِ الجبل ولا ذوى في الروض املود

***

في حومة الموت وظل البلى قد التقى السلطان والشاعر
هذا بلا مجد ، وهذا بلا ذلٍّ ، فلا باغ ولا ثائر
عانقت الاسمال تلك الحلى واصطحب المقهور والقاهر
لا يجزع الشاعر ان يُقتلا ليس وراءَ القبر سيفٌ ورمح
ولا يبالي ذاك ان يُعذلا سيان عند الميت ذم ومدح

***

وتوالت الاجيال تطرد جيل يغيب وآخر يفد
اخنت على القصر المنيف فلا الجدران قائمة ولا العُمد
ومشت على الجيش الكثيف فلا خيل مسوّمة ولا زرد
ذهبت بمن صلحوا ومن فسدوا ومضت بمن تعسوا ومن سعدوا
وبمن اذاب الحبُّ مهجته وبمن تأكّل قلبه الحسد
وطوت ملوكاً ما لهم عدد فكأنهم في الارض ما وجدوا
والشاعر المقتول باقيةٌ اقواله ، فكأنها الابد
الشيخ يلمس في جوانبها صور الهوى ، والحكمةَ الولد

الادب وأطواره

الآراء القديمة والحديثة في اشتقاقه

لا تزال لفظة «الادب» مَبعَثةً على الجدال ومدعاة الى متباين الاقوال ، فهي من الالفاظ التي لم يسكت عنها « فقه اللغة » ولا مكّنها من موضعها فقهاء العربية فضلاً عن إثباتهم لتاريخها العسير استقصاؤه ، فناس يقولون إنها من مادة «أدب» وآخرون ينكرون أن تكون هذه المادة ناتجة لمثل هـذا المعنى البعيد عنها ، وناس يقولون : إن اللفظة جاهلية وآخرون ينفون وجودها في عهد الجاهلية بهذا المعنى ولا شك في أن «المجمع اللغويّ الملكيّ» المبارك سيتداول رجاله تحرّي هـذه الأمور الخاصة بهذه اللفظة ، ونحن قد وددنا أن نبسط رأينا في هذه الكلمة وأطوارها ، فالتعاون على التحقيق معجل بالتوفيق ، قال الدكتور طه حسين عن استقصاء المستشرق « نالينو » السلفية [1] لفظ « الادب » ما صورته « فانهُ لم يجد هذه المادة في غير اللغة العربية من اللغات السامية ، ولم يجد لها عند العرب مصدر اشتقاق معقول ، فقد قالوا : أدب القوم يأدبهم أدباً إذا دعاهم الى الطعام والفرق بين المعنيين واضح فظن الاستاذ أن لفظ الأدب انما جاء من لفظ « الدأب » بمعنى العادة ، ذلك أنهم جمعوا «الدأب» فقالوا « أدآب » ثم قدموا العين على الفاء فقالوا « آداب » كما فعلوا في « آرام وآبار جمع رئم وبئر » فلما كثر استعمال هذا الجمع غفلوا عما فيه من القلب المكاني وظنوا أن ترتيبهُ هذا أصلي وأن لهُ مفرداً على نسقهِ وهو الادب ثم اشتقوا منهُ وصرفوه تصريف غيره من الاوزان» [2]

واننا لنرى هذا الرأي بعيداً عن الحقيقة جدًّا جدًّا ونعتمد في استبعادنا إياه على أمور:

(١) أولها : أن المستشرق لم يذكر شبيهاً لهذا الاشتقاق من العربية وذلك بوجوده «اسم معنى قدمت عينهُ على فائه في الجمع ثم اشتق منه فعل جديد » أما أن يجد فعلاً مبدلة فاؤه بحرف من الحروف فممكن مثل « أخذ وتخذ » و« خدش وكدش » و«شمخ ولمخ » و« نبزه ولبزه » و« ندّد بهِ ولدّد » و« جاد وكاد » و«نحت ولحت » و« ركزه وعكزه » و« اعتكم وارتكم » و« طفا وغفا » و « غمص ورمص »و« امتار واغتار »و«بحث وفحص» و« نخم وضخم » و« فدغ وشدغ » وما لا يحصى من كثرتهِ ، وانما ذكرنا هذه الافعال لانهُ كان قد احتج بـ « وقي وتقي » هناك ولكنّ الاحتجاج بمثله مدحض مردود لانّ اعظم

---

(١) السلفية حالة السالف كالانسانية والزوجية من حيث الاشتقاق المطرد في العربية وقد اشتققناها لتدل على معنى « الفيلولوجيا » (٢) ذكرى أبي العلاء المعري ص ١٢٠ واذكر أنه بسط هذا الرأي أيضاً في كتابه الشعر الجاهلي

ثروة العربية من الابدال و«دأب وأدَب» ليسا من هذا النوع

(٢) لم يذكر لنا المستشرق مصدر جمع «الدأب» بالتحريك او «الدأب» بتسكين العين على «أدآب» حتى يتحول الى الجمع «آداب» فان كتب اللغة قد جاءَ فيها «بئر أبآر وآبار، ورئم أرآم وآرام» وانما هو قد اتبع القياس والقياس انما يفزع اليهِ في مثل هذا عند ضرورة الاستعمال دع ان البئر والرئم اسما ذات وأن الدأب اسم معنى

(٣) لم يأت «الدأب» في العربية بمعنى الادب، فالاول يطلق على العادة والشأن كائنين ما كانا من الحسن والقبح مع ان الثاني من الاخلاق الكريمة في اوّل معانيه، والسلفية تراعي كل المراعاة في هذا المقام وسبيل فعليهما في الاختلاف كسبيلهما، ففي سورة غافر من القرآن الكريم «وقال الذي آمن ياقومي اني أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم» فترى ان الدأب لم يظهر القصد بهِ الاّ بعد ذكر الدائبين مما يدل على عموم لا على خصوص، وفي سورة آل عمران «إن الذين كفروا لن تغني عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله شيئاً واولئك هم وقود النار» كدأب آل فرعون والذين من قبلهم» فمعناهُ في الآيتين «شأن وحال...» وورد بمعنى الاستمرار في سورة يوسف ونصّ الآية «قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله...»

وورد «الدائب» في سورة ابراهيم بمعنى «المستمر» قال «وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين وسخّر لكم الليل والنهار» وقال المبرد «وقوله — جل ثناؤه — : كدأب آل فرعون يقول كعادتهم وسنتهم ومثله الدين والديدن» وقال ايضاً في قول النمر بن تولب العكلي

وذي ابل يسعى ويحسبها له   أخي نصب في رعيها ودؤوب

ما نصهُ «وقوله : ودؤوب، يقول: وإلحاح عليهِ، تقول: دأبت على الشيء، قال الشاعر[1]

دأبت الى ان يقصر الظل بعد ما   تقاصر حتى كاد في الآل يمصح[2]

قلنا : وقال البعيث بن حريث :

خيال لام السلسبيل ودونها   مسيرة شهر للبريد المذئب

قال البغدادي «المذئب من دأب يدأب بالهمز إذا جدّ وتعب»[3] وأرى انهُ قد شعّب معنى «الدأب» باضافته «تعب» إلى التفسير فأفاد هذا الفعل عكس مراد الشاعر، لانهُ ذكر ان المسافة بينهُ وبينها مسيرة شهر للبريد المستمرّ فان كان البريد تعباً كانت المسيرة اطول والمسافة هي هي ويبطل ذكر «المذئب» الدال على السرعة مع طول المسافة، فلقائل ان يقول حينذاك «ان المسيرة بينهما تطول شهراً لتعب بغال البريد فلو كانت نشيطة الى السير لقطعت الطريق بسبعة ايام فالمسافة اذن قصيرة» وهذا التناقض في التفسير لم يخطر على بال البغدادي

(١) أدخل الرواة في الكامل «هو الراعي» بعد قوله «الشاعر» (٢) الكامل «١: ٢٦٥ـ٢٦٧ـ٨»
(٣) خزانة الادب «٢ : ٩٢»

فزاد ما زاد نقلاً عن الصحاح او غيره . فالمعنى الاصيل للدأب انما هو « الاستمرار »وليس بعيداً ان اصله من « ذهب يذهب » فكثير ما تبدل الدال في العربية من الذال ويحدث العكس وطالما تبدل الهمزة من الهاء ويكون العكس فالاول مثل « هذب الشيء اي قطعهُ وهدبهُ » و«جذّه وجدّه » و« دجّ وذجّ » . وقال المخبل السعدي في الزبرقان بن بدر

لعمرك ان الزبرقان لدائب على الناس يعدو نوكه ومجاهله[١]

٤ — ان العرب لو كان عندها الادب بمعنى الدأب ومشتقا من المفرد الموهوم لرجعت الى اصل الفعل عند التعدية ولم يكن بها حاجة الى اشتقاق فعل هي في غنىً عنهُ لمخالفته الاقيسة الطبيعية في لغتها ، ولقالت « ادأبهُ في الامر وأدأبهُ عليه » بمعنى أدّبهُ تأديباً ، فالفعل « أدأب » مشهور ولكنهُ لما يؤد معنى « أدّب» قال الامام علي في وصف النبي محمد(ص) « ووالى فيك الابعدين وعاند فيك الاقربين وأدأب نفسه في تبليغ رسالتك واتعبها في الدعاء الى ملتك»[٢] وقال في اساس البلاغة «وأدأب نفسه واجيره ودابته وفعل ذلك دائباً» [٣] ومراده : جعل نفسه واجيره ودابته في استمرار على العمل ، ومهما يكن الامر فان الادآب لم يرد بمعنى التأديب فلو كان رأي المستشرق صحيحاً لجاء بمعنىً واحد او جاء احدهما قريباً من الآخر ولكنهُ لم يكن

٥ — ان مرادهم بالدأب « السنة والشأن والعمل والحال » انما هو من المجاز لا من الحقيقة ، لان اصله الاستمرار كما قدمنا فهم لم يشتقوا منهُ « أدأب » ولا « دأب تدئيباً وتدئبة » بمعنى « عوّد شأناً وحالاً وسنة » حتى يحتج بشبهة ان « التأديب » هو كالادآب ، قلنا هذا ردّاً على الدكتور طه حسين في تعلقه برأي الاستاذ نالينو تأييداً لنصه هذا « يؤيد هذا أن العرب قد استعملوا لفظ الأدب في ما يستعملون فيه لفظ الدأب من معنى العادة المتبعة والسنة الموروثة[٤] » قال الزمخشري في الاساس « ومن المجاز : هذا دأبك أي شأنك وعملك كدأب آل فرعون [٥] » وقال مجد الدين المبارك بن الاثير « الدأب : العادة والشأن وقد يحرّك ، واصله من دأب في العمل إذا جدّ وتعب الا ان العرب حوّلت معناه الى العادة والشأن» ثم قال « ومنهُ حديث البعير...فقال اي الرسول لصاحبه: إنهُ يشكو اليّ انك تجيعهُ وتدئبهُ ، أي تكدّه وتتعبهُ ، دأب يدأب دأباً ودؤوباً ، وأدأبتهُ أنا ، [٦] فالادآب بقي على حقيقته ، كال أبو جعفر يحيي بن محمد بن زيد نقيب البصرة وممن أدرك القرن السابع للهجرة : « وهذا مدئب نفسه في الصلاة والعبادة وهذا مثله» يصف النبي ـص ـ والامام علياً ،ومن المؤكد أن الحقيقة سابقة للمجاز في نُشوء لغات العالم

٦ ـ انذكر المحتج «أدبه يأدبه بمعنى أقام لهمأدبة» يدل على أنأصل «الأدب» هو الدعوة

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٤١ (٢) شرح ابن ابي الحديد لنهج البلاغة (ج ٢ ص ٦٧)
(٣) الاساس « ٢ : ٢٦٠ » (٤) حاشية ص ١٢٠ من ذكرى أبي العلاء المعري (٥) الاساس «١ : ٢٦٠» ايضاً (٦) النهاية في غريب الحديث « ٢ : ٩ و ١٠ »

الى الطعام والتحقيق انهاعمٌ من ذاك وهو في الأصل «الجمع» مطلقاً ، ففي الأساس «وأدبهم على الأمر : جمعهم عليه ، يأدبهم ، يقال : إيدب جيرانك لتشاورهم قال :

وكيف قتالي معشراً يأدبونكم على الحق ان لا تأشبوه بباطل

وتقول : أدبهم عليهِ وندبهم اليهِ [1] » وذكر صديقي العلامة الأب انستاس ماري الكرملي ان « الأدب صفة الأديب الوارد في اللغة اليونانية بنفس اللفظ والمعنى ، فمن معاني الأديب عندهم : الحسن الغناء اللذيذ المحادثة والمنادمة والمجالسة المثير لهوى جلسائه بانغامه الشاجية وحديثه الريق » وهو رأي له وجاهة وللنفوس فيه هوى لتداخل اللغتين العربية واليونانية في كثير من الكلام وانا على اطرائي لهذا الرأي الحكيم وددت ان ابدي رأيي

في سلفية الادب

إني لأرتئي ان اصل الأدب هو «المذب» بفتح الذال ومعناه الصفاء والخلوص من العيوب اية كانت ، واصل الهذب « بفتح العين ، يقال «هذب الشجرِ : قطع منه ونقاه واصلحه ، ومثله « هذب الشيء قطعه » وقدقدمنا كيف انقلبت الذال دالاً اوجرى العكس وانك لتجد في العربية «المهذب والمؤدب بمعنى واحد» فالأصل من تهذيب الشجر ، وذكر المرحوم احمد فارس الشدياق في كلامه على ان اكثر افعال العربية تفيد القطع مانصه «ويجيء للتهذيب نحو هذّب وشذّب ، على تقدير انهُ قطع عن الشيء كل مايشينه[2] » امّا رجع هذه الكلمة إلى المحسوسات دون المعنويات فقد قال هو عنهُ ماهذه صورته «إن اهل اللغة جميعاً قد اجمعوا على ان المهذب للرجل الكامل مأخوذ من تهذيب الشجرة ، بناءً على ان الأمور المعنوية او العقلية مأخوذة من الأشياء الحسيّة وذلك موجود في جميع اللغات ، ضرورة ان الحواس الظاهرة هي التي تبعث الحواس الباطنة على التفكير والتخيل فان من لم يرَ الأسد مثلاً قط ولم يسمع به ، لم يخطر على باله ان يشبه بهِ رجلاً شجاعاً ، وهذا كما يحكى عن ابن المعتز – رح – من انه كان ينظر الى آنية بيته ويشبه بها ، وتقرير ذلك ان العقل مأخوذ من عقلت البعير ومثله لفظة الحجر اشتقاقاً ومعنىً » وهذا من الحقائق والمؤكدات ، ومثل «هذب» هدم وهذم وحذم وجذم وجرم وجزم وصرم وقرم وهجم وقضم وهضم وكظم وقطم وخطم وكزم وكثم وكشم وقثم وحطم وهشم وهصم (كلها بمعنى هذب ومن اصلها) وصنوه المهموز نحو «هذأه وجزأه وهرأه» وأصلها بحسب نشوء اللغة « المضعّف » مثل «هذّه وهدّه وحته وجدّه وجذّه وقدّه وقطّه وحدّه وخدّه وخطّه وهتّه وهسّه وهشّه وهضّه وحكّه وهكّه» وانما سردنا هذه الأمثال لتظهر سعة الابدال في العربيّة فيكون المستبعد معروفاً والمستغرب مألوفاً

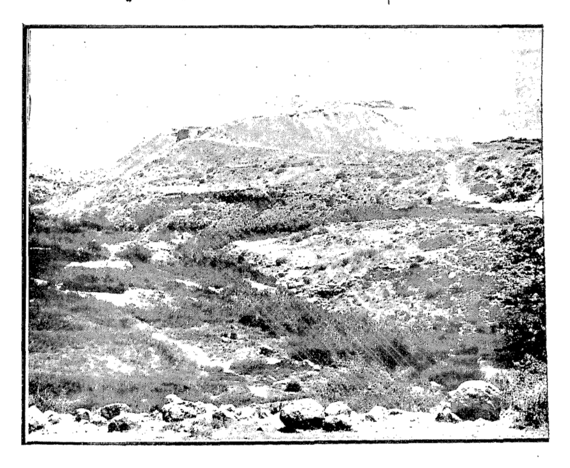
أمّا قلب «الهاء» في «هذب» همزة فمن الطرائق المتعالمة المتعارفة في العربيّة ، قال عثمان

---

(١) الاساس «١ : ٧» (٢) سر الليال في القلب والابدال ص١١ قلت ومثلهما «الحجى» من حجا أي منع «والنهى» من « نهاه»



القسم الاعلى من شاهد الملك رعمسيس الثاني



منظر تل الحصن من الجهة الغربية

ابن جني «وأبدلت الهمزة أيضاً من الهاء ، قالوا : آل وأصله أهل[1]» قلت أنا : إن ابن جنيّ وان نصّ على ورود هذا الابدال فانّه لم يحسن التمثيل لأن الآل على احتساب «أهل» أصلاً لها ، لم يُبدل فيها إلاّ من الألف ، والرأي المتفق عليه أن الهمزة والألف متعاقبتان في كثير من الألفاظ فقد قالوا «هيا وأيا» بمعنى وقالوا «هنّ وأنّ» و«هبرية وابرية» و«هراق واراق» و«هلاّ فعلت والاّ فعلت» وقال الزمخشري في ابدال الهمزة «وابدالها من الهاء في ماء وامواء قال: وبلدة خالصة امواؤها ...وفي: ألفعلت ؟ » ثم ذكر «هردت وهرحت وهياك وهما وهن[2]» وحدّث محمد بن موسى بن أبي مريم صاحب اللؤلؤ قال « سمعت أبان[3] بن تغلب (وما رأيت أحداً اقرأ منهُ قط) يقول : إنما الهمز رياضة » وذكر قراءتهِ الى آخرها ، وعلق في حاشية هذه الصفحة التي نقلنا منها ما صورتهُ « قد فُصل في كتب الصرف ان العرب قد اختلفت في كيفية التكلم بالهمزة فقريش واكثر اهل الحجاز تخفضها لانها اثقل حروف الحلق ولها نبرة كريهة تجري مجرى التهوّع فنقلت بذلك على اللافظ ، وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب انهُ نزل القرآن بلسان قريش وليسوا باهل نبر (أي همز) ولولا أن جبرائيل نزل بالهمزة على النبي — ص — ماهمزنا ، واما باقي العرب كتميم وقيس فتحققها قياساً لها على سائر الحروف ، وقول أبان هذا : انما الهمز رياضة ، اختار فيهِ لغة قريش على غيرها »[4]

ولنبحث الآن عن نشوء «الهذب» بالتحريك الذي هو اصل الادب ،فهو مصدر مماثل لمصادر «الالوان والتغير» كالزرق والكدَر والحوَر ولكن فعله غير مذكور في معاجم اللغة وكثيراً مايجد المتتبع أمثال هذا في الكتب المذكورة كالدويّ والبرَح والبركة كالعظمة وكذلك وجود الصفات وضياع أفعالها كالأترف وهو من في شفته العليا هنة ناتئة متوسطة ، ومثل المضعوف والمنبوت والمشؤوم من « ضُعِف ونُبت وشُئم » المبنيّة للمجهول اتباعاً لبابها ، وأصل « هذّب » هدب تهديباً بمعنى قطع عندهم ولكنهُ عندنا من باب « التعدية والتكثير المعاكسين » فاذا قيل « هـَدّب الشجرة » فعناه نزع عنها « هدبها » وهو أغصان الأرطى المتدلية ونحوها[5] » فهو مثل « قذّاه تقذية » نزع عنه القذيء و«جلّد البعير» أزال عنهُ الجلد و «قشّر العود» انتزع قشره و «حلمه تحليماً » نزع عنه الحلمَ وقرّده» أزال عنهُ القراد و « مرّضه » أراد دفع المرض عنه و « جنّبه الشيءَ » دفع جنبه عنه و «جبههُ تجبيهاً » أزال جبهته عن المستقبل له ، وقد غلط الفيروزآبادي في عدّه الفعل الأخير مخالفاً

(١) التصريف الملوكي ص ٥ (٢) المفصل ص ٣٦٢ طبعة مطبعة التقدم ، ٣٦٩ أراد بهردت « أردت » ودهرت « ارحت » وبهياك « اياك » وبهما « أما » وبهن « ان » الشرطية وذكر غيرهن

(٣) هو من السابقين الاولين في اللغة والادب الاخباري والحديث والفقه والتفسير ، مات سنة «١٤١» هـ ذكر ترجمته ياقوت في معجم الادباء «٣٤١» وفي فهرست كتب الشيعة لابي جعفر محمد بن الحسن الطوسي وذكر ترجمته أبو العباس أحمد بن علي النجاشي في كتاب الرجال ص ١١ وأبو علي النجفي في كتاب الرجال ص ١٧ (٣) رجال النجاشي المذكور ص ٨ (٤) قال ذو الرمة غيلان بن عقبة

بين النهار وبين الليل من عقد على جوانبه الاسباط والهدب

للقياس، فانّ تعدية السلب بالتضعيف وهمز الأوّل متعارفة في كلام العرب كما قدمنا

ثم قالوا « هذّب الشجرة » بمعنى هذّبها ثم استعاروه للانسان فقالوا « هذّب فلاناً » بمعنى قطع من طباعهِ وأخلاقه كل شائن له ، وفي مثل هذا قال النابغة

ولست بمستبق أخاً لاتلمُّه على شعث أي الرجال المهذّب ؟

ثم بنوا له فعلاً من أفعال الغرائز والتغيّر إماعلى وزن « فعِل يفعَل » كفرح يفرح فرحاً وامّا على « فعَل يفعُل » كشرف يشرف شرفاً ، ولم ينقل لنا اللغويّون إلاَّ مصدره «الهَذَب» بالتحريك ، فهو مثل اشتقاقهم من «بلغ» أي وصل «بلُغَ بلاغة» صار بليغاً ومن «أفصح اللبن : ذهبت رغوته» فصُح فلان صار فصيحاً ومن شرف المكان بكسر الراء «شرُف فلان» أي علا شأنه ومن «مجدت الابل» بفتح الجيم «مَجدُ فلان فهو مجيد» ويجوز أنهم كانوا يستعملون لـ «هذب» الباب الرابع والخامس من الثلاثي المجرّد كقولهم « حمِق وحمُق» و«ذئِب وذؤب» و« كدِر وكدُر» و« أنِس وأنُس » و«بخِل وبخُل» و«حرِمت الصلاة وحرُمت» و«سري وسرو» وسخي وسخو» و«عجِف وعجُف» و«سمِر وسمُر» للاسمر و«خرِق وخرُق» و«سفِه وسفُه» ومن ثم قالوا «أدُب فلان فهو أديب» بدلاً من «هذُب»

أجاهلي لفظ الادب ؟

قال الدكتور طه حسين في ص ١٩ من كتاب الأدب الجاهلي «ولكن الشيء الذي لاشكّ فيه هو أننا لانعرف نصّاً عربيّاً جاهليّاً صحيحاً ورد فيه لفظ الأدب ، والشيء الذي لاشك فيه أيضاً أننا لانعرف أن لفظ الأدب قد ورد في القرآن، وكل مانعرفه هو أن هذه المادة قد وردت في حديث مهما يكن رأي المحدثين فيه فليس هو بالحجة القاطعة على أن النبي قد استعمل هذه المادة ، وهذا الحديث هو قوله — ص — : أدبني ربيّ فأحسن تأديبي ، هذا الحديث لايثبت حكماً لغويّاً إلاَّ إذا ثبت ثبوتاً لايقبل الشك او كان من الراجح على اقل تقدير أنهُ صح بلفظه عن النبي ، ولكننا بعيدون عن هذا كله ، فنستطيع اذن أن نقول من غير تردّد أن ليس لدينا نص صحيح قاطع يثبت أن لفظ الادب وما يتصرف منهُ من الافعال والاسماء قد كان معروفاً او مستعملاً قبل الاسلام او إبان ظهوره » اهـ

والدكتور محق في أن حديث الرسول — ص— لا يبنى عليهِ أساس لغوي ولا استشهاد وقد نقل البغدادي في اول خزانة الأدب اقوال العلماء في هذا الامر ومعظمهم يذهبون ذلك المذهب فيهِ ، وذكر مثلاً لذلك روايتهم عنهُ — ص — قوله : ملكتكها بما معك من القرآن زوجتكها بما معك . . . خذها بما معك . . . ، وقال ابو سليمان الخطابي وجماعته : ان لفظ الحديث تناقلته أيدي العجم حتى فشا فيهِ اللحن وتلعبت بهِ الالسن حتى حرّفوا بعضهُ عن مواضعهِ ، وما هذه سبيله فلا يحتج بالفاظه المخالفة لان المحدثين لم ينقلوا الحديث لضبط

الفاظه حتى يحتج بها بل لمعانيه ولهذا أجازوا نقل الحديث بالمعنى ، ولهذا تختلف الفاظ الحديث الواحد اختلافاً كثيراً »[1] . وقال صديقنا الاستاذ الزيات « عرف الجاهليون ولا ريب هذه الكلمة واستعملوها على التعاقب في معان ثلاثة » ثم قال « ولا عبرة بقول من نفى ذلك مستدلاً بعدم ورودها في الشعر القديم والقرآن الكريم فان ورودها على لسان الرسول (ص) في حديثه للامام علي (ك) وورودها على ألسنة الصحابة والتابعين دليل على وجودها في الجاهلية لان الرسول لم يرتجلها ارتجالاً وانما استعملها استعمالاً بدليل فهم الامام لها دون سؤال ولا مراجعة » قلنا : اما القول الاول فممكن ولكنهُ لم يؤيده بالرواية اللفظية الصحيحة ، واما القول الثاني فلا أرتضيه له صيانة مني لتحريه وتحقيقه وتثبته في قضايا الادب العربي ، وهو بعد صديق كريم

قلنا آنفاً ان الادب صنو الهذب وهو في الاصل الخلوص والصفاء ، ولقد ورد الادب في الكلام الجاهلي بخلاف ما زعم الدكتور طه حسين وورد في كلام الامام علي بن ابي طالب — ع — اما من ورد في كلامه من الجاهليين فهو اكثم بن صيفي خطيب بني تميم الشهير قال ابو هلال العسكري في الكلام على المثل « ويل للشجي من الخلي » ما نصه « المثل لاكثم بن صيفي ، وذلك انهُ ذكر له رسول الله — ص — فكتب اليه « باسمك اللهم فأدبني بآدابه ، من العبد الى العبد ، اما بعد فبلغنا ما بلّغك الله خبر خير ما اوصله ، إن كنت رأيت فأرنا وان كنت علمت فعلمنا وأشركنا في خيرك » وكان الكتاب مع رجل اسمه « جيش » قالوا أبو هلال « فتبعه مائة من عمرو وحنظلة وخرج الى النبي — ص — فلما كان في بعض الطريق عمد جيش الى رواحلهم فنحرها وشق ما كان معهم من قربة وهرب ، فأجهد اكثم العطش فمات وأوصى من معه باتباع النبي — ص — وأشهدهم أنه اسلم فأنزل الله فيه : ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله [2] » فقوله « فأدبني بآدابه » لايحتمل الشك ولا التأويل لورود الأدب جمعاً مع فعل التأديب ، وقال الامام علي — ع — كما في نهج البلاغة « قد دارستكم الكتاب وفاتحتكم الحجاج وعرفتكم ما انكرتم وسوغتكم ما مججتم لو كان الأعمى يلحظ أو النائم يستيقظ وأقرب بقوم من الجهل بالله قائدهم معاوية ومؤدبهم ابن النابغة [3] » عنى بابن النابغة عمراً بن العاص ، وقال يصف رجلاً « قد لبس للحكمة جنتها وأخذها بجميع أدبها [4] » وكتب عبد الله بن عامر إلى معاوية « ولنعم مؤدب العشيرة أنت وإنّا لنرجوك بعد عثمان [5] » وقال علي أيضاً « وادبتكم بسوطي فلم تستقيموا وحدوتكم بالزواجر فلم تستوسقوا [6] » وقال حجر بن عدي الشهيد لعلي « يا أمير المؤمنين نقبل عظتك ونتأدب بأدبك [7] » فالأدب وأفعاله مستفيضة في كلامهم ، أمّا أطوار الأدب فليس لنا من الوقت ما يسهل الكلام عليها ولكن سنفي بالوعد

بغداد — مصطفى جواد

(١) المصباح المنير بمادة «وسط» (٢) جمهرة الامثال ص ٢٠٣ طبعة بمبي (٣) شرح ابن أبي الحديد «٢:٥٢٦» (٤) الشرح «٢:٥٣٥» (٥) الشرح «٢:٥٧٣» (٦) «٢:٥٣٦» (٧) الشرح «١:٢١١»

بيسان وآثارها

﴿ جغرافيتها ﴾ — بيسان مدينة واقعة في منخفضات سهل إزدراليون أو مرج ابن عامر Esdraelon يسكنها ١٥ الف نسمة معظمهم إسلام وهي قصبة قضاء يعرف باسمها الآن ، قائمة عند الكيلو التاسع والخمسين من خط حيفا — درعا ، في الجنوب الشرقي من المرج المذكور وسطحها منخفض ١٣٠ متراً عن سطح البحر . ولا يزورها احد منا الآن إلاّ ويحمل معهُ عند رجوعه منها ذكرى الحر الشديد فيها والبعوض المنتشر فوق مستنقعاتها وهذا رغماً عن الاعمال الجليلة التي قامت بها الحكومة الحالية لتخفيف وطأة الملاريا فيها . غير انهُ لا بدَّ لهُ وخصوصاً إذا ما رجع إلى تاريخها الحافل بالحوادث التاريخية الاَّ ان يقف متحيراً عند ما يعرف انهُ كان لها شأن خطير في تاريخ فلسطين من قديم الزمان . وبالرغم من هذا كله لم تجرؤ الجمعيات العلمية على طلب رخصة للتنقيب عن آثارها إلاّ بعد أن إحتلَّ الانكليز هذه البلاد لانها كانت ملكاً خاصًّا للسلطان عبد الحميد

﴿ الحفريات وبيسان ﴾ وكان اول من نال امتياز التنقيب بعثة متحف جامعة بنسلفانيا بفلادلفيا سنة ١٩٢١ وكان من العبث ان تقوم البعثة المذكورة بالحفر والتنقيب عن كل آثار العصرين الروماني والبيزنطي في المدينة لانهُ عمل شاق جدًّا وانما حفرت التل المسمى بتل الحصن Tel El Husn وهو تل يرتفع عن سطح الارض[1] ٢٥٠ قدماً تقريباً وكذلك المقبرة التي تمتدّ على الشاطىء الشمالي من نهر جالود Jalud . والاراضي التي تقع حول بيسان خصبة جدًّا حتى أنها كانت تنتج كتاناً اشتهر في العالم القديم

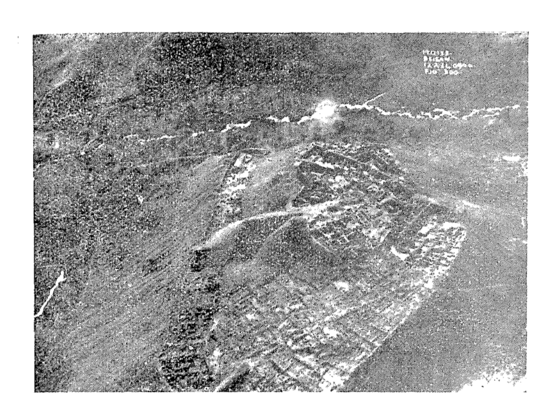
دلّت الحفريات الحديثة أن المدينة كانت قائمة من قبل القرن السادس عشر قبل الميلاد ، وقد أسفر البحث عن وجود كنيستين واربعة معابد اثنان منها يرجعان الى العهد القديم . أولها (١) بيت عشتاروت[2] The House of Ashtarth وثانيها (٢) معبد دجون[3] The Temple of Dagon وعثرت البعثة كذلك على أحجار نقشت عليها كتابات تختص ببعض ملوك مصر الاقدمين سوف أشير اليهم فيما يأتي

﴿ أسماء بيسان ﴾ واسم المدينة في العبرانية القديمة «بث شان» Bethshan ومعناها «بيت

---

(١) راجع ما هو مكتوب عن بيسان في دائرة المعارف الانكليزية . الجزء الثالث وجه ٣٣٣

(٢) راجع صموئيل الاول الاصحاح ٣١ العدد ١٥ (٣) راجع الاخبار ١ الاصحاح ١٠ العدد ١٠



صورة اخذت من الجو لمكان الحفريات في بيسان



المقبرة الشمالية في بيسان

السلام او الهدوء » ولكن لما احتلها اليونان غيّروا اسمها هذا إلى Scythopolis اي « بيت السيكيثيين »[١] Scythians ولكنها لا تزال تعرف باسمها القديم ولا ندري ما الباعث على ذلك. ويقال انها كانت تدعى مرةً ما باسم Mysa[٢] وهو الموضع الذي وضع فيهِ الاله باخوس Bacchus وارضع من عرائس البحر Nymphs ولقد ظهر هذا الاسم على بعض النقود التي وجدت في المدينة

﴿ نبذة عن تاريخها ﴾ ذُكر اسمها بين اسماء المدن التي احتلها تحتمس الثالث[٣] عند ما احتلّ سهل ابن عامر سنة ١٤٧٩ ق.م وكانت ايضاً في قبضة المصريين على ايام ستي الاول سنة ١٣١٤ ق.م . وبقيت على هذه الحالة الى أيام رعمسيس الثالث سنة ١١٩٨ ق.م . وقد وُجد اسمها ايضاً مذكوراً على احد دروج البردي Papyrus Asastasi على أيام رعمسيس الثاني . واستولى الاسرائيليون على المدينة في أيام الملك داود حوالي سنة ١٠٠٠ ق . م . وكان من نتيجة موقعة جلبوع[٤] Gilboa المشهورة في التوراة أن علقت جثتا الملك شاول Saul وولده بعد هزيمتهما وقتلهما على سور المدينة. ثم احتلها بعد ذلك المصريون على ايام الملك Shesluok سنة ٩٢٦ ق.م وبقيت من ذلك الوقت في ايدي المصريين إلى أن افتتحها الاشوريون في القرن السابع قبل الميلاد

وفي المدة الواقعة فيما بين سنة ٣٠١ ق . م — سنة ١٩٨ ق.م دخلت المدينة في حكم البطالسة ولما جاء الرومان الى فلسطين احتلوا المدينة سنة ٩٥ ق .م على أيام بومبي Pompey ومن ثمَّ اصبحت اشهر مدينة بين المدن العشرة الرومانية في الشرق الادنى المعروفة بـ Decapolis وأخذت تنمو وتتقدم فكثرت فيها العمارات والبنايات الكبيرة كالملاعب والملاهي واصبحت تفوق مدينة القدس تجارة ونفوذاً وسعةً وسكاناً . ولما جاء المسلمون فلسطين فتحوها سنة ٦٣٦ ق.م. وفتحها صلاح الدين ايضاً سنة ١١٨٧ ميلادية مع عفربال Afrabalo او Fourbelet واغتصبها من ايدي الصليبيين. ويقال انهُ لما خسر البيزنطيون موقعة اليرموك المشهورة تراجعوا الى ما وراء نهر الاردن وذلك بعد ان حصنوا بيسان حتى انهُ لما تبعهم العرب[٥] وجّهوا عليهم ماء العيون التي في المدينة ولكن العرب لم يعبأوا بذلك فهجموا عليهم وكان من نتيجة ذلك أن انهزم البيزنطيون شرّ هزيمة وتعرف هذه الموقعة بموقعة الفحل[٦] Fahl وهو الاسم العربي لمدينة Pella القديمة وأصبح يُعرف هذا اليوم فيما

(١) وهم قوم نزحوا من الشمال الى فلسطين حوالي سنة ٦٠٠ ق.م (٢) راجع ما هو مكتوب عن بيسان في كتاب The Historical Geography of the Holy Land by. G. A. Smith وجه ٣٥٧—٣٦٣ (٣) راجع ما هو مكتوب عن بيسان في دائرة المعارف الانكليزية

(٤) راجع صموئيل الاول الاصحاح ٣١ العدد ١٢

(٥) راجع المقال المكتوب عن بيسان في مجلة The Museum Journal Dec. 1923 الصادرة في فيلادلفيا بامبركا (٦) راجع ما هو مكتوب عن بيسان في The Hist. Geog. Holy Land. ايضا

بعد في التاريخ الاسلامي « بيوم بيسان »

﴿بيسان ومكانتها الأثرية﴾ دلّت الحفريات الحديثة أن تاريخ التل المذكور أي تل الحصن يرجع إلى ما قبل ٣٠٠٠ سنة ق.م. وقد توصل علماء الآثار إلى معرفة هذا من الحفر في بئر بجانب التل والعثور على طبقات بناء مختلفة يرجع تاريخ كل واحدة منها إلى عصر معروف ، ويقع ضمنه معبد المدينة القديم والمدينة الكنعانية القديمة « The Canaanite City » والقلعة المصرية وهي قلعة مبنية من الآجر فيها غرف صغيرة وممرات طويلة . أما حجم اللبنات المبنية منها فتبلغ[1] ٢١×١٤×٦ بوصات . ووجد في هذه القلعة لوحات من الحجارة خطّت عليها نقوش تختص بكل من سيتي الأول ورعمسيس الثاني وتمثال لرعمسيس الثالث وكل هذه الاحجار[2] مقطوعة من نوعٍ من الرخام . أمّا النقش الحجري فللملك سيتي الأول

١ — اللوحة الاولى : دوّنت عليها أسماء القبائل المتعددة التي خضعت لهُ في غزواته عند دخوله فلسطين والكتابة على هذا الحجر صعبة القراءة جدًّا وتاريخها غير معيّن وهي تختلف كثيراً عن بقية النقوش الخطيّة التي أقامها هذا الملك ولا يمكننا بواسطتها أن نعيّن السنة التي غزا فيها مدينة بيسان ومتى أقام الحجر المذكور فيها وعلى الإجمال فهذا النقش يُعطينا شرحاً لابأس بهِ عن غزو سيتي لبعض من الشعوب الأسيوية كشعب Rtnw « رتنيو » وهذا هو الاسم المصري للشعب الذي كان يسكن فلسطين في ذلك الوقت

أما في ما يرتبط بالعساكر التي استخدمها هذا الملك في غزوة فلسطين فالحجر يبيّن أنها كانت « مستأجرة معظمها من الجزائر الإيجيّة «Aegean Islands» ومن غرب الأناضول »

٢ — وهنالك نقشٌ خطيٌّ آخر (Stele No 2) وجدته البعثة الآنف ذكرها وعليهِ منقوش صورة Seti I أيضاً عند ما كان شابًّا متحليًّا بالشارة الملكية المصرية « وهي رأس الحيّة » يُقدّم قرباناً إلى الإله هورس « Horus » وعلى هذا الحجر مكتوب قصة تشير الى ان أهالي بيسان وكذلك أهالي رهوب Rehob قد طلبوا النجدة من الملك المُشار اليه لاعانتهم ضد أهالي Hanmath[3] الحمة (وهي قرية واقعة على نهر اليرموك فيها ينابيع حارّة . (راجع الخريطة) وأهالي قرية Pella (وهي قرية أيضاً تقع شرقي بيسان من الجهة الثانية للأردن) ، وكيف أنهُ عند ما وصل مجدّو[4] Megiddo كان قد أوفد نجدة للمستنجدين

(١) راجع مقال الدكتور Fisher عن بيسان في «مجلة متحف جامعة بنسلفانيا » عدد ديسمبر ١٩٢٣
(٢) ان الشرح المعطى لهذه الاحجار في هذا المقال مأخوذ بعضه من مقال خصوصي عنها للدكتور Albright أحد اساتذة جامعة جونز هوبكنز Johns Hopkins
(٣) قرية خربة فيها بعض من الآثار الرومانية واقعة على خط حيفا — درعا وفيها كنيس يهودي قام بالحفر حوله في الصيف الماضي بعثة ارسلت من قبل الجامعة العبرية بالقدس . ويزورها الآن كثيرون من الذين يطلبون الاستشفاء للاستحمام في حماماتها الساخنة (٤) بلدة قديمة واقعة في سهل مرج ابن عامر كانت ذات شأن كبير في تاريخ فلسطين ويقوم بالحفر فيها الآن بعثة مرسلة من قبل جامعة شيكاغو Chicago



نصب (Stele) ستي الاول

امام صفحة ٣٢٩



نصب رعمسيس الثاني

في كتيبتين من كتائب جيشه أحداها Ra وهذه ذهبت لاحتلال بيسان والثانية Amen وهذه ذهبت لإخضاع أهالي الحمة Hammath وبعد ذكر وقائع أخرى تنتهي الكتابة المنقوشة بذكر انتصار ستي الاول (Seti I)

وهذا الحجر هو أهم الاحجار التي وُجدت في بيسان من الجهة التاريخية لأنهُ يشرح لنا بعض الحوادث المدوّنة على جدران معبد الكرنك في مصر . ومعرفتنا لتاريخ فلسطين في المدة التي تقع فيما بين عصر تل العمارنة وعصر دخول الإسرائيليين إليها يتوقف بعضاً ما على ما هو مكتوب على هذا الحجر . وأول شيءٍ يبهر الإنسان في قراءة هذه المخطوطة الحجرية هو تاريخها المضبوط «السنة الأولى ، الشهر الثالث من الفصل الثالث،اليوم العاشر» وهذا يعني أن ستي الأول كان قد غزا فلسطين في هذا التاريخ ابتداءً من تولّيه عرش الفراعنة

وهذا الحجر يدلنا على أن الحجر الأول للملك نفسه لم ينصب عند ما غزا فلسطين أوّل مرّة بل كان قد نصب عند دخوله إليها في المرّة الثانية

أما اسم بيسان فنجده مذكوراً مرتين عليهِ وتهجئة اسمها باللغة الهيروغليفيّة تدلّ أنها نفس المدينة المذكورة في رسائل تل العمارنة « Tel El Amarna letters »

٣ — اللوحة الثالثة (Stele No 3): أما حجر رعمسيس الثاني فيقع بجانب الحجرين الأولين لسيتي الأول وكتابتهُ تُقرأ بسهولة وتتألف من ٢٤ سطراً كلها تنطق بعظمة الملك الموصوف «كالأسد بين النعاج» و «كالنسر بين الطيور» و «كالملك الذي يهرب من أمامه الأعداء كتطاير الريش في الريح الشديدة» . وهذا الحجر هو أكبر الثلاثة حجماً وتاريخه « السنة التاسعة ، الشهر الرابع من الفصل الثاني ، اليوم الأول» . وقصة ذلك أنه في السنة الثامنة من حكم رعمسيس الثاني كانت قد ثارت عليه بعض القبائل الشمالية وأغلبها من الحثيين فجاء وأخضعها بجيوشه وفتح بيسان وأقام في قلعتها المصرية هذا الأثر التاريخي بعد سنة تقريباً

ومكانة هذا النقش الخطيّ من ناحية التاريخ تقع في السطر التاسع منه حيث يقول أن شعباً آسيويًّا[1] كان قد استخدمهُ الملك في بناء مدينة Ramses في دلتا النيل Delta وهذه هي البلدة المذكورة في العهد القديم من التوراة في سفر الخروج الاصحاح الأول العدد ١١ . ومن هنا يمكننا أن نرى أن اليهود هم الذين كانوا قد استخدمهم رعمسيس الثاني في بناء بلده

ويذكر أيضاً على الحجر أن الملك المذكور كان قد أعدّ مقبرة جميلة لجنودهِ في بيسان ولقد دلّت نتائج الحفر في هذه المقبرة على أن الأشياء التي وُجدت فيها يرجع تاريخها الى ٢٠٠٠ سنة ق . م . وأنها مصرية الصبغة بكل مظاهرها كوجود زهرة اللوتس Lotus والحيّة الملكية المصرية ويرجّح ان العساكر التي دفنت في هذه المقبرة كانت مستأجرة في الجيش المصري

(١) وهذا دليل قاطع يدلنا على ان الاسر الاسرائيلية في مصر كانت على أيام هذا الملك يشير الى ذلك ماهو مكتوب في الاصحاح الاول من سفر الخروج العدد ١١ بقوله «فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس»

وبجانب هذا الحجر وجد تمثال رعمسيس نفسه مكسوراً ويظهر على كتفيه شعار ملكي مصري آخر وهو الخرطوش الفرعوني Cartouche

ويقول الدكتور Albright [1] ان هذه الاحجار الثلاثة هي اهم ما وُجد من الآثار القديمة في فلسطين وسوريا لانها تدلنا على تاريخ هذه البلاد بوجهة اجمالية

وتدل البيوت المنتشرة حول القلعة المختصة بالسيكيثيين Scythians الآنف ذكرهم انهم لم يكونوا على شيء عظيم من الحضارة لان هذه الآثار تنطق بذلك . ولقد بقيت بيسان من ايام هؤلاء القوم على حالة مضعضعة الى ان احتلها اليونان فتغيرت من مدينة حرب الى مدينة تجارة وسلام واصبحت تفوق بتاريخها من هذا الوقت مجدها القديم وجبروتها العظيم ودخلت بذلك عهد نهضة جديدة . واول اثر يدل على هذه النهضة في المدينة هو وجود معبد جميل في اعلى نقطة فيها عثر بجانبه على قطعتين من الرخام مكتوب عليها نقوش خطية مع ذكر اسم دميتيريوس Demetrius وبعض من النقود الفضية مكتوب عليهما Ptolemy Soter I الملقب بـ Polyorcetes ملك مكدونيا من سنة ٢٩٤ — سنة ٢٨٧ ق . م . ولسبب ما لا نعرفه بقي بناء هذا المعبد ناقصاً الى ايام الرومان الذين اكملوه وقاموا بترميمهِ فيما بعد واعمدته ذات قواعد اتيكية Attic ورؤوس كورنثية وتدل النقوش واكاليل الزهر المنقوشة على جدرانهِ انهُ كان قد كرّس الى الاله باخوس Bacchus [2] ولما كان موقع بيسان الجغرافي ممتازاً جعلها الرومان قاعدة مدنهم العشرة Decapolis وأصبحت مركزاً تجاريًّا كبيراً تمر بها القوافل والتجار في طريقهم الى شرقي الاردن

وكان يعيش بجانب العنصرين الروماني واليوناني في المدينة فريق من اليهود كان لهم شأن خطير في تاريخها في سنة ٦٥ ق . م . انحازوا الى جانب اخوانهم الوثنيين من سكان المدينة ضد بعض الثوار الذين قاموا في وجه الحكم الروماني في ذلك العصر ولكن هذا الجميل لم ينفعهم لان الوثنيين غافلوهم بعد هذه الحادثة بقليل وذبحوا منهم ما يقارب (١٣٠٠٠) نفس . ولما ظهرت النصرانية اصبحت بيسان مركزاً مسيحيًّا كبيراً وصار يسكنها مطران يترأس عدة كنائس فيها واول كنيسة بنيت فيها كانت في القرن الرابع للميلاد وكان موقعها على رابية وفي جوار هذه الكنيسة من الجهة الشمالية وُجد قبر سانت باتروفيلس St. Patrophulus اول اسقف مسيحي للمدينة . وفي ايام الاضطرابات التي قامت ضد المسيحيين سنة ٣٦١ ميلادية نُهبت الكنيسة المذكورة وحُرقت ولكن لما استتبَّ الامر للمسيحيين ثانيةً بنوها بعد ان غيروا في هندستها الشيء الكثير . ولما دخل المسلمون فلسطين سنة

---

(١) ويؤيد قول الدكتور Albright كثيرمن علماء الآثار منهم الدكتور C. S. Fisher وهو الذي وجدها في بيسان سنة ١٩٢١ (٢) وهو اله الخمرة عند اليونان

٦٣٧ ب. م. حولوها الى جامع فأضافوا اليها بعضاً من النقوش الخطية الكوفية ولكنهم لم يغيروا شيئاً من اصل البناء . وتدل النقوش الكوفية التي وجدت في اماكن مختلفة ان هذا الجامع كان قد سقط وخرّب بواسطة الزلازل إما في سنة ٦٥٨ ب. م. او في سنة ٧١٣ ب. م. ولم تقم له قائمة فيما بعد لأن بعضاً من البيوت العربية للسكن امتدت اليهِ وتعرف هذا من كتابة كوفية منقوشة على عامود وجد حديثاً والذي كتبها رجل عربي زار المدينة في سنة ٧٨٤ ب. م. والراجح ان بيسان كانت معروفة للسيد المسيح[1] لان على مقربة منها كانت تقع بيت عبرة وهو الموضع الذي تعمَّد فيهِ وكان لابدَّ له ولتلاميذه ايضاً من اجتيازها عند ما كانوا يبشرون بدينهم الجديد في منطقة الجليل

ولم تتوطد دعائم النصرانية في هذه المدينة الاّ في اواخر القرن الثاني للميلاد فاضطهد مسيحيوها على ايام الامبراطور ديوقليطيانوس (٢٤٥ — ٣١٣ ب. م.) وتضعضعت احوالهم ولكن عددهم اخذ يزداد بعد هذا وصار لهم كلمة مسموعة في شؤون الكنيسة وكان لهم ممثل في المجمع الكنائسي الذي عقد في نيقية Nicaea[2] سنة ٣٢٥ م. ولقد اصبحت فيما بعد مركزاً عظيماً للرهبنة المسيحية اخرجت رجالاً كانوا اصحاب سطوة في تاريخ الكنيسة الشرقية مثل القديس باسيليوس St. Basil والقديس كيرلّوس St. Cyril

﴿ سبب انحطاط بيسان الآن ﴾ : — قلنا آنفاً انهُ في اثناء حصار العرب للمدينة سنة ٦٣٧ ميلادية كان قد اطلق الرومانيون عليهم اقنية الماء التي كانت تقع في غرب المدينة فأحدث ذلك مستنقعات حول المدينة ولما دخلها العرب لم يوجهوا عنايةً ما الى تجفيف هذه المستنقعات ومن ثمَّ أصبحت المدينة في خطر هو أشد وأعظم فتكاً من الجيوش الجرارة وذلك الخطر هو البعوض ناقل طفيلي الملاريا

وعند ما احتلّ الصليبيون هذه المدينة ، عرفوا مالها من الشأن الخطير فبنوا فيها ثكنات عسكرية وكان في هذه الثكنات فرن غير أنه كان من نتيجة الملاريا الملعونة أن ترك هؤلاء المحل وذهبوا الى محل آخر على بضعة أميال من بيسان شمالاً سموهُ فيما بعد Belvoir ولكنهم بالرغم من هذا كانوا قد تركوا شرذمة من عساكرهم في المدينة لم تقوَ فيما بعد على صدّ هجمات صلاح الدين سنة ١١٨٧ ميلادية

ومن ذلك الوقت اختفت بيسان بتاريخها العظيم من مرسح التاريخ العام لولا ظهورها بين آونةٍ واخرى كشبح فقط في تمثيل بعض الادوار الصغيرة في تاريخ فلسطين على هذا المرسح

داود . ت . فيشر

(١) راجع مقال آخر مكتوب في مجلة متحف جامعة بنسلفانيا عن بيسان The Museum Journal XV—XVI

(٢) راجع المقال نفسه في The Museum Journal XV—XVI عن بيسان

اللحن الضائع

لحسن كامل الصيرفي

يا أغاني الربيع ما أنا إلاّ مقطعٌ من قصيدةٍ ضاعَ لحنهْ

لم تلدْ لي الايامُ منْ يتولّى بعثَ لحني ، وكيف يبزغ شأنُهْ !

أوَ بين الصخور يكتمل الصو ت !؟ محالٌ هذا وكنتُ اظنُّهْ …

ادركتْ ذلك الطبيعةُ في الكو ن ، فأغضتْ عنهُ ، فأُجّل حَيْنهْ

وتناستهُ ، والذي تتناسى في شروق الحياة يوشك بَيْنُهْ

من ذبول الآمالِ ، من غُمرِ اليأ سِ ، وطيف الآلامِ يشردُ ذهنهْ

من ظلام الطريق ، من شبح الوهـ ـمِ ، وفقدِ الوجدان يُطبق جفنهْ

يا اغاني الربيع . . . عندكِ وزنٌ للنشيد الذي تُنُوسيَ وزنُهْ ؟

كان يصبو الى سماعكِ بالأمـ ـس ليصحو من رَقدة الموت فَنُّهْ

فإذا العودُ لا يردّدُ صوتاً وإذا القلب ليس يُسمَع أنُّهْ

والربيعُ الجميلُ في وحشةِ الاطـلال ، ذاوٍ ، فليس يجملُ لونُهْ

مُوحشٌ في الصباح ، في وَضح الـشمسِ ، وليل الآلام حين يجنُّهْ

قصة مصرية

الاوركستر

كانت الحانة ضئيلة الانوار وقد رقت فيها انفاس الليل حتى لكأن الذين اجتمعوا حول موائد الشرب كلما طال ليلهم ازداد استمتاعهم . الليل والخمر ولذة السهر بعثت في جو الحانة حياةً ونشاطاً فاشبهت في لجة الحالكة والسكون ضحكة واضحة اشرق بها ثغر حسناء من بنات الهوى

حانة صغيرة ولكن انيقة كأنها لحسن ترتيبها وجدتها صورة في لوحة . لا تكاد تبلغها ضوضاء الطريق لانعزالها في حي هادىء من احياء الافرنج

في تلك الليلة اجتمع حول احدى الموائد في ركن الحانة ثلاثة اشخاص لا يكاد يتبينهم الناظر حتى يحكم بانهم اغرقوا الشباب الغض في لجة الحياة الدنيا غرق الزهر في الآنية .واعربت سماتهم عن حقبة من العمر يظل فيها المرء اسير اهوائه

وقد وفقت بينهم حياة السهر الى حد ان غاب تباين ملامحهم الطبيعي تحت ظلال من التناسب العجيب بين صورهم . وغالباً ما تستوي الصور والطباع في الناس فلا يكاد يفترق السكير عن السكير الا في القليل.وكان الاصدقاء الثلاثة يستوون في اشياء كثيرة في طباعهم وحديثهم وازيائهم ، وغير هذه الاعجوبة في شأنهم ان كلاً منهم كان يأخذ بسبيل من الحياة البوهيمية يزيد في اتحاده برفيقيه كانوار الثريا

ولقد تذكر لفظة « البوهيمية » اقتساراً في هذا الحديث فلا يكون المراد منها ذلك الشذوذ المحتمل الذي يعتري حياة رجل غلبت مواهبه طباعه . فانحرف عن سبيل الناس وحاد عن المألوف في الكثير من معاملاته واساليبه . انما الغرض من البوهيمية في معنى الحياة المصرية تلك الصفات الملحوظة في بعض الوطنيين الذين وفقوا لمزاولة ما نسميه بالفنون الجميلة . فلا تراهم في اليقظة اقل استغراقاً وفتوراً منهم في حالة العكوف على اداء الفن . وحتى يلوح ان ذلك الاستغراق سحب مخيمة قد شفت عنها الفنون نفسها واتخذت من اصواتهم واحاديثهم صورة خاصة ونغمة مؤثرة توحي بان بؤس الحرفة قد اقترن بوجدهم بها

وكان علوي افندي — اكبر الثلاثة سناً — قد اجاد الضرب على العود وقدر له ان يكون حليف سهرات وملاهٍ يحفظ المعهود والمستجد من الاغاني ويشدو بها ويوقعها وقد

افنى الليلُ الشطرَ اللين من عمره فامسى كالشبح الناحل. وكأن صوته الجميل نفس متأرج يتصاعد ببطء من عود جاف . كانت براعتهُ في فنهِ مثلاً لما تبلغهُ الايام من اختبار الحظ السيء الذي لا يبيح السرور ساعة الاّ لكي يقضي بالنكد ساعات . وكأن تلك البراعة ضرب من الحيف على حظ الانسان في حياته

وكان من تمادي الايام في سخريتها ان الصناعة نفسها التي كانت ترفع صاحبها الى مكان الملك قد اختلف حظها في زماننا حتى انزوت في اركان الحانات واتخذت من آذان العامة والسكارى ميزاناً للتقدير والاعجاب. فقُضي ان ينزوي ذلك المغني البارع في ركن حانة صغيرة لايزال يرسل في جوها اغانيهُ كأنها ابتهالات الى السماء ، ان تعينهُ على الحرفة والاّ تجعل نصيب الفن الجميل الصبر الجميل

وكانت الخطيئة الكبرى في حياة هذا الفنان — خطيئة الحظ — انهُ لما بلغ الغاية في صناعتهِ كان ما سلف من ايامه كصفحة وجه الزنجي لا تنبئ ببارقة نور

ولم يكن في مادة هذه الحياة عزاء كالذي يتمثله الناس عند ما تصافح وجوههم بهرة الضحى وتموج الاشعة على المياه والغصون وعند ما تستحيل الوان الطبيعة وانفاسها الى احلام تبشر بمستقبل هنيء

كل ما اصاب علوي افندي من الحرفة اتفق لصديقه وزميله المعلم شعبان القانونجي . وكان على شاكلتهِ يستعير لنفسهِ بعض العزاء من اخلاصه لفنهِ

وكانت خلسة انتهزها المعلم شعبان حاول فيها الضرب على « القانون » وهو بعد يزاول حرفة النجارة الدقيقة . وما زال يلاين ما عسر من طرائق الفن حتى اجاده وبرع فيهِ

وبلغ الكمال ولما ينسَ عهده في مصنع النجارة ولا غاب عن ذكره تلك الاصايل التي كان يجلس فيها على قوالب الخشب المنجور في جوف المصنع لكي يحفظ الضرب على الآلة معتمداً على طبعهِ وذوقهِ. وكان من ثمرة احسانه لفنه مع رقة حاله انهُ صار زميل « علوي افندي » في « الاوركستر » المتواضع الذي كان يطرب زبائن حانة « الاهرام »

اما كيف تجاوز المعلم شعبان مسافة ما بين حرفة النجارة الدقيقة وفن الضرب على القانون فانها صفحة كجنح الدجى اوضح الوانها كالسراب ينفذ اليهِ الساري من خلال غيم ثقيل

فان ذلك الفنان لما بلغ الغاية من فنه صار لا يستطيع ان يتمثل الدنيا الا بعين خياله . عشي بصره لا من طول اختباره لطرائق الصناعة وفنونها ولكن من طول ما افنى في سبيل النجاح من راحتهِ وهناءتهِ فكان ابداعهُ في الضرب على الآلة من الخوارق

ولم يكن من الممكن ان يمضي هذان الفنانان العمر دون ان يصيبهما رشاش من ذلك الخضم المصطخب الذي يعنيهِ الناس بالحياة الدنيا . وهما وان كانت الايام قد فرغت من غدرها بهما

لكنها تخلت لهما عما يشبه الثمالة من ذلك الاتصال العجيب بين العواطف والانغام . وكأن الايام من بعد ان حجبت النور عن احدهما وانكرت لين الحياة عن الثاني حكمت بان فرحة النجاح في الصناعة بالنسبة لجامد لا يرى وذاهل عن الدنيا لا يعي ، لا تختلف في طبيعة الاحساس عن غفوة يترك فيها ذلك الاتصال بين النغم والعاطفة اثراً يُسَر به قلبا هذين الفنانين

واصغر الاشياء اذا لامس منبعهُ من العظمة عاد شيئاً عظيماً

أمن بعد ان يستحيل الفرع الغضي الى قتاد تسري فيهِ الحياة ويعود الى ريعانه ؟

في الطبيعة بعث مستمر ، فلقد يؤتى بالفرع الجاف يطعم به جذع شجرة مخضلة او يغرس في تربة مناسبة فلا يلبث ان ينبت ويصير غصناً غضيضاً

كذلك اتفق لعلوي افندي وزميله عند ما اخذ كل منهما مجلسه الى جانب السيدة « ليلى » المغنية وصاحبة حانة « الاهرام »

غير ان الهوى حين امتحن قلب «العوّاد» سلم بان الطبيعة الانسانية عرضة لان تمسي كالشجرة التي قلّمت ولما يعُدْ اليها اخضلالها . كأن الهوى فرصة تأجلت حتى تجاوزت في عمر الفنان اوان انتهازها . واضاف الحب حين مس فؤاد القانونجي الاعشى الى قصة الالم الانساني صفحة اخرى كأنها صفحة العمر في مرآةٍ تصوره

يالله : كيف يهتدي الحب الى سبيله من تلك القلوب التي اختار ان تكون الدنيا بحظوظها وملاذها في مستوى اللحظات المجيدة التي تحسُّ فيها كأنها تنتهل من ينبوع الخلد كلما تنفجر ذكاؤها

كان علوي افندي منذ تخلى عن عمله في ادارة البريد — كان من السعاة — قد آلى على نفسه ان يبذل من حياته حتى يلين له ما عسر من طرائق الصناعة . وخلص من ولعه بالضرب على العود بادىء الامر الى الايمان بالاكذوبة الكبرى المتفق عليها ان مجد الفن محسوب على سعادة الفنان

ولكنه آثر ان تكون لذاذات الشباب فدية لآلهة الفن . وقد روي في الاساطير ان «ابولو» قتل خليله «نارسيس» وهو يداعبه

فلما تأرجت فيه نفحة الفن وصار استاذاً في الصناعة لم يكن نصيبه من لذة الحياة النصيب الاوفى . وخلفت الايام في طبعه وعواطفه ذلك الأثر الراسخ العميق الذي يدع الانسان امام أجمل الاشياء بلا إعجاب ولامتاع . سلبَ حبُّ المجد الفنانَ فضيلةَ السرور

وكانت عاقبة ليالي السهر والارق الطويلة — حقبة التجارب الاولى للفن — ان درست العاطفة في الفنان لطول اعتزاله وانفراده . كان بلا اسرة . نشأ في إحدى قرى الريف . وكان أبوه اعرابيًّا من البدو . وامه فلاحة من المنصورة واجتمع في طباعه خشونة الاعرابي وصلفه الى رقة تلك الفلاحة المصرية ودعتها وخلقها الطلق

نشأ وفي فطرته الميل الى الغناء . وكان في صباه يأبى ان تفوته فرص الاستماع في حفلات الغناء فخلفت في نفسه ذلك الاثر البسيكولوجي الذي يغذي الآمال ويصقل الملكات

فكان لا يترك الشدو او الاستماع الاّ لكي يحلم بانه المغني البارع او العواد الماهر . وان صيته قد جاوز حدود وطنه . ويظل يمتحن صوته في مقطوعات واغان كأن الذي وهبه الصوت الحسن لم يخف عنه انه سيكون رب الفن في مستقبل ايامه

وتحققت امنية الفنان من بعد ان رزىء بوفاة ابيه . غير ان الارتزاق من الحرفة اذ ذاك كان كاستطلاع النور من سم الخياط . فلم يطق البقاء في القرية لما سامته التجربة الامرّين

وما كان من الممكن ان يعد الفنُّ بالنجاح في جو ذلك الريف الذي لا تطيق خشونته وشظفه الا ان يحسب الفن من ضروب العبث والفراغ

واشد مايتعوذ منهُ القروي ان يكفيه الله شر الفراغ

وكان من دأب «علوي» افندي اذا اجتمع بصديقيه في الحانة ان يظل معهما في حديث طويل قبل ان تأخذ السيدة « ليلى» في الغناء

يقول عن سالف ايامه في الريف روايات كالذي يؤثر عن حياة ارباب الفنون البوهيميين . ويرويها بلهجة كأنها طابع صادق لآلام لم تفارقه . وغالباً ما تكون فاتحة تاريخ الفنان لوحة تقيد فيها خطوط المستقبل بخطوط الماضي . وكان يردد في حديثه دائماً ذكر المرحلة الشاقة التي كانت تفصل بين شابٍ ريفي من سعاة البريد بلا سند في الحياة والمغنّي المحترف المتفوق

ويدعي علوي افندي في اثناء حديثه انه متغلب على طبعه الذي استحوذ عليه السأم والذهول . ويحاول جهده ان يحاكي الذين افرغت الخمر نشاطهم في قوالب من الحديث الفكه الممتع . وكان يتحدث عن معلمهِ الشيخ الذي نقل عنهُ صناعة الضرب على العود . وعن ليالي اللهو التي كانا يقيمانها في الاسواق والمواسم . ويعلل النفس وقتئذ بالنجح ولما تكتمل اداة الفن . وكان يتحدث عن الفن كمن جنى على نفسه

ولا يحاول القانونجي الاعشى ان يبثّ شكايتهُ الى احد كأنهُ قد رضي ان يحتسي همومه وهموم غيره في صمت . وهو اذا تصفح ما مضى من زمانهِ ذكر تعسه وهو فتى في نواحي القرى ومبيتهُ تحت الاشجار شريداً بلا مأوى . واذ وفق الى حرفة النجارة الدقيقة فزاولها حيناً وأجادها وتفنن فيها وكان ربما عهد اليه المغنّون بأعوادهم يصلحها ويجبر كسرها . فلما اراد ان يستبدل النجارة بالضرب على «القانون» كان جزاء احسانه ان منحتهُ الطبيعة الظل بدل النور عشى بصره ولكنهُ بقي يضرب على الآلة وكأن التواقيع اشعة تسطع في صدره

واغمض الليل اهدابهُ على الحانة التي تضاحكت فيها الاضواء والكؤوس والانغام . وكانت الاصوات في داخلها كالفرحة يحتبسها القلب الضنين . وجعلت المغنية تشدو بالدور القديم :

يا ليل طل اولا تطل لا بدَّ لي من سهرك

وكانت نبرات صوتها سيالاً عبقريًّا مستمدًّا من دقات القلوب . وكأن الانغام لجة تتبدد وتجتمع تحت انامل القانونجي . وحنَّ صدر العود حتى امتزج فيه الصوت والعزف كما يكون الاتصال في الطبيعة بين الاغاريد والاشعة

وبقي «علوي» افندي كمن غيبتهُ امواج الموسيقى . اما القانونجي الاعشى فكانت عيناه المضمومتان في اتجاه الى الامام كمن يحاول ان يتبين شيئاً لا يراه. وتوسطتهما المغنية الفرعاء. قطعة من الحسن الباهر غضيضة العود كالزهرة في نيسان

وكانت تنظر الى المعجبين بها مبتسمة في زهو كانما تلوح لها صورتها في مرآة

والحانة الانيقة بحيطانها المدهونة واضوائها الملونة وبابها الزجاجي كمعبد لربّة اللذة

ويظل القلب بلا استعداد للحب الى ان يبلغ الخيال بهذه العاطفة درجة التبلور. فتكون اشبه بالتموجات الصوتية التي تحدثها الموسيقى . وللآلة الموسيقية مثل اوتار القلب ودقاته ومقاصده ولكنها بلا حياة ولا ارادة

ولم تكوّن الجوقة كياناً على حدةٍ مستقلاً عن الحانة. فان اهواء الانسان من دأبها ان تستلخص السرور من مادة مشتركة كما يستخلص النحل رحيقهُ من النسيم ومصيصهِ اليانع . فهي تأبى الاّ ان يكون الغناء مع الخمر والزهر معاً

ولقد يمتنع على الانسان ادراك الكلام او الكتابة في بعض الحالات المرضية وهو مع ذلك يرى ويستمع ولكن ما يدركه يظل كالنغمة او كالاثر الابيض على الديباجة السوداء

وكان يخيل للقانونجي الاعشى انهُ مغمور في لجة من النسيان كلما انشأت المغنية بصوتها الرخيم في مخيلتهِ مثالاً معبوداً . وكانت هذه الصورة تصادف في ذهنهِ استعداداً نفسيًّا كالاستعداد الذي تخلقهُ المشاهدة. او كالقابلية التي تحدثها رائحة اللبن في صغار الحيوانات والرضع

وغالباً ما يقنع الانسان بالارج عن رؤية الزهرة نفسها . تلك كانت حال القانونجي الاعشى نحو المغنية الحسناء . كان يحبها ولكنهُ لا يبصرها . والحب للعين التي لا تبصر صفحة من كتاب لا اول له . والقلب يصطنع الحب ما لم يستعن بالنظر . وكان القانونجي يركن في تذوق هذه العاطفة الخاسرة[1] الى نظر زميله العواد . رجل ذاهل عن الدنيا كأنهُ يبصر في سبيل سحري غير سبيل النظر المألوف . والذاهل لا يفكر في شيء . اذن فهو لا يبصر شيئاً

ما كان يدري احد اين مكان النور من ذلك المخلوق. كان مجيداً لم يخطئهُ حكمهُ يوماً في فنهِ . لكنهُ بقي بجموده متخلفاً عن الدنيا . وعجيب ان يكون هذا الطبع في انسان غارق في مواطن اللهو . ولو استطاع القانونجي ان يتجسس حال زميله العواد لادرك انهُ عند حد من الاستغراق

(١) الخاسرة اي الناقصة من قوله الذين يخسرون الخ

لا يقبل الاستعانة بنظره في الحكم . وحتى الحواس نفسها لا تكاد تعطينا تفسيراً حقيقيًّا للاشياء . والاثر الذي خلفتهُ الايام في نظر القانونجي لا يكاد يختلف عن الاثر الذي طمس حسهُ وكتم وعيه . وربما تخيل البصير في الظلمة شيئاً لا يبعد ان يطرأ على ذهن الاعشى في النور . فقد كان بصر القانونجي بالمغنية اشبه باحساس مستمد من زميله العواد

ولو كان من الممكن تجريد الحب من احلامه وخيالاته لأسمينا تلك العاطفة التي استأثرت بالقانونجي حبًّا . ولم تكن المغنية على بينة من ذلك الحب . غير ان الغصن حين يميس يخلف دائماً على الثرى بعضاً منه او من رائحته . ومقدار ما كانت عاطفة الحب تتأجج في قلب القانونجي لم تكن تجاوبها بغير العطف المجرد

كانت المغنية كأنها قد اظلت بحمايتها هذين الفنانين . ولم تكن تجهل حالتهما من قبل

وفي سبيل الحب لا يأبى الانسان احياناً ان يكذبه ادراكه . كانت المغنية لحسنها الباهر كالماسة تأتلق في دجى . او كالزهر النضرة تهتز في آنية من الفضة . ولقد يتألف من بعض التفاوت في الخلقة جمالٌ خاصٌّ يعجب النظر لكن القانونجي كان مجرداً حتى من هذه الصفة . هذا الى رقة حاله . ولم يكن للحب منفذ ميسور الى قلب المغنية . فان القدر الذي ابى ان يتساهل في احسان القانونجي لصناعته حتى سلبه بصره شاء ان يقترن حسن المغنية بتلك التجارب القاسية التي يتكوَّن من خلاصتها سلوك المرأة وخطتها في الحياة

فلم تكن مظاهر حبهِ الساذج تستطيع ان تقاوم حتى مداعباتها الجدية . كانت عواطفه تخذله وقلبه يزداد خفقاناً عند سماع حديثها . ويبقى وجومه كأنه عبادة مكتومة لحسنها الممتنع

وكلما امعنت المغنية في كلامها ونكاتها حاول انكسار القانونجي ان يستند الى استغراق العواد كما يستند الركن المنهار الى ماهو اوهى منه

وكان وقف الموسيقي يزيد في دقات قلب القانونجي . اذ يتوقع ان يصافح جمال المغنية رغبة منه لا تبصر

وتظل هذه الدمية كأنها تشرف من علٍ على هذين الحريفين

والحظوظ تأتلف ائتلاف الطيور الجميلة اما لو كان القانونجي موفقاً لاستغنت به عن اختيار جليس من بين زبائن الحانة . كان رغم حبه كزميله المستغرق لا يستصعب ان يرى المغنية تضاحك هذا وتداعب ذاك من اصحابها ، وكانت اذا خطرت في الحانة اشبهت ضمة من الزهر يترك النسيم من خلفها عطراً

ولا يلقى الحظ الاوفى من مجالسة المغنية واقبالها سوى رجل متظرف قد ناهز الستين . ذو لحية مهذبة وخطها الشيب . واسمرار لطيف اقترن بملامح بارزة

كان يختار مجلسه جانب العواد وزميله حتى اذا ابتدأ الغناء فارقاهُ . لا يني ذلك الرجل يراقب

المغنية عن كثب وهي تخالسهُ النظر الرقيق . وكان لا يترك النظر اليها الا لكي يمعن في احتساء اقداح الوسكي ولا يزال يشرب حتى يسكر ويزداد بريق عينيه . اذ ذاك كانت المغنية تهبط اليه وتأخذ في حديث طويل معه

كانت بوادر هذا الحديث تنذر في البدء بنية السيدة «ليلى» في اغلاق الحانة واختيار حياة عائلية هادئة بالاشتراك مع رجل عظيم الخلق مثل ماجد بك وعلى أثر هذه الاشاعة انقطع ماجد بك فجأة عن المجيء الى الحانة

كان القانونجي لا يفارق «البار» في الهزيع الاخير من الليل الا لكي يجتمع بشرذمة من محترفي الغناء والتمثيل في مقهى وطني قائم على منحدر كالكأس المرفوعة بيد الساقية

ويبقى بين هؤلاء ساكناً مستغرقاً كأن مهنته ان يسمع . وفي الحقيقة كان حديثهم يحوي نخبة من نوادر ارباب الفنون وحوادث حياتهم البوهيمية العجيبة . وكانت حياة القانونجي نفسه كأنها عنصر اشتراك في ذلك الحديث

عاد المعلم شعبان ذات ليلة الى المقهى الصغير يحمل «القانون» فلم يكد يقع عليه نظر صاحب المقهى حتى بدا عليه الاستغراب اولاً لانه رآه يحمل الآلة الموسيقية . ولم يأت بها من قبل . ثانياً أنه جاء قبل ميعاده . وعادته ان يأتي المقهى بعد منتصف الليل . وغلب الفضول صاحب المقهى فسأله — الظاهر انك « مفودس » الليلة يا معلم شعبان !

اجاب القانونجي — انا والله « مانفودس » ابداً لو واصلت الليل بالنهار في الشغل. ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن

— ماذا حدث ؟

قال القانونجي بلهجة يغلب عليها التأثر — لقد اغلقت الحانة

واضاف الى ذلك : ولعلك لا ترى بأساً من اقامة حفلة انس في المقهى هذه الليلة

فابتسم صاحب المقهى وقال : يسرني على الاقل ان اسمعك

قيل ان بعض الطيور البحرية اذا فقد الغذاء شق بطنه بمخلبهِ واستخرج امعاءه والقى بها لفراخه . ويقترن الم‍ه بوداعه في آهةٍ أليمة يصدرها في الجو

وقد كانت توقيعات القانونجي الاعشى في تلك الليلة من قبيل تلك الآهات الاليمة. يقترن فيها الوداع بالالم . ولم يترك دوراً ضربهُ في الحانة الا ردَّده . واحتبس الالم في فؤاده حتى بدا لفرط تجلده في مظهر زميله العواد . ولما تناهى الليل وخلا المكان سمع صاحب المقهى صوت وقوع الآلة الموسيقية على الارض . فحسب ان النعاس قد استولى على القانونجي . غير انهُ حين اقترب منهُ ليوقظهُ هوى الفنان الميت بين ذراعيه

عبد الحميد سالم

صورة قلمية

احمد صديق بك

مدير بلدية الاسكندرية

> اعجبت كل الاعجاب بالاسكندرية وبما شاهدته فيها من دلائل الرقي والعمران ووسائل الصحة والتنظيم ولا شك عندي في انها اجمل مدينة على البحر الابيض المتوسط وانه ليسرني ان اعلم ان الفضل في ذلك عائد الى صديق بك الذي ما فتىء يعمل على تنظيمها وتجميلها ولن يمضي وقت طويل حتى تصبح ذات شهرة عالية وتستعيد مجدها القديم
>
> محافظ لانكشير

لما بهر الاوروبيون المعاصرون بعظمة المدنية الحديثة ، اهتدوا الى شيء وهو ان هذه المدنية قد ميزتهم على القدماء بملكة النقد والتقدير . فالذين يلاحظون التطور الباهر الذي اكسب الاسكندرية كل هذا الجمال لايستطيعون تقدير الجهود الخارقة التي حققت هذه المعجزة . وحتى اذا استطعنا تقديرها فاننا لاندري الى من ننسبها فانها تؤلف جهاداً عمرانيًّا حقيقيًّا في سبيل ترقي المدينة التي كانت ثانية عواصم الدنيا بعد روما

ولقد يكون التقدير ثمرة الذوق المهذب . فان محافظ لانكشير حين زار الاسكندرية اخيراً كانت نتيجة اعجابهِ الجم بما شاهدهُ من دلائل الرقي والعمران ووسائل الصحة والتنظيم وآيات التجميل انه لم يملك غير الاعتراف بفضل هذه الجهود الى صاحب العزة احمد صديق بك مدير البلدية العام

ولقد كان من حظ الاسكندرية ان ما بذله مديرو البلدية السابقون من الجهود في سبيل رقيها وعمرانها قد أثمر ثمارهُ الباهرة في عهد صديق بك كما اجتمعت ابهة الدولة الرومانية وعظمتها وقوتها في عهد اوغسطس قيصر . غير ان المزايا العظيمة التي عرفت بها شخصية صديق بك وقوة رأيه في الاوقات التي تعرض فيها مسألة تنظيم المدينة واصلاحها وتجميلها لا يجعل مجالاً للشك في نسبة هذا التقدُّم الباهر الى ذكاء المدير ومساعيه التي جعلت الاسكندرية أجمل مدينة على البحر الابيض المتوسط

ولقد نذكر الآن في كثير من الدهشة والاستغراب ماتردد على الألسن عند توليهِ ادارة

البلدية التي كانت قد رسبت في لجج عميقة من الفوضى والارتباك لم ينظر وقتئذ الى مزايا صديق بك وقوة شخصيته وذكائه ومواهبه وذوقه المثقف وحسن ارادته نحو تحقيق الاصطلاحات التي تحتاج اليها المدينة ، انما قيل لأول وهلة انه بعد شاب لا يملك القوة الكافية للتغلب على الاختلافات ووجوه التناقض التي لابدَّ من حدوثها في دائرة دولية لم يكن قد تسرب اليها شيء من التوفيق ولا التفاهم الحسن . وكانت ثقة صديق بك الشاب بنفسه واعتداده بمواهبه وانه كفء للمهمة الشاقة التي اختير لها كأنهما حكم فاصل في مسألة من هـذا القبيل

وفي الحقيقة انه لم يلبث ان ترك لمرؤوسيه في غير ضجة ولا اعلان امثلة عليا في النشاط والمثابرة على العمل والذكاء . وتجلى ذكاؤه على الاخص في الاحوال الدقيقة التي كان لابدَّ فيها من تأييد مذهب التوفيق بين النزعات المختلفة والمتناقضة التي تصدر عادة من هيئة دولية

***

وثم ميزة اخرى أجلّ من كل ماتقدم وهي المدة القصيرة التي استطاع فيها مدير البلدية الشاب ان يكتسب مع ثقة الاهلين اعجاب اولئك الذين ارادوا ان يعترضوا سبيله الى الادارة بزعم انه شاب . وقتئذ تبين ان شباب صديق بك مفخرة ومجد لشخصيته ولجميع الذين رأوا فيه الرجل الصالح لادارة البلدية . وكذلك دلّت اعمال صديق بك على انه من اولئك الافذاذ الذين لم تفسدهم حدة الشباب في هذا الوسط الخداع المرتطم في كل انواع اللهو والحماقات • وانه من الذين تنمو فيهم العقول قبل ان تكتمل اجسامهم، وتشيب ارواحهم وهم لايزالون في انضر مراحل العمر ، فانت لا تراه الاّ مسترسلاً في عمله ، متوفراً على شؤونه ، يعمل بدأب وثبات مستعيناً بمبادىء النظام والترتيب والارادة الحسنة . وهذه المزايا العملية تتطلب اعصاباً ساكنة ثابتة لا تستفزّ ، وقلوباً هادئة لا تستطار، والنظام من الصفات التي لا تنضج الاّ في الشيوخ والمكتملين في العمر ، لانهم جازوا حدود الشباب ، وهو في الغالب دور التقلّب والقلق والاضطراب ، لان الاعصاب لا تستطيع اذ ذاك ان تسكن الى الهدوء الذي يطلبهُ النظام ، ولا تحتمل الجمود على طريقة خاصة لا تغير فيها ولا تحويل . ولكن الطبيعة — لغرض من اغراضها — لا تخلق قانوناً الاّ فتحت له باباً لمحاجّتها فيه ومحاورتها ، فهي تضع لكل سنّة من سننها شذوذاً ، ولكل ناموس صلب من نواميسها عجائب وفروقاً ، لان مبدأ الطبيعة ان تعمل على التحيير والادهاش والاغراب ، لكي يبقى سرُّ الكون ابد الدهر مكتوماً ، ولذلك كان غريباً حقّـاً ان يكون صديق بك وهو في السن الباكرة الناضرة يجري في عمله بقوة الرجل الذي قطع المراحل الكبيرة من العمر حنكة وتجربةً ودرساً لاخلاق الحياة واسرارها ،ولكن

القوة الالهية بعد تسير في الخليقة على مبدأ التعويض ، ففي وسط المئات من الشبان الطائشين الخفاف الاحلام الممعنين في سبل اللهو وطرائقه ، تأبى الا ان تضع قلائل من الشبان الصالحين الكبار النفوس المحترمين واجب الحياة ، ومن هنا كان صديق بك وامثاله هم هؤلاء القلائل الذين تريد القوة الالهية ان تعوض بهم عن فساد غيرهم

ويظهر ان اقتران منصب صديق بك بمسائل الاصلاح والصحة والتجميل وهي مسائل انسانية قد وافقت مزاج المدير الشاب فاتضحت مواهبهُ ودلَّ على قوة رأيهِ لاسيما عندما يحتدم الجدل في القومسيون فيشترك برأيهِ للتوفيق او للفصل ، وهو اذ يتكلم لا يندفع في القول بادىء ذي بدء ولا يرفع صوتهُ ، فالكلام بطيء والعبارات مفصلة ، ولكن لا يلبث حتى يعلو ويتدفق ثم ينفجر ويتعاظم ، لا يردده سوى ثباته ، ولا تحركه سوى الارادة التي يعبر عنها ، وهو صوت لا سحر في نبراته ، بل يكاد يكون أجش قليلاً ، ولكنهُ لا يتصنع ولا يترفق ، ولا يداعب الالفاظ ، بل يتجه الى القلوب توًّا فيغزوها ، وينفذ الى سويدائها ، وكلما علت المناقشات ، وارتفعت الجلبة سحقها هو ببيانه . وهكذا تظل كلمته هي العليا

***

وصديق بك رجل هادىء جذاب . تستطيع ان تتبين مواهبهُ وطباعه من ملامحه ، وهو دائماً الرجل الذي يعرف حدود مسؤوليته ، وتنمُّ حدة نظره على ذكائه وبصيرته وهو اذا حدثك بالفرنسية لا تستطيع ان تفرقهُ عن ابناء هذه اللغة ، ويجيد الى الفرنسية الانجليزية والالمانية عدا العربية التي نستطيع ان نؤيد انهُ متين الديباجة فيها حتى انهُ يفوز باعجابك ويحملك على الدهشة كلما تولى تصحيح خطأ المترجمين في الجلسات ويسرك ان تستمع منهُ التعبير العربي ترجمة لصيغة فرنسية فنية ، وهو بعد المدير الذي يحق له ان يعوّل على مرؤوسيه ولكنهُ استطاع بمواهبهِ ان يكون في كل موقف عنوان الكفاية فلا تفوته كبيرة ولا صغيرة

ولم يكن من المستغرب ان تكون روح الارادة والنظام في شخصية صديق بك توازي الفطرة القانونية ، فهو قانوني واداري من الطراز الاول ، لا يعول في شيء من الاعمال الا على رأيه ، وهو بذلك يضرب المثل لكثير من مرؤوسيه الذين تعددت اعمالهم دون ان يتعمدوا التفرد في آرائها او بحثها . من اجل ذلك كان المدير الذي اكتسب اجلال مرؤوسيه بالمثل والقدوة لا بمهابة المركز

***

وبعد فان كل هذا قليل اذا قورن بالروح السامي الذي اتصف بهِ صديق بك في دائرة التوفيق بين الوطنيين والاجانب من اعضاء القومسيون فقد كان هذا التطور الذي احدثهُ سعادة مدير البلدية في زمن قصير وبمهارة لا نظير لها فوزاً مبيناً لمبدأ عمراني وانساني معاً ، هو



احمد صديق بك مدير بلدية الاسكندرية

مبدأ الترقي . وما كان من الممكن السير بأعمال البلدية وتحقيق الاصلاحات اللازمة للمدينة والنهوض بها دون تحقيق هذا التطور

ولقد ادّى صديق بك هذه المهمة الشاقة المجيدة لخير المدينة والاهلين من كل الاجناس . ولما سادت الصبغة الوطنية ادارة البلدية عُدَّ ذلك بحق نجاحاً للمبدأ الذي يسترشد بهِ المدير الشاب في اعماله ، مبدأ التوفيق والقضاء على المناقضات واسباب الارتباك . ولما لوحظ صلاحية هذه البزور في تربة البلدية لعهدها الجديد ، وانها تنبت نبتاً حسناً شرع في اصلاح الاحياء الوطنية وكان حظها من عناية صديق بك عظيماً . وحسبنا ان نراقب ما تحقق من هذه الاصلاحات كتعميم المجاري والعيادات الصحية ومستشفيات الولادة والحميات ومساكن العمال وحمامات الفقراء ومطاعمهم . وكأن صديق بك حين تولى ادارة البلدية كان يحمل برنامجاً معيناً او خطة للاصلاح قد وضعها من قبل على ان الذين يعرفون مدير البلدية وانه الرجل الذي لا يكاد يخطىء اذا ارتجل رأيه لا يسلمون بوجود ذلك البرنامج وان صديق بك انما كان منقاداً في كل ما وافق عليه من الاصلاحات الى ارادته الحسنة ورغبته الصادقة في اداء عمل انساني خالد . ولم يكن في كل ما حققه ميالاً الى الضجة او الاعلان بل كان عطفه على الفقراء ، وحبه الجم للعمل الانساني ، يوازي تواضعه وانهُ انما عمل لكي يرضي ضميره ويؤدي عناصر المهمة الثقيلة الملقاة على عاتقه . فهو مثل للرجال الذين يشعرون بتبعاتهم

اما آيات التجميل التي تنسب الى عهد صديق بك والتي تحوّل بها شكل المدينة القديمة وازداد رونقها وبهاؤها فانما تنسب الى ذوق مدير البلدية المثقف المهذب الذي يحمل في ذهنه صوراً شتى من صور العمران ، وما خلقته المدنية الحديثة من البدائع في تجميل المدن وتهذيب رسومها ونظمها ، وقد وضع بذلك القاعدة لتجميل عاصمة القطر الثانية . وقد شهد محافظ لانكشير بأنها ستكون ذات شهرة عالمية وتوشك ان تسترد مجدها القديم

وكذلك لم يترك ذكاء صديق بك شيئاً في الادارة التي صبغها بالصبغة الوطنية او المدينة التي جعلها آية في الابداع دون ان يترك مثلاً للتجديد

***

اما تمثيله البلدية اخيراً في مؤتمر البلديات فقد اضاف مجداً آخر الى شخصيته الممتازة فقد اعلن عن مصر التي تسير في سبيل الترقي بخطوات الجبابرة ، وكان في صوته لدى ذلك المؤتمر تلك النغمة الحبيبة الى قلوب العمرانيين ، والتي تعرب عن الاشتراك والتضامن لبلوغ المثل الأعلى

نقولا شكري

باب شؤون المرأة وتدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي ندرج فيه كل ما يهم المرأة وأهل البيت معرفته من تربية الاولاد وتدبير الصحة والطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة وسير شهيرات النساء ونهضتهن ونحو ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

الغاية من الزواج

للفيلسوف الاجتماعي الانكليزي هفلوك إليس [(١)]

ما الغاية الشرعية من الزواج ؟ نحن نعلم ان بعض الرجال يرغبون في الزواج لمجرد الحصول على مسكن رخيص وخدمة طيبة منتظمة وان بعض النساء يقبلن على الزواج حتى يجدن من يحميهن في الوقت الذي لا يستطعن فيه حماية انفسهن .. هاتان الغايتان — اتفقتا مع قوانين الاخلاق أو تعارضتا — لا نستطيع ان نقول انهما الغرضان الاساسيان من الزواج

وإذا قلنا « الغاية من الزواج » فانما نقصد ما يرمي اليه الرجال والنساء الذين يعيشون عيشة متحضرة ، واذا كتبنا في هذا الموضوع فذلك لاننا نحاول مخلصين ترقية تلك المعيشة المتحضرة

والشائع هو ان الغرض الاول من الزواج الحصول على النسل وتربيته الى ان يستطيع رعاية نفسه بنفسه ، وعلى هذا الاساس يشترك الانسان مع الثدييات جميعاً بل ومع معظم الطيور ، فاذا ما تغاضينا عن الغايات الثانوية وجدنا ان هذه الغاية — وهي الحصول على النسل وتربيته — ليست الاولى فقط بل والغاية الوحيدة لجميع الصلات الجنسية في قبيل الثدييات

ولما كانت وظيفة الغريزة هي المحافظة على نفسها وإشباع رغبتها فان الاشباع حيلة من حيل الطبيعة وليس غاية في ذاته ، والا فما هي الوظيفة المفيدة التي تؤديها الغريزة في الاوقات التي لا يستطاع الحمل فيها ؟ ودليلنا على ذلك ان الانثى في بعض الحيوانات تمارس الرغبة الجنسية في فصل الاخصاب فقط وان هذه الرغبة تنقطع عند حدوث الاخصاب بينما الامر على الضد عند الذكر الذي لا تحد رغبته الجنسية في تلك المدة القصيرة التي ابتكرتها الطبيعة للانثى حتى

(١) ملخصة عن كتاب Essays in Love and Virtue

تتيح لها فرصة الحصول على الذكر المناسب في الوقت المناسب ، وعلى هذا فرغبة الذكر في الحصول على الانثى التي لا تزال باقية عند بعض الانواع الانسانية ليست نتيجة الشهوة او الاسراف الشخصي ، وليست نتيجة « الفجور في اشباع الرغبات الجسدية او الشهوات البدنية كما في الوحوش » بل هي عمل من اعمال الطبيعة غرسته لفائدة الانثى حتى تحصل على الغرض الاساسي من الزواج وهو التناسل

وهذه الغاية الاولى نستطيع ان نسميها الغاية الحيوانية ، وهي كما قلنا ليست الغاية الاولى عند بعض البدائيين فحسب بل والغاية الوحيدة ايضاً . وانت تعرف ان فكرة الحب باعمق معانيها لم تنشأ الا في بطء شديد . ومع ان بعض الهمج يستعملون كلمة او كلمات تدل على متعة الحب من الناحية النفسية الخالصة فان بعض السلائل الاوربية لم تفهم هذا المعنى الا مؤخراً ، فشعراء الاغريق القدماء لم يدركوا قيمة الحب في الزواج حتى ان « تيوجنيس Theognes » قابل بين الزواج وتناسل الماشية ، وجاراهم في ذلك الرومان أيام الجمهورية ، وقد اعتبر اولئك وهؤلاء التناسل غاية الزواج وان كل ما عداه شهوة حقيرة يجب الا تمارس بحال ، واذا كان لا بد من ممارستها فان ذلك يكون خارج حدود الزواج ، واتى بعد ذلك قرنان من الزمان احتفظ الناس فيهما بكثير من الآراء البدائية وقدسوا فكرة الاغريق والرومان ، ثم جاءت المسيحية وحاولت ان تتوسع في تطبيق هذه الفكرة فخيّرت الناس بين العزوبة من جهة والزواج بغية الحصول على النسل فقط من جهة اخرى

ومع هذا فقد نشأت من زمن سحيق في تاريخ الانسان وظيفة جديدة للصلة الجنسية وما زالت تنمو حتى اصبحت احدى الغايات الكبرى للزواج ، وإذا كانت القوة الجنسية الدافعة عند ما تستيقظ في الحيوان — والانسان أحياناً — تأخذ في وصولها الى المخ طريقاً قصيراً وسريعاً فاننا نعلم أن المخ الانساني بملكاته جميعاً قد تطور من جراء الصعاب الكثيرة التي ألقيت في سبيل الحياة الجنسية حتى أن القوة الدافعة الى الحياة الجنسية أصبحت تسير في طريق طويل وعرٍ قبل أن تصل الى غايتها ، ومعنى هذا أن الجنس Sex أخذ يختلط بالعواطف الراقية والمجهودات النبيلة والخاطرات السامية في كل مناحي الحياة بل وأخذ يشترك مع الفن والدين حتى اصبحت الغريزة الحيوانية البدائية التي كانت لا تعنى بغير التناسل عامل الالهام في جميع هذه المجهودات النفسية التي تفخر الحضارة بها

وهذه الغاية كما رأينا محصول جانبي ، وكما ان المحصول الجانبي قد يأتي عليه حين من الدهر يصبح فيه اهم من المحصول الاساسي فكذلك اصبحت هذه الغاية الثانوية اسمى من الغاية الاساسية . ومثل الغريزة الجنسية في ذلك كمثل الكف التي تطورت من الذراع ولم تكن لها من وظيفة سوى الحصول على الحاجيات المادية ولكن الانسان استطاع ان يجعل لها وظائف ثانوية

كالتوقيع على البيانو او الكمان الى غير ذلك من الاعمال التي يعدها البعض اسمى من الوظيفة الاساسية . ولكننا مع هذا لا نستطيع ان نغفل ان المحصول الجانبي يصاحب المحصول الاساسي في معظم الاحوال ، ولا نستطيع ان نغفل ان هذه الغاية الجديدة للزواج تسمو على اختها وتضيف اليها عنصراً انسانيًّا مقدساً مما يجعلنا نطلق عليها «الغاية الروحية للزواج»

ولسنا نعني بكلمة «روحية» صفات غامضة فيما وراء الطبيعة، ولكننا نقصد جميع التفاعلات الذهنية والشعورية التي اخذت تظهر وتقوى في التطور الانساني ، ولسنا في حاجة لان نسرد لك عناصر هذه الغاية الروحية للصلات الجنسية لان المفروض ان وراء هذه الغاية كل ما يجعل الحب الجنسي فنًّا جميلاً فيه من السرور ما فيه. وعليك ان تتناسى تقاليد الجمال التي ورثناها عن القدماء والتي تعمينا عن المعنى الحقيقي للسرور ، والتي لم تكن تبصر غير ما فيه من شر، واذكر ما قاله رومان رولان «السرور مقدس كالالم» بل واذكر ما قاله جيمس هنتون James Tinton «السرور ابن الله ...انهُ منبع كثير من القوى...» وهذا حق لان الطاقة الجنسية يمكن حبسها وتحويلها الى النواحي الفكرية والمعنوية ، ولان السرور ، والسرور الجنسي بنوع خاص اذا أُحسن استعماله اصبح المحرك والدافع الى كثير من المجهودات السامية

هذه الغاية الجديدة تحل مشكلة العفة وتأخذ بالحجة اولئك الذين يقولون ان العفة هي الامساك عن الرغبات الجنسية لما بينها وبين الشهوات الحيوانية من صلة ناسين ان الاتحاد الجنسي الذي يقوم على حاجة النفس والجسم معاً يعمل على المحافظة على صحة الكائن الحي وتوازنه، ناسين ان الاتحاد الذي يقوم على حاجة النفس والجسم معاً يمحو الانانية من الفرد ويجعله يدرك ان لذته وسروره في لذة رفيقه وسروره، ويجعله يدرك المعنى الروحي الذي يقرب بين الاجسام بل وبين الارواح ايضاً ... واليك ما تقوله احدى السيدات في هذا الصدد [1] «اني اضع جميع تعاليمي الجنسية للاطفال والشبان على اساس ما في الجنس من جمال وقداسة . . الاتحاد الجنسي هو اقدس ما في الحياة»

واننا لنشفق على أولئك الذين لايستطيعون تقدير الغاية الروحية للزواج والذين يبرهنون على دعواهم بما عند الحيوانات الدنيا كأن علينا أن نقلد هذه الحيوانات وأن ننسى أن الطبيعة قد أنفقت ملايين السنين حتى خرجت بالانسان من دائرة الحيوان الضيقة ، ولسنا نشك أن هؤلاء الناس لايزالون يعيشون في العصر الحيواني وأن عليهم أن يدرسوا اوليات الحب،وقد رأينا نموذجاً منهم في شخص « قس سذرك » الذي مثل أمام اللجنة القومية التي عقدت منذ أعوام قلائل والتي نيط بها دراسة مسألة نسبة المواليد ومايتفرع عنها فقد صرح هذا الرجل بأن التناسل هو غاية الزواج التي لاغاية وراءها وان كل ماعداها ماهو الا اشباع

(١) من رسالة شخصية لـ Olive Schreiner

الرغبات الشخصية الحقيرة ، ولعل أبلغ ردٍ هو عدم وجود فرد واحد من أعضاء هذه اللجنة يشاركه فيما ذهب إليه . . .

ولسنا في حاجة لأن نبين لك مقدار الصلة الوثيقة بين هذه الغاية الجديدة للزواج وبين التحكم في النسل اذ من دونه لايكون لها وجود ، وقد سمعنا من يعارض في هذا التحكم ومن يعتبر الأدوات التي تستعمل في سبيله قبيحة بعيدة عن طبيعة الجمال البعد كله ، على أننا نذكر هؤلاء بأننا لن نستطيع الدخول الى العالم الروحي الا عن طريق العالم المادي ، وقد شبه «فوريل Forel » تلك الأدوات بالنظارات ، فهذه النظارات ليست من الجمال في شيء ولكنها تجعل من يضعها على عينيه قادراً على التغلب على النقص الطبيعي بل وتجعله أقدر على رؤية الأشياء وأكثر شعوراً بما فيها من روعة وجمال وتأخذ بيده الى العالم الروحي. لانه من غيرها يجد الحياة كتاباً مغلقاً

وفي الحق أن التحكم في النسل اثر في كثير من مناحي حياتنا الاجتماعية لانه يحد من عدد أفراد الأسرة ويخفف الضغط عليهم ويفيدهم وخصوصاً الأم ، ثم هو يعطي الآباء فرصة التدبر في أمورهم واختيار الوقت المناسب والظرف الملائم لانجاب الذرية ، أضف الى ذلك أنه مفتاح التقدم اليوجني الذي يسعى الى تحسين النوع البشري ؟

عبد الحميد يونس

العفن غذاء ودواء[1]

اذا قدّم لك امرؤ لقمةً من خبز غَشيةُ العفن الاخضر لتأكلها ، فلا شكَّ ان نفسك تتقزز. بيد انك ربما لاتلبث هنيهة حتى تستمرىء قطعة جبنٍ « روكفور » من صنع العفن عينه . أفليس ذلك من المستغربات ؟

وقد اماط العلماء من عهد قريب اللثام عن حقائق عدة بشأن العفن، وهو النامية النباتية الغريبة التي تظهر للرائي بمظاهر شتى تعد بالالوف . وما ايقنوا من تلك الحقائق الباهرة حتى جعلوا يستخدمون العفن في توليد مواد نفيسة وذلك بنفقات زهيدة . وهي المواد نفسها التي كانت تصنع بالوسائل الكيماوية وكانت تقتضي نفقة ومشقة

ومن الحقائق التي كشف غوامضها اولئك العلماء الاعلام : ان العفن على تباين انواعه غير سامٍّ ولو ان مظهره على الدوام ينمُّ على اضراره الجسيمة. اذ استدلوا من مباحثهم على ان العفن اذا أُحكم تذليله امكن استخدامه بمثابة عنصر حيوي لتحسين صحة الجنس البشري او زيادة رخائهِ

(١) عن مجلة العلم العام

والعفن يتخلل كل شيء ، فلامناص من اكله واستنشاقه !! اي انك اذا يممت شطر احد مصانع مياه الصودا (كازوزة) لتروي غُلّتك بقدح منها فانك انما تشرب بعضاً من نقيع محتوٍ على حامض ليمونيك وهو من منتجات العفن العامة

وقد تحتوي خميرة العجين على نامية نباتية تشبه العفن الذي يعرو الخبز العيشم . وان كنت ممن يستطيبون اكل صنفي الجبن الفرنسي الروكفور والكامنبير فانك كلما اكلت شيئاً منها تناولت انواعاً من العفن عن طيب خاطر . ولقد ثبت طبيًّا ان العفن حليفٌ غير منتظر في علاج المصابين بنقص مقدار الجير في دمائهم ، وهو داء يشبهُ فقر الدم (انيميا)

ولما كان من الضروريات عند نسج بعض الاقمشة الرقيقة تشبيع خيوطها بالنشا ونحوه من المواد الكيماوية قصد تقويتها تسهيلاً لعملية النسج والحبك، تعين على ارباب المصانع استخدام عدة انواع من العفن لتوليد الانزيمات (خمائر ذائبة تتولد في جسم كائن حي وهي مادة غروية تفرزها الخلايا وتحدث تغيرات كيماوية) لتلتهم تلك المواد الغروية وتهضمها حتى تنقى الاقمشة وتتركها قشيبة لكيلا تتأثر مما يجري عليها بعدئذ من عمليات الغسل الشديدة بالآلات

والمعروف ان الانتفاع بالعفن في الاعمال الصناعية والطبية والزراعية هو من المكتشفات التي تمَّت بطريق المصادفة . وقد كان لعلماء الزراعة في الولايات المتحدة القِدح المعلَّى في وقف التلف الذي كان يطرأ على النباتات والاغذية من العفن فصانت بتلك الوسائل ملايين الجنيهات التي كانت تنفق جزافاً كل سنة لمكافحة العفن . وكان من عهد حديث كيماويان من موظفي وزارة الزراعة وهما المستر هوراس هريك وأرفيل ماي يمارسان أعمالهما في واشنطون في تحضير الحامض الطرطريك من انواع العفن ، فوفقا لمعلومات خطيرة لم تكن في الحسبان اذ قاما بعمل ١٥٠ تجربة في انواع شتى من العفن فاخفقا في ١٤٩ تجربة منها ونجحا في التجربة الاخيرة فقط إذ اتيح لهما تحضير الحامض الجلوكونيك الذي ساعد الاطباء في علاج جلالة ملك الانكليز لما مرض من نحو ثلاث سنوات. وقد كان هذا العقَّار قبل ذلك نادر الوجود غالي الثمن . ويتسنى لنا ان ندرك مبلغ خطورة هذا الاكتشاف اذا علمنا ان نفقات تحضير ذلك الملح النفيس بطريقتهما من زريعة العفن ، قد خفضت نفقات صنعه من ١٥٠ ريالاً للرطل في الطريقة القديمة الى نصف ريال فقط للرطل الواحد بالطريقة الجديدة. وتعتبر جلوكونات الجير التي تحضر من الحامض الجلوكونيك الذي ينتج من العفن بحسب طريقة وزارة الزراعة الامريكية ملح الجير الفذ الذي يمكن حقنهُ في عضلات المرضى المصابين بفقر الجير في دمائهم من غير ان يحدث فيهم دمامل وقد يتيسر حقنهُ ايضاً في مجاري الدم او تناوله بطريق الفم

وقد نشرت وزارة الزراعة في هذا الموضوع تصريحاً فحواه أن أملاح الجير التي تحضر من العفن لاطعم لها حقيقة . فهي من هذا القبيل تناقض جميع انواع تلك العقاقير .

ومن مزايا العفن كثرة انواعه حتى ان الخبراء الذين قضوا أغلب أيام حياتهم يبحثون ويجربون الانتفاع به، لا يستطيعون حصر اشكاله . والعفن من النباتات الغامضة الدقيقة جداً فلا يسع المرء رؤيتها بالعين المجردة . ويظهر العفن بمظاهر شتى وفي اماكن عدة يعجز الباحث المحقق عن ادراك كنهها

وألوان العفن عديدة كالوان قوس قزح ودرجاتها كثيرة . فالعفن الاخضر الذي يفسد خبزك اذا خزنته زمناً طويلاً هو نفسه الذي يستخدمه صانعو الجبن المسمى روكفور

اذن يعتبر العفن من الاشياء الغامضة التي ظاهرها يناقض حقيقتها لان صناع الاطعمة ينفقون ألوف الريالات كل سنة في سبيل دفع جوائح العفن التي تعتري مصنوعاتهم الغذائية التي ترسل بالسفن الى الاقطار النائية

ومنهم فريق ينفق ما هو اكثر من ذلك كل سنة في تغذية العفن لكي يولد لهم عاجلاً (بطفيف النفقات) المواد التي يحتاجون اليها مما كانوا يحصلون عليه قبلاً على مدى الزمن بلا مساعدة العفن . ومن الغريب ان العفن مع قبح منظره ليس ساماً فقد قرر الدكتور تشارلس توم الموظف في وزارة الزراعة في واشنطون ، وقد قضى سبعاً وعشرين سنة في دراسة العفن ، انهُ هو وغيره من الباحثين قاطبة لم يعثروا على نوع سام من انواع العفن

وتأييداً لذلك ذكر حادثة شاهدها بنفسه وهي إن بعض الجياد علفت بزمير دبَّ فيه الفساد فكانت تستطيبه ولم يؤثر في صحتها مطلقاً

ومن العفن ضرب يأكل اللحوم . وقد يلجأ الكيماويون حين يرغبون في تربية زريعات العفن الى تغذيتها بالعصيدة النباتية (مادة غروية تحضر من أعشاب بحرية اسيوية تستعمل في تحضير الزراعات للأعمال البكتيريولوجية) والنشا وغيرها من العناصر الغذائية المألوفة . وقد تتغذى بعض أنواع العفن بغيرها من الاصناف فتأكلها بارتياح فتسمن . وتسمى تلك الانواع بالعفن المفترس

وطالما كانت الوسائل التي يتوسل بها الى وقاية الاطعمة عند نقلها من قطر الى آخر أو خزنها ، مثاراً دائماً لمكافحة العفن اذ لم يكن مصدرو الاطعمة الثمينة المحفوظة في العلب منذ بضع سنين يعرفون الاّ القليل من طرق وقايتها من الفساد حتى تصل الى الاسواق في الجهات المزمع نقلها اليها بالبواخر ثم بيعها فيها ، فرأت وزارة الزراعة الامريكية من عهد قريب أن على عاتقها ارشاد صنّاع الاطعمة التي يتطرق اليها الفساد الى الوسائط التي تقلل دبيب العفن فيها الى اقل ما يمكن . وتقوم الوقاية بوسائل شتى فقد ظهر في إحدى الحوادث أن صنفاً طريفاً من العفن دبَّ في وسق من البيض عند نقله من باخرة الى اخرى فأصبح مذراً فتكبَّد منتجه خسائر باهظة من فساده . ثم اخذ الباحثون يبحثون عن اسباب ذلك فتبين لهم أن

ذلك البيض نقل في اقفاص مصنوعة من خشب لم يجفف جيداً فعدل المنتج عن استعمالها واستبدل بها اقفاصاً مصنوعة من أجف أنواع الخشب

وحدث في ابان الحرب العالمية أن مليوناً ونصف مليون من أفخاذ الخنازير المملحة كانت مخزونة في ثغر بلطيمور فتعفنت فأمرت الحكومة بتجفيفها عاجلاً فجففت فلم يقوَ العفن بعدئذٍ على اتلافها

ويرى علماء وزارة الزراعة في امريكا ممن درسوا أطوار العفن عدة سنين أن الثلاجات المنزلية ليست وسائط مانعة من العفن منعاً حاسماً لأن تلك الطفيليات تتكوَّن بسهولة عند درجة ٥٠ بمقياس فارنهيت (نحو ١٠° سنتغراد) . ومما لاشكَّ فيه أنه قد اتضح في احدى الحوادث أن شحنة من اللحم البقري نقلت في باخرة فسرت فيها تلك الطفيليات وهي في مكان درجة حرارته ٢٢ فارنهيت أي تحت نقطة التجمد بعشر درجات

اذن التبريد بالثلاجات انما يؤخر تكوّن العفن . ومع ذلك فقد ظهر أن زريعات من العفن عاشت مدة خمس وعشرين سنة بالتبريد تحت اشراف وزارة الزراعة الامريكية . وهذا مما يثبت جليًّا أن العفن من الاشياء التي ظاهرها يناقض حقيقتها

وكل منا يعرف أن المواد الغذائية التي تدخر في الدار ردحاً من الدهر تتعفن ومع ذلك فكل من شاهد الهلام في أثناء تحضيره ووضعه في احقاق (مرتبانات) زجاجية محكمة الاغلاق لابدَّ أن يعجب من سريان العفن فيه وظهوره على قمة الحقّ وهو محكم الاغلاق . فيجيب العلماء عن ذلك بقولهم «ان طفيليات العفن موجودة في كل مكان فهي في الهواء والغبراء وفي كل شيء يمكن ان يلامسه الغذاء فان شئت منع الفساد من التسرب في الهلام او غيره فعليك ان تعقم المرتبان جيداً وتسده سدًّا محكماً »

ومن الادلة على وجود طفيليات العفن في الهواء على الدوام انهُ قد حدثت في الولايات المتحدة حادثتان بمرض الربو ظهر بالفحص انهما نشأتا من التأثر بتلك الطفيليات التي تعيش في الجو . وقد وقف على احدث تينك الحادثتين الدكتور هاري برنطون الاستاذ في كلية جورجتون الطبية فأعلنها الى الجمعية الطبية الاميركية . وكان المصاب في تلك الحادثة شابة اقامت ست سنوات في دار رطبة عفنة، فقرر الدكتور برنطون ان الغشاء المخاطي في كل من انف المريضة المشار اليها وحلقها قد تأثر بنوع خاص من طفيليات العفن تأثراً شديداً نجم عنهُ ذلك الداء . ومع ان حوادث الربو التي منشؤها طفيليات العفن لم تزد على اثنتين في اميركا فقد حدث في اوربا اصابات كثيرة من هذا القبيل . ولكن اطباء اميركا قد فطنوا لذلك المصدر المرضي فخصوه بفائق عنايتهم عند علاج المصابين بالربو . وقد درس الدكتور برنطون ما لا يقل عن ستة عشر نوعاً من طفيليات العفن في اثناء المباحث التي قام بها في المرضى المصابين بالربو

ابتغاء حسر النقاب عن مصادر اصاباتهم

ومما يؤيد ايضاً وجود طفيليات العفن في الهواء دائماً كون المصانع التي تصنع الجبن الكامنبير تضع الجبن الطري في حجر التجفيف حيث يجتمع على سطحها العدد اللازم لذلك التجفيف من طفيليات العفن . ومن جهة اخرى فان التناقض الذي يحدث من طفيليات العفن يتبين جلياً من طريقة تحضير الروكفور وذلك لان هذا الصنف يجب حقنه بطفيليات العفن قبيل تجفيفه . وسبب ذلك الاختلاف في التفاعل الكيماوي الذي يحدث من طفيليات العفن أن الروكفور لابدَّ ان يتخللهُ العفن من كل جانب بينما الكامنبير لا يحتاج الاَّ الى تعفن سطحهِ ، وان طفيليات العفن التي تستخدم في تينك الحالتين تختلف أجناسها بعضها عن بعض . ولذا يختلف مفعولها اختلافاً بيّناً

غير أن طريقة تمييز أنواع طفيليات العفن بعضها من بعض التي يتبعها الباحث (اذا تعيَّن عليه فصل كل طائفة عن غيرها) لابدَّ أن يخترعها بنفسهِ . أما في وقتنا هذا فان التمييز يكاد يكون مقصوراً على المقابلة بين الطريقة التي تتبعها كل فصيلة على حدتها في نموها وتوالدها مخالفة بذلك غيرها وكل صنف من اصناف العفن تتولد منه أنواع ممتازة عن غيرها ، والخلايا النباتية كالعفن تنمو نمواً مشابهاً من كل الوجوه لنمو النباتات الكاملة النمو

اما وجود طفيليات العفن في الارض فقد اعترف بهِ العلماء المخصصون وهم يقولون ان كل غرام من التربة يحتوي على عدد يتراوح بين ٥٠٠٠٠ و ١٠٠٠٠٠ ذرة من العفن . وقد تكون تلك الذرات بمثابة خلايا مفردة دقيقة جداً بحيث لا ترى بالعين المجردة ، او تكون على شاكلة مستعمرات كبيرة تبلغ حجم أنملة إبهام الكف . اذن يكاد يكون من المستحيل على الباحث تقدير عدد خلايا العفن التي قد توجد في ذرة واحدة من ذرات التربة

ولذا كانت معضلة العفن من اعوص المسائل العلمية لانهُ بينما يعتبر من اشد اعداء الانسان فانهُ يعدُّ من وجهة اخرى من أخلص أصدقائهِ التي تنفعهُ نفعاً لا يقدّر . ومع كون العفن من الاجسام الدقيقة جداً التي لا ترى بالعين المجردة الاَّ ان بعض الطوائف التي تنتمي اليهِ لذيذة الطعم ومن مظاهرها التعفن الذي يعتري الاقمشة فيتلفها ولكنها (الطفيليات) إذا استخدمت لهضم المواد الغروية الكيماوية التي تنشّى بها المنسوجات صانت القماش من التلف وعلى حين كون العفن سبباً لمرض من أشد الامراض ونعني به الربو (الذي يعيق حركة التنفس) نراه مصدراً لعقّار ضروري لمقاومة امراض اخرى

ومتى حددت اصناف العفن التي تعدُّ بالالوف تحديداً نهائياً اصبح من الميسور ليس مكافحة العفن نفسه فحسب بل تحويله الى منافع ينتفع بها العالم في وجوه جمة لا يحلم بها اكبر الباحثين في هذا الزمان

عوض جندي

باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناه ترغيباً في المعارف وانهاضاً للهمم وتشحيذاً للاذهان. ولكن العهدة فيما يدرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف . ويراعى في الادراج وعدمه ما يأتي : (١) المناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيره عظيماً كان المعترف بأغلاطه أعظم (٣) خير الكلام ما قل ودل . فالمقالات الوافية مع الايجاز تفضل على المطولة

اغلاط كتاب الزهرة

صديقي محرّر المقتطف الاغر

أخذت عن استاذي المفضال المسيو وليم مرسيه W. Marçais الغرام بتصحيح الكتب الادبية ،فكان لي من ذلك مُتعة عقلية ،تشحذ الذهن ،وترهف الذوق ،ولا ازال — وسأظل كذلك ما حييت — طالب علم ، وما امتدّ بي الزمن الاّ وشعرت بالرغبة القوية في الدرس ، وأرتني الايام اني عرفت من الأدب شيئاً وغابت عني اشياء

وموضوع هذه الدراسة هو تصحيح كتاب الزهرة لابن داود الاصفهاني الذي نشره الدكتور لويس نيكل ، نقلاً عن النسخة الوحيدة المخطوطة في دار الكتب المصرية . ويسرني في بداية هذا البحث أن اشكر ذلك المستشرق الفاضل مرة ثانية بعد اذ نوهت بفضله في جريدة « البلاغ » يوم ظهر الكتاب

ولنذكر في هذا التمهيد أننا سنعرض لجميع ما يظهر لنا من الاغلاط ، لأن هذه هي السنة التي جرى عليها المستشرقون في التصحيح ، ولأن من القراء من يحتاج الى التنبيه على الغلط وان كان يسيراً ، وسنثبت ما لم نهتد الى كشفه لنمكّن القراء من معاونتنا على تصحيح ما لم نهتد الى تصحيحه ، فليس المجال مجال تعالم ومباهاة ، وانما هو درس ننزههُ عما يعرض لطلبة العلم أحياناً من الزهو والخيلاء . والله سبحانهُ وليّ التوفيق . فارجو ان تفسحوا لهذا البحث مجالاً في المقتطف ولكم الشكر

***

١ — قال ابن داود في ص ٢ « وقد وقفت على ما وصفته من تصاريف الازمان ،وخيانة

الاخوان » وضع الناشر ضمة على التاء في (وصفته) والصواب الفتح : لان المؤلف يتهم محبوبه بالتجني ، بدليل قوله عقب ذلك . « واعلم — ايدك الله ! — ان من عجيب ما تحضره الايام ظالم يتظلم ، وغابن يتندم ، ومطاع يستظهر ،وغالب يستنصر ،ما الذي تنكر — أدام الله عزك ،وبسط بالخيرات يدك ! — من تغير الزمان وانت من مغيريه ، ومن جفاء الاخوان وانت المقدم فيه » الخ

٢ — وفي صفحة ٣ قال ابن داود « واعلم — ادام الله تأييدك — أن المرتضين من الاخوان معدومون في هذا الزمان ، وانما بقي قوم ينتصفون ولا يُنصفون ، ان بسطتهم لم يهابوك ، وان احشمتهم اغتابوك »

ضبط الناشر كلمة « المرتضين » بكسر الضاد على انها اسم فاعل ، والصواب الفتح : لانها اسم مفعول

٣ — وفي الصفحة نفسها قال : « لا يزهى عليك عند حاجتك اليه ، ولا يرغب عنك عند رغبتك عنهُ وحيفك عليه »

ضبط الناشر (يزهى) بالبناء للفاعل ، وهي لغة قليلة ، والارجح بناؤها للمفعول

٤ — وفي ص ٥ قال ابن داود : ثم ختمتها بذكر الوفاء بعد الوفاة ،وبعد اناتيت على ذكر الوفاء في الحياة » . وارى ان تحذف الواو من كلمة (وبعد)

٥ — وفي ص ٧ قال بعض الظرفاء من أبيات

ليس أمر الهوى يدبّره الرأي ولا بالقياس والتفكير

وعبارة (يدبّره الرأي) محرفة ، والصواب : « يدبّر بالرأي »

٦ — وفي ص ٨ وقعت هذه العبارة : « خرجت حاجّا فلما مررت بقباء تداعى الناس أَلمَاً وقالوا : أقبلت للصقيل ، فنظرت فاذا جارية كأن وجهها سيف صقيل .» الخ

وكلمة «أَلمَاً» من (تداعى الناس ألماً) محرفة ، والصواب (لُمَماً) جمع لمة . بمعنى جماعة ، وهي كلمة لاتزال مستعملة في لغة التخاطب ، ويراها المطالع كثيراً في مؤلفات أهل الأندلس وخاصة في الذخيرة وطوق الحمامة ، واهل مصر ينطقونها بالفتح . والفيروزابادي يضمها ويفسرها بالصاحب أو الاصحاب في السفر ، والمعنى ان الناس تنادوا أفواجاً لرؤية تلك المرأة الصقيل

٧ — وفي الصفحة عينها قال الشاعر

والعين ملهًى في التلاد ولم يقد هوى النفس شيئاً كاقتياد الطرائف

أثبت الناشر (شيئاً) بالنصب . وأوثر أن أقرأ (شيء) بالرفع ، وقد وردت مرفوعة في رواية صاحب الحماسة

٨ — وفي ص ٩ قال العديل

يأخذن زينتهن أحسن ماترى فاذا عطلن فهنّ غير عواطل

واذا ختلن خدودهن ارينا حدَق المها وأخذن نبل القاتل

وكلمة (ختلن) في البيت الثاني لها وجه ، فقد تكون الختل بالكسر وهو الكنّ ، ورواية الحصري في (زهر الآداب) . واذا خبأن خدودهن ... وهي أوضح

٩ — وفي ص ١٠ قال « عمرو بن الأبهم » أثبت الناشر (الأبهم) بالباء الموحدة . والصواب ان يكون بالياء المثناة من تحت ، وقد ورد صواباً في فهرس الاعلام

١٠ — وفي صفحة ١١ قال الشاعر

اذا هنّ ساقطن الاحاديث للفتى سقوط حصى المرجان من كف ناظم

رمين فأنفذن القلوب ولا ترى دماً ما ترى الاّ جوًى في الحيازم

الشاهد في البيت الثاني . وأحب أن أقرأ : (فلا ترى) في مكان (ولا ترى) ورواية المبرد (فلم تجد) وقوله (دماً ماترى) محرفة . والصواب : (دماً مائراً) من مار الدم يمور موراً سال

١١ — وفي هذه الأبيات

أصد وما الصد الذي تعلمينه عن ابنا الا اتباع العلاقم

والشطر الثاني محرّف . والصواب ... عزاء لنا الا ابتلاع العلاقم

ورواية المبرد (شفاء) في مكان (عزاء) وقد آثرنا رواية الحصري لأن (عن ابنا) تحرّف عن (عزاء لنا) لا سيما اذا لاحظنا ان نسخ زهر الآداب حفظتها (عزاء بنا)

١٢ — وفي صفحة ١١ قال عمر بن ابي ربيعة

فلما تواقفنا وسلمت اقبلت وجوه نهاها الحسن ان تتقنعا

وكلمة (نهاها) لها وجه ، ورواية القالي : (زهاها) وهي اجود

١٣ — وفي صفحة ١٢ قال كثيّر

اصابك نَبل الحاجبية انها اذا مارمت لا يستبلّ كليمها

لقد غادرت في القلب مني امانة وللعين عبرات سريع سجومها

اثبت الناشر كلمة (امانة) وذلك تحريف ، والصواب (زمانة) ومن معاني الزمانة الوجدُ الدخيل

١٤ — وفي ص ١٣ قالت ام حماده الهمدانية :

اني لأعجب من قلب يكلفكم وما يرى منكمُ براً ولا لَطَفا

وضع الناشر كسرة تحت اللام من (يكلفكم) والصواب الفتح على البناء للمفعول

١٥ — وفي ص ١٤ «اخبرنا ابو بكر محمد بن اسحاق الصاعاني»

اثبت الناشر (الصاعاني) بالعين المهملة ، والصواب ان تكون بالغين المعجمة ، نسبة الى

(صغانيان) كما نصّ ياقوت في الجزء الخامس من معجم البلدان

١٦ — وفي ص ١٥ قال ابن داود (فانه اذا كان كذلك كانا صاحبا المولدين مطبوعين على مودة كل واحد منهما الصاحبه). وعبارة (كانا صاحبا المولدين مطبوعين) تمرّ في لغة ضعيفة والارجح إفراد الفعل

١٧ — وفي صفحة ١٧ قال ابن داود : «ومع فساد الفكر تكون العدامة ونقصان العقل ورجاء ما لا يكون». وكلمة «العدامة» بالعين المهملة لها وجه، وربما كان الافضل ان تقرأ «الفدامة» بالفاء

١٨ — وفي ص ٢٠ قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة:

تغلغل حب عتمة في فؤادي ... فباديه مع الخافي يسير

اثبت الناشر (عتمة) بالتاء المثناة من فوق ، والصواب (عثمة) بالثاء المثلثة . وقد وردت كذلك في ديوان الحماسة

١٩ — وفي صفحة ٢١ قال ابن داود :

سأعرض نفسي يمنة وشآمة ... على كل ثاو في البلاد شاخص

ينبغي ان تقرأ «وشاخص» ليستقيم المعنى والوزن

٢٠ — وفي الابيات نفسها قال :

امثلي يخون العهد عن غير حادث ... وما بي اذاً زَبَى بحتف معافص

وعبارة « ما بي اذاً زَبَى » طمست طمساً شنيعاً . . والصواب « رماني اذاً ربّي »

٢١ — وفي ص ٢٢ قال يزيد بن الطثرية :

أعيب الذي أهوى وأطري جوارياً ... يرين لها فضلاً عليهنّ بيّنا

وكلمة (الذي) محرفة ، والصواب (التي) وهذا واضح

٢٢ — وفي ص ٢٣ قال عمارة بن عقيل

ورمى الهوى منا القلوب بأسهم ... رمي الكماة مقاتل الأعداء

ومن العجائب قتله لكرامنا ... وشدادنا بمكائد الضعفاء

أثبت الناشر « مكائد » مهموزة ، والصواب « مكايد » لأن الياء في «مكيدة» أصلية لا زائدة ، ومثلها معيشة ومعايش

٢٣ — وفي ص ٢٤ قال الحسين بن مطر

اذا ماصرفت القلب في غير حبها ... اذاً حبّها من دونه يتعرض

وكلمة «اذاً» محرّفة والصواب : «أتى»

٢٤ — وفي ص ٢٥ قال ابن داود : وان كان لم يدخل في الهوى مختاراً وانما وقع به اضطراراً فقط اخطأ اذ سمى ما هو موجود في طبعه مفارق لنفسهِ باسم البلوى التي تعرض له وتنصرف عنه ». وكلمة «مفارق» محرفة ، والصواب «مقارن»

٢٥ — وقال في الصفحة عينها تعليقاً على قول ابن مطير

لحبك بلوى غير ان لايسرني وان كان بلوى انني لك مبغض

«واما اخباره بانه لا يُسَرّ بأن يكون مبغضاً لها فكلام لوسكت عنه كان أولى . أو أن يكفه أنه مبتلى عند نفسه بهواها حتى يريد مع ذلك أن يكون مبغِضاً مائلاً الى سواها »

وعبارة : «او أن يكفه» محرفة ، وصوابها : « أوَ ما يكفيه»

٢٦ — وفي ص ٢٦ قال احد الشعراء

ان الذي بعذابي ظل مفتخراً هل كنت الا مليكا جار اذ قدرا

لولا الهوى لتحاربنا على قدر وان افق لك يوماً ما فسوف ترى

وعبارة : « ان الذي » محرفة . والصواب : « ياذا الذي » وقد شدّد الناشر الدال من (قدر) وهي غلطة مطبعية

٣٧ — وفي ص ٢٨ أنشد المجنون

عجبت لذاك عروة كيف أضحى أحاديثا لقوم بعد قوم

وعبارة: «عجبت لذاك عروة» فيها تحريف، والصواب: «عجبت لذكر عروة »وفي تزيين الأسواق

عجبت لعروة العذريّ أمسى أحاديثاً لقوم بعد قوم

وعروة مات موتاً مستريحاً وها أناذا أُموّت كلّ يوم

٢٨ — وفي ص ٢٩ قال ابن داود : « فاذاكان النظر الصاحي الى الصورة التي يستحسنها طرفه مؤكداً للمنظور اليهِ المحبة في قلبهِ كان نظر المحب بعد تمكن المحبة له أحرى ان يغلبهُ على لبه ، ويزيده كرباً على كربه » . وكلمة « النظر الصاحي » محرفة ، وصوابها : « نظر الصاحي » ليقابل قوله بعد ذلك : « نظر المحب »

٢٩ — وفي ص ٣٠ قال الحسين بن الضحاك

واتاني مفحم بغرته قلت له اذ خلوت محتشما

تحب بالله من يخصك بالحب فما قال لا ولا نعما

وارجّح ان كلمة : « وأتاني » أصلها : « وا بأبي » وكانت في المخطوط « وبابي » فلم يفطن الناشر الى الحرف المحذوف

٣٠ — وفي ص ٣١ قال علي بن الجهم :

ولما بدت بين الوشاة كأنها عناق وداع يشتهي وهو يقتل

أيست من الدنيا فقلت لصاحبي لئن عجلت للموت أوحى وأعجل .

جعل الناشر اللام حرف جر في كلمة « للموت »فوضع تحتها كسرة والصواب نطقها بالفتح

٣١ — وفي ص ٣٢ قال مسلم بن الوليد :

أراها فاطوي للنصيح عداوة وأحمد عقبي ما جنى النظر الشزر
فلا سيما العذال فيهـا ملامهم ألستُ اذا لاموا أبيت ولي عذر

وكلمة « فلا سيما » ممسوخة ، والصواب : « فلا يسيء »

٣٢ — وفي ص ٣٢ قال ابن داود :

متى يا شفاء السقم سقميَ منقضي اذا ما دواء كان للداء ممرضي
فهيهات ما هذا على ذا يقلع أجل «لا» ولكن مدة العمر تنقضي

ترك الناشر كلمة « يقلع » من غير شكل : لانهُ ارتاب فيها ، ولو تأمل لرأى الصواب : « بمقلِعٍ » اسم فاعل من اقلعت عنهُ الحمّى تركتهُ

٣٣ — وفي ص ٣٤ قال الشاعر

تسليت عن ذكر الحبيب بغيره وملت اليهِ بالمودة والذكر
فما زادني الاّ اشتياقاً وحرقة اليه ولم املك سلوّي ولا صبري
وما الحب الاّ فرحة ان نكلتها باخرى قرنت الضر منك الى الضر

وكلمة « فرحة » بالفاء صوابها « قرحة » بالقاف. وكلمة « نكلتها » باللام صوابها «نكأتها» بالهمزة ، من نكأ القرحة قشرها قبل ان تبرأ

٣٤ — وفي صفحة ٣٥ قال الراعي :

بني ولوسي قد سئمنا جواركم وما جمعتنا نية قبلها معا

وكلمة «ولوسي» ممسوخة، والصواب «وابش» واصل البيت في رواية الاغاني (ص ١٧١ ج ٢٠ طبع ساسي)

بني وابش انا هوينا جواركم وما جمعتنا نية قبلها معا

٣٥ — وفي الصفحة عينها قال ابو صخر الهذَلي :

واني لآتيها وفي النفس هجرها بياتا لاخرى الدهر ما طلع الفجر

و(بياتا) بالياء لها وجه ، ورواية القالي «بتاتا» بالتاء ، وهي اجود

٣٦ — وفي ص ٣٧ قال ابن داود : « قد تمنع المحب هيبة المحبوب من النيل الذي هو اللطف من الشكوى محلاًّ في القلوب»...و «اللطف» صوابه «الطف»

٣٧— وقال في ص ٣٨ : « اذ لوكان الهوى قد استوفى منه حقه ، وتناهى به الى غاية بعدَه ، لما كان اللقاء يزيده شيئاً ولا ينقصه» وعبارة : (الى غاية بعده) صوابها : (الى ما لا غاية بعده)

٣٨ — وفي الصفحة نفسها قال : «وقد مدح الله تبارك وتعالى قوماً فقال (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً) فلم يعبهم تعالى بأن كان ذكره بحضرتهم مظهراً عليهم ما لم يكن قبل موجوداً منهم»

وكلمة «لم يمكن» صوابها : «لم يكن» و «منهم» قد تكون محرفة عن «فيهم»

٣٩— وفي ص ٤٠ قال الحسين بن الضحاك :

ايامن طرفه ، سحر ويا من ريقه خمر تجاسرت فكاشفتك لما غُلب الصبر

وما احسن في مثلك ان ينهتك الستر فان عنفني الناس ففي وجهك لي عذر

وقد اخبرني الدكتور نيكل انه استعان في تصحيح الكتاب بالشاعر ابراهيم طوقان ليساعده على ضبط الشعر خاصة، اذ كان الناشر ليس من المتفوقين في علم العروض، فليت ابراهيم طوقان عرف ان هذا الشعر لا يقرأ الاّ هكذا :

أيا مَن طرفهُ سحرٌ ويا مَن ريقُه خمرُ

تجاسرت فكاشفتك لما غلب الصبر

وما احسن في مثلك ان ينهتك الستر

فان عنفني الناس ففي وجهك لي عذر

٤٠ — وفي ص ٤١ قال ابو صخر الهذلي

بيد الذي شغف الفؤاد بكم تفريج ما ألقى من الهم

ما في الحياة اذا هيبت لنا خير ولا للعيش من طعم

ترك الناشر كلمة «هيبت» بلا شكل . وتلك طريقته فيما يرتاب فيه من الكلمات ، ومن المحتمل أن يكون الأصل «ضننت» من الضنّ وهو البخل

٤١ — وفي ص ٤٢ قال ابن الدمينة يخاطب أمامة

وأنت التي أحفظت قومي فكلهم بعيد الرضا داني الصدود كتوم

و «كتوم» لها وجه ، ورواية ابي تمام «كظيم»

٤٢ — وفي ص ٤٨ قال اعرابي

وليس خليلي بالمرجّى ولا الذي اذا غبت عنه كان عونا على الدهر

ولكن خليلي من يصون مودتي ويحفظني ان كان من دون البحر

كلمة « المرجى » بالراء وردت في الموشى «بالمزجي» بالزاي المعجمة ، وصديقنا الاديب محمود شاكر يقترح ان نقرأ «بالمدجّي» وكلمة دون في البيت الثاني وردت في الموشى « دوني» بفتحة على الياء وبها يستقيم الوزن

٤٣ — وفي ص ٤٥ قال العباس بن الأحنف

واذا بدا سرُّ اللبيب فانه لم يبد الا وهو مغلوب

وعبارة : «وهو» ينكسر بها البيت ، والذي أحفظه «والفتى مغلوب»

٤٤ — وفي ص ٥٦ قال احمد بن أبي طاهر

مالي أقرب منك نفسي جاهدا وأراك مني جاهدا تتباعد
قدمت دون اخيك من هو دونه وعَنِيت عنه وهو منك يعاند

وكلمة «منك» تبدو لي محرفةً عن «فيك»

٤٥ — وفي ص ٥٧ قال ابن داود: «هؤلاء كلهم ومن جرى مجراهم انما يتضاجرون على خلانهم لتقلهم اياهم عن عادتهم» . وكلمة «لتقلهم» بالثاء المثلثة صوابها: «لنقلهم» بالنون

٤٦ — وفي ص ٥٨ قال بعض الأعراب

هجرتك اياما بذى العُمر انني على هجر أيامي بذى العمر نادم
واني وذاك الهجر لو تعلمينه كماذية عن طفلها وهي رائم

و «العمر» بالعين المهملة صوابه «الغمر» بالغين المعجمة ، و «ماذية» صوابها «عاذبة» وقد ورد البيتان صحيحين في ديوان الحماسة

٤٧ — وفي ص ٦٠ قال ابن داود: «فهؤلاء الذين قدسامحهم الدهر بصحابهم فاستطابوا المقام على حالهم» . وكلمة «الذين» من زيادة الناسخ فليحذفها القارىء

٤٨ — وفي ص ٦١ قال ابو تمام

وفاتن الألحاظ والخد معتدل القامة والقد
صيّرني عبداً له حسنهُ والطرف قدصيّره عبدي

و «الطرف» بالطاء المهملة وصوابه «الظرف» بالظاء ، يريد الشاعر ان يقول ان خفة روحه جذبت محبوبه اليه

٤٩ — وفي ص ٦٣ قال احد الشعراء

وقصيرة الأيام ود جليسها لو نال مجلسها بفقد حميم
صفراء من بقر الجواء كأنما حفن الحياة بها وداء سقيم

والبيت الثاني عجزه محرّف . وصوابه كما في الحماسة

صفراء من بقر الجواء كأنما ترك الحياء بها رداع سقيم

٥٠ — وفي ص ٦٤ قال العرجي

لقيت به سرٌ ينظرن موعدي وقدماً وفت مني لهن المواعد

وعبارة «سرٌ ينظرن» محرفة ، ولعل الصواب . «سرباً تنظّرن»

٥١ — وفي الصحفة ذاتها قال أحد الشعراء

ومجلس لذة لم نقو فيه على شكوى ولا عذر الذنوب

و «عذر» صوابه : «عدّ»

زكي مبارك
رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الاميركية

مكتبة المقتطف

ضحى الاسلام

تأليف « احمد امين » الاستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية — اخرجته لجنة الترجمة والتأليف والنشر بمصر

من اجلّ الكتب العربية التي أخرجت للناس في هذا العام كتاب « ضحى الاسلام » ، وصل بهِ صاحبه الاستاذ « أحمد امين » ما كان بدأ في كتابه « فجر الاسلام » ، وبه نقع المؤلّف غُلّة شقيَ بها أدباء هذا العصر زمناً طويلاً . ويخيّلُ اليَّ أن الاستاذ «أحمد أمين» رجل قد أُوتي من الصبر والجَلَد والمثابرة وقوة العزم ونشاط الفكرة نصيباً وافياً سابقَ به المجتهدينَ من اهل عصره حتى سبقهم وأربى عليهم . وعامة الناس لا يعرفون ماذا يلقى الباحث في التاريخ العربي والادب العربيّ من عناءٍ وعَنَتٍ يبلغان منهُ الجُهْد . فالباحث إن لم يؤتَ مثل ما أُوتي هذا الرجل انقلب الى نفسه بأخسّ النصيبين وأوكس الحاجتين . ذلك بأن التاريخ العربيّ خاصة قد انفرد دونما دوّن من تواريخ الامم الخالية بالنقص في ناحيتين : اولاهما ، انطماس آثار جاهلية الجزيرة العربية في اليمن والعراق والحجاز والشام وخُفُوتُ أخبارها وقلّةُ ما دون منها على تشتته في كتب الادب وكتب التاريخ ، والاخرى ، اعتماد المؤرخ العربي على الرواية فلم يعنَ بالتعليق عليها وتوضيح ما غمض من اسرارها . ونعتقد انهم كانوا يستطيعون ذلك لو تعمدوه ، وقد تبيّن هذا لنا مما نراه لهم من القول في ترجيح رواية على رواية اذا التبس الامر . وثالثة لا ذنب للتاريخ ولا للمؤرخ فيها ، تلك هي ضياع اكثر الكتب العربية التي ألفت في عصر الرشيد والمأمون او عصر تدوين العلم . وابتلينا نحن من بعد ذلك ببليتين : اولاهما أنْ لم ينتدبْ احد من اهل هذه اللغة الى التنقيب عن آثار هذه الامة العربية التي طويت في ارضها بين يمنها وشامها وحجازها وعراقها ومصرها ومغربها وما سوى ذلك ، والاخرى ، أن لم يخفَّ أحدٌ إلى دراسة كتب العرب ولمّ شتاتها واستخراج ما خفي من اساليب العرب واحوالها وعاداتها في الاجتماع والادب واللغة حتى جاءَ في هذا العصر أصحاب الالسنة الاعجمية من دول اوربا بأقوالهم في تاريخنا وأدبنا وديننا بالكلام الجيد تارة ، والفهم الملتوي والتعليل الفاسد تارة اخرى

فأنت حين ترى « احمد امين » يبتدئ صادقاً الى هذا التاريخ فيتقلّب فيما بقي من دارسات

طاوله فيما وصلنا من كتبه ما شاء الله ان يتقلّب ثم يخرج فيقصّ عليك من اخباره وقد نَفَضَ عنها غبار القرون وأحداثها ، وما إن ترى من اهل هذه اللغة الاّ نائماً او متيقظاً كنائم او صاحب مكيدة مخدوعاً عن رأيه وقلبه ، والاّ اعجمي اللسان والقلب يلتوي فهمه ولا يستقيم غرضهُ يتعرّض لتاريخ هذه الامة فيصيب ويخطئ ، ويظهر فضلاً ويدس مكيدة... أنت حين ترى هذا وترى ما في دراسة التاريخ العربي والادب من عناءٍ وعنتٍ لا يتأتى لك بعدُ إلاّ ان تحمده وتشكر له ما أسدى الى امته من جميل . هذا وقد وضع المؤلف كتابهُ في أربعة ابواب في كل باب فصول ، وفي الجزء الذي بين ايدينا الباب الاول منهُ : في الحياة الاجتماعية في العصر العباسيّ من (سنة ۱۳۲ — ۲۳۲ هـ) واجتزأ منها بما له اثر قويّ في العلم والفنّ . والباب الثاني : في الثقافات المختلفة دينية وغير دينية . وأرصد باب « الحركات العلمية » وباب « المذاهب الدينية» ليجعلهما من نصيب الجزء الثاني الذي وعد بتقديمه الى القراء قبل ان يفرغوا من قراءة هذا الجزء . فوفاءً بحقّ هذا الكتاب الجيد نبذل جهدنا في الكلام عنهُ والتعرُّض لما فيهِ موجزين ان شاء الله وبالله التوفيق

تحرير القول في الاحوال الاجتماعية والعلم والفنّ واثر احدها في الآخر من أعسر ما يتعرض له الكتّاب فان الجليل من أحدها له من التأثير مثل الذي لحقيره ، وان من صغير احوال المجتمع لما يزيد في العلم والفن او ينقص منهما ، وان من حقير العلم والفن لما يزيد في احوال المجتمع او ينقص منها اذ تترافد هذه الثلاثة . حتى اذا ما اردت ان تعرف ايها الذي أثر تأثيراً قويّاً أو ضعيفاً وايها الذي تأثّر التوى عليك المسلك ووقعت في الحيرة واضطربت اضطراب من ضلّ بهِ دليلهُ . فمن اجل ذلك ما ينكصُ كثير من المؤلفين عن تناول هذا الاّ في الندرة . وغاية ما يمكن المؤلف فيعمل ليتلافى هذا النقص وخاصة في التاريخ العربيّ أن يتسقّط اخبار الحياة الاجتماعية من قصيدة لشاعر او كلمة لخطيب او وصف او قصة فيؤلف بينها ثم يمنحها من خياله وفكره ما يتمم بهِ النقص الذي وقع فيها ويضع عليها من زينتها ما يظنُّ انها كانت تتجمل بهِ ثم يعرضها لك بعد عرضاً خلاّباً رائعاً حتى لتحسُّ وانت تقرأ ما كتب انك قد انتقلت من عصرك الذي انت فيهِ الى عصرٍ مثل هذا العصر العباسيّ الذي تناوله « ضحى الاسلام » ، وانك تعيش في جوّ من الحياة العباسية فيها سحرها وجمالها ولها روعتها وجلالها ويترقى اليك المؤلف خلال ذلك بما يحقق من علاقة هذا الاجتماع بالعلم والفن وأين أثر كلٍ في صاحبه غير تاركك فتنسى انك تعيش في ديار الدولة العباسية . فاذا أراد أن يحقق القول في موضوع بعينه كالرقيق مثلاً افرد له خاصة ما يخرج فيهِ رأيه بأدلته وبراهينه وحججه وما ينتهي اليهِ من اخباره زَيْفها وصحيحها

ونحن نعتقد ان المؤلف قد قصّر في هذا الباب على جلالة ما كتب فيهِ .وان القيد الذي

وضعهُ من الاجتزاء بما لهُ اثر قويّ . . . في العلم والفن من الحياة الاجتماعية قد أضاع بهجة هذا الباب . وقد كان يستطيع ان يحتفظ بشرطهِ هذا مع شيءٍ من التوسع في صفة بعض بلاد الدولة العباسية وأهمها بغداد حتى يحس القارى وكأنهُ ارتحل فوافى بغداد يرى من اطرافها الاسوار والقباب العاليـة على ابوابها بينها الابراج عليها حراسها وحجابها في ازيائهم وملابسهم . والتماثيل على رؤوسها تلوح وتلمع ، حتى اذا دخل بغداد رأى القصور بين البساتين والانهار فاذا دخلها رأى الدهاليز والممرات والمخترقات والصحون فيها الصور الفاتنة على اعمدة الرخام ، والمجالس فيها الفرش الجميلة والابسطة المطرزة بالالوان الغريبة ، والشِعْرَ المنقوش على اطرافها واوساطها . ورأى صور الفيلة والخيل والجمال والسباع والطير على ستور الديباج المذهبة . ورأى الخليفة في ابهته وجلاله ومن يحيط بهِ من حاشيته من اجناس الامم في اللباس العجيب . ورأى العلماء والشعراء والحجاب تروح وتغدو ، ورأى زيّ القضاء وزي الشرطة وزيّ الكتابِ وزيّ الوزراء وزي الاعراب من الشعراء وهم ينشدون مديحه في صوت البدويّ الجافي مع حلاوة المخرج وحسن الاداء . ورأى شعراء الحضر يمدحون بالشعر فيه الغزل وفيه الحكمة وفيه السياسة والتحريض والدعوة الى التوفيق او التنبيه الى الدسيسة . ورأى الجدَلَ في مجلس الخلافة بين العلماء من فقهاء ونحويين ولغويين ورأى اولياء العهد في ملاعبهم ومجالس علمهم . والندماء في لباس الشراب والمغنين في الاقبية الخراسانية بأيديهم المزاهر والاعواد ومن كل آلات الطرب بينهم القيان الجميلات والاماء الاديبات والشراب يدور بهِ الولدان والفتيات بزينتهنّ وحسنهنّ فاذا خرج الى البساتين رأى الافراس المطهمة عليها الذهب والفضة في ايدي الشاكريين (السوّاس) عليهم البزّة الجميلة ثم رأى حيرَ الوحش (حديقة الحيوانات) تخرج الوحوش منها تقرب الناس وتأكل من ايديهم ، والفيلة المزينة بالديباج والوشي مع اصحابها من فيالة السند ، والسباع بأيدي السباعين في رؤوسها واعناقها السلاسل والاغلال ، ورأى البرك من الماء فيها مجالس للخليفة بألوانها وصورها وجمالها واخرى من الرّصاص القلعيّ تتوهج في شعاع الشمس كالفضة المجلوة والنخيل من حولها ملبَّساً بالشبه المذهب وأشجار الاترجّ عليها الزينة تنفح عطرها وشذاها . والاشجار المصنوعة من الذهب عليها عصافير الفضة تحركها الريح فيخيل اليك من حسنها انها اشجار حية . وتخرج الى اسواق بغداد يفوح طيبها ومسكها ومندلها وبخورها وصندلها ويتلألأ الذهب والفضة في نواحيها وأرجائها والنساء والقيان والمغنيات والشباب والشيوخ والفقر والغنى وأهل التصوف ومن كل امة وجنس من رومها وعربها وفرسها وسودانها وحبشها وظرف اهل بغداد واحاديث مجانها وخلعائها وتنادر ظرفائها والاعرابيّ في صوفهِ والحضري في خزّهِ وحريرهِ والنعال السِبتية بأصواتها وألوانها ويسمع من وراء الجدران الحان الجواري وهنَّ يتغنينَ في بيوتهنّ ويضربنَ بالدف والعود والمزهر والناي ، وليل بغداد والسمر والغناء والموسيقى

والمساجد والأذان وأصوات التكبير ودويُّ قرّاء القرآن في جوانبها ومواعظ الوعاظ وبكاء الناس من هول يوم القيامة وأهل الحديث والمعتزلة والفقهاء والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ..... الى غير ذلك مما يطول ذكره ولا يفرغُ منهُ . والذي ذكرنا هو من احوال الاجتماع في بلاد الدولة العباسية وقد اثّرت في العلم والفن وأثّر فيها العلم والفنُّ فلو ان المؤلف عرضهُ عرضاً خلاباً فاتناً لما ترك من بعده مقالاً لقائلٍ

ومثل هذا العرض لا بدّ فيه من تضافر امرين . الاول : كثرة المادة التي يريد ان يبني عليها المؤلف كتابه ، وتهيئتها قبل البدء ، ومعرفة المواضع التي يجب ان يكون فيها التحقيق العلمي وما هو بسبيله من اثبات اثر الاجتماع في العلم والفن او اثرهما فيه بحيث لا يفسد جفاء التحقيق جمال الوضع وحسن الوصف . والثاني : قلمٌ سيالٌ عنيفٌ متزن يمده خيال واسع محيط وفكر متوقد لا يخبو كالشعلة من النار كلما احتطب لها ازدادت توهجاً واشتعالاً حتى ترسل الكلمات في تيار جارف من القوة والرهبة ليحطم بذلك ما بين القارىء وبين العصر الذي يدرسه من اسوار وحوائل . وقد تهيأ الامر الاول للاستاذ « احمد امين » كما دلنا على ذلك كتابه ، اما الآخر فكأني به شيخ محنك قد حطمتهُ السن يضع الكلمة بعدها الكلمة في هدوء ووقار . لانهُ لا يخرجها الاَّ بعد ان يزنها في الميزان المهيأ من تجاربه وما لقي من احداث دهره فمن اجل ذلك ما تجده كثير الاستعانة بما ليس للقارىء بهِ حاجة كقوله في المواضع الكثيرة «في عصرنا الذي نؤرخه» فكأنهُ يخشى ان يكون قارئه قد نسي انهُ يقول ما يقول عن العصر العباسيّ

وبعدُ فهذا اهم ما نقوله عن الكتاب من جهة وضعه وعرضه وبقيت اشياء قد عرضت لنا حين القراءة على ضيق الوقت والتباسنا بالعجلة وهذا حين نحقق ما عرض لنا من ذلك

١ — نقل المؤلف من رسائل الجاحظ في ص ١١ قوله « من ذلك : أن أهل البصرة أشهى النساء عندهم الهندياتُ وبناتُ الهندياتِ ، والاغوارُ . واليمنَ أشهى النساءِ عندهم الحبشياتُ وبناتُ الحبشياتِ » ووضع نقطة الفصل بعد «الأغوار» ممَّا يدلُّ على أنها معطوفة على « الهندياتُ وبنات الهندياتِ » وعلقَ على الاغوار بقوله «الغُورَة بالضم : بلدةٌ عند باب هراة ، وبلا هاء ، ناحية بالعجم «والصواب» والأغوارَ واليمنَ أشهى النساء عندهم... الخ» يعني أهلَ تهامةَ والحجاز واليمن « قال الازهري : الغورُ : تهامة وما يلي اليمن . وقال الباهليّ : كل ما انحدرَ سَيلُه مُغرّباً عن تهامَة فهو غورٌ » وأهلُ الأغوار واليمنِ أشهى النساء عندهم الحبشيّاتُ لكثرة ورودهنّ عليهم لقرب الحبشة منهم . وقد ورد في الخبرَ عن رسول الله صلى الله عليهِ وسلم أو أحد أصحابه في تفضيلهنَّ على غيرهنّ أنّ « هُنَّ أنقى أرحاماً » أو كما قيل

٢ — ذكر المؤلف في معرض الكلام عن خطأ الأعراب وكذبهم في اللغة ص ٣٠٠ «أكاذيب الأعراب» وعنى بها مايختلقونهُ في اللغة وذكر أن أبا العباس المبرّد عقد باباً في كتابه الكامل سمّاهُ «أكاذيب الأعراب» والصوابُ أن الباب الذي عقدهُ أبو العباس في الكامل هو «تكاذيبُ الأعراب» ج ١ ص٣٥٦ وعنى به مايتزيّدُون فيه من الكلام ومايختلقونهُ من الاوهام كالذي قال ابو عبيدة في قول الراجز

«أهدّموا بيتك لا أبا لكا وأنا أمشي الدّألى حوالكا»

هذا يقوله الضب للحِسْل (وهوولد الضبّ حين يخرج من بيضته) أيامَ كانت الأشياء تتكلّم..! وكالذي نقله صاحب «ضحى الاسلام» في ص ٣٠٧ عن كتاب الكامل نفسه من قوله «تكاذبَ أعرابيّان .... الخ»

٣ — قال المؤلف في ص ٣٠١ «وألف ابن خالويه كتاباً سمّاه «ليس في كلام العرب» بين فيه ألفاظاً تستعمل ولم يصحّ سماعُها من العرب» وليس الأمر كذلك فالكتابُ بين أيدينا وقد طبع سنة ١٣٢٧ هـ بمطبعة السعادة . ذكر فيه ابن خالويه ما شذّ عن القاعدة من كلام العرب وابتدأ كل فقرةٍ بقوله «ليس في كلام العرب» وبها سمّى الكتاب . وذلك كقوله مثلاً في ص ٥ «ليس في كلام العرب ، أفعَل فهو فاعل إلاّ اعشبت الأرض فهي عاشب ، وأورس الرمثُ فهو وارس ، وأيفع الغلام فهو يافع ، وأبقلت الارض فهي باقل ، وأغضى الرجل فهو غاضٍ ، وأمحل البلدُ فهو ماحل » . ولدار الكتب في فهرستها خطأ أكبر من هذا فقد وصفوا هذا الكتاب بقولهم «هو كتابٌ في الكلمات التي دخلت على العربية من الفارسية وغيرهاوليست منها» . . . . !! وليس في الكتاب كلمة فارسية ولا (ملطية)

٤ — في ص ٣٩٥ تحريف في آيةٍ من كتاب الله وقعت هكذا : ألم ترَ إلى الابل كيف خلقت . والآية من سورة الغاشية «أفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ»

٥ — قال المؤلف في ص ٨٣ «وقد كانت المملكة البيزنطية تحرّمُ على من ليس نصرانيًّا أن يتملك رقيقاً نصرانيًّا ، ولكن المسلمين أباحوا ... !! لليهود والنصارى أن يتملكوا الارقاء ولو كانوا مسلمين» . ولاندري كيف كان ذلك وكيف يكون ؟ وأي دليل وقع للمؤلف على هذا القول ؟ والله تعالى يقول في سورة المائدة «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاتَتَّخِذُوا اليَهُودَ والنَّصارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ومَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فإِنهُ مِنْهُمْ انّ اللهَ لا يَهْدي القَوْمَ الظَّالِمِين» وكيف يبيحَ المسلمون ذلك ، ومن الذي أباحَهُ ؟؟

٦ — من أهم ماترك المؤلف مما له أكبر الأثر في العلم والفن والاجتماع أيضاً كَثْرةُ الورق في بغدادِ حين اتوا به من الصين وغيرها وكانت له تجارة واسعة جدًّا في العصر العباسي ،

فقد انتشر الورّاقون في بغداد وكثرت عندهم الكتب وكثر النُسّاخُ والكتّاب وسهل على الناس ان يقرأوا الكتب بالكراء من دكاكين الوراقين . ولقد احدث ذلك من النهضة في العلوم والفنون اكثر مما احدث الرقيق وغيرهم في بلاد الدولة العباسية. ولعلّ المؤلف أخره الى حين القول في الحركات العلمية « فهو به اشبه » او كما يقول . هذا ، والكتاب لا يزال بموضع العناية فان اتسع الوقت لنا في تحقيق ما رأينا فيه عدنا اليه والله المستعان ؟

محمود محمد شاكر

المراحل

سياحات في ظواهر الحياة وبواطنها

بقلم ميخائيل نعيمه — ١٤٤ صحيفة من قطع المقتطف — طبع بمطبعة صادر ببيروت — ويطلب من المؤلف رأساً في بسكنتا (لبنان) ومن المكاتب المعروفة ، وسعره ٧٥ غرشاً سورياً

تخرج المطابع العربية عشرات الكتب يوميًّا، ومن هذه العشرات ما قد يكون لكاتب واحد ، ثم تكرُّ الايام فيتناسى القراء تلك الكتب ويتجاهلون مؤلفيها فينسج النسيان عليهم حجاباً كثيفاً

غير اني لا اعجب الاّ من مؤلف يخرج كتاباً واحداً فلا يذكر اسم الكتاب حتى يكون اسم المؤلف مقدمته ، او يذكر اسم المؤلف فلا يكون عنوان الكتاب الاّ لقبه

ذلك هو ميخائيل نعيمه مؤلف الغربال ، ما اذكره الاّ واذكر الرأي السديد ، والفكر الجليّ ، والمعنى الحيّ ، والأسلوب القوي ، والقلب النابض بالحياة ، والنظرة المتطلعة الى الحقيقة المجردة من وراء الحجب الكثيفة . وهو في كتابهِ الثاني «المراحل» ابعد مرمى ، وأنفذ بصيرة ، فهو يتغلغل فيهِ الى لباب الحياة فيستخلص الحكمة منها كما هو في مقالات : «ثلاثة وجوه» و«الى الجندي المجهول» و«حبتان من القمح» و«المزابل» و«موعظة الغراب» وغيرها . وفي مقاله «الفوضى الادبية» ردٌّ قوي على الجامدين بإزاء نظام الحياة الذين يرون الفوضى في ان يكتب الناس بأساليب غير ما الفوا ، وأن يعبروا عن عواطفهم في قوالب غير قوالبهم « ولو فكروا لفقهوا ان ما يدعونه « فوضى » ليس الاّ نتيجة لازمة لعلل كثيرة سبقتها وانهُ مظهر من مظاهر النظام السرمدي الشامل . وانهُ ، وان يكن خروجاً على انظمتهم ليس خروجاً على ذلك النظام الذي لا متمرد عليه ولا عاصٍ»

ولميخائيل نعيمة نزعة الى الروحانيات يبدو اثرها قويًّا في مخاطبته الوجوه الثلاثة : وجه بوذا ، ووجه لاوتسو ، ووجه يسوع . فاسمع صداها في نفسي وهو يناجي الوجه الاول قائلاً :

«غوتاما بوذا ! ياساكن النرفانا ! الا بيّنت لي انا المسمَّر بالارض ، والحامل من همومها ثقل بحورها وجبالها ألا بينت لي كيف اقف على العتبة الفاصلة بين الوهم والحقيقة كما وقفت

انت على عتبة مخدع زوجك وأم بكرك وقد نامت تحت لحاف من الازهار ، وبكرك وبكرها ملتصق بصدرها ، ومن دون ان تدنو منها قلت : هوذا رباط جديد قوي يجب ان انفكَّ منهُ كذلك . وأدرتَ وجهك الى الليل ورحت هائماً في الآجام تطلب الطريق الى النرڤانا»

وعطشهُ الى «الذات العالمية» في مناجاتهِ هذه هو شوقهُ الى طريق لاوتسو، الى «الطاو» إذ يناجيه : «إيه لاوتسو ! يا نقيض الناس ومعلم الناس ، ألا ازرع في نفسي الطماعة الطماحة، الحاقدة الناقمة ، المستهزئة المستنكفة ، العاتية المستعبدة ، الصاعدة الهابطة في زبد امواج الرغائب والمنى ، ألا ازرع فيها حبة من بذار قناعتك ، وحبة من بذار محبتك ، وحبة من بذار حريتك، وحبة من بذار وداعتك ، وحبة من بذار تساهلك ، وحبة من بذار سلامك وحبة من بذار طمأنينتك !!»

ويرى الاستاذ نعيمه انهُ اذا كان في العالم فساد «فالفساد ليس الاَّ في اعتقاد الناس أنهم فاسدون وأن في الكون ما هو معوجٌّ وفي قدرتهم تقويمه»

واسمعه في اعماق نفسي ينشد «الآب» وهو يناجي وجه يسوع هاتفاً : « ايها القائل : « ومتى صليت فلا تكن كالمرائين فانهم يحبون ان يصلوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس ... » علمني كيفما تخفت في اذنيَّ اصوات هؤلاء المرائين ، وأسمع صوتك قائلاً : « حيث يكون كنزكم هناك يكون قلبكم أيضاً » فأفهم اني إن شئت العودة الى « الآب » فعليَّ أن أضع الآب في قلبي أو قلبي في الآب »

وهذه النزعة العلوية التي تنزعها روح أديبنا هي التي تجعلهُ يرى الفرق بين الشرق والغرب « منحصراً في نقطة واحدة جوهرية وهي ان الشرق يستسلم لقوة أكبر منه فلا يحاربها ، والغرب يعتدُّ بقوَّتهِ ويحارب بها كل قوة » « وان الشرق اقرب من الحقيقة بإيمانهِ من الغرب بفكره وعلمهِ وبرهانه ...» وفي نظره «أن القائل من كل قلبه : «ولا غالب الا الله» لأحكم وأكثر طمأنينة روحية من القائل : « ولا غالب إلا أنا » ويرى ان الغرب أحوج الى مدرسة الشرق من الشرق الى مدرسة الغرب

لهذه النزعة ولهذه الروح الوثابة الى نشدان الذات العالمية مع بوذه ، والطاو مع لاوتسو والآب مع يسوع نرى ميخائيل نعيمة حاملاً قلبهُ متطلعاً الى النور البهي الذي ترى روحه آفاق إشعاعهِ ليعود مسرعاً من نيويورك ذلك « التنين المتمدد بين نهرين ، الفاغر فاهُ ليشرب البحر ويبتلع البر دون أن يرتوي يوماً أو يشبع » يعود مسرعاً الى صنين ليستلقي «في الأصيل على صخرة دهرية بيضاء فيها نواتئ مسننة كالحراب تتخللها منبسطات ملساء ككف العذراءِ ، من (ورائهِ) صخور تتعالى الى السماء وتطرح (عليهِ) ستراً من الظل ناعماً كالمحبة مؤنساً كالرجاء عابقاً بالسلام والطمأنينة كالإيمان .»

وكأني اناجيهِ وهو مُـوَلٍّ وجهه عن نيويورك الى بسكنتا (لبنان) بما ناجى به لاوتسو: «أحب وجهك الكالح —وجهَ المعلم لايفهمهُ تلاميذهُ ، وأحب وجهك الشاحب — وجهَ العاشق لا وصول له الى معشوقهِ ، وأحب وجهك الحائر — وجه من وجد الطريق تخامره شك بمقدرتهِ على قطعه . غير اني أحب أ كثر من ذاك بما لا يقاس وجهك الذي أدرتهُ عن الجندي على حدود ولاية «تشو» وصوبته نحو الأفق البعيد فكأني بولاية « تشو » عالم الحس والشهوات . وكأني بك حين تخطيت حدودها تخطيت حدود هذا العالم تاركاً خلفك ربوات من الديدان البشرية تدأب النهار والليل في حفر الأرض كأنها تتحصن في حُفَرها من الموت والفناءِ ، وما حُفَرها إلا قبور لها ، وكأني بالأفق الذي أدرت اليهِ وجهك ملكوت الطاو . وكأني بوجهك إذ ذاك شعلة من نور الطاو فلا أثر لحرقة فيه أو للوعة . أو لحزن او لفرح . أو لأمنية أو لشهوة . أو لخير أو لشر . وكأني بروحك القدوسة تسير حتى الساعة في سبيلها النيّر القويم الذي لاحدَّ لطوله ، ولاقياس لعرضه وفي سيرها محجتها فهنيئاً لك ! »

حسن كامل الصيرفي

من الارز الى الزوفا(١)

بحث في اساطير النبات في فلسطين

بقلم المسز كروفوت والمس بلدنسبرجر

هو كتاب بالانكليزية بقلم السيدتين الفاضلتين المسز كروفوت والمس بلدنسبرجر فيهِ مباحث جليلة في نباتات فلسطين وما جاء فيها من اساطير العامة من اهل البلاد وما قال فيها القدماء . والكتاب مبوّب احسن تبويب ففيهِ فصل في السنةِ الزراعية وآخر في الحبوب والعنب والزيتون وآخر في الاطعمة البرية منها البقول اي الخضراوات واحرار البقول اي ما يؤكل منها نيئاً والجذور والقطاني كالحمص والفول والجلبان والبيقيَة والعدْس والبازلاَّ

فمن البقول البرية الخُبَّازى والـلُّفَـيت ولسان الثور واللوف والعكّوب . ومن احرار البقول اي ما يؤكل منها نيئاً الخُرْفَيش وخرفيش الحمير والحُويرة والقَطَف والحُمَّاض والحمصيص والخرشوف البرّي والطرخشقون اي سلطة الرهبان والهندباء والخس البري والقرصعنَّة . ومن الجذور النُمَّير والبلبوس وثوم العرب

وفيهِ فصل في الوقود منها البلاّن والرَّتم والصوفان . وفصل في النباتات التي اسماؤها غريبة او واردة في امثالهم منها عين البسّ والخطمي وسراج الغول والخِلّة وشعر العجايز وهو الكشوث وابرة العجوز وقرنبيط الدجاج والصبّير والخروع والحدق والعُشر والحنظل

(١) From Cedar to Hyssop. A Study in the Folklore of Plants in Palestine by Grace M. Crowfoot and Louise Baldensberger London: The Sheldon Press.

ثم الازهار الطيبة الريح كالخندقوقي والورد والحناء والنباتات الشائعة في عمل الاصباغ كالنيلة والفوة وفي عمل الصابون كعرق الحلاوة والقلي

وفصل في النباتات الطبية ورد منها الزوفا اي الزعتر والمريمية اي القصين والزعتر الفارسي والجعدة والشيبة والحمحم والزقوم والقرطم والكزبرة والكمون والشمر والشاهترج وعرق السوس والطيون وهو العلباق والبابونج والحرمل والمصطكي والصنوبر والقضاب والرجلة وهي البقلة الحمقاء والخامشة والشذاب اي الفيجن والسماق والمثنان والقراص والرشاد وغيرها . وفصل في الاشجار المقدسة منها الارز والبلوط والميس والرمان والسدر والطرفاء والخروب والنباتات السحرية منها اللفاح او بيض الجن وكف العذراء وزهرة البراءة

ويتخلل كل ذلك اشعار عامية وحكايات وامثال . مع وصف النباتات وصفاً دقيقاً . والكتاب مزين بصور النباتات بقلم المسز كروفوت والصور كلها حسنة جداً . ولما كان هذا الكتاب النفيس يتعذر وصفه ونقده باسطر قليلة رأينا ان نفرد له فصلاً خاصاً في الجزء القادم من المقتطف بقلم العلامة الفريق امين باشا المعلوف

محمد — حياته ومعتقده

Tor Andrae, Mohammed. Sein Leben und sein Glaube. Göttingen, Vandenhoeck u. Ruprecht, 1932, 160 S. 8o.

اكثر المشتغلين بدرس السيرة النبوية في الغرب كانوا — ولا يزالون — من اللاهوتيين وهو أمر يقتضيه التخصص واقسام التعليم ودرجاته عندهم . اذ أنّ الموضوع بطبيعته اقرب الى قسم اللاهوت منه الى سائر الاقسام. وقد تطور هذا الموضوع بتطوّر علم اللاهوت. صار اليوم علم النفس وعلم مقابلة الاديان من المواد الضرورية في قسم اللاهوت بالجامعات الكبرى وظهر اثر ذلك في درس السيرة النبوية. والكتاب الذي نحن بصدده خير مثال لذلك . صاحبه استاذ بجامعة أبْصالا بالسويد ومستشرق معروف يعد من الاختصاصيين في «حياة محمد»

ظهر له سنة ١٩١٧ كتاب بعنوان « محمد كما ترى أمّته وتعتقد » وآخر سنة ١٩٢٥ بعنوان «مَنْشأ الأسلام والمسيحية» وكلاهما باللغة الالمانية وله غير ذلك رسائل ومقالات تتصل بالموضوع نشرت في مجلات علمية مختلفة

وهذا كتابه الاخير ظهر منذ بضعة اشهر وهو يحتوي على مقدمة وسبعة فصول هي:—

(١) بلاد العرب عند ظهور الإسلام (٢) من الطفولة الى نزول الوحي (٣) رسالة محمد الدينية (٤) في الوحي (٥) الخصومة مع القرشيين (٦) حاكم المدينة (٧) شخصية محمد

وللكتاب ميزات كثيرة منها :—

(١) شدة الاحتياط في قبول النتائج المبنية على الابحاث اللغوية (ص ٢٠ و ٣٤) وهي

ميزة يُقدِّرها كل من له المام بأساليب قدماء المستشرقين (٢) اعتبار القرآن المصدرَ الرئيسي للسيرة النبوية ويظهر ذلك في كل فصول الكتاب (٣) ان الكاتب يعتبر الاسلام « قوة روحية وبذرة حية لا مجموعة تعاليم ونظام من الشعائر الدينية فحسب » (ص ٨) وان تلك القوة الروحية هي ايمان محمد الشخصي (ص ٨) فهو لا يخوض في مسألة « الابتكار » وحظ الاسلام منه الخ والفضل في ذلك لعلم مقابلة الاديان

في الفصل الثالث تظهر مقدرة الاستاذ كلاهوتي عصري ومستشرق ممتاز خصوصاً عند بحثه في مسألة القضاء والقدر واثباته انها — كعقيدة دينية — ليست بضعف وعبودية بل قوة وحرية . والفصل الرابع والسابع يعدان آية في دقة البحث وتحري الانصاف والبراعة في تطبيق نظريات علم النفس الحديث

ط . خميري
بجامعة همبورج — المانيا

رسالة تاريخية

عن مستشفى الاسكندرية الاميري — وضعها الدكتور عبد الرحمن عمر مديره سابقاً
طبعت بمطبعة التعاون بمصر

«تاقت نفسي بعد ان اسندت اليَّ ادارة مستشفى الاسكندرية الاميري الى ان اعرف شيئاً من تاريخهِ وحفزني لذلك ما وجدت في انحائهِ من مظاهر اثرية قديمة كاعمدة كاملة وغير كاملة من الجرانيت او الرخام ومن مبانٍ في جوف الارض ، ثم ما وجدت فيهِ من مظاهر حربية تدل على ان المنطقة التي هو فيها كانت على ما يظهر جزءًا من منطقة دفاعية، يدل على ذلك بقايا مدفع وبعض من القذائف الحديدية القمعية الشكل في بعض جهات المستشفى ثم بناؤه فوق هضبة عالية بها ما يشبهُ الطوابي »

بهذا العبارات المشوّقة صدَّر الدكتور عبد الرحمن عمر بك هذه الرسالة التاريخية النفيسة. ولا ريب في ان التصدي لهذا البحث التاريخي عمل شاق لطبيب يمارس صناعتهُ ويتولى ادارة مستشفى وفي كفهِ ارواح معلقة في الميزان بين الحياة والموت . ولكن المؤلف اجاد البحث التاريخي اجادتهُ للعمل الانساني الذي توفر عليهِ وانقطع لهُ

ويؤخذ من بحثهِ ان المستشفى أُسس سنة ١٢٤٦ هـ — ١٨٣٠ م واغلب ظنهِ ان اللوحة التي دوّن عليها هذا التاريخ منقولة عن لوحة سابقة فقدت. ولجأ الى دار المحفوظات المصرية بالقلعة فعثر على وثيقة تشتمل على الامر الصادر من محمد علي الى بلال اغا في مارس سنة ١٨٢٧ م ببناء المستشفى . ثم جشّم المؤلف نفسهُ مؤونة البحث عن حي « بين السواقي باسكندرية القديمة» المذكور في الوثيقة المشار اليها فلجأ الى قسم المساحة المحلي بالاسكندرية وبحث مع رجالهِ في الخرائط ، ثم الى المعمرين من الرجال فاخبره احدهم وقد كان مكارياً في سنة ١٨٨٢ وعمرهُ الآن

تسعون سنة ، « ان المستشفى الاميري كان مبنيًّا بجوار جامع المنير في منطقة بين السواقي بالقرب من جامع الناضوري وكان يعرف بمستشفى المحمودية» . ثم حقق ذلك مع مدير مصلحة المساحة فراجعا خريطة الفلكي الموضوعة سنة ١٨٦٦ فعثرا فيها على شارع باب الاسبتالية بجوار جامع المنير — الذي ذكرهُ المكاري — ووجدا بناءً مربعاً لم يشكا في انهُ بناء المستشفى وهو مشغول الآن بمدرسة الفرنسيسكان والدير المتصل بها

على هذا النمط من التحقيق اتى المؤلف الفاضل على ذكر تقدم المستشفى في خلال مائة سنة من الخدمة العامة. وذكر مديريهِ ونشر التقارير التي وضعوها وما اشتملت عليهِ من البيانات الوافية عن المرضى الذين عولجوا فيهِ وامراضهم وعملياتهم

علم الطبيعة

الجزء الثالث في الضوء — تأليف محمد هاشم الفصيح — استاذ علمي الطبيعة والكيمياء في مدرستي التجهيز ودار المعلمين بدمشق

كتاب مدرسيٌّ حافل بتفصيل شؤُون الضوء بالتجارب والحسابات الرياضية. فهو لا يصلح للقارىء العام الذي يريد ان يلمَّ بخواص هذه الظاهرة العجيبة — الضوء — وبالآراء في طبيعتها من نيوتن الى بلانك وكَطن وبما لها من صلةٍ بفلسفة الكون الطبيعية والمذاهب الحديثة كنظريتي النسبية و « الكم » او « المقدار » Quantum

والظاهر ان المؤلف عني فقط بتفصيل احكام الضوء المشهورة كالانعكاس والانكسار ، وصنع المرايا وتكوّن الاشباح عليها وبناء المجاهر (المكرسكوبات) والنظارات الفلكية (التلسكوبات) ولكن لم يوجه التفاته الى التطور الحديث في نظر العلم الى الضوء . فليس ثمة كلام في فصول الكتاب يتناول تشتت الضوء او تفرقهُ (scattering) ولا الحل الطيفي (spectrum analysis) واستعمال ما يشهد في الطيف من حيود الخطوط المظلمة لمعرفة عناصر النجوم او اتجاهها وسرعتها، ولا النظرية الحديثة في ان النور ليست دقائق فقط كالدقائق التي قال بها نيوتن ولا امواجاً كالامواج التي ذهب اليها هوجينس وغيره ، بل هو ينطلق في مقادير دقيقة Quanta تسير سيراً موجيًّا. ثم اننا لم نجد فيهِ ذكراً للطريقة التي قيست بها سرعة الضوء وعلاقة ذلك بعملية ميكلصن مورلي التي بنيت على نتائجها النظرية النسبية . وكلُّ هذه مباحث لا يمكن ان يكون كتاب حديث في الضوء كاملاً من دونها

ثم ان المؤلف استعمل الفاظاً كنا نفضل انهُ يجاري فيها الشائع بين كتاب العلم . فقد استعمل الابتلاع absorption بدلاً من الامتصاص وشبه الظل بدلاً من الظليل والطولاني والعرضاني بدلاً من الطولي والعرْضي ونوتون بدلاً من نيوتن وهو نطق اسمهُ كما يتلفظ بهِ اهل بلادهِ والجسم الزجاجي في العين بدلاً من الرطوبة الزجاجية والخلط (ولهُ وجهٌ) المائي بدلاً من الرطوبة المائية وغاليله بدلاً من غاليليو

في الصيف

عند ما رأيت الغلاف المتواضع الذي اصطنعه الدكتور طه حسين لكتابه « في الصيف » لم اقدر لهذا الكتاب خطراً اكبر من انه احد المباذل التي قد يتفضل بها المشهورون من الكتاب ولا يتحرجون الظهور بها على الناس اعتماداً على ما لهم من شهرة واسعة وصوت بعيد. وعلى هذا التقدير وان شئت قل على هذا الظن كبَتُّ الشهوة الحادة التي كانت تحفزني للاطلاع عليه

وكانت احدى زياراتي للاستاذ محرر المقتطف فنظرت فاذا بي اجد هذا الكتاب على مكتبه ولست ادري كيف تناولته ولا كيف فتحته ولا في اي صفحاته نظرت وقتئذ واذكر اني فعلت هذا كله في رغبة وشوق ولذة لا اعرف لها مأتى

لا احب ان اقول اني لمحت في هذا الكتاب قوة سحرية جبارة لان القدر الذي قرأته حينئذٍ كان يسيراً لا يسوّغ لي هذا الحكم. ولكن الى اية جاذبية خارجية اعزو هذه الجرأة التي اخرجتني على عادتي فطلبت بنفسي من الاستاذ محرر المقتطف ان يسمح لي بقراءة هذا الكتاب ثم بالكتابة عنه اذا سمحت الظروف ؟ آه لقد اهتديت

سمعت او قرأت لا اذكر تماماً ان لكل انسان ملكاً يرد غيبته ويظهر ان الملك الموكل بردّ غيبة الدكتور خبيث جدًّا او انهُ يقظ الاحساس جدًّا فهو لم يرضه من انسان كائناً من كان ان يحتقر اي شيء لصاحبه ولو كان غلاف كتاب

فلم يكن من الخبيث الا ان احتال حتى وضع الكتاب في يدي والاّ ان زيّن لي قراءة صفحة من وسطه خيل اليَّ فيها كل ما يتخيله المسحور واذا بي ارتدُّ بكل تواضع الى قراءة هذا الكتاب من اوله واذا بي أكاد اقف عند كل جملة مستحسناً او موبخاً نفسي على التقدير الظالم الذي اسلفته لهذا الكتاب اول يوم وقعت عيني عليه

الحق ان كتاب « في الصيف » لاعيب فيه الا تواضع مظهره فقد كان جديراً بمثله ان يظهر في ورق أغلى مما ظهر به وان يقمش في جلدة ارستقراطية لائقة بمثله ولكن هذا شيء مستدرك ولعلنا نراهُ في طبعته الثانية المرجوة قريباً ان شاءَ الله. اما اسلوبه واتجاهاته الفنية فناهيك باسلوب فني يقول الاستاذ العقاد في نقده انهُ يشبه او يقارن بالرسائل القرآنية. اما انا فقد ارى ولكن بكل تواضع انهُ اقرب شبهاً الى اسلوب اناتول فرانس في رواية جريمة «سلفستر بونار» وسواء اصح رأي العقاد ام صح الرأي الثاني ام صح الرأيان واكبر الظن انهما الاثنان صحيحان فان اللغة العربية جديرة ان تهنأ بهذا النوع من الادب الحي وان الدكتور طه جدير ان يباهي بأسلوبه الذي يلتقي فيه جمال اسلوبي شاعر الالمان وكاتب فرنسا العظيم. وبعد ذلك فهو باق خالد بطابعه المستقل المعروف بانهُ اسلوب طه حسين

***

تاريخ مصر السياسي الحديث

تأليف محمد رفعت — جزآن — الثمن ١٥ غرش — المطبعة الرحمانية

عند ما عهد صاحب الجلالة الملك فؤاد الى المؤرخ الكبير «غبريال هانوتو» بوضع تاريخ مصر سأل المؤرخون المصريون هل المؤرخون الغربيون واقفون الوقوف الوافي على دخائل قضايا الشرق ودقائقها ، واذا كانوا مطلعين أيعدلون في الحكم على شعوبه وينصفون التاريخ ، وبعضهم في احكامهم يأخذ باعتبارات يفتعلها تأييداً « لغرض لم يبق على احد خفيًّا »

على انه مهما يكن من شيء فان في مؤرخي الغرب أمناء لايدمجون العلم بالسياسة . وعلى كل فان مؤرخي الغرب ابرع في نبش مكنونات التاريخ وتصفح مطويات الوثائق لوفرتها في خزائن الحكومات الاوروبية في حين ان خزائن الحكومات الشرقية خالية من معظمها وهو اهمال يعود الى اسباب جمة منها فوضى الادارة في الحكومات الشرقية على عهد الفتوحات . ومنها عدم اصدار كتب رسمية في الحوادث الكبيرة على ما جرت بهِ العادة عند الغربيين . يدلك على وجاهة هذا القول ان المصادر التي استقى منها المؤلف تكاد تكون كلها اجنبية (فرنسية وانجليزية) وقلما اعتمد على مرجع مصري او عربي محض . ومن دواعي اغتباطنا ان بعض كتَّاب مصر تنبه الى لزوم العناية بتدوين تاريخ بلاده ولا يضيرهم ان يعمد بعضهم الى الترجمة والنقل فالتاريخ واحد لا يتجزأ الا من حيث تفهم الكاتب له ووجهة نظره فيهِ

وقد رأى حضرة الاستاذ محمد رفعت ان يدلي دلوه في الدلاء فيعرض عن الملاءِ تاريخ مصر السياسي في الازمنة الحديثة فكان موفقاً في الواسطة وفي الغاية توفيقاً يعود الى تنزهه عن الهوى والى تأثره بالحقائق دون العواطف واخيراً الى كونه — على ما يبدو لي — غير متلون بلون سياسي — الوطنية شيء والسياسة شيء آخر — يستهويه عن الحق الى الباطل وعن الامانة الى التغرض . يأخذ العلماء على المؤرخين العرب في قديم الزمان خلو مؤلفاتهم من الطريقة العلمية اما الاستاذ محمد رفعت فقد جمع الى الطريقة العلمية الاسلوب التدريسي — وكتابه وضع للتدريس — فجاء خالياً من المطولات والتفاصيل ولكنهُ يحتوي اسماء المصادر التي استقى منها الكاتب للرجوع اليها عند الحاجة

يشرح المؤلف في الفصل الاول من كتابه الحالة السياسية والاقتصادية والصناعية في مصر قبل الحملة الفرنسية ثم يصف هذه الحملة واسبابها ونتائجها ثم نهضة محمد علي واصلاحاته الداخلية ثم يعرض للمسألة الشرقية التي ما زال المؤرخون مختلفين فيها لانهم مختلفون في تفسير الشرق وحدوده

ثم ينتقل الى تحليل اتفاق الدول ضد محمد علي والى التحدث عن الازمة السياسية في سنة ١٨٤٠ اذ نشبت الثورة في الشام واذ اتفق الجميع على ضرب محمد علي ضربة مؤلمة واذ دخلت المسألة المصرية في دورها الحافل بالحوادث العنيفة. وفي هذا الدور وصلت الدول

بعد بحث وتبادل آراء دام سنة الى انهُ يجب الاستعداد لخوض غمار الحرب لاجل استتباب السلم في انحاء الدولة العلية . وفي الجزء الثاني يصف المؤرخ مصر كما وجدها اسماعيل ومصر التي اوجدها اسماعيل ويتناول قناة السويس وامتداد دولة مصر ومنشأ الديون وتحكم اصحابها مما هو جدير بالمطالعة في هذا الوقت الذي تقف الدول فيه موقفاً صارماً وتقاضي مصر امام المحاكم المختلطة وأخيراً يصل المؤلف الى الثورة العرابية ونتائجها ثم ينتهي الى تدخل انكلترا وحرب الاحتلال

وفي الكتاب ملاحق تاريخية ذات شأن كالملحق المختص بمحمد علي والخلافة وقد نشر المؤلف مضمونه في المقتطف (راجع عدد نوفمبر ١٩٢٣) ويذكر المؤلف ان جامعة الامم فكرة اختمرت في عقول ممثلي الدول في سنة ١٨٤٠ ولكنها لم تخرج الى الوجود لخلافات قامت بينهم فاقتضى لتأليفها قيام حرب طاحنة قلبت وجه العالم رأساً على عقب

والذي يلاحظه القارىء ان المؤلف عمد في الانشاء الى اسلوب السهل الممتنع لانه يكتب موضوعاً علميًّا وكتاباً تدريسيًّا على انه لا ركاكة في لغته وان كانت تخلو من البيان الفني . وانك لتلمس في بعض فصول الكتاب تثاقلاً في التعبير فتدرك ان قلمه العربي لم يستظهر على الصيغة الفرنجية التي ترجمها الكاتب وقد تكون منقولة — ولا حرج في ذلك - عن الوثائق الاصلية وكثيراً ما تصاغ فصول هذه الوثائق بعبارات متقاقلة مبهمة وبانشاء مرتجف مترجرج

وخلاصة القول ان المؤلف لم يقتصر على ايراد الحوادث والوقائع بل تخطاها الى ذكر الاسباب والمسببات فاعان ذهن الطالب على تفهم كنه المسائل والنفوذ الى داخلها ومن دونها تبقى دراسة التاريخ فارغة من اللباب والمادة

توفيق وهبه

القلائد الجوهرية

ديوان من الشعر الجزل نظمتهُ السيدة انيسة حصلب في مناقب جلالة الملك فؤاد ورفعتهُ الى السدّة الملكية مخطوطاً ابدع خطٍّ ومجلداً انفس تجليد . وقد صنعت من صفحاته المخطوطة كليشيهات طبعت على ورق صقيل ويحيط بكل صفحة اطار مذهب وصدرت بصورة صاحب الجلالة الملك تليها صورة صاحب السمو الامير فاروق فصورة سموه مع صاحبات السمو شقيقاته فصورة سموه مطلاً من عربة القطار الملكي فصورة صاحب الجلالة مع سمو ولي العهد فصورة ساكن الجنان المغفور له الخديوي اسماعيل فصورة المغفور له ابراهيم باشا فصورة محمد علي باشا مؤسس الاسرة المالكة . وقد طبع الكتاب اتقن طبع بمطبعة شندلر بمصر

المحاسن الخطية

او سفر الفن والحكمة : وهي مجموعة نفيسة من صور وخواطر فنية حكمية صوفية مخطوطة خطًّا بديعاً — ثلث ورقعة وفارسي — بقلم الخطاط المعروف محمد مرتضى . فنثني على همة حضرته ونوجّه اليها الانظار راجين لمجموعته الفنية الرواج والانتشار عند محبي الفن والحكمة

باب الاخبار العلمية

آثار الرجم في الارض

صرّح الاستاذا ملتن Melton وشريفر Schriever امام مجمع تقدم العلوم الاميركي انهما كشفا في الجنوب الشرقي من الولايات المتحدة الاميركية منخفضات تدل على انها نشأت من اصطدام بعض الرجم بالارض . ويذكر قراء المقتطف ان في ولاية اريزونا الاميركية غوراً يعرف بغور الشيطان نشأ من سقوط رجمة كبيرة غارت في الارض فأحدثت منخفضاً مستديراً قطرهُ ٣٢٢٠ قدماً وعمقهُ ٥٧٠ قدماً . وقد ظهر بالبحث ان عمقهُ الاصلي قبلما غطت الاتربة السافية قعره كان ١١٥٠ قدماً . اما الجرم السماوي الذي وقع هناك ومزّق ما وقع عليهِ من الطبقات الصخرية وأحدث هذا الغور الواسع العميق فبلغ الارض بسرعة تزيد على سرعة رصاص البنادق خمسين ضعفاً فكسر الصخور الصلبة وسحق الهشة فانتشرت الكسر والسحيق حول الغور في ارض مساحتها ٧٥ ميلاً مربعاً . ولم يكتف بذلك بل زحزح طبقات الصخور المجاورة فارتفعت من جهة وانخفضت من جهة اخرى . والجسم الذي غار في الارض اشد صلابة من الفولاذ فكيف يستخرج وكيف يكسر والقنابل لا تفعل بهِ بل ترتدُّ عنهُ ارتداد الحمص عن الصخر ويقدر قطره بثلاثمائة قدم وثقله بمليون طن

وفي سنة ١٩٢١ اكتشف غور مماثل لغور الشيطان على مقربة من مدينة اورل بولاية تكساس الاميركية . فاذا قطره ٥٠٠ قدم وفيهِ كتلة من الحديد النيزكي . ثم ان طائفة من هذه الاغوار وجدت في جزيرة اوزل Oesel ببحر البلطيق قطر اكبرها ٧٠٠ قدم . وفي سنة ١٩٣١ كشف عالمان من علماء جامعة ادلايد باستراليا في منخفض باستراليا الوسطى يدعى « كأس الشيطان » ١٣ غوراً في منطقة لا تزيد مساحتها على نصف ميل مربَّع تتباين اقطارها من ١٠ اقدام الى ٢٢٠ قدماً ويظن انها نشأت من اصطدام الرجم بالارض ، وعلى مقربة منها قطع من الحديد النيزكي منثورة على سطح الارض . وقد عثر المستر فلبي في خلال رحلتهِ الاخيرة في جنوب بلاد العرب على غورين يظن انهما نشأ بفعل الرجم والاحاديث البدوية المتناقلة تقول ان في مكان هذين الغورين كانت مدينة دمّرت بنار من السماء . وفي افغانستان بآسيا وشيلي باميركا الجنوبية اغوار من هذا القبيل

كهرب موجب ؟!

تلا الدكتور بلاكت Dr. P. S. M. Blackett احد معاوني اللورد رذرفورد رسالة على جماعة من اكبر علماء الانكليز في الجمعية الملكية البريطانية بسط فيها أدلتهُ على وجود كهرب موجب Positive Electron وقد كان العلماء حتى الآن يقولون أَنْ ليس ثمة شيء من هذا القبيل . فوقع هذا النبأ على العلماء المجتمعين موقع الاستغراب والدهشة

ويقول اللورد رذرفورد ان هذا الاكتشاف من اخطر المكتشفات التي كشفت في هذا القرن الحافل بالعجائب العلمية . والظاهر انهُ كان قد اتفق مع الدكتور بلاكت على انباء الجمعية الملكية بهِ بصفتهِ مديراً لعمل كافندش الطبيعي ، فتعذر عليهِ الحضور ، فاعلن الدكتور بلاكت نتائجهُ بنفسهِ . وختم رسالتهُ بقولهِ ، « اذا قلبت هذه الحقائق الجديدة نظريات العلماء فعلى العلماء ان يحوّلوا النظريات او ينقحوها . لقد قمنا بما عنينا من البحث عن هذه الدقائق ووجدناها . فعليهم الباقي »

ننقل هذا عن احدى الجرائد الاسبوعية ونحن ننتظر ورود المجلات العلمية لنزيد علماً بهذا الاكتشاف العظيم ، اذا صحَّ بتأييد العلماء لهُ ، وما قد يكون لهُ من اثر في العلم النظري والعملي

سكان العالم بعد ثلاثة قرون

يقدّر عدد سكان الارض الآن بـ ٠٠٠ ٠٠٠ ١٨٢٠ نسمة وذلك بحسب تقدير الدكتور ولتر ولككس استاذ الاقتصاد والاحصاء بجامعة كورنل الاميركية . ونصف سكان الارض يقطنون آسيا ففيها نحو ٠٠٠ ٠٠٠ ٩٥٤ نسمة وتليها اوربا وعدد سكانها ٠٠٠ ٠٠٠ ٤٧٨ نسمة مع ان مساحتها ٠٠٠ ٨٠٠ ٣ ميل مربع في حين ان مساحة آسيا ٠٠٠ ٧٠٠ ١٦ ميل مربع ويلي ذلك اميركا الشمالية فسكانها ١٦٢ مليوناً فأفريقيا وسكانها ١٤٠ مليوناً فأميركا الجنوبية وسكانها ٧٧ مليوناً فاستراليا والجزائر حولها وسكانها تسعة ملايين

ويؤخذ من تقدير الدكتور ولككس انهُ يتعذر الحصول على احصاءات يعتمد عليها قبل القرن السابع عشر . لذلك بدأ مباحثهُ من سنة ١٦٥٠ وحينئذٍ كان الكتَّاب مختلفين في تقدير سكان الارض فطائفة قالت انهم يبلغون ٣٢٠ مليون نسمة واخرى انهم يبلغون ١٠٠٠ مليون . اما الدكتور ولككس فيقدّرهم بـ ٤٦٥ مليوناً . فلما كان منتصف القرن الثامن عشر بلغ سكان الكرة الارضية ٦٦٠ مليوناً وفي مستهلّ القرن التاسع عشر ٨٣٦ مليوناً وفي منتصفهِ ١٠٩٨ مليوناً وفي مستهلّ القرن العشرين ١٥٥١ مليوناً . ومن العثرات في سبيل الباحث تقدير سكان الصين . فالدكتور ولككس يقدرهم بنحو ٣٤٢ مليوناً وجمعية الامم (سنة ١٩٢٩) قدرتهم بـ ٤٥٨ مليوناً وبينهما فرق كبير

وقد كان متوسط زيادة السكان قبل مستهلّ القرن العشرين كبيراً جدًّا ، كما يتبين من مقابلة الارقام المتقدمة ثم قلَّ بعدهُ . ويرى هذا الباحث انهُ اذا ظلَّ متوسط الزيادة ما هو عليه الآن بلغ عدد سكان الارض بعد ثلاثة قرون اربعة اضعاف ما هو الآن اي نحو سبعة آلاف مليون نسمة

الزجاج في جسم الانسان

مات رجل في الثلاثين من عمرهِ في احد مستشفيات بروكلن بنيويورك فشرحت جثتهُ بعد وفاتهِ فوجد في صدرهِ شظيتان من الزجاج طول احداها اربع بوصات ونصف بوصة وعرضها بوصة وسماكتها نصف بوصة والاخرى طولها بوصة ونصف بوصة وعرضها بوصة وسماكتها نصف بوصة . ولدى البحث ثبت انهُ لما كان في الثامنة عشرة من عمرهِ حصلت لهُ حادثة قذف في اثنائها من نافذة زجاجية فاخترقت هاتان الشظيتان صدرهُ ولبثتا فيهِ فعاش اثنتي عشرة سنة. وهو من الغرائب

زيت السلمون وزيت كبد الحوت

لما عرف ان زيت كبد الحوت (زيت السمك) مفيد في تغذية الجسم لاحتوائهِ على فيتامين (د) جعل العلماءُ يبحثون عن زيت سمك آخر يكون اطيب مذاقاً من زيت كبد الحوت. وكان معروفاً ان زيت السلمون Salmon يحتوي على الفيتامين المذكور ولكن فعلهُ في منع الكساح اضعف من فعل زيت كبد الحوت. ولكن جماعة من الباحثين الاميركيين وعلى رأسهم الدكتور تول اثبتت انهُ اذا حضّر زيت السلمون كما يجب جاءَ فعّالاً كزيت كبد الحوت من ناحية محتوياتهِ الفيتامينية، يضاف الى ذلك انهُ يمكن تحضيرهُ من نفايا صناعة حفظ سمك السلمون (وضعهُ في علب) وانهُ طيب المذاق في افواه الصغار فلا ينفرون منهُ نفورهم من سابقهِ

عين كهربائية لفرز البيض

في البيوتات التجارية الكبيرة التي تتناول تصدير الحاصلات الزراعية يشتغل خبيرون مهمتهم فرز البيض الجيد من البيض الفاسد وهم لطول خبرتهم وصدق فراستهم يستطيعون القيام بعملهم بمجرد النظر الى البيضة او روزها في ايديهم . ولكن احد المستنبطين صنع آلة جديدة آيتها عين كهربائية (او بطرية كهرنورية Photo-electric) تفرز البيض فرزاً اسرع وأدق من فرز الخبراء. ومما يروى عنها ان احد الخبراء كان قد حكم على طائفة من البيض بانها فاسدة فلما مرّت في الآلة المذكورة فرزتها على انها جيدة فكسرت وثبت ان الآلة كانت على صواب

عالم يحضر عيده المئوي

من اندر الحوادث في تاريخ العلم ان يحضر عالمٌ عيده المئوي . ولكن اكادمية الطب الفرنسية احتفلت في اواخر السنة الماضية ببلوغ الدكتور الكسندر جانيو Guenio الجراح وطبيب امراض النساء ورئيس الاكادمية السابق سن المائة. جلس الدكتور جانيو يصغي الى الخطب التي اعدّت لهذا الاحتفال، والبسمة لا تفارق ثغره ، فلما جاء دورهُ وقف منتصب القامة وتكلم عفو الخاطر . ثم جلس وقرأ رسالة علمية كان قد اعدها ، تخللتها نكات وملح طرب لها الحاضرون . ومن اغرب ما يروى انهُ لما ولد سنة ١٨٣٢ كتب والده الى صديق كتاباً ختمهُ بقولهِ : ان ابني، مثل

كل المعاصرين لن يبلغ عتيًّا من العمر . اننا لا نعلم ما يخبئهُ له الزمن في ثناياه ، ولكننا نستطيع ان نقول واثقين بأنهُ لن يعمر حتى المائة

اثر النحاس في شفاء الانيميا

اثبت الدكتور الفِهْجِمْ Elvehjem والدكتور شرمان Sherman من اساتذة جامعة وسنكنسن ان للنحاس اثراً في علاج الانيميا . فمن نحو اربع سنوات اشتركا مع الاستاذ هارت في اثبات انهُ لابدَّ من قدرٍ يسير من النحاس والحديد للاحتفاظ بمقدارٍ سويّ ، من الهيموغلوبين في الدم وهو المادة الحمراء في الدم التي تحتوي على حديد وتمكّنهُ من نقل الاوكسجين من الرئتين الى أعضاء الجسم . حتى الحديد غير العضوي اذا اضيف اليهِ قليل من النحاس يصبح ذا أثر في زيادة الهيموغلوبين

اما كيف يفعل النحاس هذا الفعل فقد كشفا عنه الآن

اذا اخذت طائفة من الجرذان وقد قلَّ الهيموغلوبين في دمها واضيف قليل من الحديد الى غذائها خزن الحديد في الكبد والطحال ولم تظهر اية زيادة في مقدار الهيموغلوبين . ولكن اذا اضيف الى الغذاء قليل من النحاس خرج بعض الحديد المخزون في الكبد والطحال وتحوَّل الى هيموغلوبين . فاذا أضيف الحديد والنحاس معاً تكوَّن الهيموغلوبين اولاً وما يفيض من الحديد يخزن في الكبد . وعليهِ فالنحاس ضروري لتحويل الحديد الى هيموغلوبين ، فالحديد العضوي والحديد غير العضوي يحتاجان الى النحاس في ذلك

اما الانيميا التي تعالج باضافة الحديد والنحاس ليست الانيميا الخبيثة التي تعالج الآن بالكبد النيئة او خلاصتها بل هي انيميا سببها فقد الدم او سوء التغذية . وقد استخرج الاستاذ رخصة بتحضير عقار يشتمل على الحديد والنحاس بالنسبة المطلوبة

عناصر الشمس

ألقى الاستاذ هنري نورِسْ رسل استاذ الفلك في جامعة برنستن خطبة في المعهد السمثصوني قال فيهِ ان علماء الفلك الطبيعي مدينون كثيراً لآلة الحل الطيفي (السبكترسكوب) ففي منتصف القرن الماضي ابدى الفيلسوف اوغست كونت ريبتهُ الشديدة في امكان الكشف عن العناصر التي تتألف منها الشمس ولكن البحث السبكترسكوبي الحديث اثبت ان ستة من العناصر الارضية وهي الصوديوم والمغنيزيوم والسليكون والبوتاسيوم والكلسيوم والحديد — تكوّن ٩٥ في المائة من الابخرة الفلزية في الشمس وان ستة عناصر اخرى تكوّن تسعة اعشار الباقي . والظاهر ان نسبة الفلزات في الشمس الى كتلتها هو كنسبة الفلزات في الارض الى كتلتها . ومما قالهُ ان في « الفوتوسفير » وهو طبقة الشمس الخارجية او جوّها المتأجج نحو ٥٠٠ مليون طن من البلاتين

الجزء الثالث من المجلد الثاني والثمانين

صفحة

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها ادارة المطبعة العصرية بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

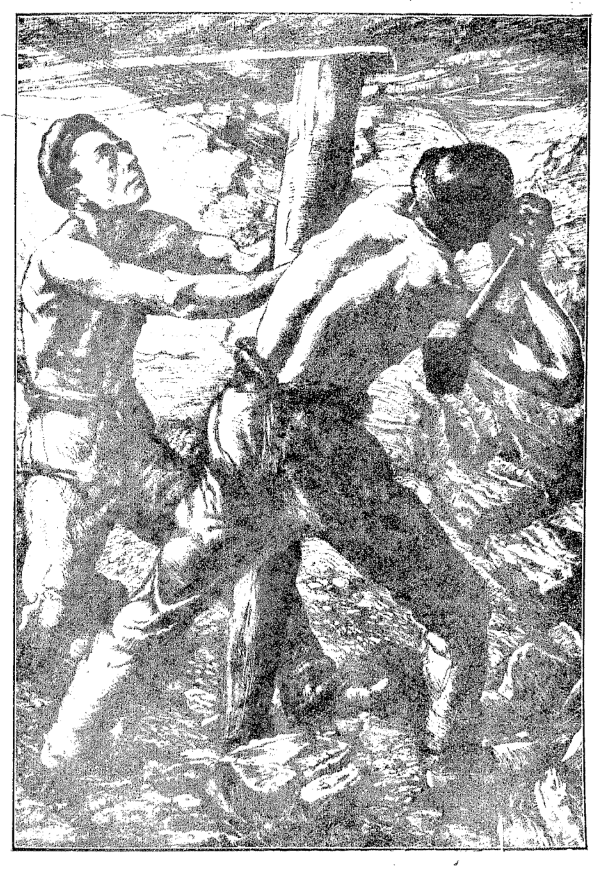
صندوق بوستة ٩٥٤ مصر تليفون رقم ٥٩٧٣٦

م

٣٥ القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠ القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثالثة)
٣٥ القاموس العصري عربي انكليزي (طبعة أولى)
٧٠ القاموس العصري عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥ القاموس المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠ قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠ قاموس الجيب عربي انكليزي فقط
١٥ قاموس الجيب انكليزي عربي فقط
٧٠ « سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠ « سقراط سبيرو انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠ « سقراط انكليزي عربي وبالعكس
١٠ التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢ الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٥ في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠ عشرة ايام في السودان « « « «
١٢ مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥ روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد زعيتر)
١٥ روح السياسة « « «
١٠ الآراء والمعتقدات « « « «
١٠ اصول الحقوق الدستورية « « «
٢٠ الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
٨ مقدمة الحضارات الاولى « «
١٠ الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥ ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
١٠ اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠ مختارات سلامه موسى
٨ نظرية التطور واصل الانسان « «
٢٠ اناتول فرانس في مباذله (الامير شكيب ارسلان)
١٥ الدنيا في أميركا (للاستاذ امير بقطر)
١٠ المرأة الحديثة وكيف نسوسها (حسين عبدالله)
١٠ حصاد الهشيم (للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني)
١٠ قبض الريح « « « « «
٨ نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠ رسائل غرام جديدة (للاستاذ سليم عبد الواحد)
١٠ الغربال في الادب العصري (للاستاذ ميخائيل نعيمة)
٥ حكايات للاطفال ، اول (مصور بالالوان)
٥ « « ثان « «

م

١٠ التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري)
٥ خواطر حمار (للاستاذ الجمل)
٥ التعليم والصحة
١٥ الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥ ذكراً وانثى خلقهم « « «
٥٠ علم الاجتماع (جزآن كبيران) « «
١٥ اسرار الحياة الزوجية « «
٢٥ المرأة وفلسفة التناسليات (للدكتور فخري)
٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها « «
١٥ الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي)
١٤ تاييس « « « «
٥ مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠ القصص المصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠ مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢ رواية اهوال الاستبداد ، مصورة
١٠ رواية فاتنة المهدي ، او استعادة السودان
٨ رواية الانتقام المذب (اسعد خليل داغر)
٥ فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
١٢ رواية باريزيت ، مصورة (توفيق عبده الله)
١٢ غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥ رواية روكامبول ، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥ رواية ام روكامبول ، ٥ اجزاء «
٢٠ رواية بارديليان ، ٣ اجزاء «
٣٠ رواية الملكة ايزابو ٤ اجزاء «
٢٠ رواية الاميرة فوستا ، جزآن «
٢٠ رواية عشاق فنيسيا ، جزآن «
١٦ رواية كابيتان ، جزآن «
١٦ رواية الوصية الحمراء ، جزآن «
١٢ رواية المبرج ، جزآن «
١٥ رواية فارس الملك «
١٠ رواية ضحايا الانتقام «
٥ رواية المتنكرة الحسناء «
٥ رواية مروضة الاسود «
٥ رواية شهداء الاخلاص «
٨ رواية المرأة المفترسة «
١٦ رواية دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠ « فرنسوا الاول « «



عُمّال !!

امام صفحة ٣٧٩

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الرابع من المجلد الثاني والثمانين

١ ابريل سنة ١٩٣٣ — ٦ ذي الحجة سنة ١٣٥١

التكنوقراطية والازمة

نقدها للنظام الصناعي والاقتصادي ومقترحاتها

يراد بالديموقراطية حكومة الشعب . وبالارستقراطية حكومة الخاصة . اما التكنوقراطية Technocracy فهي حكومة رجال الفن اذا انسحبت لفظة الفن على الصناعة والهندسة والعلم والاعمال الميكانيكية واساليبها بوجهٍ عام Technology . والظاهر ان اول رجل استعمل لفظة التكنوقراطية كان المستر وليم سمث Smyth احد مهندسي ولاية كاليفورنيا الاميركية . فاطلقها سنة ١٩١٩ على نظام جديد من الحكم والفلسفة التي من وراء هذا النظام . ثم طويت اللفظة. على ان جماعة من المهندسين والاقتصاديين وعلى رأسهم مهندس يدعى هورد سكُت Scott (ومنهم شتينمتز المستنبط الكهربائي وثورشتين فبلن الاقتصادي الثائر — وقد توفيا — ومهندسان معماريان من مهندسي نيويورك) ، اتصلت بقسم الهندسة الصناعية في جامعة كولومبيا من بضع سنوات فاتفق الفريقان على اجراءِ بحثٍ عام في احوال الصناعة في قارة اميركا الشمالية ، غرضهُ معرفة مقدار الطاقة التي زاد استعمالها في الصناعات المختلفة في خلال مائة سنة واثر ذلك في مقدار الانتاج وعدد العمال العاملين والعاطلين . ومضيا في بحثهما على الطريقة العلمية المعهودة في هذه المباحث، الى ان كان شهر اغسطس من السنة الماضية فتسرَّبت بعض الاقوال عن الحقائق التي قيل ان الفريقين كشفا عنها ، الى بعض الصحف فنشرها الكتّاب مهوّلين بها ، فاصابت اوتار النفوس الحسّاسة . واذا لفظة التكنوقراطية ، بين ليلة وضحاها ، كأنما هي موجة من السحر ، قد اكتسحت الولايات المتحدة الاميركية من اقصاها الى اقصاها ،

واذا الصحف والمجلاّت تبحث عمن يحبّر لها المقالات في هذا الموضوع ، واذا المطابع تخرج الكتاب تلو الكتاب ، في ابجدية التكنوقراطية ومقدماتها ومعانيها ومراميها وغير ذلك . واذا الناس يرون بفعل السحر في دعاوي التكنوقراطيين خروجاً من مآزق المجتمع الحديث القائم على الصناعة وفنونها . وكان لا بدَّ ان يقع الخطأُ في بعض ما كتب في الموضوع على عجل ، وخصوصاً ما كتبهُ صحافيون متصلون باصحاب المذهب الجديد ، معتمدين على ما التقطوه من اقوالهم او خيّل اليهم انهم فهموهُ من مبادئهم . فكثر النقّاد وتألفت الصفوف للطعن والردّ. ورأى فريق جامعة كولومبيا ان المسألة خرجت من دائرة البحث العلمي الى ميدان النضال السياسي والصحافي ، فاعلن انفصاله عن فريق سكُت وعزمهُ على المضي منفرداً في البحث حتى تمامه

والناس في كل العصور يميلون الى تصديق مُتَنَبِّئة الشؤم . فاذا بدا لهم خطأٌ او انحراف في اقوالهم انقلبوا عليهم شرَّ منقلَبٍ . وسكت لم يشذّ عن هذه القاعدة العامة . فالازمة في اميركا آخذة بخناق الناس من كل الطبقات الاجتماعية ، واللوم في نظر التكنوقراطيين واقع على الآلة والصناعة الآلية ، والنظام القائم عليهما لن يدوم في رأيهم عقداً آخر من السنين ، وانهُ ما دام هذا النظام قائماً فلا مندوحة عن زيادة العمال العاطلين ، وانهُ اذا القيت مقاليد الاجتماع الاميركي الى المهندسين والعلماء ، خرجوا بالناس من المأزق وقلبوا نظام الاسعار والعملة والمعاملة ووضعوها على اساس جديد . فتعلق الغرقى بحبال الامل . فلما كشف النقاد عن بعض الاخطاء في ما عزي الى التكنوقراطيين ، انقلب الناس على سكت وتنكّروا لهُ ، حتى تلاميذهُ في كولومبيا اعلنوا انفصالهم عنهُ

على ان التكنوقراطية تجمل لنا لباب المشكلة التي تعانيها الحضارة الغربية الآن . واهمال العناية بهذه المشكلة نهايتهُ الخراب الذي تبدو نذرهُ على الافق . ومن هنا اهتمامنا بتوضيح المبادىء الاساسية التي ينطوي عليها هذا المذهب الحديث

تبدَّت مساوىءُ الصناعة الحديثة للمفكرين في مطلع هذا القرن . فلم يحيروا معها عملاً او منفذاً للخلاص ، لان رجال الصناعة ومن ورائهم رجال المال كانوا اصحاب السيطرة الفعلية في الاجتماع الحديث . فتجاهلها الشعراءُ . وتسامى عنها الفلاسفة . حتى زعماءُ الشيوعية ، الذين يؤمنون بالآلة في تخفيف العناء البشري ، لم يجدوا في الصناعة كما تمارس ، مسوغاً ايجابيًّا واحداً للاحتفاظ بها ، فعمدوا الى التنديد بمساوئها ، وجلُّ بضاعتهم التنبؤ بنهاية الرأسمالية واستبداد المموّلين بالعمال . فلما كان العقد الثالث من هذا القرن اتجهت الصناعة اتجاهاً جديداً ، فبدا للمفكرين الذين يراقبون سيرها ، ان الصناعة سائرة بالاجتماع الى حالةٍ تحلُّ فيها الآلات محلّ العمال ، وان النتيجة اللازمة التي يفضي اليها هذا السير تحتمل احد امرين : اما حضارة يقلُّ فيها نصيب الناس من العمل ويزيد قسطهم من التمتع ، او اجتماعٌ يعجز فيهِ ربع

القادرين على العمل عن وجود مرتزق فيعيشون عالة على الحكومة والامة او على احسان المحسنين
وتأييد هذه النظرة الاجتماعية بالارقام والاحصاءات هو لباب التكنوقراطية

العمال والآلات

يعرّف التكنوقراطيون «التحول الاجتماعي» بكل تحوُّل يحدث اذا اختلف نصيب الفرد من الطاقة المستعملة في الانتاج والاستهلاك . فهم لذلك يحذفون من تاريخ الانسان السبعة آلاف السنة السابقة للقرن التاسع عشر . فمقدار الطاقة التي كانت تستعمل في العصور القديمة — طاقة عضلات الرجال والحيوانات — لم يصبهُ الاَّ تغير يسير حتى استنبطت الآلة فزادت الطاقة زيادة عظيمة . ففي الولايات المتحدة الآن آلات تولّد ما قدره الف مليون حصان من الطاقة الميكانيكية كلّ يوم وهي تفوق الطاقة العضلية التي يولّدها كل سكان الارض خمسة اضعاف

ثم انهم يشيرون الى ان سكان الارض زادوا في المائة والخمسين السنة الاخيرة من ٨٥٠ مليوناً الى ١٨٠٠ مليون في حين ان الطاقة الميكانيكية اللازمة لانتاج ما يحتاجون اليهِ زادت زيادة عظيمة . والآلة التي تولد الطاقة الميكانيكية تحلّ محلّ الرجل الذي كان يولّدها باستعمال عضلاتهِ بل هي تحلُّ في كثير من الاحيان محل العامل البارع دع عنك العامل القويّ

فالحقيقة التي تستخرج من احصاءات التكنوقراطيين وجداولهم ، ان التوسع العظيم في الانتاج يصحبهُ نقص عظيم في استخدام العمال ، وان هذا النقص آخذ في الازدياد ، حتى لقد يبلغ قريباً الصفر ، اذ تصبح الآلات التي تكاد تكون عاقلةً في كفايتها — في مصنع ما — لا تحتاج الاَّ الى بضعة رجال للاشراف على الازرار التي تديرها . وعليهِ فالازمة الحالية ، ليست موجة وتمرّ ، بل هي ازمة لا مندوحة عن استمرارها في ظلّ النظام الحالي

كان في الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٩٣٢ نحو من ١٤ مليوناً من العمال العاطلين . والتكنوقراطيون يقولون بان العاطلين سوف يبلغون سنة ١٩٣٤ نحو من ٢٥ مليوناً . وان ما يتفتح امام العاطلين من ابواب العمل في الصناعات المستحدثة لا يكفي ، لان هذه الصناعات نفسها خاضعة لتقدم اساليب الصناعات فيها ، والاتجاه في هذه الاساليب ، هو نحو جعل الآلة «اوتوماتيكية» أي ان تقوم من تلقاء نفسها بما هو مطلوب منها . وان صفوف العمال العاطلين سوف تتضخم اذ تنبذ المعامل آلاتها القديمة وتستبدل بها آلات على احدث طراز

والى القارىء بعض الاحصاءات المفصلة عن صناعات اميركية زاد فيها الانتاج في خلال مدة معينة زيادة كبيرة ، ولكن نقص عدد العمال فيها في خلال المدة نفسها ، لأن الآلة أغنت عن خدماتهم . والمدة هي سنة ١٩٢٣ — ١٩٢٧

الصناعة	زيادة الانتاج او نقصه	نقص العمال او زيادتهم
النفط (البترول)	٨٤ في المائة زيادة	٥ في المائة نقصاً
التبغ	٥٣ » »	١٣ » »
صناعة اللحوم وحفظها	٢٠ » »	١٩ » »
السكك الحديدية	٣٠ » »	١ » »
البناء (ولاية اوهايو)	١١ » »	١٥ » »
السيارات	٦٩ » »	٤٨ » زيادة
الكهربائية	٧٠ » »	٥٢ » »
الورق	لا زيادة ولا نقص	٧ » نقصاً
الاحذية	٧ في المائة نقصاً	١٢ » »
مغازل القطن	٣ » زيادة	١٣ » »
الفحم	٤ » »	١٥ » »
الاحتطاب	٦ » »	٢١ » »

العمال والمستنبطات

ولكي يؤيد التكنوقراطيون دعواهم بان المستنبطات الحديثة تحلُّ محلَّ القديمة في المعامل والمصانع ، وان الصناعة بوجهٍ عام، تميل الى الاخذ بالآلة الاتوماتيكية يشيرون الى احصاءات مصلحة تسجيل المخترعات الاميركية . ففي المدة الواقعة بين سنة ١٨٥١ — ١٨٥٥ منحت هذه المصلحة ٦٠٠٠ امتياز . اما في المدة الواقعة بين سنة ١٩٢٦ — ١٩٣٠ فنحت ٢١٩ الف امتياز . واذا اخذنا بالاساليب الزراعية السائدة في الولايات المتحدة سنة ١٨٣٠ تبين لنا ان محصول الحنطة الاميركية في سنة ١٩٢٩ كان يقتضي عمل ٦٠٠٠٠٠٠ عامل. اما اليوم فأربعة آلاف عامل فقط يكفون لذلك اذا استعملت المحاريث والحصادات وغيرها من الآلات الحديثة. وقد بلغ من عناية اصحاب المصانع باستخدام الآلات المغنية عن العمال، لتخفيض نفقات الانتاج، مبلغاً عظيماً حتى اذا عادت كل المعامل الاميركية الى العمل لما تمكنت من استخدام اكثر من سبعة ملايين عامل — وهو نصف عدد العاطلين في اميركا الآن — لتنتج ما انتجتهُ سنة ١٩٢٩

وقد احصى التكنوقراطيون هذا الاتجاه في صناعات مختلفة نكتفي بذكر بعضها للتمثيل دون الحصر. ففي سنة ١٨٩٢ كان في البلاد الاميركية ٩٠٠٠ مطحنة دقيق اخرجت ٤٧١ مليون جريب[1] (بشل) وعدد عمالها كانوا ٣٢ الفاً. اما في سنة ١٩٢٩ فكان عدد المطاحن ٢٩٠٠ اخرجت ٥٤٦ مليون جريب في حين ان عدد العمال لم يزد على ٢٦٤٠٠ عامل . وفي سنة ١٩٠٠ كان

(١) مكيال من مكاييل العرب وضعناه لكلمة بشل Bushel



 الآلة كالجبار والعامل امامها كالقزم امام صفحة ٣٨٣

يقتضي اخراج طن من الصلب عمل سبعين عاملاً اما في سنة ١٩٢٩ فكان اخراج الطن لايقتضي الاَّ عمل ١٣ عاملاً . وفي صناعة السيارات كان صنع سيارة واحدة سنة ١٩١٩ يقتضي ٥١٣ ساعة من عمل العمال اما في سنة ١٩٢٩ فكان صنع السيّارة لايقتضي اكثر من ٩٢ ساعة من عمل العمال والباقي احيل على الآلات

ثم ان التكنوقراطيين يشيرون الى انهُ في امكان اصحاب الصناعات ، ان يبنوا مصانع منها مايصنع ١٠٠٠٠ جسم من اجسام السيّارات ولا يستخدم في صنعها الاَّ ٢٠٨ من العمال وان واحداً من هؤلاء العمال فقط يستطيع ان يشحن اجسام السيّارات كلّها على مركبات النقل . ومنها مصنع كامل للحرير الصناعي لا يحتاج الى اي عامل . وانهُ اذا اشتغل رجلٌ الآن مستعيناً بكلّ الوسائل والمستنبطات الميكانيكية الحديثة اخرج من المصابيح الكهربائية في ساعة من العمل ماكان يقتضي سنة ١٩١٤ نحو ٥٥٠ ساعة عمل ، ومن الصلب ماكان يقتضي ٦٥٠ ساعة عمل في انكلترا سنة ١٨٨٥ . ثم ان معامل لفائف التبغ (السجائر) تمكن العامل الواحد ان يصنع الآن ٣٠٠٠ سيجارة في الدقيقة مع انهُ كان لايستطيع من سنة واحدة ان يصنع في الدقيقة اكثر من ٦٠٠ سيجارة . وكلُّ ما تحتاج اليهِ اميركا من الطوب يمكن ان يصنعه مائة رجل يشتغلون شغلاً متواصلاً مستعينين بالآلات . وفي بعض مصانع الصوف يوضع الصوف الخام في ناحية من آلة ويخرج من الناحية الاخرى كُبَباً من غزل الصوف الملوّن والملفوف المعَدِّ للبيع في السوق . واحدث الآلات المستعملة في رصف الطرق تستطيع بادارة رجلين فقط ان تقتلع سطح طريق قديمة وترصف طريقاً جديدة طولها ٨ اميال وعرضها ٦٠ قدماً في يومٍ واحد . وليس ثمة نهاية لما يعدّدونهُ من هذا القبيل

ثم ان هنالك ما هو ادهى مما تقدّم . ففي امكان صناع شَفَرات المواسي ان يصنعوا شفرات نفقة صنعها ٢٠ في المائة اكثر من نفقة شفرات جيليت ولكنها تكفي مستعملها مدى حياتهِ من دون ان يضطرّ الى سنّها . وفي الامكان صنع سيّارات تدوم ٦٥ سنة وتقطع ٣٠٠ الف ميل من دون ان تحتاج الى ترميم . ثم ان هنالك نباتاً جديداً يدعى « remie » لهُ فتلة كفتلة الكتان او من قبيلها ينتج الفدان منهُ في ثلاث غلالٍ سنوية ١٥٠٠ رطل انكليزي وطول فتلتهِ ٢٢ بوصة ، يمكن ان يقطع ويحزم بآلة ، فاذا نسج كان امتن من الصوف سبعة اضعاف وهو ارخص وامتن من رُبِّ النبات لصنع الورق ولهُ لمعة كلمعة الحرير او الكتان. فاين تذهب مصانع النسج اذا استعمل هذا النبات ؟ ثم ان مصانع الاحذية اذا استبدلت بآلاتها القديمة آلات جديدة تمكنت من ان تصنع في ثمانية اشهر احذية تكفي سكان اميركا مدة عشر سنين

علل النظام الصناعي

على هذه الاحصاءات بنى التكنوقراطيون ثلاثة مبادىء هي اركان مذهبهم :—(اولاً) ان

الثروة نتيجة للطاقة انسانيةً كانت او ميكانيكية . فالثروة يجب ان تقاس بوحدات الطاقة لا بالجنيه والريال . (ثانياً) ان نصيب الانسان في انتاج البضائع أخذ في عصر الآلة هذا ، ينقص نقصاً سريعاً بزيادة الآلات التي تستغني عن العمّال ، ونقص نصيب العمّال في الانتاج انقص نصيبهم في استهلاك منتجات الصناعة . (ثالثاً) ان نظام الاسعار السائد الآن ، قد جعل عبء الديون العمومية عبئاً فادحاً يكاد يقصم ظهر المجتمع الحديث ويعيق الصناعة عن بلوغ مداها الطبيعي ويمنع جمهور الناس من استهلاك ما كانوا يستهلكونهُ عادة لو الغيت الديون وبدّلت الثروة العادية ووحدتها الجنيه والريال وغيرها بثروة اساسها وحدات الطاقة

قد مرَّ بنا ما يكفي لتأييد المبدإ الاول . فالانسان في فجر حياتهِ الاجتماعية كان يعتمد على قوة عضلاتهِ في القيام بما يشاؤه من العمل ، ثم استنبط العجلة والعتَلة والشراع ودولاب الهواء . ولكن ذلك كلّهُ لم يزد قوتهُ العضلية شيئاً أزاء الزيادة التي اصابها بعد ما استنبطت الآلة البخارية وما تلاها من المحركات الكهربائية وآلة الاحتراق الداخلي . فصانع الاحذية في رومية القديمة كان يقضي ما متوسطهُ خمسة ايام ونصف يوم في صنع حذاء . ولكن صانع الاحذية في المصنع الحديث يصنع — بمساعدة الآلات — ما متوسطهُ ٦٧٨ الحذاء في المدة نفسها . وكان الطحّان في رومية واثينا يصنع جوالاً الى جوال ونصف من الدقيق في اليوم بطحن الحنطة بحجري رحىً . اما الطحّان في مطحنة حديثة في مدينة منيابوليس او بفلو فيخرج — بمساعدة الآلات — ما متوسطهُ ٣٠ الف جوال في اليوم من دقيق يفضل الدقيق الرومانيّ او الاثيني في جودة طحنهِ . الخ

وعليهِ فالطاقة التي تولدها الآلات وتستعمل في انتاج البضائع هي العامل المسيطر على حياة العالم الاقتصادية . اما أثر طاقة الانسان في هذه الحياة فآخذة في النقص السريع

والتقدم في استعمال الطاقة قد هدم النظامَ القائم على قياس الثروة بالعملة المبنية على الذهب او الفضة او الاعتمادات المالية ، فلا امل في ترميمه . ذلك ان هذا النظام يجعل نصيب العامل من الاستهلاك متوقفاً على العمل الذي يؤديه . في حين ان نظام الصناعة نفسهُ اصبح لا يحتاج الى عملهِ . ومعظم العمل الذي يعمل في انتاج البضائع تقوم به آلات صُمٌّ بطاقة مولدة من الفحم او الماء او غير ذلك من مصادر الطاقة . واجرة هذا العمل يستولي عليها اصحاب المصانع ومديروها ويحرم منها العامل لانَّ المصنع الحديث اصبح في غنىً عن طاقتهِ

ولكن اصحاب المصانع ومديريها اقلية يسيرة في كل البلدان ، تتجمع في ايديهم ، في ظل نظام الاسعار القائم ، مقدرة عظيمة على الاستهلاك ولكنهم لا يستعملونها ، في حين ان الجماهير التي تستطيع ان تستهلك لا تملك وسائل الاستهلاك وهي العملة . وبدلاً من ان يستعمل اصحاب المصانع ومديروها اموالهم في الاستهلاك يعيدون تثميرها في بناء مصانع جديدة ، وكذلك تزيد مقدرتهم على الاستهلاك من دون ان يكون لهم سبيل الى انفاقها . والنتيجة الحتمية

لهذا النظام اتساع المصانع وكثرتها وزيادة ماتنتجهُ على مايمكن ان يستهلك . ومن هنا تنشأ الازمات الطاحنة التي تدور كحجر الرحى من كثرة في الانتاج او قلة في الاستهلاك الى هبوط في الاسعار الى عطل عن العمل الى ركود في النشاط الاقتصادي الى تراكم في الديون الى انهيار ودمار

﴿ علاج التكنوقراطيين ﴾ -اما وقد مني « نظام الاسعار » القائم ، بالخيبة ، فيرى التكنوقراطيون ان تحلَّ « وحدة العمل » في قياس الثروة محل «وحدة العملة» — الجنيه او الدولار او الفرنك — . فيقدَّر عمل الانسان في يومٍ طولهُ ثماني ساعات بمليون وخمسمائة الف « رطل قدم »[1] مثلاً . وكذلك تقاس كلُّ ثروة بمقياس واحد . وهذا المقياس لا يتقلَّب كما تتقلب اسعار العملة . ويرون لتطبيق هذا الاقتراح ان تلقى مقاليد الامور لرجال الفن — لا للعمال على ما هي الحال في روسيا — فيوزعون هذه الثروة على السكان توزيعاً متساوياً . فكل بالغ سليم الجسم عمره بين ٢٥ و ٤٥ سنة يرتبط مع الحكومة بعقد على ان يتمَّ عملاً معيناً مشتغلاً ٤ ساعات في اليوم او ٦٦٠ ساعة في السنة . ويمنح لقاء ذلك الحق بتناول البضائع او الاشياء التي يريدها او يحتاج اليها — وكل منها مسعَّر بوحدات الطاقة — ويدفع ثمنها من نصيبهِ في وحدات الطاقة التي يأخذها لقاء العمل الذي يعمله . ثم انهم يقترحون للموازنة بين الانتاج والاستهلاك ان يمنح كل انسان قدراً متساوياً من «عملة الطاقة» من غير نظر الى العمل الذي يعمله فيشتري حذاءً لهُ بمائة «وط»[2] مثلاً ، وثوباً لزوجتهِ « بألف وط » وهلمَّ جرًّا . ويقدرون ان دخل الفرد بحسب هذا النظام يعدل ما كانت قيمتهُ ٢٠ الف ريال في سنة ١٩٢٩ وعليهِ فمستوى المعيشة الذي ينشأ في ظل هذا النظام يمكن الاحتفاظ بهِ مدى ثلاثة آلاف سنة ، تقلُّ في خلالها ساعات العمل رويداً بتقدم الاساليب الصناعية ، من دون ان يقلَّ الدخل ، وتتسع ساعات الفراغ للتمتع بمطالب الحياة العليا من ثقافة وفن وعلم ونزهة ورياضة وغيرها . ولا يسمح لاحد بالتوفير او تثمير المال الموفر ، لان الثروة بحسب هذا النظام قائمة في الاستهلاك لا في المِلْك

نقد التكنوقراطية

يقوم نقد التكنوقراطية على ثلاثة اركان . اما الاول فنقد الاحصاءات التي بنيت عليها مبادئهم . وقد ثبت الآن ان بعض ما عزي اليهم من هذه الاحصاءات فيهِ خطأ يسير او كبير . وان طائفة كبيرة من آرائهم ظهرت قبلاً في كتاب «ڤبلن» (المهندسون ونظام الاسعار) وكتاب صُدي (الثروة والثروة الحقيقية والدَّيْن). فقد قيل اولاً ان ما ينتجهُ الرجل الواحد من الصلب في سنة ١٩٢٩ يفوق ٣و٩ ما كان ينتجهُ العامل سنة ١٧٨٧ وصحة ذلك ان هذه النسبة تبين ما كان ينتجهُ العامل في ساعة واحدة من العمل — لا ما ينتجهُ الرجل الواحد — في

(١) وحدة عمل (٢) وحدة طاقة

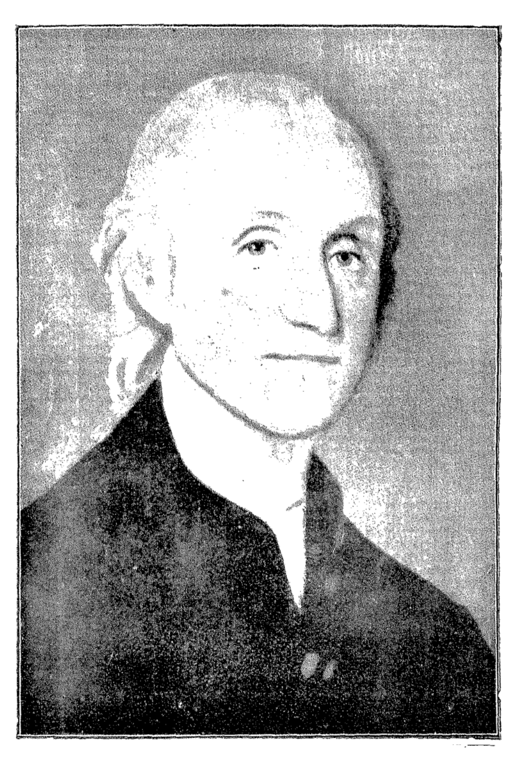
السنتين المذكورتين . وقيل ان العامل في صناعة الحديد الزهر ينتج الآن في ساعة ما كان يستغرق ٦٥٠ ساعة من خمسين سنة وصحته ان النسبة ٤٧ : ١ وقيل ان صانع المصابيح الآن يصنع ٩٠٠٠ مصباح الآن ازاء كل مصباح كان يصنع سنة ١٩١٤ والصواب ان النسبة ٥٥٠ : ١

اما الثاني فنقد النتائج التي خلصوا اليها من هذه الاحصاءات . فهم يقولون ان ملايين من العمال قد اصبحوا عاطلين لان التقدم الصناعي والآلي جعل المصانع في غنيةٍ عن طائفة كبيرة من العمال . ولكن الدكتور وستر (Wooster) استاذ الاقتصاد في كلية اوبرلين الاميركية نشر احصاءات رسمية للعمال العاملين في سنة ١٩٢٠ و ١٩٣٠ فاذا مجموعهم في الاولى ٤١٫٦١٤٢٤٨ واذا مجموعهم في الثانية ٤٨٫٨٢٩٫٩٢٠ فكأن العمال العاملين قد زادوا في سنة ١٩٣٠ عن ١٩٢٠ رغماً عن تقدُّم الصناعة وارتقاء اساليبها . وانما جلُّ ما حدث ان توزيعهم على الصناعات المختلفة في ١٩٣٠ غير ما كان عليهِ سنة ١٩٢٠ فهم اقلُّ الآن ، في الزراعة والتحريج والتعدين وصيد السمك واكثر في الصناعات الباقية

واما الثالث فنقد فهمهم للمبادىء الاقتصادية الاساسية . فهم يقولون ان الديون العامة الخاصة تثقل كاهل الصناعة وتعيق عن الانتاج وتغلُّ يد المستهلك الصغير . ولكن نظام الانتاج يقتضي نظام الدين . فاذا صنع المنتج بضاعتهُ قبل شرائها حتى تكون جاهزة لدى طلبها كان المستهلك مديناً لهُ حتى يشتريها منهُ . واذا دفع المستهلك ثمن البضاعة قبل صنعها كان المنتج مديناً للمستهلك حتى يعدّ لهُ ماطلب . وقد يدخل اصحاب البنوك بين الفريقين لحمل دين هذا أو دين ذاك بفائدة يسيرة او كبيرة ، ولكن الدين لا بدّ منهُ سواء كان بالريالات الذهبية او بوحدات الطاقة والعمل . اما تسديد الديون فلا يتمُّ في الغالب بدفع النقود بل بتبادل البضاعة والخدمات ، وشطب القيَم المقابلة في الدفاتر . وما نشهدهُ من الخلل الآن في تسديد الديون يعود الى اسباب نفسية في الغالب ، نشأت عنها الحواجز الجمركية فسدّت مساري التجارة الطبيعية

ويلخّص نقد التكنوقراطية في قول الاستاذ وستر : — «ان حقائقها غير تامة في مواطن كثيرة ، ومبالغ فيها في مواطن اخرى وموسومة كلها بسمة الشك في صحتها . ومنطقها فاسد . واصحابها يتشوفون الى عالم اصلح من عالمنا ، هازئين بالاشتراكيين الذي نقلوا عنهم معظم افكارهم وهم لا يعلمون » . وفي قول المستر سترونسكي في جريدة التيمس النيويوركية : — « ان الرجال الذين اجروا البحث في استعمال الطاقة في الولايات المتحدة الاميركية ، مهندسون بارعون اذا نظرنا اليهم يقومون باعمالهم التي توفروا على درسها . ولكنهم في اذاعة آرائهم الاجتماعية خرجوا من صفوف العلماء ورجال الفن ، فاصبحوا ، مثلنا اذ نضع غرضاً معيناً نصب عيوننا ، سياسيين ومروّجين » . وغني عن البيان ان الحكم على مصير التكنوقراطية متعذر الآن . ولكننا لا نرتاب قط في ان رجالها نبهوا في النفوس ، وجوب العناية بالاخطار العظيمة التي تستهدف لها الحضارة الصناعية

فؤاد صرّوف



جون پريستلي القس العالم
John Priestley



القس العالم

پريستلي مكتشف الاكسجين

انقضاء مائتا سنة على ولادته

شقاء الاحرار

في اوربا في العقد الاخير من القرن الثامن عشر ثورة مجتاحة تثلّ العروش وتقلب الاوضاع الاجتماعية. وفي عقول الباحثين سورة تدفعهم للبحث والاستكشاف. فهم في معاملهم مكبّون على ادواتهم القاصرة في سبيل الكشف عن اسرار الطبيعة. ولكن العقول الذكية يحفزها الشوق الى الحقيقة، لا تحفل بالادوات. وأصحابها يلاقون ويلات السياسة وشدائد الاضطهاد بثغور باسمة وقلوب مطمئنة

لقد قرب موعد الاحتفال باكتساح الفرنسيين لمعقل الباستيل. وفي مدينة برمنغهام الانكليزية حفنة من احرار المفكرين يعدّون المعدّات للاحتفال بعيد الحرية العظيم. فيجتمعون في هدوءٍ ودعةٍ ومن دون طبول او مشاعيل، في دار معينة من دور المدينة. بين هؤلاء الاحرار، قسٌّ يدعى جون پريستلي، انضمَّ الى اخوانهِ ليحيي معهم ذكرى يومٍ خلّده التاريخ علماً على تحرير امةٍ، تربطهُ بها رابطة الجوار والانسانية

هوذا يوم ١٤ يوليو سنة ١٧٩١ وخارج الدار فارسان ومن ورائهما جمهور قلق صاخب. هوذا احد الفارسين يقرأ وثيقة اعدّها احد مندوبي الملك: — «ان فريق البرسبتيريان (شيعة من البروتستانت) ينوي ان يثور. فهم يدبرون الوسائل لحرق الكنيسة. ونسف البرلمان. ان قصدهم ان يشعلوا في البلاد نيران ثورة كثورة فرنسا. سوف يقطعون رأس الملك ويعلقونهُ امامكم. لعنهم الله. فغرضهم التنكيل بنا. فلنسحقهم قبل فوات الاوان». وما ترددت في الجمهور الصاخب اصداء الملك والكنيسة حتى شبَّ عن الطوق. واذ الفارسان يرقبان في جذل مبلغ نجاحهما في استثارة الجمهور، اندلعت ألسنة اللهب من دار جون پريستلي

كان پريستلي جريئاً في تأييدهِ لكل قضيةٍ اقتنع بصحتها. وكانت الجمهورية الفرنسية الفتية قد انعمت عليهِ بلباب مجدها لما منحتهُ رعويتها الفخرية، على اثر الردّ اللاذع الذي وجههُ الى برك الكاتب والخطيب السياسي الانكليزي لما تهجم هذا على الجمهورية الفرنسية وتنقّصها. هجم الجمهور الثائر على دار پريستلي وسدّد خطواتهِ الى مكتبتهِ فمزق كتبهُ وحرق مخطوطاتهِ

ودمر كل ادواتهِ العلمية تدميراً . ثم انقلب الى دار الدكتور وذرنغ Withering وغيره من اصحاب پريستلي حتى اضطرَّ فريق منهم ان يكتب على عتبات دورهم «لسنا فلاسفة» لينجوا من ويلات الشغب . ولكن ذلك كلَّهُ لم يكف الشعب الهائج . فانكفأ يطلب رأس پريستلي ودمهُ. على ان القسَّ كان قد فرَّ الى لندن. ولكن الشغب في برمنغهام دام ثلاثة ايام بلياليها، يثير نيرانهُ طائفة من رجال الملك جورج الثالث اذ ظنوا ان هذا هو السبيل السويُّ لارهاب اصدقاء الحرية

كان پريستلي في برمنغهام ، قبل فراره الى لندن ، عضواً في جماعة علمية فلسفية تدعى « الجمعية القمرية » لانها جرت على تناول العشاء مرة كل شهر اذ يكون القمر بدراً ، لكي يسهل على اعضائها العودة الى دورهم في ظلام الليل . وكان من اعضائها اراسموس داروِن جدُّ داروِن العظيم ووط المهندس الاسكتلندي وصانع اول آلة بخارية متقنة . وكانت مباحث الاعضاء تدور حول موضوعات العلم والادب والسياسة . فلما جاء لندن شعر بألم الوحدة ، لان معظم اعضاء الجمعية الملكية كانوا يتجنبونهُ لاسباب دينية او سياسية . فاستقال من الجمعية ، وفي نفسهِ مضض وحرقة . وقد كانت مقاطعتهُ فيها اشبهُ شيءٍ بما فعلتهُ الجمعيات الكيماوية الالمانية في الحرب الكبرى اذ شطبت من قوائم اعضائها الاجانب اسماء اعظم الكيماويين البريطانيين . الى هذا الحد يبلغ جنون الناس ، حتى العلماء منهم في ازمنة الشدائد

واذ كانت مقاطعة الاورن الفرنسية تكرم پريستلي ، ابن الصوَّاف الانكليزي ، بانتخابهِ عضواً عنها في الجمعية التأسيسية ، اقام هو قضية على مدينة برمنغهام، طالب فيها بتعويض قدرهُ اربعة آلاف من الجنيهات . فكتب الملك جورج الثالث الى احد وزرائهِ : « سرَّني ان پريستلي عوقب عن المبادىء والتعاليم التي يذيعها . ولكنني لا اسلّم بالوسائل التي استعملها الجمهور للاعراب عن احتقارهِ لهُ » وعرضت القضية على المحلّفين ففاز فيها پريستلي ، وتفرَّغ بعد ذلك للبحث العلمي

القس يصبح عالماً

ولد پريستلي في ١٣ مارس سنة ١٧٣٣ في فيلدهد على مقربة من مدينة ليدز بانكلترا . وكان والداهُ من اتباع كلفن فاعدَّا ولدهما ليكون قسيساً . فلما تقدَّم للرسامة رفض للآراء التي اعلنها في موضوع الخطيئة الاولى والعقاب الأبدي . ولكن لما كان بلغ الثانية والعشرين عين قسيساً لكنيسة صغيرة في صفوك « Sufolk » وجعل مرتبهُ ثلاثين جنيهاً في السنة . وكان يمقت التعليم . ولكن راتبهُ الضئيل حتم عليهِ ان يعلّم . فكان يدرس في مدرسة بين الساعة السابعة صباحاً والساعة الرابعة بعد الظهر . وكان يعطي دروساً خاصة بين الساعة الرابعة مساءً والساعة السابعة. ثم في اوقات فراغهِ كان يعنى بوضع كتاب في قواعد اللغة الانكليزية . وكان ملمًّا بلغات عديدة منها — عدا لغةِ بلادهِ — الفرنسية والايطالية والالمانية والعربية والسريانية —

فلما عهد اليهِ بعيد ذلك في تدريس اللغات في اكادمية انشأها بعض المنشقين من احرار الدين حضر خطباً في مبادىء الكيمياء ودرس التشريح زمناً وحاول ان يلقي فيهِ سلسلة من المحاضرات

فلما كان في الرابعة والثلاثين من عمرهِ عين قسيساً لكنيسة مِلْ هِلْ في مدينة ليدز . هذا الرجل الفقير ، المكافح في سبيل العيش المنبوذ من المجتمع لآرائه الدينية ، المصاب بعاهة في النطق شبيهة بعاهة ديموستينيس ، كان يجد وقتاً بين الاكباب على عمله الديني والتأمل في ما وراء الطبيعة ، للنظر في شؤون الدنيا . وفي احدى زياراتهِ لمدينة لندن اجتمع ببنيامين فرنكلن ، فحرّك فيهِ هذا الاجتماع شوقاً للبحث في موضوع الكهربائية فعوّل على وضع كتاب في تاريخ الموضوع . فكان ذلك بدء سيرتهِ كعالِمٍ . قال : «وبدا لي في خلال كتابة هذا التاريخ ان احاول تحقيق بعض الاقوال المختلف فيها وهذا قادني رويداً رويداً الى ميدان رحيب من التجارب المبتكرة فلم امسك عن انفاق كل ما استطيعهُ في سبيلها »

مكتشفاته الاولى

يرتدُّ جانب كبير من شهرة بريستلي الى مصنع الجعة الذي كانت على مقربة من دارهِ في ليدز . كان يقضي وقت فراغهِ في هذا المصنع يبحث في فقاقيع الغاز الذي يتولد في اثناء صنع الجعة . فكان يشعل كسراً من الخشب ثم يقربها من فقاقيع هذا الغاز الذي لا لون لهُ، اذ تنفجر فوق براميل الجعة . كان ذلك العمل غريباً في حدّ ذاتهِ . فكيف بهِ اذا صدر من قسٍّ ورعٍ لذلك كان عمال المصنع يهزّون رؤوسهم استغراباً وسخرية اذ يرونهُ مكبًّا فوق البراميل في حرّ الصيف الخانق . ولكنهُ لم يحفل بهم . كانت معرفتهُ الكيماوية نزرة . ولكنهُ كان شديد الملاحظة . فلاحظ ان هذا الغاز يطفىء الكسر الخشبية المشتعلة . فظنَّ انهُ «الهواء الثابت» Fixed air الذي حضّرهُ تاجر الخمور الاسكتلندي جوزف بلاك ، قبل ذلك بخمس عشرة سنة ، باحماء حجر الجير في خلال بحثهِ عن دواءٍ ناجع في اصداف القواقع ، وهي الاصداف التي شفت رئيس وزراء انكلترا، ولبول Walpole من داءِ النقرس . فهل هذا الغاز الصاعد من براميل الجعة هو الغاز الذي يخرج من اصداف القواقع ويشفي من النقرس ، ولما كان من المتعذّر عليهِ ان يحصل على قدرٍ كافٍ من هذا الغاز في مصنع الجعة حاول ان يحضّره في دارهِ . ثم حاول ان يحلّهُ في الماءِ . فوجد ان حلّهُ في الماءِ ليس بالامر السهل . ولكن قليلاً منهُ يتحد بالماء ، فيجعلهُ فوّاراً يصعب التفريق بينهُ وبين ماءِ سلتزر او ماء پرييه . وتقدم الى الجمعية الملكية فانبأ اعضاءها باكتشاف ما يعرف الآن « بماء الصودا » الذي يشرب مع الوسكي ويحلُّ فيهِ قليل من السكر وحامض الليمون فيصبح « كازوزه» . فاعجبت الجمعية بقولهِ،وطلبت اليهِ ان يعيد تجاربهُ امام « كلية الاطباء » فسرَّ بهذه الفرصة التي اتيحت لهُ فاغتنمها ، فلما امرَّ

الغاز في الماء طلب الى بعض الحاضرين ان يذوقوا المحلول ، فدهشوا ، واقترحوا على امراء البحرية البريطانية استعمالهُ لمعالجة الاسقربوط . ومنح بريستلي المدالية الذهبية جزاءً له على هذا الاكتشاف

وانكفأ بريستلي الى داره يجرّب تجارب كيماوية اخرى . فحاول ان يحمي ملح الطعام مع زيت الزاج او الحامض الكبريتيك ، فحضّر مركباً كيماويًّا عجز عن تحضيرهِ من سبقهُ في هذه المحاولة . ذلك انهُ جمع الغاز الخارج من هذين المركّبين تحت ناقوس من الزجاج اسفلهُ مغموسٌ في الزئبق . ثم حاول ان يحلّ هذا الغاز في الماء ، فوجد الماء شديد الاتحاد بهِ لذلك عجز عن تحضيرهِ سابقوه . فانهم حاولوا ان يحضروه تحت ناقوس اسفلهُ مغمور بالماء فكان الماء يمتصهُ. ولما حلـهُ بريستلي في الماء اكتشف الحامض الايدروكلوريك المستعمل الآن في صناعة الفراء والجلاتين وفي تنظيف الاواني المعدنية

كذلك تمّ لاحد هواة العلم ان ينفح العالم بمركبين كيماويين من اشهر مركباتهِ المعروفة !

وكانت رعية القس بريستلي تحيّرها عناية راعيها بالانابيب والانابيق . فكأنهُ كان يعبد الهـين على مذبحين مختلفين . فارتفعت همسات الاستفهام حتى اصبحت كزمجرة التذمر . ولكن بريستلي كان مشغولاً عن ذلك بمباحثهِ الفتّـانة فلم يسمع ما يقال . فانهُ بعد احماءِ ملح الطعام وزيت الزاج ، تحوّل الى ماءِ الامونيا يحميهِ ، فخرج منهُ غاز ثالث لا لون لهُ ، فجمعهُ كسابقه تحت ناقوس من الزجاج اسفلهُ مغمور بالزئبق . وكان لهذا الغاز رائحة خاصة حرّيفة. وملأت الابخرة الغـاز غرفتهُ وهو مكبٌّ فوق الموقد يذكي النـار . فكان في تجاربهِ تلك يستخرج للناس المعارف الدقيقة الاولى عن صفات غاز الامونيا النقي — الذي استعمل في العصر الحديث في صناعة التبريد والتثليج Refrigeration . كانت الابخرة قد احاطت بهِ من كل جهة فاحسَّ بحرقة بعينيهِ ، وبدموعهِ منهمرة ، وشمّ سكان الدار رائحتها الحريفة ، فغادروا المنزل الى الخلاء . ولكن ذلك لم يزعجهُ . ثم جمع بين غاز الامونيا وغاز كلوريد الايدروجين فدهش لما رأى غيمة رمادية قد تكونت من التقاء الغازين ثم جعلت ترسب مسحوقاً ناعماً ابيض اللون . هنا تفاعل كيماوي عنيف . فالغازان الحريفان قد اتحدا فولدا مسحوقاً ابيض هو كلوريد الامونيا المستعمل في البطريات الكهربائية الجافة

كذلك اتيح للقس بريستلي ، ان ينفح العلم ، في خلال بضع سنوات بطائفة من المكتشفات الخطيرة . وهذا شجعهُ على انفاق كلّ ما يستطيع انفاقهُ من الوقت في معملهِ المرتجل . فآيات الكيمياء ملكت لبّـهُ واذ مضى في التبشير بكلمة الله ، أخذت دوائر العلم تتسقط انباء القس الكيماوي . وما لبث حتى دعي الى مرافقة الرائد كوك المشهور في رحلتهِ الى البحار الجنوبية فأغرتهُ الدعوة وكان على وشك القبول ، اذ اعترض على ضمهِ الى البعثة قسٌّ آخر ، لاختلافهما في الآراء الدينية ، فتخلف بريستلي واتمّ التجربة العظيمة التي اسبغت على اسمهُ ذكراً خالداً

التجربة الكبرى

كان بريستلي في خلال تجاربه المختلفة بالغازات قد اصبح بارعاً في تحضيرها وجمعها .فقد كان الباحثون قبله يحاولون جمع الغازات بعد تحضيرها في اكياس شبيهة بكيس البلون.وكانت هذه الطريقة صعبة التناول عقيمة لان مادة الكيس كانت غير شفافة فلا يستطيع الباحث ان يرى بعينه ما يحدث داخل الكيس.أما بريستلي فاستنبط الطرق المستعملة الآن.اخذ زجاجة ذات فتحة واسعة وملأها زئبقاً ثم قلبها غامساً فتحتها في حوض من الزئبق . ثم وصل بين مولد الغاز والزجاجة بانبوب حتى اذا تولد الغاز انتقل في الانبوب ودخل منهُ في فتحة الزجاجة وتجمّع فيها فوق مستوى الزئبق . فاذا كان الغاز لا ينحلُّ في الماءِ ،استبدل بالزئبق ماءً . ففي هذه الناحية من البحث ابدع بريستلي اسلوباً جديداً

وكان بريستلي قد أحمى طائفة منوعةً من الجوامد في لهب اتّونهِ. فحاول بعد ما تقدّم أن يحميها بجمع اشعة الشمس عليها بواسطة عدسة محدّبة .وكان قد جرّب هذه الطريقة فتمكن من حرق الخشب بها . فابتاع عدسة محدبة قطرها قدم وأخذ يستعملها في صبِّ اشعة الشمس بواسطتها على جوامد مختلفة . فكان يضع الجسم الذي يريد توجيه الشمس اليهِ في ناقوس من الزجاج والعدسة خارجه لجمع اشعة الشمس عليهِ. ثم وصل بين الناقوس الذي يتضمن الجسم وزجاجة مصنوعة على طريقتهِ لجمع الغاز ،كما تقدم ، بانبوب ،حتى اذا خرج من الجسم الصلب غاز ما تمكن من جمعهِ ودرس خواصهِ

بهذه الطريقة المبتدعة حاول في يوم اول اغسطس (كان يوم احد) سنة ١٧٧٤ أن يستخرج الهواء من مركب يعرف بـ Mercurus Calcinatus Per se وهو مسحوق أحمر كان معروفاً لجابر بن حيان ،باحمائهِ في الهواء فلم يلبث حتى وجد ان الهواء يخرج منهُ بسهولة

ولكن ذلك لم يكن أمراً عجيباً . فالباحثون كانوا قد سبقوهُ الى استخراج الغازات من الجوامد — إك في سلزباخ بالمانيا قبل ٣٠٠ سنة واسطفان هالز الهولندي وروبرت بويل الانكليزي وشيل السويدي — وكلهم كانوا قد سبقوهُ الى استخراج الغازات من الجوامد باحمائها. ولكن بريستلي في عملهِ هذا كان يختلف عن اولئك الروّاد !

كان على مقربة من بريستلي في معمله شمعة مضاءة . فلما تجمع لديهِ قليل من الغاز سأل نفسهُ : « ترى اي اثرٍ لهذا الغاز في لهيب الشمعة ؟ » وللاجابة عنهُ اخذ الشمعة ووضعها داخل الناقوس الزجاجي الذي يحتوي على الغاز . فلم تنطفىء الشمعة . بل على الضد من ذلك تألقت ولمعت . فسرَّ بما رأى ولكنهُ تحيَّر في تعليلهِ . وأخذ جمرةً من الفحم ووضعها في الناقوس فرآها تتطاير شرراً . وبعد قليل رأى الجمرة قد تلاشت ،فدهش . ثم اخذ سلكاً

من الحديد وأحماه حتى درجة الحمرة وأدخله في الناقوس فتألق السلك كأن به روحاً تنفخ فيهِ. فكاد لدهشته لا يدري انائم هو او مستيقظ

ان ادخال تلك الشمعة المضاءة في ناقوس الغاز ، كان ايذاناً بانقلاب عظيم في علم الكيمياء. ولكن پريستلي حينئذٍ ماكان يدري طبيعة « الهواء » الذي اخرج من ملح الذئبق . وكان من اتباع مذهب « الفلوجستن » فحسب ان ذلك « الهواء » ليس الاّ مركباً من الفلوجستن والتراب والحامض النتريك — ولكن ذلك « الهواء » كان غاز عنصر الاكسجين ، الذي لا مندوحة عنهُ لكل حيٍّ على سطح الارض

كان الهواء الذي نتنفسهُ ، في رأي علماء ذلك العصر ، مادة بسيطة ، او عنصراً من العناصر ، كالذهب والذئبق . وكان پريستلي قد تخيَّل ان البراكين قد ولّدت الهواء بنفثها غازات كانت قابلة للالتهاب في البدء ثمَّ فقدت قابليتها للالتهاب بفعل الماء ثم تنقت وتصفّت بفعل النباتات . وخلص من ذلك الى القول بأن عالم النبات هو وسيلة الطبيعة لتنقية الهواء. ذلك انهُ اذا وضعت نباتاً في غرفة مقفلة فسد جوّها بتنفس الحيوان والانسان او باضاءة شموع فيها ولا يلبث هواء الغرفة حتى يصبح صالحاً للتنفس . وعلل هذه المشاهدة الصائبة بقوله ان الفلوجستن اذا اضيف الى الهواء باضاءة الشمعة او بتنفس الحيوان امتصتهُ النباتات فتنقى الهواء . على ان الطبيب دانيال رذرفورد ، الذي كان يشغل منصب استاذ النبات في جامعة ادنبره ، في ذلك العصر ، اكتشف مادتين من مواد الهواء وتمكن من ان يستخرج من الهواء مقداراً من الحامض الكربونيك ، بجعل ماء الجير ان يمتصهُ فتحول من ماءٍ صاف الى سائل لبني — والتعليل الكيمائي لذلك ان اكسيد الكربون الثاني يتحد بالجير فيولد كربونات الجير وهي راسب ابيض ناعم يجعل السائل لبنيًّا — ثم وضع حيواناً في غرفة محكمة القفل وجعله يتنفس فيها بعد استخراج اكسيد الكربون الثاني منهُ ، فوجد ان ما يبقى من الهواء نحو اربعة اخماسهِ وهو غاز لا فعل كيمائي له . هذا الغاز اطلق عليهِ شابتال Chaptal اسم نتروجين لوجوده في النترات . وكان بريستلي قد قرأ عن هذه التجارب فاحمى قطعة من الرصاص في الهواء وجلس يراقبها وهي تحمرُّ رويداً رويداً فتحوّلت الى مسحوق احمر فعالجهُ كما عالج ملح الزئبق من قبل . فقفز فرحاً اذ بدت له النتيجة . ذلك ان الغاز الذي خرج من ملح الزئبق خرج كذلك من ملح الرصاص . فتأكد الظن الذي كان يخالجهُ وهو ان هذا الغاز — الاكسجين كما دعي بعدئذ — الذي خرج من الملحين انما جاء اولاً من الهواء

الاكسجين والحياة

وفي ٨ مارس سنة ١٧٧٥ بدأ هذا القسُّ الحرُّ المفتون بالبحث العلمي تجربة غريبة في قصر لورد شلبرن Shelburne في بوود Bowood : كان في الليلة السابقة قد نصب للفئران افخاخاً

يستطيع ان يستخرجها منها حيّة . ولكن اي شأن لمعلم العقول ومهذّب النفوس بالفئران !
انهُ يرى فيها جلاء السرّ الغامض الذي يحيّر لبّهُ . ثم اخذ وعائين زجاجيين متماثلين ووضع في احدهما الغاز الخارج من الزئبق والرصاص — الاكسجين — وفي الاخرى الهواء العادي ثم وضعهما في انائين من الماء بحيث يغمر الماء حافتيهما السفليين. وفي اليوم التالي امسك باحد الفئران من عنقهِ وادخلهُ في الوعاء المحتوي على الهواء ووضعهُ على منصةٍ مرتفعة فوق الماء حتى لا يغرق . واخذ فأراً آخر ووضعهُ بالطريقة نفسها في الوعاء المحتوي على الاكسجين

وجلس بريستلي على كرسي امام الوعائين ، يعزف بالمزمار وهو يراقب الفأرين في داخل الوعائين من دون ان يعلم الى متى يدوم انتظاره . ولكنهُ وقف عن العزف فجأة اذ رأى الفأر الذي في الوعاء المحتوي على الهواء قد بدا عليهِ الضعف والاعياء. فرمى المزمار جانباً واخذ ساعتهُ بيدهِ فلم يمضِ ربع ساعة حتى سكن الفأر بعد ما فقد الشعور . فاسرع بريستلي واخرجهُ من الوعاء ولكن الامر كان قدقضي وانطفأت شعلة الحياة في الفأر . فالتفت حينئذٍ الى الفأر الآخر في الوعاء المحتوي على الاكسجين . فاذا هو لا يزال يتحرّك تحركاً طبيعيًّا وليس يبدو عليهِ اي امارة من امائر الاعياء . ومضت عشر دقائق وبريستلي يلازمهُ بنظرهِ . لقد بدت علامات الضعف عليهِ ، فهو خامل بطيء الحركة . فيسرع اليهِ بريستلي ويخرجهُ منه وهو يحسبهُ ميتاً . ولكن قلبهُ لا يزال ينبض نبضاً ضعيفاً . فيقربهُ من النار ليدفيء جسمه البارد فلا تنقضي بضع دقائق حتى تعود الحياة تدبّ في عروقهِ . فيطير بريستلي فرحاً ودهشة . فالفأر الثاني قضى في الوعاء نصف ساعةٍ قبلما بدت عليهِ اعراض الاعياء في حين ان الاول مات في نحو ربع ساعة

ما تعليل ذلك ، فهل الاكسجين انقى من الهواء العاديّ ، او هل يحتوي الهواء العاديّ على مادة قاتلة للحياة . او لعلّ ما حدث اتفاق لا يجوز الحكم عليهِ ؟ لم يغمض لبريستلي في تلك الليلة جفنٌ ، وهو يفكر في مسألة الفأرين والاكسجين . وخلص الى وجوب اعادة التجارب ليتثبت من صحة ما رأى وانهُ عام شامل للفئران جميعاً . وهذه التجارب أقنعتهُ بنقاء الاكسجين وفائدتهِ . ولو شاء لوقف في تجاربهِ عند هذا الحدّ . ولكنهُ كان عالماً مطبوعاً فعزم ان يجري التجربة نفسها عليهِ . فاستنشق قليلاً من الاكسجين فاحسّ ان تنفسهُ خفيف . قال : شعرت ان تنفسي ظلّ خفيفاً برهة بعد التجربة . ومن يدري ان هذا الهواء النقيّ لا يصبح في المستقبل من المواد الكمالية المطلوبة فلم يجرّبهُ حتى الآن احد غيري وغير الفئران» . كذلك رأى بريستلي حينئذٍ بعين الخيال استعمال هذا « الهواء النقيّ » قال : « وقد يثبت ان الرئتين تحتاجان اليهِ في بعض الامراض » ونحن نعلم الآن ان الاكسجين يستعمل في اصابات النزلة الصدرية اذ يحتقن جانب من الرئتين ويصبح ما بقيَ منها سليماً، غير

كاف لحاجة التنفس . ثم ان رجال مكافحة الحريق حيث تكثر الغازات الخانقة وطوائف رجال الانقاذ الذين يدخلون المناجم ، والطيارين الذين يحلقون الى مرتفعات قصية ، يحملون اسطوانات تحتوي على غاز الاكسجين لاستعماله لدى الحاجة اليهِ

رأى بريستلي هذا قبل قرن ونصف قرن . ولكنهُ رأى كذلك ان استعمال الاكسجين بدلاً من الهواءِ ، من دون ضابط قد يفضي الى الخطر قال ، ما معناهُ : كما تحترق الشمعة في الاكسجين اسرع مما تحترق في الهواءِ كذلك اذا تنشقنا الاكسجين بدلاً من الهواء فقد تنقضي حياتنا اسرع مما تنقضي لو تنشقنا الهواءَ وحدهُ

ومضى المكتشف في امتحان نقاوة الغاز الذي اكتشفهُ .فخطر لهُ في اثناءِ ذلك خاطر عمليٌّ اذ رأى في استعمال الاكسجين وسيلة لزيادة قوة النار بجعل الوقود تشتعل بالاكسجين بدلاً من ان تشتعل بالهواءِ .وجرّب هذه التجربة بشهد من صديقه مجلاّن سايل الرائد المشهور . اذ اخذ كيساً من الرقّ وملأهُ اكسجيناً ثم جعل يضغط على الكيس فيخرج الاكسجين من فتحته ويهبُّ فوق قطعة مشتعلة من الخشب . فيتحول لهيبها الضئيل الى لهيب متأجج . في هذه التجربة جرثومة الاستنباط الحديث الذي يستعمل في لحام الفلزات . وفي هذا السبيل فقط يستعمل الف مليون قدم مكعبة من الاكسجين كلَّ سنة

***

كان لورد شلبورن قد منح بريستلي معاشاً سنويًّا قدره ٢٥٠ جنيهاً وبيتاً صيفيًّا في كالن وآخر شتويًّا في لندن على ان يبقى ملازماً لهُ مديراً لمكتبه ورفيقاً ادبيًّا لهُ . ودامت هذه الصلة ثماني سنوات اتمّ بريستلي في خلالها اهم تجاربهِ . فلما سافر لورد شلبورن لزيارة بلدان اوربا صحبه بريستلي وفي باريس عرّفهُ مجلان بلاڤوازيه اشهر كيماويي فرنسا . وفي معمل لاڤوازيه بسط بريستلي امام جماعة من الفلاسفة الطبيعيين اشهر النتائج التي وصل اليها . واذ كان يتناول طعام العشاء مع لاڤوازيه لم يخفِ شيئاً عنهُ وهو لا يدري حينئذ الى اي انقلاب في الكيمياء سوف تفضي هذه الحقائق على يد مضيفهِ . فاصغى لاڤوازيه الى كل كلمة قالها ولما خرج الانكليزي اسرع الفرنسي الى معملهِ ، واشعل ناره واعاد تجارب القسيس العالِم

كان الصينيون قد ذكروا شيئاً في الهواء يدعى « ين » يتحد بالكبريت وبعض الفلزات وكان ليوناردو ده ڤنشي ذلك العبقري الايطالي المتعدد النواحي قد كتب في القرن الخامس عشر ان الهواءَ مركب من مادتين . ولكن بريستلي استخرج بسحر كيميائهِ الاكسجين الذي لا يرى من الهواءِ ، وبذلك كان اول من حلَّ مشكلة تركيب الهواءِ حلاً علميًّا ، واثبت وجود اكثر العناصر وجوداً في الارض وما عليها . ان مشكلة تركيب الهواءِ ، حالت دون تقدمُّ الكيمياءِ قروناً حلَّها هذا الرجل الذي يتمثل فيهِ النشاط العقلي في عصرهِ . في نظر

هذا الثائر على الكنيسة المؤيد للاحرار . كانت الكيمياء عندهُ تسلية لتمضية اوقات الفراغ. فقادتهُ هذه التسلية الى حل مشكلة من اعقد مشكلات الكيمياء والكيمياء الحديثة في مهدها

كان اكتشاف پريستلي للاكسجين حدًّا من الحدود الفاصلة في تاريخ الكيمياء

في اول اغسطس سنة ١٨٧٤ احتفل بمدينة برمنغهام بانقضاء مائة سنة على هذا الاكتشاف العظيم فازيح الستار عن تمثال بريستلي . وعلى نحو ثلاثة آلاف ميل من برمنغهام اجتمعت طائفة من الكيماويين الاميركيين في مقبرة ببلدة نورثمبرلند بولاية بنسلفانيا وارسلت برقية من هناك الى المحتفلين ببرمنغهام . ذلك ان بريستلي مات ودفن في اميركا !

هجر بلادهُ لانهُ عاد في آخر حياتهِ لا يطيق المعيشة فيها . فالصحافة كانت تكيل لهُ الطعن وبرك الخطيب والكاتب السياسي تهجَّم عليهِ في مجلس العموم لانهُ أيَّد قضية الجمهورية الفرنسية ثم جعل اصدقاؤهُ في العلم يتجنبونهُ . ففضل وهو في الستين من العمر الهجرة الى اميركا . فدخل نيويورك دخول فاتح عظيم .واستقبلهُ في مرفأها حاكم الولاية ومندوب جامعة كولومبيا . وارسلت اليهِ جمعية تاماني السياسية بعثة قال خطيبهـا في ترحيبهِ « ان اسلافنا الاكارم هجروا كما هجرتَ فراراً من اضطهاد التعصّب والاستبداد .لقد فررت من ذراع العنف الغاشمة ، من لهب التعصب ، وسوف تجد ملجأً في صدر الحرية والسلام والاميركيين ».وقد اكرمتهُ اميركا امة وافراداً فدعاهُ فرنكلن للاقامة في فيلادلفيا وطلبت اليهِ جامعة بنسلفانيا ان يتولى منصب استاذ الكيمياء فيها . ولكنهُ فضل حياة السكينة في بلدة نورثمبرلند ولم يغادرها الا ليقرأ بعض رسائله العلمية في الجمعية الاميركية الفلسفية بفيلادلفيا ويتناول الشاي مع جورج وشنطون . وفي آخر سنة ١٧٩٧ تمَّ بناء معمله الخاص بالتجارب الكيميائية وفيهِ اكتشف غاز اكسيد الكربون الاول

***

في الساعة الثامنة من يوم الاثنين في ٦ فبراير سنة ١٨٠٤ كان القس الشيخ في سريرهِ وهو يعلم ان حتفهُ قد دنا . فطلب ثلاث رسائل كان قد اشتغل باعدادها ، فاعاد النظر فيها واملى على كاتبهِ ما يريدهُ من التعديل فيها . ثم طلب اليهِ ان يعيد ما طلبهُ منهُ ففعل فتجهَّم وجههُ قليلاً وقال: «لقد كتبتَ ما امليتهُ عليك باسلوبك . وانا اريدهُ باسلوبي » ثم اعاد تعليماته كلمة كلمةً فلما قرئت عليهِ ثانية اكتفى وقال « انهيت الآن » وبعد نصف ساعة اسلم الروح

ولقد احتفل كيماويو اميركا مذ بضع سنوات بجعل دارهِ في نورثمبرلند تذكاراً دائماً لهذا الرجل العظيم .واقاموا الى جانبهِ متحفاً جمعوا فيهِ كل الادوات التي استعملها في تجاربهِ .وبينها احد الاوعية الزجاجية التي استعملها في تجربة الفئران ، فحلَّ بذلك مشكلة تركيب الهواء وكتب اسمهُ بين الخالدين من رجال الكيمياء

الصحراء

لاحمد محمد حسنين بك

افتتح المجمع المصري للثقافة العلمية مؤتمره السنوي الرابع في ١٢ مارس برآسة احمد محمد حسنين بك الرحالة المصري المشهور والامين الاول لحضرة صاحب الجلالة الملك فالقى محاضرة نفيسة في الصحراء آثرنا نشرها في ما يلي :

سادتي : طلب اليَّ ان اتكلم في بحث علمي . والبحث العلمي الوحيد الذي اظنني استطيع أن أتكلم فيهِ هو الصحراء . لكن الجانب العلمي والفني في الصحراء ضمنتهُ كتابي ، فلا محل لاعادته .. ولما كان في قوانين هذا المجمع الموقر ان عضوه يجب ان يلقي كل سنتين محاضرة ما والاَّ فامامهُ الباب مفتوح، ولما كنت احرص غاية الحرص على بقاء عضويتي فيهِ، لذلك لم يسعني الاَّ ان اتحدث اليكم في جانب غير علمي من جوانب الصحراء: وشيء اهون من شيء على اي حال

فكرت اذن في ان اتحدث اليكم عن الناحية النفسية لرحالة اعتزم القيام برحلة صحراوية طويلة من اجل الكشف . فبينما هو يقوم برحلتهِ العلمية اذا بهِ يقوم — في وقت واحد برحلة نفسية . ولرحلة النفس كما لرحلة العلم مراحل ، وتلك هي التي احاول ان احدثكم عنها

سادتي : ان شق الصحراء شيء صعب. وكشف مجاهلها شيء اصعب. يعلم الرحالة هذا كله فلنر اذن ما هو صانع . ها هوذا في شغل شاغل يفكر ويكتب ويعمل. يفكر في النواحي الكثيرة التي تستلزمها احتياجاته العديدة، في رحلة تستغرق بضعة شهور ينقطع فيها عن هذا العالم المدني الذي نعيش فيهِ . ويدوّن كلَّ ما ينتهي اليهِ من المعارف عن جانب مجهول من جوانب الصحراء . ثم يأخذ في جمع ما يعوزهُ من زاد وشراب ومتاع . وهو حاضر الذهن . يقدر لكل شيء سببهُ . فهو يحرص على ان تكون عدته جميعاً في نحو بسيط ، كثير النفع ، هين الحمل . يجمع طعامه ، الضروري منهُ والكمالي، لا يفوتهُ ان يختزن حتى بضعة صناديق من الحلوى . فتلك الكماليات الشهية لا يستطيع ان يجدها في الصحراء . فاذا توفرت له كانت سبباً من اسباب رغده . يجمع عناصر فنه : أدوات الهندسة والمقاييس والرصد والحساب. تلكم العناصر العلمية التي يعتمد في نجاحه على متانة بنائها ، ودقة ادائها لوظائفها . يعد الماء الكثير . ينتقي الابل الشداد . يختار الرجال البواسل ، ولاسيما الدليل ، فهو مصباح القافلة . يمتحن الخيام

المريحة . ما اشده زهواً بخيمتهِ الظريفة.هي بيت العلم والقوة والفن . يهيء ادوات الدفاع عن النفس ، وصد غارة المغيرين . فهذه بنادق صائبة المرمى . ومسدسات دقيقة الصنع . وهذا رصاص يأكل الاحشاء . وهذه سيوف قاطعة لوامع وخناجر تخرق الصخر . يضيف الى ذلك كله ما يعوزه من الادوية الناجعة ، التي يسهل استعمالها ويصدق اثرها ، ولا سيما ما يختص منها بامراض المناطق الحارة ، وما يشكو منهُ اهل الصحراء

ترون الآن ان رحالتنا اعدَّ عدَّتهُ جميعاً . وها نحن اولاء نراه يتخيل ويخال . يستعرض في ذهنهِ صوراً حساناً . فساعة يرى صورة تلك القافلة الزاخرة ، وهي تشقّ سبيلها الرملي ، فتانة المظهر ، متزنة الخطى ، يعابث نسيم الصحراء الراقص ما زينها من رحال دقت جلودها ونسيج رق حريره . وساعة يرى صورة « معسكره » وقد استقرَّ بهِ النوى .فضربت خيامه، ومرح رجاله ،وهو تحت سماء خيمته البديعة يكتب مذكراته ، او يفكر في غده ، او ينعم مما حمل بما لذ وطاب ، او يتحكم في الزمن بين ساعاته العديدة التي بين يديه. يا لهُ من حلم سحري. انهُ ينفق غاية ما يستطيع من جهد ليستكمل عظمة هذا الخيال الذهبي . لتكون قافلته مثلاً اعلى لغيرها من القوافل . وليكون هو مثلاً اعلى لسواه من المستكشفين . ولم لا يصح ذلك وقد تزود من المادة بخير زاد واصلحه . لقد استقرَّ سلاحه المادي في يمينهِ ، فليأتين النجاح اذن عن شماله . أليس هذا منطقاً . كل شيء قد كمل وحسن . اما الطعام، فقد تزوَّد منهُ بقدر كثير . اما الماء فقد ملأ بهِ قرباً متينة عدة ، لن تنزّ منها قطرة ماء . اما الدليل ، فقد وفق الى رائد بدوي امين ، يقظ كالصقر ، خبير بالبيد كالحمامة ، لا تخطيء الى صاحبها السبيل . اما الابل فصفها الطويل منتظم ، تتسمع اذن المسير فتسير . اما الرجال ، فطائعون ، دماؤهم ملك لسيدهم وفداء . اما خيامه فرحبة ، مزودة باسباب الراحة . اذا نصبت في الصحراء ، فهي راسخة كالجبل لا ينال منها عصف الرياح . اما آلاته التي يعرف بها اسرار السماء والارض فهي خير نتاج الذهن البشري في القرن العشرين . لم يعد يعوزهُ اذن شيء . لقد حرص رحالتنا على ان يحمل معهُ حتى لباس بدوي انيق . كم اتعبهُ التأنق فيهِ . لقد صنعهُ من الحرير الاخاذ .طرزه ابدع تطريز . وشاه باجمل وشي اختار لهُ خنجراً فضيًّا . يفتن بني الصحراء . كان يتزين بهذا اللباس اذا اختلى بنفسه وكان يغدو فيهِ امام المرآة ويروح.هذا هو المظهر الذي يطالع به رؤساء القبائل.ولسوف يأتونهُ ساجدين.فهو كيّس، يجيد فن السياسة.ولقد حمل معهُ عدة كتب توصية الى مشايخ القبائل ورؤساء العشائر،فهو من هذه الناحية يستطيع ان يجذبهم اليهِ ويغريهم بمبايعته سيداً مطاعاً على اهل الصحراء اجمعين . فاذا لم تجدِ السياسة ، ولا حسن القول ولا كتب التوصية فما اهون عليهِ ان يستعبدهم قسراً ، فهو يلقي في قلوبهم الرعب بما جمع من سلاح . او ليس يحمل من السلاح ما يجهلون . وما لا يستطيعون ان يأتوا بمثله اليس

معه جنده وهم اشداء . او ليس هو ايضاً شجاعاً مقداماً . لقد امن واطمأن . اذا أصابهُ ضر عرف كيف يدفعهُ ، او مسهُ شر استطاع ان ينجو منهُ . والضر والشر لن يعرفا اليه سبيلاً ، فهو يقظ حريص يقدّر لرجله قبل الخطو موضعهـا . لم يعد اذن في الصحراء ما يخشـاهُ . تلاحظون في رحالتـكم الآن ثلاثة جوانب نفسية غلبتهُ وتمكنت منهُ

اولاً — ايمانه المطلق بقوة المادة

ثانياً — حرصه على ان يستعين بهذه القوة قدر ما يستطيع

ثالثاً — ضمانه النجاح العظيم من هذه الطريق

وهكذا ترون ان صاحبكم يحاول ان يفنى في سلطان المادة ، او ان يفني سلطان المادة فيه. فالمادة شغله وهمه . مازج اثرها تفكيره . هفا لها قلبه . انتعشت بها نفسه . تأثر بالمادة كل شيء فيه . تأثرت حتى مشاعره وحواسه . تأثرت حتى هواجسه وخواطره . تأثر حتى ذوقه ومزاجه . فبدا مظهر هذا الاثر جليـّا في كل خطوة من خطواته ، وشارة من شاراته ، وكلمة من كلماته . هيمنت المادة على ذاته المعنوية جميعاً . ما الصحراء سوى شيء مادي . فلن يكون غزوها بغير سلاح مادي . ولقد اختار لهذا الغزو سلاحاً ماضياً ، يغري شكله بالوثوب ، ومقبضهُ بالطعن ، وحدّه بوجوب النصر المبين. ما اروع ان يكون اذن فوق بسيط الرمل. تمّ كل شيء. لقد أصبح رب البيد ، وسيد الصحراء

ما اشد رحالتكم زهواً بنفسه . لقد تجمع رجاله حوله خاشعين . وها هو ذا يأخذ بالقلم ، وينعم النظر في خريطة صامتة بيضاء . تترجم في صمتها وبياضها عن تلك الناحية المجهولة التي لم تطأها قدم انسان بعد . على هذه الخريطة يرسم الرحالة خط سيره ، بيد مطمئنة ثابتة . ماذا في نفس الرحالة . انه يهزأ بما اصاب زملاءه السابقين من فشل . اما هو فناجح من غير شك. أتستطيع الصحراء بعد اعداد هذه العدة كلها ان تعترض سبيله . او تجرؤ البيد ان تناهض المادة من جانب ، والعزم والعلم من جانب آخر ؟ الا ليت الصحراء تعقل ؟ اذن لعلمت ان هذا الرائد الجبار قد اعتزم واحدة من اثنتين . اما ان يذلها ويدرك غايته ، وأما ان يجود لها بنفسه ، فيخولها بذلك نعمة التساعها لعظامه ، ونخر قبولها اياه هدية خالدة . وفي ذلك شرف للصحراء عظيم

في هذه المظاهرة النفسية المتصلفة ، ، وعن هذه العوامل الباطنية الوثابة ، يرسم الرحالة خط طوافه ، وهو مأخوذ بنشوة نصر لا ريب فيه

سادتي: رحالتكم الآن في بداية الطريق ، ما اروع المنظر وابهجه . انه يرى بين يديه شيئاً عجباً. يرى تلك القافلة التي كانت منذ أسابيع حلماً ذهبيـّاً ، اصبحت اليوم امراً واقعيـّاً . قافلة زاخرة ، تسعى الى غاية ، وتمشي على هدى. كل شيء وفق المنهج الذي رسمه . السير هين . والرمل لين. والصحراء مهاد . والابل تخبُّ آمنة . وأحمالها في حرز مكين . ورجاله يطيعونه طاعة المولى

لسيده . اليس له اذن ان يشمخ بانفه ، كأنه خرق الارض او بلغ الجبال طولاً

الا ما اجمل الصحراء . وأنعم ملمسها . ما أيسر مسحها . ما ألذ اللعب عليها . ذات الغلائل اللانهائية الصفراء

انها صبية طيّعة . ظبية الوف . فرعها من ورد . جيدها من ذهب . جبينها من نور . النظرة اليها تسبي العينين . المشي عليها يأخذ بالألباب . حياتها موسيقى وشعر . سماؤها اغان وأحلام . الاقامة فيها كالاقامة في روضة غناء . راضية قنوع . لا تردُّ قاصداً . لا تخيب ظنّاً . ان صددت اقبلت . وان أقبلت لانت . ضعيفة ذات خفر . في صوتها حنان . في رقتها لذة . في ملاحتها فتنة . في اغرائها خمرة تسكر العاشقين

هذه اذن هي الصحراء . فلئن لم يجئه النجاح يسعى فلينتزعنَّهُ من مخبئه انتزاعاً

وهكذا يقوى اعتزاز رحالتكم بالمادة ، ويشتد شعوره بنفسه ، وينمو يقينه في الصحراء . انه ليسير كل يوم بضع ساعات في جو مرح . ولذلك فهو مستبشر طروب

أتمّ رحالتنا مرحلته الاولى . وقد بدأ الآن يغشى « السريرة » . والسريرة هي ذلك الشيء المجهول ذو السر الدفين . انه اصطلاح البدو على كل مدى منبسط بين بئر وبئر . وقدره غالباً من خمسة وستة ايام الى اثني عشر يوماً او تزيد . فذ يأخذ الرحالة في رود هـذه المنطقة الموحشة يأخذ في اجتياز مرحلته الثانية . يقضي صاحبنا اول يوم من أيام هذه المرحلة . هو يوم مشهود . يوم حافل سعيد . بلغ فيه الزهو بنفسه غايته . هو في ضحى هذا اليوم اشد خيلاء بنفسه من قبل . اذ انقطعت صلته بالعالم الخارجي . واستهلّ الشوط الهام من رحلته . ذلك الشوط المجهول الذي لم يسبقه اليه احد . القافلة تسير هانئة . ورحالتنا منشرح الصدر . لقد آمن بيسر الصحراء . فهو يتكبر ويتغنى . فبين يديه مادة قوية غلابة . وتحت قدميه مركب مهين ذلول . اترون الآن اليه وهو يسخر . هذي هي البيد التي وصفوها بانها طاغية . هذي هي الرمال التي زعموا انها آبار الموت . هذي هي الصحراء التي قالوا انها شائكة السبل . ما افكه طوافها . انها مغان ، ومراقص ، ورياض انس ولهو وجمال

فاذا انتهى صاحبنا من سخره بالصحراء بدأ يفكر في شأن رواد الصحراء . فكرة تهتف بفكرة . وخاطر ينادي خاطراً . امتلأ رأسه بالخواطر ، وفاض بالافكار . هو مشغول بأمر زملائه الفاشلين . يلذّ له كثيراً ان يذكرهم ، ويستعرض سيرهم ، ويحاول ان يقضي فيهم قضاء الحق . انهم من قبل ومن بعد ، عجزة ضعاف . انهم ، اولاً وآخراً ، ضحايا العجز والضعف . فاذا انتهى بهم الى هذا الحظ التعس . وقضى فيهم ذلك القضاء الاليم ، شعر بشيء من راحة النفس ، ونمت عيناه بشيءٍ من العجب . صحيح انه يرثي لهم . لكنه في شعوره بذلك يملكه شعور آخر اشدُّ منه عنفاً ، ذلك هو شعور الدلّ والتجني . ولعل هذا الشعور الآن هو

مبعث تلك الابتسامة الراقصة على شفتيه . هي ابتسامة سخر ، فيها تيه ، وفيها اعتداد كبير بالنفس . غير انه لزام عليه — على اي حال — ان يستخلص من هذه النواحي جميعاً نتيجة، يرتب لها أثرها بنفسه ومنطقه ، كما مهد لها اسبابها بنفسه ومنطقه . وها هو ذا يذهب، كأنه متشرع الى ان يقرر ان طريق الفشل وأثره ، انما سرُّهما في ضعف المادة، او في عدم استكمال عدتها كما يجب ان تستكمل لرحلة الصحراء. فلئن ضلّ في الصحراء جوّاب، او فشل مستكشف، فذلك فقط لقلة خبرته بزاد طوافها المادي. ولئن كان اولئك الجوّابون الضالّون، والمستكشفون الفاشلون ، قد تزودوا بمثل زاده، لما ضلّ ممن ضلّ احد ، او فشل ممن فشل احد

قضى صاحبكم ست ساعات وهو يسير . ما زال يجد نفسه حتى لكأنّ هذا الفضاء على رحبه يكاد لا يسعه ، وكأن الارض لا تحمل سواه . وقد اعتزم ان يسير اليوم كله على قدميه، ليلقي بذلك على رجاله درساً مجيداً في الصبر والجلد ، وما الى ذلك من صفات البطولة . غير ان مفاجأة لم يكن ليحسب لها حساباً قد حولته من طريق الى طريق . فعبثاً حاول ان يمضي في السير على قدميه . فقد اوجعهما النعل البدوي . ذلك النعل الخشن الذي لم يألفه من قبل. تسرَّب الى نفسه شيء من الضيق . فقد ادمى النعل قدميه . او اصابتهما منه ثغور . ليمتطِ اذن جمله . بدأ يتأفف . لا يلبث بعد حين ان يملّ ظهر الجمل . ما اقبح المطيّ . احبُّ اليه ان يسير على قدميه الداميتين من ان يظل فوق جمل بطيء يمشي بسرعة اربعة كيلو مترات في الساعة . يجيء وقت الغداء . فيكون غداؤه البلح الجاف ، كالحشف البالي . لا طهي اذن ولا شواء اذ لا سبيل الى ذلك والركب يسير . ثم انهُ من تقاليد القافلة ان ناسها جميعاً يأكلون صنفاً واحداً ، لا فرق فيهم بين سيد ومسود او كبير وصغير . البلح الجاف اذن ، هو طعامه السائغ الشهي . يندُّ جمل فيختلُّ نظام القافلة ، وتصعب اعادتها الى سيرتها الاولى . تندُّ جمال أخر فتقذف ما عليها ويسوء الامر . فمن صناديق تتهشم ، الى زاد يتلف ، الى جهد كبير ينفق في سبيل لم الشعث من جديد . يتخابط جملان، فتصطك القرب بعضها ببعض. تتمزق جلودها. ويضيع من الماء شيء كثير . وهو اعزُّ ما يحرص عليه من زاد. يمر غمام ويحجب نور الشمس، فيسقط في يد الدليل. نرى رحالتنا لا ييأس لهذه المظاهر . قلّ ابتسامه ، وساد الركب سكون، لكن هذا كله شيء يصح ان يحتمل . هو مناوشة من الصحراء بسيطة فليتفلسف الرحالة ، وليحاول ان يتقبل هذه المناوشة بقبول حسن

تفجأه عاصفة . مناوشة اخرى . ولكن ماذا تستطيع العاصفة ان تفعل . انها تفكك وحدة الركب ، وتعوق السير ، وتعطل ادوات فنه ، وتتعب رجاله ، وتنال من ابله : هذا كل ما تستطيع العاصفة ان تفعل . وهذا كله يمكن ان يعالج . صحيح انهُ امر سيء ، غير انهُ ميسور على اي حال في سبيل المجد اليست تكاليف العلا شاقة متعبة

الم تر ان المجد تلقاك دونهُ شدائد من امثالها وجب الرعب

ولئن جابهتهُ الصحراء بتلك المشقات الشداد فهو اهل لمقاومتها ، والاستظهار عليها

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والاقدام قتال

وانّى لهذه الصعاب ان تنال من نفسه وقد هيأها لانتزاع المجد وان استعصى سبيله وعزّ مهره

ذريني انل ما لا ينال من العلا فسهل العلا في السهل والصعب في الصعب

نرى رحالتنا يكثر من الفلسفة .هو في نزاع بين قلبه وعقله .وهو من أثر هذا النزاع غير مستقرٍّ .فساعة يحس قلبهُ شرّاً ، وساعة يقدر عقله خيراً .ولذلك فهو حيناً قلق،وحيناً مطمئن

يلقي الرحالة عصاه . فتزأر بهِ عاصفة من جديد . عاصفة تملأُ الفضاء ، زاحفة كانما تريد ان تنسف الارض ومن عليها . صوتها يشيب الولدان كانهُ صوت الفناء . ماذا تفعل العاصفة في هذه المرة . . تقوض خيامه ، تهشم بعض ادواته العزيزة التي يعرف بها اسرار السماء . اما ابله ، فقد نفق اقواها، وهو لا يدري لهذا سبباً . اما ماؤه فقد ذهب اكثره ، لامور لم تكن في الحسبان . أما دليله وليد البيد ، ابن الصحراء ، العليم بأسرارها ، الخبير بمسالكها، مصباح القافلة ، ذراع الرحالة الايمن ، أما دليلهُ هذا : فقد جحظت عيناه . ملأه الهلع .ليس امامه سوى الفسيح الموحش الرملي .ليس امامه علم يهديه ، ولا صوى يسترشد بها في طريقه. اذا قيل له اين نحن . . هز كتفيه ، وقال بصوت محتبس ، « الله اعلم » .واذا قيل له الى اين اشاح بوجههِ : وقال في لهجة حيرى « الله اعلم». فكاهة في الحق غير مناسبة

رب عاصفة يقل عمرها عن ثلث ساعة ، تسقط على رأسهِ خيمته الظريفة ، فتحطمها وتكاد ان تحطمه . رب ميل قليل عن خط سيره ينتهي به الى فاجعة اليمة . قد يخونه رجاله فيتمردون عليهِ ، او يأتمرون به ، فيسوء المصير

قد لا تتألب عليه هذه النوائب جميعاً في يوم واحد . ولكنهُ على اي حال هدف شرها بين يوم ويوم ، او اسبوع واسبوع . والآن فاين رحالتنا . واين عدده . اما هو فتعبث به اكفُّ الصحراء . واما هي فقد ذابت بين يديه . كل شيء نذير شؤم .في عواء الريح وعيد بسوء المآب . في صفير العاصفة صور متباينة للردى . فهو كيفما ادار لحاظه لا يجد امامه الاّ الموت او الفشل وليس له معدى عن مجابهة احدها . اما الموت فباسط يده ، يريد ان يختطفه ، او فاغر فاه ، يريد ان يبتلعه . واما الفشل فصخرة عبوس، تحطمت عليها مطامعه ، مسخ ساخر يمثل له عودته مطرق الرأس ، يحاول ان يتجنب الناس او يتجنبه الناس . مسخ ساخر يمثل له الشماتة به ، او الضحك منه ، او العطف عليه ... شياطين الموت ترقص حوله . اشباح الفشل تسعى اليه . الموت او الفشل ... ليختر اذن منهما ما يشاء . وهما أمران احلاهما مرٌّ . وطريقان اهونهما جمر . وقد يكون الموت احلى الامرين مذاقاً . وقد يكون الجمر ابهج الطريقين سبيلا

مع هذا فما موقفه من ذلك الموت الذي يطالعه الآن . لقد صح منه العزم حين حاول شقَّ الصحراء على ان يهب لها حياته اذا عز النصر عليه . كان ينتابه في احلامه الذهبية بين حين وحين حلمٌ بعيد — هو حلم الموت . وهو حلم وان ساءت طلعته ومرَّ طعمه ، فهو في الواقع عذب مستساغ . لانه اولاً وآخراً في سبيل المجد والعلا . اما الآن فلم يعد ذلك الجوَّاد الذي يهب نفسه عن طيب خاطر ، ولكنه اصبح ذلك الذليل الذي تنتزع منه حياته عنوة وقسراً

ومهما يكن من شأن موقفه هذا ، فانهُ ليس سوى موقف المستضعف الجزع ، يتحايل على الموت ، ويضنُّ بحياته على الصحراء . وشتان بين موقفه هذا وموقفه بالامس القريب — حين كان يستهين باخطار الصحراء وحياته جميعاً

لكن شيئاً واحداً هو الذي يشغله الآن . كيف صحَّ ذلك كله . أليس اولئك رجاله . أليس هذا دليله . أليست هذه عدده . أليست هذه ابله . أليس هذا علمه . أليس هذا سلاحه . أليس هو هو . أليست هذه جميعاً أسباب جهاده . ما الذي كان ينقصه . أليس قد استكمل عدد الجهاد كلها . كذب ظنه . خاب تقديره . فكأنما كل عدة من عدده قد انقلبت سلاحاً صوِّب الى صدره . وكأن كل مادة من مواده قد اصبحت ثعباناً يتلوَّى حوله

هنا يجلس رحالتكم «المقدام الباسل» الغني بعدته وزاده ، القوي بعادته وبأسه ، المستعين بعلمه وفنه ، يجلس رحالتكم الآن وقد تمزقت ثيابه ، واغبرَّ لونه ، وساء امره ، وذهب الاسى بنفسه كل مذهب . ادركته هذه المحن جميعاً فاوقعته في فخ الصحراء . كادت له الصحراء ، وبيتت له الغدر كأنها غدت ذئباً . وكأنه غدا حملاً . وقد اخذ الذئب يداعب لعبته اول الامر

أهذه هي الصحراء . . أتلك هي الغانية التي كان ينشدها . أتلك هي الغادة التي شغف بها حبًّا . أتلك هي الظبية القنوع التي كان يغنيها على قيثارة مطامعه ، فترقص له في غلائلها الصفراء رقصة الخشوع والطاعة . . ما بالها غضبت عليه واستبدَّت به

أليست هذه هي الصحراء التي كان يتشبب بها بالامس ، كما يتشبب ذو المال بغانية تلتمس نعيمها في رضاه . ما بالها اليوم تصدُّ عنهُ ، كأنها غانية السوق . تلتمس نعيمها في المال والغنى ، وكأنهُ العاشق المضنى اجهده الفقر

أليست هذه هي الرمال الذهبية التي كانت تسقيه بالامس خمر الآمال . ما بالها اليوم اصبحت في صفرتها كصفرة الحنظل ، واصبح سقياها مريراً كماء الموت

أليس هذا هو المنبسط الفسيح الذي كان يطلق فيهِ آماله ترتع وتلعب ، فتعود اليهِ حاملة آمالاً جديدة حلوة كالشهد . ما بال هذا المنبسط الفسيح صغر بهِ اليوم وضاق ، ودقَّ في صغره وضيقه حتى غدا طوقاً حديديًّا يغل رقبته ويضني حلقه الجاف

أين النجاح الذي كان يؤمن بانهُ سيجيئه يسعى ، والاَّ انتزعه من مخبئه انتزاعاً

أترون اليوم كيف يستجديه ، في ذلة وضعف ،كما يستجدي المغرم المضنى اجهده الفقر، نظرة ، أو ابتسامة ، او كلمة ، من غانية السوق ، تلك الفاتنة اللعوب التي لا تلتمس نعيمها الاّ في المال والغنى . أين الفوز والنصر اللذان كان يؤمن بانهما في قبضة يده والاّ اغتصبهما من يد الصحراء اينما وكيفما يشاء.أترون اليوم كيف يسألهما الصحراء، يسألها يداً قاسية باطشة ، تحطم من آماله وكبريائه اينما وكيفما تشاء

أين ورد المطامع .أين أقواس النصر أين سحب المجد .أين العود المظفر .أين هتاف المجامع العامية ان ذلك الحلم الشعري قد انحدر من فوق كتفي رحالتنا وتجلى لهُ اليوم فقط انهُ قبضة من الهشيم

***

سادتي : ترون كيف انعكست آية المادة . انظروا الى صاحبكم . لقد هوى من سمائهِ الى مستوى عبيده مرغماً مضطراً ، مكرهاً لا بطلاً . لم يعد يثق حتى بحقهِ في اصدار الاوامر فان كانوا ما يزالون يسيغون سيادته فلربما كان ذلك فقط لجلد طبعه ، وقدرته على الاحتمال ، وما الى ذلك من صفات يضعها اهل الصحراء في المنزلة العليا من فضائل الرجال.ما اكثر خدع المدنية . قد فني بين جنبي رحالتكم ذلك الشعور الذي كان يسمعه انغام المجد كلما نظر الى ما أعد من ادوات ،واعتز بما وسع من علم ، وسحرته لذة النصر التي كان يتخيلها في سلطان المادة

ضاقت نفسه بالصحراء.ولم يضق صدر الصحراء به.انه مهموم . وفم الصحراء ضحوك . ها انصوتاً قوياً يقرع سمعه . انه سخرية الصحراء . شعور عنيف يهزه هزاً.انه اثر سلطان الصحراء

يتغير الآن شعور رحالتنا فتلمس في هذا التغير فارقاً كبيراً ، ذلك الفارق العجيب الذي يفصل بينه اليوم وهو فريسة هذا الموقف المشئوم،وبينه بالامس وهو يخطو في الصحراء خطواته الاولى . فقد اخذ يحقد على الصحراء ، ويلعن اليوم الذي وطأتها فيه قدماه . ولكن ماذا يجدي الحقد واللعنة . اليس خيراً له ان يفكر في طريق من طرق الخلاص.فليفكر اذن وليكثر من التفكير . فماذا تكون النتيجة . انه كالطير في القفص . هو سجين الرمل والرمل حارسه. وقد بدأ الليل يسدل استاره الحريرية السوداء ، وينثر في السماء نجومه الصغيرة الراقصة ، ويقطع اشواطه في هذا الفضاء اللانهائي وئيداً بطيئاً كسير القافلة . ليفكر اذن في صمت هذا الليل الرهيب فيعود بعد جهده ليسأل نفسه : ترى لو انه اتخذ عدداً اقوى مما اتخذ ، وسلك سبلاً الين مما سلك ، اما كان يمكن ان يتجنب ذلك المصير المشئوم الذي صار اليه . ولكن اكان يستطيع ان يصنع غير ما صنع . لقد استعان بأحدث اسباب العلم،وتزود بأنضج الثمرات الذهنية . ما كان يستطيع في الحق ان يصنع غير ما صنع ، وهو بعد كائن بشري ، لا تعرف المعجزة سبيلها اليه ، ولا يعرف هو سبيله اليها

على انهُ مع هذا كله يحس بعاملين عنيفين يتناوبانه . عامل العناد يأبى عليه ان يشهد

بعجزه . وعامل الجهاد يزين له المضي في المقاومة . يظل رحالتنا نهب هذين العاملين ، فما يكاد يستوحي وحيهما ويتأثر بأثرهما حتى يسمع صوتاً خفيًّا، ضحكة ماكرة من صوت الصحراء

ساء سبيلاً . كل شيء تلف او تحطم او ضاع . صناديقه كأنها ركام . عدده اصبحت لا تغني شيئاً . سلاحه لا فائدة منه . ابله برح بها الاعياء والضنى . رجاله اصبحوا كالاشباح من فرط ما نالهم من مشقة الجوع والعطش والنصب واليأس . دليله ضجر متبرم . كادت لرحالتنا الصحراء ومكرت به . عبثت حتى بكراسة مذكراته . سلبته حتى غليون دخانه . ضنت عليه حتى بلذة الشبع . ما اشبهه بالقائد الذي خسر المعركة . فهو آوٍ الى انقاضه لا يدري ماذا يصنع . يهوله مشهد الضحايا . يروعه مشهد الخراب . يجزع لمقدم الغد . في ذمته تبعة هذا جميعه . أما هو ، فرهينه ينتظر . فاما الاسر ، وهو ذل . واما الفرار ، وهو خبل . واما قتل النفس وهو عار وخور

***

سادتي : ان غير المنظور هو الذي غالباً يقع

والدهر يعطي الفتى ما ليس يطلبه حيناً ويحرمه من حيث يطمعه

الا ترون كيف اصبح امر نجاحه اليوم سراباً كما كان امر الفشل عنده بالامس . كان الفشل ابعد ما يذهب اليه . كان لوناً من ألوان المستحيل . كان آخر ما يجيز لنفسه ان يفكر فيه . فكأن الشمس طلعت اليوم من المغرب . لقد خاب الظن . اصبح النجاح ابعد مايذهب اليه . اصبح لوناً من ألوان المستحيل . اصبح آخر ما يجيز لنفسه ان يفكر فيه . . . صد العاصفة بالكفين اهون منه

اكتنفهُ الظلام . خيم على نفسه ، خيم على رأسه ، خيم على عينيه ، ظلام اليأس والحيرة والفشل . أين هو اليوم الذي استهل فيه رحلة الصحراء ، وهو يحيي مودعيه في شيء من التواضع . فلولا عدم اللياقة لصرح لهم بما تجيش بهِ نفسه ، من نصر محقق ، ونجاح مؤكد ، وعود مظفر . لقد اصبح اليوم لا يطيق ان يذكر شيئاً من ذلك . كان اذ ذاك يغمره النور ، نور في نفسه ، نور في رأسهِ ، نور في عينيهِ ، اما اليوم فله من شأنهِ ما يغنيه عن ذكر ذلك . ففي ذكره ألم ، وحسبه ما يعاني من ألم . وفي ذكره احساس بخيبة التقدير ، وحسبهُ ما يتجرع من غصص الهزيمة

هذا زاده المادي . كان يؤمن من قبل بانهُ مفتاح النجاح . وقد ذاب اليوم هذا الزاد ، فتحطم ذلك المفتاح المسحور . لئن كان صادقاً في تقديره ، فما الذي اذاب الزاد ، وضيع الامل ، وحطم المفتاح وان كان غير صادق في حسبانهِ ، فاين اذن يوجد هذا المفتاح المفقود ، واين اذاً السبيل اليهِ

جمد ذهن صاحبنا . تعطل تفكيره . كاد يحترق مخه ، وتتمزق عروقه . كاد يهذي حتى انهُ ليتخيل الصحراء امتلأت بالذئاب العاوية . وعواصفها اصبحت نواقيس الموت . ها هو ذا يغمض عينيهِ . ويعتمد رأسه بين يديه . كأن صراعاً ألمَّ بهِ فكأنهُ في غشية ما لها صحو

سادتي : الى هنا يصح ان نعتبر رحالتنا قد اجتاز مرحلته الثانية . والى هنا ترون كيف ذاق من الالم امره . ومن الذل اوجعهُ ، ومن الهوان غايته حتى كاد ينتهي آخر الامر الى غشية النفس .غير ان للصحراء ايها السادة تأثيراً خارقاً في جسم من جابها وفي عقله وفي روحه. فهي تصقل جسمه وتجلو عقله ، وترتفع بروحه يوماً بعد يوم ، الى مراتب ماكانت لتدركها لو ان صاحبها لم يحاول ان يتخذ له سبيلاً في جوف الصحراء . ولئن يتقبل جوّاب الصحراء ما تمتحنه بهِ من عسر وشدة وألم بقبول حسن ،فما ذلك الاّ لانهُ ادرك آخر الامر ان قسوة الصحراء ليست سوى شيء من قسوة الام الحنون ، تنال بها ابناً عاقاً تحبهُ وتكلف بهِ، في سبيل تربيتهِ وتهذيبهِ وشد ما ادَّبت الصحراء رحالتنا ، وأحسنت تأديبهُ.فبدأت تنظفه من دنس المجتمع ، وتطهره من ادران الحياة ، وتنزع من صدره وسوسة الشيطان . بدأت تغسل عنهُ قذارة الجسم ،ودنس الروح ،بدأت تلهم نفسهُ فلسفةصوفية وتفيض عليها بهذه الفلسفة العالية . ففيم يفكر اذن . . ولعلنا نذكر فيما كان يفكر بالامس

اولاً — قبل ان يعدعدتهُ. ثانياً — وهو يعدعدته. ثالثاً — وهوفي مرحلتهِ الصحراوية الاولى لم يكن اذ ذاك ليفكر في غير المادة . وقد تأثر بها ، كما سقنا ،كل شيء فيه حتى اخلاقه وحتى منطقهُ واسارير وجههِ .كان يرى انها الاداة الفعالة لما يريد .اما الآن فانهُ يفكر في شيء آخر : ذلك ادب الصحراء ، وبهِ يستهل مرحلتهُ الثالثة

أخذ هذا التفكير الجديد يحتويه ويؤثر فيهِ . أخذ يؤثر في روحه ونفسه . يؤثر في كل شيء حتى اخلاقه . وحتى منطقه وقسمات وجهه . وهنا فقط يدرك ان اداة المادة ، تلك الاداة المغرية التي كان يؤمن بانها الفعالة لما يريد ، انما هي حقّـاً تلك الاداة التي لم تغنه شيئاً حين تورط في غير ما يريد

وكذلك رويداً رويداً تسمو الصحراء بمشاعره واحساساته الى العالم العلوي . وكذلك رويداً رويداً تفنى المادة ، ويفنى الجسم . ولاتبقى الا قوة الروح تستيقظ فوق هذا الفسيح اللانهائي الرملي . وثم تبدو له الصحراء في صورة صبية وديعة ، في سذاجتها رحمة ، في انوثتها طهر ، في ظرفها نسك يلذ العابدين . وهنا تداعبه الصحراء كما تداعب هذه الصبية الصغيرة الطاهرة ناسكاً صالحاً ، مداعبة نقية كمداعبة الابرار الخيرين . فيرق لها ، ويحنو عليها . يعفو عن هفواتها ويغفر لها اخطاءها وما اجدر بالمغفرة اخطاء الصبايا الطاهرات

ها نحن اولاء نراه يشعر بشيء جديد . تشعر روحه بالصفاء يسري اليها شيئاً فشيئاً . وتشعر نفسه بالسكينة تنساب اليها قليلاً قليلاً . فاذا انتهى الى هذا الحظ ، بعد تلك الساعة التي عافت فيها نفسه كل شيء ويئست من كل شيء والتي تركناه فيها مغشيّاً عليه . هنالك — ولا غرو — تنبسط له يد الرحمن ، وتتداركه عناية الله . فيؤمن بان القوة التي تقهر

الصحراء ، انما تسكن السماء . ثم يأنس بعد وحشة ، ويستبشر بعد قنوط ، ويهتدي بعد حيرة ، ويحيي بعد موت. ثم يشعر بشيء من لوم الضمير : أ كان على حق حين اعتمد اولاً وآخراً على غير الله . أ كان يجوز له ان يستعين بعدده وآلاته كل الاستعانة ، قبل ان يستعين بقدرة الله كل الاستعانة ، «وهو جل وتعالى خالق العالمين» ، وباعث الحياة والموت فيهم من بدو وحضر

عناية الله اذن تحرسه ، ويد الله اذن تهديه . فماذا يقول اليوم . وكيف تبدو له الصحراء. حقـًا ان الصحراء هائلة ، ولـكن عظمة الله اشد هولاً . وحقـًا انها قاهرة ، ولـكن بأس الله اقهر . وحقـًا انها رائعة ، ولـكن جلال الله اروع . غمر الايمان قلب رحالتكم . والايمان نور وقوة وتوفيق . نور يبدد ذلك الظلام الحالك الذي غشى بصيرته واكتنف نفسه ، وخيم على ذاته المعنوية كلها ، نور الهدى والرشاد والحق . وقوة هي قوة الروح المعنوية المستمدة من فضيلة الانس بقدرة الخالق ، وادراك جانب يسير غاية في اليسر من عظمتها القدسية ومشيئتها الكبرى . ومن ذلك النور الذي ملأه ، وتلك القوة التي اصبحت هي وحدها عدته وزاده ، نشأ التوفيق ، التوفيق باطمئنانه الى القضاء والقدر ، وباقتناعه الصلب القوي ، وارتياحه الشديد الفياض الى ان الله مصيره وغايته ، ولله وحده الامر جميعاً . ولذلك فصاحبكم اليوم مطمئن النفس . ازداد حبه للصحراء ، وشغفه بدرس مناكبها . فكأنما خلق اليوم خلقاً جديداً. ولا غرو ، فقد اعاد الايمان الى نفسه ذلك العزم الثابت الذي اوهنته المشاق والمتاعب ، وتلك الارادة الصلبة التي ألانها كلُّ ما استهدفت لهُ من عوادي الصحراء . كأنما خلق اليوم خلقاً جديداً . ولا غرو فقد بعث الايمان في نفسه سائر تلك العوامل الباطنية الوثابة التي استحثته من قبل على رود الصحراء ، وكشف مجاهلها ، وبلوغ غايته منها . بعث الايمان في نفسهِ سائر تلك القوى المعنوية في نمو اصلب طبعاً ، واشد حالاً مما كانت عليه بالامس ، حين شرع يستهل رحلة الصحراء . سلب الايمان من جوف الصحراء ، كلما تعتدُّ به من وعيد سيء ونذير مشئوم ، فلم يعد في ظلام الصحراء ، ولم يعد في ظلام الحياة ما يمكن ان يشفق على نفسه منه ، اذ قد آمن اليوم شديد الايمان ، وعلم علم اليقين بأن ما تكنه الصحراء من اهوال واخطار ، ويغمرد الغيب من شر وسوء ، وتستهدف له مصائر الناس من خير ومكروه ، انما هذا كله رهن مشيئة الله ... وها هو ذا يصدر في عمله عن طبيعة هذا الايمان الراسخ الشديد . فهو ينفق اقصى ما يملك من جهد ، ويبذل غاية ما يستطيع من حيلة في سبيل المطلب الذي اخذ نفسه به . اما النجاح وغير النجاح فلم يعد امرها في يده ، ولـكن امرهما جميعاً في يد الخالق وحده . سرت فيه تلك الروح القوية ، واوحي اليهِ بوحيها الصادق ، فأخذ من جديد يجمع شتات قوته المعنوية ، ويلم شعث عدته المادية ، وانطلق يستحث قافلته على المضي ، ويملأ نفوس رجاله بأمر القضاء والقدر ، وفي ذلك لذة لا يشوبها الدنو من الموت ولا الموت نفسه ايضاً

انطلق اذن يمضي في قافلته يسوقه روح معنوي شجاع رشيد ، وانطلقت القافلة تسعى من جديد في مثل النشاط الذي بدأت رحلتها به بعد ان كادت تجهز عليها عوادي الصحراء اجهازاً. انطلقت القافلة يحدوها البشر والتفاؤل . واطمأن الرحالة من جديد الى الصحراء والى عيشه بينها : اولئك البدو البواسل الشجعان الذين ما يزالون بني الفطرة . لم تستطع ادران المدنية ان تزحف اليهم . ولم يفكروا بعد في ان يزحفوا اليها . فلنقف معهُ لحظة لنرى حظ رجاله عنده بعد ذلك التطور الروحي الجديد الذي احتواه . لم يكن رجاله اولئك من قبل سوى عنصر من العناصر العدة التي هيأها لينال بها مطلبهُ في الصحراء . لم يكن رجاله هؤلاء سوى اداة من الادوات الكثيرة التي اعدها للبطش برجال الصحراء . اما الآن فقد شعر بانهُ منهم وانهم منهُ . شعر بانهم جميعاً أسرة واحدة . فهو يحزن لحزنهم ويفرح لفرحهم . ولا يهنأ بعيش الاّ اذا كانوا هانئين . وقد ثبت له الآن ان فلسفتهم في الحياة اجدى وأعمق من فلسفته . وان في بساطة عيشهم توفيقاً لم يدركه بعد . وهنا يروقه ان يقبس من اخلاقهم ، ويتزود من طباعهم . فقد رآهم أهل ايمان وفضيلة ورجولة . فالبدوي ، في الحق ، مثل من الامثلة الحسنى للرجل

ارأيتم الآن الى رحالتنا وهو يتفلسف . انهُ يتفلسف في شهوة الدنيا ، ومطامع الناس بعد ان سمت به حال نفسية . فصغر في عينه عراك الحياة . صغرت الصعاب التي لاقته ، والصعاب التي تنتظره . هانت عنده مطامعه — حتى مطمع الثمرة العلمية المحرمة ، التي قام برحلته في سبيل قطفها . هان عنده حتى الموت في ابشع صورة من صوره . . ذلك كله صغر عنده شأناً واخذ يفنى ، شيئاً فشيئاً ، في روعة الصحراء وجلال الله

صاحبكم يشعر بقوة معنوية . فقد انتهى ، أيها السادة ، من هذه الرياضة النفسية الى نتيجة لم تكن منتظرة ، ولا سيما بعد ان ذاق من مرّ الصحراء ما ذاق . لم يعد رحالتنا يخاف الصحراء . لم يعد يخاف فيها ان يجوع ، او ان يظمأ ، او ان يضل ، او حتى ان تبيعه بحياته قبراً من قبورها المبثوثة في كل مكان . فاذا انتهى الى هذه النتيجة بدأ يشعر بأثرها . بدأ يشعر بسلطانه ينبسط على الصحراء . ولكن ما ابعد الفارق بين هذا السلطان الذي يشعر به وذلك الذي شعر به في بداية رحلته . فشعوره بالسلطان الاول انما هو شعور بسلطان المادة ، والمادة قد خذلته . اما شعوره اليوم بهذا السلطان الاخير ، فهو شعور بسلطان الروح ، والروح قد صدقته

ما أعجب اسرار الصحراء . انها تحطم في رائدها معقل مطامعه ، ذلك العش المرع يسع الدنيا وما فيها . ذلك الفم الجائع كلما اعطي من شيء ، ازداد جوعاً فقال « هل من مزيد » . ما اسرع ان تكسر الصحراء شكيمة جوّابها ، وتذل عنقه وترغم انفه . ما اسرع ان تلقنه درس

الحكمة . اذ تبين لهُ القياس الصادق للمرء واعماله ، والقيمة الحقة للرجل واخلاقه ، والميزان العادل للانسان وكتاب حياته . تسلب الصحراء رائدها كل احلامه الدنيوية ، تلتهم كل ثمرات مطامعه الانسانية . غير انها على ذلك منصفة عادلة . لا تدع رائدها من غير عوض . فهي تجزيه الجزاء الحسن . تهب له سكينة في الصدر . وطمأنينة في النفس . وايماناً في القلب. تهب له هذه الخيرات هدية طاهرة وخالدة لا تفنى ، جديدة لا تبلى ، مصونة لا تنال منها حياة المدنية حين يعود اليها اي منال . تلك الحياة التي عبثت بحقائقها شهوات النفس الجامحة ، ومسخت معه فضائلها مطامع الانسان الكاذبة

أيها السادة : اتمَّ رحالتنا رحلته . وقد يكون توفيقه العلمي اقصى مما كانت تذهب اليه احلامه وها نحن اولاء نعود معهُ الى بلده . فنرى حفاوة كبرى . تنشط في درس اكتشافه المجامع العلمية. ولكن ماذا في نفس رحالتنا .. انهُ بعيد عن هذا كله . يكاد لا يشعر بحفاوة المحتفين به . يحس بانه غير أهل — من هذه الناحية — لهذا المديح جميعاً

فلقد استهلَّ الرحلة ،وكانت هذه الناحية العلمية غاية المنى ،كان يؤمن بان ما جمع من اسباب المادة هو مفتاح النجاح ، فلم يكد ينحدر الى جوف الصحراء حتى آمن بشيءٍ آخر ، آمن بان عدته المادية لن تقدم من امره ولن تؤخر ، وان ما وصل اليه ليس نجاحاً ولكنهُ توفيقاً ، وانهُ ليس ثمرة جهاده الشخصي ، ولكنهُ اثر من عناية الله

وما كان لنجاحه العلمي هذا ان يزيد في ايمانه وقد قدر له التوفيق ، كلاَّ ولن يكون لفشله العلمي ان ينقص من هذا الايمان اذا كتب له ان يفشل ، فابتغاء وجه الله وحده هو الذي يصبح وجهةَ وطلبةَ كل من كتب له ان يرود الصحراء ولاسيما في سبيل العلم

والآن وقد صغر في عين رحالتنا نجاحه العلمي، وآمن بانه لم يكن شيئاً ذا خطر ، تحقق ايمانه بانه لا يستحق ما أُغدق عليه من مديح ، وان قيمة هذه الثمرة العلمية لا تزيد عن قيمة تحفة من التحف التي اتفق له ان يعثر عليها ، واستطاع ان يعود الينا بها

انه مأخوذ اذاً بلذة روحية هي خاتمة مطاف روحه . تلك الخاتمة التي وفق اليها في مجاهل الصحراء . فحين ضلَّ عقله اهتدت روحه. اهتدت الى سبيل علوي،تبتدىء في نهايتها طريق الله

ثم ها هو ذا صاحبكم يفكر في الصحراء من جديد . ولقد انتهى به تفكيره الى مفارقة عجيبة ما اتفه رحلة الصحراء بالقياس الى رحلة الروح. كم يود لو ان رحلته الروحية كانت نتيجتها دانية القطوف كرحلته في سبيل العلم

ولعلَّ هذا هو السر في ان كل من راد الصحراء مرة لا يستطيع ان يصبر عنها ، ولا يملك الاَّ ان يعود اليها ، عله يوفق من طريق رحلة العلم ، الى اقصى ما يستطيع ان يدرك من رحلة الروح ، وهو الدنو من فاتحة الطريق الى الله

موت البلبل

ما أتعسَ الفنَّ في حياتِهْ ! وأتعسَ الفنَّ في مماتِهْ !
قد واتت الآسِنَ الأماني والجاريَ الماء لم تُواتِهْ
والخاليَ الذهنِ مستريحٌ في الوكرِ، في القصرِ، في فلاتِهْ
والساهرُ الليلَ قد طواهُ وشَوَّهَ الموتُ ذكرياتِهْ

***

في هدأةِ الليلِ، في دُجاهُ في معبدِ الكونِ في صلاتِهْ
يسامرُ الصائدُ المنايا والحيُّ لاهٍ بمُلْهياتِهْ
ونيَّةُ الشرِّ إنْ تراءتْ هدَّتْ على الخيرِ أُمنياتِهْ
والبلبلُ الصادحُ المغنّي الساهرُ الليلَ في شكاتِهْ
حيرانُ مايهتدي لغصنٍ حتى يُصَبِّي الى لداتِهْ
قد اخرجَ الليلَ من رؤاهُ فراحَ يُصغِي لمطرباتِهْ
والنسمةُ العذبةُ استراحتْ مأخوذةً مثل سامعاتِهْ
يمرُّ بالروضِ ما يُغنّي يهزُّ في الروضِ مورقاتِهْ
ما اجملَ الكونَ حين يُصغِي لهاتفٍ صاغَ مُبْدعاتِهْ !

***

وبينما البلبلُ المُغنّي يعيدُ لحناً على هُواتِهْ
دَوّى بجوفِ الدُجى دويٌّ فروّعَ الكونُ في صلاتِهْ
وهلّلَ الصائدُ انتصاراً وردّدَ الليلُ قهقهاتِهْ
وضاعَ في الأُفقِ كلُّ لحنٍ وليس يلوي على شتاتِهْ
وفي ازيز الرصاص ينسى مُستمليحُ الصوتِ أُغنياتِهْ

***

وصدَّعَ الفجرُ جانبيْهِ وايقظَ الصُبْحَ من سُباتِهْ
فهبَّ يمشي على ضحايا وراحَ يُصغي لهاتفاتِهْ
والبلبلُ الخافتُ المسجّى الزَّهْرُ يحنو على رُفاتِهْ

حسن كامل الصيرفي

الرحلة والرحالون[1]

في القرون الوسطى

بين سقوط الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس واكتشاف امريكا في القرن الخامس عشر تمتد الف ونيف من السنوات تعرف عند المؤرخين بالقرون الوسطى ، ومع ان حوادث جسيمة قد تمت فيها فقد كانت الرقعة التي تشغلها بالنسبة الى العالم المعروف الآن صغيرة جدا لا تتجاوز حوض البحر الابيض المتوسط واواسط اوربا . وكان هذا الجزء المعروف تحيطهُ — في نظر الاوربيين على الخصوص — حجب الظلام الكثيفة ، فشواطئه الغربية تنتهي بالبحر الذي لا تمخر السفن عبابه — بحر الظلمات — وفي شماله تقع مناطق الذعر والجليد والظلام ، وشرقه قفر آخره مساكن الاقوام المغولية المتوحشة . وجنوبيَّهُ ينتهي بالمنطقة الحارة التي لا تستطيع البشر ان تسكنها ، والتي فيها بحر تغلي المياه فيهِ باستمرار لشدة الحر ، حتى ان الاسماك لا تعيش فيهِ ، وكل هذه المناطق فيها من عجائب الخلق والهول ما يمنع الناس من الاقتراب منها بله الدخول فيها

وفي هذه المنطقة الضيقة وفي هذه القرون العشرة تمت الحوادث التي خلقت العالم الحديث بما فيهِ من نشاط ومدنية وعلم . ففيها سقطت الامبراطورية الرومانية التي كانت تتحكم في شؤون اكبر جانب من العالم المعروف عندئذٍ ، فانهار معها اكبر صرح سياسي اقتصادي عرف ، وامحى القانون الروماني ، وصحبت ذلك هجرة القبائل الجرمانية وغيرها من مساكنها الاصلية واستيطانها في اوربا ، وتأسيسها امارات وممالك مضطربة ضعيفة على النظام الاقطاعي ، فانتشرت الفوضى وعمَّ النهب والسلب وتغلبت القوة البدنية على الشرع والعرف والتقليد وحل السيف مكان القانون . وفيها خرجت امة كانت منتشرة في بادية العرب لا تجمعها رابطة دينية ولا تمسكها صلة سياسية حتى قام فيها محمد بن عبد الله فأوجد من تفرقها وحدة ، وخلق من تنازعها اتفاقاً وجعل من الوحدة والاتفاق الممزوجين بالايمان قوة سارت مع خلفائهِ وقواده حتى احتلوا في مائة سنة البلاد الواقعة بين الصين وبحر الظلمات ونشروا الاسلام في اكثر هذه البقاع . ثم عمدوا الى العلم والادب والاجتماع فاحاطوها بعنايتهم واخرجوا منها للعالم خير الثمار واينعها واشهاها

وفيها توطدت النصرانية في الغرب واعتنقتها القبائل الجرمانية التي مرَّ بنا ذكرها وقويت البابوية وسيطرت على الحياة الدينية والعقلية في القسم الاكبر من اوروبا النصرانية ، حتى

(١) محاضرة تاريخية شائقة القاها نقولا افندي زياده في نادي الشبيبة البيتلحمية بيت لحم (فلسطين)

كان لها الامر وعلى غيرها الطاعة، وحدث في هذه المدة اكبر اصطدام بين الشرق والغرب فقد بقيت جيوش الصليبيين طيلة القرنين الثاني عشر والثالث عشر تتدفق على الشرق محاولة تملكه والاستيلاء على موارده الفنية واماكن العبادة والتقديس فيهِ . ومع ان هذه الحروب قد انتهت بخيبة الاوربيين وبقاء هذه البلاد بيد الشرقيين فقد كانت بعيدة الأثر في خلق اوربا الحديثة وفي جميع مناحي الحياة في ذلك الوقت وبعد ذلك الوقت

وحياة البشر في كل عصر ومكان تتأثر بما يعتورها من جسيم الحوادث وعظيم الامور ولما كانت الرحلات والاسفار مظهراً من مظاهر الحياة والنشاط فلقد كانت خاضعة في حكمها لهذه القاعدة واذن فقد تأثرت بما ذكرنا ، وهذا ما سنتحدث عنهُ الآن

يهتم المسافرون على اختلاف نزعاتهم بان يكون الامن مستتبًا في البلاد التي يرحلون اليها وان تشرف على البلاد حكومة قوية ليأمنوا على ارواحهم واموالهم ومتاجرهم ولتعنى بالطرق والبريد لتنظيم الرحلة والسفر والاتجار. وقد كان هذا متوافراً في عهد الامبراطورية الرومانية فلما سقطت سقط معها كل ذلك فقلَّ تنقل الناس في القسم الاول من القرون الوسطى . فلما قام العرب وانشأوا دولهم المتسعة في مشارق الارض ومغاربها وقاموا على تنظيمها وسهروا على مصلحة الشعوب التي حكموها عادت التجارة الى ما كانت عليهِ سابقاً بل اتسع نطاقها كثيراً وعاد الجوَّابون يخترقون الآفاق وقد ساعدهم على ذلك انتشار الاسلام في كثير من هذه الاقطار فكانوا موضع احترام القوم اينما حلوا وليس ادلّ على مدى اتساع الرحلة في عهد الدولة العربية من حديث ابن بطوطة وهو سائح عربي من اهل القرن الرابع عشر للميلاد من مدينة طنجه فقد روى انهُ لما كان بالصين بلغهُ ان احد علماء المسلمين قدم المدينة فاتصل بهِ فعرف انهُ احد مواطنيه وفطن الى ان التقى به في دلهي بالهند . ولما ارتحل ابن بطوطه عن ذلك المكان وهبط اواسط افريقيا لقي فيها مواطناً آخر هو اخ للاول . وهكذا كان يلتقي رحالو العرب في اقصى البلدان واناًى الامكنة

على ان قيام الدول العربية في الشرق الادنى وقضاءها على البيزنطيين فيه اوجد في نفوس الاوروبيين شيئاً من الخوف فقلت زيارتهم حتى للاراضي المقدسة الى ان عرفوا خطأهم بعد وقت قصير

وقد سيطرت الكنيسة على الافكار والعقول سيطرة اخضعت كل رأي وقول لسلطانها وصار هم كل باحث ان يوفق بين ما كان عند اليونان والرومان القدماء من علم وبين ما في الانجيل من ايمان فاذا تعارض الاثنان وجد الدارس في الثاني حصناً من الكفر والزيغان وملجأ من رجس الشيطان فاختلطت على الناس الآراء الجغرافية الصحيحة بالاساطير والمختلقات . وشاب الحقائق العلمية خرافات لا يقبلها عقل ولا يرضى بها منطق فصار العالم المعروف منطقته تحيط بها كل انواع الاخطار من كل جانب فلا سبيل اذن للخروج من مسكن الانسان لا كتشاف

مسا كن الشيطان او الاهتداء الى منازل الرحمن . وغصبت اقوال قوزمس وازيدور الناس الدرس والتنقيب . فاعتقد الناس ان النجوم مصابيح يخرجها الله كل ليلة لينير الناس لان الشمس والقمر ضعف نورها بسبب خطيئة الانسان . وان الارض يابس يحيط بها ماء ينتهي بالفضاء فاذا وصل امرؤ الى ذلك المكان هوى الى ابليس او الى جهنم — الى مثل هذه الاعتقادات . وان قوماً مثل هؤلاء ينتشر بينهم هذا النوع من التفكير السقيم لاينتظر منهم ان يخاطروا بانفسهم فيخرجوا ليستكشفوا هذه الاصقاع النائية

اضيفوا الى كل هذه الصعوبات الاخرى التي كانت تعترض المسافر طول المدة ، فان اركولف احتاج الى سبع سنوات لزيارة الاراضي المقدسة في القرن الثامن الميلادي . وقد استغرقت رحلة بنيامين التورلي ثلاث عشرة سنة

على ان بعض اقوياء العزيمة من اهل ذلك الزمان ، وبعض المفكرين منهم ، لم يحل دونهم في الرحلة حائل . واكثر ماجاءتهم قوة العزيمة من الايمان والتدين فان زيارة الاماكن المقدسة والتبرك بلمس تراب البلاد التي عاش فيها (المخلص) دفعت الكثيرين الى الاستهانة بكل هذه الصعوبات لينالوا هذه القداسة أو ليحصلوا على الشهادة في البلاد نفسها . وفي هذا تتفق النصرانية والاسلام بل ان الاسلام يحتم ذلك .اذ يعتبر الحج احد اركان الاسلام الخمسة ، على من استطاع اليه سبيلا . ومن ثمّ عني الحجّاج — المسيحيون والمسلمون على السواء — بتدوين اخبارهم وما وقعت عليه أبصارهم ، وما طرق آذانهم ليساعدوا غيرهم في سيرهم وتنقلهم وقد كان بين الحجاج عدد كبير من اليهود فان هذه الجماعة التي حرمت منذ هدريانوس — في القرن الثاني — الاقتراب من بيت المقدس والتي سمح لها قسطنطين في القرن الرابع بزيارة انقاض الهيكل في التاسع من شهر آب (اغسطس) من كل عام ، كانت تتوافد الى القدس في ذلك العصر من اسبانيا والشرق للقيام بفريضة الحج الدينية. وعندنا من هؤلاء الحجاج الحاج موسى لميونيداس ويهوذا هيلفي وبنيامين التورلي

وقد شاعت آراء واعتقادات كانت ذات صبغة دينية ، كان من شأنها ان تحفز الكثيرين من المسيحيين الاوروبيين الى الرحلات والاسفار وأهم من هذه ان بين الجزر الواقعة في البحر الغربي ، او قرب منابع النيل ، تقع (جنة الفردوس) وهذا الاعتقاد حمل الكثيرين على السفر من اجل الوصول الى هذا الفردوس . وهذه الفكرة نجدها مردّدةً في كتابات كل الكتّاب المسيحيين الاول من القرن الرابع الى القرن الثاني عشر

وعني بعض الآباء الروحيين الاوروبيين بزيارة فلسطين للحصول على الآثار المقدسة — وهي ما صاحب المسيح او رسله في حياتهم — اذ كانوا يتكسبون بعرضها على الناس ، وباستخدامها في شفاء الامراض وغير ذلك من الامور ، كما انه كان على بعض هؤلاء

ان يقوموا باسفار تبشيرية في اواسط آسيا وافريقيا لنشر النصرانية بين سكانها

ومما يعتبر باعثاً على زيارة الارض المقدسة خاصة — العقاب . فان بعض المجرمين كان يحكم عليهم بزيارة مولد المسيح وقبره ليخلصوا من جرائمهم ففي سنة ٥٨٨ حكم على خرومون ان يزور فلسطين، عقاباً على جريمة فقيّد بسلسلة وألبس رداءً خشناً، وعفر رأسه بالرماد ، وسار حافياً . ولكنهُ عاد بعد اربع سنوات ، فلم يعف البابا عنه فقام بالزيارة ثانية ، حتى نال رضى قداسته

ولعلّ التجارة اكبر ماحمل الناس على الاسفار رغبة في نقل المتاجر ، والتعرف على الطرق واختيار افضل وسائل الكسب . ومن هؤلاء التجار من دوّن اخباره ووصف الاقليم وصفاً دقيقاً فيه الصحة كل الصحة ، والاسلام الذي شجع التجارة بالقدوة ، اذ كان النبي واصحابه تجاراً ، خدم العلم خدمات جلى من هذه الناحية

يمكننا مما مرَّ بنا ان نقسم الرحالين الى حجاج ومبشرين وتجار وعلماء. والحجاج المسيحيون الذين زاروا الاراضي المقدسة قبل القرن الثامن الميلادي خلفوا عن رحلاتهم آثاراً كثيرة ، بعضها فيه روح التحقيق ، واكثرها مجموعات من الاساطير والخرافات . وقد ازداد مجيء هؤلاء الحجاج في القرن العاشر تلبية لنداء البابا من جهة واعتقاداً بان مجيء المسيح الثاني قد قرب ومن ثمَّ فمن المهم ان يكونو فيها لينالوا البركات . وحجاج هذه الفترة كانوا على درجة كبيرة من الجهل فلم يتركوا آثاراً قيمة والذي ابقوه على كل حال يميل الى هذه العقلية السخيفة التي كانت تمتاز بها الجماعة الاوروبية في ذلك الزمن . اما المبشرون فاتخذوا اواسط آسيا مركزاً لاعمالهم، اذ كانت همة البابا متجهة نحو تنصير القبائل المغولية التي اخذت تهاجم الشرق، وترعب اوروبا بقوتها وسطوتها . وقد اشتدت هذه الحركة بين القرن الحادي عشر والقرن الرابع عشر. وبعض ما كتبهُ هؤلاءِ المبشرون عن تلك البلاد من خير ما يمكن الرجوع اليهِ في درسها

والتجار الذين تركوا اخبار الاقطار التي زاروها ،وبحثوا في حالتها الاقتصادية والاجتماعية، كثيرون . وقد كان العرب اصحاب السبق في هذا المضمار . ومما وثق الاتصال التجاري بين الشرق والغرب ، وحل عن العقول بعض القيود ، فالحروب الصليبية

والرحالون الذين كان رائدهم في الرحلة الرغبة في الدرس والبحث بلوا عدداً كبيراً ، ولكنهم جاءوا في القسم المتأخر من القرون المتوسطة . ومن العرب ابن جبير وابن بطوطة ومن الافرنج ماركوبولو . وهذا الاخير كان من التجار ايضاً . وهؤلاء الثلاثة اعلام الرحلة العلمية في تلك القرون . « فسياحات ماركوبولو » يعتبرها الكاتب الانكليزي المستر ولز بين الكتب التي اثرت في تطور العقل البشري . وكتابات ابن بطوطة يشهد لها في دقتها ان كلية غوردون في الخرطوم تدرس فصل «ابن بطوطة في السودان» لدقته . اما ابن جبير فمن يقرأ كتابه يقرأ كتابة سائح حديث مزود بطريقة التفكير الصحيحة

« لها تتمة »

التوائم والمحيط

للدكتور شريف عسيران

التوائم نوعان ، مختلفة ومتشابهة . فالتمَّان المختلفان هما المتولدان من بيضتين مختلفتين تلقحتا في آن واحد . والمتشابهان يتولدان من بيضة واحدة . ان اكثر الحيوانات الثديية كالهررة والكلاب تلد عدة اولاد دفعة واحدة تتولَّد من عدة بويضات ناضجة تلقحت في آن واحد وقد يحدث ذلك في البشر فيولد تمَّان او اكثر من تلقيح بويضات مختلفة . ويختلف تولّد التوائم باختلاف الحيوان . ففي المدرّع (Armadillo)[1] تنقسم البويضة الملقحة الواحدة في بدء تكونها الى اربعة اجزاء ينمو كل منها نموًّا تامًّا مستقلاً ويصير فرداً كاملا . ويتولد التمَّان في البشر بطريقتين الاولى انقسام البويضة الواحدة الى عدة خلايا يصير كل منها جنيناً كاملاً والثانية تولد التثمين من بويضتين مختلفتين او اكثر . والنوع الانساني هو الوحيد الذي تحدث فيه الطريقتان . ولا يحدث في غيره من الانواع الحيوانية الاّ احداهما

فالتمَّان المختلفان لا يتشابهان في صفاتهما الوراثية لانهما منشقان من بويضتين مختلفتين واما التمَّان المتشابهان فيتشابهان في صفاتهما الوراثية لان عواملهما واحدة . وقد اجروا احصاء في اكثر البلاد المتمدنة للتوائم فكانت النتيجة كما يلي : يحصل في المائة ولادة ولادة واحدة ذات تثمين . وفي كل عشرة آلاف ولادة ، ولادةٌ واحدة ذات ثلاثة أتآم . وفي المليون ولادة ولادة واحدة ذات اربعة أتآم . ونظراً لاختلاف ولادة التوائم باختلاف الامصار وبسبب موتها قبل الولادة وقصر حياتها وتعسر ضبط تسجيلها لا يمكن جمع احصاء امي عنها

وتزداد وفيات التوائم بزيادة عدد أجنتها فكلما ازداد العدد كانت اكثر تعرضاً للموت فالتوأم الثنائي أقل تعرضاً للموت من التوأم الثلاثي وهذا أقل تعرُّضاً من التوأم الرباعي وهلمَّ جرًّا

وقد تبين من احصاءات الحكومة الانكليزية انهُ يعيش من كل توأم ثلاثي نصف

---

(١) حيوان ليلي عديم الاسنان وهو موجود في اميركا الجنوبية جسده ورأسه موضوعان ضمن درع من عظم وجاء في معجم الحيوان : حيوان اميركي ادرع يأكل النمل ، اللفظة ترجمة الهلال

البنات و ٣/٨ الصبيان وسجلوا رسميًّا توأماً سداسيًّا ولدت أجنتهُ في آن واحد

بيَّنا أن التئمين المتماثلين او المتشابهين ينشقان من خلية واحدة ويكون هذا الانقسام او الانشطار احياناً غير كامل فيبقيان متصلين بعض الاتصال ويسميان التئميْن المتصلين Siamese twins فالتئمان المنشطران من خلية واحدة يكونان دائماً من جنس واحد إما ذكرين او انثيين وهما متشابهان كل الشبه فالواحد نسخة طبق الاصل للآخر . وفي الواحد منهما نفس العوامل الوراثية التي في الآخر عدداً ونوعاً . ولا يمكن ان يتشابه التئمان المنشقان من بيضتين مختلفتين ولا افراد العائلة الواحدة تشابُهَ التئمين المتماثلين . فاذا قابلنا التئمين المتشابهين بغير المتشابهين وغيرهما من افراد عائلة واحدة استطعنا ان نعلم منشأ اختلاف الصفات . فالاختلاف الذي نشاهده في التئمين المتشابهين لا بدَّ ان يكون سببه غير العوامل الوراثية لانها واحدة في الاثنتين

وقد درس هذا الموضوع حق الدراسة فوجد ان منشأ الاختلاف بين التئمين المتشابهين غير العوامل وغير المحيط. فاننا نجد غالباً ان أحد فردي التئمين ايمن والآخر ايسر فلا يمكننا نسبة هذا الاختلاف الى العوامل الوراثية ولا الى المحيط لان الوراثة والمحيط واحد في الحالين. وقد حاولوا تعليل هذا الاختلاف بنسبته الى وضع احد التئمين قبل الانشطار فيكون احدهما في وضع خاصٍّ منذ تكوّن الخلية فيحافظ عليهِ حين الانشطار اي يكون موضع يده يميناً او يساراً فيستمر على الحالة التي كانت فيها . اما الثاني فيتغير موضع يده اثناء الانشطار. فالتئمان المتشابهان اللذان فيهما نفس العوامل الوراثية يكون احدهما ايمن والآخر ايسر بسبب الظروف التي تصادفهما في بدء نشأتهما ويكون احد التئمين في كثير من الاحيان اقوى وانشط من الآخر وسبب ذلك ظروف خاصة في اثناء التكون . ويظنُّ ان التئم الذي يحافظ على الوضع الاصلي قبل الانشقاق يكون عادة اقوى وانشط .اما في ما عدا هذه الفروق فان التئمين المنشقين من خلية واحدة يتشابهان تمام المشابهة في الجنس ولون العينين والجلد والشعر وفي حجم الجسم وترتيب الاسنان وتقاطيع الوجه والآذان والايدي وفي الامراض التي تنتابهما وشواذ خلقتهما ولهجة صوتهما واشاراتهما ويوجد مشابهة مجهرية في أسرَّة الكف (خطوط الكف) وأخمص القدم وبصمات الاصابع وتسترعي نظرنا ظاهرة غريبة وهي ان اسرّة كف احد التئمين اليمنى مثلاً تشبه صنوها اكثر من مشابهة اليسرى لصنوها وهذا الفرق ناشيء عن ظروف خاصة اثناء الانقسام وينكر بعض العلماء هذه الفروق

***

بيَّنا ان في التئمين المتشابهين شخصيتان لكل منهما نفس العوامل الوراثيـة التي

للاخرى فلا يمكن ان تنشأ فروقهما العقلية عن اختلاف تلك العوامل ولا بدَّ ان يكون منشأً هذا الاختلاف اختلاف محيطهما ونشأتهما . وقد درسوا اربعة توائم ثنائية درساً دقيقاً معززاً بالتجارب العلمية بعد ان فصلوهم بعضاً عن بعض في اوائل حياتهم فدرس تئميْن منهم الاستاذ مُلر Muller الاخصائي بعلم الانسال والتوائم الثلاثة الباقية درسها الاستاذ نيومان Newman الاخصائي بعلم الأجنة وبيولوجيا التوائم واليك نتيجة ابحاثهما :

اختار ملر اختين تئميْن فصلتا في اول اسبوع من حياتهما ولم ترَ احداهما الاخرى الاَّ في سن الثامنة عشر وبقيتا مفترقتين من ذلك الحين الى سن الثلاثين اي اكثر من تسعة اعشار عمرهما فعاشتا في اقليم شمالي غربي خصب وفي ارض غزيرة المعادن وفي احوال اجتماعية متشابهة فكانتا متشابهتين جسديًّا كل التشابه وصفاتهما هي نفس الصفات التي يتفق فيها التئمان المتشابهان فكانت كلتاهما نشيطة همامة قديرة محبوبة واشتهرتا في الاعمال التي تقتضي التعاون كالجمعيات وما اشبه وأصيبت كل منهما بالتدرن الرئوي مرتين او ثلاثاً في نفس الوقت . واصيبت احداهن بخور في اعضائها وهي في العقد الثاني من العمر وكانت الاخرى على وشك ان تصاب بهِ كذلك . ونتيجة امتحان الذكاء متشابهة في الاثنتين مما يدل على ان المشابهة ناشئة عن العوامل الوراثية . وقد اختلفت نتائج التجارب الاخرى غير العقلية اختلافاً بيناً كفترة رد الفعل الحركيّ Motor reaction time وسرعة ربط الامور بعضها ببعض Association time والارادة والعواطف والاتجاه الاجتماعي وكان اختلافهما من هذه النواحي اكثر من اختلاف شخصين آخرين اختيرا صدفة واجريت عليهما نفس التجارب

ويتبين من درس هاتين التئمين المتشابهين ان لمحيط المرء ونشأتهِ اثراً كبيراً في طبـاعه وعواطفه ومظـاهره الاجتماعية فهذه الصفات تختلف اختلافاً بيناً في نفس الاشخاص الذين فيهم عين العوامل الوراثية في حين ان نتائج امتحان الذكاء تتأثر تأثراً يسيراً بالمحيط وكانت متشابهة في الغالب

ودرس نيومان تؤاميْن ثنائيين احدهما اختان والآخر اخوان وكان كل منهما تئميْن متشابهين فصل احدهما عن الآخر قبل ان يبلغا السنة الثانية من العمر وبقيا منفصلين حتى سن العشرين . ولد توأم الاختين في لندن ثم فصلتا في سن ١٨ شهراً فسكنت احداهنَّ انتاريو بكندا والاخرى لندن واجتمعتا بعد ١٧ سنة في انتاريو وبقيتا معاً سنة كاملة اجريت في خلالها التجـارب عليهما . وكان محيطهما مختلفاً كل الاختلاف في خلال انفصالها . ومن الغريب ان نتائج تجربة نيومان كانت مختلفة حيث تشابهت نتائج تجربة ملر والعكس بالعكس . فاختلفت الاختان التئمان كل الاختلاف في مواهبهما العقلية . ويقول نيومان ان الاختلاف بينهما كان ثلاثة اضعاف الاختلاف بين ٥٠ من التوائم الثنائية المتشابهة التي نشأت معاً . وعلى الضد من ذلك

تشابهت ارادتهما وعواطفهما . وفي هذه الحادثة دليل قوي على ان اختلاف تجارب الحياة يؤثر في القوى العقلية ونتائج امتحان الذكاء

اما توأم الاختين الثاني فهذب تهذيباً مختلفاً فبقيت احداهما في المدرسة سبع سنوات اكثر من اختها. واليك خلاصة تقرير نيومان عنهما :

ان هاتين التتئمين اللتين كانتا متشابهتين في سن ال ١٨ شهراً بقيتا تسع عشرة سنة تجهل احداهما الاخرى فتكيفتا تكيفاً كبيراً بسبب اختلاف طرق تهذيبهما . فان تفوق احداهنَّ العقلي على الاخرى كان ظاهراً كل الظهور سواءٌ من الوجهة الفطرية (الطبيعية) او غيرها . فالتئم التي تهذبت اكثر من اختها كانت اشدَّ تفوقاً من الناحية العقلية

ومن البديهي ان التمرين العقلي ينمّي مقدرة الفرد ويسهل عليهِ جواز اي نوع من امتحانات الفهم حتى الامتحانات الامية التي لا يستعملون بها لغة ويقتصرون فيها على فحص ذكاء الشخص وقوَّة نباهتهِ وكانت عواطفهما وانفعالاتهما النفسية متشابهة تشابهاً بيناً على الضدّ من مواهبهما العقلية

***

اما الزوج الثالث فكان اخويين تئمين احدهما زيد سكن المدينة والآخر عمرو سكن القرية وقد امتحنا ولهما ٢٣ سنة من العمر فكانت مواهبهما الطبيعية متساوية تقريباً . وظهر فرق بين في شخصيتهما العامة فكان زيد اكثر انفة وتحفظاً واحتراماً لنفسهِ واشجع واكثر اختباراً واقل مصادقة من عمرو يبتسم دائماً وسيماء المهابة في جبهتهِ وعينيه اكثر من عمرو ويقف منتصباً اكثر منهُ وذقنه مرتدة الى الوراء وحجَّاجاهُ متدليان تقريباً على عينيه. ويختلف عمرو عنهُ فهو نموذج لمن يسكنون القرى يضحك حالاً ولا يحافظ على وقاره قط . ويؤكد نيومان ان شخصيتي الاثنين كانتا مختلفتيْن كل الاختلاف

***

ان درس افراد التوائم الاربعة الذين نشأوا منفصلين يؤيد ما يذهب اليهِ البعض من ان للمحيط والنشأة تأثيراً عظيماً في الصفات العقلية والنفسية حتى في الاشخاص الذين تكون عواملهم الوراثية متشابهة. ويؤيد ايضاً ان للعوامل المذكورة تأثيراً بيناً فالتوائم كانوا متشابهين في كثير من صفاتهم العقلية تارةً وطوراً في امزجتهم مما يبين ان للعوامل والمحيط أثراً في العقل والنفس

[المقتطف] جاء في المحيط صفحة ١٥٥ ج ١ مادة تأم : أتأمت الام اتآماً ولدت اثنين فصاعداً في بطن واحد فهي متئم . وتاءم اخاه متاءمةً ولد معه فهو تئمه وتؤمه وتئيمه . ويقال هذا توأم للذكر وهذه توأمة للانثى فاذا اجتمعا فهما توأمان وتوأم كما يقال لهما زوجان وزوج

مكانك يا عشق

ظننتكَ ولَّيتَ ياعشقُ فيما ... اراكَ تعاود جنبي السقيما

وبالأَمس كنَّا حلفنا لَيقـــطعَنَّ كلانا أخاه الحميما

لعلَّ القطيعةَ شقَّت عليك ... فجئتَ تجدّ الوصالَ القديما

*

مكانَك يا عشقُ ، ان جئتني ... لِتشجي فاني ملئتُ الهموما

ألا قد بلوتك حتى تبيَّنْتُ خلف رُوائك وجهاً شتيما

كأنك خمر تُريح الفؤادَ ... وتنشر في الجسم داء مقيما

كأنك ادركتَ كيف تطيبُ فيك الحياةُ فتجري نعيما

فأرسلتَ تلك الهمومَ اقتضاءً ... ولم ارَ اعسرَ منك غريما

مصر الجديدة

بشر فارس

ڤولتير

روسو

مقتطف ابريل ١٩٣٣

امام صفحة ٤١٩

جان جاك روسو

تحليل دقيق لمبادئه وآرائه الفلسفية

﴿ تمهيد عن روسو ﴾ يكاد يكون روسو الوحيد بين الفلاسفة الذي انشأ نفسه بنفسه لانه لم يدخل مدرسة ولم يتعلم ويتثقف الاّ بين احضان الطبيعة ، فشبَّ حرًّا من كل قيد ، طليقاً من كل ما يرسف فيه غيره من اغلال العادات والتقاليد ، نفوراً من الناس لا يميل الى معاشرتهم ولا يأنس بصحبتهم ، لانهُ رافق البؤس منذ نعومة اظفاره وذاق من مرارة العيش وعلقم الحياة ما جعلهُ حقوداً على بني البشر ، نزوعاً الى لوم مساوئهم ، ميَّالاً الى عدم الثقة بعدالتهم وبصلاحهم . وقد كان في شبابه وسيم المحيَّا جذَّاب الملامح واكسبه تجواله في الجبال والاودية متانة العود ورشاقة القد فأصبح جميلاً فتاناً ولذلك صادف نجاحاً عند كل الذين تعرَّف بهم ولاسيما لدى الجنس اللطيف ، وكان ذلك مدعاة لانضاج آرائه الفلسفية ومذاهبه الاجتماعية التي بثها في كتبه فعجلت في اشعال نيران الثورة الفرنسية وكان لها اكبر تأثير في مذهب الادب التجديدي المسمى رومانتيك

وقد خالف سائر الفلاسفة في آرائه وتخطاهم بمراحل عديدة ، واهم فارق يبعده عنهم هو كونه حاسيٌّ . اي انه لا يهيم في اودية الخيال ليعبر عما يتصوره بادراكه وعقله بل كان يرسم بقلمه ما يشعر به بحواسه . فبينما سائر الفلاسفة يقضون اوقاتهم في التفكير كان روسو يقضي وقته بالتمتع والتألم ، وبينما وصل غيره بالبحث والتحليل الى فكرة الرأي وتكوين العقيدة وصل هو بحسه وطبيعته الى حقيقة الادراك وصحة الاعتقاد ، فاولئك يبحثون ويحللون وهو يعيش ويشعر ، وكل ما خطته انامله مستق من شعوره واحساسه ولذلك بدت آراؤه كأنها مستخلصة من مسبباتها ، شعرية ، حقيقية ، ثابتة ، مشيَّدة لا مخرَّبة هدَّامة ، على نقيض آراء غيره من الفلاسفة التي تبدو على الخصوص تحليلية ، نقادة ، سلبية ، انكارية ، نافية ومدمّرة . فلدى هؤلاء الفلاسفة حقد أتم ، وتهكم أعم ، واستهتار وازدراء عظيمان ، حيث لا يوجد لدن جان جاك روسو سوى حماسة وحبور وافتتان وسرور

﴿ حياة روسو ﴾ ولد جان جاك روسو في مدينة جنيف بسويسرا في اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو سنة ١٧١٢ من اب فقير يشتغل باصلاح الساعات ، وماتت امه وهو طفل فكفلته عمتاه ولكن لم ينل منهما اعتناء كبير بينما ابوه الارعن الاخرق كان يحشو عقله وتصوراته بالروايات العشقية ، فكان يقضي واياه الليالي ساهرين يقرآنها بشغف وهيام حتى مطلع الفجر ،

ثم نبذ روسو الروايات والقصص وعكف على قراءة فلوطرخس المؤرخ اليوناني والاخلاقي الكبير الذي وضع كتابه الشهير المسمى «تاريخ الرجال العظام عند اليونان والرومان» فملأ الفتى رأسه باخبار الاقدام والشجاعة . وفي سنة ١٧٢٢ غادر والده مدينة جنيف لسبب غير مشرف وعهد بابنه الى خاله برنار والى زوجته فادخلت هذه الاخيرة روسو في معهد عند احد الرعاة الانجليكانيين الكائن في بوسي بالقرب من جنيف ، فتفتحت ميول الفتى للطبيعة لكنه عاد الى جنيف ووُظف عند احد النساخ لكنه لم يحسن القيام بما طلب منه فادخل عند حفار غليظ الكبد صخري القلب كان يشبعه ضرباً فيسرق له روسو فواكه حديقتهِ وكل ما تصل اليهِ يده

وكان قرب حانوت الحفار مكتبة فشرع الفتى يقرأ كل كتاب يجده على متناول يده لكن الحفار كان يحرق له الكتب ويضربه ضرباً موجعاً اليماً . فعوَّل روسو على ان يجد له مخرجاً مما هو فيه ، وبينما هو ذات يوم يهيم في ضواحي جنيف متمتعاً بما يتجلى امامه من مناظر الطبيعة الخلابة اقبل الليل من دون ان يدري، ولما قفل راجعاً وجد ابواب المدينة مغلقة فحمد الله على هذه الفرصة وعزم على هجر جنيف والضرب في هضاب الارض وشعابها وكان عمره وقتئذ ست عشرة سنة ، فسار في مقاطعة السافوى فالتقى به قسيس كاثوليكي فأرسله الى قصر سيدة تسمى مدام دي وارانس اخذت على نفسها رد البروتستانت الى الكثلكة، فراقها حسن منظره فبعثت بهِ الى دير في مدينة تورين حيث اعتنق المذهب الكاثوليكي بسهولة، وبعد ذلك غادر الدير وفي جيبه عشرات الفرنكات ولما نفدت التحق بخدمة المنازل ليعيش

وبعد ما تنقل في مدن عديدة وبلدان شتى عاد الى قصر مدام دي وارانس فادخلته في دير قريب ليصبح قسيساً لكن نزعته الآفاقية ما لبثت ان عاودتهُ فشرد في البلاد وزار لوزان ونيوشاتيل وليون وباريس وحط رحاله في مقاطعة الشارميت الجميلة حيث مكث ثلاث سنوات من سنة ١٧٣٨ الى سنة ١٧٤٠ ، فعكف على الدرس والمطالعة واتمام ثقافته فدرس الكتب الفلسفية والتاريخية واللاهوتية والشعرية وغيرها

وبعد ما طوَّحت به الاقدار في بلدان اخرى عاد الى باريس وتعرَّف بالعلماء والفلاسفة، فكلفهُ الفيلسوف ديدرو ان يدبج المقالات الموسيقية اللازمة لدائرة المعارف ، وفي سنة ١٧٤٩ وضعت ندوة العلوم في مدينة ديجون جائزة مالية لمن يحسن الاجابة عن هذا السؤال «هل تقدم العلوم والفنون ساعد على افساد الاخلاق او على تطهيرها ؟ »

ففاز روسو بالجائزة لان جوابه كان مضادًّا للرأي العام القائل بان العلوم والفنون هذَّبت من طباع البشر ورفعت من اخلاقهم . فظهر دفعة واحدة وذاع صيته وانتشر اسمه ولما اظهر كتابه المسمى « رسائل في عدم المساواة» احدث الكتاب ضجة عظيمة ودويًّا كبيراً في اندية الادب وفتحت الصالونات والقصور في وجه المؤلف الشاب لكنهُ كان جافًّا في طباعه نفوراً

من الناس لا يحسن المعاشرة ولا يميل اليها ، فنبذ كل هذا وهجر المال الوفير الذي كان يتدفق عليه وعاد الى تجواله رغم تمسك رجال الادب والفلسفة بهِ

وفي سنة ١٧٥٤ رجع الى احضان البروتستانتية ، وبعد ما جاس الديار في فرنسا وسويسرا وانجلترا وعشق كثيراً وتبذَّل اكثر عاد الى باريس وسكن في منزل حقير وشرع ينسخ القطع الموسيقية ليجد ما يقتات بهِ بعد ما صودرت كتبه في كل البلدان تقريباً

وعندئذٍ تولاه شبه جنون كان يصور له الناس كلهم اعداء له يعملون على النكاية بهِ فأغلق بابه دون قصاده وزواره الذين كان معظمهم من علية القوم وذوي المكانة الادبية والعلمية وكان يطردهم بغلظة وفظاظة ، ومات في سنة ١٧٧٨ فقيراً معدماً ويقول التاريخ من المحتمل ان يكون قد انتحر مدفوعاً الى ذلك بالخلل الذي طرأ على عقله

﴿ مؤلفات روسو ﴾ لبث هذا الفيلسوف الكبير والكاتب العبقري حتى السابعة والثلاثين من دون ان يخط شيئاً او يبرز رأياً الى ان جرت مباراة اكاديمية العلوم في ديجون في هل ساعد تقدم العلوم والفنون على رقي الاخلاق او عمل على افسادها، فكتب رسالته الشهيرة وفاز بها على سائر المتسابقين وكان ذلك في سنة ١٧٤٩ ، ومنذ ذلك الزمن حتى سنة ١٧٦٢ اي في اثنتي عشرة سنة وضع كل مؤلفاته التي رفعته الى اعلى طبقة بين رجال الفلسفة والادب وهي «نارسيس» و«هيلويز الجديدة» و«رسالة في المناظر» و«العقد الاجتماعي» و«اميل» و«رسائل في عدم المساواة»

واما « اعترافاته» ومتممتها «التأملات» فقد الفها في الست عشرة سنة الاخيرة، وهي ليست بذات قيمة من الوجهتين الفلسفية والادبية، لانها ليست سوى تخيلات شيخ طاعن في السن يحيا بتذكاراته الماضية معيداً في مخيلته باشتياق عظيم ولذة كبيرة حياته السالفة المشوّشة غير المنتظمة

﴿ آراء روسو الفلسفية الاجمالية ﴾ الانسان صالح في حالته الطبيعية ، وكيف يمكنه ان يكون غير ذلك والشرائع غير موجودة وعلم الاخلاق الاصلاحي لا اثر له ؟ فهو لا يخطىء ضد القواعد اذ ليس ثمت قواعد ، وهو اناني لكنه لا يتبع في ذلك غير الغريزة التي تملي عليه المحافظة على بقائه ، فهو اذن بريء كالحيوان ، لا يسعى الاّ لاشباع حاجته فلا يمد يده باذى الى احد ، ولا يتطلب شيئاً غير ذلك اذا ما نال تلك الحاجة . وهو ذو احساسات لطيفة او متعبة توقظ نشاطه وتنبّه غريزته ، ولا يتطرق اليه الفساد الاّ في اليوم الذي يعلو فيه تفكيره على احساسه ويسمو فيه عقله على غريزته ، فعندئذٍ تخلّي انانيته الشرعية الجميلة المكان للمنفعة الظالمة الكريهة، فالتنازع والشقاء يتولدان من تعدد الاحتياجات ومن الابتكارات المصطنعة لِلَذّات الآراء ، ومن الاحتياطات للمنافع المقبلة المخالفة للطبيعة، فالاجتماع قد افسده بايجاده فيه التفكير والعقل والمنفعة، وباماتته في عاطفته حاسة الشفقة ، وبتنبيهه فيه شهوات النفس الى ما وراء حاجته ، وبتخطيه في ذلك حدود الحاضر وتطلعه بلهف الى المستقبل القريب والبعيد

﴿ رأيه في «رسالته في عدم المساواة » ﴾ يظهر لمن يدرس مؤلفات هذا الفيلسوف ان آراءه متضاربة متناقضة ومبادءه لا تسير على وتيرة واحدة بل هي متعارضة متباينة قد ينقض بعضها بعضاً ، وهذا ماعابه عليه كثير من النقاد ، ولكن من يتعمق في درس كتب روسو ويستوعبها بكل دقائقها يجد ان آراءه وان بدت في الظاهر غير ذات صلة فهي في الباطن متضامنة متناسقة متسلسلة ترمي الى غرض واحد وهو ان الانسان خلق حرًّا فاستعبد وولد سعيداً فأرهق بالمظالم والمغارم ، وان الانسان الطبيعي اشرف نفساً وارفع مبدأً من الانسان الاجتماعي فيجب اذن الرجوع الى الطبيعة ولكن في عدم تقهقر الانسان عما وصل اليه في الاجتماع ، لان الطبيعة لا تتقهقر — وهنا سر المآخذ التي يأخذها النقّاد على روسو — فهو يعترف في بعض كتبه مُجلياً هذه النقطة من ان الانسان الاجتماعي افضل من الانسان الاصلي أي من الانسان القديم الذي كان يعيش في احضان الطبيعة كالحيوان الاعجم ، ولكن يجب ان ينقّى الاجتماع من الشوائب التي تسللت اليه لكي يتسنى للانسان الاجتماعي ان يعيش في بيئته الجديدة حرًّا طليقاً من كل قيد ، سعيداً لا يرهقه عَسْف ولا ينزل به ظلم او جور ، بعيداً عن المؤثرات الاجتماعية التي تفسد ميولهُ الفطرية السامية وتدهور اخلاقه وتنزل من سمو نزعاته ومراميه. واما رأيه الذي ابداه في عدم المساواة فينحصر بقوله : ان رذيلة الاجتماع الاساسية هي عدم المساواة بين افراد البشر ، وتوجد في الطبيعة ايضاً نقيصة مثل هذه لكنها لا تمنع احداً من ارضاء شهوة نفسه ، ولا تُعفي احداً من العمل على ارضائها ، فهي تترك كل واحد حرًّا وتوجده صالحاً وسعيداً ، واما عدم المساواة الاجتماعية فهي تخلق امتيازات بين افراد بني الانسان فتقول لبعضهم خذوا كل شيء ولا تعملوا شيئاً بينما تقول لسواد الناس : كدُّوا واتعبوا ولكن ليس لانفسكم بل لغيركم . فتُوجِد بذلك ظُلاَّماً وعبيداً واشراراً واشقياء

واصل الداء الاجتماعي المِلْك ، فهو ركن الهيئة الاجتماعية ودعامتها المتينة ، فالقوة والجاه والعظمة والشرف كل هذه الصفات المجحفة تعود الى عدم المساواة في توزيع الاموال أي تعود الى المِلْك ، وبمراعاة هذه الحالة يمكننا ان نعبر عن الشر الاجتماعي بانه تعارض بين الغنى والفقر

﴿ جوابه عن سؤال اكاديمية العلوم في ديجون ﴾ لما كان الاجتماع شريراً في جوهره ، ولما كان كل تقدُّمه ينحصر في كونه يسير من سيءٍ الى أسوإِ ، فَسِمَةُ الحالة الاجتماعية البارزة هي دليل على فساد اشد واقوى ، أي كلما امعن الاجتماع في رقيه كان شره أعم وضره أتم ، لان تقدم الهيئة الاجتماعية يقاس بدرجة إيناع الآداب والفنون التي هي ابتكارات الانسانية الذكية ، غير انها تدل دلالة واضحة على عَسْف هذه الانسانية وظلمها ، لان هذه الابتكارات متولدة من الشر ، وهي في الوقت نفسه تُذْكي هذا الشر وتزيد في ضرامه ، لاننا نرى في كل مكان الآداب والفنون على صلة وثيقة بالترف، وما الترَف الا غنى البعض بشقاء الكل

﴿ مذهب روسو في العقد الاجتماعي ﴾ الرجوع الى الطبيعة . . ولكن لما كانت الشقة قد بعدت بين الحالة الفطرية والحالة الاجتماعية لايتسنى للانسان ان يتخلص من هذه ليعود الى تلك . واذا أمكنه ذلك اصبح اشقى مما كان ، لان الانسان المتوحش والانسان المتمدن يختلفان اختلافاً عظيماً بنزعاتهما وعواطفهما واميالهما وخوالج فؤاديهما حتى ان ما يسبب سعادة الواحد يعود بالتعس على الآخر ، لان الانسان المدني افضل من الانسان الفطري من عدة وجوه ، ولو انهُ في حالته الجديدة يتجرد من مزايا عديدة كانت تمنحها له الطبيعة ، ولكنه يربح في مقابل ذلك مزايا اخرى عظيمة ، فخواصّه تتمرن وتتبسط ، وقواه العقلية تتمرّس بشؤون الحياة ، وافكاره تتسع ، وعواطفه تسمو وتشرف ، ونفسه كلها ترتفع وتعلو حتى انه لولا التطرف في تقمصه الحديث الذي ينزل به في اكثر الاحيان الى دركة احط من التي ارتفع منها لوجب عليه ان يبارك الزمن السعيد الذي انتشله الى الابد من تلك الهوة العميقة ، والذي جعل منه مخلوقاً ذكيًّا بل صيره انساناً بكل معنى الكلمة

ان روسو لايود ان يعود الانسان القهقرى الوف السنين ليفوز بالمزايا الفطرية التي كان يتحلى بها بل يريد ان يحتفظ هذا الانسان بما وصل اليه من رقي عقلي وتثقيف ذهني وتقدم علمي دون ان تسفّ الاخلاق الاجتماعية بهذه الصفات السامية الى الدرك الاسفل

ويتطلب هذا الفيلسوف من الهيئة الاجتماعية ان تمنح هذا الكائن النازع الى الكمال الحرية والسعادة والطيبة والصلاح وهي المزايا الطبيعية التي كان الانسان الاول يتحلى بها قبل ان يجرده منها الاجتماع ومساوئه ، ويعقب على ذلك بقوله ان الطبيعة اوجدت الانسان صالحاً لكن الاجتماع أفسده ، ولايمكن للانسان ان يعود الى صلاحه الفطري الاّ بالله الذي خلقه صالحاً لكنه زاغ وحاد عن الطريق السَوِيّ ، فالله القائم في نفسه يعيده الى ما كان عليه ، لانه ينبوع العزيمة الاخلاقية وسند الارادة وخير كفيل للتعهدات النفسية واعظم شهيد على خوالج القلب ونزعات الفؤاد ، وبدون الله ينهار كل شيء ويضمحل بل يزول ويعفو اثره

ورأي روسو في العقد الاجتماعي ان لا يقتصر الاصلاح على الفرد بل يتناول المجموع ، فكما ان الفرد في حاجة الى تقويم مبادئه برجوعه الى فطرته الاولى كذلك الاجتماع محتاج الى الاصلاح في أسسه وتشريعه ، ويتسنى للهيئة الاجتماعية تنقية شوائبها برجوعها الى مبدئها أي الى السبب الذي كُوّنت من أجله

﴿ فلسفة روسو في كتابه « إميل او التربية » ﴾ التجديد المطلوب للفرد يبدأ بالتربية ، فالطبيعة صالحة والهيئة الاجتماعية شريرة ، فيجب اذن ترك الحرية للطبيعة لتعمل عملها الصالح وابعاد الاجتماع عن التعرُّض لامر الطفل الذي يجب ان يكون بمعزل عن كل تأثير اجتماعي . فالطبيعة اوجدت الانسان المتوحش ، فلنجعل طفلنا متوحشاً ، ولنقوّ جسمهُ ولننمِ

حواسه وننبّه غريزته ونساعد فكره على التخلص من احساساته ولنصبر حتى يبدو عقله بدون ان نستعجل نضوجه بالوسائل ، فالانسانية تعلمت بالاحتياج والاختبار ، فلنهيئ للتلميذ الاحتياج ولنجهز له التجارب والاختبارات ، فالشكل البارز للفساد الاجتماعي هو في وقتنا هذا « علم الادب » فيجب اقصاء الكتب عن التلميذ الذي لا يجب ان يبدأ بالقراءة الاّ في السن التي يتسنى لعقله فيها نبذ الرذيلة وتفهُّم الجمال ، فالطبيعة لا تعرف غير الله ، واما القواعد الدينية فمن مبتكرات الهيئة الاجتماعية

فعلينا اذن ان لا نظهر للتلميذ غير الله ، وان لا نظهره لهُ الاّ عند ما يتمكن هو من رؤيتهِ في الطهارة وفي لا نهاية جوهره ، فاذا نهجنا هذا المنهج شبَّ طفلنا قويًّا نبيهاً صالحاً ذكيًّا عاقلاً تقيًّا سعيداً لان الانسان الفطري الذي أُنْمِيَ في الطفل دون ان يفسده مبدأ اجتماعي قد مكَّنهُ من الفوز بكل مزايا الطبيعة دون ان يتسلل الى هذه المزايا نقائص الانسان المدني ورذائله

﴿ من اين استوحى روسو آراءه وافكاره ﴾ تدور كل مؤلفات روسو على محور الفردية ، فعقيدتهُ باجمعها مستقاة مما أَلمَّ بشخصهِ ، لانهُ عبَّر في كتبهِ عن ذاتهِ وعن صلتها بالهيئة الاجتماعية . ولكن لا يجب ان يتبادر الى الذهن ان روسو انما اتى بآراء وافكار لم يسبقهُ اليها احد قبله ، فقد كان شأنهُ في ذلك شأن غيره من الفلاسفة والكتَّاب ، فالمتأخر يأخذ عن المتقدم نظريات يعود الفضل فيها اليهِ لتوسعه في شرحها وتبيانها وإلباسها ثوباً قشيباً لم يكن لها من قبل حتى تبدو كأنها جديدة لروائها وبهائها

فقد اخذ روسو عن الفيلسوف ديدرو رأيه في مناصبة الاجتماع العداء وفي العودة الى الطبيعة ، وتناول من كونديّاك مذهبه الخاص على الاخذ بالامور الحسية والانتقال من المشخَّص الى المجرَّد ومساعدة الطفل على ان يكتشف بنفسه كل الافكار والآراء عوضاً عن ان نلقنهُ اياها (وهذا ما بنى روسو عليهِ كتابه المسمى اميل او التربية)

واخذ عن بوفون الآراء المدعمة والمقوّمة لحدَسه عن الانسان الفطري وعن مذهب التحوّل القاضي بتطور العالم وما فيهِ من الكائنات ، وتناول من مونتسكييه فكرة الشخص المتوحش الخجول البريء وفكرة عدم المساواة وظلم الجماعات للفرد ، واخذ ايضاً عن هذا الكاتب الاقتصادي والاجتماعي وعن بوسييه وعن هبز المذهب القائل ان كل الحقوق تتخذ اصولها ودعائمها من الهيئة الاجتماعية وان الانسان يستمدّ هذه الحقوق كلها من الاجتماع نفسه ، وتناول عن بسكال فكرة الحكم على الملك الذي كان ذلك الفيلسوف يعده اغتصاباً بيّناً

وصفوة القول ان كل هذه الآراء كانت شائعة في زمن روسو فجمعها هذا وصاغها في قالب يستهوي القلوب ووسمها بميسمهِ الفصيح الشائق مستمدًّا من حالتهِ النفسية ومعيشتهِ ونشأته ما جعلها فتّانة خلاَّبة

﴿ مقابلة في المُعتَقَد بين روسو وفولتير ﴾ يعجب البعض كيف ان جان جاك روسو ظلَّ مؤمناً وهو الذي شنَّ الغارة على كل سلطة مع ان فولتير لم يتطرَّف تطرُّفه لكنهُ كان ملحداً كافراً لا يؤمن بالله بل لا يعتقد بوجوده. فروسو كان بروتستانتيّاً والتابع لهذا المذهب المسيحي لا يسعهُ مهما شطّت بهِ الآراء ان ينقلب على دينهِ ويناصبهُ العداء لان المذهب نفسه يبيح لهُ حرية الرأي والتفكير والاخذ بما يرتئيهِ وان كان رأيه هذا مخالفاً لآراء اخوانه في المذهب والمعتقد ، بينما الدين الكاثوليكي لا يسمح باقل شذوذ او خروج عن المعتقد المحدود وسلطته العليا التي يجب الرضوخ لها تحتم على كل من لا يعتقد بجزئياتهِ وكلياتهِ ان يخرج من احضانه

ولما كان فولتير كاثوليكيّاً شاذّاً في الاعتقاد متطرفاً في الرأي يأبى ان يخضع لسلطة مذهبهِ فقد أُبعد عن الكنيسة الكاثوليكية ولذلك ناصب الدين العداء طيلة حياته حتى ان الشطط بلغ بهِ الى ان يتصور الله سبحانهُ وتعالى فكراً — ليس الاَّ — انتجتهُ الاقيسة الفلسفية ووسوسة اظهرتها المنافع العمومية . فالفرق اذن بعيد بين فلسفة روسو القائمة على نبذ كل شيء في الدين ما عدا الله الذي كان جان جاك يعتقد بهِ اعتقاداً راسخاً وبين فلسفة فولتير المشيَّدة على الكفر والالحاد وعلى نبذ كل شيء حتى الله جلَّ جلاله

ولكن لا يسع كل انسان مهما تحجر قلبهُ وصلدت عواطفهُ ومهما إدَّعى الكفر والالحاد وملأ المسامع شقشقة لسان وحشا الكتب بالمروق والزندقة الاَّ ان يعترف في قرارة نفسه بانهُ يوجد إله قوي يسيطر على العالم ويهيمن على العباد ، ولذلك لما رأى فولتير الذي ملأ الدنيا بكفره والحاده نفسه على فراش الموت وتطلع فيما حوله فلم يجد صديقاً ولا حمياً حقيقيين ورفع رأسهُ الى علٍ فازورَّت عنهُ رحمة الله لانهُ لم يتطلبها . . لما رأى نفسه في هذه التعسة اقرَّ رغم انفه بوجود الله الذي انكره وصاح من فؤاد مكلوم : اني اموت منبوذاً من الله والناس

﴿ مذهب روسو في بوتقة النقد ﴾ ان مذهب روسو وان كان خلاَّباً في مظهره الخارجي لكن باطنهُ يرتكز على دعائم تكاد تكون سفسطية اي قياسية ليس الاَّ ، لاسيما فيما يتعلق بتسلسله وبنتائجهِ السلبية ، اذ لا يمكننا ان نوافق هذا الفيلسوف على زعمه من ان الانسان الفطري كان صالحاً للدرجة التي صوَّرهُ بها ، اللهم الاَّ اذا كان صلاحهُ مماثلاً كما يقول روسو لصلاح القرد المسمى « الاوران أُوتان » الذي لا يفكّر بامر غده ولا يجمع المال ولا يَدَّخِره ولا يسخّر غيره من القردة ولا يستعبدها ولا يجيعها ولا يسجنها ولا يمعن فيها فتكاً وقتلاً

ثم الشر الموجود في الدنيا الذي ينسبهُ جان جاك الى الهيئة الاجتماعية ، فهذا في حد ذاته قابل للنقد والتفنيد لان الاجتماع عمل طبيعي فيكون اذن صالحاً اذا كانت الطبيعة صالحة وشريراً اذا كانت شريرة ، ولا يمكن والحالة هذه نسبة الشر اليهِ ونفيه عن الطبيعة طالما ان الاثنين مرتبطان والواحد منهما مشتق من الآخر ، هذا فضلاً عن ان الاجتماع انما وُجد ليعالج

الشر ويداويهِ ويستأصله اذا تسنى لهُ ذلك. يقول روسو في كتابهِ «العقد الاجتماعي» ان الفرد قد باع نفسه بكليتها الى الهيئة الاجتماعية ، وهو قول مردود بطبيعتهِ لان الانسان لا يمنح الاجتماع من حريتهِ الاَّ النزر اليسير الذي يكفي هذا الاجتماع ليقوم بالمهمة المطلوبة منهُ

واما مبدأ جان جاك فيما يختص بالمِلْك الذي ينعتهُ بحجر الزاوية القائم عليهِ الاجتماع ويعده اصل شرور العالم ومنبع جرثومتها فلا يقوم على قاعدة ثابتة لا يأتيها الباطل لان هذا المبدأ مشكوك في صحته مثل حقائق الاشتراكية والشيوعية النظرية وتأثيراتهما العملية

وكتاب روسو المسمى « اميل او التربية » يكاد يكون عقيماً لانهُ لما كانت الطهارة الفطرية التي ينشدها ليست حقيقة راهنة فالتربية السلبية تصبح اذن جنوناً مطبقاً ، لان نبذ السلطة الابوية وابعاد الكتب عن التلميذ وتركه يتخبط في دياجير الجهل حتى الثانية عشرة من عمره من أضرّ الامور بهِ لان الذكاء لا يتقوّى ويظهر الاَّ بالتمرين والممارسة ، واذا لم يمتلىء العقل بالحقائق امتلأ بالاكاذيب والترهات ، فكأن روسو اراد ان يمنع عن الطفل شرًّا فجلب عليهِ شروراً عديدة . فطريقته اذن في التربية منقوضة لانها لا تعدّ التلميذ للحياة التي تتلخص في كلمتين اثنتين لا ثالثة لهما وهما «سعي وملل» فالانسان خلق ليكد لا ليتمتع ، وليكد ويتعب ليس في الوقت الذي يطيب لهُ الكد والتعب فيه بل في الوقت الذي يحلو لغيره او للحظ ان يطلب منهُ الكد فيهِ والتعب ، فالتربية يجب ان تعلمنا اذن ان نعمل ما نسأم منهُ في الوقت الذي نسأم من العمل فيهِ اكثر من غيره . هذا هو مجمل مذهب جان جاك روسو ، وهو لعمري نظريٌّ اكثر منهُ عملي ، ولا نغالي اذا قلنا ان تطبيقهُ يكاد يكون مستحيلاً لانهُ لم يعمل بهِ قط واكبر ظننا انهُ لن يعمل بهِ في السنين المقبلة بل في العصور الآتية مهما دار الزمن وتطورت طبائع البشر

﴿ الفضائل في مذهب روسو ﴾ ليس نقدنا لآراء هذا الكاتب الاجتماعي والفيلسوف الكبير دليلاً على ان مذهبهُ الفلسفي لا يؤبهُ لهُ فقد ابدينا ما يؤاخذ عليهِ ليتسنى لنا اظهار حسناته الجمة بل فضائله التي وان كانت البشرية لا تقدر على العمل بموجبها للانانية المتسلطة على عقول بنيها ولما اختطته لنفسها من طريق لا يمكنها الحيدة عنها ولا النكوص ولكن هذا لا يمنع هذه الفضائل من ان تكون مثلاً اعلى للاجتماع لا يتسنى لهذا ادراكه لاسباب جمة لا يسعنا حصرها هنا

لقد بزَّ روسو فولتير بآرائه الفلسفية التي تأثر بها عصره تأثراً عظيماً حتى كانت السبب المباشر لشبوب الثورة الفرنسوية . فقد اوضح في كتاب « العقد الاجتماعي » ان الهيئة الاجتماعية شركة غايتها المحافظة على كيان الاعضاء المؤلفة منهم والدفاع عنهم ، وان الحكومة لا تكون شرعية الاَّ اذا جعلت غايتها الوحيدة المصلحة العامة ، فاذا راعت ذلك انتفت المظالم وزالت المغارم

ويغلب على الظن — خلافاً لما توهمه البعض — ان روسو لم يسع لاسقاط شكل من اشكال الحكومة بل عمل ما في وسعهِ لملاشاة مبادىء الحكومات ونماطها التي عدَّها مجحفة بحقوق الافراد ، فاذا راعينا ذلك تبدَّى لنا ان مذهب سيادة الامة هي الحقيقة الراهنة التي لا نزاع

فيها لأنها تنفي استغلال الشعب بواسطة الجماعات او بواسطة فرد واحد

ويمتاز روسو بكونهِ اول من حمل على المشكلة الاجتماعية الخطيرة التي تنحصر في الترف من جهة والحرمان من جهة اخرى وفي الغنى والفقر والانانية والكد للغير ، فكل هذه المظالم التي تحيق بالافراد اساسها الامتلاك فاذا زال هذا السبب زالت نتائجه واضمحلت مسبباته الوخيمة

وقد اصاب بقولهِ في «عدم المساواة» ان عدم المساواة السياسية والاجتماعية تكاد لا تظهر ولا يبدو لها اثر اذ كان هناك تساوٍ في الاخلاق والعقول والمدارك ، فحيث يعيش الاشراف والنبلاء والمسيطرون نفس المعيشة التي يعيشها عامة الشعب ويكون لاولئك نفس الافكار والآراء التي لهؤلاء تنتفي عدم المساواة فلا يعود ثمت غُرم ولا ظلم . ورأي روسو الذي ابداه في رواية « هيلويز الجديدة » من الآراء الاجتماعية السديدة ، فقد اظهر فيه تجدد الانسان الخلقي الكامل وكيف يحصل ويتمّ ، وشنّ على الكذب الاجتماعي والنفاق الانساني غارة شعواء ، لان هيئتنا الاجتماعية العتيقة قد شاخت ونال منها الكبر وهي تعيش معيشة صناعية لا طبيعية ، فدأبها في حياتها الرضوخ للعواطف والملاذ وجنوحها للسلوك والآداب الخُلُقية الخارجة عن دائرة الحقيقة ، فالاعتبارات عندها تسمح بازدراء الفضائل عوضاً عن ازدراء التقاليد المرعية واللياقات الوضعية ، ومما يؤسف لهُ انها بعد ما تطلب من الانسان التضحية بضميره وبعفتهِ ونزاهتهِ واستقامته في سبيل انالتهِ الهناءة التي يصبو اليها لا تنجز الوعد بل تنقض عهدها معهُ دون مبالاة كأنها لا تأتي امراً إدّاً

ومن اجمل ما في كتاب «اميل او التربية» الفكرة الاساسية القائلة : اذا كان نشوء الفرد يردّد على وجه الاختصار تطور النوع وارتقاءهُ فتعليم الطفل يجب ان يظهر بشكل ضافٍ حركة الانسانية العامة ، لان سن الاحساس يسبق سن التفكير، والتربية الجسدية تسبق التربية العقلية ، فيجب اذن في بادىء الامر تقوية الجسم وتحديد الحواس ، ولا يمرّن العقل الاّ ليخدم الحواس والجسم ، فالطفل ينشأ والحالة هذه متوحشاً قوياً حذقاً لبقاً مراوغاً محتالاً ، وأما الذكاء فيأتي بعد ذلك اي عند ما تهيّأ لهُ كل الاعضاء الصالحة التي يتسنى لها تقديم ما هو في حاجة اليهِ من التأثيرات والمشاعر ، وتتمكن من تأدية كل ما يطلبهُ منها من الفعال والاعمال

هذا هو الفيلسوف الكبير جان جاك روسو الذي قام في القرن الثامن عشر في وجه الهيئة الاجتماعية متهماً اياها بازاغة الانسان عن محجة الصواب وطالباً منها تركه ليعود الى احضان الطبيعة التي يجد فيها الطيبة والصلاح ، فقد قامت فلسفته كلها على الرجوع الى الحالة الفطرية التي يعدها اكبر مهذب للاخلاق واعظم مثقف للمدارك

وقد كان لمذهبه هذا في ذلك العصر الذي عمّ فيه الفساد وتدهورت فيه الاخلاق حتى بلغت الدرك الاسفل صدًى دَوِيّ في ارجاء المعمورة فرفع بصاحبه الى السماك الاعزل

القاهرة جورج نيقولاوس

ما هو العلم

ليعقوب فام

كنت اتحدث مع طالب في احدى المدارس العالية ، وقادنا الحديث الى العلم ومعنى العلم وغايته ، فاخبرني الطالب ان استاذاً من اساتذة الجامعة يعرّف العلم بالكلام الآتي او بما هو في معناهُ: «العلم هو الحقائق التي اذا وضعت امام عقل بشري في احوال معينة يفهمها كما يفهمها اي عقل بشري آخر في الاحوال نفسها ، وهذه الحقائق لا تتغير بمرور الزمن». فلنأخذ هذا التعريف ولنجعله اساساً للبحث عسانا نخرج منهُ بشيء

ونستطيع ان نزعم لاول وهلة ان هذا التعريف لا ينطبق على الواقع وذلك لان العلم ليس هو الحقائق اولاً ولان العقل البشري لا يعرفها حتماً في كل الاحوال ثانياً ، ولان الاحوال لا تتشابه ثالثاً

لست افهم في الواقع كيف ان وجود نفس بشرية في احوال مشابهة لاحوال نفس اخرى يقدم او يؤخر في معنى العلم . هل ولادة الانسان في بلاد باردة او حارة ، وخضوعه لمؤثرات بيئة معينة من تعليم وتربية وحياة اجتماعية ، هل تؤثر هذه جميعاً في معنى العلم . ثم ما هي هذه الاحوال التي يجب ان تتشابه ؟ هل هي احوال البيئة ام احوال نفسية سيكلوجية ؟ هل مرض العالم او الفرد ، وهل احساساته النفسية من غضب ورضى وحزن وفرح ، يغير من معنى العلم ؟ ام يقصد بالتشابه في الاحوال درجة معينة من الثقافة تمكن الانسان من فهم الحقائق كما يفهمها غيره ، وما هي الدرجة وكيف نقيسها ونعرفها على التحقيق ؟ كيف نعرف ان فلاناً وعلاناً في درجة واحدة من الثقافة . الحق اني اشعر ان التشابه في الاحوال كلام مبهم مرسل لا يمكن التثبت منهُ ، واعرف ايضاً من الدراسات النفسية ان هذا التشابه في الاحوال غير مستطاع ، واعلم ان لكل انسان في الدنيا شخصية مستقلة قائمة بذاتها لا يمكن ان تشبه شخصية اخرى من جميع الوجوه . الحق انهُ من الخطأ الكبير ان يبني الاستاذ تعريفه للعلم على شيء لا يمكن ان يتحقق ، لانهُ ظاهر من كلامه انهُ اذا لم يتوافر هذا الشرط انهار التعريف

وضع ارسطو مبدأً في الفلسفة الطبيعية Physics وهو هذا « لو قذفت بثقلين مختلفين من معدن واحد من مكان مرتفع ، يصل اكبرهما الى الارض قبل الآخر » فكأنك لو قذفت قطعتين من الحديد احداهما تزن رطلاً والاخرى رطلين الى الارض من مكان مرتفع ، فلا بد ان تصل القطعة التي وزنها رطلان قبل الاخرى ، او بعبارة اخرى ان جذب الارض لهذه اسرع من جذبها لتلك . استنبط ارسطو هذه القاعدة وفهمها في ظرف معين ، وفهمها الوف

من الناس ومئات من العلماء واخذوا بها في ظرف معين ايضاً فهل هذه حقيقة اولاً وهل هذا علم ثانياً . اظنهُ من المحتم ان نقبلها على انها حقيقة علمية اولاً وعلى انها علم ثانياً اذا اخذنا بالتعريف السابق

ثم جاء جاليليو بعد ذلك بقرون واجرى هذه التجربة من قمة برج بيزا المائل فوصلت القطعتان الى الارض في وقت واحد ، وشهد هذه الظاهرة اساتذة الجامعة زملاء جاليليو ، ولم يفهموها وزعموا ان جاليليو مخطىء وارسطو مصيب . نعم اخطأ جاليليو لان المعلم الاول لا يمكن ان يخطىء ، ثم اخطأ جاليليو ايضاً لانهُ اجرى التجربة اصلاً ، وكان يجب ان لا يجربها او يفكر في هذا بعد ان قال ارسطو بضده . تشيع الاساتذة لارسطو وتشيع الجمهور للاساتذة وفهمهم كل عقل بشري في تلك الاحوال او في ذلك العصر . فماذا ينتج من هذا ، ينتج منهُ بالطبع ، اذا أخذنا برأي استاذنا ، ان هذه الظاهرة ليست من العلم ولا تمتُّ اليهِ بسبب ، ولكنها علم ايضاً وفي نفس الوقت لأن الدنيا بأسرها تؤمن بهذه الحقيقة في الوقت الحاضر ، والعقول البشرية في مختلف الاحوال — لا بل برغم اختلاف الاحوال — تفهمها وتؤمن بها

اذن لا يجدر بنا ان نقبل هذا التعريف لهذين السببين

ولكن هنالك ما هو ادهى من ذلك وامرُّ ، وهو هذا التطابق بين العلم وحقائقهِ ، ففرق كبير بين العلم في ذاته والحقائق العلمية ، فرق بين ان يكون دوران الارض مثلاً حقيقة علمية وبين ان يكون دورانها هو العلم نفسه . ألا يرى الاستاذ رأيي في ان العلم شيء والحقائق شيء آخر؟ لا بد ان يرى ذلك لانهُ ان لم يفعل ارتطم في مشاكل لاحصر لها . ومثل واحد او مثلان بسيطان يكفيان لاثبات ما نذهب اليهِ . اليك مثلاً بسيطاً : الاستاذ يقطن شارع كذا من الحي الفلاني بمدينة القاهرة . هذه حقيقة ويفهمها كل عقل بشري في نفس الاحوال . أليس كذلك ؟ ولكن هل هذا علم ؟ هل العلم وسكن الانسان في مكان معين شيء واحد ؟ وهل يقول بهذا القول انسان عاقل . ومثل آخر : القاهرة لها حكومة — هذه حقيقة — ولكن هل هذا هو العلم ؟ اظن لا يحسن بنا ان نسترسل في هذه الامثال لأن الخطأ فيها ظاهر واضح ولا تجوز الاطالة فيما هو ظاهر واضح

وملخص القول ان هذا التعريف خطأ وانهُ لم ينل حظهُ من التفكير المنظم بل ارسل ارسالاً من غير تمحيص ، وكان يجب ان يمحَّص ويدرس قبل ان يعطى للناس على انهُ شيء يحتمل النقد ويصمد له

نخرج من هذا كله بأن تعريف العلم على هذا النحو — سواء أكان الاستاذ قد قال بهذا ام لم يقل بهِ — خطأ صريح ، واذن فلنبحث عن تعريف آخر يستطيع ان يثبت على النقد والتجريح ، ويصلح للتداول بين الناس ويكون مطابقاً للحقيقة والواقع

ولكي نصل الى المعنى الحقيقي للعلم يحسن بنا ان نتناوله من ناحية وظيفته ، فهذه هي الطريقة المثلى في تفهم امثال هذه المباحث ، فلو اردت ان تفهم معنى الفلسفة او علم الاجتماع او علم النفس او الطبيعة والكيمياء والفلك وامثال هذه الضروب من العلم ، يكون من المفيد المجدي ان تنظر فيما تفعل هذه العلوم ، ماذا تتناول من مظاهر الكون وماذا تفعل بهذه المظاهر عند ما تتناولها والوسائل التي تستخدمها هذه العلوم عند ما تتناولها . كل هذه وأشباهها امور لا يمكن الاستغناء عنها عند بحث اختصاص كل فرع من العلوم على حدة ، وكل الفروع مجتمعة ، وفي معنى العلم عامة . لست ارى طريقة اخرى لبحث العلم باي شكل من الاشكال

والشيء الذي نلاحظه هو ان العلم يتناول مظاهر الطبيعة هذه بالبحث والتقليب كي يستطيع أن يميز بين السبب والمسبب ، العلة والمعلول ، كيف أتت هذه الظاهرة المعينة هنا ، وماذا أتى بها ، وما هو الأثر الذي تخلفه ، او ماذا تصنع بعد ان أخذت مكانها من نظام الدنيا . فالماء ظاهرة من الظواهر ، ولكن كيف تكوّن ، وماذا كوّنه ، وما هي مقادير أجزائه ، وهل هذه الاجزاء وحدات صماء ام هي الاخرى مركب من اجزاء اصغر وادق وما خصائص هذه الاجزاء على حدة ، وكيف نقيسها هل نعدها واحدة واحدة أم نكيلها بمكيال ، ام نزنها ام نقيسها بالذراع . كذلك يسير بنا العلم على هذا النمط الى ان نصل الى حيث يستطيع العلم أن يقودنا

قلنا ان العلم يتناول الظواهر الطبيعية ، ونقصد هذا على اطلاقه ، وبمعنى آخر نقصد بعض العلوم التي يكون موضوعها من صنع العقل البشري ، أي ان المواد التي تتناولها بالفحص والتقليب ليس لها وجود موضوعي بين المظاهر المادية ، ومن بين هذه المواضيع علم المنطق والرياضيات ، فليس لهذه الانواع من العلم مظاهر موضوعية تبحثها وتدرسها ، وانما موضوعها هو في الواقع من خلق العقل البشري ، فليس للميتافيزيقا موضوع مادي تبحث فيه ، وكذلك ليس للارقام اوالترتيب المنطقي للتفكير وجود مستقل عن العقل البشري ، ومع ذلك ندمجها جميعاً ونطويها تحت المظاهر الطبيعية لأن الانسان في جملته موجود مادي ، او هو في مجموعه مظهر من مظاهر الطبيعة ، وعلى هذا نعتبر مايوجده ويخلقه من مظاهر الطبيعة شأنه كشأن كل شيء آخر من الموجودات

اذن فأول شيء نلاحظه عن العلم انه يتناول المظاهر الطبيعية بالتقليب والبحث ، ولكن لماذا يقلبها ويبحثها ، وما الذي يسعى وراءه من هذا التقليب والبحث

فاول ما يصنعه العلم هو ان يشاهد هذه الظواهر لكي يتعرف خواصها والملابسات التي تلازمها ، كأن تكون سائلة أو جامدة او غازية ، وثقيلة او خفيفة ، وتتصرف كذا او كذلك في الاحوال المتباينة ، فالنور مثلاً ينتقل من مكان الى مكان في امواج من

طول معين ، وينحني عند ما يمر بجوار الاجرام السماوية بحسب مذهب اينشتين ، وينكسر عند ما يمر في الغازات والسوائل والجوامد الشفافة كالماء والزجاج ، ويتحلل الى ألوان عند ما يمر في المخروطات البلورية ، وله ضغط يستطاع قياسه ، ولا يظهر الا اذا كان انعكس على الاجسام ، وغير ذلك من هذه الخواص والمميزات التي تلازمه ، فكأن وظيفة العلم الاولى هي ان يصف المظاهر الطبيعية

ووظيفة العلم الثانية هي ان يحلل تلك الظواهر الى عناصرها الاولية التي تتكوّن منها ، والواقع ان كثيرين من الفلاسفة والعلماء يذهبون الى ان وظيفة العلم الاساسية هي ان يحلل الاشياء ويرجعها الى ما تتركب منه من المادة ، وادوات العلم وآلاته مصنوعة لهذا الغرض بعينهِ قبل ان تكون مصنوعة لأي غرض آخر ، واظن ان هذا هو الواقع . نعم لا ننكر أنه يركّب بعض تلك الظواهر في بعض الاحيان ، كأن يجمع بعض المواد الى بعض ويكوّن منها وحدات جديدة قد يكون لها خصائص ومميزات لم تكن لعناصرها الاولى ، لاننكر ان العلم يستطيع ان يركب الماء من عنصريهِ ، ويستطيع ان يركب كثيراً من المواد العضوية من عناصرها ، ولكنه لم يفعل ذلك ولم يحاوله بوجه من الوجوه الا بعد ان أخذ الماء كما قدمته الطبيعة وحلله وعرف عناصره ونسب هذه العناصر بعضها الى بعض وخواص كل عنصر على حدة وتصرفه في الظروف المختلفة ثم بعد ان بحث كل هذا وعرفه حق معرفته ، اخذ يكوّن الماء من هذه العناصر ، وهكذا فعل في المواد العضوية . فكأن العلم يحلل الظواهر ليفهمها ثم يركبها على سبيل التمثيل لا على سبيل القيام بوظيفته

وهذا ليس مستغرباً في الواقع لاننا نلاحظ ان الظواهر الطبيعية تهبط علينا مركبة جاهزة ، وليست محاولة مفككة ، فالحال كذلك في الماء والهواء والنور والصوت والظواهر الفلكية وحتى الاعمال الانسانية والخوالج والمشاعر النفسية تقفز من النفس الى العالم الخارجي مركبة من عناصر كثيرة متباينة مختلفة ، فيسعى علم النفس مثلاً الى تحليلها الى عناصرها الاولى وبحث كل عنصر على حدة

اذن فالعلم يصف الظواهر ثم يحللها الى عناصرها الاولى ، ثم له بعد ذلك وظيفة ثالثة وهي انه يرتب هذه الظواهر ويبوّبها ويضعها في مكانها من نظام الطبيعة والحياة ، ذلك لانه وجد بالاختبار ان لكل ظاهرة علاقتها بالظواهر الاخرى ، فهي سبب في بعض الاحوال ، وهي نتيجة في بعض الاحوال الاخرى ، لا بل هي سبب لشيء ونتيجة لشيء آخر في معظم الحالات ، والمشاهد في هذا الكون الذي نعيش فيه انه لاتوجد ظاهرة واحدة منفصلة عن باقي ظواهر الكون ، ليس لاية واحدة منها كيان مستقل كل الاستقلال عن نظامنا هذا الذي نعيش فيه ، ليس لكوكب صغير او كبير وليس لجرم من الاجرام السماوية

او لذرّة من الذرّات في هذا الكون، ليس لكائن من كان ، من الانسان الى الالكترون، وجود منفصل عن باقي ما يحيط به من الذرات والموجودات السماوية والارضية ، وحتى الفكر نفسه الذي هو أمر معنوي ليس له وجود مستقل عن الظواهر المادية المحيطة به

فوظيفة العلم الثالثة هي ان يحدد العلاقة بين هذه الاشياء ويدل على حلقة الاتصال بين هذه الظواهر ، ليس هذا فقط ولكنه يبين ايضاً النسب العددية ، ونحن نقصد بالنسب العددية ، مقدار هذه النسب بالقدح والرطل والمتر ، في المسائل المادية الصرفة ، والنسب المنطقية ، او السبب والنتيجة في العلوم الاجتماعية ، ولذلك نرى ان العلم يسير في الارض ومعه الميزان والمكيال والمقياس ، ويستخدم هذه جميعاً في ابحاثه المختلفة وفي تبيان الصلات بين الظواهر الطبيعية المختلفة ، ويجب ان نذكر في هذا المجال ان السببية البينة ان هي في الواقع الاّ الترتيب الزمني بين الظواهر ، فالسبب يتقدم النتيجة في الزمن ليس غير ، والنسبة بينهما في الواقع تقاس بالساعة والدقيقة

واذن فقد توصلنا الى استقصاء وظيفة العلم ، ووجدنا انها تنحصر في وصف الظواهر الطبيعية اولاً ، وتحليلها الى عناصرها الاولى ثانياً ، وتبيان النسب العددية بين عناصرها ثالثاً ، هذه هي وظيفة العلم اولاً واخيراً ، ونستطيع اذن ان نضع تعريفاً منطقيًّا للعلم ، تعريفاً يستطيع ان يثبت على النقد والتجريح دون ان ينهار من اساسه

ولكن قبل ان نصوغ هذا التعريف يحسن بنا ان ننبه الى نقطة مهمة اخرى وهي هذه: ليس العلم شيئاً له وجود مادي مستقل ، ليس هو كائناً بأي وجه من الوجوه ، وانما هو في الواقع الطريقة التي يستطيع بها العقل البشري ان يفهم الاشياء او الظواهر الطبيعية . لقد خلقت فينا عقولنا هكذا ، وركبت في رؤوسنا بشكل لا نستطيع معه ان نفهم ظواهر الكون الاّ بالمشاهدة والوصف والتحليل والترتيب المنطقي او ترتيب الاشياء بحيث يتبع بعضها بعضاً ، فكأن العلم في الواقع ليس شيئاً سوى الطريقة التي يستطيع العقل بها — دون سواها على ما نعلم — ان يفهم الاشياء . ليس للعقل البشري مندوحة عن هذه الطريقة لانهُ هكذا ركب وهكذا خلق

والآن نستطيع ان نعرف العلم هكذا : العلم هو الوسيلة التي نستطيع بها ان نصف الظواهر الطبيعية ونحللها ونبين الصلات بينها ، او العلم هو الوسيلة التي يستطيع بها العقل البشري ان يفهم الظواهر الطبيعية ، وبمعنى آخر ليس العلم شيئاً سوى طريقة او وسيلة للتقارب بين حياة الانسان العقلية وما يحيط به في هذا الكون

وبعد فاننا نشكر الاستاذ لأنه اتاح لنا ان نبحث هذا الموضوع ، سواء أكان ما علمناه هو من قوله ام منسوباً اليهِ خطأً

الحضارة الفينيقية

وتأثيرها في التمدن القديم

الشيخ بولس مسعد

اللغة الفينيقية

اللغة الفينيقية احدى اللغات السامية المشتقة من اللغة الارامية التي انقرضت قبل زمن التاريخ . واشهر هذه اللغات العربية والسريانية والحبشية والفينيقية والاشورية والبابلية . والثلاث الاخيرة انقرضت

يرجع العلماء باللغات التصريفية الى اصلين عامين الاصل السامي او السرياني والاصل السنسكريتي . والاصل السنسكريتي ويعرف مع فروعه باللغات اليافثية نسبةً الى يافث لا يدخل في بحثنا هذا فلا نتصدى له . وأما الاصل السامي فيقسم الى فرعين عامين الفرع الشمالي او السرياني والفرع الجنوبي او الغربي . والفرع الشمالي ثلاث لغات : الآرامية والاشورية والكنعانية . فالآرامية ام لعدة لغات ترجع الى ثلاثة فروع جامعة وهي السرياني الحقيقي وهو افصحها والارامي والكلداني او النبطي . وكذلك الاشورية فقد تفرعت عليها عدة لغات اندرست الآن تماماً . وأما الكنعانية فهي لغة الشعوب الكنعانية ولها فرعان الأول العبرانية وهي لغة اهل الجبال من كنعانيي فلسطين واليوم لغة اليهود الدينية والثاني الفينيقية وهي لغة الكنعانيين الساحليين وعليها مدار الكلام في بحثنا هذا

﴿ تعريف اللغة الفينيقية ﴾ اللغة الفينيقية لغة فريق من ابناء كنعان ولذلك كثيراً ما سميت كنعانية ولا سيما في نبوءة اشعيا . وبينها وبين شقيقتها العبرانية من التشابه والتناسب ما يجعل التمييز بينهما متعذراً وهذا ما جعلهما في نظر علماء اليونان اسمين مترادفين لمعنى واحد . ولئن اختلفت لغة التكلم عند الفريقين من بعض الوجوه لاسباب اهمها ان الفينيقية كانت لغة اهل السواحل والعبرانية لغة اهل الجبال فان لغة الكتابة عند الفريقين واحدة . وليس في الفينيقية الا مميزات قليلة منها كثرة استعمال الضم في حروفها واهمال الخفض في التهجئة الاخيرة من الكلمة . وأما حذف الحركات الطويلة او حروف المدّ في الكتابة فغير مقتصر على هذه اللغة دون سواها بل كان يشمل قديماً اللغات السامية جميعاً . على ان وجوه

الشبه بين هذه اللغات تتناول كثيراً من القواعد والمزايا التي خلت منها اللغات التصريفية الاخرى نظير الحروف الحلقية واقتصار افعالها على زمانين وتشابه مشتقاتها. ومن مميزاتها انها تكتب من اليمين الى اليسار ما عدا الحبشية الحديثة . وهنالك تشابه بينها في الحركات التي تستعمل وتلفظ وفي اسماء الحروف وغير ذلك مما لا سبيل الآن الى ذكره

ولا ادل على ما بين اللغتين الفينيقية والعبرانية من التشابه الشديد من ان الاسفار المقدسة لا تفرق قط بينهما وهي تسمى العبرانية لغة كنعان . ومما يستشهدون به على وحدة اللغتين ان جواسيس يشوع عند عودتهم من مصر خاطبوا راحاب الكنعاني بغير صعوبة وكذلك رسل الجبعونيين وسواهم من القبائل الكنعانية تكلموا امام الاسرائيليين من غير مترجم . وهنالك شواهد اخرى كثيرة تثبت ان هاتين اللغتين كانتا في العصور القديمة ولا سيما في عصر ابراهيم ابي المؤمنين شديدتي التقارب والتناسب وانه ليس هنالك ما يحول دون القول ان اللغة الفينيقية هي التي اختيرت دون سائر اللغات لنقل اول وحي واول سنَّة منزلة الى اهل الارض قاطبة

﴿ منشأ الحروف الفينيقية ﴾ اما لغة الكتابة عند الفينيقيين فترتقي في نشأتها الى اقدم عصور التاريخ والحروف الفينيقية هي في اعتبار جمهور من العلماء اصل حروف الهجاء لسائر اللغات . ذلك ان فن الكتابة كان في اول امره مقتصراً على صور ورسوم تشير اما الى مادة حقيقية موجودة او الى غرض مجازي لا يشار اليه الاّ بالرمز او الى صوت يدل على كلمة مقصودة او على بعض حروفها. ثم تطرقوا الى التعبير عن الفكر برسم صور دالة على مسمياتها بحقيقتها او مشيرة الى الغرض المقصود بقرينة ما . وقد وجدوا من هذه الكتابة ستة انواع هيروغليفية وهي الهيروغليف المصري والعلامات الصينية والعلامات المسمارية في بلاد الكلدان والكتابة الحثية في سورية الشمالية وآسيا الصغرى والكتابة المكسيكية والكتابة الكانوتية وكلاهما في اميركا . غير ان هذه الصور لم تكن تنطوي في مدلولها الاّ على الماديات وما سهل ادراكه من المجازيات وأما التصورات المجردة من المادة كتصور العدل والرحمة والحب والحقيقة والكذب ونحو ذلك فلم يكن من الميسور تمثيلها بالصور فاضطروا لذلك الى التوسع في الاستدلال بنقش الصور على الهجاء الاول من مسمياتها بحيث اصبحت تلك العلامات والصور صوتية بعد ان كانت لا تجاوز حيّز التصور . ولكن هذا النوع من الكتابة ظل قاصراً لا يفي بالحاجة

ذلك كان شأن الكتابة لما انبرى الفينيقيون لاستنباط هجائها . وكان بين اللغتين المصرية والسامية او الفينيقية تشابه تام في خمسة عشر حرفاً اوعلامة (وليس ١٣ حرفاً كما زعم بعضهم) وهي المعبر عنها عند المصريين بالحروف الصوتية فاخذها الفينيقيون واضافوا اليها سبعة حروف من عندهم تبعد صورها عن العلامات الهيروغليفية فاصطلحوا على تأدية لفظها بالخطوط المصرية بحيث القوامن مجموعها اثنين وعشرين حرفاً جعلوها هجاءً للغتهم

وهذا التقارب بين اللغتين المصرية والسامية او الفينيقية يرجع في نشأته الى عصر الرعاة في مصر فقد طالت ولايتهم فيها من القرن الحادي والعشرين الى القرن السادس عشر قبل الميلاد . وباتصال الفينيقيين بالمصريين في ذلك العصر اتصل نفوذ فينيقية الى مصر قبل ان يتصل نفوذ مصر الى فينيقية من حيث الصناعات والدين والآداب على نحو ما ذكرنا في مقتطف اكتوبر سنة ١٩٣٢ ص ٣٤٤ ودخلت اللغة المصرية الفاظ وتعبيرات كثيرة من اللغات السامية . ومن العلماء من يذهب الى ان الفينيقيين لم يقتبسوا شيئاً من مصطلحات الكتابة المصرية وانهم استندوا في وضع حروف هجائهم الى الكتابة البابلية . غير ان هذا المذهب ضعيف لم يقم عليهِ دليل محسوس الى اليوم ولو ان الفينيقيين كانوا رسل الحضارة البابلية والكلدانية الى العالم

ان العلماء لم يجدوا الى اليوم حروف هجاء قبل الحروف الفينيقية وما وجدوه من الكتابات القديمة انما يرجع بهجائه عن بعد او عن قرب الى اصل الهجاء الفينيقي . فهم يردون الحروف في جميع اللغات الى خمسة اصول وهي الاصل السامي واليوناني الايطالي والايباري والشمالي والهندي الحميري وهذه الحروف او الاقلام كلها على اختلاف اصولها ترجع في اعتبارهم الى ام واحدة هي الحروف الفينيقية او الهجاء الفينيقي الذي نقله الفينيقيون مع متاجرهم الى الامم الاخرى . ولو كان الامر غير ذلك اي ان الفينيقيين ليسوا بمستنبطي هجاء لغتهم بل اقتبسوه من سواهم لوجدنا لهجائهم هذا اصلاً في الآثار المصرية او الاشورية والبابلية مع ان ما وجد من هذه الآثار حتى اليوم لا يؤيد هذا المذهب . وتعويلهم في انشاء هجاء لغتهم على بعض العلامات المصرية لا يصح ان يتخذ دليلاً على انهم ليسوا بمستنبطي الهجاء الاول لسائر اللغات

﴿ تطور الحروف الفينيقية ﴾ وقد طرأ على الحروف الفينيقية بعض التغيير فقلب شكلها شيئاً وكيفها قليلاً بحيث لم تثبت الكتابة على وضعها الاصلي الى النهاية . وينحصر ما دخل على هيئتها من التبديل في ثلاثة ادوار

الدور الاول — كانت الكتابة الفينيقية في هذا الدور شائعة عند الشعوب الآرامية باسرها . وكانت تمتاز فيهِ بان من حروفها ما كان في بادىء الامر معوجاً كثير الزوايا ثم صار بعد ذلك مستديراً . ويبدأ هذا الدور على عهد الرعاة في مصر السفلى وينتهي في القرن السادس قبل الميلاد

الدورر الثاني — انقسمت فيهِ الكتابة الفينيقية الى قسمين : الكتابة الصيدونية والكتابة القرطاجنية . فالاولى استعملت من القرن السادس قبل المسيح الى صدر النصرانية . وتمتاز بكون حروفها اكثر استدارة واقل تعرجاً من حروف الكتابة في الدور الاول . وكانت ضخمة من وسطها دقيقة من رأسها . وأما الكتابة القرطاجنية فقريبة من الصيدونية غير ان حروفها غير منسوقة على خط مستقيم بل هي محدبة قليلاً

الدور الثالث — كانت الكتابة الفينيقية في هذا الدور تعرف بالبونية وهي الفينيقية الحديثة

وكانت تستعمل على الساحل الغربي من البحر المتوسط من القرن الثاني قبل الميلاد الى ما بعد استيلاء الرومان على سورية . وحروفها تمتاز ببساطتها وتشابكها تشابكاً اشكلت معهُ قراءتها

﴿ فروع اللغة الفينيقية ﴾ ومن العلماء من يرد لهجات اللغة الفينيقية الى ثلاثة فروع اصلية كبيرة وهي : فرع جبيل وهو اقرب هذه الفروع الى اللغة العبرانية . وفرع صيداء وهو الاهم والاكثر انتشاراً والفرع البوني، وهو لغة الفينيقيين الذين هاجروا الى قرطاجنة

﴿ امتزاجها بسواها وانقراضها ﴾ وقد تقربت اللغة الفينيقية من الآرامية او السريانية عقب الفتح الاشوري . ثم دخلتها الفاظ وتعابير يونانية بعد غارة اليونان على فينيقية فاحدثت فيها انقلاباً كبيراً واوشكت ان تندرس تماماً ولاسيما بعد ان أصبحت اليونانية لغة اهل المدن وكبار القوم في الديار السورية . غير انها بامتزاجها باللغة السريانية ظلت لغة فئة من الشعب الى ان ظهرت اللغة العربية التي تقاربها فقضت عليها وعلى سائر اللغات السامية . واللغة السريانية ثلاثة فروع رئيسية : السرياني الحقيقي وهو افصحها وكان لغة اهل ما بين النهرين والشام الخارجة. والارامي وكان لغة اهل لبنان والشام الداخلة وهو اقل من الاول صراحة. والكلداني او النبطي وهو اقلها احكاماً وكان لغة جبال آسية الداخلية في اشور وبابل وهو ما اثبته ابو الفرج في تاريخه مختصر الدول . اما المحدثون فيعدون السرياني اقل اللغات السامية انسجاماً واحكاماً من حيث نحوه . وقد دخله كثير من الالفاظ اليونانية فسلبته رونقه واجهزت عليه غزوة الاسكندر فقل استعماله في الديار الشامية ولم يأت القرن الثامن عشر حتى كان اضمحل منها تماماً ولم يبق له من أثر هناك الاَّ في قريتي معلولا ومار الياس من ملحقات دمشق . غير انهُ مع ما انتاب هذه اللغة من الضعف ظلت لغة الطقوس الدينية عند السريان والموارنة الى ايامنا هذه خلافاً للغة الفينيقية التي كانت لغة البلاد الاصلية حتى الفتح الاشوري فانها انقرضت ولم يبق للغة الفصحى من أثر الاَّ الفقرات التي ترجمت الى اليونانية نقلاً عن سنكن يتن المؤلف الفينيقي المشهور

﴿ انتشارها في افريقيا ﴾ أما في قرطاجنة والمستعمرات الفينيقية في افريقية الشمالية فان اللغة البونية وهي الفينيقية الحديثة ظلت لغة اهل البلاد الى القرن الثاني بعد الميلاد وبقيت مستعملة هناك بين بعض طبقات الشعب الى القرنين الرابع والخامس من التاريخ المسيحي

ويؤخذ من اقوال العلماء المستشرقين الذين بحثوا في منشأ اللغات السامية وانتشارها ان اللغة البربرية الشائعة في بلاد فازان وما جاورها من الواحات ونواحي اطلس والصحراء الغربية والاقاليم الواقعة في الشمال الغربي من افريقية ذات لهجات او لغات كثيرة ولها علاقة وثيقة باللغات السامية ولا تخلو من صلة باللغة القبطية . وهي ترتقي في نشأتها الى عهد تأسيس قرطاجنة. وقد عثروا في السنة ١٨٢٢ على أمثلة قديمة من قلمها الاصلي منقوشة على صخور بين مرزوق وغات . وفي السنة ١٨٤٥ عثروا على أمثلة اخرى في واحات طوات . ثم وجدوا كتابات

اخرى منقوشة في واحات بنغازي وغدامس وسواها . ووجد العلماء تشابهاً شديداً بين هذه الكتابات والكتابة اللوبية التي وجدوها منذ نحو قرنين في قبر واقع على نحو ثلاثة أيام من خرائب قرطاجنة وحكموا بأن الحروف الهجائية اللوبية او النوميدية التي يستعملها البربر في كتابة لغة غيرسامية هي احدى الاقلام العديدة المشتقةمن الكتابة الآرامية القديمةالاصلية وانها تشبهها في بعض أجزائها بل تقاربها اكثر مما تقارب اللغة الفينيقية وانها اشتقت منها في عصر يرتقي الى ماقبل العصر الذي وضعت فيه الحروف الفينيقية التي وصلت الينا . وهذا التشابه بين الكتابة الآرامية والكتابة اللوبية النوميدية مما حمل العلماء المحدثين على الذهاب الى ان الحروف الفينيقية ليست باصلية وان الفينيقيين ليسوا بمستنبطي الهجاء بل لابد ان تكون سبقتهم اليه امة من الامم السامية التي عاصرتهم او تقدمتهم . والمشهور عند العلماء ان اهل ليبيه كانوا يستعملون لغةتقرب من السريانية والعبرانية لأنهم متناسلون من الفينيقيين الذين تملكوا هذه البلاد وكذلك بلاد البربر فان نحلة من اهل صور ذهبت اليها في السنة ٨٨٦ ق . م وبنت فيها قرطاجنة ونشرت اللغة الفينيقية فيها ولذلك فان لغتها ظلت الى عهد طويل مقاربة للسريانية والعبرانية . فليس من المعقول اذن وهؤلاء القوم من سلالة الفينيقيين الذين استعمروا هذه الاقاليم ان يتفاهموا بغير اللغة الفينيقية . غير ان التحريف الذي طرأ عليها بحكم الزمن جعل لها صبغة خاصة أدت الى هذه الشبهة في أصلها ونشأتها

وصفوة القول ان الفينيقيين هم أول من وضع هجاء لغتهم وان تكن الحروف المستعملة عندهم مشتركة بينهم وبين القبائل السامية والكنعانية التي امتزجت بهم وتألف من هذا الامتزاج الشعب الفينيقي المعروف وكل ماكان يصدر وينشأ من الاعمال في البلاد السامية والآرامية والفينيقية بعد هذا الامتزاج كان يسمى فينيقياً أوكنعانياً نسبة الى هؤلاء القوم لأنهم كانوا أشهر تلك القبائل واكثرها نفوذاً وعلماً وثروة

﴿ أثرها في اللغة اليونانية ﴾ وفي اللغة اليونانية شيء كثير من اللغة الفينيقية. وهذا الامتزاج يرتقي الى زمن هجرة النحل الفينيقية الى اليونان بقيادة قدم او قدموس الفينيقي في السنة ١٥٦٠ قبل الميلاد المسيحي . فان قدموس هذا جاء بقومه الى اليونان وهي غارقة في لجة عميقة من الجهل والغباوة والهمجية . وكانت تسكنها قبائل من البرابرة يعيشون عيشة حيوانية ذليلة في الكهوف وشقوق الارض . ولم تكن الكتابة معروفة عندهم فاقتبسوها منه ومن قومه وهذا هو السبب في مايرى من التشابه والتناسب في معظم حروف الهجاء واشكالها بين اللغة اليونانية واللغة السريانية والعبرانية او الفينيقية

والمعروف ان تاريخ اليونان لايرتقي في نشأته الى ماقبل القرن التاسع عشر قبل الميلاد وانه لما جاءتها اول قافلة من قوافل المستعمرين المصريين بقياده ايناكوس او اينيكوس قبل

المسيح بنحو ألفي سنة كان سكانها في حالة همجية مشهودة كما يستدل من تاريخ بوصويت وقاموس غايطانوس . وقد انشأ ايناكوس له مملكة في بيلوبونيز وأسس مدينة ارغوس وهو سليل الرعاة الذين اجتاحوا مصر وبعد ان استقروا في ممفيس نحو قرنين طردهم فرعون منها الى ارض الدلتا «اباريس» وضاق هذا الاقليم بهم فخرجت قبائل منهم في طلب الرزق خارج وادي النيل ومنها هذه الفئة التي امت بلاد اليونان بقيادة ايناكوس هذا . ثم لحقت بها قبائل اخرى بقيادة شيكروبوس واستقرت في اتيكيا واستولى زعيمها هذا على العرش في السنة ١٦٥٧ ق . م وهو اول من نقل الى هذا الاقليم عبادة اللاهة منيرفا وكانت من معبودات مدينة سايس التي نشأ فيها هذا الزعيم بمصر السفلى . وهو الذي انشأ مدينة اثينا واطلق عليها هذا الاسم تيمناً باسم منيرفا لان هذا هو اسمها باللغة اليونانية

اما قدموس فهو من الرعاة أيضاً جاء بقومه الفينيقيين الى اليونان بعد طرد الفراعنة لهم من مصر السفلى . وكان يصحبه داناوس وقد انشأ ملكاً له في اقليم بيوتسيا وأقام هناك مدينة تيبايس وجعلها قاعدة ملكه وبث الحضارة الفينيقية في ذلك الاقليم ولقن الاهلين فن الكتابة . وحل داناوس في ارغوس واستحوز على عرشها وبث تمدن قومه بين سكانها وقيل انه رزق خمسين بنتاً ازوجهن من ابناء أخيه اجبتوس

وهجرة الفينيقيين الى بلاد اليونان لم تقف عند هذا الحد بل اتسع نطاقها على توالي الايام ولاسيما بعد ان طردهم يشوع ابن نون من اوطانهم فاموها جماعات حاملين اليها حضارتهم وثقافتهم وديانتهم وعاداتهم وصناعاتهم وفنونهم بدليل ما يرى من آثارهم في اسماء شعوبها ومدنها وابطالها واديانها مما اكثر العلماء من ذكره نظير بوكرت ونطاليس اسكندر وسواهما

﴿ الخلاصة ﴾ ويذهب بعض العلماء الى ان اللغة الكنعانية او الفينيقية والعبرانية لم يعثر لها على أثر الا في فلسطين وفينيقية ولبنان وفي المستعمرات الفينيقية ومعنى هذا في اعتبارهم انها نشأت في هذه البقعة لا في مكان آخر وهذا ما يستدل منه على ان الكنعانيين او الفينيقيين هم اول من استوطن الاقليم المعروف باسم فينيقية من الشعوب القديمة وان وجودهم هناك تقدم وجود كل قبيلة اخرى قديمة مختلفة اللغة وانهم اول من حرث ارضها واستغلها واول من بنى المدن وانشأ الممالك فيها . ولم يجيئوا اليها من الخليج الفارسي او من بلاد العربية كما زعم بعض العلماء نقلاً عن هيرودوتس والا لكانوا تركوا هناك أثراً من لغتهم يدل على نزولهم تلك البقاع قبل حلولهم في ارض كنعان هذه . والرأي الذي يعول عليه في هذا الشأن انهم قدموا رأساً من شنعار في كلديا ونزلوا على سواحل البحر المتوسط في البقعة التي سميت باسمهم عند تفرق الشعوب لاول مرة في تاريخ البشرية . وفي هذه البقعة الضيقة انشأوا حضارتهم العجيبة التي كان لها ذلك الشأن العظيم في التمدن القديم

هواجس الغرفة السوداء

ثورة الشاعر

فارق النورُ في المساء الشعابا والظلام البهيم غشّى الغابا [1]
وتمشى على الظلام انقباض نشر الموت فوقه والخرابا
ووراء السياج ترقص أشبا ح أخافت من الحقول الكلابا

اسمعي البوم وهي تنعب في النخـــل وطيف الدجى يروع الغرابا
ودويّ الرياح تصخب في الليـــل وتزجي على الفقير البابا

اقرئي لي.. من الكتاب.. قليلاً قبل ان يطوي الفناء الكتابا
افتحي صفحة المزامير يا أخـــت.. وغنّي لحناً يعزّي الشبابا

اسمعي الريح كيف تكسر في الغصـــن وتخفي على الطريق الشهابا
لم تزل تضرب النوافذ في الليـــل — بعنف — وتدفع الأبوابا

(هو في فزع) اسمعي! وقع خطوة من بعيد ؟!

(هي) لا! بل الوهم قد اضلّ الصوابا!

انظر الأفق.. ويلتي ما اراه ؟؟

(هو) انهُ خاطف أضاء السحابا

اسمعي .. دقة على الباب.. ويلي اطفئي النور .. لا تردي جوابا
خبئيني.. خلف الستار.. وقولي انهُ فرّ في الظلام وغابا

(هي) لا تخف ....

(هو) اسمعي عواء ابن آوى إنهُ في الدجى يجيب الذئابا
اشعلي النور .. اسبقيني الى البا ب فاني سأدخل المحرابا
اطفئي الشمع .. اشعليه .. تعالي إننا سوف نقلق الأربابا
اضربي الدّف.. حطميهِ.. وضجّي ثم صيحي.. هيّا.. أحلّي العقابا
لا .. تعالي نجثو هناك الى الصـــبح فقد يقبل الإله المتابا

اشعلي النور واقرئي لي قليلاً قبل ان يطويَ الفناء الكتابا
افتحي صفحة المزامير يا اخـــت وغني لحناً يعزّي الشبابا

مصر م. ع. الهمشري

(١) المقصود بالغاب هو الحقول المزروعة اذرة

كتاب الاغاني

لابي الفرج الكاتب الاموي

المعروف بالاصبهاني

المغزى الذي يقصد اليهِ الناقد من تصفح كتاب « الاغاني » ليس فيما تضمنهُ من الاخبار والسير واحاديث المجالس انما يبغي الناقد الفني من النظر في « عمل » جدي يعد من الاصول المنقطعة النظير في التصنيف العربي وبخاصة تاريخ الغناء والاطوار التي اعترت الصناعة وحدود تأثيرها في الطرائق وطبقات المغنين ومذاهبهم وما يدل على سلامة نظر المصنف وصحة حكمه من فكرة او ملاحظة او رأي . ولكن صاحب كتاب «الاغاني» اختار طريقة الرواية .وكانت الطريقة السائدة في عصره . واستعان بسلامة ذوقه وحسن اختياره على تدوين الاغاني باخبارها ورتبها بطريقة « ينتقل القارىء بها من خبر الى غيره ومن قصة الى سواها ومن اخبار قديمة الى اخبار محدثة ومن جد الى هزل حتى يكون انشط لقراءتهِ واشهى لتصفح فنونهِ »

وقد كان للرواية تأثير بين في طريقة كتابة التاريخ . خلقت الطريقة المجردة التي يقتصر فيها المؤرخ على ذكر الحادث وزمنه دون تعليل او ملاحظة او حكم . وهي الطريقة التي لم تسلم منها تصانيف مؤرخين من الفلاسفة مثل «ابن مسكويه» و«ابن خلدون» .واتبعها مؤرخو الفرنجة انفسهم في العصور الوسطى وما بعدها . وتعرف باسم «الكرونولوجي» . ولما كانت الرواية سابقة لهذه الطريقة وكانت قديمة لانها ترجع الى العصر الاغريقي . فقد كان تأثيرها ظاهراً لا في تدوين التاريخ وحده بل في العلم العربي نفسه وعند ما اتصل العرب بثقافات الامم القديمة انقادوا الى السليقة في التصنيف وخف تأثير « الكلاسيسزم » في اذهانهم

وجاءت الرواية عن طريق اللغة . اذ كانت اللغة كل علم العرب . والفضل للرواية في ان العرب دوّنوا . وكان علمهم اوسع بكثير مما دوّنوا . وكان الكلام ديوان بلاغتهم وذوقهم وتظرفهم . وكانت حافظة العربي هي العمدة وتغلبت هذه الملكة على سائر ملكات الذهن العربي . فلما كان اتصال العرب بحضارات الامم القديمة واشتراكهم في علوم الاغريق خلفت هذه الملكة اثرها القوي في اساليبهم ولم يسلم الشعر العربي بطبيعة الحال من ذلك الاثر

وكان الاموي الكاتب صاحب كتاب « الاغاني » من خير رواة عصره .وكان «عالماً بايام الناس والانساب والسير» وكان من كبار الحفّاظ . والتفوق في علوم الاسناد والرواية كان من تقاليد البلد الذي ولد فيهِ ابو الفرج . وهو اصبهاني الاصل . بغدادي المنشأ

ولقدكان انتساب ابي الفرج الى اصبهان وشرف ارومته من حظ العلم والاً فلا بد لنا من الاعتراف بالصفات الذهنية العظيمة التي خص بها اهل ذلك البلد . « وقد خرج من اصبهان من العلماء والائمة في كل فن ما لم يخرج من مدينة » . ولا ادري من هو ذلك المؤرخ العربي الذي ذكر ان حضارة العرب مدينة في الكثير الى الاجواء المعتدلة التي تأصل فيها الذهن العربي فان اصبهان من انقى بلاد الله هواءً واصفاها مناخاً واعدلها . ولذلك فان اهلها تطول اعمارهم ولهم مع ذلك عناية وافرة بسماع الحديث . واذا قيل حديث واسناد قيل لغة . فان الباب الملكي للتأويل عند العرب هو اللغة . و« للمناخ تأثير بين في اللغات[1] . وكانت ميزة الكاتب الاموي صاحب « الاغاني » – وهي ميزة كوّنها المناخ — انهُ كان عالماً في اللغة . وكان علمه في اللغة اداته في الكتابة . اداة بليغة هي زبدة ما يخرجهُ راوية للشعر

وفي الحضارة العلمية الاسلامية كانت الاحاطة باللغة نوعاً من التفوق الشائع الذي يرافق بصفة خاصة سائر فروع العلم . فكان الفقيه العربي يفزع اليهِ في الشرع كما يفزع اليهِ في الطب وهو مع ذلك حجة في اللغة . كأن العلم في اللغة والاحاطة بها مقدمة لازمة لكتاب معارف الفقيه العربي

هذا الى ان « ابن خلكان » الذي نعتمد عليهِ في استخلاص حياة الكاتب الاموي روى « انهُ كان يحفظ دون ذلك من علوم اخر : « الخرافات » . و « السير » . ومن آلة المنادمة شيئاً كثيراً منها علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجوم الخ ولعلكم تدهشون لذكره الخرافات بعد اللغة . وهو لا يعني بالخرافات الاقاصيص الشعرية المنسوبة الى الاغريق والفرس والهنود انما نعتقد انهُ يعنى بها الميثولوجيا . وكانت الميثولوجيا في الالياذة قاموس لغة الاغريق وكان يسرُّ ادباء الاغريق ان يرجعوا الى شعر هوميروس لكي ينسبوا اليهِ تصحيح لغتهم واساليبهم[2]

اما اجتماع البيطرة بالنجوم والجوارح في آلة المنادمة فاشبة بتآليف لوحة فذة لمصور أديب مثل «فرومنتان» وانها لتذكرنا بتظرف بيئة رقيقة من ارباب الأدب والشعر والنبل كالتي عاصرت آل ڤالوا في فرنسا . ولقد كان لبعض اللغويين العرب عناية وافرة بالبيطرة . وكانت علاقتها بالاسماء في اللغة من آلة المنادمة في المجالس . وكان الاصبهاني كأديب من أعيان الادباء وافرادهم منقطعاً الى الوزير « المهلبي » بلا شك من الوزراء الذين يجمعون الى التدبير والسياسة حماية أفراد الادباء والمشتغلين بالعلم . وحماية ارباب الفنون من تقاليد الانسانية التي لاتكاد تنقطع

كان العلم الذي يحضُّ عليه مناخ اصبهان هو الحديث والاسناد . وكان من تقاليدها ان يكثر فيها الحفّاظ . ولكن ابا الفرج كأديب وسع اطلاعه كل فروع المعرفة في عصره خص تفوقه في الرواية بالعلم باخبار الناس وايامهم . فكان مؤرخاً بالاصطلاح القديم « الكلاسيك» وكان مؤرخاً راوية اعانهُ ذوقه وصفاء ملكته وقوة روحه على الاحاطة باخبار الغناء في كل

(١) تاريخ الاندلس للضبي . طبع مدريد (٢) ابجر تاريخ النقد

اطواره . واحسانه في هذا الفن لا ينسب الى عبقرية راوية من اعلام الرواة فحسب بل ينسب الى خصائص طبيعية اخرى . أثر اجداده الخلفاء . ذلك الأثر الذي خلص نشأته ورفع مستوى تهذيبه في بيئته. كان اذا فتش المرء نسب اجل سن فيها لم يكن بد من ان يجد في أصل نسبه حائكاً أو يهودياً ! . وكان أبو الفرج الاصبهاني لطيف المذهب نقي الفطرة ظريفاً لا يمل

وان مجرد الموازنة بين مواهب الكاتب الأموي وما وسعه ذهنه الكبير من فروع العلم والطريقة التي اختارها في تأليف كتاب « الاغاني » تحملنا على الايمان بمدى ما بلغه انقياده للمذهب القديم في كتابة التاريخ . ولم تغب عنه مع ذلك الطريقة المستحدثة التي تعني بتمييز اطوار الفن وطبقات اربابه في ازمانهم ومراتبهم . فقال « لعل من يتصفح هذا الكتاب ينكر تركنا تصنيفه ابواباً (١) على طرائق الغناء « Modes » . (٢) وعلى طبقات المغنين في ازمانهم الخ» . ثم اشار الى طريقته فقال « ليس المغزى في الكتاب ترتيب الطبقات وانما المغزى فيه ماضمنه من ذكر الاغاني باخبارها» . وهي الطريقة الاخبارية القديمة المستمدة من علم الاسناد وكان أبو الفرج الاصبهاني من قبل ان يكون مؤرخاً للاغاني من كبار الحفاظ والرواة

هذا الى رأي آخر لابد من ملاحظته . وهو ان العرب لم يكونوا في الاصل مدوّنين . فانهم لما بدأوا بالتدوين ارتجلوا طرائقهم او اقتبسوها مما اطلعوا عليه من طرائق التصنيف عند الامم التي اتصلوا بها فكريًا . فهل وفق العرب عند نقل كتاب «الموسيقى» مثلاً اوقبل ذلك الى الاطلاع على تواليف اخرى في هذا الموضوع ؟ وجلي ان الكاتب الاموي قد رسم لنفسه الطريقة في تأليف كتاب الاغاني . وقد ذكر ابن خلكان انه «جمعه» في خمسين سنة واتفق الرأي على انه لم يؤلف في بابه مثله»

وقد استطاع أبو الفرج الاصبهاني ان يكون كاتباً موسيقيًا ومن نقدة الفن دون ان تكون له مع ذلك ملاحظة ظاهرة او فكرة خاصة او استنتاج او تحليل كما يؤثر عادةً عن نقدة الفن وكان عذره عن الطريقة التي اختارها وقادته اليها غريزته التقليدية « ان الاغاني قلما يأتي منها شيء ليس فيه اشتراك بين المغنين في طرائق مختلفة لا يمكن معها ترتيبها على الطرائق»

وكان أبو الفرج الاصبهاني قد صنف في البدء كتاباً سماه «مجرد الاغاني» واشار الى ذلك في المقدمة فقال « ... اذ كان قد افرد لذلك كتاباً مجرداً من الاخبار ومحتوياً على جميع الغناء المتقدم والمتأخر ... » . والظاهر ان هذا الكتاب كان مرجعه في تأليف « الاغاني » فقد اضاف اليه الاخبار والقصص بترتيب حسن « ليكون القارىء له بانتقاله من خبر الى غيره ومن قصة الى سواها ومن اخبار قديمة الى محدثة ومن جد الى هزل انشط لقراءته واشهى لتصفح فنونه»

فالعلوم التي نبغ فيها الاصبهاني اذا اجتمعت ألفت شبه اوتار مشتركة لهيكل كبير هو الغناء او الموسيقى العربية كلها يمت بصلة الى ذلك الهيكل ويتعلق به : من الحفظ الى اللغة الى السير

فعلم الجوارح . حتى تلك النتف من الطب والنجوم التي كانت تعد يومئذ من آلة المنادمة

ولقد كانت الاغاني العربية نفسها تحتاج الى الحفظ والرواية لان العرب لم تخترع حروفاً « نوتة » لتقييدها. وكان للشعر من حيث كونه صناعة « art » علم هو اللغة وفن هو الغناء: ويجب ان نعلم ان الاغاني العربية تمثل روح اللغة لا الروح العربي الذي انقطع بالعصر الجاهلي : وانها (اي الاغاني) تمثل العاطفة لا الحياة . وانها تتكلم عن الانسان لا عن الجمعية

وكان الاصبهاني كناقد فني وكاتب موسيقي من الطراز الاول يستخرج من مدخر ثمين اشترك فيه اثر اجداده وذوقه ولطف مذهبه فيما اختاره لنفسه من العلوم لكي يجمع في كتابه «ماحضره . . وامكنه جمعه من « الاغاني العربية قديمها وحديثها » وينسب « كل ماذكره منها الى (١) قائل شعره (٢) صانع لحنه (٣) طريقته من ايقاعه (٤) واشتراك ان كان بين المغنين فيه على شرح لذلك (٥) وتفسير المشكل من غريبه وما لا غنى عن علمه من علل اعرابه واعاريض شعره التي توصل الى معرفة تجزئته وقسمة الحانه

وكانت مهمة طفيفة اذا وازننا بها علم الاصبهاني واتساع معارفه في هذا الباب واهتدائه الى مذهب التصنيف في تاريخ الغناء العربي على طرائقه وتمييز طبقات المغنين في ازمانهم ومراتبهم . ومعنى « ترتيب الطبقات » في عرف النقد الفني هو تحليل اطوار الغناء في ازمانه غير ان هذا المثل الاعلى في كتابه تاريخ الغناء بقي كحلم الشاعر في ذهن الاصبهاني الذي كان يعلم ان الناس تجهل اخبار الغناء ومن غنى شعره من الشعراء القدماء وطرائق الايقاع ومذاهب المغنين فكيف يستطيع ان يؤلف بطريقة تحليلية مدارها على الحكم والملاحظة والتفكير والاستنتاج. وانا نعتقد ان الكاتب الاموي اراد ان يتكلم عن الغناء العربي كفيلسوف وان كتابه «الاغاني» كان تجربة ثانية بعد كتاب «مجرد الاغاني» لم يقدر ان يتملص فيها من ضرورة التوفيق بين علمه الواسع وحاجة عصره الى معرفة الاغاني العربية . واراد الاصبهاني ان يتجنب الحشو فلم تمكنهُ طريقته من ذلك و «نقض ما شرطه على نفسه من الغاء الحشو». واراد ان يكون خلقيًّا يراعي من اخبار الغناء « ما تحتاج الاحداث الى دراستها وتجمل بالمتأدبين معرفتها ! » فخالفهُ عيب العصر نفسه في رواية الاخبار. وهو عيب وقع فيه كثير من اللغويين . ونذكر ان المستشرق «س. دوساسي» عند ما نقل مقامات الحريري الى اللغة الفرنسية انتقدها «ارنست رنان» من الوجهة الخلقية ولكن عذر المترجم انه اراد ان تدرس اللغة العربية في تآليف كبار اللغويين انفسهم

ولقد كان الاصبهاني ككتابه يحفظ ذكرى ليالي الانس الحافلة بالغناء ووجوه التظرف والسمر والبلاغة وقصص الملوك في مجالسهم وسيرهم ومغازيهم ومجون الندامى واحاديثهم. ولولا الجزء الفني في الكتاب الذي لا يكاد يفهمه الناس لكان في وسع اي ناقد ان يعده من اشهى كتب الاقاصيص في اللغة العربية [البقية في مقال آخر] عبد الحميد سالم

الابعاد الاربعة

معنى (الحيز — الوقت) في النسبية

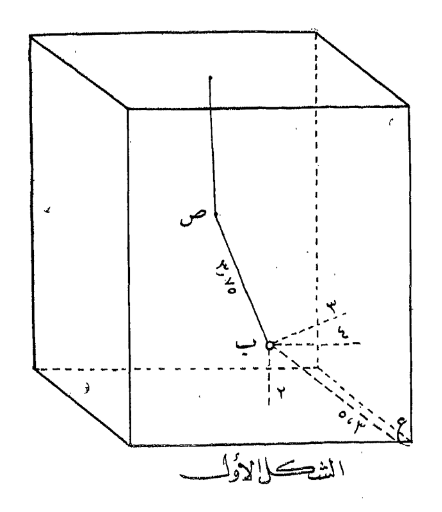
لنقولا الحداد

هوي الاستاذ نقولا الحداد نظرية النسبية فقضى في دراستها سنتين . درس بضعة عشر مؤلفاً لكبار علمائها، منها اثنان لاينشتين نفسه . ثم بسطها في كتاب بالعربية باسهل اسلوب مستطاع من غير استخدام الحسابات الرياضية الا عند الضرورة القصوى واضاف اليه ملحقاً رياضياً لبرهنة « النسبية الخاصة » لمن يشاء ان يطلع على النظرية من الوجهة الرياضية . ومن هذا المقال السهل التناول يرى القارىء ان الاستاذ حداد جعل نظرية النسبية الغامضة اوضح ما يمكن لافهام الجمهور

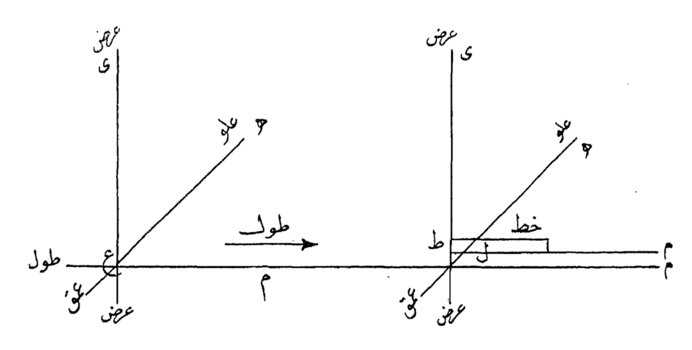
ربما كانت قضية الابعاد الاربعة اغرب قضايا النسبية وابعدها عن المألوف في اذهان البشر وادعاها للاستهجان . وقد زادها هُجنة الكتّاب الذين كتبوا عنها من غير ان يدرسوها ويفهموا المقصود منها فهماً صحيحاً . ففسّروا الابعاد بحدود الجسم الثلاثة : الطول والعرض والعمق (او العلو او السماكة) . واضافوا الزمن اليها بعداً او حدًّا رابعاً باعتبار انه من رتبتها ، من غير ان يفسّروا سرّ هذه الاضافة . فبحسب هذا التفسير لابدع ان تبدو تسمية الوقت او الزمن (رابع الحدود) امراً مستهجناً يستنكره العقل وينبوعهُ التصوُّر . ويمثلون على زعمهم هذا بقولهم : « لهذا الكتاب ، مثلاً ، حدود اربعة : طوله وعرضه وعمقه (او سماكتهُ) والوقت الذي هو فيه » . واذا سألتَهم : مامعنى هذا الكلام وما علاقة الوقت الذي هو فيه بحدوده الثلاثة فلا يستطيعون ان يزيدوك تفسيراً . اجل . لا يستطيعون لان السخافة لاتحتمل تفسيراً

ليس للكتاب ولا لأي مادَّةٍ من الموادّ المحسوسة الاّ طول وعرض وعمق . وكذلك ليس لأي حيّز موهوم في الفضاء الاّ هذه الحدود او الابعاد الثلاثة فقط ، مهما تقلّب العقل البشري في عالم التخيُّل والتصوُّر . لان هذه الحدود الثلاثة هي طبيعة الحيز الهندسي الاقليدوسي المفروض الثابت او المشغول بمادة محسوسة ساكنة غير متحركة

واما نظرية النسبية فلا شأن لها بالحيز المفروض او الموهوم ولا بالجسم المادي الثابت . ولا تعترف بوجود حيّز معيَّن ثابت ولابوجود مادة ساكنة غير متحركة ، بل هي تذهب الى ان الحركة سُنَّة اساسية في المادَّة بمعنى ان كلَّ ذرَّة وكل جسم وكل جرم في الكون متحرك ولولا الحركة لكان عدماً . ولذلك لا معنى للحيز او المكان الاّ بما يشغله من المادة



الشكل الأول



الشكل الثاني

او من مفاعيلها كالتشعُّع والجو الكهربائي المغنطيسي والجو الجاذبي . وحيث لامادَّة ولا شيء من مفاعيل المادة فلا شيء يسمى حيّزاً او مكاناً . وبعبارة اخرى (غيرمنطقية) اذا خلا الحيز من مادة او من مفاعيلها كان عدماً . قلت «غير منطقية» لانه لاوجود لحيز خال من المادة . هو العدم كما قلنا

يستفاد مما تقدَّم ان النسبية لا تعنَى بالاجسام ولا بالحيز الموهوم المفروض ، وانما هي تعنى بالحركات الحادثة (الحوادث) . ولذلك اذا حدَّدت موقع حادثة او اية حركة حدَّدته بالابعاد الاربعة : ثلاثة منها مكانية (حيزية) والرابع زماني . باعتبار ان تحديده لا يتم الاَّ باقتران الزمان بالمكان . ولكي تنجلي هذه القضية النسبية للقارىء وتنقشع من ذهنه تلك الهجنة التي غشّى بها على الابصار الكتَّاب المتسرّعون بلا تحقيق . نشرح القضية فيما يلي مبتدئين بابسط وجه من وجوهها

***

افرض او تصوَّر انك في غرفة مكعَّبة ، كلٌّ من طولها وعرضها وارتفاعها عشر اذرع ، وان هذه الغرفة هي كلُّ الكون . وتصوَّر ان في جانب منها (منضدة) طاولة ، وعلى الطاولة شمعدان ، وعلى قمة الشمعدان عند ب في الشكل الاول ذبابة او بعوضة : وافرض انفي زاوية الغرفة السفلى عند ع رقيباً يراقب البعوضة . فماذا يفعله الرقيب لتحديد موقع البعوضة ؟

افرض انه يقيس اقرب مسافة من موضع البعوضة الى الارض وهي الخط العمودي السمتي منها الى الارض، ولنفرض انه وجده ذراعين .فهل يكتفي لتحديد موضع البعوضة بالقول انه يعلو عن الارض ذراعين او يسفل عن السقف ٨ اذرع ؟ كلاَّ ، لماذا ؟ لانك كيفما دفعت الطاولة في ارض الغرفة دفعاً أفقيّـا تبقى البعوضة عالية ذراعين عن الارض . يلتفت الرقيب الى الجدار الذي عن يمينهِ ويقيس اقرب مسافة من البعوضة اليهِ فيجدها ٤ اذرع مثلاً . فيقول ان البعوضة تعلو عن الارض ذراعين وتبعد عن الجدار الذي عن يميني ٤ اذرع ، فهل هذا يكفي لتحديد موضع البعوضة ؟ كلاَّ ، لانهُ يمكنه ان يدفع الطاولة في خط موازٍ للجدار المذكور وتبقى البعوضة على ذراعين فوق الارض و ٤ اذرع عن الجدار . اذن ، يبقى عليهِ ان يقيس اقرب مسافة بين البعوضة والجدار الذي عن يساره (المعامد للجدار الذي عن يمينهِ) فيجدها مثلاً ٣ اذرع . وحينئذٍ يصح له القول ان البعوضة ترتفع عن الارض ذراعين (او تسفل عن السقف ٨ اذرع) وتبعد عن الجدار الذي عن يميني ٤ اذرع (او عن الجدار المقابل له ٦ اذرع) وتبعد عن الجدار الذي عن يساري ٣ اذرع (او عن الجدار المقابل له ٧ اذرع)

فهل يتحدَّد موضع البعوضة حينئذٍ ؟ نعم . لانه ليس في تلك الغرفة الاَّ نقطة واحدة لها هذه الابعاد الثلاثة المتعامدة فيها عن جهات الغرفة . وهي موضع البعوضة

اذاً ، لابد لتحديد أي نقطة في أي حيّز من ابعاد ثلاثة (مكانية) متعامدة كل واحد منها عمودي على الآخرَين في تلك النقطة . ولا يمكن تحديد موقعها ببعدين فقط . وبالاحرى لا يمكن ببعد واحد ، وهذا ما يسمونه في اصطلاح النسبية نظام المتعامدات الديكاري The Cartisian Co—ordinate System نسبة الى الفيلسوف ديكارت الذي استنبطهُ

هذا هو معنى الابعاد الثلاثة المكانية التي بها يتعين اي موقع في أي حيّز . بقي ان نعلم كيف يأتي البعد الزماني الرابع تتمة لتعيين الحادث . وانما قبل الانتقال هذه الخطوة لابدَّ من شرح مسألة اخرى لا غنى عنها لتمام البحث في موضوع النسبية . وسيرى القارىء خطورتها

قلنا ان المراقب مقيم عند ع . ولابد لهُ من معرفة بُعد البعوضة عنهُ . فكيف يعلمهُ ؟ يلجأ الى قاعدة فيثاغورس الهندسية وهي :

(١) مربع الوتر في مثلث قائم الزاوية يساوي مجموع مربعي الساقين

(٢) مربع الوتر في مكعب يساوي مجموع مربعات الطول والعرض والعمق فاذاً ، المسافة من ع ← ب = $\sqrt{٢^٢ + ٣^٢ + ٤^٢}$ = ٥،٣ . نتقدم الآن الخطوة الاخرى في البحث

***

لنفرض ان في وسط الغرفة تماماً مصباحاً معلقاً على بعد ٥ اذرع من جميع الجهات، عند ص في الشكل الاول (فيكون بُعدهُ عن ع = $\sqrt{٥^٢ + ٥^٢ + ٥^٢}$ = ٨،٦ تقريباً)

ولنفرض ان البعوضة طارت عن الشمعدان في خط مستقيم الى المصباح ص بمعدل سرعة ذراعين في الثانية . قامت الظهر تماماً ووصلت في الثانية ١،٨٧ بعد الظهر

فهنا حادث انتقال البعوضة عن الشمعدان الى المصباح . لم يتم هذا الحادث في الحال بل اشغل مسافةً واستغرق وقتاً في آن واحد . اي ان المسافة التي سلكتها البعوضة بين ب ← ص يعبر عنها بسرعة البعوضة في الثانية مضروبة بعدد الثواني التي قضتها في اثناء الانتقال

والرقيب ع مضطرٌ ان يُدخل الوقت في الحساب لاستخراج موقع الانتقال هذا بالنسبة اليهِ . اذن . نعود الى الحساب ونحدد موقع قيام البعوضة عن الشمعدان وموقع وصولها الى المصباح بالنسبة الى الرقيب ع هكذا : —

	الموقع المكاني			الموقع الزماني	
	طول	عرض	عمق	الثانية	الساعة
موقع وصول البعوضة الى المصباح	٥ ،	٥ ،	٥	١،٨٧	١٢
موقع قيام البعوضة عن الشمعدان	٤ ،	٣ ،	٢	٠٠٠	١٢
نطرح لنعرف فرق الابعاد بين القيام والوصول	١	٢	٣	١،٨٧	٠٠

ذراعاً معدل السرعة ثوان

اذن المسافة بين ب -- ص $= \sqrt{١^٢ + ٢^٢ + ٣^٢} = ٣٫٧٥ = ٢ \times ١٫٨٧$

هكذا هو حساب الرقيب عند ع . وترى منهُ انهُ التزم لاستخراج موقع حادث الانتقال ان يدخل الوقت في الحساب كبعد رابع

بعد هذا الشرح البسيط صار في امكانك ان تتصوَّر المدَّة (الزمانية) والمسافة (المكانية) في كل حركة (حادثة) مرتبطتين ارتباطاً وثيقاً كأنهما لفظتان لمعنى واحد . لانك لا تستطيع ان تتصور اي حادث او اية حركة لجسم الاَّ وانت تمثل في ذهنك سرعة ذلك الجسم تستغرق وقتاً لعبور مسافة . فلا يحضر لذهنك انتقال ذلك الجسم اية مسافة الاَّ وتحضر في ذهنك ايضاً المدة التي قضاها ذلك الجسم في عبور هذه المسافة . لان الحركة تشغل المسافة والمدَّة (المكان والزمان) معاً . فهي الوثاق الذي يوثقهما . رأيت ان البعوضة في انتقالها من الشمعدان الى المصباح اشغلت مسافة ومدَّة في آنٍ واحد . فكان مستحيلاً عليها ان تقطع المسافة من غير ان تشغل وقتاً ، كما انهُ لا يحسب لها وقت اذا لم تتحرك حركة تشغل مسافةً . فالحركة اذاً هي صلة زمانية مكانية بين حادثي قيام البعوضة ووصولها . هذه الصلة هي البُعد الرابع . ليس الوقت وحده البعد الرابع الذي نعنيه اذ لا وجود لهُ . واما الوقت الذي تدمجهُ الحركه بالمسافة هو البعد الرابع . ولذلك في كل حركة نعبّر عن المسافة بحاصل ضرب معدل السرعة في الثانية بعدد الثواني (او اي وُحدة من وحدات الوقت) فنقول م (المسافة) = س × ق (السرعة مضروبة بالوقت) . اذاً ، البعد الرابع هو «الحيز—الوقت» معاً كما ستراهُ في المعادلات الرياضية التي يفضي اليها توسعنا في البحث التالي

***

مع ذلك لا يكتفي الرقيب بهذا الحساب لانهُ ناقص نظريًّا كما سترى . هو ناقص لاننا لم نحسب حساب النور الذي ينقل خبر الحادث الى عين الرقيب . اذ لا يخفى عليك ان النور الذي ينقل الخبر يستغرق وقتاً ايضاً (٣٠٠ الف كيلومتر في الثانية) . نعم ان مدة انتقال النور (من موضع قيام البعوضة ومن موضع وصولها) الى عين الرقيب في غرفة ، لا تعتبر شيئاً البتة (الاَّ نظريًّا) ولكن في المسافات الفلكية السحيقة تكون المدَّات دقائق وساعات وأياماً وسنين فلابدَّ من ادخالها في الحساب . ونحن نضرب الامثال النظرية بالمسافات القصيرة تسهيلاً لفهم القارىء الحقائق العملية في المسافات العظيمة

ولكي تنجلي حقيقة القضية للقارىء جيداً نضرب مثلاً آخر ونغفل عنهُ حساب الارقام لكيلا نعنت ذهنهُ . ونستعيض عنها برموز الحروف . لقد فهم القارىء ان الموقع المكاني

(الحيّزي) لا يمكن تحديده الاَّ بتعامد ثلاثة متعامدات فيهِ بين الجهات الست . الطول من الشرق الى الغرب(مثلاً) ، والعرض من الجنوب الى الشمال ، والعلو من فوق الى تحت — فهم القارىء ذلك فلم يبق لزوم لتكرار الكلام فيهِ ولا للتمثيل بالغرفة او نحوها . يكفي بسط قضية اخرى بالرسم التالي

لنفرض ان النقطة ع محطة سكة حديدية وفيها تتعامد الابعاد الثلاثة م . هـ . ي (كما ترى في الشكل الثاني) محدّدة لموضعها . وفيها قطار . قط . تتعامد فيهِ ايضاً الابعاد الثلاثة: مَ . هـَ . يَ

نرمز عن الوقت الذي قضاه القطار في رحلتهِ بالحرف ق في نظر ناظر المحطة ع وبالحرف قَ في نظر سائق القطار . وسنرى ان الوقت في نظر الواحد يختلف عنهُ في نظر الآخر. ولنفرض ان القطار يسير بسرعة ١٠٠ متر في الثانية نرمز عنها بالحرف س . وهو يسير على خط الطول م وبنفس اتجاهه . ونفرض ان طول الخط الذي يسير عليهِ القطار يساوي م . والمسافة التي يسيرها القطار تساوي سرعته مضروبة بالوقت اي س × ق او س ق والمسافة التي لم يسرها بعد ، اي الباقية من الخط م ويُنتظر ان يسيرها ، تساوي مَ

فلما كان القطار في المحطة كانت متعامدات القطار وبالاحرى جميع ابعاده مطابقة لابعاد المحطة اي ان م = مَ هـ = هـَ ى = ىَ ق = قَ

ثم سار القطار دارجاً على الخط م الى ان وصل او عبر على النقطة ط بعد عدد كذا من الثواني رمزنا عنها بالحرف ق في نظر ناظر المحطة وبالحرف ق في نظر السائق كما تقدم القول. وبناءً عليه اصبحت المسافة م = مَ + س قَ في نظر ناظر المحطة

و مَ = م — س ق في نظر سائق القطار

وبقيت هـ = هـَ

» ي = يَ

» ق = ؟ } سنرى

» قَ = ؟

وهنا نوجّه نظر القارىء الى مسألة جوهرية وهي : في نظر ناظر المحطة القطار يبتعد عنهُ. وفي نظر سائق القطار المحطة تبتعد عنه ، كأنَّ القطار ساكن والمحطة راحلة . فكلٌّ من ناظر المحطة وسائق القطار يحق له ان يعتبر نفسه ساكناً والآخر مبتعداً عنهُ . وما دامت المسافة بينهما تتسع وتنفرج فلا عبرة في ايهما السائر وايهما الساكن وانما العبرة في ان المسافة بينهما تتسع وان نظر كلٍّ منهما يختلف عن نظر الآخر كما سنرى

هذه نظرية دقيقة من نظريات النسبية قد لا يطمئن لها تصوُّر القارىء الاّ بعد شرح كافٍ . وبالاسف ليس هنا متّسع لهذا الشرح الآن . ربما عدت اليه في حين آخر

ترى فيما تقدم ان مسألة الوقت دخلت حتماً في حساب انتقال القطار من المحطة الى نقطة ط كما ترى في المعادلتين الاوليين من المعادلات الست السابقة . ولكن هل هذا الحساب صحيح وتام ؟ او هل هو كل شيء في مسألة البعد الرابع ، الوقت ؟ فلنرَ

ان الملمّ بنظرية النسبية لا يقتنع بهذا الشرح البسيط ، حتى ناظر المحطة ، ومثله سائق القطار ، اذا كان قد اطلع على تعليل مسألة تقلص الاجسام في اتجاه خط حركتها (كما شرحناها في مقتطف فبراير ١٩٣٣) واقتنع بان هذا التقلص يتوقف على نسبة خاصة بين سرعة الجسم وسرعة النور كما تدل عليها عبارة لورنتز الرياضية (التي استخرجناها في ذلك المقال) — اذا كان قد فهم جيداً هذه القضية الخطيرة الشأن التي بنيت عليها نظرية النسبية فلا يقتنع بهذا الشرح البسيط

لا يقتنع الملم بنظرية النسبية بهذا الشرح البسيط لانه يعلم ان ناظر المحطة لما رأى القطار قد مرّ على نقطة ط — او لما بلغه بواسطة اشارة برقية او لاسلكية (راديو) ان القطار مرّ على نقطة ط — كان القطار قد تجاوز هذه النقطة الى نقطة ل (مثلاً) في اثناء انتقال الاشارة اليه لان الاشارة استغرقت وقتاً . ولذلك اصبحت المسافة من ل الى ع تساوي في نظره المسافة من ط الى ع فكأنها تقلصت بقدر المسافة من ل الى ط

***

وقد فهمنا من مقال التقلص المشار اليهِ آنفاً ان مقدار هذا التقلص يساوي :

$$\text{م} \times \sqrt{1 - \frac{\text{س}^2}{\text{ن}^2}} = \text{مَ} + \text{س قَ} \quad \text{وبالجبر لنا} \quad \text{م} = \frac{\text{مَ} + \text{س قَ}}{\sqrt{1 - \frac{\text{س}^2}{\text{ن}^2}}} \quad \text{هذا في نظر ناظر المحطة ع}$$

$$\text{وأما في نظر سائق القطار فان مَ} = \frac{\text{م} - \text{س ق}}{\sqrt{1 - \frac{\text{س}^2}{\text{ن}^2}}}$$

ومن هاتين المعادلتين يمكننا (لو يسمح المقام) ان نستخرج قيمة ق وقَ اي قيمة الوقت في نظر كلٍّ من ناظر المحطة وسائق القطار . فهي :

في نظر ناظر المحطة $\text{ق} = \dfrac{\text{قَ} + \dfrac{\text{مَ س}}{\text{ن}^{2}}}{\sqrt{1 - \dfrac{\text{س}^{2}}{\text{ن}^{2}}}}$

وفي نظر السائق $\text{قَ} = \dfrac{\text{ق} - \dfrac{\text{م س}}{\text{ن}^{2}}}{\sqrt{1 - \dfrac{\text{س}^{2}}{\text{ن}^{2}}}}$

فنرى في هذه المعادلات كيف ان الوقت يختلف عند الواحد عنه عند الآخر كما ان المسافة تختلف ايضاً (ولها بحث خاص) ونرى ايضاً كيف ان الوقت اندمج مع المسافة فكوَّن بُعداً رابعاً جعلته سرعة النور وسرعة الجسم المتحرك يختلف في نظر الواحد عنه في نظر الآخر. (يتضح هذا جيداً في البحث في نسبية التواقت)

ماذا نفهم مما تقدم ؟ لم نفهم مما تقدم ان الزمن بُعدٌ رابع فقط بل علمنا ايضاً امراً آخر عظيم الشأن وهو ان الزمن او الوقت (او المدة) نسبيٌّ يتمدد في نظر المراقب البعيد كما ان المسافة نسبية تتقلص في نظر المراقب البعيد

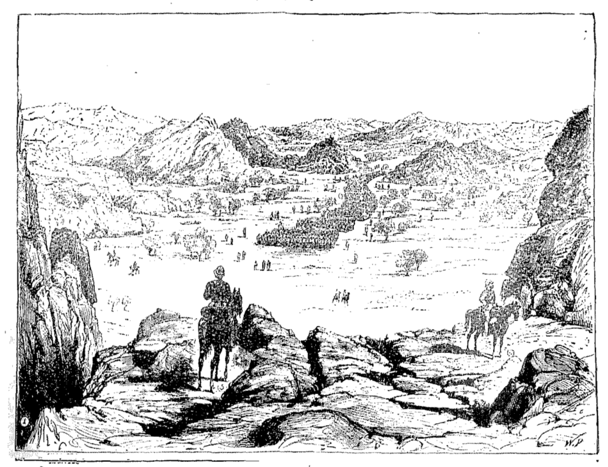
كان العلماء والفلاسفة قبل عهد «النسبية» يعتبرون الزمن او الوقت شيئاً مستقلاً قائماً بنفسهِ لاعلاقة له بالمكان او الحيز . وهو هو بعينهِ في نظر المراقبين للحوادث مهما تباعدت مواقعهم ومهما ترامت مواقع الحوادث عنهم . فكانوا يعتقدون ان الوقت لحادث في اي مكان بعيد هو نفس الوقت لراصد هذا الحادث اينما كان ومهما اختلفت ابعاد الحادث عنه

ولكن من مجرد التأمل في المعادلات المذكورة آنفاً يتضح لك ان الوقت لا وجود له ولا هو بالشيء المستقل القائم بنفسهِ . ماهو الاّ نتيجة فعل الحركة (الحادث) في الحيز . فهو مقياس للحركة فقط . ولما كان نظر الرقباء للحادث يختلف باختلاف ابعادهم عنهُ لان النور (او اي امواج كهربائية مغنطيسية) هو الوسيلة لنقل خبر الحوادث اليهم ، صار الوقت (الذي هو مقياس (الحركة) ، في نظر الواحد منهم يختلف عنه في نظر الآخر حتماً كما تدل عليه المعادلات المذكورة آنفاً

اذاً الوقت (الذي هو بُعد رابع كما تقدم تبيانه) هو شيء نسبي ايضاً . وتتضح نسبيته جيداً في شرح نظرية « التواقت » اي حدوث حادثين متباعدين في وقت واحد . وهي من أهم قضايا النسبية وافكهها . وربما عدت اليها في مقال آخر



غوردون باشا



وصول الحملة البريطانية المصرية الى الخرطوم
بعيد قتل غوردون باشا

شهيد الخرطوم

او غوردون باشا

اصدر المستر بيير كرابيتس القاضي الاميركي في محكمة مصر المختلطة الابتدائية كتاباً نفيساً بعنوان « غوردون : النخاسة والسودان » تتبع فيه حياة غوردون من ناحية عمله في فتح السودان ومحاربة النخاسة وانحصاره في الخرطوم وغير ذلك من الحوادث المتصلة بتاريخ مصر الحديث اوثق اتصال. وقد كتب المؤلف كذلك مقالة في مجلة آسيا الاميركية لخصناها في ما يلي وانما نشير على المعنيين بهذا الموضوع ان يجعلوا المقالة توطئة لقراءة الكتاب . وهو يطلب من مكتبة الانجلو المصرية بشارع قصر النيل

احتفل في ٢٨ يناير سنة ١٩٣٣ بالعيد المئوي لولادة غوردون «الصيني» ولابدَّ ان يكتب الكتَّاب احتفالاً بهذا الحادث بضع تراجم جديدة للضابط الانكليزي الشديد التمسك بالدين والذي قاد الجنود الصينية الى النصر في فتنة تايبنغ سنة ١٨٦٣ و ١٨٦٤ ثم دافع بعد ذلك عن الخرطوم دفاعاً موسوماً بالبسالة ومثيراً للاشجان مما يقلُّ نظيرهُ في مأساة الحرب

وفي مدة حياتهِ تبارى الكتَّاب في المبالغة بذمهِ ومدحهِ . ويقول معاصرونا في تقدير صفاتهِ انهُ بطل عسكري وديني معاً عاش للانسانية لا لنفسهِ

كان لتشارلس جورج غوردون عينان زرقاوان خلابتان تولدان الثقة في الناظر اليهما ويكتسب صاحبهما بهما الاصدقاء . وكان في صوتهِ نعومة ورنة يعرف بهما « الرجل الانكليزي الكريم وكان اقرب الناس الى القلوب واكثر الجنود تمسكاً بالمسيحية

وقد مرَّت الى الآن خمسون سنة منذ اصبح في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ « شهيد الخرطوم » ولكن المناقشة التي قسمت انكلترا حينئذٍ معسكرين وتلاميذ السياسة الخارجية في العالم كله حزبين لم تخمد ويلوح انها سوف تدوم الى الابد

وقد يكون المثل القائل ان الولد ابو الرجل صحيحاً ولكن لم يكن في حداثة غوردون ما يدلُّ على اخلاقهِ وصفاتهِ التي اشتهرت فيما بعد . فقد ولد في ٢٨ يناير سنة ١٨٣٣ وكان الابن الرابع في عائلة مؤلفة من احد عشر ولداً . وكان ابوهُ جنرالاً في الجيش البريطاني وعني بتربيته تربية عسكرية . ولكن مرَّ زمان ظهر فيهِ ان «شقاوتهُ» في المدرسةُ الحربية قد تضطرهُ الى ترك الخدمة العسكرية لانه كان شديد الايذاء للطلبة الذي هم دونهُ في الصفوف ووبخ مرة على ذلك فانتقل من قسم المدفعية الملكية الى المهندسين الملكيين في المدرسة العسكرية الملكية لهذا السبب

ولما ترك مدرسة وولتش للخدمة ضابطاً في قسم المهندسين امر بالذهاب الى عبروك وعهد اليهِ في وضع رسوم لبناء حصون عند مدخل الميناء . وفيما كان هناك تملكتهُ الافكار الدينية فكان يصلي بغيرة رجل متجدد ويكثر من قراءة الكتب الدينية وتغير نظرهُ الى الحياة تغيراً كاملاً

ثم شبت نار حرب القريم فانتدب للخدمة في خنادق سباستبول فامتاز بالشجاعة وهو ابن ٢٢ سنة . وبلغ من ثقة وزارة الحربية بهِ انهُ لما شهرت بريطانيا الحرب على الصين سنة ١٨٦٠ وجّه اليها ولكن القتال انتهى قبل وصوله الى الشرق الاقصى ومع ذلك بقي في الصين اربع سنوات واشتبك في حربها الاهلية فكان ذلك واسطة للتمرس بشؤونها المحلية تمرساً اكسبهُ احترام حكامها وحبهم لهُ

وقاد جيشاً صينيًّا لقّب « بالجيش الدائم النصر » فانعم عليهِ بالسترة الصفراءِ وبريشة الطاووس ورقي الى رتبة « مندرين ». وعاد الامبراطور فرقاهُ الى رتبة تيتو اي ميجر جنرال في الجيش الصيني حتى عرف في الهيئة الاجتماعية في لندن بلقب غوردون «الصيني». وانعمت عليهِ الملكة فكتوريا بنيشان الحمام وبرتبة لفتننت كولونل في المهندسين الملكيين . فلم يبلغ الثلاثين حتى عدّ احد ابطال انكلترا الوطنيين

ولما عاد الى لندن حاولوا حرق البخور لهُ فلم يرقهُ ذلك بل آثر ان يترك وشأنهُ . ورحب بالفرصة التي سنحت لهُ اذ انتدب لاقامة حصون على نهر التايمز فدفن نفسهُ في ذلك العمل مدة خمس سنوات. وقضى ساعات فراغه في الاعمال الخيرية . وكان كثيرون من المرضى اذا حضرتهم الوفاة يدعونهُ اليهم ويفضلونهُ على رجال الدين الرسميين فكان يلبيهم مهما بعدت الشقة. ولكنهُ لم يكن يلبي دعوة الذين يدعونهُ لرياسة الاجتماعات الدينية لانهُ كان يمقت الظهور والتظاهر .

وافضى كرههُ للظهور وبذلهُ نفسهُ عن غيرهِ الى تقوّل كبار الضباط وصغارهم الاقاويل فيهِ ففسروا زهدهُ في امور الدنيا بشذوذ طباعهِ وغرابة اطوارهِ واستهدف بسبب ذلك لسخريتهم حتى بلغت سخريتهم وزارة الحربية . واتفق ان خلا منصبٌ كبير في لجنة الدانيوب الاوربية فعين فيهِ حالاً مما دلّ على ان اهل الشأن لم يبالوا مثقال ذرة بما تقول الناس فيهِ

وفيما كان في الاستانة بصفة مهندس ملكي اجتمع بنوبار باشا وزير خارجية مصر في عهد اسماعيل باشا الخديوي . وكان السر صموئيل باكر الحاكم العام للاقاليم الاستوائية ينوي الاستعفاءَ من منصبهِ وكان لا بدّ من انكليزي يحلّ محلهُ فأُعجب نوبار باشا غاية الاعجاب بهِ فطلبت مصر من الحكومة البريطانية ارساله اليها فلبّت طلبها

وكان مرتب السر صموئيل باكر ١٠ آلاف جنيه في السنة فاصرّ غوردون على ان يخفض مرتبهُ هو الى الفي جنيه وقال « ان الفلاح يعطي هذا المال من عرق جبينهِ ومرتبي في لجنة الدانيوب الفا جنيه فليس هناك سبب يحملني على ان أدع مصر تدفع اليَّ اكثر من هذا المرتب»

وسرّ المهندس الملكي بهذا الميدان الجديد الذي فتح امامهُ اذ رأى فيهِ فرصة لخدمة الانسانية . وكان يعرف ان اواسط افريقية اروج اسواق النخاسة فلذلك فسّر تعيينهُ في منصبهِ الجديد بانهُ وسيلة لمحاربة الرق في منبعهِ

وكتب الى شقيقتهِ سنة ١٨٧٣ وهو في لجنة الدانيوب وقبل قبوله المنصب المصري يقول:

« ان الله اذن في ترك النخاسة وشأنها هذه السنين الطوال . ولما كانت قد خلقت مع القوم فهي في حاجة الى اكثر من حملة لاستئصال شأفتها . لتفتح البلاد اذاً لسقطت من تلقاءِ نفسها. اني اكره ان تفقد نفس واحدة في هذا السبيل وسأحاول منع كل حادث يحدث اذا ذهبت الى هناك »

وكتب اليها بعد ذلك باسبوع :

« اعتقد اذا استقرت احوال السودان ان الخديوي يمنع الاتجار بالرقيق ولكنهُ لا يرى السبيل الى ذلك واضحاً حتى يتمكن من التجوال في البلاد . ومن رأيي ان نفتحها بجعل البواخر تصل الى البحيرات . وفي اثناءِ ذلك اهتدي الى النخاسين فاسأل الخديوي ان يقبض عليهم »

وخير ما يوصف بهِ غوردون انهُ كان اغناطيوس لويولا (مؤسس فريق اليسوعيين) في القرن السادس عشر او متصوفاً انجليكانيًّا عيناهُ في السماءِ وقدماهُ على الارض . او حالماً يفهم نواميس الاقتصاد ويؤمن بالصلاة ويعير تعاليم ادام سمث (الاقتصادي) اذناً صاغية وقلباً واعياً

وقد رأى بعين الحالم الخيالي الذي فيه خميرة من الحقائق ان النخاسة جزء لا يتجزأ من بناء افريقيا الاقتصادي فلذلك عزم ان يناوئها لا بأوامر عالية من الخديوي ولا بالصلاة والصوم بل باسكان الناس في السودان وايصال البواخر الى البحيرات كما قال وبفتح الاقاليم الاستوائية في وجهِ الحضارة

ونال غوردون الحظوة عند اسماعيل باشا في اول اجتماع بهِ فوضع فيهِ كامل ثقتهِ ومنحهُ سلطة لا حدَّ لها في منصبهِ الجديد وعين رئيساً لاركان حربه اميركيًّا اسمهُ الكولونل تشايلي لونغ من مريلند وولى اميركيًّا آخر هو الميجر وليم كمبل منصباً حربيًّا آخر تحت قيادتهِ لمقاومة تجارة الرقيق . ثم سافر غوردون الى قلب افريقية

ولم يكد كمبل يتولى منصبهُ في الخرطوم حتى توفي بالحمى . اما لونغ فانتدب لمهمة في اوغنده فعين اميركي آخر محلهُ هو الميجر بروت وكان ينوب عن غوردون في اثناء غيابهِ

ولم يمض زمان طويل حتى طالب من الخديوي ووزارة الحربية في لندن طلباً إثار مقاومتهما معاً وهو تعيين نخّاس عربي اسمهُ ابو سعود في خدمتهِ . وكان السر صموئيل باكر قد قال عن ابو سعود انهُ مجرم لا يصلح وشهّر بهِ في العالم قائلاً انهُ اعظم نخاسي افريقية . ولكن ذلك كلهُ لم يمنع غوردون من ان يطلب اطلاق سراحه وتعيينه في خدمتهِ حاذياً في ذلك حذو باكر نفسهُ اذ جمع حرساً له من المجرمين ومعتادي الاجرام وهم من الذين سماهم في احد كتبهِ

« اللصوص الاربعين » فحولهم من لصوص الى حفظة للامن منفذين للقانون لم يخونوه مرة واحدة واشتهروا بالبسالة والامانة والاخلاص له . ولما سافر من افريقية عين « وات الملك » من كبار النخاسين سابقاً لحفظ النظام والقانون في السودان الى حين وصول غوردون

ولكن باكر خالف غوردون في اختيار ابي سعود لخدمتهِ وكان عنده اسباب حملتهُ على ذلك وكتب في التيمس ينتقد هذا التعيين . ولم يكد غوردون يستخدم ابا سعود حتى رأى انهُ لا ينفعهُ فصرفهُ على عجل

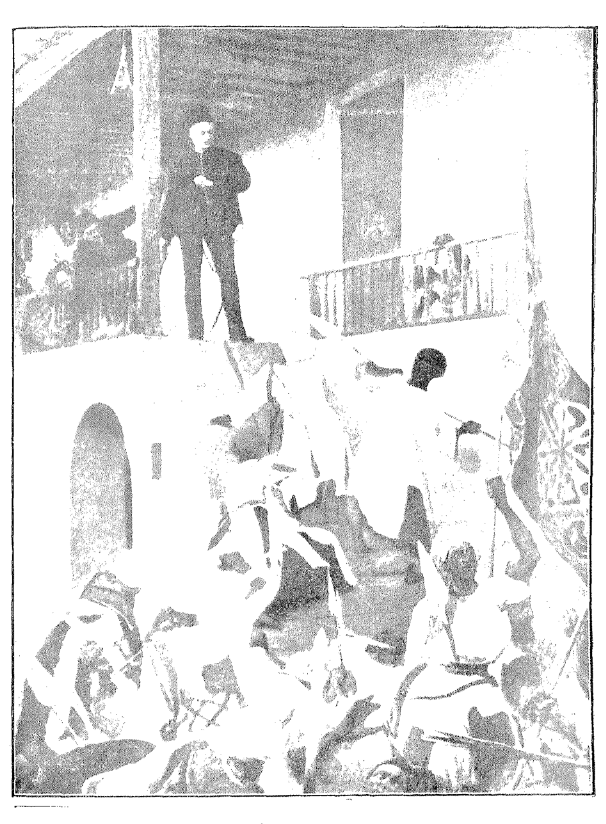
ومن اغرب ما روى عنهُ في اوائل مقاومتهِ للنخاسة ان اول سرب من الرقيق اسره من النخاسين كان مؤلفاً من فتيات سودانيات جيء بهنَّ من بلدان تبعد مئات الاميال. فقال في نفسهِ : ماذا تريد هؤلاء الفتيات حقيقة غير الازواج ؟ ثم امر بهنَّ فحضرن امامهُ فسألهنَّ هل تتزوجن من جنودي ؟ فأجبنهُ بصوت واحد « نعم » . والتفت الى جنوده وسألهم السؤال عينه فأجابوا بما اجاب بهِ الفتيات . فقال «يا بنات اخترن ازواجكنّ» ففعلن فزوج الفتيان بالفتيات . وكتب في مذكراتهِ في ١٩ سبتمبر سنة ١٨٧٧ يقول :

« لقيت صباح هذا اليوم قافلة من الرقيق وعددهم ٦٠ او ٨٠ رجلاً وامرأة وولداً وهم موثقون بالحديد . فماذا اصنع لهم ؟ فاذا اطلقتهم فمن يعنى بهم او من يطعمهم ؟ ومنازلهم بعيدة فمن يعيدهم اليها ؟ لذلك قررت ان اكره النخاس الذي معهم على فك قيودهم وابقائهم معهُ . والحق ان النخاس لم يؤذ احداً بشرائهم لأن شراء الرقيق محلل في مصر ولم يأخذهم من منازلهم . ولا علاج لهذه الحالة الاّ وقف النخاسة على الحدود»

وبقي غوردون يناوىء النخاسة حتى تخلى اسماعيل باشا عن عرش الخديوية سنة ١٨٧٩ وكان الخديو صديقه ومؤيده فلما اكرهت اوربا اسماعيل على الاعتزال رأى غوردون ان الأليق بهِ ان يرحل في اول فرصة . وترك افريقية وعين سكرتيراً خصوصيًّا للورد ريبون حاكم الهند ولكنهُ لم يلبث ان استعفى ثم جاءه تلغراف من السر روبرت هارت المفتش العام للجمارك الصينية يلحّ عليهِ في السفر الى الصين فسافر وساعد على منع الحرب بين الصين وروسيا

وعين بعد ذلك في مناصب مختلفة ثم عاد الى انكلترا فطلب اجازة للسفر الى فلسطين. وفيما كان فيها طلب منهُ ليوبولد الثاني ملك البلجيك ان يتولى ادارة ولاية الكنغو الحرة فقبل بشرط موافقة وزارة الحربية في لندن وعاد الى انكلترا للاستعداد للسفر اليها

ولكن «القسمة» حالت دون انفاذ هذا المشروع . ذلك انهُ لم يكد يصل الى سوثمبتن حتى جاءت الانباء بان جيش هكس باشا أُبيد في الابيض ومات هكس وجميع الضباط الانكليز الذين كانوا معهُ . فروعت انكلترا كلها وضربت الصحف على هذه النغمة وتزعزعت وزارة غلادستون فانفذ غوردون الى القاهرة وهكذا انقذ وزارته. وبقي غوردون على الطريق عشرة أيام استردت



غوردون باشا امام قصر الحاكم في الخرطوم

مقتطف ابريل ١٩٣٣ — قبيل قتله — امام الصفحة ٤٥٥

فيها البلاد صوابها وغلادستون رزانتهُ . فطلب غوردون انضمام الزبير (باشا) الى بعثته فاستنكر غلادستون ومن لفَّ لفهُ من كارهي النخاسة هذا الطلب لاشتهار الزبير بها . ووافقهم اللورد كرومر (السر افلن بارنغ حينئذ) على هذا الاستنكار اولاً فلم يسع غوردون الاَّ السكوت ولكنهُ لما سافر جنوباً جعل ينفذ الرسالة اثر الرسالة الى السر افلن ملحًّا في اقناع لندن بالموافقة على طلبهِ والحق يقال ان كرومر اقتنع بعد ذلك برأي غوردون وأيده في طلبهِ . ومما قالهُ غوردون

ان المصريين والانكليز طبعاً — سيتحولون قريباً عن السودان فتمسي هذه البلاد السوداء معرضاً للرجل الاسود . واقدر رجل اسود اعرفهُ هو الزبير . هو السوداني الوحيد الذي يستطيع اقامة حكومة منظمة في تلك الانحاء . فاذا اعتزلنا — ولا بدَّ من اعتزالنا — وجب ان اسلّم مقاليد الامر الى رجل ما . فان لم يتولَّ الزبير امر رحيلي مع الحامية والملكيين الذين يريدون الرحيل فانهُ لايسعني اذ ذاك الرحيل وان استطعتهُ تلاهُ مذبحة بين الاهالي، فقد يكون الزبير رجلاً شريراً ولكن الضرورة تحوجنا اليه الآن . فبأسم كل شيء مقدس ارجو منك ان تدعني استخدم الزبير

انقذ غوردون غلادستون ووزارتهُ من الهزيمة والخذلان ولكن غلادستون ترك غوردون يقاوم التيار ويغرق مفضلاً ذلك على ان يعهد في امر انقاذه الى وسيلة غير مستقيمة لكن معقولة (الزبير) . لذلك طاول غلادستون وسوَّف وانتظر واكثر الكلام . وقبل ارسالهِ الجواب الاخير كان المهدي قد اطبق على الخرطوم

وبعبارة اخرى ان الوزارة البريطانية ارسلت تلغرافاً من القاهرة الى الخرطوم تخبر غوردون فيها بانها لاتوافق على استخدام الزبير ولكن يظهر ان هذا التلغراف لم يصل بسبب قطع الاسلاك . فقد قال اللورد كرومر في كتاب « مصر الحديثة » الذي كتبهُ « لا اظن ان هذه الرسالة وصلت الجنرال غوردون »

ويوميات غوردون لاتبقي مجالاً الى الارتياب في هذا الامر . وذهب غوردون الى قبرهِ وهو ينتظر جواب طلبهِ لاستخدام الزبير . وفيما كان غوردون بين الرجاء واليأس وقف غلادستون في البرلمان وقال «ان غوردون غير مكتنف . وموقفهُ موقف سلامة على ما نعلم»

ان غوردون لم يخن ولم يضحِ بهِ ولم يتخلَّ عنهُ ولم يُسأ فهمهُ . لكن غلادستون الخطيب السياسي اصرَّ على درس عيني غوردون الخيالي وأبى ان يقرأ عقل غوردون صاحب الحقائق فقد كان هذا العقل صافياً شفّافاً . وسجلات وزارة الحربية وسجلات جريدة التيمس والملحق الذي اضيف الى كتاب باكر «الاسماعيلية» وحملات الجمعية المضادة للرقيق على غوردون وكتابهُ عن اواسط افريقيا — وفيهِ ٤٥٦ صفحة — هذه كلها جعلت عدم فهم غلادستون لعقل غوردون امراً مستحيلاً ، ومع ذلك لم يفهمهُ . وقد اعماهُ عظم اغترارهِ بنفسهِ

قيثارتاه (١)

دنياكَ تسقي الكأس في حينها من خمرة ما عتقت في الدنانْ
إن غاب ما للارض في ارضه فلم تزل تلك المعاني الحسان
راحا الى الخلد فخلاّ على خمائل الطوبى بأسمى مكان
وعلّقت في سدرة المنتهى بين خدور الحور قيثارتان
اذا شدا الأملاك تسبيحهم شاركتا جوق العلى تصدحان

ما نومة الشاعر في لحده بضجعة المهزوم بعد الطعان
لا تندبوه ! ما خبا نوره فشعره نبراس اهل الزمان
معتصَر من مهجة سمحةٍ شعورها يملأ سمع الكيان
يأسى مع الآسين في حزنهم ويبرىء الجرح بلمس الحنان
ويكسب الغبطة في كأسه خمراً — لحاسيها المنى والامان
الزهو والحكمة في شعره وعبرة الدهر وشدو القيان
ودائع التاريخ في لحنه وفي امانيه نجيّ الجنان
مجنّح الفكرة يسمو بها الى ذرى فوق حدود المكان
يحس شوق الورد في روضه ونغمة الزنبق والاقحوان
ويقرأ النجوى اذا أومضت في الزُّهر ليلاً او عيون الحسان
ويحمل الحملة فرداً على جحافل الظلم ويأبى الهوان
في الكوخ حرٌّ عظمت نفسه وفي قصور الملك حرُّ اللسان
من يعرف الشاعر في ذله مرفوعة هامته ما استكان
من يعرف الشاعر في مجده يسحب في ظل المنى الارجوان
احلامه شتى افانينها عزّت على ذي التاج والصولجان
فلنحترم رقدته بعد ما فاز فألقى سيفه والسنان

---

(١) من قصيدة للشاعر السوري الاميركي نسيب عريضة القيت في الحفلة التي اقامها ادباء نيويورك وأديباتها لذكرى حافظ وشوقي

موقف الامويين من الدعوة الاسلامية

واسباب منافستهم لبني هاشم

ما برحت السيرة النبوية ميداناً فسيحاً لاقلام الكتّاب والعلماء شرقيين وغربيين يجولون في نواحيه ومرتعاً خصباً للشعراء والادباء يستمدّون منها الوحي والالهام ، يزيدها البحث والاستقصاء اشراقاً وسناءً ، ويجلوها الدرس والاستقراء ويساعد على استخراج العبر والعظات من ثناياها وعلى استنباط الاحكام والقواعد من تضاعيفها

ويضيق بنا المقام لو حاولنا احصاء ما أُلّف في موضوعها من كتب فامر ذلك يطول وحسبنا ان نقول انهُ لم تبق لغة من اللغات الحية وخصوصاً اللغات الاوربية المنتشرة الاّ وضعت فيها عشرات المؤلفات ، ولئن تجاوز بعض المؤلفين والباحثين الغربيين في القرون الوسطى حدود الاعتدال والروية في تدوين حوادثها وسرد اخبارها ، فقد انصف متأخروهم المسلمين ونبيَّهم فجاءت كتاباتهم يزينها الانصاف وتتجلى فيها روح التجرد والرزانة

ويعثر دارس السيرة النبوية في كتب العرب والافرنج على معلومات مبعثرة في التنافس بين الهاشميين والامويين تميط اللثام عن عوامله واسبابهِ وتبين البواعث التي بعثت هؤلاء على مقاومة الدعوة الاسلامية وخصوصاً في ابتداء امرها ، وهو التنافس التي حفلت بحوادثهِ واخبارهِ المؤلفات القديمة ، وكان مصدر شقاق ونزاع خلال القرن الاول ونصف القرن الثاني بين المسلمين اي انهُ استمرَّ سحابة الحكم الاموي وامتدَّ حتى اوائل قيام الدولة العباسية وقد بالغ رجالها في التنكيل بالامويين وانصارهم ، فلجأوا الى المغرب وانشأوا فيهِ دولتهم الكبرى ، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك في الشرق . ولئن نسي المسلمون هذا الخلاف بعد زوال الحكم الاموي وانقضاء عهده ، فلا يزالون يذكرون مصرع الشهيد ابي عبد الله الحسين في كربلاء على يد الامويين وما اقترن بهِ من فجائع وفظائع يتلون تفاصيلها بكرةً وعشياً

لقد كان حبل الودّ والصداقة ممدوداً في الجاهلية وقبل البعثة النبوية بين الهاشميين والامويين تجمعهم جامعة النسب والقربى وتربطهم اوشاج المصاهرة وهم ابناء عم لحاً . فرسول الله يجتمع مع ابي سفيان في الجد الخامس فهو ابن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، أما ابو سفيان زعيم الامويين يومئذٍ فهو ابن حرب بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف

وكانت الزعامة السياسية والحربية[١] والتجارية لبني عبد شمس في مكة ابان البعثة النبوية وفي الفترة التي سبقتها — لغناهم ولاتساع نطاق تجارتهم فقبضوا على مقاليدها . وكان ابو سفيان يقود القوافل الى الشام والعراق ويضرب اكباد الابل مصعّداً ومصوّباً وطاوياً ارض الجزيرة طيًّا في طلب الثروة والغنى . وكانت الزعامة الدينية في بني هاشم وهم اصحاب سقاية الحجيج ولم تكن حالتهم المادية على ما يرام حيال أبناء اعمامهم من الامويين التجار . ولم يشذَّ عن هؤلاء سوى العباس بن عبد المطلب فقد اصاب حظًا من الثروة والغنى . من اشتغاله بالتجارة وكانت حالة ابي طالب رقيقة يدل على ذلك انه قبل اقتراحاً عرض عليه بان يوزع ابناءه بين آله في احدى سني الجدب للتخفيف عنه فتولى الرسول — بعد زواجه بخديجة وقد حسنت بسببه حالته المادية — امر علي. وكفل العباس جعفر واستبقى ابو طالب عقيلاً لنفسه وكان احبَّ بنيه اليه

وبين الذين اسرفوا في معاداة النبي ومقاومته في ابتداء امره ، ابو جهل واسمه عمرو وكنيتهُ ابو الحكم وهو ابن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي ، وهو عميد بني مخزوم انداد الامويين في الزعامة والثروة والغنى . وقد امتاز هو وابو سفيان في تدبير المكائد وقيادة الجيوش لمحاربة الاسلام والقضاء عليه ، ولئن هلك الاول مقتولاً بايدي المسلمين يوم بدر فقد اسلم الآخر (ابو سفيان) يوم فتح مكة وشهد « حنيناً » مع النبي وتم لابنه معاوية امر الخلافة وانشأ الدولة الاموية وقد نسبت الى جده الاكبر

ومما يصحُّ الاستشهاد به على ما بين الامويين والهواشم من صلة قرابة ونسب ما خرَّجهُ البخاري عن ابي سفيان حينما ورد كتاب رسول الله الى قيصر الروم هرقل يدعوهُ الى الاسلام وكان في حمص فقال حين قرأه التمسوا ههنا لي احداً من قومهِ لأسألهم عنهُ . قال ابو سفيان فوجدَنا رسولُ قيصر فانطلق بي وباصحابي من تجار قريش حتى قدمنا ايلياء . فأدخلنا عليهِ فاذا هو جالس في مجلس ملكه وعليهِ التاج واذا حوله عظماء الروم . فقال لترجمانهِ سلهم ايهم اقرب نسباً الى هذا الرجل الذي يزعم انه نبي . قال ابو سفيان فقلت انا اقربهم اليه نسباً . قال ما قرابة ما بينك وبينه فقلت هو ابن عمي وليس في الركب يومئذ احد من بني عبد مناف غيري الخ[٢]

وعلل ابو جهل اسباب مقاومته لدعوة رسول الله تعليلاً عبر فيه احسن تعبير عما يجدهُ على بني هاشم الذين بعث الله منهم رسولاً فقال ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف اطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه وحي السماء فمتى ندرك مثل هذا ، والله لا نؤمن بهِ ابداً ولا نصدقهُ[٣]

---

(١) يؤيد ذلك ما رواه المؤرخون وهو ان حرب والد ابي سفيان قاد قريش في حرب الفجار وقد وقعت قبل البعثة النبوية وشهدها النبي وهو صغير مع اعمامه وكان يناولهم النبال (٢) البخاري ج ٢ — ص ١٠٥
(٣) ١٩٣ — ج ١ ابن هشام

فهذا «التصريح» يدل على ما كان هنالك من منافسة بل وحسد وعلى ما كان هذا المخزومي يجدهُ على الهواشم وكيف كان يعد قيام واحد منهم بنشر دعوة لدين جديد مجداً شخصيًّا يضاف لهؤلاء ويحرم هو وقومه منهُ ولذلك اجمعوا امرهم منذ الساعة الاولى على المقاومة وعدم التسامح بوجه من الوجوه ، وقد لا يبعد ان يكون هذا الباعث نفسه ، هو الذي بعث بني هاشم ، ولم يقبل الدعوة منهم في اوائلها سوى عدد قليل جدًّا ، على تأييد الرسول وشد ازره وتحمل انواع الاذى والاضطهاد في سبيله . ولا يخفى ان اول من اسلم من الهاشميين هو علي بن ابي طالب وقد كان غلاماً يافعاً في كنف محمد . وتلاه اخوه جعفر وكان بين الذين هاجروا الى الحبشة وأسلم حمزة في السنة الثامنة. وأسلم العباس في السنة العاشرة وكان النبي زاحفاً على مكة. وكذلك سفيان بن المغيرة . ومات ابو طالب وابو لهب على دين الجاهلية . وشذ هذا وحده عن آل هاشم فمالأ الامويين على ابن اخيه واهله . ومات عام بدر متأثراً من ضربة ضربتهُ بها زوجة العباس اخيهِ في حادث طويل ليس هنا مكان بسطه

ويلوح لنا ان السبب في اغراق ابي جهل في العداء وتماديه فيه هو ملازمته للنبي في مكة لايكاد يفارقهُ ليلاً ولا نهاراً خلال السنوات العشر الاولى ، على الضدّ من ابي سفيان الذي كان يرحل في تجارتهِ . على انهُ ما لبث ان تفرد بالعمل بعد هلاك ابي جهل فانتهت اليهِ الزعامة العليا في قريش واصبح سيد القوم غير مدافع . والف ابو جهل الوفود وسار على رأسها الى ابي طالب يرجوه باسم قريش بأن يكف لسان ابن اخيه عنهم ويمنعهُ عن الطعن في آلهتهم ومعتقداتهم وهم مستعدون ان ينيلوه جميع ما يرغب او يسلمه اياهم ليقتلوه وقالوا له يا ابا طالب ان ابن اخيك قد سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه احلامنا وضلّل آباءنا فاما ان تكفهُ عنا واما ان تخلّي بيننا وبينه فانك على مثل ما نحن عليهِ فنكفيكهُ فقال لهم ابو طالب قولاً رقيقاً وردهم ردًّا جميلاً

وكرَّر ابو جهل وابو سفيان قيادة الوفود الى ابي طالب يرجونهُ ان يكف عنهم ابن اخيهِ وكان من عصبيتهِ في حرز حريز . ولما ضاقوا ذرعاً وادركوا انهُ لن يتخلى عنهُ ، وان الاعتداء عليهِ قد يؤدي الى اضرام نار حرب اهلية في مكة لاتبقي ولا تذر وان امرهُ في ازدياد ، قرروا ان يقاطعوا بني هاشم كافة ويحاربوهم حرباً اقتصادية اجتماعية ، وربما كانت قريش اول من لجأ الى هذا الضرب (المقاطعة) من ضروب الحروب الاقتصادية في مقاومة خصومها والاقتصاص منهم لاعادتهم الى رأيها ومعنى ذلك ان المقاطعة عرفت منذ اربعة عشر قرناً ونيف

وعقدت الجمعية العمومية لقريش في الكعبة فدرست قضية بني هاشم وبني عبد المطلب من آل عبد مناف وشدهم ازر محمد فاتفقت الكلمة على ان لا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعون منهم شيئاً وكتبوا بذلك صحيفة وقعها الجميع وعلقوها في الكعبة

ورأى بنو هاشم انهم امام حالة جديدة وان مكة اتفقت بجميع هيآتها واحزابها ورجالها

عليهم لحملهم على تسليم رجلهم لجنحوا الى المقاومة وابوا الخضوع وانحازوا الى ابي طالب فلجأ بهم الى شعبهِ [1] اي شعب ابي طالب واقاموا فيهِ ثلاث سنوات محصورين لا يتصلون بمكة الاَّ في خلال الاشهر الحرم فاذا انتهت رجعوا الى شعبهم وعاد المكيّون الى حصارهم على انهم كانوا يمتارون سرًّا وقد انضم اليهم في هذه العزلة المسلمون . وفي نهاية السنة الثالثة ظهرت حركة في مكة ترمي الى وضع حدٍّ للمقاطعة قادها زهير بن ابي امية وهاشم بن ربيعة وابو البختري بن هشام والمطعم بن عدي فتم لها نقض قرار الحرمان والغاء المقاطعة رغم مقاومة ابي جهل الشديدة

واشتد ساعد المسلمين بعد الغاء المقاطعة وانصرف النبي الى نشر دعوته بين القبائل فاضطربت قريش وعقدت اجتماعاً في دار الندوة فاقترح ابو جهل [2] اقتراحاً فقال : ارى ان نأخذ من كل قبيلة شابًّا فتىً جليداً ، نسيباً ، وسيطاً ، فينا ثم نعطي كل فتىً منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا اليهِ (محمد) فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منهُ فانهم ان فعلوا ذلك تفرَّق دمه في القبائل جميعاً فلم يقدر بنو مناف على حرب قومهم جميعاً

واتصل بهِ نبأ هذه المؤامرة فغادر مكة الى المدينة مهاجراً ليكون في مأمن على نفسهِ ، بعد ان مهد لذلك بمبايعة الاوس والخزرج له وبعد ان امر المسلمين في مكة بالهجرة الى يثرب وهنالك اسس دولتهُ الجديدة فقاتلت قريشاً وغلبتها على امرها وانتزعت منها السيادة والمجد

فقد اصطدم المسلمون بقريش في بدر للمرة الاولى فانتصروا عليهم فسهل لهم هذا النصر التغلب على المصاعب العديدة والاستيلاء على جزيرة العرب . وخلاصة ما وقع ان النبي خرج يوم ١٧ رمضان من السنة الثالثة للهجرة يقود جيشاً يتألف من ٢٤٠ من الانصار و٧٠ من المهاجرين ليسطو على قافلة قريش السنوية الكبرى التي تسافر بين الحجاز والشام فنزل بدراً وهي مكان متوسط تمر بهِ القوافل في غدوها ورواحها وتستقي من آباره فلما علم ابو سفيان وكان يقود قافلة قريش بخروج المسلمين للقائهِ خاف على قافلته وفيها نحو الف جمل موقرة بالبضائع ويبلغ ثمنها نحو نصف مليون دينار فاستأجر رسولاً ارسل الى مكة لينذر اهلها بالخطر وليدعوهم الى الخروج للدفاع عنها فلبوا النداء وهرعوا للحرب بقيادة ابي جهل وعدَّتهم الفاً فساروا ونزلوا وراء كثيب العقنقل في العدوة القصوى من بدر . واقاموا هنالك ثلاثة ايام ثم جاءهم رسول من ابي سفيان وقد نجا بقافلتهِ يقول لهم : انما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم واموالكم وقد نجاها الله فارجعوا . فقال ابو جهل والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم عليهِ ثلاثاً فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا ابداً فامضوا

وانتشرت في جيش قريش فكرة الرجوع وعدم الاشتباك في حرب مع المسلمين يؤيدها

(١) لفظ شعب لا يزال حتى الآن شائعاً في مكة فيقال شعب جياد وغيره والمقصود به معنى الحي تقريبا
(٢) ٢٩٨ ج ١ ابن هشام

حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة والاخنس بن شريق وغيره ، وقد عاد هذا فعلاً بقومه من بني زهرة فلم يشهدها احد منهم . وحاول حكيم ابن حزام اقناع ابي جهل بالرجوع فأبى وحرض الناس على القتال فوقعت المعركة ودارت الدائرة على قريش وقتل ابو جهل نفسه قتله شابان من الانصار (معاذ بن عمرو بن الجموح واخوه معوذ) ارشدهما اليه عبد الرحمن بن عوف فضرباه فجرحاه . ودافع عنه ابن عكرمة

ومرَّ عبد الله بن مسعود بابي جهل بعد انتهاء المعركة ، يتلمس القتلى ، فوجده بآخر رمق فعرفه فوضع رجله على عنقه ثم قال له هل اخزاك الله فقال اخبرني لمن الدائرة اليوم

— لله ولرسوله — لقد ارتقيت مرتقىً صعباً يارويعي النغم

ثم حزَّ عبد الله رأسه وجاء به الى النبي والقاهُ بين يديه فقال الله الذي لا اله الاَّ هو . وهكذا انتهت حياة هذا الزعيم

***

انتهت الزعامة العليا في الوادي[1] بعد قتل ابي جهل وغيره من كبار الامويين يوم بدر الى ابي سفيان فاخذ يعد العدة للثأر والانتقام فهو الذي دبر حملة احد وقادها كما قاد غزوة الخندق ثم اسلم يوم فتح مكة كما قلنا آنفاً وذلك انه خرج يبحث في اعالي مكة عن خبر النار وقد اوقدها جيش المسلمين حينما وصل ليلاً ، وما كانت قريش تعرف من امره شيئاً ، لان النبي بالغ — حسب عادته — في كتم خبر زحفه على مكة . فالتقى ابو سفيان بالعباس عم النبي وقد أسلم هذا قبل ذلك فقال له يا ابا حنظلة هذا رسول الله في الناس واصباح قريش واثمه . قال فما الحيلة فداك ابي وامي ؟

— والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فاستأمنهُ لك

وركب ابو سفيان خلف العباس وكانا كلما مرَّا بنار من نيران المسلمين قالوا هذه بغلة رسول الله حتى مرَّا بنار عمر بن الخطاب فقام عمر حينما رأى ابو سفيان وقال هذا عدو الله ابو سفيان الحمد لله الذي امكن منك بغير عقد ولا عهد ثم خرج يشتد نحو رسول الله وركض العباس البغلة فسبقتهُ فدخل عليه ودخل عمر وراءه . فقال يا رسول الله هذا ابو سفيان قد امكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني فلأضرب عنقه . فقال العباس اني قد اجرته ثم جلس الى النبي فاخذ برأسه وقال لا يناجيه الليلة دوني رجل . فلما اكثر عمر في شأنه قال العباس : مهلاً ياعمر فوالله انهُ لو كان من رجال عدي بن كعب ما قلت هذا ولكنك قد عرفت انه من بني عبد مناف . واخيراً امر النبي العباس بان يذهب به في رحله ويعود به في الغداة فلما رآه الرسول في الغداة قال ويحك يا أبا سفيان لم يأن لك ان تعلم انهُ لا إله الا الله

— بأبي انت وأمي ما احلمك واكرمك واوصلك والله لقد ظننت انهُ لو كان مع الله آلـه

(١) كانوا يكنون بهذا عن مكة لوقوعها في واد بين جبال شامخات

غيره لقد اغنى عني شيئاً بعد — ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك ان تعلم اني رسول الله — بأبي انت وامي ما احلمك وأكرمك واوصلك . اما هذه والله فان في النفس حتى الآن شيئاً فتدخل هنا العباس وقال له : ويحك اسلم قبل ان تضرب عنقك فاسلم . واقترح العباس على النبي ان يجعل لابي سفيان شيئاً يمتاز به عن غيره فاعلن ان من دخل دار أبا سفيان فهو آمن

والطلق هذا الى قومه فصرخ باعلى صوته : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم في ما لا قبل لكم به فمن دخل دار ابي سفيان فهو آمن. فلما سمعت زوجته هند بنت عتبة صياحه قامت اليه فاخذت بشاربه فقالت اقتلوا الحميت الدسم الاحمس قبح من طليعة قوم . فقال لا تصغوا اليها

وهكذا كانت نهاية ابي سفيان وعلى هذا المنوال دخل في الاسلام فهل كان مخلصاً في اسلامه ؟

ان هنالك حادثتين حدثتا بعد ذلك تلقيان شيئاً من النور على موقف ابي سفيان

فالحادثة الاولى كانت يوم حنين فقد كمن المشركون للمسلمين فلما وقعوا في الكمين اسخنوا فيهم طعناً وضرباً فتراجعوا وكان ابو سفيان في جيش المسلمين فلما رأى ارتدادهم وتراجعهم في اول المعركة قال « لا تنتهي هزيمتهم دون البحر[1] » فهو بذلك يعرب عن اغتباطه بهزيمة المسلمين ويقول انهم لن يقفوا حتى البحر اي انهم سيجلون عن مكة

واما الحادثة الثانية فكانت يوم وفاة النبي فقد حاول ابو سفيان ان يحدث حدثاً فخطب سهيل بن عمرو وكان من خطباء قريش في مكة فقال «والله اني لأعلم ان هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها . فلا يغرنكم هذا (واشار الى ابي سفيان) من انفسكم فانه يعلم من هذا الامر ما اعلم ولكنه قد ختم على صدره حسد بني هاشم »[2]

على انه لا بدَّ لنا من الاشارة الى موقف يزيد بن معاوية حينما جيء له برأس الحسين الى دمشق بعد كربلاء ـ وهو ذو صلة بموضوعنا ويدل على ان دخول الامويين في الاسلام وبلوغهم الذروة العليا من السيادة بفضله لم تنسهم قتلاهم ببدر فقد روى الرواة انه لما وضع رأس الشهيد ابي عبد الله الحسين بين يديه في طشت اخذ ينكته بقضيب في يده وينشد — ليت اشياخي ببدر شهدوا الخ

وهناك امر آخر قد يفيد التنبيه عليه وهو انهُ كان بين الامويين من اسلم في ابتداء الدعوة وأدى خدمات جليلة للاسلام وفي مقدمة هؤلاء الخليفة الثالث عثمان بن عفان صهر النبي فقد دخل في الاسلام على يد ابي بكر وكان رابع اربعة دخلوه فأولهم خديجة ثم علي ثم ابو بكر ثم عثمان واسلم معه في يوم واحد سعد بن ابي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وبلال

وكذلك فقد دخل في الاسلام حنظلة بن ابي سفيان وهو كبير انجاله واستشهد هذا في صفوف المسلمين يوم احد . وحذيفة بن ربيعة وغيرهم ولعلنا ندرس هذا الموضوع في مقالة اخرى

القاهرة امين سعيد

(١) ابن هشام ٢٩٢ — ج ٢ (٢) نور اليقين ١١٥

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرض المذاهب السياسية

﴿ المصلحة الفردية فوق سائر المصالح ﴾ كان الرأي الشائع في القرن التاسع عشر — قبل انتشار الآراء الاشتراكية — عن الحكومة وحق تدخلها في الشؤون العامة رأياً فردياً خلاصته ان كل فرد هو اعرف الناس بمصلحته الخاصة فلو ترك وشأنه في الظروف الملائمة لسعى دائماً للحصول على ما ينفعه ، لذلك لا يجوز للحكومات ان تتدخل في شؤون الناس اكثر مما هو ضروري لدفع الاذى ومنع سوء الاستعمال والاّ فان عملها يعرقل سير الناس في طلب المنافع ويقضي عنهم في المسائل التي يجب ان يقضوا هم فيها بأيديهم . ومن العجيب ان تكون هذه النظرية الفردية — لا نظرية «العقد الاجتماعي» ولا « الحقوق الطبيعية» — هي التي انتقلت بانكلترا من الحكم العظامي الى الحكم العصامي . وان (جرمي بنثم) مؤسس نظرية السعادة الفردية وصاحب كتاب (اصول الشرائع) الذي نقله الى العربية المرحوم فتحي زغلول كان الحكيم الذي طبع بطابعه الخاص اصلاح سنة ١٨٣٢ البرلماني وهي سنة وفاته . وبموجب هذا الاصلاح امتدّت حقوق الانتخاب الى الافراد واتسعت اتساعاً كبيراً وازيحت بعض العقبات المهمة التي كانت تعتورها . ونحا هذا النحو الفردي ايضاً الفيلسوف الاقتصادي الكبير (جون ستورت مِلْ) المتوفي سنة ١٨٧٣ والمستر (هربرت سبنسر) شيخ الاجتماعيين المتوفي سنة ١٩٠١ وفي وسعنا ان نوجز « الحكمة البنثمية » ورأي البنثميين اجمالاً بما يأتي : وهو ان المعيار المضبوط للحقوق السياسية التي يتمتع بها الناس هو المصلحة وان السعادة العظمى للاكثرية العظمى هي غاية المجتمع وان هناءة الافراد من النساء والرجال الذين يؤلفون المجتمع — لا المجتمع نفسه — هي التي يقام لها وزن في القسطاس السياسي . وكان اصحاب هذه الديمقراطية الفردية ومن لفّ لفهم من الد اعداء التدخل الحكومي حتى ان المستر (هربرت سبنسر) لما نشر كتابه «الاحصاءات الاجتماعية» في سنة ١٨٥٠ ذهب فيه الى ان وظيفة الحكومة تقتصر على حماية حياة الافراد والدفاع عن حريتهم واموالهم فقط وفيما عدا ذلك يكون عملها تجاوزاً لامسوّغ له ، وعندهُ ان دستور «المساواة في الحرية» هو ان يكون للفرد ملء الحق في ان يتمتع بجميع ملكاته او مواهبه ضمن حدود الحقوق التي لغيره ان يتمتع بها ، وعلى الدولة — بل واجبها

الوحيد — ان تنفذ هذا الدستور فاذا ما تجاوزته الى غيره اصبحت متعدية ولم تعد حامية

وكان هذا الاطلاق للفرد ان يغرف من حلَّة السعادة والهناءة بقدر كل ما تتسع له معدته سبباً في ازالة الشيء الكثير من العقبات التي كانت تعتور الإفراد في سيرهم مما آل في آخر الامر الى ظهور «الرأسمالية» بثوبها القشيب وتمتعها بحرية مطلقة وسلطان قاهر بحجة الحرية التي يجب ان يتمتع بها اصحاب رؤوس المال في روحاتهم وغدواتهم . واقتضت هذه الحرية في نظر القائلين بها مذهباً معروفاً هو مذهب «ترك الحبل على الغارب» Laissez—Faire يعني عدم تدخل الحكومة في الشؤون على امل ان مصالح الافراد الشخصية وتمتع كل واحد منهم بملكاته ومواهبه في الحدود التي لا تضير غيره تنتهي في آخر الامر الى التسوية العامة بين الجميع . ولو كانت المسألة كما قال (برنارد شو) هي جلوسنا على شاطىء النهر ومرور الماء من تحت ارجلنا يحمل الينا مطالبنا لهان الامر وصح هذا المذهب ولكن المسألة اننا هائمون في مركبة خيلها جامحة لا ندري متى نسقط في الهوة او نصطدم بالصخرة . وكانت الفكرة الاجتماعية السائدة يوم كتب سبنسر « الاحصاءات الاجتماعية » ان الجمعية البشرية كناية عن حيوان كبير ذي وظائف بدنية فسيولوجية متنوعة فالسكك الحديد مثلاً هي اوردته الدموية واسلاك البرق هي الاعصاب وأما الحكومة فهي العضو المدبر للشؤون فلا غرو ان تكون وظيفتها الاولى والكبرى حماية الارواح والدفاع عن الحرية [1]

ومع كل ما في هذا المذهب الاجتماعي الحيوي — البيولوجي — من الحقائق الراهنة وما في الرأي الفردي من الاسس المشجعة فالمجتمع اليوم معتبر وحدة عقلية اجتماعية قائمة على الارتباط الذهني بين الافراد اكثر منهُ وحدة عضوية حيوانية قائمة على الارتباط الفسيولوجي. ولكن من الخطإِ الفادح والاستنتاج المغلوط ان يظن احد ان اتصاف المجتمع بهذا الوصف الفكري المعنوي يزيل عن الافراد غرائزهم الحيوانية الاولى فهذه الغرائز البيولوجية هي الاساس والمجتمع الروحي الذهني هو البناء المشمخر القائم عليها ، بل دلتنا الحرب العالمية وما لزمها من فظائع ومجازر ومجاعات وأوصاب والثورات الوطنية التي حضرناها على ان هذا الانسان «الكامل» المربَّى في احضان المدنية والمهذب في مدارسها العالية متى تملكته سورة الغضب او شعر بالحاجات الاولى عاد الى اساسهِ البيولوجي حالاً فظهر بمظهره الحيواني الصريح

وممن نشأوا على النظرية الفردية الاقتصادية والابتعاد عن التدخل جهد الطاقة الرئيس (هوفر) في ايامنا هذه فكان مذهبه سبباً في عزلة اميركا واطالة الازمة الاقتصادية الآخذة بخناق الناس الى ان خذل في الانتخابات الاخيرة خذلاناً دلَّ على نفرة الناس من سياسته . وارى ان هؤلاء الكتَّاب الفرديين قد افرطوا كثيراً عند ذكرهم جانب الدولة في جعل حماية

(1) Encyclopaedia Britannica, Vol. XI. p. 9.

الارواح والاموال الكل في الكل ، ولئن كنا لا ننكر ان الدنيا تنقلب في يوم واحد رأساً على عقب ويتحول نظامها الى فوضى متى زالت هذه الحماية واصبحت الارواح عرضة للقتل والاموال عرضة للنهب الا ان مثل هذا الالحاف في ذكرها والاقتصار عليه هو أليق بدولة تتأسس حديثاً في عصر من الاعصر الخالية ، ولعمري ان هذه الحماية هي من البديهيات في نظر الدول الحاضرة والاقتصار على تصنيفها وشرحها هو اغفال لما استجدَّ من الوجائب وما يستجدُّ ،خذ على ذلك مثلاً حركة العمال التي تقيم المجتمع وتقعده في ايامنا . والتي تهدد النظم القديمة من الاساس ، ففي البلدان الصناعية استجد على الدولة واجب خطير يعبر عنه بقولهم «حق العامل ان يعمل» يعني حق العامل النشيط ان يحصل على ما يضمن له العمل اللائق به بحيث يتمكن من المعيشة معيشة شريف . فالمسألة اذاً كما قال[1] (كونرد جل) ليست دفع الفاقة والتسول ومنع الموت صبراً عن هؤلاء الناس فقط بل ضمانة حصولهم على مقياس من الحياة يجعل هذه الدنيا محتملة لديهم ويخفف من آلامها عنهم ، فمثل هذا الواجب المستجد على خطورته لا تشعر به البلدان التي تعيش في اجواء القرون الوسطى ، بل ما احوج هذه البلدان الى من يحفر بالازميل والمطرقة في جماجم حكامها آية تذكرهم بقدسية الحرية الفردية وشأن الحياة المنبسطة ؛ وما يعد من البديهيات المسلم بها في الاقطار الراقية قد يكون مثار الشبهة والجدل في الاقطار المتأخرة

ولا ادلَّ على رفض النظرية الفردية وما تستند اليه من مذهب «ترك الحبل على الغارب» من اجماع الدول الحاضرة — حتى اشدها رأسمالية — على وجوب التدخل في الشؤون حرصاً على المصلحة العامة ومنعاً من سوء الاستعمال . ولعل اثمن تحفة أدبية خلفتها لنا نصوص المشترعين في وجوب التدخل ما جاء في حديث عبد الله بن المبارك « أن قوماً ركبوا سفينة في البحر فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع ، فنقر رجل منهم موضعه بفأس فقالوا له ماتصنع ؟ فقال هو مكاني اصنع فيه ما شئت ، فان اخذوا على يديه نجا ونجوا وان تركوه هلك وهلكوا [2] » ونظرة واحدة في منهاج دولة من الدول الكبرى الحاضرة فيها المقنع الصادق على صحة هذا الرأي ، وفيما يأتي خلاصة مقتبسة مع التعديل من البرنامج الحكومي الذي اورده الرئيس « ودرو ولسن » في كتابه « الدولة » المطبوع قبيل الحرب العالمية ، والرئيس كما هو معلوم هو وحكومته من ابعد الناس عن الاشتراكية [3]

(١) حفظ النظام الاجتماعي كما يحفظ الشرطي سير المركبات والسيارات في الشوارع المزدحمة منعاً من الاصطدام ولو كان السواقون من الاخصائيين في مهنتهم والملائكة في اخلاقهم

(٢) وهو ماذكره المستر (هربرت سبنسر) واقتصر عليه — يعني حماية الابدان والاموال

(1) Government and People, p. 229 (٢) البيان والتبيين للجاحظ (٣) The State, p.p. 637-640

من التلف والسرقة ، وربما كانت هذه الوظيفة اهم وظيفة تقوم بها الحكومة لتوقف الحياة الاقتصادية والاجتماعية عليها وارتباطها بها

(٣) الاشراف العام على الاسرة وتعيين العلائق المشروعة بين الزوج والزوجة وبين الآباء والابناء ، لجهل بعض الناس ، والاخطاء التي يرتكبها غيرهم في احكامه ، والشر المستحكم في قلوب الآخرين . والعقائد السخيفة البالية المستحوذة على الجامدين من الافراد خصوصاً من فسّر منهم الاوامر والنواهي بما ينطبق على رغباته وشهواته كل ذلك يقتضي الاّ تتخذ الحياة العائلية ذريعة للاضرار بأي فرد كان والاّ اصيب المجتمع بالكوارث وحلّ بهِ الدمار من جراء الفساد في الاسرة وهي هي الوحدة الاجتماعية القياسية التي تبنى عليها الجمعية البشرية في تدرجها الحاضر

(٤) تنظيم استملاك الاملاك والاموال وتناقلها وتبادلها

(٥) تعيين التبعة الملقاة على العاتق من الديون المستدانة والجنايات المقترفة وهذه الوظيفة نتيجة لاحقة للوظيفة السابقة والاّ جاز للناس ان يستقرضوا الاموال ثم ينكروها وللاشقياء ان يقترفوا الجنايات ثم يفلتوا من تبعتها فيختلُّ النظام الاجتماعي من اساسه

(٦) تعيين الحقوق التي تخولها العقود المتفق عليها بين الافراد

(٧) تعريف الجناية وتعيين الجزاء المترتب على اقترافها، ويحسن بنا ان نذكر هنا ان الجرم كان في الاصل مقترفاً بحق الفرد ونازلاً به فكان عليه ان يسويه بنفسه مع المجرم ، ولكن الدولة اصبح من وجائبها اخيراً ان تحمي الفرد، وليس ذلك فقط، بل ان تحمي نفسها ايضاً لذلك كان الجرم معدوداً جرماً بحق المجتمع ونازلاً بهِ. وعلى الحكومة ان تعين الجناية وتضع الجزاء على ارتكابها

(٨) احقاق الحق وازهاق الباطل في القضايا المدنية ، وما دامت الدولة هي القوة الوحيدة التي تستطيع العمل بعيدة عن المصلحة الفردية فهي الحكم الطبيعي الذي يقضي بين المتخاصمين بالعدل والقسطاس المستقيم

(٩) تعيين الواجبات السياسية المترتبة على الوطنيين وتعيين العلاقات القائمة بينهم وتعريف الامتيازات التي يتمتعون بها . وينطوي تأليف الدولة على فكرة حاكم ومحكوم وان كان القسط الذي يناله الفرد في الحكم يتوقف على نوع الدستور الذي تألفت بموجبه الحكومة والطريقة التي سلكتها ، فالفرد في الحبشة مثلاً يختلف جد الاختلاف عن الفرد في لندن وباريز. وتعني كلمة « السلطان » في البلدان المستقلة ان يد الدولة فوق الايدي وان كلمتها هي العليا وانها بقوة ارادتها تمتلك ناصية السلطة وتحتفظ بها ، وتظهر هذه السلطة للعيان اما بواسطة الملك او مجلس النواب او الدستور ، وبديهي ان ارادة الدولة السلطانية هي التي تدير الشؤون التي تتناولها الواجبات السياسية والامتيازات التي اشرنا اليها . ففي الحكومات النيابية حيث يحكم الناس أنفسهم بنواب ينتخبونهم يكون السلطان في الدستور وهو من صنع الشعب، يعني ان

الشعب يعيّن حقوقهُ السياسية وواجباته والامتيازات التي يتمتع بها بواسطة الدساتير والشرائع التي يسنها وبالسلطة المحترمة التي يمتلك ناصيتها . ثم ان حق الاقتراع والتوظف وواجب تأدية الضرائب وحمل السلاح للدفاع عن الاوطان ورد عادية الطامعين وتعيين وظائف الضباط وحدودهم السياسية كل ذلك يجب تقريره بواسطة الحكومة بحسب قوانين واضحة تصدرها ونظم معينة تجري عليها . فأين هذا الموقف من تلك البلدان التي حرمت استقلالها فبلغت من الضعف والامتهان ان أصبحت جميع مظاهر سيادتها احجار شطرنج تلعب بها الايدي الغاصبة ، حتى ان دستورها وهو قاعدة عملها الغي الغاءً صريحاً بمجرد مادة اضافية واحدة ادخلتها اليد الاجنبية فجعلتهُ هزءًا وسخرية

(١٠) على الدولة ان تعيش وان تحتفظ بعلاقاتها السياسية بالدول الاجنبية ، فكل دولة هي حيال الدول الاخرى وحدة مستقلة ، وعليها ان تحتفظ بهذه الوحدة وهذا الاستقلال ، وكل اتصال بالدول الاخرى يجب ان تكون الدولة واسطة عقده وطريقة تنفيذه ، ومن اعظم وجائبها ان تدفع عن الاهلين ما يداهمهم من الاخطار الخارجية ، وان تنمي جميع مصالحها المتعلقة بالدول الاجنبية ، وأن ترعى حقوقها والامتيازات التي لها وان يكون رعاياها وما يمتلكون في حرز من حمايتها حريز متى تعلق ذلك كله بالشؤون الدولية

ويلحق بهذه الوظائف الضرورية وظائف اخرى اختيارية منها ادارة التجارة والصناعة وتنظيم العمل والاستيلاء على الطرق والمعابر والجسور والسكك الحديدية والبرق والبريد والاشراف على الشؤون الصحية وتعهد التربية والتعليم والعناية بالفقراء والايتام والعجزة وسن القوانين التي تتناول صنع بعض الاطعمة وبيعها واستهلاكها

ولسنا بحاجة بعد سرد هذه الوظائف الى القول ان هنالك ميلاً مضطرداً في الحكومات الحاضرة الى الاضطلاع بالوظائف المتزايدة واستجماع القوى المشتتة مما حمل الكثيرين من اهل البحث على القول ان هذا الميل سيشتد الى ان تقبض الدولة على الاملاك والصنائع والمرافق والاعمال فتتألف حينئذٍ الدولة الاشتراكية باختيار الامة ونزولاً على ارادة الرأي العام فيها . وهذا (برنارد شو) يذهب فيما يذهب اليهِ الى ان العالم يسير في طريق الاشتراكية رغم انفه ويتجلى هذا السير فيما تمتلكه الدولة في ايامنا من المنافع العامة والمرافق المشتركة ، فالطرقات والشوارع والحدائق البلدية والجسور العمومية كل ذلك يستعمله الافراد على الطريقة الاشتراكية الشيوعية . وقد بقي البريد في انكلترا الى اجل قريب ملك الافراد يستثمرونهُ استثماراً خاصاً الى ان تحوَّل فصار ملك الدولة ، ولا يفكر احد في شيء من الضرر في مثل هذا التحول النافع ، وقد تسير البنوك سيرة البريد ايضاً فتمسي ملك الدولة ويبطل ان تكون حصتها من الربح الذي تأخذه رباً على الاموال اضعاف ما يربحه الافراد المتعاملون ، ولم لا يوزع اللبن يا ترى

على الناس بالطريقة الاشتراكية كما توزع المياه في المدن بالانابيب على البيوت فيتنعم الاطفال باللبن جوهر غذائهم كما يتنعم الناس بالماء اصل حياتهم ؟ لكن التتبع دل على انهُ ليس من الضروري ان يؤدي تنظيم المنافع المشتركة على هذا النحو الى تأليف الحكومة الاشتراكية الشيوعية فقد قطعت المانيا وايطاليا مثلاً شوطاً بعيداً في هذا المضمار من غير ان تبطلا الرأسمالية او أن تتشيعا على الطريقة الروسية

ويظهر من قائمة هذه الوظائف الاختيارية المتنوعة ان ليس ثمة طريقة يعتمد عليها في بيان ما يجب ان يضطلع بهِ الفرد وما يجب ان تضطلع به الحكومة ، ويجوز ان يكون القول الفصل في ذلك للرأي العام متى كان ناضجاً ومنظماً تنظيماً صحيحاً صالحاً للتعبير عن ارادة الشعب وحينئذٍ تعمل الحكومة بارشاده وتحت اشرافهِ ونفوذه كل ما من شأنهِ ان يؤدي الى السعادة والهناءة ولو اقتضى ذلك زيادة تدخلها . وقد افضنا في ذكر وجائب الدولة لنوجّهُ انظار القارىء الى مجال الحكومات الحاضرة المتسع في العالم الغربي ولكننا لم نقصد بوجه من الوجوه ان نسمح لمثل هذا المجال ان يتعدى الى الحرية الفردية المقدسة فهذه الحرية هي الغاية العظمى لكل حكومة صالحة والهدف الاسمى لكل تشريع كريم وتضييقها الى حد بعيد هو العيب الاكبر الملتصق بالحكومات الدكتاتورية الشديدة الوطأة ، ولولا الحرية ما ارتقى البشر الى مستواه ولا حلّقت العقول فيما لها من سماء صافية ولا كانت فنون ولا حكمة ولا دين ، وليس من مصلحة البشر في شيء ان تكم افواه النقّاد وان كانت في مصلحتهم ان يلجم السفهاء . ولا يرتقي المجتمع متى كانت افكار النبغاء عرضة في كل جولة من جولاتها للاصطدام بالقانون ، ولا هون على الحوت أن يعيش في ساقية من الماء الضحضاح من ان يعيش الرجل الكبير في نظام ضيّق ، فعلى المشترعين عند سنهم الدساتير ان يضعوا نصب عيونهم ان القانون انما جعل لمنع الانحراف المرضي من جهة ولتشجيع السير الصحي من جهة اخرى ، وقد ادّى العالم ثمناً باهظاً جدّاً على تلك الجرائم التي اجترمها « ديوان التفتيش » في القرون الوسطى في اوربا بقتله الالوف من النوابغ الى أن تغلبت الحرية ففاز اهل المزايا بالبيئة التي تسمح بظهور خصائصهم وعاد الازدهار بعد المحل ، ويجوز لنا ان نقول أن كل امة ضربت على عقول أبنائها نطاقاً ثابتاً يحول دون ظهور مواهبهم هي امة صائرة الى الزوال (قال جون لوك) :

« ليست الشريعة بالمعنى الصحيح التضييق على الرجل الحر العامل بقدر ما هي تدريبه وترويضه للوصول الى مصالحه القانونية ، وهي لا تأمر باكثر مما يعود بالنفع على العائشين بكنفها فلو كان في مقدورهم ان يكونوا بفقدها اكثر سعادة منهم بوجودها لتلاشت حينئذٍ من نفسها باعتبارها فضلة زائدة لا فائدة منها . . . . لذلك مهما اسيء فهم الغاية من الشريعة فهذه الغاية لن تكون لسحق الحرية وخنقها بل للاحتفاظ بها واطلاقها »[1]

(1) John Locke Second Essay on Civil Government.

باب الزراعة والاقتصاد

الجراد

بحث علمي لغوي عملي للدكتور هلال فارحي

الجراد احد اقسام الحيوانات المفصلية الاربع ومن أكلة الخضروات . ومن فصيلة الحشرات المستقيمة الاجنحة الناقصة التطور Ametabola . وينسب الجراد الى قسم الجنادب من الحشرات التي تتألف من ثلاث فصائل (١) الرواكض Cursoria (٢) المشاة Gressoria (٣) الوثابة Saltatoria . ثم الفصيلة الثالثة تنقسم الى ثلاث عائلات والى احداها ينسب الجراد وهي (١) الجرحل وانواعه Locustodae (٢) الصرصار Gryllidae (٣) الجراد وانواعه Acrididae . ويتركب جسم الجراد كبقية الحشرات من ثلاثة اجزاء الرأس . الصدر او الظهر . والبطن . وهذه مؤلفة من ١٦ حلقة . ثلاث في الرأس متصلة بعضها ببعض وثلاث في الصدر والظهر وعشر في البطن

يحيط جسم الجراد طبقة سميكة مكونة من الشيتين وهي مادة صلبة تفرز من الطبقة الادمية بمثابة القرون والاظافر والاظلاف غير انها لا تذوب في الاحماض والقلويات. وهذا الشيتين يكوّن صفائح وهيكلاً يقيها من الارض وتسمى الصفائح التي في اعلى الجسم الترجا . والمحيطة أسفله الاسترنا وهاتان الصفحتان تتصل احداها بالاخرى بصفيحة رقيقة تسمى البلورا . فجميعها تحفظ وتثبت اعضاءها الباطنية في مواضعها . وكل جسم الجراد مغطى بشعر دقيق جدًّا ما عدا القرون والاجنحة

يعيش الجراد على الارض ويتنفس بانابيب تسمى بالقصبات الهوائية تمتد طولاً وعرضاً وتحمل الهواء الى جميع فراغ الجسم ذات لون فضي لامع لامتلائها بالهواء مركبة من خيوط شيتية دقيقة حلقية ملتفة على جدارها فتبقى مفتوحة على الدوام . تنفتح هذه الانابيب الى الخارج بواسطة فتحات على الجانبين تسمى بالفوهات التنفسية او الثغور وعددها عشرة ازواج الزوج الاول بين قطعتي الصدر الاولى والثانية . والثاني بين الثانية والثالثة والباقية على اجناب

الحلقات الثمان الاولى للبطن وتوجد على حوافي (جمع حافة) هذه الفوهات شعور دقيقة تمنع دخول الاتربة والاقذار للقصبات الهوائية

من اهم انواع الجراد الرحال له صفة خاصة تجمعهُ في اسراب ومهاجرته من جهة الى اخرى طلباً للغذاء فيفتك بالبلاد التي يمر بها وهو في طور الحوريات قبل البلوغ وبعد ما يبلغ ويكمل نموه يأكل مزروعاتها ويقحطها ويتركها جرداء خالية من النبات وهو من الحيوان الذي ينقاد لرئيسهِ فيجتمع كالعسكر اذا ظعن اوله تتابع جميعهُ ظاعناً . واذا نزل اوله نزل جميعه

(١) الرأس

﴿الرأس﴾ الجزء الامامي من الجسم يشمل المخ مركز الحس وفيه قرنا الاستشعار والعيون وفم قارض تمييزاً عن اللاعق . وهو قصير وصغير بالنسبة للجسم ، صلب مستطيل الشكل . قمته Vertex واسعة مقعرة في الوسط كالسرج مرتفعة قليلاً في الاجناب . وتتصل بقسمه البارز بزاوية مستديرة . في مقدمته قرنان للاستشعار antennae من النوع الحريري الخيطي يتركب كل منهما من اربع عشرة قطعة منفصلة بعضها عن بعض مخروطية الشكل . تستدق مع اتجاهها الى الطرف . طولهما اقصر من الجسم . جبهتهُ عمودية فيها قسم كبير Costa frontalis مرتفع وواسع بمساواة على طول الجزء الاعلى من هذا القسم مقعر وفي وسطهِ العين الوسطى احدى العيون البسيطة التي له

﴿العيون﴾ للجراد خمس عيون اثنتان مركبة في كل جنب وراء قرون الاستشعار كلويتا الشكل بارزتان جداً كعيون الجرذون ويمكن تحقيق شبكة صفحاتها Facettes المؤلفة من ستة اضلاع بواسطة عدسة مكبرة عشر مرات وتحتاج الى مكبرة اقوى لتحقيق اضلاع صفحاتها

واما العيون البسيطة Ocellus فثلاث . واحدة في وسط الجزء الاعلى من ارتفاع الجبهة وواحدة في كل جنب امام ذيول العيون المركبة الاصلية الامامية فوق وضع القرون . هذه العيون عبارة عن عدسات بسيطة شكل نقط تبرق كنقطة ماء صغيرة

ينزل من وسط الحافة الامامية للعيون الاصلية الى جانبي قسم الجبهة المرتفع حد Carina lateralis يفصل الجبهة عن الاحناك genae . هذا الترس الى ترس الرأس Clypeus ينفصل عن الجبهة بواسطة حزّ عرضي عميق . كما ان قسم الجبهة الكبير مرتفع في اجنابه قليلاً كحدود فاصلة فهذه مع الحزوز الفاصلة للاحناك تكوّن تجويفاً فيهِ ترقد قرون الجنين وهو داخل البيضة

﴿ الفم ﴾ فتحة الفم في جنب البطن مفتوحة جداً مغطاة من امام بالشفة العليا محاطة من جانبيها ومن تحت بثلاثة ازواج آلات قارضة للاكل

﴿الزوج الاول﴾ من آلات القرض فوق الزوجين الآخرين سن كالمنشار (المشرشر) معمول من مادة قرنية صلبة كالفولاذ خال من نتوات في الاجناب ويتصل باطراف الفكين مع الفم mandibulae يتحركان احدهما مقابل الآخر تحركاً جانبياً كذراعي كماشة تقاطع جنبهما الخارجي عرضاً سبعة حزوز مجوفة بين ثمانية نتوات منفصلة عن بعض ينتهي كل منها بسن حاد صالح للعض والقضم حتى لكسر مواد صلبة كاللوز ايضاً ومن السن الخامس فما فوق يوجد صفاً اسنان ثانٍ موازٍ للاول الخارجي ومتجهاً للداخل وعلى سطح التاج الواسع الممتد بينهما تجد نتوات وارتفاعات تشبه الموجودة في تيجان اسنان الحيوانات المجترة كالبقر وهذه ضرورية للجراد لتسحق غذاءه النباتي بين التيجان . اما اسنان هذا الزوج المنشارية فلا تشبه بعضها بعضاً لونها اسمر كما لو كانت محروقة بالنار

﴿الزوج الثاني﴾ من آلات القرض والأكل هو الفك الاسفل الفقم Maxilla هذا مؤلف من اربعة اجزاء . المحور الكاردو Cardo عليهِ يدور الفك من جانب الحلق تحت الزوج الاول وخلفهُ قليلاً (٢) الساق ام القصبة Stipes يتصل بالمحور بزاوية قائمة . يتحركان جانبياً كالزوج الاول (٣) الفص الداخلي Lobus internus (٤) الفص الخارجي L. Externus فوق الداخلي كالقبعة وينتهي هذا الزوج بثلاثة اسنان غامقة اللون تساعد على القضم ومضغ الغذاء من النباتات وهو المشرشر وتوجد في الجانب الوحشي من كل فك الزائدة الفكية Palpus maxillaris تستعمل كعضو لمس مؤلفة من خمس قطع كل قطعة تزداد في الطول لغاية طرفها الاخير . وبين هذه والمشرشر القلنسوة . مؤلفة من قطعة واحدة موازية للزائدة الفكية واقصر منها

﴿الزوج الثالث﴾ مؤلف من الشفة العليا Labium وهي عبارة عن قطعة صفيحية عريضة صلبة متصلة باسفل الرأس بذيل الترس الامامي وتغطي الفم . والشفة السفلى كالعليا في أسفل الفم تقفل الفم من تحت ومن خلف فتحفظ الطعام من السقوط وتساعد في تناوله مشقوقة في وسط حافتها السفلى وفي جانبيها الزائدة الشفوية Palpum labiales تتألف كل منهما من ثلاث قطع غير متساوية بالطول . وكل من هاتين الشفتين مركبة من قطعتين متشابهتين موضوعتين جنباً لجنب تتحركان تحركاً جانبياً

﴿اللسان﴾ Ligula طوله ١½ـ٢ ملمترات مخروطي الشكل رأسه مستدير غير حاد واسع شكل الجزء الاعلى من منقار الطير ومجوف من تحت كالملعقة يمتد الى كل تجويف الفم ما عدا السقف لونه اسمر

﴿المريء﴾ Oesophagus طوله ٣ ملمترات طول المعدة ٢٠ ملمتراً لونها اسمر Stomadeun ٢ ملمترات. في باطنه طيات تمتد طولاً وعرضاً وفيها نتوات تساعد في سحق الغذاء . وتوجد عضلات عرضية مستديرة تبعد احداها عن الاخرى ٤ ملمترات . تضغط الطيات (مقابل بعض) لاجل طحن الأكل قبل دخوله الامعاء Proctedaeum طول الامعاء نحو ٤٠ ملمتراً

محل اتصال المعدة بالامعاء محاط بنتو يبرز من ٦ امعاء مسدودة مختلفة في الطول متوسطها ٩ ملمترات والامعاء ملتوية كالثعبان

(٢) الصدر

﴿الصدر﴾ Thorax القسم من الجسم الذي يلي الرأس يتركب من ثلاث قطع Segmenta متوالية (١) الاولى تسمى بالقطعة الصدرية الامامية Prothorax تشمل قسم الظهر الاول Pronotum وقسم الصدر الاول Prosthorax (٢) الثانية المتوسطة mesothorax تشمل قسم الظهر الثاني Mesonotum وقسم الصدر الثاني Mesostenum (٣) الثالثة تشمل قسم الظهر الثالث Metanotum وقسم الصدر الثالث metasternum يختلف حجم هذه القطع تبعاً لنمو الاجنحة وغيرها من اعضاء الحركة. ثلثه الاول مقعر شكل سرج تقاطعه ثلاثة حزوز الى جانبه ثلثاه الخلفيَّان يرتفعان ويبرزان كمِجنٍ مروَّس ومستدير قليلاً في الاطراف الخلفية فوق جزء الظهر الثاني ، ويغطيان قاعدة زوج الاجنحة الغشائية. ويبرز نتو عمودي على طول جزء الظهر الاول تقاطعه الحزوز العرضية الثلاثة في ثلاثة محال. حافة هذا القسم مرتفعة قليلاً بشكل ثنية

جزء الصدر الاول ضيق جداً ويصغر بين الرأس والجزء الثاني الغليظ والمنتفخ فيه حرقفتا زوج الارجل الامامية Coxae بينهما تبرز زائدة اسطوانية طولها من ٣ — ٥ ملمترات Processus cylindricus وفي وسط جداره توجد أول فوهة للتنفس ذات اطراف قائمة تفتح وتقفل فبواسطتها يمكن الجراد ان يضبط سرعة تنفسه غير انها مغطاة بفصوص قسم الظهر الاول الواسعة ويلزم قطعها لفحص الفوهة المذكورة جيداً

في قسم الظهر الثاني يوجد زوج الاجنحة الغشائية على جانبي سطحها . جزء الصدر الثاني يغطي القسم الاوسط من الجزء الثالث بواسطة فصي اجنابه المربعة وحوافيه المستقيمة وفي جدران اجنابه Pleurae تجد حزين مائلين وفي آخر الثاني منهما بين قسمي الصدر الثاني والثالث فوهة التنفس ويمكن مشاهدة حركة هذه الحوافي اثناء التنفس بالعين المجردة في هذا الجزء يتصل مفصل فخذ زوج الرجلين الثاني

قسم الظهر الثالث داخل بفصيه بين فصي القسم الثاني فيه ثقبان صغيران وعليه وضع زوج الاجنحة الثاني الكبير جدرانه مجعدة ومثنية وخالية من فوهات التنفس يتصل مع هذا القسم زوج الرجلين الثالث للوثب وبين فصيه الجانبيين يدخل فص اول حلقة من البطن وهذه الحلقة تشترك مع ثلاثة اقسام الصدر والظهر لتكوين القفص المتين

(٣) البطن Abdomen

﴿البطن﴾ المنطقة التي تلي الصدر ويتصل به مباشرة ويتألف من تسع حلقات وحلقة العجز الاخير المركب من ثلاثة اقسام الدبر وازرار الجنب Cerci . الحلقة الاولى

Segmentum medianum مشتبكة بالقفص . صفيحتها العليا أي الترجا شيتية . جانباها ضيقان بسبب قسم الصدر الثالث المفتوح جيداً ، فيهما فوهتان كبيرتان للتنفس مفتوحتان جيداً وبالقرب من حافة كل فوهة امامية توجد الاذن وهي عبارة عن تجويف بسيط شكل قمع في اسفله غشاء براق شبيه بجلد الطبلة بين نتوّين قرنيين بارزين من القسم الداخلي للغشاء . تحت الطبلة يوجد كيس صغير مزخرف جداً يملؤهُ سائل وهو لصدى الاصوات . يتصل باسفل الطبلة عصب السمع المتفرع من الذرب الثالث الصديدي (عقدة عصبية) ويكوّن ذرباً جديداً ثم هذا يتفرع وينتهي بخيوط عصبية دقيقة جدًّا وقيل ان في نوع الجراد ذي القرون الطويلة توجد الاذان على الساق الامامي شكل شق ضيق مستطيل. وتلتصق الصفيحة السفلى الاسترنا بجزء الصدر الثالث وتشترك معه بتكوين القفص (الصدر)

الحلقات الست من الثانية الى السابعة لها شكل واحد وترتيب واحد ويوجد في الحافة الامامية من كل منها نتو كجناح يعلو فوق الحلقة السابقة كزرد الدروع فيثبتها ويسهل حركة البطن ، وكما سبق تتصل الترجا مع الاسترنا بجلدة رقيقة البلورا هذه مثنية تسهل امتداد البطن والالتواء والحركة

وفي كل جنب من الترجا قرب الحافة السفلى توجد فوهة مدورة للتنفس يمتد منها انبوب الى جهة الرأس مائلاً . وهذا الانبوب يتفرع الى انابيب دقيقة صغيرة ايضاً شكل شبكة

الحلقة الثامنة توجد في جنبها ايضاً فوهة التنفس الاخيرة واكبرها . يختلف شكل هذه الحلقة بحسب جنس الجراد . ففي الذكور هي كالحلقات السابقة تماماً وفي الاناث نصفها الاسفل يمتد كمسند Lamina Subgenitalis الذي يتصل به الذراعان الاسفليان لقناة المبيض وعند قاعدة هذين الذراعين بيت الرحم Vulva وأما قناة التلقيح لقبول المني Sperm تفتح الى ثقب غير القناة التي تخرج منها البيض (آلة وضع البيض) فان الاول كما سبق عند قاعدة ذراعي قناة المبيض الاسفليين Vagina inferior ويرى عند فتح الذراعين احدهما عن الآخر في الحلقة الثامنة ، والثاني هو الكلابي الشكل الداخلي الاعلى Vagina Superior interna الملازم للحلقة التاسعة والمتصل بين رؤوس ذراعي قناة المبيض الاسفليين . وكل منهما ينفتح امام الفتحة الشرجية

الحلقة التاسعة هي الوحيدة الخالية من فوهة النفس . وفي الذكور تتصل بها قناة رفيعة تسمى بالوعاء الناقل الوعاءان الناقلان يكوّنان قناة واحدة تسمى بالقاذفة وهذه تنفتح الى الخارج داخل العضو المسمى بالقضيب Lamina Subgenitalis (آلة السفاد)

الحلقة العاشرة الاخيرة وهي الاست وشكلها متساوٍ في الجنسين . فم الخاتم مقفل من ثلاثة اجنابه بزردة الاست Lamina Supra analis من فوق وتشبه وسادتين لينتين في الجنبين

اعضاء الحركة والطيران

﴿ الاجنحة ﴾ للجراد زوجان من الاجنحة المستقيمة شيتية رفيعة عريضة كالورق تتركب من طبقتين بينهما عروق ظاهرة عبارة عن انابيب وقصبات هوائية يحيط بها السائل الدموي

الزوج الاول الامامي مستطيل ضيق يقال له الغشائي عليه بقع غامضة سوداء فيها العروق الآتية: (العرق في الاجنحة اسم عام للاعصاب والاوردة والاضلاع والانابيب) تتخللها ستة اسطحة وهي:

(١) وريد الحافة الامامية Vena mediastina (٢) وريد الحافة الخلفية V. Plecata (٣) الوريد الثلاثي V. radialis = الامامي V. radialis anter المتوسط V. radiatis media الخلفي V. radialis posterior (٤) الوريد الثنائي V. ulnaris = الامامي V. uln-anterior الخلفي V. uln-posterior (٥) الوريد المنفرد V. dividens

السطوح بين العروق :

(١) الامامي بين الحافة الامامية وعرقها area mediastina

(٢) بين عرق الحافة الامامية وبين الفرع الامامي من الثلاثي a. scapularis

(٣) بين الفرع الامامي والمتوسط a. externo-media

(٤) بين الفرع الاخير وبين العرق الثنائي a. discoidalis

(٥) بين فرعي الثنائي a. interulnaris

(٦) بين الحافة الخلفية وعرقها a. axillaris

زوج الاجنحة الخلفي اكبر من الاول وهو للطيران ، شفاف فيه انعكاسات وردية اوصفراء وفيه الاربعة العروق الرئيسية الموجودة في الزوج الاول غير انها ليست متشعبة كثيراً كما في الاول ثم من مركز اتصال هذا الجناح بالجسم تمتد عروق طويلة مستقيمة متوازية الى اطرافه بدون تشعب

الجناحان الاولان لتغطية الزوج الخلفي ويساعدان على الطيران ايضاً واذا ازيلا لا يمكن ان يطير الجراد سوى جزء من الخمسين من المسافة التي يطيرها بالزوجين معاً

اعضاء الغناء وتوليد الصوت في الجراد ضعيفة جدًّا ولا توجد سوى في الذكور فقط. يحدث الصوت من احتكاك الجزء الاعلى من فخذي الزوج الخلفي كقوس الكمنجة مع الوريد الثلاثي الغليظ من زوج الاجنحة الغشائية كوتر الكمنجة الثابت . ولا يسمع صوته بعيداً كصراصير الغيط . وذكر الجراد ينادي عشيقته ويسحر قلبها ويجذبها للسفاد كالبلبل الذي يغرد على اغصان الاشجار لاجل حبيبته

﴿ الارجل ﴾ للجراد كما سبق ثلاثة ازواج من الارجل المفصلية للمسك والمشي والوثب تتصل بالجسم بواسطة الحرقفة مباشرة . ساق كل من الرجلين الاماميتين والمتوسطة

مسلح في جنبه الخلفي بصفين من اسنان كالمنشار كساقي الزوج الخلفي يشعر بها بمجرد اللمس . وبواسطة عدسة مكبرة يمكن رؤيتها مسطحة مائلة الى الوراء . اما عدد الاسنان فيها فيختلف ولكنه اكثر دائماً في الجنب الداخلي . ويتراوح ما بين ٨ — ١١ في الداخلي و ٩ — ١١ في الخارجي

عند آخر الساق من الزوج الخلفي توجد ٤ اسنان طويلة مفصلية سهلة الحركة تتصل بكف الرجل اي الرسغ . هذا يتركب من ثلاث قطع اولها مؤلفة من اجتماع ثلاثة مفاصل ايضاً فوق ثلاث وسادات . وتنتهي القطعة الاخيرة من الرسغ بالمخلب وهو عبارة عن ظفرين حادين منحنيين بينهما فص مستدير Arolium pulvillus

يوجد عند الربع الاول من جهة الفخذ الداخلية نتوء صغير جداً في وسطه وسادة لينة داخلها حلمة تساعد الساق للوثب بأكثر قوة وفي جنب الفخذ الاسفل يوجد شكل ميزاب مكشوف لقبول الساق وسطه عند ما الرسغ يدخل ايضاً بين صفي اسنان الساق عند ثنيها وهكذا تتداخل الاجزاء بعضها في بعض في بقية الارجل عند ما يقتضي الامر ذلك

كيفية تناسله

روى اهاروني استاذ علم الحيوان في جامعة القدس مشاهداته العيانية عن كيفية تناسل الجراد عندما حلَّ في مستعمرة رحوبوت محل اقامته (ومنهُ اقتبست بعض معلوماتي) فقال في ثالث يوم من حلوله في الغيطان وبعد اكل المزروعات الخضراء الطرية كالبطاطس والطماطم والساق وما اشبه بشراهة قوية وقحطها ولم يبقِ منها ولا عوداً واحداً . كانت الارض صباحاً مغطاة بازواج من ذكر وانثى بعضها فوق بعض ولم يمكن ان ترى انثى واحدة خالية لم يعلُ عليها ذكر وكانت عشرات من الذكور طائرة ترفرف هنا وهناك تفتش عن انثى خالية عازبة فتعلو عليها وكان يوجد بقرب كل انثى وزوجها فوقها لا اقل من ذكرين او ثلاثة عزاب ينتظرون بفروغ صبر نزول الذكر عن عشيقته وخلوها فيغتنمون الفرصة ليعلو احدهم عليها بدوره ويشفي غليله ولحفظ الجنس وكانوا يظهرون تشوقهم باصوات الغناء التي كانوا يحدثونها ويطربون بها عشيقاتهم بواسطة احتكاك اجنحة الغشاء بافخاذهم الخلفية . وكانت الاصوات واطية وليست بايقاع لكثرة عدد الذكور

وكان الذكر السافد يتمسك بزوجته باظافيره الحادة فلا يمكنها ان تتخلص منهُ وكانت تحمله على ظهرها اينما ذهبت على الاشجار لتبيت وكانت تتقلب وتتدحرج على الارض معاً عند ما يضطهدها العدو حتى ولو امسكت ولا يتخلى عنها الا عند اتمام السفاد لكي ينجو بنفسه اذ يعلو عليها ذكر عازب آخر كان ينتظر بفروغ صبر . ومن شدة شراهتهم للسفاد قد شوهدت الذكور تعلو على اناث مقطوعة الرأس ولم يشاهد في الجراد ذكر يعلو على ذكر كما في الذباب البيتي . وتموت الذكور بعد السفاد كما في اكثر الحشرات فكأن الزواج يقصر حياة الحشرات ولكن الذكور في الجراد اكثر من الاناث فكثير منهم لا يحظى بالزواج فيعيش العازب اطول من المتزوج

باب شؤون المرأة وتدبير المنزل

الصحة الجنسية والنشء

بقلم الدكتور محمد زكي شافعي
السكرتير الفني لمصلحة الصحة العمومية

يستطلع كثيرون من الوالدين المستنيرين رأي المقتطف في هل تقضي الضرورة بتلقين الابناء في الصغر بعض مبادىء الصحة الجنسية واذا كان الردُّ بالايجاب فالى اي مدى وبأية وسيلة يمكن تفهيم الصغير المسائل الجنسية ومن الذي يقوم بهذا الامر ؟ فتفضل حضرة محرر المقتطف الفاضل وأحال عليَّ بحث هذا الموضوع الدقيق وابداء الرأي فيه بما يروي غلة السائلين لا سيما واني طبيب ووالد فنزولاً على ارادته ورغبة قراء المقتطف سأبحث هذا الموضوع من وجهتيه الفنية والاجتماعية في عدة مقالات لما له من المكانة الحيوية في التعليم والتربية

اصبحنا الآن والاطباء ليس جلُّ همهم التفرقة بين الامراض وابراء المرضى فقط. بل غايتهم القصوى اجتثاث اسباب الامراض ووقاية السليم من المريض. ومن هنا نشأ الطب الوقائي الذي لا يقصر مداه على الامراض المعدية والوبائية فحسب بل غايته الوقاية من كل الامراض معدية كانت او غير معدية باطنية او جراحية عقلية او اجتماعية ولذلك تفرع منه طب النساء الوقائي والجراحة الوقائية وطب الاسنان الوقائي وطب العقل الوقائي وهلمَّ جرًّا

فمن هذا يرى ان الطب الوقائي نما نموًّا عظيماً واصبح وثيق العلاقة بعلم وظائف الاعضاء التطبيقي لانه اصبح من اهم دعائمه رفع كفاية اجهزة الجسم المختلفة مع مراعاة الاحوال الشخصية من بيئة ووراثة وغيرها. ولذلك كان وقوف الجمهور والاحداث بصفة خاصة على وظائف اجهزة جسمهم ومبادىء الطب الوقائي هو من اهم الاسلحة التي تقاوم بها الامراض لان الطب وان كان قد قطع شوطاً بعيداً في طريق التقدم والارتقاء لم يتمكن من التغلب على كافة الامراض . فنحن في اشد الحاجة الى التدريب على الحياة الصحية . وموت الناس من الجهل اكثر من موتهم من المرض . ولا ادل على ذلك من انه يولد سنويًّا ثمانون في المائة

من الاطفال اصحاء فلا يصل الى سن الشباب الا العدد القليل وهم متمتعون بالصحة الكاملة. ولهذا وجهت في كل البقاع والامصار العناية الى الصحة العامة وأصبحت تدرس في كل المدارس على السواء . غير ان الصحة الجنسية لحداثة العهد بتوجيه النظر اليها لم تعط العناية الكافية. فاذ نرى الوالدين والمعلمين يعنون كل العناية بصحة الاطفال الشخصية نراهم يحجمون عن كل ما له مساس بالجنس ولا يلقنون اولادهم عنه لا الكثير ولا القليل وخصوصاً الفتيات واذا عرف الاحداث شيئاً فمن طريق من هم اجهل منهم . وما يحصلون عليه يكون عادة خاطئاً ومضراً مع ان صحة الجنس ليست الا فرعاً من فروع الطب الوقائي . وقد اصبح يدرس الآن في معاهد خاصة في بعض البلدان وأساسهُ العمل على نجاح الزواج ودرء كل اسباب الفشل عنه سواء من الوجهتين النفسية او الطبية الوقائية والتشجيع عليهِ وتحسين النسل. وقد درس باحث من الاطباء باميركا حالة ألف سيدةٍ متزوجة للاغراض المتقدمة واغلبهنَّ كنَّ من الطبقة المتوسطة وقد جمع هذه المعلومات بواسطة اطبائهن الخصوصيين وكانت نتيجة الابحاث ان نصف هذا العدد قصدن الى الاطباء للعقم والربع لاورام في الحوض والتهابات والباقيات لاسباب اخرى ظن انها ذات علاقة بالحوض. وقد لوحظ ان نصف هؤلاءِ السيدات يشكون بعض الاضطراب الحيضي وكان الاضطراب عادة خفيفاً كما ان صحة ٥٦ في المائة منهن جيدة او تظهر عليهن مخائل الصحة و٢٧ في المائة صحتهن دون المتوسط ويشكون من اضطرابات عصبية و١٧ في المائة صحتهن متأخرة وفريق منهن مصاب ببعض امراض العقل او الاعصاب. ووجد ان في كل ١٢ سيدة منهنَّ واحدة مصابة بمرض زهري وان كانت هذه الاحصاءات لاتنطبق على الحالة في جميع البلدان ولكنها تنطق بخطورة الحالة التي قد تكون سبباً لانهيار صرح هناءة الاسرة وهذا ما يجب ان يتلافى بالتعليم الصحيح

وقد تغيَّر فهمنا الآن للمسائل الجنسية تغيراً كليًّا في العشرين السنة الاخيرة واصبحت النظريات الحديثة تخطيء القول بان الشعور الجنسي لا يبدأ الا عند سن البلوغ وقد ارجعها فرويد الى سن الطفولة اذ تكون خامدة او كامنة حتى تنمو فسيولوجيًّا وسيكاوجيًّا في سن البلوغ. وقد صار لهذه النظريات أثر بليغ في الصحة الجنسية وامكن بواسطتها تفهُّم اسباب بعض الامراض العقلية والنفسية بل والشذوذ الجنسي. فلو كان الوالدون والمدرسون والاطباء مقتنعين بضرورة تعليم الابناء صحة الجنس لما وقعوا فريسة هذه الامراض وغيرها ولما تعرض الكثيرون للفشل في حياتهم العملية والزوجية

لكن للعادات الموروثة ما قد يعرقل فكرة تلقين الاولاد صحة الجنس فما هي الوسائل التي نتغلب بها على هذه العوائق ؟ وفي أية سن يعلمون ؟ ومن الذي يتولى امر هذا التعليم ؟ وما هي المواد التي تعلم ؟ هذا ما سأحاول الاجابة عليهِ من المقالة التالية

الادب التركي الحديث (١)

خالدة اديب خانم

ننتقل الآن الى الكلام عن السيدة خالدة اديب خانم الشاعرة التركية الحلوة الاغاريد الرقيقة النغم التي رفعت من شأن المرأة التركية وكانت مثلاً عالياً لتطور المرأة المسلمة واتساع معارفها

ولعلّ الظاهرة غير العادية التي تستدعي النظر بصفة خاصة في حياة السيدة خالدة اديب خانم انها لم تتثقف على الطريقة التي جرى عليها الاتراك في الزمن القديم . فان هذه الطريقة القديمة وان كنا نجلّها ونعترف لها بنتائج باهرة لانها اخرجت عالمة تركية كبيرة مثل فاطمة خانم التي اشتهرت بسعة علومها في الفقه والتشريع غير انها ابقت على أسار المرأة التركية من الوجهة الذهنية والخلقية . اما السيدة خالدة أديب فنستطيع ان نقول انها تلقّت تهذيباً حرًّا وعاشت في بيئة حرة ، او بعبارة ادق لا تدين بغير حرية الفكر وحرية النظام فقد ولدت من والدين متوسطي الحال وكان والدها سكرتيراً في دائرة الخزينة السلطانية الخاصة وكانت منذ حداثتها تظهر ميلاً للتبحر في العلوم والآداب ولم يكن يؤذن للبنات الوطنيات في ذلك العهد بدخول المدارس الاجنبية ولم تكن المدارس الوطنية تفي بالحاجة فتوسل والدها الى السلطان عبد الحميد ان يأذن لابنته بدخول الكلية الاميركية في الاستانة فأذن لها فدخلتها ولم يمض زمن على ذلك حتى برزت على اقرانها وتخرّجت سنة ١٩٠١ برتبة بكالوريوس علوم وهي اول امرأة مسلمة في تركيا نالت هذه الرتبة . وقد برعت في جميع العلوم الا الهندسة فقد كانت حجر عثرة في سبيل تقدمها فأحضر لها والدها استاذاً خاصًّا من اساتذة الجامعة السلطانية ليلقنها في المنزل ما اشكل عليها فهمه من هذا العلم فلم يلبث ان علق بها فخطبها من والدها ثم اقترن بها وهي لا تعلم ان لزوجها امرأةً وأولاداً في باريس على أنها لم تكن لتجد خلاصاً لها من تلك الحالة فاضطرت الى ملازمة خدرها وكانت تقضي أوقاتها في مطالعة ما حوتهُ مكتبة زوجها من التآليف النفيسة ولا سيما الفرنسية منها فكان لمطالعتها أثر شديد في نفسها الكبيرة ولم تلبث أن سنحت لها الفرصة المنشودة إذ طلقت زوجها وأصبحت حرة لتقف حياتها على الجد والعمل وكان ذلك قبل اعلان الدستور في تركيا فلما أعلن وأطلقت الحرية للأفكار والمطبوعات نشرت خالدة أديب قصيدة حماسية تخاطب فيها رجال الفرقة الرابعة التي تم على يدها قلب

(١) تتمة المحاضرة التي القاها حضرة الكاتب الاديب الاستاذ نقولا شكري في دار نقابة موظفي الحكومة المصرية بدعوة من جماعة الادب المصري

الحكومة الاستبدادية بلسان مؤسس الدولة العثمانية فكان لقصيدتها وقع عظيم وطارت شهرتها وذاع صيتها

وفي هذه البيئة السياسية التي كانت تدوي فيها اسماء ابطال الاتراك في الحقبة الاخيرة : انور وطلعت ونيازي وجمال وجاويد . في هذه البيئة نفسها ابتدأت السيدة خالدة اديب تفكر وتكتب على مثال ماترى وتحس وكانت الجمعية التركية وقتئذ تشكو مظالم العهد الحميدي وتتألم من ضروب العسف وضياع سيادة الدولة فابتدأت كسيدة مثقفة ومطلعة تكتب في سبيل الدفاع عن حقوق المرأة فصار الناس يطالعون كتاباتها بلهفة ولكنها لم تقتصر على ذلك بل جعلت تنشر في جريدة « طنين » مقالات اجتماعية وسياسية فاشتهرت بسداد الرأي واعتدال اللهجة وكانت تجتمع برجال تركيا الفتاة ولا سيما انور وطلعت وجمال فتبدي لهم رأيها في شؤون الدولة وهم لا يستنكفون من الاصغاء اليها والعمل بآرائها . ولما قلب عبد الحميد الحكومة الدستورية سنة ١٩٠٩ ورد اسمها في قائمة المحكوم عليهم بالاعدام فاضطرت الى الفرار حرصاً على حياتها فشخصت الى مصر ومكثت فيها الى ان استعاد الاتحاديون سلطتهم

وفي ذلك الوقت كانت قد أثمرت في اذهان الاتراك فكرة العصبية التركية وانبثت في الجمعية التركية فكرة الاندية السياسية التي كانت تحض على انقاذ العنصر التركي . وكان هذا المبدأ المجرد يعمر قلوب الاتراك نساء ورجالاً فلما تردد في جو العاصمة التركية صوت السيدة خالدة اديب في سبيل الدفاع عن حقوق المرأة لم يلبث ان تجاوب مع اصوات كثيرة كان يصدرها وقتئذ بعض الزعماء وقادة الحركة السياسية

والى السيدة خالدة اديب يرجع الفضل في رفع شأن المرأة التركية بانشاء الاندية والجمعيات ولما نشبت الحرب البلقانية انتظمت كثيرات من النساء في سلك جمعية الهلال الاحمر وجعلن يكتبن ويخطبن ويحرضن على الجهاد في سبيل الوطن وقد احتشد عدد منهن يربي على خمسة آلاف في دار الجامعة السلطانية فوقفت تخطب فيهنَّ بحماسة متوهجة ولما اتمت خطابها كان العرق يتصبب من جبينها من شدة التأثر والانفعال فنزعت حُليّها الثمينة والقت بها في صندوق امامها اعانة للوطن فاقتدت بها سائر النساء وجعلن الواحدة تلو الاخرى يقدمن حليهنَّ لهذه الغاية الشريفة

وابتدأ بعد ذلك انضمامها الى الحركة الوطنية التي كان يعمل رجالها لتحرير تركيا القديمة من ربقة النظم والعادات التي قضت على العنصر التركي بالجمود . واتسع اشتراكها بعد ذلك في تلك الاحزاب السياسية فصارت عضواً في حزب التقدم الجمهوري من بعد أن اشتركت اشتراكاً فعليًّا في الجهاد مع الوطنيين الاتراك وكانت تحضر اجتماعات زعماء الاحزاب الوطنية وتترأسها احياناً ولا يضع اولئك الزعماء خططهم السياسية الا بعد استشارتها . وكانت الى جانب ذلك ترأس

اللجان التي تؤلف لحل المسائل الشرعية المتعلقة بالمرأة وعلى الاخص مسألة تعدد الزوجات وكان يشاركها في ذلك طائفة من السيدات التركيات نخص بالذكر منهن السيدة نزيهه محيي الدين خانم الرئيسة السابقة للاتحاد النسائي بالاستانة وسلمى خانم . اولئك اللواتي عملن بكل ما في وسعهن على صيانة حقوق المرأة التركية واصلاح قانون الاسرة . وبينما كانت السيدة خالدة اديب تواصل جهودها في سبيل تحرير لداتها كانت الصحف تملأ أعمدتها برسائل في الادب والشعر الرقيق الذي كانت تصنفها في اوقات الفراغ : والى السيدة خالدة أديب يعزى الفضل في توضيح مهمة المرأة التركية في المجتمع وان هذه المهمة أوسع وأجلّ مما يفهمهُ رجال العصر . ولما تقرر في الاذهان أنها سيدة مثقفة من الطراز الاول وأن جهودها تسع النهوض بالاعمال الجليلة في دوائر السياسة والادب والاجتماع وأنها زعيمة متفوقة تتصف بأجل ما يمكن ان تتصف بهِ المرأة المهذبة من المزايا والخلال الباهرة رأى الزعماء الوطنيون الذين شاركتهم حيناً طويلاً في ميادين العمل السياسي والدفاع عن حرية البلاد أن يكللوا مهمتها الشريفة بمنصب تستطيع أن تترك فيهِ لمواهب المرأة والزعيمة اصدار امثلة أخرى باهرة في حياة المرأة فعهدوا اليها بتولي وزارة المعارف وكان ذلك في موطن تقليدي قديم نوعاً من التجديد لم يسبق له نظير في الشرق. وقد رفع مقام السيدة خالدة اديب في نظر جميع الذين يمجدون نبوغ المرأة وعبقريتها . وكان مثلاً باهراً يوحي بان ثمة مستقبلاً عظيماً للمرأة في الشرق . وقد أعلى مركزها كأديبة واسعة الاطلاع ومجاهدة سياسية اقترن في مهمتها العمل لجنسها بالعمل الجدي للوطن وللجمعية وكانت مثلاً فذًّا للمرأة المسلمة بوجهٍ عام

***

على ان السيدة خالدة اديب لم تبلغ هذه الغاية في المجتمع الذي عملت على تحريره الاّ بعد أن ضحت بجانبٍ كبير من ايامها وراحتها وهناءتها في الاشتراك مع اولئك الذين كان النظام التركي القديم قد جعلهم موضوع نقمته ومطاردته

وكان لا بدّ ان يقترن بذلك التطور الباهر في حياتها كسيدة تركية تطور آخر في ذهنها وطريقة تفكيرها . وفي الحقيقة ان الجمعية التركية والعادات التركية بوجه خاص كانت وقتئذ مستعدة كل الاستعداد لذلك التطور . وقد ابتدأ اول ما ابتدأ في الغناء والموسيقى ثم في الشعر . ومن الممكن ملاحظة ذلك في الطرائق الجديدة التي يستعملها الاتراك الآن في كتاباتهم واشعارهم . وينسب الى السيدة خالدة اديب في هذا المعنى تعابير وصيغ طريفة تفرغ فيها افكارها فهي ترى ان المرأة التركية لا ينقصها للترقي غير حظ الرجل الحر من التعليم وهي تعني بالرجل الحر ذلك الذي تحرر من القيود الادبية والحوائل التقليدية التي تحول دون

ترقي الجماعة . أما التحرير السياسي وحقوق المرأة بحسب التعبير الشائع فهما عندها في الدرجة الثانية . فتوجه القول الى لداتها « ان السياسة لا تملأ الا جانباً تافهاً من حياتنا وانما هو نير القيود الاجتماعية والادبية الذي يثقل كاهل المرأة »

الى أن تقول : —

« اذا كان يراد بنا نحن النساء ان نكون احراراً في هذه الارض فينبغي ان ننال من التعليم حظ الرجل الحر . ولكن التعليم في المدرسة كان طلاء للحرية مموهاً فان فتياتنا جميعاً لا يزلنَ في اعماق قلوبهنَّ عبيداً للاكاذيب الاجتماعية المقررة التي خلقها الرجال. وليس الغرض من هذا الاّ ان يعرف الرجل الى اي حد يمكن التوسع في تهذيب المرأة على شريطة ألاّ يبلغ بها الى حدود تحريرها من الأسر »

« ان الرجال يحاولون ان يهذبونا من الناحية الذهنية فقط ولكنهم من الوجهة الادبية أو الاجتماعية يأبون الاّ ان يحكموا علينا الوثائق ويشدّوا الاغلال ولكنهم لم ينجحوا فان الوثاق على مرّ الزمن سيقطع والغل سينفك . لانك اذا ابتدأت اليوم بتعليم النساء فأنت ولا ريب منتهٍ غداً بتحريرهن »

وحسبُ هذا الرأي الوضعي البحت أن يصور لنا مذهب السيدة خالدة أديب في تحرير المرأة . وفي الحقيقة ان مهمة المرأة محدودة بمهمة الرجل التي هي اوسع . لذلك كانت قيود الاجتماع والاصطلاح تثقل كاهل المرأة من حيث أنها زعيمة تلك المملكة الصغيرة التي هي الاسرة أو المغنى العائلي . ولقد كان في أساس المهمة الشاقة الجليلة التي قامت بها السيدة خالدة أديب مسألة تحرير الاسرة التركية وكان من أهم القيود التي تغلها مسألة تعدد الزوجات والسيدة خالدة أديب الى كونها زعيمة حركة نسوية من الطراز الاول مفكرة وادبية وخطيبة بليغة لا تكاد تصل عبارتها الى الاسماع حتى تملك القلوب وتجتذب اليها الجماهير . وقد كان لخطبها الرنانة ومحاضراتها أثر قوي في تحقيق عناصر المهمة الواسعة التي أفضت في النهاية الى تحرير المرأة التركية . ونعلم من تآليفها — وهي من الكاتبات اللواتي لا ينقطعن عن الكتابة — مذكراتها عن الحرب بين تركيا واليونان وهي تلك الحرب التي اشتركت فيها بتخفيف آلام الجرحى والمنكوبين ورواية بديعة بعنوان « الاكمة الحمراء » كلها تصوير للحرب وحمية الجنود الاتراك وحماستهم وللسيدة خالدة أديب رسالتها الاسبوعية في الصحف التركية

***

وقد امتازت الى سعة اطلاعها بالدقة في التصوير وقوة الحياة في التعبير ومقدرة على وصف روائع العالم التركي الذي جاهدت من اجله وامتلأت شعاب قلبها حماسة في سبيل الدفاع عنهُ .

ثم هي خصبة الذهن قيّمة الانتاج مستحدثة الاسلوب كسائر الكتاب الاتراك المعاصرين فانك لا تكاد تجد فارقاً كبيراً اليوم بين كاتب تركي من الطبقة الاولى وبين كاتب اوربي معاصر في اخراج الصيغ والتعبيرات . وهذا يرجع الى طبيعة اللغة التركية اكثر مما يرجع الى مواهب الاتراك انفسهم وان كنا نعترف للسيدة خالدة أديب بتلك الموهبة العظيمة التي جعلت منها كاتبة واديبة وشاعرة من الطبقة الاولى ونعني بها خصوبة الذهن المقترنة ببلاغة التأليف

***

ومن بدائع انتاجها قصيدة بعنوان « موت الشاعر »

قالت : —

« ايها الشاعر

« ان الجو الذي عهدته لايزال على عبقه . والانهار التي شهدتها تجري كذوب اللجين ، والنسيم كعهده يهب حاملاً أرج الازهار وعطرها

« وها هي الطيور ما برحت تأوي الى وكناتها صادحة مغردة وها هي الطبيعة والشمس ذات النصال الابريزية تتألق في الافق . والرعاة كما عهدتهم ينشدون متهللين لتحية ملكة النور عند غيابها

«كيف ايها الشاعر ، هل كسرت قيثارتك التي ترددت انغامها ملء الدنيا

«وهل رميت بالقلم الذي كان بيمينك كالطائر الغرد فلا تعود الى التوقيع الشجي المطرب ؟

«هل قضي نهائياً عليك بالانزواء في هذا المعتزل القصي وقد فارقت هواتك ومريديك ؟

فلما سمع الشاعر اجاب : —

« بلى ، قضي الامر وكسرت يراعتي، وحطمت قيثارتي . اني ارى كل ما في الطبيعة يستحثني على الانشاد، ولكني اشعر بالعجز امام الموت الذي يفترسني

وفي هذه الدقيقة كان قرص الشمس الذهبي يهوي في اعماق المغرب فراح الشاعر يناجيه :

« ايها الكوكب المنير ، اذا بلغت اله النور فذكره بهذا الشعب الهضيم المضنك

« قل له ان تركيا ما برحت تتمزق كل يوم وتئن تحت نير الطغيان فرثت لها الشمس بنظرها وقالت :

« اذن ، هلم ايها الشاعر الى الله المحيط بكل شيء فتبثه مصائب قومك الشاكين المتوجعين

« هلم الى الله تبثه ما يجيش في صدرك

« وغابت الشمس على الاثر وراء البحر بينما كانت الامواج تصطخب في سكون

« وأرخت الظلمات سدولها وساد المدينة صمت عميق لان شمسين غابتا عن تركيا ...»

وبعد ، فاننا لم نتحدث عن السيدة خالدة أديب اشهر كاتبات تركيا الجديدة الا لكي نقدم مثلاً عالياً لسائر سيدات الشرق فان خالدة أديب تستحق أن تكون قدوة للمرأة الشرقية بوجهٍ عام

نقولا شكري

مقتطف ابريل ١٩٣٣

السيد الشريف محمد عبد الحي الكتَّاني

امام صفحة ٤٨٣

باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناه ترغيباً في المعارف وانهاضاً للهمم وتشحيذاً للاذهان. ولكن العهدة فيما يدرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف . ويراعى في الادراج وعدمه ما يأتي : (١) المناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيره عظيماً كان المعترف بأغلاطه أعظم (٣) خير الكلام ما قل ودل . فالمقالات الوافية مع الايجاز تفضل على المطولة

الشريف الكتاني

جاءتنا هذه الرسالة البليغة في وصف الشريف الكتاني الذي زار مصر في طريقه الى الحجاز لتأدية فريضة الحج من حيث هو عالم من اكبر علماء الفقه الاسلامي واديب واسع الاطلاع عميق الفهم جمع خزانة من انفس المخطوطات العربية واتمها في داره بفاس . فنشرناها شاكرين

هما رجلان ألان الله لهما من صخرتي أولَ ما رأيتهما : السيد الجليل « محمد نصيف » كبير جُدّة وعماد الحجاز والأملُ المتدُّ في جزيرة العرب ، وهذا السيّد المباركُ محقق العلم الاسلاميّ وعمدة التاريخ العربيّ «محمد عبد الحيّ بن عبد الكبير الكتانيّ الادريسي» واحد فاس ، وكبير مراكش ، والعلمُ الشامخُ بين أعلام الامّة الاسلامية في هذا العصر ما بينَ الصينِ إلى رباط الفتح من المغرب الاقصى

وما عسايَ أقولُ في رَجُل . . . كلما أمسكتُ القلم لأكتبَ عنه تهيَّبْتُهُ من غير خوفٍ كما يتهيَّبُ المؤمنُ قالةَ الحقّ تحيكُ في قلبه ، خشيةَ ان يجورُ فيها لسانهُ ، أو ان يعدل بها سامعها عن وجهٍ قصد اليه . وأنا حين اكتبُ هذه الكلمة — بعد ان لازمت الرجل ايامهُ ولياليه في القاهرة ، وأخذت عنهُ ، وقبست من نوره وعلمهِ وخُلُقِهِ الغضّ ، واستنشيت ريّا شمائله — أجدني كالذي انتقل بروحه من عالمٍ كثيفٍ فيهِ من ثِقَل المادة ما يهيض جناح الطائر ، الى عالَم من الرُّوحانية المصفَّاةِ التي ألقت اوزار المادة الى مثارها ومعدنها من الارض ، وحلقت في جوّ السماء بين نسمات النفْحة الالهية وفتنة الجمال العلوي . . . الجمال الذي ينتظم الكون كله بأفلاكه وكواكبه ودقة تدبيره وحكمة امره

رجلٌ منضَّر الوجه كالوردة الزاهية فيها سرُّ الجمال الالهيّ الذي لا يذبُل ، مشرق الجبين كنور الفجر الصادق الذي لا يتكذَّب ، وضاح الثنايا كالاقحوانة المبتسمة في ربيعها من الطلّ والندى ، صافي العينين كالماء النمير في مجرًى من البلور ، كثّ اللحية محفوف الشارب

أهدب الاشفار أبلج الحاجبين في شعرهما وطف ، ضخم الهامة سابق الهيبة بادي الحنان في جسمهِ بسطة تذكرك بما تقرأ في صفة علي بن ابي طالب رضي الله عنهُ . هذا هو السيد الشريف «الكتاني» عالم الشريعة الاسلامية وهذه صفتهُ اول ما تكتحل عيناك بطلعته

هو في الثامنة والاربعين من عمره ، ولكن تطالعك هذه السنوات القلائل من عينيه بالكَبْرة الملطفة بشباب القلب ، المخففة بحياة النفس العزيزة المتألمة المثخنة بالجراح من احداث الدهر وعواديه . ينظر اليك حيناً نظرة العالم المتمكن الامين المتثبت الذي شغله العلم عن الحياة المادية الغليظة ، فتحملك نظرته هذه من مجلس بسيط وديع الى بحر من العلم يفتنك هدوءه كما يروعك اصطخابه إذا ازدحمت فيه أسباب الحركة العلمية . وينظر اليك حيناً وهو يستمع هادئاً نظرة المشفق الحريص الذي يودُّ ان يراك مصيباً لم تخطىء . وأنت لا تزال في مجلسه بين انواع من النظرات لها معانيها ، ولهذه المعاني أسبابها ، ولهذه الاسباب بواعثها ، ولهذه البواعث محركاتها ، وهذه المحركات خفايا من وراء النفس ، منقمعة مكتومة لا تنفذ اليها إلاّ نظرات أروع وقاد قد ابتلى دقائق النفس الانسانية بالممارسة والذهن المتوقد الذي يرى من آيات الله آيات من البلاغة الالهية التي تمس الروح مسة تيار كهربائي ترعش به اعصاب الانسانية وتنتفض

أنت من مجلسه في مجلس الحافظ لسنة رسول الله صلى الله عليهِ وسلّم ، والفقيه الذي قلب آيات الفقه الاسلامي بالبصر والبصيرة ، والمؤرخ الذي انفتق له السور عن تاريخ العرب والامة الاسلامية في مشارق الارض ومغاربها ، والالمعي ذي الدهاء الذي ركّبت الاحداث في نفسه آلة احساس دقيقة تحس بالبعيد احساسها بالقريب ولا تكاد تخطىء الاّ بمقدار ما في النفس الانسانية من اسباب الخطأ الذي لا تنفيه إلاّ العصمة التي لم يقضِ الله لاحد من الناس ان يبلغها . وهو وراء ذلك أحد المتصوّفة الذين عرفوا حقيقة التصوف لا أوهامه التي ملأ بها الدخلاء ساحة التصوف ، وأحد الذين يزنون العلم الحديث وما نشأ عنه من أحوال الاجتماع بميزان يفرق بين الخير والشر والحق والباطل ، فهو يطلع عليهِ اطلاع المتبصر الذي لا يرضى لنفسه ان يكون من الغوغاء اتباع كل نظرية هوجاء لا قرار لها على حال

ولهذا الرجل احساس علميّ عجيب ، فهو لا يكاد يسمع بأديب أو فقيه أو عالم أو فيلسوف إلاَّ حنَّ اليهِ وقلقَ إلى رؤيتهِ ، ورغب في التحدث اليه وسبر غوره ، فلا تصرفهُ شواغله وهو في دار الغربة عن أن يقدم أهل العلم — أيّاً كانوا — بالزيارة بل تراهِ يبدؤهم بها . ويرحلِ من بلد إلى بلد لأن فيهِ عالماً جليلاً قد قرأ آثاره أو سمع بهِ . وأنت فطِنٌ كيف تقدّرُ رجلاً من أقصى المغرب بفاس ، لا يذكر أمامهُ اسم عالم أو غيره في مصر او الشام أو الجزيرة العربية أو العراق أو الهند أو الافغان أو الترك إلاّ عرفهُ وقصَّ لك من أخباره وعدّدَ لك من كتبه . ومن هؤلاء الناشىء والمغمور الذي لا يعرفهُ أهل بلده على حين أنهُ منهم بمنزلة

البنان من راحته . بل . . . . يسمع اسم الرجل يراهُ أمامه فيطمئنُ قليلاً ثمّ يسأله من أي بلدة هو فما يجيبُ حتى يسأله عن علماءِ هذه البلدة مَن مات منهم ومن حيّ وعن كتبهم كيف كان مصيرها ، ثم يعدّدُ لهُ بعضَ ما ألّفوا . . . ويذكر له روايته عنهم ان كان رَوَى عنهم شيئاً من حديث رسول الله صلى الله عليهِ وسلم أو غير ذلك

فمن أجل هذا الاحساسِ العلميّ المركّب فيهِ أتيح له أن يجمع مكتبة في داره بفاس تُعَدُّ من أغنى المكاتب الخاصة وأنفَسِها في العالم العربيّ كلّهِ ، فيها من النفائس والنوادر والغرائب ما لا يوجد في غيرها . وهو لا يكاد يسمع بكتابٍ نادرٍ حتى يسارع الى استنساخهِ أو تصويره بالفوتوغراف . وها هو قد نزل مصر فجمع من شوارد المخطوطات ونوادرها أشياء كانت بين سمع دور كتبنا وبصرها ثم غفلت عنها . ويجلس هذا الرجل في نُزُله فيأتيهِ الوراقون بالمخطوطات حديثها وعتيقها فما يفتح أحدها حتى يعرف ما الكتابُ ومن صاحبهُ ويفرح بالكتاب النادر فرح الذي ضنّ عليهِ الزمن طويلاً ثم جاد . وبالله أشهد صادقاً لكأني أرى الكتاب بين يديهِ يكاد يحنّ اليهِ حنين القلب الممزق المفطور الى سبب من أسباب سلوته وراحته ، ولكأني اراهُ يمسك الكتاب براحته كما يمسك أحدنا الشيء فيهِ من آثار قلبهِ وحبهِ وآماله ورغباتهِ ما فيهِ ، ويلقي عليهِ نظرة عاطفة تكاد تحييهِ من عطفها وحنانها وحدبها وأشواقها

هذا هو الرجل العالم المتيم بالكتب ، الذي يطّلع جاهداً على آثار الناس وما ينشرون في الكتب والصحف والمجلات ويعي اسماءهم ويسأل عنهم ويرغب في رؤيتهم ويرحل اليهم بادئاً بالزيارة . وفي هذا الرجل رجل آخر قد جعلت من عينيّ جاسوساً مقتدراً نفّاذاً يتتبع نظراته وحركاته وما يبدو على وجههِ وجبينهِ من آيات التغيُّر والتبدل حتى عرفتهُ او كدت

حدثتنا عنهُ فقالتا : هذا رجل في عظم هامتهِ واتساع جبينهِ والتماع عينيهِ دليل على قوة مستحكمة شديدة . وهذه القوة — مع ما فيها من شدة — هادئة وادعة مسالمة ، تتريث مفكرةً ، فلا تظهر ولا تستعلن الاّ ساعة الجد حين تعلم ان قد دنا أوانها ، وأن موضع الفصل قد استبان ، وأنها لن تخطيء . وهو رجل في أسالة خدّه ورقّة نظرته شاهد على طيب الخُلق ، ودماثة الكنف ، وحسن العشرة ، وكمال الحنان والعطف ، وهو رجل في تفاجّ ثناياه وانطباق شفتيهِ وطول صمته — اذا لم يدعَ الى كلام — وعمق نظراته في هذا الصمت برهان على الصبر في كل ملمة ومع كل أحد . قالتا : ثم هو رجل حلوُ النفس صادق مخلص أمين على ما يؤتمن عليه رضيّ الشمائل في كل حين ...أما تراه يبتسم ابتسامةً رقيقةً لا تكاد تخلص الا عن قلوب الاطفال المبرّئين أو الكرام الصالحين فاذا ضحك اهتزّ جميعه لان ضحكته تصدر عن قلبه الطيع الكريم الذي يتحكم في كل عضو من أعضائه . وهو بعد رجل كتوم يحمل الآلام بين جنبيه وهي تمزق قلبه وتفتك فيه . ينظرُ النظرة المترامية في مفاوز الماضي البعيد فيرجع

بالذكرى الأليمة ، وعلى نظراته معنى البكاء الذي لا يجد في الدمع ترجماناً او معيناً . وهذه وحدها نظرة لو ألقيت على جبل أصمّ لا يألم لوجد لها مسًّا كمسّ الرحمة في القلب الرقيق. ويخيل اليك وهو يغضّ من طرفه ويرخي جفنيه أن الصبر والجلد والرجولة الصادقة أرادت بذلك أن تخفيَ عنك نظرات هي أحاديث أيام ، أشفق على نفسك ان تسمعها أو تلمّ بها

وتراهُ حين يتكلم حتى في العلم يفيض حناناً ورقة وكرماً ووفاءً ثم يشتدُّ بعد تمهل حتى يأخذ عليك نفسك هيبة ووقاراً من ورعهِ وتقاهُ ، ثم تتعرَّف فيه اذا خالطته ذهناً قد اجتمعت له أسباب الاحاطة بأحوال الناس في كل أمة وجيل ثم يدق حتى يكاد يغمض عليك اذا لم تلق اليه بسمعك وبصرك وقلبك جاهداً متفهماً . وان تعجب فعجب لهذا الرجل الذي اتسع أفقه حتى ألّف ما أناف على مائتي كتاب فيها موضوعات عجيبة لم يسبق اليه بمثل تحقيقه ودقته على الاسلوب الذي يفهمه عن اهله ومن عرف مذاهب القوم في كتبهم ومؤلفاتهم

كلمة مقتضبة في رجل بحر كريم الاصل والمنصب سليل جدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوة من هذه الامة العربية التي تدفقت في الارض تدفُّق السيل من رؤوس الجبال فأنبتت في كل أرض نباتاً حسناً زكا مغرسهُ وطاب ثمرهُ . كلمةٌ نصلُ بها أرحاماً تقطعت أو كادت في زمن توالت علينا أحداثه واستمرَّتْ علينا عواديه وتركنا لُطاءَ

يأشَرُ الفارغُ الخليُّ ، ويأسى مُتْرَعُ الصَّدْرِ منْ جوًى ملأتْهُ

محمود محمد شاكر

حقائق جديدة

عن الربع الخالي

حضرة محرر المقتطف الأغر المحترم

ارجوكم ان تفسحوا لي مجالاً على صفحات المقتطف الاغر لاضافة ما يلي الى بحثي الذي تفضلتم بنشره في عدد فبراير عن الربع الخالي

حين كتابة ذلك الفصل وارساله الى المطبعة لم يكن في امكاني ان اضمنه النتائج التي اسفرت عنها رحلة المستر فلبي في شتاء العام الماضي ، اما الآن وقد اتاح لي المستر فلبي فرصة الاطلاع على مسودات الكتاب الذي وضعه عن الرحلة ، وعلى التقارير المختلفة التي وضعها الاخصائيون العديدون في المتحف البريطاني للتاريخ الطبيعي بعد فحصهم الدقيق للنماذج المختلفة التي أتى بها من مواضع مختلفة في الاماكن التي زارها رأيت لزاماً عليَّ ان اضيف الملاحظات الآتية الى ما نشر سابقاً

اولاً : كان المعلوم عن التكوين الجيولوجي للبلاد العربية ان باطنها خلو من آثار الاصداف البحرية الباقية من العصر الجيولوجي المتوسط المعروف باسم « ميوسين Miocene »

فجاءت رحلة المستر فلبي مثبتة وجود مساحات واسعة في المنطقة المعروفة باسم جافورا بين الخليج الفارسي ومنطقة الربع الخالي ، مملوءة بالاصداف الميوسينية التي يتخذها العلماء دليلاً قاطعاً على وجود البترول فيها . واصبح في الامكان تحديد الجغرافية الجيولوجية للبلاد العربية بصورة واضحة في مناطق متوالية اعتباراً من ساحل البحر الاحمر الى الخليج الفارسي :— صخور ابتدائية . فترياسية . فيوراسية . فكريتاسية ، فايوسينية ، فميوسينية

ثانياً : ان المنطقة الجديدة التي اخترقها المستر فلبي في رحلته الاخيرة لاول مرة والتي يمكن تحديدها بانها تبدأ اعتباراً من خط الطول الشرقي ٥٠° الى حدود وادي الدواسر ونجران انما هي بيداء قاحلة ، جافة ، معظمها رمال كثيفة تتخللها مناطق شاسعة من الطمي والحصباء وتعرف باسماء مختلفة مثل ابو بحر وسحمة ورعلة وجليدة وجدة الفرشة الخ . وان الآبار فيها معدومة الاّ في حافتها الشرقية بقرب منطقة الخيران والرمال التي اخترقها المستر توماس من قبل وان عمق هذه الآبار عظيم جداً فعمق بئر مفينمة ١٧١ قدماً وبئر فاضل ١٢٥ ، وان المنطقة قليلة الانبات والعشب ولذا فان حيوانها قليل جداً

ثالثاً : من أهم آثار رحلة المستر فلبي ايضاً انها جاءت بدليل جديد يستند اليهِ العلماء الذين يظنون ان البلاد العربية كانت من قبل كثيرة المياه والخيرات ثم طرأ عليها جفاف عظيم أنضب أنهارها وأهلك عشبها وشجرها . فقد اجتاز المستر فلبي اصقاعاً عديدة حوت اصداف المحار الذي لا يعيش الاَّ في المياه العذبة وجلب منها نماذج درسها ، اخصائيو المتحف البريطاني للتاريخ الطبيعي واكّدوا أنها من هذا الصنف . وجمع من هذه المنطقة بعض الادوات الصوانية التي استعملها انسان ما قبل التاريخ في العصر الحجري الحديث Neolithic . والنتيجة الطبيعية لهذين الاكتشافين هي أنهُ في الازمنة القديمة التي تقدمت الاعصر التاريخية كانت منطقة الربع الخالي ذات انهار جارية يعيش فيها المحار ، تنبع من جبال عسير واليمن والحجاز وتصبُّ في البحر الميوسيني الذي يظنُّ انهُ كان غامراً الاراضي الكائنة بين رملة مفشن وآبار شنة والزكرت ونيفا وعين سالا . وقد تمكن المستر فلبي من تمييز مجاري اربعة أنهار عذبة في هذه المنطقة وحاول ان يربطها بالاودية الحالية الآتية : (١) اودية الافلاج (٢) وادي مقرن (٣) وادي الدواسر (٤) وادي نجران

رابعاً : ونتيجة مهمة ايضاً هي القضاء على الاسطورة التي مؤداها ان كثيرين يعتقدون بوجود آثار مدينة او مدن مطمورة وسط رمال الربع الخالي وبالاخص آثار وبار مدينة عاد التي دمرت بنيران السماء . فقد نفي وجود آثار مثل هذه ، وحقق ان الاعصر التي كان في الامكان اعمار هذه البلاد فيها حينما كانت ذات انهار عذبة ، انما هي أعصر سابقة للعصر الذي بلغ فيهِ الانسان مرتبة انشاء القرى والمدن

خامساً : ومن أعظم نتائج الرحلة ايضاً تحقيق مسألة قصور ام الحديد التي ذكرت عنها في متن الفصل انها آثار بركان خامدة فقد جلب المستر فلبي معهُ قطعة من الحديد المصهور من مخروط هذا البركان وسلمها الى المتحف البريطاني للتاريخ الطبيعي مع كميات من اللؤلؤ الاسود، ولدى فحص الكتلة تبين انها قطعة معدنية من نيزك سماوي ولا صلة بينها وبين المادة البركانية وان اللؤلؤ الاسود ، رمل (سليس) مصهور بحرارة شديدة جدًّا أحرقتهُ وجعلتهُ يظهر على شكل الدخان البركاني . وقد اثار هذا الاكتشاف اهتمام الاوساط العلميــة لكبر حجم النيزك ولكونهِ احد النيازك القليلة العدد المعروف عنها انها نزلت شديدة الحرارة الى درجة مرتفعة جدًّا فكان سطحها مصهوراً وباطنها لم تتصل اليهِ الحرارة الآنيَّة فظل على حالتهِ وأما السطح فقد تألف من صهره بالحرارة الآنية اشكال مخروطية تشبه مخروط البراكين واحرق الرمل المجاور للمنطقة المجاورة لهبوطهِ فجعله كمقذوف البراكين مكة فؤاد حمزة

تصحيح كتاب الزهرة

ردٌّ على نقد

تنحصر الاغلاط التي عرض لها الدكتور زكي مبارك (مقتطف مارس ١٩٣٣) في اربعة انواع

النوع الاول : ويشتمل على اغلاط أصاب الاستاذ مبارك في تصحيحها اصابة تشهد بسعة اطلاعه وها هي بحسب ارقامها (الارقام التي سار عليها حضرته في التصحيح) : ١٦ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٣٦ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥١

النوع الثاني : عثرنا في اثناء العمل على كثير من الاغلاط كما اننا احتجنا في مواضع كثيرة الى الملاحظات . لذلك وضعنا جدولاً في آخر الكتاب يبتدىء في ص ٣٨٢ وينتهي في ص ٤٠٦ ويكاد هذا الجدول لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الاَّ احصاها حتى الاغلاط التي فات الاستاذ ان يلاحظها رغم افتتانه بالتدقيق ، «وغرامه بالتصحيح» . وهناك اصطلاحات نشير منها الى الحرف m = مخطوطة ، Y = ياقوت ، H = حماسة ومنها ايضاً nc = غير واضح ، inc = غير تامّ وغير ذلك مما هو مفصّل في مقدمة الجدول . وكأنَّ الاستاذ مبارك لم يشأ ان يعترف بوجود هذا الجدول ، وكأنه لم يكد يعثر على الغلطة الاولى حتى استرسل في التصحيح ، والتصحيح عند الاستاذ غرام والغرام — كما يقولون — أعمى

وها هي الاغـلاط التى انتبه لهـا على حين ان جدول الملاحظات لم يغفلها بل اشار إلى كلّ غلطة منها اشارة اقلّـها يدلّ على الشكّ والاستفهام : — ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٠ — وقد اهتدى الاستاذ الى اصلاح بعضها وصحح بعضها على الاحتمال . الاّ ان النقد العلمي النزيه يحتم على الناقد أن يعطي كلّ ذي حقّ حقّـه

ويعرف لذي الجهود جهوده ولمّا كان الجدول ذاك (ويقع في ٢٥ صحيفة) حقّاً لنا ، وجانباً من جهودنا انتظرنا من الاستاذ مبارك الاّ يشيح بوجهِهِ عنهُ فيغفلهُ كل هذا الاغفال

النوع الثالث : ويشتمل على اغلاط صححها الدكتور مبارك وهي مثبتة بتصحيحها في ذلك الجدول المظلوم الذي لم يستحق نظرة عطف منهُ ! وقد لفت نظرنا اتفاقنا في التصحيح لا اتفاق توارد الخواطر بل وقوع الحافر على الحافر. وفي هذا النوع من الاتفاق عجب حين يقع مرةً واحدة أو مرّتين ، فكيف بهِ وقد وقع في اربعة عشر موضعاً ! ؟ . والى القراء جدولاً بأخطاء صححها في نقده وصححناها نحن كذلك في الجدول المذكور في آخر الكتاب

الغلطة برقمها	تصحيحها في جدول الملاحظات	تصحيح الدكتور مبارك
٤ وبعد	(الواو) لا لزوم لها	(الواو) لا لزوم لها
٩ الأبهم بالباء الموحدة	الأيهم بالياء المثناة	الأيهم بالياء المثناة
١٨ عتمة	عثمة رواية الحماسة	عثمة رواية الحماسة
٢٠ وما بي اذا زبى	رماني اذاً ربّي	رماني اذاً ربّى
٢٢ مكائد	مكايد	مكايد
٢٦ ان الذي	يا ذا الذى	يا ذا الذي
« قدّر	قدِر	قدِر
٣٣ فرحة نكاتها	قرحة ؟	قرحة نكاتُها
٣٨ لم يمكن	لم يكن	لم يكن
« منهم	فيهم	فيهم
٣٩ ترتيب سيء لابيات	هزج (الوزن الشعري)	رتبها الاستاذ على الهزج
٤١ كتوم	كظيم رواية الحماسة	كظيم رواية ابي تمام . . .
٤٢ دونِي	دونيَ بفتح الياء	دونيَ بفتح الياء
٤٥ لتقلهم	لتنقلهم ؟	لتنقلهم

النوع الرابع : ويشتمل على ما بقي من الاغلاط . وقد شاء الاستاذ مبارك ان يسميها اغلاطاً وليست كذلك بل هي في الحقيقة تفضيل رواية بيت على رواية واستبدال كلمة بكلمة . ومعروف بالبديهة ان كلّ كتاب مخطوط أمانة في عنق ناشره يتحتّم عليهِ ان يخرجهُ للناس مطبوعاً كما وجدهُ مخطوطاً . فاذا بدت وجوه للملاحظات كاختلاف رواية أو تسمية ونحوها احتفظ الناشر بالاصل ودوّن ملاحظته في الموضع المخصص لها ومثال ذلك جدول ملاحظاتنا المظلوم

نابلس ابراهيم عبد الفتاح طوقان

تنقيط الياء في آخر الكلم

غير كافل بازالة اللبس

حضرة رئيس تحرير المقتطف الغراء

قرأت في مقتطف فبراير ١٩٣٣ مقالاً ممتعاً ، في موضوع لغوي شائق ، بعنوان «تنقيط الياء في آخر الكلم» كتبهُ البحاثة الشهير الأب انستاس ماري الكرملي ، محاولاً فيهِ اثبات نظرية زوال اللبس بين الكلمات التي تكتب اواخرها املائيًّا بالياء بمجرد تنقيط الياآت الواقعة في آخرها ، وقد اهاب بكتّاب العربية ان يلتزموا التنقيط فيما يقرأ بياء صريحة من هاتيك الكلمات ، نفياً للشبهة وحرصاً على وقت القراء ، ونهضته باللغة من مهاوي التردد ، ثم ضرب الامثال تلو الامثال ، تأييداً لنظريته المشار اليها ، فأجاد وأفاد ، بيد اني ، عملاً بحرية البحث وتمحيصاً للحقيقة العلمية : اقدمت على تقديم ملاحظتي لكم ، على ما قرره ، مؤملاً نشرها وفق ما اخذتم على عاتقكم : —

ان اقتراح الاب انستاس مفيد جدًّا ، وذو شأن خطير ، ومضعف لشوكة الوهم والالتباس ولكنه ليس بالقول الفصل في المسئلة ، ولا بالقاعدة الجامعة المانعة في الامر ، فباب الشبهة وان طُبق (اي الاقتراح) لا يزال مفتوحاً . لنأخذ مثلاً كلمة (الحبلى) التي مثل بها في مستهل بحثه ، وقرر انها اذا لم تنقط ياؤها يؤكد انها هي المرأة الحامل ، اما اذا نقطت فيؤكد انها منسوبة الى الحبلى — لنأخذ هذه الكلمة نفسها ، ولنجعلها معيار الحكم على هذه النظرية — انا اذا فعلنا ذلك ، وقمنا بتنقيطها ، ورسمناها هكذا : (حبلي) تجلّى لنا انغيم اللبس لا ينفك مخيماً عليها ، فانها تحتمل امرين ، والحالة ما شرح : احدهما : ان تكون منسوبة لحبلى ، وثانيهما : ان تكون من اضافة (حَبْلٍ) الى ياء المتكلم ، وكذلك (يمني) مجرد تنقيط يائها الاخيرة لا يحصرها في النسبة الى قطر اليمن كما يراهُ الاب انستاس بل يجوز معهُ ان تكون من اضافة (اليُمن) الى ياء المتكلم ايضاً . ثم لفظة (السامي) المنقطة الياء المتطرفة بماذا نجزم في شأنها ؟ هل هي نسبة الى سام بن نوح ، ام وصف بالسموّ ؟ وكذلك قل في الحالي والراضي والمرتضي والغالي والقالي وخلافها من الكلمات الكثيرة التي لا يفارقها شبح اللبس بمجرد تنقيطنا لياآتها المتطرفة .

واذاً فجماع القول (في نظري) ان تضاف هذه الفقرة على ما ارتآه الاب انستاس ألا وهي : التزام وضع علامة (التشديد) فوق ياء المنسوب وما شاكله من ذوات الياءآت المشددة المتطرفة ، علاوة على — التنقيط . فيكتب هذا النوع من الكلمات دائماً هكذا : الساميّ ، يمنيّ ، حبليّ ، الحاليّ ، القاليّ ، أوانيّ ، جواريّ ، وبهذا الصنيع نأمن جانب اللبس مطلقاً ، ونحظى بالمرغوب محققاً

المدينة المنورة عبد القدوس الانصاري

مكتبة المقتطف

مملكة اورشليم اللاتينية

في القرنين الثاني عشر والثالث عشر (١)

جاءنا هذا الكتاب من نحو نصف سنة فقرأناه ثم عرضناه على المستر جفري مدير الدروس في مدرسة اللغات الشرقية بالجامعة الاميركية، وعصر المملكة اللاتينية من العصور التي توفر على درسها، فكتب المقالة الآتية بالانكليزية فنشرنا ترجمتها هنا

نشر هذا الكتاب على انهُ الحلقة الرابعة من سلسلة الكتب التي تخرجها الاكادمية الاميركية لتاريخ القرون الوسطى . والغرض منهُ توضيح ناحية من نواحي المنشآت الصليبية في فلسطين

ان دروس الممالك التي انشأها الصليبيون في الشرق يهم البحّاث المهتمين بثلاث نواحٍ من نواحي المعرفة—(١) فالباحث في الصلات التي تربط بين الشرق والغرب، يجد فيهِ مجالاً للبحث في زمن اتصل فيهِ الغرب بالشرق زمناً طويلاً وانشأ مملكة غربية في محيط شرقي ، وترك فيهِ اثراً متزايداً في اوضاعهِ وانظمتهِ (٢) اما الباحث في تاريخ الحروب الصليبية فيجد فيهِ الطريقة التي جرى عليها الصليبيون في تحقيق ما يرمون اليهِ في جماعة مستقرةٍ بعد ما قاموا بما قطعوهُ من العهود على الكفاح في سبيل تحرير الاراضي المقدسة من سيطرة غير المسيحيين. (٣) اما الباحث في تاريخ القرون المتوسطة فيرى فيهِ صورة جلية او مثلاً صافياً لعمارة فَدَنية (اقطاعية) تحاول ان تسير سيرها الطبيعي من دون ما يعيقها او يعيق العمارات الفدنية في اوربا

ومملكة اورشليم اللاتينية ، انشأها زعماءُ الحرب الصليبية الاولى بعد افتتاحهم اورشليم ونصّب جودفري ده بويون اول ملك عليها ، مع انهُ رفض —وظلَّ يرفض بعد تنصيبهِ— ان يدعى ملكاً لان اورشليم في نظرهِ بلغت من القداسة ما يجب ان يمنع ايًّا كان ان يدعو نفسهُ ملكاً عليها . وكان زعماءُ الحرب الصليبية الاولى قد تعوَّدوا النظام الفَدَني في حكم في بلدانهم ، فكان لابدَّ لهم ان ينشئوا الممالك التي ينشئونها في الشرق على مثال فَدَني.

(١) Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem 1100—1291 John L. La Monte, Massachusetts 1932, Medeiaval Academy of America-Price 4.50 Dollars

فاعترضتهم صعوبتان — ان سكان البلدان الشرقية التي دخلوها كانوا قد تعوّدوا قانوناً عرفيًّا يختلف عن قانون اي شعب من شعوب البلدان الفدنية في اوربا . فكان لا بدَّ للنظام الجديد ان لا يغضي عن هذا الفرق . (٢) كان البابا الداعي الى الحرب الصليبية وكان لهُ ممثل بين زعماء الصليبيين ، وكان هذا الممثل يحمل تعليمات خاصة ترمي الى وجوب مراعاة حقوق الكنيسة في كل البلدان التي يفتتحها الصليبيون وكان الزعماء يعرفون هذه الصلة التي تصلهم بالبابا ، ومعرفتهم هذه عدّلت من نواحٍ مختلفة النظام الجديد الذي ابدعوهُ للممالك التي انشأوها

وقد اضطلع المستر « لامونت » في الكتاب الذي بين ايدينا بدرس تطوُّر الاوضاع في المملكة اللاتينية التي انشأها الصليبيون . وصحيح ان غيرهُ من البحّاث عالج الموضوع من نواحيهِ التاريخية والتجارية واثر الاتصال بين الشرق والغرب في الأدب وغيرها . ولكن المستر لامونت اقتصر على ميدان معيَّن من البحث يختلف عما تقدم . وهو نظام الحكومة في المملكة اللاتينية . فتناول في القسم الاول من الكتاب تاريخ التطور الدستوري في تلك المملكة ثم في القسم الثاني عرض لنظام الادارة وفي الثالث عالج الصلات السياسية بين ملوك اورشليم

والذي يهمنا من القسم الاول ما يوضحهُ المؤلف من غوامض الخلافة في ملوك اورشليم . وليس من الامور الخفية كيف تطرّق الضعف الى المملكة رويداً رويداً بسبب الخلاف الدائم بين الاحزاب المتباينة على مسألة « من يقام حاكماً على المدينة » . ولكننا لم نرَ قبل هذا الكتاب كتاباً يحتوي على مثل تفصيلاتهِ الدقيقة المبنية على درس دقيق للوثائق الاصلية — وهو كذلك اول من بيّن الشأن العظيم الذي كان يعلّق بفكرة الخلافة عن طريق النساء في خلال تلك المدة . وان القارىء في العصر الحديث ليقف دهشاً اذ يقرأ القصة التي لا تنقطع حوادثها عن سيدات حسان كنَّ يتزوجنَ رجلاً ثم آخر ثم آخر . من دون رغبتهنَّ . لان مصلحة الدولة (الاسرة الحاكمة) كانت تقتضي ذلك

اما القسم الثاني . وهو القسم الذي يهمُّ القارىء بوجهٍ عام — فيتناول نظام المملكة الدستوري تناولاً مبنيًّا على مراجعة واسعة النطاق للاصول التاريخية . فهناك يقرأ عن (المجلس الاعلى) وتأليفهُ ومدى سلطتهِ ، وقد كان اعلى مجلس تشريعي في البلاد . ثم يلي ذلك بحث في المجالس التي دونهُ (كمجلس الطبقة الوسطى) الذي يتناول شؤون الرعية الفرنجية التي تحت طبقة الاشراف فالمجلس الذي يتناول الشؤون التجارية فالمجلس الذي يتناول الشؤون الحربية البحرية والشؤون التجارية البحرية ، والقواعد التي بمقتضاها يحكمَ السكان السوريون بحسب شرائعهم وعاداتهم

وفي هذا القسم يبحث كذلك في حقوق وواجبات كبار الفرسان من موظفي المملكة ، وقد كان النظام الذي يشملهم منقولاً عن النظام الفـدَني في اوربا . وهذا يفضي بهِ الى درس

العلاقة بين هؤلاء الفرسان بالمجلس الاعلى وحقوقهم في الاقطاع وتفصيلات الخدمة العسكرية ونظام الهيئة الحربية في البلاد لانهُ كان لها اكبر مقام في نظام الحكومة اذ كانت البلاد في حالة حرب دائمة مع اعدائها من الامم غير المسيحية التي كانت تحيط بها . وهذا البحث يفضي، بطبعهِ الى البحث في ادارة البلاد من الوجهة المالية

اما القسم الثالث من الكتاب فيتناول علاقة ملك اورشليم بامراء انطاكية وكونتات طرابلس وادسّا من ناحية، وبالبابا والقصّاد الرسوليين من ناحية ثانية، وبطوائف الفرسان Templars وال Hospitallers من ناحية ثالثة ، وبالطوائف التجارية من ناحية رابعة. وكل هذه العلاقات كانت تحدُّ من سلطة ملك اورشليم وحريتهِ

هذا ميدان البحث في الكتاب اما من حيث قيمته فنقول انهُ اول كتاب من هذا القبيل مبنيّ على درس وافٍ وبحث لم يهمل شاردة ولا واردة من الاصول التاريخية . ومع ان المؤلف يتناول في بعض الاحيان مسائل مختلف فيها ، لكنهُ يتناولها بروح من الانصاف والتجرّد ويبسط الادلّة التي يعتمد عليها في ترجيح الرأي الذي يأخذ بهِ ، بسطاً وافياً . فالكتاب مرجع لا يستغني عنهُ المهتم بدرس عهد الصليبيين . ففيهِ من ناحية اهم الحقائق التي تهمّ الطالب في بيان سهل وايجاز غير مخلٍّ، ومن ناحية اخرى ذكر لاهم المراجع الاصلية للاخصائي

وقد طبع الكتاب طبعاً متقناً ويحتوي على بيان المراجع وملاحق مختلفة لتسلسل الملوك وقوائم باسماء كبار اصحاب المناصب ونصوص بعض الاذاعات والمعاهدات التي تخصُّ المملكة اللاتينية

اما الباحث الشرقي المعنيُّ بموضوع الحروب الصليبية فيجد في هذا الكتاب امرين جديرين بعنايتهِ . اولاً . اذا كان من السهل الحصول على الاصول الشرقية التي عالجت موضوع الحروب الصليبية ، فمن المتعذر عليهِ الحصول على الاصول الغربية لانها في الغالب غالية الثمن ومكتوبة اما باللغة اللاتينية او باللغة الفرنسية القديمة . ولكننا نجد في هذا المؤلف موجزاً يصحُّ الاعتماد عليهِ ، لاهم الحقائق ، مستقاة من هذه الاصول . ثانياً . اذ حاولنا درس الموضوع في اصولنا الشرقية نظرنا الى المملكة اللاتينية من الخارج ، كما نظر اليها كتّاب هذه الاصول وهم في الغالب من الشعوب التي انشئت المملكة بين ظهرانيهم . ولكننا نجد في هذا الكتاب صورة جلية لنظام المملكة كما رآهُ اناس اشتركوا هم في انشائهِ وادارة شؤونهِ . وهذه الصورة التي رسمها المستر لامونت تمكننا من نقد ما قالهُ الكتّاب الشرقيون ، فنعرف مابلغوه من الدقة في كتاباتهم او تمكننا من فهم ما يقولونهُ وتفسيره التفسير المعقول

واذا لم يكن المستر لامونت قد خدمنا الاّ هذه الخدمة فحسبهُ

انفاس محترقة

شعر محمود ابو الوفا — طبعته دار الهلال — ثمن النسخة ٥ قروش

عُنيت دار الهلال بطبع ديوان الشاعر محمود ابو الوفا وطلب الشاعر من رئيس تحرير هذه المجلة كتابة المقدمة لديوانه فكتب ما يلي : —

اذا طغى الاستبداد على الحرية ، وتغلبت المادة على الروح . وضؤل نور الامل الفياض حتى كاد يخبو ، واستبدت القوة الغاشمة بالحق فوارته الى حين ، عجزنا عن بلوغ الطمأنينة النفسية الاَّ في خمائل الروح الخالدة . ذلك ان الانسان كائن روحي ، مهما يعارض في ذلك السلوكيون ، نزاع الى ما يمكنه من التغلب على نواحي الحياة المادية واخضاعها لمطالب الروح العليا . فنلتفت عندئذ ، بداهة ، الى الشعراء والفلاسفة الذين نسمع في إنشادهم ألحان النزاع النفسي العنيف ، فأهازيج النصر ، فأنغام الاستقرار في ساح الحرية والمحبة والأمل والحق

والشاعر في نظري ، هو من تأخذ الحياة بتلابيبه وتدفعه الى الانشاد قصراً . ففي طبيعته الدقيقة الحس ، تلتقي الافكار والاخيلة والاحاسيس ، وتختلط وتندمج ، ثم تخرج صوراً جديدة لا أثر فيها لاعنات الفكر ، ولا لكد الخيال ، ولا لتكلف الشعور ، ومن هنا أرى ان سماحة القريحة في الشعر spontaneity . هي في طليعة ما يمتاز به الشعر العالي — وحسبي ان أقول الشعر وكفى .

فالشاعر اذ تتملكه صورة ما ، لا يبرح يقلب فيها النظر ، حتى تنبثق من عقله الباطن آراء درسها ومثلها بالتأمل الطويل، يوشيها بذهب خياله الوهاج ، ويمهرها بنار شعوره،فتخرج في الكلام الذي يمنحها قواماً خارجيًّا ، صورة لست تجد فيها الفكر الذي نسج آراءها ، ولا الخيال الذي وشى حواشيها ، ولا الشعور الذي نفخ فيها رعشة الحياة . بل تجد شاعرية شاعر ، اجتمع فيها التفكير عميقاً صافياً ، والخيال جريئاً وثاباً ، والشعور متأججاً صادقاً . . . في الفاظ كأنها في معانيها ومبانيها وجرسها ومواقعها آيات التنزيل . هذه هي وحدة الاندماج في الشعر العالي بين أقانيمه المتباينة

ونحن اذا رجعنا الى تاريخ الادب في أمة من الامم وجدنا عصور الانحطاط في الانتاج الشعري موسومة بسمة التفكك في هذه الوحدة ، فيتفوق العقل على الاقانيم الاخرى، ويسمو شأن الصناعة ويضعف شأن «السماحة» أو «الطلاقة» . بذلك اتصف عصر دريدن في الشعر الانكليزي على ما بين المستر درنكوتر في محاضراته . وبالطلاقة وارسال النفس على سجيتها امتازت عصوره الذهبية في ايام تشوسر وشكسبير ووردزورث وكيتس وشلي

***

لم تهبني الطبيعة الملكة التي تمكنني من معالجة الشعر . وانا مغتبط — وأحسب جمهور

القراء مغتبطاً كذلك — انني اعرف هذا . فأنا اذ أقرأ الشعر ، وأجد فيه رقيقاً وعنيفاً ، منأى للنفس عن متاعب الحياة ، أبحث فيه عن سر أثره في نفسي فأجد صفة «السماحة» او «الطلاقة» التي ذكرت . اذ ذاك تكون القصيدة في نظري كالجدول المنساب في الروض الممرع . تحف به على جانبيه الخمائل المعطارة . تعطره أشذاؤها ، ويطربها خريره ، فترتشف حواسي من القصيدة ، ما ترتشفه من روعة الجدول والروض ، وترتفع نفسي ، في الحالتين ، على ذرى التأمل في أسرار الكون والحياة ، الى عرش السماء . فأنا في تلك اللحظة ، ابن الكون المطلق لا ابن الارض الملتصق بالرغام

ولعل بحثي المبهم عن هذه الصفة في الشعر ، حملني على الاعجاب بشعر « أبي الوفا » اذ قرأت له :

لغة البلابل أين تذ هب بين هدهدة الهداهد

فتمثل لي العراك العنيف بين الخير والشر ، بين الضعف والقوة ، منذ فجر الحياة البشرية على الارض الى يوم الناس هذا ، في صورة قليلة الخطوط ، زاهية الالوان . واذ قرأت له

أحب أضحك للدنيا فيمنعني ان عاقبتني على بعض ابتسامات

فأحسست بصدق الشعور وتجلى لي ألم النفس ، فتخيلت أنني الشاعر ، أراجع ما عاقبتني به الدنيا على بسمات ساذجات كبسمات الطفل . فردتني ناقماً ساخراً ، تمنعني نقمتي وسخريتي من ان أحاول الابتسام ثانية . واذ قرأت لهُ :

كأنني فكرة في غير بيئتها بدت فلم تلقَ فيها أيَّ اقبالِ

اوأنني جئت هذا الكون عن غلط فضاق بي رحبه المأهول والخالي

واذ قرأت قصائد « ذكرى» و «حيرة» و «الايمان» وغيرها

فقلت في ذات نفسي ، في شعر هذا الشاعر سماحة القريحة التي يمتاز بها الشعر العالي ، فرغبت اليه في ان يشاركني في ذلك رهط الادباء من قراء المقتطف ، ونشرت له فيه ، قصائد «الايمان» و «حيرة» و «أريد» و «ضحية العيد» و «تغريدة» و «من الاعماق» و «ذكرى» و « الى صاحب البؤساء » وغيرها ، الخارجة من اعماق نفسه ، الجامعة لصفوة نظره الى الحياة ، الموشاة بوشي خياله الذهبي ، المطبوعة بطابع شعوره . وأحسب أنها وحدها تكفي لتجعل صاحبها شاعراً . . وحسبه هذا !

ان ديوان « أبي الوفا » صفحة من حياته — وحياة الشاعر حياة الانسانية ، في قلبه أملها وألمها . وفي عقله حيرتها . وفي وجدانه معتركها — فأنت ترى الحياة في هذا الديوان ، قطرة ندًى . وشذى وردة . وثورة بركان . وايماناً وبؤساً وأملاً ، وارادة صلبة وأنفاساً محترقة . واني لشديد الغبطة ان أتيح لي تقديمه الى أدباء العربية ، اولاً على صفحات المقتطف وثانياً بين دفتي هذا الديوان . وأنا واثق ان الشاعر لن يخيب ظننا في تحقيق مانتوقعه منه . والسلام

نابغة بني شيبان

ان العربية لتُزْهي بما تخرجه دار الكتب من المطبوعات كما تزهى الحسناء بجمال وحيدها بعد ان استفتحت الله على عقمها فجاءها بأسباب راحتها وفزعها في وجهٍ معاً . فنحن بنا لدار الكتب مثل الذي بالحسناء لوحيدها من الحب والعطف والرعاية لانها واحدة جادت لنا بها ايام كزَّة بخيلة . وبنا ايضاً مثل الذي بها من الخوف والفزع ان يستفزَّها الحدَبُ الى الغرور، وان يستخفها التغاضي الى الاهمال والتعالي وترك الواجب الذي لا يستحلُّ خلافهُ . وقوة ما استقر في قلوبنا من الحدب عليها والتوجه اليها وما يعتلجُ في صدورنا من الخوف والفزع تدفع بنا الى العناية بما تنشره ، ومؤاخذتها على الكبائر والصغائر تنزيهاً لها وتبرئةً . وهذا «ديوان نابغة بني شيبان» — آخر ما طلعت علينا به — نقول فيه كلمة تنفعها ان شاء الله

﴿تحقيق نسب النابغة ودينه﴾ نقلت دار الكتب في تصدير هذا الديوان كلمة ابي الفرج الاصبهاني في اغانيه « ج ٦ ص ١٤٦ مطبوعة الساسي » التي يقول فيها أن النابغة من شعراء الدولة الاموية «وكان فيما ارى نصرانيًّا لاني وجدتهُ في شعرهِ يحلف بالانجيل وبالرهبان وبالايمان التي يحلف بها النصارى» اه . ولم تعلق دار الكتب على هذا بكلمة ، فكأن الديوان لم يطبع فيها ، ولم يهتم بشرحه القائمون بأعمال التصحيح فيها . ذلك ، لأن هذا الديوان الذي بين أيدينا ليس فيهِ قسمٌ واحد بانجيل او رهبان او يمين من الايمان التي يحلف بها النصارى، بل فيهِ ما يدل على انَّ صاحبه مسلم عريق لم يضرب إلى نصرانية ولا يهودية ، كما سنبين بعد

وتقول دار الكتب في التعليق على نسب النابغة انها نقلته من الاغاني « بعد تصويب الاسماء الخاصة (كذا) بنسبه » ومعنى ذلك انها رجعت الى ترجمة ابيه « مخارق » ثم جده «سليم» الى آخر ذلك فصححت التحريف الذي كان واقعاً في نسبه. وهذا النابغة هو عبد الله ابن مخارق بن سليم ... الشيباني » من بني ذهل بن شيبان ولد ربيعة بن نذار . فلو كانت قد رجعت الى ترجمة ابيه — كما يفهم من كلامها — لعلمت ان « مخارق بن سليم . . . الشيباني » صحابي ترجم له شيخ الاسلام ابن حجر العسقلاني في كتابه « التهذيب » ج ١٠ ص ٦٧ وفي «الاصابة» ج ٦ ص ٦٨ وابن الاثير في « اسد الغابة » ج ٤ ص ٣٣٥ وافرد له امامنا الجليل احمد بن حنبل مسنداً في كتابه «المسند» ج ٥ ص ٢٩٤ — ٢٩٥ وروى من حديثه النسائي في سننه ج ٧ ص ١١٣ . قال ابن حجر في التهذيب « مخارق بن سليم الشيباني أبو قابوس ، روى عن النبي صلى الله عليهِ وسلم..... وروى عنهُ ابناهُ قابوس و «عبد الله» . وقد ترجم أصحاب كتب التراجم — التي بين أيدينا — لابن قابوس لان اسمه ورد في بعض الكتب الصحاح الستة ، ولم يترجموا لعبد الله لان اسمه لم يرد في أحدها ولعلهم لم يعنوا بروايته لانصرافه الى قول الشعر ومدح الخلفاء فقلت روايته للحديث وقام بها اخوه قابوس . وما

نظن إلا أن أبا الفرج قد وهم في قوله بنصرانيته — ولابي الفرج أوهامٌ مثل هذه كثيرة — ولعل الذاكرة طوحت بهِ الى نصرانية نابغة بني الديان الحارثي من ارض نجران . وإلاّ فكيف يكون نصرانيًّا مَن يقول «الديوان ص ١٧»

«ويزجُرُني الإسلامُ والشيبُ والتقى، وفي الشيبِ والإسلامِ للمرءِ زاجرُ»

وهذا نصٌّ لا نحتاج معهُ الى الاستشهاد ، بكثير مما ورد في شعره من خُلُق الاسلام وأيمانه وتجانفه عن الشرك والخبائث كبيرها وصغيرها

﴿ شرح الديوان ﴾ علقت دار الكتب على غريب هذا الديوان ونشكُرُ لها عنايتها بذلك ، ولكنْ ماكان أشد أسفنا حين رأينا هذا الشرح محشوًّا بالاغلاط الواضحة التي نودُّ أن ننزّهها عنها فمن أمثال ذلك قولهم ص ٣ في شرح الكلمة تَعَرُقُ : « تَعَرُّق : تأكلُ ما على اللحم من عَظْمٍ وتأخذه «كله » ولا ندري كيفَ يكون هذا اللحمُ المكسوّ بالعظامِ وكيف يؤكل . وقالت في شرح قوله

«وما الناسُ في الاعمال إلاّ كبالغٍ يُبَنّي ومُنْبَتٌّ النياط حسيرُ»

«فمُستَلَبٌ منهُ رياشٌ،ومكتسٍ، وعارٍ،ومنهُم مُترِبٌ وفقيرُ»

المتربُ : القليل المالِ . فيكون معنى البيت الاخير انالناس منهم مكتسٍ وعارٍ وفقير ، لأن قليل المالِ هو الفقير لاشك . ونصُّ اللغة «تَرِبَ تَرَباً ومَتْرَبَة . خسِر وافتقر فلزِق بالتراب ، وأتْرَب : استغنى وكثُرَ ماله فصار كالتُّراب — كثرةً— هذا هو الأعرف وقيل — وهذه لفظة التضعيف عندهم — قَلَّ ماله . والمُترِب الغنيُّ إمّا على السّلب وإمّا انَّ ماله مثل التُّرابِ » . فالمعنى (منهم غني وفقير)

وقالت في شرح قوله يصف شعور النساء

« وفروعٍ كالمثاني زانها حسنُ جميرِ »

الجمير : الطيبُ . ونحن لا نعرف للبيت معنىً بهذا الشرح . وكلمةُ اللغة أن الجمير : هو الشّعرُ ما جُمِّر منهُ وجمرت المرأةُ شعرها جمعته وعقدته في قفاها ولم ترسله ،والجمائر الضفائر واحدتها جميرة . والجميرُ من الزينة ولا شكّ عند النساء

ونكتفي بهذه الامثلة من الخطأ وقلة العناية والإهمال والاستهانة بأمر القراء والادباء

الشعر العربي : وقبل أن أفرغ من كلمتي هذه أُبدي تألمي من احد الكُتّاب المشهورين في زرايته على دار الكتب بطبعها الكتب القديمة من مثل « ديوان جران العود »و«نابغة بني شيبان » . ونقول لهذا الكاتب الفاضل أنهُ ما حَمَلَهُ على الزراية بالشعر العربيّ الا تباطؤه عن الجد في فهم اساليب لغته التي يكتب بها ، وانهُ اذا وجد ثقلاً على نفسه الرقيقة في قراءة شعر العرب المتقدمين فليس ذلك من ذنب الشاعر ولكن من ذنبه هو وذنب الذين وضعوا

برنامج — تدريس العربية في مدارسنا المصرية . ونرغب اليهِ اذا كان هذا رأيهُ هو ان يكتمهُ عن الناس لئلاَّ يصدهم عن الاهتمام بآثار أجدادهم التي لا يبنى الادب العربيُّ الحديث الاَّ على آساسها . ونقول ان الذي يفهمُ الشعرَ ويفهم انهُ هو صورة النفس انْ صافيةً فصافٍ وان غليظةً فغليظٌ لا يقول بمثل هذه المقالة ابداً ، فما لا شك فيهِ ان النفوس من آدم الى اليوم هي النفوس البشرية التي لا تتغير أبداً ، وان الادب في كل العصور هو صورة هذه النفوس على اختلافها . وليس أدب اليوم هو الادب الذي لا يُرْغَبُ في غيره حتى يكون ما سبق مما نعدهُ ادباً وشعراً كلاماً من مَنْطِقٍ لا نفهمهُ ولا نرغبُ فيهِ .ونعدُ بأنْ نظهر في هذه المجلة روائعَ من الشعر القديم الذي انطلقت ألسنة هؤلاء الكتاب المشهورين بانتقاصه والنيل منهُ والله الموفق محمود محمد شاكر

حِكم الامم

مجموعة من الامثال والحكم والاقوال المأثورة باللغة الفرنسية اختارها ووضع ما يرادفها باللغتين العربية والانكليزية محمد افندي عبد الهادي كبير مترجمي محكمة الاستئناف المختلطة بالاسكندرية

في الامثال والاقوال المأثورة تتلخص تجاريب الامم وفلسفتها الحية . والامم تختلف في مواطنها واقاليمها وتجاربها ولغاتها وعاداتها . ولكن لا بدَّ ان تتجلى لها حقائق الحياة الاساسية ، طال زمن التجربة او قصر ، واختلف الاقليم او توافق . ولكن هذه الحقائق قد تتخذ من الالفاظ في امة قالباً يختلف عن القالب الذي تتخذهُ في الامة الاخرى. لذلك قلما تجد مثلاً سائراً او قولاً مأثوراً في امةٍ الاَّ وترى ما يوافقهُ معنىً في امة اخرى وان اختلف عنه مبنىً ولفظاً . فالمثل الآتي متشابه في لغات العرب والانكليز والفرنسيين

الاتحاد قوة — La force fait l'union / Union is strength

والمثل التالي يتفق معنىً ويختلف تعبيراً

المنى مطية العاجزين — L'esperance est le pain du malhereux

فالمعنى في التعبير الفرنسى « خبز » او قوت المسكين والمنى في القول العربي « مطية » والمطية صورة منتزعة من صميم الحياة العربية في البادية

او المثل التالي :

المال يحقق كل شيء — L'argent fait tout

المال يدفع الفرس الى العدو — Money makes the mare go

المال يفتح كل باب موصد

وقد جمع مؤلف هذا الكتاب ٩٣٥ من هذه الحكم والامثال والاقوال المأثورة . فنشكر عنايتهُ وفضلهُ

كتاب المجمع المصري للثقافة العلمية

طبع بمطبعة المقطم — صفحاته ٢١٥ قطع المقتطف — ثمنه ١٠ غروش عدا اجرة البريد

انتخب المجمع المصري للثقافة العلمية احمد محمد حسنين بك ، الرحالة المشهور ، ليشغل كرسيّ الرآسة في سنتهِ الرابعة . فهو خير خلف لخير سلف ، في هذا الكرسيّ . وقد سبقهُ فيهِ الدكتور علي باشا ابرهيم وحسين بك سرّي والدكتور محمد شاهين باشا . وعلى ذلك يرى القارئ ان المجمع ماضٍ في القيام بالخدمة التي اخذها على نفسه وهي نشر العلوم الحديثة باللغة العربية ، في محاضرات تتلى وتنشر بحرفها او ملخصة ، وتجمع في كتاب سنوي

وقد عقد المجمع حتى الآن ثلاثة مؤتمرات تليت فيها ما يزيد على ثلاثين محاضرة علمية ، جمعت وطبعت في ثلاثة كتب سنوية هي من خير الكتب التي اخرجتها المطابع العربية في العهد الاخير . وقد عقد المجمع مؤتمرهُ الرابع في الاسبوع الواقع بين ١٢ مارس و٢٠ مارس في دار الجمعية الملكية للحشرات بالقاهرة . وتليت فيهِ ثماني محاضرات علمية نفيسة

وعلى ذكر هذا المؤتمر نقول ان كتابهُ السنوي الثالث قد خرج من المطبعة وهو في ٢١٥ صفحة من قطع المقتطف والهلال يحتوي على احدى عشرة محاضرة في موضوعات علمية منوّعة اولاها محاضرة الرآسة لحضرة صاحب السعادة الدكتور محمد شاهين باشا وموضوعها « رسالة رجل الصحة للعالم » واخرى للدكتور علي باشا ابراهيم مدير الجامعة بالنيابة وعميد كلية الطب في « التعليم الطبي بمصر » جاءَ فيهِ على تاريخ مدرسة قصر العيني وتقدمها . ويلي ذلك محاضرة شائقة للدكتور حسن صادق بك مدير ادارة المناجم والمحاجر وموضوعها « التفسير العلمي للمناظر الطبيعية في مصر » . ثم محاضرة للدكتور مشرّفة موضوعها « الاعداد العلمي ومستقبل النشء » . فمحاضرة في « الالكترون والبروتون ومكتشفيهما » للاستاذ فؤاد صرُّوف رئيس تحرير المقتطف . فمحاضرة في « التأمين على صحة الطفل » للدكتور شخاشيري . فمحاضرة موضوعها « العلاج وتقدمهُ في خلال العصور » للدكتور جورجي صبحي الاستاذ بكلية الطب . ثم بحث بيولوجي لغوي في « النوع وتصنيف الاحياء » للاستاذ اسماعيل مظهر . وآخر في « السدم » وما يعرف عنها للدكتور محمد رضا مدور الفلكي المقيم بمرصد حلوان . ثم فصل في « الصناعات والعلوم » للدكتور احمد زكي استاذ الكيمياء في كلية العلوم فبحثٌ مبتكرٌ في « خبز الذرة والحلبة » للدكتور علي حسن الاستاذ المساعد للفسيولوجيا في كلية الطب

ولا ريب عندنا ان هذا المجمع يؤدي خدمة كبيرة للثقافة العلمية العربية بالقاء امثال هذه المحاضرات ونشرها في كتب سنوية متقنة الطبع سهلة الاقتناء . وبعض هذه المحاضرات سوف يكون في المستقبل ، اذ نراجع تاريخ نهضتنا ، اعلاماً في طريقها . فالمحاضرات الصحية النفيسة التي اعدّها الدكتور شاهين باشا والدكتور علي باشا ابرهيم والدكتور محمد خليل عبد الخالق بك تبين الخطوات التي تخطوها مصر في سبيل ترقية التعليم الطبيّ والاصلاح الصحي .

والمحاضرات الهندسية التي القاها حسين سرّي بك والدكتور عبد العزيز احمد بك والدكتور حسن زكي تفعل ذلك من الناحية الهندسية . وكلها بوجه الاجمال تضيف الى ثروة اللغة العربية في اللفظ العلمي ولا بدَّ ان تكون في المستقبل مصدراً من مصادر المعجم العلمي العربي

الضحايا

مجموعة اقاصيص — بقلم حبيب جاماتي — مطبعة مصطفى البابي الحلبي صفحاته ٢٩٠ — قطع وسط

اجاد الاستاذ خليل مطران اذ قال في المقدمة: «فاما العرب فقد آثروا بحكم طباعهم سوق كل نبإٍ على التجريد لا يعدون لباب الخبر ، ولا يتناولون من صفة الاشخاص سوى ما يعلق لزاماً بذلك اللباب . فعلوا ذلك باجادة الشائية لا تضارع وايجاز في السرد يكاد يكون غاية في الايجاز ، ولم يقدروا للمطالع حاجة الى الوقوف على غير الجوهر او صبراً على تبسط .... واما الفرنجة فهم يصفون في الاقصوصة بالكلمة العاجلة ما يهيء للقارىء الزمان والمكان ، ويبينون بالعبارات السريعة مقوّمات كل شخص ومميزاتهِ ، ويكدّون الذهن في تصوير النوازع النفسية والخلجات الوجدانية ، ويدخلون الحوار ، وان لم ينفسح الاّ لاقلهِ ، ليقذف في روعك انك بمشهد ومسمع ممن تقرأ سيرتهم . » ويرى ان المؤلف توسط بين منحى العرب ومنحى الفرنجة «فانتقى من الانباء المشهودة او المنقولة عن التاريخ ما فيهِ مظنة عبرة .. لا يريد بالخبر الذي يحكيهِ لك الخبر بذاتهِ بل بكل ما يحيط بهِ من صور و ذكريات وامور لها خطرها وموقعها المتمم الغرض المقصود

ولا ريب في ان المؤلف موهوب في سرد القصص بارع في ايراد الحوار ، سليم اللغة نقيُّها في قليل من التبذُّل اللفظي وهو مما لا غنى عنهُ لكاتب يعالج تحبير المقالات للصحف كلَّ يوم . على ان المجال الذي اختارهُ لقصص هذا الكتاب يتنازع صاحبهُ بين الامانة للتاريخ والاخلاص للفن . ومن النادر بين كبار الروائيين من بلغ الغاية في حسن الجمع بين الاثنين . اما « مظنة العبرة » غرض المؤلف او « تغذية العقول بالوان الطرائف » . فنقول ان المؤلف اجاد في تحقيق هذا الغرض . ولكن بعض القصص التي قرأناها شوهتها رغبتهُ في استخلاص العبرة مع ان القصة نفسها يجب ان تكون العبرة المطلوبة . فقصة « خليلة الشاعر » لا تحتاج الى اي تفسير بقوله «هذا ما فعلهُ الشاعر الخ» لانها تبلغ عندما يبلّ الشاعر حلق عدوه الظامىء ذروةً لا تحتمل كلمة بعدها

الانشاء التعليمي

وضع هذا الكتاب الاستاذان الفاضلان محمد شفيق معروف ومحمد عبد الغني الاشقر وهما مدرسان بالمدارس الاميرية وجعلاه وفقاً لاُحدث منهج اقرّته وزارة المعارف العمومية للمدارس الاولية والابتدائية وبين يدينا الجزء الثاني منه وهو كتاب مفيد في بابه اقتبس احدث ما وصل اليه التعليم في اللغات الافرنجية وقد طبع طبعاً متقناً على ورق جيد في المطبعة السلفية بمصر فنوجّه اليهِ انظار التلاميذ لينتفعوا باسلوبه وموضوعاته وثمنه خمسون مليماً

علم استخلاص المعادن

تأليف المهندسين يوسف العارف وحسن حسني عبد الخالق وعثمان عبدالله صفحاته ٢٧٢ قطع المقتطف طبع بالمطبعة الحديثة بمصر — ثمنه ١٨ غرشاً

استعمل البشر المعادن اولاً لصنع ادواتهم واسلحتهم ولكنهم لم يكثروا من استعمالها الاّ بعد الثورة الصناعية التي حدثت في انكلترا وما عقبها من التوسع في استعمال الآلات في المناجم ومعامل الغزل والنسج وبناء السفن والقطارات. ولا ريب في ان نجاح الثورة الصناعية في انكلترا انما يعود في المقام الاول الى وجود المعادن الضرورية فيها كالحديد والفحم جنباً الى جنب. فلما استنبط بسمر طريقة جديدة لصنع الصلب بعث في الصناعة الانكليزية حياة جديدة ثم اقبل الالمان على الاساليب الصناعية المستحدثة واجمع رجال السياسة والصناعة والحرب منهم على تثمير مناجم الالزاس واللورين. ثم استنبطت الاخلاط المعدنية وتعددت وخصوصاً الاخلاط الحديدية وكلٌّ منها يمتاز بصفات تختلف باختلاف المعدن الذي يخلط بالحديد. وكذلك اصبح رجال الصناعة والحرب يحتاجون الى الفناديوم والتنجستن والمولبدنوم والالومنيوم والكروم والكوبلت والنيكل وغيرها بعد ما كان استعمال هذه العناصر محصوراً في المختبرات العلمية. واعتماد الصناعة على الاخلاط الحديدية المختلفة كان فاتحة عصر جديد في الصناعة والحرب.

وكانت حدود البلدان في العصور الغابرة تعيَّن وفق مقتضيات الزراعة ولكنها لم ترتبط بتوزيع الثروة المعدنية. والثروة المعدنية اصبحت في هذا العصر لا مندوحة عنها لنجاح الصناعات في اثناء السلم ولتجهيز الامم بادوات القتال في اثناء الحرب فلا بد من تعديل الحدود واقامتها على هذا الاساس الى حدٍّ ما

هذه كلمة تبين ما للمعادن من المقام في العمران الحديث في حالي السلم والحرب. والكتاب الذي بين ايدينا يبسط من الوجهتين العلمية والعملية الطرق الحديثة في استخلاص المعادن. ففي الفصلين الاول والثاني كلام عام في خصائص المعادن كالصلابة وقابلية الصهر والمدّ (الاستطالة كما ذكرها المؤلفون) والطرْق والتطاير وغيرها وتفسير بعض المصطلحات المستعملة في استخلاص المعادن كانواع المعدن (البكر والنغل) وانواع الافران (او الاتاتين) والخبث والهشاشة وغيرها من صفات المعادن. ويلي ذلك تسعة فصول في استخلاص الحديد والصلب على انواعهما وقد خصصوا الجزء الاكبر من الكتاب للحديد ومستخرجاته «لما له من الشأن في عالم الصناعة في العصر الحاضر الذي اطلق عليه بحق عصر الحديد». اما الفصول الباقية وعددها احد عشر فصلاً فتتناول النحاس والزنك والقصدير والرصاص والفضة والذهب والنيكل والالومنيوم والكروم والمنغنيز الانتيمون والمغنزيوم والبلاتين. اما ومصر سائرة في سبيل انهاض الصناعات من كبوتها واقامتها على اساس علمي عملي حديث فهذا الكتاب يصبح له شأن خاص في توجيه الانظار الى الاركان الصناعية. ونرى ان المؤلفين مصيبون في قولهم ان ما يلتمسهُ البعض من المعاذير لسقوط الصناعة في مصر خطأ ظاهر وان الامر لا يقتضي الاّ عقولاً مفكرة وعزائم ماضية

أغاني أبي شادي

اخرج الدكتور أبو شادي كتاباً جامعاً فيه من شعره كل مارآه جديراً بالتلحين منسجماً مع موسيقي التنغيم حتى تألفهُ الأذن وترضاه العاطفة فتذهب كل مقطوعاته أو بعضها في عالم الغناء إلى مدى ما يرضاه هو أو يرضاه لها الأدباء وغير الأدباء من عامة المثقفين

والشاعر جريء في هذه الحملة الشعواء التي حمل بها على الأغاني الدارجة التي ألفها الشعب والتي لا يريد أن يألف غيرها قبل نضوج فكري يستغرق منه تهذيباً عميقاً ذلك لأن الطبع المصري من طراز الطبع السامي لا يرتاح إلى التفكير العميق في التماس أسباب المرح والمتعة وإنما يريد أن يستشفها في حياته كما لو كانت من وراء زجاجة وهو في ذلك على نقيض الطبع الآري الذي منه الاوربي والفارسي والهندي

ولعل أول ما يحس ، القارىء الأديب في هذه الأغاني روعة الابهام الرمزي الذي يتغلغل فيها ، وترف ألفاظها التي تحمل أخيلتها إلى القارىء « المتأمل » على أجنحة هفافة لا يكون حظ الفكر منها بأسعد من حظ الخيال نفسه ! والابهام الرمزي في ذاته جمال رائع بل هو في عرف أفذاذ الناقدين « برادباى » و«لي هنت» العنصر الأول في الاسلوب . ونجد امثلة كثيرة في الأغاني يشع منها نور الابهام الرمزي فاقرأ مثلاً «أغنية اللهيب المقدس »وفيها يقول

قد رشفنا مُنى الحياة بثغر وارتوينا من اللهيب المقدس

وهذه الاغنية هي أول ما صادفني من شعر الديوان وقد أحسست بشعور غريب وأنا أقرؤها . . فقد خيّل إلى انني في مدينة سحرية من مدن الخيال . . من مدن الشفق اوالفجر أو انني في معبد بوذا ألمح لهيب الآلهة المقدس وقد حجّبه الضباب

كان هذا شعوري الخاص وأنا أتلو هذه « الصلاة » وهو شعور الفن المثقف وليس شعور العاطفة الساذجة التي تريد أن (١) تشعر ثم (٢) تغنّي .. لا أن (١) تفكر (٢) ثم تشعر (٣) ثم تغنّي ! . فالفلاح لا يعرف شيئاً من مدن الشفق او الفجر .. والفلاح لم يقرأ شيئاً عن معبد بوذا وكل ما رآهُ الفلاح في عالم السحر والخيال هو لهيب « ابو شعلة » وهو الشيطان الذي يخلقه في وهمه ليخيف به صغاره ! ؟ . ولست اكذبك أيها القارىء انني شعرت بلذة لاتعدلها لذة وأنا أقرأ هذه الانشودة وقلت في نفسي أما كان الأحرى بالدكتور أبي شادي أن يطلق على كتابه « أغاني وصلوات » بدلاً من «أغاني» فقط ! !

وهناك امثلة أخرى كثيرة من هذا النوع في الكتاب وحسبك ان تقرأ قبلة البرتقال وفيها يقول

عشقَت عصير البرتقال فذهّبت بعصيره الناريّ من شفتيها
ورشفت أخرى بعد أن جادت بها فاستفت حلو غرامها بيديها

حتى إذا لم تبق منها نفحة وظللت كالظمآن عاد اليها
جادت علي بقبلة معسولة جمعت شهيّ الخمر من حلويها
فغنمت خمر البرتقال بثغرها وغنمت خمر الحب من شفتيها

ولكنني آخذ على الدكتور اشياء كان يجدر به أن يراعيها وهو إهمال التروّي في بعض الصور الشعرية مثال ذلك قوله

رحلت عنك رحيل الطيب عن زهر يودي به البعد لولا حبك الداني

فقد شبه نفسه بالعطر وشبه حبيبتهُ بالزهر وفي هذا التشبيه غرابة لو تروّى فيهِ قليلاً

وقوله: وبخلت حتى بالعناق لعلني أمضي الضحية في سرور الواعي

كأن وراء العناق غاية وهي كما يراها ابن الرومي ونراها نحن غاية الغايات وفي ذلك يقول ابن الرومي

أعانقها والنفس بعد مشوقة اليها .. وهل بعد العناق تدانِ

والدكتور ابو شادي يجعله في الشطر الاول كأنهُ شيء تافه فيؤنبها لانها بخيلة «حتى بالعناق»

وقوله : تتلاقى الشفاه وهي ظماء ثم تظما على ارتواء وتنعس

وأنا أظن أنه لو غيرنا بعض ألفاظ البيت بألفاظ أخرى لجاء البيت رائعاً . فيمكننا أن نقول

تتلاقى الارواح وهي ظماء ثم تروى فوق الشفاه وتنعس

وفي الختام نقول إن الدكتور قد اضاف إلى مجهوداته الفنية آية جديدة

م . ع . الهمشري

الظمأ

مجموعة اشعار — الدكتور علي الناصر — مطبعة المعارف حلب

مقطوعات شعرية طيبة ارسلها صاحبها حرة طليقة بكل معنى كلمتي الحرية والانطلاق فهي مرة في صورة ما يسمونه الشعر المنثور ومرات اخر في انماط مستحدثة من الشعر المنظوم ولكنها جميعاً ملتقية في عدم التقيد بأي قيد او اي اعتبار لذلك يحسن بقارئها ان لا يستعجل الحكم على الشاعر وان لا يأخذه الا بالرفق والتأني ، اما التأني فلأن هذا النوع من الشعر لا يزال جديداً على اسماعنا التي الفت القوافي العربية الصقيلة ولم تتعود بعد إلا النغم المطرد المتناسق واما الرفق فهذا نحتاج اليه عند النظر الى الصيغ والعبارات أو الى الالفاظ التي ربما نرى الشاعر فيها قد خرج قليلاً عن المألوف في القواعد التقليدية كقوله (بقوعي) بدلاً عن بقاعي الى غير ذلك من هذه الاشباه . أجل نحتاج الى الرفق بالشاعر في مثل هذه الملاحظات لاننا نعلم مقدار ما يعانيه هذا الشاعر وأمثاله المسرفون في التجديد في سبيل تطويع اللغة العربية تطويعاً يتفق وما يريدونهُ من المعاني والاغراض ثم يتفق مع النغم الذي يختارونه قوالب لهذه

المعاني والاغراض . وأخيراً لاجل ان ننصف هذا الشاعر ولأجل ان نتابعه باطمئنان يحسن بك أن تسمع ما قاله الفيلسوف امين الريحاني في تقديم هذا الديوان :قال وان افق شعره ليحيط بنزعات متعددة متباينة وبأساليب هي عنوان الفتوة متنوعة البذور فيها زاهر وفيها ما لا يزال في البراعم والاكمام .ولعمر الحق ان هذا الادق وصف ينطبق الآن على شعر هذا الشاعر الطبيب

شرح بشارة يوحنا

وهو الجزء الرابع من كتاب « المرشد الامين في شرح الانجيل المبين » تأليف القس ابرهيم سعيد استاذ علم التفسير بمدرسة اللاهوت ، وفيه ٨٦٠ صفحة . وقد استعان المؤلف في كتابته بنحو عشرين كتاباً اكثرها باللغة الانكليزية . ذكرها في صفحة ٨٦١

والمؤلف يستعمل تارة لفظة «شرح» وتارة كلمة «تفسير» كما في ص ٢٥ — عنوان الاصحاح الاول . هنا يستعمل كلمة «تفسير» . كذلك في ص ٨٦١ يقول: استعان بها المؤلف في تفسيره

فيظهر انه يعتبر تأليفه شرحاً تفسيريًّا . وللتفسير مذاهب . منها المذهب الحرفي، وهو الذي يفهم بعبارات الكتاب مدلولها الحرفي . فاذا قال الكتاب . ان الله خلق العالم في ستة ايام . فهم بذلك ، ستة ايام عادية ، في كل يوم ٢٤ ساعة . والمذهب الروحي . وهو الذي يعتبر المبدأ الروحي في الكتاب ويطبق العبارات عليه . والمذهب الرمزي وهذا قد تبعه بعض الاباء في الاجيال الوسطى . ومنها المذهب النقدي او الانتقادي . وعليه كثيرون من علماء الالمان . والمذهب اللغوي التاريخي وهو الذي يؤيده الدكتور جيمس انس المعروف في سوريا واميركا . ولكن حضرة المؤلف اجتنب كل ذلك ونهج نهجاً سهلاً متواضعاً جميلاً . فشرح الكتاب شرحاً تفسيريًّا — وبالاحرى وعظيًّا . اورد في كل موضوع الآراء التي يراها فيه بصورة اقسام وعظية . واليك بعض الامثلة

جاء في ص ٢٦ عن ديباجة البشارة . تتضمن هذه الديباجة اربعة افكار رئيسية

١ً — الكلمة في جلاله ٢ً — الكلمة في ظهوره ٣ً — الكلمة المرفوض ٤ً — الكلمة المقبول

وانت ترى انها اقسام عظة موضوعية ثم قال في القسم الاول . الكلمة في جلاله

١ً — الكلمة في جلاله الذاتي ٢ً — الكلمة في جلاله النسبي

وهما قسما عظة ايضاً

وقال في شرح القول : والظلمة لم تدركه . تفيد كلمة (لم تدركه) اربع درجات متتابعة

١ً — عدم الاكتراث لوجود النور ٢ً — عدم فهم النور وسره ٣ً — عدم البلوغ والوصول الى النور لنيله ٤ً — عدم الانتصار على النور والعجز عن الظفر به

وجاء في شرحه ص ١٥ : مثل الكرمة : يتضمن هذا الجزء ثلاثة افكار رئيسية

١ً — مقام التلاميذ من المسيح ٢ً — موقف العالم تجاه التلاميذ ٣ً — النصرة على العالم

ويجوز ان ننظر الى هذا الجزء نظرتنا الى جعبة فيها سبعة سهام نورانية

(١) التلاميذ والمسيح (٢) التلاميذ وبعضهم ازاء بعض (٣) التلاميذ والعالم (٤) العالم والمعزّي (٥) المعزّي والتلاميذ (٦) حزن يستحيل الى فرح (٧) نصرة بعد كسرة

وقال في شرح المحبة: ص ١٢—١٧

(١) محبة مضحية بنفسها (٢) محبة رافعة (٣) محبة لها فضل التقدُّم

وأنت ترى ان كل ذلك ترتيب مواعظ . فكأنك تجتاز في حديقة مواعظ كلها طرائف ازهار وعوابق رياحين . ترتاح اليها النفس ويستفيد منها محب المؤلف وهي مطابقة لروح الكتاب وغرضه ، وتدل على اخلاص المؤلف وسعة اطلاعهِ ***

جلڤر

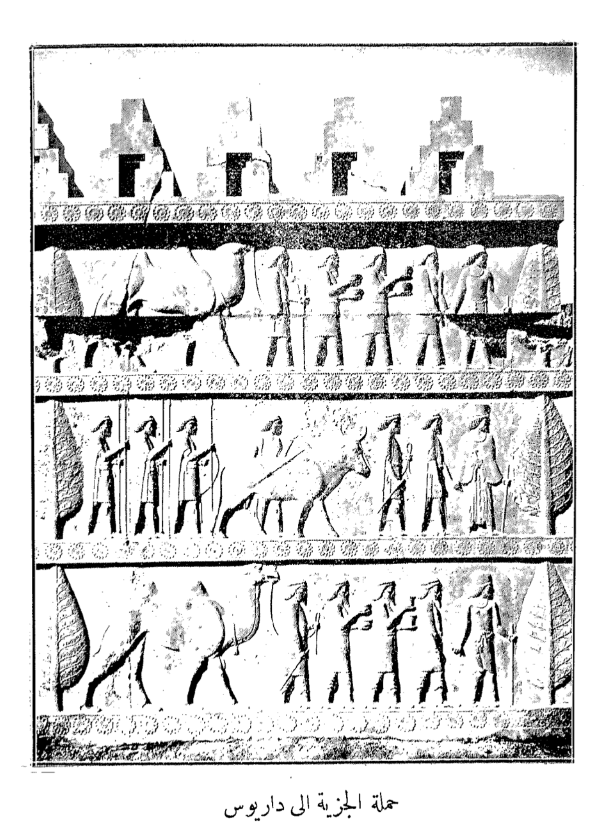
تأليف جوناثان سوفت — نقله كامل كيلاني — طبعته ونشرته مكتبة المعارف

نعرف والداً من سراة القوم شديد العناية بتعليم ابنهِ اللغة العربية من نعومة اظفارهِ ، ولكنهُ لا ينفكُّ يشكو لنا عجزهُ عن وجود كتب عربية وافية للاحداث يقرأونها فتغريهم بالاقبال والاستزادة لطرافة في موضوعاتها وجودة في طبعها وسلاسة في اسلوبها . فاهدينا اليهِ بعض القصص التي اخرجها ناقل هذا الكتاب فسرَّ بها الولد ولكنهُ كان قد تخطّاها فظلت مسألة ما يمكن ان يقرأهُ بالعربية مشكلة معقّدة حتى ظهر كتاب «جلڤر» هذا . واتفق انهُ يوم وصولهِ الينا زارنا صديقنا المذكور فقلنا لهُ ها ضالتك المنشودة . فتهللت اساريرهُ اذ رأى الكتاب . وهو مَن قرأ جلڤر باللغة الانكليزية ، وعرف مقامهُ في ما يسمونهُ « بادب الاحداث » Childrin's Literature في انكلترا وذهب من ساعتهِ يقتني لابنهُ نسخة منهُ

ولسنا نملك الآن نسخة انكليزية من رحلات جلڤر لنتمكن من الموازنة بين الترجمة والاصل وهل الترجمة ادبية دقيقة او هي من قبيل نقل ما فيها من الافكار والآراء والحوادث فقط. ولكن سواءٌ أكانت ترجمة كيلاني ترجمة حرفية او غير حرفية فلا ريب عندنا في ان هذا الكتاب من خير ما يقرأهُ الاحداث . وحبذا الحال لو عني المؤلف باستخراج كتاب على نسق « جلڤر » من رحلات الروّاد المحدثين . فاوهام سوفت ومخترعاته في « جلڤر » تحلُّ محلّها حقائق الريادة الحديثة وغرائبها، وإقدام الروّاد وتفانيهم، في الكتاب الذي نقترحهُ، فيكون هذا الكتاب الدرجة التي تتلو « جلڤر » في سلسلة « أدب الاحداث » . وكل الآباءِ والمعلمين يشعرون بشديد حاجتنا الى هذه السلسلة المتدرجة مع فهم الاحداث وذوقهم الادبيّ

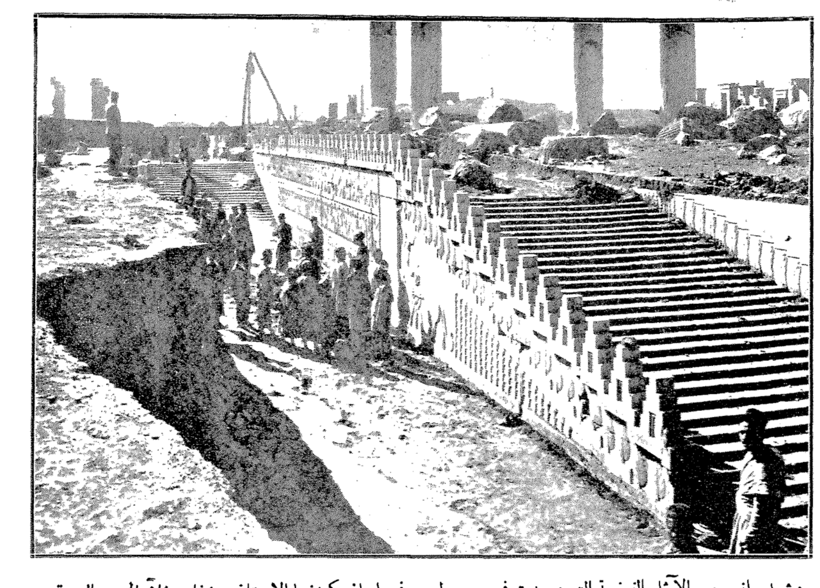
[المقتطف] سرَّنا ما رأيناهُ من اقبال القرَّاءِ على ما ننشر في هذا الباب من المباحث في المطبوعات الحديثة . فتوسعنا فيهِ جهدنا . ولكنهُ مع ذلك ضاق عن ان يتسع لذكر كل المطبوعات التي اهديت الينا . فوعدنا بها الشهر القادم ان شاء الله

الجزء الرابع من المجلد الثاني والثمانين



حملة الجزية الى داريوس

افريز منقوش نقشاً بارزاً وجد في برسپوليس ويردّ تاريخه الى عهد داريوس (٥٢١ — ٤٨٥ ق.م.) وهذا الافريز منقوش على جانب السلالم المرسومة في الصفحة التالية



مشهد جانب من الآثار الفخمة التي وجدت في پرسپوليس في ايران كشفها الاستاذ هرزفلد ممثلاً المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو [الصورة منقولة عن اخبار لندن المصوّرة]

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الخامس من المجلد الثاني والثمانين

١ مايو سنة ١٩٣٣ — ٦ محرم سنة ١٣٥٢



مندليف

سيبيريا تنجب متنبئاً كيماوياً

من جوف روسيا الاسيوية خرج متنبئٌ كيماويٌّ. قال: «ثمة عنصر لم يكشف بعد. وقد دعوته « اكا الومنيوم » وسوف يعرف بصفات تشبه صفات الالومنيوم . ابحثوا عنهُ تجدوهُ » .
كان هذا القول نبوءة جريئة . ولكنها لم تكن اخرى نبوءاتهِ . لانهُ لم يلبث طويلاً حتى تنبَّأ بعنصر آخر يشبه عنصر البورون . بل انهُ تجرَّأ وذكر وزن العنصر الذرّي قبل وجوده. ثم لم يلبث ذلك الصوت العلوي، حتى تنبأ بعنصر ثالث وأتى على بيان صفاتهِ. كانت هذه العناصر الثلاثة مما لم تقع عليهِ عين انسان من قبل ، حتى علا صوت هذا الروسيّ العجيب

كان ذلك سنة ١٨٦٩ وكان عصر العجائب والخوارق قد انقضى. ومع ذلك رأى العالم هذا الكيماويّ الذي يشغل منصب استاذ الكيمياء في جامعة مشهورة، وقد اتخذ لنفسهِ وشاحاً كوشاح الانبياء القدامى . هل جمع انباءه من بلورة الساحر ، او ذهب الى قمة الجبل حيث هبط عليهِ الوحي فعلَّمهُ ما لم يعلم ؟ ولكن هذا النبيّ الحديث لم يتشح بوشاح الكهنة ، بل اعلن تنبؤاتهُ من مختبره الكيمائي ، حيث تنعقد ابخرة العناصر غيوماً ، صادرة من فرنهِ المشتعل

لا من العليقة الملتهبة ، وفي هذه الغيوم رأى القاعدة التي بنى عليها اكتشافهُ الكيمائيّ العظيم

كان علم الكيمياء ميداناً للتنبؤ العلمي . ذلك ان العالم لافوازيه رأى اذ احمى قطعة من القصدير في انبوبة مقفلة شاهدها قد تغيرت شكلاً ووزناً ، رأى بعينهِ النافذة حقيقة جديدة، وتنبأ بوجوهٍ اخرى من التغير قياساً عليها. كذلك كان لُكْيَر الانكليزي (السر نورمن الذي أسس مجلة نايتشر الانكليزية) قد رأى قبل ذلك السبكترسكوب وهو آلة الحل الطيفي التي صنعها العالمان الالمانيان بنسن وكرشوف . في هذه الآلة رأى لكير خطوطاً خاصة بعنصر جديد وهو كان يحلّ النور الواصل اليهِ من قرص الشمس فدعاه « الهليوم » وتنبأ بوجوده على الارض . فلما انقضت عشرون سنة على نبوءتهِ عثر وليم هلبراند الاميركي على هذا الغاز في المعدن النادر المدعو كليفييت (Cleveite)

ولكن نبوءات المتنبيء الروسي كانت ابعث على الدهشة وادعى للاستغراب . ذلك ان نبوءاتهِ لم تجيء نتيجة لتجارب جربها ، بل كانت كأنها وحي هبط عليهِ من المكان الارفع او كأنها بذرة او جرثومة ظلت تغتذي في عقله الخصب حتى افرخت فلما ازهرت استرعت اعجاب العالم بروعة جمالها

***

جاء السر وليم رمزي احد زعماء الكيمياء الحديثة سنة ١٨٨٤ الى لندن ليحضر احتفالاً أُعِدَّ فيها لتكريم وليم پركن مكتشف الصبغ البنفسجيّ . قال رمزي : — وبكرت الى مكان العشاء وكنت احاول تمضية الوقت بقراءة اسماء المدعوين على بطاقات مخصوصة وضعت في مكان كلّ منهم ، واذا انا برجل غريب الشكل كل شعرة في رأسهِ تتصرف مستقلة عن كل شعرة اخرى ثم اقترب مني وهو ينحني فقلت بالانكليزية « الحاضرون كثر » فقال لا اتكلم الانكليزية فكلمتهُ بالالمانية فاذا هو يتكلمها ولا يجيدها . وتباحثنا في موضوع اختصاصنا . والظاهر انهُ نشأ في شرق سيبيريا ولم يتعلم الروسية قبلما بلغ السابعة عشرة من عمره . ولعلهُ واحد من اولئك العلماء غريبي الاطوار

كان هذا الرجل « الغريب الاطوار » العالم « مندليف » المتنبئ الكيمائيّ الذي اصغى الناس الى صوتهِ . فهبّ البحّاث يبحثون عن العناصر المجهولة التي تنبأ بوجودها ووصفها . بحثوا عنها في جوف الارض ، في غبار المصانع ، في مياه المحيطات، في كل بقعة من بقاع الارض، واختلفت الفصول ، وتعاقبت السنوات ومندليف لا يزال يكرز بصحة ما تنبأ بهِ . الى ان كانت سنة ١٨٧٥ إذ كشِف عن العنصر الاول من العناصر المجهولة التي تنبأ بها . ذلك ان « ليكوك ده بوا بوردان » عثر على عنصر « الاكا الومنيوم » في تبرٍ زنكيّ يستخرج من جبال « البرنيه » الواقعة بين اسبانيا وفرنسا . ولما دقق « ده بوابوردان » البحث في صفات العنصر الجديد

وجدها تتفق وما قالهُ عنهُ مندليف . فدعاه بعنصر الغاليوم Gallium نسبة الى بلاده بلاد الغال Galle

ولكن كان ثمة من لم يؤمن . لان تحقيق نبوءة مندليف في نظرهم لم تعدُ كونها حزراً تحقق . وانهُ من السخف ان نعتقد ان العناصر المجهولة يمكن التنبؤ بها بمثل هذه الدقة العجيبة ، فهو اشبهُ شيء بالتنبؤ بولادة نجم جديد في رحاب الفضاء ! الم يقل لافوازيه العظيم ان كل ما يمكن ان يقال في طبيعة العناصر وعددها محصور في مناقشات موسومة بسمة «وراء الطبيعة» ؟ كذلك احتج المعترضون

فلم يلبثوا حتى بهتوا لما وردت الانباء من المانيا ان ونكلر Winkler عثر على عنصر جديد صفاتهُ تشبه صفات عنصر «الاكاسلكون» الذي تنبأ بهِ مندليف. واذا وزنهُ الذريُّ وكثافتهُ وصفاتهُ الطبيعية وصفات اكسيده تطابق ما قاله مندليف . ولم تقم شبهة ما على ان نبوءة مندليف الثانية تحققت كالاولى . واعلن ونكلر اكتشافهُ لهذا العنصر واطلق عليهِ اسم «جرمانيوم» اسم وطنهِ . فصعق المعترضون وقالوا في ذوات نفوسهم لعلَّ هذا الروسيَّ ليس خدّاعاً مشعوذاً كما كنا نظن

فلما انقضى على ذلك سنتان ، زال كل شكّ يشوب اذهان الناس في صدق الرجل . ذلك ان نلسن Nilson في البلاد السكنديناوية فاز باستفراد عنصر « الاكابورون » فاذا هو كما قال مندليف عنهُ . لقد اصبحت الادلة على صدقهِ قاطعةً . وها هم رجال العلم يطرقون الباب على هذا الروسي في بطرسبرج (لننغراد) زرافات ووحداناً

***

تحدر ديمتري ايفانوفتش مندليف Mendeléeff من اسرة من الروّاد المقاديم . كان بطرس الاكبر ، قبل ولادة مندليف بنحو قرنٍ من الزمان قد شرع في ادخال الحضارة الغربية الى روسيا . فأقام في بطيحة من بطائح الشمال الغربي مدينة (بطرسبرج) لتكون منفذ روسيا الى الغرب . ومن الناحية الاخرى كانت روسيا تتطلع الى الشرق . وفي سنة ١٧٨٧ انشأ جدُّ مندليف في مدينة توبولسك بسيبيريا اول مطبعة في تلك البلاد واصدر اول جريدة . في تلك البقعة النائية التي استعمرها القوزاق في منتصف القرن الخامس ولد المترجم له فكان الولد السابع عشر لامهِ وابيهِ

ولكن النوازل نزلت بالاسرة . فكفَّ نظر الوالد — وكان مدير المدرسة العالية في المدينة — ولم يلبث ان مات مسلولاً . وكانت والدتهُ ماريا كورنيلوف من حسان التتر فعجزت عن ان تعول اسرتها الكبيرة بمعاش سنوي قدره مائة جنيه فاعادت فتح مصنع للزجاج

كانت اسرتها قد انشأتهُ في سيبيريا . وكانت توبولسك حينئذٍ مركزاً للمشرّدين والمنفيّين السياسيين من روسيا . ومن احد هؤلاء تعلم ديمتري مندليف مبادىء العلوم الطبيعيـة . فلما دمَّرت النار مصنع الزجاج ، حملتهُ امهُ — وكانت في السابعة والخمسين من عمرها — الى موسكو لعلّها تمهد له سبيل الانتظام في جامعتها ، فحال دون ذلك حوائل جمة . ولـكنها كانت عازمة على تنشئة ابنها تنشئة علمية فسارت بهِ الى بطرسبرج وبعـد جهاد عنيف مكّـنتهُ من الانتظام في الدائرة العلمية بمعهد التعليم وهو معهد المدرسين . في هذا المعهد توفّـر على الرياضة والطبيعة والكيمياء وكان يكره الآداب القديمة . فلما اصبح ذا مقام علمي كبير عيّـن عضواً في لجنة اصلاح التعليم فقال « اننا نستطيع ان نعيش الآن من دون افلاطون . ولـكننا نحتاج الى كثيرين من امثال نيوتن للـكشف عن اسرار الطبيعة ، وتمهيد سبيل الاتساق بين الحياة ونواميسها »

وكان مندليف طالباً مجتهداً فتخرج في طليعة فرقتهِ . ولـكنهُ كان ضعيف البنية فلما توفيت والدتهُ اصيب باعياء الاعصاب . وكان قد اسرع اليها وهي على سرير الموت فخاطبتهُ قائلة « دع عنك الاوهام . اجعل همك الاعمال لا الاقوال . كن صبوراً في البحث عن الحقائق الالهية والعلمية » . ولم ينس مندليف هذه الكلمات قط في خلال حياتهِ ، حتى في الساعات التي كانت تراوده فيها الاحلام والرؤى كان يحسُّ ان قدميهِ مثبتتان في الارض الصلدة

وبلغ اليأس من طبيبهِ ان ظن ان اجله لن يطول اكثر من ستة اشهر . فامره بالذهاب الى الجنوب ، حيث الجو الدافىء يؤاتيـهِ . فتمكن من الفوز بمنصب مدرس في بلدة سمفربول ببلاد القريم . فلما نشبت حرب القريم ذهب الى اودسا ومنها عاد الى بطرسبرج وهو في الثانية والعشرين فعين مدرباً في الجامعة وهو منصب يسمَح لهُ فيهِ بتدريب الطلاب الذين يحضرون محاضرات الجامعة . فلبث فيهِ بضع سنوات ثم استأذن وزير المعارف في السفر الى فرنسا والمانيا للتوسع في العلم والتعمق فيهِ لتعذر ذلك في روسيا ، فاذن له . فدرس في فرنسا على الاستاذ هنري رنيو (Regnault) وفي جامعة هيدلبرج الالمانية ، حيث اجتمع ببنصن (Bunsen) وكرشوف (Kirchoff) فتعلم من الاخير استعمال السبكترسكوب (آلة الحل الطيفي) وحضر مؤتمر كارلسروهي (Karlsruhe) الذي دارت فيهِ معركة الجدال على جزيئات افوغاردو (Avogardo) فـكان ذلك خاتمة مطافهِ ، اذ عاد بعد ذلك الى روسيا

***

كانت السنوات التالية سنوات جدّ وارهاق . تزوج في خلالها ، ووضع كتاباً مدرسيّـا في الـكيمياء العضوية في ستين يوماً مع ان صفحاتهِ تربي على الخمسمائة وفاز برتبة دكتور في الـكيمياء برسالة موضوعها « اتحاد الـكحول بالماء » فلما تبينت جامعة بطرسبرج مزايا هذا المعلم الموهوب ، والفيلسوف الـكيماوي ، اختارتهُ اسـتاذاً وهو لم يبلغ الثانية والثلاثين من العمر

ثم جاءت تلك السنة — هي حدٌّ فاصل في تاريخ الكيمياء الحديثة — سنة ١٨٦٩ كان مندليف قد قضى عشرين سنة يقرأ كلّ ما عرف عن العناصر ويجرّب تجاربهُ بها. ويجمع الحقائق عنها من كل مصدر يمكن الوصول اليهِ . وكان قد رتّب هذه الحقائق وبوّبها وأعاد ترتيبها وتبويبها لعلّهُ يتوفق الى كشف سر غامضٍ . وكان هذا العمل مضنياً لان طائفة كبيرة من العلماء، متفرقة في مختلف جامعات العالم،كانت قد عنيت بدرس العناصر المعروفة . فجمْع الحقائق التي كشفت كان يقتضي صبراً ومواظبة وشغفاً ،والاّ فهو مقضي عليه بالخيبة

ثم ان العناصر المعروفة كانت قد زادت بفضل ما كشفهُ العلماء منها.كان الصناع الاقدمون قد صنعوا ادواتهم من الذهب والفضة والنحاس والحديد والزئبق والرصاص والقصدير والكبريت والكربون . ثم اضاف علماء الكيمياء القديمة (Alchemy) ستة عناصر في خلال بحثهم عن سرّ تحويل المعادن الى ذهب . فوصف الطبيب الالماني « باسيل ڤالنتين » عنصر الانتيمون سنة ١٤٩٢ وجورجيوس اغريكولا عنصر البزموت سنة ١٥٣٠ وباراسلسس عنصر الزنك وبراندت Brandt عنصر الفصفور .ثم اضيف اليها عنصرا الزرنيخ والكوبلت وقبل ان ينصرم القرن الثامن عشر اكتشف البلاتين — سنة ١٧٣٥ — في كولمبيا ثم تلاهُ النيكل فالايدروجين فالنتروجين فالاكسجين فالكلور فالمنغنيس فالتنغستن فالكروم فالمولبدنوم والتيتانيوم فالتلوريوم والزركونيوم والاورانيوم . فلما استهلّ القرن التاسع عشر اكتشف عنصر الكولمبيوم (النيوبيوم) . فلما كانت سنة ١٨٦٩ كان المعروف من العناصر ٦٣ عنصراً وقد وصفت في مجلات العلم في انكلترا وفرنسا وألمانيا والسويد وغيرها

جمع مندليف كلَّ الحقائق المعروفة عن هذه العناصر الثلاثة والستين . لم يفتهُ عنصر واحد منها . بل انهُ اضاف اليها عنصر الفلور مع ان احداً لم يفُز قبل ذلك باستفرادهِ . فاذا امامهُ قائمة بعناصر مركبة من ذرّات تتباين اوزنها الذرّية من ١ (وزن الايدروجين) الى ٢٣٨ (وزن الاورانيوم) وكلها مختلفة الصفات بعضها غازي كالاكسجين والايدروجين والكلور والنتروجين . وبعضها سائل في الاحوال العادية كالزئبق والبروم . والباقي جامد كالذهب والفضة والزرنيخ والكربون والفصفور . بعض المعادن صلب قاسٍ كالبلاتين والاريديوم وبعضها لين كالصوديوم والپوتاسيوم .كان اللثيوم معدناً خفيفاً يطفو على الماء مع ان الاسميوم معدن يفوق وزنهُ النوعيُّ وزن الماءِ النوعيّ اثنين وعشرين ضعفاً ونصف ضعفٍ . وهذا الزئبق، معدن لكنهُ سائل . ثم انها تختلف لوناً . فالنحاس احمر والذهب اصفر واليود رمادي قاتم والفصفور أبيض والبروم احمر . وبعض الفلزات كالنيكل والكروم يصقل حتى يخطف البصر بلمعانهِ ، وبعضها يمكن صقلهُ ولكنهُ يظل قاتماً لا يلمع . اما الذهب فلا يكمدُ عند تعريضهِ للهواء واما الحديد فيصدأ واما اليود فيتصعّد . وبعض هذه العناصر يتحد بذرة

واحدة من الاوكسجين وبعضها بذرتين وبعضها بثلاث ذرّات وبعضها باربع . ومنها طائفة قليلة كالپوتاسيوم والفلور شديدة الفعل يصعب تناولها بالاصابع . تقابلها عناصر لايطرأ عليها تغيير طال ما طال عليها الزمن

ما هذا التباين المحيّر للعقل ، في صفاتها الطبيعية والكيمائية ؟ هل ثمة نظام بين هذه الذرّات المتباينة ؟ هل ثمة اية صلة بينها ؟ أمن الممكن العثور على سلك ينظم نشوءَها على مثال مانظمت الخلائق الحية والبائدة في سلك التطوُّر ؟ فتنت هذه المسائل لبّ منديلف ، فعينُهُ في النهار شاردة ذاهلة، ومضجعهُ في الليل تقضّهُ اشباح الذرات وطيوف العناصر

وكان منديلف من العلماء الذين ينزعون الى الفلسفة ، فهتف بهِ هاتف وجداني ان لا بدَّ من وجود المفتاح لنظام هذه الحقائق المتباينة . او لعلّ للطبيعة نظاماً مستسرًّا تطويهِ في ثنايا حقائقها المتباينة . وكان يعتقد ان مجدَ الطبيعة في اخفاء سرها ولكنهُ كان يعتقد كذلك ان من شرف الملوك البحث عن ذلك السرّ !

أخذ العناصر وجعل يرتبها بحسب اوزانها الذرية مبتدئاً بالايدروجين اخفّها وزناً ومتدرجاً الى الاورانيوم اثقلها . فلم يجد في ترتيبها على هذا المنوال جدوى . وكان رجل خر قد سبقهُ الى هذا الترتيب . ذلك ان جون نيولندز كان قبل ذلك بثلاث سنوات قد قرأ امام الجمعية الملكية الكيمائية بلندن رسالة في ترتيب العناصر وكان نيولندز قد لاحظ ان كل عنصر ثامن يشبه العنصر الاول في جدولهِ . فرأى في ذلك غرابة تسترعى النظر . فشبَّه جدول العناصر باصابع البيانو الثمانية والثمانين وهي مقسومة الى احدى عشرة مجموعة كل مجموعة منها ثمانية أصابع . فقال ان العلاقة بين كل طائفة من العناصر تشبه العلاقة بين الاصابع في مجموعة واحدة من اصابع البيانو . فهزأ أعضاء الجمعية بهذا القول . ووقف الاستاذ فوستر يسأل في سخرية: « لماذا لم ترتَّب العناصر بحسب حروفها الاولى ! ولماذا لايشبَّه ازيز الصاديوم وهو يحترق على سطح الماء بموسيقى الاجرام السماوية ! » فاجمع الكل على سخف القول ونسج على ذكر نيولندز ورأيهِ ستار من النسيان

ولكن منديلف اخذ ٦٣ بطاقة وكتب على كلٍّ منها اسم عنصر من العناصر المعروفة وخواصهُ . وعلق البطاقات على جدار معملهِ . ثم راجع ما يعرف عنها من الحقائق . واختار طوائف العناصر التي تتشابهُ في خواصها ووضعها على حدة . فوجد علاقة جلية بين افراد الطوائف تسترعي العناية . ثم رتَّب العناصر في سبع طوائف مبتدئاً بالليثيوم (وزنه الذري ٧) يتبعهُ البريليوم (وزنهُ الذري ٩) فالبورون (وزنهُ الذري ١١) فالكربون (وزنهُ الذري ١٢) فالاكسجين (وزنهُ الذري ١٦) فالفلور (وزنهُ الذري ١٩). وكان العنصر الذي يلي هذه العناصر في وزنهِ الذري عنصر الصوديوم (وزنهُ الذرّي ٢٣) ، وكان الصوديوم يشبه الليثيوم شبهاً

عجيباً في خواصهِ الكيمائية والطبيعية . فوضعهُ تحت الليثيوم في جدولهِ . وبعد ما وضع خمسة عناصر تالية للصوديوم في اماكنها وصل الى الكلور . وهو يشبهُ الفلور في خواصهِ فوجد انهُ يقع من تلقاءِ نفسهِ في الخانة التي تحت خانة الفلور — فسرَّهُ هذا التأييد . ومضى في ترتيب العناصر على هذا المنوال وكل عنصر كان يقع في محلّهِ فيتفق في خواصه مع العناصر التي فوقهُ وتحتهُ . ففي العمود الاول من الجدول كان طائفة المعادن الفعالة — الليثيوم وتحتهُ الصوديوم فالبوتاسيوم فالكوبيديوم فالكيزيوم . وهي الطائفة الاولى . اما العناصر الفعّالة غير المعدنية فجاءت في طائفة واحدة اعلاها الفلور وتحتهُ الكلور فالبروم فاليود . وهي الطائفة السابعة

كذلك اكتشف مندليف « ان خواص العناصر صفات دورية لاوزانها الذرّية » اي ان الخواص كانت تتردد في كل عنصر ثامن . فالثامن يشبهُ الاول ، والخامس عشر يشبهُ الاول والثامن . والتاسع يشبهُ الثاني ، والسادس عشر يشبهُ التاسع والثاني وهلمَّ جرًّا

ثم نظر في عناصر هذه الطوائف . وما أعجب ما رأى !

ان عناصر الطائفة الاولى تتحد ذرة منها بذرتين من الاكسجين . وعناصر الطائفة الثانية تتحد ذرة واحدة منها بذرة واحدة من الاكسجين .وعناصر الطائفة الثالثة تتحد ذرتان منها بثلاث ذرّات من الاكسجين . وعلى ذلك قس التشابه في عناصر الطوائف المختلفة . هل في الطبيعة ما هو ابسط من ذلك ؟ فاذا شئت ان تعرف خواص عنصر معيَّن وجب ان تعرف الخواص العامة التي تتصف بها تلك الطائفة . ان ذلك يسهل تناول الكيمياء على الطلاّب

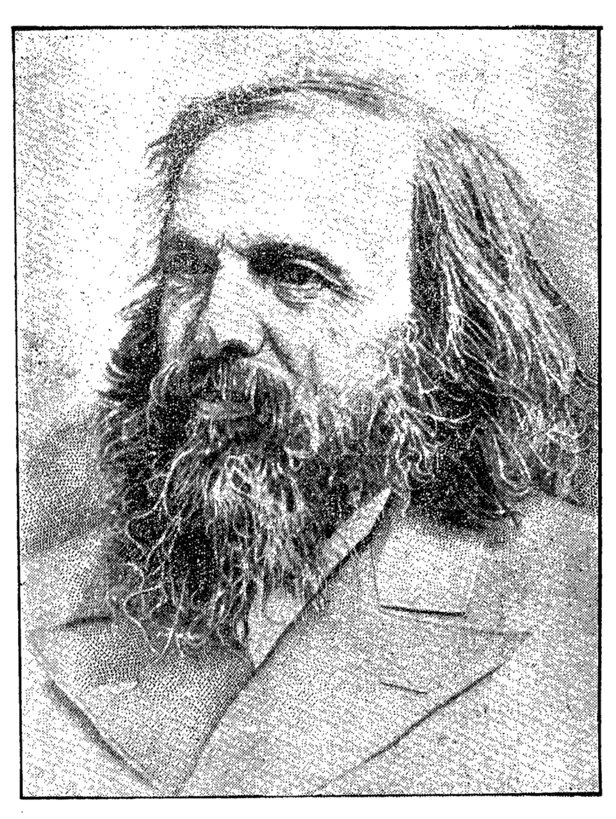
هل يمكن ان يكون هذا التشابه بين خواص العناصر في جدولهِ اتفاقاً مجرّداً ؟ فليعد النظر اذاً في صفات العناصر حتى اشدها ندرة . ولينقب في كل الرسائل والمؤلفات الكيمائية لعلّهُ يجد حقائق اغفلها في سورة الحماسة للجدول الذي فتن لبَّهُ ببساطتهِ وشمولهِ . هاهو ذا يكشف عن شيءٍ جديد يتعارض والبناء الذي رفع ! كان المعروف ان وزن اليود الذريّ ١٢٧ ووزن التلوريوم ١٢٨ وكان قد وضعهما في المكان الذي يجب ان يكونا فيهِ من حيث تشابه خواصهما مع العناصر السابقة واللاحقة . ولكن وزن التلوريوم الذريّ يتنافى والمكان الذي تقتضيهِ خواصّهُ . ما العمل؟ هنا وقف مندليف وقفة المتنبيء الجريء وقال ان الوزن الذري المقرّر لعنصر التلوريوم خطأ ، وانهُ يجب ان يتباين من ١٢٣ الى ١٢٦ فقيل عنهُ انهُ يهرف ولكنهُ اكتفى بوضع التلوريوم في المكان الذي تقتضيهِ خواصهُ مع ان وزنهُ الذرّي المقرّر حينئذٍ يقتضي ان يكون في مكان آخر — فلما اتقنت وسائل تعيين الاوزان الذرية بعد ذلك بسنوات تبين ان مندليف كان مصيباً ، فعملهُ هذا في الكيمياء كان من قبيل التنبؤ بالسيّار نبتون ومكانهِ في علم الفلك

بعد ذلك ظن ان الجدول اصبح سليماً من مواطن الضعف . ولكنهُ احبّ ان يتثبت . فاعاد النظر فيهِ ، فوجد تناقضاً آخر . ذلك ان الوزن الذرّي المقرّر للذهب كان ١٩٦٢٣ وهذا يقتضي ان يجعلهُ في الجدول في مكان يجب ان يكون في الواقع لعنصر البلاتين (وزنهُ الذري المقرّر حينئذٍ ١٩٦٧) . والانسان لا يخلو من ضدّ ولو كان في رأس الجبل ، فانطلقت السنة النقاد ، وشرعت اقلامهم ، في تبيان هذا التناقض . فتجرأ منديليف ثانية وقال ان الارقام التي يقرّرها المحللون لوزنيهما الذريين فيها خطأٌ . وانهُ يكتفي الآن بالانتظار ، وان البحث لابدّ ان يؤيدهُ في المستقبل. والواقع ان ميزان الكيماويّ اثبت بعد ذلك انهُ كان مصيباً هنا، كما كان مصيباً هناك، وان وزن الذهب الذري اكبر من وزن البلاتين. عجيب والله ! انَّ في جدول هذا الروسيّ عيناً ترى الخفايا !

على ان الصدمة الكبرى التي صدم بها علماء العصر جاءت بعد ذلك . ان في هذا الجدول اماكن فارغة ، لم تملأ باسم عنصر ما . هل تبقى فارغة ، او ثمة عناصر ، لم يكشفها البحّاث ؟ ولو ان رجلاً آخر اقل جرأة من منديليف كان محلَّهُ ، لأحجم عن الاستنتاج الذي يقتضيهِ ايمانهُ بصحة الاكتشاف الذي وفق اليهِ . ولكن منديليف ، الذي رفض ان يجمّ شعرهُ ، مرضاة للقيصر اسكندر الثالث، لم يرهب سخرية المتنطعين من الكيماويين

ففي الطائفة الثالثة من جدولهِ خانة فارغة بين الكلسيوم والتيتانيوم. ولما كانت الخانة الفارغة واقعة تحت عنصر البورون ، صرّح منديليف بان العنصر المجهول الذي يجب ان يملأ هذه الخانة ، يجب ان يكون مشابهاً لعنصر البورون . فدعاهُ «اكابورون» اي ما « بعد البورون» ثم هناك خانة فارغة في الطائفة نفسها تحت عنصر الالومنيوم . فقال ان العنصر المجهول الذي يجب ان يملأها يجب ان يشبه الالومنيوم ودعاهُ « اكاالومنيوم » . ثم وجد خانة فارغة في الطائفة الرابعة بين الزرنيخ والالومنيوم واقعة تحت السلكون فقال ان العنصر المجهول يجب ان يكون مشابهاً للسلكون ودعاهُ « اكاسلكون » .كذلك تنبّأ منديليف بثلاثة عناصر مجهولة وترك البحث عنها لمعاصريهِ .

وفي سنة ١٨٦٩ تقدم منديليف الى الجمعية الكيمائية الروسية برسالة عنوانها « في العلاقة بين خواص العناصر واوزانها الذرية » فبسط فيها باسلوبهِ البارع النتائج التي خلص اليها . فدهشت الدوائر العلمية . ولكن بذرة هذا الاكتشاف العظيم كانت قد بُذرت قبيل ذلك اذ لاحظ ده شانكورتوى في فرنسا وسترخر في المانيا ونيولندز في انكلترا وكوك في اميركا بعض وجوه الشبه بين خواص العناصر. ولكن الاغرب من ذلك ان لوثار مير Meyer الالماني وصل الى نفس النتائج التي وصل اليها منديليف في نفس الوقت او بعيدهُ ، فنشر سنة ١٨٧٠ في مجلة « ليبغ انال » جدولاً للعناصر كجدول منديليف تقريباً. ذلك ان العصر كان يقتضي مثل هذا



الكيماوي الروسي : ديمتري مندليف

الحكم العام ، وكان ما كشف من العناصر حتى ذلك الوقت كافياً ليكون اساساً لمثل هذا البحث فلبيّ الرجلان حاجة العصر باكتشافهما الجدول الدوري . ولو ان مندليف ولد قبل ولادتهِ بجيل واحد ، لتعذر عليهِ اكتشاف الناموس الدوري Periodic Law لان الحقائق المعروفة عن العناصر كانت غير كافية كاساس للبحث

ذكر مندليف في جدولهِ ثلاثة وستين عنصراً ، وتنبأ بثلاثة عناصر مجهولة . ولكن هل تظل العناصر المجهولة الباقية مستترة عن لمس الانسان وبصرهِ ام يكشف عنها بالسير على الخطة التي سار عليها مندليف نفسهُ فتصبح الكيمياء في دقة تنبؤها بالحوادث كعلم الفلك

والواقع انهُ ما انقضت على اذاعة جدول مندليف خمس وعشرون سنة حتى كشف انكليزيان طائفة كاملة من العناصر دعيت طائفة الصفر لانها تجيء قبل الطائفة الاولى في جدول مندليف وكانت عناصر هذه الطائفة سبعة من اضعف العناصر فعلاً كيمائيًّا . حتى البوتاسيوم والفلور وهما من افعل العناصر المعروفة لم يستطيعا ان يخرجا هذه العناصر من عزلتها . فلا عجب اذاً ان ظلت هذه العناصر مجهولة هذا الزمن الطويل

***

روقب اول هذه العناصر — وكانت كلها غازات — في طيف اكليل الشمس في كسوف حدث سنة ١٨٦٨ ولكن لم يعرف عنهُ الاّ الخط الذي يمثله في الطيف . لذلك لم يذكرهُ مندليف في جدولهِ . على ان هلبراند الاميركي ، وصف بعيد ذلك غازاً يخرج من معدن الكليفيت Cleveite وعرف انهُ يختلف عن النتروجين ولكنهُ لم يتمكن من النفوذ الى سرّ حقيقتهِ . فجاء رمزي (السر وليم رمزي) بنموذج من هذا المعدن واخرج منهُ الغاز المذكور ثم امرّ فيهِ شرارة كهربائية وصوّر طيفهُ فاذا هو يحدث في الطيف خطاً كالخط الذي شوهد في طيف الاكليل الشمسي . فعرف ان الغاز الذي يخرج من الكليفيت هو ذلك الغاز الذي في طيف الشمس ومن هنا اسمهُ العلمي « هليوم » اي الشمسي . وفي السنة التالية اثبت كيزر Kayser وجود مقادير يسيرة جدًّا من الهليوم في الهواء (النسبة ١ : ١٨٥٠٠٠) وليس هنا مجال البحث في اكتشاف رمزي وترفرس لبقية الغازات النادرة التابعة لهذه الطائفة — وهي الارغون والكربتون والنيون والزينون والنيتون [١] — وانما يكفي ان نقول انهما استخرجا مقادير يسيرة جدًّا من هذه الغازات من ١٢٠ طنًّا من الهواءِ بعد اسالتها واستعمل رمزي في خلال تجاربهِ ميزاناً دقيقاً كل الدقة يتأثر بجزءٍ من ١٤ مليون جزءٍ من الاوقية

(١) راجع مقتطف اكتوبر سنة ١٩١٦ مجلد ٤٩ صفحة ٣١٧ — ٣٢٠

وهذه العناصر على ندرتها وصعوبة استخراجها ، تستعمل الآن في المصابيح الكهربائية والاعلانات الملونة والبلونات . ومضى الباحثون عن العناصر المجهولة على قدم وساق ، تحدوهم الثقة بصحة نظر مندليف وتستثيرهم الحماسة التي يشعر بها من يعثر على مجهول . فلما توفي مندليف سنة ١٩٠٧ كان عدد العناصر المعروفة قد اصبح ٨٦ عنصراً

***

وقد اشترك مندليف في تأييد حركة الاصلاح في بلاد الروس ، وكان ميّالاً الى تأييد مذاهب الاحرار ، فلقي عنتاً من اصحاب الحكم ، ولما قدم رسالة الى الحكومة تتضمن المطالبة ببعض وجوه الاصلاح ، قيل لهُ ان لا يتدخل في ما لا يعنيهِ وان يعود الى معملهِ العلمي . فاحسّ ان هذا الرد كان صفعةً لهُ ، فاستقال من الجامعة

وتأييده للاحرار انشأ لهُ عداوة في دوائر المحافظين اولياء الامر — على مثال ما تمَّ لجوزف بريستلي [1] — فرفضت الاكادمية الروسية سنة ١٨٨٠ ان تنتخبهُ عضواً في قسمها الكيمائي وهو اكبر كيمائي عصره . ولكن جامعة موسكو انتخبتهُ عضو شرف فيها ومنحتهُ الجمعية الملكية بلندن مدالية ديفي بالاشتراك مع لوثار مير لترتيبهما العناصر ذلك الترتيب الدوري. ويقال انهُ في آخر حياتهِ دعتهُ الجمعية الكيمائية البريطانية الى حفلة لتمنحهُ فيها مدالية فاراداي — ولعلها اعلى شرف في دوائر العلم الكيمائي ينالهُ الباحث — فلما اعطى مندليف كيساً يحتوي على قدر من المال يعطى عادة في مثل هذه الحالات ، فتح الكيس واخرج منهُ الجنيهات الذهبية وقال « انهُ لن يقبل مالاً من جمعية شرفتهُ بتكريمها لهُ في المكان الذي قام بهِ فاراداي بمباحثهِ الخالدة » . ومن ثمَّ بدأت تنهال عليهِ الالقاب العلمية من الجمعيات العلمية في اميركا والمانيا ومن جامعات برنستن وكمبردج واكسفرد وغوتنجن ، فلما عين الوزير وت Witte الروسي وزيراً للمالية في عهد اسكندر الثالث عين مندليف مديراً لمصلحة المقاييس والموازين

***

بعيد وفاتهِ بالنزلة الصدرية في فبراير سنة ١٩٠٧ قال العالم پاتيسن ميور «للمستقبل وحده الحكم على بقاء الجدول الدوري او زواله» . ولو ان مندليف عاش بضع سنوات، لكان رأى قبل وفاتهِ ، كيف اتم موزلي [2] البناء الضخم الذي شيده مندليف ، فاتمّا معاً تخطيط خريطة العناصر التي تتركب منها اشكال المادة

(١) ذكرنا اسمه الاولى خطأً في العدد الماضي فقلنا انه جون وصوابه جوزف
(٢) راجع مقتطف يونيو ويوليو سنة ١٩٣١

ماركس ومذهبه

على ذكر انقضاء خمسين سنة على وفاته

تحدّر كارل ماركس ، واضع الاسس التي شـيدت عليها الاشتراكية الحديثة في مختلف الوانها ، من اصل يهودي، وكان ابوه محامياً يدعى «مردخاي» تحوّل الى المسيحية سنة ١٨٢٤ اي بعد ولادة كارل بست سنوات . وكان المتوقّع ان ينتظم الابن في سلك المحاماة بعد تلقي القـانون والتـاريخ والفلسفة في جامعتي بُسن وبرلين وتخرجهِ سنة ١٨٤١ حائزاً للقب دكتور في الفلسفة . ولـكنهُ لم يمل الى المحاماة ، فاقدم وهو في العشرين من العمر على خوض ميدان الصحافة محرّراً لجريدة اشتراكية تدعى « صحيفة الرين » Rhenish Gazette ثم اتّصل بجريدة «فورورتس» التي كان لها نصيب كبير في الدعاية الاشـتراكية بالمانيا . فلما اصبح في الثلاثين من العمر كان برُّ اوربا قد اصبح حرماً عليهِ، بعد ما طرد من فرنسا والبلجيك والمانيا، لعنفهِ ، فلاذ بانـكلترا وكانت ملجأ حينئذٍ لامثالهِ من مشرّدي السياسة والاجتماع ، فعاش فيها اربعاً وثلاثين سنة حتى وفاتهِ في ١٤ مارس سنة ١٨٨٣ وكان قبيل مجيئهِ الى انكلترا قد نظـم في بلاد البلجيك «عصبة شيوعية» واسس «الجمعية الدولية للعمال»

ولا ريب في ان كارل ماركس كان متفوقاً من الناحية الذهنية بين الذين اشتركوا في تأييد الدعاية الاشـتراكية والترويج لها ، وكتابهُ رأس المال بمثابة كـتاب منزل في نظر الشيوعيين والعمال الاشتراكيين بوجهٍ عام . قال الاسـتاذ هارولد لاسكي فيه . « في خلال خمسين سنة انقضت على وفاة ماركس اتسع نطاق نفوذه اتساعاً كان من المتعذر توقعهُ . ان مذهباً ، لم يكن من نحو جيل او اكثر قليلاً ، الاّ تصوُّراً كاليـًا يخالطهُ الجنون ، ابدعهُ منفيٌّ ثوريّ ، قد اصبح من المذاهب المنجِبة في العالم الحديث . فهو الآن متشح بوشاح الدولة المسلحة في (روسيا) واسم صاحبهِ يوقظ في صدور الملايين معاني الايمان والاجلال ، على ما لم يعهد من قبل الا في الرسل والانبياء لا في اصحاب المذاهب الفلسفية . ان كلماتهِ تورد تأييداً وادحاضاً في المناقشات التي تدور حول السياسة الاجتماعية ، وفيها القول الفصل الذي كان يعلق باقوال التوراة والاناجيل عند المدرسيين في القرون الوسطى . ولا ريب في انهُ ليس ثمة اشتراكية يصحُّ ان يُـعنى بها رجال الدول الاّ اشتراكية ماركس». ثم بيّن الاستاذ لاسكي في فقرة تالية

ان فلسفة ماركس كانت اولاً عقيدة تدين بها شرذمة قليلة من الجمعيات الثورية التي تعمل في الخفاء فأصبحت ايماناً يواجه الناسُ في سبيله السجنَ والموتَ كما فعلت الديانات الكبرى في العصور الماضية

والى القارىء ملخصاً عن فلسفة ماركس الاقتصادية الاجتماعية نقلناها عن كتاب المستر كول المدعو « مرشد الرجل الذكي في الفوضى العالمية » . وهو من افضل الكتب الحديثة التي تعالج اضطراب العالم الاقتصادي وصاحبهُ من اساتذة الاقتصاد في جامعة كمبردج

العمال والمتمولون

يعتقد الاشتراكيون ان التغلب على النزاع بين العمال والمتمولين ، امر متعذر في نظام رأسمالي . لان هذا النزاع قائم على اساس من عدم التكافؤ في القوتين المتقابلتين والتناقض في اغراضهما . اما الوجهة الاشتراكية في هذا الموضوع فقد بسطها ماركس في كتابهِ المشهور «رأس المال» Das Capital والاشتراكيون على اختلاف نحلهم وألوان تفكيرهم مجمعون على التسليم بأصول المذهب الماركسي

يذهب ماركس الى ان العمل ، يحسب خطأً في مجتمع رأسمالي ، سلعةً تباع وتشترى . فتحسب قوة العامل في عداد النفقات التي تنفق على صناعة المنتجات التي يخرجها المصنع ، بدلاً من ان يكون العامل نفسه ، الهدف الذي لاجله قامت الصناعة وارتقت . «فقوة العمل» تباع وتشترى . والمتموّل يبتاعها لانهُ لا ندحة له عنها كعامل من عوامل الانتاج . وعلى العامل ان يبيع قوتهُ على الانتاج اذ لا سبيل آخر لهُ للارتزاق . ولو كان هذا التبادل حرًّا لصلحت الحال . ولكن ظروف التبادل غير متساوية في اساسها . لان المتمول ، بفضل المال المتجمع في يديه ، يختصُّ نفسه بكل الفوائد التي تجنى من زيادة المقدرة على الانتاج الناشئة عن التوسع في الصناعات وتقسيم الاعمال فيها . فالعامل ينال اجراً على الجهد الفردي الذي يبذله في الانتاج ، وهذا الاجر تعيّنهُ كثرة العمال الذين يطلبون ان يعملوا العمل نفسهُ ، او قلتهم . فاذا برع العمال في ناحية معينة او زادت مقدرتهم لارتقاء الاساليب الميكانيكية ، فزاد الانتاج ، جنى المتمول الجانب الاكبر من فوائد هذه الزيادة ، بدلاً من ان يجنيها العامل . وللعمال ان يتحدوا ، ويطلبوا متحدين ان يزيد نصيبهم من ارباح الصناعة القائمة عليهم ، بل ان اجور العمال ، حيث العمال قليلون ، ترتفع من تلقاء ذاتها ومن دون اتحاد العمال انفسهم . ولكن ماركس واتباعه يرون ، ان في المجتمع الرأسمالي ، ميلاً بديهيًّا ، الى توزيع الارباح التي تجنى من تقدم الصناعة ، على عوامل الصناعة المختلفة — كاجرة الارض والبناء وفائدة المال وأجور المديرين — دون العامل الذي ينال نصيباً يسيراً جدًّا من الربح اذا قيس بنصيبه الكبير

في الانتاج . بل ان ماركس كان يرى ان العامل لم ينل جزاءً له على عمله، حتى هذا النصيب اليسير

فالفكرة الاساسية في مذهب ماركس هي ان جمع اسباب الانتاج في ايدي افراد قلائل من المتمولين يفضي ضرورةً الى الجور في استغلال العمال . فالصناعة الحديثة هي في اساسها عمل تعاوني . ولكن انقسام القائمين بها الى فريقين متخاصمين من حيث علاقة كلٍّ منها بالعمل نفسه ، ينفي عن العمل صفة التعاون . ولا بدَّ من ان يصلح الخلل على مرّ الزمن . فامتلاك الحكومة للصناعات وتوزيع الربح ، هما في نظر ماركس ، النتيجة المنطقية لما بلغته الصناعة الآلية من التطوُّر في العصور الحديثة

***

ويخطئ من يسندُ الى ماركس القول بأنهُ يطلب لكل عامل الاستيلاء على ثمرة عملهِ كاملةً . بل انهُ وقف كتاباً من كتبه (القيمة والثمن والربح) لردّ هذا القول . لان ماركس يرى — وكان على صوابٍ — ان في الصناعة الحديثة لايمكنك ان تشير الى بضاعةٍ معيَّنة وتقول هذه ثمرة عمل العامل الفلاني . وليس ثمة الاَّ النتيجة المشتركة للعمل المشترك يقوم بهِ عمال كثيرون . ومن المتعذر ان ندلَّ على نصيب كل عامل من العمال في هذا العمل المعقَّد الذي يخرج بضاعة تتناولها — هي او احد مقوماتها — يد عامل من العمال في خلال دور من ادوار صنعها . وليس ما تخرجهُ الصناعة نتيجة عمل العمال فقط ، بل هو نتيجة منتجين آخرين سبقوهم . فكل من اضاف بمستنبطاتهِ شيئاً الى النظام الصناعي ، هو بحقٍ احد المنتجين للبضائع التي تخرجها المصانع . وعليهِ يرى ماركس انهُ من المتعذر ، توزيع ارباح الصناعة ، على العناصر المختلفة التي اشتركت في اخراج منتجاتها ، توزيعاً عادلاً . ولما كانت منتجات الصناعة نتيجة عمل مشترك وجب ان تكون ملكاً للمجتمع باسرهِ . وتوزيعها ، لا يكون الغرض منهُ جزاء كلّ عامل على عملهِ بالقدر الذي يستحقهُ ، بل اقتساماً لما اشتركت في خلقهِ الجمعية البشرية من الثروة . وهذا المتموّل لا يمنع توقيع العقاب على الذين يقصّرون في القيام بنصيبهم في هذا الخلق، او منح الجزاءِ حيث يكون باعثاً على الجهد المنتج . ولكن كلا هذين العاملين في توزيع الدخل ثانوي . والمبدأ المرشد لجميع الاشتراكيين هو جعل الدخل متساوياً لكل الناس ، ما سمح بذلك الامكان

تفسير التاريخ تفسيراً اقتصادياً

والقول بان المتمول في النظام الرأسمالي ، يستغلُّ العامل ، باختصاصهِ نفسَهُ بالجانب الاكبر من ثمرة الانتاج ، عنصر واحد من عناصر المذهب الماركسي . ولفهم هذا المذهب فهماً متزناً يجب ان نتبيَّن ما يعرَف بتفسير التاريخ تفسيراً اقتصاديًّا او ماديًّا . وقد اسيءَ

من قبل فهم هذه الناحية من مذهب ماركس ، فيجدر بنا ان نكون حذورين في تبيانها

يقول ماركس ان في كلّ حضارةٍ في اي دور من ادوارها « قوًى انتاجية » ، تقوم على مصادر الثروة المادية ومعرفة الانسان بتثميرها . فالفحم في مناجمهِ لا يحسب « قوة » من قوى الانتاج حتى يكشفهُ الانسان ويستخرجهُ ويعرف انهُ يحترق ويولّد طاقة يمكن استخدامها. وقوى الانتاج هذه تتغير تغيراً دائماً وفقاً لاتساع معارف الانسان . وعليهِ فالاساس الذي تقوم عليهِ الحضارة اساس دائم التغير . وفي كل مرحلة من مراحل الحضارة نجد وسائل هي الوسائل المثلى لتنظيم قوى الانتاج في تلك الحضارة . فالجماعة التي تعيش بالصيد والقنص ، او بالزراعة ، او بالصناعة على اختلاف اساليبها ، عليها ان تتخذ ، في تنظيم حياتها الاقتصادية ، الوسائل التي تتفق والضرورات التي تقتضيها طبيعة قوى الانتاج والاعمال الانتاجية التي تزاولها . فصيد السمك او تعدين الفحم او توليد الكهربائية ، يقتضي نظاماً اقتصاديًّا خاصًّا ، يوضع خاصة لتحقيق الغرض المعين وهذا النظام يقتضي بطبيعتهِ احكاماً للملك والملاك وعلاقة الناس بعضهم ببعضٍ . اذ لا بدَّ من طرق لتعيين من يسيطر على ادوات الانتاج ومصادر الثروة الطبيعية ، ومن يصدر الاوامر للقيام بالاعمال المختلفة التي يقتضيها الانتاج في مراتبهِ المتباينة . كذلك يقوم على اساسٍ من استغلال مصادر الثروة الطبيعية ، صرحٌ من العلاقات الاقتصادية . على ان ماركس يرى ، ان صرح العلاقات الاقتصادية يسيطر على بناء الجماعة السياسي ويتحكم فيهِ . لان الدولة في عرفهِ ، هي المنظم للعلاقات السياسية ، وان باعث وجودها الاوحد ، هو الاحتفاظ بالاحوال المواتية للانتاج واسباب المعيشة

***

وقد وصف ماركس في بيانهِ الشيوعي « Communist Manifesto » المراحل المتعاقبة في تنظيم اوربا السياسي ووافق بينها وبين المراتب المتعاقبة في تنظيمها الاقتصادي ، وهذه من ناحيتها ، تحوّلت بحسب تحوُّل سيطرة الانسان على مصادر الثروة الطبيعية واسباب الانتاج. فالفدنية (الاقطاع Feudalism) ونظام العلاقات الشخصية القائم على علاقة كل فرد او طبقة بالارض ، هي مرتبة في التنظيم السياسي توافق مرتبة في النظام الاقتصادي قائمة على الزراعة في تطوُّر قوى الانتاج . اما « الرأسمالية الحديثة » وما تقوم عليهِ من حرية التعاقد ، والالوف الذين يثمّرون أموالهم في الشركات الكبيرة ، والوف الالوف من العمال ، واوضاعها البرلمانية ، وديمقراطيتها الظاهرة ، فكأنما هي مرآة تعكس لنا النظام الاقتصادي الجديد وهو نظام الانتاج الآلي القائم على توزيع العمل وتعاون العمّال وارتقاء الوسائل العلمية الصناعية

ويذهب ماركس الى ان هذه المراتب في نشوء قوى الانتاج واحكام الملك وصروح الانظمة السياسية تسفر عن نشوء طبقات اقتصادية مميزة للنظام الذي تنشأ فيهِ . وكل نظام

انتاجي في تاريخ الارض فرّق الناس طبقات دفعت الى التنازع والتناحر فيما بينها بمنطق الارتقاء الانتاجي نفسهِ . فالفدنية تنشئ ضرباً معيناً من العلاقة بين الطبقات كطبقة الزرّاع واصحاب الارض من الامراء . اما الرأسمالية فتطلق العامل من عبوديتهِ للارض واصحابها وتمنحهُ حرية التعاقد، ولكنها حرية وهمية ، لان المتمولين يحتكرون السلطة في ظل النظام ، والتعاقد الحرّ معهم ليس في الواقع الاّ تعاقداً مكبّلاً بالاغلال

واذن يرى ماركس، ان نشوءَ الرأسمالية في العهد الحديث يحمل طبقة المتمولين على تنظيم العمال في طوائف كبيرة ومعامل متسعة وجمعهم في مدن ، رغبة منهم في جني اعظم ما يمكن جنيهُ من ثمار الصناعة الآلية . ولكنها — أي طبقةالمتمولين — لا تستطيع انتفعل ما تفعل وان تمنع في الوقت نفسهِ تنظيم صفوف العمال فيما بينهم . واتحادات العمال تقوى على مرّ الزمان وتتفاهم حتى تصبح قادرة ان تساوم اصحاب المال على اجور العمّال . ومن ثمَّ يبدأ العمّال يدركون مدى قوتهم المشتركة والصفة الاشتراكية التي يتصف بها العمل الذي يقومون بهِ . وهذا يولد في اذهانهم ونفوسهم روح المقاومة لاستقلالهم وعقيدة راسخة بان الامة يجب ان تملك الصناعة لان الصناعة اشتراكية في طبيعتها واساسها . كذلك يعتنقون المذهب الاشتراكي ويصبحون من اشد مؤيديه تأييداً عمليًّا . وتنظيم صفوفهم اذا بلغ مدىً بعيداً يمكنهم من تسلّم مقاليدالامور وتحويل ادوات الانتاج لفائدة المجتمع ،مستغنين عن الملكية الخاصة ورؤوس الاموال التي يملكها افراد او جماعات من الافراد . وكان ماركس يتوقع ان يتمّ فوزطبقةالعمال اذ تتخذ غلبتهم شكلاً سياسيًّا . اذ ذاك يكون فوزاً عاماً لطبقة العمال لا لفريق منها دون آخر . ذلك انهُ كان يعتقد ان الصفة الاشتراكية التي تتصف بها الصناعة تربط بين طبقة العمال ، وان فوزها على الرأسمالية رهين بأثرها السياسي كحزب منظم يمثل طبقة العمال باسرها

الاشتراكية والدكتاتورية

ولكن فوز طبقة العمال في نظر ماركس يختلف اختلافاً اساسيًّا في طبيعتهِ وأثره عن اي تحول سابق في علاقات الطبقات بعضها ببعض . ذلك انهُ لما اصبحت طبقة المتمولين على جانب كاف من القوة للتغلب على النظام الفدني وانشاء الدولة البورجوازية الحديثة بانظمتها البرلمانية ، ظل تحتها في البناء الاجتماعي طبقة كبيرة — هي كثرة الامة الساحقة — تستغلها لمآربها الخاصة ، وما لبثت حتى اندمجت في طبقة المتمولين طبقة ملاّك الارض ، واصبحت الاملاك صنفاً من رأس المال لايختلف في طبيعتهِ والدخل الذي يجنى منهُ عن صنوف الرأسمال الاخرى . فكأن المتمول بدد اولاً سلطة الاقطاعيين ثم جعل مصالحهم مصالحهُ الخاصة

ولكن اذا فازت طبقة العمال على طبقة المتمولين—كما فاز المتمولون على امراء الفَدَنية— لا يبقى تحت طبقة العمال طبقة اخرى من الامة تستغَلُّ في سبيل الطبقة الجديدة التي فازت بالسلطان . لذلك يكون الاجتماع الذي ينشأ على أثر فوز العمال اجتماعاً لا طبقات فيه، فلا يكون قائماً حينئذ على استغلال طبقة لأخرى ، بل على الاشتراك في نتيجة الجهد الاقتصادي العام

***

على ان هذا الانتقال الى اجتماع لا طبقات فيهِ ، لا يمكن ان يتمَّ فجأة . ذلك ان الانتقال من الفَدَنية الى الرأسمالية اقتضى اولاً القضاء التام على ارباب الفدنية ثم تحويل مصالحهم وجعلها مصالح الرأسماليين . كذلك طبقة العمال ، لا تستطيع ان تزيل الفوارق بين الطبقات قبل ان تقضي على الرأسماليين القضاء الاخير . ففي فترة الانتقال هذه تتسلم طبقة العمال مقاليد الامور وتحكم كطبقة ، من دون ان تشرك معها في الحكم ارباب النظام الزائل . هذه هي الفترة التي تعرف بفترة « دكتاتورية العمال « Dictatorship of the Proletariat وهي مرحلة لا ندحة عنها في الانتقال من الرأسمالية الى النظام الاشتراكي التام

***

ويرى بعض اتباع ماركس ، وبوجه خاص حزب الدمقراطيين الاشتراكيين في المانيا ان فترة الانتقال الموسومة بسمة دكتاتورية العمال ليست من صميم مذهب ماركس . لان فلسفتهم الاجتماعية قائمة على عقيدتهم بان الدولة الاشتراكية تنشأ نشوءًا متدرجاً من النظام الرأسمالي عن طريق التطوُّر البرلماني . ولكن ليس ثمة ريب على الاطلاق في ان ماركس كان يرى ضرورة فترة الانتقال ودكتاتورية العمال في خلالها

وقد جعل الشيوعيون الروس فكرة الدكتاتورية ركناً من اركان الخطة التي جروا عليها. ففي رأيهم لايمكن ان تصبح روسيا امة لاطبقات فيها ، قبل ان يزول كل خطر من ثورة رجعية على النظام الشيوعي يقوم به فلول الرأسماليين واتباعهم ، وقبل ان يقضى القضاء الاخير على العناصر غير الاشتراكية في الامة الروسية . لذلك عمد الروس الى ابعاد افراد الطبقات الرأسمالية والحاكمة وتجريد الباقين منهم من الحقوق السياسية واضطهاد الملاَّك والسعي سعياً حثيثاً الى تحويل الزراعة في روسيا واقامتها على اساس اشتراكي . ولكن الروسيين لا يفكرون في جعل الدكتاتورية نظاماً باقياً للحكم في روسيا ، بمعنى تجريد بعض ابناء الامة الروسية من حقوقهم السياسية . على انهُ لا بد من ابقاء الدكتاتورية حتى يتم الانتقال . عندئذ يفتتح عهد الدولة الاشتراكية في اجتماعٍ لا طبقات فيه

غرائب المناعة

اكتشاف خطير في العلاقة بين المناعة ضد الامراض والافعال العكسية المحولة

تشير المباحث الحديثة التي يقوم بها الدكتور متالنيكوف Metalnikov في معهد باستور الى امكان الحصول على مناعة وقتيةٍ ضد مرض من الامراض بمجرد امر الآمر. ولا يبعد ان يصبح في حيز التنفيذ العملي دعوة فرقة من الجنود الى الانتظام ثم ينفخ في البوق امامهم لحن معيّن فيكتسبون مناعة ضد الحمى التيفودية او الكوليرا!

ان مسألة المناعة من اخطر المسائل في علوم الحياة والطب. ومناعة الجسم، أي مقاومته لمكروبات الامراض التي تغزوه، صفة من الصفات الاساسية في الاجسام الحية. فثمة اولاً المناعة الموروثة التي تولد في الجسم ساعة يولد. فالانسان منيع على الطاعون البقري وكوليرا الدجاج اي لا يمكن أن يصاب بهما. والاساريع منيعة على الدفتيريا والكزاز ولو حقنتها بجرعات كبيرة من ميكروباتهما، فان الكريات البيض في دمها لا تلبث بضعة ايام حتى تلتهم هذه الميكروبات كلها

ثم هنالك مناعة مكتسبة. فالاصابة بالحصبة مرةً تمنحنا مناعة ضدّ الحصبة مدى الحياة على الغالب. كذلك الاصابة بالجدري. ومنذ ان قام العلامة باستور بمباحثه الخالدة تعلم الاطباء كيف يمنحون الجسم مناعة مكتسبة ضدّ امراض معينة. فالحقن بجرعة من مكروبات مرض معين، بعد معالجتها بالاحماء او غير ذلك من طرق المعالجة لكسر شوكتها، يهيء الجسم لهجوم الميكروبات الفائعة عليه، فيعرف كيف يتّقيها. والحقن بالميكروبات الضعيفة، ينشيء في الدم مواد كيمائية، تعرف بالاجسام المضادة، وهذه اذا جاءت الميكروبات الفائعة، قتلتها او جعلتها طعمة سائغة لكريات الدم البيض

فالمناعة، موروثة او مكتسبة هي احدى غرائز البقاء او المحافظة على الكيان. ودرس هذه الظاهرة في النباتات والحيوانات يجلو لنا فرقاً من اخطر الفروق بين الاجسام الحية وغير الحية. على ان غرائز البقاء تقتضي جهازاً عصبيّاً. فالدفاع، سواء كان بالقتال او بالتماوت، يسيطر عليه الجهاز العصبي. وافعال الدفاع، في الغالب افعال عكسية عصبية، لا سيطرة شعورية للدماغ عليها

من هنا بدأ الدكتور متالنيكوف بحثه فسأل نفسه: اليست المناعة ضدّ المرض، وهي من اقدم واخطر وسائل الدفاع عن النفس، تحت سيطرة الدماغ كذلك؟

جرّب الدكتور متالنيكوف تجاربه الاولى بالاساريع (Caterpillars). ولهذه الحيوانات ميزتان خاصتان تجعلانها صالحة لمثل هذه التجارب. أولاً يسهل توليد المناعة ضد الامراض فيها.

فاذا حقنت هذه الاساريع بجرعات كبيرة من مكروبات الكوليرا قضت عليها ، ولكن تتولد فيها مناعة ضد الكوليرا في خلال اربع وعشرين ساعة اذا حقنت حقناً متتالية بجرعات صغيرة . والميزة الثانية ان دماغها ليس مركزاً في مكان واحد من جسمها كدماغ الانسان . فهو مقسم اقساماً عديدة في كل مقطع منها قسم قريب من الجلد ، فكأن هذه الاقسام عقدٌ من الحبَّات ، تتصل كل حبةٍ بالاعصاب التي تمتدُّ في الجسم . ويسهل على الباحث ان يتلف احد هذه الاقسام بغرزة ابرةٍ من دون ان يميت الحشرة نفسها

فاسفرت التجارب التي جرَّبها متالنيكوف عن ان مقدرة الحشرة على توليد المناعة في جسمها لا يتأثر قط اذا اتلفت كل اقسام الدماغ في جسمها ، الا القسم الخامس من الرأس . ذلك انهُ اذا اتلفت خلايا الدماغ في هذا المركز اصبحت الحشرة لا تستطيع ان تولد المناعة في جسمها ضدّ مكروبات الكوليرا . ففي هذا برهان قاطع على ان للجهاز العصبي يداً في دفاع الحيوان عن نفسهِ ضدّ مكروبات المرض

فلما ثبت لهُ هذا في اجسام الاساريع ، اراد ان يعرف موقف الحيوانات الفقرية — ومنها الانسان — من هذه الحقيقة . ولكن التجربة في الحيوانات الفقرية اكثر تعقداً منها في الحشرات . وصحيح ان تجارب كثيرة كانت قد جربت في الكلاب باتلاف بعض مراكز الدماغ ومراقبة النتائج في تصرُّف الكلب فعرفت وظائف مراكز الدماغ المختلفة بوجهٍ عام . ولكن الوصول الى تعيين الخلايا الدماغية التي تسيطر على المناعة بهذه الطريقة ، عملٌ معقد مملٌّ . لذلك اختار الدكتور متالنيكوف خطة اخرى للبحث

لقد بينا ان اعمال الدفاع في سبيل البقاء ، في الجسم الحيّ هي في الغالب افعال عصبية عكسية (reflex action) اي انها تتم من دون سيطرة الدماغ الشعورية . فالايَّل يفرُّ مبادرة اذ يرى شيئاً متحركاً . والرجل الذي يوشك ان يغرق يتعلق باصغر الاجسام الطافية . ومنهُ المثل العربي (الغريق يتعلق بحبال الهواء) . وقد عني الاستاذ باڤلوف الروسي في اواخر القرن الماضي ومطلع هذا القرن بدرس هذه الناحية من الافعال العصبية فوسَّع نطاق معرفتنا بها . وقد اثبت باڤلوف انهُ اذا كان الباعث على فعل عصبي عكسي يصحبهُ باعث آخر ، امكن بعد ترديد الباعثيْن مراراً ، الاستغناء عن الباعث الاول والاكتفاء بالباعث الثاني في استثارة الفعل العصبي نفسهِ . فاذا قدّمت لكلب طعاماً كان تقديم الطعام باعثاً على سيل لعابهِ . وسيل اللعاب في الكلب يتم بفعل عصبيّ عكسي . فاذا اقترن تقديم الطعام بقرع جرس ، عدة مرات ، ثم استغني عن تقديم الطعام واكتفي بقرع الجرس ، كان قرعهُ باعثاً على سيل اللعاب ، اي على احداث الفعل العصبي العكسي ، فهو فعل عكسيّ عصبي محوّل . وقد دعي بالانكليزية Conditioned reflex وكتب عالِم في مجلة نايتشر ان هذا الاسم غير موفق ، لذلك نرى ان ترجمتهُ الحرفية — اي بالفعل المعكوس الشرطي او المشروط غيرُ موفق

كذلك ، والافضل ترجمة الاصطلاح بمعناه — وهو التحوُّل . والتحول هنا هو سيل اللعاب لقرع الجرس بدلاً من سيله لرؤية الطعام

وقد اختار الدكتور متالنيكوف اسلوب «الافعال العصبية المحوَّلة» لامتحان فكرة المناعة التي اثبتها في تجاربه بالاساريع، حتى يعلم هل لدماغ الحيوانات الفقرية اثر في توليد مناعة الجسم او لا

اخذ طائفة من الارانب وخنازير الهند ، وحقنها بمكروبات مرضية اضعف فعلها بالاحماء وفي الوقت نفسهِ كان يدغدغ الحيوانات المحقونة ويخمش آذانها أو ينفخ ببوق معين على مقربة منها . فتولدت المناعة في اجسامها بالطريقة العادية . ثم لم تلبث هذه المناعة ان زالت كما تزول كل مناعة مكتسبة بعد زمن قصر او طال . وزوال المناعة المكتسبة يعني ان الارانب وخنازير الهند اصبحت غير قادرة على مقاومة مكروبات المرض الفائعة اذا دخلت جسمها . ولكن بدلاً من ادخال مكروبات المرض الفائعة في جسمها لمعرفة مقدرتها على مقاومة المرض وهل هي لا تزال عندها مناعة او لا ، توجد طرق اثبتها العلم تعرف بها حالة دم الحيوان وهل زالت مناعتهُ المكتسبة او لم تزل. ذلك انهُ اذا اكتسب الدم مناعة حدث فيه تحوُّلان: اولاً يزيد عدد كرياتهِ البيض. ثانياً تتكون اجسام مضادة . فالكريات البيض يمكن احصاؤها. والاجسام المضادة يمكن الكشف عنها بكواشف خاصة ، مثل وضع قطرات الدم في انبوب واضافة ميكروبات اليها فاذا فتك بالمكروبات ثبت ان في الدم اجساماً مضادة

واذن بعد انقضاء زمن، تزول المناعة المكتسبة من دم الارانب وخنازير الهند . وتصبح حالة دمها عادية . فليس فيهِ اجسام مضادة، وليس فيه زيادة في كرياته البيض .كذلك الانسان. فانهُ اذا حقن ضد الحمى التيفودية او الكوليرا ، تزول مناعتهُ المكتسبة بعد سنة او سنتين فيجب ان يحقن نفسهُ من جديد اذا شاء ان يبقى منيعاً عليهما

وهنا مكان الاكتشاف الجديد . ذلك ان الدكتور متالنيكوف وجد انهُ بدلاً من ان يعيد حقن خنازير الهند بالمكروبات ليعيد الى دمها المناعة المكتسبة التي زالت بعد زمن ، يمكن من ان يجدد هذه المناعة بمجرد دغدغتها او خمش آذانها او النفخ ببوق على مقربة منها، اي بتكرار الفعل الذي صحب الحقن من قبل — وهو من قبيل الفعل العصبي المحوَّل . وعلى اثر ذلك ظهرت في الدم الاجسام المضادة . ويقول الدكتور منرو فوكس — استاذ الحيوان بجامعة برمنغهام ومحرّر مجلة «الخلاصات البيولوجية» الذي لخصنا عنهُ ما تقدم — ان هذه النتائج ايَّدها باحثون آخرون قاموا بتجاربهم على حدة وهي تثبت اولاً ان للجهاز العصبي يداً في المناعة، وان هذه الحقيقة قد تكون ذات خطر في شؤون الناس الصحية . وليس في ذلك ما يثير العجب . فالاوذيما (انتفاخ في اليدين) والحروق والخراجات شفيت بالاستهواء . والقيء والنوم والتغيُّر في ضغط الدم يمكن احداثها بكلمة او بفعل عكسي محول

الله والشاعر

للشاعر علي محمود طه

لا تفزعي يا أرضُ : لا تفرقي من شبحٍ تحت الدجى عابرِ
ما هوَ إلاّ آدميٌّ شقي سمّوهُ بين الناسِ بالشّاعرِ

حنانَكِ الآنَ فلا تُنكري سبيلَهُ في ليلكِ العابسِ
ولا تُضلّيهِ ولا تَنفِري من ذلك المستصرخِ البائسِ

مُدّي لعينيهِ الرِّحابَ الفِساحْ ورقرقي الأضواءَ في جفنهِ
وأمسكي يا أرضُ عصفَ الرياحْ والرّاعدَ المنصبَّ في أذنهِ

أتسمعينَ الآنَ في صوتهِ تَهدُّجَ الأنّاتِ من قلبهِ ؟
وتقرأينَ الآنَ في صمتهِ تمرُّدَ الرُّوحِ على ربهِ ؟

في وقفةِ الذّاهلِ ألقى عصاهْ مُولّيَ الجبهةِ شطرَ الفضاءْ
كأنما يَرْقى الدجى ناظراه ليستَشفّا ما وراءَ السماءْ

يَسقُطُ ضوءُ البرقِ في لمحهِ على جبينٍ باردٍ شاحبِ
ويستثيرُ البردُ في لفحهِ ناراً تلظّى من فمٍ ناضبِ

أنتِ لهُ يا أرضُ أمٌّ رؤومْ فأشهدي الكونَ على شِقوتهْ
ورددي شكواهُ بين النجومْ فهوَ ابنكِ الانسانُ في حيرتهْ !

ما هوَ الاّ صوتكِ المرسلُ وروحكِ المستعبدُ المرهقُ
قد آده الدهرُ بما يحملُ فجاءَ عن آلامهِ ينطقُ ؟

طغى الأسى الدّاوي على صوتهِ يا للصدى من قلبهِ النّاطقِ
مضى يبثُّ الدهرَ في خفتهِ شكايةَ الخلقِ إلى الخالقِ

لا تَعْذُني يا ربِّ في محنتي ما أنا إلاّ آدميٌّ شقي
طردْتني بالأمسِ من جنتي فاغفرْ لهذا الغاضبِ المحنقِ ؟

حنانكَ اللهمَّ لا تغضبِ أنتَ الرفيقُ القلبِ جمُّ الحنانْ
ان كنتُ في شكوايَ بالمذنبِ فمنكَ يا ربِّ أخذتُ الأمانْ

ما أنا بالزاري ولا الحاقدِ لكنني الشاكي شقاءَ البشرْ
أفنيتُ عمري في الأسى الخالدِ فجئتُ أستوحيكَ لطفَ القدرْ

تمردتْ روحي على هيكلي وهيكلُ الجسمِ كما تعلمُ
ذاك الضعيفُ الرأيِ لم يفعلِ إلاّ بما يوحي اليهِ الدمُ !

يَعْرُقُ حدُّ السيفِ من لحمهِ ويحطمُ الصفوانُ بنيانَهُ
وينخرُ الجرثومُ في عظمهِ ومنهُ يُنمي القبرُ ديدانَهُ !

ما هو إلاّ كومةٌ من هباءْ تمحقهُ اللمسةُ من غضبتكْ
فكيف يثني الروحَ عما تشاءْ ؟ وكيف يقوى؟ وهي من قدرتكْ !

روحكَ في روحي تبثُّ الحياهْ نزلتُ دنيايَ على نورها
فإنْ جفاها ذاتَ يومٍ سناهْ لاذتْ بليلِ الموتِ في قبرها !

ومثلما قدَّرْتَ صوَّرْتَها فروحكَ الصوتُ وروحي الصدى
طبيعةٌ في الخلقِ ركَّبتَها وما أرى لي في بناها يدا !

لكنما روحُكَ من جوهرٍ صافٍ وروحي ما صفتْ جوهرا
أولاَ ؟ فما للخيرِ لمْ يُثمرِ فيها ؟ وما للشرِّ قد أثمرا !!

تقولُ روحي إنّها مُلهَمَهْ فهيَ لما قدَّرْتَهُ مُتّبعَهْ
مقودةٌ في سيرها مُرْغَمَهْ وإنْ تراءت حُرَّةً طيّعَهْ !

قيّدتَها بالجسمِ في عالمٍ تضجُّ بالشهوة فيهِ الجسومْ
كلاهما في حبّهِ الآثمِ لم يصحُ من سكراه وهو الملومْ !

تُبدي بهِ الأجسامُ سحرَ الحياهْ في معرضٍ يجلو غريبَ الفنونْ
نواعسَ الأجفانِ حُوَّ الشفاهْ شديدةَ الإغراءِ شتى الفتونْ !

ولم أكنْ أولَ مغرًى بما أغرتْ بهِ حواءُ أو آدما
إرثُ غشّى في دمي منهما ميراثهُ ينتظمُ العالما !!

فأنتَ قدَّرتَ عليَّ الشقاءْ من حيثُ قدَّرتَ عليَّ النعيمْ
وما أرى !! هل في غدٍ لي ثواءْ بالخلدِ ؟ أمْ مثوايَ نار الجحيمْ ؟

ما اثِمَتْ روحي ولا أجرمتْ ولا طغى جسمي ولا استهترا
عناصرُ الروح بما أُلهِمَتْ أوحتْ الى الجسمِ فما قصَّرا

كلاهما لم يَعْدُ تَصويرَهُ ما كان إلاّ مثلما كُوِّنا
كم حاولا بالأمسِ تغييرَهُ فاستكبرَ الطبعُ وما أذعنا

أمنذري أنت بيوم الحسابْ ؟ ولأيّ أنتَ على ما جرى ؟
رُحماكَ امايُرضيكَ هذاالعذاب لطيّعٍ لم يَعْصِ ما قُدِّرا !!

ما كنتُ إلاّ مثلما رُكِّبَتْ غرائزي: ما شئْتَ لا ما أشاءْ
فلتجزِها اليوم بما قدَّمتْ وإن تكنْ مما جَنتْهُ براءْ !

وفيمَ تُجزى وهيَ لم تأثمِ ؟ ألستَ أنتَ الصائغَ الطابعا ؟
ألمْ تَسِمْها قبْلُ بالميسمِ ؟ ألمْ تصُغْ قالبَها الرائعا ؟؟

ألم تصُغْها عنصراً عنصرا من أين ؟ما علمي ؟ وأنت العليمْ !
جَبَلْتَها يومَ جبلتَ الثرى من عالم الذرِّ ودنيا السَّديمْ

الخيرُ والشرُّ بها توأمانْ والحبُّ والشهوةُ في طبعها
حواءُ والشيطانُ لا يبرحانْ يُساقِطان السِّحر في سمعها !

تَشكّكتْ نفسي بما تنتهي إليهِ دنياها وماذا يكونْ !
مضتْ فما آبتْ بما تشتهي من حيرةِ الفكر وهجسِ الظنونْ !

رأتْ أسارى في قيودٍ ثقالْ بين يدَيْ ذي مِرّةٍ يبْسِمونْ
يسوقهم في فلواتِ الليالْ في بطشِ جَبَّارين لا يرحمونْ

إنْ ضجَّ في الأغلالِ منهم طليحْ أخرسهُ السوطُ الذي يُرهِفُ
وإنْ هوى للأرضِ منهمْ جريحْ أنهضهُ في قيدهِ يَرْسُفُ

يا ويحهم ما عرفوا موئلا من قسوةِ الدهر وجورِ القضاءْ
يا أرضُ ما كنتِ لنا منزلا ما أنتِ إلا موبقُ الأبرياءْ !!

أفي سبيلِ العيشِ هذا الصراعْ ؟ أم في سبيل الخلدِ والآخرهْ ؟
وهؤلاءِ البائسونَ الجياعْ تطحنهم تلك الرَّحى الدائرهْ ؟؟

ما ذنبُ هذا العالمِ الثائرِ ؟ إنْ حاولَ الإفلاتَ من آسره ؟
ما كانَ في ميلادهِ الغابرِ أسعدَ حالاً منهُ في حاضره !!

ما كانَ لوْ لمْ تنتزْ آلامُهُ بالماجنِ الرُّوحِ ولا الهائمِ
ولو جَرَتْ بالصفوِ أيامهُ ما كانَ بالزَّاري ولا الناقمِ

رأى بعينيهِ المصيرَ الرهيبْ وكيف غالَ الناسَ من قَبْلهِ
وكلَّ يومٍ للمنايا عصيبْ يسوقُهمْ للموتِ من حولهِ !

فحقَّرَ الدُّنيا وأزرى بها وقالَ : مالي انكرُ الواقعا ؟
فَلْتَسْعَدِ النفسُ بألحابها من قَبْلِ أن تلقى الغدَ الرائعا !

أيصبحُ الانسانُ هذا الرميمْ ؟ والجيفةَ الملقاةَ نهبَ الترابْ ؟
ايستحيلُ الكونُ هذا الهشيمْ والظلمةَ الجاثمُ فيها الخرابْ ؟

لمنْ إذاً تُبدعُ تلك العقولْ ؟ أفي الرَّدى تدرك ما فاتها ؟؟
أم في غدٍ تثوى بتلك الطلولْ ويسحقُ الدهرُ يواقيتَها ؟؟

وآسفا للعالَمِ البائدِ ليس له مما يَرى مهربُ
على رنينِ المنْجَلِ الحاصدِ مضى يُغنّي..وهوَ لا يطربُ..

فَدَعْهُ ينسى بعضَ ماحُمّلا من نكدِ الدُّنيا وضنكِ الحياهْ
وَأَوْلهِ العطفَ الذي أمّلا فانهُ أولى بعطفِ الالهِ !

ما هيَ إلاّ لحظاتٌ قصارْ تَمُرُّ مِثْلَ الومض في عينهِ
فان مضى الليلُ وجاءَ النهارْ عاودَهُ الخالدُ من حزنهِ !

وما أتى الغبيّ ليعصى الالهْ يوماً ، ولا كانَ بهِ مُغرما
لكنْ لينسى شقوات الحياهْ وسرَّها المستغلقَ المبهما !

يا للشقيِّ القلبِ كم سامهُ توهّمُ النعمةِ ما لا يُطيقْ
يُريدُ أنْ يُقنعَ اوهامهُ بأنّهُ ذاكَ الخليُّ الطليقْ

هأنذا ارفعُ آلامهُ إلى سماءِ المنقذِ الاعظمِ
أنا الذي تُرسلُ أنغامَه قيثارةُ القلبِ وناي الفمِ

من عبراتي صُغتُ هذا المقالْ ومن لهيب الروح هذا القلمْ
ملأتُ منهُ صفحاتِ الليالْ فَضُمّنتْ كلَّ معاني الالمْ

انا الذي قدَّستَ احزانَهُ الشَّاعرُ الباكي شقاءَ البشرْ
فجّرْتَ بالرحمةِ الحانَهُ فاملأْ بها يا ربّ قلبَ القدرْ !

ما الشاعرُ الفنّانُ في كونهِ الاّ يدَ الرحمةِ من ربّهِ
مُعَزّيَ العالم في حزنهِ وحاملَ الآلامِ عن قلبهِ

عزاؤهُ شعرٌ بهِ أهزجُ في نَغمٍ مستعذبٍ ساحرِ
ما يحزن العالم او يبهجُ الاّ على قيثارةِ الشّاعرِ

يا ربِّ ما اشقيتني في الوجودْ الاّ بقلبي : ليتهُ لم يكنْ
في المثلِ الأعلى وحبِّ الخلود حمَّلتهُ العبءَ الذي لم يهنْ

خلقتهُ قلباً رقيق الشغافْ يهيمُ بالنورِ ويهوى الجمالْ
حلتْ له النجوى ولذّ الطواف بعالمِ الحسنِ ووادي الخيالْ

بعثتهُ طيراً خفوقَ الجناحْ على جنانٍ ذاتِ ظلٍّ وماءْ
أطلقتهُ فيها قبيلَ الصباحْ وقلتَ: غنِّ الأرضَ لحنَ السماءْ

فهامَ في آفاقها الواسعهْ   النُّورُ يهفو حولَه والنَّدى
مُصفقاً للضحوةِ الساطعهْ   ومُنشداً ما شاءَ أنْ يُنشدا

إنْ جاءَ صيفٌ أو تجلَّى ربيعْ   حيَّاهُ منهُ عبقريُّ الغناءْ
وكم خريفٍ في نشيدٍ بديعْ   تظلُّ ترويه ليالي الشتاءْ

قيثارةٌ تصدرُ في فنها   عن عالم السحر ودنيا الخفاءْ
على الصَّدى الحائرِ من لحنها   يستيقظُ الفجرُ ويغفو المساءْ

مشَتْ على الأمواج أنغامُها   والأرضُ قيدَ النشوة المسكره
كأنَّما ترقصُ أحلامُها   في ليلةٍ شرقيةٍ مُقمره !

من قلبهِ أسلَسَتْ أوتارَها   فقلبُهُ يخفقُ في كفِّهِ
يشدو فتُملي النفسُ أسرارَها   عليهِ فهيَ اللحنُ من عزفهِ

ذاتَ صباحٍ طار لا يُمهِلُ   والأرضُ سكرى من عبيرِ الزهورْ
على حصاها رنَّمَ الجدولُ   وفي دواليها تُغنِّي الطيورْ

ما كان يدري قبلَ ان ينظرا   ما خبَّأتْهُ النظرةُ العاجله
ما أبدعَ الحلمَ الذي صوَّرا   لوْ لمْ تَشُبْهُ اليقظةُ القاتله !

مرَّ بنهرٍ دافقٍ سلسبيلْ   تهفو القماري حوله شاديه
في ضفتيهِ باسقاتُ النخيلْ   ترعى الشياهُ تحتها ثاغيه

فهاجت النظرةُ مما رأى   في قلبِه السحر وفي عينهِ
الكونُ يبدو وادعاً هانئاً   كأنهُ الفردوس في أمنهِ

فظلَّ في التفكير مستغرقا   من فتنة الدنيا ومن سحرها
ما كان الاّ ريثما حدَّقا   حتى جلَتْ دنياهُ عن سرِّها

رأى بعينيهِ الذي لم يَرَهْ   الذئبَ والشاةَ وحربَ البقاء
ما عرَفَ القتلَ ولا ابصرهْ   ولا رأى من قبلُ لونَ الدماء!

ما هي إلاَّ صرخاتُ الفزعْ وصيحةُ المقتولِ والقاتلِ
قد انقضى الامرُ كأنْ لمْ يقعْ وضاع صوتُ الحقّ في الباطلِ

وبعدَ ساعاتٍ يُولّي النهارْ ويقبلُ الليلُ وما يعلمُ !!
سيلبثُ السرُّ وراءَ الستارْ ويختفي الشلوُ ويُمحى الدمُ !!

فرُوّعَ الشاعرُ مما رآهُ وهامَ في الارض على وجههِ
أين ترى يا ارضُ يُلقي عصاهُ ؟ وأيَّ وادٍ ضلَّ في تيهه ؟

حتى اذا شارفَ ظلَّ الشجرْ في روضةٍ غناءَ ريَّا الأديمْ
قد ضحِكتْ للنور فيها الزَهَرْ وصفّقت اوراقُها للنسيمْ

إختارَ في الظلّ له مقعدا في ربوةٍ فاتنةٍ ساحره
أذابَ فيها الشفقُ العسجدا ونامتها النفحةُ العاطره

بينا يجُيلُ العينَ في سحرها إذْ أبصر الصَّلَّ بها مُطْرقا
قد انتحى الاطيارَ في وكرها فسامَها من نابهِ موبقا

هل سمعتْ أذناكَ قصفَ الرعودْ في صخبِ الريح ورجف البحار؟
هل أبصرتْ عيناك ركضَ الجنودْ في فزع الموت وهولِ الفرار؟

إن كنتَ لم تبصرْ ولم تسمعِ فقِفْ الى ميدانها الاعظم
ما بين ميلادكِ والمصرعِ ما بين نابيْ ذلك الأرقمِ !!

جريمةُ الغدرِ وسفكِ الدم جريمةٌ لم يخلُ منها مكانْ
يا لجةً كلٌّ إليها ظمي قد جاز طوفانُك شمَّ القنانْ !

من علّم الوحشَ الاذى والقتال؟ وبثَّ فيهِ الشرَّ أو ألهمهْ ؟
من علّم الثعبانَ هذا الختال؟ والحيوانَ الغدرَ من علّمه ؟

يا أرضُ هذا الوحيُ من عالمكْ الطينُ والماءُ به يشهدانْ
ظلمْتِ إنسانكِ ما أظلمكْ إذ سمْتِهِ بالامسِ هجرَ الجنانْ !

يا ضلّةَ الشاعر أين النجاهْ وأين أينَ المنزلُ الآمنُ
أكلّ وادٍ زلَّته خطاهْ طالعةُ منهُ الرَّدى الكامن ؟

حتى اذا ضاقتْ عليهِ السُّبُلْ وعزَّ في الارض عليهِ المقامْ
أوى الى كهفٍ بسفح الجبلْ عساهُ يقضي ليله في سلامْ

ما كان إلاّ حُلُماً كاذبا أفاقَ منهُ مستطير الجنانْ
البحرُ يرغي تحتهُ صاخبا والشهبُ نارٌ والدياجى دخانْ

الارضُ من أقطارها راجفه كأنما طاف عليها المنونْ
تضجُّ في أرجائها العاصفه كأنما الناسُ بها يحشرونْ !

ثم استقرَّ العالمُ الثائرُ وأقبلَ النورُ وولّى الظلامْ
واعجباً مما يرى الشاعرُ كأنما أمسى بوادي الحِمامْ !

بَدتْ لهُ الارضُ كقبرٍ عفا إلاّ بقايا رِمَّةٍ أو حجرْ
قد أصبح القاعُ بها صفصفا فما عليها من حياةٍ أثرْ

مَرَرْتُ بالبُلدانِ مُستعبرا أبكي الحضاراتِ وأرثي الفنونْ
أنقاضُها تملأُ وجهَ الثرى وكنّ بالامس مثارَ الفتون !

أتى على اليابسِ والاخضرِ الموجُ والنوءُ وسيلُ الحُمَمْ
يا رحمةَ اللهِ اهبطي وانظري ماحصَدَ الموتُ ودكَّ العدمْ ! !

أيستحقُّ الناسُ هذا العقابْ ؟ أم حانتْ الساعةُ من نقمتك ؟
ما احتملوا يارب هذا العذابْ الاّ رجاء الغوثِ من رحمتك ؟

أما ترى منفرجاتِ الشّفاهْ عن آخرِ الصيحات من رعبها ؟
ما زال فيها من معاني الحياهْ إيماءةُ الشكوى إلى ربها !

وهذه الأعينُ نهبَ العفاء في رقدةِ الموتِ كأنْ لم تنَمْ
محدّقاتٍ في نواحي السماء تُشهدها على الأسى والألم !

وهذه الايدي تحوطُ الصدورْ كأنها في موقفٍ للصلاهْ
لم تنسَ في نزع الحياة الغرورْ ضراعةً ترسمها للالهْ !

ما عرفتْ في صعقاتِ الردى إلاّك من غوثٍ ومن منجدِ
ولا سرى في الارض منها صدى إلاّ ودوّى باسمك الأمجدِ !

أعبرةً تذكرها كلَّ حينْ للعالم الذّاكرِ إمّا نسي ؟
أمْ ضرباتٍ قاسياتٍ تُلينْ بهنَّ قلبَ الفظِّ والأشرسِ ؟

أم موجةُ الطهر التي تَغسلُ ما آثمَ الكونِ وتمحو أذاهْ
يا ربِّ ضقنا بالذي نحملُ فحسبُنا آلامُنا في الحياهْ !!

أَلَمْ تُطهِّرْ ذلك العالما من كل عاصٍ أو غويٍّ جموحْ ؟
ما غادر الموجُ بهِ قائما يوم احتوى الاعلام طوفانُ نوحْ !

إذاً فما للناس ضلّوا الهدى ؟ وأخطأوا اليوم سبيلَ الرشادْ ؟
لعلَّ نوحاً أخطأ المقصدا فأغرقَ الخيرَ ونجّى الفسادْ !!

يا ليتهُ لما دعا بابنهِ وحالتْ الأمواجُ أنْ يُسمعا
لجَّ عليهِ القلبُ في حزنهِ فلم يَرَ الجوديَّ لمّا دعا !!

يا أرضُ ولّى عهدُ نوحٍ وزالْ فمن لكِ اليومَ بطوفانهِ
مسكينةٌ تطوينَ بحرَ الليالْ قد عزَّكِ المرسى بشطئانهِ !

إلامَ تطوينَ عُبابَ السنينْ شوقاً إلى فردوسكِ الضّائع ؟
غرّرتِ يا أرضُ بما تحلمينْ فاستيقظي من حلمكِ الخادع !!

وابقيْ كما أنتِ على موجهِ تُمزّقُ الانواءُ منكِ الشراعْ
يقذفكِ التيّار في لجهِ عشواءَ لا يهديكِ فيهِ شعاعْ !

سلي القداساتِ وأربابَها ضراعةً تُصغي اليها السماءْ
أو فاطرقي بالبثِّ أبوابَها لعلّها ترفعُ عنكِ الشقاءْ !

يا أيها الغادونَ والرائحونْ في شُعب الارضِ وليل الهمومْ
تمسون أشتاتاً كما تصبحونْ والشمس حيرى فوقكم والنجوم!

مدُّوا لها الايدي وولُّوا الجباه وأرسلوها صيحةً واحدهْ
قولوا لها : يا من شهدتِ الحياه من أينَ تلك النظرةُ الجامدهْ؟

من أَين تلك النظرةُ الهادئه؟ والقسماتُ المشرقاتُ الجبينْ؟
هل أنتِ من آلامنا هازئه؟ أم أنتِ يا أعينُ لا تُبصرينْ!؟

أم هكذا أُوحي اليكِ القضاءْ فما عرفتِ الحزنَ والأدمعا؟
يا أيُّها الناس اضرعوا للسماءْ قد آنَ أنْ تُصغى وانْ تَشْفَعا!

هاتوا الازاهير وهاتوا الغصون وكلَّ ما يحلو وما يجمل
قد آن أن تُفْضوا بما تشعرونْ فأَشعلوا النارَ بها أَشعلوا !!

أَوْ فاملأُوا من زهرها اليانع مجامرَ النار وأَلقوا البخورْ
وردّدوا في ذلّة الضارعِ انفاسكم نشوى بتلك العطورْ

أَحببْ بها من أنّةٍ عاطرهْ في مسمعِ الأملاك إذ تصعدُ
أَصداؤها الرفّافة الحائره في وجهها الآفاقُ لا توصدُ !!

يا أَرض ناديتُ فلم تسمعي أَنكرتِ صوتي وهو من قلبك
لا تَفرقي مني ولا تَفزعي من شاعرٍ شاكٍ الى ربّكِ

أَيَّتها المحزونةُ الباكيهْ لا تيأسي من رحمةِ المُنْقِذِ
لعلَّ من آلامكِ الطاغيهْ إذا دعوتِ الله من منفذِ !

فابتهلي لله واستغفري وكفّري عنكِ بنار الألمْ
وقدّمي التوبةَ واستمطري بين يَديْهِ عبراتِ الندمْ !!

في اي طريق تساق الحضـارة؟

الازمة الاقتصادية : بواعثها واحتمالاتها الاخيرة

لاسماعيل مظهر

تمهيد

لكل عصر من العصور، حتى العصور التي ساد فيها الرخاء المالي وتيسرت الارزاق، ازماته الروحية . غير ان للازمات الروحية مبتدءًا وخبراً كالجملة الصحيحة في تركيب الكلام. ولقد بدأت الازمات الروحية العنيفة تتكون في بداءة العصر الانتاجي، وظهرت في صور عديدة أهمها انقسام الجماعات الى شطرين كبيرين، العمال واصحاب الاموال، وكادت الآن تصل الى النهاية او بالاحرى كادت يكون لها خبراً — ينذر الاجتماع الانساني بانقلاب خطير في نظمه الاقتصادية والمدنية

وللازمات الاقتصادية ازمات روحية تصحبها . حتى ان من شأن الازمات الاقتصادية ان تحدث ازمة روحية لها مظهر خاص . غير ان العوامل الروحية في الازمة العالمية الحاضرة قد بلغت حدًّا لن يفلت معهُ النظام الحاضر من انقلاب خطير . وهذا امر ينبغي على كل باحث في الازمة الاقتصادية واحتمالاتها أن لا يخرجهُ من حساب التقدير النظري الذي يقدره للنتائج التي سوف تجر اليها الازمة الحاضرة

سوف ينتهي النظام الرأسمالي من حيث بدأ . بدأ بالانتاج الصناعي وسيحطمه الانتاج الصناعي . بدأ باختراع الآلات وسوف تقضي عليهِ الآلات . بدأ باستجماع رؤوس الاموال وسوف تقتله رؤوس الاموال. بدأ بالقضاء على الوحدات الصناعية الصغيرة التي كانت تنتج على قدر استهلاك الاسواق ان لم يكن اقل، وسينتهي بوحدات صناعية كبيرة، انقلبت بعد الحرب العالمية من المصنع الكبير الى اتحاد صناعي تختص بهِ كل امة من الامم . فان معاهدات السلم الحربي وضعت في الحقيقة قواعد الحرب الاقتصادية . فالحواجز الجمركية احدى نتائج تلك المعاهدات . وادمان التسليح نتيجة اخرى . اما كبرى النتائج فتنحصر في ان معاهدات السلم خَلَقَت ممالك جديدة هي عبارة عن وحدات سياسية مستقلة استقلالاً تامًّا، ولكنها لا تكوّن وحدات اقتصادية مستقلة . فبولونيا مثلاً وحدة سياسية كاملة الاستقلال، ولكنها لم تكوّن وحدة اقتصادية بعد . لان نظامها المالي كان متعلقاً بنظام ثلاث دول هي روسيا والمانيا والنمسا . فبدأت تسعى الى نيل هذا الاقتصاد المالي فاخذت تقيم الحواجز الجمركية وتشجع

الصناعات الوطنية الاهلية.فترتب على ذلك نتائج ثلاث . الاولى زيادة الانتاج في بولونيا. الثانية قلة الاستهلاك والصادر، لان غيرها حذى بالضرورة حذوها في الانتاج . الثالثة فقدان متاجر العالم سوقها في بولونيا للحواجز الجمركية التي رفعتها حولها .وكذلك الحال اذا نظرت في كل المالك الحديثة التي خلقتها معاهدات السلم . وهذا « الاحتكار » لا بد ان يقابل من بقية دولات العالم القديمة باحتكار مثله.وحتى نحن في مصر بدأنا نحتكر اسواقنا تحت ضغط السيل الجارف في اوربا . فكأن العالم كله يناصر الآن عوامل الازمة الاقتصادية ،ويقوي في النفوس بواعث الازمات الروحية . وكأن المدنية تعود الى الصورة القديمة التي نشأت منها الحضارة الحديثة . تعود الى نظام الوحدات الانتاجية المستقلة . ولكنها بعد ان كانت في « البيت » اصبحت في المعمل ومن المعمل الى مجموع معامل تشملها مملكة واحدة، مستقلة استقلالاً سياسيًّا، ولكنها غير مستقلة استقلالاً اقتصاديًّا . وفضلاً عن هذا فهي تنتج اكثر مما تستهلك وتكدس البضائع والاموال ، في حين ان البضائع لم تصنع الا لتستهلك ، والاموال لم تكن الا للتعامل

كيف نشأت الحضارة الرأسمالية

جرت عادة الباحثين ان يقسموا تاريخ نشأة النوع البشري الى عصور يمتاز كل عصر منها باستعمال مواد مخصوصة يدل استعمالها على ان الانسان قد بلغ طوراً خاصًّا من الرقي والنماء. ولقد ارضى هذا التقسيم كل الباحثين في نشأة الانسان وتكوين الشعوب ، لان ذيوع استعمال مادة من المواد قد اتخذ دليلاً على ان الانسان قد بلغ من الرقي مبلغاً يقاس بهِ مقدار تمدنهِ واتساع أفق معرفتهِ وثقافتهِ . ومع هذا فان انتقال الانسان من عصر استعمال الحجر الخشن الى العصر الظّراني القديم ومنهُ الى العصر الظّراني الحديث ،ومنها الى استعمال النحاس ثم البرونز ثم الحديد ، ولو انهُ يدل على ان الانسان استطاع ان يتقدم في اطوار متمايزة محدودة، فان هذا التقدم لا يمكن ان يعتبر تطوراً اساسيًّا عنيفاً في الحالات التي قامت عليها الحياة البشرية . وظلّت الحياة البشرية قائمة على الاسس التي قامت عليها منذ ان درجت جماعات الانسان البدائية فوق هذه الارض وعلى مدى الازمان التي تقلب الانسان خلالها في حجر المدنيات المتعاقبة.ولقد يظهر الامر عجيباً مذهلاً اذا انت عرفت ان الانسان ظلّ يعيش ويعمل على نفس القواعد البدائية التي وضعها اسلافه منذ اقدم العصور التي يرجع اليها تاريخه الطويل حتى نهاية القرن الثامن عشر ، ولم يستكشف خلال تلك الدهور الطويلة من استكشاف استطاع بهِ ان يؤثر في الرابطة التي تربط الانسان ببيئته الطبيعة.فمنذ بداءة العصر الظراني قاوم الانسان الطبيعة بقوة عضلاته، وحاول ان يذللها بمهارته مع الاستعانة عليها بالحيوانات التي استطاع ان يؤلفها حتى ذلك العهد . وظل الانسان على هذه الحال حتى شارف القرن الثامن عشر على الانتهاء

غير ان حادث عظيماً وقع اذ ذاك في حياة الانسان فنكث فتله وقلب آيته وغيّر موقفه من الطبيعة تغييراً كليّا . فقد استكشف او بالاحرى اخترع « الآلة » التي تدار بالقوة الذاتية « اي الاتوماتيكية » . وان شئت فقل انهُ استطاع ان يبعث من العدم قوات جديدة خارجة عن قوة عضلاته وعن قوة الحيوانات التي كان يستخدمها في العصور الاولى ولم يقف الامر عند هذا . بل انه استطاع ان يبعث من تلك الآلات « قوات » عظيمة لا تعرف حدًّا تقف عنده ولا نهاية تنتهي اليها . وامكنهُ مع هذا أن يخضع هذه القوات لا لقوات تماثلها، بل لافراد من نوعه، واذا شاءَ فلارادة فرد واحد ، وتسنّى له ان يحبس هذه القوات في اقل فراغ ممكن من المادة وسخّرها لارادته المطلقة تسخيراً

وكان الانقلاب عظيماً . فان علاقة الانسان ببيئته الطبيعية قد تغيّر تغيراً كليًّا . فقد تبدّل من الضرورة التي كانت تدعوه الى مغالبة الطبيعة ومجالدتها بقوة عضلاته ، عزلة بعيدة عن الطبيعة فيقف دونها ينظر نظر المتفرج الى آلة مستعبدة قد استخزنها قدراً عظيماً من القوة تتحرك كيفما شاءت ارادته. فبجذب ذراع حديدي او ضغط على زر بسيط تدوي الآلات دويها الدائم وعلى غير انقطاع . وهذا انقلاب لم يشهده الانسان في كل ادوار تاريخه القديم والحديث . ولم يبلغ اي انقلاب انساني من الاثر مبلغ هذا الانقلاب . وحتى اختراع المطبعة واستكشاف المفرقعات . فانها من المخترعات التي غيرت من علاقة الانسان بالانسان ، ولكنها لم تؤثر في علاقة الانسان بالطبيعة اقل تأثير

ولكن كيف استطاع الانسان ان يتخلص من آثار النظام الاقطاعي الذي قمع كل فكر ونكّل بكل حافزة من حوافز الهمة الانسانية ، ليفوز في النهاية بالحرية التي مكنته من ان يعيش لنفسه فيؤسس الصناعات ، ويخترع في النهاية تلك الآلات التي كونت وجهاً جديداً من اوجه المدنية التي لم يعهد لها الانسان مثيلاً من قبل ؟ والواقع ان الانسان بدأ يكوّن النظامات التي أدّت الى تحريره منذ أن أخذت الامبراطورية الرومانية في الانحلال ثم السقوط

استولت الامبراطورية الرومانية على اطراف العالم المعمور او بالاحرى المعروف حتى ذلك العهد . فعمرت نواحي مقفرة في اوربا والشرق وكانت مظاهر العمار والتمدين على اروعها فيما جاور روما من بلاد ايطاليا وفيما جاور ايطاليا من أوربا . فمهدت السبل وانشئت الطرق العسكرية في نواحي الغال وفرنسا ، وامتدت الى جبال الألب حتى سهول ايطاليا الشمالية . وبنيت المدائن العظيمة على ضفاف الرون والسين ، واقيمت السدود المائية العظيمة واقيمت معاهد العلم والمكاتب العامة والهيا كل . ولقد تناول التمدين الروماني كل ناحية من نواحي الشعوب التي استقوت عليها روما حتى ان اهل بلاد الغال وغيرها من البقاع الاوربية التي نشر فيها النفوذ الالماني ، كانوا يفخرون بانهم رومان لحماً وعظماً ودماً

غير انهُ فيماوراءنهر الرين كانت تعيش قبائل من البرابرة المتوحشين كان افرادها كثيراً مايعبرون النهر جماعات كبيرة وينهبون ماتصل اليه ايديهم من مغاني تلك البلاد التي كانت حضارتها ماثلة أمامهم على ضفة النهر الاخرى . غير ان التخوم كانت تحميها سلسلة متصلة من المعسكرات الرومانية . ولكن هؤلاء «الالمان» لم تكن لديهم من عدة السلاح والدروع ما يستطيعون به الاستقواء على الفيالق الرومانية الكاملة العدة التامة الدربة . وعاش اهل الغال كما عاشت بقية الشعوب التي ظلـلها النفوذ الروماني في أمن ودعة ، ففقدوا مع الزمان صفاتهم الحربية ، مكتفين بان يؤدوا الجزية لروما ، ما دامت روما قائمة على حراستهم والدفاع عن تخومهم ان تجتاحها قبائل الالمان المتوحشة

ولكن جاء عصر اخذت يد التبديد تمتد فيه الى الجزية التي كانت تؤديها الشعوب المحكومة لروما . فلم يكن يرتدُّ منها شيء الى تلك البلاد لينفق على التعمير والانشاء او الانفاق على الفيالق العسكرية التي كانت تقوم بمهمة الدفاع عن اطراف الامبراطورية . ونضب بعد ذلك معين الذهب الذي كان يسيل الى روما من نواحي الامبراطورية الشاسعة الاطراف

فأخذ الفقر ينوء بقوته ويشرف بهامته البغيضة على حكومة روما ، ومع هذا ظلت حكومة روما على اسرافها وتبذيرها المعروف . فالحرس «البريتوري» كان يجب ان يتناول مرتباته . والعاطلون الذين كانوا يملأُون شوارع روما من الغوغاء واهل اللهو ، كانوا لا بدّ من ان يطعموا خبزاً ولحماً شواءً ، ويستنيروا باغلى انواع الزيوت ويلهوا في افخم المراقص ويتسلوا بمختلف المشاهد . كما هي الحال الآن تماماً في اكثر ممالك العالم المتمدين . فعمدت حكومة روما الى الضرائب تزيد منها وتستزيد ، واضطرَّ حكام الاقاليم بحكم القوة ان يزوّدوا روما بمبالغ من المال كبيرة تلقاء احتفاظهم بمناصبهم وبقائهم فيها اسواط عذاب على الناس . كما هي الحال تماماً في بعض نواحي العالم الآن . واخذت التهم تلقى جزافاً على الاغنياء لتكون وسيلة الى مصادرة املاكهم . واخذ البوليس الحكومي يجمع الغلال من الغيطان بالقوة سداداً لضرائب الحكومة الفادحة . فخربت المزارع الفاخرة واقفرت الغيطان العامرة ، لان الناس قد عرفوا بالتجربة انهم انما يعملون لغيرهم ، وان ثمار مجهودهم قد يؤخذ منهم في اي وقت من غير سابق انذار ومن غير حق . واخذت مظاهر الخراب تبدو شيئاً بعد شيء . فنبتت الحشائش الطفيلية في مزارع القمح المهجورة ، وخربت المدن وبدأت النباتات تنمو في طرقها ومسالكها ، وفوق جدرانها وهيا كلها ، وأخذت الوحدات الرومانية التي كانت تقوم بحراسة بلاد الغال من غزو البرابرة ، تنحلُّ وحدة بعد اخرى ، ثم اخليت من الجنود ، لان الحكومة عجزت عن ان تحتفظ بالفيالق التي كانت تحرس شواطيء نهر الرين من غزو « الالمان » . ولم تكد تخلو المعسكرات من الخوذ الرومانية ، حتى انهمر في اثرها سيل عرم في محاربة البرابرة ، يجتاحون

المدنية التي أقامها قيصر ، ويعبثون بالقوانين المقدسة التي شرعتها روما العظيمة

وكانت الجيوش الغازية مكونة من رجال احرار ، لاهم بالجند المنتظم ، ولاهم بالعبيد . بل كانوا محاربة تتبع ضابطاً مغامراً او رئيس قبيلة، لها في الحرب علمها وتقاليدها. وكانت الغنائم التي تستولى عليها كل جماعة منهم ملكاً لها وتقسم بين افرادها على قاعدة مرعية . وكانت حصة الملوك من الغنيمة كبيرة ، ولكنهم ماكانوا يحصلون على اكثر من حصتهم فيها . وكان المحاربون الذين لا يرتدّون بعد الغزو الى بلادهم الاصلية، ويفضلون البقاء في الارض المغزوة ، يقسمون الارض فيما بينهم كما يقسمون الاسلاب الاخرى من مواشٍ وعبيد وذهب وحلي وأوانٍ وأبسطة وأقمشة وغير ذلك. وكان جزء كبير من الارض يبقى من نصيب الملك. واجزاء اخرى تقسم بين القواد والضباط على نسبة عدد الرجال الذين يتبعونهم الى ميدان القتال. وكل جندي ينال من الارض حصته بالتساوي مع غيره من الجنود . غير ان الجيش المحارب ولو انه يكون في هذه الحالة قد انحلّ ، الاّ انه لم يمح من الوجود. فان افراده يبقون خاضعين للقانون العسكري. وكان القواد او «البارونات» يبقون تابعين أو خاضعين لسلطة الملك اذا هو دعاهم الى القتال ، كما كان الجنود يظلون خاضعين لقوادهم وضباطهم . وكثيراً ما كان يحدث ان يعطي الملك او البارون قطعاً من الارض الى المقربين منهم او صنائعهم بشروط تشابه شروط التبعية الحربية التي شرحناها. ثم تغير الحال بعد ذلك فاستبدلت التبعية الحربية بقيمة من المال تدفع سنويّاً كبدلٍ حربي تلقاء الانتفاع بالارض وبذلك بدأ نظام «الايجار» يدخل في النظام المدني، ونظام الايجار هو الذي كوّن طبقات البورجوا والبرولتيارية ، كما عرف في المباحث الاشتراكية الحديثة

ولما غزا الالمان نواحي بلاد الغال الفسيحة واستوطنوا اطرافها اخذوا يحصنون القصور القديمة أو بعض المدن الصغيرة ويتخذون منها معاقل يحتمون بها ويستجمعون فيها ثرواتهم. وليس لنا من شأن هنا بشرح الحياة العائلية التي كانت تحياها البارونات داخل هذه القصور ولا أن نتمادى في شرح حال الفقراء من المزارعين . بل شأننا يرجع الى الكلام في تأسيس نظام «الايجار» وهل له من علاقة بنشوء الصناعات اليدوية والصنّاع . والذي يتبادر الى الذهن ان قيام نظام «الايجار» في أوروبا كان له أثر مباشر في نشوء الصناعات وظهور فكرة الصناع. لان المعقول ان يكون المستأجر لقطعة من الارض اكثر حرية فيها مما لو كان تابعاً تبعية حربية لرئيس حربي . وانهُ في هذا الجو يمكن ان تنشأ الصناعات بازدياد توزع الثروة والاخلاد الى حياة مدنية اكثر استقراراً من الحالة الحربية . ولكن الحقيقة على الضد من هذا . ففي عصر الجمهورية الرومانية وفي عصر الامبراطورية، انحصرت الصناعات، رفيعة ووضيعة، في يد العبيد . فكانت كل الحاجيات التي يحتاج اليها في القصور تصنع في هذه القصور وبيد صناع من العبيد مرنوا عليها واتقنوها. غير انهُ قبيل الغزو الالماني لنواحي الامبراطورية الرومانية

نشأت طبقة من الصنّاع على جانب عظيم من المهارة وحبّ الاتقان ، يحتمل ان يكونوا من سلالة العبيد الذين تحرروا من يد اسيادهم الرومان في عصر الانحلال . غير ان المؤرخين ، وذوي الرأي منهم على الاخص لا يسلمون بهذا الاحتمال تسليماً مطلقاً ، وان كانوا يرجحونه مع ميل شديد الى القول بأن نشوء الصناعات والصناع صفحة غامضة في تاريخ اوربا . وبنشوء الصناعات اليدوية وظهور الصانع من ناحية ،وتثبيت مبدأ الايجار الزراعي من ناحية اخرى، تكوّنت المدنية الحديثة وظلت على صورتها الوادعة الهنيئة حتى اختراع الآلة الميكانيكية في اواخر القرن الثامن عشر ،

ولا شك مطلقاً في ان كل الانقلابات التي انتابت المدنية الحديثة والتي روينا طرفاً منها ، لا تزن شيئاً بجانب الانقلاب الكبير الذي تناول مسألة «الانتاج» و«العمل»،ذلك الانقلاب الذي يسمى عند مؤرخي العصر الحديث «بالثورة الصناعية» والسبب في هذا انهُ انقلاب تناول اعماق الحياة البشرية . فان اثره لم يقتصر على حياة العمال وحالات الصناعة واساليب الانتاج ولم يقف عند حد تغيير المنتوجات التي كان يستعملها الانسان ، وطبيعة البيئة واخلاق العامل ،بل تعدّى كل ذلك الى دولاب الجماعات انفسها،اذ احدث نظامات جديدة اصبحت على اعظم جانب من الخطورة للحياة الانسانية ، وقضى على نظامات قديمة سايرت خطى التقدم الانساني منذ فجر التاريخ،فكان هذا الانقلاب بطبيعته اكبر ثورة اجتماعية وقعت للانسان . وبدأت في الافق سلسلة من المؤثرات يتلو بعضها بعضاً على التتالي ، وليس يعلم احد الى أي غاية سوف تؤدي بأبناء آدم وحواء

انحصر الانتاج الصناعي قبل «الثورة الصناعية» في ايدي الافراد . وكان المنتج صانعاً مستقلاً ويعني بهِ صانع يستطيع ان يخرج من مقدار من المادة الخام سلعة من السلع . كما كان توزيع العمل مقصوراً على مقدار ما يحتاج اليهِ كل صانع من مهارة غيره في صنع المادة التي تنحصر فيها صناعته . وكان اكثر المنتجين ، او كان عدد كبير منهم هو الاغلبية المطلقة من الصناع المشتغلين الذين يخرجون من بين ايديهم مصنوعات كاملة يبيعونها مباشرة او بواسطة العملاء . فكانوا يعملون تحت تأثير حالات هم اصحاب الحرية المطلقة في خلقها وتكوينها ، ويحددون بمحض اختيارهم مقدار الربح الذي يظنون انهُ يتكافأ مع جهدهم.وكانوا في حالات اخرى اشبه بالمهاجرين الذين يعملون طوال هجرتهم بأجر معلوم محدود . ولكنهم كانوا دائماً يجدون عملاً ان لم يكن كلٌّ بمفرده ، ففي جماعات صغيرة في حوانيت متوسطة السعة . فاذا كانوا اجراء ، كان صاحب العمل الذي يأجرهم صانعاً مثلهم يقف موقفهم ويعمل عملهم . ولم تكن المؤسسات الكبيرة لتخرج عن حكم ذلك . فان « وجوود » صاحب معامل الخزف المعروفة في اوروبا وجد « شارلز داروين» المعروف،كانا امهر الصنّاع في مؤاسستهما الشهيرة (لها تتمة)

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرض المذاهب السياسية

والآن وقد وصلنا الى معالجة المذاهب السياسية الحديثة التي لها اتصال وثيق بالجيل الذي نعيش فيه فقد رأينا اختصاراً للوقت وجمعاً لشمل الموضوع المتشعب وتسهيلاً على القارىء ان نكون اكثر تقيداً بالخلاصة البديعة التي نشرها الاستاذ (كول) في « موجز المعارف الحاضرة » الا حيث تلجئنا الضرورة الى ذكر ما لا محيد عن ذكره

﴿ هيجل وماركس ﴾ : بينما كان (جرمي بنثم) يؤيد مذهبه الفردي في بريطانيا ويقول باعطاء اكبر قسط من السعادة لاكثر عدد من الافراد كان (هيجل) الفيلسوف الالماني المتوفى سنة ١٨٣١ ينشر في القارة الاوربية مذهبهُ وهو ينطوي على تمجيد سلطان الدولة وحمل الفرد على أن يحقق وجوده وينشد سعادته ليس في مصلحتهِ الفردية فقط بل فيما يبذلهُ للمصلحة العامة من المساعي في الدولة وهو الاهم . وفي نظر (هيجل) ان الدولة سر الاسرار وقدس الاقداس يجد الناس فيها اطايب الحياة ويحققون اسمى الغايات لاغرو انهُ الحّ في القول بوحدتها واطلاق يدها والخضوع لمشيئتها مما يؤيد النظام الاستبدادي الاوتوقراطي ، ولما ذكر اختلاف مواهب الناس فيما لهم من طاقة على خدمة الدولة ايد العظامية لانها قائمة كما ذكرنا على ما تدعيهِ من ميزات تميزها عن سائر الخلق وتجعلها اهلاً للتحلي بادارة الدفة السياسية. وعنده ان الحكم على اهلية الدولة يتوقف على مقدار قوتها فهو والحالة هذه ممجد للحرب مؤيد للبسطة السياسية باعتبارها وسيلتين تتوسل بهما الدولة لتحقيق وجودها . ولما كانت الدولة في فلسفته هي اثمن مشروع اخرجهُ الناس الى حيز العمل فلا بدع ان هزأ بنظرية « تآخي الانسان » وضحك من القول بتأليف « الاسرة البشرية » على سطح الارض . وانى لهُ مثل هذه العاطفة وعندهُ أن الدولة الواحدة مصفوفة في وجه الدولة الاخرى صف الجيوش المتبارزة للقتال

اما مذهبهُ في الارتقاء فيلخص في قوله ان الاصل في الاشياء هو « الفكرة » وان المادة انما هي صورة منعكسة عنها ويتم الارتقاء بتحقيق هذه « الفكرة » بصورة تدريجية طريقتها ان يحصل تنازع في كل مرحلة بين الفكرة السائدة المتغلبة والفكرة التي تناقضها الى ان

يتولد من هذا الخصام بين الفكرتين مزيج من القديم والحديث — يعني الى ان تتولد فكرة جديدة من ازدواجهما معاً تتفوق عليهما كلتيهما ولكنها محكوم عليها بالانهزام ايضاً امام ما يستجدُّ من الافكار بطريقة هذا التنازع بين الافكار المتناقضة

﴿كارل ماركس﴾ استعار كارل ماركس رسول الاشتراكية هذه النظرة النشوئية التدرجية ولكنهُ عكسها رأساً على عقب فهو لم يعتدَّ « بالفكرة » ولا حسبها اصل الاشياء كما فعل (هيجل) بل قال ان العامل المؤثر في النشوء الاجتماعي هو (القوى المادية المنتجة) التي تتجهز بها الجمعية البشرية — يعني ان ينابيع الثروة التي يستخدمها الانسان من اراض وآلات واجهزة ... كل ذلك يكسب الناس شكل الحياة الاجتماعية التي يتمتعون بها فتكون الافكار المنتشرة بينهم نتيجة ما هم عليهِ من الطرائق الانتاجية التي توصلوا اليها ، فاذا كانت هذه الطرائق راقية دقيقة التركيب وكثيرة المحصول فالحياة الاجتماعية راقية على نسبتها والعكس بالعكس . فلا عجب ان تكون البلاد الصناعية ارقى من البلاد الزراعية وهذه ارقى من بلاد المراعي . والخلاصة ان (ماركس) يقول ان وسائل الانتاج في المجتمع وما يبنى عليها من العلاقات بين الناس تؤلف النظام الاقتصادي في الهيئة الاجتماعية وهذا النظام هو العامل الاساسي في تكوين النشوء العقلي في الشعوب . فهيجل كما ترى ابتدأ بالعقل و جعل المادة صورة منعكسة عنهُ . ويدعى مذهب ماركس في الفلسفة « التعليل المادي للتاريخ » وقد أبان فيهِ الاطوار التي مرَّ عليها المجتمع منذ ما استولى على شؤونهِ اصحاب الاراضي الواسعة الى ان هبت الثورة الصناعية والتجارية فانتزعت الشيء الكثير من سلطتهم وانتهت الحال باندماجهما معاً في ادارة الحكم ، ثم شبّت الرأسمالية الصناعية وعملت جهدها لاستثمار ينابيع الثروة في الشعب مما حملها على حشر الالوف المؤلفة من العمال في المصانع وتدريبهم على النظام العملي المنتج . لكن عملها هذا اتاح لهم من القوة والفرصة ما ينظمون بهِ انفسهم في وجه اسيادهم الذين استخدموهم ، والخلاصة ان اضطرار الرأسمالية الى انفاق مجهودها للحصول على اعظم الارباح ادّى الى نهضة العمال وانتشار مذهبهم الاشتراكي وما ينطوي عليهِ من تهديد يقض مضاجع الرأسماليين ودعاويهم الطويلة العريضة . وقد تنبأ ماركس عن العمال بقوله ان هذه الطبقة الخاضعة التي لا يحق لاحد ان يمنعها من تنظيم نفسها او يحول دون صيحاتها العالية بالاحتجاج ستثلُّ عروش الرأسماليين وتقضي على رأس المال باعتباره نظاماً اقتصاديًّا تعيش تحت لوائهِ الشعوب . وستفعل ذلك لانها على قوله اصلح من الرأسماليين في استثمار ينابيع الثروة واستخراج خيراتها ، وبتغلب هؤلاءِ « الصعاليك » او « المساكين » لا تبقى ثمة طبقة مأكلة لغيرها ، ومتى تألف المجتمع الخالي من الطبقات يزول الاستثمار وتزول معهُ حكومة الطبقة لتحلّ محلّها الادارة المشتركة العامة التي تدير ينابيع الثروة في الشعب لمصلحة الجميع . وعلى العمال

ليس فقط ان يقبضوا على زمام الحكومة الحاضرة ويستخدموها لغاياتهم بل ان يمحقوها محقاً هي والطبقة الاقتصادية المستولية عليها ويحلوا محلّها نظاماً يؤسسونه من جديد. وهنا تبتدئ الاختلافات بين الاشتراكيين فكل حزب منهم يولي وجهه شطراً — يعني ان اتفاق كلمتهم على ضرورة محق حكومة الطبقات تتفكك عراها حالما يبحثون عن النظام الجديد الذي يجب ان يحل محلها وكيف يجب ان يتمّ التغيير ، فللاشتراكيين الدموقراطيين رأي سلمي تدرّجي يتحقق بواسطة الانتخابات النيابية وللشيوعيين رأي انقلابي قائم على الثورة العالمية

ولد (كارل ماركس) في مدينة (ترير) بالمانيا في سنة ١٨١٨ ودرس الفلسفة والحقوق في مدينتي (بون) و(برلين) ونال شهادة الدكتوراه في (يينا) سنة ١٨٤١ وقد اضطهدته بلاده من غير أن تعرف ما سيكون من أمره حتى اضطر الى الهجرة منها فاجتمع في (باريز) بأهم أصدقائه (انجلس) وفي سنة ١٨٥٩ وهي السنة التي امتازت بظهور كتاب « أصل الانواع » لداروين نشر ماركس كتابه « الذيل لنقد الاقتصاد » وقدر لكل من هذين الكتابين احداث ثورة في دائرته : ذاك في علم الحياة وهذا في علم الثروة العمومية. ويعد «البيان الشيوعي» الذي نشره ماركس بالالمانية في سنة ١٨٤٨ — وهو في خمس وعشرين صفحة — اول نص عالج الاشتراكية بطريقة علمية واضحة واخرجها من صف الفلسفة الخيالية والاحلام الذهبية ، وقد ختمهُ بالوعيد المشهور: فلترتعش فرائص الطبقات الحاكمة عند شبوب الثورة الشيوعية ؛. اما الصعاليك فليس لديهم ما يخسرون سوى السلاسل والاغلال ولكن امامهم دنيا يربحونها. اتحدوا اليها العمال في الآفاق

﴿ مذهب النشوء والاوضاع السياسية ﴾ عرضنا لداروين وأشرنا الى الثورة التي أحدثها مذهبه في علم الحياة وظن الناس لاول وهلة ان مذهب النشوء سيحلُّ معضلة السياسة ولكن نظرة واحدة في المذاهب المتباينة التي قال بها ائمة هذا المذهب تدل على خطأ أهل هذا الظن فسبنسر غالى في « الفردية » كما غالى (جرمي بنثم) من قبله ، ومعظم النشوئيين السابقين نظروا الى المجتمع وحدة او كتلة عضوية اكثر منه وحدة نفسانية اجتماعية. واهتم سبنسر منهم خاصّة بتنازع البقاء بين الناس فلا عجب ان يتصور الجمعية البشرية ميداناً يتصارع فيه الافراد فلا تكتب السلامة فيه الاّ للاصلح او الاقوى ولكن زميله (توماس هكسلي) عدّ المجتمع أداة مستحدثة في التدرج العضوي غايتها الحيلولة دون هذا التنازع ومنعه من ان يطأ الافراد بقدميه القاسيتين من غير رحمة ولا شفقة . لذلك كانت وظيفة هذه الاداة الاجتماعية المستحدثة الاشراف والتنظيم والتدخل لتحويل الجمعية البشرية من دغل موحش الى حديقة غناء . اما (البرنس كروبوتكن) الروسي وهو من اعلام النشوئيين المتأخرين فقد خطا في هذا المضمار خطوة اوسع اذ حاول في كتابه «التعاون» ان يستخرج للاشتراكية اساساً مما تقتضيه الضرورة الحيوية البيولوجية من التعاون بين الناس كما بين الحيوانات . وتمسك غيره بالقول

ان المجتمع جسم عضوي ذو دماغ هو الحكومة فالواجب ان تخضع سائر الاعضاء لسلطة هذا الدماغ. وتدل الدلائل على ان هذه الطريقة النشوئية الاشتراكية التي قال بها البرنس كروبوتكن كانت أشد نفوذاً في أثرها من الطريقة الفردية التي تمسك بها سبنسر واخوانه

على ان الاسترسال في التشابه الحيوي بين المجتمع والجسم العضوي واغفال شأن العامل النفساني في جمع البشر وضم بعضهم الى بعض جعل مذهب النشوء قليل الفائدة . ولا مراء ان الطبيعة العلمية في أهل التحقيق تمل الخيالات والاستنباطات المتطرفة خصوصاً ما بني منها على التشابه السطحي . لا جرم ان العلماء طرقوا باباً جديداً لدرس المجتمع اساسه درس الحالة الراهنة وتصنيف الاوضاع البشرية ومقارنتها بعضها ببعض ودرس بناء العقل الانساني وفهم الطريقة التي يسير عليها

﴿السياسة وعلم الانسان والنفس﴾ لقد زوّدنا درس الاوضاع الاجتماعية الماضية والحاضرة منذ الانسان الاول الى اليوم بمعلومات نفيسة ، وكان لعلم الانسان في هذا المضمار النصيب الاوفر فانكشفت لنا عقلية الشعوب الفطرية ذات المدنية الابتدائية وظهرت نظمها الاجتماعية مما أهاب بعلماء السياسة المتأخرين الى الابتعاد عن الطريقة المنطقية والالتزامات العقلية النظرية في معالجة مثل هذه الشؤون وحدا بهم الى الاعتماد على «الحالة الراهنة» التي نجد عليها هذه الاوضاع سواء في الشعوب الراقية أم الشعوب الابتدائية . وان هذا الميل الى الامر الواقع امتزج حالاً بالملاحظات المتوفرة من درس النفس على هذه الطريقة الراهنة أيضاً التي لا شأن للتحكم العقلي فيها . وكان من نتائج هذا الدرس العلمي ان أصبح العلماء في شك (اولاً) من كلّ جواب يزعم أصحابه انه مقنع يفي بالردّ على السؤال: « ما هو الشكل الصحيح العام الذي يتخذه التنظيم الاجتماعي بقطع النظر عن الزمان والمكان ؟ » (ثانياً) من كل محاولة لفهم القضية السياسية على الطريقة العقلية المجردة . ولا يعني هذا الكلام ان علماء النفس والانسان طلّقوا العقل بتاتاً في هذه الدروس بل ان بعضاً منهم كالاستاذ (ولاّس) العالم المشهور هم من أهل المنطق البحت لانهم رأوا في اشراف العقل على الحياة الاجتماعية اوضح علامة على ارتقاء المدنية والامل الاكبر المعوّل عليه في النجاة . ومع كل هذا الاعتماد على العقل في ترتيب العلاج ومقاومة المرض فقد حملتهم المباحث الجديدة التي ذكرناها على النظر الى سير العمل في المجتمع البشري القديم والحديث بعين اقل احتفالاً بالمعقول والمنطق واكثر اعتداداً بالجزء اللاعقلي او الكيفي في البشر باعتباره عنصراً ضرورياً لتدوير دفة العمل في أية جمعية بشرية كانت . وقصارى القول انهم عرفوا أن الجزء الاعظم من اعمال البشر الاجتماعية هو بالضرورة غريزي اكثر منه عقلي ، وان الحكم على اشكال التنظيم الاجتماعي والسياسي ومافيها من الخطط ليس بطريقة المنطق الاستنتاجي بل بنسبة ما لهذه الاشكال والخطط من الوقع الحسن في الغرائز والشهوات

﴿التوحيد في الدين والشرك في السياسة﴾ الاديان الراقية في العالم موحدة تؤمن بمرجع

أخير واحد ولكن السياسة على العكس تميل الى الشرك في هذا العصر . وقد دلّتنا ابحاث العلماء في مجتمع القرون الوسطى على شأن بعض الاوضاع والجمعيات التي اعربت عن الشعور الشعبي العام في تلك الازمان من غير ان يكون للدولة دخل في احداثها او في تنظيمها مما يفيد ان الدولة عامل واحد فقط من جملة عوامل متعددة في ادارة دفة الاعمال السياسية الاجتماعية وان كانت في الواقع أهم عامل من هذا القبيل ، فلا عجب ان حلّ الشرك السياسي محلّ التوحيد في اذهان الباحثين ولم يعد للدولة تلك الوحدانية المستقلة المتصرفة في شؤون الخلق . بل صار لها شركاء من الجمعيات المتنوعة التي يؤلفها الافراد باختيارهم في داخل الدولة

وتأيدت هذه النظريات الاستقرائية التاريخية في عصرنا بما استجدّ من النقابات الصناعية والمتحدات التجارية وتأثيرها السياسي خصوصاً تلك المؤسسات الرأسمالية الكبرى بحيث رأت اوربا واميركا انها وان كانت قادرة على وضع القوانين المتعلقة بهذه المؤسسات وبادارتها الاّ انها متى بلغت درجة التنفيذ وجدت نفسها عاجزة لا قبل لها بمقاومتها مقاومة صحيحة وانزالها على حكمها . واكتفى المشترعون في العصر الفكتوري في انكلترا بأن ينظروا الى المتحدات التجارية انها نقابات تكرمت عليها الدولة بالتمتع بحق الوجود وان ليس لها من الحقوق الاّ ما جادت به عليها تفضلاً ، بيد ان هذه المتحدات اخذت تثبت استقلالها مدعية حق العمل باسم اعضائها ولو بالاضراب رغم الاوامر الرسمية

وتبدو للناظر في غضون السنوات الاخيرة التي سبقت الحرب الكبرى موجة من اضطراب للعمال اكتسحت العالم الصناعي وحملت بين طياتها عداء لفكرة الطريقة البرلمانية القديمة . وقد انبعثت هذه الموجة من نظريات ترمي الى بناء الحياة الاجتماعية المستجدة ليس على الاساس البرلماني القديم بل على المتحدات والنقابات وغيرها من الجمعيات الاقتصادية في جوهرها القائمة على فكرة العمل او الوظيفة باعتبارها مصدر الحياة في المجتمع ، فهذه الديمقراطية (الوظفية) بما لها من البناء الاجتماعي المتنوع اخذت تتحدى النظرية الديمقراطية البرلمانية القديمة وما استنتهُ من القول «صوت واحد للفرد الواحد» لان هذا «الصوت» يجب الاّ يعطى للفرد باعتباره فرداً بل للفرد باعتباره عاملاً منتجاً . ولم تمر هذه الموجة من غير ان تترك اثراً ظاهراً في خارج الحلقات الاقتصادية الصناعية ، حتى ان زعماء الدين في ديار الغرب اخذوا يؤيدون استقلال الكنيسة وضرورة خروجها من وصاية الدولة كما تنحو كثير من الجامعات العلمية الكبرى هذا النحو ايضاً ، وينفخون فيها روحاً جديدة باعطاء الدين مقاماً في حياة المجتمع مستقلاً عن حياة الدولة ومعادلاً لها في مستواها ، وكانت هذه السنون حافلة بالخطط العملية والنظرية لبناء حياة المجتمع ليس على قاعدة «صوت واحد للفرد الواحد» بل على اعتبار الجمعية البشرية مركّباً متناسباً مؤلفاً من وظائف متنوعة كل منها يحتاج الى تنظيم خاص

(البقية في باب الاخبار العلمية)

اشراف بلاد العرب

اشراف ابو عريش وآل عائض والادارسة[1]

لفؤاد حمزة بك وكيل خارجية الحجاز

١ — اشراف أبو عريش

إن تاريخ شرافة أبو عريش قديم غير ان معلوماتنا عنهُ ناقصة جدًّا . ويرجع أساس الشرافة الى الاختلاف الذي كان سائداً بين سكان جبال اليمن وعسير وسكان التهائم . فان الاولين تشيعوا وتبعوا الامام زيد بن علي وظلّ أهل التهائم شوافع سنّيين . فنشأ عن الاختلاف مشيخات قبائلية موضعية في اماكن عديدة أهمها حكومة زبيد التي كانت تشرف على شؤون الشوافع في تهامتي اليمن وعسير وتدفع أئمة صنعاء الزيديين عنهما

بدأت شرافة ابو عريش تظهر منذ احتلال الجيوش العثمانية لجنوبي الحجاز ولعسير واليمن ففي عام ١٠٠٦ هـ (١٥٩٧ م) اتفق مشايخ تهامة وفيهم شريف ابو عريش على القيام ضد الوالي العثماني حسن باشا الذي تولى من ٩٨٨ — ١٠١٣ هـ[2]

وجهز الترك حملة بقيادة احد موظفيهم واشترك فيها بعض اشراف ابو عريش وصبيا للاستيلاء على صعدة ، فالتقى بها جنود الامام الزيدي قبل وصولها وأفنوها وهرب قائدها الى الساحل عام ١٠٢٤هـ[3] . وفي عام ١٠٤٤هـ ، ثار امام صنعاء على العثمانيين وتمكن صالح بن احمد المؤيدي من ضبط ابو عريش من ايديهم ومن الاستيلاء على صبيا والحاقها بالامام الزيدي[4]

وبعد ذلك بخمس سنوات ارسل والي مصر قائداً جديداً الى اليمن اسمهُ احمد قانصوه فتمكن من استعادة البرك وصبيا وابو عريش من أيدي أئمة اليمن الى حظيرة الدولة العثمانية[5]

وتنقطع عنا اخبار شرافة ابو عريش الى اوائل القرن الماضي حينما ظهرت الدعوة السلفية في نجد على يد حكومة آل سعود الاولى . فان الدعاة نشروها بين قبائل عسير وجنوبي الحجاز وتبعها اكثر قبائل عسير السراة وعسير تهامة ، وكان سعود بن عبد العزيز يجند قبائل عسير تحت امرة عبد الوهاب بن عامر المسمى ابو نقطة وهو امير عسير ورجال المع ويرسلهم تارة الى

(١) هذا هو الفصل الرابع عشر من كتاب الاستاذ فؤاد حمزة بك وكيل الخارجية في حكومة المملكة العربية السعودية عن تاريخ نجد والحجاز رأينا نشره على ذكر ما تتحدث به الصحف عن مقاطعة عسير والادارسة . والكتاب يطبع بالمطبعة السلفية بمصر الآن

(٢) كتاب ظهور ائمة صنعاء تأليف ا. س. تريتون ص ٧

(٣) « « « « « « « ص ٦١

(٤) « « « « « « « ص ٨٧

(٥) « « « « « « « ص ١٠٢

الحجاز وطوراً الى اليمن وهذه القبائل هي التي فتحت اللحية والحديدة [١]

ففي عام ١٢٢٤ كان صاحب ابو عريش الشريف حمود ابو مسمار وكان قبل ذلك قد بايع سعوداً وحالفهُ ودفع عشوره اليه واوفد ابنه الى الدرعية لزيارته . ثم حصل بينهُ وبين عبد الوهاب امير عسير السراة نزاع ادى الى رفعه الى سعود للاصلاح بينهما فلم تنجح وساطة سعود في ذلك . فاصدر امره الى الشريف حمود لكي يجهز قوة ويذهب بها الى صنعاء فلم يفعل . فحقد سعود عليهِ وأمر القوات بالمسير لقتاله . والتقت القوات ، قوات آل سعود وفيها قبائل عسير ورجال المع واهل الوديان وأهل بيشة وقحطان وشهران ، وقوات الشريف حمود وفيها دهم وحاشد وبكيل وهمدان ويام، في وادي بيشة . فقتل عبد الوهاب امير عسير في الوقعة الاَّ ان الغلبة كانت لعساكر آل سعود، ففرَّ الشريف حمود الى تهامة ولجأ الى حصنهِ ابو عريش واحتلت العساكر بلاده صبيا وجيزان [٢] . وفي العام المقبل جهز عثمان المضايفي قوة من الحجاز وسار بها مع قوات عسير للقضاء على حمود واقتتلوا في محل يسمى رَحْلة فكسر حمود وفرَّ هارباً واحتلَّ طامي بن شعيب امير عسير الجديد ابو عريش وتقدم منها الى اللحية والحديدة [٣]

وتوفي الشريف حمود عام ١٢٣٣ وتولى ابنهُ احمد مكانه . وحصل بين احمد وبين حسن ابن خالد امير صبيا نزاع ثم اتفقا وفي هذه الاثناء جاءت القوات العثمانية والمصرية الى ابو عريش يقودها خليل آغا فالقت القبض على احمد بن حمود وارسلتهُ الى مصر [٤] ولكن احتلال ابو عريش لم يدم طويلاً فاضطرت القوات المصرية الى الانسحاب وتسليمها الى امام صنعاء الزيدي

وعقد محمد علي باشا اتفاقاً مع الشريف حسين ، شريف ابو عريش للعمل معاً ضد امام صنعاء وضد قبائل عسير المنحازة الى آل سعود ، وتقدمت قوات الاثنين الى الجبال فاحتلت ابها عاصمة عسير عام ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م) . ولكنها لم تتمكن من البقاء فيها طويلاً [٥]

وحينما انسحب المصريون من البلاد العربية عام ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩ — ١٨٤٠ م) وجد الشريف حسين نفسه قادراً على بسط نفوذه على سائر تهامة والحاقها بابو عريش فوصلت قوته الى مخا جنوبي الحديدة واستولت عليها باسمهِ وظلت حكومته فيها وفي سائر تهامة الى ان شرع الترك في استعادة قوتهم في البلاد العربية فجردوا بتحريض الشريف محمد بن عون امير مكة قوة عسكرية عام ١٢٦٥هـ (١٨٤٩ م) انزلت في الحديدة ، وتمكنت القوة من فتح تهامة ودخول — ابو عريش [٦]

وفي زمن حكم الشريف حسين المشار اليه قدم السيد احمد بن ادريس الى صبيا ونال من عطفه ومساعدته ما جعل له شهرة عظيمة بين القبائل مكن حفيده من الاستفادة منها حينما قام لتأسيس حكومة الادارسة في مطلع القرن الحالي . وتوفي السيد احمد بن ادريس في صبيا عام ١٢٥٣ هـ (١٨٣٧م) وظل احفاده فيها . ولا ندري كيف تغلب الادارسة على اشراف ابو

(١) تاريخ ابن بشر ص ١٣٢—١٣٤ (٢) ابن بشر ص ١٤٤—١٤٥ (٣) ابن بشر ص ١٤٩
(٤) ابن بشر ص ٢١١ (٥) تاريخ بلاد العرب لهوغارث ص ١٠٦ (٦) كتاب بلاد العرب وضع وزارة الخارجية البريطانية ص ٢٤ وتاريخ بلاد العرب لهوغارث ص ١٠٦—١١١

عريش ولا كيف كانت آخرة الشريف حسين واولاده وانما نعلم ان حكمهم ظل في تهامة عسير واليمن ضعيفاً الى ان ازيل تماماً على يد السيد محمد علي الادريسي

ذكر الشيخ عبد الواسع اليماني في حوادث عام ١٢٦٤ هـ ان امام صنعاء المتوكل عزم على انتزاع تهامة من يد الشريف حسين فجهز قوة تمكنت من اسر الشريف وحبسه في قلعة القطيع في تهامة فاستثارت ابنته قبائل نجران فخلصته من اسر المتوكل واستولت باسم الشريف على زبيد ونهبتها[١] . وذكر في موضع آخر ان الشريف حسين ذهب الى الاستانة مستنصراً الحكومة العثمانية فامدته بقوة قادها توفيق باشا وكان ذلك بدء استرجاع آل عثمان لعسير واليمن[٢]

٣ — آل عائض

ينتسب آل عائض الى عشيرة آل بو سراح من فخذ آل يزيد من بطن مفيد من قبيلة عسير وهم رؤساء قبيلة عسير المنقسمة الى اربعة بطون كبيرة ذكرناها في بحث القبائل العربية ومركزها بلدة ابها [٣] . وسط جبال السراة في عسير

امارة آل عائض في عسير، حديثة العهد ترجع الى ايام حكومة آل سعود وفتحهم عسير . وكانت الامارة قبل ذلك في رجال المع ووليها ايام فتح سعود الكبير للحجاز رجل اسمه عبد الوهاب بن عامر المكنى بأبي نقطة صاحب الوقائع المشهورة في الحجاز مع الشريف غالب وفي تهامة مع الشريف حمود ابو مسمار شريف ابو عريش[٤] . وبعد موته وليها ابن عمه طامي بن شعيب عام ١٢٢٤ الذي خانه حسن بن خالد امير صبيا وسلمه الى قوات محمد علي باشا فأرسلته الى مصر وصلب فيها . ثم ولي امارة عسير بعد ذلك علي بن مجثل عام ١٢٤٩[٥] . ومن بعد علي هذا تبدأ امارة آل عائض في عسير السراة

اما كيفية انتقال الامارة من قبيلة رجال المع الى قبيلة عسير فغير معلومة على وجه الصحة وقد ذكر الريحاني ان عائض مؤسس العائلة كان من الرعاة فاستبسل في القتال ضد الجنود المصرية فقربه ابن مجثل اليه واوصى به عند ابن سعود بعده فاثبتهُ في الامارة[٦]

بلغت قوة آل عائض اوجها ايام محمد بن عائض الذي ولي الامارة بعد والده ووسع حكمه على سائر عسير السراة وقسم من الحجاز غامد وزهران ، وقسم كبير من تهامتي عسير واليمن . فرأت الدولة العثمانية التي كانت من اقوى الدول ايام السلطان عبد العزيز ان ترك الامر على غاربه مضيع لهيبتها ومخرج لبلاد عسير واليمن من يدها . فجهزت حملة كبيرة بقيادة رديف باشا واحمد مختار باشا وسيرتها على عسير عام ١٢٨٥ هـ [٧] . وتوسط الشريف محمد بن عون

---

(١) تاريخ اليمن ص ٧١ (٢) تاريخ اليمن ص ٧٣ وايراد القصة على هذا النحو يخالف ما نقلناه عن كتاب وزارة الخارجية البريطانية عن الكتا بين اللذين عن بلاد العرب وعن تاريخ هوغارث

(٣) تعرف ابها باسم مناظر وهي مؤلفة من اربع قرى كبيرة واقعة في منبسط تحيط به جبال مرتفعة عليها ابراج تحمي البلد (٤) انظر النبذة السابقة وابن بشر ص ١٣٢—١٣٤ (٥) ابن بشر . م ٢ ص ٤٦

(٦) تاريخ نجد الحديث ص ٢٦٩ ومما نلاحظه ان ابن مجثل لم يكن اميراً على عسير ايام سعود الكبير فقد كان ولاة عسير الاشخاص الذين ذكرناهم عبد الوهاب وابن عمه (٧) تاريخ اليمن ص ١٠٦

بين الدولة وبين ابن عائض على ان يسلم العسيري بلاده وان تحفظ له الدولة امواله وخيوله وحصونه وان تعين له ولعائلته وبعض الرؤساء مرتبات ومشاهرات . فوصل الفرمان بالامان من السلطان عبد العزيز بينما كانت الجيوش العثمانية بقيادة مختار باشا محاصرة ابها ، فاستسلم محمد الى مختار باشا وهذا ارسله الى رديف باشا فلم يعبأ بالفرمان واعدم ابن عائض وصارت عسير منذ ذلك اليوم تابعة للدولة العثمانية. وجعلت متصرفية مركزها ابها . وتبعها ستة اقضية وهي : (١) بني شهر او النماص . (٢) غامد ومركزها رغدان . (٣) رجال المع ومركزها الشعبين ، (٤) محايل ومركزها محائل . (٥) القنفذة . (٦) صبيا وابو عريش

ونقم آل عائض على الدولة وابتعدوا عنها الى ان كانت فتنة السيد محمد علي الادريسي عام ١٣٢٩ فعادوا اليها . وعينت حسن بن علي بن محمد بن عائض معاوناً للمتصرف سليمان شفيق كمالي باشا

وظل حسن على ولائه للدولة طيلة الحرب العمومية وتعاون مع محيي الدين باشا متصرف عسير وقائد فرقتها لدفع عدوان الادريسي . واستقل بعد جلاء الترك عقيب الحرب بالبلاد وشرع في ادارتها على شكل احفظ الناس وجعلهم يوسطون الملك عبد العزيز في امرهم . فرفض حسن الوساطة وكان من الملك عبد العزيز ان جهز عليه قوة بقيادة الامير عبد العزيز بن مساعد عام ١٣٣٨ هـ (١٩٢١ م) وحصلت بين الفريقين معركة في حجلة بين ابها وخميس مشيط انهزم آل عائض فيها وهربوا الى تهامة فأسر الادريسي حليف ابن سعود بعضهم واستسلم حسن ومحمد ابن عمه لابن مساعد فذهب بهما الى الرياض . ووصلهما الملك عبد العزيز بالجوائز واعاد حسناً ومحمداً الى ابها . ولكنهما عادا الى سابق سيرتهما وحاصرا امير ابن سعود في ابها واحتلاها . فلما رأى الملك عبد العزيز خيانتهما وما كان من غدرهما جهز حملة جديدة من أهل نجد بقيادة نجله الثاني سمو الامير فيصل عام ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢م) فوصلت الى عسير وحصلت عدة وقائع آخرها واقعة بين السرية التي انفذها الشريف حسين بن علي من مكة لامداد محمد بن عائض فقضى على السرية كما قضى على حصون ابن عائض وقلاعه واتبعت عسير السراة نهائيًّا بالمملكة النجدية واستيق حسن بن عائض الى الرياض ولا يزال فيها الى الآن

٣—السيد محمد علي الادريسي

يبدأ تاريخ امارة الادارسة من محمد بن علي بن احمد بن ادريس وكان جده السيد احمد ابن ادريس من أهل العلم والصلاح هاجر من المغرب واقام في مكة المكرمة برهة ثم ذهب الى تهامة اليمن لزيارة بعض تلاميذه ومريديه واستقرَّ بهِ النوى عام ١٢٤٦ (١٨٣٠) في صبيا في جوار الشريف حسين شريف ابو عريش واقام هنالك بطريقته الادريسية الى ان توفى بعد ذلك بنحو سبع سنوات

قامت امارة السيد محمد حفيد السيد احمد على التراث الديني الذي خلفه له جده بين القبائل واعانته الظروف السياسية ، وما كانت عليه الدولة العثمانية من تضعضع واهمال في أواخر ايام

السلطان عبد الحميد فراح يدعو الى نفسه دعوة اصلاح ديني املاً في الوصول الى اغراضه السياسية

ولد السيد محمد عام ١٢٩٣ ﻫ (١٨٧٦م) في صبيا وجاء الى مكة مجاوراً عام ١٣١٣ﻫ. ثم رحل الى القاهرة ودخل الازهر الشريف ثم ذهب الى رواحة الكفرة مركز السنوسية وانصرف منها الى دنقلة حيث اخواله بالسودان. ثم عاد الى صبيا مسقط رأسه في أواخر سني السلطان عبد الحميد فوجد مرتعاً خصيباً لعمله وساعده على ذلك فساد الادارة وانتشار الرشوة وبعد البلاد عن مركز الحكومة والاستبداد الظاهر، فالتفت حوله الناس من كل حدب وصوب. وارادت الحكومة العثمانية تحجيم عوده فارسلت اليه وفداً سار خلفه جيش كبير يقوده القائد سعيد باشا. فافهم الادريسي حالة البلاد للوفد وانه وجدها معطلة فاسدة الادارة معدومة الامن فقام هو باصلاح احوالها عن طريق الاصلاح الديني، وذلك في مصلحة الدولة وانه لا مصلحة له من ذلك فخدع الوفد باقواله ونال الادريسي من قائد الجيش اعلاناً للقبائل يفوضه فيه بقيامه ببعض المهام فكان ذلك سبباً في ازدياد سطوته ونفوذه وعينته الحكومة قائمقاماً لصبيا وابو عريش

وبعد ذلك ببرهة قصيرة ألب على الحكومة العثمانية وأرسل من قبله قواداً لاحتلال البلاد ووجه ابن عمه السيد مصطفى الادريسي الى عسير السراة لاحتلال ابها وكان ذلك في ذي القعدة عام ١٣٢٨. وشدد الادريسي الحصار على ابها وفيها المتصرف سليمان شفيق كمالي باشا الى ان فك الحصار عنها على يد القوة التي قادها الشريف حسين بن علي امير مكة في السنة التالية

وتحصن السيد محمد بعد وصول القوات اليه في جبل فيفاء ولكنه عاد الى تهامة بعد اعلان الحرب بين ايطاليا والحكومة العثمانية واستولى على صبيا وجيزان وابو عريش واتفق مع الحكومة الايطالية التي امدته ببعض المال والذخيرة. غير ان علاقات السيد محمد مع ايطاليا وقفت عند هذا الحد واستبدل بها صداقة جديدة مع الحكومة البريطانية في السنة الاولى من اعلان الحرب العمومية فانه عقد عام ١٩١٥ معاهدة صداقة ثم جددت هذه المعاهدة عام ١٩١٧ واعترفت له بريطانيا بالسيادة على تهامة حتى اللحية في الجنوب والقنفذة في الشمال وتعهدت له بحمايته من اي تعدٍّ خارجي كما انه تعهد بعدم تأسيس علاقات سياسية أو تجارية مع اية حكومة اجنبية

واشتد ساعد السيد محمد بعد الحرب العمومية واستولى على الحديدة وتعاقد مع الملك عبد العزيز بن سعود للقيام معاً لتأمين مصالح الجانبين وظلت صلاتهما حسنة الى آخر أيام السيد محمد غير ان موقف السيد كان عصيباً نظراً لوقوعه بين عدوين كبيرين الامام يحيي في اليمن والشريف حسين في الحجاز ووقعت بلاده بعد وفاته في شعبان عام ١٣٤١ (١٩٢٣) فريسة في براثن الفتنة فاستولى الامام يحيي على القسم الجنوبي منها وانضمت الاقسام الاخرى الى ممالك ابن سعود

٤ — زوال امارة الادارسة

بعد وفاة السيد محمد الكبير ولي الامارة ولده علي فاغتنم الامام يحيي حميد الدين

الفرصة لاسترجاع تهامة منه فوفق الى ضبط للحديدة والاستيلاء على الساحل حتى مدينة ميدي . فثار اهل البلاد على علي وبايعوا عمه الحسن فلجأ السيد علي الى جلالة الملك عبدالعزيز اثناء فتحه للحجاز وما زال مقيماً في بلاطه حتى الآن

اما السيد الحسن فانه اراد أن يقلد اخاه محمد الكبير ففاوض جهات عديدة ، فاوض الملك عبدالعزيز مذكراً اياه بصداقة العائلتين ، وفاوض الامام يحيي ، وفاوض الايطاليين ، وفاوض كذلك الانكليز بواسطة ابن عمه مصطفى واقرت مفاوضاته مع الانكليز انه اعطى لشركة انكليزية امتيازاً باستخراج الزيت من فرسان بشروط مجحفة بحقوق البلاد والاهلين ، وبينما كان مندوبوه يفاوضون الامام يحيي في صنعاء نجح مندوبه الآخر وابن عمه مرغني في عقد معاهدة مكة بين الملك عبد العزيز والحسن عام ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦م) ووضعت المقاطعة بموجب المعاهدة تحت حمايته وقطعت جهيزة قول كل خطيب

ولم يباشر الملك عبد العزيز حقوق الحماية اول الامر الاّ فيما يتعلق بامتياز شركة الزيت في فرسان فانه رأى فيه اجحافاً وعنتاً عظيمين فوفق الى الغائه . وابقى ادارة البلاد في يد هيئة حاكمة تحت رئاسة السيد واكتفى بارسال مندوب يكون الى جانب الحسن ليعاونه في اعماله وحضر مندوبون من قبل الحسن الى بلاط الملك عبد العزيز في الطائف لوضع القواعد الاساسية لادارة البلاد — فوافق الملك على اقتراحات وفد الحسن وجعل الادارة الداخلية وتأمين الامن واعداد الجند للدفاع في يد الحكومة المحلية واحتفظ بالشؤون الخارجية فقط الاّ ان الادارة المحلية عجزت بعد سنتين عن ادارة الامور وتأمين الاحكام . ولم تكن قادرة على جباية الاموال الاميرية اللازمة لكيانها بالرغم عن مد الملك عبد العزيز يد المساعدة لها

وفي ١٧ جمادى الاولى عام ١٣٤٩ ابرق الحسن الادريسي الى الملك عبد العزيز ما يأتي:

«كتبكم برفقة العبدلي وصلت وتذاكرنا مع وفدكم فتقرر بموافقتنا ورضانا اسناد ادارة بلادنا وماليتنا الى عهدة جلالتكم[1]». وعهد الى مندوبين من الجانبين لوضع التعليمات الاساسية التي تتمشى عليها المقاطعة بعد ذلك وأصبحت المقاطعة الادريسية مقاطعة من مقاطعات المملكة الحجازية والنجدية وملحقاتها وجعل للسيد الحسن مقام استثنائي ممتاز محافظة على كرامته وكرامة عائلته[2]

وبعد اعلان توحيد اجزاء المملكة الحجازية والنجدية وملحقاتها ، وجعلها مملكة واحدة باسم المملكة العربية السعودية ، كان من المنتظر اعادة تنقيح التشكيلات الادارية في المقاطعة الاّ ان الحسن اغترّ بمواعيد بعض المفسدين فحاول ان ينقض بالقوة ما تعهد به من قبل برضاه التام ورفع علم الثورة ضد الحكومة فجردت عليه حملة تأديبية قضت على فتنته ووضعت حدّاً لحكم الاسرة الادريسية في صبيا وجيزان وأبو عريش

(١) مجموعة معاهدات وزارة الخارجية ص ٦٦ (٢) انظر الوثائق الخاصة بذلك في مجموعة المعاهدات ص ٦٥ — ٧٦

فكاهة في نظرية النسبية

نسبية الوقت

هل تعتقد ان الدقيقة تكون في مكان اطول منها في مكان آخر ؟

لنقولا الحداد

من فكاهات نظرية « النسبية » التي ضبط قواعدها اينشتين العلاّمة الالماني المشهور أن الوقت في مكان بعيد يختلف عنهُ في مكان قريب بالنسبة الى كل من المكانين . اعني ان الثانية او الدقيقة في المريخ مثلاً أطول منها عندنا متى كان المريخ يبتعد عنا ،او اقصر اذا كان يقترب الينا . وهكذا يرى المريخي (ساكن المريخ) ان ثانيتنا او دقيقتنا اطول او اقصر حسب الابتعاد او الاقتراب

اظن ان القارىء يستهجن هذا القول ،وربما حسبهُ سخافة وعدّ قائله مخرّفاً،لانهُ يعتقد ان الدقيقة دقيقة والثانية ثانية اينما كانت. لانهُ اذا فرضنا ان الساعة التي تتكّ تكة كل ثانية بالضبط تتكها هكذا سواء كانت على الارض او في المرّيخ . يبني اعتقاده هذا على ان الزمن شيءٌ ثابت مقرّر لا يتغير بتغير الامكنة . واذا قلنا له ان الزمن ليس كما يعتقد ، بل هو شيء نسبيٌّ وقيمتهُ تختلف باختلاف بعده عن الشخص المراقب الحاسب لما قبل عقله هذا القول .فكيف بهِ اذا قلنا له ان الزمن لا وجود حقيقي له، بل هو تعبير عن خط الحركة فقط ،فلو وقفت حركة الاكوان لانتفى الزمن — كل هذا قد يتراءى خرافة للقارىء الذي لم يضطلع بمبادىء النسبية

وليس ايضاح هذه « القضية النسبية» بحيث تنجلي جيداً للقارىء بالامر السهل لان جميع قضايا النسبية مغايرة للمألوف عند الجمهور الذي تربّى وتعوّد ان يرى كل حقيقة بمفردها شيئاً مقرراً ثابتاً لا يختلف بالنسبة الى حقيقة اخرى. ولكني اجتهد بان اجلوها له ما امكن الجلاء. وعلى الله الاتكال

ان جميع قضايا النسبية نشأت من اكتشاف ناموس النور وسائر الامواج الكهربائية المغنطيسية التي ثبت ان امواج النور من جملتها — ذلك الناموس المخالف لنواميس الحركة . وهو ان النور لا يكتسب سرعة الجسم الذي يصدره كما تكتسب سائر الاجسام المنطلقة عن جسم آخر. ولا متّسع لتفصيل هذا البحث هنا (وقد وفيتهُ حقهُ في مقتطف اكتوبر الفائت سنة ١٩٣٢ في مقالة سر ناموس النور)

النور ضرب من الامواج الكهربائية المغنطيسية العديدة التي تنطلق كلها بسرعة واحدة مهما اختلفت طولاً . فاقصرها اسرعها تموّجاً واطولها ابطؤها — ولهذا تتعادل سرعتها . فسرعة امواج الراديو الذي ينقل الصوت والاشارات البرقية اللاسلكية (وسرعة كل موجة كهربائية مغنطيسية) واحدة ، وهي ٠٠٠ ٣٠٠ كيلو متر في الثانية . اي ان النور (والراديو) يستغرق وقتاً في انتقاله . يقضي النور الصادر من الشمس ٨ دقائق الى ان يصل الينا . وينعكس الينا عن المريخ في اكثر من ٨ دقائق اذا كان المريخ في اقصى بعده عنا او اقل جدًّا اذا كان في أقرب دنوّه الينا . ويقضي نور النجم قنطورس Proxima Centaurus اقرب النجوم الينا نحو سنتين وثلث سنة تقريباً الى ان يصل الينا

اذن ، نحن لا نرى ومضة نور ولا نسمع رجة صوت الراديو الاّ بعد صدورها بمدة ، حسب بعد مصدر الومضة او الرجة عنا . لذلك لا بدَّ من حساب مسافة البُعْد في كل حركة قادمة الينا على اجنحة الامواج الكهربائية المغنطيسية . فاذا تفهم القارىء هذا التمهيد جيداً واقتنع بهِ سهل عليه ان يفهم كيف ان الوقت يختلف باختلاف بُعد المراقب للحركة عن مصدرها . ولجلاء القضية نضرب المثل التالي : —

نفرض ان شخصاً في المرّيخ عنده جهاز لاسلكي ، راديو ، ينبض كل ثانية بالضبط نبضة. وعندنا جهاز لاسلكي يسجل كل نبضة تصل الينا من المرّيخ — او لنفرض ان في جهازنا ساعة يتحرك عقربها بقوة هذه النبضة الواردة من المريخ . فلو كان المريخ والارض ثابتين لا يتحركان لكان عقرب الثواني في الساعة التي تدور بقوة راديو المريخ متفقاً تمام الاتفاق مع عقرب ساعتنا الاعتيادية اذا كانت هذه مضبوطة تمام الضبط . نعم ان التكة التي تَرِدُ الينا من المريخ لا تصل في الحال بل تستغرق بضع دقائق الى ان تتكها الساعة التي عندنا الدائرة بقوة راديو المريخ . ولكن التكات ترد تباعاً ، فتبلغ الينا في مواعيدها بين كل تكة واخرى ثانية مضبوطة

ولكن ليس في الوجود جسم ساكن بل كل جسم ، من الكهرب اصغر الاشياء الى النجم اكبرها ، متحرّك بسرعة خاصة بهِ . فالمريخ يسير في فلكه بسرعة ١٥ ميلاً في الثانية والارض تسير بسرعة ١٨ ميلاً ونصف ميل بالثانية (تساوي ٣٠ كيلو متراً) — ولتسهيل الحساب نفرض ان المسافة بين الارض والمريخ تنفرج ٣٠ كيلو متراً في الثانية[1] أي انهُ كل ثانية يزيد ابتعاد المريخ عنا او نحن عنهُ نحو ٣٠ كيلو متراً ، وهذه المسافة تساوي جزءًا من عشرة آلاف جزء من المسافة التي تقطعها تكة الراديو من المريخ الينا . ففيما تنفرج المسافة بيننا وبين المريخ تتأخر تكة راديو المريخ الواردة الينا جزءًا من ١٠ آلاف جزء من الثانية ، وعلى

---

(١) والحقيقة ان هذا الفرق نحو ½ ٣ ميل بالثانية تقريباً

اصلاح خطأ جوهري

في مقال « الابعاد الاربعة » المنشور في مقتطف ابريل الماضي صفحة ٤٤٤ للاستاذ نقولا الحداد وقع خطأٌ في رموز الشكل الثاني يجعل فهم شرح القضية متعذّراً جدًّا على من يشاء ان يفهمها بجلاء. ولذلك نرجو من القارىء ان يصحح الرسم بقلمهِ فيضع فتحاتٍ على الحروف الرامزة عن « متعامدات » القطار التي الى اليمين في الرسم الاسفل الثاني هكذا :

يَ . هَ . مَ (ما عدا م السفلى)

خط . والصواب . قط . (رمز للقطار)

وصواب المعادلة الاخيرة في صفحة ٤٤٨

قـ — قَ (الثانية بفتحة)

بعد هذا التصحيح يسهل على القارىء جدًّا فهم قضية الابعاد الاربعة

التمادي نرى ان تكة ساعة الراديو عندنا تتأخر عن تكة ساعتنا الاعتيادية ، حتى انهُ متى زادت المسافة بيننا وبين المريخ عشرة آلاف كيلو متر تكون ساعة الراديو عندنا قد سجلت ٩٩٩٩ ثانية في حين ان ساعتنا الاعتيادية تكون قد سجلت ١٠ آلاف ثانية ، أي ان الفرق ثانية واحدة في كل عشرة آلاف . اذن تكون ثانية المريخ عندنا ، اي بالنسبة الينا اطول من ثانيتنا بقيمة ١ من عشرة آلاف. واذا شئنا ان نتحقق موقع المريخ حين نرصده فلا نكتفي بان نحسب مقدار الوقت الذي يستغرقهُ النور المنعكس عنهُ الينا، بل يجب ان نحسب ايضاً حساب هذا الفرق الذي نحن بصدده ، والذي لم يفطن له الفلكيون قبل ظهور النسبية

ولو كان عند المريخي ساعة يتحرك عقربها بقوة راديو صادرة من عندنا لكان يرى مثل ما نرى نحن ان ثانيتنا عنده اطول من ثانيته

واذا كان المريخ يقترب الينا او نحن نقترب اليهِ، أي ان المسافة بيننا وبينهُ تقل وتقصر، انعكست الآية وكانت ثانيته تصل الينا اقصر من ثانيتنا

هذا هو معنى نسبية الوقت، اي ان الزمن نسبي ، وليس هو قيمة مقرّرة، من غير اعتبار للمكان والمسافة بين الشخص المراقب وبعد المسافة بينهُ وبين الجسم المراقَب (بفتح القاف). بل لا بدَّ من اعتبار هذين الامرين : اولاً مكان المراقب ، وثانياً : المسافة بينهُ وبين الشيء المراقَب . وحينئذٍ يظهر الاختلاف في قيمة الزمن او الوقت

بالطبع لا قيمة لهذا الفرق بين وقت ووقت على كرتنا الارضية التي تسير حولها ومضة نور او ومضة راديو نحو ٧ مرات ونيّفٍ في ثانية واحدة . ولكن لهذا الفرق قيمة كبيرة في حساب حركات الاجرام السموية وابعادها ، وهي تقاس بسرعة النور لا بالاميال ولا بالكيلومترات .فاذا كان اقربها يبتعد عنا سنتي نور وثلث سنة فما قولك بما يبتعد بالسنين ومئات السنين. وما قولك اذا كان النور يقضي ١٨٤٠٠٠ سنة حتى يقطع نطاق المجرّة من جنب الى جنب؟

قبل ان تظهر نظرية النسبية لم يكن علماء الفلك الطبيعي يحسبون حساباً لهذا الفرق في الوقت الناجم عن تحرّك الاجرام. لو كانت الاجرام ثابتة لا تتحرّك لما كان من فرق بين الوقت هنا وهناك وهنالك . واما والاجرام كلها تتحرك بسرعات مختلفة بعضها يتجاوز الالف والآلاف من الكيلومترات في الثانية فلا بدَّ من ادخال حساب الوقت النسبي في حساب ابعاد الاجرام وتباعدها او تقاربها . ومعادلة لورنتز :

$$1 : \sqrt{1 - \frac{س^2}{ن^2}}$$

كافلة بضبط هذا الحساب مهما اختلفت الابعاد ،

باعتبار ان س رمز لسرعة الجرم ون رمز لسرعة النور

اليست هذه القضية فكاهة علمية للقارىء؟

فلسفة تاريخ الفلسفة

لعلي أدهم

المعروف عن الفلسفة في العصور الحديثة انها تتناول بطريقة علمية منظمة بحث المسائل العامة المرتبطة بالكون والحياة البشرية . ولقد عرّف بعض المفكرين الفلسفة بأنها إدامة التفكير في الاشياء ومحاولة استطلاع خفاياها والكشف عن اسرارها . ولكن هذا التعريف لا يحيط بفكرة الفلسفة من جميع اطرافها ولا يحددها تحديداً واضحاً لان الانسان لا يني يفكر في شؤونهِ العملية واحواله المعيشية حيث يعد الوسائل لبلوغ الغايات ويرسم الخطط لانجاز المشروعات. والعلوم جميعها من طبيعتها التفكير. فما ميزة التفكير الفلسفي عن التفكير العامي وغيره من ضروب التفكير العملي ؟ وفي ماذا تختلف الفلسفة عن الطب والفلك والهندسة مثلاً ؟

لا خلاف في ان الفلسفة لا تمتاز عن هذه العلوم بمادتها لان مادتها هي بعينها مادة العلوم التجريبية . فهي تتناول نظام الكون وخطته كما تتناول الانسان من ناحية تكوين الروح وبناء الجسم وتبحث القانون وتدرس السياسة وبينها وبين مختلف العلوم اتصال وثيق وعلاقة مستمرة فالفلسفة اذن لا تختلف عن سائر العلوم من حيث الموضوع ومادة البحث وانما تختلف عنها من حيث الاسلوب وطريقة التناول . فالعلوم على اختلافها تستمد مادتها من التجربة مباشرةً ولكن الفلسفة لا تتناول الموجود كما هو بل تتعمق في البحث لتصل الى اسبابه النهائية

وكل علم من العلوم يحتلُّ منطقة خاصة ويجمع الحقائق والتفاصيل المتصلة بمادته في ضوء فروضه المعينة والعالم يعمل في ميدانهِ ويصل داخله الى معلومات مقررة ونتائج حاسمة دون ان يلقي باله الى بحث علاقتها بالنتائج التي انتهى اليها العلماء الذين يكدحون في ميادين اخرى . وقد يحدث ان تتعارض هذه النتائج تعارضاً صريحاً واضحاً . فمثلاً بعض نتائج العلوم الطبيعية الحديثة تعارض نتائج علم النفس بحيث ان صدق احدها ينقض حقيقة الآخر . ومن هنا تنشأ الحاجة الماسة الى مصفاة تراجع فيها هذه النتائج وينظر اليها نظرة جامعة كلية حتى نستطيع ان نستخلص فكرة عامة عن العالم الذي نعيش فيه ومصير الانسانية داخله . والذي يعنينا في الفلسفة ليس هو الحقائق في ذاتها وانما تفسير تلك الحقائق . ومتى ابتعدنا عن الحقائق وشرعنا في التفسير يتدخل العامل الشخصي لان موقفنا ازاء الحقائق وتقديرنا لمكانتها يحتمه الى حد بعيد مزاجنا وتجاربنا وآمالنا ومخاوفنا . فكل فلسفة اذن شخصية الى حد كبير

وقد رمى بعض الناس الفلسفة بأنها قائمة على مجرد فروض تجريدية . وغاب عن هؤلاء ان نفس الافكار الكامنة وراء العلوم التجريبية هي في صميمها فروض . فالعلوم الطبيعية مثلاً تفترض وجود الاثير وعلم الحياة يفترض وجود القوة الحيوية والكيمياء تفترض وجود الذرة ويقبل العلم هذه الفروض ما دامت تخدم اغراضه وتلبي مطالبه وتعينه على اداء مهمته ولا يضطر الى رفضها الاَّ عند ما تصبح بادية النقص او تستدعي جملة فروض اخرى لتقيم اودها وتحمي كيانها وهذا يحدث من الحين الى الحين . من قبيل ذلك تغلُّب نظرية كوبرنيكس وظهور مذهب دارون . ففي كلا الحالين كان على النظرية الجديدة ان تثبت انها ايسر فهماً واقدر على تفسير الحقائق من النظرية القديمة . فرمي الفلسفة بانها تستند الى الفروض تهمة يصح ان يقذف بها ارسخ العلوم التجريبية كعباً واقدمها تاريخاً . وانما المهم هو الى أي حد تمكننا هذه الفروض من فهم الحقائق الواقعة . والفلسفة تتناول فروض العلوم كلها مثل النظرية الذرية للمادة والتصور الآلي للكون وعليها ان تلائم بين نتائج العلوم المختلفة . والعلم يتقدم من طريق التجربة اما الفلسفة فان تقدمها رهن بعملية التسوية بين مختلف نتائج العلوم . وقد يعترض العالم على ذلك ويزعم ان وقت التسوية لم يحن بعد وانه عند ما يحل ميعاده فان العلم نفسه سيتولى هذا العمل ويشرف عليه ولكن هذا الاعتراض لا يؤبه له ونحن كلنا في حاجة قاسرة الى تصور عام للدنيا في مجموعها وهذا التصور العام قد ينقصهُ التحديد ويعتريه الغموض ولكنه على ما به من نقص من الزم ما يلزم لحياتنا العقلية وكياننا الأدبي

واول ما يرمي اليه العلم هو الوصف الدقيق المستوعب لمظاهر الكون وجمع الحقائق وتنسيقها فصائل وطبقات ثم البحث عن اسم مشترك يجمع اشتاتها ويصفها وصفاً بسيطاً مستوفياً جهد الطاقة ثم تلخيصها واختزالها في صيغة عامة تسمى عادة «قانون الطبيعة» . فالعلم عليه ان يصف وليس من عمله ان يفسر . وفكرة ان العلم قد فسر كل شيء وشرح المشكلات واستفتح المغلقات فكرة خاطئة لأن العلم لا يحاول ان يرد الاشياء الى الحقيقة النهائية وانما هو يفسر الاشياء تفسيراً محدوداً بتوصيفه لظروف حدوثها وارجاعها الى صيغ عامة بسيطة . فاذا ذكرنا ان العلم قد فسر طبيعة الجزر والمد فانما معنى ذلك اننا قد وقفنا على القانون العام المسيطر على الحقائق المتصلة بحدوث المد والجزر وهو تفسير لا يكاد يتعدى حدود الوصف . ويقول البعض ان العلم يستكشف الاسباب وهو قول يتنافر في ظاهره مع تعريف العلم بأنه وصفي وليس من شأنه ان يفسر . والحقيقة ان الاسباب التي يستكشفها العلم هي الاسباب الثانوية او الاسباب المسببة لان العلم لا يثير مسألة الاسباب النهائية . وقوانين العلم كائناً ما كان نفعها لا تخرج عن حيز الفروض وكلما امعن العلم في التقدم اشتدت الحاجة الى تناول هذه الفروض بالنقد والتمحيص فمثلاً النظرية الذرية استساغها الكيماويُّ لنفعها ولكن هذا غير كافٍ لاعتبارها تصوراً نهائيًّا للواقع

والفلسفة لا يعنيها ان تثبت او تنقض فائدة تصور من التصورات في أي ميدان خاص من ميادين العلوم لأن هذا عمل علمي محض . وانما هي تختبر هذا التصور لتقرر المكان الصحيح لتطبيقه فالفلسفة تتساءل حيال النظرية الذرية هل هي تصلح نظرية نهائية لتفسير العالم العضوي ؟ وهل العالم المنظوم مكوّن من ذرات صغيرة كل ذرة مستقلة عن الاخرى ؟ واذا كانت هذه الذرات متصلة فالى اي حد تؤثر هذه الروابط والاتصالات في طبيعتها المستمرة ؟

فبين العلم والفلسفة خلاف في الغاية وخلاف في المذهب. فالعلم غرضه الاستيلاء والسيطرة والوقوف على حقيقة الاشياء بحيث يستطيع الانسان ان يتنبأ بما سيحدث لتعديل خطته وفاقاً لذلك. والعلم في مواجهته المستقبل وفي محاولته اخضاع الطبيعة لحاجة الانسان تجريبي . اما الفلسفة فهي نظرية بعيدة عن مآرب الحياة العملية وهي لا ترمي الى مد سيطرتنا على الطبيعة وانما تحاول ان تسدد خطواتنا وتنير سبيلنا في البحث عن الكمال والتوازن والنظام. والفلسفة لا تبتكر عمل طائرة او قاطرة ولا تخترع اختراعاً نافعاً ولكنها مع ذلك تحدد موقفنا ازاء الطبيعة والله والانسان وتمهد للعقل سبيل العمل في مناطق العلم والسياسة والاجتماع. ويرى البعض انه من الخير نبذ الفلسفة والاكتفاء بالتعويل على العلم لأنه مضمون النتائج جم الفوائد والعوائد ولكن هؤلاء الحصفاء ينسون ان حياتنا الداخلية لها مشكلاتها العسيرة ومطالبها الملحة ونحن ان كنا في حاجة الى الفروض العلمية لفهم تركيب العناصر وتكوّن الكواكب فاننا في حاجة اشد الى فرض نستجلي به غوامض النفس . هذه النفس التي تتدخل في كل شيء وتطالعنا من كل مرقب ولسنا نستطيع ان ننسى شأنها الاّ اذا تعمدنا اغماض العين وتخدير الفكر . والعلماء انفسهم مقتنعون بأن اشد نتائجهم ثباتاً هي مجرد فروض . وصدق هذه الفروض متوقف على قوانين الفكر التي لا تتناولها غير الفلسفة

وكثير من الناس يتساءلون عن قيمة الفلسفة لعدم تقدمها الظاهر ولأن المسائل التي تشغل بال الفلاسفة والمفكرين اليوم تشبه نفس المسائل التي تناولها مفكرو اليونان . ونفس الحلول العقيمة تتوالى كدأبها في الماضي فلا عجب ان استبق الى فكر المشاهد لهذا الفشل المتكرر والعجز المستمر ان المسائل التي تحوم حولها الفلسفة من وراء امكان العقل . ومما يغري بعض العقول بالشك في الفلسفة تأصل العامل الفردي فيها لأن كل مذهب فلسفي يتسم بميسم صاحبه وليس من الميسور انتزاع العامل الفردي من التفكير الفلسفي. فالفلسفة ذاتية الى حد كبير وهي في ذلك نقيض العلم لأنه موضوعي صرف . ونتائج العلم يستطيع الكافة اختبارها وقبولها في حين ان غلبة العامل الشخصي على الفلسفة جعلها تبدو في صورة آراء متناقضة ومذاهب متناكرة . ورغم العلاقة المتبادلة بين العلم والفلسفة وتأثر كل منهما بالآخر فان الفلسفة لا تنمو وتتزايد وتتدرج في الكمال كالعلم لأنها عبارة عن سلسلة متصلة من الفلسفات التاريخية تمثل مراحل تقدم الفكر في جميع نواحيه العلمية والسياسية والاجتماعية وموضوع هذه الفلسفات المتوالية والصلة الداخلية بينها هو مجال تاريخ الفلسفة

ويختلف تاريخ الفلسفة عن تواريخ مختلف العلوم لأن كل علم له مجاله المحدود وتاريخه يمثل التقدم المحسوس في حدود هذا الميدان . وهذا خلاف الحال في الفلسفة لانك عند ما تحاول التدقيق في تحديد موضوعاتها يخذلك الفلاسفة . ونفس تعريف الفلسفة مثار خلاف . وكل فيلسوف يستنّ لهخطة خاصةويبدأ البناء منجديد واذا اطال الانسان التفكير في الحركات الفلسفية المتتابعة ظهر له ان مشكلات الفلسفة في مجموعها ليستواضحة الحدود بارزة المعالم مثلمشكلات سائر العلوم ولعلاول واجب على الباحثين هوتحديد هذه المشكلات وربما كان هذا وحده هو اكبر عمل للفلسفة

ولقد كان الفيلسوف ديكارت يزدري تاريخ الفلسفة ويرى الاكتفاء بالتفكير الفردي المبتوت الصلة بما تقدم ومن مأثور اقواله « لا اريد ان اعرف اتقدمتني رجال ام لا » وكان ذلك منهُ رد فعل قوي ضد سيطرة القدماء التي غلبتعلى العصور الوسطى .وقد كان الفيلسوف ليبنتز اقرب منه الى الحق عند ما قال « الحقيقة اكثر انتشاراً وذيوعاً مما نقدر ولكنها في الغالب هزيلة ممزقة الاوصال فاذا تتبعنا آثارها عند القدماء امكننا ان نستخرج التبر من الترب والماس من المنجم والنور من الظلام » . وليست الفلسفة أنْ نكتفي بالتعمق في تفكيرنا الخاص بل هي ايضاً الوقوف على افكار الغير والتغلغل في بحثها

وتاريخ الفلسفة نافع كل النفع في تحقيق اطراف التاريخ العام وتصحيح اجزائه وادراك مغزاه وذلك لان الاسباب النهائية لحوادث التاريخ في اي عصر من العصور مردّها الى الافكار السائدة في ذلك العصر . والافكار التي تسترشد بها الجماعات في الحركات الاجتماعية هي وليدة التصورات الادبية والدينية والعلمية وكيفية فهم هذا العصر لمعنى الواجب والحق والصورة التي يتمثل بها الكون في خطته العامة او في قوانينه الخاصة .ومعرفةتلك الافكار والتصورات تستلزم دراسة العبقريات الفلسفية التي تبوأت مكانها في تلك العصور . فاليونان في القرن الخامس والرابع قبل الميلاد تتمثل في سقراط وافلاطون . والمؤرخ الذي يدون اعمال الانسانية دون ان يطيل النظر في تفكيراتها الفلسفية لا يستطيع الاهتداء الى الافكار المستترة التي تعمل وراء الحركات الاجتماعية الظاهرة . والفلسفة في الظاهر تبعدنا عن الواقعي وتنقلنا الى عالم المثال والفكرة ولكنها في الحقيقة تجلو لنا ما هو اكثر واقعية واوفر نصيباً من الحقيقة وليس من المبالغة ان نقول بان تاريخ الاعمال لا يدرك على حقيقته الا اذا فهمنا تاريخ الافكار

ومما هو جدير بالملاحظة ان تاريخ اي علم من العلوم ليس جزءًا من هذا العلم فمثلاً تاريخ الرياضة ليس جزءًا منها . وتنفرد الفلسفة من بين العلوم جميعها بان تاريخها جزء منها وذلك لان الفلسفة وتاريخ الفلسفة غايتهما واحدة وهي مشاهدة العقل أثناء اكبابه على التفكير في طبيعتهِ وفي مبدئهِ وغايتهِ

والفيلسوف هجل هو الذي وضع اساس فلسفة تاريخ الفلسفة لانهُ هو الذي استكشف الفكرة التي تقوم عليها تلك الفلسفة وهي ان تاريخ الفلسفة ليس مجموعة الآراء المختلفة

والمذاهب المتلونة للمفكرين المختلفي النزعات ولا هو مجرد اتساع نواحي الفلسفة واكتمال جوانبها الناقصة وانما هو العملية التي استبانت بها كليات العقل واكدت ظهورها وارتسمت في شكل تصورات واضحة معروفة . وقد اعتبر هجل تاريخ الفلسفة حركة مفردة متصلة معقودة الاوائل بالاواخر

ولكن هذا الرأي النافذ العميق أضرَّ بهِ ضرراً بليغاً اعتقاد هجل ان الترتيب التاريخي الذي ظهرت بهِ الكليات في المذاهب الفلسفية التاريخية يلزم أن يكون متفقاً تمام الاتفاق مع الترتيب المنطقي بحسب ما يراه هجل في منطقه الخاص . فهو يرى اننا اذا صفَّيْنا المذاهب الفلسفية من الاوشاب العالقة بها تكشفت لنا الفكرة المنطقية في مراتبها المتتابعة وهي الكينونة والصيرورة والوجود الخاص والوجود الفردي والكمية والكيفية الى آخره . ولكننا اذا تأملنا سير التاريخ وجدناه مزيجاً من الضرورة والنظام والحرية والفوضى ورأينا ان رابطة المنطق قد تظهر في امهات الحوادث . اما في التفاصيل المشتبكة فان الصدفة تلعب دورها ولا سبيل الى انكار تأثير الافراد في التاريخ ومهما نسبنا كل تأثير للفرد الى ظروف عصره واحوال قوميته فاننا لا نستطيع ان نسلبهُ حرية ارادته. وقد كان من جراء مغالاة هجل في اعتقاده ان سير المذاهب الفلسفية لا مفرَّ لهُ من ان يرسف في اغلال الضرورة المنطقية ان اساءت فكرته الى الحقائق التاريخية المقررة حتى اضطر التفكير الفلسفي في اواخر القرن التاسع عشر ان يثور عليها لمحاولتها ان تلوي الحقائق التاريخية لتتفق معها

وانما تسرب الخطأ الى فكرة هجل لاعتقاده الخاطىء بان تقدم الفلسفة قائم في جوهره على الضرورة الفكرية التي بموجبها يؤدي ظهور كلي من الكليات الى ظهور كلي آخر بحسب الطريقة المنطقية والواقع ان سير الفلسفة مخالف لذلك من وجوه كثيرة لان سير الفلسفة لا يتوقف على نظم التفكير الانساني وتسلسل كليات المنطق وحدها بل يتوقف ايضاً على حاجات القلب وومضات الفكر المفاجئة للافراد . فتاريخ الفلسفة باعتباره مجموعة كلية للتصورات الجوهرية لنظرات الانسان للدنيا وحكمهِ على الحياة هو نتيجة حركات فكرية منوَّعة تختلف البواعث عليها باختلاف الازمنة والامكنة وسائر الملابسات الاجتماعية

والعامل المنطقي الذي وجه هجل اليه الانظار هو ولاريب عامل هام . وفي عودة مشكلات الفلسفة للظهور من الحين الى الحين في تاريخ الحركة الفكرية دليل ناهض على وجود تلك الضرورة الكامنة في الذهن التي تستدعي ظهورها . ونفس المشكلات تتطلب تلك الحلول التي لم يوفق فيها أحد التوفيق التام ولعل في هذا دليلاً على أن العقل لا يمكنهُ أن يحيد عن مواجهة مشكلات الفلسفة. وقد لوحظ في بعض العصور أن تقدم الفلسفة كان تقدماً منطقياً محضاً وانما مصدر خطإِ هجل هو في أنهُ أراد أن يجعل عاملاً واحداً صاحب الحل والعقد في الموضوع . ونحن نخطىء في دورنا اذا أنكرنا على الاطلاق وجود منطق في توالي المذاهب

الفلسفية ورأينا في تتابعها مجرد أفكار شخصية خاضعة لاحكام الصدف . والأصدق في تاريخ الفلسفة هو ان مشتملات هذا التاريخ في كليتها يمكن تفسيرها بان الضرورة الموجودة في المذاهب الفلسفية تؤكد نفسها وتظهر حقيقتها في تفكير الاشخاص مهما كانت ظروفهم الخاصة والمصادفات المحدقة بهم وعلى هذه الفكرة قامت محاولات بعض المفكرين تنظيم المذاهب الفلسفية صنوفاً خاصة . وفوق هذا الاساس بني فكتور كوزان نظريته في المذاهب الاربعة وهي « المثالية » و« الحسية » و« الارتيابية » و« الصوفية » وكوّن اوجست كونت رأيه في المراحل الثلاث . مرحلة الدين ومرحلة ما وراء الطبيعة والمرحلة الوضعية

ولكن المنطق في سير الفلسفة كثيراً ما ينقطع خيطه والترتيب التاريخي الذي ظهرت به مسائل فلسفية كثيرة كان ينم على عدم وجود الضرورة المنطقية . والسر في ذلك ان هناك عاملاً قويًّا ينبغي ان يحسب حسابه وهذا العامل الهام تخلقه اتجاهات الحضارة وذلك لان الفلسفة تتلقى مشكلاتها وتتأثر في حل هذه المشكلات من حاجات المجتمع ومطالب الوعي العام . فالفتوحات العظيمة والثورات الاجتماعية الخطيرة والتغيرات السياسية البعيدة المدى وتطورات الفكر الديني وبداهات الفن وملهمات الشعر كل هذه العوامل تزوّد الفلسفة بدوافع مستحدثة وتيارات مستجدة وتقضي باهمال بعض المشكلات ونبذها وتعليق الشأن الكبير بمشكلات اخرى والتبحر في دراستها وهكذا الى جانب الاعتماد على العامل المنطقي فان هناك ضرورة ناشئة من الحضارة واتجاه تيار الثقافة تستدعي حق الوجود لنظم فكرية لولا هذه الضرورة لما تماسكت وارتفع بناؤها الفكري

وفضلاً عن ذلك فان الحركة التاريخية في تنوع اشكالها وتجدد اوضاعها مدينة الى حد كبير للافراد الممتازين . وهؤلاء الافراد برغم انغماسهم في احوال عصورهم وخضوعهم للفكرة العامة المنطقية السائدة في عصرهم التاريخي يضيفون على الدوام من طريق فرديتهم البارزة ونمطهم الاوحدي عاملاً جديداً . وهذا العامل الفردي في تاريخ الفلسفة جدير بالرعاية لأن حاملي اللواء في الحركة الفلسفية كانوا من ذوي الشخصيات الرفيعة المستقلة والطبائع القوية المؤثرة

واذا لاحظنا في تاريخ الفلسفة تردد مشكلاتها من الحين الى الحين وعودة نفس الحلول والمحاولات فاننا عسيون بان نجد في ذلك الحجة الدامغة على خطورة المشكلات الفلسفية وعلى ان الفلسفة ليست وهماً من اوهام الخيال ولا هي تزجية فراغ ونوع من الترف في التفكير وانما هي تتناول مشكلات حقة ومسائل جدية ولعل المذاهب الفلسفية المتعددة على ما بها من اختلاف وتناقض اوجه مختلفة لمذهب فلسفي واحد في نمو متزايد هو المذهب الذي يتضمن حكمة الاجيال المتعاقبة وخلاصة التفكير الانساني . وتاريخ الفلسفة يرينا كيف صاغت الانسانية تصورات هذا المذهب وكيف كوّنت على الحياة احكامها المجتمعة فيه

الحياة

هاج النسيم العندليب في السَّحر فهزّهُ الغرامُ وجداً فصفر
وغازل الوردَ على ضوءِ القمر وردّد الفضا صداه فاستمر
والماء غنَّى بخريره الشجر
وباتت الشمال ترقص الزهر

يا حبذا الالحان في الاسحارِ من بلبلٍ شادٍ وماءٍ جار
ومن نسيم مرّ بالازهار تخالهُ يلعب بالاوتار
امسى له في كل دوحةٍ اثر
وكل عودٍ فيه عودٌ ووتر

مرّ النسيمُ العذبُ والعيش حلا والبلبل العاني شدا ورتّلا
واذّن الدّيك بنا حيَّ على ... والوقت قد طاب وساغت الطّلى
فاغتنم الوقت وفز واقض الوطر
واجن من اللذّة بالعيش الثمر

واختلط الفجرُ بنورِ البدرِ اذ الدّراري انتثرت كالدرّ
في ليلةٍ ما خلتها من عمري قتلتها سكراً وأي سكرِ
وكل ما شاهدت فيها قد سكر
من حيوان ونبات وحجر

واستتر النجم اذ الصبح بدا ومدت الصبا الى الورد يدا

تمسح عن جبينه قطر الندا تنثر ذاك اللؤلؤ المنضّدا

فالطلُّ انجم انـ النجم استتر

والروض كالسماء زاهٍ بالدرر

والزهر الـكؤس والطلُّ طلى بين كرام الشرب باتت تجتلى

حتى اذا الورد بهـا قد ثملا عربد في الروض النسيم واعتلى

فاصطكت الـكؤس والطلُّ انتثر

وانسكب الشراب والجام انـكسر

بينا الصبا والروض في وفاق تميـل بالاغصانـ للعناق

تضمها من فرعها للساق تحـكي الحبيبين لدى التلاق

اذا بريح صرصرٍ تعمي البصر

اعقبها رعـدٌ وبرقٌ ومطر

ما ابتسم الصباح حتى قطّـبا اذ جاءت الريح تسوق السُّحُـبا

وبعد ما الهزار غنّى طرباً صاح الغراب ناعباً مكتئبا

فأعقب السرورَ حزنـٌ وضجر

وبان بعد صفو عيشنا الـكدر

كذا الحياة شأنها جزر ومدّ تعاقب السرور فيها والكمدْ

والعين ان قرّت بها تلقى الرمد وكل شيء ينتهي الى امد

والمرء لا ينفك يحذر القدر

والموت لا يبقي غداً ولا يذر

طهران

عباس الخليلي

صاحب جريدة اقدام الفارسية اليومية

ظاهرة دبلر

في الطبيعيات والفلك

قد اعتدنا نحن ابناء القرن العشرين سماع اصوات مختلفة كأصوات كثير من المخترعات الحديثة التي لم يتسنَّ لاجدادنا ان يروها كالقاطرة والباخرة والترام والسيارة وغيرها من وسائل النقل المديدة . واظنني غير مبالغ اذا قلت أن كل واحد منا شاهد قاطرة او باخرة وسمع صفيرها المتعالي مخترقاً طبقات الجو . ولكن قلَّ من اعار هذا الصفير عناية واخذ على عاتقه تطبيق احد القوانين الطبيعية المشهورة التي درسها في المدرسة .وهذا ما نريد ان نحاوله في هذه السطور

ربما لاحظ القارىء وهو ينتظر في محطة ما والقاطرة مقبلة نحوه ، يسبقها صفيرها المتعالي ان الصوت يتغير تدريجاً اي يرتفع وربما لاحظ كذلك ان صفيرها يظهر آخذاً في الانخفاض ان كانت القاطرة مدبرة عنهُ .ولا يخفى على سكان الموانىء ان الباخرة القادمة اليهم يرتفع صفيرها تدريجاً على ضدّ تلك التي على اهبة السفر فان صفيرها يظهر منخفضاً تدريجاً وهي تبتعد عن الشاطىء. هذه الظاهرة الطبيعية مدونة في اكثر كتبنا المدرسية شأن غيرها من الحقائق التي كشف عنها جهابذة العلم وتعرف بظاهرة دُبلر Doppler والقانون الذي تسير بموجبه يعرف بقانون «دُبلر». ويبدو لاول وهلة ان هذا القانون عديم الفائدة او قليلها لا يستحق الالتفات اليهِ وانعام النظر فيهِ ولكنهُ كبقية المكتشفات التي احتقرها الناس لجهلهم اياها له أثر خطير في تاريخ الفكر البشري وبوجه خاص في الطبيعيات والفلك

ولد دُبلر مكتشف القانون المنسوب اليهِ في سلسبورغ من اعمال النمسا وانتظم في جامعة فينا حيث درس الطبيعة ومهر فيها وربما اكتشف قانونه وهو بعد في سلك التعليم وأخذ في تفسيره سنة ١٨٣٣ ففرض كما فرض علماء زمانه يومذاك — وفرضهم اصبح اليوم حقيقة مقررة — أن الصوت ليس سوى اهتزازات دقائق الهواء او امواجٍ تسير فيهِ. فالقطار والعربة والناقوس ترسل امواجاً حين اخراجها للصوت تلتقطها آذاننا فتقرع طبلة الاذن وتنقل الى الدماغ وتختلف هذه الامواج بعضها عن بعض طولاً وقصراً كما ان الاصوات تختلف علوًّا وانخفاضاً وسعة

والصوت العالي او المرتفع هو ما كانت موجاته قصيرة فتكون سريعة الاهتزاز على الضد من الصوت المنخفض فامواجه طويلة قليلة الاهتزاز بطيئتهُ . ونتبين صحة هذا القول عند ما ننصت لاصوات الآلات الموسيقية المختلفة من بوق وارغن وكمنجة وقرنيطة وعود وغيرها

والقطار عند صفيره تنطلق منهُ امواج صوتية تهتز اهتزازات معينة وتسير بسرعة ٣٣٣ متراً في الثانية فاذا كان القطار مقبلاً نحونا اندفعت الامواج الكثيرة الى الامام فتتجمهر امام أذننا كأنَّ ثانيها يضغط سابقها ، وكلما اقترب منا قصرت المسافة بيننا وبينهُ ونظراً الى كثرة

الامواج وازدحامها تجبر على الانكسار فتنقسم الطويلة الى اقصر فنقول عند ذلك ان « الصوت يعلو تدريجاً » . ويتبين ذلك لرجل واقف عند شاطىء البحر وامواج البحر تهاجمه وتتكسَّر عند رجليهِ فيرى كيف الامواج تصغر — تقصر — كلما دنت منهُ ويتعالى هديرها . هذا عند اقبال القاطرة نحونا اما عند ادبارها اي ابتعادها عنا فيجري عكس ماسبق . فالقطار المدبر يرسل امواجه الصوتية المعهودة والمسافة بيننا وبينه آخذة في الزيادة والنتيجة ان الامواج يصبح لها مدى اوسع فتأخذ في الاستطالة اي تقل ارتجاجاتها فنقول إن الصوت قد اخذ في الانخفاض . هذا ما يعلل بهِ علماء الطبيعة هذه الظاهرة ودعامتهم الكبرى في ذلك ان الصوت امواج او ارتجاجات دقائق الهواء

وربما يسأل القارىء نفسه كما سأل كاتب هذه السطور السؤال التالي : اذا كان صفير القطار وهو مقترب نحونا يرتفع تدريجاً افلا يظهر كذلك اذا كان القطار واقفاً ونحن الذين نقترب اليه ؛ والجواب عن هذا السؤال بالايجاب ، فان المسافة والسرعة في الكون نسبية كما ابانت نسبية اينشتين الحديثة ومن اراد ان يتحقق ذلك فلينصت الى اجراس الكنيسة وهو مقترب نحوها فيسمع صوتها يعلو تدريجاً ان كان آتياً نحوها وهي تقرع وينخفض كذلك ان كان مبتعداً عنها . وانما الفرق في شعورنا في الحالين يختلف لان سرعة اقبالنا نحن او ادبارنا نحن ابطأ كثيراً من اقبال قطار او ادباره فالاختلاف في ارتفاع صوت الناقوس او القطار لا يبدو جليّاً

بقي القسم الثاني من قانون دبلر اعني أثرهُ في علم الفلك والبحث فيهِ شائق طريف قلما يخلو من اللذة والفائدة . واذا علمنا الفوائد التي جناها علم الفلك بواسطتهِ عن حقيقة النجوم والسيارات والثوابت القريبة من ارضنا وحركة مجموعنا الشمسي والمجرة وسرعتها في الفضاء اللانهائي — اقول ولو عرفنا ان ما دعا اينشتين ودي ستر الهولاندي للبحث في تمدُّد كوننا وتقلصه وفي صدق نظرية النسبية والكم — انما يرجع الى النتائج التي اسفرت عن تطبيق قانون دُبلَر لادركنا ما لهذا القانون من الشأن في صدر علماء الفلك

يعلم اكثر التلامذة وغيرهم من المتعلمين النظرية القائلة بأن الضوء أشبه بالصوت وانهُ ليس الاَّ امواجاً اثيرية تنطلق من الجسم المضيء الى شبكية العين حيث تؤثر في الاعصاب فنرى الاشياء ونتحقق وجودها . وهذه المعرفة مع بساطتها والسذاجة التي يظن انه تنطوي تحتها لم يعلمها امير الفلاسفة نيوتن ولا مَنْ سبقه من علماء الطبيعة الذين كشفوا عن نواميسها الازلية . واظن ان القراء يعلمون النظرية الذرية في الضوء Corpuscular Theory التي اثبتها نيوتن في كتابه « المبـادىء » Principia وبقيت هذه النظرية الى ان تصدى لها العـالم الهولاندي هو جنس سنة ١٦٦٠ وقاومها قائلاً : انها لا تستطيع تعليل خواصّ النور كلها . وادّعى أن الضوء امواج اثيرية لاذرات مادية ففقد الضوء عند ذاك صفة المادة واصبح امواجاً يتقاذفها بحر مجهول الكنه والمادة دعوهُ الاثير . وقد لقيت هذه النظرية، نظرية الامواج Wave Theory رواجاً عظيماً بين الاوساط العلمية اولاً لبساطتها في تعليل جميع مظاهر النور — كما كان

يظن — وثانياً لان لكل جديد طلاوة ظريفة . وظلّت هذه النظرية حتى أواخر القرن التاسع عشر النظرية الوحيدة التي يعتدُّ بها العلم لانها ثبتت امامه في بوتقة التجربة والامتحان الطويل. ولكن ما عتم ان أتى القرن العشرون حتى ظهر ان نظرية الامواج امست على وشك الانهيار. وما تجارب الدكتور جوزيف طمسن وابنه وولبرفرس وپلنك الا برهاناً واضحاً على فشل هذه النظرية في بعض نواحيها . وكان البروفسور پلنك من جملة من حمل عليها حملته الشعواء فهاجمها بسلاح التجربة والبرهان وقال بأنها امست على فراش الموت ووضع من ثمّ أسس نظرية جديدة تعرف في علم الطبيعيات بنظرية الكم Quantum . وقد بسطها المقتطف سابقاً بأسلوب رائق سهل التناول وعلق عليها قائلاً : نظرية الكم كأختها نظرية النسبية من ثمار الفكر الالماني زعزعت كثيراً من معتقداتنا القديمة وانزلت جلالة « السببية » عن عرشها القديم

وقد يدرك اللبيب ان قانون دپلر لا يصح في علم البصريات الا اذا عُدّ النور أمواجاً أثيرية وهذا ما وعدنا به هوجنس في نظرية الامواج فلنبسط بحثنا اذاً لنرى اي مكان لقانون دپلر من الاعراب . جاء في كتاب المبادىء لنيوتن ان النور مركب من سبعة ألوان أولها الأحمر وآخرها البنفسجي وقد اثبت ذلك نيوتن وهو طالب حديث السن وجاء هوجنس ففسر لنا هذه الالوان قائلاً . انها امواج مختلفة الطول والقصر فهي مختلفة الارتجاجات كما تختلف اصوات السلم الموسيقي تماماً في الارتفاع والانخفاض نظراً الى اختلاف طولها وقصرها وذكر من ثمّ ان اقصر الامواج في ألوان الطيف هي للّون البنفسجي وأطولها للّون الأحمر

ولنفرض ان شعاعة آتية الينا من نجم سحيق في بعده ثابت في مركزه فأمواج نوره تبقى بلا شك على ما هي عليه من لون طيفه اللهمّ اذا لم يعترِ ذلك النجم كارثة عظمى تمحو أثره من الوجود. ولكن لو فرضنا ان النجم مقبلٌ نحونا بسرعة عظيمة فلا بدّ من ملاحظة تغيير يطرؤ على طيف نوره اعني انه لابدّ ان يحدث للامواج الآتية الينا منه كما حدث للامواج الصوتية الخارجة من صفير القطار المقبل أي تقصر وتميل نحو اللون البنفسجي وذلك لان الامواج البنفسجية هي اقصر الامواج كما ان الصوت المرتفع اقصر الامواج الصوتية. ولو كان لدينا آلة بصرية دقيقة تستطيع ان تدوّن لنا هذا التغيير — كما هو السبكترسكوب اليوم — لتوصلنا الى معرفة هذا النجم باستعمال قانون دپلر

ولنفرض كذلك ان نجماً آخر يسبح في الفضاء يبتعد عنا بسرعة ١٠٠ ميل في الثانية فلا بدَّ لسرعته العظيمة هذه من ان تؤثر في طيفهِ وحالته تكون اشبه بحالة القطار المبتعد عنا اي ان امواجه تطول فيقل اهتزازها فتميل او تحيد نحو اللون الاحمر لان امواج الاحمر اطول امواج الطيف المرئية. ولو استطعنا ايضاً حساب هذا الاختلاف لتسنى لنا معرفة سرعة هذا النجم الشاسع. وبمثل هذه الاستنتاجات أخذ علم الفلك يفحص اختلاف طيوف النجوم المرصعة للقبة الزرقاء تطبيقها بموجب هذا القانون اسفر عن نتائج غريبة جدًّا وبعيدة عن التصديق والاحتمال . فقد ثبت ومثلاً ان لبعض النجوم سرعة تزيد ١٥٠ ميلاً في الثانية مقتربة من سيارنا وظهر ان اخرى تبتعد عنا

بسرعة تماثلها . وعرف ايضاً ان مجموعنا الشمسي يسير في الفضاء اللامتناهي بسرعة ١٢ ميلاً في الثانية ويزعم بعض الراصدين في مرصد جبل « وِلسُن » ان سرعة الاجرام السماوية تزداد ببعدها عنا وظنوا أن نظرية النسبية تؤيد مزاعمهم فالنجوم التي تبعد عنا ١٠ ملايين سنة نورية لها سرعة تقارب ٩٠٠ ميل في الثانية والتي يحتاج نورها الى ٥٠ مليون سنة للوصول الينا لها سرعة تقارب ٤٥٠٠ ميلاً في الثانية . والعمليات الرياضية في هذه المسائل تستوعب زمناً طويلاً وتفكيراً عميقاً حادًّا ولكن النتيجة التي توصلوا اليها بعيدة الاحتمال جدًّا فضلاً عن انهُ اذا تمادينا في البعد وحساب السرعة وجدنا ان هناك في آخر اركان الكون — ولا اركان للكون — اجرام تدور بسرعة النور، وهو قول تنفيه نظرية النسبية على خط مستقيم. والعجب كل العجب ان العقل الذي ابدع قوانين الرياضيات هو نفسه يعجب للنتائج التي توصل اليها ولا يكاد يصدقها . فلا غرابة اذا قام بعض الباحثين لانتقاد هذه الاعداد الغريبة ولتأكيد عدم دقتها واشهرهم جيمس جينز مؤلف كتاب « الكون المفعم بالاسرار » وزفسكي استاذ الطبيعيات في جامعة كاليفورنيا بأميركا . قال الاول ما خلاصته :

ان النتائج التي حصلنا عليها لسرعة الاجرام السماوية ليست حقة انما فيها كثير من المبالغة وذلك لانها لم تقس رأساً كما قيست ابعاد النجوم بل باستخدام قانون دبلر في فحص طيوف النجوم وقياس زاوية الاختلاف فيها ولكن هناك مسببات اخرى قد يكون لها المقام الاول في جعل الطيف ضارباً الى الحمرة والزرقة فالشمس مثلاً يحمر لونها عند الشفق والغسق فتكسب الغيوم لوناً احمر قانياً وذلك لمجرد مرور اشعتها في جو الارض . وهناك سبب آخر ارتآه الفلكي دي ستر وهو ان البعد ايضاً يجعل لون النور مائلاً نحو الحمرة حتى ان ابعد السُدُم اذا سلمنا بأنها ثابتة تظهر لنا حمراء عند رصدها . بقي علينا تعليل الاستاذ زفسكي لهذه المسألة الخطيرة وهاك رأيه :

ان الاشعة الصادرة من النجوم والسدم تصادف في اثناء سيرها في الفضاء كثيراً من الالكترونات الضالة السابحة فتنحرف بتأثيرها عن سيرها فيحمرُّ من ثمَّ طيفها الواصل الينا. ولإثبات رأي زفسكي رُصد عدد من السدم المتساوية الإبعاد تقريباً واختيرت بحيث يكون البعد بيننا وبينها تارة محتشداً بالمادة وطوراً قليلها فأسفرت النتيجة عن ان طيف الاولى كان اشد احمراراً من طيف الثانية كما ابانت معادلات زفسكي الرياضية . وعلى ذلك لا تكون هذه النجوم السحيقة البعد عظيمة الحركة كما زعم الفلكيون سابقاً . وتفسير ميل طيفها نحو الحمرة لا يتأتى عن سرعتها فحسب ولكن لتعليل زفسكي المقام الاول لهذه المسألة . اذ ثبت ان هناك عوامل خفية هي السبب في جعل طيف النجوم ضارباً الى الحمرة وجهلنا بهذه العوامل هو الذي جعلنا نعتقد ان الحمرة ناجمة عن سرعتها. وقد اخذ العلم يكشف النقاب عن هذه العوامل السرية، فلننتظر ما يتحفنا بهِ في القريب العاجل

القدس حمزه بها

السوپرمان

او « الانسان الكامل »

« السوپرمان » أو « الانسان الكامل » هو تلك الصورة البراقة الرائقة من « الانسانية » الناضجة المستكملة الجوانب التي لا تعتور أسوار متانتها ثغرات من الوهن أو فتحات من المثالب

بل هو « الحلم الذهبي » الذي يداعب آمال « البشرية المعاصرة » ، ويتبدى لخواطرها كما تتبدى الغادة الهيفاء أمام عيون العاشقين فتنة متحركة تستهوي الالباب بسحر جمالها الخلاب

بل هو غاية المطاف من المعارج ترقاها البشرية على مدرجة التطور نحو المثل الاعلى الذي تطمح اليه ، وتوجه جهودها المتواصلة النشيطة نحو بلوغه : ليتمثل في يدها عصا سحرية تبدل آلامها المضنية حالة راضية مرضية من السعادة والرفاهية

بل هو ذلك الندى المبارك الذي تشرئب اليه زهرات الانسانية تستنزله في شوق ولهفة : لتتفتح أكمامها عن شذاها العطري المتأرج الذي يروّح عن النفوس بعد أن استبدّت بأنفاسها تلك الرائحة الخانقة التي نشرها روح النضال بين « أفراد النوع » : مدفوعين بعوامل الانانية والأثرة ، التي تملي حب الاستعلاء والسيطرة ، جرياً وراء مطامع أثيمة من التسخير والاستغلال

بل هو تلك المرحلة النهائية التي تبلغها البشرية في تطوّرها : بعد أن تعبر جسراً من المتاعب وتخوض بحراً من المصاعب المجهولة . . . فإذ ذاك — وإذ ذاك فقط — تلعب الانسانية أمجد أدوارها على مسرح الحياة ، بل تقوم بأشرف واجباتها نحو مختلف مظاهرها أفراداً وجماعات ، ونحو بارىء الأكوان الذي استخلفها في الارض

خصائص السوپرمان

ولعمري لن يستطيع الانسان أن ينهض بأعباء تكاليفه الجديدة الا وهو مزوّد بأسلحة اخرى من كيانه المتجدد : الذي سيتكيف أنموذجه وفق قالب من تفاعيل التطور والارتقاء ، وسيتكشف هذا التطور في الشخصية الانسانية عن تقوية مقوماتها المادية والعقلية والادبية والوجدانية : كما سيكفل تحقيق التوازن بينها ، وتنظيم روابطها ، بحيث تتساند وتتعاون ، وينتفي عند بعضها الاستعداد للطغيان على حساب البعض الآخر

ولكن ، على أية صورة سيتسق هذا الطراز المرموق للانسان الكامل ؟ والى أي مدى سيتسع مجال النشاط أمام مقومات شخصيته ؟ سننتظر من السوپرمان أن يكون ذا جسم

صحيح قوي متين ، سليم التكوين ، يتمتع بمرونة الاجهزة والاعضاء ، وحرية نشاطها في الاداء

وسننتظر من السوپرمان مواهب عقلية فذة : كريمة الجوهر ، رائعة الاثر ، بمقدار ما ستتحرر من شوائب القصور عن التعمق في الادراك ، والعجز عن استكناه الحقائق وطبائع الاشياء . . . . وذلك بفضل ما سيتسع امامها من آفاق جديدة لدقة النظرة وسلامة الارتياء: نظرة شاملة كاملة مستوعبة تستعين بالاخيلة الابداعية والحافظة الواعية والارادة الحديدية على فتح المجاهيل المغلقة امام الذهن ، ليرتادها منقباً عن النواميس المكنونة ، فيضم كل حلقة الى سلسلتها ، ويرد كل فرع الى اصله ، ويرجع كل فرد الى نوعه ، ثم يستخدم الجميع وما يستجد من كل جوهر فرد ، في كشف عوالم فكرية اخرى : يسخرها بدورها مع غيرها في تحقيق اغراضه ومطامحه وما تصبو اليه الجماعة الانسانية كافة من سعادة ورخاء وطمأنينة وسلام

وسنطمع من « الحاسة الفنية » في « السوپرمان » بأزهى ما يفيضه طيفهـا من باهر الالوان : وأشجى ما تترنم بهِ بلابلها من فاتن الانغام في ساحر الالحان : لتأتلف من تلك الالوان وهذه الالحان صورة مناجية : وأنشودة داعية : نحو الكمال في أروع مثال : تحت قبة التآخي والوحدة الوارفة الظلال

وسيتجلى السوپرمان في صفاء « روحانيته » : بعد أن يتخلص تيارها من رواسب القلق والحيرة ، وبعد أن ينجلي عن روائها صدأ الغرائز ونوازع الاثرة ، وبعد ان يسجح ما ترسف فيهِ من أغلال المادية المركوزة المستقرة ، وبعد أن ينجاب ما يظللها من غيم الفردية المنقبضة المتحجرة : فاذا هي روحانية نقية طاهرة ، مجلوة متحررة طليقة طائرة : تسبح في جو جديد فسيح تعطره نسمات الحنين الى التسامح ، ويخفق فيهِ الضمير الانساني بهمسات هاتفة تمجد الاخاء والمساواة وتغري بالاندماج بل التلاشي طي تلافيف الروح الاعظم الذي ينتظم العالم والاكوان جميعاً

نظرية السوپرمان في الميزان

ولقد طالما كانت هذه الصورة الاخاذة التي اسلفنا عرضها عن السوپرمان موضع تشكك طائفة من الباحثين ، ويأس من امكان تحقق نظريتها التي تسمو في تقديرهم عن مستوى المعقول. فراحوا يرصدون عليها اشتاتاً متناثرة متنافرة من جدل سقيم لا ينهض، وتفنيد عقيم لا يدحض

(١) ذلك انهم زعموا ان « عقل » السوپرمان الهائل الجبار سيستنزف مقداراً كبيراً من قوة الانسان . فيضعف جسمه ، وهو الاساس في التغذية والاصل في التموين — لكن ذلك تعسف منهم في تأويل قانون الطبيعة في «المنح والاستعاضة»، وقياس مع الفارق البعيد على ما نشاهده من حال بعض النوابغ الذين يضطرب ميزان كيانهم . فترجح كفة عبقريتهم نظيرتها الجسدية . والعلة في خطإ هذا الدليل كامنة في اختلاف اساس القياس . اذ ان السوپرمان لن يتطوّر بأحد شطريه ، متخلفاً بالآخر عن النهوض والملاحقة في نفس الميدان، بل سيستعيض

من جسمه جسداً آخر مختلف الخصائص والوظائف كما سبق البيان وسيكون هذا الكيان المادي كفيلاً بحمل ما قُدِّر ان يستقر على عُمُده من قبة العبقرية الذهنية المشخمرة

وسيتعهد هذا الكيان الجسدي عوامل مختلفة. من نواحي التربية والفسيولوجيا وغيرها. يميط عنها اللثام ما يعالجه العلم من بذل الجهد والتجارب في هذا السبيل. بل اننا لنلمح من الآن نواة هذا التطور المنتظر: — فأمامنا نظم التربية في دول كثيرة كالمانيا وايطاليا وتركيا تتجه بوجه خاص نحو الاعداد الرياضي لتقوية الأبدان وتنميتها وتمريسها بالقيام بوظائفها على اكمل اسلوب يفي بالغرض المرتقَب. وأمامنا كذلك تلك الغاية التي يلح وراءها البحث الحثيث لتحسين النسل وتهذيب النوع حتى نظفر بنماذج سليمة قوية لا تشوّهها العلل ولا يمسخها النقص في التركيب

وأمامنا امل فسيح الرحاب في ان يكشف العلم الحديث ما غمض في الجسم من نواحيه الفسيولوجية، كما كشف اخيراً عن «الغدد الصماء» ذات الأثر الحيوي في نشاط وظائف الاعضاء

ولا يزال في مضمار البحث متسع بعيد المطارح مترامي الآفاق. ولن تزال الهمة مبذولة لاستجلاء ما في هيكلنا الجسدي من استعدادات وخصائص كامنة: هي اما مجهولة الأثر واما راكدة يعوزها التطور لتنضج وتتجاوب مع نشاط واحد او آخر من الاجهزة العاملة. وما يدرينا ان يهتدي علم «الكيمياء العضوية» الى سر ما اغلق حتى الآن من خصائص المناعة وغيرها مما تتطلبه سلامة الجسم من المرض او دقة مكافحته على اهون سبيل وأسرع اجراء؟ ثم ما يدرينا ما تنقلب اليه البحوث الطبيعية من استغلال ما في كياننا الجثماني من ذخائر الكهربائية والمغناطيسية في سبيل فتح بديع جديد يأتي بالخوارق والمعجزات في علم الطب وطرق العلاج والنهوض «بحيويتنا» نهوضاً وثاباً قد لا يأتي تصورنا على الغاية من اثره وخطره؟

(٢) وحسبنا هذا القدر تأييداً لنظرية السوبرمان من الوجهة الجسدية. ولنعمد اذن لتناول ما يسوقه المعترضون من اوجه اخرى. فهم يزعمون ان مسألة التطور ان هي الاّ فرضية بحتة هيهات ان تتحقق. وهم يدللون على هذا الزعم بتخريجاتهم الجريئة لفلسفة «كانت» عن «الزمن». فما دام «كانت» قد اثبت ان الزمن ليس له وجود مستقل او حقيقة ذاتية، فليسقط اذن في تقديرهم كل اعتبار يمكن ان يقوم لنظرية «التطور». لان التطور يستلزم جسراً من «الزمن» يعبره ويتخطاه الى غايته — لكن هذا الاجتهاد يجيء من عندهم بناء على غير اساس صحيح، وايراداً على غير قياس صريح، ذلك ان فلسفة «كانت» ذات كيان «مطلق» لا يمكن ان ينصبّ في قالب ما نحن بسبيله من «النسبيات». اذ القاعدة لدينا موجودة يخضع لحكمها «انسان العصر» و «السوبرمان» على حد سواء. لانهما يساهمان بنصيب متعادل فيما اصطلحت عليه «البشرية» من «اقيسة زمنية» هي وليدة ادمغتها وصنيعة ما جرى عليه تفاهمها وعرفها، بل ميراث اجيالها وأطوارها على ظهر الارض، ما بقيت

الارض تعمرها مظاهر الانسانية في مختلف عصورها وشتى صورها. وسيظل «التعامل الذهني» بأقيسة الزمن مستمراً قائماً ما اقام « الانسان » على ظهر الارض « حياً » : لان الزمن « كائن تصوري » تمخض عنه «الفكر» تحت تأثير «ظرف مكاني» معين هو الموضع الذي تحتله الكرة الارضية في الكون كوحدة من المجموعة الشمسية

(٣) هذا ولقد أثار المتشائمون غبار اعتراض آخر في وجه نظرية السوبرمان. فلم يفلحوا في غير استثارة كوامن الدهشة لهم والاشفاق عليهم ، رغم ما حاولوا أن يستروا ضعف حججهم بطلاء خجول من رأي الفيلسوف «شوبنهور» أقحموه على غير مناسبته وفي غير موضعه: فهم يرددون معه أن «العقل لم يخرج من أيدي الطبيعة ليعلم حقائق الاشياء ، بل ليرينا كيف نحصل على القوت ... هذه الوظيفة الحقيرة !! » .... لكن أنا الزعيم لهم أن «شوبنهور» لم يقصد الى ما لالفاظه هذه من دلالة سطحية .. وإنما توخى أن يستنفر بأسلوبه الساخر همم الباحثين وغيرهم من «العقلاء» للتأمل الدقيق المتغلغل الذي ينفذ وراء « القشور» الى أعماق «اللب» حتى يكون « العقل الانساني » قد أدى بذلك غايته العليا ولم يعطل أداء ما خلق لتحقيقه والاضطلاع بأعبائه من أنبل المهام وأشرف المرامي

أما ان العقل أداة رخيصة كما يريدون أن يهبطوا بقدرها ، فذلك ما نستعيذ منه بالانسانية الكاملة التي تتنزه بطبيعتها عن الاسفاف الى هذا الدرك السحيق ، وحاشاها أن تستوي «بعقليتها» مع سائر المخلوقات بل الحشرات الدنيا التي تلهمها «الغريزة» وحدها سبل الحصول على القوت : . . . تلك الوظيفة الحقيرة !! . . . . بلى ! فهذه طبائع الواقع ومنطق الحقائق وخصائص التكوين تتحداهم أن يطلقوا على صروح سلطانها وعول سفسطتهم ذوات القرون الزجاجية الهشة المتهشمة ؟ .. ولسنا بجامدين عند هذا الحد السلبي من المحاجة والمقارعة وان كان فيها كل دليل مقنع : يسمو على أي تطلع : ويدق دونه كل مطمع.... فهاهي باحة « الايجابيات » مفتحة الأبواب فسيحة الرحاب ، فليلجوها يروا من آثار العقل الانساني العجب العجاب الذي يبهر الألباب ، وليتفقدوا اذن كل ما أبدعه الفكر في نواحي نشاطه المتعددة من علوم وفنون وفلسفة وآداب. . وليتمثلوا كل أولئك ليعلموا بعد ذلك أن مثل هذا الانتاج الفياض يترفع بكرامة عنصره وجوهر مصدره عن أن يحبس كل ذاته على خدمة المآرب الحيوانية الصغرى ، واشباع الحاجة الطبيعية الى الغذاء ، فالانسانية تأبى بشرف مقاصدها ونبل جهودها ، كما تربأ بها حكمة وجودها ، عن أن تعيش وتحيا وتموت ، لغير وجه البطون وجمع القوت !!

وبعد ، فما العقل في صميم غايته الا أداة لتأمل الحقائق الماثلة والصعود على أجنحتها الى عالم الاسرار القصية المجهولة : حتى اذا ما كشفها ثم عرفها ، وضعها تحت تصرفه من وجهتين:

فأما الاولى فهي استغلال النواميس الكونية لمصلحة الانسانية وفق حاجاتها المادية والوجدانية وأما الثانية فهي تنظيم أشتات هذه النواميس المتفرقة : بحيث يؤلف من حباتها عقداً : ومن أشلائها جسداً : ومن اجزائها واحداً فرداً ... فتتمثل له دقائق الوجود وحقائق العالم كما تسلكها جميعاً قوانين الطبيعة الخالدة التي شرعتها روح الوحدة الأزلية بحكمة أسرارها السرمدية ... وهو بعد مكتف بأعجاز الاثر ، عن الظفر بما يعز من استكناه الجوهر ، وواجد عزاء الاقتناع وسلوى الاطمئنان في بعض ما هداه اليه بحثه . كالكهرباء التي ولد قواها وانتفع بمظاهرها : وان ابهظت كاهل ادراكه اعباءُ أسرارها ...

عندئذ تتجرد من جلال هذه التأملات مشكلة وجدانية تغمر جنبات اليقين بأشعة ضوئها : وتهتك حجب الحيرة امام الروح فتطمئن الى بارئها . بل ترقى الى فيض الانوار العلوية : تتزيد مما يتجلى عليها ، وتتزود بما يلهمها سبل الرشاد والتوفيق في حسن القيام بواجباتها نحو خالقها وما ابدع في الاكوان !

(٤) الى هنا وتنتهي المعركة بيننا وبين المعارضين لنظرية السوپرمان

فلننظر نحن في آخر حلقة من النظرية : لتكمل السلسلة وتنتهي المساجلة . ولنتساءل إذن : الى أي مدى يصل التطور بالقوة الأدبية لدى السوپرمان ؟؟ لاشك أنها ستنتعش وتنمو وتزدهر وتؤتي أكلها ثمراً جنيًّا شهيًّا ! ولسنا نسوق القول على عواهنه ، دون تدبر لمعنى ظواهره وبواطنه . بل أن الشواهد على صحته لتنطق بأجلى بيان وأنصع برهان . وها هي الانسانية فلنستعرض اطوارها وعبر سيرها : لنرى كيف انتقلت من حمأة الذلة والسخرة والعبودية : الى مكانتها العزيزة في بحبوحة الحرية والاعتداد بالكرامة الفردية ، ولنرى كذلك كيف تجاوبنا «الروح الادبية» في الانسان مع ما أحاطها من ظروف وملابسات : تفاعلت معها وتخذتها مادة لغذائها ، وصفا جوهرها في بوتقتها... أجل ! فلقد مونتها العلوم بذخائر المعرفة فتدرعت بسلاح التفهم لحقائق الكون والتقدير لذاتها . ثم أنارت لها الفلسفة السبيل الى تحديد الروابط وتصحيح الاوضاع وتنظيم العلائق : فعرفت لنفسها شرف قدرها في الوجود واستأنست لكرامة منزلتها في الحياة . . . . ثم أهاب بها هاتف الوجدان اليقظ المتنبه : فانتفضت وتململت ، وذكت جمرتها تحت ضغط العقائد السائدة : وفتقت قشرتها بعزم لبابها تحت تربة التقاليد البائدة : متطلعة الى مزاولة مهمتها في حياة جديدة : تتنسم فيها عبير «تقرير حقوق الانسان» وتستدفىء فيها بأشعة حارة منعشة من شمس الحرية والديمقراطية . . وشتان إذن بين راهنها الحاضر ، ومستقبلها الزاهر المنتظر على أوج الغاية من التطور : وبين ماضيها الكدر المنحدر : حين كانت في عهود الاقطاع : من سقط المتاع !!

السوبرمان على جناحي الزمن

والآن لمحة سريعة متمعنة متبينة : تجوس خلال حقب الزمان : لنرى هل تضامت دفتا خاليه وحاليه على غير حظ قليل او كثير من أمثلة للسوبرمان : جادت بها الطبيعة على صورة من الصور ؟ ولنرى هل بذلت الطبيعة هذه النماذج في سخاء المسرف المبذر : ام في شح البخيل المقتر ؟؟ .... أما في عصرنا هذا فان الانسانية لم تحرم من مظاهر امثلتها العليا . لكن أغلب الظن أنها امثلة متحيفة الاطراف : وان سمت خصائصها فوق مترامي الاطراف ! وهاكم الناحية العلمية شادهة بادهة في شخص «اديسون» و «ماركوني» و «اينشتين» وغيرهم.. كما يتمثل الجانبان الفني والجسدي في شخص « تاغور » .. ولعل « غاندي » أروع مثال للشخصية العامرة : بقوتها الادبية الجياشة الزاخرة : وجلال روحانيتها الساحرة المسيطرة : تلك الروحانية المتشحة بطيالس الزهد والتصوف والغيرية : التي تستمد الرفد من بعض مناحي القداسة ونبل السمو في شخصيات النبوة ... والانبياء أبدع مثال للانسانية الكاملة التي حبتها العناية بنفحاتها السامية ... فلا غرو ان استووا امام الانسانية صراطاً مستقيماً للحق النير : ولا غرو ان اتسقوا على رأس الانسانية تاجاً من الكمال يتلألأ ويتوهج ! !

على ان العصور القديمة والمتوسطة قد استخلصت هي الاخرى من ربقة الطبيعة فلتات فذة من الابطال الذين امتازت بعض مقومات شخصياتهم بنحو جبار . سواء اكان ذلك من الوجهة الفنية « كرفايل » ، او الجسدية كشجعان اسبرطة ، او الخلقية « كجان دارك » ، او العلمية كبناة الاهرام ، او الفلسفية كأفلاطون وسقراط والغزالي وابن خلدون . فالى مثل مواهبهم الطامية الطاغية يرجع الفضل في ازدهار الحضارة التي تفيأت الانسانية وارف ظلالها . وارتشفت من فرات مناهلها

والآن بعد هذه اللمحة على محيط الزمن ، في جزائر حاضره وساحل ماضيه النائي . لنرجع البصر كرتين ونطلقه مرة اخرى الى شاطىء المستقبل البعيد المترامي . ثم لنهتك حجب الغيب وسجف المجهول بأشعة تصورنا . ليتبدى لنا ما ستثمره تفاعيل التطور في الشخصية البشرية والظواهر الطبيعية والحقائق الكونية : من « عالم سوبرماني » تعمر فيه أجيال متتابعة من الانسانية الكاملة في أتم تكوينها وأبدع مثلها العليا

ترى أي نظام سيسلك الروابط بين الافراد والمجاميع ؟ واي مبادىء ستسود قواعد الحياة في الاصول والتفاريع ؟ ... لا مراء في ان الجواب على هذا السؤال الدقيق تستهدفهُ المجازفة بين حافتين خانقتين من الرجم بالغيب : وغياهب الغموض والريب . لكن هذا الجواب مع ذلك هو النتيجة المنطقية لما اسلفنا من مقدمات التصوير لشخصية السوبرمان ، وما تندمج عليهِ من خصائص تستتبع تشييد الكيان الاجتماعي على اسس صريحة وطيدة من التعاون البريء السخي

السيال وفق ما ترسمهُ مبادىء الاشتراكية في أبدع نمط من التطبيق نستودعهُ الآن ذمة الخيال على ان الواقع المحسوس يلهمنا الاطمئنان الى تحقيق هذا الخيال : وان بدا ضرباً من المحال . وها هي آذاننا لا تزال تدوي فيها بين الحين والحين صيحات مستصرخة من هنا وهناك : تنشد التعاون بين الامم والتضامن بين الشعوب : نهوضاً بالانسانية من كبوتها : واقالة للمدنية من عثرتها — وانا اعترف بما لهذه الدعوة من جلال : وما لها من أثر قوي فعال . . ولكن في الوقت نفسه اعترف كذلك بما تنطوي عليهِ هذه المناشدة من دوافع منتكسة وغاية منعكسة . . فالمسيو «بريان» — مثلاً — كان يعرض في سبيل السلام مشروعه الخاص بالتعاون الاقتصادي بين جماعة الدول الاوربية لكنهُ لم يكن يبذل جهده — عن عمد او عن غير قصد — لوجه السلام حبًّا في السلام ! لان هذا النظام الجمركي من شأنهِ ان يوقع الاضطراب في ميزان المبادلات التجارية الدولية كما تقتضيها طبيعة الاقتصاديات في العصر الحاضر ومن ثمَّ يتولد شر الحقد والبغضاء : فتلتهب النفوس بروح المنافسة الهوجاء : وتتقاطر زمراً الى ميادين الحرب الشعواء !

واخيراً لنستمع قليلاً الى « ولز » وهو ينشر في العالم رسالته ويبشر بالدعوة الى التعاون: منفراً من الحرب في نذير هلوع : وتحذير جزوع . . افلا نلفيهِ يستوحي الخوف والاشفاق من اهوال الحرب وغوائلها وفق ما يحصر جهده في دائرة التصوير لما ستكون عليهِ معداتها من فتك ذريع يعفي على كل أثر : فلا يبقي ولا يذر ؟ ؟ هلاَّ سمعناه يتناجى في دعوته بمعاني حب السلام المجرد كما تلهمهُ روح الحق والاخاء والمساواة ؟؟ كلاَّ ثم كلاَّ !! ولماذا ؟؟ ذلك لان الانسانية لم ينضج بعد استعدادها لقبول هذه المعاني واستساغة مبادئها . . وهيهات لهذه المبادىء السامية ان تثمر الاَّ اذا صادفت تربة خصبة كريمة في نفوس نجية ملبية مغذية . تتوافر فيها عناصر المثل العليا للانسانية الكاملة الشاملة ، كما نؤمل في «العالم السوپرماني» ان يكون : —

فلسوف اذن تمحى اعتبارات المسافة بالتلفزة واستخدام الطاقة الذرّية . ولسوف تتآزر الثقافات وتتفاهم اساليب الاداء الفكري . ولسوف يفيض الانتاج العقلي موارد الارزاق تترى : ولسوف تندك صروح الفروق بين الطبقات والجماعات . بحيث تتآخى الوطنية المحدودة الضيقة ، مع الانسانية الممدودة المطلقة . ولسوف ينظم تجاوبَ النشاط بين افراد النوع رقيبٌ دقيق خبير ، من صفاء الروح ويقظة الضمير وسلامة التدبير . فلكل من نفسه اذن وازع من الغيرية . ولكل من نفسه اذن دافع الى الخيرية . ترفرف فوق الجميع اجنحة خفية . لروح ملائكية موحية . تمجد الخير والحق والكمال والاخاء . ثم تهتف عالياً بنداء يشق عنان السماء . « عاش السوپرمان على مدى الزمان . خليفة الله في الارض وآيته في الاكوان» !

ابراهيم مسلم
مدرس بالعباسية الابتدائية الاميرية

شم النسيم

مكانه من تاريخ مصر القديم

قلت في مقالي المعنون «أثر الأساطير في قصة خروج بني اسرائيل» المنشور في مقتطف اكتوبر الماضي ان شم النسيم بقية عيد كان يعيده الأقدمون لهاتور في رأس السنة لذكرى الخلاص . وكان من رأيي ان بني اسرائيل بعد طردهم من مصر عيدوه في الصحراء كشأنهم من قبل وان التمثال الذي صنعوه بهذه المناسبة كان تمثال بقرة لا تمثال عجل لان هاتور صاحبة هذا العيد كان يرمز لها بالبقرة . ووعدت القراء بمقال أثبت فيه هذا الرأي والآن وقد شارفنا شم النسيم بمباهجه ومسراته أنجز لهم ما وعدت

كان أول توت وهو مبدأ السنة المصرية يحسب منذ أقدم العصور من وقت اقتران الشمس بكوكب الشعرى وكانوا يعرفونه باسم «سوذس» لموافقة شروقه لابتداء فصل الفيضان لأن الفصول عندهم كانت ثلاثة : فصل الفيضان وفصل الزراعة وفصل الحصاد. وقد عرف بالرصد ان شروقه في خط عرض عين شمس يوافق ١٩ يوليو وانما اختيرت عين شمس لذلك لانها كانت دار الحكمة ومقر عبادة الشمس ومنها ولا ريب كانت تؤخذ الارصاد لضبط أوائل السنين. الا ان سنتهم كانت تنقص ربع يوم عن السنة الحقيقية فلم تكن تبدأ في موعدها المقرر الا مرة كل ١٤٦٠ سنة وهو حاصل ضرب عدد أيام السنة في أربعة. وكانت المواسم والاعياد تختلف أوقاتها سنة عن أخرى . لكن عند ما كان الخطأ بتعاقب السنين يبلغ مبلغاً جسيماً حتى لتقع الاعياد في غير فصولها المقررة كان الكهنة لحرصهم على ضبط هذه الاوقات يرصدون الكوكب ويردون الامور الى نصابها . وقد وجدت شذرة من رسالة مؤرخة في السنة المائة والعشرين من حكم الاسرة الثانية عشرة وجهها أحد رؤساء الكهنة الى مرؤوسية ينبههم فيها الى ان عيد سوذس سيوافق اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن ويطلب اليهم اعتبار هذا اليوم اول توت . وقد ضبط تاريخ هذه الرسالة بالحساب الفلكي فوجد انه يوافق سنة ١٨٨٠ قبل الميلاد

***

ظلَّ هذا التقويم على ما بهِ من نقص الى ان ولي الحكم بطليموس الثالث الملقب افرجيت

الاول وكان محبًّا للرعية مخلصاً للدين فاقترح الكهنة عام ٢٣٨ قبل الميلاد ان ينشئوا عيداً باسمهِ يقام اربعة ايام تباعاً لتكريمه لقاء ما اغدق على الناس والمعابد من الخيرات وقرروا اصلاح التقويم بإضافة يوم الى كل سنة رابعة لتقع الاعياد في اوقاتها المقررة

ولما دخلت مصر في حكم الرومان امر اغسطس قيصر في السنة السادسة والعشرين قبل الميلاد بتعديله بحيث تتوافق شهوره دائماً مع شهور التقويم اليولياني فجاء اول توت موافقاً لليوم التاسع والعشرين من شهر اغسطس . وقد أسخط هذا الشعب المصري فقاوم التقويم المعدل زمناً طويلاً لكن طول زمن خضوعهِ للحكم الاجنبي أفقده العزة القومية وأضعف فيه روح المقاومة فغلب على أمره واستتب الأمر للتقويم الجديد . الا ان الشعب وهو من أشد الشعوب محافظة على التقاليد حرص على مهرجان أول توت وظل يقيمه في موعده القديم . ومع كرور الأعوام تنكرت معارفه للناس وغاب عنهم أصله فسمي شم النسيم لوقوعه دائماً في فصل الربيع

أول ما بدهني هذا الرأي إذ كنت أقرأ أسطورة من أساطير الاولين عن رع آله الشمس ربهم الاعلى وخلاصتها ان الناس تمرّدوا على الأله وخرجوا عن طاعته فوجّه اليهم هاتور لتنتقم منهم جزاء لهم بما كفروا . فأثخنت فيهم وأعملت يد الهلاك . ولما أن رأى الآله من السماء ما حلّ بالناس عفا عنهم وبادر الى خلاص البقية الباقية منهم قبل ان تفتك هاتور بهم وذلك بأنه أمر النساء ان يطحنّ الشعير ويصنعنهُ جعة وأنفذ الرسل الى جزيرة الفيلة القريبة من اسوان فحملوا من هناك ثماراً ارجوانية وقرمزية يتخذ منها عصير أحمر مسكر هو النبيذ . ثم أمر رع فمزجت الجعة المتخذة من الشعير بعصير تلك الثمار فكان مزاجها شراباً أحمر بلون الدم . ثم أريق الشراب حيث وقعت المذبحة . فلما قدمت هاتور في الصباح لاستئناف المذبحة انحنت على الارض وولغت في الشراب وهي تحسب انه دم الخلائق الذي أهدرت فثقل رأسها ونامت فنجا الناس من بطشها وفتكها وتلقاء ما كان لهذا الشراب من فضل في خلاص الناس شرع لهم رع ان يشربوه كلما جاء عيد رأس السنة فريضة للذكرى

***

قرأت هذه الاسطورة فذكرتني الفريضة التي فرضها رع لذكرى الخلاص ما عليه الناس في عيد شم النسيم من عادة شرب الاشربة المتخذة من الشعير كالبوظة وهي ضرب من الجعة ولعلها هي التي تشير اليها الأسطورة والسوبيا ثم مازلت أُجيل النظر في سائر التقاليد المتصلة بهذا العيد وأدمن الفكر في استنباط مراميها حتى اقتنعت انها بقايا تقاليد كانت للأقدمين في العيد الذي تحدثنا عنه الأسطورة

من الأمور التي تسترعي النظر اتصال شم النسيم بعيد القيامة الذي يعيده المسيحيون لذكرى الخلاص على كونه لا يمتُّ الى هذا العيد بسبب وليس له نظير في غير مصر . وعندي ان هذه الصلة مؤيدة لمذهبي بانه كان في الاصل يعيَّد لذكرى الخلاص وقد وصل من ثمّ بعيد القيامة لاتفاقه معه في ذلك . ومما يؤكد هذا ان كثيراً من العادات التي تمارس في الاسبوع السابق للعيد وهو المعروف عند المسيحيين بأسبوع الآلام كعادة أكل البقول المسلوقة في ايام الاربعاء والخميس والجمعة وعادة التكحل في يوم السبت لا مدلول لها عند المسيحيين من الآثار الدينية ولا رمز فيها الى الذكرى التي يحتفلون بها . لكن اذا امتحنت هذه العادات على ضوء الاسطورة التي نحن بصددها اتضح لنا انها ترمز الى بعض حوادثها

فاما أكل البقول المسلوقة فيراد بهِ التنويه الى ما تولى الناس من الذعر في الايام الاخيرة قبل ان يستنقذهم رع وكيف انهم خرجوا من ديارهم لا يلوون على شيء حتى لم يكن لديهم متسع من الوقت لطهي الطعام فأكلوا البقول مسلوقة ليقيموا بها اودهم . واما تكحل النساء عقب تلك الايام فاشارة الى ان عيونهن قد رمدت في الليلة السابقة من السهر حيث قضينها وهنَّ يطحنَّ حتى اذا كان الصباح وقد امتلأت قلوبهنَّ سكينة بما وعد الاله الناس من العفو جعلنَ الكحل لتبرأ

***

ومن العادات المستغربة في هذا العيد عادة شم البصل فكل والدة تحرص في شم النسيم ان تبكر بايقاظ ابنائها لتنشقهم رائحتهُ . ومن الاقوال المأثورة في ذلك ان من تطلع عليهِ شمس هذا اليوم وهو في فراشهِ يلازمهُ الخمول طوال السنة

وفي ظني ان هذه العادة ترمز الى ما جاء في الاسطورة من ان الاله استحيا الناس في هذا اليوم وجعله لذلك اول الايام

وسبب اتخاذ البصل لهذه الغاية كون رائحته اول ما يتنشقه الوليد مع انفاسه الاولى . ذلك انهُ بما لهُ من رائحة نفاذة قوية كان ينشق للاطفال عقب ولادتهم لتنبيههم ولا تزال هذه العادة عند القرويين الى هذه الايام

لما رأيت ذلك تحقق الظن عندي بأن شم النسيم يرجع في اصله الى عيد اول توت في الزمن القديم . وايقنت اذن انا حين نشم النسيم انما نحيي عيداً منسيًّا ونتنسم ريح الماضي البعيد ونبدي من أنفسنا ما لم تقدر العصور على اخفائه من الأواصر التي تربطنا بالجدود

أسيوط ناشد سيفين

ولز الاديب

محاضرة للدكتور ابراهيم ناجي في جمعية الشبان المسيحية

احدثكم الليلة عن ولز الاديب ، اي احدثكم عن عقل جبار ممتاز قليل النظير في تاريخ العقول الانسانية ! احدثكم عن عقل احاط بالماضي والحاضر وتغلغل في اعماق المستقبل. احدثكم عن ذهن عجيب اؤكد لكم اني لو اردت ان الخص بعض ما أنتجهُ لما كفتني عشرات المحاضرات. واني لحائر حقًا الليلة في اي النواحي اتكلم ؟ افي القصة وهو فيها قد اتى بالعجب العجاب؟ ام في التاريخ والطريقة التي ابتدعها في كتابتهِ ، وهو اول من تكلم في العالم كاسرة واحدة... لا كامم منفصلة وطوائف مستقلة ! ام في علم الحياة ، وقد اشترك مع العالم الشهير جوليان هكسلي حفيد هكسلي الكبير، في اخراج كتاب يعد من المراجع الشاملة الخالدة ؟ ام أتناول آراءهُ في علم الاجتماع وهو ميدانه الذي لا يجاريه فيهِ كاتب ولا عالم

ان ولز الاديب هو الذي يمثل الانسان والانسانية معاً بكل ما في الكلمتين من معنى . يمثل الانسان لان التعريف الكامل للانسان هو انهُ مخلوق يتميز بادمان النظر في الحاضر والماضي والمستقبل ، وهو يمثل الانسانية لانهُ وقف حياته على الدعوة للاخاء العام ، في خلق اسرة واحدة من اسر متنابذة متطاحنة تخيّم على آفاقها دائمًا اشباح الحروب والويلات

﴿ ميلاده ﴾ ولد ولز في مقاطعة كنت بانجلترا سنة ١٨٦٦ .... فهو اذن قد قارب السبعين، ولكنهُ عمرٌ حافل بكل ما هو جليل وعظيم. هو الآن في الشيخوخة ولكنهُ لا يزال في عزم الشباب الحار المتوثب . فقد اخرج اخيراً كتاباً ضخماً تناول فيهِ الكلام في سعادة العالم وهنائهِ وثروتهِ ولم يكد يظهر حتى نشر رواية جديدة Bulpington of Blup . . . . حصل ولز على شهادة B. Sc. في العلم في سن باكر. ثم اضطرتهُ احوال الحياة ومطالبها القاسية ان يعمل في محل صانع اقمشة ، ثم صيدليًا ، ثم مدرساً حتى أُصيب بنزيف رئويٍ كاد يقضي على حياته ولكنهُ كان المنحة التي وجهت ولز الى ما خلق له حقـا . فانهُ اضطر محافظة على صحتهِ وحياتهِ ان يشتغل بالتأليف والصحافة. وكثيراً ما كانت محن كهذه من البواعث على ظهور عظمة مستترة وموهبة خبيئة ، وما اكثر الكوارث التي كانت سبباً في ارتفاع الشخصية الكبيرة التي لا تهن ولا تتراجع !

وجد ولز نفسه مضطرًا بحكم حالتهِ الصحية ان يشتغل بالأدب . وهو يتميز عن كل

معاصريهِ ويفوقهم — يتميز عن هاردي وكبلنغ وشو ومع انهم من ناحية الفن الادبي البحت يتفوقون عليهِ — فان نظرتهُ الى الحياة أرحب وعقله يمتد الى آفاق مترامية تكاد تصل الى الغيب

هو رجلٌ يغوص في لج الحياة الى اعمق اعماقه ، يغوص حيث يقف الآخرون على الشاطىء ،.. هو ذكاءٌ اكثر منهُ شخصية هو شبه نبيّ يحمل رسالة للعالم ، يشرّع للناس ويبين لهم اخطاءهم ويشير عليهم كيف يتلافونها ، .... ثم ينزل الى مستواهم ، فيجلس اليهم مسامراً منادماً كاحسن وأصفى ما يكون الندمان والخلان !



﴿ ولز H. G. Wells ﴾

﴿ مميزات ادب ولز ﴾ ما قيمة ولز ؟ ولماذا هو خليق بالدرس وجدير بالتأمل ؟ ان اول ميزة له تضعهُ في القمة وتجعله نسيج وحده هي انهُ متصلٌ اتصالاً وثيقاً بالحياة الحقيقية ومندمج فيها اندماجاً تامًّا ! وما هو الادب ؟ الادب انما هو تصوير للحياة وتسامٍ بها ، وكل ادب يخرج عن هذه الدائرة فهو ادب مصطنع مزيّف ، . . .

والميزة الثانية انهُ الاديب الذي يرمي الى غاية ، ويهتم بموضوعه ويفنى فيهِ . . . ومع ذلك لا ينسى الوسيلة ، اي لا ينسى ان يكون فناناً يكتب باسلوب الاعجاز ويتخير لغة النجوم ! ولو انك جئت الى فنان كبروست او كبلنغ وطلبت اليهِ ان يكتب فيما يكتب فيهِ ولز ، في العمل والصناعة والتجارة والحواجز الجمركية ،...وان يؤلف قصصاً في مثل هاته النواحي ... والله لتعثر وظهرت فضيحته

فولز هو الاديب الوحيد الذي وسّع دائرة القصص ونوّع الاغراض ، وتنقل في شتى المواضيع ، وطرق ما لم يطرق من قبل ، فلم تعد القصة قاصرة على الحب ، بل تعدّت ذلك الى الموضوعات العلمية يبسّطها بقلمهِ الجميل ويقرّبها بذهنهِ الذكيّ ويبتدع فيها بخيالهِ الوثّاب فيأتي باغرب التخيلات ومنها كثير سبق فيهِ العلم والاستنباط ، كل ذلك في جوّ سحريّ متصل باللانهاية

والواقع انك اذا طرحت من ادب ولز ثلاثة ارباع ما يتميز بهِ من اتصاله الوثيق بالحياة ، وما كتبهُ في العلم والاجتماع .... لبقي الربع الاخير كافياً لان يعود على عدة مؤلفين بالشهرة ويغمرهم غمراً . لقد وصف الحياة والحب والموت ورسم الجمال والزهر بما لم يرسمه احد . خذ مثلاً هذا الوصف البديع لحديقة يسمعك فيها لحن جوقةٍ من الازهار

«لقد كانت الزهرات تتدفق وتتعانق كألحان الموسيقى العذبة . وترفع اليَّ عيوناً كعيون الاطفال ، وسرى الى اذني غناء سحري من فم الزهر والاغصان والاوراق وفجأة سمعت من اعماقها اغرودة طائر وخفق جناح مرتاع »

على ان القيمة الكبرى في ادب ولز هي رسالته للعالم . انهُ يريد ان يبلغك امراً ، ويحمل اليك نبأ ويهمه ان تعي ذلك النبأ ، وتدركه وتتبصر فيه . فسوف يقرأ الناس ولز في كل زمان ومكان ناظرين الى المعنى الذي يريده والغرض الذي يرمي اليه ، والصورة التي يرسمها فيبدع في رسمها وبهذا سيخلد ولز ويعيش ادبه على الاجيال بينما يموت ادب بعض الآخرين ويبلى . ادبه هو صورة واضحة جلية بارزة ، وأدب الآخرين اطار بديع الصنع مزركش منمّق اما الصورة فغامضة قلقة مبهمة وسهلٌ جدًّا على الزمن ان يمحوها

على ان ولز فوق كل ذلك بعيد النظر الى المستقبل . فهو اختصاصي في التنبؤ بما سيكون ومن قرأ كتبه التي كتبها قبل الحرب يعجب جد العجب لانهُ وصف ما سيحدث وصفاً جليًّا دقيقاً وهكذا يصيح كلما صحت نبوءته ألم « اقل لكم » . ولقد بلغ من صدقه ان اقترح بعض الظرفاء على الحكومة ان تعينه متنبيء العرش ! ما دامت تعين شاعر العرش Poet Laureate

على انهُ شخصيًّا يحب ان يذكره الناس كرجل توفر على درس الماضي . انهُ اعطى للتاريخ معنى غير ما كان له فهو الذي تكلم عن العالم كأسرة واحدة ، وهذه الوحدة هي امنيته التي يريد ان تتحقق اليوم ! يريد ان يمحو الفوارق والاجناس ، ويمزق العصبيات ، ويقسم ان هذا هو الطريق الوحيد الى السلام !

على ان صدق حدسه عن المستقبل مبني على الفهم النادر للواقع ، حتى خاطبه احد ادباء فرنسا قائلاً :

«ان الذين يعرفونك يدعونك رجل احلام . ليسوا بمخطئين . فأنت تحلم بسرعة ولكنك تفكر بشكل مخيف : فأنت تفهم كل شيء دفعة واحدة واحاديثك السريعة المطبوعة بطابع العبقرية هي اضواء تخطف الابصار ولكنك تخطف الابصار بالفكر وهذا ما لم يتمّ لاحد

سواك . اي كاتب واديب كنت تغدو لو كنت اقل افكاراً وذكاءً وعلماً ! »

لقد صار في زماننا من السهل اطلاق كلمة العبقرية على اي رجل يجيد الكتابة ولا يعنى بملبسه وانتظام حياته. فهذا الرجل الذي يبدع في وصف النساء والحرب والمدن والقسس واهل الصين ورجال المصانع والمعامل والحوانيت، والذي يرى ما في سهول اميركا وحقول اوربا، ويرى ما تتجه اليه الانسانية ، وما يتدفق نحوه تيارها — الرجل الذي يكتب في كل هذا ماذا نسميه ؟ !

بعد هذه الالمامة التي اقدم بها الاديب ولز اليكم ، اجدكم في شوق لان تعرفوا موجزاً عن آرائه وتحيطوا ببعض من قصصه . فابدأ برأيه في حاضر الانسان ومستقبله ، ثم في العالم وحاضره ومستقبله ، ثم نختتم المحاضرة بموجز لبعض قصصه الرائعة

﴿ اهتمام ولز بالفرد ﴾ ان ولز يهتم بالفرد كما يهتم بالمجموع ، ولفرط ما انتقد ومحص وغربل دعاه بعضهم متشائماً ، ولكنه ردّ عليهم ردًّا بليغاً في كتابه «اتجاه العالم» Where the World is Going تناول فيه مستقبل الفرد وبنى ملاحظاته على قواعد علمية ثابتة . وخلص منها الى ان حياة الفرد اليوم — مع الضيق الشامل والازمات المتعاقبة — اسعد منها في اي عصر من العصور الماضية . وبيّن ان الانسان يتطور تطوراً بيولوجيًّا في السنين الاخيرة غير ملحوظٍ للذين لا يدققون ولا يبحثون ، للذين يعتقدون ان الطبيعة الانسانية ثابتة على ممر العصور ! ونددّ بالذين يدعون الانسان للرجوع الى الوراء ، الى حضن الطبيعة ، الى ثدي الام الطبيعي ! اما من جهة التطور البيولوجي في الفرد ، فنقرر اولاً ان الاحصائيات الجديدة في العالم المتمدين دلّت على ان طول الحياة الانسانية في ربع القرن الاخير قد زاد نحو اثنى عشر عاماً في المتوسط ولا يهمنا من هذا ان تطول الحياة الى السادسة والخمسين بعد ان كان المتوسط يقف عند ٤٤ وانما يهمنا ان الطفل يمكنه ان يعيش اربعة اعوام مقابل كل ثلاثة كان يعيشها في الماضي ، واذن يمكن للطفل في البيئات المتمدنة في المستقبل ان يبلغ المراهقة بسلام ، ولنتذكر ان احصائيات المواليد هي خمسون لكل الف ، وان ٣٠ من هؤلاء الخمسين يموتون في سن الطفولة او المراهقة . والنقطة الثانية في التطور البيولوجي ان الحياة الانسانية كانت قديماً حياةً جنسية تناسلية محضة . لم يكن امام الرجل غير ان ينشىء عائلة وينجب نسلاً . لم يكن امامه غير ان ينشىء العائلة ويشقى لها ويحمل اعباءها ، يفرح بالمولود ، ويبكي على الميت ويدفنه ، ثم يبدأ من جديد . تلك حياة الهرة الخصبة الانتاج . ولكن التناسل اليوم ليس الكل في الكل ، بل تسمعون صيحة تدوي في كل ارجاء العالم ، تحض على تحديد النسل . وحين يتكلم ولز عن السلام في العالم ، فيدعو الى محو الفوارق . والاجناس ، وتغيير الحكومات ، يعود الى موضوع تحديد النسل ، ويؤكد انهُ لا سلام للعالم بغير العناية بهذه المسألة الخطيرة

لم تعد العائلة هي الكل في الكل، بل اصبحت دوراً خاصًا في دائرة اوسع ، تتخطاها الحياة الانسانية وتتجاوزها . لقد كان الرجل يبكر في تكوين العائلة، وينهكه القيام بكل ماتقتضيه ثم يتهدم ويعطب بسرعة . تسقط اسنانه ويكلّ بصره ويذوي ويمضي الى القبر . تلك كانت القصة كلها . اما اليوم فماذا نرى ؟ نحن في حال جديدة . الرجل لا يبكر الى الزواج كما كان يصنع قبلاً ، وفي حياته امور غير الامور الجنسية والرغبة الجامحة . واذا بلغ المشيب استعان بالطب والاطباء على الضعف والخور

والواقع ان هؤلاء امكنهم بكل يقين ان يعينوه على ان يكون في مشيبه في حالة لا بأس بها من النشاط والصحة ، واذن فالذي هو حادث والذي ينتظر ان يكون في المستقبل انه بدلاً من ان يبدأ الرجل في تكوين العائلة وحمل مسئولياتها والقيام عليها وهو في سن غض ، ثم يذبل في سن مبكر بعد ان تنتهك قواه وتتحطم من دون ان يجد حيلة في الهدم وعجز المشيب ستكون الحال ان يأخذ الرجل — وقد اخذ فعلاً — في تكوين العائلة في سن مناسب ، ولن يحصر قواه التناسلية في الانجاب ، واذا شاخ وجد من اطباء الاسنان والعيون ، والاطباء الذين همهم اعادة النشاط والشباب بواسطة العلاج بالغدد ، سيجد من كل هؤلاء من يصد عنه العطب السريع والذبول المهدد ، .... اذن فنحن سنترك حياةً منهوكة بها شبه حمى الى حياةٍ اكثر استقراراً واوفر نضجاً ، الى عمرٍ اطول واشدّ حيوية ونشاطاً

هذا فيما يختص بالتطور البيولوجي للفرد ، اما فيما يختص بسعادة الفرد فان ولز أشد تفاؤلاً . نعم ان الفرد اليوم اسعد منهُ في أي وقت آخر ، من بدء حياة الانسان على الارض الى يومنا هذا . هو أسعد رغم كل القوى التي تعترض هناءته وتعوق تطوره ، وهذه القوى موجودة حقًا ، وكثيرة. يقول المتشائمون اننا شذذنا عن حضن الامّ الطبيعة فعوقبنا ولقينا جزاءنا ، وهو قول منقوض من اساسه ! الام الطبيعة ، تحلمون بها حينما تتفرجون على الشلال العظيم والجبل المنيف والصخر الأشم ! تفرحون بها وتتخيلونها في الربيع الزاهر والنجم المتألق والقبة الساحرة ، ولكن تعالوا اليها حيث تتجمع المخلوقات ، تعالوا اليها في الغابة ، هي قسوة وفوضى. هي طراد وشهوة. هي جوع وخوف . هي كمين وشرك . هي كلمة القتل تهمس في الأرواح . وتنتقل مع العاصفة ، وتتردد في الأدغال ! ان اهنأ ما يتمتع به الحيوان هو ضعف الذاكرة وقصر البصر ، واهنأ ما يسيطر عليه الغريزة الجنسية ، وما الغريزة الجنسية غير عذاب وقلق . غير لذة مخيمة يختلط بها خوف ويظللها كغمام قاتم !

هذه هي الحياة في الطبيعة ! عمل مفكك غامض حتى جاء الانسان فوصله وجمعه واحكم نسجه ثم ان اولئك الذين ينادون بالرجوع الى الطبيعة بغية الصحة ، يحسبون ان الحيوان معافى من العلل. ولو أنهم قرأوا التاريخ الطبيعي لعلموا أن الامراض جميعها كانت متفشية تفشياً مريعاً.

فان صيادي الفيلة يقتفونهم بواسطة الأصوات التي تحدثها امعاؤهم من كثرة الغازات ، وحياة الببر ليست الاّ سلسلة من جوع فظيع الى شبع بلا راحة ، وهل كان الانسان الأول غير مخلوقٍ شبيه بهؤلاء ! مخلوق يتحكم فيه الجوع والخوف والغريزة الغشيمة . . . . والذين يقرأون عن التطور يعلمون ان اغلب العظام التي تركها الانسان الاول هي عظام مريضة

والواقع انك لا يمكنك ان تضع اصبعك في أي عصر من عصور التاريخ مهما كان زاهياً جليلاً لتقول ان الفرد هنا كان اسعد من الفرد في عصره هذا ! حتى الكتّاب الى عهد قريب ما كان يعنيهم الفرد وقليلٌ جدًّا منهم من عني بوصف حياتهِ اليومية . . . . والذي اهتم بتصوير عيشة الفرد رسمه منغمساً في الجهل والمرض والظلمات

وفي ازهى عصور التاريخ — سواءٌ عهد الرومان او المصريين — كان الفرد مسخراً . وما الاهرام ، وما المشيَّدات الرومانية الفخمة الاّ بيد الفرد المستعبد المسكين المرهق

على انه في منتصف القرن التاسع عشر فقط ، وعلى أثر المخترعات العلمية ، وعلى اثر التطور والتقدم الحديث في المعرفة ، اخذ يطلع على العالم فجر جديد ، فجر يبشر بزوال تسخير الفرد وارهاقه . فأخذ يعرف طعم الراحة ، وزال الرق وتحسنت الصحة العامة وقلت الوفيات !!

وعلى رغم العوائق التي تعترض تقدم الانسانية ككتلة العوائق التي سنبينها فيما بعد ، على الرغم من كل هذا فان الفرد ارغد حالاً ، وسيطرد الرخاء والرغد في المستقبل . ثم يصيح ولز : اذن فاعلموا اني متفائل ، أرى الفجر يقترب وارى البشائر في حواشي الافق !

«ولز والعالم» علمتم رأي ولز في مستقبل الفرد ، وقد تبين لكم عمق بصره وحدة ذكائه اما في ما يختص بآرائه في العالم فهي اعظم شأناً واكثر جدة وطرافة ، ومنها تتبينون اموراً لفّها المضللون في اثواب من الزور ، وطلوها بطلاء كاذب ، فاذا اردتم ان تماشوا العصر وتقفوا على دخائله ، اذا اردتم ان تعلموا شيئاً عن حكومات العصر ، وعيوبه ومن أين نشأت .... وعن النظام المالي ، وعن شبح الحروب المهددة للعالم ، اذا اردتم ان تعرفوا ذلك بوضوح فعليكم بولز . وقد قال احد كبار ادبائنا انهُ لم يفهم الاشتراكية الاّ بعد ان قرأ كتاب ولز «عوالم جديدة محل عوالم قديمة» New Worlds for Old . وقد اجتهدت ان اغرف لكم من البحر الزاخر الغني بالدرر فعذراً اذا قصرت فقد اخذت على عاتقي مهمة تنوء بها الهمم

نحن في عصر الديمقراطية . والديمقراطية متأصلة في نفس الانسان من اول نشوئه ، ولكنها لم تأخذ في سبيل التحقيق الا في القرن السادس عشر . في ذلك العهد بذرت بزورها ، وفي العصور التالية نبتت ونمت ، وفي عصرنا ازدهرت ، وليست فكرة الديمقراطية فكرة سياسية فقط بل هي تتناول الأدب والفن والموسيقى

ماذا نعني بالديمقراطية ؟ الواقع ان اغلب الناس حتى المفكرين منهم يلتبس عليهم ادراك

معناها الحقيقي ، وكيف هبطت الينا ، ومكانتها اليوم . ان الديمقراطية ترمي الى غايتين

(١) كل الناس متساوون تحت عرش الله

(٢) كل الناس متساوون في نظر القانون

ومعنى هذين بكل وضوح انهيار النظم البالية المتحكمة ، وتحدي الاستئثار والسلطة ، ومعنى هذين أيضاً انفصال الفرد عن كتلة المجموع ، وتحرره منها وشعوره بذاتيته ، والاعتزاز بنفسه كشخص حرّ له ان يحب ما يشاء ويصنع ما يشاء

اما في السياسة فتعلمون ان الحكم اصبح دستورياً ، معتمداً على اصوات الافراد الانتخابية

أما في الادب فبعد ان كانت الرواية تعنى بالمجموع ، وتتكلم عن الملوك والامراء والابطال والديانات وما الى ذلك ؛ اصبحت تعنى بخُلُق الفرد وحياته وتحلل ميوله واهواءه ومعيشتهُ . ولا شك ان اكثركم قرأ رواية « دون كيشوت» الشهيرة ففيها بوادر السخرية بالارستقراطية والتمرد عليها ، وان في انتصار الطاحونة ، التي هي ملك للعامل البسيط ، على البطل المدرّع ، لرمزاً جديراً بالتبصر . وخذوا مثلاً روايات الادباء جبابرة القرن التاسع عشر كزولا وبلزاك ودكنز وترجنيف . تجدونهم يصورون العالم كسوق كبير فيه الرائح والغادي كل يعمل لحاجتهِ ، حرًّا منفصلاً وهو مع ذلك متصل بالانسانية الكبيرة اتصالاً لا يغمر شخصيته ولا يمحوها

وكذلك في الفنون : فقد كان الفن يعنى بتنسيق عمارة ضخمة ، او النقش في هيكل ديني او خدمة نزعة سياسية ، وكانت الموسيقى مقتصرة على ألحان دينية ، او ألحانٍ تطرب الملوك وتستثير هِمم ابطالهم وجنودهم في ميادين الحرب والقتال . لقد تغير كل ذلك واصبح كل فنان يعمل كما يهوى ... حرًّا طليقاً كالطائر الباسط جناحيهِ حيث تستهويه اجواز الفضاء !

إذن ... فان الديمقراطية هي انفصال . هي تجزء ، هي انطلاق ذرات كانت ثابتة في هيكل السياسة والآداب والفنون . . ويجوز لنا اذن ان نسميها الديمقراطية التحليلية . . ومن المتناقضات العجيبة ان يقابلها في نواح اخرى نظام تركيبي ، وبخاصة في العلوم . فلقد كانت الحقائق العلمية منفصلة لا انضامّ بينها فأصبحت هذه الحقائق خاضعة لتجارب تحققها وتنظم عقدها حبة لحبة

قلنا ان الفرد قد انفصل عن كتلة المجموع واصبح معتزًّا بنفسهِ ، ثائراً على التقاليد القديمة فماذا جرّ عليه اعتداده بنفسه ؟ جرّ عليه امرين ، الامر الاول نضاله في حدود بلاده ضد ما بقي فيها من آثار التحكم والقوة ، ونضالٌ خارج بلاده معتزًّا بما يسميه بالعصبية القومية ، فخوراً بعلمه ، مدافعاً عن وطنه بلا حساب .... ولكن من العجيب انه وهو في هذا الانفصال والتحرر يتطلع الى المشروعات الاقتصادية المركبة الضخمة التي تحتاج الى جهود متجمعة اي ان الديمقراطية التحليلية تؤدي عن غير قصد الى نظام اقتصادي مركب ، . . . . : وهنا

يصطدم الفرد من جديد بالرءوس التي تريد ان تتزعم ، وتدير العمل وتتحكم فيه ، ومن هنا نشأت فكرة الاشتراكية فما الاشتراكية مهما تختلف الآراء فيها الا نظاماً يراد به بث الديمقراطية في النظام الاقتصادي ، كما بثت في النظام السياسي ، او بعبارة اخرى ان ينقل الحكم في عالم الاقتصاد من رأس يتحكم فيها ويديرها الى جماعات من نفس العمال ، او من قوم ينتخبهم العمال. فالديمقرطية التحليلية امرٌ جميل جليل ولكنه يمتدُّ ويتشعب في غير حدود ولا نظام . على ان شعور الفرد بنفسه وكرامته وقوميته في كل امة جعل شبح الحرب قائماً ينذر ويهدّد ، وان كل فرد في سبيل المغامرة المالية لنفسه جعل النظام المالي مضطرباً قلقاً والاصطدام بين العمال وأصحاب رؤوس الاموال ، جعل النظام الاقتصادي متداعياً على وشك الانهيار ، وتلك هي المشاكل الثلاثة التي تواجه العالم الآن . وهي كما تبين لكم ايها السادة منشؤها ديمقراطية تحليلية ، تتشعب وتمتد وتطغى بلا حد ولا قوام

بعد هذا التفسير المنطقي المعقول للمشاكل الحاضرة نريد ان نسمع من ولز طريقته في العلاج . ما دام قد شخص الداء ، يقول هذا الطبيب المشخص لعلل العالم اننا لا يمكننا بالطبع بحال من الاحوال الرجوع الى الاساليب القديمة والنظم العتيقة ، ولكننا في حاجة الى اصلاح هذه الديمقراطية التحليلية ، وايجاد ما يسمى بالديمقراطية التركيبية Synthetic Democracy

ان الحكومات الحاضرة في نظر ولز غير صالحة ، ان الزعماء الذين يصلون الى مراتب الحكم معتمدين على صوت الفرد ، جلّ همهم أن يرضوه ، وأن يصلوا ... وهم لا يصنعون شيئاً يبغون به سلام العالم ، انما هم يجتمعون ويتكلمون ويؤدبون المآدب ولا يقومون بعمل جديّ . فولز غاضب على الساسة ، غاضب حتى على أمتهِ ، غاضبٌ على الاستعمار ، يود أن يفتح عينه ويغمضها فيرى مقاعد الحكم وقد خلت من هؤلاء ، وجلس عليها قومٌ ينظرون بعينهم لا الى امتهم فقط بل الى العالم كاسرة ، ولا يتعصبون لمواطنيهم وذوي رحمهم بل يتعصبون للاخاء العام ويعملون لمحو الفوارق وهدم الحواجز الكاذبة التي تفصل بين امة واخرى وبين شعبٍ وآخر !

يريد ان يرى في كراسي الحكم قوماً متطوعين ، مستعدين لان يموتوا في سبيل اغراضهم وما اغراضهم هذه غير ان تنتهي الحروب ، وتخلق وحدة اقتصادية كبرى تشمل الدنيا ، ووحدة مالية تحفظ العالم من الخراب والدمار ! هذا ما يقصد ولز بالديمقراطية التركيبية ، في كتابهِ يوتوبيا الجديدة ، التي يتخيل فيها المدينة الكاملة والحكومة المثالية ... يريد تعاضداً وتسانداً في الحكم والاقتصاد والمال .... ويقول انه ليس يحلم وانه يرى في الافق طلائع مقبلة تميزهم وتؤكد وجودهم وان حجبهم عنا الغبار الذي تثيره مواكبهم

***

هذه بعض آراء ولز وتنبؤاتهُ أَلا تجدونهُ جديراً بالاجلال ، جديراً بان تقرأوه وتلتفتوا اليه؟

﴿ ولز القصصي ﴾ الاديب ولز قاصٌّ بارع ، كتب في جميع الاغراض وتناول كل الشؤون ، وجوّد في القصة القصيرة كما ابدع في القصة الطويلة ؛ وكل قصصه جيد وممتع ، بحيث يحار الانسان ماذا يلخص وماذا يدع ! وقد اجمع النقاد على ان احسن قصصه القصيرة هي قصة «صانع المعجزات » وقد انتخبها هو بنفسه عند ما دعي لان يختار احسن قصصه ، ولكني وجدت قصة « قلب المس وينشلزيا » أجمل واظرف وسأبدأ بتلخيصها لكم . . .

المس وينشلزيا فتاة جميلة راقية تدرس في احدى الجامعات اصطحبت صديقتين لها في سياحة الى روما. ويفهم من سياق القصة ان الفتاة تفوق صديقتيها جمالاً وثقافةً ومالاً وجاهاً. يقطعن الطريق في دعابات وحوار ، فكلما رأين شيئاً ضحكن وسخرن في مرح وجذل . الى ان وقف القطار ساعة في محطة من المحطات فصاح صائح يدعو شخصاً لم يرينهُ باسم غريب ضحكن له واستغرقن في الضحك: هذا الاسم بالانجليزية هو Snooks يقابله عندنا جُعْلص مثلاً فتضاحكن وتخيلت كل واحدة انها حبيبة اوزوجة لشخص يدعى بهذا الاسم وكلما افتكرن في هذا أغرقن في الضحك. حتى بلغن روما . فصرن يتنقلن بين آثارها وهياكلها العظيمة ، ففي اثناء طوافهن تعرفن الى شاب مثقف جميل وسيم صار يطلعهن على ما لا يعرفن ثم ينصرف في ادب ووقار تام . وصار الحظ يجمعهن بهِ مراراً فتعلقت بهِ وينشلزيا ، ورأت انهُ يبادلها عطفها .... حتى خلت بهِ مرة وأخذا يستعدان لحديث اعمق ، ويهمان بان يبوحا باسرار دفينة ، ، فاذا بصاحب له يناديه عن بعد « انت هنا يا جُعْلص » فبهتت الفتاة ... وكأنما اسدل بينها وبينهُ حجاب كثيف وتنكرت له من ذلك الوقت ، تنكرت لاسمه الذي لم يعجبها ... ولكنها راحت تفشي سرها لاحدى صديقتيها : وتقول لها اذا عدنا الى وطننا فاتصلي انتِ بهِ واكتبي اليَّ ....وفي انكلترا تتصل بهِ « فاني » ... و«فاني» هذه فتاة ضخمة لا تصلح لغير الطبخ والكيّ ، اي لا تصلح لفتى مثقف مهذب جميل

المهم انها اتصلت بصاحبنا ... ولكنها لم تكتب الى صديقتها عنهُ غير كلمات قليلة لا تشفي غليلاً ... الى ان ارسلت اليها خطاباً ذات يوم تخبرها فيهِ انها تزوجت «جُعْلص» . . . وعقّبت انهُ مرضاة لخاطرها قد غيَّر اسمهُ ...فانهارت آمال وينشلزيا اولاً لان صديقتها خانتها، وثانياً لان العقبة التي تخيلتها كبيرة : عقبة الاسم كانت غاية في البساطة ، وثالثاً لان فاني هي الوحيدة التي لا تصلح زوجة لذلك الرجل

على انها تعللت بالمحال ، وتوقعت ان يحصل بينهما خلاف ، فلم يحدث ، فزارتهما في منزلها فرأت ما زادها حسرة وألماً . وجدت الحبيب المثقف الرقيق قد سمن واستكرش ، كلّمته في الادب فلم يذكر حرفاً ، وفي الفن فلم يفتح فمه ، فحادثتهُ في الاكل فاندفع كالسيل ...!

﴿ صانع المعجزات ﴾ كان المستر فوذرنجاي حتى الثلاثين من عمره ممن لا يؤمنون

بالمعجزات . وهو صغير الجسم شديد سواد العينين يشتغل كاتباً في احد مصانع الدراجات

فذات ليلة اجتمع بصاحب له في بار لونج دراجون وما لبثت المناقشة ان دارت بين الصديقين حول امكان حدوث المعجزات او استحالته، فصاحبنا فوذرنجاي متعنت لايقبل ان يستمع الى مثل هذه الخرافات ، وصاحبه شديد الايمان بها . وثارت المناقشة حتى صاح فوذرنجاي مشيراً الى المصباح الكهربائي الذي ينير الحانة : اتظنني لو حصرت ارادتي واشرت الى المصباح بقوة الارادة وامرته قائلاً « انقلب ايها المصباح رأساً على عقب على ان تظل مضيئاً » اتتحقق مثل هذه المعجزة . فلم يكد ينتهي من قوله حتى انفصل سلك المصباح المعلق من مكانه في السقف. وانقلب كما امره . اما هو فوقف باهتاً . واختبأت فتاة الحانة مرعوبة . وفرّ بعض الزبائن ولم يطل هذا المنظر غير ثوان صاح بعدها فوذرنجاي « النجدة النجدة ! ان قواي لاتستطيع ان توقف المصباح على هذه الحال طويلاً ! اني اشعر بالعجز » . فما لبث المصباح ان وقع محطماً وساد الكلّ ظلام دامس ! واخذ الجلوس يلومونه لوماً شديداً على جنونه هذا واقترحوا عليه ان يسرع بالانصراف ففعل ! ووصل الى حيث يسكن مفكراً مهموماً لايصدق ما حدث. فارتمى على فراشه بملابسه يفكر .وخطر له من جديد ان يجرب قوته الخارقة في الشمعة المضاءة. فحصر ارادته وقال لها ارتفعي من مكانك وانقلبي وظلي مضيئة . . . .فكان في الحال ما اراد. ثم أمرها بالنزول فسقطت مشتعلة واحرقت الغطاء . . .

فعرف ان الله حباه قوة غير عادية ... واخذ يجرب من جديد . طلب ان يهبط عليه عود ثقاب . فرأى بصيصاً من الضوء وعود ثقاب يقع في قبضة يده . وشعر بالظمأ فامر بورقة ان تصير كأس ماء ، فكان له ما أراد ، ثم خلق على هذه الطريقة مشطاً ثم فرشة اسنان ...

وأراد ان ينام من دون ان ينفق جهداً ، فامر ملابسه بترك بدنه ، وبحذائه تخلع ، وامر لنفسه بقميص من الحرير ثم امر نفسه بالنوم العميق والاستيقاظ في ساعة حدّدها

وذهب الى عمله في اليوم التالي مضطرباً كمن يكتم سرًّا ويحمل أمراً عظيماً ، وانصرف في المساء ، ومشى في شارع قليل الضوء مفكراً يضرب بعصاه الارض فخطر له فجأة ان يصنع معها ماصنع موسى بعصاه .... ان يقلبها حية تسعى . ولكنه خشي العاقبة . فامرها ان تستحيل « زهرية » فاستحالت ، وان تعود عصا كما كانت فلم ترفض له طلباً ، غير انه ما لبث ان سمع ضجة ورجلاً من المارة يتقدم اليه في الظلام سابًّا شاتماً لان العصا في حركتها اصابت ذقنه فأدمتها .... وجاء على الضجة الكونستابل رونش ولامه كثيراً على اعماله الجنونية وذكّره بفصل الحانة ليلة امس ، وانه كان حاضراً كل شيء . ومازال يسبّه حتى ضاق به صاحبنا ذرعاً فصاح به « إذهب الى جهنم » Go to Hell . فلم يعد هناك كونستابلٌ ما . ذهب رونش، راح حقيقة الى جهنم ! فانزعج فوذرنجاي وانبه ضميره على ارسال الكونستابل الى جهنم ، وشاء

يخفف العقاب عنه فامره بالذهاب الى سان فرنسيسكو

وذهب في اليوم التالي الى الكنيسة ، وخطر له ان يخبر راعي الكنيسة بما وهبه الله ، فانتظر حتى انتهت الصلاة ، وزاره في بيته ، وباح له بكل شيء ، واسرّ اليه ندمه على ما فعله بالكونستابل رونش ، وانه بعد ان نقله من الجحيم الى سان فرنسيسكو لايزال ضميره يؤنبهُ اذ ماذا يصنع الكونستابل المسكين في ذلك البلد النائي السحيق . فطمأنه القسيس واخبره ان الله اختاره والله يختار مايشاء ، وطلب اليه ان يعرض «العابه» . فنظر صاحبنا الى علبة التبغ قائلاً كوني وعاءً مملوءًا بزهر البنفسج فكانت ، ثم قال كوني صحن سمك فكانت ، .. وهكذا. فطرب القسيس وآمن،ودعاه للعشاء معه .. فشكا القسيس اليه كسل الخادمة ، فقال فوردنجاي انك سترى عجباً . وامرها امراً خفيًّا ان تقلع عن الكسل ، فسمعوا في الحال صوت الاطباق والمعالق وحركة جيئة وذهاب ونشاطاً غير معتاد ، . . . . لقد استيقظت الخادمة من نومها العميق ، وهي تهيئ لهم العشاء في اهتمام لم يره القسيس ولا أحد من قبل

وطاب للقسيس ان يستغل هذه القوة الخارقة في اصلاح الناس ، فكان يدور بصانع المعجزات في الحانات وبؤر الفساد . فاستحالت الخمور ماءً ، وامحت الجرائم،وصلح الاشرار، وكثر الابرار

وذات ليلة سهر فوردنجاي مع القسيس حتى الساعة الثالثة صباحاً، فخطر للقسيس ان يجرب صاحبه من جديد فاشار اليه ان يأمر الزمن بالوقوف والارض بان لاتدور فوقف واستجمع كل عزمه وصاح «أيتها الارض قفي عن الدوران» . فوقفت الارض كلها ووجد الرجل نفسه يطير في الفضاء بسرعة مليونين ميل في الثانية .. فحاول ان يستجمع قواه ويأمرهُ بالعودة فخانته قوته.فشحذ عزمه وامر الكرة الارضية ان تعود الى الدوران وان يعود هو الى الارض سالماً

فدارت الكرة الارضية ، وعاد هو سالماً ، ولكن ماذا وجد ! وجد الزلازل في كل مكان ، والاعاصير تهب والمباني تتطاير والماء يتدفق ... فجمع ارادتهُ وقال « يا الله ! يا ايتها القوة العظيمة ... يا جميع القوى السماوية والعالمية اعيدي الحال الى ما كانت عليه .. وخذي مني قوتي الخارقة مقابل ذلك . اعيديني عاجزاً وانقذي العالم » . فلم تتم صيحتهُ حتى وجد نفسهُ جالساً في الحان ... والكأس العاشرة في يده ... يناقش صاحبهُ في امر المعجزات وينكر وجودها بتاتاً ... ويصيح كلاّ . انها كلام فارغ ... لا يوجد معجزات

﴿ القصة الطويلة ﴾ اشهر قصص ولز الطويلة هي تونو بانجاي وكيبس واستيقاظ النائم وعالم وليم كليسولد ومكيافلي الجديد.ولكنني اختار قصةُ تونو بنجاي لانها شبيهة كل الشبه بما يحدث في مصر... مصر التي يكثر فيها العنبرول والكالفلويد ، ويثري فيها ثراءً فاحشاً اصحاب هذه العقاقير . بينما يجوع اصحاب الضمائر،يتمتع الدجالون بالرخاء واليسر ويمرحون في اثواب النعمة

تونو بنجاي Tono Bungay اسم دواء اخترعهُ الصيدلي الحقير السمين بوندريفو . رنّ

في اذنهِ فجأة ... فهمس به في اذن مساعده وابن خاله جورج ، وصاح الا تجده كصوت القنبلة هذا هو تركيبهِ يا جورج. انهُ مقوٍ للاعصاب. وهذه صورة الاعلان وسوف ننفق على الاذاعة عنهُ المال الذي يخصك من ابيك. لا تحتجّ بالضمير يا جورج ودعك من السفاسف ودعني اعمل

وبعد ان كان دواءً مقوياً تفرع منه مسحوق للاسنان ، وآخر مانع لسقوط الشعر ، وقطرة ، وصابون ... وكذلك تدريجاً اختفت العناصر التي تكونهُ .. ومع ذلك سار مسير البرق وانهال المال ... وصار العم يزداد وجاهة وايماناً بذكائهِ وازداد كرشهُ الضخم تطبلاً وتكوراً وصار لفمهِ شكل افواه العظماء ، اذا صحّ قول غالزورذي ان اعيننا هي ما نحن اما الفم فهو ما نصير اليه . وتعددت المشاريع وكبرت الشركة ... واتسع المعمل على لا شيء

واخذ العم يبتني قصراً ... واخذ جورج يتحبب الى فتاة غنية تدعى بياتريس ، ومن يقرأ قصة الحب بينها وبين حبيبها يؤمن بان ولز عالم نفسي من الطراز الأول : تقول له وقد خرجا الى الغابة والمطر يسقط رذاذاً اني احبك الآن لا لما فيك من مفاتن بل احبك باجمعك ، احب فيك غرورك وحمقك ، احب قطرات المطر على معطفك . ثم يوصلها الى منزلها فتقول لهُ تعال : ادخل اني احبك الآن . ولكن الابله يجيبها نعم ولكني مضطرٌّ الى الذهاب .. فتغلق الباب غاضبة وهي تقول « اذن فاذهب . »

وكل من قرأ علم النفس الخاص بالمرأة يعلم ان المرأة غير مستعدة لان تهب نفسها الا في ساعة واحدة ترتمي فيها بين ذراعي حبيبها وقد فقدت كل وعي . وهذه الساعة يعرفها وينتظرها كل «دون جوان» خبير ، وتمرُّ على الغر الابله دون ان يلحظها

قلنا ان الثروة انهمرت كالسيل ، واستعملت في المشاريع الجديدة ، أي في نصيب جديد . الى ان حدث ذات يومٍ ان كان العم متعباً مريضاً وفي عينيهِ أثر الدموع ، وعلى وجههِ ذلة ومسكنة . فسألهُ جورج عما بهِ ، فاجاب لقد ذهب كل شيء ... ان الخراب والعار يهددانا .. انهم يحققون معي ، ويحللون الادوية ... ويسألونني عن الترخيص ، وليس لدي ترخيص . ثم يبكي كما يبكي الطفل وهما امام القصر الذي يعلو ويتطاول

يهربان في طيارة ويمرض العم وتشتدّ عليهِ الحال في باريس . وهنا فصلٌ من اقوى الفصول في الادب على الاطلاق ، فبينما انت تعرف ان الرجل نصّابٌ فاذا بك تشفق عليهِ وتجد الدمعة تترقرق في عينيك ، وتؤمن بقوة ولز الاديب لانهُ يجعلك تشعر انك لست امام الرجل النصّاب يحتضر ، بل امام الانسان بكل ضعفهِ وعيوبهِ وعجزه امام المقادير والموت ، امام الآمال التي تتجمع ثم تنهار ، وامام العظمة التي تكاد تقبض عليها فاذا هي تتوارى كالشبح ، واخيراً امام الماء الذي نمضي اليهِ ظامئين فاذا هو سراب يلمع في الصحراء ثم يختفي

وختاماً اوجّه نظركم من جديد الى الاديب ولز فهو جدير حقّاً بأن تنفقوا في درسهِ اوقاتكم

من الارز الى الزوفى

تأليف المسز كروفوت والمس بلدنسبرجر

بحث علمي لغوي بقلم الدكتور معلوف باشا

دفع اليَّ صديقي رئيس تحرير المقتطف هذا الكتاب لأرى رأيي فيه فلما قرأت اسمهُ وما جاء في الصفحات الاولى منهُ لم احفل بهِ كثيراً لاني ظننته كتاباً يبحث في بقول فلسطين وأحاديث القوم فيها ولكنني لم اكد انتهي من قراءة فصل منهُ او فصلين حتى شعرت أني عاجز عن نقده لان عملاً مثل هذا يقتضي بحثاً دقيقاً في ما ورد في الكتاب من أنواع البقول المختلفة وفي اسمائها العلمية والعربية والانكليزية وهو أمر شاق يستوجب معرفة واسعة في علم النبات وعلم اللغة والعلوم الاخرى وهذا مالا قبل لي بهِ الآن . ولكنني قبل الدخول في البحث اقدم القارىء الى المؤلفتين الفاضلتين كما عرفتهما من كتابهما لاني لم احظَ بمعرفتهما بالذات بل من فضلهما على العلم والأدب . فقد علمت من الكتاب ومن مقدمتيه ان المسز كروفوت هي التي كتبتهُ ورسمت الصور التي فيه بقلمها وجمعت ما جاء فيه من فوائد البقول الطبية مما ذكره ديسقوريدس وغيرهُ من القدماء .(١)

واما المس بلدنسبرجر فهي التي قامت بجمع أحاديث القوم عن البقول وفوائدها الطبية والمنزلية واخبار زراعتها ونحو ذلك . ويظهر ان المؤلفتين تجيدان العربية فالمس بلدنسبرجر اقامت العمر في فلسطين وخالطت القوم حتى صارت واحدة منهم . والمسز كروفوت اقامت زمناً في مصر والسودان وفلسطين وجالت في انحاء السودان مع زوجها . واذكر أني رأيت لها كتابين أحدهما اسمه «بعض أزهار الصحراء» والآخر «ماله زهر من النبات في السودان» وهما مزيّنان برسوم أنواع النباتات التي وصفتها وذكرت اسماءها العلمية والعربية والانكليزية وقد استعانت في تحقيق الاسماء العلمية بمعرفتها الواسعة في علم النبات وبالعلماء القائمين بادارة

---

(١) ديسقوريدس عشاب مشهور ذكرت المسز كروفوت ان اصله من عين زربة في كيليكية وانه أخذ كثيراً عن أهل البلاد التي على سواحل بحر الروم او البحر المتوسط. اما عين زربة هذه فواقعة الى الشمال من طرسوس وعلى عشرة اميال الى الغرب من نهر جيحان فتحها هرون الرشيد ثم حصنها سيف الدولة ثم فتحها الدمستق نقفور ابن الفقاس . ثم صارت من اعمال ارمنيه الصغرى وهي الآن قرية صغيرة يسميها الترك نورزة

معشبة الحكومة في الخرطوم ومعشبة كيو في بلاد الانكليز . كذلك في هذا الكتاب فانها لم تأل جهداً في تحقيق الاسماء الصحيحة المذكورة فيه فالاسماء العلمية الواردة في هذه الكتب الثلاثة لاشبهة في صحتها وفي انها آخر ماوصل اليه علم النبات . أما الاسماء العربية فهي الشائعة على ألسنة العامة وبعضها فصيح او وارد في المؤلفات العربية . والمؤلفتان الفاضلتان لم تدّعيا الفصاحة في الاسماء العربية بل ذكر الاسماء كما هي تماماً وهي مكتوبة بحروف لاتينية بعناية تامة وفي غاية الدقة فلا يتعذر اعادتها الى العربية . اما الآن وبعد هذه المقدمة الوجيزة فاني أبدأ في نقد الكتاب

فالنقد على ما جاء في كتب اللغة والأدب مأخوذ من نقد الدراهم يقال نقد الدراهم وغيرها نقداً وتنقاداً ميزها ونظرها ليعرف جيدها من رديئها ومثله تنقّد وانتقد اي ان نقد وتنقّد وانتقد بمعنى واحد فالنقد والتنقاد والتنقّد والانتقاد معناه تمييز الجيد من الرديء لا إظهار العيوب وحدها كما هو شائع عند بعض الكتّاب . فاظهار العيوب سهل جدًّا ولكن نقد المؤلفات كما يفهمه الادباء ليس بالأمر الهيّن لان له أصولاً وقواعد يجب اتباعها وللعالم المحقق قسطاكي بك الحمصي مؤلف نفيس في النقد قرأته في دمشق سقى الله أيامها وأعادها الينا وإني أشير على كل أديب ان يقرأه فالنقد ليس اظهار المساوىء وحدها فهذا ذم ولا بيان المحاسن دون المساوىء فهذا مدح بل هو العدل في التمييز بين الجيد والرديء كما تنقد الدراهم

ثم اني قرأت هذا الكتاب اي « من الارز الى الزوفى » من أوله الى آخره فاذا كله جيد لا رديء فيه لذلك يعدّ نقدي له تقريظاً وليس ذلك لان مؤلفتيه الفاضلتين من الشق الحسن بل لانه يستحق التقريظ والثناء فاني لو وجدت فيه عيباً لقلته ولذلك جعلت نقدي له بحثاً علميًّا لغويًّا لعل في ذلك بعض الفائدة للقراء فلخصت فصلين منهُ وذكرت ما ورد فيهما من النبات باسمائه العلمية والانكليزية والعربية كما وردت في الكتاب تماماً وعلقت بعض الحواشي بقلمي

ففي الفصل الاول كلام على السنة الزراعية في فلسطين جاء فيه ان السنة عند الزُرّاع نصفها شتاء والنصف الآخر صيف فالشتاء عندهم يبتدىء في شهر تشرين الثاني أي نوفمبر وهو اول السنة الزراعية اما في سورية الشمالية اي الشام فأوله قبل ذلك اي في تشرين الاول (اكتوبر) وهو يوافق اول السنة العبرانية . ومن اقوال الزراع عندهم آخر السنة آخر الصيف واول السنة اول الشتاء وهم يريدون بالشتاء المطر فاذا جاء عيد لدّ اي عيد مار جرجس وهو يقع في ٣ — ١٦ من الشهر وقع المطر امّا قبله او بعده بايام فاذا وقع في العيد استبشروا بذلك وقالوا اوسمت الدنيا من الوسم (الوسميّ) اي أول المطر

قلت وجميع ما تقدم يوافق ما جاء في كتب اللغة (المخصص ٩:٨٧ وما يليه) فأول امطار

السنة الوسمي سمي وسمياً لانهُ يسم الارض بالنبات . اما قولهم في فلسطين ان اول السنة اول الشتاء فهم يريدون بالشتاء المطر كما تقدم . اما الشتاء عند العرب فالنصف الاول من السنة وأوله من حين انتهاء النهار في القصر وابتدائه في الزيادة وذلك لحلول الشمس برأس برج الجدي اي ما يعرف عند الفلكيين بالمنقلب solstice الشتوي ويقع في الحادي والعشرين من كانون الاول(ديسمبر)بُعَيد عيد البربارة وآخره عند انتهاء النهار في الطول وابتدائه في النقصان اي ما يسمى عند الفلكيين بالمنقلب الصيفي وهو يقع في الحادي والعشرين من حزيران (يونيو) فهذه الاشهر الستة هي الشتاء عند العرب وهم يسمونهُ الربيع ويقسمونهُ الى ربيعين الاول منهما ربيع الماء والامطار والثاني ربيع النبات فالربيع الاول ابتداؤه اول الشتاء وآخره الاستواء الربيعي وهذا ما يسمى الشتاء في ايامنا والربيع الثاني من الاستواء الربيعي الى المنقلب الصيفي وهو المسمى ربيعاً في ايامنا لذلك يسمون الموصل ذات الربيعين اي الربيع الاول وهو ربيع المطر والربيع الثاني وهو ربيع النبات . اما الصيف عند العرب فأوله المنقلب الصيفي اي ٢١ حزيران (يونيو) وآخره المنقلب الشتوي اي ٢١ كانون الاول(دسمبر) . والصيف قسمان فالقسم الاول منهُ يسمى الفصل الصيفي والقسم الثاني يسمى الفصل الخريفي اي ان السنة كلها نصفان اي اربعة ارباع فالنصفان الشتاء والصيف والارباع اي الفصول الاربعة ربيع الماء والامطار وهو الشتاء في ايامنا وربيع النبات وهو الربيع عندنا والفصل الصيفي اي الصيف عندنا والفصل الخريفي وهو الخريف عندنا . الى ان جاء في الكتاب :

فاذا ارعدت قال الزرَّاع من النصارى هذا فرس مار جرجس يطارد في السماء وقال المسلمون هو الخليل او الخضر . فمار جرجس في فلسطين هو الخضر الاخضر ولها اي لمار جرجس وللخضر علاقة بمار الياس اي ايليا . ولعل للخضر علاقة باله قديم هو رب الامطار واخضرار الارض بالنبات

قلت لا ادري من هو الخضر وانما انقل هنا بعض ما ورد في كتب اللغة فقد جاءَ في تاج العروس الخَضِر والخِضْر والخَضْر ابو العباس احمد على الاصح وقيل بليا وقيل الياس ...وقيل خضرون بن مالك...وقيل هو اخو الياس ... وقال جماعة كان في زمن سيدنا ابرهيم عليهِ السلام ... وقال ابن عباس الخضر نبي من انبياء بني اسرائيل ... وقيل عبد صالح من عباد الله ... وقيل نبي معمر محجوب عن الابصار وانهُ باق الى يوم القيامة لشربه من ماء الحياة وانهُ يؤخر حتى يكذب الدجَّال وانهُ في كل مائة سنة يصير شابًّا وانهُ يجتمع مع الياس في موسم كل عام الى آخر ما جاء في هذه المادة وفي محيط المحيط قيل هو صاحب موسى ويكنى بابي العباس وقيل اسمه آلياء وهو نبي والمشهور انهُ مار جرجس

قلت اما مار جرجس فقد قيل انهُ كان فارساً من فرسان الروم تنصّر واستشهد في زمن

ديقلطيانس ودفن في اللدّ سنة ٣٠٣ وقيل غير ذلك وقيل ان جثتهُ نقلت من اللدّ في الحروب الصليبية . فان كان الخضر مار جرجس فان اهل بيروت يزعمون انهُ قتل التنين فيها وله مقام هناك بين نهر بيروت والمدينة القديمة يقال له الخضر وكان له كنيسة في قلب المدينة قيل هي الآن المسجد العمري فبنى الروم كنيسة اخرى لا تبعد عن المسجد اسمها مار جرجس . فاذا كان الخضر مار جرجس فقد لقيتهُ في بيروت ولقيتهُ في اللد لانهُ قتل التنين في يافا على زعم اهل فلسطين لا في بيروت . ثم اني لقيتهُ في حيفا ولعله اجتمع فيها مع مار الياس ومقامه هناك في جبل الكرمل في جوار مار الياس . ثم عدت ولقيتهُ في الموصل مدينة الانبياء والصالحين وقبره هناك وله فيها مسجد يقال له النبي جرجيس يزعم النصارى انهُ كان بيعة لهم باسم مار جرجس

ثم ان مار الياس لهُ معابد كثيرة اشهرها دير مار الياس للآباء الكرمليين في جبل الكرمل حيث يقال انهُ استلّ سيفهُ وقتل انبياء البعل وكانوا اربع مائة ثم اني سمعت اسمهُ في بغداد وهو محلة في جانب الكرخ يقال لها الخضر الياس قرب دار آل السويدي . ثم ان مار جرجس وقتل التنين في زمن الملك صبرا يذكرنا باسطورة فرساوس حامل رأس الغول وهو الآن صورة من الصور النجومية وابنة الملك صبرا التي يزعم اهل بيروت انها ابنة ملكهم العذراء تذكرنا باسطورة المرأة المسلسلة وهي كذلك صورة من صور السماء . وصفوة القول اني ضعت بين الخضر ومار الياس ومار جرجس الرومي وبين النبي جرجيس الموصلي . ولا يخفى ان مارجرجس هو شفيع الانكليز فهل هو يا ترى النبي جرجيس الموصلي او الخضر البيروتي او الخضر الفلسطيني وعلى كل فاذا كان الخضر نبيًّا او من عباد الله الصالحين فانهُ شفيع انكلترا او منتدب عليها بلغة رجال السياسة في هذا العصر . ثم جاء في هذا الفصل من الكتاب ذكر اسماء الشهور الشائعة في ارطاس . وهذه الاسماء لا تختلف كثيراً عن الاسماء الشائعة في سائر فلسطين والشائعة في شمال سورية والعراق وهي سريانية جرت عليها الدول العربية في معاملتها لان شهورها ثابتة لا تتغير وهي عندي اصلح من الاسماء الافرنجية الشائعة في مصر

***

وفي الكتاب فصل في الحَبّ والخمر والزيت Corn, Wine and Oil فمن الحب القمح ويقال الحنطة ومنهُ الشعير والذرة والارزّ . ثم كلام على الحصاد والدراس اي دق الحب او درسه اما بارجل البقر او بالنورج . ثم تذرية الحنطة وعمل الخبز وهو عند زرّاعهم نوعان خبز الطابون اي الفرن وخبز الصاج . ويصنعون ايضاً خبز الملّة . ثم كلام على الكرْم جاء فيهِ ان اهل ارطاس لا يعصرون الخمر لانهم مسلمون وانما يدبّسون ويزبّبون . ثم كلام على الزيتون والزيت وعصره

قلت والحَبّ بالعربية ويقال الطعام الحنطة ونحوها وفي انكلترة الحنطة وفي ارلندة واسكتلندة الشوفان وفي اميركة الذرة المعروفة في الشام بالذرة الصفراء وفي مصر بالذرة الشامية فالحَبّ بالانكليزية يقابله الحَبّ او الطعام بالعربية . اما القمح فمن اسمائه بالعربية الحنطة كما تقدم والبُرّ وهي شائعة في اليمن والطعام وقد تقدّمت الاشارة اليهِ فاذا قال السوداني الطعام فهو يريد الذرة اي الذرة البلدية فالذرة بالعربية هي الذرة البلدية او الذرة البيضاء وهي اصلية في الشرق . اما الذرة الشامية او الصفراء فهي اميركية ولم تكن معروفة في الشرق قبلاً فالذرة في كتب اللغة هي الذرة البلدية فقط

أما ارطاس ويظن ان حدائق سليمان كانت فيها فقرية صغيرة قرب بيت لحم تقيم فيها المس بلدنسبرجر احدى مؤلفتي الكتاب

ثم فصل في الاطعمة البرية كالبقول واحرار البقول والجذور والقطاني وطعام البر وما يأتي بعضها كما وردت بأسمائها العربية والانكليزية والعلمية

البقول Greens

البقل واحده بقلة وجمعه بقول كل ما ينبت الربيع مما يأكله الناس وكل نبات اخضرت بهِ الارض ويقال للبقل والبقول الخضرة والخضر والخضراوات فترجمت اللفظة الانكليزية بالبقول كما جاءت في سفر الامثال . قال : اكلة من البقول مع المحبة

خُبَّيزة Common mallow. Malva rotundifolia. L.

يأكلونها مطبوخة مع الارز ويجعلون الارز بين طبقاتها فاذا طبخت كذلك سموها مقلوبة او شختوره وكانت الخبازى معروفة في زمن الرومانيين وكان اكلها شائعاً في العصور المتوسطة

قلت والخبيزة عامية وبعض العامة في سورية اي في الشام ولبنان وفلسطين يقولون الخُبَّيزي على عادتهم في كسر ما قبل تاء التأنيث في اواخر الكلم فيقولون مثلاً ضربي ومصيبي في ضربة ومصيبة بخلاف عامة اهل العراق ومصر فانهم لا يفعلون ذلك بل يقولون ضربة ومصيبة . اما فصيح الخبيزة فالخُبَّازى والخُبازى بالتخفيف والخبّاز والخبّازة والخُبّيز ولم اعثر على الخبيزة في كتب اللغة. والخبازى واخواتها اسم جنس لها . وقد يكون واحد الخبيز خُبَّيزة فاستعملها العامة بمعنى الخبازى كما قالوا الخطميّة في الخطميّ . وارى ان تخصص الخبيزة لجنس آخر منها كما فعل الدكتور پوست في كتاب نبات سورية وفلسطين والقطر المصري وبواديها فيقال في ترجمة Malvella خُبّيزة

فالخبازى بقلة من الفصيلة الخبازية التي منها الخطمي والملوخية والبامية والقطن ومن اسمائها الرقَة والقبلة ولعل هذه في الاصل مقلوب بقلة . وليست الخبازى الخطميّ ولا العضرس ولا شحمة المرج ولا الغِسل ولا الغسول فهذه جميعها الخطمي لا الخبازى فالخبازى الجنس

المسمى عند علماء النبات Malva فهذا هو الخبازى دون غيره ولو تعددت انواعه اي ان جميعها خبازى ورقة وقبلة وربما كانت الرقة خبازى نيقية لان علماء ثقات سموها بهذا الاسم . ولما كان التبس على بعض الكتّاب امر الخبازى والخطمي فلا بأس بايضاح صحة استعمالهما. فالخبّازى من الجنس الذي تقدم ذكره اورد منهُ بوست ستة انواع سماها بالعربية ما يأتي : الخبازى المصرية والخبازى الاجمية والخبازى النيقية (وهي الرقة) والخبازى المستديرة الورق (وهي الخبازى المعروفة التي تؤكل) والخبازى الصغيرة الزهر والخبازى الحادة الفصوص

أما الخِطمي ّ ويقال خَطمي الواحدة منهُ خطميّة اي النبتة الواحدة بالتاء. والعامة تستعمل الخطمية بمعنى الخطمي كما تستعمل الخبيزة بمعنى الخبيز او الخبازى اي ان الخطمي اسم جنس لنبات من الفصيلة الخبازية وهو من جنسين آخرين غير جنس الخبازى هما Alcea & Althea ومن اسماء الخطمي بالعربية الغِسل والغَسُول والغسُّول والعضرس وورد الزواني واما الخطمي المستعمل في الطب فاسمهُ ما يأتي :

Common or Officinal Marsh mallow. Althea officinials. L.

وارى ان اصلح اسم عربي له الخطمي المعروف او الخطمي المخزني واغفال ورد الزواني وسائر ما جاء من المترادفات فاسم واحد صواب خير من تعدد اسماء قد يكون بعضها خطأ

والخطمي انواع كثيرة ترجع كلها الى الجنسين المتقدمين فنها الارمني والقنبي (وهذا الذي سماه ابن البيطار بالقنب البري) والوردي (ولعله الذي سماه ابن البيطار ورد الزواني) والتيني الورق وغيرها والاصلح ترجمة هذه الاسماء كما فعل الدكتور بوست فقولنا الخطمي الوردي خير من قولنا ورد الزواني وقولنا الخطمي القنبي خير من قولنا القنب البري لانهُ ليس قنباً بل خطميًّا اما تسمية الخبازى التي تؤكل بالخطمي والعِضرس وشحمة المرج والغسل والغسول فخطأ

لُفّيت Hoary brassica. Brassica adpressa. Boiss.

يطبخ ورقه ويصعب التميز بينه وبين الخردل الاسود . والاسم العربي اي لُفّيت والعبراني اي لِفْلاف والاسم النوعي معناها واحد اشارة الى التفاف غلاف البزر او لفته الى الساق

لسان الثور Bull's tongue.Salvia hierosolymana. Boiss.

هو نوع من السالمة او المريمية احمر اللون يطبخونهُ محشواً كالكرنب المعروف في الشام بالملفوف

لوف . اذن الفيل Arum of several species

لا يأكله الاّ الفقراء وهو سام فيغسلونه بالماء الحار ويطبخونه محشواً كالملفوف

الرحلة والرحالون

في القرون الوسطى

لنقولا زيادة

وانا مضطر الآن ان اكتفي بعدد قليل من رحالي القرون الوسطى لاحدثكم عن أسفارهم ، لان ذكرهم كلهم يطول بنا ، والذين احب ان اتحدث عنهم هم الحجاج المسيحيون الذين زاروا الارض المقدسة . وهؤلاء قد جاءوا بلادنا قبل العصر الذي حددناه في بدء الحديث اليوم

﴿حجاج القرن الرابع﴾ نجد بين هؤلاء اربعة كان لبعضهم شأن كبير لا في الاخبار والرحلات فقط ، ولكن في تطور المسيحية نفسها ايضاً . وابعد هؤلاء اثراً جيروم الذي هبط بيت لحم في القرن الرابع واتخذها مسكناً لهُ ، واشتغل في اثناء ذلك بنقل الكتاب المقدس الى اللاتينية وقد كان جيروم سبباً في جذب كثيرين الى البلاد المقدسة رجالاً ونساءً[1]

واقدم ما كتب عن الارض المقدسة على ما وصل الينا كتاب (حاج بوردو) ونحن لا نعرف اسم هذا الكاتب وكل ما اتصل بنا انهُ فرنسي من مدينة (بوردو) ، زار البلاد سنة ٣٣٣ م ، وكتب دليلاً لمن يزورها بعده ، معتمداً في وصف الاماكن على ما خبره بنفسه ، وفي الاخبار على ما سمع من غيره . ومن الامور التي ذكرها انه رأى الغار الذي كان سليمان يحبس فيه الجن والشياطين

وبين حجاج هذا القرن ايضاً سيدتان الاولى القديسة (باولا) ، والثانية القديسة (اتريا) او(سالڤيا) . اما الاولى فقد لبت دعوة جيروم . وكانت ثرية جداً ، فاقامت في الطريق بين يافا وبيت لحم تكايا ونُزُلاً للحجاج[2] . وسكنت بعد ذلك بيت لحم حتى الممات . وقد كتب جيروم اخبارها ورسائلها بنفسه[3] . واليك وصف بيت لحم منقولاً عن القديسة باولا[4]

« في قرية المسيح كل شيء ، خلا التسابيح ، هادىء . حيث قلبت وجهك سمعت التهليل . فالحارث القابض على محراثه يصيح هللوليا ، وحارس الكرم يصرخ هللوليا ، والفلاح يرتل مزامير داوود في عمله ، هذه اشعار واناشيد السكان في هذه البلاد . وهذه هي اغاني الحب عندهم . لا يهمنا في الواقع ان نفكر فيما نعمل ، ولا كيف نظهر ، بل ان نرى ما تتوق اليهِ نفوسنا [اي الخلاص] »

واما القديسة سلڤيا فقد كانت رحلتها اوسع نطاقاً ، وابعد مدى ، اذ شملت مصر وسيناء وفلسطين وسوريا وبعض آسيا الصغرى ، وكانت دقيقة في كتابتها حتى حملت الاستاذ بزلي على القول[5] « بان معرفتنا عن الشرق كانت يمكن ان تكون صحيحة لو ان الكل كتب مثلها »

---

(١) Rappoport pp. 264-5 (٢) Rappoport p. 266 (٣) Bliss p. 50 (٤) Bliss. p. 51

(٥) راجع Bliss p. 55

وقال الدكتور بلس [١] « لم يكتب احد بمثل دقتها قبل الحروب الصليبية » . وقد كانت زيارتها في اواخر القرن (٣٨٥ م) واقامت في القدس ثلاث سنوات . والراجح انها فرنسية الاصل ،وقد لوحظ انها كانت تقابل بالحفاوة والتعظيم اينما حلّت مما يدل على نبل اصلها وشرف اهلها . ونحن نجهل هذه الامور لان القسم الاول من المخطوطة مفقود الى الآن .ولم تسلم مع كل عنايتها من ذكر ما يبدو لنا صعباً تصديقهُ . فهي تقول انها رأت شجرة الحق التي غرسها موسى وهارون في صحراء التيه ،والمكان الذي اقام فيهِ بنو اسرائيل العجل الذهبي والعليقه التي كلّم موسى امامها الرب بعد ان رآها تتقد . ومن اجمل ما تركتهُ لنا وصف حفلة تقبيل الصليب يوم الجمعة الحزينة اذ تقول [٢] (جلس المطران في مقعده الخاص ، ووضعت امامه طاولة عليها صندوق فضي يحوي خشب الصليب المقدس. فتح الصندوق ووضع ما فيهِ على الطاولة ، فوضع المطران يديه على الخشبة وتنبه الاساقفة المحيطون بهِ للحراسة .ثم تقدم الناس واحداً واحداً فانحنوا ثم لمسوا الصليب بجباههم اولاً ، ثم بمحاجرهم، ثم قبلوه ومرّوا. والغاية من وجود الاساقفة هو المحافظة على خشب الصليب اذ كان من عادة البعض انهم اذا اقتربوا لتقبيله عضّوا جزءاً منهُ وهربوا للتبرك)

﴿ حجاج القرن الخامس ﴾ يحدثنا القديس داود الانكليزي اول حجاج هذا القرن ، انهُ اوحي اليهِ والى اثنين آخرين ان يتجهوا الى القدس، ليقوموا بواجب الزيارة للاراضي المقدسة فلما اجتازوا البحر الانكليزي وهبطوا فرنسا لم يستطيعوا التفاهم مع اهلها ، حلت نعمة الروح القدس على داود فصار يتكلم بكل لسان ، فلم يبق ثمة صعوبة ولما وصل القدس قابله البطريرك الذي كان قد اوحي اليهِ باقترابهم، بالتبجيل وسام القديس داود رئيس اساقفةٍ . ثم طلب اليهم ان يدحضوا حجج اليهود الدينية فقاموا بالامر، حتى اقنعوا الكثيرين الذين اخذوا يدخلون في المسيحية افواجاً . وقد كافأ البطريرك داود على خدماته بهدية مقدسة حوت مذبحاً ، وجرساً كبيراً وهراوة وحلة منسوجة من الذهب. وقد كان لكل من هذه عجائب وكرامات. ولما اعتزم داود العودة الى بلاده حملت الملائكة له كل هذه اذ لم يكن في استطاعتهِ ان يفعل ذلك بنفسهِ

وعندنا من رواد القرن الخامس ايضاً ثيودوسيوس وهذا ، على ما يتراءى لنا من المغرمين بمكان اعتماد المسيح . فهو يذكره بشيء من العناية والاطالة ، ويصف العمود الرخامي الذي رآه في نفس مكان العماد، والصليب الذي يعلوه وكنيسة يوحنا المعمدان. ويقول ان الجبال الكثيرة المحيطة بالاردن قد رقصت يوم اعتماد المسيح في النهر وان الناظر اليها الآن — في زمنه — يخيل اليهِ انها قافزة من مكانها ومن هذا نرى ان حجاج هذا القرن لا يتسمون بسمة الكتاب الحريصين على الحقائق كثيراً

اما في القرن السادس فقد كثر الاهتمام بالآثار المقدسة فانطونيوس يخبرنا انهُ رأى في

Bliss p. 54 (١) Travel & Travellers p. 47 (٢)

صفورية (سل العذراء) وفي الناصرة الكتاب الذي تعلم فيه المسيح «الالف باء» وان نساء هذه المدينة جميلات لانهن قريبات العذراء. وهو يقول لنا ان اهل السامرة كانوا يكرهون المسيح حتى انهم كانوا يحرقون آثار اقدام السياح المسيحيين ويأبون ان يأخذوا منهم النقود قبل طرحها في الماء لتطهر من رجس ايديهم [١] وانطونيوس ينقل لنا ان البحر الميت لا يصلح للسباحة لان الاجسام تطفو في مائه !!...

﴿ القرن السابع وما بعده ﴾ : منذ القرن السابع تغيرت الاحوال في الشرق الادنى كله . ففي اوله كانت الحروب بين الفرس والبزنطيين واحتلال الاولين للاراضي المقدسة، وما صحب ذلك من تدمير الكنائس وغيرها من اماكن التعبد والقداسة . ولما استعاد البيزنطيون البلاد رمموا بعض ما تهدم ومن ذلك كنيسة القبر المقدس. وفي اواسط هذا القرن كان العرب قد احتلوا كل سوريا ومصر ووطدوا حكمهم في هذه الديار، والذي نعرفه ان هذا الاحتلال لم يمنع الحجّاج من المجيء الى الاراضي المقدسة [٢] بل ان العرب شجعوهم على القيام بهذا الفرض الديني . فالحجاج الذين زاروا البلاد في العصر الأموي مثلاً ، لانجد في كتاباتهم اثراً للشكوى او التذمر . الا اننا نلحظ فيهم انهم اخذوا يفدون الى فلسطين بطريق مصر ، بدل طريق آسيا الصغرى لما كان من العداء بين العرب والروم . وقد وقعت مع ذلك حوادث فردية عدائية نحو بعضهم بسبب وشاية بعض اليهود فقط . ولما انتقل الحكم الى العباسيين ، وقام هرون الرشيد اتسع نطاق الزيارة والتجارة مع العرب في زمنه على شكل لم يعرف قبلاً

وفي آخر القرن العاشر احتل البزنطيون جنوبي فلسطين ، وبذلك تدفق الزائرون اليها ، ثم استردّها منهم الفاطميون في مصر . وهؤلاء أيضاً فتحوا باب الحج والزيارة للغربيين على مصراعيه ، حتى اوائل القرن الحادي عشر ، ايام الحاكم بامر الله . وفي زمنه زار البلاد المقدسة جربرت ، الذي صار فيما بعد بابا لرومية ، وكان ممن لقي اضطهاداً في حجه . لذلك لما عاد الى اوروبا واعتلى الكرسي البابوي ، دعا الاوروبيين الى تخليص الاراضي التي عاش فيها (المخلص) وصلب وصعد ، من أيدي المسلمين . ومنذ ذلك الحين صار الحجاج المسيحيون يأتون مدججين بالسلاح [٣] ، فاقلق ذلك بال الحكام ، وحملهم على التضييق عليهم خشية منهم

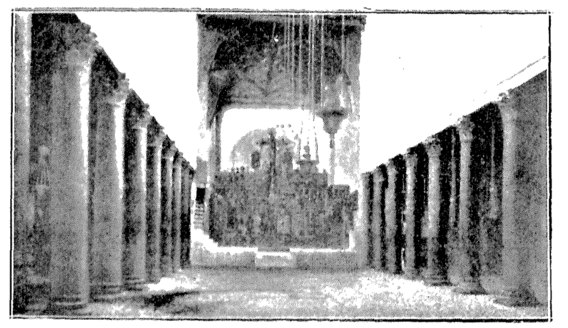
ازغولف : مطران من بلاد الغال ، زار الاراضي المقدسة ودمشق ، وصور ، والاسكندرية، والقسطنطينية في أواخر القرن السابع ، وقضى في القدس تسعة شهور وتردد على كل البقاع المحيطة بها . وقد املى أخبار سياحته على راهب انكليزي اسمه ادمنان على ان الاخير هذا لم يوضح كيف وصل ارغولف اليه ، ويعتبر كتابه دليلاً صحيحاً ولا سيما انه رسم خُرُطاً تقريبية لكنيسة القبر المقدس وغيرها . على أنه لم يستطع ان يتخلص من الروح الدينية العامة التي كانت تسيطر على اذهان الجماعة في تلك العصور ،

---

(١) Bliss p. 60 (٢) Rappoport pp. 267 & 270 (٣) Rappoport pp. 272—3







كنيسة المهد في بيت لحم

والمبنية على ان للآثار المقدسة فعلاً عجيباً في شفاء الامراض وغفران الخطايا ، فهو يعدد الآثار التي رآها ، مثل الكأس المقدسة الفضية ، والاسفنجة ، والحربة التي شهدت صلب المسيح . وقد لمسها وقبّلها أيضاً . ونحن نعرف منه أيضاً ان الصليب الحقيقي موجود في القسطنطينية (١) وقد زار برية الاردن ووصف النهر ومكان العماد ، والجراد والعسل البري الذي استعمله يوحنا في حياته ، اذ يقول (٢) « وفي البرية نوع من الجراد صغير لا يتجاوز واحده حجم الاصبع ، يسهل القبض عليه لانه يقفز ولا يطير ويقلى عندها بالزيت ويستعمل طعاماً وفيها أيضاً شجر له أوراق كبيرة مستديرة ، اذا ضغطت خرجت منها عصارة حلوة . وهذا هو العسل البري » . وذكر أنه توجد على جبل الزيتون (الطور) كنيسة الصعود لاسقف لها ، لان العاصفة التي تهبّ كل سنة في نفس الوقت الذي صعد فيه المسيح الى السماء تعصف بالسقف وبكل المواد لمثل هذا البناء ، كما شاهده بنفسه

ويقول في مكان آخر « اعتاد الناس ان يفدوا الى القدس جماعات كبيرة في الخامس عشر من ايلول (سبتمبر) من كل سنة للاحتفاء بعيد الصليب المقدس ولتبادل السلع والبضائع حتى انهُ كان من الصعب اختراق طرق المدينة لكثرة الاقذار المسببة عن الحيوانات الكثيرة التي يؤتى بها . ولكن العناية الالهية كانت تبعث على أثر مغادرة الناس للمدينة بامطار غزيرة تنظفها » (٣)

﴿ منديل المسيح ﴾ وبين الآثار المقدسة التي رآها ارغولف المنديل الذي غطي به رأس المسيح في القبر . « وقد سرقه يهودي بعد قيامة المسيح وخبأه . ولما حضرته الوفاة جاء بولديه وخيّرهما بين كل ثروته وبين المنديل فكان من جراء ذلك ان شقي الاول وخسر كل ما ورث ، وصعد الثاني واثرى ببركته ما أخذ وبقي هذا المنديل ارثاً في عائلته جيلاً بعد جيل حتى نشب نزاع بين الذين كانوا يؤمنون بقدسيته والذين كفروا بها من أفراد العائلة . فاحتكموا الى الامير (؟) في ذلك . فاشعل النيران في الساحة العامة ثم وضعه فيها ، لكن النيران لم تمسه قط بل أخذ يرتفع وبعد دقائق هبط على الفريق المؤمن أي المسيحيين الذين كانوا طول الوقت يصلون ويضرعون الى المسيح ان ينيلهم إياه »

اما القرن الثامن فبطل سيّاحه ويلّبولد الانكليزي الذي زار البلاد في اوائله (٧٢١ — ٧٢٧م) وقد كان من عادة الكثيرين من جوابي تلك العصور وحجّاجها ان يكتفوا بذكر اسماء البلاد التي مروا بها قبل وصولهم فلسطين ، فاذا وصلوها ذكروا اخبارها بالتفصيل . وأما ويلبولد فانهُ يصف رحلتهُ كلها في اواسط اوربا واجتيازه الالب وروما ، والبراكين التي مرّ بها . ويقول مثلاً ان سكّان المدينة المجاورة لبركان اتنا في صقلية يدفعون عن انفسهم غائلة ثوران هذا البركان برفع وشاح القديسة « اغاثا » المدفونة عندهم فيهدأ ثائر باب جهنم

ولما كان العرب يخشون عندها تجسس الغربيين بسبب ما كان بينهم وبين الروم من حروب ،

---

(١) Travel & Travellers p. 65 (٢) Early Travels in Palestine pp. 8—9
(٣) Early Travels p. 1

ولما كان عدد رفاق ويلبولد قد بلغ الثمانية فقد ألقي القبض عليهم وزجوا في السجن الى ان حقق معهم، ومثلوا امام الخليفة يزيد الثاني (٧٢٠—٧٢٤) فلما عرف بلادهم وغايتهم اطلق سراحهم وزوّدهم برسائل تمكنهم من التجول في البلاد، وأعفاهم من ضريبة الحج [١] واتخذوا القدس مركزاً لزياراتهم ، وقد مرّوا في احداها بحمص فزوّدهم حاكمها بكتاب لكل اثنين منهم وأمرهم ان يسافروا اثنين اثنين فقط ، اذ لم يكن سبيل لهم ان يحصلوا على طعام يكفيهم جميعاً اذا سافروا معاً [٢]

وقد كان نقل البلسم من فلسطين ممنوعاً وكان عقاب من يخرجه الموت ولكن ويلبولد رغب في اخذ شيء منه الى بلاده فملأ انبوبة صغيرة منه ، ثم وضعها في انبوبة اخرى اكبر منها وملأ الثانية زيتاً صخرياً لعله النفط او القار ، حتى غمرت الاولى . فلما وصل الى صور وفتشوا امتعته ، منعهم الزيت ورائحته من ان يعرفوا بوجود البلسم [٣]

برنارد الحكيم : هذا نموذج سيّاح القرن التاسع الميلادي وهو القرن الاخير من عصر التفاهم والتسامح بين الشرق والغرب الذي سبق الحروب الصليبية . وبرنارد جنى بعض ثمار العلاقات الطيبة التي توطدت بين الدولة العباسية في الشرق والامبراطورية الرومانية المقدسة في الغرب ، بسبب صداقة هرون وشارلمان . وهذا سائح لا يبدأ الرحلة قبل ان ينال رضى قداسة البابا وهو يمر بالاراضي الايطالية التي كانت خاضعة للنفوذ الغربي ، فيحمّله سلطان باري رسائل الى امير الاسكندرية والى امير الفسطاط في مصر . وكذلك كان شأنهُ في كل مدينة مرّ بها ان يعطَى الى السلطة الحكومية في المدينة الثانية رسالة لقاء دينار او دينارين، والطريق التي يسير فيها من مصر الى فلسطين الطريق البري مخترقاً سيناء فاذا وصل الرملة سار الى القدس بطريق عمواس ، وحل ضيفاً في النزل الذي بناه شارلمان

وبرنارد اول من ذكر «فيض النور» في يوم السبت السابق للفصح المقدس، فقد قال «ويجد الداخل الى القبر قناديل كثيرة معلقة فوقه . فاذا كان صباح يوم السبت السابق ليوم الفصح بدئت الصلاة في الصباح حتى اذا تمّ ذلك ، انشد الكل بصوت رخيم «كيريالايسون» الى ان ينزل الملاك وينير القناديل المذكورة وعندها يتقدم البطريرك ويعطي لكل مطران حصته من هذا النور المقدس ، ثم يسمح للشعب ان ينير كلٌّ قنديله » . وعلى ذكر ما اوردهُ برنارد انقل ما كتبهُ ابو الفرج عن فيض النور زمن الحاكم في اضطهاده للنصارى «قيل انهُ وشى بعضهم الى الحاكم ان النصارى يوم فيض النور يدهنون السلاسل التي تعلق بها القناديل بزيت البلسم فاذا جاء الحارس الغربي المكلف حراسة القبر في ذلك اليوم خشية التلاعب فيه ، وختم بابه اشعلوا البلسم الذي على السلاسل من ثقب خفي فتضاء القناديل وعندها تنهمر دموع الفرح من مآقي الناس ويصيحون «كيرياليسون» حاسبين ان هذا النور قد هبط من السماء وبذلك يقوى ايمانهم»

(١) Early Travels p. 15—6 (٢) Early Travels p. 20
(٣) Rappoport p. 271 and Early Travels p. 68

واختزن ثروة طائلة من « رواية عالية ، وأدب عزيز » وعلم واسع باللغة والاخبار وصناعة خلفها اصحابها ولما نجد من الاخلاف من يحسنها مثلهم

وكان ابو الفرج الاصبهاني من الندماء الخصيصين بابي محمد المهلبي وزير معز الدولة بن بويه الديلمي . واحتل العلم ودراسته وكثرة الحفظ قلب الكاتب الاموي فلم يكن كثير العناية بمظهره . ومثله عدد لايحصى من المشتغلين بالادب والتأليف حتى في عصرنا هذا . وقد روي ذلك عن « اميل فاجيه » الناقد الفرنسي المحدث . ولم تسلم مكانة ابي الفرج وعلوكعبه في العلم من الحساد . وكان لا يغتفر ذلك والناس يحذرون لسانه ويتقونه لقوته ومقدرته وكان ربما صدر منهُ شيء من ذلك في حضرة الوزير المهلبي فكان ابو محمد يتكلف احتمالها لورودها من ابي الفرج

وكان العصر منصرفاً الى البذخ والاسراف . وكان ابو محمد المهلبي اشبه بوزير من وزراء لويس الخامس عشر ، روى انهُ ابتيع له في ثلاثة ايام بالف دينار ورد لكي يجعلها مفارش في مجالسه!

وزاد العصر على اسرافه انهُ اطرح عنهُ بعض القيود التقليدية التي كانت تغل انتاجه الفكري والمادي . ولم يخل مع ذلك من شيوع الاوهام والاباطيل التي فوّتت عليهِ دراسة الحكمة والعلم العميق . فان تلك الظرائف الملكية التي وقفت عندها صناعة الاندلسيين للدمي واشباهها حين وصلت الى القاهرة استحالت الى تماثيل كاملة للشعراء وغير الشعراء صيغت من الابريز واتسع استعمال الالوان من التزويق الى التصوير حتى لقد استعمل للاعلان وللانذار . وفي ذلك الوقت كان الكاتب الاموي قد فرغ من تأليف كتابيه الغريبين « الخرافات » و« الخمارين والخمارات » . وكان مدخراً لمؤرخ رواية كالمقريزي ان يؤلف عن ذلك العصر كتاباً في « طبقات المصورين والمزوقين »

واذا كان كتاب « الاغاني » قد حوى كل ضروب التظرف والبذخ والابهة التي انغمس فيها العرب لعهد اتساع دولتهم فان عصر الاصبهاني كان قد بلغ الغاية القصوى في التأنق في اللباس والمآ كل . فكان من دون الوزير من عمال الدولة يستعمل صحاف الذهب والفضة فكيف بالوزراء والخليفة . وكان استعمال الكماليات مألوفاً شائعاً . وينسب الى ذلك العصر لبس الجوارب الحريرية والنعال المؤلفة من لونين من الجلد والتخفف بانواع من الاثواب الغالية التي

كانت عزيزة نادرة في غير الدولة الاسلامية . وكذلك نلحظ في كتاب « الاغاني » واخباره مرآة صادقة لتظرف العصر نفسه وشغفه بادب السمو والنوادر . وحتى في عهد سؤدد الدولة الاسلامية وسيطرتها بعث الدم العربي في اخلاف الجاهليين حب السمر . بعث فيهم الهوى القديم الى رواية الشعر الغنائي

ولما اهدى ابو الفرج كتابه الذي جمعهُ في خمسين سنة الى سيف الدولة بن حمدان كان نصيبه كنصيب الفردوسي سيد شعراء فارس لما اهدى « الشاهنامه » التي نظمها في ثلاثين سنة الى الامير محمود سبكتكين [1]

فاعطاه سيف الدولة الف دينار . وبلغ ذلك الصاحب بن عباد فقال : لقد قصر سيف الدولة وانهُ يستأهل اضعافها . ووصف الكتاب فاطنب : لقد اشتملت خزانتي على مائتين وستة آلاف مجلد ما منها ما هو سميري غيره ولا راقني منها سواه

وقيل : لم يكن كتاب « الاغاني » يفارق عضد الدولة في سفره ولا حضره . ومن الممكن ان نستخلص من ذلك ذوق العصر وطبيعة ميله الى الاطلاع وتقديره للتآليف

وتأنق الكاتب الاموي في جمع كتابه وتصنيفه ودل على عناية فائقة بشرح مذاهب المغنين في صناعتهم . اما طريقة او « اسلوب » التصنيف الذي اختاره ابو الفرج الاصبهاني فهو مذهب اتبعهُ جيل عظيم من الاخباريين والمؤرخين والرواة . ولما اطلعنا على المقدمة التي صدر بها « ياقوت الرومي » كتابه « معجم الادباء » وجدنا تفاصيل تعين على تمييز ذلك الاسلوب في التصنيف وتأويله

قال ياقوت في نقد ابي بكر بن عبد الملك التاريخي « ... هذا مع ان كتابه — في اخبار الادباء — صغير الحجم ، قليل التراجم ، محشو بالنوادر التي رووها لا يختص «باخبارهم» انفسهم . . . . ثم ألف بعده في هذا «الأسلوب» [2] ... الخ

و«صنف» فيه أبو عبيد الله محمد المرزباني كتاباً حفيلاً كبيراً على عادته في تصانيفه ... الخ

«و «ألف» فيه أبو سعيد السيرافي كتاباً صغيراً في نحاة البصرة نقلنا «فوائده»

«ثم «جمع» في ذلك أبو بكر الاشبيلي كتاباً وهو اكثرها «فوائد» و «تراجم» ...

«وفي «اخبار أهل الأدب» وجدت كتاباً لعلي بن فضال المجاشعي كثير التراجم الاّ انه قليل «الفائدة» لكونه لا يعتني «بالاخبار» ولا يعبأ بالوفيات والاعمار [3]

وقال ياقوت في تصدير معجمه . و «جمعت» في هذا الكتاب ما وقع اليّ من «اخبار» النحويين واللغويين ... وكل من «صنف» في الأدب تصنيفاً او «جمع» في فنه تأليفاً ...الخ

فاستعمل في معنى «التأليف» : صنف وجمع . وصنف الشيء جعله اصنافاً وميز بعضه

(١) كانت تتألف من ستين الف بيت فاعطاه الامير نصف درهم من الفضة ثمناً لكل بيت !

(٢) اذن هو «اسلوب» في التأليف لا طريقة (٣) يعني بلا شك التواريخ والازمنة «كرونولوجي»

من بعض . ومنه تأليف اللحون وتأليف العناصر . وهي طريقة الاخباريين اتبعوها ليسهل حفظها على الرواة . وجلي ان الأدب شيء والعلم شيء آخر . وقد كان الاغريق واللاتين يذكرون البطل او الخطيب باخباره مرتبة دون اسناد ويخلطونها بكثير من الخرافات «الميثولوجيا» وهم ايضاً اصحاب الطريقة العلمية التي يخاطب فيها المؤلف شخصاً مفروضاً كأنه القارىء نفسه «اعلم وفقك الله ان كذا ... الخ» وقد اتبعها ارسطو والحكيم سنكا وشيشرون من قبل ان يتبعها الغزالي وابن رشد وابن مسكويه

أما الاخبار والشعر فمن جملة علوم الادب وقد أشار الاصبهاني الى ان «المغزى في كتابه انما هو ذكر الاغاني باخبارها» . وهذا تأويل لمذهبه في رواية الكتاب . وربما كانت اخبار المغني ادق واصدق شرح لصناعته . ومن مزايا هذا «الاسلوب» في التصنيف : البيان والترتيب ومن تعابير نقدة العرب ان فلاناً العالم او الاديب «حسن الترتيب لما يصنفه» وانه «احسن تصنيفاً من الجاحظ [1]» . والجاحظ هو صاحب «البيان والتبيين» . وكان الاصبهاني حاذقاً في ترتيب اخباره ممتازاً بجمال أسلوبه وبيانه

ومنبع هذا «الاسلوب» في اعتماد الاخبار موضوعاً للتاريخ ماجرى عليه العرب بطبيعة مزاجهم من حب السمر والحديث . والعرب في الاصل تجار . وكان الشعر العربي من قبل القرآن قد استنفد العبقرية العربية . ولما صار العرب تجار اكفاء بسطوا جناح سيطرتهم على العالم

وكأن للاسماء في اللغة تأثير في طبيعة التفكير والمزاج . فان معنى «تجارة» [1] في اللغة اللاتينية العلاقة الاجتماعية او المعاشرة اوالتبادل والمحاورة اوالترسل ومنها اشتق اسم السمر او الحديث

وكانت الصيغة الاخيرة التى اكتسبها هذا الاسم هي بلا شك الرواية او الاخبار . وفي عادات العرب كما هو في كتاب الاغاني روح السمر والحديث وصور العلاقات التي كانت تربط طبقة الادباء والشعراء وارباب الفنون بالاريستوقراطية العربية في الاسلام

ولقد عاب العلامة الفرنسي «ارنست رنان» على الشعر العربي انه ذاتي « Objective » وان الشاعر يتكلم فيه عن نفسه وعن حالاته الخاصة به . وان الملحمة فيه مفقودة . واصل الرأي للمستشرق « لاسن » [2] وهو لا يعيب العنصر العربي ولا الشعر العربي . لان العرب لم يكونوا شعراء بالفطرة الا لان الشعر الغنائي كان نفساً طبيعيًّا فيهم

ويرى «برونتيير» ان الشعر الغنائي حين تمَّ تكوينه كانت ذاتية اوربا قد تكونت . اذن وافق ترقي الشعر الغنائي عند العرب اكتمال ذاتية « اندڤدوالسم » العنصر العربي

وفي الحقيقة ان كتاب الاصبهاني يمثل وحدة علمية وادبية تستحق ان تكون رمزاً لعبقرية العنصر العربي

عبد الحميد سالم

---

(١) ياقوت الرومي : ارشاد الاديب (2) M. Lassen

الراديوم والعلم والصحة

[بتصرف قليل عن مجلة العلم العام]

﴿التدجيل بمياه الراديوم﴾ جاء في احدث الانباء ان الحرب قائمة على ساق وقدم في امريكا لمكافحة كل الادوية المسجَّلة حتى الراديوم ، وان موقدي جذوة تلك الحرب الموانهم اولاً — لجنة التجارة المتحدة وثانياً — مصلحة الاطعمة والادوية وثالثاً — فروع الادارات الصحية الحكومية والبلدية — ورابعاً — الجماعات الطبية — وغايتهم منع بيع الادوية المجهولة التركيب في الاسواق ولا سيما العقاقير التي تعزى فوائدها الى الراديوم

والراديوم عنصر مقوٍّ ، اذا تولى العلاج بهِ خبيرٌ ، ولكنهُ قتالٌ ، اذا استعمله غيرٌ دجالٌ . فيجب ان يكون آخر عقارٍ يُباح بيعه في مخازن الادوية ، لان يباع ويشرى اعتباطاً كأنهُ قرص من اقراص تخفيف السعال او جرعة من زيت الخروع . وقد أُطلقت الطلقة الاولى في تلك الغارة الشعواء عند ما حجز ضباط حكومة الولايات المتحدة في مدينة بفلو بولاية نيويورك مركباً شاحناً ١٦٧٠ قارورة ملأى راديوماً كنديًّا مقوياً كانت احدى الشركات مزمعة توزيعها في الولايات المتحدة

وكان الحافز لولاة الامور على القيام بتلك الحملة موت المستر ايبن بايرز Eben Byers متسمماً بالراديوم — وهو احد ارباب مصانع الحديد المشهورين في مدينة بتسبرج ، وكان قد اعتاد قبل وفاته بسنتين تناول مقادير كبيرة من احد الادوية الجاهزة المركبة من مياه الراديوم التي كان يعلن عنها «بأنها محاليل املاح الراديوم غير المضرة التي تشفي ١٦٠ مرضاً وتجدد الشباب»

ومن نحس الطالع ان ذلك العقار اثر في صحة المستر بايرز في بدء الامر كالسحر إذ خيل اليهِ وهو كهل انهُ قد استعاد شبابه حتى زعم انهُ قد اهتدى الى ينبوع الشباب فجعل يهدي الى اصدقائه صناديق من قوارير مياه الراديوم السالفة الذكر — واستمرت حاله على ذلك المنوال بضعة اشهر ثم اعتراه مرض شديد افضى الى موته من عهد قريب مصاباً بداء تنخر العظام (اي بِلى وموت العظام) في الفكين وفقر الدم وخرّاج في الدماغ. وقال الدكتور فردريك فلين (مدير قسم حفظ الصحة الخاص بالصنّاع في كلية الاطباء والجراحين بجامعة كولومبيا) الخبير في علاج التسمم الراديومي ، وهو الذي استفرغ جهده عبثاً في انقاذ حياة المستر بايرز ، انهُ قد توفي رجل آخر من تناول مياه الراديوم وان كثيرين غيره سوف يلاقون حتفهم من ذلك الينبوع المشؤوم . وقد شُرِّحت جثة بايرز فوجد فيها اكبر مقدار تناوله انسان من املاح الراديوم . وكان ذلك اكثر من ثلاثين ميكروغراماً وهذا يكفي لقتل ثلاثة رجال

ومن اشهر الادلة على فظاعة تأثير الراديوم في جسم الانسان فاجعة فتيات نيوجرزي فقد أصابهن الكساح ثم تسممن بالراديوم وهلكن . وذلك من اعتيادهن دهن موانىء الساعات بالدهان المنير المصنوع من املاح الراديوم . وقال حديثاً الدكتور هاريسون مارتلند الطبيب الشرعي الذي درس تلك الحوادث درساً تامًّا ان ١٨ نفساً من مستخدمي مصنع شركة راديوم الولايات المتحدة في مدينة اورانج بولاية نيوجرزي (المغلق الآن) قد ماتوا من تسمم الراديوم ايضاً وان اكثر من ثلاثين غيرهم سيصابون بالكساح واغلبهم كانوا يصابون بالتسمم عن طريق الشفاه من ارهاف الفرش المغموسة بدهان الراديوم ايضاً . وبديهي ان الحملة الآنفة الذكر قد أُلفت لمناهضة الدجالين الذين يخدعون الناس بمزاعمهم ان الراديوم دواء لجميع الامراض ، لا لمقاومة نطس الاطباء الذين يستعملون الراديوم . فقد ثبت نجاح الراديوم نجاحاً باهراً في علاج بعض اصابات السرطان . ويتبين ذلك من تصريح القاه رئيس احد المعاهد الكبرى لعلاج السرطان في الولايات المتحدة اذ قال ان عشرة في المائة من المصابين هناك بالسرطان يعالجون بطريقة الراديوم . ويستعمل الراديوم لكثير غيرهم لتخفيف آلامهم تخفيفاً كبيراً

﴿ اكتشاف الراديوم ﴾ كشف العلامة بيير كوري وقرينته عن الراديوم في دسمبر سنة ١٨٩٨ في معملهما الكيماوي الخاص ، بضواحي مدينة باريز ، فأخذ الناس من ذلك العهد يشيدون بذكر الراديوم قائلين انهُ من اجلّ نعم الله على عباده . وظلوا يعتقدون ذلك الاعتقاد الى اوائل سنة ١٩٢٥ اذ توفي المسيو دمنترو Demenitrou وهو كيماوي كان مساعداً في معمل كوري فاخترمته المنون بعد ما كابد آلاماً مبرحة من تعرضه سنوات عديدة للمواد المشعة التي تنبثق من الراديوم ، فشرع الخبيرون وقتئذ يدركون نِقم الراديوم . واصبح غير خاف على العلماء ان الراديوم قتّال ، كما هو شاف للناس بسهولة ، ولذلك ترى الاطباء المخصصين للمعالجة بهِ يتخذون اشد الاحتياطات لوقاية انفسهم ومرضاهم من تأثير الراديوم القتّال

والراديوم اقوى واغرب ما كشفه الانسان حتى الآن من عناصر الطبيعة . وهو يكنّ سر تحول العناصر . فقيل انهُ حجر الفلاسفة الجديد الذي قضى علماء الكيميا القدماء يبحثون عنه ازماناً فلم يظفروا بهِ . ولكن تحوّله معكوس لانهُ يصير احط قيمة بكرّ الدهر — والراديوم نتيجة انحلال عدة عناصر تبدأ بالاورانيوم وتنتهي بالرصاص بعد انقضاء ملايين السنين — وهو يفقد نصف قوته ونصف وزنهِ في ١٧٣٠ سنة ويفقد قوته كلها تقريباً في نحو ١٩٠٠٠ سنة

وقد توسّل بهِ علماء الجيولوجيا (وذلك بمعرفة الزمن الذي يقضيهِ الاورانيوم مصدر الراديوم حتى يصير رصاصاً) الى تقدير عمر الارض بزمن يتراوح بين بليونين وثلاثة بلايين سنة ، وذلك بمعرفة نسبة مقادير الاورانيوم الى نسبة مقادير الرصاص التي وجدت في عدة طبقات من الصخور المختلفة . واطلقوا على الطريقة التي استخدموها في التقدير اسم (ساعة الراديوم)

ويقذف الراديوم في اثناء انحلاله الغامض المستمر ثلاثة انواع من الاشعة وهي ألفا وبيتا وغمَّا . فأشعة ألفا بمثابة اجسام هي نوى من ذرات الهليوم مشبعة بكهرباء ايجابية تقطع في الثانية الواحدة ١٨٠٠٠ ميل . واشعة بيتا مكوَّنة من كهارب « الكترونات » كهربائية سلبية تشبه الاشعة السلبية التي تتولد في معامل التحليل الكيماوي بانابيب كروكس وهذه تقذف بسرعة تتراوح بين ٦٠٠٠٠ و ١٨٠٠٠٠ ميل في الثانية . واشعة غمَّا تختلف عن اشعة ألفا وبيتا (اللتين هما تيارات من ذرات مادية دقيقة) بكونها امواجاً كهربائية سريعة التموج مثل امواج انبوب الاشعة السينية . غير ان الاشعة السينية اطول امواجاً منها وسرعتها كسرعة النور ، وأشعة ألفا ذات قوة ضئيلة في اختراق الاشياء فتقطع $\frac{1}{٣٦}$ من البوصة من مصدرها . أما أشعة بيتا فقد تخترق نحو ٦٠ بوصة . واشعة غمَّا اشد من اشعة بيتا في اختراق الاشياء مائة مرة

ثم ان التباين العظيم الذي يحدث من تأثير تلك الاشعة في الانسجة الحية هو سرُّ طبيعة الراديوم الثنائية . فأشعة ألفا هي الاشعة المميتة ولعلها اشد الاشعة القتالة التي عرفها العلم حتى اليوم. واشعة بيتا خطرة جدًّا ايضاً وتحدث حروقاً تسمى « حروق الراديوم » . اما اشعة غمَّا فمفيدة وهي اشعة الراديوم الوحدة المستعملة الآن في الطب. ومع ذلك فان هذه الاشعة شافية ولكنها قتَّالة ايضاً . فمتى استعملت في اصابات السرطان أهلكت خلايا الاورام الخبيثة أو وقفت نموها واذا أُحسن استعمالها لا تعوق نمو خلايا الجسم الطبيعية . وقد قال الدكتور (يوسف ميور) احد اطباء مدينة نيويورك الخبير في العلاج بالراديوم ان اشعة غمَّا قد تفتك بخلايا البيض والمنيّ

﴿ اضرار الراديوم ﴾ وتحدث اضرار الراديوم المروّعة، للذين يستعملونهُ بلا خبرة او لمن يتناولونهُ مشروباً محلولاً في الماء او للذين يتعالجون بهِ بأية كيفية، من أشعة ألفا القتَّالة لانها تؤلف ٩٢ في المائة من جميع أشعة الراديوم

وليست أشعة ألفا مهلكة فحسب بل غدَّارة ايضاً فمتى تعاطى المرء الراديوم سرى في جسمه وكمن في عظامه . وكذلك اذا أُخذ الراديوم محلولاً صيَّره الدم بطريقة كيماوية غامضة ، مادة مشعة لا تنحل تُدخل العظام بهذه الصفة . ولما كانت أشعة ألفا ذات قوة ضئيلة في اختراق الاشياء وكانت المسافة بين المراكز المولدة للدم الواقعة في نخاع العظام قريبة جدًّا فان هاتيك الاشعة تستطيع الوصول الى تلك المراكز حيث تتجلّى طبيعة أشعة ألفا الغدَّارة، وذلك انها تقوي اولاً المراكز المولدة للدم فتكثر فيها خلايا الدم الحمر والبيض عما تكون عليهِ طبيعة . ومن ثمَّ يشعر المريض انهُ قد أبلَّ من علتهِ واستعاد شبابهُ

وسرعان ما يحدث رد الفعل — والدليل على ذلك ان فتيات نيوجرزي اللواتي كن يلحسن

ذرات الدهان المشع لم تظهر عليهن علامات المرض الاّ بعد انقضاء مدة تختلف من سنة الى اربع سنوات في اعمالهن بمصنع الساعات المنيرة لان القذائف التي تقذفها أشعة ألفا باستمرار على مراكز توليد الدم ، تقوضها تقويضاً بطيئاً . وحينئذٍ يقلُّ عدد كريات الدم البيض ويفسد تكوين الكريات الحمر فيترتب على ذلك الاصابة بداءِ فقر الدم

وجرعة الراديوم القتّالة التي تتكون من ١٠ ميكروغرامات تقذف في الثانية الواحدة نحو ٣٧٠٠٠٠ دقيقة بسرعة ١٨٠٠٠ ميل في الثانية ليلاً ونهاراً ، وعقب هذه الصدمات المتوالية القاسية تأخذ العظام ولاسيما الهيكل العظمي المعرض للثقل او الضغط في التداعي ثم في البلى وهذا ما يسمّى بموت العظام اي النخر او التنخر . ولما كان الراديوم يفقد نصف قوته في ١٧٣٠ سنة فان قذائف شعاعة ألفا تظل منطلقة من غير تناقص عدة قرون بعد الوفاة

وقد ظهرت هذه الحقائق ظهوراً عمليّاً من عهد قريب في تجربة تبعث على الدهشة وهي ان الدكتور الكسندر جتلر الخبير في علاج السموم بمدينة نيويورك فحص الهيكل العظمي لاحد ضحايا الراديوم في نيوجرزي حين أُخرج من قبره بعد الوفاة بخمس سنوات . فأَخذ ربع اوقية من عظم ذلك الهيكل ووضعها أمام عدّاد جيجر Geiger counter (وهو جهاز يصير اشعة الراديوم ذبذبات كهربائية) ثم جاءَ بسماعة لاسلكية مكبرة للصوت ووصّلها بذلك الجهاز فحولت الذبذبات الكهربائية التي اصلها اشعة راديوم الى امواج صوتية مسموعة

واذ كانت السماعة اللاسلكية تحدث اصواتاً متواصلة كان انبوب مملوءٌ غازَ نيون يشع نوراً احمر كلما مرّت دقيقة من دقائق اشعة ألفا الكهربائية بحجاب ذلك الجهاز . وكان الدكتور نفسه قد سبق فاخذ ايضاً عظمة من عظام قدم ذلك الهيكل فوضعهُ على لوح فوتوغرافي في حجرة مظلمة فطبعت صورته من تلقاء نفسها

وضحايا التسمم الراديوميّ تشع من ابدانهم اشعة الراديوم وهم احياءٌ ايضاً . فقد حدث منذ بضع سنوات حادثة فظيعة لا يزال الناس يذكرونهـا وهي ان احدى عاملات دهن موانئ الساعات المنيرة ، كانت نائمة في غرفتها ذات ليلة فاستيقظت لتتناول دواءها وكانت الغرفة وقتئذ حالكة الظلام فذعرت تلك الشابة اذ رأت شعاعاً منعكساً على المرآة منبعثاً من جسمها نفسه ! ! . فكان ذلك الحادث الرهيب محققاً لمزاعم الاطباء الذين كانوا يعالجون تلك الصبية التعسة وهي أن اصابتها كانت تسمماً راديوميّاً

وقوارير مياه الراديوم الصناعية التي يزعم باعتها احتواءَها على الرادون أي الغاز الثقيل الذي ينبثق من الراديوم بعد قذفه أشعة ألفا ، قد انتشرت في أسواق امريكا من بضع سنوات وكذلك الاجهزة المسماة « منشطات الابدان » او قذّافات الراديوم التي يدعي صانعوها أنها تحول مياه الحنفيات العادية ماءً مشعّاً في الحال . وقد بلغ ما بيع من تلك الاجهزة الصغيرة

١٥٠٠٠٠ في سنة واحدة وذلك في المدن الواقعة على ساحل المحيط الهادي . وكان صانعوها بعد وفاة بايرز يعلنون عنها اعلانات باهرة ولا سيما لما صرَّح محافظ مدينة نيويورك انه اعتاد استعمال جهاز منها عدة سنين فاستفاد منه فوائد جمّة . وفي هذا الصدد يقول الدكتور مارتلند إن تلك الأجهزة لا تأتي بفائدة الاّ من قبيل الاستهواء الذاتي . لان كثيراً من الغاز يفلت في الهواء عند تحضيره فلا تتسع معدة الانسان للمقادير الكبيرة من تلك المياه المحتوية على قدر مفيد من ذلك الغاز — وهذا القول عينه ينطبق على مياه الرادون المملوءة بها القوارير

وقد ظهر في السوق أخيراً نوع جديد من مركبات الراديوم ونعني به (شكولاطة الراديوم) التي تصنع في المانيا ويعلن عنها انها من مجددات الشباب وانها علاج ناجع لأكثر امراض الجنس البشري . فاذا ألف الانسان أكلها فلا بدّ من اصابته بما لا تحمد عقباه ، والواقع انهُ «ما من طبيب نطاسي يصف لمريضهِ الراديوم كعقّار ، لان ما يستعمله الطب انما هو أشعة الراديوم»

﴿الراديوم في العلاج﴾ ويموت في الولايات المتحدة كل سنة أكثر من ١٠٠٠٠٠ مصاب بالسرطان وليس لدى الاطباء أسلحة معروفة حتى الآن لمكافحة ذلك الداء العياء سوى المبضع وأشعة الراديوم والاشعة السينية «المشابهة لاشعة غمّا» والمعروف للآن ان الراديوم علاج ناجع لبعض أنواع من اصابات السرطان في ادوارها الاولى . اما في أحوال المرض الشديدة فقد ينفع الراديوم في اطالة عمر المصاب واراحته من العذاب. ولذلك طريقتان وهما (اولاً) الراديوم نفسه كملحٍ مصدرٍ للاشعاع و(ثانياً) منبثقات الراديوم اي الرادون الذي يحقق هذا الغرض

والراديوم الفلزي مادة معدنية بيضاء اللون لا يمكن ادخارها دون استهدافها للتغير — اذن الراديوم المستعمل في الطب هو املاح الراديوم اي سلفات الراديوم لاجل طريقة العلاج المباشر . وبروميد الراديوم القابل للذوبان لتوليد الرادون

ومتى كان الراديوم عينهُ مصدراً للاشعاع ، وجب حفظ ملحهِ في أنابيب زجاجية محكمة السد توضع في غُلُفٍ معدنية مصنوعة من النحاس الاصفر فيمتص الزجاج أشعة ألفا ويمتص المعدن أشعة بيتا ويقوم في الوقت نفسه مقام مرشح تخترقه أشعة غمّا الشافية من دون أن تفقد أي شيء من قوتها غالباً. وفي حالة معالجة أي مريض يتناول الطبيب الغلاف المعدني ويدنيه من جلد المريض مسافة معينة على قدر ما يحتاج اليهِ من درجات اختراق الاشعة لجلده في كل اصابة

ويستعمل ملح الراديوم للعلاج بطريقة اخرى وهي وضعه في أنابيب زجاجية دقيقة تغلف بغلف معدنية تدعى (الابر) تغرز في أنسجة المريض بكبّاسات فولاذية وتترك فيه بحسب ما تمس اليها الحاجة . ومن المعادن التي تمتص الأشعة غير المرغوب فيها وترشح أشعة غمّا — الاليومنيوم والنحاس الاصفر والنحاس الاحمر والفضة والرصاص والذهب والبلاتين ولما كان البلاتين افضلها فان الابر المشار اليها تصنع منه الآن

وليس الرصاص افضل معدن رخيص صالح لتلك الغاية فحسب بل هو يفوق الفضة ولذلك يستعمل لصنع الانابيب الكبيرة التي تستخدم لنقل الراديوم . واذا ما استعملت منبثقات الراديوم مصدراً للاشعاع بمثابة غاز رادون ، وقوته تكاد تشبه قوة الراديوم عينه الاّ انه قصير العمر ، وجب حفظها في أنابيب زجاجية دقيقة محكمة السد تُغشّى بأغشية من الذهب اللين والبلاتين وتسمى (البزور) وهذه تغرز في الاورام السرطانية بكبّاس كما تغرز ابر املاح الراديوم الكبيرة . وقد شاعت في السنوات العشر الاخيرة طريقة منبثقات الراديوم في عالم الطب وأقبل عليها اطباء معاهد السرطان علاوة على العلاج المباشر لان لها عدة فوائد اذ تستعمل اولاً في شتّى الاصابات وثانياً انه في حالة استعمال « بزور » الرادون لا يحتاج الامر الى ملازمة الفراش — ولا الى مراقبة المريض بل يكفي وجود المريض في حجرة المستشفى فيحصل على الضمان التام : وكل ما يجب حينئذ عمله ان يغرز مقدار من الراديوم الثمين نفسه في أي جزءٍ من أجزاء جسم المريض . وفي الحالة الثالثة تترك « البزور » ذات الغشاء الذهبي اللين او البلاتين في أنسجة العليل من غير ضرر — وتكون تلك البزور متصلة بخيط لكي يسهل اخراجها عند الحاجة . ويبلغ متوسط ثمن تلك البزرة الصغيرة ٢٠ ريالاً أمريكيًّا ، وتستعمل مرة واحدة فقط . ولكن طريقة المنبثقات فيها نقص وهو ان الرادون — وله تأثير الراديوم نفسه — يفقد قوته في ثلاثة أيام و ٢٠ ساعة . ويفقد قوته كلها في شهر واحد . اذن كل جرعة من الرادون تضعف بنفسها ولذلك يجب تجديد البزور دائماً لكي تؤثر التأثير المطلوب . وهذا ما يفسر لنا عرضاً مبلغ ضؤولة الفائدة التي تجنى من شرب مياه الرادون المحفوظة في القوارير . قال الكاتب الامريكي منشيء هذا المقال : — وقد زرت من عهد قريب معملاً من المعامل الكيماوية التي تحضر فيها بزور الرادون للمستشفيات ولعيادات مرضى السرطان وللاطباء الخصوصيين ، فقادني الطبيب المختص الى حجرة مغشاة بالرصاص فلما دخلتها قال لي مرشدي . ألا تدهش اذا شاهدت الآن من الراديوم ما ثمنه ربع مليون دولار ؟ فأجبته بالايجاب ففتح لي خزانة فولاذية صغيرة مبطنة بالرصاص فرأيت فيها قارورة. فقلت دهشاً أين الراديوم ! ! ! فأجابني إنه أمامك في تلك القارورة

والاطباء مع ثقتهم العظيمة بكون الراديوم عاملاً شافياً ، موقنون بخطره على الصحة — والدليل على ذلك الاحتياطات المحكمة التي يتخذونها حين استعماله

والواقع ان الاطباء الذين يستعملون الراديوم يتقون أضراره بالقفافيز المصنوعة من الصمغ المرن فيلبسونها قبيل تناول الانابيب المحتوية على ملح الراديوم وبزيرات الرادون وقاية لأيديهم من الاحتراق بأشعة بيتا . وتراهم لا يلمسون بتاتاً الانابيب أو الابر وانما يلتقطونها بملاقط خشبية — وينقل الراديوم في المستشفيات من غرفة الى اخرى بصناديق ذات مقابض

طويلة — وعند ما يستعمله الطبيب في العلاج يجب ان يضع حائلاً من ألواح الرصاص بينه وبين الراديوم الذي يعطيه للمريض ويشترط الاّ يقل ثخن ذلك الحاجز عن بوصة واحدة

وفي المستشفيات والعيادات يحفظ الراديوم في تجاويف تجوف في كتل كثيفة من الرصاص تخزن في قبو مبطن بالرصاص يبعد ما امكن عن حجر المرضى والمكاتب ومحال السكنى

ولفدح اسعار الراديوم لا تستطيع المستشفيات اقتناء مقادير كبيرة منه مع ان اثمانه قد نقصت في السنين الاخيرة نحو ٥٠ في المائة. ولكن الراديوم ما زال أثمن مادة في العالم اذ يبلغ ثمن الجرام الواحد منه في وقتنا الحاضر ما يتباين من ٥٠ الف الى ٦٠ الف ريال بينما الغرام الواحد من الالماس يساوي ٣٠٠٠ ريال اميركي. وثمن الغرام من الالماس المستعمل في الصناعة ٨٧٥ ريالاً اميركيًّا والغرام من البلاتين ثمنه ½ ٢ ريال اميركي والجرام من الذهب يساوي ٧٠ سنتاً

﴿استخراج الراديوم﴾ وسبب بهظ اسعار الراديوم صعوبة استخلاصه من التبر الذي يحتويه . ومما يذكر في هذا الموضوع ان مدام كوري مكتشفة الراديوم لما زارت الولايات المتحدة منذ بضع سنوات لم تكن تملك من الراديوم حتى ذلك العهد ميكروغراماً واحداً فأهدى اليها حينئذ غرام كامل من الراديوم فتبرعت به الى مستشفى بمدينة وارسو بموطنها بولونيا . والمعروف ان الغرام الواحد من الراديوم يقتضي تشغيل ١٥٠ رجلاً اكثر من شهر في اكثر من ٥٠٠ طن من التبر واستنفاد ١٠٠٠٠ طن من المياه المقطرة و ١٠٠٠ طن من الفحم الحجري و ٥٠٠ طن من المواد الكيماوية

وكان نحو سبعة اثمان محصول العالم من الراديوم يستغلّ من تبر الكرنوتيت من ولايتي يوتا وكولورادو باميركا . اما اليوم فقد اصبح استخراج الراديوم يكاد ينحصر في بلاد الكنجو البلجيكية في اواسط افريقية حيث عثر المنقبون في السنين الاخيرة على عروق معدنية كبيرة غاصة بالبتشبلند اي اوكسيد الاورانيوم وغيره من انواع التبر المحتوي على الراديوم — وتهيمن على سوق الراديوم الآن شركة احتكار بلجيكية . ولما كان تبر راديوم الكونغو اغزر مادة راديومية من سواه فهو اسهل تمحيصاً من غيره وذلك سبب انخفاض ثمن الراديوم الى نصف اسعاره الاصلية من عهد قريب

واليك ملخص طريقة تمحيص الراديوم : — يستخرج ركاز الراديوم من مناجمه مخلوطاً بكثير من الصخور التي لا قيمة لها فيصنَّف ويعبأ في الاكياس ثم ينقل الى حيث يطحن ثم ينقل الى معمل التمحيص حيث يعالج بالمواد الكيماوية التي تزيل جميع املاح الباريوم والراديوم ثم يفصل مقدار الراديوم الضئيل عن مقدار الباريوم الجسيم المقترن بهِ — وذلك العمل وحده يحتاج الى ٢٥ عملية كيماوية منفصلة بعضها عن بعض وآخرها عملية التبلور المكررة اي تبخير المحلول . ومع كل ما استجدَّ من التحسينات العلمية في اثناء الاحدى

والثلاثين سنة التي انقضت على اكتشاف الراديوم ما برحت عملية التمحيص الحالية مشابهة من كل الوجوه للعملية القديمة التي اخترعتها مدام كوري سنة ١٩١١

وملح الراديوم النقي يشبه اول وهلة السكر المسحوق المعروف عند التجار باسم « سكر بودرة » — وتنطلق منهُ اشعة فصفورية غريبة ضاربة الى الزرقة فاذا وضع في الانابيب الزجاجية المحكمة السد فقد بعض ذلك اللون واكتسب لوناً مائلاً الى الدكنة. واذا اريد استعمال الراديوم في الصناعات كدهن ارقام مواني ساعات الجيب والحيطان بالدهان المنير يخلط مقدار دقيق من الراديوم بكبريتور الزنك فيتألق بنور اصفر مائل للخضرة

واذا فقدت قطعة منهُ توسلوا الى العثور عليها بالكاشف الكهربائي المسمى الكتروسكوب وهو جهاز بسيط بديع صغير الحجم مركب من شريطين من الورق الذهبي معلقين على سلك معدني فاذا شحن السلك بالكهرباء انفصل الشريط عن الآخر وظلاًّ منفصلين ما دام الهواء المحيط بهما عازلاً للكهرباء اي غير موصل لها لا يدع الشحنة الكهربائية تفلت من الورقتين. ولما كان الراديوم وغيره من المواد المشعة تجعل الهواء موصلاً للكهرباء فاذا اتفق وضع الالكتروسكوب قريباً من الموضع الذي ضاعت فيهِ قطعة الراديوم تضامّت الورقتان كاصلها ووجد الكنز الضائع . ومما يروى بشأن ضياع قطع الراديوم أن جمهوراً من المتنزهين في احد متنزهات برلين دهشوا اذ رأوا زمرة من الجنود حراس المتنزه يقودها ملكي « واحد من غير الجنود » تزحف على ايديها وركبها على الارض حول ملعب للتنيس في المتنزه وكانوا يحملون الكتروسكوباً باحثين عن قطعة صغيرة من الراديوم زنتها ٢٠ مليجراماً وثمنها الف ريال امريكي كانت ضائعة من طبيب فقدها عند دخوله مقصورة متصلة بذلك الملعب

ويقدر الراديوم النقي الموجود في العالم الآن بنحو ٣٠٠ جرام اي ⅔ رطل انكليزي ثمنها ١٦٥٠٠٠٠٠ من الريالات الاميركية ونصف ذلك المقدار موجود في الولايات المتحدة (بمستشفى بلفيو بمدينة نيويورك) وهو من المعاهد الخيرية التابعة للمجلس البلدي هناك ويُعَدُّ هذا المقدار اكبر نصيب من راديوم المسكونة اختص به مستشفى واحد . وربما يرخص سعر الراديوم اذا امكن تنقيته بنفقات قليلة من الركاز الذي اكتشف اخيراً في منطقة بحيرة الدب الاكبر بكندا

وقد ألقى حديثاً الدكتور بيجوت Piggott الطبيب في معهد كارنيجي خطبة في الجماعة الجيوفيزيكية الامريكية في مدينة واشنطون ذكر فيها ان البحر يحتوي على راديوم أكثر من البر وقد دلّت التجارب على وجود بليون طن منه في قعر المحيط الهادي ! فدهش السامعون كل الدهش (انظر مقال الثروة في البحر المنشور في مقتطف فبراير الماضي) ولئن تحقق ذلك التكهن واستخرج ذلك الكنز النفيس أصبح سعر الراديوم كسعر سائر العقاقير الطبية المعتادة

عوض جندي

الدين والعلم

في الصورة القلمية التي نشرناها في مقتطف دسمبر الماضي بعنوان «ملك الخشب» استشهد الكاتب بفقرات من مقال جليل كان حضرة الباحث الفاضل اسعد باسيلي قد اتحف به مجلة « الجامعة » منذ نيف وثلاثين سنة . وقد طلبت الينا طائفة من القراء الذين تهمهم هذه المباحث ان نعيد نشر المقال برمته ، لما رأوه في الفقرة من احكام الفكر فطلبنا الى الاستاذ نقولا شكري ان يعود الى مجلدات الجامعة(١) وينقل المقال المذكور فلبى الطلب ونحن نشكر له عنايته هذه « المحرر »

بين رجال الدين وبعض رجال العلم تناظر قديم العهد يبدأ تاريخهُ من يوم اكتشف العقل البشري أبسط النواميس الطبيعية فوضع بذلك حدًّا لعبادة الاشياء المحسوسة. والذي يسوء كل معتدل من هذا العداء ما نراه من تطرف كل من الفئتين : الاولى في الاثبات والثانية في الانكار . فمن جهة ترى رجال الدين يبالغون في اثبات مذاهبهم .وينزلون جميع عقائدهم وآرائهم — حتى ما كان منها يعارض العقل — منزلة الحقائق اليقينية الراهنة فيقابلهم رجال العلم بالانكار المطلق وقد يتمادون في انكارهم فيجحدون ان هنالك حقيقة قام عليها بنيان الاديان

وعندنا ان العلم مصيب اذ يعمل على دحض ما غشي الدين من الاباطيل والاوهام لانهُ اذا لم يكن من شأن النور ان يضع حدًّا للظلمة فما يكون شأنهُ يا ترى ؟ الا انهُ يخطىء كل الخطأ عند ما ينظر الى العقائد الدينية بعين الازدراء والاحتقار ويحسبها عارية عن كل اساس يحط كثيراً من العقل البشري الذي انما عنه ورثت الانسانية ما لديها من الحقائق

ومن ذا يا ترى يرى رجلاً من نوابغ بني الانسان كافلاطون وأرسطو وسان توما وديكارت ونيوتن وكوزين وغيرهم يشغلون قسماً كبيراً من مؤلفاتهم بالبحث في ما وراء الطبيعة واثبات الاصول الدينية العامة ثم يجرأ بعد ذلك على القول انهم انما كانوا في ما كتبوه من هذا القبيل يحيكون أوهاماً بأوهام ويشيدون على غير اساس . اولا يبعث هذا على الريبة بجميع احكام العقل ومدركاته ؟

ولسنا نكتفي بهذا القول وحده لاثبات الحقيقة الدينية العامة بل نحن موردون على ذلك ادلة اخرى معتمدين فيها على ما كتبه الفيلسوف هربرت سبنسر اشهر فلاسفة الانجليز في هذا الزمان

اذا امعنت النظر في تواريخ الامم الغابرة ثم عدت بنظرك الى عمران الشعوب الحاضرة ترى انهُ ما من امة من الامم قديمة او حديثة خلت من بعض العقائد الدينية ولئن اختلفت تلك العقائد من حيث نوعها ودرجتها في سلم الارتقاء . فهل يسلم عاقل بوقوع مثل هذا بالمصادفة والاتفاق ؟ او ليس من شأنهِ ان يحملنا على ترجيح صحة ما قاله رنان من ان الانسان ديّن اعني انهُ ذو نزوع فطري الى الدين

---

(١) مجلة الجامعة : العدد الثامن من المجلد الثالث

الا انهم يعترضون بوجود بعض قبائل همجية لا نجد عندها ادنى فكرة ابتدائية عن علة الكائنات والخليقة والخلق . وان هذه الافكار لم يبد لها اثر للوجود الا بعد اذ بلغ الانسان درجة ما من الترقي العقلي فنجيب ولو صح هذا فلا يغير شيئاً من النتيجة التي نرمي اليها لانهُ متى سلمنا ان جميع القبائل التي ارتقت مداركها العقلية بعض الارتقاء وجدت عندها افكار دينية ادركنا ان هذه الافكار تنشأ بالضرورة عن ترقي العقل

وما نراه من التنوع بين العقائد يساعد على تأييد هذه النتيجة اذ انه يدل على أن عقائد كل أمة نشأت مستقلة عن عقائد الاخرى وان وجود الامم الكثيرة في ظروف وأحوال متناسبة مع اختلاف الازمنة والامكنة أدى الى ايجاد افكار مماثلة ونتائج متشابهة

وزعم آخرون ان جميع ما يذكره لنا تاريخ الأديان من العقائد هو مخترعات عرضية وضعها الكهان والزعماء بقصد مخادعة العامة والتمويه عليهم وهذا زعم لا يستطاع اثباته اذ لا يتفق ان يقوم عند جميع الامم القديمة والحديثة المتمدنة وغير المتمدنة افراد من الهيئة يتواطأون على مخادعة الآخرين وتكون الوسائل التي ينالون بها اربهم مماثلة احوالها كل هذا التماثل

وان قيل ان الاختراع الأول للدين وقع قبل ان تمرقت طوائف الجنس البشري في انحاء الارض وان الجراثيم الدينية انتقلت مع كل قبيلة عند جلائها عن الوطن الاول قلنا ان علماء اشتقاق اللغات يفندون هذه المزاعم لأنهم يثبتون بالادلة ان تفرق الجنس البشري حصل في زمن لم تكن اللغة ارتقت فيه الى درجة يستطاع عندها التعبير عن الافكار الدينية

ومع هذا فلو أمكن وجود ادلة تثبت كون الاديان مخترعات عرضية فلا يمكن بهذا الافتراض التعليل عن كل حادث في الدين لانه اذا كانت الاديان مخترعات جماعات متفرقة من الكهان فلماذا نرى تحت الفروع الدينية المتنوعة أحوالاً ومبادىء مماثلة . واذا كانت جميعها أباطيل واوهاماً فلماذا نرى النقد العلمي الذي استطاع اسقاط العقائد الخاصة لم يتمكن من ضعضعة الفكرة الاساسية التي قامت عليها تلك العقائد . ولماذا نرى العقائد الدينية بعد إذ تسقط سقوطاً عظيماً عند امة كما حدث في أواخر القرن الثامن عشر في فرنسا لا تلبث ان تنهض ثانية ان لم يكن بمظهرها الذي كان لها من قبل فجوهرها القديم يبقى هو نفسه

ثم هنالك من يزعم ان الافكار الدينية هي من نتائج الشعور الديني فهو الذي يجعل العقل يحيك صوراً وهمية لايلبث ان يتخذها شيئاً فشيئاً حقائق راهنة . وهؤلاء يسلمون ضمناً بوجود الشعور الديني اذ لا يرون سبيلاً لانكار شعور يحس به السواد الاعظم من بني الانسان وقد كان له اعظم أثر في التمدن في العصور التاريخية . وما برح لعهدنا هذا أساس كثير من النظامات الاجتماعية والباعث على كثير من الاعمال العظيمة المفيدة . الا ان زعمهم هذا لا يحل المسألة وانما يبعد قليلاً الصعوبة في حلها . لانه سواءٌ كان الشعور الديني منشأ الفكر الديني

او كان للشعور والفكر مصدر واحد فلا بد لنا ان نسأل من اين جاءنا هذا الشعور ؟

وجواباً على هذا نجد أمامنا احد افتراضين : اما ان يكون هذا الشعور خلق دفعة واحدة بفعل خلق خاص واما انه نشأ تدريجيًّا تبعاً لناموس الارتقاء . فاذا اتبعنا الاول الذي اتبعه الاقدمون وعليه اكثر البشر لعهدنا هذا فالمسألة تكون قد حلّت اذ يكون الانسان قد منح الشعور الديني من مبدع حكيم فهو منطبق اذاً على مقاصد هذا المبدع . وان اتبعنا الافتراض الثاني وسلمنا بما يوحيه مذهب الارتقاء من ان القوى هي نتيجة التطورات العديدة التي طرأت على الانسان بفعل المؤثرات والاحوال الخارجية عليه تعين ان نسلم بوجود احوال خاصة أوجبت نشأة الشعور الديني ومن ثمَّ يكون حكمه حكم سائر القوى النفسية واذا صح ايضاً ما يوجبه مذهب الارتقاء من ان الغاية التي تتجه اليها التطورات الارتقائية هي اعداد الحي لاستعمال ما هو من لوازم وجوده امكننا ان نستنتج من هذا ان الشعور الديني من البواعث المؤدية لسعادة البشر . اذن فسواء كان الشعور الديني خلق دفعة واحدة او نشأ تبعاً لناموس الارتقاء فالنتيجة من كلا الافتراضين توجب علينا احترام الشعور الديني

وهنالك ملاحظة اخرى ينبغي ان نضرب عنها صفحاً وهي ان العلم مهما اتسعت دائرة اكتشافاته فهو عاجز كل العجز عن ان يروي ظمأ العقل البشري الى المعرفة . فمهما أمعنا في الاكتشاف العلمي فانهُ يبقى لدينا ولدى من يأتي بعدنا مسألة وهي : ماذا يوجد بعد ذلك ؟ ومهما تقدمنا في التعليل عن اصل الكائنات فلا يمكننا ان نجد مناصاً من السؤال : ما الذي يعلل لنا التعليل نفسه ؟ فاذا كان العلم هو اشبه بدائرة تتسع شيئاً فشيئاً فنموه لا يكون من شأنهِ الاّ ان يزيد نقط اتصاله بالمجهول الذي يساوره من كل جانب. ويترتب على ذلك ان يوجد على الدوام طريقان ينتهجهما الفكر البشري وهما العلم والدين

اذن فالعقل سيشتغل في الاستقبال كما يشتغل في الحال ليس فقط في البحث عن الحوادث الوضعية وعلائقها بعضها ببعض بل بشيءٍ لا يستطاع اثباته بالادلة الواقعة تحت الحواس ولا بدّ من افتراض وجوده عند النظر الى الحوادث واعتبار علائقها بعضها ببعض . وينتج عن هذا انه ما دام العلم لا يستطيع وحده ان يشغل جميع القوى الانسانية وما دام العقل يوجه انتباهه ابداً الى ماوراء حدود العلم فسيبقى محل للدين على الدوام لان الدين يمتاز بكون موضوعه وراء دائرة العلم والاختبار . والحاصل من جميع ما تقدم ان وجود الافكار الدينية عند جميع الامم ونشأتها مستقلة بعضها عن بعض وحيويتها المستمرة في المجتمع الانساني ووجود الشعور الديني ايًّا كان منشأه واتجاه الفكر الى ما وراء حدود العلم . كل هذا من شأنه ان يثبت ان للدين اصولاً عميقة في الانسان لاسطحية كما يتوهم البعض ويدل على ان هنالك حقيقة اساسية قام عليها بنيان الاديان

باب الزراعة والاقتصاد

صناعة الالبان في القطر المصري

وهل يمكن ان تصبح مورداً للثروة؟

١ — حاجة مصر الى محصول اقتصادي

تنافس مصر الان في قطنها منتوجات اخرى كالحرير الصناعي . كما ان اقطاراً اخرى تنافسها في انتاج القطن نفسه . ذلك في حين ان مصر وهي من ارق البلاد الزراعية ، لا تنتفع بالكثير من المنتوجات الزراعية التي تستغلها بلدان زراعية اقل منها شأناً . ولا شك في ان صناعة الالبان ومنتوجاتها في مصر تكاد تكون معدومة ، والاهتمام بها قليل . وفي هذا المقال بحث ضاف في الموضوع نرجو ممن لهم اهتمام بهذه الناحية او غيرها من مثيلاتها ان يقوموا على بحثها واظهار نواحيها المختلفة . وهذا البحث للاستاذ « مكفيتر » من اساتذة كلية اسيوط الاميركية وله خبرة واسعة علمية وعملية في صناعة الالبان وبحث اصولها واساليبها في الولايات المتحدة الاميركية . وما يلي الجانب الاول منه

تآمرت خصوبة تربة مصر وجوها البديع مع نقص مصادر القوى المحركة فيها على القضاء بأن تعتمد البلاد في المستقبل ، كما كانت تعتمد في الماضي، على الزراعة . ومن المتعذر الآن ان تنشىء البلاد دور الصناعات الثقيلة ، بما فيها الآن من مصادر القوى المحركة او بما تؤمل ان تنتفع بهِ في المستقبل . ومع ذلك فان ازدحام السكان ، واستمرار ازديادهم ، مع ارتفاع مستوى المعيشة وضيق ميدان العمل امام جمهور الشبان الذين تخرجهم المدارس سنويًا ، كلٌّ من هذه العوامل يتطلب مخرجاً اما عن طريق الصناعات الثقيلة ، او عن طريق توسيع ميدان العمل في الاستغلال الزراعي الكثيف intensive

وقد يفتر ثغر القارىء عن ابتسامة شك عند ما نشير الى زيادة الاستغلال الزراعي في مصر . الم تحسن البلاد الاستفادة من الزراعة في ظرفها الحرج ، اولم تفلح كل شبر من ارضها الصالحة للزراعة المحصورة المساحة او لم تنجح في انتاج معظم قوت الملايين من سكانها وفي نفس الوقت تنتج محصولاً يباع نقداً فتسد بثمنه ثمن حاجياتها الاخرى ؟

ولكن هنا مكان الصعوبة ، فان هذا المحصول النقدي قد انحصر في مادة واحدة لا غير هي القطن . وعدم كفاية الاعتماد الاقتصادي على محصول نقدي واحد يتضح لنا شيئاً فشيئاً على مرور الزمن ، ذلك انهُ ما زالت الاقاليم التي يمكن ان تنتج قطناً مزاحماً للقطن المصري غير مستكملة الاصلاح وما زالت الطلبات على القطن تتدفق لشرائه بأي ثمن واستعماله في صنع المفرقعات وغيرها من لوازم الحرب، يظل القطن محصولاً مربحاً . وفعلاً ارتفعت اثمان الارض ارتفاعاً عظيماً بسبب تضخم اثمان القطن ، وظهرت على كل شخص سيماء السعادة وعلامات

الثراء . ولكن مثل هذه الثروة تصنع لنفسها اجنحة وتطير ، فان الحروب لا يمكن ان تستعر على الدوام . وليس ثمة حاجة الى القطن لاغراض الحرب الآن . والواقع ان كثيرين من صناع القطن هجروه مفضلين عليه العمل في الحرير الصناعي . فلم يهبط ثمن القطن هبوطاً عظيماً فحسب بل مضى متدهوراً من اسعر الى ادنى منه . فمحصولٌ نقديٌّ مفرد معرض للمضاربات لايصح ان يعتبر اساساً ثابتاً تبنى عليه ثروة البلاد القومية

عندما يوضع كل البيض في سلة واحدة يتحتم الاهتمام الكلي بسلامة تلك السلة. ولكن لاضمان لحالة من هذا القبيل في مصر الآن فانهُ رغم تمكنها من وضع كل ما تملكه من البيض في سلة واحدة يتحتم عليها ان تعهد بسلامة السلة الى الايدي الخشنة في السوق العالمية

ولقد اقترحت علاجات متنوعة لتخفيف ضرر الاستسلام لمحصول واحد ان لم يكن لرفع الضرر بتاتاً . وها نحن نتناول اهمها باختصار ، ملاحظين ان قيمتها لا تقاس بمقتضى التصور الشخصي او النفع المحلي بل بمقتضى النواميس الاقتصادية الثابتة

واكثر هذه المقترحات رواجاً هو ان مصر يجب ان تهتم بزراعة اكثر تنوُّعاً وان تسعى لان تنتج ما يكفيها من الطعام ولو ادّى ذلك الى انقاص محصولها النقدي. وغرض المروجين لهذا الاقتراح مزدوجٌ فمن جهة يزداد انتاج الطعام في البلاد ومن الاخرى يقل المنتج من القطن فيرتفع ثمنهُ . وان سلّمنا بامكان تنفيذ هذا الاقتراح فقد تفوز البلاد بتحقيق الشطر الاول من الغرض اما الشطر الثاني فمصيره الخيبة ، لانهُ عند ما تنقص مصر انتاجها القطني يسرع اقليمٍ آخر الى زيادة المزرع قطناً فيهِ . فاتباع سياسة التنقيص المقصود في الانتاج لا يقلل المُنتج من القطن ، حتى الطويل الشعرة منه ، ولا يرتفع السعر ارتفاعاً مستمرًّا

وهل من حكمة اقتصادية في هذا الاقتراح ؟ ان محصول الطعام ، فداناً بفدان ، اقل قيمة نقدية على وجه الاجمال من محصول القطن ولو الصنف الرخيص منهُ . ولولا ذلك لما احتاج الناس الى الحاح في العدول عن زراعة القطن بل لكان يتم ذلك من تلقاء ذاته . ان قيمة القطن ، عادة ، اكثر من قيمة غيره فلمَ لا نزرع القطن ونبيعه ونشتري بثمنه طعاماً ويتبقى القليل من الثمن لشراء الضروريات الاخرى ؟ وهذا امرضروري فانمعظم البضائع المصنوعة ان كانت منسوجات او وقوداً او حتى طلمبات الري وآلات اخرى لازمة للزارعة نفسها — كلها — يتحتم شراؤها من الخارج . وبطريقة من الطرق ، ينبغي دفع اثمانها. ومن الواضح انهُ لا يمكن دفع ثمنها بطعام يستهلك داخل البلاد . فحكمة ابدال محصول بآخر او بالتنويع العام في المحصول بدل جانب من القطن تقوم او تسقط بالنسبة لما تأتي بهِ من القيمة النقدية. وبهذا القياس يظهر ان القطن المصري يحفظ امتيازه عند ما يقارن باي نظام من تنويع المحصولات

وهناك اقتراح ثان يتجه نحو زيادة انتاج المحاصيل النقدية الثانوية الموجودة . لم لا نزرع

ونبيع مقداراً اوفر من تلك المحاصيل التي برهنت على مناسبتها للبلاد وجودة انتاجها. والصعوبة في ذلك انهُ حتى في حالة اثمن هذه المحاصيل الثانوية نجد ان قيمتهُ ضئيلة للغاية . فان محصول البصل يأتي في المرتبة الثانية بعد القطن في الصادرات ولكن قيمة المصدر من البصل ليست سوى جانب يسير من قيمة القطن . فقد كانت سنة ١٩٢٩ جزءًا من اثنين وخمسين جزءًا من الصادر كله ،بحسب تقويم الحكومة ، فضلاً عن ان مقدار ما يمكن ان يباع من البصل محصور لان اسواق العالم تكتظ سريعاً بهذا الخضار المدرّ للدموع — اذ ان طلبه ليس قابلاً للاتساع

ومحصول ثانوي ثان تصدره مصر هو البيض . فقد كان قيمة ما صدرت مصر من سنة ١٩٢٩ بالمقابلة مع القطن كنسبة ١ — ١٤٠ . ويمكن اعتبار معظم هذا المحصول ، في الوقت الحاضر ، انهُ محصول فضلة . فكون الفلاح ، او بالحري زوجته ، تربي في المنزل بضع دجاجات تطعمها الفتات والفضلات ، ولولا ذلك لرميت بدون نفع — هذا — امر يختلف عن انشاء امكنة للتفريخ التجاري تقتضي نفقات كبيرة للطعام والعمل .وحتى تنجح مشروعات من هذا القبيل يتحتم ضمان الانتاج معظم السنة وهو امر لا يتوفر الا على سواحل البحر الابيض المتوسط.فان حرّ الصيف يقلل الانتاج ويخفض صنف البيض ويضعف حيوية الدجاجة نفسها. ومن المرجح ان مقدار المحصول الحاضر من البيض يمكن زيادته زيادة مكسبة اذا بقي كما هو، شيئاً ثانويًا ويمكن تحسين صنف الدجاج وتنظيم سوق البيض بحيث يرتفع ثمن الصنف الافضل الطازج منهُ . ولكن حتى اذا سلمنا بذلك كله فان انشاء مزارع الدجاج في مصر يكون مشروعاً محفوفاً بالمجازفات فان الثمن الذي يدفع للبيض عادة لن يعادل نفقات تحصيله

وثمة اقتراح ثالث يوجه نظر الفلاح المصري الى انتاج الحبوب انتاجاً كثيفاً intensive . ولكن الحبوب محصول عالمي ، كثيراً ما يزرع في ارض رخيصة ، وبمساحات واسعة ، وبمعاونة آلات دقيقة الصنع وسريعة الاثر . ولما كانت الحبوب لا تعطب بسرعة فانها تنقل بسهولة من مكان الى آخر ولذلك فان حث الفلاح المصري على زيادة مجهوده في زراعة الحبوب معناه حثهُ على وضع ارضهِ المرتفعة الثمن وعمله اليدوي في موقف منافسة لارض رخيصة الثمن تفلحها آلات قوية . واذا زيدت رسوم الجمارك على الحبوب الواردة من الخارج ليتمكن الفلاح المصري من احتكار السوق الداخلية فلا يكون ذلك سوى نقل هذه الخسارة الاقتصادية من على كتف المنتج المصري الى كتف اخيه المستهلك المصري

ويشابه هذا الاقتراح اقتراح آخر يحبّذ زيادة اهتمام مصر بتربية الماشية حتى تتمكن من سد كل حاجتها الى اللحوم وربما يصدر بعضها الى الخارج وهذا أيضاً يحملها على منافسة ارض ارخص جدًّا من ارضها هي ارض المراعي بالارجنتين وكندا واستراليا وغيرها

واتجه فكر البعض الى الاهتمام بمحصول الفاكهة والخضراوات وتصديرها الى الاسواق

الاوروبية . ويظهر ان هذا المشروع له أساس اثبت من المشروعات الاخرى فان مصر الآن تنتج مقادير وافرة من الفاكهة والخضروات الجيدة الصنف . على ان وارد مصر الآن من الفاكهة — الطازجة ، والمجففة ، والمحفوظة في العلب — يزيد زيادة محسوسة عمّا تصوره منها . وهذا ضروري بسبب الرغبة في أنواع من الفاكهة لا تجود محليًّا وايضاً لان مواسم الانتاج — كموسم البرتقال اليافاوي مثلاً — لا تتفق تماماً مع مواسم مصر

ومع كل ما يمكن عمله في تحسين زراعة الفاكهة والخضراوات وتصديرها الى الاسواق الخارجية يجب ان نذكر انه لا طريق سلطاني للنجاح تستطيع مصر ان تسلكه دون ان تجد منافسة ومزاحمة . فان ايطاليا وفرنسا تنتجان فاكهة وخضراوات من أصناف جيدة . وحتى تستطيع مصر ان تدخل هذا الميدان ينبغي الاعتناء التام بتحسين الاصناف والتدقيق في فرز البضاعة وحزمها للتصدير . وقد رأى الكاتب منذ بضعة أشهر شحنة كبيرة من الطماطم مرسلة الى اليونان وهي ثمار ليس لها حجم منتظم فيها تجويفات البزور كبيرة وكانت وقت شحنها ، لم تمتلىء ، سوى امتلاءً جزئيًّا ، باللب . وذلك مما يرثى له إذ أن البلاد تستطيع أن تنبت صنفاً ناعماً جدّاً ابًا مملوءًا باللب وبه قليل من البذر وخال من التجويفات الفارغة ولا يحتاج الامر الا الى الحصول على بذار نقية من هذا الصنف الراقي

والدول الجنوبية في اوروبا يسهل عليها ، ايضاً ، الوصول الى الاسواق المرغوب فيها . فان حزم مثل هذه المحصولات الضخمة وتبريدها وشحنها تضع العراقيل القوية في طريق المنتج البعيد عن السوق اذ ان الاسواق يسهل ان تكتظ بمثل هذه المحصولات السريعة العطب ولذلك كثيراً ما ينخفض الثمن فجأة . وثمة حالات كان فيها كل المتحصل من الشحنة اقل من نفقات الشحن والنقل . وتجفيف الفاكهة والخضراوات يخفض وزنها الى العشر تقريباً وتجعلها غير قابلة للعطب وبذلك تستطيع مصر أن تنافس الممالك الاخرى بعدل ، على ان هذا ميدان واسع ويستلزم تحرياً دقيقاً

وبين كل هذه ، من المقترحات التي يقصد بها تخفيف الضغط عن الزراعة بمصر لم تذكر صناعة الألبان سوى همساً . ومع ذلك فان الألبان وما يصنع منها هي موضوع اقتراحنا الذي نريد التوصية به كمصدر دخل لمصر مكمل للقطن . ولا نقصد بذلك مجرد وضع رسم جمركي عال يمنع ورود المقدار الذي لا يذكر من منتجات الألبان التي تأتي مصر الآن من الخارج . فانه لو رفعت اسوار مصر بتعريفة عالية تحول دون ورود هذه المنتجات بتاتاً فان ذلك لن ينفع صناعة الألبان بمصر شيئاً ، تقريباً . لان هذه الوسائل السياسية لا تجدي نفعاً والنجاح لا يبنى إلا على أسس اقتصادية ثابتة . فبدلاً من أن ترفض مصر الواردات يجب ان تسعى لان تنتج صادرات . لذلك سوف نحاول ان نبين ان مصر تملك مصادر طبيعية كافية تستخدم كأساس اقتصادي ثابت لانشاء صناعة ألبان تنافس أمثالها في سوق العالم بامتيازات محسوسة



Contribution à une théorie Sociologique de l'Esclavage
par le Docteur Aly Abd Elwahed

هذا من الكتب التي يجدر بنا ان نجعلها تلقاء الكتب التي يؤلفها الافرنج . ذلك لانهُ مبني على الاسلوب الحديث في البحث والتأليف . وموضوعه الرق والغاية منهُ اثبات نظرية جديدة تعلل وجود الرق في العالم قديماً . ومؤلف هذا الكتاب الدكتور علي عبد الواحد مدرس الفلسفة في دار العلوم وفي قسم التخصص في الازهر. وقد قدم الكتاب في السوربون لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب فنالها بتفوق . ولنذكر شيئاً عن ذلك الكتاب مرتقبين ترجمته لنسهب في وصفه :

ان بحث الدكتور عبد الواحد ينبسط على عدة امم . فهو يتناول العبرانيين والاغريق والرومان والمسلمين وسكان جزائر الانتيل (الهند الغربية) فيما بين امريكا الشمالية وامريكا الجنوبية

وبحث الدكتور قائم على درس الاوضاع القانونية والنظم الدينية والمؤلفات الادبية والنصوص التاريخية . وقد قسم الدكتور كتابه الى قسمين : فانهُ وقف القسم الاول على وصف الاحوال التي يترتب عليها الرق ووقف الثاني على تعليل تلك الاحوال . ففي القسم الاول بسط كيف ينشأ الرق (١) عن الولادة على شرط ان يمتّ الوليد بسبب الى ارقاء (٢) عن الأسر في الحرب وعن السبي (٣) عن العجز عن دفع الديون (٤) عن الزنا — وقد عزا كلّ حال من تلك الاحوال الى الامة التي اختصت به . واما في القسم الثاني فقد اخذ المؤلف يدفع تعاليل العلماء للرق ثم شرح تعليله فقال ان الارقاء يجلبون من افراد مهددين بالموت بموجب قوانين طبيعية او اجتماعية ، وما الرق الا حال تحل محل الموت . وبعد ما اثبت المؤلف نظريته اخذ يدعمها بالحجج وهنا نظن انهُ اغتصب الوقائع شيئاً الحين بعد الحين لكي تساير نظريته

***

ولهذا الكتاب الجليل ذيل عنوانه « تميز المرأة من الرجل من حيث الرق» . وموضوع ذالك الذيل فريد في بابه

المرافعة والقضاء

المرافعة — للاستاذ حسن الجداوي وكيل النائب العمومي . فن القضاء — للاستاذ حليم سيفين قاض متقاعد ومحام

لا بدَّ للقاضي العظيم من ان يكون رجلاً عظيماً . يجب ان يكون حائزاً ادراكاً كاملاً لنسيج الحياة المتصل ، وفهماً للتقاليد التي لا نستطيع ان ننجو منها . يجب ان يكون قادراً ان يفكّر تفكيراً منطقيًّا مجرَّداً ولكن يجب ألاّ يضحي بآمال الناس وامانيهم وحاجاتهم على مذبح المنطق المجرَّد . يجب ان يكون قادراً على لمح المغزى الازلي في الشأن الحالي ، والمعنى العام في القضية الخاصة . ان ما يفعله القاضي هو تكوين المسارب التي تتصرف فيها الحياة فعليهِ ان يكون فاهماً خطر العمل الذي بين يديهِ . يجب ان يشعر بالقوة التي تحت تصرفهِ وبالدعة في استعمالها . يجب ان يكون خادم العدالة لا سيدها ومنفذاً لضمير المجموع لا لاغراض اصحاب المصالح القوية فيهِ . يجب ان يتخلى عن الطموح الذي يحمل السياسيّ على السعي الى السلطة ويدفع بالمفكر الى وضع نظام عقلي مجرَّد قد لا يستطاع تطبيقه . ان القاضي العظيم من اندر الشخصيات لانهُ وهو السامي بتقرير استقلالهِ يجب ان يكون اعظم الناس سموًّا عن الغرض الشخصي . ان في القاضي الذي من هذا الطراز قبساً من روح الاله

والكتابان اللذان بين ايدينا يوضحان ما تقدم احسن توضيح . فالنيابة تشترك مع الدفاع في توضيح اصول القضية التي ينظر فيها القاضي وليس بين النيابة والدفاع خصومة الا خصومة الحق (المرافعة صفحة ٣٩) لذلك يجب ان يكون القضاء مستقلاًّ عن اصحاب الحكم ، والنيابة مستقلةً عن القضاءِ في تأدية واجبها . ويلتقي الجميع في نشدان الحقيقة والعدالة

اما الكتاب الاول فلرجل من خيرة الادباء ، خبر المرافعة محامياً وفي مواقف النيابة . فهو يبسط اسرارها واساليبها ، بسطاً اخّاذاً ، لوكلاءِ النيابة واعضائها والمحامين على السواء . فيبين من ناحية ، التبعة الملقاة على عواتقهم في كشف الحقيقة ، واقرار العدل ، ويبسط من ناحية اخرى علاقة النيابة بالدفاع وعلاقتهما بالقضاء وبوزير الحقانية والمصلحة العامة ، وكل ذلك في اسلوب يحمل غير المعنيّ بشؤون القضاءِ الفنية ، ككاتب هذه السطور ، على مطالعة فصول الكتاب كانهُ يطالع فصلاً من الادب العالي . ولا غروَ فمادة المرافعة هي مادة الحياة . فاذا اجتمع في نفس المرافع — كما اجتمع في نفس الاستاذ الجداوي — القانون والادب ، كان النتيجة أمثال هذا الكتاب النفيس

اما الكتاب الثاني فلقاضٍ متقاعد ومحام خبير . يبسط لك الموضوع من ناحية القاضي فيصف لك الصفات التي يجب ان يتميز بها في المعرفة وحسن التفكير وصدق الشعور والتجرد . فيقول في العقل القضائي مثلاً صفحة ٤٦ : « في هذا العصر الذي اتصلت فيهِ جميع مناحي

الحياة بالاختراعات المتوالية — ونشأت فيهِ علوم جديدة ذات علاقة دقيقة بالشؤون القضائية كعلم النفس والاجتماع ، صار لا يصلح لوظيفة القضاء رجل قانوني وحسب ، بل وجب على من يتولى الحكم في شؤون البشر ان يكون ذا نزعة علمية في تفكيرهِ وذا اسلوب علمي في ابحاثهِ وتحقيقاتهِ التي يريد ان يتوصل بها الى الفصل في المنازعات »

فالكتابان يكمل احدهما الآخر ، ويجب ألاَّ تقتصر قراءتهما على اصحاب الفن من القضاء واعضاء النيابة والمحامين

صدَّرنا هذه الكلمة بوصف القاضي الفاضل . ولا ريب في ان أي نظام يخرج قضاة من هذا الطراز يجب أن يقنع أصحابهُ والذين يراقبونهُ بانهُ نظام سليم. وقد اثبتت مصر في ادوارها المتعاقبة، ان في مصر قضاة واسعي الاطلاع احرار الضمائر اقوياء التفكير. يصحُّ ان يقال فيهم ما قاله لفردريك الكبير ذلك الطحان الذي أمر ببيع مطحنتهِ للامبراطور فرفض وقال : — هل في قدرتك ان تأخذ طاحونتي . كان ذلك ممكناً لو لم يكن لنا في برلين قضاة

مناخ العالم

بقلم محمود حامد محمد — مفتش ادارة المتيورولوجيا — مصلحة الطبيعيات بمصر

نهوض الامم وانحطاطها او بالحري تاريخها ، مرهون بخمسة عوامل أساسية ، في مقدمتها العاملان الجغرافي والبيولوجي . وكتابة التاريخ من وجههِ الاقتصادي لا يقوم في الواقع على الاصول الاصيلة التي شيّد عليها صرح العمران البشري . لان المعيشة الاقتصادية تقوم على اركان بيولوجية . فالاقليم من جهة وتكوين الارض الجيولوجي من جهة أُخرى يعيّنان الاماكن التي تكثر فيها المواد اللازمة للصناعة والبلدان التي تترعرع فيها الصناعات وتزدهر. كذلك يعيّين الاقليم المنابع التي تفيض منها القوى الانسانية وتنطلق . ويسيطر على توزيع النبات والحيوان . وتغيّر الاقليم يبعث على الهجرة . والهجرة تسبب الحروب وما يأتي في أثرها من اختلاط وتلاقح بين السلالات والافكار

وهذا الكتاب يبيّن عناصر الاقليم — وقد دعاه المؤلف بالمناخ — واخترنا نحن لفظ الاقليم لانَّ Climate مأخوذة من لفظ يوناني clima معناهُ الاصلي انحرف او مال استعملها اليونان لتدل على ميل محور الارض . فالتغيير في « الكليما » ينشيءُ تغيُّرا في مركز خطوط العرض بالنسبة الى الشمس وهذا يحدث تغيُّراً في احوال الجوّ وطول النهار وقصرهِ . وراجعنا المعجمات العربية التي بين أيدينا فوجدنا بعضها يقول اقليم يونانية معرّبة فلفظ «اقليم» يجب أن يدل على المقصود بلفظ Climate وهو متوسط احوال الجوّ في عدد كبير من السنين لكل ساعة ويوم وشهر كما يقول المؤلف في حين ان الطقس Weather هو حالة الجوّ في وقت محدود

وقد بسط المؤلف ظواهر الاقليم كدرجة الحرارة في طبقات الهواء السفلى والعليا والقشرة الارضية والبحار والضغط الجوي والرياح على اختلافها والتبخر والتكاثف والرطوبة والضباب والسحب والعواصف وصفاً علمياً طيباً . ثم تناول بلدان الارض ووصف مناخ او اقليم كلّ منها . وعمد المؤلف في بحثهِ الى الارصاد من جميع ادارات الظواهر الجوية في الممالك المختلفة ، عدا ما يرد على مصلحة الطبيعيات بمصر من النشرات العلمية فجاء كتابهُ وافياً بالموضوع يصحُّ ان يكون مرجعاً وكتاباً مدرسيًّا في آنٍ واحدٍ

كواكب في فلك

توفيق وهبه صاحب هذا الكتاب صحافي بارع يكتب بقلم أديب . وشاعر مقلٌّ ولكنهُ مجيد . فانت تنتقل في كتابهِ هذا من بحث اجتماعي في المبارزة الى آراء حصيفة في السياسة والاجتماع الى قصائد رنّانة في موضوعات تغلب عليه سمة الاجتماع والوطنية . وقد نشرنا لهُ بحثاً موجزاً في مقتطف يناير الماضي في «الرأي العام» يتبين منهُ القارىءُ اسلوبهُ في تصفية الحقائق الاجتماعية والتعبير عنها

يراسل المقطم والبصير من باريس . وينشىءُ المقالات في « لسان الحال » و « البرق » و « الصحافي التائه » وهي من امهات الصحف اللبنانية ، ويكتب في صحيفة الليبرتيه الباريسية في موضوعات شرقية ويشترك في ما يبذله طلاب العلم الشرقيون في باريس من نشاط ادبي وفني . فهو حركة ادبية دائمة وصلة متينة بين الشرق والغرب . وكتابةُ هذا صورة من نفسهِ . بل صفحة من حياته . فانت تلمس في سطوره روحاً شرقية صقلتها المعيشة في باريس وطبعتها بطابع الثقافة العالية ، ولكنها ما تزال روحاً شرقية في نزعتها الوطنية وحبها خدمة الشرق . فيجب ان يكون الكتاب وكاتبهُ مثلاً حيًّا لكثير من شباننا الذين لا يرون خيراً، بعد زيارتهم اوربا ، الا الاخذ بكل ما فيها ، كأن الزرع يجود في كل تربة على السواء

هرمن ودروثيه

تأليف جوته — نقلها عن الالمانية — الدكتور محمد عوض محمد

كتب الدكتور عوض فصلاً في جوته . على ذكر الاحتفال بانقضاء مائة سنة على وفاته جعلناه ملحقاً لمقتطف ابريل سنة ١٩٣٢ ، فكان له وقع كبير في نفوس القراء . لشموله اهم ما يعرف عن حياة جوته وادبه ، والدكتور عوض لا يكتفي بأن يقرأ سيرة جوته كما يكتبها المؤرخون بل يعمد الى مؤلفاته نفسها يقرأها ويعيد قراءتها ، ليتملى ما فيها من جمال وروعة وحكمة وفلسفة . ولا غرو فمترجم فوست لا يستطيع ان يفعل ما هو دون هذا من العناية

بآثار هذا العبقري العالميّ . وها هي ترجمة « هرمن ودروثيه » تثبت لنا ان الدكتور ماضٍ في عنايته بآثار جوته لا يثنيه ما يلقاه قارىء جوته من صعاب وغوامض. بل ان الترجمة الناصعة التي بين ايدينا تبين انهُ تغلب بالعزم والذكاء على الصعاب فتخطاها وعلى الغوامض فاجتلى حقيقتها . وقد وضع الدكتور طه حسين فصلاً ادبيًّا بليغاً في تقديم هذه الرواية ، حبذا الحال لو ان المقام اتسع لنشره برمته او لاقتباس اهم ما جاء فيه . فنكتفي بجملة قالها في وصف ابطال غوته. قال في صفحة ٣ من المقدمة :

ابطال جوته كأبطال هوميروس . فيهم سذاجة حلوة .وفيهم دعة كلها عذوبة . وفيهم على ذلك شدة فيما لا بدَّ من الشدة فيهِ . يتحدث بعضهم الى بعض فيمزجون اغراض الحياة اليومية بهذه الحكمة الشعبية الخالدة .ويصورون لك انفسهم في هذا الحديث . وهم اذا تحدثوا احيوا من حولك كل شيء . وأجروا الحركة في كل شيء . واشركوك معهم ومع الاشياء في هذه الحركة وهذه الحياة . وهم لا يحبون ما نألفه نحن من الايجاز في الحديث والاعراض عما لا حاجة اليه ولكنهم يلمون بكل شيء ويفصلون كل شيء ويكشفون لك من اشياء قيمة في هذا التفصيل الذي كنت ترى ان لا حاجة اليهِ»

وبعد فعندنا ان ترجمة الخالد من آثار الادباء النوابغ في الغرب ، ترجمة امينة بليغة — كترجمة الدكتور عوض — خير وسيلة لدرس الادب الغربي وتلقيح الادب العربي بخير ما انتجته القرائح في الغرب. وان الاكتفاء بالتلخيص وترجمة الشذوذ لا يحقق هذين الغرضين

الامواج

نظم احمد الصافي النجفي يقع في نحو ١٤٧ صحيفة من القطع المتوسط

لسنا نتردد « في حسبان هذا الكتاب من البواكير الجيدة التي تدل على رغبة الشعر العراقي في التخلص والانفكاك من اغلال الشعر التقليدي الذي لا يزال غالباً على شعر هذا القطر العربي الاصيل . وكم كنا نود وقد نجا الاستاذ النجفي او كاد ينجو من أسر التقليد العربي ان لا يقع تحت تأثير ما . غير اننا مع احساسنا بطبعهِ الحر نشعر ايضاً بالروح الفارسية تطالعنا في جانب كبير من شعره . ولا شك أن هذا الاثر قد جاءه من طريق اتقانهِ للفارسية وولعه بمطالعة الخيام . وقديماً نفذت الروح الفارسية الى اساليب البيان العربي ولاسيما في شعر ابن المعتز ولكننا الآن نجد هذه الروح الفارسية محاكية لشاعر بالذات هو الخيام في الغالب والفردوسي. اما في شعر بن المعتز فهذه الروح الفارسية لا نجدها محاكية لشاعر بعينه وانما نلمحها هناك لمحاً شائعة في ادب عام هو ادب الفرس الرقيق . وليس هنا موضع استقصاء هذا البحث وانما نريد الاشارة اليهِ لا غير. على ان تأثر الصافي بالروح الفارسي لم يقف بهِ عند حد تقليد الفرس

وحسب بل قاده ايضاً الى محاكاة ابن المعتز فهو يقول في قصيدة الشاي (مذاب عقيق صب في كأس جوهر) ونجد ابن المعتز يقول في شيء قريب من هذا ان لم يكن هو

وممنطق يسعى الى الندماء بعقيقة في درة بيضاء

وطبيعي ان محاكاة الصافي لابن المعتز طبيعية ما دام ان الاخير كان هو الشاعر الوحيد الذي غلبت عليه هذه النزعة الفارسية حتى كاد يعد في شعراء المتقدمين صاحب لوائها

اما الروح السائدة في هذا الكتاب فهي الروح الشعبية التي تعم الاقطار العربية الآن وتستطيع أن تلمح ذلك مجسماً في قصيدة الفلاح ولعل ذلك ما حدا بالناظم الى الابتداء بها. كذلك لغة الديوان واكثر اخيلته ومعانيه فقلما يرتفع الناظم في ذلك كله عن الشعب. خذ مثلاً قصيدة اليتيم وانظر كيف تصور لك بؤسه وانا واثق انك لن تجد في هذه القصيدة الطويلة الا وصف البؤس المادي الذي لا يخرج عن حزن اليتيم لاجل لعبة يلعب بها . او ثوب يفرح بهِ . وهذا حسن ولكن الذي ليس بالحسن هو أن يسكت الشاعر عند هذا الحد المادي كأن بؤس اليتيم وشقاء اليتم هو في الفقر الى المال لا غير إما فقد الحنان الابوي في ذاته اما الحزن الممض المبهم الذي يصيب روح اليتيم فيكسو وجههُ صفرة حائلة لا يعرف لها مأتى اما هذا الالم النفسي الذي تحس به روح اليتيم قبل ان يدركه عقله كل هذا فليس له نصيب في هذه القصيدة لا لشيء الا انها الروح الشعبية العامة في بلاد العرب وهي هي هذه الروح الحسية المادية التي يجب على الشعر ان يعالجها في اول ما يطالب من اغراض

على ان الاستاذ الصافي عند ما يمسُّ الموضوع الذي ينظم فيه نفسه واوطاره فانه محلق بك الى سماوة الشعراء المجيدين وناهيك بقصيدة (سراجي) وشرعك بالقصيدة التي جعل عنوانها (ماسم هذا اليوم) فانها والحق يقال جمعت اهم عناصر الشعر المختار فهي في مبناها ومعناها وغايتها تدنو بصاحبها الى غاية الشعر العالي الذي يذهب اليه

ولا يسعنا الا استرعاء القراء استرعاءً خاصًّا الى ما جاء في هذا الكتاب تحت عنوان (انغام مشوشة) فلعل تحت هذا العنوان احسن النظم الذي في هذا الكتاب «زهير»

رواية مريض الوهم

هي رواية تمثيلية هزلية أدبية مضحكة اصدرتها مكتبة صادر في بيروت وهي من مؤلفات موليير الروائي الفرنساوي الشهير وتعريب الشاعر الناثر الياس ابو شبكه . ثمنها سبعة فرنكات خالصة اجرة البريد ترسل حوالة بوسطة باسم سليم ابراهيم صادر صاحب مكتبة صادر في بيروت صندوق البريد رقم ١٠

الفكر والعالم

مجموعة دراسات اجتماعية وأدبية مذيلة بدرامة ــ بقلم ابراهيم المصري ــ في ٢٩٢ صحيفة قطع متوسط ــ نشرته مكتبة سابا بمصر

الفكر والعالم قوتان تحاول كل واحدة منهما أن تصرع الاخرى ، وفي صحائف التاريخ صور رائعة لهذا النضال ، فأبطال الفكر يقومون بنشر آرائهم فيجدون في العالم قوة جامدة تحاول أن تصدهم فلا يخضعون لها ويمضون في سيرهم حتى يصطدموا بتلك القوة فتحطمهم . وهنا يغطى الستار الذي يسدل على حياة الضحية وراءهُ مشاهد أروع فاذا ارتفع الستار بعد حقب وجدت تلك الافكار التي حاولت ضحيتها أن تذيعها قد صرعت العالم وصبغته أو كادت تصبغه بلونها

وكتاب ابراهيم المصري الأخير « هو صور عابرة من ملايين الصور لبعض وجوه هذا الصراع الأبدي » وقد عالج فيه بعض المواضيع التي تشغل العالم الآن فهو في مقاله «معنى الحضارة» يرى أن الحضارة وهي تتلخص في ظاهرتين : رغبة الانسان في حاجات متعددة ، والعمل الذي يقوم به لقضاء هذه الحاجات . يراها لا تستقيم إلا بظاهرة أخرى ولا توجد إلا متى توافرت عناصرها وهذه الظاهرة هي الاحساس بالحق . ولانعدام هذه الظاهرة يرى ان الحضارة الحديثة ناقصة لأنها ماتزال أنانية النزعة لاتقيم للاعتبارات الانسانية كبير وزن ومن هنا تنشأ العطلة ويتفشى الفقر ... وفي مقاله « الحضارة والآلات » يعرض للموضوع الذي يراه بعض الكتاب في اوروبا وأميركا خطراً عظيماً تهدد فيه الآلاتُ مستقبلَ الحضارة ومصير البشرية ، فهو يرى ان الاضطراب الذي نشهدهُ في العالم ليس المسئول عنهُ تلك الآلات وانما الاضطراب فينا فكما اخترع الانسان الآلة بعقله ففي وسع عقله ان ينظم انتاجها بحيث يفضي هذا التنظيم الى اجراء التعادل بين مطالب البدن ومطالب الروح . . . وفي بقية مباحث الكتاب « الفنون والآداب في عصر الآلات » و « اضطراب أوروبا » و « الفن والقوة » وغيرها يبدو ابراهيم المصري المطلع الذي يقرأ ثم يخرج برأي متزن

وقد وازن بين الكاتب الالماني اميل لدوج والكاتب الفرنسي اندريه موروى فيما يكتبان من التراجم ، فالأول له نزعة يغلب عليها الطابع الرومانتيكي فهو يبالغ في رسم العواطف والحوادث مضفياً عليها ثوباً من الخيال الشعري بعد أن يجسمها كما يفعل القصصيون ، أما الثاني فهو ينزع الى البساطة والدقة وتحري الحقائق التاريخية الممكنة والبحث عن مستندات تكشف عن بعض الجوانب الغامضة في حياة المترجم له وهو في ذلك لا يجبرك كأميل لدوج أحياناً على قبول تلك الشخصية كحقيقة مقطوع بها . . . وقد رسم المؤلف صوراً صغيرة ولكنها تبعث في القارىء تأملات طويلة صوّر فيها الشاعر بودلير والقصصي مارسيل

بروست — أما مقاله «غرام ميكل انجلو» فهو قطعة من الشعر كتبها من روحه ...

وابراهيم المصري أحد الكتّاب الذين يحرقون أنفسهم فيما يكتبون فتحس في كلماتهم نغمات لا تخمد ، ولهذا فهو دائماً يكتب ما يريد لا ما يريد الجمهور ، يحاول ان يرفع القارىء معهُ لا أن ينزل حيث القارىء

ودرامتهُ « نحو النور » التي تملأ حوالي ١٦٠ صفحة من هذا الكتاب في أربعة فصول هي دون مبالغة احدى روائع الأدب العربي الحديث والتي لو عُني بترجمة عيون أدبنا كانت إحدى هذه العيون . أحسّ كأن الكاتب يغني وهو يكتبها ، وأشعر كأنه قد كتبها بأعصابه يتمثل فيها صراع الفكر والعالم بأروع مشهد ... أديب يحاول أن يحرر أفكار اهل وطنه ، يحاول ان يرفع مستواهم ، يحاول غير ذلك من المُثل العليا وفي هذا السبيل يدوس على كل رغباته الذاتية او يشيح بوجهه عما يحاول صدّهُ من متاع الدنيا ويأبى العالم إلا أن يكون قاسياً فتتكالب عليه جميع عناصر قوته ، ويأبى أتون الألم إلا ان يكون ملتهباً الى النهاية لا يرحم الضحية التي تقدم نفسها طواعية اليه وتدبّ أفاعي الانسانية ظمأى الى دم الضحية نهمة تشتهي نهش لحمها وتتغلب القوة التي لا تعرف نظاماً أو واجباً فتسدل الستار على فجيعة مؤلمة ، ويخبو الفكر الذي اشتعل ولكن لن تموت مبادئه وانما تسري من وراء الستار في دم العالم حتى يثوب الى رشده فيظهر أثرها

غير أني ما زلت أعثر على تعبيرات أشرت الى مثيلاتها عند ما كتبت في العام الماضي هنا عن كتابه « الأدب الحديث » وقلت ان هذه التعبيرات التي سرت اليه من مطالعاته في الأدب الفرنسي قد لا تتفق وأظنها لن تتفق مع روح الادب العربي ، ولست في هذا بالجامد وانما أنا من المولعين بتلقيح أدبنا بما يمكن وما يصلح من غيره إلا ان أمثال هذه التعبيرات كالنكتة لا تصلح في الطبقة «البلدية» منها ما تصلح في الطبقة الراقية . وقد حاولت أن أجد في مقاله « فن الاسلوب» ردّاً على هذا فلم أجد إلا حجة ضده فهو يؤاخذ من يطالبون الكاتب بأن يصطنع التعبيرات التي مشى عليها الجاحظ والجرجاني وابن المقفع والمبرّد وغيرهم ويرى أن « المطالعة ان هي ربت في الكاتب ملكة اللغة وزوّدته بالمحصول اللفظي الذي هو في حاجة اليه فهي لا تخلق أسلوبه وكذلك السطو على التراكيب العربية لن يموّه على الناس ان الكاتب صاحب شخصية مستقلة وأن له اسلوباً » ويرى انه « يجب ان يقف الكاتب على جميع الأساليب ويشربها نفسه ويتغذى بها ثم يهضمها ويبدع منها أسلوباً حيًّا طريفاً لا يمت لأحد منها بصلة »

وهنا أسأله أما تمتّ هذه التعبيرات الى شيء آخر بصلة ما ؟ يجب ان نجدد وان نبدع تعبيرات مبتكرة أو مأخوذة ولكنها تتلاءم وروحنا الأدبي

حسن كامل الصيرفي

مقاليد الكتب

١ — كتاب « حافظ وشوقي »

تأليف الدكتور « طه حسين » مطبعة الاعتماد سنة ١٩٣٣

الدكتور طه حسين رجل غير مجهول حتى نعنّي انفسنا ونعنّي القراء معنا بالقول في آثاره الأدبية الكثيرة والتي استفاضت في هذه المدة الاخيرة اكثر من ذي قبل . وكتابهُ هذا فيه آراءٌ لهُ كثيرة مشهورة لانهُ مجموعة مقالات نشرت قديماً وحديثاً أحبَّ الدكتور طه ان يذيعها بين الناس في كتاب يسهل تناولُه اذ كانت مشتّتة في الجرائد والمجلات التي نشرت فيها . وليس هذا الكتاب كما يُفهم من عنوانهِ — كتاباً في حافظ وشوقي ليس فيهِ غيرهما . لا . . . . . بل كما سمّيت مختارات أبي تمام بالحماسة لان الباب الاول من ابوابها الكثيرة هو باب الحماسة فكذلك سمي الدكتور كتابه هذا باسم « حافظ وشوقي » بالمقالات الاخيرة فيهِ عن حافظ وشوقي ، ولأنهُ صدر بعد الحدَث الذي اشتغل بهِ العَالَم العربيُّ بموت هذين العَلَمين في الادب . ومقالات الدكتور طه التي في هذا الكتاب لا تحتاجُ إلى كلامنا فانما هي مقالاتهُ التي احبهُ كثيرون من اجل آرائه فيها وتحامل عليهِ آخرون من اجل هذه الآراء . فليس من الرأي ان نتناولَ هذا الكتابَ في باب المكتبة لان ما فيهِ من الآراء يحتاجُ في نقده الى إطالة وتوسُّع تضيقُ بهما هذه الصفحات القلائل

٢ — كتاب الرثاء

في شعر ابي تمام ، والبحتري ، والمتنبي — تأليف أديبة فارس — مطبعة الاعتدال بدمشق الشام

هذا الكتاب (رسالة اجتازت بها مؤلفتها امتحان شهادة الآداب العليا بالجامعة السورية سنة ١٩٣٢) وقد اجادت الآنسة الاديبة « أديبة فارس » فهم الشعر الذي تعرضت لهُ . فاختارت من شعر ابي تمام قصيدته في رثاء ولده التي اولها

كان الذي خفت ان يكونا   انا الى الله راجعونا

ومن شعر ابي عبادة البحتري قصيدة في رثاء خليلهِ جعفر المتوكل الخليفة العباسي المقتول وأولها

محلٌّ على القاطُول أخلَقَ دائِرُهْ   وعادت صُروف الدهر جيشاً تُغاورهْ

ومن شعر ابي الطيب المتنبي رثاءه لجدتهِ الذي اوله

ألا لاَ أُري الاحداثَ مدحاً ولا ذمَّا   فما بطشها جهلاً ولا كفُّها حلما

وقد وضعت المؤلفة الموفقة القصائد تامة في اول رسالتها مع ترجمة مختصرة لكل شاعر من هؤلاء الثلاثة ثم اتبعت ذلك بكلامها وفهمها وبحثها في الرثاء ما هو وقد اجادت. ثم اخذت كل قصيدة بمفردها فنظرت فيها وفي بلاغة الرثاء فيها نظراً جيداً وتكلمت على ابيات كلٍّ منها وموضع الاحساس في ابياتها وعارضت بين الشعراء الثلاثة معارضة صادقة. والذي يفرحنا من

هذه الرسالة ان مؤلفتها امرأة ، ثم امرأة متعلمة ، ثم اديبة ، ثم ناقدة . وقلَّ ان تجدَ في النساء الاديبات اللواتي يفرغنَ للادب ولذتهِ وهمّهِ ايضاً . وللآنسة اديبة فارس ، اسوة بجدَّتها سُكينة بنت الحسين رضي الله عنها التي استخذت لنقدها وبصرها بالأدب فحول الشعراء من الاولين كعمر بن ابي ربيعة ونُصَيب الاسود وجميل العذري وكثيّر عزّة الخزاعي وغيرهم من شياطين الشعر . وللآنسة « اديبة » فكرٌ جيد في فهم الالفاظ العربية ومواقعها من الكلام واين هي من معانيهِ المقصودة التي توافقها . وهذا اول اثر نراه لها فنسألها ان لا يستغرّها ثناؤنا على كتابها هذا ان تطلب الاستزادة لتصحيح الرأي وتقويم الفكر واللسان والقلم . فان هذه اللغة الدقيقة العجيبة التي اختارها الله من لغات الناس لكتابهِ المُحكَم صعبةٌ شرود لا يصبر على معارفها ومجاهلها الآمن أُوتي جَلَداً لا يستضعف ، ورزق من دقة الاحساس نصيباً وافراً لا ينفد. وهذه الكتب العربية التي انقطعت بيننا وبينها الاسباب فاستعجمت على كثير منا تحتاج الى اجتهادٍ وجدٍّ حتى يعرف طالبها اسلوبها وما تنطوي عليهِ من معاني الجمال والفن كما يقولون الآن . ولنا اكبر الامل في هذه الاديبة الناشئة ان تكون من اللواتي يذكرهن تاريخ العربية من النساء بأجمل الذكر

٣ — كتاب الخط الكوفي

تأليف الاستاذ يوسف احمد مدرس الخط الكوفي بمدرسة تحسين الخطوط الملكية بالقاهرة

لقد أتى على الخط الكوفي القديم زمنٌ والناس لا يعرفون منهُ الا اسمهُ ، ويرونهُ في المساجد ولا يحسن احدهم أن يعرف ألفهُ من يائهِ . ومن المخزيات ان لا تعرف الامة آثار آبائها واسلافها ، فانظر اي شيء هو حين لا تعرف الخط الذي بهِ تعرف ما هي آثار آبائها وأسلافها . وكان من فضل بعض الناس علينا أن نشروا آثار اسلافنا ، وكان من فضل الاستاذ يوسف احمد على العربية ثم علينا أن رمى بنفسهِ في ظلمة الآثار البالية حتى استنارت بعلمهِ في معرفة اصول الكتابة الكوفية القديمة وتولى قراءة ما بقي لدينا من آثار آبائنا العرب. وهاهو قد أخرج للناس الكتاب الصغير الجرم العظيم الفائدة جعلهُ موجزاً وذكر فيهِ رأي مؤرخي العرب في اصل الكتابة العربية ثم اشتقاقها من الخطوط سابقتها وما حدث من التغير والتبدل والتدرُّج في الخط الكوفي وما تلاهُ من انواع الخطوط العربية وأردف ذلك بأمثلة وصورٍ كثيرة للخط الكوفي . ونأمل ان يخرج المؤلف كتاباً مفصلاً في هذا وما ذلك على مثله بعزيز

٤ — صلاح الدين وشوقي

تأليف محمد اسعاف النشاشيبي ، مطبعة بيت المقدس بالقدس سنة ١٩٣٢

الكلمة الاولى فيهِ عن شوقي رحمهُ الله وقد قيلت في تأبينهِ ببيت المقدس والاخرى عن صلاح الدين فخر الامارة الاسلامية والحكم الاسلاميّ ورجل العدل والامانة وقيلت في مدينة

حيفا من فلسطين يوم ٢٥ ربيع الثاني سنة ١٣٥١ وذلك في ذكرى موقعة حطّين في الحرب الصليبية . والكلام يتوجه فيهما — كما قال صاحب الكلمة — الى نصارى الغرب الذين يسومون الشرق سوء المعاملة لا الى مواطنينا من اهل الكتاب من نصارى العرب . وفي الكلمتين المذكورتين روح اسعاف النشاشيبي بعروبتها واخلاصها للعرب والشرق ، واللغة العربية الصحيحة التي توفر على دراستها فأجادها وصار من بلغائها وخطبائها

٥ — كتاب الشخصية

تأليف السيدة « للى ألن » ترجمة الآنسة « دلال صفدي » مطبعة العرفان بصيدا سنة ١٩٣٢

يعنون بكلمة « الشخصية » ما كانت تعني العرب قديماً بكلمة « السؤدد » و « السيادة » وذلك ان يكون في خلق الرجل من المروءة وبعد الهمة والتواضع والاخلاص والورع عن دنيّات الامور والحلم والتغابي لا عن غباء والصمت لا عن عِيٍّ ما يسود بهِ في بيتهِ ثم عشيرته الاقربين ثم الذين يلونهم حتى يكون سيداً مطاعاً في امة أو أمم او وعقلاً محترماً في جيل او أجيال . وكانوا قديماً يطلبون الاخلاق التي هي طريق السؤدد لانها من المروءة ، وقد ألفوا قديماً كتباً كثيرة في ذلك . واليوم تهتم امم الاعاجم من اوربا واميركا بالبحث عن اصول تكوين الشخصية وكيف يتيسر للرجل من الناس ان يكوّن لنفسهِ شخصية وقد ألفوا في هذا كتباً كثيرة خلتْ من مثلها العربية في هذا العصر. ولم أقف الاّ على كتابين بالعربية في موضوع الشخصية وثالثهم هذا الكتاب الذي ألفتهُ امرأة وترجمتهُ امرأة . وعلى صغر هذا الكتاب فان لهُ فائدة كبيرة . وقد ترك في نفسي اثراً قويّاً لا اقول لانهُ جيد جدًّا ولكن لانهُ أثار في نفسي الرغبة في الاستزادة من هذا البحث . ولولا ضيق المقام وان ابواب نقد الكتب في مجلاتنا لا تحتمل الاطالة والتوسع لاتّسع لي مجال القول في تفصيل الرأي في معنى الشخصية حديثاً ومعنى السؤدد قديماً والفرق بين الطريقين واي السبيلين اهدى واقوم ولاستطعنا ان نبين الرأي في تأثير المدنية الاوربية الطاغية في العلوم والآداب والاخلاق . . . . إلى آخر ما يقال في هذا الشأن

ونقول في هذا الكتاب ان ترجمتهُ لا بأس بعربيتها من آنسة ، ونودُّ ان نرى لها آثاراً قوية خيراً من هذا الاثر وبخاصة في مثل هذا الموضوع « الشخصية » الذي يرجع اكثره الى المرأة فانها هي مربية العالم من المهدِ الى اللحدِ وهي المدرسة التي يتخرج عليها عظماء الرجال وقد قيل لأم معاوية بن ابي سفيان حين رزقت بولدها معاوية : « ليسودنَّ قومه » فقالت: « ثكلتهُ ان لم يسدْ الاَّ قومه » فما هدأت فتنة دم عثمان رضي الله عنهُ حتى وضع معاوية يده سيداً مطاعاً على اعظم امة في ذلك العصر ... وذلك بفضل امهِ وما اخذتهُ بهِ من ادب حتى ضرب بهِ المثل في المروءة والحلم

٦ — كتاب امير الشعراء شوقي

جمع وترتيب « محمد خورشيد » استاذ الادب العربي بمدرسة النجاح بنابلس مطبعة بيت المقدس

كان شوقي وقد (ملأ الدنيا وشغل الناس) كما قالوا في المتنبي ، فلما ذهب بهِ وانطفأ السراج واظلم البيت امتلأت الدنيا بهِ مرة اخرى وقد خلت من شخصهِ وشغل الناس بذكره فاضطربوا وخاضوا بالقول فيهِ ونشر ما قيل فيهِ في جرائد العربية ومجلاتها في انحاء العالم وصارت شتاتاً لا يجمعهُ الحصر قام كثير من الناس يجمع شتات ما قيل في شوقي ، فأول ما وصل الينا من ذلك هذا الكتاب وقد جمع فيهِ جامعه ما اختار ممّا نشِرَ عن شوقي ونسبَ مااختارهُ الى الجرائد والمجلات التي اختاره منها فكانت همة مشكورة لهُ وقدّمهُ بمقدمة جيدة في شوقي وحياتهِ

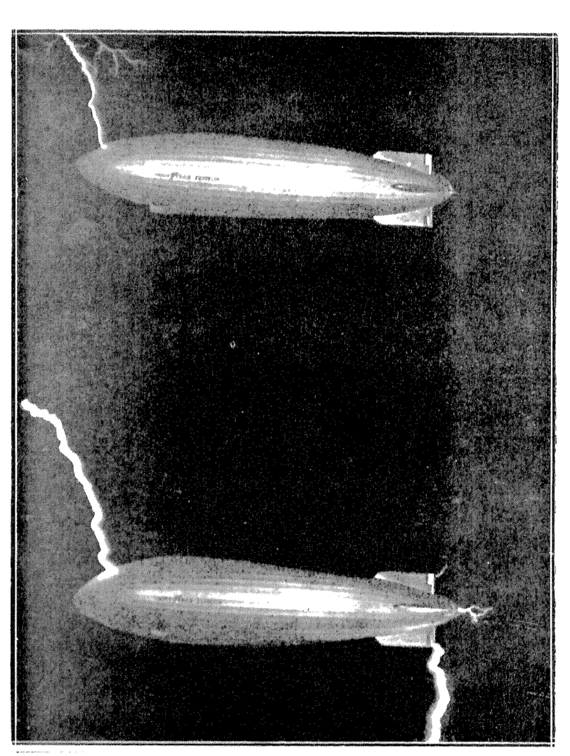
محمود محمد شاكر

كتاب ٢١ صناعة تغنيك

لقد أحسن الاستاذ حسني يوسف صاحب جريدة « لسان الشعب » بمصر اذ اخرج هذا الكتاب الذي يحتوي على « ٢١ صناعة تغنيك وتعلمك مختلف الصناعات والفنون بأسهل طريقة » فهو دعاية طيبة للصناعات وخطوة اولى في سبيل تركيزها في الاذهان . ومما يزيد في فائدة الكتاب انه سهل الأسلوب وقدعُني به من حيث الترتيب والتبويب، فهو مفيد للعمال والصناع وربات البيوت ويطلب من مؤلفه بالمبيضة رقم ٨ بالجمالية وثمنه ١٥ قرشاً

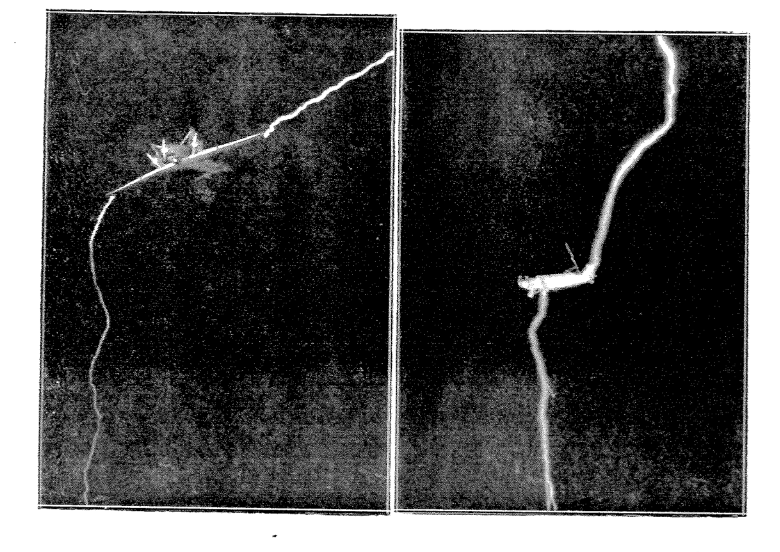
المطبوعات الجديدة

نقرُّ اننا لم نشهد في خلال السنوات العشر الماضية نشاطاً في تأليف الكتب وطبعها كالنشاط الذي نشهده اليوم رغم الضائقة المالية الآخذة بالخناق . ولكنّ الفكر الحرّ لا يحفل بالضائقة، بل قد تكون الضائقة حافزاً لهُ على الابداع والانتاج . لذلك نظلُّ مقصرين عن اللحاق بسيل المؤلفات التي تخرجها المطابع . وقد تناولنا في هذا الشهر نحواً من عشرين كتاباً بين اسهاب وايجاز وعلى الرفّ امامنا عشرون اخرى او تزيد نشير بوجهٍ خاصٍ الى ﴿ علم النفس ﴾ في جزئين تأليف الاستاذ حامد عبد القادر والاستاذ محمد عطية الابراشي . وقد اشترك معهما في تأليف الجزء الاول الاستاذ مظهر سعيد . وثمة كتاب آخر في علم النفس النظري والتعليمي للاستاذ مظهر سعيد. وكتاب ﴿ فن الصحة ﴾ للطبيب الجراثيمي احمد حمدي الخياط . وكتاب ﴿ الامراض المعدية في الاقطار العربية ﴾ للدكتور حبيب صادر . وكتاب ﴿ حضارة مصر الحديثة ﴾ وهو مجموعة فصول لكبار الكتاب واصحاب الرأي في مصر جمعتهُ الجامعة الاميركية في القاهرة واخرجتهُ المطبعة العصرية . وبحثان في ﴿ تطور الصناعات المصرية ﴾ و « واحة سيوه » للدكتور حسين علي الرفاعي المفتش الاقتصادي بمصلحة التجارة والصناعة . كل هذه الكتب وغيرها مما اهدي الينا ستحفل بذكرهِ مكتبة المقتطف في الجزء القادم ان شاء الله

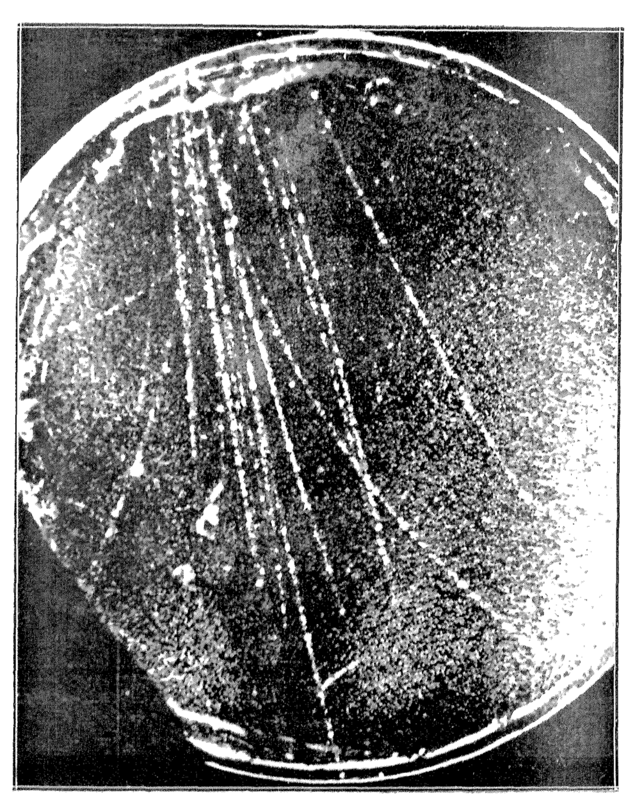


أثر البوارق في البلونات

فصلت الصحف اليومية الفاجعة التي حلت بالبلون الاميركي الضخم « اكرون »
وهذه الصورة تمثل تجارب جربت ببلون يمثل «الغراف تسبلين» ليعرف ما يحلُّ
بهِ اذا اصابته شرارة برق وهو طائر. ففي الصورة السفلى يرى كيف اصابته الشرارة
في مقدمهِ فسرت في هيكلهِ الى ذيله ثم اتصلت بالارض. وقد ثبت من التجارب ان
البلون لم يصب بأذى كبير



مثال آخر للتجربة المذكورة في الصفحة السابقة ولكن الطيارة حلّت في هذه التجربة محل البلون



الصورة التي أُثبت بها وجود « الالكترون الموجب » او «البوزيترون»

مقتطف مايو ١٩٣٣ امام صفحة ٦٣١

باب الأخبار العلمية

الالكترون الموجب

أو « اليوزيترون »

ذكرنا في مقتطف مارس الماضي ، في باب الانباء العلمية ، ان الدكتور بلاكت حقق هو والدكتور أُكيَلْيني ، في معامل كافندش بكمبردج ، ما كان قد ذهب اليهِ الدكتور كارل اندوسن أحد اساتذة جامعة كاليفورنيا في سبتمبر الماضي ، من وجود الكترون موجب

واذن فالبساطة التي صحبت النظرية الالكترونية في بدئها قد زالت ، اذ كنا نحسب الذرَّة كنظام شمسي فيهِ نواة في الوسط والكترونات اوكهارب تدور حواليهِ . وقد اصبحت لبنات الكون الاساسية اربعاً على ما نعرف الآن فثمة « البروتون » وهو نواة ذرة الايدروجين . وثمة الكهرب او الالكترون وهو ذرَّة الكهربائية السالبة . وثمة النيوترون الذي اكتشف في السنة الماضية وهو يحسب الآن بروتون واحد والكترون واحد وقد حُشِكا معاً حتى كادا يتحدان . وثمة الفوتونات وهي ذرَّات النور او الطاقة . وهاهو ذا الالكترون الموجب أو اليوزيترون قد اقبل متشحاً بجلالة التصريح العلمي . ومن يدري ما يتبعهُ . ويضيف بعضهم الى ذلك دقائق « الفا » وهي الدقائق التي تنطلق من الراديوم ومنها تتألف نواة ذرة الهليوم . ولكن ما يربط هذه الدقائق معاً حتى تتألف منها نواة الهليوم؟

البروتون والالكترون دقيقتان من كهربائيتين مختلفتين الاولى موجبة والثانية سالبة . ولكن كتلة البروتون تزيد ١٨٤٥ ضعفاً على كتلة الالكترون فكل كتلة الذرة تقريباً هي في البروتون . جرِّد الذرة من الكتروناتها فتبقى كتلتها ما كانت عليهِ قبل تجريدها تقريباً

والبروتون كما قلنا هو نواة ذرة الايدروجين ولكن الالكترون لا يمكن تعريفه بنسبتهِ الى اية ذرة واحدة دون غيرها

ففي امكان الباحث ان يولد تيارات من البروتونات ولكنهُ اذا وزنها وجد وزن كلٍّ منها يقابل وزن ذرَّة من الايدروجين . فيخطر على البال بداهة ، ان الالكترون « كهربائية » مجرَّدة وان البروتون مادة عليها شحنة كهربائية . ولكن فصل الشحنة الكهربائية عن البروتون ظلَّ متعذراً حتى قام اندرسن وبلاكت وأُكسيليني بتجاربهم الخطيرة . والشحنة الكهربائية التي

تجرّد من بروتون واحد هي ما يعرف بالالكترون الموجب أو اليوزيترون. فالبروتون ليس صنو الالكترون في تركيب الذرة ولكن البوزيترون هو صنوهُ حقيقة

***

اذا قال الطبيعي ان كتلة البروتون تزيد ١٨٤٥ مرة على كتلة الالكترون واجه مسائل معقدة كثيرة يثيرها هذا القول. لماذا تفوق كتلة الاول كتلة الثاني ١٨٤٥ ضعفاً لا الفي ضعف او ٢٥٠٠ ضعف او ٣٠٠٠ آلاف ضعف او اي عدد آخر؟ ولا ريب اننا اذ نصطدم برقم كهذا في موضوع اساسي كموضوع بناء ذرة الايدروجين لا بدّ ان يكون لهذا الرقم معنى خاص. فما هو هذا المعنى الخفيّ؟ لعلّ اكتشاف الالكترون الموجب او اليوزيترون يمكننا من الاجابة عن هذا السؤال

كان من المتعذر حتى الآن ان يفصل الطبيعيون البروتون عن شحنتهِ الكهربائية الموجبة. لذلك تعودوا ان لا يفرقوا بين البروتون — وهو نواة ذرة الايدروجين — وبين شحنتهِ. اما وقد اثبت اندرسن وبلاكت ان الشحنة الكهربائية على البروتون مستقلة، فقد ارغما العلماء على النظر الى الموضوع نظراً آخر

فالمعروف ان كل عنصر من العناصر تقريباً مزيج. فثمة نوعان من الايدروجين ممتزجان معاً في الغالب. وثمة نوعان من الكلور. كذلك البوتاسيوم نوعان احدها مشع والآخر غير مشع. وهذه الانواع تعرف بالنظائر Isotopes ومعنى لفظة ايسوتوب ان نوعي الايدروجين يحتلان مكاناً واحداً في جدول العناصر. فنوعا الايدروجين يحتلان المكان الاول ونوعا الكلور يحتلان المكان السابع عشر. وفي جدول العناصر بحسب ترتيب موزلي يوجد ٩٢ مكاناً

وكيف يعين مكان العنصر في هذا الجدول؟ يعين بالشحنة الكهربائية التي على نواته. ولما كان نوعا العنصر الواحد يحتلان مكاناً واحداً في الجدول فيجب ان يكون عدد الشحنات الكهربائية على نواتيهما واحداً. ولما كانا يختلفان وزناً ولا يختلفان في عدد شحناتهما فهذا دليل على ان بناء النواة يمكن ان يتغير ولكنهُ يظلُّ محتفظاً بعدد واحد من الشحنات الكهربائية عليها. وليس ثمة من يعلم كيف تبنى النواة. ولعلّ في اكتشاف اليوزيترون سبيلاً الى جلاء هذا السرّ

***

ولما كان معنى «الكترون» وحدة الشحنة الكهربائية سواء أكانت موجبة او سالبة اقترح احدهم ان يدل الالكترون الموجب «پوزيترون» Positron ويطلق على الالكترون السالب وهو ما كان معروفاً حتى الآن بالالكترون فقط لفظ «النجاترون» Negatron

كبد السمك

نشر الدكتور دايڤدسن الاستاذ بجامعة ابردين رسالة في المجلة الطبية البريطانية صرّح فيها ان لاكباد السمك فائدة عظيمة في علاج الانيميا الخبيثة. والاسماك التي جرّب فعل

اكبادها في علاج الانيميا هي البقـلـة (Cod معجم لحيوان للاب انستاس الكرملي) والحـسـاس(Haddock معجم شرف) وضرب آخر يدعى whiting واسمـهُ العلمي Gadus Vulgaris فيصحّ ان يترجم بالبقلة المألوفة ، اذا جارينا معلوف باشا والاب انستاس على استعمال بقلة لـ Gadus

قتل الميكروبات بالبرد

يؤخذ من التجارب التي جرّبت حديثاً في جامعة تورنتو بكندا ان البردَ الشديد لا يقتل البكتيريا . فقد أُخذت طائفة منها ووضعت في اناءٍ يحيط بهِ الهليوم السائل — ودرجة برده ٤٥٠ درجة تحت الصفر بميزان فارنهيت وهي نحو ٢٦٨ درجة مئوية تحت الصفر — وظلّت هذه الميـكروبات بضع أسابيع في الاناءِ المذكور ثم اخرجت فثبت انها تتوالد والتوالد آية الحياة او احدى آياتها . وهذه التجربة تدلُّ ، على ان البرد الشديد في رحاب الكون لا يميت بعض اشكال الحياة الدنيا في انتقالها خلال هذه الرحاب على مطايا من الغبار الدقيق . ثم انها تدلُّ على ان البرد الشديد يحفظ الاطعمة من الفساد ولـكنهُ لا يميت مكروبات الفساد التي فيها

الحرب العالمية والثورات

[تابع مقال القضايا الاجتماعية]

ثم لما نشبت الحرب العالمية اضطرت الدول المتحاربة الى الاستعانة بكثير من المتحدات والنقابات والجمعيات حتى اذا عقد السلم وارادت هذه الدول الرجوع الى ما كانت عليهِ قبل هذه الجزرة الغزيرة وجدت نفسها امام جموع منظمة ذاقت لذة الاشتراك في الحكم وعرفت قيمة الخدمات التي ادتها للدولة لذلك لم يكن من المتيسر الخلاص من سلطتها بل ان الحرب زادت هذه السلطة قوة على قوة

وما جفّت دماء القتلى في الميادين الا والامة الالمانية في ثورة لا تدري ماذا تصنع ، ذلك لان الامبراطورية الجرمانية التي قامت على تعاليم (هيجل) وانبسطت على مبادىء (فريدريخ نيتشه) العنيفة انهارت ، فلما ارادت ان تتماسك لم تجد امامها مستنداً غير الطريقـة البرلمانية لا لانها خير الطرق واجمعها للمذاهب المشتتة بل لانهُ ليس في الميدان غيرها ،وقد غادر انهيار الامبراطورية الهيجلية فراغاً في ذهن الالمانيين لما يمتلىء ، وقد اظهروا في انتخاباتهم المتكررة انهم غير راضين عن الحكم الديمقراطي ، وآخر تجاربهم وأهمها تسليم مقاليد الامور لهتلر زعيم (النـازي) وهي الفاشستية الالمانية ، وفي عقيدتي ان هذه التجربة ستجد اقبالاً عندهم وتأييداً عظيماً لانطباقها على ميراثهم الفلسفي الوطني من جهة وللاءمتها للتدرج الحاضر من جهة اخرى ، على ان التكهن بمصير العمال في بلاد صناعية كالمانيا حافلة بهم امر متعذر ولا بدّ لـكل حكومة تؤلف هناك من العناية بشأنهم والالتفات الى مصالحهم ولعل في ذلك ما يحول دون خطرهم على الوضع الحاضر

الجزء الخامس من المجلد الثاني والثمانين

صفحة

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها ادارة المطبعة العصرية بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

صندوق بوستة ٩٥٤ مصر تليفون رقم ٩٧٣٦٥

م

٣٠ القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠ القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثالثة)
٣٥ القاموس العصري عربي انكليزي (طبعة اولى)
٧٠ القاموس العصري عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥ القاموس المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠ قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠ قاموس الجيب عربي انكليزي فقط
١٥ قاموس الجيب انكليزي عربي فقط
٧٠ » سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠ » سقراط سبيرو انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠ » سقراط انكليزي عربي وبالعكس
١٠ التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢ الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٥ في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠ عشرة ايام في السودان » » » »
١٢ مراجعات في الادب والفنون (للاستاذ عباس العقاد
١٥ روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد زعيتر)
١٥ روح السياسة » » »
١٠ الاراء والمعتقدات » » »
١٠ اصول الحقوق الدستورية » » »
٢٠ الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
٨ مقدمة الحضارات الاولى » »
١٠ الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥ ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
١٠ اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠ مختارات سلامه موسى
٨ نظرية التطور واصل الانسان » »
٢٠ اناتول فرانس في مباذله (الامير شكيب ارسلان)
١٥ الدنيا في اميركا (للاستاذ امين بقطر)
١٠ المرأة الحديثة وكيف نسوسها (حسين عبد الله)
١٠ حصاد الهشيم (للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني)
١٠ قبض الريح (» » » » »)
٨ نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠ رسائل غرام جديدة (للاستاذ سليم عبد الواحد)
١٠ الغربال في الادب العصري (للاستاذ ميخائيل نعيمة)
٥ حكايات الاطفال ، اول (مصور بالالوان)
٥ » » ثان » » »

م

١٠ التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فري)
٥ خواطر حمار (الاستاذ الجمل)
٥ التعليم والصحة
١٥ الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥ ذكراً وانثى خلقهم » » »
٥٠ علم الاجتماع (جزآن كبيران) » »
١٥ اسرار الحياة الزوجية » »
٢٥ المرأة وفلسفة التناسليات (للدكتور فخري)
٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها » »
١٥ الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي)
١٠ تاييس » » »
٥ مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠ القصص المصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠ مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢ رواية اهوال الاستبداد ، مصورة
١٠ رواية فاتنة المهدي ، او استعادة السودان
٨ رواية الانتقام المذب (اسعد خليل داغر)
٥ فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
١٢ رواية باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢ غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥ رواية روكامبول ، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥ رواية ام روكامبول ، ٥ اجزاء »
٢٠ رواية بارديليان ، ٣ اجزاء »
٢٠ رواية الملكة ايزابو ٤ اجزاء »
٢٠ رواية الاميرة فوستا ، جزآن »
٢٠ رواية عشاق فنيسيا ، جزآن »
١٦ رواية كابيتان ، جزآن »
١٦ رواية الوصية الحمراء ، جزآن »
١٢ رواية فلمبرج ، جزآن »
١٠ رواية فارس الملك »
١٠ رواية ضحايا الانتقام »
٥ رواية المتنكرة الحسناء »
٥ رواية مروضة الاسود »
٥ رواية شهداء الاخلاص »
٨ رواية المرأة المفترسة »
١٦ رواية دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠ » فرنسوا الاول » »

